من كُتّاب الشيخ مرسى إلى جامعة أكسفورد

محطات على مسيرتى الروحية

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
منشية الصدر- القاهرة
٢٠١٢م

وُلِدْتُ عام ١٩٤٨م فى اليوم السادس من الشهر الأول، ودخلتُ مبكرا الكُتّاب وجمعية المحافظة على القرآن الكريم بقريتنا كتامة الغابة التابعة لمركز بسيون بمحافظة الغربية. وفى البداية كنا نستعمل لوح الإردواز الأسود نكتب عليه الألفباء والكلمات الأولية بقطعة طباشير. وبعد أن نكبر قليلا نغادر اللوح الإردوازى إلى الدفتر وقلم الرصاص. أما حفظ القرآن فكان يتم سماعا، إذ كنا نظل نردد وراء المعلم ما ينطقه أمامنا من السور القصيرة جدا حتى نحفظها، ثم فى مرحلة لاحقة، حين تعلمنا القراءة والكتابة، كنا نستعمل اللوح الخشبى المدهون بالطلاء الزيتى الأبيض دون أن يفسره لنا أحد. وكنا نكتب على اللوح بالريشة التى نغمسها فى دواة الحبر الأسود ذات اللِّيقَة. وكلما حفظنا شيئًا مسحناه بالماء وقطعة قماش، ثم كتبنا عليه لوحا جديدا. أما ما نكون قد حفظناه من قبل فنقرؤه فى المصحف ذاته. وأذكر أننى، حين كنت أتعلم الألفباء بالجمعية المذكورة، كنت أجد عسرا شديد فى رسم الحروف، وبالذات حرف "اللام ألف"، فكنت أجتهد فى رسم صورة جوزة المعسّل على هيئة كرة مرشوقا قصبة فى كل من جانبيها. وبهذه الطريقة أنجح فى كتابة "اللام ألف" فأشعر بالرضا والحبور لهذا الإنجاز الخارق.

والطريف أن خطى صار جميلا إلى حد معقول فيما بعد حينما تعلمت الكتابة، تأثرا أغلب الظن بخط والدى رحمه الله. ولو كنت دخلت مدرسة تحسين الخطوط لكنت من الموفقين ولأصبحت الآن من الخطاطين المعروفين. أو هذا ما أتصوره على الأقل، وكل إنسان يظن نفسه موهوبا عبقريا، ولستُ فى تلك الحماقة بالذى يشذ عما تسوله الطبيعة البشرية لأصحابها. بل لقد انضممت إلى الدارسين بتلك المدرسة بشارع الألفى بطنطا فى أواخر عام ١٩٥٩م وأنا ولد صغير بالسنة الأولى بالمعهد الابتدائى الأزهرى قبل أن تتغير تسميته إلى "المعهد الإعدادى" عندما انتقلت إلى الفرقة الثالثة، وكنت أتردد عليها ليلا مع الطلاب

الكبار، ولكن بطريقة غير رسمية بفضل الشيخ عيد عطا صاحب الفضل العظيم فى تحميس جدتى وخالى لإرسالى إلى طنطا للتعلم كما سيأتى بيانه، رحمهم الله جميعا رحمة لا تغادر شيئًا لهم إلا محته محوا وحولته حسنات.

ولو كان لى أن أعتمد على ذاكرتى فى موضوع تحسين الخطوط لقلت إن الشيخ عيد عطا، وكان فى ذلك الوقت طالبا فى السنة الرابعة بمعهد طنطا الأحمدى، أراد أن ألتحق بالمدرسة المذكورة وأنا أنقل أول خطوة لى فى طريق التعليم فى طنطا، إذ كنت فى السنة الأولى الابتدائية الأزهرية (الإعدادية الآن) فى ذلك الوقت، إلا أن ميعاد التقديم كان قد فات، فأقنع المسؤولين، ببراعته المعهودة، أن يتركونى أحضر الحصص دون أن أكون مسجلا عندهم، وظللت أتردد على المدرسة نحو أسبوعين ثم توقفت. وما زلت أذكر ما كان يلجأ إليه المدرسون لتعليمنا قواعد الخطوط من نسخ وثلث ورقعة وفارسى وديوانى، إذ كانوا يعتمدون على عدد النقط التى يقاس بها طول الحرف أو جزؤه أو الفراغ الذى بين جزئى الحرف . . . إلخ. وقد أضحكنى ذات مرة ما قاله مدرس الخط الفارسى حين أراد أن يلفتنا إلى شكل الهاء فى أول الكلمة، إذ شبهها بقط ينظر إلى الخلف. وكلما خطر هذا التشبيه على بالى انتفض المنظر كله فى خيالى كأنه ابن البارحة، والمدرس واقف أمام السبورة، وقد انتهى لِتَوِّه من كتابة الهاء، وهو ينظر إليها ويقلد شكل القط فى نظرته إلى الوراء.

وكنت قد ذهبت إلى طنطا قبل ذلك بسنتين ومكثت مع أخى أياما لا أدرى عددها فى شارع القاضى، الذى كان يقوم فيه وحوله عدد من دكاكين الخطاطين: منهم حسان، وكان شابا له دراجة يأتى بها من منطقة سيجر فى الجنوب، وأبو العلا كبير الخطاطين وأفخمهم، وفريد، الذى كان يتعامل مع الخط بطريقته الخاصة فينهى مثلا حروف الواو والراء والزاى نهاية مفلطحة على هيئة ذيل سمكة متجه إلى الأسفل، وأحمد ومظهر اللذان كانا يكتبان لوحاتهما عادة بالرقعة والفارسى وبخط غليظ، ثم خطاط آخر لا يحضرنى اسمه

الآن افتخر أخى أمامه بأننى خطاط مع أننى لا كنت خطاطا ولا حاجة، بل كل ما هنالك أنه كان من الممكن تدريبى لأكون خطاطا، فرد الخطاط المخضرم متسائلا فى دعابة: خطاط أم خطاف؟ فضحكنا جميعا.

وقد تذكرت هذا الرجل حين قرأت لأول مرة رائعة نجيب محفوظ: "خان الخليلى"، وقابلت فيها المعلم نونو الخطاط. والسبب أن كلا الخطاطين كان فكها ساخرا. وبالمناسبة فقد قرأت للأستاذ حامد العويضى الخطاط، فى مقال بديع له بجريدة "القاهرة" فى أغسطس ٢٠٠١م بعنوان "حسنى البابا أبوها" (أى أبو سعاد حسنى) أنه من المحتمل جدا أن يكون أديبنا العملاق قد استوحى شخصية نونو الخطاط من شخصية الأستاذ محمد حسنى والد نجاة الصغيرة وسعاد حسنى وعز الدين حسنى، وكان أيضا خطاطا كبيرا كما هو معلوم للجميع، وفيه مشابه من نونو لا تخفى على أحد. وقد أوضح المقال بعض الأشياء التى كانت خافية عنى من حياة حسنى وشخصيته وعلاقته ببناته وأبنائه. كما قابلت فى أواسط ثمانينات القرن الماضى خطاطا دارت بينى وبينه فى طريق العودة من الإسماعيلية حيث بتنا ليلتنا فى شقة دُعِينا لحضور عرس فيها، وكانت أول وآخر مرة نبيت بها، ويملكها شاب زميل لذلك الخطاط الكهل عرفته عن طريق أخيه المحامى، الذى كنت أنوى أن أسند إليه قضية لى، فتقابلت أنا والخطاط فى الشقة المذكورة، وفى طريق الرجوع حدثنى بإكبار عن محمد حسنى وافتخر بأنه تتلمذ على يديه.

ومما لا يزال ملتصقا بالذاكرة من طفولتى الأولى رغم مضى كل هاتيك الأعوام أننى كنت لا أحب الذهاب إلى الكتاب أو جمعية المحافظة على القرآن الكريم مسائر الأطفال فى ذلك الوقت على عكس أطفال هذه الأيام الذين يتعلقون بحَضَاناتهم الجذابة، مفضلا البقاء فى المنزل بجوار والدتى، وكانت سيدة هادئة وطيبة، وكانت تدللنى كثيرا. وكنت، ككل طفل فى مثل سنى فى مثل ظروفى فى ذلك الحين، لا أريد مفارقة البيت وحنان الأم. إلا أنها حملتنى ذات يوم على كتفها بعد أن ارتدت طرحتها، موهمة إياى أننا ذاهبان إلى الجمعية لنحضر السلم الخشبى الذى كان النجار المشغول فى إعداد بعض التُّخَت والمقاعد فى

المدرسة يصنعه لنا هناك. والعجيب أننى كنت أبصر تحت طرحتها اللوح الإردوازى الذى نتعلم فيه الكتابة، وهو ما يعنى، لو كنت ولدا ذكيا فطنا (هذا لو كنت!)، أن النية مبيتة على تركى هناك والعودة بدونى. إلا أننى لم ألق بالا إلى ذلك مفضلا إيهام نفسى بأن الأمور لن تصل إلى هذا الحد، فنحن ذاهبان لإحضار السلم، فماذا فى ذلك من خطر يتهددنى؟ ولنفترض أننى كنت ولدا ذكيا فطنا، وهو ما لم أكنه، فهل كنت لأغامر بالقفز من فوق كتف والدتى والنزول على جذور رقبتى؟ وما إن وصلتْ أمى، طيب الله ثراها، إلى الفصل حتى أنزلتنى من فوق كتفها، بعد أن كانت تدللنى طوال الطريق لتخديرى، ووضعتنى على الأرض وقد صُوِّبَتْ عيون التلاميذ كلهم نحوى، وتركتنى ومضت وأنا أبكى. ولكن كما يقول المثل: اضحك تضحك لك الدنيا. ابك تبك وحدك. وقد بكيت فى ذلك الضحى وحدى، ولكنه بكاء أفضل مليار مرة من الضحك، الذى كان معناه البقاء فى المنزل بجوار والدتى مع استمرارى جاهلا لا أتعلم.

وكانت أمى، حسبما بقى فى خيالى من صورها وكلامها ومواقفها، سيدة طيبة هادئة كما قلت، وكانت تحكى لنا الحواديت والحكايات الفكاهية، وكانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ككل نساء القرى تقريبا. ولا أزال أحتفظ لها بمنظر لا أدرى مدى مبلغه من الصحة والدقة يضمها هى وبعض من نسوة الشارع، وقد حملن على رؤوسهن قُفَف القمح فى طريقهن إلى الترعة التى فى طرف القرية المؤدى إلى عزبة حسام الدين ليغسلنها ثم ينشرنها فى الشمس على الحصر لتجف قبل أن يذهبن بها إلى ماكينة الطحين، وهن يغنين أغنية أم كلثوم: "على بلد المحبوب وَدِّينى"، وكنت كالعادة أتبعها مستمتعا بوجودى إلى جوارها، وهو ما ألاحظه فى حفيدىَّ الكبيرين أبْنَىْ علاء الدين: لالة وخالد، فهما دائما ما يعبران عن رغبتهما فى الذهاب إلى "ماما"، فأتذكرنى وأنا صغير مثلهما أحب أن أكون مع "أمى" دائما. بيد أن أمى قد رحلت عنا مبكرة جدا، إذ ماتت وأنا فى الخامسة أو السادسة من عمرى، ثم تبعها أبى بعد عدة سنين ولما أبلغ التاسعة، وقبلهما مات خال لى شاب ميتة مأساوية هو أيضا، فانطبعت حياتنا بحزن ثقيل أحاول بطبعى الفَكِه، دون وعى منى، أن

أعادله حتى لا يؤودنى حمله. ومن الذكريات العالقة بذهنى لا تفارقه: الليلةُ التى ماتت فيها أمى، إذ أذكر أنهم أيقظونا ليلا ونقلونا إلى بيت جيراننا حيث كان أولادهم مستيقظين يلعبون معنا، وربما قدموا لنا طعاما ريفيا بسيطا بغية شغلنا عن الحزن الذى كان يملأ الأجواء آنذاك. ودائما أتصور أن ذلك كان قبيل الفجر، وأننا كنا فى ذلك الحين نعرف أن أمنا قد ماتت، ولكن دون أن نفهم أبعاد الأمر أو ندرك معناه نظرا لصغر سننا آنذاك.

ورغم اتساع ثقافتى مع الأيام وقراءاتى المتعمقة فى القرآن الكريم وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام أرانى عاجزا تماما عن تخيل الظروف التى يعيش فيها الموتى فى العالم الآخر، وبخاصة من أحبهم وأنشغل بمصيرهم كوالدتى ووالدى... أما بالنسبة لنفسى فقد كنت، وأنا طفل صغير، أفزع من الموت وأتخيلنى وقد جاء "الوحش" أو "الغول" بعد دفنى، ونَبَش قبرى واستخرج جثتى والتهمها، وضِعْتُ أنا فى جوف الغول بعد أن أكون قد تألمت آلاما فظيعة أثناء تكسيره لعظامى ونهشه للحمى. لكنى الآن أعرف أن جسدى سوف يتحلل إلى عناصره الأولية ويرجع كما كان ترابا وهواء ليدخل فى تكوين موجودات جديدة، ولا أتخيل عناصر جسدى بعد الموت إلا هائمة فى أرجاء الحقول مع الرياح والشجر والفراشات والطيور والنباتات والمياه، ولا أتصورها أبدا هائمة فى المدن حيث الضجيج وعادم السيارات وكل مظاهر القبح والتشوه والتلوث وانعدام شعور كل واحد بالآخرين. أما روحى فيقوم بينى وبين تصور ظروف حياتها فى عالم الغيب قبل البعث جدار صلب سميك لا يمكن اختراقه.

وكنت، إلى ما قبل سنوات، أتألم أشد الألم حين أفكر أننى سوف أموت، إلا أننى رُضْتُ نفسى على التسليم بحقائق الحياة وأوضاعها التى لا يمكن أن يفلت من الخضوع لها أى إنسان أو مخلوق حتى صرت أتقبل فكرة الموت تقبلا تاما. المهم ألا يكون موتا فيه معاناة وألم. وإنى أدعو الله أن يتم موتى كما يتم انطفاء المصباح الكهربى حيث يسود الظلام فى التو واللحظة بمجرد الضغط على مفتاح النور. ثم إن أملى الشديد فى رحمة الله وفضولى العاتى إلى معرفة ما ينتظرنا هناك فى الضفة الأخرى من الكون قد انتهيا بى إلى عدم

الفزع من الموت، الذى دائما ما أذكره فى حديثى مع نفسى أو فى حديثى مع الآخرين، خصوصا إذا كنت أريد أن أحمّس باحثًا إلى الانتهاء من رسالته التى أشرف عليها فأقول له مثلا : أرجو زيادة نشاطك حتى تنتهى من رسالتك وتحصل على الدرجة العلمية، فنحن لا نعرف الظروف يا بُنَىّ، وقد أموت فتجد نفسك فى حيص بيص. فيأتينى الجواب دائما: بعد الشر يا دكتور. ربنا يعطيك طول العمر. فأقول: إننى أتحدث عن احتمال قائم، فأرجو سرعة الإنجاز! ولست أشعر آنذاك بتشاؤم ولا يخطر ببالى أبدا أن سيرة الموت قد توقظ الموت من مرقده وتُذَكِّره بى بعد أن كان غافلا عنى كما يعتقد كثير من الناس.

وكنا نتعلم أحيانا فى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وأحيانا فى كتّاب سيدنا الشيخ مرسى كما كنا نسميه من باب الاحترام والخوف، رحمه الله وبوأه جنة الفردوس كفاء ما عَلّم من أجيال وحَفِظ كتاب الله تعالى وحفّظه وعوّدنا الجِدّ المر والصلابة الخشنة التى لولا هى لانهرنا عند أول منعطف من منعطفات التعليم رغم أننا لم نكن ندرك قيمة ذلك الرجل الكفيف الذى فتّح أبصارنا وبصائرنا وأرشدنا إلى الطريق السوى المستقيم. وكنا فى الكتّاب نجلس على حصير متهرئ قديم فى العادة مفروش على مساطب ملتصقة بالجدران أو قائمة فى وسط الكتاب، أونجلس على الأرض دون فراش لأن المصاطب لا تتسع لكل التلاميذ. وكان الدجاج كثيرا ما يتقافز حولنا لأن الكتّاب كان يقوم أمام منزل سيدنا الشيخ مرسى، فكان زبتهم فى دقيقهم. كما كانت هناك البراغيث بطبيعة الحال، بيد أننا لم نكن نحس بها لأن عددنا كان كبيرا بحيث كان قسط كل تلميذ من البراغيث لا يكاد يذكر. وكنا نرى بنت سيدنا الشيخ مرسى، عمتى محضية، وبناتها حفيدات سيدنا، وأخاهم قطب، الذى كان يلقب فى ذلك الوقت بـ"حنكوش"، وصار الآن شيخا محترما يمشى فى وقار وتحفظ، وكلما رأيته تذكرت جده ووالدته، وكانت سيدة طيبة تهرع للتشفع لنا عند أبيها فى بعض الأحيان، فلم نكن ننسى لها هذا الجميل. كما أحب أن أداعبه كلما قابلته عند دكان محمد العزلة ابن

خالى بالقرية. وللشيخ قطب صوت جميل، وكثيرا ما نسمعه فى المآتم يجلجل صوته فى مكبر الصوت حين يكون هناك معزى فى مسجد سيدى أبو الريش.

وكنا نشرب من الخابية التى تملأها لنا العمة محضية، أما إذا أردنا قضاء الحاجة فأغلب الظن أننا كنا نذهب إلى مراحيض مسجد سيدى شهوان على بعد بضع عشرات من الأمتار. وكنتَ إذا أقبلتَ على الكتاب راعك صخب وضجيج وتداخل فى الأصوات وبكاء صادر عمن يكون سيدنا قد انهال عليه من الأولاد بعصاه، التى لا ترحم ولا تبصر طريقها ولا تبالى أن تبصره، فهى عصا الفقيه، وعصا الفقيه من الجنة، فمن حقه أن يضرب بها دون حساب للعواقب ولا احتراس أو حذر. فكان المكان أشبه ما يكون بعشة فراخ. لكن العجيب أن عشة الفراخ هذه هى التى تربينا فيها وصرنا ما صرناه. فاللهم ارحم سيدنا الشيخ مرسى ووسع له فى نزله وأسكنه الفردوس فى أعلى عليين، وارحم كل من علمنا مع الشيخ مرسى شيئًا من القرآن أو الإملاء والحساب والخط، وهو كل ما تعلمناه فى الكتاب وجمعية المحافظة، ومنه كانت البداية لكل شىء فى حياتنا العلمية والفكرية.

وكنا فى طفولتنا نؤمن بالعفاريت والجن والأشباح، ونعتقد أن أختنا من الجن يمكن أن تخطفنا وتأخذنا إلى تحت الأرض إذا حل المغرب وظللنا نلعب فى الشارع، ولم نعد إلى البيت. كما كنا نعتقد أيضا أن كل من مات قتيلا لا بد أن يظهر له عفريت. ويرجع ذلك إلى الظلام الذى كان يحط على القرى منذ المغرب، ثم ينشر أطنابه تماما عقب صلاة العشاء. أضف إلى ذلك الأمية والجهل والفهم الخاطئ لمعنى الجن، الذين ورد ذكرهم فى القرآن والحديث. لقد كنا نرتعب من الليل والظلام، ونخاف من الوحدة، ونحرص على أن نكون موجودين فى جماعة. وحين ننام كنا نتصور أن العفريت سوف يأتى ويخطفنا ويأكلنا، فلا نجد حلا سوى أن نبقى المصباح الكئيب الواهن مضاء، مع تغطية وجوهنا وأعيننا حتى لا يرانا العفريت عندما يحضر. ذلك أننا ما دمنا لا نراه فإنه لن يرانا. وهناك أيضا النداهة، التى تأتى فتندهك قبيل الفجر سابقة زميلك الفلاح

الذى اتّفَقْتَ معه فى صلاة العشاء أن يمر بك ويوقظك حتى تذهبا إلى الغيط فترويا الأرض قبل انتهاء دورة السقاية. لقد سمعتكما النداهة، وها هى ذى قد أتت إليك وأخذت تنادى عليك من تحت الشباك مقلدة صوت زميلك بالضبط، وقد اتخذت سَمْتَه وشكله وملابسه، حتى إذا ما تركتما القرية واستقبلتما الحقول ولم يعد هناك من يسمعك أو يغيثك إن صرختَ طالبا المساعدة كشفتْ لك عن حقيقتها واغتالتك. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم! ضاع الرجل يا ولداه! أما أولاد الفلاحين فقد كنا ننظر إليهم على أنهم كائنات أسطورية حين نسمع أنهم لا يبالون بالمقابر الموجودة على أطراف القرية ويجتازونها إلى الحقول كى يشتركوا مع أهليهم فى سقاية الأرض ليلا. وكنا نتصور أن جرأتهم العجيبة هذه راجعة إلى أنهم أكلوا كبد ذئب من الذئاب اصطادوه من الغيط، واستخرجوها وشَوَوْها والتهموها.

وكانت حكايات العفاريت والأشباح أكثر من الهم على القلب. صحيح أنها كانت تسلينا، لكنها كانت تسلية مرعبة نستمتع بها أثناء سماعنا لها، لكن سرعان ما تنقلب رعبا هائلا بعد ذلك حين يَجِنّ الظلام، إذ تتجسم الأوهام لتحاصرنا بالأشباح من كل اتجاه. وكان كل ركن أو زُقْر أو مكانٍ خَرِبٍ يختص بعفريته: فالمعصرة ("المحصرة" بلغة القرية) موضع العفريت الخاص بالخواجة الذى كان يمتلكها. فإذا ما قدر لك أن تمر ليلا من هناك وحدك سمعت صوت الأوتوبيس ("الكافورى" كما كان أهل القرية يسمونه)، وهو يتكتك بقيادة الخواجة. وقبل ذلك بقليل، وتحت نخلة العسال فى الركن المعتم وسط الحارة الضيقة والبيوت الصغيرة المتلاصقة حيث يذبح المعلم محمد العسال بقره وجاموسه فى المواسم والأعياد بعيدا عن السلخانة، سوف تجد الأرانب وتملأ منها حجر جلبابك بالكوم، ولكنك ما إن تصل إلى بيتك وتفتح حجرك حتى تفاجأ بأنه لم يعد هناك أرانب ولا يحزنون. ترى أين ذهبت؟ ألا تفهم؟ يا لك من غبى! (آسف، لا أقصد أن أشتمك، بل كل ما هنالك أن الحكاية قد حُبِكَتْ، فكان لا بد أن أقولها هكذا!). وبعد المعصرة فى اتجاه بيت خالى، وقبله ببيت واحد هناك زُقْر بَكْر. وإياك أن تمر وحدك به ليلا، فضلا عن أن تُقِلّ عقلك وتدخله.

ذلك أن هناك القربة التى تزحف على الأرض وهى تئن أنينا . لقد ربّتْ هذه القربة لى الخفيف وأنا ولد صغير حتى لأذكر أننى وأطفال الحارة اجتمعنا ذات ليلة على مصطبة عم حسينى أبو صيرة وأخذنا نتبادل حكاية الحواديت قريبا من ضوء دكان خالى المنعكس على جدار بيت أبو صيرة، ثم لحظى الأسود المطين بستّين نيلة احتجت أن أتبول. لكن ما العمل، وهناك على مبعدة بضعة أمتار زُقْر بكر والقربة؟ لقد تسمرت فى مكانى تقريبا وأنا أنظر ناحية زملائى وتبولت، ولم أجرؤ على الابتعاد عنهم ولو مترا واحدا . وهل أنا مجنون إلى هذا الحد حتى أغامر بحياتى فتخطفنى القربة؟

فإذا ما انحدرتَ ببصرك (ببصرك فقط!) ناحية بيت الشيخ أحمد زيد صانع القفف والغلقان مرورا بمسجد أبو الريش، فيا ويلك ويا سواد ليلك إن فقدت رشدك وفكرت فى العبور من هناك بعد أن تنقطع الرجل. لسوف تجد حمارا هائما فى الحارة ليس له صاحب، ولسوف تتصرف بحماقة ما بعدها حماقة فتركبه تريد أن تأخذه إلى بيتكم ليكون لك حمارٌ مُلْكٌ دون أن تدفع مليما واحد (هذا طبعا أيام الملاليم!) . ولكن حذار! إياك أن تفعل! أوووووووه! يا خيبتك القوية! لقد ركبت الحمار؟ إذن فتحمَّلْ ما يقع لك، وذنبك على جنبك. هأنتذا قد طار الحمار بك فى الجو، وأنت ذاهل قد تبدد عقلك شعَاعًا من الرعب خوفا أن تنقلب عن ظهره وتسقط من حالق فتندق عنقك. ولكن أليس معك فى سَيَّالتك مِسَلّة كالتى يستعملها صانعو القفف والغلقان؟ إذن فأخرجها من سيالتك سريعا، واغرزها فى جنب الحمار. نعم هكذا بالضبط. والآن ها هو ذا الحمار يئن، ويرجوك أن ترحمه ويشرع فى التطامن والنزول رويدا رويدا حتى يلامس الأرض فتقفز من فوق ظهره، وأنت لا تصدق بالنجاة. وها هو ذا الحمار يبرطع مبتعدا عنك وهو يصدر من مؤخرته ضراطا مزعجا يحييك ويقول لك: "باى باى"! طبعا ليس "باى باى" بالضبط، ولكن شيئًا بمعناها . فالحمير، كما تعرف، لا ترطن بالإنجليزية، كما أن أهل القرية فى ذلك الوقت المبكر من خمسينات القرن

الماضى لم يكونوا يفهمون لغة جونبول، ولا الآن وحياتك! على كل حال عليك أن تحمد الله أنْ نزلت بالسلامة، وإياك أن تفعلها مرة أخرى.

وهناك العفريت الذى كنا نتبادل قصته وما فعله برجل من أهل القرية كان سهران ذات ليلة فى الغيط لسبب من الأسباب التى تدعو الفلاحين إلى السهر فى غيطانهم، وبدا للرجل أن يأكل بعض كيزان الذرة الخضراء، فخلع بعض الكيزان من الحقل المجاور وبدأ ينزع أغلفتها استعدادا لشيها على النار، التى كان قد جمع لها بعض الحطب، وشرع يشعل النار ويضع عليها الكيزان، إلا أنه احتاج مزيدا من الحطب. وهنا وجد أمامه رجلا فلاحا مثله يجلس أمامه، وإن كان لم يسبق له أن رآه، ويريد أن يأكل معه من الذرة، فالتمس منه أن يحضر بعض الحطب الإضافى، فقام الرجل الضيف وغاب قليلا ثم عاد وتحت إبطه حمل بعير (حمل بعير حقيقى لا مجازى طبقا للحكاية) من الحطب، وهو ما أثار دهشة صاحب النار، لكنه انصرف رغم ذلك إلى شى كيزان الذرة، فلاحظ أن النار كلما شبت وطيرها الهواء ناحية الضيف فزع وابتعد بطريقة غير طبيعية، فحانت منه نظرة إلى قدميه فرأى بدلا منهما حافرين كحافرى الحمار، وعندئذ عرف أنه أمام عفريت من الجن لا رجل من الإنس.

لكنه لم يُظْهِر شيئًا مما يدور فى نفسه، وحرص طوال الوقت على أن يطير شعل النار ناحية العفريت كأن الأمر يحدث عفوا، فيبتعد العفريت فى فزع. بيد أنه لم يجد مناصا من مغادرة المكان فى آخر المطاف حين أوشكت النار أن تنطفئ ولن يعود هناك ما يستطيع إفزاع العفريت به، ثم عدا بأقصى ما يستطيع ناحية القرية، وهو يصيح بأعلى صوته دون أن يسمعه أحد بطبيعة الحال فى أرجاء الحقول. وحينما كان يجتاز المقابر قابله أحد رجال القرية، فسأله عما به، فحكى له الحكاية من طَقْطَقْ لسلامٌ عليكم منهيا حكايته بأن الرجل الذى كان يجالسه له حافران لا قدمان. وهنا كشف له الرجل عن قدميه متسائلا: مثل هذين الحافرين؟ وهنا طَبَّ ساكتا ميتا فى الحال، رحمه الله. بالله عليكم أليست قصة رائعة رغم ما فيها من رعب ولا

رعب أفلام هيتشكوك؟ والمضحك أننا جميعا كنا ننسى السؤال البسيط الذى لا بد أن يثور فى ذهن أى إنسان عنده عقل، وهو: إذا كان صاحب القصة وبطلها قد طب ساكتا، فمن يا ترى نقلها إلينا؟ لكن هل كان عندنا فى ذلك الوقت عقل نفكر فيه فى مثل تلك الأسئلة البسيطة، والمنطقية رغم ذلك؟ وهل لو كان عندنا عقل يطرح مثل ذلك السؤال أكنا نعتقد أصلا فى العفاريت؟ ثم لما كبرتُ سمعتُ نفس القصة فى قرى أخرى، وإن كان بطلها ينتمى فى كل مرة إلى تلك القرية. فعرفت، ولكن بعد فوات الأوان، أنها حكاية مصنوعة ليس لها ظل من الحقيقة.

ومما له صلة بما نحن فيه هنا أننى، بعدما كبرت وصرت مدرسا مساعدا بالجامعة، كتبت قصة قصيرة اسمها: "زُقْر جاد" صورتُ من خلالها صورة ذلك الزقر المرعب فى خيالنا ونحن صغار. وقد قرأتها على صديقى ابن الإسكندرية الأستاذ صلاح أبو النجا (صديق أيام الجامعة) حين كان يزورنى فى شقتى فلاحظت أنه كان صامتا لا يظهر عليه أى انفعال أو رد فعل، فشعرت بشىء من الإحباط لأن القصة لم تعجبه ولم تحرك فى مشاعره أو خيالاته ساكنا، لكنْ ما إن انتهيتُ من القراءة حتى رأيته يأخذ نفسا عميقا ويستعيد وعيه الذى كانت القصة قد استولت عليه أثناء قراءتى لها، وشرع يصف وقع القصة العجيب عليه. وكنت، بعد سفرى إلى أكسفورد، أرسل إليه بعض الأشياء التى أكلفه توصيلها إلى أقاربى فى القرية، فانتهز أول زورة له هناك وطلب منهم أن يرى زقر جاد هذا الذى استولى وصفى له على كل كيانه ذات ليلة فى شقتى بحدائق القبة بالقاهرة. إلا أنه فوجئ بأنه زقر غير مخيف رغم ضيقه والتوائه. فكان تعليقى له أنه يرى الزقر بعين الرجل الإسكندرانى الذى لا يؤمن بالعفاريت أو على الأقل: لم يعد يؤمن بالعفاريت بعدما تخرج من الجامعة ودرس العلوم السياسية فى كلية السياسة والاقتصاد، فضلا عن أنه رأى الزقر نهارا والشمس فى كبد السماء تنيره إنارة ساطعة لا ليلا. وحتى لو كان زاره ليلا لقد كانت الكهرباء قد دخلت القرية، ولم يعد هناك زقر مظلم تسرح فيه العفاريت براحتها. ثم هناك التراث العفاريتى الذى كان يملأ علينا حياتنا والقصص المرعبة

التى كان الجميع يتداولونها على أنها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فوافقنى على تحليلى . ثم أضفت وأنا أضحك متهكما على نفسى: ثم لا تنس براعة صديقك الفنية فى صوغ القصة وإبداعها . وهنا لم يكن أمامه مفر من الإقرار بوجاهة ذلك الاعتبار، وإلا أحضرت له العفريت أبا حوافر، وهو غير مستعد للاستغناء عن حياته الغالية، فهو رجل عاقل!

وتصادف أن بدأت، بعدما كتبت هذا الكلام هنا بأيام، أقرأ رواية "عالم على قضبان" للسعيد أحمد نجم (ابن إحدى القرى بالمنصورة)، وهى سادس رواية أقرؤها له، فهو روائى موهوب، ولو كان للأسلوب عنده اعتبار أكبر من هذا لكان ممن يشار إليهم بالبنان. وكان أخو زوجته د. مصطفى السعيد قد أرسلها لى بالبريد منذ عدة أيام، ففتحتها البارحة، وما إن شرعت أقرأ حتى اعترانى ضحك لاإرادى من براعة وصف المؤلف للقطار المتهدم الذى يمر بقريتهم وما يقع فيه من حوادثَ مضحكةٍ لا يمكن أن تخطر لأحد خارج مصر ببال. ومما قرأته فيها أيضا السطور التالية التى أنقلها لكم بقليل جدا من التصرف، وهى عن العفاريت واعتقاد أهل القرى المصرية فيهم. يقول نجم عن محطة القطار بالمنصورة: "المحطة الرئيسية بها نهايات الخطوط. تنتهي بها أيضاً حياة أشخاص. يتصادف أن يرجع القطار فجأة للخلف، وقد يشاء الحظ العاثر أن يمر أحد الركاب أمام الصدادة في ذات الوقت، فيطحنه القطار طحنًا بينه وبين صدادته. تغطِّى الضحية بورق الجرائد إلى أن تتم الإجراءات الرسمية، وعلى أهل الضحية تحمل أقدارهم! وتهتز جنبات القرية الرئيسة، ويسكن الخوف قلوب الصغار ويتمكن، ويغزو قلوب الكبار، وتنتقل الحكايات المرعبة عبر المصاطب المنتشرة في جوف القرية وفي الليالي القمرية. فإذا ما انتهت جلسات المصاطب كان طريق معظم الرواد إلى بيوتهم طريق أشباح مرعبة، فتهتز القلوب بعنف تكاد تكف عن خفقانها .

مات أحد سكان القرية الكبيرة، دهسته عجلات القطار، فرمته فرمًا . منظر جثته خلد في ذاكرة من رأوها رعبًا مجسمًا . تنقل المصاطب أن قرينه الأرضي يتقمص شخصية القطار، يصدر أصواتاً كصوت

محركه وجلبة عجلاته، ويطلق صفاراته يجوب حارة القتيل بعد منتصف الليل جيئةً وذهابًا، وأن أهل حارته يعرفون موعده، يسمعونه، فينكمشون رعبًا داخل بيوتهم، بل داخل ذواتهم لا تصدر من أحد منهم حركة، فقد جمدهم الخوف. بعضهم رأى القرين رؤية العين فلاذوا بالفرار لا يصدقون نجاتهم. تحمل أحاديث المصاطب أن لكل قتيل عفريتًا يسكن حيثما كان القتيل يسكن، يمثل كيف دار القتل إلى أجل غير مسمى. كثر من سمعوا قرين ضحية القطار، فاحتل الرعب معظم ساكني القرية، لكن قلائل لا يوقنون بمسألة العفاريت، يشككون في صحتها ويحيلونها إلى مجرد خيالات سقيمة.

تصادف أن رأى أحدهم هذا "القرين"، فداخله الخوف، لكنه قاومه وقلبه يهتز. القرين يصدر نفس أصوات القطار، ويطلق صفارة كصفارته، والرجل يراقبه من بعيد، والقرين يذهب في الحارة ويجيء، والحارة في سكون القبور ووجومها. انتهى القرين من جولته الليلية. أطفأ شعلته الزيتية، وكف عن إصدار جلبته ثم مشى كما يمشي الناس، والرجل يراقبه، يساعده ضوء خافت للقمر. تتبعه الرجل إلى حارة أخرى لا تفوته لحظة. وقف القرين أمام بيت. دق الباب ونطق بصوت يميزه الرجل تمامًا:

- افتحي. أنا جوزك.

- يا بن الـ. . . صاح الرجل.

وانقض على الذي أيقنت القرية أنه القرين، وأمسك بخناقه. الرجل قوي فارع الطول بينما الذي كان منذ دقائق قرينًا ضعيفًا قصيرًا لا حول له ولا قوة. الصوت الجهوري للرجل أيقظ البعض فهرعوا إلى حث الرجلين. والرجل قابض على ملابس عجيبة كان يرتديها القرين في جولته الليلية يخلعها قبيل بيته".

وهناك حديث منسوب الرواية إلى أبى هريرة يقول فيه الصحابى الجليل (إن كان هو صاحب الرواية فعلا): "وَكَّلَنِي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذتُه وقلتُ: لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: إني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة

شديدة! قال: فخليتُ عنه. فأصبحت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحمتُه وخليتُ سبيله. قال: أما إنه قد كَذَبَك وسيعود. فعرفتُ أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود. فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: دعني، فإني محتاج، وعليَّ عيال. لا أعود! فرحمتُه وخليتُ سبيله. فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالا، فرحمته فخليت سبيله. قال: أما إنه قد كذبك، وسيعود. فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كلماتٍ ينفعك الله بها. قلت: ما هُنّ؟ قال: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليتُ سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله. قال: وما هي؟ قال: قال لي: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم". وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح (وكانوا أحرص شيء على الخير). فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أَمَا إنه صَدَقَكَ، وهو كذوب. تَعْلَمْ من تخاطب ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا. قال: ذاك شيطان".

والآن هل فى هذا الحديث، إن كان حديثا صحيحا، ما يدل على وجود العفاريت بالمعنى الذى يفهمه الناس، والعوامّ منهم على وجه الخصوص؟ ذلك أن الرسول يخبر أبا هريرة بأن الشخص الذى أمسك به ثلاث مرات ثم أطلقه عطفا عليه وتقديرا لحاجته وحاجة أولاده إلى الطعام إنما هو شيطان. وسوف يقول أصحاب العفاريت: ها هو ذا الرسول يقول إنه شيطان. وردى على هذا أنه لا يحل الإشكال. ذلك أن الشيطان قد

يكون معناها شيطانا من شياطين الإنس، وما أكثرهم! وفى القرآن أن هناك شياطين الإنس مثلما هناك شياطين الجن. وهذا ما يتبادر إلى ذهنى للوهلة الأولى. إلا أن ثمة عدة أسئلة مهمة هى: هل يعقل أن يكون بين سكان المدينة المنورة فى ذلك الوقت حين كانت قرية صغيرة محدودة، وكل شخص يعرف كل شخص هناك، من يجهله أبو هريرة؟ فكيف لم يعرف رضى الله عنه اللص الذى ضبطه وهو يعبئ القمح فى غرارته أو فى حجر ثوبه؟ وكيف صدقه وهو يعرف جيدا أن الرسول لم يكن يترك محتاجا دون أن يعطيه ما يحتاجه هو وبيته من مال الصدقة؟ بل كيف تكتم الخبر وستر على اللص وهو ليس صاحب المال المسروق؟ بل هل كان يمكن أن يدور فى خاطر أحد آنذاك أن يسرق من مال الصدقة؟ وكيف تركه دون أن يسأله: من أنت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ بل كيف سكت عليه ثلاث مرات دون أن يبلغ رسول الله بما وقع حتى إن الرسول هو الذى كان يفاتحه فى ذلك الموضوع؟ بل كيف لم يقل للص إنه سوف يشرح للرسول أحواله هو وأسرته حتى يجعلهم على قائمة مستحقى الزكاة؟ ولماذا لم يأت الرجل بعد ذلك فى الليالى التالية؟ أم لعله كان من أصحاب نظرية "التالتة تابتة"؟ وأخيرا، وليس آخرا، هذه أول وآخر مرة يحدث فيها شىء مثل ذلك. أليس ذلك غريبا؟

هذه هى الأسئلة التى تثور فى الذهن حال قراءة ذلك الحديث إذا وضعنا فى أذهاننا أن يكون اللص شيطانا من شياطين الإنس؟ لكن لا يحسب المعتقدون فى وجود العفاريت بالمعنى العام أن ليس أمامنا من مفر إذن إلا بالأخذ بالتفسير الآخر، وهو أن اللص شيطان من شياطين الجن من إخوة العفاريت أو على الأقل: من أبناء عمومتهم أو خؤولتهم. ذلك أن توجيه الحديث إلى هذه الناحية يثير من المشاكل أكثر وأعقد مما يثيره التفسير السابق. كيف؟ أولا هل الشياطين تحتاج إلى الأكل من طعامنا نحن البشر؟ ذلك أن هناك أحاديث تقول إن الجن، الجنس الذى ينتمى إليه الشياطين، يأكلون العَظْم والرَّوْث. فما القول فى هذا؟ يروى أبو هريرة أن النبى عليه السلام قد حدث المسلمين ذات يوم قائلا: "إذا ذَهبَ أحدُكم إلى الغائطِ فلا يستقبِلِ

القبلةَ ولا يستدبِرْها لغائطٍ ولا لبولٍ، ولْيَسْتَنْجِ بثلاثةِ أحجارٍ. ونَهَى عنِ الرَّوْثِ والرِّمَّةِ وأن يستَنجيَ الرّجلُ بيمينِهِ". وفى حديث آخر، وعن أبى هريرة أيضا: "قلتُ: ما بالُ الرَّوثِ والعظمِ؟ قال: هما طعامُ الجنِّ".

وإذا قلنا، رغم ذلك، إنها تأكل مثلنا، فهل تأكل يا ترى نفس الطعام وبنفس الطريقة بحيث يحتاج شيطاننا هذا إلى سرقة القمح؟ وماذا يفعل الشياطين بالقمح؟ هل لديهم رحى أو ماكينة طحين يطحنون فيها القمح ويحولوه دقيقا يخبزونه ويصنعون منه الخبز؟ فأين تلك الرحى أو تلك الماكينة؟ ولماذا لم يفكر شيطاننا فى سرقة خبز جاهز ما دام أولاده يتضورون جوعا إلى هذا الحد بدل أن يضيع الوقت فى الطحين والعجن والخبز فيكون أولئك الشياطين الصغار قد ماتوا؟ ولكن هل يكتفى الشياطين بالخبز الحافى؟ فلماذا إذن لم يحاول اللص الشيطان سرقة بعض اللحوم أو حتى اللبن والجبن والتمر لزوم التغميس؟ بل هل كان ذلك الشيطان يحتاج إلى السرقة من مال الصدقة الذى فى المسجد والذى يحرسه أبو هريرة، وعنده جميع الحقول والأهراء التى حول المدينة ويمكنه أن يأخذ منها ما يحتاجه هو وكل الشياطين من القمح وغير القمح دون أن يبصره أبو هريرة أو غير أبى هريرة؟ وإذا قلنا إنه شيطان مبتدئ لم يتشرب صنعة الشيطنة على أصولها، وعوضا عن ذلك أصر على سرقة المال الذى فى المسجد، فلماذا لم ينتظر حتى يذهب أبو هريرة فى سابع نومة فيعمل عملته وقتذاك ويحمل ما يشاء من قمح دون أن يحس به أحد أو يتعرض له أحد؟ بل هل الشياطين تحتاج إلى أن تظهر للناس، وبخاصة حين تريد أن تسرقهم؟ يا له من شيطان غبى! لكن هل هناك شيطان غبى؟ لو كنت أنا رئيسه لرفتُّه من زمرة الشياطين ليبحث له عن صنعة أخرى تناسب غباءه وحمقه ولخمته.

أما تصرفه هذا فهو مثل تصرف لص يترك سائر الشقق التى خَلَّفَها أصحابها وسافروا بحيث يمكنه أن يسرقها ويجردها من جميع محتوياتها دون أن يتعرض لأى خطر، ويذهب عِوَضَ هذا إلى شقة وزير الداخلية، ثم بدلا من أن ينتظر حتى نوم أصحابها فيتسلق المواسير من خلف المنزل ويدخل إلى المطبخ على "طراطيف" رجليه، ومنه إلى غرف الشقة الأخرى غير تلك التى ينام فيها الوزير وزوجته، نراه يختار عز الظهرية ويصر

على دخول الشقة من الباب الأمامى بعد أن يدقه حتى يفتحوا له، فيستأذن الوزير أن يتركه يسرق شقته ويخرج فى سلامة الله دون أن يحاول اعتراضه أو تعويقه لأن أولاده الجائعين ينتظرونه بمصارينهم تتلوى. ترى هل هذا أمر يدخل العقل؟ وإذا كان شيطانا من شياطين الجن، أكان ينصح أبا هريرة تلك النصيحة الخيرة؟ ترى متى كانت الشياطين تفكر فى الخير، فضلا عن أن تنصح به، فضلا عن أن تكون النصيحة ضارة بهم هم أنفسهم بحيث لا يستطيعون بعدها أن يمارسوا صنعة الشيطنة معنا نحن البشر؟ وهكذا يرى أصحاب اعتقاد العفاريت بالمعنى العامى أن الأبواب مسدودة فى وجوههم. ثم ألم يقرأوا قول الله تعالى عن الشيطان: "إنه يراكم هو وقَبِيلُه من حيث لا تَرَوْنَهم"؟ وأنا لا أتهم الصحابى الجليل الذى أحبه ودافعت عنه دفاعا صارما فى دراسة لى طويلة على المشباك، بل الخطأ من غيره. وهذا إذا لم أكن أنا المخطئ فى كل ما قلته. فأنا، فى نهاية المطاف، بشر أصيب وأخطئ، وليس لى من العصمة قليل ولا كثير.

ومن الأحاديث التى تتصل بهذا الموضوع وكنا نعرفها ونحن أطفال صغار، ولكن نفهمها بطريقتنا وبالطريقة التى كان يفهمها الناس من حولنا، قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا كانَ رمضانُ فتِّحَتْ أبوابُ الجنَّةِ، وغُلِّقتْ أبوابُ جَهَنَّمَ، وسُلْسِلَتِ الشَّياطينُ"، وهو حديث صحيح، ويعنى حسبما أفهمه أن رمضان هو فرصة طيبة للاستكثار من عمل الخيرات، والإقلال ما أمكن من اجتراح الشرور والآثام. وهذا معنى أن أبواب الجنة تُفَتَّح فيه، وتسلسل الشياطين. فالكلام على المجاز، وإلا أفليس هناك شياطين تتحرك براحتها بين الناس فى رمضان؟ أقصد شياطين الإغراء بالشر والخطيئة؟ إن غرائز الإنسان لا تختفى مع رمضان لأنها جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية لا يمكن أن تفارقها، لكن تخف وطأتها، أو المفروض أن يكون الأمر كذلك بسبب الجو الروحانى والجوع الذى من شأنه إضعاف الجسد وشهواته، فضلا عن تيقظ الحس الإيمانى والأخلاقى فى الشهر الفضيل. ولكن على الناحية المقابلة كثيرا ما يكون رمضان سببا فى ارتكاب الأخطاء والخطايا كما هو الحال مع مدمنى التدخين، إذ تسوء أخلاق كثير منهم وينفعلون لأقل ملامسة ويشتمون

ويضربون ويسارعون إلى الاصطدام بالآخرين، بل قد يقتل بعض الناس بعضا بسبب العصبية جراء الحرمان والطعام. كما أن من المسلمين من يتظاهر بالصلاح فيه نفاقا ورياء، وبعضهم يوهم الآخرين أنه صائم، وهو ليس بصائم. . . وهكذا . ودعونا من "بدعة" هذه الأيام المتمثلة فى بكاء بعض الأئمة أثناء صلاة التهجد . بل إن بعضهم ليبكى أثناء صلاة التراويح نفسها، مع أننا طول عمرنا نصلى التراويح وغير التراويح فى رمضان دون أن نسمع أحدا يبكى أثناءها . فما الذى جد فى الأعوام الأخيرة؟ لقد ذكر الرسول عليه السلام، بين من يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ولم يقل عليه السلام: "ورجل كان يؤم الناس فى الميكروفون فتصنَّع النهنهة وتشنّج وأطال البكاء حتى يسمعه القاصى والدانى عَمَّالًا على بَطَّال" .

لكن ما علاقة هذا بما نحن فيه من الكلام عن العفاريت؟ لقد كنا نفهم الحديث الشريف على أن الشياطين المذكورة فيه هى العفاريت، فكنا نطمئن إلى أن العفاريت لن تظهر لنا ليلا فى رمضان. وكان هذا يساعدنا على السهر خارج البيت دون خوف من الظلام. ألم يسلسل الله سبحانه وتعالى العفاريت والأشباح طول ليالى ذلك الشهر؟ بلى. إذن فما المشكلة؟ خذوا راحتكم إذن أيها الأطفال وامرحوا واسهروا كما تحبون، فلن تنغص العفاريت عليكم بهجتكم. وطبعا هناك فارق بين العفاريت بالمعنى الشعبى الذى كنا نفهمه آنذاك وبين الشياطين الوارد ذكرها فى الحديث المشار إليه. بل إن الشياطين، بالمعنى الأخلاقى الذى شرحته فى بداية كلامى هنا، لا تُسَلْسَل حسبما نفهم السَّلْسَلَة فى دنيا البشر، فهى ليست أجساما مادية حتى يسلسلوها بجنازير من الحديد كما نعرف السلاسل والجنازير. كذلك ليس المقصود أنها تُمْنَع من إغراء الناس بالذنوب والآثام، بل المراد استفزاز حاسة المسلمين الإيمانية والأخلاقية كى يهتبلوا فرصة الشهر الكريم فيُقَلِّلوا عمل الشر ويُكَثِّروا عمل الخير ليس إلا، إذ الشياطين للأسف لا تأخذ إجازة، لأنها لو أخذت إجازة ما كانت شياطين، فالشياطين لا تتعب ولا تمرض ولا تملّ ولا تقوم بتظاهرات للحصول على راحة ولا تعرف شيئا اسمه: "حقوق الشيطان" قياسا على ما نعرفه عندنا بـ"حقوق الإنسان" بما تقتضيه تلك الحقوق من

تخفيض ساعات العمل والحصول على إجازة مدفوعة الأجر وما إلى ذلك. وكم فى النصوص الدينية من مظاليم!

ولكن ألم تكن لى تجربة مع العفاريت؟ بلى كانت لى واحدة، إذ كنت قد سهرت على حدود القرية الشرقية ذات ليلة صيفية جالسا مع بعض الزملاء فوق كومة من الرمال بفناء مدرسة كانت تشيد فى ذلك الحين. وكان الجو سجسجا، ونزل الطل كالعادة رطبا منعشا فنسينا أنفسنا، إلى أن حان أوان العودة للإخلاد إلى النوم إلى أن يؤذن الفجر فأصليه ثم أعود ثانية إلى الفراش حتى الضحى كالمعتاد. وأغلب الظن أننى كنت معيدا فى تلك الأيام. ولما عدت إلى المنزل صعدت إلى الطابق الثانى وبدأت أخلع جلباب خالى البلدى الواسع المريح الذى كنت أرتديه تلك الليلة كما كان يحدث فى بعض الأحيان. وكنت واقفا فى شبه ظلام على السرير ذى الناموسية والعساكر فى المقعد القبلى الذى ينفتح بابه وشباكه خلف رأسى على الناحية البحرية فيمدنى بهواء لا أبدع ولا أروع. بيد أننى توقفت بغتة وأنا أخلع الجلباب من رأسى، إذ سمعت وشيشا أشلّنى فى موضعى فتوقفت، وتوقف هو بتوقفى، فلما استأنفت الخلع عاد الوشيش. وتكرر هذا مرات، فوجدتنى أقول فى نفسى: جاءك الموت يا تارك الصلاة! أو بالأحرى: جاءك الشبح يا منكر العفاريت! لقد كنتَ تنكر وجودها، فماذا أنت قائل الآن؟ ثم عدت إلى محاولة تخليص الجلباب من رأسى فعاد الوشيش من جديد. كل هذا وأنا أحاول التركيز فيما أفعله وفيما أسمعه... وفجأة أضاء عقلى دفعة واحدة. إنه الرمل الذى تسلل إلى السَّيَّالة ونحن جالسون فوق كوم الرمال فى المدرسة، فكلما حاولت خلع الجلباب سقط الرمل الموجود فى السيالة، وحين أتوقف يتوقف سقوطه. ثم لما تحققت من صحة هذا الفرض شرعت أضحك كالمخبول فى الظلام الذى كنت واقفا فيه فوق السرير.

ورغم أنى كنت أخاف العفاريت وأنا صغير فقد تغلبت مع الأيام واتساع ثقافتى وتحكيم عقلى على هذا الخوف، وإن ظل هناك دائما توجس ما فى أعماقى البعيدة حين أدخل مقابر القرية ليلا لأقرأ الفاتحة أو

لأثبت لنفسى أننى لم أعد أومن بهذه الخرافات أو لأى سبب آخر، إذ كنت رغم اقتناعى أنه لا توجد عفاريت بالمعنى العامى الشائع بين جماهير المصريين أظل أشعر أن من الممكن أن يفاجئنى شىء مزعج رغم كل ذلك، وبخاصة أن الجبّان فى الأعوام الأخيرة قد اكتظت مقابره اكتظاظا شديدا، وضاقت طرقاتها، ولم تعد هناك البراحات التى كانت فيها من قبل. ترى هل هو بقية من الاعتقاد القديم لم يَزُلْ بعد؟ ترى هل هو الخوف من أن يكون هناك إنسان مختبئ بين المقابر لسبب أو لآخر يمكن أن يفكر فى التعرض لى وإيذائى كى يقطع الرِّجْل من هناك فلا ينفضح؟ قد يكون هذا، وقد يكون ذاك. كما لا ينبغى أن ننسى المقامات الموجودة فى الجبان، وهى عبارة عن غرفات واسعة مظلمة تحوى بعض المقابر والنعوش وما أشبه، وتعشش فيها الوطاويط والبوم، وقد يأوى إليها ليلا بعض المجانين أو الصبيان الجامدى القلب الذين يهربون من أسرهم خوفا من العقاب وما إلى هذا. ولعلى قرأت للشيخ مصطفى عبد الرازق أنه، رغم تخلصه من الخوف من العفاريت بعدما كبر، كان لا يزال يشعر أن هناك رواسب قديمة من هذا الخوف لم تَزُلْ بعد من أعماقه.

وقد ظللت أقضى الليل وحدى لمدة أعوام فى بيتنا الأصلى المجاور لمسجد أبو الريش دون الإحساس بأى خوف، وكان بعض الجيران يزعمون أنهم يسمعون أبى ليلا وهو راكب الموتوسيكل. يقصدون أنهم كانوا يسمعون دمدمة الموتوسيكل الذى كان يركبه حين صدمته سيارة فأردته قتيلا. وكثيرا ما كنت أصلى العشاء وحدى فى المسجد المذكور آخر الليل فى الظلام دون أن أخاف شيئا. والقارئ لا يعرف أن أبو الريش كان فيه وطاويط ونعش وأشجار معمرة، دعك من جوف المسجد ومحرابه والتجويف الذى تحت المنبر حيث يسود الظلام وحيث لا يدخل أحد هناك ليلا فى العادة، اللهم إلا شابا من جيراننا ميت القلب كان يلجأ إلى ذلك التجويف لينام داخله حين تطرده أمه من الدار.

وعلى ذكر الخوف من العفاريت من جانب الأطفال كنت أقرأ اليوم، بعد أن كتبت هذا الكلام بأيام، مقالا لأخت زوجة تونى بلير الصحفية والمذيعة والناشطة السياسية المناصرة لحقوق الفلسطينيين لورين بوث،

التى أسلمت فى الفترة الأخيرة، تحكى فيه علاقتها السيئة بأمها، وكانت الأم يهودية، والأب ممثلا، فتذكر أن أمها كانت شديدة الخشونة فى تربيتها دون داع حتى إنها لم تكن لتسمح لها بإضاءة المصباح الليلى الصغير التى اشترته لها جدتها كى تشعله فى الظلام وهى نائمة فلا ترى فى منامها الكوابيس. وسبب رفض الوالدة هو توفير الكهربا مع أن الجدة كانت تعطى الحفيدة بعض البنسات كى تضعها فى عداد الكهربا البيتى، وتصر على إطفائه بقسوة غير مفهومة دون أن تلقى بالا إلى استعطافاتها، معيرة إياها بأنها طفلة زنانة مزعجة! بل كانت كثيرا ما تصارحها فى قسوة مفرطة بأنهم لا يريدونها معهم فى البيت، فلم لا تذهب لتعيش مع جدتها، التى تريدها؟ وكان الطفلة الصغيرة ترى فى كوابيسها قواطير (تماسيح أمريكية) وقراصنة يختبئون تحت السرير على عكس العفاريت التى كانت تفزعنا ونحن صغار، إذ لم تكن تختبئ تحت السرير لأننا كنا كثيرا ما ننام على الحصير، ومن ثم لم يكن هناك موضع لاختبائها تحتنا إلا إذا كانت عفاريت فى نحافة الورق، بل كان عليها أن تطل علينا من فوق وهى تكشف عنا الملاءة أو البطانية التى نخفى بها عنها وجوهنا. علاوة على أننا لم نكن نفكر فى قراصنة أو تماسيح.

إذن هناك فرق حتى بين نوعية الرعب الإنجليزى والرعب المصرى مع أن التماسيح كانت تسبح فى النيل منذ قديم الزمان إلى ما بعد مرور قرن من العصر الحديث، على حين لا تعرف بريطانيا التماسيح، فكان ينبغى أن يحلم أطفالنا بالتماسيح. وقد ذكر العقاد طيب الله ثراه، فى مقال له عن طفولته موجود فى كتابه: "أنا"، أن الآباء والأمهات الأسوانيين، ومنهم أبواه، كانوا يخشون على أولادهم من التماسيح إذا نزلوا يعومون فى النيل. أما القراصنة فهم إنتاج إنجليزى بامتياز! لكن جاء علىَّ وقت، وأنا ولد صغير، كنت أرتعب فيه غاية الارتعاب من الرجل الذى يخطف الأطفال ويذبحهم ليدشّن ماكينة الطحين بدمهم، إذ كانت مكنات الطحين الجديدة لا تدور إلا إذا سَقَوْها دم طفل حسبما كان يقال لنا حتى لا نبتعد عن البيت حين تنتشر فى البلاد أخبار اختفاء بعض الأطفال.

وأذكر أن ولدا صغيرا قريبا لنا فى القرية اختفى من الدار ذات عصرية بعدما كبرت وصرت معيدا، فأخذ أهله يبحثون عنه "سَلْقَط فى مَلْقَط"، لكنهم لم يعثروا له على أثر، فأرسلوا المنادى فى كل أرجاء القرية يناشد من يجده أن يسلمه لأهله، وله الثواب والأجر من الله، ولكن لا حياة لمن تنادى. وهنا لم يجدوا مفرا من اتهام صاحب مكنة طحين القرية بأنه أخذ الولد وذبحه، مع أن الرجل كان لطيفا، وكانت مكنته تشتغل "صاغ سليم" منذ عدة سنين، ولم يقع ما يجعلها تغير رأيها وتحرن عن العمل طلبا لجَرْع دم طفل. ولما أسلمت الأسرة أمرها لله فى نهاية المطاف، وذهبوا ينامون، حملوا الحصيرة التى تقف مبرومة بجوار الحائط فى غرفة النوم كى يبسطوها وينامو فوقها، فإذا بالولد الضائع نائم خلفها كالقتيل لا يدرى من أمر الدنيا من حوله شيئا بسبب ما أصابه طوال اليوم من إرهاق جراء اللعب. آه يا ابن الفرطوس!

وما دمنا فى الكلام عن العفاريت والخرافات فمن المناسب التحدث عن الاعتقاد فى الأولياء بصفته خرافة من الخرافات التى تشيع فى المجتمعات المتخلفة. لقد كان المسلمون الأوائل لا يؤمنون إلا بالله والأنبياء، أما فى العصور المتأخرة التى تخلفوا فيها فقد صاروا يعتقدون فيمن يُسَمَّوْن: "الأولياء" اعتقادا راسخا، متصورين أن وساطتهم بين العبد وبين الله أحرى أن تقبل، مع أن أحدا لا يعرف هل فلان أو علان هذا هو فعلا من أولياء الله أو لا، إذ الله وحده سبحانه وتعالى هو الذى يعلم هذا وأمثاله. وفى القرآن الكريم: "قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ" (الأنعام/ ٥٠)، "قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الأحقاف/ ٩). ومع هذا نرى كثيرا من المسلمين يؤمنون بما يعلو بهؤلاء "الأولياء" على الرسل ذاتهم. ولقد أُسْنِدَ إلىّ فى الأعوام الثلاثة الأخيرة تدريس مادة "التصوف الإسلامى"، فهالنى بل أرعبنى ما يتناقله المتصوفة من كرامات أولئك الأولياء مما لا يجوز إلا فى عقول البلهاء والمعاتيه، مع أنهم يتحدثون بكل يقين عن تلك

الأوهام والسخافات التى تخرج تماما عن العقل والمنطق. وهو يقين زائف لا أساس له غير الضحك على الذقون وأكل السحت.

ولا شك أننى كنت، فى طفولتى، أعتقد فى الأولياء، وكان منهم فى قريتنا سِيدِى أبو جميل وسيدى على المغربى وسيدى صالح وسيدى أبو الجبَب وسيدى على مِسْعِيد وسيدى أبو الريش. ولكن من هم هؤلاء الناس؟ ومن أين أَتَوْا؟ وما دليل ولايتهم؟ لا شىء يُعْرَف عنهم سوى أن الناس تعتقد أنهم أولياء بدليل أن لهم أضرحة يتبركون بها، ولهم موالد يُحْتَفَل بها كل عام فتتجمع الجماهير من القرية والقرى المجاورة قريبا من الضريح حول صارٍ يثبتونه ويفرشون الحى كله بالقش، ويأتى الصييت فينشد بعض المدائح طوال الليل. ورغم هذا فلا مانع من وجود التحشيش وألعاب القمار والبخت والثلاث ورقات وما إلى هذا، وهو ما يوجد على نحو أشنع وأبشع فى الموالد الكبرى كمولد أحمد البدوى وإبراهيم الدسوقى والسيدة زينب. وكان أهل القرية والقرى المجاورة يحجون زُرَافَاتٍ ضخمةً بعد عيد الفطر إلى قرية سديمة حيث يقوم مرقد أبو اليزيد البسطامى، أو ما يعتقد العامة أنه أبو اليزيد البسطامى. وكان قسط كبير من سحر الاحتفال بمولده يكمن فى أن النهر الذى تمتد على شاطئه سديمة تجرى فيه المراكب الشراعية. فكنا، متى اقتربنا من هناك آتين من قريتنا على ظهر الحمار الذى تكون جدتى رحمها الله قد استعارته لأولاد ابنتها اليتامى من بعض أقاربنا الفلاحين، وكانت سديمة تبعد عن قريتنا نحو ثمانية كيلومترات، أقول: كنا متى اقتربنا من هناك ورأيناها بقلاعها العالية هتفنا فرحين كأننا طرنا إلى السماء. ومن سديمة كنا نركب المعدية إلى سيدى عبد السلام الأسمر.

والآن أرانى أضحك وأتعجب على القسمة، التى لم تقدر لى أن تغرق بى وبأمثالى المعدية المذكورة كما يحدث كثيرا فى مصر أم العجائب والإهمال القاتل. ومن ثم فهأنذا حَىٌّ أُرْزَق وأكتب هذا الكلام الذى لا معنى له، وإلا لكنت الآن ترابا وهواء، ولصرت نسيا منسيا لا يأبه بى ولا بذكراى أحد. وكثيرا ما كانت

تنشب المعارك الطاحنة فى مولد أبو اليزيد البسطامى بين البساينة (شبان بسيون) والطنطاوية (شبان طنطا)، شأن المصريين حين يقلبون بعبقرية نادرة لا تبارَى كل فرحة إلى مصيبة وكارثة، فتسيل الدماء جَرّاءَ تبادل ضرب الشُّوم والبُنَيّات الحديدية وغيرها من أدوات القتال. وكانت إقامة الموالد قد خَفَّتْ فى قريتنا بل تلاشت منذ بضعة عقود، إلا أنها قد عادت إلى حد ما مؤخرا. بل لقد نقل بعض الشبان رفات بعض أولئك الأولياء المزعومين إلى المقابر بعيدا عن المساجد وهدموا الأضرحة منذ ثمانينات القرن الماضى. وهو اتجاه حميد، وإن كنا لا نريد أن يكون سببا فى وقوع التصادم بين فئات الشعب المختلفة.

أذكر أننا، يوم علمنا أن أبى صدمته سيارة وأنه نقل إلى المستشفى لعلاجه، تضرعنا أنا وأخى الأكبر الذى يزيد عمره عنى بثلاثة أعوام إلى سيدى أبو جميل ناذرين ثلاث شمعات إذا أعاد أبى سالما إلينا. ولم نكن نعلم أنه كان قد قضى نحبه، وانتهى الأمر. ومع هذا فقد أرجعنا سبب عدم الاستجابة إلى أننا لم نذهب فنشعل الشموع مباشرة دون أن ننتظر به إلى حين نجاته. كما كنا نعتقد أن الماء الذى نتوضأ به فى جامع أبو الريش المجاور لبيتنا والذى كان يُسْتَمَدّ من بئر خاص بالمسجد هو ماء مبارك يشفى عيون من يتوضأ به ويغسل عينيه منه، مع أنه ماء ملوث يختلط بالطحالب والأتربة نظرا إلى عدم تنظيف الأحواض (المغطاة) والمغطس المكشوف بانتظام. والغريب أن النساء فى ذلك الوقت بالقرية لم يكنّ يصلِّين إلا القليلات النادرات من العجائز، فى الوقت الذى كن يشعلن الشموع للمشايخ والأولياء الذين لا نعرف عنهم شيئا، وقد يكونون حشاشين أو زناة فسقة أو لصوصا مجرمين، استجلابا لبركتهم الموهومة.

وأظن أن ذهابى إلى الأزهر ودراستى مادة التوحيد، أى علم الكلام، قد خلصنى من كثير من هذه الخزعبلات، إذ أذكر أننى لم أَلُذْ، وأنا فى طنطا، بالسيد البدوى ولا بضريحه، الذى كثيرا ما لجأت إليه رغم هذا أستذكر فيه نظرا لما يتمتع به من هدوء ورائحة طيبة بسبب البَخُور والعطر الذى كان يطيَّب به. وكنت أرى بعض الزوار الذين يطوفون بضريحه يمدون يدهم إلى الضريح من خلال فتحات شبابيك الحديد التى

تحيط به، فيكبشون الهواء ويضعونه فى جيوبهم استجلابا للمال والغنى. ومع هذا لم يتصادف أن اغتنى أى من هؤلاء المساكين الملتاثين قط. كذلك لم أكن أحب غِشْيَان مولد أحمد البدوى كراهية للزحام ولِمَا كنت أسمع به من انتشار التحرش الجنسى بالنساء اللاتى يذهبن إلى الملقى حيث تحتشد الجماهير هناك الليلةَ الكبيرةَ، فضلا عن تدخين الحشيش وما يشبهه. وكان هناك السيرك والراقصات العرايا وبريلّو الذى يسوق الموتوسيكل على الجدران الكروية من الداخل، وقارئو الغيب البكاشون القراريون.

وهنا لا بد لى من الإشارة إلى أننى، بعدما كبرت، كتبتُ عن الأولياء مشيرا إلى ما أعتقد جازما أنه هو الرأى الصحيح فيهم. لقد وضعت كتابين عن التصوف وعن د.عبد الحليم محمود، وقلت فى الكتاب الأخير، وعنوانه: "عبد الحليم محمود- صوفى من زماننا"، ما نصه: "يقول الشعرانى عن نفسه: "كانت القناعة من الدنيا باليسير سَدَاىَ ولُحْمَتى، فأغنتنى بحمد الله عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا. ولم يقع لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى من منذ بلغت، ولم يزل الحق تبارك وتعالى يرزقنى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا. وعرضوا علىّ الألف دينار فرددتها، ولم أقبل منها شيئًا. وكان المباشرون والتجار يأتون بالذهب والفضة فأنثرهما فى صحن جامع الغمرى فيلتقطهما المجاورون. وتركت أكل لذيذ الطعام ولبست الخيش والمرقّعات من شراميط الكيمان نحو سنتين، وأكلت التراب لمّا فقدت الحلال نحو شهرين، ثم أغاثنى الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامى إذ ذاك. وكنت لا آكل طعامَ أمينٍ ولا مباشِرٍ ولا تاجرٍ يبيع على الظَّلَمة ولا فقيهٍ لا يسد فى وظيفته ويأكل معلومها ولا غيرهم من جميع المتهورين فى كسبهم. وضاقت علىَّ الأرض كلها ونَفَرْتُ من جميع الناس ونفروا منى، فكنت أقيم فى المساجد المهجورة والأبراج الخراب مدة طويلة، وأقمت فى البرج الذى فوق السور من خرابة الأحمدى مدة سنة. وما رأيت أصفى من تلك الأيام. وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة، وضعفت بشريتى وقويت روحانيتى حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنصوب على حصن

جامع الغمرى فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى وطلبها الصعود إلى عالمها، فإنه لا يُثَقِّل الإنسانَ فى الأرض إلا كثرةُ الشهوات. . .

ولما غلب علىّ طلبُ العزلة عن الناس تنكرتْ منى جميع قلوب أصحابى ونفروا منى حتى كأنهم لا يعرفونى من ضيق وقتى عن مباسطتهم بالكلام واللغو وعدم المجالسة. وكنت كثيرا ما أخرج إلى موارد البِرَك التى يغسل الناس فيها الفُجْل والخسّ والجزر والبَقْل فألتقط منها ما يكفينى ذلك اليوم مما أعرضوا عنه، وأشرب عليه من ذلك الماء، وأشكر الله تعالى على ذلك. وكنت لا آكل طعام فقير لا كَسْبَ له من المتعبدين فى الزوايا من غير كبير اشتغالٍ خشيةَ أن يكون ممن يأكل بدينه وهو لا يشعر. وكذلك كنت لا آكل طعام قاضٍ ولو كان من أهل الدين لِمَا عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس. ثم إنى تركت أكل طعام كل من يمسك الميزان والكيل والذراع. ثم طويت عن طعام جميع الناس فلا آكل إلا عند أوائل درجة الاضطرار، وذلك حين لا تجد أمعائى شيئًا تشتغل به، فيلذع بعضها بعضا. وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر، ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار، ثم أصلى الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر، فأصلى الظهر ثم أذكر إلى العصر، ومن صلاة العصر إلى المغرب، ومن صلاة المغرب إلى العشاء. . . وهكذا. فمكثت على ذلك نحو سنة. وكنت كثيرا ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء، ثم أتهجّد بباقيه فأختمه قبل الفجر. وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة. وربما نزلت بثيابى فى الماء البارد فى الشتاء حتى لا يأخذنى نوم". وهذا كله كلام فارغ لا يمكن أن يقنع قطة، اللهم إلا إذا خلعنا عقولنا من رؤوسنا ورمينا بها فى أقرب مقلب زبالة. والحمد لله أن مقالب الزبالة فى بلادنا كثيرة هذه الأيام وموجودة فى كل مكان على قفا من يشيل.

ثم إذا كانت الآيات الخارقة بهذه السهولة فلماذا يا إلهى ينفرد المسلمون بالتخلف الحضارى منذ وقت طويل دون أن ينفعهم وجود هؤلاء المتصوفة ذوى الكرامات بين ظَهْرانَيْهِمْ؟ لماذا مثلا لا يطير واحد من متصوفة

عصرنا عبر حدودنا مع الأرض المحتلة ويفتح الأبواب والخزائن والصناديق فى وزارة الدفاع اليهودية، ويأتينا بأسرار العدو العسكرية ويستولى على كَمْ مدفع عَلَى كَمْ صاروخ طويل المدى على كم قنبلة نووية على كم طائرة يدسها فى جيبه أو يضعها فى مخلاته التى على ظهره حتى نستطيع ضرب دولة العدو فى مقتل؟ ويا حبذا لو عرّج فى طريقه على البنك الوطنى لآل صهيون وسحب لنا عدة مليارات تنفعنا فى زنقتنا الراهنة وتفك عن الشعب ضيقته، فيشمّ نفسه قليلا . وإذا كان هذا كله هو عمل متصوف واحد فما بالكم لو قامت به عدة جماعات؟ لا ريب أنهم سوف يخربون بيت إسرائيل، وبيت أمريكا والذين خلفوا أمريكا أيضا فوق البيعة، ويضعون حدا للمعاناة التى يقاسيها إخواننا الفلسطينيون المظلومون. أم إن كرامات الصوفية تنحصر فقط فى الطيران المحلى لا الدولى؟ واضح أن إخواننا المتصوفة ينامون دائما وهم عرايا ملط! ولكن ينبغى أن ينصحهم الناصحون بأن يتغطَّوْا جيدا حتى لا يصابوا بالبرد وتكثر عندهم الهلاوس.

وخذ عندك أيضا هذه الكرامة الظريفة التى نحن الآن فى أشد الحاجة إليها، إذ نحن خارجون من ثورة، والجماهير ساخطة فاقدة للصبر لا تريد أن تنتظر حتى تدور عجلات الإنتاج ويفيض الخير، وفى ذات الوقت لا تريد أن تشتغل، ثم هى مع ذلك تريد زيادة المرتبات وتوفير اللحوم والفواكه بأسعار رخيصة. ففى كتاب "اللُّمَع" للسراج الطوسى يزعم أحد الهلاسين ببجاحة عين أنه كلما توضأ سال الماء منه قضبانا من الذهب. تاهت إذن والتقيناها! تعال يا سيدى يا صاحب الكرامة الذهبية وحول لنا أنهارنا وترعنا ومصارفنا إلى قضبان وسلاسل وحلقان وغوايش وماشاءاللاهات وبروشات وعقود ذهبية بدلا من الماء الملوث المنتن فى تلك القنوات والترع والأنهار، وخَلِّ الغَلاَبَى يفرحوا قليلا بدنياهم وتتزين نساؤهم وبناتهم بذهب حقيقى بدلا من الذهب القشرة، والذهب الصينى الذى هَلّ علينا فى السنوات الأخيرة. نعم خَلِّهم يقبّوا على وجه الدنيا من نفسهم مرة، فيكتب الله لك أجرا عظيما، فإنما تُرْزَقون بضعفائكم.

كما أن هذه الكرامة سوف تحل المشكلة الأزلية المتمثلة فى أن شعوبنا لا تحب أن تعمل شيئًا، وإذا عملت لا تتقن ما تعمله، لأن الناس كلهم سوف يكون عندهم من الذهب ما يمكّنهم من العيش الرخىّ الكسول من هنا حتى يوم الدين دون أى عمل متقن أو غير متقن. والطريف الذى يُبْكِى من الغيظ ويفقع المرارة أن صوفيًّا زميلا لصاحب الكرامة لم يشأ أن يفوّت له هذه "المَعْرَة"، فحقّر من شأن القضبان الذهبية قائلا إنها لعب عيال لا يساوى شيئًا. خلاص يا سيدى! اتركوا لنا لعب العيال هذا، وانصرفوا أنتم إلى جِدّ الرجال! نحن متواضعون فى تطلعاتنا وأحلامنا ومطالبنا، ويكفينا أن تتحول مياهنا إلى ذهب، وبخاصة أننا، كما تعلم، شعوب لا تحب العمل وتعب القلب والخَوْتَة الكذابة التى تشغل أنفسها بها الشعوب المتحضرة.

وما دمنا فى أوكازيون الخوارق والعجائب فلنأخذ هذه أيضا، فلن تضرّ: يُرْوَى عن أبى يزيد البسطامى أن أستاذه أبا على السندى دخل عليه مرة بجراب فى يده صَبَّ محتوياته بين يديه، فإذا جواهر من كل نوع، فسأله أبو يزيد: من أين لك هذا؟ فقال: وافيتُ واديا قريبا من هنا، فإذا به يفيض بالجواهر التى تضىء كالسراج، فقلت: أحمل منها قليلا. فعاد أبو يزيد يسأله كى يغيظنى أنا وأمثالى: كيف كان وقتك؟ (أى كيف كانت حالتك الروحية آنذاك؟)، فأجابه بتواضع عظيم لا يتواضعه إلا الصوفيون أصحاب الكرامات: كان وقتى وقت فترة (أى خمول) عن الحال الذى كنت فيه قبل ذلك. يريد أن يقول إن هذه الجواهر التافهة إنما هى ثمرة خموله الروحى، ولو كان نشيطا لكان له وضع آخر. وهو، كما ترى، كلام جميل، لكنه ليس أكثر من كلام. وهل على الكلام جمرك كما تقول العامة؟

ومن المضحك الذى يعكر المزاج الرائق أن بعض الكتّاب فى عصرنا يرددون ما يقوله المتصوفة عن الكرامات التى تقع لهم، كعبد الحفيظ فرغلى على القرنى، الذى كرر فى كتابه عن الشعرانى تكريرَ المصدِّق أن الشعرانى، لما ترقى فى معراج الروحانية، كان يطير من سطح مسجد الغمرى بالقاهرة إلى سطح بيته. الله أكبر! هل هذا معقول؟ لكن الأستاذ القرنى يؤكد أن الكرامات قد أيدها العقل والنقل. وفى كتاب "اللُّمَع"

للسراج الطوسى باب لهذه النقطة يقول فيه إن "أهل الظاهر" من علماء المسلمين ينكرون وقوع مثل تلك الأشياء لغير الأنبياء، ثم يقوم هو بالدفاع عن الرأى المضاد، رأى المتصوفة، وملخصه أن هذا جائز للأولياء أيضا مع بعض الفروق بينه حين يقع على أيديهم وبينه حين يقع على أيدى النبيين.

وأنا لا أحب الجدال فيما يمكن أن نحسمه على أرض الواقع، التى هى أفضل من ملايين المجادلات، وأقول دائما لمن يزعم وقوع الكرامات منه أو من غيره: لماذا لا يستخدم أصحاب الكرامات كراماتهم فيما يفيد الأمة بدلا من تلك الأشياء التى لا تقدم ولا تؤخر؟ هاكم إسرائيل مثلا، فأرونا كراماتكم فى هزيمتها وإزالتها مراغمةً للكفار الذين أَرَوْنا عجائب قدرتهم العلمية والسياسية والعسكرية فى إقامتها والحفاظ عليها حتى يوم الناس هذا وسط مئات الملايين من المسلمين، والمسلمون بحمد الله فيهم من أهل الطريق أصحاب الكرامات هذه الأيام ما يكفى لأداء هذه المهمة الجليلة وزيادة! ونترك لهم تدبير الوسيلة التى يزيلونها بها: دعاءً ضدها، أو نفثًا تجاهها، أو تَفْلاً عليها، أو ترابًا يحثونه فى وجوه أهلها، أو أى شىء آخر مما يَرَوْن أنه كفيل بأداء تلك المهمة المهمة! ثم إن للصوفيين عند أمريكا لمنزلةً، وأى منزلة! فلِمَ لا يستغلونها لتنفيذ هذا الأمر الذى عَىَّ به العرب والمسلمون أجمعون، وحاق بهم من جرائه الكوارث التى لم تكن تخطر لهم على بال؟ وقد تستجيب أمريكا لهم فتكفيهم الدعاء والنفث والتفل وحثو التراب، وكفى الله المتصوفين القتال!

أما الكرامات التى من شاكلة الكرامتين التاليتين المنسوبتين للسراج صاحب "اللُّمَع" فلا حاجة لنا بها، وليبلها من يصدقون بها ويشربوا ماءها، فلعلها أن تشفيهم من الاعتقاد فى هذه الخرافات المضحكة: تقول الكرامة الأولى إن السراج وفد فى رمضان إلى بغداد، وسكن فى غرفة خاصة به فى أحد المساجد هناك، وأَعْطَوْه رئاسة الدراويش، فكان الخادم يأتيه كل ليلة برغيف ويتركه له فى غرفته، ليفاجأ الناس يوم العيد بعد رحيله بأن الثلاثين رغيفا باقية كما هى لم تمس. أى أن الرجل لم يأكل طوال ثلاثين يوما، وأنه قد صلى وقرأ القرآن خمس مرات فى صلاته بالناس فى التراويح، وكان يذهب هنا وهناك ويتحرك طوال الشهر، دون أن

تدخل معدته لقمة واحدة. يا للجبروت! فهكذا تكون التقوى، وإلا فلا. ويريد المتصوفة أن نصدق هذه الترهات! أنا أميل، إن صحت الرواية، وأنا لا أصححها أبدا، أن السراج قد عاف الرغيف القرداحى الذى كانوا يتعطفون به عليه وكأنه وليمة فيها ما لذ وطاب، فلم يقربه، وكان هناك من يمده فى السر بشهى الطعام بدلا من هذا الطعام الجَشِب.

أما الكرامة التالية فخذ حذرك حتى لا تسقط من الرعب، إذ يحكى السذج أو الخبثاء (لا فرق!) أن السراج أيضا، خلال محادثاته فى التصوف ذات مرة، أخذه الحال فقذف بنفسه فى نار موقدة وهو يدعو الله، فلم تلفح له وجها، ولم تحرق له ثوبا. يحكى القصة من حكاها بكل برود وجمود وجه. لكن هل يظن أننا يمكن أن نصدق قصة كهذه ونعتقد أن الله نجى السراج من الحريق، وهو سبحانه وتعالى قد حذرنا من رمى أنفسنا بأيدينا إلى التهلكة؟ هل يريد هؤلاء الملتاثون أن نصدق أن عواطف السراج الدينية أقوى من عواطف النبى وصحابته؟ وإلا فلماذا لم يقدم أى منهم على مثل ذلك التصرف المخبول، الذى كنت أود أن يحترق فيه السراج حتى يريح ويستريح بدلا من هذا التخلف الأزلى؟

حتى الغيب ادَّعَوْا أن بمستطاعتهم الاطلاع عليه. يقول د. عبد الحليم محمود فى كتابه: "قضية التصوف- المدرسة الشاذلية" عن الشيخ عبد الفتاح القاضى محفظ القرآن فى قرية شِبْلِنْجَة، الذى يعده من العارفين بالله: "سأله مرةً سائلٌ فى قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" قائلا: كيف يتفق أن النفس لا تدرى ما تكسب غدا مع ما يختص الله به أولياءه من أسرارٍ ومغيَّباتِ المستقبل؟ فكان جوابه فى إيجاز بليغ: لقد قال سبحانه: "وما تدرى نفس"، ولم يقل: "روح". وإيضاح ذلك كما سمعناه ونرويه بالمعنى لا باللفظ أن النفس، بما غطى الله عليها من ران الطباع وما غشاها به من كثافة ذميم الخصال، لا يمكن أبدا أن تدرك شيئًا من أسرار الله. وهذه هى النفس المرادة فى الآية. فإذا ما ارتقت من نفس أمارة بالسوء إلى

نفس لوامة، ومن لوامة إلى مُلْهَمَة، ومن مُلْهَمَة إلى مطمئّنة، ومن مطمئّنة إلى راضية، ومن راضية إلى مَرْضِيّة دخلت فى حيز النفس الكاملة. وحينئذ تكون قد تخلصت من ران الطباع وكثافة ذميم الخصال، ولا يتحكم الجسد فيها، ويكون صاحبها روحانيا. وهذه المرتبة هى التى تسمى فيها النفس: روحا. والروح سر من أسرار الله، ولأنها سر الله فهى درّاكة عالمة بما كان وما يكون. فإذا وصل صاحبها إلى هذه المرتبة انكشف الغطاء ورأى أمامه غرائب الماضى وخفايا الحاضر وعجائب المستقبل. وكل روح فى أصلها كذلك. فإذا ما غيبت فى الجسد سيطر عليها بكثافته، وغطى ما تحويه من أسرار. فمن جاهد وأخرجها من هذه الكثافة عاد بها إلى أصلها، واستحقت أن تنادَى: "يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضيّة * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى". وأولياء الله الذين اختصهم بأسراره منهم من وصل إلى هذه المرتبة، ومنهم من تجازوها. وبذلك تنجلى الشبهة فى السؤال، ولا تعارض الآية ما يختص الله به أحبابه من أسرار. فهم علماء الله بحق، الذين عناهم بقوله: "وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم". وهم بعينهم الذين تناولتهم الآية الكريمة: "إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ" . . .".

والحق أننى لا أدرى كيف يمكن تفسير الآية بهذا الكلام الغريب! إن كلمة "نفس" فى الآية وفى جميع السياقات المشابهة إنما تعنى "الإنسان"، وإلا فمعنى ذلك أن أصحاب النفوس التى غطى عليها الران وغَشِيَتْها كثافةُ الخصال الذميمة هم وحدهم الذين يجهلون الغيب ولا يعرفون ماذا يكسبون غدا ولا بأى أرض يموتون، أما غيرهم فيعرفون الغيب ولا يجهلون شيئًا مما يقع لهم فى المستقبل. أليس كذلك؟ فأين يا ترى نضع رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى لا يصل الشيخ القاضى ولا كل الشيوخ القضاة فى العالم إلى موطئ قدمه فى الروحانية والتجرد؟ لقد أكد القرآن أنه، عليه الصلاة والسلام، لا يعلم الغيب ولا يدرى ما يُفْعَل به ولا بأى واحد من المسلمين حسبما تقول الآية ٥٠ من سورة "الأنعام" والآية ١٨٨ من سورة "الأعراف" والآية ٩ من سورة "الأحقاف" وغيرها من الآيات. أم إن القاضى يظن أنه أرفع درجة من الرسول الكريم؟ كذلك نسمعه

يقول إن من أولياء الله الذين اختصهم بأسراره منهم من وصل إلى هذه المرتبة، ومنهم من تجاوزها . ومعنى ذلك أن هناك درجة أخرى وراء علم الغيب قد وصل إليه من تجاوز هذه المرتبة. فما تلك الدرجة يا ترى؟ الحق أن هذا كلام متفلت خارج أسوار العقل.

كما أنه يخلط بين قوله تعالى فى الآية السابعة من سورة "آل عمران": "وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم" وبين علم الغيب مع أن الأمرين مختلفان: فالآية تشير إلى أن فى القرآن آيات متشابهات لا يعلم تأويلها سوى الله والعلماء الراسخين فى العلم لأن هؤلاء العلماء يتميزون باستفاضة المعرفة ولطف الفهم ودقة التفسير، ولا علاقة لها بعلم الغيب. إلا أن الشيخ القاضى يخلط بين الأمرين، اللذين لا توجد بينهما أية صلة، فيفسد الأمر إفسادا شنيعا ما كان أغناه عنه لو لزم حدوده ولم يُفْتِ فيما لا علم له به. بل إن بعض المفسرين يقولون إن تلك الآيات التى تشير إليها الآية لا يعلم تأويلها إلا الله وحده. أما جملة "والراسخون فى العلم يقولون: آمنا به، كل من عند ربنا" فهى جملة مستأنفة لا علاقة لها بما مضى. أى أن الواو التى فى أولها ليست واو عطف بل واو استئناف. إلا أن الشيخ طبعا لا يعرف شيئا من هذا، فيفتى على مزاجه ظنا منه أنه أتى بما لم تأت به الأوائل ولا الأواخر.

ومن ذكرياتى الدينية المتعلقة بالمساجد تلك الليالى القمراء الصيفية الرائعة التى كنا نقضيها أحيانا بعد وفاة والدى نائمين على المشّاية (أى الترسينة التى تصل بين الطرفين العلويين لدارنا بالقرية، والتى لم يكن تحتها إلا الفراغ بين البيت والدكان)، إذ كنت أنام فوق الشلتة التى كنت أرى جدى رحمه الله منذ سنوات قبل وفاته متمددا عليها فى مرضه صامتا لا يتكلم، وكان الطل يهبط فى آخر الليل علينا ونحن نيام بدلا من القيظ الخانق الصاهر داخل الغرف فنشعر أننا فى الجنة. ثم تتم السعادة بصوت المؤذن على سطح المسجد المجاور، مسجد سيدى أبو الريش. وكان المؤذن هو الحاج محمد الرِّبَة، صاحب الصوت الندى الحنون، فكان صوته ينزل على قلبى سلاما وابتهاجا رغم أننى لم أكن أنهض من مرقدى للصلاة، بل كنت أبقى فى

فراشى أتنعم بالصوت والجو الروحانى الشفيف، ثم أعود للنوم دون أن أشعر. لقد كنت فى نحو التاسعة من عمرى آنذاك.

كما كنت مغرما ككل أولاد الريف فى ذلك الوقت بصوت طبل المسحراتى والبازة التى تسبق بها أم عوض طبل المسحراتى بقليل، فكأنها تمهيد له. وكانت أم عوض تكتفى بأن تنادى الناس فى البيوت قائلة فى بساطة محببة: "أنا ام عوض يا ولاد". وفى ليلة من الليالى، وكان أبى قد مات، عزمت على أن أبقى فى الشارع حتى أرى، وجها لوجه، المسحراتى وهو يقرع طبله أمامى لا مجرد سماع، فنمت على التراب فوق مصطبة بيت الشيخ أحمد زيد صانع القفف والغلقان بعيدا بضعة أمتار عن بيتنا، إلى أن استيقظت على صوت طبل المسحراتى، فكنت كمن بُعِث من القبور إلى الحياة مرة أخرى من شدة الفرحة. وبطبيعة الحال لم أخف من العفاريت، إذ كنا نؤمن أن العفاريت تُسَلْسَل فى ليالى رمضان، كما كان الوقت صيفا فلا ينام الناس مبكرين كما يفعلون فى فصل الشتاء والأمطار والبرد، فضلا عن أن الناس فى رمضان يسهرون ولا يخلدون إلى الفراش سريعا على عكس الحال فى ليالى الشهور الأخرى، وبعض الدكاكين لا تزال مفتوحة، وأنوار مصابيحها تزيح ظلمة الشوارع.

والآن نعود إلى مسيرة حياتى فأقول: لقد كان التعليم فى طفولتى جادا لا يعرف الهزل ولا التدليل، وكان أهلونا يرددون أن "عصا الفقيه من الجنة". وهو معنى عجيب، إذ ينظرون إلى العصا لا على أنها أداة للضرب المؤلم، بل على أنها وسيلة تربوية ناجعة تأخذ بيد الطفل إلى مراقى العلم والفلاح. ولهذا لم يحدث تقريبا أَنِ اعترض أحد من أهلينا على ضرب الفقيه للتلاميذ. وكان سيدنا الشيخ مرسى رضوان، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، كفيفا فكان يضربنا بالخيزرانة التى فى يده لا يبالى أين تقع من أجسادنا. كما كانت هناك الفلقة، التى كانوا يضعون أرجل التلاميذ المهملين أو المتمردين فيها حيث يُلَفّ عليها الحبل المربوط فى طرفى عصا غليظة من قِبَل ولدين من أولاد الكتاب الأشداء، فلا يستطيع التلميذ، ولو كان أجعص جعيص، أن

يتفلفص منها قيد شعرة، ثم ينهال الفقيه بالخيزرانة الرفيعة اللدنة على باطن قدميه حتى يلهبهما ، ويبكى الولد ويصرخ لعنان السماء ، وما من مجير . وأنا ، وإن كنت غير راضٍ تماما عن تلك الطريقة القاسية، أرى أن تدليل الأولاد الآن قد بلغ الغاية من السخف والبلاهة بحجة التربية الصحيحة، وأرى أن المنهج السليم فى التربية يقع فى نقطة وسط بين تلك القسوة وهذا التدليل الأحمق المفسد . وإلا فلو كان العقاب أمرا سيئا فلم جعل الله، إلى جانب الجنة، نارا محرقة تشوى الجلود وتصهر ما فى البطون؟ إن الحياة ليست نعيما ورُفَهْنِيَة، بل عمل شاق وجِدٌّ صارم، وفيها بجوار هذا بعض السعادة والابتهاج. فلماذا يا ترى يريد بعض الناس الذين يزعمون أنهم يفهمون التربية أفضل من غيرهم أن يُعْفُوا الطفل والتلميذ والطالب من العقاب إذا أخطأوا أو أهملوا ؟ لقد انهار التعليم فى مصر والعالم العربى، ضمن أسباب انهياره، بسبب سياسة التدليل والتربيت على الأكتاف المتبعة مع التلاميذ والطلبة رغم كل ما نشاهده من أفعالهم السيئة التى لا تطاق حتى لقد صار الكثير منهم لا يحضرون الحصص والمحاضرات، ويظنون أن مجرد الاستذكار هو تكليف لهم بما لا يطيقون، ومن ثم لا ينبغى أن يُطَالَبُوا به.

وقد اشترك فى تعليمنا بجمعية المحافظة على القرآن الكريم، حيث كنا نجلس على مقاعد أو دكك خشبية نظيفة وأمام كل منا قمطره الخاص، عدد من المشايخ والأساتذة على رأسهم سيدنا الشيخ مرسى رضوان (وهو فعلا سيدنا وتاج رؤوسنا جميعا . ألم يعلمنا القرآن المجيد ؟)، وهناك ابنه الشيخ نبيه، والشيخ إبراهيم حجاج، والشيخ محمود أبو الخير، والأستاذ عبد الفتاح غازى، الذى ذهب إلى المدرسة فى طنطا، إلا أنه لم يكمل المشوار، وكان يلبس جلاليب أفرنجية أنيقة، ويضع فوق الجلباب الأفرنجى الجميل فى الشتاء جاكتة آنق وأجمل، وكان لطيف المعشر مريح ملامح الوجه، لا أذكر أنه ضرب أحدا منا ، ومع ذلك كانت له هيبة. وكان يعلمنا الإملاء والحساب، أما القرآن فيعلمناه المشايخ السابقة أسماؤهم، وإن كان الشيخ نبيه

ينفرد عنهم بتعليمنا القرآن والإملاء والحساب جميعا . وكان أحيانا ما يستقل هو وأبوه بقسم من التلاميذ فى كتّابهما، ثم تدور الأيام فيعودان إلى االتحام بجمعية المحافظة مرة أخرى.

وكان هناك قبل كثير من هؤلاء الأستاذ، أى الأستاذ أحمد تَنُوَة، وابنه الأستاذ محمد تنوة، الذى ترك الجمعية مبكرا والتحق بالمدرسة الإلزامية، ثم أصبح ناظرا لها يوم أن كنا نهتف فى فنائها الصغير بالناحية البحرية مرددين فى طابور الصباح نشيد "مصر مصر مصر أمنا" حين التحقتُ بها قبيل وفاة والدى، إذ كان يُعِدّنى للمدرسة الإعدادية فى طنطا، وأخى الأكبر للأزهر الشريف. وكان الأستاذ تنوة من أصدقاء أبى، ويأتى إلى الدكان فيجلس على الكرسى، ويدخن السجائر، ولكنه لا يأخذ من كل سيجارة إلا عدة أنفاس قليلة ثم يلقيها على مد ذراعه بأناقة بل بتأنق، فكان هذا التصرف منه يعجبنى جدا. لا أقصد أننى كنت أعرف مضارّ التدخين فأنا سعيد بأنه لا يكمل تدخين السيجارة كلها، بل لأن هذا كان فى نظرى دليل رفاهية واستغناء، فهو يحرق الفلوس ثم يلقيها على الأرض لا يبالى.

وكان هناك أيضا الشيخ أحمد الشيخ، والشيخ محمد الدعلوب، الذى التحق قبيل وفاته بفترة بالإذاعة والتلفاز مُوَشّحًا دينيًّا ذا صوت جميل، والذى ما زالت صورته فى خيالى حتى الآن رغم انصرام كل هاتيك العقود الطويلة وهو يعلمنا فى الفصل الجديد فى آخر الفناء بجوار مكتب الناظر كيفية الوضوء والصلاة، وما فتئت عبارة "حذاء أذنى" ترن فى مسمعى حتى الآن حين كان يطلب منا أن نردد وراءه ما ينبغى أن نعمله حين نكبِّر أو نركع أو نقوم من الركوع أو نهوى للسجود: "وأرفع يدى حذاء أذنى". ومن الطريف أننى ظللت فترة طويلة أظن أن إطار الأذن يُدْعَى: "جزمة". أليست كلمة "حذاء" تعنى "جزمة"؟ أرأيتم عبقرية كهذه العبقرية التى خصنى المولى بها؟ رحم الله الجميع. ترى لو لم يقيض الله لنا هؤلاء المشايخ والأساتيذ فماذا كنا نصير؟ أدعو الله لهؤلاء الرجال الكرام بالجنة والرحمة والرضوان، فقد أَدَّوْا دورا حضاريا عجيبا رغم أننا لم نكن نقدر ما صنعوه معنا حين كنا تحت أيديهم.

قلت: "رحم الله الجميع" لأنى كنت أظن أنه، بموت الشيخ إبراهيم حجاج منذ شهور، يكون جميع هؤلاء الأساتذة والمشايخ قد تُوُفُوا. إلا أننى، من جواب على سؤال عابر وجهته للأستاذ بسيونى صيرة جارنا المحامى الخبير بكل شىء وكل شخص فى القرية، عن الشيخ محمود أبو الخير، الذى كان قد أخبرنى ابن خالى قبلا أنه مات، علمت أنه لا يزال حيا يرزق، فعاودت السؤال للتحقق من صحة ما أسمعه عنه، فأكد لى صديقنا المحامى أنه ما برح على قيد الحياة، فاتفقت معه على أن نذهب نزوره لأقضى بعض ما له من حق عندى بوصفه أحد من علمونى فى صغرى ممن لولا هم ما صرت إلى ما أنا عليه الآن، إن كنت شيئًا فعلا. وفعلا ذهبت أنا والمحامى المذكور وزرته فى زُقْرِه، الذى لم أدخله فى حياتى قرب الجامع الكبير بوسط القرية سوى مرتين تقريبا قبل ذلك، فجددت العهد بذكريات الطفولة هناك، وإن كان كل شىء قد تغير، ووجدت الشيخ محمود لم تتغير ملامحه تغيرا يذكر، وكان سعيدا بالزيارة، وقبلت يديه مرتين معلنا أن له فى رقبتى دينا لا يمكننى قضاؤه، وقدمت له هدية على سبيل التعبير عن تقديرى له. وكان هناك بنتان وولدان من أبناء الجيران يحفظون على يديه القرآن، فأخذت أداعبهم وأشجعهم، واشتريت لهم بعض الحلوى، وأعطيتهم بعض الجنيهات القليلة. ولا شك أنهم قد استغربوا تصرف ذلك الرجل العجوز الخارج عن نطاق ما ألفوه. وعدت من الزيارة، وأنا سعيد أن الشيخ محمود أبو الخير لا يزال حيا، وأننى قد عبرت له قبل أن أموت عن إحساسى العميق بالدين الذى يديننى به والذى لم أكن أقدره حق قدره من قبل، راجيا من الله أن أتمكن فى الزيارة التالية لى إلى القرية من زيارة الشيخ مرة أخرى وحمل بعض الألطاف مرة أخرى إليه، وهو ما فعلته بعد الزيارة الأولى بنحو أسبوعين حين زرت القرية مرة أخرى فى طريقى لحضور عقد القران الخاص بحفيد أخى الأكبر بالإسكندرية، وأنوى أن أكرره كلما استطعت، تعويضا لهذا الأستاذ الذى علمنا هو وأمثاله القرآن المجيد لقاء قروش زهيدة لا تسمن ولا تغنى من جوع فى ذاتها، إلا أن الله سبحانه وتعالى "طرح فيها البركة" بتعبير أهل القرية.

ومن الذكريات الطريفة التى لا أزال أذكرها عن الشيخ محمود أبو الخير أنه كان يسمّع لوحا أو حصة لأحد الأولاد الكبار العفاريت، فغلبه النوم من كثرة الإرهاق والصخب والزعيق فى الأولاد والاستماع إليهم، علاوة على حرارة الظهيرة الصيفية، فما كان من التلميذ الكبير المخضرم إلا أن أخذ يردد على أذن الشيخ محمود محاولا أن يوقظه قائلا: "شيخ محمودُ، يا داودُ!"، ولما لم يرد عليه الشيخ محمود المستغرق فى النوم من شدة الإرهاق أخذ يردد هذه الجملة المسجوعة عفو الساعة: "شيخ محمودُ، يا داودُ!". يريد أن يقول: إننى، يا شيخ محمود،قد انتهيت من تسميع لوحى (أو حصتى)، ووصلت إلى قوله تعالى من سورة "سبأ": "يا داود، إنا جعلناك خليفة فى الأرض...". أى لقد وصلت إلى نهاية الشوط، وأريدك أن تطلق سراحى.

ومن هذه الذكريات أيضا أن والدته كانت ترسل إليه من حيهم البعيد نسبيا عن حى كتّاب سيدنا الشيخ مرسى رغيفى عيش مرقرقين من أرغفة الريف المبططة ومعهما بيضتان مشويتان أو أكثر، فيلف البيض فى الرغيفين، ويمسكهما بيديه الاثنتين ويأكلهما بهذه الطريقة الغريبة الظريفة التى وصفها د. طه حسين فى كتابه: "الأيام" وقال إنه طبقها فى طفولته ذات مرة فأثارت ضحك إخوته وأخواته واستغراب أبيه وبكاء أمه. وبالمناسبة فالشيخ محمود كفيف مثله. وكانت عيوننا تتابعه، وهو يأكل البيض، بشىء من الحسد لأننا نكون ساعتئذ جائعين مرهقين، ولأن البيض لم يكن طعاما عاديا فى تلك الأيام، أيام الفقر الذّكَر، كما كانت رائحة صفار البيض بلونه الفاقع الجميل تفغم أنوفنا، فلا نملك ريقنا من التحلب "داخل أفواهنا"، ولا داعى للفضائح أكثر من هذا.

كذلك أخذنى والدى مرة معه إلى طنطا فى صغرى واصطحبنى إلى محل حلوانى فى شارع البورصة وأطعمنى هريسة، فأحضر الجرسون لى شوكة آكل بها الحلوى. وكانت أول مرة أرى فيها الشوكة، دَعُكَ من استعمالها، فنحن لم نكن نعرف الهريسة فى القرية، كما كنا نستخدم أيدينا غالبا فى تناول الطعام، أما إن اردنا تحبيك المسألة فعندنا الملعقة. ولما عدت إلى القرية أخذت أحكى لجيراننا ما وقع، وجاءت سيرة الشوكة،

فلم أعرف ماذا أسميها . وهنا تفتقت عبقريتى (ألم أخبركم من قبل أننى عبقرى، فلم تصدقوا ؟)، فقلت لهم إن الحلوانى قد أعطانى "مِذْرَة صغيرة" آكل بها الحلوى. فضحك الجميع، وتبرع أحدهم فأفهمنى أنها تسمى: "شوكة"، وهو ما أثار دهشتى، إذ إنى أعرف الشوكة، وهى تشبه الإبرة، فما علاقة هذه بتلك؟ وبهذه الطريقة المزعجة دخلت كلمة جديدة قاموسى اللغوى لم تكن فيه من قبل.

وبما أننا بصدد تنامى معجمى اللغوى أذكر أننى، وأنا فى المدرسة الابتدائية بالقرية بعد ذلك ببضع سنين، وكان والدى قبل أن يموت بقليل قد أخرجنى من الكتاب وجمعية المحافظة وأدخلنى تلك المدرسة إعدادا لى لدخول التعليم المدنى، فى الوقت الذى كان يعد أخى الأكبر للالتحاق بالأزهر، كنت أقرأ أمام مدرس العربى نصا من كتاب قراءة الفرقة الرابعة، ومرت بى فى النص كلمة "مهذّب"، فظننت أنها تعنى الرجل "المهزَّأ"، أى غير المحترم، للتقارب الشديد بين حروف الكلمتين. ورغم أن الأستاذ قد شرحها بأن معناها الشخص المحترم فقد ظللت فترة لا أستطيع هضم هذا الشرح الذى بدا غريبا جدا فى نظرى آنذاك.

كما أذكر أننى فى حصة القواعد قد طلبتنى المدرِّسة (أبله نجاة) من فصلى (رابعة ١) إلى الفصل الآخر (رابعة ٢) لإجابة سؤال عن أسماء الاستفهام لم يستطع التلامذة هناك أن يجيبوا عليه، ولما أفلحتُ فى الإجابة المرادة طلبت منى أن أدور على الصفوف وأصفع كل تلميذ ممن عجزوا عن الجواب. ولا أذكر الآن تفاصيل ما وقع، إلا أن هناك أمرين مهمين: أن التلاميذ المصفوعين فى هذه الحالة لن يسكتوا غالبا على من صفعهم، بل المنتظر أن يؤذوه بعد الانتهاء من الحصة، كما أن هذا المنهج مسىء تربويا كما هو واضح لا يحتاج إلى تبيان. والغريب أننى كنت قد انتقلت مباشرة من الكتاب وجمعية المحافظة على القرآن الكريم إلى السنة الرابعة على عكس بقية التلاميذ، الذين وصلوا إلى فرقتهم بالتدرج الطبيعى بدءا من السنة الأولى الابتدائية، فكان المتوقع أن يكونوا أفضل منى ويعرفوا الجواب ولا أعرفه أنا . ولكن هكذا سار الأمر. وأرجو ألا أكون قد تعرضت إلى الانتقام بعد خروجنا من الفصل، فأنا لا أستطيع أن أذكر ماذا حدث بعد ذلك.

وفى المدرسة الابتدائية كنت، فى حصة العلوم، أرسم صور الطيور والحيوانات التى أراها أمامى فى الكتاب رسما متقنا، لا لأننى كنت بارعا فى الرسم ذاته، بل لأننى كنت بارعا فى تقليد ما هو مرسوم أمامى. وكان الأستاذ يُسَرّ من صورى. ثم إننى وزميلا لى أخبرْنا مدرس الرسم، وكان اسمه فيما أذكر مصطفى القرش، وهو من قرية مشال، التى منها د. زغلول النجار والتى لا تبعد عن قريتنا سوى ثلاثة كيلومترات، أننا نحب الرسم، فطلب منا أن نقابله بعد العصر فى غرفة النشاط، فأتيناه فى الميعاد، فكلَّفَنا رسم بعض الأشياء عن طريق التنقيط باستعمال سن القلم الرصاص فى الضغط على ورقة اللزق الملونة بحيث تلتصق النقط التى تنفصل من الورقة على صفحة كراسة الرسم مكونة الصورة المرادة، وهو ما فشلنا فيه على النحو الذى أراده الأستاذ القرش وتوقعه منا. وشعرنا، كما شعر هو من قبلنا، بخيبة الأمل، وخرجنا ولم نعاود مثل هذا الادعاء مرة أخرى. كما كان هناك طين الصلصال، الذى كنت أصنع منه صورة ثعبان أو وجه إنسان، ثم لا شىء آخر عدا هذا، إذ لم أكن موهوبا فى مجال الفن التشكيلى البتة على عكس ابنتى الصغرى سلوى، التى تتقن الرسم إتقانا مدهشا، وحاولتُ إغراءها بالالتحاق بكلية الفنون الجميلة عبثا، فرفضتْ وفضلتِ الهندسة عليها.

ونعود إلى الكتّاب وجمعية المحافظة فأقول: كانت الطريقة التى تعلمنا بها فى طفولتنا القراءة والكتابة طريقة ممتازة. وإنى لأؤكد أننا، منذ أتقنّا القراءة والكتابة، لم نعد نخطئ فى الإملاء أخطاء تذكر. ولا أظننى قد أضفت إلى ما تعلمته فى القرية شيئًا فى الإملاء ذا قيمة. لقد كانوا فى كثير من الأحيان يستفزّون قدراتنا بأن يطلبوا منا مثلا كتابة كلمات وجمل من نوع "توت عنخ آمون" أو "اللؤلؤ يتلألأ" أو "ما لكم تكأكأتم علىَّ كتكأكُئِكم على ذى جِنَّة؟ افرنقِعُوا" وما إلى ذلك، كما علمونا اللام القمرية واللام الشمسية، وكذلك الفرق بين الحروف المعطّشة وغير المعطّشة، وبين واوالجماعة وواو الفعل المضارع، وبين التاء المفتوحة والتاء المربوطة، وبين هذه والهاء المربوطة، والفرق بين كتابة العين والغين فى بداية الكلمة وبينها فى وسطها وفى

آخرها بحيث لم نعد نخطئ فى شىء من ذلك البتة على عكس كثير من طلاب الجامعة الآن حتى المتخصصين منهم فى اللغة العربية. وكانت الطريقة التى تَعَلّمْنا بها الكتابة والقراءة تقوم على تدرج أساتذتنا بنا خطوة خطوة بحيث يعلموننا أولا الحروف المفردة وطريقة نطقها وكتابتها، ثم ينتقلون بنا إلى الكلمات الثنائية المفتوحة الحرفين، ثم الكلمات الثنائية المفتوحة الحرف الأول والمكسورة الحرف الثانى. . . إلخ، ثم الكلمات الثلاثية المفتوحة الأحرف الثلاثة. . . إلخ. وما زالت هذه الطريقة متاحة حتى الآن فى كتاب "القراءة الرشيدة"، الذى كنا نتعلم منه فى صغرنا حين تقدمنا قليلا. وكانوا يكتبون لنا على السبورة مثلا كلمة "ضُرِبَ"، ثم يقولون ونحن نردد وراءهم: "ضُرِبَ: ضاد، راء، باء. ضُرِبَ: ضاد، ضمة: ضُ. وراء، كسرة: رِ– ضُرِ. وباء، فتحة: بَ– ضُرِبَ"، وبهذه الطريقة نأخذ بالنا من كل شىء فى الكلمة نطقا وإملاء وضبطا.

أما الآن فطلاب الجامعة أنفسهم، إلا فى الشاذ النادر، لا يعرفون كيف يضبطون الكلمة ولا يستطيعون نطقها نطقا صحيحا رغم ضبطها. كما أن الغالبية منهم لا تستطيع كتابة معظم الكلمات على نحو سليم. والسبب، فى جانب منه على الأقل، هو هجر المدارس لتلك الطريقة التى ينظر التربويون الحاليون إليها بوصفها طريقة بائدة، على حين أنهم هم البائدون الفاشلون، إذ ينقلون الطرق الأجنبية إلى مدارسنا رغم اختلاف لغتنا إملاء ونطقا عن لغاتهم. ولكن ماذا تقول فى الأمخاخ الضيقة التى تظن أن كل شىء يأتينا من الغرب المتقدم لا بد أن يكون متقدما أولا، ومناسبا لنا بل لا يصلح لنا سواه ثانيا، مع أن تقدم الغرب، الذى لا ننكره، لا يعنى أن كل شىء هناك متقدم بالضرورة، ولا أن ما هو متقدم بالنسبة لهم لا بد أن يكون متقدما بالنسبة لنا أيضا؟ ولا أظن إلا أن هناك تآمرا فى الموضوع، إذ إن كثيرا من رجال تربيتنا يأتمرون بما يقوله الأجانب لغاية فى نفس يعقوب، ويطيرون إلى الامتثال لكل ما يطلبونه منهم ومن سياسيينا، الذين لا يصلح كثير منهم لأكثر من أن يكون سائسا فى إسطبل. وما زلت أذكر طريقة "شرشر" و"فلفل"، التى أُدْخِلَتْ إلى مدارسنا فى أواسط خمسينات القرن البائد، وثبت فشلها تماما، إذ كانت تقوم على حفظ شكل الكلمة كلها مرة واحدة، فكان

الأولاد والبنات يعرفون جيدا الكلمات التى حفظوها، أما ما لم يسبق لهم حفظه فكانوا يعجزون عن التعرف إليه، ويقفون مبلِّطين كحمار فى مطلع.

وكان المنهج المتّبع فى حفظ القرآن فى الكتّاب وجمعية المحافظة على القرآن الكريم هو تعيين بضع آيات يقرؤها التلميذ على الشيخ من المصحف، ثم يقوم بكتابتها على اللوح الخشبى المدهون بطبقة طلاء زيتى أبيض، ثم يُصحِّحه على الشيخ، ثم يحفظه، ثم يعود إلى الشيخ لتسميعه. فإذا نجح فى تسميعه دون خطإ انطلق فراجع ما سبق له حفظه من القرآن ليقف بين يدى الفقيه لتسميع حصة من المحفوظ القديم. وفى الغد يتكرر الأمر على نفس النحو... وهكذا دواليك. ومن يفشل فى أداء واجبه يضرب بالعصا، وقد يضرب بالفلقة إذا كان من الكسالى المتخلفين النائمين فى الخط أو من المتمردين أو ممن شكاهم أهلوهم إلى الفقيه. فإذا هرب خوفا من الضرب أرسل الفقيه وراءه بضعة تلاميذ من ذوى الجثث الضخمة والأيد الشديد، فيظلون يبحثون عنه حتى يأتوا به حتى لو كان لائذا بالبروج المشيدة أو كان مختبئا تحت طقاطيق الأرض. وهنا لا مفر من الفلقة. ومن ثم ترَوْنَنى أصف التعليم فى الكتّاب والجمعية بأنه كان جِدًّا كله، ومرارةً كله، ولا موضع فيه للهزل أو العبث. وكنا، ونحن نُسَمِّع اللوح أو الحصة، نقف أمام الفقيه متباعدى الرجلين نميل مرة إلى اليمين ثم إلى الشمال كبندول الساعة مع الاعتماد على الرجل الموجودة فى الناحية التى نميل إليها ورفع الرجل الأخرى. وكان بعضنا يضيف إلى تلك الحركات العامة حركات أخرى تخصه هو وتميزه عن باقى التلاميذ.

وقد تعرضت لضرب الفلقة مرة رغم أنى كنت ممن لا يُضْرَبون عادة لاجتهادى فى حفظ القرآن وانتقالى من مستوى إلى مستوى أعلى منه قبل زملائى الذين فى سنى وظروفى، بل قبل من يسبقوننى سنا وتعليما، إذ كان قد ضاع مبلغ صغير من المال من البيت، وظن والدى أننى أنا الذى أخذته، وكان لا يطيق أن ينحرف أحد من أولاده حتى إنه، على ندرة ما ضربنى، رآنى ذات مرة أمد إصبعى لأنفض الرماد من سيجارة أحد الزبائن فى الدكان، وكان قد وضعها فوق البنك، فما كان منه إلا أن صفعنى فى الحال على وجهى خشية أن

يكون لمسى رماد السيجارة مقدمة للتدخين. وهو بالمناسبة لم يكن يدخن، كما لا أظنه كان مدمنا للشاى أو القهوة. وكان، على كل حال، حريصا ألا نتعود على أى من هذين المشروبين، ولهذا كان يصنع لنا العصائر المختلفة والسحلب والقرفة والزنجبيل والينسون وخلطة شديد، التى كان بعضهم يسميها: "الورد"، وكان رائعة المذاق. وقد فكرت فى ثمانينات القرن الماضى أيام كنت آخذ زوجتى القاهرية إلى القرية، التى صارت بسببى تحبها على نحو غير اعتيادى أثار استغراب أهل القرية أنفسهم متعلمين وغير متعلمين، أن أشترى من شارع درب الأثر بطنطا خلطة شديد، فأعطانا البائع ما طلبناه، لكن الخلطة كانت داكنة لا وردية، كما كان طعمها حريفا أكثر من اللازم، وتفتقر إلى نكهة الورد المنعشة اللذيذة.

ما علينا. نعود إلى حكاية الفلقة. لقد أحضرنى أبى وحاول أن يقررنى بما لم أفعل، ظنا منه أننى أكذب، فأؤكد له صادقا أننى لم أر تلك الفلوس التى ضاعت. إلا أنه ظل ورائى يقنعنى أنه لا بأس علىَّ إذا ما أقررت بالحقيقة، فكان أن انخدعت بالكلام المعسول، واعترفت، كذبا والله العظيم، أننى أخذت المال تصورا منى أن المسألة ستنتهى عند ذلك الحد، بيد أننى كنت واهما كبيرا، فقد شرع يسألنى ماذا فعلت به، فأخذت أقول إننى اشتريت حمصية وسمسمية، وحمصية وسمسمية، وحمصية وسمسمية، ثم حمصية وسمسمية لا أدرى للمرة الكم، ثم لم أستطع المضى فى شراء الحمصية والسمسمية مع أنه كان عندنا فى الدكان حمصية وسمسمية تكفى الأطفال المفاجيع فى الدنيا كلها وتفيض، فقلت له إن باقى الفلوس قد وقع منى وأنا ألعب فى السوق.

وهنا، وبعد أن ظننت أننى قد عبرت الامتحان بسلاسة وسلام، أخذنى أبى إلى سيدنا الشيخ مرسى فى جمعية المحافظة (فقد كان أحيانا ما يستقل بكُتّابه هو وابنه الشيخ نبيه، وأحيانا ما كانا يدمجانه مع تلاميذ الجمعية ويصير زيت المشايخ كلهم فى دقيقهم)، وإذا بالشيخ مرسى ينادى: إلىَّ بالفلقة، فتأتيه الفلقة فى الحال، وتُشَدّ قدمامى فيها، وهات يا ضرب، فتستحيل قدماى كتلة من النيران الملتهبة حتى إننى لم

أستطع بعد انتهاء العلقة أن ألبس حذائى ولا كان بإمكانى لمس الأرض دون مقاساة الآلام الفظيعة التى لا تطاق. وكانت هذه هى العلقة الفلقية الوحيدة التى نلتها فى المدرسة، وكانت علقة ظالمة. ولكن هل فى نفسى الآن أية غضاضة تجاه أبى أو سيدنا الشيخ مرسى؟ أبدا والله. لقد كانا يربياننى، وإن كانا قد أخطآ الطريق. ولكن النية كانت طيبة. ثم إن هذا الكلام قد وقع منذ ما يقرب من ستين عاما، ولا شك أننى لو كنت ظللت أنقم عليهما طوال تلك الأعوام لكنت صخرى القلب لا ألين. وهذه ليست طبيعتى، كما كان أبى ذا فضائل كثيرة، وكنت أحظى منه أنا بالذات بالتدليل والتشجيع، فكيف أنسى هذا كله ولا أتذكر إلا تلك الشدة التى أخذنى بها مرة وحيدة يتيمة بنية سليمة تبغى تقويمى، وتخشى انحرافى؟

وقد أتممت حفظ القرآن المجيد قبل الثامنة حسبما أذكر مما كان يردده على مسامعى المشايخ الذين حَفَّظُونِيه، وكانت والدتى قد تُوُفِّيَتْ قبل ذلك بعامين أو أكثر، فأهدى والدى سيدنا الشيخ مرسى، الذى حَفِظْنا القرآن على يديه المباركتين، باكو شاى كبيرا وتلفيحة ضخمة مما كان يبيعه فى الدكان تدفئه فى الشتاء حلاوةَ إتمامى حفظ القرآن، وربما شيئًا آخر أو أكثر. وكان يقع فى يدى، بين الحين والحين فى ذلك الوقت، كتاب من كتب الأطفال كنا نتصفحه ونحاول القراءة فيه. ومما أذكره من هذه الكتب كتاب عن سيدنا نوح. ويبدو، اعتمادا على ما لا يزال منقوشا فى الذاكرة، أنه قصة من قصص الأنبياء التى ألفها للأطفال عبد الحميد جودة السحار أو محمد أحمد برانق، وكان قد أحضرها تلميذ اسمه محمد المسيرى معه إلى كتاب سيدنا الشيخ مرسى. كما عثرت فى بيتنا على نسخة من "ألف ليلة وليلة" ممزقة الصفحات الأولى والأخيرة حاولت أن أطابق بينها وبين حلقات المسلسل الذى كان يبدعه المرحوم طاهر أبو فاشا، وفشلت أن أجد ذلك التطابق الذى كنت أبحث عنه، إذ لم أكن أعرف أن أبو فاشا كان يكتفى باستيحاء الجو الألفليلى فقط غير ملتصق بما جاء فى "الليالى العربية" كما يسميها المستشرقون.

كذلك كان فى أحد الأدراج بدكان أبى رحمه الله بعض الكتب مثل "فقه السنة" وبعض أعداد من "كتاب الهلال" ومن مجلة "الدكتور". وكان الوالد أيضا يشترى بانتظام مجلتى "المصور" و"الإذاعة" وكل الصحف تقريبا بما فيها "البعكوكة". وبالمثل كنت ألاحظ اهتمامه بالمذياع، الذى كان يتاجر فى أجهزته، فكنت أستمع معه إلى القرآن الكريم وإلى الأغانى وأحاديث السهرة والتمثيليات، وتتكرر على مسامعى أسماء العقاد وطه حسين وإحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم وأحاديثهم وأخبارهم، فنشأت وأنا أسمع تلك الأسماء الكبيرة وأصوات القارئين والمطربين والمطربات المبدعين، وكانت تشجينى وأحب أن أقلد أصحابها. وما زلت أذكر كيف كنت، وأنا ولد صغير بالكتاب، أقلد صوت الشيخ الشعشاعى، الذى كنت أجده فى ذلك الحين منفرا قبيحا، فكنت أقلده متهكما، فيضحك أبى رحمه الله. إلا أننى، بعدما كبرت، صرت أستمتع بصوت الشيخ نَوَّر اللهُ رَمْسَه، وأجد لما فيه من رسوخ وفخامة وجلال نداوةً وحلاوةً فى قلبى، على عكس صوت ابنه الشيخ إبراهيم، الذى لم أستطع قط ابتلاعه ولا حتى قبول منظره وقد ارتسمت على ملامح وجهه علامات المعاناة الشديدة لَدُنْ قراءته للقرآن.

لقد كنا نحب صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد لحلاوته الحادة، وصوت الشيخ مصطفى إسماعيل لفخامته وشموخه، وصوت الشيخ رفعت لما فيه من حنان متدفق كأنه آت من الفردوس، وكان ولا يزال مرتبطا فى أذهاننا بأذان مغرب رمضان والاستعداد للإفطار بعد صوم يوم طويل، وصوت الشيخ الشعشاعى المختنق الجميل (غريبة! أليس كذلك؟)، وصوت الشيخ محمد صديق المنشاوى الشجىّ الرقراق، وصوت الشيخ طه الفشنى، وصوت الشيخ عبد العظيم زاهر العريض القوى الذى يستولى على الأذن تماما فى سخاء وثقة، وصوت الشيخ الدروى، الذى كنا نسمعه صباحا، ونحن لا نزال فى الفراش، فأربط بينه وبين اللبن الحليب، الذى كنا نأكله عادة فى الصباح يأتينا من عند جيراننا فى تلك الأيام حيث كنا نستمتع بكل ما لدى جيراننا الفلاحين من لبن حليب ولبن رائب وجبن قريش وأذرة مشوية بكل سهولة، وربما دون مقابل أو بمقابل

طفيف على عكس الأمور الآن تماما . وكنا ننتظر قرآن السهرة فى الثامنة على إذاعة القاهرة كل ليلة فى دكان أبى رحمه الله. وكان دور الشيخ عبد الباسط فى أول الأسبوع مساء السبت، يليه يوم الأحد الشيخ الحصرى الهادئ الوقور الرتيب الذى لا يعرف صوته أى نتوء، والجميل مع ذلك جماله الخاص. كما أذكر أن الشيخ الشعشاعى كان يقرأ مساء الخميس، ليكون مسك الختام الأسبوعى هو صوت الشيخ مصطفى إسماعيل مساء الجمعة.

كذلك كنا نستمتع بالأغانى التى تغنيها ليلى مراد وصباح ونجاة على ورجاء عبده ومحمد قنديل وفايزة أحمد وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الغنى السيد ومحمد عبد المطلب وفايدة كامل ونور الهدى ولوردكاش وعائشة حسن وأحلام وسعاد محمد ونجاح سلام وعبد الحليم حافظ وشادية ونجاة الصغيرة وغيرهم. ومن أغانى تلك الفترة أغنية "تلات سلامات" وكذلك أغنية "إن شالله ان شالله ما اعدمك * دى قلوبنا بحور وانت السمك"، التى كنت أضحك عند سماعها لتصويرها للحبيب على هذا النحو الفكاهى، وكأنه سمك "يتلعبط" فى قلب المحب، وإن كان محمد قنديل قد نسى أن يقول لنا هل ينوى أن يأكله مشويا أو مقليا بعد أن يصطاده من قلبه بالسنارة، التى نرجو من الله ألا يَعْلَق خطافها بشغافه فتكون طامّة كبرى. ومن أغانى تلك الفترة أيضا أغنية نجاح سلام: "بَرْهُوم حاكينى"، التى كنت أتصور أنها موجهة لى لأنهم كانوا ينادوننى فى طفولتى: "بُرْهُم"، إذ الفرق بين الاسمين مجرد "واو" لا راحت ولا جاءت، فلا تحبِّكوها من فضلكم وتفسدوا علىَّ فرحتى. وكنت أقرأ نصوص هذه الأغانى مع صور من يغنونها فى مجلة "الإذاعة" التى كان أبى يشتريها هى وكل الصحف والمجلات ويحضرها معه من طنطا ويعطينيها كى أقرأها أول واحد عند حضوره من طنطا، ويناقشنى أحيانا فى بعض ما تنشره. ومن المضحك أننى لم أكن أفهم كيف يحضر والدى مجلة "الإذاعة" يوم الجمعة معه من طنطا عند عودته آخر اليوم رغم أنها تصدر يوم

السبت، أى بعد ذلك بيوم. ولا أظننى حاولت أن أسأله عن هذا "اللغز"، الذى كان يؤرقنى دون أن أجد فى عقلى جوابا شافيا له.

وكنت كثيرا ما أسمع قصيدة "مصر التى فى خاطرى وفى فمى"، التى ألفها أحمد رامى وغنتها أم كلثوم من تلحين رياض السنباطى بُعَيْد قيام ثورة يوليه ١٩٥٢ . وما زلت أذكر سماعى إياها ذات ضحى أمام الدكان فى الشارع الصغير الذى يقع فيه، وكان أبى جالسا على كرسى خارج المحل، ويبدو أن الدنيا كانت ربيعا أو صيفا . وكانت هذه الأغنية وما فتئَتْ تستولى على عقلى وقلبى كلما سمعتها . وقد نزّل أحدُ الطلاب الجامعيين من أقربائى نغمتها فى الأيام الأخيرة على هاتفه المحمول، فكلما طلبته هاتفيا سمعتُ أولا مقطعا من تلك القصيدة قبل أن يرد بنفسه علىّ، فأقول مداعبا إياه: عجيبة يا جحش! كيف استطعتَ أن تلمح روعة هذه الأغنية فى جيلكم هذا المنكود المنكوب بفساد الذوق؟ فيضحك ويرد على "عَمُّو الدكتور" بأى كلام، والسلام! ومع ذلك فإننى أسارع فى كل مرة فأشكره على هذه النغمة الجميلة الجليلة التى تعيدنى فى الحال على ظهر بُرَاق إلى ذلك الضحى الذى لم أكن قد تجازت فيه السابعة من عمرى، إن لم أكن أقل من ذلك. شكرا يا حسين العزلة! وهذا هو اسم صديقنا الشاب، وهو حفيد خالى حسين رحمه الله.

ومن حبى للصوت الجميل أننى لا أستطيع مثلا أن أنسى تلك المرة التى كنت مارًّا فيها بعد العصر أمام قهوة شعبية مبنية من أعواد الغاب (بالطريقة البُغْدَادِلى) على الناصية عند ملتقى شاعر سيجر وشارع الحكمة بطنطا أوائل ستينات القرن المنصرم أيام كانت أحوال طنطا بائسة تمام البؤس (وربما كنت آنئذ فى السنة الثالثة الإعدادية بالأزهر وقت أن كنت أسكن مع بعض الطلاب من قريتى فى آخر شارع الحكمة من جهة الجنوب قريبا من الكنيسة الجديدة التى كانت مبنية حديثًا هناك وحضرت فيها عرس أحد النصارى، متفرجا طبعا دون أية دعوة، شأن أى طفل يرى لأول مرة فى حياته شيئًا كهذا)، فشاهدت فى القهوة المذكورة شابا يلبس بدلة وكرافتة، وعليه علامات الشحوب، وشفته السفلى منتفخة بعض الشىء وفيها تشققات خفيفة أو

توشك أن تتشقق، وقد تأبط، وهو جالس، عودا يضرب عليه لحن أغنية "شَغَلْنِى بضحكته"، وقد غاب عما حوله فلم يعد مشتغلا إلا بالعود واللحن، وأمامه على كرسى مثله شابة فى سنه تقريبا، وعليها نفس ما عليه من شحوب ومسكنة، وهى تغنى فى فَنَاءٍ كاملٍ أغنية شريفة فاضل، التى أسمعها الآن على كاتوبى فتساعدنى على أن أعيش مرة أخرى تلك الدقائق الرائعة التى وقفتها أمام الغرزة الفقيرة أستمع مبهورا حزينا للأغنية، قد اختلط حزنى الشخصى الناجم من شعورى بالغربة فى المدينة بعيدا عن جدتى وقريتى بحزنى لما أراه من معاناة وإرهاق على مظهر الملحن والمغنية التى يبدو أنها كانت زوجته، بحزنى على انصراف رواد الغُرْزَة البلديين عن الفنّانَيْن إلى شايهم وقهوتهم وبوظتهم وثرثرتهم دون الالتفات إلى هذا الشجن البديع الذى خلقه الشابان، ولم يكن يستمتع به فيما يبدو سوى الصبى المسكين الذى لم يَمُتْ فيه قَطُّ اختلاجُ المشاعر على أَشُدّها كلما سمع صوتا غنائيا جميلا. ليت شِعْرِى أين ذهب ذانك الفنانان؟ ولكن هل تبالى الدنيا بأحد، فنانا كان أو غير فنان؟ كان غيركَ أشطر يا "أنا"!

وكان أبى من جانبه يفاخر بى ويشجعنى ويستعرض دائما ما يظنه ذكاء وتفوقا منى أمام أصدقائه، مما أعطانى ثقة عجيبة فى نفسى وإمكاناتى جعلتنى حتى الآن أتصور أنى قادر على التصدى لأية مشكلة علمية رغم ما ألاحظه من أن ذكائى ليس بالذى هناك. وهو ما يدل على أن العبرة فى الأساس برصيد الشخص من الثقة بذاته، إذ إن هذا الشعور كفيل باستفزاز مواهبه واستخراج أفضل ما عنده وحَفْزه على إنجاز أشياء ما كان لينجزها بقدراته العادية لولا تلك الثقة بالنفس. وآية ذلك أننى قد انتهيت من حفظ القرآن قبل أخى، الذى كان يكبرنى بثلاث سنوات، وكان ذكيا جدا، وهو الذى علمنى القراءة والكتابة. رحمه الله رحمة واسعة. لقد كان موقف أبى منى عاملا عجيبا من عوامل الحفز والتشجيع والدفع بقوة إلى الأمام. كتب الله لأبى الجنة. لقد كان رجلا عجيبا يتمتع بالدماثة والنظافة فى كل شىء مع الأناقة والوسامة والانفتاح على الآخرين. كما كان يحب الحياة والسفر ولعب الكرة، ويصلى ويخطب الجمعة دون مقابل فى المسجد المجاور

لبيتنا أو فى عزبة عاشور، التى تبعد عن قريتنا نحو ثلاثة كيلومترات، كما كان حَسَن الخط، وهى سمة ورثتها عنه، وإن لم أطورها وأتعلم الخطاطة حسبما كان ينبغى أن يحدث. وكنت أحبه حبا شديدا وأتعلق به. وكان إذا سافر، وكثيرا ما كان يفعل، وقد يغيب فى سفره يوما أو يومين، تجتاحنى الأحزان. وأظل أنتظر عودته بفارغ الصبر، حتى إذا رأيته، وأنا ألعب مع لِدَاتى فى السوق، راجعا من طنطا راكبا درجته البخارية شعرت بسعادة الدنيا كلها تجتاح أحزانى فى هجوم مضاد وتهزمها بالضربة القاضية. ولا تَسَلْ عن مشاعرى المهتاجة وأنا عائد إلى البيت لأجده هناك. ولسوء حظنا مات أبى فى بداية العقد الرابع من عمره بعد وفاة أمى بسنواتٍ جدّ قليلةٍ، مما أورثنا حزنا وشعورا بالضياع منذ الطفولة.

لقد مات بعد أن أتممت حفظ القرآن بسنة ونصف تقريبا، وكان عمره لا يتجاوز الثلاثين إلا بسنتين أو نحو ذلك. وكانت الوالدة، رحمها الله وأنار قبرها وأسكنها فراديس الجنان، قد سبقته إلى لقاء ربها بنحو ثلاث سنوات بعد معاناة شديدة مع مرض لا أستطيع أن أحدده لأننى كنت فى ذلك الوقت صغيرا جدا، لكنى كنت واعيا بالاهتمام الذى أولاه إياها أبى رحمه الله، إذ كان يذهب بها إلى الأطباء فى طنطا، وما برح يرن فى ذاكرتى اسم د. عمر شاكر بالذات. وقد سمعتهم يتحدثون عن انتشار القيح تحت جلدها فى المراحل الأخيرة فى حياتها القصيرة الهادئة، التى انتهت بحزن شديد حين علمتْ بطريقة درامية بأن أبى تزوج عليها فى قرية بعيدة من قرى مركز قلين بمديرية كفر الشيخ. وهكذا صرنا يتامى تامِّى اليتم، ولولا أن الله استبقى لنا جدتنا (أم أمنا) لَضِعْتُ، فقد كانت تنفق علىّ وأنا فى طنطا أتعلم.

وحين ماتت زوجة أبى بعد ذلك بعشرات السنين شعرت بالحزن الشديد ودعوت الله لها بالرحمة والغفران، ولم أقف عند كونها زوجة أبى وأننا لم نجد عندها ما كنا نجده عند أمى من العطف والحنان، أو أنها كانت السبب فى الحزن العنيف الذى ضرب أمى فى صميم قلبها، وإن كانت السبب الظاهرى فقط لأنها ليست مسؤولة فى الحقيقة عما جرى، إذ لم تسع إلى أن تؤلم أمى، بل وجدت رجلا يخطبها فقبلت الزواج

به. كما أننى لا أجد فى قلبى أى ضيق بتصرف أبى. إنها الحياة، التى لا تسير على مزاج أى منا، والتى لا يمكن أن تخلو من المنغصات. إنها كالجلد والعظم والدهن بالنسبة للحم. هل هناك لحم يخلو من العظم والجلد والدهون؟ هاتوا لى لحما خاليا من ذلك، وأنا أورد لكم حياة خالية من الأحزان. لقد بنيت الحياة على مفارقة عجيبة، وهى أن ما يفرح إنسانا واحدا يؤذى فى الغالب مئات حوله ممن يعرف ومن لا يعرف. وتزوُّج أبى بسيدة أخرى على أمى وإدخاله الحزن القاتل على قلبها هو من هذا الوادى. ثم من خلق الحياة على هذا النحو؟ أليس هو الله، الذى لا يُسْأَل عما يفعل. هذه هى الحياة، ومن لا يعجبه فليشرب من البحر أو فليبحث له عن رب آخر ويعش على أرض أخرى وتحت سماء غير السماء. فهل من مستطيع؟

ولم يخلِّف لنا أبى شيئًا كثيرا، إذ كان لا يزال صغيرا حين فارقنا، فقد مات فى بداية ثلاثيناته كما قلت. ورغم أنه كان تاجرا نشيطا وبارعا ومحبوبا، ويتاجر فى أشياء كثيرة من بينها أجهزة المذياع والساعات فى وقت لم يكن أحد فى الريف يتاجر فى تلك الأشياء فى خمسينات القرن الفائت، فقد كان ينفق لا يبالى، ويحب السفر ويقوم فى الغالب بمصاريف أصحابه الذين كان يأخذهم معه لا على موتوسيكل واحد من الموتوسيكلين اللذين كان يمتلكهما، بل عليهما جميعا. ومن ثم فبعد أن كنا من المساتير بل من الميسورين نسبيا فى حياته رحمه الله صرنا بعد وفاته من المكشوفين. وكانت أغنية محمد عبد الوهاب: "والله ما انا سالى" حديثة عهد بالظهور، فكنت أستمع إليها وأغنيها وكأنها تبكى والدى، وأجد فيها تخفيفا عن اللوعة التى كنت أحس بها لوفاته رحمه الله.

وليس معنى ما كتبتُه عن أبى أنه كان بلا عيوب، فما من بشر إلا وفيه عيوب قَلَّتْ أو كَثُرَتْ. والرجل النبيل الحق من عُدَّتْ معايبه لا من خلا تماما من العيوب، فهذا أمر من الاستحالة بمكان مكين. كل ما هنالك أننى أنظر إلى الشخص لأَرُوزَه: فإن كانت حسناته تَرْجَح عيوبه تكلمتُ فى حقه بكلام طيب، أما إن كانت الأخرى فهذا الذى يمكن أن يعاب. وأبى، رحمه الله، كان من الصنف الأول بكل يقين. وحتى لو كان مَعِيبًا

أيصح أن أفضحه وأنال منه على رؤوس الأشهاد ؟ فأين البِرّ وواجب البنوّة نحو الآباء والأمهات؟ إننى ما زلت أستغرب ما كتبه د . إدوارد سعيد عن والده فى ترجمته الذاتية: "Out of Place"، التى تُرْجِم عنوانها بـ"خارج المكان"، ولا أدرى ما المقصود بهذا . ذلك أن الترجمة كان ينبغى أن تكون مثلا : "فى غير موضعه" أو "فى غير مكانه المناسب"، أو "فى وضع غير ملائم" . . . لقد نال د . إدوارد من أبيه نَيْلاً شديدًا، وحاكمه محاكمة غير إنسانية. ولقد نظرتُ فيما ساقه من مسوغات كى يقنعنا بأن أباه يستأهل ما كتبه ضده، ولكنى لم أقتنع. ألا يكفى أن أباه قد رباه أحسن تربية، وأنفق عليه وواصل تعليمه فى كل مكان حتى حصل على أعلى الشهادات، ولم يقصر يوما معه فى حاجة احتاجها ؟ هل كان د . إدوارد ينتظر من أبيه أن يكون ملاكا ؟ فهل هو نفسه ملاك أو يمكن، تحت أى ظرف من الظروف، أن يكون ملاكا ؟

وبالمثل فإنى أستغرب مما كتبته أخت زوجة تونى بلير (الصحفية والمذيعة البريطانية التى أسلمت بآخرة) عن أمها فى بعض الصحف البريطانية، إذ صورتها فى صورة الأم القاسية التى لم تكن تعرف معنى الأمومة ولا تشعر بشعور الأمهات. ومن بين ما قالته عنها أنها كانت تنفر من رغبتها فى تقبيلها واحتضانها وتبعدها عنها فى ضيق كلما همت بتقبيلها أو الارتماء فى أحضانها . كما كانت ترفض أن تضىء الونّاسة الكهربية لتتغلب بها على ما يحس به الأطفال من رعب حين ينامون فى غرفةٍ وحدهم، رغم أن جدة البنت الصغيرة هى التى اشترت لها الوناسة وأعطتها البنسات التى يحتاجها العداد الكهربائى المنزلى، مصرة على أن تطفئ الوناسة بيدها، واجدة لذة فى ذلك الإطفاء حسب كلام الابنة فى مقالها . وكانت تقدمها لضيفاتها قائلة: كل أطفال الجمعة يتميزون بالحب والرغبة فى العطاء ماعدا لورين، فهى خبيثة وشكاءة بكاءة. ومما ذكرته لورين بوث أيضا أن أمها كانت تؤثر عليها أختها الصغيرة إيثارا كبيرا واضحا . ترى ألو كانت أمى قد عاملتنى هذه المعاملة أكنت أذكر ذلك حين أكتب عنها ؟ لكن ألم تعامل تلك الأم البريطانية ابنتها معاملة طيبة على الإطلاق؟ أنا متأكد أن أمى لا بد أن تكون قد ضربتنى ونهرتنى ولم تستجب لى فى كثير من مطالبى

ورغباتى كما تفعل الأمهات كلهن تقريبا فى بعض الأحيان، فضلا عن أنها مثلا قد حملتنى ذات يوم إلى المدرسة على غير هواى ودخلت بى الفصل وأنزلتنى من فوق كتفها على الأرض وتركتنى هناك تحت أبصار التلاميذ الشامتين غير عابئة بخجلى وبكائى وتوسلاتى أن تعود بى معها إلى البيت مثلما جاءت بى. بيد أنها، من الجهة الأخرى، كان لها بكل تأكيد مآثر كثيرة كفيلة بأن تجعلنى أغفر لها قسوتها، إن جاز أن نسمى مثل تلك الأمور: قسوة وتعنتا . ويبدو أن تربيتنا، على الأقل: فى ذلك الزمن، لا تسمح لنا بأن نعيب آباءنا وأمهاتنا مهما كان منهم تجاهنا من شدة فى التربية والتوجيه. المهم أنا راضٍ عن أمى رحمها الله، وأدعو لها دائما بالجنة فى حنان وحب ورحمة وتعاطف، فضلا عن الأمل العظيم فى أن الله سوف يستجيب لى فيها هى وجدتى وأبى وكل من عاملنى برقة ولطف فى أوقات الحرج والضيق ولو بكلمة طيبة مشجعة.

وكنت أتكلم منذ يومين مع بعض الأصدقاء عن د. طه حسين وما كتبه فى "الأيام" عن أبيه وأساتذته فى الكتّاب والأزهر كلهم تقريبا من كلام يمسهم ويشوه صورتهم. وقد أنكر من كانوا معى آنذاك على د. طه ما فعله، وأَبدَوْا ضيقهم بهجومه على مشايخه. وبطبيعة الحال لا يوجد إنسان كامل معصوم، ولكن ليس معنى هذا أن ننطلق فنشوه آباءنا وأساتذتنا تمام التشويه ونجعل منهم مسوخا نضحك الناس عليها، إذ يكفى أنهم علمونا وأخذوا بأيدينا وصنعوا منا ما نحن عليه الآن. صحيح أن هناك من ظلمونا أو نحسب أنهم ظلمونا. إلا أنه من غير المعقول أن يكون الجميع قد ظلمونا وأجحفوا بحقوقنا. وقد أعدت مؤخرا قراءة السيرة الذاتية الممتعة التى كتبها أستاذى د. شوقى ضيف بعنوان "معى"، فألفيته يتحدث عن أبيه وأمه حديثا كله احترام وبر وإجلال حتى إنه ليقول بفخر عظيم إنه كان دائما ما يقبّل، فى حبٍّ ورضًا، يديهما كل صباح. كما وجدته يكتب مستغربا أن ينقلب ابنٌ على أبيه، الذى رباه ونَشّأَه وقام بكل حاجاته حتى كبر واستوى على ساقه وصار رجلا، فيكرهه ويهينه ويعاديه، وإن أقر بأن ذلك، رغم غرابته وشذوذه البالغ، قد حدث مرارا فى

التاريخ، وبخاصة فى بيوت الحكام حيث يثور الابن على أبيه فيخلعه من أريكة الحكم، وقد يقتله فى سبيل بلوغ هذه الغاية.

أما أنا فرَاضٍ عن أبى تمام الرضا رغم أنه لا يخلو من عيوب، ويكفينى أن حسناته غطت على عيوبه بقوة، وإلا فلن يرضى ابن عن أبيه أبدا ما دامت السماوات والأرض. بل إن هناك من أساء إلىَّ ممن لا تربطنى بهم صلة قرابة، إلا أننى لدى الحكم عليهم أتذكر ما جنيتُه عن طريقهم من منافع مهمة لى قيضهم الله لإيصالها إلىَّ، فأُغلِّب هذه على تلك، وأشكر الله، الذى أتاحهم لى كى يؤازرونى حتى لو كانوا قد انقلبوا علىّ تاليا. اللهم ارحم أبى وأمى وجدتى وكل من أحسن إلىّ قريبا كان أو غير قريب، واجعل أولادى يحبوننى رغم ما أعرفه من عيوبى وما آلمتهم به سواء أكان هذا الإيلام قد صدر منى على سبيل الخطإ أم نزولا على متطلبات التربية السليمة، التى لا تستطيع أن تستغنى عن العقاب والإيلام مهما كان المربى حنونا صبورا طيبا. إن الإيلام جزء من الحياة لا ينفصل عنها أبدا مهما فعلنا، فلِمَ ننتظر من التربية الأبوية أن تكون خالية منها تمام الخُلُوّ؟ إن هذا ضد طبيعة الحياة!

ثم إلى أين نهرب من أمر الله لنا ببر الوالدين حتى لو أرادانا على الكفر به عز وجل مع عدم الانصياع لهما فى ذات الوقت فيما يدعواننا إليه من الشرك به سبحانه؟ فما بالنا لو كانوا هم الذين علمونا الإيمان به وحَبَّبُونا فيه وعوّدونا الصلاة والصوم وشرّبونا الأخلاق الحسنة. لقد كان لوالدى، رحمه الله، فضل عظيم علىَّ، إذ كان يأخذنى معه إلى المسجد المجاور لبيتنا حين يذهب للصلاة أو إلى مسجد عزبة عاشور حين يركب دراجته البخارية إلى هناك قبيل صلاة الجمعة كى يخطب ويؤم الناس فأُصلى مع المصلين خلفه، ثم يستضيفنا كبار رجال العزبة ويتحفوننا بالبَتّاوِى اللذيذ واللبن الرائب وما أشبه من طعام الفلاحين الجميل، ثم يتركنى ألعب مع أولاد العزبة هنا وهناك، وبالذات فى المسجد، الذى كان جديدا وبهيا، إلى أن يَؤُون أَوَانُ رجوعنا عند العصر.

وكنت أرى أبى وهو يتوضأ فأجد كل شىء فيه جميلا نظيفا . وكان هو من جانبه لطيف المعشر محبوبا من الناس محترما . وكان بشوشا ضحوكا . ومن ذلك أننى رأيته أكثر من مرة يلعب فى الدكان مع أحد طلاب الأزهر ممن كانوا قريبين من سنه لعبة "ملك ووزير" مستخدمَيْن قطعتين صغيرتين مدورتين من قشر البرتقال يلقى كل منهما قطعته على البنك، ومن يخسر يضربه الآخر بمسطرة من الخشب الأبلكاش صنعاها كيفما اتفق لذلك الغرض. وكان صوت الضرب يفرقع فى الدكان، فأسمعه وأشاهد انهماكَهما وجِدَّهما فى الضرب كأنهما يؤديان مهمة جليلة وأنا متعجب. ولا شك أن الضرب لم يكن مؤلما بأى حال نظرا إلى لدونة سَلْخَة الأبلكاش ونحافتها .

وفى رمضان كان، رحمه الله، يأخذ الكلوب أبا رَتِينَة إلى الجامع المجاور فى صلاة الفجر بعد أن يغلق الدكان فى ذلك الوقت المتأخر، ثم بعد الصلاة يذهب هو وبعض من صَلَّوْا وراءه إلى المقابر فيقرأون الفاتحة ويطوفون بأقربائهم من الأموات، ثم يرسل أحدَهم بالكلوب إلى البيت، وَيَبْقَوْن هم يتبارَوْن فى العَدْو على الزراعية. وذات مرة، حسبما سمعت من زوجة أبى أو من غيرها: لا أدرى، طلب من الشيخ على نوفل، وهو طالب أزهرى كفيف قريب من عمره، أن يتأبط ذراعه وهما يعدوان فى تلك المسابقة، ثم اتجه به نحو جدول ماء ضحل، ثم قفز فوق الجدول فى الوقت الذى ترك الشيخ الشاب يسقط فيه، فيضحك الجميع بما فيهم بل على رأسهم الشيخ نفسه. كما كان يلعب كرة القدم فى السوق مع أمثاله من الشبان، ويبدو أنه كان ماهرا فيها، أو هكذا أظن. وقد ورثت عنه كثيرا من شمائله، فأنا أحب الأسفار والصحبة، وكنت بارعا فى كرة القدم على مستوى القرية والمركز.

على أننى أحب أن أقرر أنى لم أكن على طول الخط من ذوى الخلق الطيب، وبخاصة فى طفولتى وصباى الأول. وصدق الشاعر الذى يقول: "أَىُّ الرجالِ المهذَّبُ؟" . وكانت فىَّ شقاوة الأطفال والصبيان. وأذكر مثلا أن صبيا من سِنِى أهلُه جيرانٌ لنا بَيْتَ بَيْتَ كانت بينى أنا وزميل ثالث وبينه خصومة مما يقع

كثيرا بين الأطفال، وكنت أنا ورفيقى جالسين على مصطبة المرسى خيرة الحلاق الذى تطل عليه نافذة بيتنا البحرية، بينما يجلس خصمنا على مصطبة داخل بيته مواجهة لنا عبر عشرة أمتار أو نحو ذلك، وكان الوقت ليلا، إلا أن كلوب دكان الحلاقة ومصباح بيتهم يجعل كلا الطرفين يبصر الآخر بوضوح، فكنت أضع إصبعى على أنفى وأمررها ذهابا وجيئة فينتفض هو ويدمدم كالمُوتُور الفاسد غيظا ويوشك أن يبكى، بينما أمه بالداخل تسأله مستغربة عن سر المعاناة التى يقاسيها على هذا النحو الغريب بالنسبة لها والمضحك بالنسبة لنا، فيرد عليها بأن الولد فلانا (الذى هو أنا) يغيظه بتحريك إصبعه على أرنبة أنفه (طبعا هو لم يقل: "أرنبة"، إذ لم يكن يعرف من الأرانب إلا الأرانب التى تؤكل وتبيعها أمه الفرارجية رحمة الله عليها، بل أنا الذى أقولها الآن)، فتأتى الأم رحمها الله (وكانت ممن يتردد على بيتنا وتجلس هى وبنتها وزوجة ابنها يتحدثن مع زوجة أبى ويتناولن ما هو متاح من طعام وفواكه)، وتلح فى الرجاء أن أكف عن مغايظة ابنها، فأسكت أنا وزميلى قليلا إلى أن تنصرف عائدة من حيث أتت، لنعود نحن إلى المغايظة، ويعود ابنها إلى التكتكة كالموتور الخرب، فأضحك أنا ورفيقى ملء أشداقنا ورئاتنا فى لذة آثمة... وهكذا دواليك. وقس على ذلك كثيرا من التصرفات والأفعال فى الصبا والشباب.

وكانت لنا ألعابنا الكثيرة الممتعة رغم سذاجتها: من ذلك مثلا "جحشة الجُرْن" و"السّكِّوّة" و"شَدّيتُوا خيولكم؟" و"الاستُغُمّاية" (بندائها المعهود قبل انطلاق الولد المغمَّى للبحث عن المختفين منه: "زِجْزجَانْ زجزجانْ، كُلّ واحدْ فى مكانْ")، و"طالِقْنى" و"الطاقيّة فى العِبّ" و"سِكّ، امسك عصاتك" و"أبونا، ضربونا"، و"السّيجة" و"جِمَال المَلْحَة"، وكل هذه الألعاب تتم فى الشارع ما عدا "جِمَال المَلْحَة" ففى البيوت، وكلها تمارَس فى العادة ليلا ما عدا "السّكِّوّة". ومن ألعاب الصبا كذلك "البْوّ"، وهى كرة قدم كبيرة الحجم صلبة مصنوعة من بقايا الخِرَق وما إلى ذلك وملفوف عليها، بدلا من خيط الكمبريت الرقيق الذى تلف به كرة القدم التى كنا نلعب بها نحن الأولاد المتعلمين، خيوط غليظة من التيل أشبه بالحبال. وهذا البُوّ يناسب

أقدام أولاد الفلاحين الصلبة الخشنة، ولم يكونوا يراعون فى اللعب به أية قواعد، بل كانوا يركلونه كيفما اتفق لا يبالون أين تقع ركلاتهم من جسم خصومهم. وكنت أضطر إلى اللعب به معهم فى الليالى المقمرة حين لا يكون أمامى لعبة أخرى أمارسها وأتخلص فيها من فائض الحيوية فى جسدى ومن الملل الثقيل. وسبب ممارستهم تلك اللعبة ليلا أنهم يكونون مشغولين فى العمل بالحقول طول النهار، فلم يكن عندهم وقت بالنهار يقضونه فى اللعب، بل يؤجلونه إلى الليل. وكنت، رغم مهارتى فى كرة القدم، أبدو عاجزا تماما معهم خوفا من أن يكسرنى أحدهم. كما كانت هناك أيضا كرة المضرب، وهى تشبه فى بعض ملامحها لعبة الكريكت، التى يمارسها الإنجليز والهنود والباكستانيون. وعادة ما كانت تُلْعَب فى الأيام التالية لسقوط المطر حين تبدأ طرقات القرية تجف قليلا. وقد زاولتها فى بعض الأحيان، ولكن ليس كثيرا. ولا أدرى لماذا لم يحاول المصريون تطوير هذه اللعبة والارتقاء بها إلى أن تصبح لعبة عالمية تسجل باسم مصر كما هو الحال فى الكرة الصاروخية مثلا. وما زلت أذكر من مصطلحاتها: المضرب والمِيس والخاموج والرِّدّ والتلقيمة وتحت وفوق.

وما برحتُ حتى الآن، كلما ارتد إلى خيالى اليوم الذى كنت أشاهد فيه عمى هو وبعض شبان المنطقة يلعبونها عند الكيمان من ناحية آخر حارة العطفى قريبا من بيتنا عند بدء جفاف طرقات القرية غِبَّ المطر، ترن فى أذنى أغنية شادية التى لحنها لها محمد عبد الوهاب من كلمات صالح جودت: "أَحِبَّكْ أحبك، واضَحِّى لحبَّكْ أعزّ الحبايبْ"، تلك الأغنية المفعمة بالشجن والدلال فى ذات الوقت، أيام كانت شادية لا تزال تنقل خطواتها الأولى فى عالم الفن والغناء. الله على تلك الأيام الجميلة! لقد كان والدى لا يزال حيا، وعمى يلعب مع الشبان الأقل منه قليلا فى السن غير ناعٍ للدنيا همًّا كعادته دائما، وأنا أشاهد بقلب صاف من الهموم وأستمتع بما أشاهده فى أصيل يوم لا يخلو من برودة، وهى الأيام التى كانت أسرنا تصنع لنا فيها محشوّ الكرنب، الذى لم أعد آكله إلا نادرا، وأمسينا نأكل بدلا منه محشو الباذنجان والكُوسَة والفلفل والطماطم وورق العنب، مما لا يكيّف مزاجى كما كان يكيِّفه محشوّ الكرنب، وبخاصة إذا أكلناه فى اليوم

التالى بعد قليه فى الزبدة واحمرار ورقه وسطوع رائحته فى أرجاء البيت وفى مناخيرنا التى كانت تلتقط الروائح من بلاد الواق واق. يا عقلى الذى سيطير منى عند ذكر هذه الأكلة!

وكانت هناك سهرات مَصّ القصب وقزقزة الفول السودانى وشَىّ أبى فروة وشرب السحلب والزنجبيل فى بيتنا، وكذلك قلى البيض بالزبدة على السبرتاية ثم هرسه فى الجبن القريش وتغميسه بالعيش الخاص، أو أكل العجة ليلة السوق بالعيش الخاص أيضا، وكان السوق ولا يزال يُعْقَد يوم الأحد من كل أسبوع. وكنا، ونحن عائدون مغرب ذلك اليوم من اللعب بالسوق، نشم بوضوح رائحة الأرز المعمر ذى الوجه الخمرى المصنوع باللبن والزبد، واللحم المسلوق، من بعيد بمناخيرنا العجيبة، وهى الأكلة التى يأكلها الناس عادة يوم الأحد: أقصد القادرين منهم، إذ كان الكثيرون يكتفون فى ذلك اليوم بسلق بعض البيض وإعطاء كل فرد بيضة أو بيضتين عوضا عن اللحم، وأحيانا لا يتوافر البيض أيضا. يا ولد! إن ريقى ليتحلب الآن شوقا إلى هذه الأكلات رغم ما عرفته بعد ذلك من أطعمة راقية لا تعد هذه الأكلات إلى جانبها شيئًا مذكورا، اللهم إلا الأرز المعمر، فهذا شىء ولا فى الخيال رغم الحذر من الكولسترول، الله يخرب بيت الكولسترول وسنينه! أما المشاريب فما زالت هى هى لم يتغير ذوقى بشأنها، وما زلت حتى الآن لا أشرب أنا ولا أحد من أفراد أسرتى الشاى أو القهوة فى بيتنا ولا أطلبهما خصيصا إذا كنت بالخارج، اللهم إلا إذا قُدِّما لى ولم يكن هناك غيرهما، فعندئذ أطلب عادةً إضافة اللبن إليهما. ومع ذلك فإننى أحيانا ما أستعيد ذلك الماضى حين أذهب لبيت ابن خالى محمد العزلة (والد حسين صاحب نغمة "مصر التى فى خاطرى وفى فمى" على المحمول)، فتقدم لنا فتحية زوجته (أم حسين) المرقة الحمراء والرز المعمر الذى يذكرنى بالماضى الجميل رغم ما فيه من سمن كثير يسد الشرايين ويعجل بوفاتى حتما، فآكل وأنا أضحك قائلا لها: منك لله يا فتحية! سوف تقضين علىَّ بهذا الرز المعمَّر. تريدين أن تخربيها وتقعدى على تلِّها. فتضحك.

وقد توصلنا إلى حل جميل لهذه المعضلة، إذ اقترحتُ عليها، وكذلك على زوجة أخى الأصغر مختار بمرسى مطروح، أن تجهز لى، كلما زرتهم، بُرْمَة صغيرة من الرز المعمَّر: "معمَّر" فقط دون "قذافى"، وباللبن فحسب بغير زبدة، فيكون للبرمة وجه خمرى جميل، ولكن بلا دسم مخيف. ونصف العمى ولا العمى كله. والمهم أنه كله عَمًى. أما السحلب فنشربه الآن من يد ميادة الأخت الصغرى لحسين، فهى المتخصصة فى صنع المشاريب. وهى تعرف جيدا أننى أشرب أى شىء تصنعه بيديها الحلوتين البارعتين ما دام مضافا إليه لبن. ويا حبذا لو كان لبنا بقريا لأنه قليل الدسم كما يقولون لى. أما إيمان الخجولة التى تكتب بيدها الشمال، وهى أول حالة من نوعها فى أسرتينا: أسرة أبى وأسرة أمى، فلها مهامّ أخرى، فضلا عن غرامها الجنونى بالأفلام الهندية المملوءة بالأغانى والرقص والضرب والخبط والمبالغات التى لا تدخل العقل حتى إنها لتستذكر دروسها وتحل واجباتها المنزلية التى يعطونها إياها فى الأزهر، والتلفاز مفتوح على فلم هندى. وهى أكثر أبناء محمد العزلة ترحيبا بنا . وقد فوجئت أنها تفهم الفرنسية والإنجليزية فهما معقولا ولا تحفظه دروسهما عميانيا، ففرحت لذلك فرحا كبيرا .

ومن ذكريات الماضى الجميلة ذكرى الاحتفال السنوى بالمولد النبوى، حيث يشترى لنا الأهل الأحصنة الحلاوة للأولاد، والعرائس الحلاوة للبنات. وكلما كان الحصان أو العروس كبير الحجم كان ذلك مدعاة لكثير من البهجة والافتخار . وبعد الانتهاء من الاحتفالات يحطم كل منا الحصان أو العروس ويبله فى الماء ويشربه. وكان الناس أيضا يصنعون الشربات الأحمر فى طسوت كبيرة ويوزعونه على المارة، والكل هائص وسعيد . وكان هناك الدوسة، وتتلخص فى أن يركب أحد المشايخ حصانا ويمر به حول القرية قاطعا ما يمكن تسميته حسب مصطلحات هذه الأيام بـ"الطريق الدائرى"، وقد رفرفت فوقه الأعلام، وأحاطت به الجماهير، وانطلقت زغاريد النساء، ورقد بعض الشبان والرجال على الأرض ليمشى عليهم الشيخ بحصانه، أى يدوسهم، ومن هنا سميت: "الدوسة" .

كما كان هناك احتفال عربات الكارو عصرا حيث يركب عدد من مزاولى الحرف المختلفة عربةً، وكل واحد منهم يتظاهر بأنه يمارس حرفته، ولكن على شكل كاريكاتورى: فمثلا الحلاق يقف أمام زبون جالس على كرسى ممسك بقرص جلة ينظر فيها كأنه مرآة ليرى أأحسن الحلاق عمله أم لا، على حين يشهر الحلاق فرشةَ نِقَاشَةٍ ضخمةً كأنه سيُصَبّن بها الذقن، ومعه جردل كبير فيه طلاء أبيض من طلاء الجدران يرمز إلى طاسة الصابونة، فيغمس الفرشاة العملاقة فى الجردل ويمسح بها على وجه الزبون تهيئة لحلاقة ذقنه. . . وهكذا. وقد قرأت فى كتاب "معى" للدكتور شوقى ضيف أن ذلك كان يحدث فى دمياط فى صباه، ولكن عند رؤية هلال رمضان لا فى المولد النبوى، كما أن الأمر كان حقيقيا لا كاريكاتوريا مثلما هو الحال فى كرنفال قريتى. وآخر شىء فى ذلك اليوم هو الموكب، وفيه يتجمع طلاب القرية الأزهريون الكبار فى شكل حرف U وقد تماسكوا بأيدهم كتلة واحدة، وهم ينشدون، بصوتٍ عالٍ وتنغيمٍ موسيقيّ جميلٍ، مديحا للمصطفى، وفى وسطهم الكلوبات الساطعة، ويظلون هكذا إلى أن ينتهوا من الدوران حول القرية.

هذا، وكنت مغرما فى طفولتى وصباى بصيد الطيور، فكنا نخرج بالنبلة إلى الحقول حيث نحاول اصطياد العصافير واليمام وأبى فصادة والهدهد والغراب وما أشبه من الطيور التى تعرفها القرية. ولم أكن من البارعين كغيرى من لِدَاتى فى التنشين، وإن كنت قد استطعت صيد بعضها. ومرة خرجت بعد الظهر أنا وصديقى الذى كنت أغيظه بتحريك إصبعى فوق أنفى نصطاد عند الهِرْى الذى بعد السوق بقليل، وأخذنا نصوّب الزلط على العصافير فوق شجرة هناك، وكانت سيارة نقل مارة على الطريق من تحت الشجرة، ففوجئنا بالسائق يقف، وأخذ يشير نحونا بما فهمنا منه أن الزلطة قد سقطت فوق زجاج السيارة وشرخته، فأخذنا ذيلنا فى أسنانا وقلنا: يا فكيك. وأرجو ألا يسألنى أحد من أعزائى القراء: مَنْ فَكِيكٌ هذا؟ فأنا والله لا أعرف، بل هى كلمة أقولها كما يقول الناس. وكنا نخترق حقول القمح، وكان القمح وقتذاك فى سنبله، بينما السائق يجرى على الطريق الزراعى، فوصلنا قبله إلى القرية حيث أسرعتُ إلى خالى، الذى لاحظ ما أنا فيه

من خوف واضطراب، فأخبرته الخبر، فطلب منى أن آخذ الكلوب وأذهب إلى عم محمود عرفة لإصلاحه وأستكنّ هناك بنجوة من الأنظار، فامتثلت.

إلا أننى سرعان ما ركبتنى الوساوس وأنا جالس هناك، فما الذى يمنع أن يذهب السائق إلى النقطة ويحضر خفيرا أو شرطيا للبحث عنى فيجدنى عند السمكرى، وبيته غير بعيد من بيت خالى؟ إنْ هى إلا بضع عشرات قليلة من الأمتار. عندئذ نهضت كالملدوغ من مكانى، وأخذت طريقى إلى قرية شِفَاقْرُون، التى تبعد عن قريتنا نحو كيلومتر ونصف، ومنها زوجة خالى الثانية، وكانت هناك فى ذلك الوقت غَضْبَى عند أمها، وسلكتُ سكة المعصرة الخلفية الصاعدة على هيئة السلم بعيدا عن العيون، ثم اخترقت حارة الرابعة منطلقا إلى الطريق الذى يصل بين قريتنا وقرية شفا، وهناك أطلعت زوجة خالى، وكانت تعاملنى كأمى، على تفاصيل الأمر بعدما ظنت فى البداية أننى مرسل من خالى لإعادتها إلى البيت، فهَدّأَتْ من رُوعِى ومن رَوْعِى معا، وأحضرت لى أرزا معمرا، ونمت هناك حتى الصباح يحوطنى حنانها، ثم عدت وشرحت لخالى ما صنعت.

وقد علمتُ، بعد عودتى الميمونة المظفرة، بما حدث مع صديقى، إذ أتى خفير أخذه من بيتهم حيث كان مختبئا فى مقعدهم الخرب فوق السطح إلى النقطة، وهناك مَدُّوه فى الفلقة وضربوه بالقبقاب على قدميه، بينما أنا فى الأمان آكل أرزا لا مع الملائكة ولا مع البشر، بل وحدى. وقد ضحكتُ يومها ملء ثيابى ورئتى وفمى حين علمت بما جرى لزميلى، الذى حكى لى ما وقع وهو يضحك أيضا. لقد كانت أياما جميلة. ما رأيكم أنتم؟ أم تراكم غاضبين لأنى نجوت بجلدى من العقاب؟ لكن والله الذى لا إله إلا هو ما لنا ذنب فيما حدث، فقد كنا نصوب النبلة إلى أعلى الشجرة ثم نطلق الزلطة فتنطلق إلى أعلى لتسقط بعد ذلك على الأرض حسب قانون الجاذبية، وكانت السيارة تمر فى ذلك الوقت تحت الشجرة لتقع الزلطة فوق زجاجها دون أن يكون لنا أى ذنب فى هذا. إنها المصادفة وحدها التى تسببت فى إصابة زجاج السيارة.

أم كنتم تريدون أن يتعطل قانون الجاذبية إكراما للسائق؟ وهل قال أحد لذلك الغبى أن يمر فى تلك الساعة من هناك؟ يستأهل!

كذلك مارستُ هواية صيد السمك، وكنت أذهب مع أمثالى إلى المصارف والترع حول القرية أو القرى القريبة فنصطاده، ومعنا خيط ينتهى بسلختى حطب، فنشبك ما نصطاده من السمك فى الخيط بعد تمرير إحدى سلختى الحطب من خلال خياشيمه وتثبيت الخيط بالسلخة الأخرى فى شط المصرف أو الترعة مع تدليته فى الماء حتى يظل السمك المشبوك حيا طوال وجودنا هناك، أو نضعه فى علبة صفيح من علب السمن الصناعى الصدئة بعد أن نملأها بالماء حتى لا يموت منا قبل العودة إلى البيوت. وكنت أوفق أحيانا، وأفشل أحيانا، ولكنى بوجه عام لم أكن بارعا فى صيد السمك ولا كنت أنجح عادة فى صيد الأحجام الكبيرة، ولا كان عندى الصبر للانتظار الطويل الذى يحتاجه هذا اللون من الصيد. ومع هذا كنت أهتز نشوة إذا ما غمزت السنارة ثم سحبتُها فوجدتُ فيها سمكة تتلوى كأجمل راقصة فى الوجود وأنا أنتشها بقوة فى خط دائرى إلى خلف ظهرى ناحية الشط. ولا ينبغى أن ننسى الإثارة الناشئة من تجمع عدد منا على شط الترعة أو المصرف، وبخاصة إذا كان المكان الذى نصطاد منه بعيدا عن القرية، فقد كان ذلك بمثابة حجر يلقى فى بركة آسنة فيحدث فيها اضطرابا وحركة ودوائر جميلة بدلا من الخمول الذى كان يسيطر بوجه عام على إيقاع الحياة آنذاك.

وكنت أرى أولاد الفلاحين يصيدون السمك القراميط من ماء الساقية فى الممر الموصل ما بين بئر الكَبَّاس والنهر نفسه، إذ كانوا يسدون الفتحة من ناحية النهر فينحصر السمك فى مكان صغير ضيق يتحركون خلاله منبطحين ويمدون أيديهم فيمسكون به فى منتهى اليسر، عائدين بـ"عَشْوَة سمك" كما كنا نقول، وأى عشوة! وأحيانا أخرى كان الأولاد الصيادون يبنون فى المصرف أو الترعة حاجزين طينيين غير متباعدين، ثم يقسمون أنفسهم إلى جماعتين تنشل كل جماعة منهم الماء إلى ما وراء أحد الحاجزين، إلى أن يظهر القاع

تحت الماء القليل المتبقى الذى يضطرب فيه السمك بوفرة يريد الخلاص من المأزق الذى وجد نفسه فيه، ولكن أنّى له ذلك؟ لقد وقع فى الشَّرَك وانتهى الأمر. وكان من هذا النوع من الصيادين المغاورى زيد، الذى كان يصطاد القراميط من ساقية الساحل. وهو ابن الشيخ عدس زيد جار خالى التاجر الذى كان يبيع التموين من زيت وسكر للفلاحين، فكان يوم توزيع التموين ليلا فى أول الشهر بزحامه وتكأكؤ الناس حول الدكان وشخطه فيهم على عادة كثير من تجار الريف وكأنهم يشحتون منه عيدا لنا، إذ كانت شوارع القرية هادئة لا تكاد تشاهد زحاما من هذا النوع إلا فى هذه المناسبة، فكنا نبتهج بالزحمة ونتمنى ألا تنتهى. كما كان بيتهم يمتاز بأننا كنا نسهر فيه مع أمه وإخوته وأختيه سهرا فيه كثير من الحبور والفرفشة والحواديت واللّمَّة.

ولقد كنت ولدا عفريتا، لكن ليس إلى حد كبير. وكنت مغرما بلعب كرة الشراب فى الشارع، وفى عز القيلولة، غير عابئ بما يقوله لنا الرجال الذين يريدون أن يناموا ساعة الظهيرة، إذ كانت لهم عبارة لا تتغير أبدا يريدون أن يصرفونا بها عن اللعب تحت شبابيكهم، وهى: يا ابنى أنت وهو، ألا تقيّلون؟ إن العفاريت مُقَيِّلة! وكان لسان حالنا يقول، فيما بيننا وبين أنفسنا طبعا: فلتقيِّل العفاريت كما يحلو لها. أما نحن فنريد أن نلعب. وأحيانا إذا لم تنفع حجة العفاريت المقيّلة كانوا يطاردوننا، فنجرى بعيدا لنلعب فى مكان آخر وتتكرر المسرحية ذاتها. ومن عفرتاتى الأخرى أذكر أنى كنت قد تعلمت وضع عود الثقاب أفقيا من الناحية المكبرتة فوق حكاكة علبة الكبريت ضاغطا بإبهامى فوق طرفه الآخر، ثم أدفعه بقوة بسبابة يدى الأخرى فيطير فى الهواء بعد أن يحتك بالحكاكة ويشتعل. وكنت ذات ليلة أمارس هذه اللعبة المثيرة على بعد أمتار من بيت خالى فى الظلام أيام لم تكن القرية قد دخلها النور بعد، وطار عود الثقاب مشتعلا فى الظلام، وإذا بى أسمع ولدا يصرخ: "آه يا عينى!"، وكان راقدا على المصطبة أمام بيتهم، فأخذت ذيلى فى أسنانى وهربت بعيدا عن بيتنا فى الاتجاد المضاد إلى الناحية الأخرى من القرية خوفا من أن يقبض علىَّ أهل الولد المصاب، إذ لا بد أن تكون قد طارت عينه أو غارت بسبب العود المشتعل. ثم بعد فترة تحسست طريقى فلم أجد

ضجة ولا اضطرابا، ثم فهمت أنه لم يحدث شىء يذكر، فتسللت إلى بيت خالى، ولم أعد إلى تلك اللعبة الخطرة بعد ذلك قط، فليس كلّ مَرّة تَسْلَمُ الجَرّة.

ومع ذلك كله فإنى بحمد الله، رغم هذه العفرتات والشيطنات، حين كبرت لم أرتكب كبيرة قط، فلا زنيت ولا شربت الخمر ولا دخنت إلا عددا لا يبلغ عَشْر سجائر طول حياتى، وليس الكذب أو النفاق أو النميمة أو التخطيط لإيذاء الآخرين بدون وجه حق بوجه عام من خلائقى. وأحيانا ما أتصور أننى، حتى لو لم أولد مسلما، ما كنت لأشرب الخمر أو أدخن السجائر. وإحساسى بالواجب حاد لا أستطيع أن أتجاهل إلحاحه علىَّ ولا إهمال تأديته حتى لو أجلته بعض التأجيل. وربما كانت ظروفى الاجتماعية التى شرحتها مسؤولة إلى حد كبير عن ذلك. لقد كنت وما زلت أخشى الناس أن يذمونى، فأنا من الذين يعملون للمجتمع حسابا لأنى لا أجد حولى أحدا يمكننى أن أعتصم به عند اللزوم ساعة الخطإ، اللهم إلا إذا كنت مقتنعا بما أفعله أو أقوله، فعندئذ لا أبالى ما يقول الآخرون، وإن كنت بعدما كبرت وتقدمت فى العمر قد صرت أجنح إلى المهادنة والمجاملة أكثر مما كنت أفعل وأنا شاب متحمس متصلب الدماغ لا أهتم بما يقول الناس عما آتيه من تصرفات وأفعال أو أصرح به من آراء.

ومن الناحية الأخرى لم أترك يوما أية صلاة مفروضة منذ الثانية عشرة، وإن لم ألتزم دائما فى صباى بأدائها فى وقتها، على عكس الأمر منذ بلغت السابعة عشرة، مع التنبيه إلى أننى لا أراعى أداء النوافل فى كل الأوقات بالفترة الأخيرة. كذلك أرانى أسارع إلى العطف على المساكين والمحاويج، وأجد ذلك من أهم مبادئ الدين، وبخاصة أنه من الصعب علىَّ نسيان معاناتى الكثيرة فى الطفولة والصبا بعد وفاة والدى. ومع هذا فمن الصعب علىَّ أيضا أن أستجيب لمحترفى الشحاتة، ولا تهش نفسى لإعطائهم شيئًا مهما كانت ضآلته لما أعرفه من أن كل همهم جمع الفلوس جمعا مَرَضِيًّا، علاوة على كراهيتهم للعمل واستمرائهم مد اليد للسؤال، وهو ما يكرهه ديننا أشد الكراهية. وبعضهم يشترى بما يشحته سجائر وخمورا أو يكنز ما يجمعه

من أموال. وأعرف حالات عُرِض فيها على بعض الشحّاتات أن يزودهن أهل الخير برأس مال يتاجرن به فى الفاكهة والخضراوات، إلا أنهن رفضن وفضلن أن يمددن أيديهن وتأتى المسألة يوم القيامة نكتة سوداء فى وجوههن على التعفف والتنزه عن مذلة السؤال ورذالته.

وقد كنت أتعاطف قبلا مع من يمدون أيديهم بالسؤال، وأتصور أنهم محتاجون فعلا إلى أن نساعدهم ونعطيهم ما يطلبون وأنهم لم يلجأوا إلى الشحاتة إلا بعدما ضاقت فى وجوهم وبهم السبل إلى الرزق. ولهذا كنت أستغرب من أستاذى سيد أحمد أبو رية، رحمه الله وأكرمه أعظم الإكرام، أنه لا يمد يده بشىء لهؤلاء الشحاتين حين يأتون إلى المقهى الذى نجلس فيه. وسر استغرابى أننى أراه كريما ورحيما وحنونا معى إلى الغاية، فكيف لا يرقّ لهؤلاء المساكين؟ هكذا كنت أفكر، إلى أن نضجتُ وفهمتُ الحياة وخباياها، فأدركت أن هؤلاء الشحاتين المحترفين لا يحق لهم مد أيديهم بالسؤال لأنهم قادرون على العمل، ومن ثم لا يصح أن نشجعهم على الشحاتة، وأن القرآن قد أدان هذا السلوك، وأن رسول الله لا يحب للمسلم أن يقف هذا الموقف البليد الذليل، وأن الأمم المتحضرة تجرّمه، وأن عالم الشحاتة يتكون فى كثير من الأحيان من عصابات إجرامية تقوم على التخطيط والمؤامرات واستغلال الأطفال وتأجيرهم هم والأماكن التى يقف فيها الشحات، وأن كل شىء فى هذا العالم السفلى إنما يتم بنظام صارم خال من المشاعر والإنسانية. . . وهكذا.

وإنى لأضحك بل أقهقه كثيرا من أعماق قلبى جَرّاءَ الحيل التى ينتهجها بعض الشحاتين فى بلادنا الحبيبة، إذ يعلق أحدهم مثلا كيس دم فى حامل وينام الصبى الشحات تحته فى الشارع، وكأننا فى مستشفى. وسر ضحكى هو ما يوهمنا به مَنْ وراء هذا النوع من الشحاتين من أنهم يعالجون مريضهم فى الشارع دون طبيب متخصص ولا أدوات جراحة ولا تمريض ولا تعقيم. إنهم عباقرة لم تلد الواحد منهم ولادة، لا بنت المستكفى ولا بنت غير المستكفى. ومن تلك الحيل ما تصنعه شحاتة فوق جسر المشاة القريب من الجامعة فوق خط مترو الأنفاق هناك، إذ كلما مررت بها وهى جالسة على الأرض وجدتها غافية، لكن ما إن تحس

دبيب قدم تقترب من مجلسها حتى تسارع إلى مداعبة حبات المسبحة التى فى يدها مناشدة ذوى القلوب الرحيمة (الذين أنا لست واحدا منهم) بمساعدتها . فأمرّ بها وأنا أشعر بالخجل لعدم استجابتى لمناشداتها التى تقطع نياط القلوب. يا لقلبى المتحجر ! ثم مرت الأعوام، وإذا بى أراها ، بدلا من الجلوس وفى يدها مسبحتها ، نائمة فوق فراش على الجسر المذكور، وكلما شعرتُ بدبيب قدم تقترب قالت فى صوت واهن مشحون بالمعاناة: "من فضلك ساعدنى" . لكن قلبى الصوانى القاسى لا يلين، مع استمرار شعورى بالخجل، ولا أدرى لم. ثم شاهدتها فى الفترة الأخيرة وقد طورت أسلوبها ، فتراها تجلس على كرسى فوتيه قديم وتردد نفس الجملة، مع إضافة جديدة تتمثل فى وضع بعض المصاصات على الأرض بجوارها كأنها تبيعها لمن يريد .

والعجيب أن استعمالها الفصحى فى الشحاتة لم يؤثر فِىَّ رغم حبى لمن يستعملون من طبقات الشعب غير المتعلمة ذلك المستوى الراقى من اللغة، على الأقل: بحكم تخصصى. لكن ماذا تقولون فى قساوة القلب التى ابتلانى الله بها ؟ المهم أننى كنت دائما ما أتساءل مستغربا: من يا ترى يحملها كل صباح إلى هناك فوق جسر المترو ويضعها بعد أن يفرش لها فراشها ويرجع، ثم يعود آخر النهار فيحملها إلى البيت؟ ذلك أنى كنت أتصور أنها مريضة فعلا . وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك مع هذا الصوت الواهن وذلك الشحوب فى وجهها ؟ لأفاجأ ذات أصيل، وأنا فى طريق عودتى من محاضرة آخر النهار، بها هى ذاتها واقفة فى نشاط وعافية تجمع عدة شغلها وفراشها استعدادا للعودة المظفرة. وأعود فأقول: ابتسم، أنت فى مصر أم الدنيا ، التى صَرَّ أهلوها الفيل فى المنديل، وعبأوا الشمس فى زجاجات، وخرموا التعريفة، وفوق ذلك دهنوا الهواء دوكو. فمَنْ مِنَ الأمم بالله عليك استطاع أن يُنجز عُشْرَ مِعْشَار هذه الإنجازات؟ وأتخيل الجاحظ، الذى ألف كتابا فى الشحاتة والشحاتين عَدّد فيه حيلهم وألاعيبهم التى يعملون على كسب عطف المارة من خلالها ، وقد عاد إلى الدنيا ورأى الشحاتين المصريين وأساليبهم التى لا تخطر على بال إبليس ذاته، فشرع يشد شعره من عجزه عن ملاحقة هذه العبقرية وتخلُّفه عنها وعن أصحابها أشواطا طوالا .

ولقد حاولت زمانا طويلا أن أعثر على رسالة الجاحظ الضائعة التى ألفها عن الشحاتة والشحاتين (بعنوان "رسالة الكُدْيَة والمُكَدّين")، فلم أجدها بتاتا، إلا أننى وجدت فى كتاب "المحاسن والمساوئ" للبيهقى تحت عنوان "محاسن السؤال" ما يلى: "قال الجاحظ: سمعت شيخا من المُكَدّين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة، فسأله الشيخ عن حاله فقال: لعن الله الكُدْيَة، ولعن أصحابها من صناعة ما أَخَسَّها وأَقَلّها ! إنها، ما علمتُ، تُخْلِق الوجه وتضع من الرجال. وهل رأيت مُكَدِّيا أفلح؟ قال: فرأيت الشيخ قد غضب والتفت إليه، فقال: يا هذا، أَقْلِل الكلام، فقد أكثرت. مثلك لا يفلح لأنك محروم، ولم تستحكم بعد. وإن للكُدْيَة رجالاً. فما لك ولهذا الكلام؟ ثم التفت فقال: اسمعوا بالله. يجيئنا كل نبطيّ قرنانٍ وكل حائك صفعان وكل ضرّاط كشحان يتكلم سبعًا في ثمان، إذا لم يصب أحدهم يومًا شيئًا ثلب الصناعة ووقع فيها. أَوَمَا علمتَ أن الكدية صناعة شريفة، وهي محببة لذيذة، صاحبها في نعيم لا ينفد، فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب، حيثما حلّ لا يخاف البؤس، يسير حيث شاء، يأخذ أطايب كل بلدة؟ فهو أيام النرسيان والهيرون بالكوفة، ووقت الشبّوط وقصب السكر بالبصرة، ووقت البرنيّ والأزاذ والرّازقيّ والرمان المرمر ببغداد، وأيام التين والجوز الرطب بحلوان، ووقت اللوز الرطب والسختيان والطبرزد بالجبل. يأكل طيبات الأرض، فهو رخيّ البال حسن الحال لا يغتمّ لأهل ولا مال ولا دار ولا عقار. حيثما حلّ فعلفه طبليّ.

أما والله لقد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان الجبل، ووقفت في مسجدها الأعظم، وعليّ فوطة قد ائتزرت بها، وتعممت بحبل من ليف، وبيدي عكازة من خشب الدفلى، وقد اجتمع إليَّ عالَمٌ من الناس كأني الحجاج بن يوسف على منبره، وأنا أقول: يا قوم، رجل من أهل الشام ثم من بلد يقال له: المصيصة، من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله من أبناء الركّاضة وحَرَسة الإسلام. غزوت مع والدي أربع عشرة غزوة: سبعًا في البحر وسبعًا في البر، وغزوت مع الأرمنيّ، قولوا: رحم الله أبا الحسن، ومع عمر بن عبيد الله، قولوا:

رحم الله أبا حفص، وغزوت مع البطال بن الحسين والزنرداق بن مدرك وحمدان بن أبي قطيفة. وآخِرِ مَنْ غزوت معه يازمان الخادم، ودخلت قسطنطينية وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك. مَنْ سمع باسمي فقد سمع، ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسي: أنا ابن الغزّيل بن الركان المصيصي المعروف المشهور في جميع الثغور والضارب بالسيف والطاعن بالرمح، سدٌّ من أسداد الإسلام، نازَلَ الملك على باب طرسوس فقتل الذراري وسبى النساء، وأُخِذ لنا ابنان وحُمِلا إلى بلاد الروم، فخرجت هاربًا على وجهي ومعي كتب من التجار، فقُطِع عليّ. وقد استجرت بالله ثم بكم. فإن رأيتم أن تردّوا ركنًا من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده! فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت عليّ الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعي أكثر من مائة درهم. فوثب إليه الشاب وقبّل رأسه وقال: أنت والله معلم الخير فجزاك الله عن إخوانك خيرًا.

أصناف المكدين وأفعالهم: منهم المكي، وهو الذي يأتيك وعليه سراويلُ واسعٌ دبيقيّ أو نرسي، وفيه تكة أرمنية قد شدّها إلى عنقه، فيأتي المسجد فيقول: أنا من مدينة مصر، ابن فلان التاجر. وجهّني أبي إلى مَرْو في تجارة، ومعي متاع بعشرة آلاف درهم، فقُطِع عليّ الطريق، وتُرِكْتُ على هذه الحال، ولست أحسن صناعة ولا معي بضاعة، وأنا ابن نعمة، وقد بقيتُ ابن حاجة. ومنهم السَّحَرِيّ الذي يبكر إلى المساجد من قبل أن يؤذن المؤذن. والشجوي الذي كان يؤثّر في يده اليمنى ورجليه حتى يُرِيَ الناس أنه كان مقيّدًا مغلولاً، ويأخذ بيده تكة فينسجها يوهمك أنه من الخلديّة، وقد حبس في المطبَق خمسين سنة. ومنهم الذرارحي الذي يأخذ الذراريح فيشدها في موضع من جسده من أول الليل ويبيت عليه ليلته حتى يتيقظ فيخرج بالغداة عريانًا، وقد تنفّط ذلك الموضع وصار فيه القيح الأصفر، ويصبّ على ظهره قليل رماد فيوهم الناس أنه محترق. ومنهم الحاجور، وهو الذي يأخذ الحلقوم مع الرئة، فيدخل الحلقوم في دبره ويشرّح الرئة على فخذه تشريحًا رقيقًا ويذرّ عليه دم الأخوين. ومنهم الخاقاني الذي يحتال في وجهه حتى يجعله مثل وجه خاقان ملك الترك، ويسوده بالصبر والمداد، ويوهمك أنه ورم. ومنهم السّكوت الذي يوهمك أنه لا يحسن

أن يتكلم. ومنهم الكان، وهو الذي يواضع القاص من أول الليل على أنه يعطيه النصف أو الثلث فيتركه حتى إذا فرغ من الأخذ لنفسه اندفع هو فتكلم. ومنهم المفلفل، الرفيقان يترافقان فإذا دخلا مدينة قصدا أنبل مسجد فيها، فيقوم أحدهما في أول الصف، فإذا سلم الإمام صاح الذي في آخر الصف بالذي في أول الصف: يا فلان، قل لهم. فيقول الآخر: قل لهم أنت: أنا أيش. فيقول: قل، ويحك، ولا تستح. فلا يزالان كذلك وقد علّقا قلوب الناس ينتظرون ما يكون منهما، فإذا علما أنهما قد علقا القلوب تكلما بحوائجهما وقالا: نحن شريكان، وكان معنا أحمال بَزٍّ كنا حملناها من فسطاط مصر نريد العراق فقُطِع علينا، وقد بقينا على هذه الحال لا نحسن أن نسأل، وليست هذه صناعتنا. فيوهمان الناس أنهما قد ماتا من الحياء. ومنهم زكيم الحبشة الذي يأتيك وعليه درّاعة صوف مضرّبة مشقوقة من خلف وقدّام، وعليه خفّ ثغري بلا سراويل يتشبه بالغزاة. ومنهم زكيم المرحومة المكافيف يجتمعون خمسة وستة وأقل وأكثر، وقائدهم يبصر أدنى شيء، عينه مثل الخفاش يقال له: الإسطيل، فهو يدعو وهم يؤمنون. ومنهم الكاغانيّ الذي يتجنن أو يتصارع ويزبد حتى لا يشك أحد في جنونه وأنه لا دواء له لشدة ما ينزل به. ومنهم القرسيّ، وهو الذي يعصب ساقيه أو ذراعيه عصبًا شديدًا ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورم واحتقن فيه الدم مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين وقطر عليه من سمن البقر وأطبق عليه خرقة ثم كشف بعضه، فلا يشك من رآه أنه آكلة نعوذ بالله منها. ومنهم المشعب الذي يحتال للصبي حين يولد بأن يزمنه أو يعميه ليسأل به الناس، وربما جاءت أمه أو يجيء أبوه فيتولى ذلك: فإما أن يكسبا به أو يكرياه. فإن كان عندهما ثقة، وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً. ومنهم الفيلور، وهو الذي يحتال لخصيتيه حتى يريك أنه آدَر، وربما أراك أن بهما شرطًا أو جرحًا، وربما أراك ذلك في دبره. وتفعل المرأة ذلك بفرجها. ومنهم الكاخان الغلام المكدي إذا واجر وعليه مسحةٌ من جمال وعمل العملين جميعًا. والعوّاء الذي يسأل بين المغرب والعشاء ويطرّب في صوته. ومنهم الإسطيل، وهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه أعمى، وإن شاء أراك أنه ممن نزل في عينه الماء، وإن شاء أراك أنه لا

يبصر. ومنهم المزيديّ، وهو الذي يدور ومعه دُرَيْهِمَات، يقول: هذه دريهمات قد جُمِعَتْ لي في ثَمَن قطيفة، فزيدوني فيها، ورحمكم الله. ومنهم المستعرض الذي يعارضك وهو ذو هيئة في ثياب صالحة، يريك أنه يستحيي من المسألة ويخاف أن يراه معرفة فيعرض لك اعتراضاً ويكلمك خَفتًا. ومنهم المطيّن، وهو الذي يطيّن نفسه من قرنه إلى قدمه ويأخذ البلاذر يريك أنه يأكل البلاذر".

منك لله يا جاحظ على خفة ظلك وموسوعيتك حتى فى عالم الشحاتة والشحاتين. ولكن يا عمنا الكبير لا يسعنى، رغم ذلك كله ورغم عبقريتك التى شهد لك بها العالم كله من عرب ومستشرقين، إلا أن أقول لك: قديمة! فشحاتونا فى مصر فاقوا شحاتيك. اسمع يا سيدى ما قاله لنا، ونحن جالسون ليلا عند كُشْكِه بجوار مسجد الشيخ غراب بحدائق القبة، الحاج منصور العدلى جارنا وصديقنا وممولنا بالحكايات الطريفة الآتية من قاع المجتمع والتى تقطر ظرفا، إذ ذكر لنا ذات جلسة أنا ود. محمود عباس، الأستاذ الجامعى الأزهرى الذى لا يدانيه أحد فى خفة الظل وحلاوة الروح والذى يعشقه مستمعو إذاعة القرآن الكريم، أن من حيل الشحاتين الآن أن يأتى قوم بعد صلاة العصر بنعش أبيهم الميت إلى المسجد يريدون أن يصلى الإمام والناس عليه قبل أخذ الجثة إلى القرافة، ولكن ما إن يستعد الإمام والناس للصلاة على النعش حتى يندفع من مكان ما بالمسجد رجلان تنشق الأرض عنهما بغتة، فيصيحان بالناس ألا يصلوا على الرجل قبل أن يدفع لهما أهله ما كان مدينا به لهما، إذ الصلاة على الميت لا تجوز إلا بعد قضاء الديون التى عليه. وهنا تقوم مشادة بين الرجلين وأهل الميت يحاول فيها أبناء الرجل وأقاربه أن يقنعوا الدائنين بتأجيل المطالبة بالفلوس حتى يدفنوا الجثة ويصير لكل حادث حديث، إلا أن الرجلين صاحبى الدَّين لا يقتنعان ولا يلينان، ويريدان حقهما ثالثًا ومثلّثًا الآن فورا، وإلا حالا دون الصلاة على ميتهم. ويحاول مرة أخرى أهل الرجل الاعتذار بأنهم لم يحسبوا لهذا الأمر المباغت حسابا، ومن ثم فهم غير مستعدين للدفع حاليا ولا معهم فلوس أصلا. وبعد شد وجذب يتطوع أولاد الحلال من بين المصلين، وهم كثر بحمد الله لأن البَلَه بين البشر كثير، فيعرضون

على الحاضرين أن يجمعوا المبلغ المطلوب إنقاذا للموقف الحرج حتى يمكن الصلاة على الميت والذهاب به إلى الجبّان لدفنه. وهكذا يتم جمع المبلغ والصلاة على الرجل، وينصرف أهله بنعشه، وينصرف الدائنان لحال سبيلهما، وينفض السامر من الجامع، وتنتهى المسرحية الكوميدية التى رأينا فصولها، والتى ألفها وأخرجها وأداها أصحاب النعش والدائنان وأول رجل كريم أخرج من جيبه بعض المال فصنع الموجودون صنعه، واستطاعوا بها أن يقرطسوا الحاضرين ويأخذوا منهم مالهم، مع أنه لا يوجد ميت ولا دَيّانة ولا يحزنون. والآن أليس الشحاتون المصريون على أيامنا هذه الغبراء أذكى وأدهى وأظرف من شحاتى العراق على أيام الجاحظ؟

ولكنْ كله كوم، وشحات الغرام كوم آخر، ذلك الشحات الذى لم يعرفه ولم يسمع به لا الجاحظ ولا ابن المقفع ولا البيهقى ولا بديع الزمان الهمدانى ولا الحريرى ولا الجن الأزرق من قبل. اسمع ما يقوله شحات الغرام محمد فوزى وما ترد به عليه معشوقته رهيفة القلب العطوفة الحنونة ليلى مراد، التى تطل عليه من شرفة قصر أبيها، وقد وقفت وراءها، بغرفة النوم الفسيحة الفخمة ذات الستائر المترفة الهفهافة ثم فى الشرفة الجميلة الفينانة التى يمرح فيها الخيل على راحتها، الشغالة خالدة الذكر وكاتمة الأسرار الغرامية لستاتها الشابات فى الأفلام المصرية، الممثلة وداد حمدى، وفى يديها وردة تقطف ورقاتها ورقة ورقة فى هيام وغرام، ثم تضم ما بقى منها إلى صدرها فى وَلَهٍ ودَلَهٍ، بينما الحوار الغنائى الحنون شغّال على أذنه بين العاشقين: الفتاة الجميلة المطلة على حديقة قصرها تحاول أن تصرف العاشق الشحات اللجوج، وإن كانت فى الواقع تريد استمرار بقائه تحت الشرفة يعرض حبه وقلبه كى يشبع غرورها بجمالها ورقتها وأناقتها وثروتها، والشحات الأنيق ببدلته الجديدة الغالية، وحذائه اللامع الذى ليس عندى مثله، ورباط رقبته الذى سيأكل منها حتّة، وعكازه المضحك الذى أمسك به فى يده وحَنَى جذعه عليه تظاهرا بالضعف والانكسار والمسكنة، وقد وضع يده على أذنه كأى شحات مُعْدِمٍ جار عليه الزمان، وهو يغنى فى لجاجة وارتعاش، ويتقدم نحو

القصر متعارجا حتى يكون تحت الشرفة مباشرة، طالبا أية حسنة من عاشقته الظريفة: نظرة أو بسمة أو كلمة رضا أو ساعة صفا أو ما أشبه، لينتهى المشهد بوردة ندية تلقى بها إليه من عليائها فيتقبلها شاكرا مبتهلا إلى الله أن يزيدها من نعيمه الذى أفاضه عليها جمالا ودلالا . ودعنا من روعة الأداء والتمثيل وخفة الظل وتمطيط الكلمات وتكريرها وترقيصها وتظاهر روميو الشحاتين بالحزن الشديد حتى لنظن أنه يوشك أن ينهار باكيا . مسكين يا روميو الشحاتين:

- شحّاتْ ومَدّ إيديه وكسْر خاطْرُه حرامْ

- حَدَفُه الْهَوا هنا ليه؟

- طالبْ تحنُّوا عليه يا محسنين الغرامْ

- وَنحِنّ، قول لى، بإيه؟

- ارموا له له نظرهْ ولاّ ابتسامهْ

حَسَنَهْ، وتنفعْ يُوم القيامهْ

- يعطيكْ، لله

- والنَّبِى إحسانْ لله!

- قلت: على الله!

- وأنا قلت: كمان لله!

- اِسْرَحْ!

- للهْ!

- رَوَّحْ!

- لله!

يامحسنين الغرام، لله

يا أرقّ خلق اللهْ،

ضِيف الجمالْ مكروم

- هُوَّ احْنا ضَيِّفْناه؟

- ما تْرُدِّنيشْ محرومْ

- إيهْ كل ده؟ باينْ عليكْ طماعْ!

- هُوَّ كدهْ. الشحاتينْ أنواعْ!

كلمةْ رضا لله!

- عايز الرضا صدقاتْ؟

- ساعةْ صفا لله!

- زوِّدْتها يا شحاتْ!

اسرحْ!

- لله!

- رَوَّحْ!

- لله!

- يا شحاتين الغرام، على الله!

- يظهر: صحيح اللى بتشكيه. غلبانْ يا روميو الشحاتين

- غَلِّبْنى إيه الاّ عْنِيكى؟

- أنا قلبى رَقّ وأثر فيه. صوتك، ياكبدى على المسكينْ!

- لو تسعديه: شِىءْ فى إيديكى

- ما بِقْتش اقول: "الله يحننْ"، لا الناسْ تسمّينى بخيلهْ

- والبخل فى الحُبّ يجنّنْ. صدَقَهْ، وتِرْضِينى، قليلهْ

- على ما قُسُمْ، وخلاصْ، خُدْها

- ياخُدْ عَدُوّينكْ

- نادْيهْ ولِسّهْ بعنقودْها

- يا رُوحْ مُحِبّينكْ

اللهْ يزيدْ حسنِكْ قِيمَهْ. زينْةِ الجناينْ والبساتينْ

ولا يخْلِيهُمْ لك ياكريمهْ. من ورد أبدا ولا ياسمينْ

ولا فُلّ. تعيشْ إلهام

إدينى معاذْ لله

- فُوتْ بكرهْ خمسهْ تمامْ

مِنْ قَدّمْ شىءْ بيداه

يِلْقَاه، وْكُلُّهْ على الله

كله وكله على الله

- يجعلْها عمَارْ. بيوت الأحبابْ

وانا باستمرارْ. حَوَالِينِ البابْ

ولأنى شيخ مطمطم، ولا يمكن أن يمر شىء من تحت أنفى إلا وحللته لغويا وأدبيا، فإنى دائما ما أسأل طلبتى وطالباتى: هل إذا قلنا بالفصحى على طريقة الشحاتين فى الشوارع أو فى البساتين تحت شرفات

القصور تحنينا للقلوب، قلوب أهل الخير وقلوب أهل الحب على السواء: "من قدم شيئًا بيداه التقاه"، أنكون على صواب؟ وحتى الآن لم يستطع طالب أن يتذكر ما درّسه له أساتذته فى مادة النحو من أن المثنى كان يُعْرَب بالألف فى كل الأحوال: رفعا ونصبا وجرا عند بعض القبائل العربية. ولو كانوا أذكياء لأجابونى: نحن لسنا شحاتين. فكيف نستطيع الرد على هذا السؤال النحوى الفقايرى؟ لكنهم، للأسف، ليسوا أذكياء. ومرة أخرى أسأل الجاحظ: بالله هل كان عندكم، يا جاحظ، شحات كهذا الشحات الظريف الذى قد يحق لى أن اباهى به لأنه من قرية شبه مجاورة لقريتى، وكم لعبنا الكرة ونحن صغار ضد لداتنا من نفس أسرته؟

ورغم كل ما قلته عن عدم استجابتى للشحاتين المحترفين فإننى أنسى هذا المبدأ فى بعض الأحيان تحت ضغط عاطفى: فعلى سبيل المثال كنت ليلة العيد الكبير الماضى أتريض قبيل الفجر، وإذا بى، وأنا مار بكنتاكى الكائن بشارع مصر والسودان بحدائق القبة، أرى طفلا فى نحو التاسعة من عمره متوسط الحجم يلبس معطفا باليا خشنا، وليس فى قدميه حذاء، ومتسخا كأنه لم ير الماء منذ قرون، ويجلس بباب المطعم أعلى الدَّرَج مكتفيا بالتطلع فى وجوه الداخلين والخارجين دون أن يمد يده لأحد أو يتعرض لأحد، فتحركت مشاعرى نحوه، وعزمت حين أنتهى من جولة الذهاب أن أشترى له طعاما ومشروبا. وفعلا فى طريق عودتى توقفت عند مخبز أفرنجى قريب من جامع الشيخ كشك، واشتريت له فطائر وبسكويتا وبعض القرص المحشوة، وعلبة بيبسى (كانز)، ودعوت الله أن أجده فى الموضع الذى شاهدته فيه. وكم كانت سعادتى كبيرة حين وجدته هناك لم يبارح المكان. اقتربت منه، وكان متحفظا بعض الشىء، فربَّتُّ على كتفه وطمأنته قائلا: هذا الطعام لك. لكن قل لى: ماذا تفعل هنا فى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ قال بعد شىء من التردد والتوجس: أمرنى أبى أن أخرج من البيت لأشحت وألا أعود إليه إلا بعد أن أجمع له ستين جنيها. ربَّتُّ على كتفه مرة أخرى، وأنا متألم قائلا فى نفسى: لقد كان من الممكن جدا أن أكون مكان هذا الصبى المسكين أنا أو أحد من أولادى. هل هناك ما يمنع من ذلك؟ كلا وألف كلا. وحمدت الله أن أقدرنى على إدخال السرور

على قلب الولد، الذى يشترك معى فى الإنسانية، وإن كانت ظروفه سيئة، وظروفى أنا حسنة. ثم مضيت وأنا أعلم أن ما صنعته لا يحل المشكلة. لكن ماذا كان باستطاعتى أن أفعل؟

وبالمثل تعرضت الليلة لموقف آخر استثارَ عطفى وشفقتى، إذ كنت عائدا بالسيارة من مشوار فى مدينة نصر عن طريق شارع مصطفى النحاس، ثم انعطفت فى الشارع الذى يقوم على ناصيته من الناحية الأخرى مسجد رابعة العدوية. وكانت الإشارة عند المسجد مغلقة، وكانت هناك بنت صغيرة فى نحو السابعة من عمرها صغيرة الحجم تبيع فى حقيبة قماشية (مخلاة) معلقة فى كتفها مناديل ورقية. بطبيعة الحال الفتاة تتبع معلما أو معلمة توجهها هى وأمثالها، أو ربما تعمل مع أمها أو أبيها . إلى هنا، وليس فى الأمر شىء غير اعتيادى، إلا أننى لاحظت أن البنت، حين عرضت المناديل علىَّ، كان صوتها خفيضا وحييا ومنكسرا لكن دون ذلة. كما كانت حلوة التقاطيع وعلى قدر من النظافة. حرك المنظر عواطفى، ولكن البنت غادرتنى وانطلقت فى خفة حركة إلى الأمام، فمددت يدى أبحث فى جيوبى عن الجنيهات المعدنية التى معى، فاستخرجت اثنين، ثم عدت فزدتها واحدا آخر فصارت ثلاثة جنيهات، ثم عدت فأرجعتها مكانها، وأخرجت بدلا منها ورقة بخمسة جنيهات كى أسكت ضميرى. ثم فُتِحَتِ الإشارة الضوئية، فاقتربت السيارة من البنت التى كانت قد وصلت إلى مكان شرطى المرور عند الإشارات الضوئية، وأردت الوقوف ومناداتها لأعطيها الورقة المالية وأُسِرّ إليها أنها من أجل عشائها هى وليست من أجل المعلم أو الأب الذى يسرّحها . لكن البوق المستعجل الغاضب الذى ضربه لى قائد السيارة التالية لى منعنى من التريث عند البنت، ومضيت وأنا متألم لعدم إعطائى البنت الجنيهات الخمسة، واستغفرت الله. قد يرى البعض فى هذا لونا ساذجا من التفكير، فالبنت فى الغالب لن تستطيع أن تحجز الجنيهات الخمسة لنفسها، لكنى إنما أردت أن أشعرها بأننى أنظر إليها كإنسانة مثلنا جميعا، ولذا أفكر فى أمر خاص بها شخصيا لا فى مجرد مبلغ من

المال أعطيها إياه على سبيل الصدقة. ترى أأنا على حق أم على خطإ؟ لا أدرى، ولكن العواطف لا تفكر بهذه الطريقة.

وما دمنا فى الحديث عن الأطفال المحرومين فلأنتهز هذه الفرصة لأنقل هذا التقرير الصحفى الذى قرأته الآن فى موقع جريدة "المصريون" بتاريخ ١٢ إبريل ٢٠١٣هـ بعنوان "الملاجئ هبة أطفال الشوارع فى مصر"، وهو تقرير يبعث على الألم الشديد. وغايتى من نقله أن يعرف من لهم بيت وأب وأم أنهم فى نعمة، وأن يستشعر القادرون منا العطف والرحمة على الأطفال المسحوقين والمحرومين، وما أكثرهم فى مصر المحروسة. يقول التقرير، وقد أَجَلْتُ فيه القلم ببعض التصحيحات اللغوية، ولكن تركت مضمونه دون أى تدخل من جانبى ولا بالتعليق أيا كان رأيى فيما يحتوى عليه: "تزداد أعداد أطفال الشوارع فى مصر كل يوم، وبالتحديد فى الآونة الأخيرة، فقد وجدنا الكثير من المخربين والمندسين فى المظاهرات السلمية والاعتصامات الفئوية. وعندما نركز فى الخراب وإلقاء زجاجات المولوتوف نجدها تصدر من قِبَل أطفال لا يتعدى عمرهم الخمسة عشر عاما، ونشعر بأنهم يريدون الخراب حتى وإن كانوا غير مؤيدين لأشخاص أو أحزاب، ولكنهم يريدون أن تستمر الفوضى فى مصر. فمن هؤلاء الأطفال؟ وما الذى يجعلهم يفعلون هذا؟

معظم هؤلاء الأطفال من أطفال الملاجئ الذين عاشوا طفولة يائسة تخلو من كل معانى الحياة الجميلة، ويشعرون دائما أن المجتمع هو السبب فى كل ما يحدث لهم من تدمير لطفولتهم وضياع لمستقبلهم. ففى أحدث الإحصائيات الصادرة من الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء بشأن أعداد الملاجئ فى مصر جاءت كالتالى: محافظة القاهرة توجد بها ٣٨ جمعية، الإسكندرية ١٧ جمعية، بورسعيد ١٠ جمعيات، حلوان ٦ جمعيات، مدينة ٦ أكتوبر جمعيتان، دمياط ١٠ جمعيات، الدقهلية ١٩ جمعية، الشرقية ٧ جمعيات، القليوبية ٩ جمعيات، كفر الشيخ ١٤ جمعية، الغربية ٢٣ جمعية، المنوفية ٨ جمعيات، البحيرة ١٥ جمعية، الإسماعيلية ٩ جمعيات، الجيزة ١٤ جمعية، بنى سويف ٧ جمعيات، الفيوم ٥ جمعيات، المنيا

٢٣ جمعية، أسيوط ١٠ جمعيات، سوهاج ٣٨ جمعية، قنا ١٢ جمعية، أسوان ٩ جمعيات، الأقصر ٧ جمعيات، البحر الأحمر جمعيتان، الوادى الجديد ٩ جمعيات، مطروح ٤ جمعيات، شمال سيناء جمعيتان، جنوب سيناء جمعية واحدة. وفى إطار ذلك رصدت "المصريون" آراء إخصائيى جمعيات الملاجئ والخبراء الاجتماعيين للوقوف على أسباب رفض أطفال الملاجئ للمجتمع والرغبة فى الانتقام منهم، ومن المسئول عن تدمير طفولتهم ومستقبلهم:

فى البداية تقول عبير محمد أنور، إخصائية اجتماعية بجمعية المواساة، إن أطفال الملاجئ دائما رافضون للمجتمع حتى وهم داخل الجمعية، فهم دائما خائفون ورافضون الاختلاط بأى شخص خارجها. ودائما ما أقول لهم إنهم أحسن حالا من أطفال الشوارع، لأن المؤسسة لدينا تقوم برعاية الأطفال الذين ينتمون إلى أسر، ولكن أهاليهم مواطنون غير قادرين على تربيتهم بسبب ظروف مالية ومعيشية. ودائما ما يكون السبب وراء إيداع هؤلاء الأطفال داخل الملاجئ هى الأم: فهناك من تكون والدته متوفاة، وهناك من تكون والدته أرملة أو مطلقة ولا تستطيع تربيته ورعايته لأنها سوف تتزوج، فتأتى به إلى هنا وتتركه، ومن وقت إلى آخر تأتى لتطمئن عليه... وهكذا.

وهناك من يأتى به أهله ويَعِدُونه بأنهم سوف يأتون لزيارته، ولا يسألون عنه. وهناك أطفال يذهبون لزيارة أهاليهم ويشاهدون بأعينهم كيف يعانى باقى إخوتهم من الجوع والمرض وعدم التعليم، فيحمدون الله ويشكرون أهاليهم بأنهم أودعوهم تلك المؤسسة. ولدينا أطفال يستمرون معنا من فترة الروضة إلى المرحلة الإعدادية. وهناك من يريد أن يكمل الثانوية العامة. وأغلبهم لا يريد أن يكمل دراسته، ويكتفى بالمرحلة الإعدادية. وهناك من يكمل دراسته إلى المرحله الثانوية ويحصل على دبلوم. ومنهم من يتركنا ويقرر الاعتماد على نفسه. ومنهم من يعمل معنا، ونقوم بتوفير فرص عمل له. وهناك من يعمل خارج المؤسسة، ولكنه يعود كل يوم للمبيت هنا. وبالنسبة للبنات عندما ينتهين من دراستهن يخترن أن يذهبن لأهلهن، ولكنهن يتزوجن

على الفور، فنقوم نحن بتجهيزهن وتوفير كل متطلباتهن من الجمعية حتى نطمئن على الفتاة فى منزلها مع زوجها أو مع أسرتها .

فى السياق ذاته تقول نيفين عادل، إخصائية الجمعيات والملاجئ التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية: إن ملاجئ الأطفال غير آدمية بالمرة، وليس لديها القدرة على تربية أجيال جديدة. وذلك لأن المدرسين الذين يعملون بها، وحتى المشرفين والمشرفات، لا يتقاضون رواتب ترضيهم، ولا تلبى احتياجاتهم. فبالتالى لا يشعرون بالرضا، ويكون لديهم اكتئاب من وظيفتهم. أما المؤسسات والملاجئ الخاصة فهى تتلقى تبرعات كبيرة من رجال أعمال، وذلك لترويج الملاجئ والمؤسسات عن طريق الإعلانات المدفوعة الأجر وغيرها، وبالتالى يعطون رواتب كبيرة للعاملين والموظفين بها . ويكون رد فعل المدرسين والمشرفين من هذا الرضا هو المعاملة الحسنة للأطفال. وحتى التبرعات التى كانت تأتى لنا من فاعلى الخير قلت، بل انعدمت تمامًا، وذلك نظرا للظروف الاقتصادية بمصر. وكل هذا بالطبع يؤثر بالسلب على سلوكيات هؤلاء الأطفال. ولكن المؤسسات الخاصة من الممكن أن تخرج أجيالا من الممكن أن يكونوا صالحين ونافعين للمجتمع ولأنفسهم، ففاقد الشىء لا يعطيه.

ويقول أشرف سعيد، وهو مشرف اجتماعى بإحدى الجمعيات: إن الأطفال الموجودين داخل المؤسسات لا يشعرون بالرضا من أى شىء يقدم لهم، فهم كارهون لكل شىء، وكل شىء يقدم لهم، سلبيا أو إيجابيا، هو بالنسبة لهم لا يعنى أى تقدير، ولا يمثل لهم أية فرحة لأن الشىء المقدم لهم ليس من ذويهم. فكل هدف هؤلاء الأطفال هو الخروج من الملاجئ والمؤسسات والذهاب للعيش مع أهاليهم. فهناك طفل فى الصف الثالث الإبتدائى جاءت والدته لتُودِعه عندنا لعدم قدرتها على الإنفاق عليه، ومن وقت لآخر تأتى هذه الأم لترى ابنها وتطمئن عليه. ففى الفترة التى لا تكون الأم معه لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم. فقط يبكى. وعندما يأتى أهل الخير ليعطوه بعض الحلوى يرفض ويأخذ فى الصراخ والبكاء، ولكن عندما تأتى أمه ومعها

شيء بسيط له مثل كيس شيبسى يكون فى قمة سعادته ويأكل ويضحك ويلعب. وعندما تمشى الأم يستمر فى البكاء . . . وهكذا . فهذا الطفل مهما قدمنا له من رعاية وغيرها فلن يكون راضيا عنها على الإطلاق.

من زاوية أخرى قالت الدكتورة عزة كريم، أستاذة علم الاجتماع بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية: إن نوعية المؤسسات تختلف فى تبنيها للأطفال حسب ظروفهم الاجتماعية: فهناك مؤسسات لرعاية الأطفال اليتامى، وهناك مؤسسات لرعاية اللقطاء أو مفقودى النسب، وهناك مؤسسات لرعاية الأطفال الضالين أو التائهين عن أهاليهم. وهؤلاء الأطفال يتم توزيعهم على حسب المؤسسة. ولكن القضية هى أنه، إلى وقتنا هذا، لا تستطيع المؤسسات الموجودة فى مصر، وللأسف الشديد، تأهيل أجيال جيدة وإبرازها للمجتمع بسبب عدم توافر الرعاية الطبية والتعليمية والنفسية والتربوية نظرا لأن من يقوم بالعمل، سواء كانوا مدرسين أو مشرفين أو إخصائيين اجتماعيين، هم غير مؤهلين ولا متدربين عليه بشكل لائق. والدليل على هذا أن هؤلاء الأطفال لا يطيقون العيش داخل المؤسسة أو الملجأ فترة طويلة، فنجد أن الطفل عندما يصل إلى عمر معين يهرب على الفور من المؤسسة، ولا يطيق العيش هناك. وحتى لو وجدنا بعض الأطفال يكملون المدة داخل المؤسسة ويخرجون منها بعد انتهاء الفترة المسموح لهم للعيش داخلها، ويخرجون للتعامل مع المجتمع، فإنهم لا يستطيعون أن يكوّنوا أسرة ولا يستمرون فى العمل أو فى وظيفة، وإن أكملوا لا يستطيعون أن يكونوا أولياء أمور: لا آباء صالحين ولا أمهات. وذلك كله يرجع إلى المعاملة القاسية والتربية غير الصحيحة التى تلقّوْها داخل المؤسسة أو الملجإ.

غير أننا قمنا بعمل بحث منذ فترة مع هؤلاء الأطفال، وكان ردهم واحدا: نحن نشعر أننا داخل سجن، أو مجندون فى الجيش من كثرة النظام: فالأكل بمواعيد، والنوم بمواعيد، والاستيقاظ بمواعيد، والضحك بمواعيد، والبكاء بمواعيد . وهم يمثلون شريحة كبيرة فى المجتمع. وأى أسرة طبيعية لا يوجد بها هذا النظام القاتل، فحياتهم أسهل بكثير من هذا الروتين الذى تضعه المؤسسات والملاجئ لهؤلاء الأطفال.

وللأسف هذا النظام تخضع له جميع الجمعيات والمؤسسات والملاجئ الحكومية والأهلية. فنحن لا نجد وزيرا أو شخصية عامة فى مصر كان موجودا داخل مؤسسة أو ملجأ. وكل هذا لأن القائمين على عملية التربية والتأهيل لهؤلاء الأطفال غير مؤهلين لها. ولو نظرنا إلى الدول الغربية نجد أن الأطفال اللقطاء يخرج منهم الوزير والشخصيات العامة. فأبرز الشخصيات العامة فى الغرب كان أصلهم لقطاء، وتربَّوْا فى ملاجئ، وذلك لأن الجمعيات أو المؤسسات والملاجئ الموجودة فى البلدان الغربية تعامل الطفل معاملة آدمية وتحترم هؤلاء الأطفال، إذ ليس لهم أى ذنب فيما ولدوا عليه، ولأن الشخص لديهم مهما كانت ظروفه يعنى لهم الكثير".

ونفس ما قلتُه، قبل الدخول فى موال الشحاتين والأطفال المحرومين والملاجئ، عن عدم تركى الصلاة منذ أن بلغت الثانية عشرة وذهبت إلى طنطا أتعلم فى الأزهر يمكنك أن تقوله أنت عن الصيام، الذى لم أكسره منذ انتظمت فى أدائه بدءا من تلك السن أيضا رغم ما تعرضت له مرارا وأنا صبى لم أبلغ الحُلُمَ بَعْدُ من عطش محرق كان الشيطان يوسوس لى خلاله أن أطفئ ظمئى بشربة ماء حتى أتخلص من تلك البُرَحَاء. وكنت، وأنا صغير لم أبدإ الصيام بعد، أضيق أشد الضيق حين آكل بعد صلاة الجمعة، وهو اليوم الذى لا أذهب فيه إلى الكتّاب وأكون قريبا من أبى، فأجده لا يشاركنى الطعام.

أما فى أكسفورد فى أواخر عشريناتى بعد أن كبرت وسافرت إلى بريطانيا مبعوثا للدراسة من أجل الحصول على الدكتورية فقد دخلت المستشفى مرة لمدة يوم لإجراء عملية منظار على المثانة للتأكد من خلوها من الالتهاب، وأتتنى الممرضة الصغيرة الظريفة بعدها تطلب منى أن أشرب بعض الماء لِيَرَوْا نتيجة العملية أو لشىء من هذا القبيل، فاعتذرتُ، ولكنها أصرت، فقلت ضاحكا تخلصا من الموقف: إن الله سوف يغضب منى إذا أفطرت. فقالت: إنه لا يمكن أن يغضب لمجرد تناولك شربة ماء لا راحت ولا جاءت. إلا أنى رددت وأنا ماضٍ فى الدعابة: أنا متأكد أنه سوف يغضب، بينما هى تجيبنى بقولها: لا أظن ذلك.

وانتهى الأمر بأن مر الوقت الباقى من اليوم، وكان مدة صغيرة، ومن ثم خرجت من الموقف المضحك على الوضع الذى آثرتُه. ولا أدرى هل كنت على صواب فى قرارى هذا أو لا، إلا أنى، بينى وبينكم، قد استثقلت أن أفطر وأعيد صيام اليوم وحدى فى الوقت الذى لم يكن قد بقى من النهار سوى جزءٍ جدِّ قليل.

وقد اعتمرتُ، والحمد لله، مرارا أنا وزوجتى وابننا وبنتنا، ثم سلوى أيضا بعد أن هلت على الوجود، عندما كنت أعمل فى جامعة أم القرى (فرع الطائف)، وإن كان هناك من يفوقوننى فى عمل العمرة كثيرا جدا من زملائى المصريين فى مدينة الطائف، التى لا تبعد عن مكة سوى تسعين كِيلاً أو نحو ذلك، إذ كان بعضهم يؤديها كل أسبوع تقريبا، فى الوقت الذى أديتها أنا وأسرتى بمعدل عمرة كل ثلاثة شهور. كما حججت ثلاث مرات أنا وزوجتى والأولاد. ومن المؤكد أن قلة تكاليف الحج بالنسبة لنا حين كنا نسكن "الطائف المأنوس" حسب تسمية بلدية تلك المدينة لها فى اللافتات المنشورة على الطريق قرب مداخلها لها دخل فى ذلك. وقد وهبْنا ثواب الحج الزائد أنا وزوجتى وابناى الكبيران لأبى وأمى وجدتى ووالدَىْ زوجتى. رحم الله الجميع، وألحقَنا بهم على خير. وأحب ألا تفوتنى الفرصة لأبين للقراء أن استقامتى الجنسية هى، فى جانب منها، راجعة إلى لطف الله بى إذ لم يضعنى فى موقف حرج كان يمكن أن تزل فيه القدم، وإن كان ما أعرفه من شخصيتى "يخيِّل لى" أن خشيتى من المجتمع وكراهيتى أن يلوك الناس سمعتى ورفضى فعل شىء يسىء إلى عِرْض الآخرين مما أبغضه لنفسى كان كفيلا بتقوية عزيمتى فى مواجهة الإثم لو ضَعُفَ الوازع الدينى. فالحمد لله على بره بى ولطفه معى، وأبتهل إليه سبحانه أن يدخلنى الجنة بكرمه ورحمته دون حساب أو عقاب أو عتاب كما أدعوه فى كثير من الأحيان.

ومن عجائب الأقدار أن جدتى ظلت على قيد الحياة إلى أن انتهيتُ من دراستى فى طنطا ثم انتقلتُ إلى التعليم الجامعى فى القاهرة ثم تخرجتُ ومعى ليسانس اللغة العربية وآدابها. وهنا، وبعد تخرجى واستقلالى بنفسى، توفاها الله تعالى، فكأنه قد تركها لى كى تؤدى هذه المهمة ثم تغادر الحياة بعد أن تنتهى

من مهمتها الربانية. ولم أتمكن للأسف أن أرد لها شيئًا من جميلها، اللهم إلا أننى اشتريت لها طرحة وحذاء بسيطا عُقَيْبَ تخرجى، فدعت لى كثيرا بفرحة عجيبة وكأنى اشتريت لها الدنيا جميعا ناسية أنها صاحبة فضل عظيم علىَّ لا يمكننى، مهما صنعت لها، أن أوفيه أبدا. وكلما تذكرت تهلُّل وجهها وهى تدعو لى أحسست باطمئنان، وعزوت ما أنا فيه من ستر ويسر إلى دعوتها الكريمة لى، أكرمها الله تعالى برحمته وبره ولطفه.

والغريب أننى لم أشعر بتلك المنة التى أولانيها المولى الكريم فى شخصها إلا بعد رحيلها، وبعد أن نضجت شخصيتى وفهمى للحياة، فعندئذ، وعندئذ فقط، تنبهت إلى الدور العظيم الذى أدته تجاهى والذى لولاه لما تعلمت ولما وصلت إلى ما وصلت إليه. ودائما ما أدعو الله فى صلواتى بكل ما فى كيانى من حرارة وحب وإخلاص وشعور بالجميل وأمل فى رحمته سبحانه أن يتغمدها بكرمه وفضله وأن يبوئها أعلى منزل فى الجنة. رحمها الله رحمة عميمة. لقد كان ظُفْرها برقاب رجال كثيرين رغم أنها، ككل أمهاتنا وجداتنا فى القرية آنذاك، كانت امرأة أمية. بل إنى لأدعو لها عادة أكثر وأقوى مما أدعو لوالدىَّ رغم حبى الشديد لهما. وكانت، رحمها الله، كثيرا ما تقضى الليالى فى طفولتنا لَدُنْ إخلادنا إلى النوم فى البكاء والتعديد على أمى وأبى (وكان ابن أختها. وقد مات ميتة مأساوية، إذ دخل بالموتوسيكل ذات ليلة شتوية وهو عائد من طنطا فى النصف المظلم من مقدمة عربة تضىء فانوسا أماميا واحدا، فتحطمت جمجمته ومات فى مستشفى محلة مرحوم ليلة الأحد السابع عشر من يناير ١٩٥٧م)، وخال لى مات فى شبابه مقتولا، بعد أن بجست بطنه سيارة نقل كان يقف وراءها قريبا من حائط، فرجع السائق إلى الخلف دون أن يحسب حسابه فدعسه فى الجدار، فكان وقت نومنا فى كثير من الليالى حزينا. وظلت الجدة تبكى وتعدِّد بصوتها الواله الضعيف إلى أن التهب جفناها.

إنى أكتب هذا وأنا أغالب دموعى حنانا إليها وتذكرا للعطف الذى كانت تفيضه علىَّ حين أعود أحيانا أصيل يوم الخميس من طنطا متشوقا إلى دفء قلبها فتأخذنى عند النوم فى حضنها وتغطينى بمَلَسِها الأسود ذى الكرانيش تقينى من البرد، حتى إذا انقضى باقى الخميس ونصف يوم الجمعة الأول ووجب أن أعود إلى طنطا هجمت جيوش الحزن على قلبى وأنا أغادر القرية فى إحدى سيارات الأجرة عائدا إلى الغربة والضياع فى شوارع المدينة وحواريها حيث لا جَدَّة ولا أحد يسأل عنى. وذلك كله على العكس مما كنت أشعر به وأنا أترجل من الحافلة المتهالكة لدن وصولها إلى مشارف القرية قبل نحو أربع وعشرين ساعة، إذ كنت أحس بروحى ترفرف عند رؤيتها للمنازل والحقول، وكأنها أسير طال اعتقاله وتعذيبه ثم أفرجوا عنه بغتة، فعاد إلى أهله ودياره، ديار المحبة. ولقد كتبت فيما بعد قصة موت خالى ووصفت مشهده وهم يحملونه إلى المقعد البحرى على سطح بيت خالى الكبير (والمقعد بلغة قريتنا هو الغرفة العلوية)، ولطخات باللون الأحمر تغطى بطنه ظننتها وقتذاك عصير طماطم أكلها قبيل موته وسال من بطنه المنفجرة، ولكن عندما كبرتُ رجحتُ أن تكون هى الدماء التى نزفت من بطنه بعد انبجاسها . كما وصفتُ الناسَ الكثيرين الذين صعدوا وراء جثمانه وأنا طفل صغير تائه بينهم.

كذلك كتبتُ قصة قصيرة عن طفلٍ مات أبوه، لكنه كان يظن أنه سافر إلى مكان بعيد وسوف يعود يوما ، فكان يخرج كل يوم إلى ظاهر القرية ينتظر عودته، إلى أن رأى من بعيد فى يوم من الأيام فرسا يعدو برجل ظنه أباه، ليفاجأ عندما اقترب منه بأنه ليس هو بل شخصا آخر، فعاد إلى البيت كاسف البال ثقيل القلب، إلا أنه رغم ذلك لم يفقد الأمل ورجع يخرج كل يوم فى انتظار الوالد الغائب. وقد أردت، من خلال هذه القصة، أن أقول إن بعض حقائق الحياة ثقيلة على النفس، وإن كثيرا من البشر يعيشون فى الأوهام على أمل لن يتحقق، إلا أن له رغم ذلك دورا فى حياتهم بالغ الأهمية إلى أن يكبروا ويفهموا أوضاع الدنيا على حقيقتها وبشاعتها . ثم ضاعت القصتان: الأولى الساذجة، والثانية المقبولة، فيما ضاع من أشيائى الكثيرة فى مضطرَب الحياة.

لقد كان تعليمى فى المرحلة الإعدادية (وكانت تسمى: "الابتدائية" فى السنتين الأُولَيَيْن لى فى الأزهر) تعليما أزهريا . وكنا نجلس فى نصف السنة الأولى على الحصير بمسجد السيد البدوى حيث كنا نتلقى دروسنا على يد المشايخ الذين يجلس كل منهم على دكة خشبية، وقد لبس فى قدميه خفا نظيفا خاصا بالمسجد يقيه برد الشتاء، ونتحلق حوله على الأرض، والبرد يخترق عظامنا الطرية لا يبالى بشىء . وكنت لا تكاد تسمع صوتا آخر فى المسجد غير أصوات المدرسين، الذين كان يجلس كل منهم لصق عامود من عواميده. ورغم أن المسجد فى نصف النهار الأول يستحيل معهدا فقد كان هناك مكان داخل المسجد حول المقام مفتوح لجمهور الناس نساء ورجالا ، ولكن يفصل بينه وبين مكان تلقى الدروس سور خشبى غير مرتفع. فكانت النساء الريفيات اللاتى يردن زيارة أولادهن يأتين ويقفن بجوار السور حاملات القفف التى عبأنها من خيرات المنزل بالقرية يتحفن بها أبناءهن. وفى الفسحة التى كنا نصلى فيها الظهر، ويمكن الجمهور أن يدخل إلى مكان الدروس ويصلى معنا ، كانت الأمهات يلتقين بأبنائهن وينتظرنهم إلى ما بعد انتهاء اليوم الدراسى ليصحبنهم إلى حيث يسكنون. وكان فتانا الصغير لا يعرف مثل تلك الزيارات، لأنه لم تكن له أم، ولا حتى أب. وكان من بين أولئك الأمهات من تريد أن تفرح بابنها فى تلك السن فتزوجه، ليأتى إلينا أحد زملائنا قائلا لنا إنه قد تزوج فى الإجازة، وتظهر عليه علائم السعادة لدخوله دنيا . وأذكر بهذه المناسبة ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود عن زواجه مبكرا بهذه الطريقة وكيف أركبوه الحصان ليلة الدخلة ولفوا به العزبة. وهذا مسجل فى كتابه الممتع: "الحمد لله ! هذه حياتى" . أما فى النصف الأخير من أول عام دراسى لنا بطنطا فقد انتقلنا إلى معهد طنطا الأحمدى الإعدادى الذى بَنَوْه خصيصا لذلك فى سيجر، فكان علينا أن نمشى أكثر من ضعفى المسافة التى كنا نمشيها من غرفتنا إلى مسجد السيد البدوى. لكنْ عَوَّضَنا عن ذلك أننا كنا نجلس على كراسىّ، ولكل منا درجه، ولم يعد البرد يخترق عظامنا الضعيفة كما كان يفعل فى مسجد السيد البدوى. رحمها الله من أيام!

وكنت أشعر فى بداية ذهابى إلى طنطا بالهم يملأ قلبى، وكنت أتمنى أن أعود إلى القرية وأترك كل هذه الأحزان التى لم يكن لى بها قِبَل، إلا أن القدر كانت له كلمة أخرى. وأذكر أمسية قضيتها أنا وزميل لى من القرية كان يشعر مثلى بالحزن، وكان أبوه وأمه على قيد الحياة، ومشينا فى شارع البحر فى آخر خمسينات القرن الماضى بدءا من الحارة التى كنت أسكنها قبالة مدرسة القديس لويس فى اتجاه شارع الخان وسط الشارع نتشاكى، وكنا فى السنة الأولى بالمعهد الدينى، فتمنينا لو استطعنا ترك الجمل بما حمل والعودة إلى القرية، ولكن ضاعت شكاوانا وتمنياتنا سُدًى لحسن الحظ.

وفى يوم الجمعة، يوم سفرنا إلى طنطا فى صيف ١٩٥٩م للتقدم إلى امتحان الأزهر فى اليوم التالى، ارتفعت حرارتى بعد الصلاة ارتفاعا شديدا وشعرت بضعف وتضعضع كبيرين، فتمددت، بعد أن استحممت وغيرت ملابسى، على شلتة موجوة عندنا منذ كان جدى لا يزال حيا، إذ كنت أراه راقدا عليها ينظر إلىَّ وأنا أدور وأتقافز فى أرجاء البيت مارا به داخلا وخارجا لا أستقر فى مكان كما يفعل الأطفال. وأخذت أشكو لجدتى ما أنا فيه من تعب وإرهاق، فاقترحت علىَّ عطفا منها وحنانا أن أبقى فى البيت هذا العام لظروف مرضى وأتقدم العام المقبل، إلا أننى رفضت قائلا فى سذاجة ملهمة إن زملائى سوف يسبقوننى بعام. وأغلب الظن أننى لو بقيت إلى العام القادم ما كنت ذهبت إلى طنطا أبدا بعد ذلك. وكان السبب فى اتخاذ خالى وجدتى قرار ذهابى إلى طنطا الشيخ عيد عطا، وهو أحد طلاب القرية الكبار، وكان يومها منتقلا إلى السنة الرابعة الثانوية فى معهد طنطا الأحمدى، إذ هوّن عليهما الأمر قائلا إننى لن أكلفهما شيئًا. رحمه الله رحمة عظيمة، فلولا هذا الاقتراح وذلك التشجيع من جانبه لما كان من نصيبى الذهاب إلى المعهد الدينى ولا غير الدينى. والحمد لله، الذى رعانى ولم يسمح لظروفى المعاكسة قط أن تعوقنى عن التعلم وبلوغ أعلى الدرجات الرسمية فيه بغض النظر عن استحقاقى ذلك أو لا.

وكان التعليم جادا مرا تمام الجد والمرارة، ولا موضع فيه للهزل كما سبق القول. لقد كنا ندرس الآجُرُّوميّة مثلا والسيرة النبوية، والفقه فى "متن أبى شجاع"وشرحه، وما أدراك ما أبو شجاع ومتنه وشرحه؟ ولا تنس أننا كنا أطفالا طريبى العظم، فكنا نحفظ ما لا نفهمه. ومع هذا فلا شك أن طريقة التعليم تلك بخشونتها وجِدّها المُرّ كان لها فضل كبير علينا، إذ صَلّبَتْ أعوادنا وصقلت شخصياتنا وعقولنا. ولم نكن نعرف الدروس الخصوصية ولا كنت أستعين بأحد من أجل فهم شىء فى الكتب مهما كانت صعوبته أو تعقيده. كان علينا أن نصارع الأمواج وحدنا معتمدين على قوتنا الذاتية وعلى الله سبحانه قبل قوتنا الذاتية. وإذا لم نفهم شيئًا كنا نحفظه، وإلا فماذا كان يمكننا أو ماذا كان ينبغى أن نفعل؟ ثم قليلا قليلا ينقشع غموض ما كان غامضا وتلين صعوبة ما كان صعبا، إلى أن وصلنا إلى ما نحن عليه الآن، وإن لم يعن هذا أن كل شىء فى دنيا العلم صار سهلا ولينا، فما قصدت إلى هذا، بل قصدت إلى أن ما كان صعبا علينا فى البداية أضحى ميسرا فيما بعد، إذ العلم لا يمكن أن يخلو من الصعوبة والغموض يوما.

وحين وصلت إلى طنطا عصر الجمعة استعدادا لامتحانات القبول التى تبدأ اليوم التالى كنت فى حالة يرثى لها، ولم أستطع الخروج مع زملائى للفسحة فى المدينة، وبقيت نائما على كنبة فى صالة الشقة التى كنا ننزل فيها أعانى المرض والإنهاك وارتفاع درجة الحرارة. وقد تولى الشيخ عيد عطا، عليه رحمة الله، مهمة علاجى، إذ أحضر رأس ثوم وطلب منى تفصيصها وتقشيرها، فصدعت بالأمر، ثم أحضر كوب خل لا أدرى من أين، وأمرنى أن أمضغ فصوص الثوم كلها مرة واحدة، ففعلت وشعرت أن نارا شبت فى فمى ولسانى، ثم ناولنى كوب الخل لأشربه كى يطفئ نار الثوم، فأطعته، وكان شيئًا جديدا لم أفعله فى حياتى قبل ذلك ولا بعده. وكان معروفا عن الشيخ عيد أنه ينظر فى "تذكرة داود" يستلهمها طرق معالجة ما يقابله من أمراض. وقد شعرت أن لسانى قد تَنَفّط أو هكذا تصورت، فقد كنت ألقى صعوبة وعناء وألما شديدا فى لسانى إذا ما أكلت مع زملائى ومن حضر معهم من أهليهم. وكان الخبز الذى كنا نتناوله خبزا ريفيا جافا، فزاد هذا من

معاناتى وآلامى، إضافة إلى مقاساتى الجوع بسبب أنى لم أكن آكل كفايتى كرفقائى، الذين لا يعانون فى أفواههم أو ألسنتهم أية مشاكل. وكنت إذا ما أردت أن أرفه عن نفسى أخرج إلى رأس الحارة، وأجلس وحدى بجلبابى الريفى فى ظل شجرة من أشجار الجزيرة المعشوشبة الجميلة الهادئة التى تفصل بين اتجاهَىْ شاعر البحر قبالة مدرسة القديس لويس أتأمل ما حولى أو أقرأ فى المصحف استعدادا للامتحان الشفوى فى حفظ القرآن.

وفى المعهد الدينى قابلت طلابا كثيرين من قرى مختلفة اللهجات واللكنات، فكان أبناء كل قرية من تلك القرى يجدون فى لهجات الطلاب الآخرين ولكناتهم ما يبعث على التعجب والتهكم، إذ يتصورون أن كل ما خالف نطقهم خطأٌ صُرَاحٌ لا شك فى ذلك، غير دارين أن الأمر لا يعدو أن يكون عادة لغوية لا علاقة لها بصواب أو خطإ. ولكن كيف تنتظر من تلاميذَ صغارٍ جهلةٍ ضيقى الأفق يعيشون فى شرنقة مغلقة أن يفهموا هذا الذى أقوله الآن بعدما نضجتُ واتسع أفقى ودرستُ علوم اللغة وتعلمتُ ألسنة أجنبية فعرفت أن الدنيا تفيض باللغات واللهجات المختلفة وأن الدنيا فى كل مناحيها قائمة على الاختلاف، وبعد أن سافرت إلى الخارج وطفت عددا لا بأس به من بلاد العالم؟ ومع هذا فلا بد من القول بأن ذهابى إلى طنطا واصطدامى بتلك الثروة من اللهجات واللكنات المخالفة للهجة قريتى ولكنتها قد مَثّل لى ما يمثله الخروج من الشرنقة بالنسبة للدودة التى كانت محبوسة فيها والتى تحولت إلى فراشة تطير فى الفضاء، وإن كان الفضاء فى هذه الحالة فضاء محدودا جدا لا يتعدى الحقول المجاورة، بخلاف الفضاء المتناوح الذى أطير فيه الآن بعدما تحولت الفراشة إلى طائر مهاجر عابر للأوطان والقارات.

ولقد فهمنا منذ البداية أن الحياة جِدٌّ واستقامة وجهد ومعاناة، ولا تحتمل الهلس، فحفظنا الدرس، ومشينا على العجين لا نلخبطه أبدا، اللهم إلا فى الشهادة الإعدادية حيث بداية التفتح العاطفى خلال طور المراهقة الذى تختلط فيه السعادة الفردوسية السامقة الشاهقة بالقلق والحزن الممض الأليم، فأهملتُ بعض

المقررات وكنت، فى حصص مادة الرياضيات، ألفّ رأسى بالكاكولا ببطانتها الحريرية وأستنيم إلى ما تشيعه فى دماغى من دفء فى فصل الشتاء، بينما الأستاذ عاطف ذو الوجه المنمش واللثغة الظريفة التى كانت تقلب سيناتِه ثاءً ماضٍ فى طريقه كالبلدوزر يشرح الرياضيات للطلاب، الذين يتجاوب كثير منهم معه تجاوبا عظيما وأنا مخدر بدفء الكاكولا، مع شعورى فى ذات الوقت بالتنغيص جراء تخلفى عن زملائى أنا الولد الجاد النشيط. وكانت مسافة الخُلْف بينى وبين الزملاء تزداد اتساعا كل يوم، وأخذ اليأس يكشر لى عن أنيابه فى الوقت الذى كنت متفوقا على هؤلاء الزملاء فى النحو والصرف والفرنسية.

ترى أين إبراهيم القديم البارع فى حل الحساب والهندسة؟ لقد كان العم أحمد نحلة، رحمه الله، يسهر معى فى بيتهم بقريتنا قبل الامتحان فى السنة الأولى لنا بالأزهر فى العام الدراسى ١٩٥٩– ١٩٦٠م، وكان ابنه محمود (الأستاذ الآن بقسم اللغة العربية فى آداب الإسكندرية) زميلا لى بالمعهد الدينى قبل أن يترك الأزهر ويلتحق بالمدارس مثلى، وإن كان قد حول أوراقه إلى إحدى مدارس الثغر لوجود عمه هناك حيث يملك عدة لوكاندات فى وسط المدينة. فكان الأستاذ أحمد نحلة يفتح معى الكتاب ونقوم معا بحل المسائل الصعبة بينما يكون محمود قد تركنا وذهب ينام. وكنت قريب عهد بالكتاب حيث لم نكن ندرس الكسور الاعتيادية والعشرية والمسائل الصعبة التى شرعْنا ندرسها فى الأزهر، فكان العم أحمد يستحثنى على حل ما يصعب من المسائل، وأنا مرهق من السهر والحر، إذ كان الصيف على الأبواب، فأهرش رأسى، فيهتف فى ظرف قائلا: أيوه! هِيهْ! ها هو ذا الغراب يوشك أن ينقر! إذ كان يصور لحظة الإلهام عندى بنقر الغراب لرأسى. فكنت أضحك، وفى نفس الوقت كان الغراب من جهته يضع فى عينه حصاة ملح وينقر، وأتوصل أنا عندئذ لحل المسألة. ولا يبقى أمام الولد الذى ينقر رأسَه الغرابُ سوى أن يعود إلى جدته لينام، إلى أن يصبح الصباح، فنقوم أنا وحنفى وبعض الزملاء الآخرين وننطلق، بعدما نكون قد صلينا الصبح، إلى الزراعية فى اتجاه بسيون، وفى أيدينا الكتب نستذكر ما فيها حتى نصل إلى عزبة حسام الدين وكوم الغابة فنرجع،

وقد نتريث قليلا عند سور الجسر المؤدى إلى عزبة قارون على المصرف ونحن ماضون فى الاستذكار أو الثرثرة، ثم نعود أدراجنا إلى القرية، وتكون الشمس قد ملأت الآفاق.

وكان من الممكن جدا أن تنزلق قدمى فى الإعدادية الأزهرية فأرسب رغم تفوقى وحصولى على الجائزة الأولى دائما فى الاختبارات التى كان يعقدها لنا المشايخ قبل ذلك، إلا أن الله ستر وسلّم، فحين أتت إجازة آخر العام، وكانت شهرين كاملين قبل خوض غمرات الامتحان، ولم أكن قد استذكرت مادة "الرياضيات" بحسابها وهندستها وجبرها، صارحت أحد زملائى بالكرب الذى أنا فيه، فما كان منه إلا أن أجابنى برجولة وشهامة وحب أَنْ: لا تبتئس يا إبراهيم ولا تحزن.

- ولكن كيف يا أبا السّيد؟

- سوف أعطيك كتابا خارجيا للرياضيات هدية، وما عليك إلا أن تمشى معه خطوة خطوة، وسوف تجد كل شىء سهلا، ولن تقابلك صعوبة على الإطلاق.

ولم أكذِّب خبرا، فمررت عليه بقرية قحافة القريبة من طنطا، فأيقظته من نومة القيلولة، فأعطانى الكتاب، وأخذته ومضيت إلى قريتى أستعد للامتحان. وكنت، طوال العام، قد أهملت بعض المقررات الأخرى كالجغرافيا والتاريخ والعلوم والفقه والتوحيد، وإن لم تكن مصيبتى فيها فى فداحة مصيبتى فى الرياضيات. وكان علىّ أن أبدأ استذكار معظم المواد من البداية. فكنت كمن يجرى من عدو يطارده ويوشك أن يلحقه ويقضى عليه. ولهذا كان الاستذكار قلقا. أما الرياضيات فما أصدق ما قاله لى زميلى! لقد كنت أقطعها كما تقطع السكين قطعة الزبد الطرية، ولم تقف أمامى أية مسألة. وعلاوة على هذا كان هناك خمسة دروس كاملة فى مقرر اللغة الفرنسية التى كنا ندرسها فى الأزهر لأول مرة لم يشرحها الأستاذ لنا، فكان علىّ أن أستذكرها بكلماتها وتعبيراتها الجديدة وقواعدها معتمدا على نفسى وحدها دون أية مساعدة من أحد.

ورغم أن المواد الأخرى كانت مشوشة فى ذهنى للسبب المشار إليه فقد جاء ترتيبى الثالث على الجمهورية بين الطلاب المبصرين فى امتحان الشهادة الإعدادية الأزهرية سنة ١٩٦٤م. الحمد لله.

وقد ترك هذا الزميل النبيل الأزهرَ كما تركته أنا أيضا، وأغلب الظن أنه التحق بمدرسة التجارة الثانوية. وقد أتى علىَّ وقت فى نهاية تسعينات القرن الماضى حاولت فيه بكل ما أستطيع أن أعثر على ذلك الزميل الشهم، ومررت ببعض القرى القريبة من طنطا وبسيون أزور الأسر التى تحمل ذات اللقب: "زيادة" لعلى أضع يدى على أول الخيط الذى يمكن أن يقودنى إلى ذلك الرجل العجيب الذى قيضه الله لى ليمدنى بالحل السعيد، فأرد له بعضا من الجميل العظيم الذى يطوق به عنقى وقلبى وضميرى. لكن للأسف ضاع كل مجهودى فى محاولة التوصل إليه هدرا . جازاه الله عن هذا الموقف الكريم خير الجزاء، فإنه سبحانه وتعالى يحب الشهامة والنبل، وقد كان هذا الزميل بالغ النبل والشهامة. بارك الله فيه وفى ذريته ووفقه فى كل أموره.

هذا عن الاستذكار، أما بالنسبة للتفتح العاطفى فقد ذاق الصبى الصغير المسكين فى الإجازة الصيفية السابقة طعم الحب فى أروع وأرقى وأنقى وأسعد تجاربه. كان الصبى المسكين يشعر حينئذ بمذاق السكر الحاد فى حلقه كسكين تحزّه حَزًّا، وبنشوة علوية فى قلبه لم يُقَدَّر له أن يَخْبُرها فى حياته بعد ذلك بنفس القوة والامتلاء والسعادة. لقد شاهدها هناك جميلةً أنيقةً متعلمةً رقيقةً مهذبةً. وقد أتاحها الله للصبى المسكين فعصمه بها من الزلل، إذ جعلته ينظر دائما إلى الأعلى حيث الرقى والنقاء والبهاء والتحضر، ولا ينغمس فيما ينغمس فيه الشباب فى سنه وظروفه. وأخذ الأمر من الصبى المسكين بعض الوقت حتى فهم أخيرا أن هذا هو الحب الذى يتحدثون عنه. لقد كان يحس بقلبه يوشك أن يقفز من موضعه فرحة وسعادة. وكان الصبى الصغير المسكين على مقربة منها طوال الإجازة، وكذلك فى طنطا طوال العام الدراسى التالى، حتى عاد إلى القرية يستعد لامتحان الشهادة الإعدادية، فانقطع عن رؤيتها، إلى أن كان يؤدى امتحان الثانوية العامة بعدها بثلاثة أعوام فى مدرسة قاسم أمين بطنطا، وكان جالسا أثناء الفسحة التى تفصل بين مادتى

الامتحان على ترابيزة فى حوش المدرسة، وإذا بها تقبل عليه كأنها مقبلة من الفردوس وتحدّثه بعد انقطاع دام ثلاثة أعوام كاملات لم ير أيهما الآخر خلالها قط، فيشعر أن الدنيا والآخرة والكون جميعا كلها قد أقبلت عليه وصارت طوع يمينه، لكنه رغم ذلك يبقى فى مكانه مرتبكا جرّاء المفاجأة. إلا أن الشياطين من زملائه أخذوا ينادونه من بعيد مداعبين ومنغمين أصواتهم بطريقة تشى بحسدهم إياه على ما هو فيه، فانصرفت هى وزميلتها مستحيية. منهم لله! ثم رآها مرة أخرى فى زورة من زوراته لطنطا عن طريق المصادفة بعد ذلك بثلاث سنوات، وكانا فى السنة الثالثة من تعليمهما الجامعى، وإن كان كل منهما فى جامعة ومدينة غير جامعة الآخر ومدينته، فوجدها كالعهد القديم بها بهاء ونقاء وتحضرا وأناقة، وقُلْ فيها كُلّ ما شئتَ من جمال ورقة وعذوبة وضياء فلن توفيها حقها.

ثم ضربت الأيام بينهما بسد عال فلم ير أحدهما الآخر منذ ذلك اليوم. لكنها رغم هذا لم تترك خيال الصبى الشاب الرجل الكهل الشيخ قط. ومع علمه أنها لا بد أن تكون قد كبرت مثله فإنه لا يستطيع أن يتخيلها، بل لا يراها فى المنام بعد أن كبر، إلا تلك الفتاة الأنيقة الرقيقة الأولى التى كانت ولا تزال مثالا للجمال والكمال، والتى مضى على آخر عهده بها عشرات الأعوام. ولعل ما يمكن أن يقرب للقراء مشاعر الصبى الصغير المسكين آنذاك رواية الأديب الروسى الكبير تورجنيف: "الحب الأول" مع الفارق المتمثل فى أن صبينا الصغير المسكين لم يكن يبكى كما كان يبكى بطل رواية الأديب الروسى. وبكل تأكيد لقد كان لتلك الفتاة العجيبة يَدٌ طُولَى فى إقبال صبينا الصغير المسكين على القراءة والكتابة وفى طموحه إلى أن يكون أديبا كبيرا. ولهذا ليس غريبا أنه، حين يلتفت إلى الماضى، يجد أن بداية اهتمامه بعالم الكتاب والكتابة قد تزامنت وسطوعها فى حياته كالشمس المتألقة التى نشرت الضياء الباهر فى كل كيانه على نحو غير مسبوق ولا ملحوق.

وهو، كلما تذكرها بعد هاتيك الأعوام الطوال، دعا الله لها بالسعادة هى وزوجها وأولادها رغم أنه لا يعرف شيئًا عن زوجها ولا أولادها، بل لا يعرف هل لها أصلا أولاد أو لا. وقد ارتبطت فتاته فى عقله وقلبه وخياله وكيانه كله بعدد من الأغانى الشجية الرائعة كـ"ساكن قصادى"، و"كلمنى عن بكرة"، و"أيوه وحياة اللى فات"، و"لا تكذبى"، و"بأمر الحب" . . . وكلما سمع أغنية من هذه الأغانى أخذته على جناحيها إلى عالم النور والطهر القديم، ليعود مرة أخرى بعد انتهاء الأغنية إلى أرض الواقع الخشنة، وهو يشعر أنه قد طُرِدَ طَرْدًا من الجِنَان. لقد استحالت هذه الفتاة رمزا على كل ما هو جميل نقى يسعد به الإنسان بينه وبين نفسه، لكنْ لا يمكن الوصول إليه فى واقع الحياة. إنها الواحة البليلة الظليلة فى الصحراء الملتهبة القاحلة. ولقد فكر صبينا حين كبر أن يكتب قصة قصيرة تصور صلته بفتاته، تلك الصلة التى لم تتعد جوانح قلبه. لكنه لم يضع هذه النية موضع التنفيذ قط. ترى لماذا؟ لعله فى أعماقه يؤثر أن تظل تلك الفتاة الرائعة فكرة فى الضمير، ورمزا على كل ما هو جميل وبديع ورائع وسام نبيل طاهر، ومن ثم كان لا بد أن تبقى عالية فى سمائها الشاهقة السامقة بعيدا عن الواقع الذى يخدش الأشياء والأشخاص بل يجرّحها تجريحا، بل يحطمها تحطيما. إنها المثال الأعلى المتنائى عن الأرض والنقصان.

وتحضرنى مسرحية الأستاذ توفيق الحكيم: "بيجمالون"، التى تأثّر فيها بالأسطورة اليونانية المعروفة، وكان أول ما لفت نظره إليها لوحة شاهدها فى متحف اللوفر بباريس، ثم أعاد تذكيرَه بها فِلْمٌ عُرِض في القاهرة بنفس العنوان مأخوذ من مسرحية برنارد شو عن ذلك الموضوع، فتناولها الحكيم بدوره، لكن مع الانحياز للفن ضد واقع الحياة، الذى ينفر منه الفنانون المخلصون. ذلك أن جالاتيا، التى كانت فى الأصل تمثالا نحته بيجماليون وتفنن فى نحته، صارت رمزا للخلق الفنى الذى يهيم به مبدعه حتى ليطلب من الإله أن يهبه زوجة تشبهها، فينفث فيها الإله الروح تحقيقا لأمله على أبهى صورة. لكن جالاتيا لا تلبث، بعد أن نفث فيها الإله الروح، أن تصبح امرأة فيها ما فى كل امرأة من غرائز حيوية تدفعها إلى تفضيل الرجل على الفنان

المشتغل عنها بفنه، فتهرب مع نارسيس المدلل المعجب بنفسه، ثم تثوب إلى رشدها وتفيء إلى زوجها الفنان تستغفره عما فعلت وتقر بعظمته، وتقوم على خدمته كما تفعل الزوجات. إلا أن بيجمالون الفنان ينفر منها رغم ذلك مخيبا ما كنا نظنه ونأمله من أنه سوف يفرح بعودة تلك التى وقع فى غرامها لشوشته تائبة مستغفرة! والسبب؟ السبب هو أنها، حين أخذت تزاول أعمال البيت وتحمل المكنسة وتنزل من دنيا الخيال إلى دنيا الواقع وتتصرف كأية امرأة فى الحياة الحقيقية، قد بعدت بتصرفاتها هذه عن صورتها المثالية التى سمت بها فى ذهنه حين كانت تمثل الجمال الخالص، فيثور الفنان فيه على المرأة فى صورتها الواقعية، ويدعو الإله أن يردها تمثالا عاجيا كما كانت، ثم ينهال عليها بالمكنسة. لا لا، فلتبق فتاة صديقنا الشاب صورة فى الخيال لا ينال منها واقع الأرض أى منال. ولو كانت له دعوة مستجابة تخرق قانون الحياة لطلب من ربه أن يبقيها كما كانت يوم رآها فى شبابه الباكر لأول مرة: نضرة وبهاء وروعة وجمالا وتحضرا وإبداعا لا تمسها يد الزمان أبدا.

لقد كانت له فى السنة التمهيدية للماجستير بآداب القاهرة عام ١٩٧٠- ١٩٧١م زميلة من بلد عربى جميلة أنيقة شاعرة بنفسها أشد الشعور، وكانت هيفاء ذات شعر أصفر حريرى طويل تعقصه على هيئة ذيل الفرس فينوس خلف ظهرها نوسانا فاتنا، ثم انفصلا حين انتقل إلى جامعة عين شمس معيدا، وتصادف أن كان فى مدينتها ببلدها المجاور لمصر يناقش رسالة دكتوراه منذ عدة أعوام قبل ثورات الربيع العربى، وقابلها هناك بناء على سؤاله عنها لأنها كانت مدرسة مساعدة بنفس الكلية التى يناقش فيها رسالة الدكتورية، فحضرت ليفاجَأ بكائن آخر غير الذى كان فى ذهنه، كائن ذهب جماله، ولم تعد له فراهة ولا شعر حريرى ولا غير حريرى لأنها صارت ترتدى الخمار وتتلفف فى عباءتها وتلبس نظارة مقعرة ولا تقول عن القطة فى دلال ساحر: "قَطُوسة" (بالقاف) كما كانت تفعل قبل عشرات الأعوام. وحاول عبثا أن يرى شيئًا مما كان عالقا طوال تلك الأعوام فى ذهنه، فلم يجد شيئًا البتة. ومن غبائه أن هذه المعانى قد ظهرت على وجهه،

ويبدو أن السيدة قد تألمت. لعن الله الغباء ! لكن منه لله الزمن، فهو السبب لا أنا ! إنه قاس شديد القسوة لا يرحم! يبدد كل شيء، و"ليس على حجره غالٍ".

نسيت في غمرة كلامي أن أذكر أنني، في السنة الثانية من تعليمي بالمعهد الديني الأحمدي، كنت أستذكر مع طلاب قريتي في مسجد السيد البدوي عصرا مراجعا مادّتَيِ امتحان اليوم التالي حينما قامت خناقة بيني وبين زميل لي عرفت فيما بعد أباه وأمه وإخوته، وكنت أذهب معه كثيرا إلى بيتهم بعد زوال الخصام وبعد انتقالهم من حي العداسة إلى مسكن جديد قريب من شارع القاضي حيث تعاملني والدته، رحمها الله، معاملة حنونا . ولست أستطيع الآن أن أتذكر السبب في خناقة ذلك اليوم، إلا أننا على كل حال قد تشابكنا في المسجد وبركتُ فوقه أيام كنت أستطيع الخناقة، وضربني من غيظه بالقبقاب الخشبي في رأسي، فشعرت بجمجمتي ترن، ولكن دون ألم ودون أن تترك الضربة أثرا في دماغي. ولما لم يستطع أن ينتقم مني أخذ نفسه وخرج من المسجد، وأنا لا أدري ماذا انتوى. لكنني بعد قليل سمعت زملائي يُهِيبُون بي أن أهرب لأنه أحضر عمه من سوق العَدّاسة القريب من السيد البدوي حيث كان لهم دكان لبيع العلافة هناك، وهم صعايدة، فخَشِيتُ أن يقتلني عمه بِشُومَةٍ أو سكين، فأخذت ذيلي في أسناني، وانطلقت لا ألوي على شيء في شوارع طنطا حتى قطعت مسافة كبيرة من شاعر الحلو (أو شارع سعيد الموازي له: لا أذكر بالضبط) وأمسيت بعيدا عن الأنظار بحيث لا يستطيع الجن ولا العفاريت الزرق أن يعرفوا أين أنا . وأظن أنني، في غمرة رعبي من عم زميلي، قد خرجت من المسجد حافيا، إذ لم يكن هناك وقت للبحث عن الحذاء (أو ربما الشبشب) .

ولكم أن تتصوروا مشاعر صبي يتيم غريب لا أحد يسأل عنه في طنطا ولا في غير طنطا يجري في شوارعها لا يشعر به ولا يلتفت إليه أو يرأف بحاله سوى الله في عليائه، ولديه امتحان في اليوم التالي، وهو محروم من فرصة مراجعة ما سوف يُمْتَحَن فيه بعد ساعات. ومضى بعض الوقت، وهو جالس في ذلك

المكان البعيد قلقا مستوحشا لا يؤنسه سوى تطلعه إلى النسوة اللاتى يفدن إلى حنفية الماء العمومية هناك ويتبادلن الأحاديث أثناء ملء صفائحهن، إلى أنْ نَسَخَ الوقت بعضا من فزعى السابق، وحل محله قلق شديد على مصيرى إذا لم أسارع إلى استذكار الكتابين اللذين سوف أُمْتَحَن فيهما صبيحة اليوم التالى، فعدت إلى المسجد أحوم حوله إلى أن استطعت التواصل من أحد بابيه الغربيين مع بعض أبناء قريتى، فأحضروا لى، وأنا واقف أرقب المكان جيدا وأمسحه بعينىَّ القلقتين خارج المسجد، كتابىَّ وشبشبى (أو ربما حذائى) فأخذت أغراضى وانطلقت إلى مسجد سيدى مرزوق قريبا مِنَ الغرفة التى كنت أسكنها مع بعض طلبة القرية فى آخر درب سيدى مرزوق من جهة الصاغة، وشرعت أراجع المادتين المذكورتين محموما وكأن عفريتا يلهبنى بالسوط، كل مادة مرتين، حتى اطمأننت ورضيت عن المراجعة، ثم عدت بعد أن أغلق المسجد أبوابه إلى المسكن وأنا أحمد الله أنْ لم يَضِعْ علىَّ اليومُ دون مراجعة، مما كان يمكن أن يؤدى إلى رسوبى فى المادتين أو حصولى على درجة متدنية فيهما . فالحمد لله!

ولتسمحوا لى هنا بشىء من الاستطراد، عيبى الفظيع، لأقول إن علاقتى بزميلى هذا وأسرته نشأت وتوثقت وظلت قائمة إلى ما بعد عودتى من بريطانيا فى ثمانينات القرن الماضى بزمن طويل. وكانت زوجتى تأتى معى لزيارة والدته بعدما مات أبو زميلى، الذى تزوج على أمه أرملة عمه بإيعاز منه هو، وكذلك بعد أن أصيبت أم زميلى بالشلل جراء ما حاق بها من الابتلاءات المتلاحقة، ومنها موت ابنتها الصغرى، الفتاة الرقيقة الحيية المهذبة التى أتمت التعليم العالى وحدها دون سائر إخوتها، فكانت زوجتى تأتى معى لنزورها وتجلس بجوارها على السرير وتلاطفها وتقدم لها الهدايا وتقبّلها وتضحك معها وتربت عليها شاعرة أن هذا واجب لا بد لها من تأديته نظير ما أفاضته هذه السيدة علىَّ فى صباى من حنان كأنها والدتى. بل لقد كانت هذه السيدة تذكّرنى دائما من خلال طباعها وسَمْتها بوالدتى، لأنها كانت هادئة وقمحية مثلها . وكانت زوجتى تقوم بهذا الواجب عن طيب خاطر مطلق، إذ كانت تحب ما أحبه ومَنْ أحبه، وبخاصة من كانوا يعاملوننى معاملة

طيبة فى صباى وشبابى، وظللنا نزور السيدة النبيلة الكريمة إلى أن انتقلت إلى الرفيق الأعلى، طيب الله ثراها وكتبها من سعداء الآخرة.

أما بالنسبة لوفاة أخت زميلى الشابة الرقيقة التى كنت أعدها بمثابة أخت صغرى لى فأذكر أننى، حين عدت من بريطانيا إثر حصولى على الدكتورية، ذهبت إلى بيت ذلك الزميل أجدد العهد به وبوالدته وسائر أفراد أسرته، فقابلتنى الأم بذات الترحيب القديم، وأخذنا نتبادل الحديث، وكان وراءها صورة كبيرة لتلك الابنة الصغرى، فسألتها عنها وأين هى الآن وهل تزوجت أو لا، فأجابتنى بنبرة غريبة أنها فعلا قد صارت عروسا، فمضيت أسأل: ومن زوجها؟ فقالت ما معناه أنه القبر. وهنا أحسست كأن إرْزَبّةً قد نزلت على يافوخى، وانخرطت فى بكاء عصبى لم أستطع له مقاومة. وبدلا من أن أواسيها أنا أخذت هى تواسينى، وكأننى أنا المصاب لا إياها. ومع ذلك فقد أشفقت على السيدة الكريمة أن يصيبها سوء، وهو ما وقع سريعا، إذ رأيتها فى إحدى زوراتى التالية وقد شَلَّتْ وصارت ملازمة لسريرها لا تَرِيمُه، ثم ماتت رحمها الله. وقد استمرت صلتى بأبنائها، وبخاصة ابنتها الكبرى وزوجها وأولادها، وكانوا يسكنون بالطابق الثانى فى نفس المنزل الذى انتقلوا إليه من بيتهم الأول فى العداسة. وكثيرا ما قضيت عندهم الليل، فأقوم أصلى الفجر لأجد زوجها الشيخ محمد قد أحضر الخبز الفينو الطازج واللبن والجبن والمربَّى وغير ذلك من ألوان الطعام والمشروبات لنفطر أنا وهو. الحق أن مثل هذه الذكريات الجميلة هى التى تجعلنى، كلما ضقت بسلوك كثير من الناس الآن، أعود فأقول إن الحياة رغم ذلك مليئة بعباد الله الذين حباهم المولى بالنبل والكرم والرحمة والذوق الجميل.

إن فى رقبتى، بل فى كيانى كله، لَدَيْنًا ضخمًا لا يمكن قضاؤه لأم زميلى هذا ولأم صديقى المرحوم أحمد الزاهد (طنط أنوار)، التى كانت تفتح على الدوام بيتها لأصدقاء أبنائها كلهم آكلين شاربين، وبالنسبة لى: نائمين أيضا، كل ذلك فى أريحية وابتسام وصفاء قلب ونبل عجيب. ومهما فعلتُ فلن أستطيع أن أوفى

هذه السيدة العظيمة النادرة المثال بالكلام حقها، وهى الوحيدة التى لم أَرُدَّ شُعَيْرَةً واحدةً من جميلها الهائل كالجبال الشوامخ. وإنى لا أكف أبدا عن الدعاء لها والحديث إلى زوجتى عن بِرّها وكرمها وإنسانيتها ورحابة قلبها وطولِ أناتها حتى إننى لا أستطيع أن أتذكر أنها تجهمت يوما فى وجوهنا، وبالذات فى وجهى أنا. وأحيانا ما أروح فى الدعاء لها عقب صلواتى مبتهلا إلى الله سبحانه بكل ما أملكه فى كيانى من حرارة ملتهبة أن يبلِّغها فى العالم الآخر دعواتى لها ورغبتى فى أن يُبَوِّئها سبحانه الفردوس الأعلى. وكلى أمل أن يستجيب الله لى فيوصل لها ابتهالاتى وإخلاصى وأسفى على أَنْ لم تُتَحْ لى الفرصة لرد شىء من جميلها العظيم لظروف خارجة إلى حد ما عن إرادتى ولِمَا استجدَّ لدىَّ من الخجل بعدما تزوج صديقى المرحوم أحمد فى الشقة التى كنت أتردد عليهم فيها وتغيرت أوضاع الأسرة من ثم تغيرا جذريا. ومن المرات القليلة التى حاولت أن أعبر لها عن شكرى لصنيعها العظيم بعد أن عدت من بريطانيا أننى اصطحبت ذات مساء واحدا من طلبة القرية الجامعيين من جيراننا (وكان أخوه هو الزميل الذى كنت أوقظه أول واحد لصلاة الفجر، فكان إذا لم يكن ينوى أن يستيقظ يرد على تحيتى بـ"صباح الخير" ممطوطة على ما سيأتى ذكره فيما بعد من هذا الكتاب)، ووقفتُ قرب المنزل الذى تسكنه أسرة صديقى، وكلفت ذلك الشاب أن يصعد إلى الشقة المذكورة ويسأل عن طنط أنوار: فإن كانت موجودة اشتريت لها هدية عيد الأم، الذى كانت مصر تحتفل به فى ذلك الوقت. ولم أكن رأيتها منذ سنوات طويلة. إلا أن الشاب المذكور عاد وأخبرنى أنها ليست هناك، بل تقيم لدى أختها حسبما ذكروا له. اللهم أكرم نزلها وأَطِبْ مثواها وأَحِلَّها دار المُقَامَة فى أعلى عليين.

وفى مناسبة أخرى منذ ستة عشر عاما اتصلت بهاتف صديقى أحمد للمرة الأولى فى حياتى بعد أن عرفت الرقم فى سياق غريب، فسألت عنه الفتاة التى ردت على الهاتف، وكانت ابنته، ولم تكن تعرفنى إلا من بعيد من خلال كلام الأسرة عنى، فردت: البقية فى حياتك يا عمو. لقد توفى والدى منذ سنتين. فحوقلت واسترجعت وأنا لا أصدق نفسى. ثم أعطتنى رقم عمها الأصغر، وكان، أيام ترددى على بيتهم

حتى تخرجى من الجامعة، صبيا ظريفا ضحوكا لطيف المعشر، إلا أنه رغم ذكائه لم يكمل تعليمه وترك مدرسة القديس لويس واشتغل فى مشروع تجارى، فاتصلتُ به، وكان يسكن فى الشقة الأصلية على حين تسكن أسرة أخيه المتوفَّى فى شقة جديدة بالبيت المقابل. وتحدثنا لبعض الوقت فبدا من نبرات صوته أنه متحفظ، ثم مررت عليه فى مكان عمله لأعزيه، فألفيته ما فتئ متحفظا رغم كل محاولاتى استعادة الصديق الصغير الظريف الذى كانه أيام الصفاء. وفى النهاية استأذنت وغادرت. ومضت الأيام، وسافرت مرة أخرى خارج البلاد للمرة الثالثة. وفى أثناء كل هذا الوقت كنت أفكر فى كيفية كسر حاجز الثلج المرتفع بيننا، إلى أن كنت منذ شهور مع أستاذ جامعى مُصْهِر إلى فرع آخر من أسرتهم، وهو فى نفس الوقت صديقى وصديقهم، فجاءت السيرة، فإذا به ينهى إلىَّ أن أخا صديقى أحمد هذا قد مات. ثم ها هو ذا نفس الأستاذ الصديق يزيد فينبئنى منذ أيام أن أختهم قد توفيت هى أيضا. وهكذا أُغْلِق الطريق نهائيا تقريبا.

وفى الصِّبَا كنت أستذكر دروسى، حين أكون بالقرية، فى الحقول وعلى شطوط الأنهار غالبا أثناء النهار، وكانت الطبيعة حنونا علينا تَهَبُ قلوبنا كثيرا من السكينة والبهجة فتعوضنا عن الجهامة والقتامة التى عليها بيوت القرية وشوارعها. وإنى لأشعر الآن أن انطلاقى بين أحضان الطبيعة وشعورى بالفناء فيها حين أجوس خلال الحقول وعلى ضفاف الجداول قد عصمنى من التشوه النفسى. لقد كنت أحس بالطبيعة من حولى وكأنها أم رءوم. وكم قرأت بين أحضانها كتب النحو والصرف والبلاغة التى كنت أستعيرها فى إجازة الصيف من أبناء قريتى الأزهريين وأعكف عليها بين مجاليها الفاتنة أصارعها وتصارعنى كما هو الحال مثلا حين عكفت فى الصيف الذى سبق التحاقى بالمدرسة الأحمدية الثانوية على كتاب "شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك" وحدى دون مشرف أو موجه بعدما أعدت قراءة كتاب "قطر الندى" لابن هشام هو وكتاب الصرف، اللذين كنا قد درسناهما فى المرحلة الإعدادية بالأزهر. وكان كتاب ابن عقيل مطبوعا على ورق جرائد كابٍ، وخاليا تماما من علامات الترقيم والتشكيل. ومع هذا لم أَنْكِل عن أداء المهمة الصعبة، وهو ما

نفعنى بعد ذلك بثلاثة أعوام حين التحقت بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة حيث درسنا ذلك الكتاب ذاته، فلم أجد أية مشكلة أو غرابة مثلا فى حفظ الصيغ الخاصة بجموع التكسير التى تزيد على الثلاثين.

وكنت فى البداية أتصور أن هذه الصيغ مبنية على أساس لا يخر منه الماء ومطردة اطرادا لا يعرف الخلل، إلى أن كنت فى أكسفورد بعد ذلك بأعوام طوال وجاءت سيرة تلك الجموع فى مناقشة بينى وبين د. مصطفى بدوى الأستاذ المشرف علىَّ، وهو متخصص فى الأدب الإنجليزى ولغته، فكان من رأيه أنها مجرد صيغ تقريبية. وأنا الآن أرى أن الأمر يقع فى منزلة بين المنزلتين. ومعروف أنه إذا كان هناك، كما هو الحال فى معظم الحالات، أكثر من صيغة جمع تكسيرى للمفردة الواحد فإن الذوق يتقدم لينهض بدوره عندئذ قابلا فى بعض الأحيان استعمال أية صيغة من تلك الصيغ المتعددة بالتساوى أو بالتفاضل، بينما فى بعض الأحيان الأخرى لا يشيع استعمال إحدى الصيغ رغم صحتها. أى أن على الذوق والاستعمال معوَّلا كبيرا، وليست القاعدة صاحبة الكلمة الحاسمة دائما.

وكنا، خلال موسم الاستعداد للامتحان فى تلك الأيام، نخفف التوتر الذى كان يَؤُودُنا بلعب الكرة الشراب فى مباريات تجرى عصر كل يوم فى فناء الوحدة المجمعة التى تقع فى نهاية القرية على الطريق الزراعى المؤدى إلى بسيون. وكان اللعب ممتعا غاية الإمتاع، ولم نكن نضع فى حسباننا أن من الممكن انكسار رِجْل أى لاعب من اللاعبين. ومن ستر الله علينا أن أيا منا لم ينكسر فى تلك المباريات، وإلا لكان معنى هذا عدم دخوله الامتحان وضياع السنة عليه.

وفى أول ليلة لى فى طنطا استعدادا لامتحان الشهادة الإعدادية بدا لى أن أدخل دار الخيالة، وكان الفلمان أجنبيين كما هو الحال معى آنذاك فى الغالب، إذ كنت أوثر مشاهدة الأفلام الأجنبية، وأظن أن السينما التى دخلتُها كانت سينما أوبرا الصيفية التى تقع فى نهاية شارع البحر على ناصية شارع القنطرة. ولكن ما إن اندمجت مع الفلم حتى ركبتنى الوساوس والمخاوف من الامتحان، إذ ثارت المعلومات كلها فجأة فى

ذهنى واختلط الحابل منها بالنابل، وبدا لى مخى وكأن ليس فيه شىء يُعْتَدّ به أو يُعْتَمَد عليه، فامتلأتُ هَمًّا ورعبًا أفسد علىَّ المشاهدة، وخرجتُ فى منتصف العرض وأنا أكاد أختنق تحت ضغط الفزع والارتباك. وحاولتُ ليلتها أن أراجع المواد كلها، وهو بطبيعة الحال أمر مستحيل، ولم ينقذنى من الغم إلا النوم طبيب كل الأمراض المستعصية.

وكنت قد مررت قبلها بأيام قليلة، وأنا فى القرية، بتجربة مشابهة، إذ قابلت بين المغرب والعشاء، عند الجامع الكبير قريبا من دكان الشيخ يوسف نصر، الذى كان نوره يضىء المكان، زميلا لى كان راسبا فى الإعدادية فهو يعيدها معنا، وأخذْنا فى الحديث عن الامتحان، فشرع يَكُرّ علىّ ما حفظه من كتاب الصرف كَرًّا، بينما أقف أنا أمامه ذاهلا لا أكاد أذكر مما قرأته فى هذه المادة شيئًا رغم أنى كنت أفهم كل دروسها، وهو ما انتهى إلى أن شعرتُ بالفزع والهم. والغريب أن زميلى هذا رسب فى تلك السنة أيضا وترك التعليم واشتغل بعد ذلك فى الشرطة. وإنى لأشعر الآن بالحنين إليه رغم أننا لم نكن صديقين ولا متفقى المشارب، إلا أن حنينى إلى الماضى الجميل هو سِرّ هذا الشوق الجارف إلى رؤيته. كما كان يتمتع بخفة ظل، وكانت فيه تأتأة بسيطة محببة سماه أصدقاؤه بسببها: "تُهُتُه". وهذا إن كان لا يزال حيا، فقد ترك القرية منذ ذلك الحين إلى الإسكندرية، ومات أبوه، وبيع بيتهم فيما أذكر، ولم أعد أسمع عنه خبرا. وهكذا الحياة!

وقد قابلته مرة فى الإسكندرية أيام الجامعة، ثم لم أره بعد ذلك. وقد غضب فى ذلك اللقاء بناء على سوء فهم لكلمة قلتها، وحاولت بكل طاقتى أن أوضح له مقصدى منها، وكانت بعيدة عن أى سوء فهم، إلا أن فى النفس البشرية زوايا وخبايا لا يستطيع حتى صاحبها أن يتنبه لها أو يوقف تأثيرها عليه رغم عدم منطقيتها. كما كتبت قصة قصيرة فى أواسط سبعينات القرن المنصرم جعلته أحد أبطالها، وسميته باسمه الحقيقى ككل شخصياتها، وكانوا جميعا زملاء لى فى تلك الحقبة، وعنوانها: "بَلَنْطة". وهى تصور فعل الزمن بنا نحن البشر وما ينزله بأجسامنا وأرواحنا من تَحَيُّفٍ وتحويرٍ. وقد نُشِرَتْ فى منتصف سبعينات

القرن الفائت بأحد أعداد مجلة "الثقافة"، التى كان يرأس تحريرها د. عبد العزيز الدسوقى. ترى هل ما فَتِئَ زميلى ذاك حيا؟ وإن كان فكيف يعيش؟ عِلْم ذلك عند الله!

وكنت فى ذلك الوقت، وقت امتحان الشهادة الإعدادية، قد اتفقتُ مع ذلك الزميل وآخرين على شاكلته أن نسكن معا أيام الامتحان، إلا أن طالبا من شارعنا أكبر منى كان ذاهبا فى نفس التوقيت لتأدية امتحان الثانوية الأزهرية حذرنى مما كنت أنتويه وأغرانى بالسكنى معه قائلا إن زملائى هؤلاء يمكن أن يتركونى نائما ويذهبوا للامتحان دون إيقاظى فيفسدوا علىّ مستقبلى. فارتعبت وذهبت معه وقضينا أيام الامتحان فى الحجرة التى كان يؤجرها من سيدة طيبة فى شقتها بشارع عبد الحليم. واطلعت على جانب من شخصيته لم أكن أعرف عنه شيئا من قبل، ألا وهو الفكاهة التى تجعلك تضحك حتى تدمع عيناك وهو يقلد الأطفال الصغار فى أحاديثهم الظريفة أو يعترض طريق أية امرأة كبيرة تقابله متبالها عليها كأنه طفل صغير يتهته فى سذاجة. أرجو أن يعذرنى القراء إذا سمعوا الآن قهقهاتى وأنا أروى تلك الحكايات العجيبة.

ومن الذكريات الطريفة الآن، المخيفة فى إبانها رغم ذلك، أننى خرجت من امتحان الإنشاء، الذى كان مادة مستقلة قائمة برأسها فى الأزهر، وكانت ثمرةُ القراءة قد بدأت تظهر فىَّ وتؤتى أُكُلَها، فكتبت مائة وخمسة وثلاثين سطرا فى ورقة الإجابة، وخرجت من الامتحان أباهى بذلك من يسألنى عما صنعته فى تلك المادة، فما كان من أحد طلاب قريتنا ممن يكبروننى بسنة أو اثنتين إلا أن صفعنى بالقول بأننى سوف أرسب فى تلك المادة.

– لماذا يا مصطفى، فأل الله ولا فألك؟

– لأن الأساتذة لا تسمح بأكثر من خمسة عشر سطرا فى موضوع الإنشاء.

– إذن يا خراب بيتك يا خِلُّ!

وقضيت وقت انتظار الدخول إلى المادة التالية أمام بوابة المعهد الدينى فى الشارع فى هم عصيب. إلا أن الله، برحمته ذلك الولد المسكين الذى هو أنا، سرعان ما مسح على قلبى الغض الصغير فأنسانى الأمر برُمَّته، فكأنى لم أسمع شيئًا ولم يقل لى ابن قريتى شيئًا، إلى أن ظهرت نتيجة الامتحان على النحو الذى رويتُ.

ولكى يعرف القراء مدى التطور الذى لحقنى فى ميدان الكتابة أقول إننى فى العام السابق على ذلك العام لم أستطع، إلا باللَّتَيّا والتى، أن أكتب فى موضوع الإنشاء أكثر من ثلاثة عشر سطرا بالتمام والكمال. وكان عن المستشفيات فيما أذكر، وكنت سعيدا حين استطعت أن أضمن موضوعى عبارة "أمشى فى مناكبها" المستوحاة من القرآن، أى مناكب المستشفى. ولا أظننى قلت شيئًا له قيمة فى ورقة الإجابة. أما الآن فكنت قد بدأت القراءة بشكل موسع وجاد، وفى فرحة بل نشوة، وكانت المائة والثلاثون والنيف من السطور التى كتبتها فى موضوع الإنشاء هى الثمرة الطيبة لتلك القراءة. وقد هدتنى التجارب الطويلة فى دنيا التعليم إلى أن ضعف الطلاب المزرى الآن سببه أن عقولهم فاضية ليس فيها علم لأنهم لا يقرأون، ومن ثم يعجزون عن التعبير عن أى شىء. ولكن، فى نفس الوقت، إذا أردنا أن يتجاوب الطالب مع العلم ويهتم بالتحصيل والدراسة، فلا بد أن يعرف أن هناك ثمرة لاجتهاده فى المدرسة والجامعة تنتظره بعد التخرج: فى هيئة وظيفة محترمة، ومرتب كريم يكفى حاجاته ويفيض بعضه احتياطا للزمن ومفاجآته، ومسكن لائق بحيث يستطيع أن يتزوج متى قرر الزواج بدلا من عجز الشبان عن إكمال نصف دينهم، وتزايد أعداد العوانس من ثم، بما يهدد بناء المجتمع بالانهيار من خلال الانفلات الجنسى المترتب على هذه الأوضاع المقلوبة. باختصار: على الطلاب أن يقبلوا على العلم فى تبتّل وتجرد وإخلاص، وعلى الدولة من الناحية الأخرى أن تكفل لهم مستقبلا طيبا يليق ببنى البشر، وأن تتقارب المرتبات فلا يحصل كثير من المواطنين من وظائفهم

على الملاليم، بينما هناك من يكسب الملايين آخر الشهر من خزانة الحكومة، وهو ما ينتظره الناس منذ قيام الثورة الأخيرة.

وقد ذكرنى بالنشوة التى كنت أحسها وأنا أدلف إلى عالم الكتاب والقراءة ما سمعته من طالبة لى منذ سنتين حين أتتنى فى المكتب ووصفت لى فرحتها وتحمسها وهى تتعرف إلى ذلك العالم بعد أن كانت لا تقرأ ولا تفكر فى الإمساك بكتاب غير الكتاب المقرر. لقد كانت عيناها تلمعان وهى تحدثنى عن شعورها بالبهجة عند القراءة، التى لم يكن إقبالها عليها فى البداية إلا تخلصا من كثرة حديثى إليها هى وسائر زملائها وزميلاتها عن وجوب القراءة كى يصبحوا آدميين وكثرة نخسى لهم من أجل هذه الغاية، ثم سرعان ما شَغِفَتْ بها وصارت من مدمنيها، ولم تكن تدرك أو تصدق أن الكتاب يحوى كل هذا القدر من أسباب السعادة والانتشاء كما أكدت لى.

وفى العام الحالى وجدت، وأنا أصحح أوراق الإجابة فى قسم اللغة العربية، طالبا يقول: "قوايل" و"سجوع"، يقصد "أقاويل" و"أسجاع"، ومعظم الطلاب والمعلقين فى الصحف الألكترونية يقولون: "حسالة" بدلا من "حثالة". وكثير من طلابنا يقولون: "عادتًا" و"فجأتًا"، أو إذا لم يعجبك التوت فارض بشرابه وخذ "عادتَنْ" و"فجأتَنْ"، ومن الصعب جدا عليهم أن يكوّنوا جملة مقبولة. وعلى ذلك فَقِسْ. إن العقل البشرى يشبه الحصالة التى تضع فيها ما يتجمع لديك من مال. فإن وضعت فيها شيئًا فلسوف تجده عند الحاجة إليه. أما إن تركتها فاضية كما يترك الطلاب والطالبات فى هذا الجيل أمخاخهم خاوية على عروشها فلسوف تجد نفسك عاجزا حائرا بائرا لأنه ليس لديك ما يمكن أن تستخرجه من باطنك لتعرضه على الناس.

أذكر الآن أنه، بعد عودتى من العمل بجامعة قطر منذ ثمانى سنوات، قام طالب فى اللقاء الذى يعقده القسم فى آخر كل فصل دراسى حيث يجتمع الأساتذة ببعض ممثلى الطلاب لإلقاء نظرة على الفصل الفائت وتقويمه، فشكا من أنه مضى عليه لا أدرى كم من الأعوام فى القسم وهو عاجز عن الحصول على الليسانس.

وطبعا كان يقصد أن الأساتذة هم المسؤولون عن هذا بتصعيبهم وتحبيكهم الأمور دون داع. وأشار إلى مادة الترجمة التى كنت أدرّسها لهم ثم انخرط فى الموال المعتاد الذى يتلخص فى أننا طلاب بقسم اللغة العربية، فما الداعى لدراسة الإنجليزية أو الترجمة منها ؟ فقلت له ضاحكا: دعنا من الإنجليزية، وأخرج ورقة وقلما واكتب لنا بضعة سطور تحكى فيها ما فعلتَه منذ قيامك من النوم إلى أن حضرت هنا . وأعقبت هذا بقولى إنه لا يوجد ما هو أسهل من هذا الطلب بتاتا . فأخذ يلف ويدور محاولا تشتيت انتباهى حتى أنسى ما طلبته منه. إلا أننى أصررت على طلبى، وزدت فوعدته خمسة جنيهات إن فعل، وكانت الخمسة جنيهات أيامها تساوى شيئا . وعبثا حاول التهرب، إلا أنه فى النهاية لم يجد مناصا من تقديم الورقة المطلوبة لأفاجأ بأنها حديث قدسى لم يستطع "بسلامته" أن يكتب فيه كلمة واحدة سليمة لا إملاءً ولا نحوا . ومع ذلك فقد أعطيته الجنيهات الخمسة وأنا أضحك. أما لماذا ضحكت فلكيلا أنفجر من الغيظ .

وبالمناسبة فلا أزال أذكر بعض الكلمات الجديدة التى دخلت معجمى فى ذلك الوقت البعيد حين كنت طالبا فى الإعدادية الأزهرية: فمنها عبارة "بِيَدِه المجرَّدة" فى قول نيقولاى جوجول فى "أمسيات قرب قرية ديكانكا" إن البطل صعد فى السماء وأمسك القمر "بيده المجردة" . ولا تسل عن فرحتى الطاغية عندما قابلت هذه العبارة وفهمت من السياق أن جوجول يقصد أن الرجل كانت يداه عاريتين. ومن تلك الكلمات كلمة "مِنْسَأَة" فى سورة "سَبَأ"، إذ أخبرنى طالب أزهرى كان يكبرنى ببضع سنين بأن معناها "العصا" . وكنا واقفين عند النقطة القديمة أمام نادى الشباب، وكان الوقت بُعَيْد العصر فيما أذكر الآن، وكنا فى إجازة الصيف التى عقبت حصولى على الإعدادية الأزهرية. وكنت سعيدا أَنْ عرفتُ كلمة جديدة أضفتها إلى معجمى، الذى شرع يتكون تكونا منظما ومتسارعا فى ذلك الحين بفعل القراءة المتحمسة. وكنت أنطق عبارة "أُرْتِجَ عليه الكلام"، بمعنى أن باب الكلام قد أُغْلِق بالرِّتَاج، أى بالترباس، فلم يستطع الرد، كنت أنطقها هكذا: "ارْتَجَّ عليه الكلام" . صحيح أننى كنت أفهم معناها، لكننى لم أكن أنطقها صوابا . ومثلها عبارة "بَيْدَ

أَنَّ"، التى أخذها عنى عدد من طلابى لاستعمالى لها كثيرا فى كتبى، ومعناها: "إلا أن/ لكن"، والتى كنت أنطقها فى تلك الفترة: "بِيَدِ أَنَّ" مثلما يفعلون هم الآن، وكنت رغم ذلك أفهم معناها . وبالمثل كنت أفهم عبارة "بَعْدَ لأْيٍ" وأنها تعنى أن الأمر لم يقع للتَّوِ بل أخذ وقتا وجهدا، لكنى كنت أوجهها على أن الأمر كان يقابَل فى كل مرة بكلمة "لا" (وهذا معنى "لأى"، أى لأ لأ لأ) قبل أن تتم الموافقة عليه وينفتح فى وجه صاحبه الطريق ليفعل ما يريد . وأذكر هنا أن طالبة من طالباتى القارئات بمدرسة الحلمية الجديدة عام ٧٠- ١٩٧١م، وكان كثيرات منهن يقرأن فى ذلك الزمان رغم أن المدرسة كانت مدرسة خاصة وفى حى شعبى، كانت تقول عن "بُغْيَةَ كذا": "بِغِيَة كذا"، متصورة أن الكلمة هى "غِيَة" بمعنى "رغبة" كما نقول فى العامية. فـ"بِغِيَة كذا" معناها أنه فعل ذلك وفى ذهنه تلك الرغبة. وحاولت أن أشرح لها الأمر، إلا أنها لم تقتنع. وواضح أنها تفهم المعنى فهما سليما، لكن الخطأ فى توجيهها للعبارة مثلما كنت أصنع مع بعض العبارات فى صباى وشبابى.

ومن الطبيعى جدا أن نقع فى بداية أمرنا فى مثل تلك الأخطاء . ذلك أن الكلام إذا كان غير مشكَّل فإنه يقبل أكثر من ضبط . فإذا كانت الكلمة جديدة علينا فمن الممكن جدا أن ننطقها خطأ . لكن مع الأيام تتاح لنا الفرص، فرصة بعد الأخرى، لتصحيح الخطإ: إما ممن يعرف النطق الصحيح فيصحح لنا خطأنا حين يسمعه، أو نسمعه نحن فنتنبه إلى ما ارتكبناه من خطإ ونصححه من تلقاء أنفسنا، أو نجده فى نص مشكل فنعرف وجه الصواب فيه ونصححه بناء على ذلك، أو نكشف عنه فى المعجم نطقا ومعنى. وقد كانت ابنتى الصغيرة منذ عدة ليال تقطع معى الشارع الذى أمام بيتنا بعد نزولنا من السيارة عندما نطقت عبارة من هذا النوع خطأ رغم أنه من الواضح أنها تفهم معناها، فصححتها لها فى حنان وفرحة، فحاولت أن تسوغ خطأها، فشرحت لها أننى، مثلها، كنت أقع فى أخطاء مشابهة حين كنت فى سنها، فهدأ بالها .

وليس هذا عيبا فى اللغة العربية كما يحلو لكل متعجل أن يقول، إذ التشكيل هو جزء من لغة الضاد . وكتب الأطفال وكتب المدارس تُطْبَع مشكَّلة الكلمات. وأنا، هذه الأيام، أشترك وبعض الأصدقاء والمعارف

فى وضع كتاب اللغة العربية للسنة الأولى الثانوية فنشكل كل كلمة وكل حرف فى الكتاب حتى يعرف الطلاب كيفية نطق الألفاظ نطقا صحيحا . ومن ثم فلا مشكلة مع هذين النوعين من الكتب لو تنبه الأطفال والتلاميذ والطلاب إلى ما يقرأون واهتموا بحفظ النطق الصحيح والحرص عليه. ثم مع الأيام تقل الحاجة إلى التشكيل إلى أن يأتى اليوم الذى لا تكون فيه حاجة إلى التشكيل أصلا ، اللهم إلا إذا كان القارئ أمام نص قديم أو نص منقطع الصلة بتخصصه أو بنطاق معرفته وتجاربه حيث تكثر الألفاظ التى يجهلها ، ومن ثم لا يعرف كيف تنطق. وحينئذ تشكّل له الكلمات الصعبة والألفاظ الجديدة. وأنا فى كتبى أحرص على ضبط الكلمات التى أعرف أو يغلب على ظنى أن القارئ يمكن أن يخطئ فى نطقها ، فترانى أضبطها له كاملة أو أضبط الحرف أو الحرفين اللذين أتوقع أن يخطئ فى نطقهما . والمهم فى هذا هو أن مثلى كان، فى فترة الصبا والشباب، يعتمد فى تخمين المعنى على السياق، وكان يصيبه فى كثير جدا من الأحيان، وإن لم يكن تخمين النطق الصحيح سهلا بنفس الدرجة. ولكن مع الأيام يتم تصحيح المسار .

وفى تلك الفترة أيضا تعرفت إلى بعض الكلمات الجديدة فى أسلوب المنفلوطى الفخم الجميل، وكان الناشر يشرحها فى الهامش، ومنها كلمة "تمرمر"، أى "اهتزَّ (من الغضب)" حسبما أذكر الآن. ومن هذا الوادى أيضا ، ولكن من كتاب ابن هشام فى النحو فيما أظن، معرفتى أن كلمة "سنوات" يمكن أن يقال فيها : "سنهات"، و"سنون وسنين" كأنها جمع مذكر سالم، وكذلك "سنينٌ، وسنينٍ، وسنينًا" كأنها كلمة مفردة مثل كلمة "حين" مثلا . وأذكر أنه، قد طُلِبَ منى بالقرية فى إجازة الصيف التالية لامتحان الشهادة الإعدادية، أن أكتب موضوع إنشاء تصادف أن جاءت فيه كلمة "سنوات" ، فغيرتها إلى "سَنَهَات" إدلالا بمعرفتى هذه الصيغة الغريبة. طبعا ، وإلا فكيف يعرف الناس أننى "أبو العُرّيف"؟ وفى ذلك الوقت أيضا كنت أُدِلّ بمعرفتى أن "لمّا يفعل" تقوم مقام التركيب المعروف: "لم يفعل بعد" نظرا إلى ما قرأناه فى كتب النحو من أن "لما" تعنى هذا المعنى.

ثم قرأت كذلك فى تلك الأيام ما ورد فى كتاب "أنا" لعملاق الأدب والفكر حين قال الشيخ محمد عبده عن العقاد التلميذ بأسوان بعدما سمع إجاباته على بعض ما وجهه للتلاميذ من أسئلة أثناء زيارته للمدرسة هناك: "ما أجدر هذا الطالب أن يكون كاتبًا بَعْدُ" بضم الدال هربا من الاتهام بأنه يلجأ إلى تسكين أواخر الكلمات حتى لا ينكشف عجزه عن الضبط الإعرابى الصحيح. وكنا قد قرأنا فى كتاب ابن هشام: "قطر الندى وبل الصدى" بالأزهر قبيل ذلك أن "قبل وبعد وأمام ووراء وقدام وخلف" تعرب عدة إعرابات من بينها ضمها على تقدير الإضافة دون نية الإضافة الفعلية، فربطتُ بشىء من المباهاة بين هذا وذاك، وجعلت أشعر اننى على الخط مع كبار الكتاب والمفكرين كالشيخ محمد عبده، الذى كان العقاد يجله إجلالا كبيرا، والذى تابعت العقاد فيه متابعة تامة سنوات طويلة، ثم غيرت رأيى فيه بعض التغيير مع الأيام. وكنت قبل ذلك بثلاث سنوات أنطق كلمة "الوثنية" بتسكين الثاء، إذ كنت قادما لتوى من القرية بعُجَرِى وبُجَرِى، أو كما نقول فى قريتى: بعَبَلِى، لم أدرس شيئًا سوى أننى حفظت القرآن، وأعرف الإملاء والقواعد الأربع فى حساب الأعداد الصحيحة من جمع وطرح وضرب وقسمة، وكان الله يحب المحسنين. وكانت تلك أول مرة تقابلنى تلك الكلمة، بل ذلك المفهوم كله. وأخذ منى الأمر وقتا قبل أن ينبهنى أحدهم إلى أنها بفتح الثاء لا بسكونها.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد غَبَرَ علىَّ وقت طويل وأنا أتصور أن "القيثارة" معناها "الناى". يا للهول! وفى السنة الأولى بالأزهر قابلتنا كلمات لم يكن لها بها أى علم من قبل ككلمة "بنت لَبُون" و"حِقّة" (وكنت أنطقها: "حُقّة" بضم الحاء، ولم يصححها لى أحد فيما أذكر إلى أن نظرتها فى "تاج العروس" الآن) و"جَذَعَة" فى باب زكاة البهائم، وككلمة "زهُومة" لدى الحديث فى كتاب الفقه عن التطهر بالماء المشمَّس، والشروط التى ينبغى توفُّرها فيه حى يصح استعماله فى الطهارة، ومنها ألا تكون به "زهومة، أى دَسَم" بنص الكتاب. والآن لماذا أقف إزاء مثل تلك الأشياء التى تبدو سخيفة لا قيمة لها؟ الواقع أنها ليست سخيفة بأى معنى من المعانى، بل ترينا عمليا كيف ينمو العقل الإنسانى ويكتسب صاحبه اللغة كلمة كلمة، وعبارة

عبارة، وتركيبا تركيبا، وصورة صورة. . . وهكذا حتى يصل إلى المرحلة التى يبدعها إبداعا ويضيف إليها ما ليس فيها .

والحمد لله أننى لا أزال قادرا على تذكر مثل تلك الدقائق والسياقات التى دخلتْ فيها عقلى، فأنضجتْه ونقلتْه من عقل صبى ريفى مسكين لا يكاد يعرف شيئًا إلى عقلِ وَلَدٍ يتعلم وينضج ويتفتح ويقتحم ويتطلع، إلى أن أصبح ذلك الدكتور الذى يكتب الآن بعدما قرأ آلاف الكتب وحبر آلاف الصفحات وحاضر آلاف المحاضرات، وما زالت عملية النمو والنضج ماضية فى سبيلها لا تتوقف ولا يمكن أن تتوقف. ومع هذا كله ما فتئتُ أكتشف كل يوم أننى جاهل لا أعرف إلا القشور، أما اللباب فلا يزال وسيظل "بعيدا عن شاربى" كما نقول فى مصر.

وبمناسبة ما نحن فيه وصلنى اليوم، ضمن مجموعة بريدية كبيرة، إيميلٌ من صديقى الألكترونى د. محمد جمال صقر الأستاذ بكلية دار العلوم تَكَرَّر فيه قوله: "جميعا معا" ثلاث مرات، فرددت عليه بما نصه: "الصديق الكريم، سلام الله عليك ورحمته وبركاته جميعا معا: فى البداية دهشت، مجرد دهش، لاستعمالك "جميعا معا"، وسر دهشتى أنى لا أذكر رؤية هذا التركيب بالذات من قبل، وإن سارعت فقلت فى نفسى إنه كقول القرآن مثلا: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون" وقول النحاة: "أكتعون أبصعون أجمعون" أو شيئًا مثل هذا. ثم بدا لى أن أبحث فى التراث فوجدت الشاعر الأُقَيْشِر يقول: "معا جميعا"، ودِعْبِلاً يقول: "جميعا معا"، وفى "البداية والنهاية" لابن كثير أثناء الكلام عن تزامن حمل أم عيسى وأم يحيى بهما عليهما السلام: "جميعا معا"، وفى شعر للحارث الكِنْدِىّ فى "الحيوان" للجاحظ: "معا جميعا"، وفى "الزهرة" لمحمد بن داود الظاهرى: "جميعا معا"، وفى "الصاحبى" لابن فارس: "جميعا معا"، وفى كتاب المهلبى عن مآخذ المتنبى: "معا جميعا" . . . إلخ. أى أننا قد استفدنا على الصبح استفادة لغوية أَثْرَتْ بها معرفتُنا وتقدَّمْنا إلى الأمام خطوة جديدة. وكنتَ قد قلتَ فى مقالك إن السماع مقدم على الكلام، وهذا صحيح تماما، مع فهم

السماع بمعناه الواسع، أى بمعنى التلقى إنصاتا أو قراءة، ومن هنا نرى الطلاب الآن لا يستطيع معظمهم أن يكتب جملة سليمة. ذلك أنهم لا يقرأون ولا يستمعون إلى المحاضرات ولا يحضرون الندوات، فعقولهم حَصَّالات فارغة ليس فيها ما يمكن أن يستمده صاحبها منها عند الحاجة. وشكرا".

ولا ريب أننا قد تعلمنا الكثير من كتب الأزهر ومن الروح الجادة التى كانت تسوده فى ذلك الوقت حتى إنه لم يكن مسموحا مثلا أن يفتح أى منا فمه أثناء الامتحانات. ويكفى أننى تعلمت فى النحو "شرح الآجُرُّوميّة" و"شرح الأزهرية" وكتاب "قَطْر النَدَى وبَلُ الصَّدَى" لابن هشام، وكتابا فى الصرف من تأليف بعض مشايخ الأزهر المعاصرين. كما حفظنا كثيرا من الشواهد الشعرية القديمة مع شرح ما فيها من ألفاظ صعبة، علاوة على معرفة الظروف التى قيلت فيها تلك الشواهد. وهذه ثروة لا تقدر بثمن وضعنا أيدينا عليها غنيمة باردة. ومنذ ذلك الحين وأنا أعتمد فى معرفة النحو والصرف على هذه الكتب إلى حد بعيد، ومنذ حصولى على الإعدادية أجدنى أكتب فلا أكاد أخطئ فى الإعراب، وكل ذلك بسبب ما درسناه فى الأزهر من كتب. إلا أننى أخذت بعض الوقت حتى استطعت أن أنقل معرفتى ببعض الأمور فى الصرف من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، ومنها ضبط آخر الأفعال التالية وأشباهها: "تَرَيْنَ" و"سَعَوْا" و"يتمنَّوْن" وأمثالها من الأفعال، إذ كنت أكسر الراء فى الفعل الأول، وأضم العين فى الثانى.

وقد أعرب د. شوقى ضيف فى كتابه: "معى" عن دهشته الشديدة من نجاح الطريقة القديمة التى كان يأخذ بها الأزهر فى تعليم طلابه النحو والصرف على ما فيها من شدة، وفشل الطرق التربوية الحديثه فى ذلك المجال، وقال بحقٍ إن ذلك راجع فى جانب منه إلى أن الأزهر كان يدرّس النحو كله فى كل عام ولا يقسمه على أكثر من سنة بحيث يلم الطالب به فى كل مرة إلماما كاملا مع التوسع فيه كل عام، إذ يبدأ الطلاب بكتاب شرح الآجرومية المختصر، ثم ينتقلون منه فى السنة التالية إلى كتاب شرح الأزهرية، وهو أوسع من الآجرومية، ثم ينتقلون من هذا إلى كتاب ابن هشام: "قطر الندى وبل الصدى" بشرح محمد محيى الدين عبد

الحميد. وقد ابتسمتُ بل ضحكتُ حين تبين لى أن أستاذى د. شوقى ضيف فى أواخر عشرات القرن الماضى كان يدرس ذات الكتب التى درستها أنا بعد ذلك فى أوائل ستينات ذلك القرن، وأنه قد وصل إلى نفس النتيجة التى وصلت أنا إليها، وهى الكتابة السليمة دون أخطاء تذكر. لا أقول إن جميع الطلاب أو حتى معظمهم فحسب كانوا يبلغون دائما هذه الغاية، بل أحصر كلامى فى حالتى أنا وأمثالى لأنهم هم الذين أعرفهم وأستطيع من ثم أن أتحدث عنهم. وقد يمكن أن نضيف سببا آخر لنجاح الأزهر (وغير الأزهر) بوجه عام فى تعليم طلابه العربية الفصحى فى ذلك الوقت، ألا وهو أن الجِدّ كان شعار التعليم أوانذاك. وقد بينت أنا نفسى هذا فى الكتاب الحالىّ.

وكنت، فى السنوات الأولى لى بالأزهر أقرأ روايات أرسين لوبين وروكامبول وطرزان وأمثالها شركةً مع بعض زملائى فى النسخ التى كانوا يحضرونها معهم ويقرأونها فى الحصص التى يغيب أساتذتها لسبب أو لآخر، فكنت أنظر فى الرواية التى كان زميلى بجوارى يقرؤها، وأطلب منه ألا ينتقل إلى الصفحة التالية إلا بعد أن أنتهى أنا أيضا من قراءة الصفحة، مثلما كان علىَّ أن أنتظره حتى ينتهى هو بدوره من قراءة الصفحة التى أكون قد فرغت منها، وأنا على أحر من الجمر أريد أن أعرف ما الذى حدث لطرزان أو روكامبول بعد هذا. ولا أزال أذكر لقب الطالب الذى قرأت معه عددا من كتبه فى مثل تلك الحصص، وهو "الفخرانى"، وكان يفتح حرف الخاء على عكسنا فى قريتنا حيث نسكّنها. كذلك أحضر لى أخى الأكبر، وكان يشتغل فى الإسكندرية، مجموعة كبيرة من الروايات الأرسينلوبينية التى اشتراها وقرأها، وكان ذلك بعد حصولى على الإعدادية فيما أذكر.

ثم ابتدأت أتنبه إلى كتب الكبار كالمنفلوطى والعقاد وأحمد أمين وطه حسين ومحمود تيمور ومحمود شلتوت وبنت الشاطئ وسهير القلماوى وحسين عفيف وغيرهم، فضلا عن الروايات المترجمة من روائع الآداب العالمية، ومنها "مرتفعات وذرنج"، التى قرأتها حتى الآن عدة مرات: ملخصة وكاملة، فى ترجماتها

المختلفة إلى لغة الضاد وفى أصلها الإنجليزى. وكنت دائما أذرف الدموع وأنا أطالعها معايشًا بقوةٍ أبطالَها العجيبين. وأذكر أن هذه الرواية كانت مدخلى إلى عالم النقد الأدبى دون أن أعرف أن ما أمارسه آنذاك هو نقد أدبى. أذكر أننى استلقيت على ظهرى ظهر يوم فى الإجازة الصيفية التى تلت اجتيازى المرحلة الإعدادية على الحصيرة فى المقعد، الذى يفتح بابه إلى الناحية البحرية على سطح بيت خالى، الذى تربيت فيه بعد وفاة والدى بالإضافة إلى بيتنا، الذى لا يبعد عنه سوى بضعة بيوت، وذلك بعد الانتهاء من قراءتها لأول مرة من ترجمة موجزة فى سلسلة "روايات الهلال"، وأخذت أتساءل عن السبب الذى جعل هذه الرواية تقتحم كيانى بهذا العنف المزلزل الذى لم أخبره من قبل. وشرعت أستعرض فى عقلى الأسباب التى أتصور أنها وراء ذلك. وكلما تذكرت تلك الظهرية وتلك الاستلقاءة على الحصير فى قيلولة صيف ١٩٦٤م أضحك فى نفسى وأقول: لقد صرتَ والله يا أبا خليل ناقدا أدبيا منذ صغرك وأنت لا تدرى. وكنت أشعر بنشوة علوية وأنا أدلف إلى هذا العالم الجديد، وأصاحب أولئك الكبار.

ومن الكتب التى قرأتها فى المرحلة الإعدادية "الحسين بن على" و"هذه الشجرة" للعقاد، و"هارون الرشيد" لأحمد أمين، و"سلوى فى مهب الريح" والجزء الأول من "الأيام" لطه حسين وبعض المسرحيات لمحمود تيمور، وجميع مترجمات المنفلوطى، و"فى سبيل الحرية" لكل من عبد الرحمن فهمى وعبد الرحيم عجاج وعدد كبير من "روايات عالمية" و"روايات الهلال" وطائفة من روايات تاريخ الإسلام و"علم الفراسة الحديث" لجورجى زيدان، وبعض الأعمال القصصية الأجنبية المترجمة ترجمة كاملة كـ"عودة ابن البلدة" لتوماس هاردى و"أمسيات قرب قرية ديكانكا" لنيقولاى جوجول، و"الشقيقتان" لأليكسى تولستوى و"كل شىء هادئ فى الميدان الغربى" لإريك ماريا ريمارك، و"هى أو عائشة" لريدر هجارد مثلا.

كما لا يمكننى أن أنسى رواية "أشواك" لواحد اسمه سيد قطب حاولت وقتها أن أعرف شيئًا عنه، لكنى لم أستطع. ذلك أنى كنت أريد أن أعرف من ذلك المؤلف الشاب (كما كنت أتصور، فى ذلك الوقت،

الكاتب) الذى أبدع هذه القصة الرائعة وضَمَّخها بهذا الأسلوب العطر وقال فى كلمة الإهداء هذين السطرين البديعين: "إلى التى سارت معى فى الأشواك، فدَمِيتُ ودَمِيَتْ، وشَقِيتُ وشَقِيَ□َت، ثمّ سارت فى طريقٍ وسرتُ فى طريقٍ جريحين بعد المعركة، لا نفسها إلى قرار، ولا نفسى إلى□ استقرار"، بيد أنى للأسف لم أصل إلى شىء لأباغَت بعد ذلك بسنتين وقليل باسمه يدوى كالطبول الحزينة التى تعلن أنباء الموت حين أعلنت الحكومة الناصرية سنة ١٩٦٥م القبض على سيد قطب وكثير من الإخوان المسلمين بتهمة الإعداد لقلب نظام الحكم. ولم أصدق شيئًا من تلك التهم، وتعاطفت مع المقبوض عليهم مستغربا أن يكره ناصر وحكومته ناسا يدعون إلى الله كما كنت أقول فى ذلك الحين. وقلت ذلك يومها فى الشارع أمام عند بيت خالى، الذى كنت أعيش فيه، فحذرنى الشيخ عدس زيد التاجر الملاصق لبيت خالى أن أكرر هذا الكلام حتى لا "أذهب وراء الشمس"، بيد أننى أظهرت لامبالاتى، مطمئنا طبعا إلى أن عيون الحكومة لن تقع علىَّ فى تلك القرية البعيدة عن العاصمة وعن عيون رجال المباحث ومن إليهم.

وقبل ذلك فى طفولتى علمت، كما علمت مصر كلها، بحادثة إطلاق النار على جمال عبد الناصر فى المنشية من شخص يدعى محمود عبد اللطيف قرأت أيامها فى إحدى المجلات التى كان أبى يشتريها فى ذلك الزمان خطابا بخط ابن عبد اللطيف الصغير الذى فى سنى تقريبا يعاتب فيه أباه لأنه فكر فى اغتيال عبد الناصر، الذى يسهر على راحة الشعب. ومن الواضح أن هذا الخطاب قد أملى على الطفل الصغير وأكره على كتابته. وكنت آنذاك تلميذا صغيرا فى جمعية المحافظة على القرآن الكريم. وما فتئت أذكر بوضوحٍ حتى الآن ما فعله ولد من لِدَاتى بالمدرسة حين كان مبيّض ألواحنا الخشبية يدهن لوح هذا الولد واختلفا فى شىء، فصاح الولد، وكان ابنا لأحد الفلاحين الخياطين، بأنه سوف يقول عنه إنه هو محمود عبد اللطيف، فخاف الرجل ولم أغراضه وغادر المكان على وجه السرعة. والحمد لله أن لم يتطور الأمر إلى القبض على الرجل. إذن لظل حتى ممات عبد الناصر فى السجن إلى أن يثبت الجمل أنه ليس حمارا كما

تقول النكتة المشهورة عن فترة الرعب والإرهاب فى عهد خالد الذكر. أما محمود عبد اللطيف ذاته فقد قيل إنه، بإطلاقه الرصاص على عبد الناصر، قد أدى دورا فى مسرحية حبكتها المباحث الناصرية على أساس أنه سوف يطلق رصاصا فشنكا على الرئيس ثم يقبضون عليه فيعترف أنه من الإخوان فيجمعونهم من بيوتهم ويودعونهم السجون ويتخلصون منهم، ثم يطلقون سراحه فى السر ولا من شاف ولا من درى. بيد أنهم، خشية انكشاف الملعوب، قد أعدموه بناء على أنه كان ينوى اغتيال عبد الناصر لولا لطف الله وستره. وبذلك يندفن معه سره والمسرحية الإجرامية المحبوكة التى أدى دروه فيها . هذا ما قيل على لسان الإخوان، والله أعلم بالحقيقة، وإن كنت أنا لا أستبعده.

وزاد استغرابى لتصرف عبد الناصر تجاه سيد قطب بالذات حين عرفت بعد ذلك أنه كان يقوم بدور الأستاذ أو المرشد لضباط يوليه، وأنهم كانوا كثيرا ما يذهبون لبيته فى حلوان اعترافا منهم بأستاذيته. لكنى لم أجد فى هذا غرابة بعدما عرفت ما عامل به الرئيسَ النبيلَ محمد نجيب وأولادَه من قسوة مجرمة غبية غير إنسانية، ولم يرقّ قلبه طوال ستة عشر عاما قط متناسيا ما قام به الرجل الكريم الشهم من تضحية وما استفاده هو وزملاؤه الضباط من اسمه المحترم وسمعته الناصعة ومنصبه الرفيع فى الجيش لترسيخ قواعد الثورة اليوليوية، وكذلك بعدما قرأت أيضا مذكرات أحمد حسين، الذى هام على وجهه فى الأرض بعد قيام الثورة ببعض الوقت خوفا من عبد الناصر رغم ما كان يدين به ناصر ورفاقه له قُبَيْلَئِذٍ . وعودة إلى رواية سيد قطب أحب أن أشير إلى أننى قد كتبت فى السنوات الأخيرة فصلا من عشرات الصفحات عن "أشواك"، التى فتنتنى فى مراهقتى ولا تزال تفتننى فى شيخوختى، فوضعت دراسة عنها تعبر عن إعجابى بها إزاء هذه الموجة العارمة من الروايات التافهة البائسة التى يضعها أرباع المؤلفين ويمطروننا بها فى السنوات الأخيرة، وتنتصف لها ممن يقللون من شأنها، بينما أراها واحدة من الروايات الجميلة التى تستولى على النفس والعقل استيلاء مدهشا .

صحيح أننى عدت فى أول العام الدراسى ١٩٦٥– ١٩٦٦م فكتبت موضوعا إنشائيا عن المكاسب الاشتراكية أغلب الظن أنه قد قُرِّر بإيعاز ممن يريدون التقرب إلى عبد الناصر من رجال التربية والتعليم، هاجمتُ الإخوان فيه ع الماشى تأثرا بالجو السائد بعدما زالت فورة إحساسى بظلمهم فى البداية. لكنى، بعد انتقالى إلى الجامعة، استقر موقفى تقريبا على التنديد بعبد الناصر، اللهم إلا لفترة جد قصيرة عقيب هزيمة ٦٧ المذلة، وإن كان تحمسى للإخوان قد خف بعد ذلك، فأصبحت أراهم بشرا من البشر: فيهم المخلصون المستعدون لبذل النفس والنفيس من أجل الإسلام، وفيهم الذين يركبون الموجة ويتظاهرون بأنهم خَدَمٌ للدين، وهم إنما يخدمون أنفسهم ومصالحهم ويريدون تصدر الصفوف والمجالس، ومنهم الأذكياء والأغبياء، ومنهم الرقيقو المشاعر والغليظو الأكباد، ومنهم أصحاب الأفق الواسع والضيقو العطن، ومنهم الثقال الظل والخفيفو الروح الذين يهبّون على النفس كنسمة صيف بليلة، ومنهم المتعمقون فى الفهم والسطحيون الذين كل همهم المظاهر والشكليات، ومنهم المقتنعون المقنعون وأصحاب الشعارات التى لا تقدم ولا تؤخر ولا تقتل ذبابة، ومنهم من يُشغِّل ذهنه ومن يسلم أذنه لزعيمه ملغيا عقله رافعا حسه بالعبارات الطنانة الخالية من الحرارة والإيمان.

وهناك كتاب وضعه د. أحمد الشرباصى عن الفترة التى قضاها فى المعتقل مع الإخوان المسلمين فى عام ١٩٤٩م بعنوان "مذكرات واعظ أسير"، وسجل فيه تصرفاتهم وأفكارهم ومشاعرهم وعواطفهم وأخلاقهم، فظهروا ناسا من الناس فيهم وفيهم كما شرحت آنفا. كذلك أصدر الأستاذ حسن البنا، قبيل وفاته، بيانا تنصل فيه من العمليات الإرهابية التى أتاها بعض أفراد التنظيم الخاص فى جماعة الإخوان المسلمين، قائلا إنهم ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين. وبالمثل كتب الشيخ محمد الغزالى في كتابه: "من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث" (دار الصحوة/ ١٤٠٥هـ– ١٩٨٤م/ ٢٠٦– ٢٠٧): "عجبت لخلاف وقع بين شباب الإخوان المسلمين أثاره بعضهم بتشاؤم هو: هل نحن جماعة المسلمين أم جماعة من المسلمين؟ والإجابة

على هذا السؤال لها نتائج ذات بال، بل نتائج ترتبط بها صيانة دماء وأموال، فإن الذين يحسبون أنفسهم جماعة المسلمين يرون مخالفة الأستاذ حسن الهضيبي ضربا من مخالفة الله ورسوله، وطريقا ممهدة إلى النار وبئس القرار. وقد كنت أسير مع زميلي الأستاذ سيد سابق قريبا من شعبة المنيل، فمر بنا اثنان من أولئك الشبان المفتونين وأبيا إلا إسماعنا رأيهم فينا وهو أننا من أهل جهنم. وصادف ذلك منا ساعة تبسط وضحك، فمضينا في طريقنا وقد سقط طنين الكلمة النابية على الثرى قبل أن يتماسك في آذاننا . إلا أنني تذكرت بعد أيام هذا العداء المر والأوامر التي أوحت به، فعزَّ عليَّ أن يلعب بالإسلام وأبنائه بهذه الطريقة السمجة، وأن تتجدد سياسة الخوارج مرة أخرى ، فيلعن أهل الإيمان ويترك أهل الطغيان. وبم؟ باسم أن الرئيس وبطانته هم وحدهم أولو الأمر، وأن لهم حق السمع والطاعة، وأن الخارج عليهم يصدق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن رأى مِن أميره شيئاً فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية"، وقوله: "من خلع يدا من طاعة لقي الله لا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". وهذه الأحاديث وأمثالها وردت في منع الفتوق الجسيمة التي يُحْدِثها الشاغبون على الدولة، الخارجون على الحكام. وقد عانى المسلمون وعانت خلافتهم الكبرى أقسى الآلام من ثورات الحانقين والناقمين. وربما كان سقوط الحكم الإسلامي في الأرض بسبب هذه الانتفاضات الهائلة. أما أن جماعة أنصار السنة أو جماعة الشبان المسلمين أو جماعة أهل الصفة يجرون هذه الأحاديث إلى دورهم ويطبقونها على من يبقى معهم أو يخرج عليهم فهذا جنون. بيد أن تعليم هذا الجنون كان أسلوب تربية وتجميع عند بعض الناس. فمن المضحك أو المبكي أن يخطب الجمعة في مسجد الروضة عقب فصلنا من المركز العام من يؤكد أن الولاء للقيادة يكفر السيئات، وأن الخروج عن الجماعة يمحق الفضائل، وأن الذين نابذوا القيادة عادوا الجاهلية الأولى لأنهم خلعوا البيعة. ورُئِيَ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة القاهرة يخلُص بالخطيب جانبا ليقول له: أي إسلام هذا؟ ومَنْ مِنْ علماء الأولين والآخرين أفتى بهذا

اللغو؟ وكيف تلبسون الدينَ هذا الزي المنكر؟ وهيهات، فقد تغلغل هذا الضلال في نفوس الناشئة حتى كتب بعضهم لأخ له من قبل يسأله: هل تظن نفسك مسلما بعد ما خرجت من صفوف الجماعة؟".

ومما قاله فى الطبعة الأولى من الكتاب (عام ١٩٥٤م) وحُذِفَ منه شيء كثير فى بعض الطبعات اللاحقة: "رأيتُ جمعا غفيرا من شباب الإخوان المسلمين ينظرون إلى "مرشدهم" نظرة يجب أن تُدْرَس وأن تُحْذَر. قال أحدهم في اجتماع ضخم للهيئة التأسيسية: "إن المرشد لا يخطئ"، وكان بهذه القولة العجيبة يريد أن يخذلني وأنا أعارض المرشد في بعض تصرفه. وقد خُذِلتُ فعلا، ومُزِّقَتْ ملابس الرجل الذي وقف يُنَاصِرني. ومع أن كلمة "المرشد لا يخطئ" وجدتِ امتعاضا من أغلب الأعضاء إلا أنه امتعاض المذنب عندما يواجَه بجريرة لا يجد منها فكاكا، ويكره أن تلتصق به لظهور معرّتها. والقوم يخلطون بين توقير القائد وتوفير المهابة له وبين الخنوع لرأيه والمسارعة في هواه. إن أول ما نشب الخلاف بيننا وبين المرشد العام كان على أسلوب الحكم في مصر: هل تُكْفَل الحريات العامة ويُصَان الدستور القائم وتنقذ البلاد من استبداد فرد أو أفراد أم نتجاهل هذا الموضوع كله ونطوي حكم الإسلام فيه وتشتغل جماعة الإخوان بشئون أخرى؟

كان الرجل شديد الحرص على مرضاة المستبدين، قليل الاكتراث بحقوق الأفراد والطوائف. وقد ألفت كتابي: "الإسلام والاستبداد السياسي" استنكارًا لهذه السياسة القاصرة، ودفاعًا عن تعاليم الإسلام الصحيحة. ولعل الأستاذ الهضيبي ومن معه عرفوا الآن الحق الذي خاصمناهم عليه وكرهونا من أجله. قال لي ذات يوم واحد من أقرب رجال المرشد إليه: "إن الإيمان بالقائد جزء من الإيمان بالدعوة"، ثم أضاف: "ألا ترى أن الله ضم الإيمان بالرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الإيمان بذاته جل شأنه؟ ذلك لأن المظهر العملي للطاعة والأسوة هو في اتباع القائد اتباعا مطلقا". ثم استدرك محدثي: "لا أعنى بهذا أن أسوى بين المرشد والرسول في حقيقة الطاعة. إنما أقصد دعم مشاعر الولاء نحو الرجل الذي يحمل لواء الدعوة، فأنا أضرب مثلا فحسب". وبمثل هذا الأسلوب رسم مجرى المعاملة بين مرشد الإخوان والجماعة. فلما استغربناه

وتأَبَّيْنا عليه، ورأينا أنفسنا نبصر الحقائق القريبة والرجل لا يحسها، ونعامله مخطئا أو مصيبا غير مقرّين هذه الهالة المزورة التي أضفاها الأغرار عليه، مَقَتْنَا الرجلُ أشدَّ المقت، مَقَتَنَا كما يمقت الكفار والفساق، ثم سار بمن معه يقتحم العثرات والمزالق لا يلوي على شيء ولا يُلام على شيء. أما الشيء الذي تحار البرية فيه فهو إطباق قَبيلٍ من الناس على تقديس شخص ليست لديه ذرة من خصائص الأمجاد، أينما تُوَجّهْه لا يَأْتِ بخير.

وفي حُمّى هذه الطاعة العمياء وقعت أمور يجب أن يكشف الستار عنها. كانت المنشورات السرية تصدر حاملة أوامر القيادة الخفية، وكانت هناك منشورات أخرى توزعها مراكز التجسس الاستعماري، وتُسَيّرها في المجرى نفسه الذي تسير فيه المنشورات الأولى. وكان عبيد الولاء يحترمون هذه وتلك ويتعصبون لها جميعا. وفي إبّان الخصومة القائمة بين المرشد العام وبين الحكومة القائمة نفذ المصطادون في الماء العكر إلى داخل القطر، فاستطاع المخربون اليهود أن ينسفوا جسرًا في منطقة القناة تعكيرًا للأمن وتعويقًا للجلاء. والغريب أن نفرًا من عبيد الولاء ظن هذه الحركة بداية جهاد ضد الإنكليز، جهاد عملي يقوده المرشد نفسه، فرحب بهذه الأعمال!

إن بركات الطاعة العمياء لا آخر لها، وأولها أنها تصدق في أصحابها قول القائل:

لا يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ   ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ

إنني أرجع بذهني إلى الأيام التي استُجْلِب فيها السيد حسن الهضيبي ليقود الإخوان المسلمين فأستشعر الحسرة، لأن المنطقَ الوثنيَّ في تقدير الناس هو الذي هيمن على الموقف كله، والأجهزة السرية العاملة في الظلام هي التي سُخِّرَتْ تسخيرا لإتمام المأساة. وحين كان الوعي السياسي يتطلع إلى مزيد من الحريات كان بعضُ الناس ضعافَ الإحساس بمعنى الشورى وحق قيام الأحزاب، فلم يشعروا بقيمة الدساتير الضابطة إلا بعد فوات الأوان. وأستطيع أن أقول: إن الحاجة تكون ماسة إلى تربية أزكى وفقه أوسع، وتخليص للدين من مسالك غبية كانت تقع باسمه، ومن أمراض نفسية تختفي وراء شعائره. ولو كان المفروض أن يقود أهل

الجهاد والعلم والدراية والتوجيه لوجد من هؤلاء كثير في صفوف الإخوان. لكن أصحاب هذه المؤهلات معروفون يتحدث الناس إليهم ويأخذون منهم ويردون عليهم. والقائد لا يكون كذلك، وما ينبغي له، وإنما ينبغي أن يكون شيئًا مبهمًا تشرئبّ

إليه الأعناق، وتخشع عنده النفوس. أجل، ينبغي أن يكون صنما حيا يأمر فيطاع، ويأتي إليه الأشياع ليتمسحوا به ويطوفوا حوله. إذاً فليكن المرشد رجلا غريبا عن الجماعة! وقلت: أما تتخير رجلا له فضل علم وتربية ليأخذ بنواصي الإخوان إلى الخير؟ فصاح ناظر مدرسة إلزامية يرد عليَّ، وهو يظن أني أرشح أحد أصدقائي من علماء الأزهر. قال فض الله فاه: إننا سنعطي شهادة العالمية لرجلنا هذا.

وسقطت قيادة الإخوان المسلمين في أيدي رجال يمنحهم أتباعهم شهادات المعرفة والفقه، لأن الوثنية في تقويم الأشخاص هي التي سيطرت على الموقف. فلما أخذت شئون الدعوة تتدحرج وتهبط من درك إلى درك، وشرع أولو الرأي والغيرة يتدارسون الحلول المستطاعة لإخراج الجماعة من ورطتها جاء شاب مسكين من عبيد الولاء إلى رجل له في ميدان الدعوة عشرون عاما، جاء يقول له: أتريد أن تكون مرشدًا؟ أتريد أن تنازع فلاناً منصبه العتيد؟ وسكت الداعية القديم لحظة ثم قال: أما أستطيع أن أضع قدمًا على أخرى وأنظر إليكم شَزْرًا؟ أما أستطيع أن أجلس أبكم، فإذا سئلتُ أجبتُ بعد لأْيٍ بحروف لا معنى لها؟ أليستْ هذه خصائص العظمة التي جعلتكم تدينون لفلان هذا بالطاعة، وترعد أنوفكم إذا مَسَّ قداستَه حفيفُ الريح؟ لقد عرفنا كيف كانت الجاهلية الأولى تصنع الأوثان ثم تعبدها؟ نعم، تعبدها وهي التي صنعتها بيديها.

وكما ينسب الفلاحون في ريفنا طائفة من الكرامات الخارقة إلى أصحاب القبور المدفونين في قراهم أخذ المضللون من الإخوان يشيدون بكفايات المرشد الجديد: فإذا اصطاف بالإسكندرية قالوا: يتعهد الدعوة في الثغر! وإذا ذهب إلى لبنان لأن هواءها أنقى قالوا: يحرس قضايا العرب ويشجع المرابطين في القدس تجاه اليهود! وإذا وصل إلى جدة قالوا: حَجَّ واعتمر! وإذا لُفِّقَتْ له خطبة فطاف العواصم والدساكر بها

قالوا: سَحَرَ الناس بمنطقه وبلاغته. وإذا اختفى عن العيون قالوا: أوى إلى الغار كما اختفى النبي صلى الله عليه وسلم عن أعين الكفار. وطبيعي أن رجلاً فارغًا من هذا الطراز المحظوظ لن يضمر في نفسه إلا البغضاء والتنقص لكل ذي مكانة أو قدرة في جماعة الإخوان المسلمين. وعقدة الضعة تجعل صاحبها لا يكتفي بتخطي من هم أكفأ منه، بل إنه يسعد بتحطيمهم، ويسر إذ يقدر على إقصائهم وإطفائهم. لقد جاء حسن الهضيبي، وهو أحدث الناس عهدًا بدعوة الإخوان المسلمين، فأراد أن يكون أقدم الناس فيها بإخراج غيره، وجاء قزمًا بين عمالقة، فشاء أن يكون عملاقًا بين أقزام!

ونظرنا إلى هذا الخلل الفظيع في مقاييس الخير عندنا فعلمنا أنْ سوف نحرم من رعاية الله أبدًا إذا قررناه . وزاد من حساسيتنا به أن الشبان الذين كثروا في قاعدة الجماعة اضطربت أفكارهم وأحكامهم حتى خُيِّل إلى بعضهم أن يزن أقدارنا بمدى رضاء المرشد عنا، ومدى ولائنا له!

أما الخطأ والصواب، أما العقم والإنتاج، أما النكوص والشجاعة، بل قل: أما العلم والجهل فتلك أمور لا يُلْتَفَت إليها في تقديم وتأخير. وعفاء على أمة تستقر فيها تلك المهازل. إن البقاء فيها مضيعة للوقت ومنقصة للدين!

أأشقى به غرسا، وأجنيه ذلة؟ إذن فاتِّبَاعُ الجهل قد كان أحزما

إن هناك حالة واحدة فحسب هي التي يُعَدّ فيها الأستاذُ المرشدُ العامّ بطلَ الأبطال، وقائدَ النساء والرجال. تلك أن تفشل الثورة ضد النظام الملكي والعهد الإقطاعي، ويعود فاروق والباشوات مرة أخرى إلى حكم هذه البلاد يومئذ توضع العصابة الغراء على رأس المرشد الحاقد على الثائرين، الوفي لسادته الأقدمين. وقد يُجْعَلْ شيخًا للأزهر إلى جانب استبقائه مدى الحياة رئيسًا للإخوان المسلمين. ويتبع هذا بداهة أن تُصَبّ علينا اللعنات، نحن الذين ظللنا سنين طويلة نحارب الملوك وفسادهم واستبدادهم، ونحارب المترفين وفسوقهم ومظالمهم. فلما سقطوا، بعد ما كتبنا ضدهم مئات المقالات، وألقينا ضدهم مئات المحاضرات،

شاءت الأقدار أن يقع زمام جماعتنا في يد رجل يحرق هذه الغِرَاس كلها، ويحرمنا جناها، ويخوض باسم الإسلام المظلوم المفترَى عليه معركة يريد بها إعادة الوثنية السياسية الأولى. وهو، إن نجح أو فشل، يصيب الإسلام في مقاتله، ويجر عليه الويلات. ولكنى، مرة أخرى، أرجع باللوم على القطيع المسيَّر. إن حسن النية لا يشفع في الاستجابة لأصحاب الأهواء المغرضين والخبثاء. وقد نعى القرآن على قوم أغلقوا عقولهم على رأى فلم يفهموا سواه ولم يفكروا فيما عداه، زاعمين أن الخير فيه وحده، فقال فيهم: "قل: هل نُنَبِّئُكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضَلَّ سَعْيُهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحْسِنون صنعا ؟". كذلك حسبوا، وهم ما أحسنوا ولا قاربوا، فلم يُعْذَروا بحسن النية بعدما جمدت عقولهم على الخرافات وأغلقوا آذانهم دون الناصحين المخلصين.

كتب زميلي الأستاذ زكريا إبراهيم الزوكة يصف اجتماعًا من أخطر الاجتماعات التي عقدها الإخوان ليتدبروا موقفهم بعد اختفاء "المرشد" وتوتر الصلات بين بعض الجماعة وبعضها الآخر، فقال: شهدتُ اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير يُغثِّي النفس ويَبْهَت الحق ويَدَعُ الحليم حيران. شهدتُ من يكذب الكذبة الهائلة فإذا قام بعض الشهود ليصححوا له قوله، ويشهدوا بما رأوا وسمعوا، أُسْكِتوا بالقوة، واسْتُعِين عليهم بأشخاص لا عقل لهم ولا خلق، وإنما أُتِيَ بهم ليمثلوا دور الهتافين والمهرجين واجتماعات الأحزاب البائدة.

وشهدتُ رجلا كان يهاجم الأستاذ البنا، رحمه الله، في الهيئة التأسيسية مهاجمة عنيفة ويخاطبه بما لا يليق من الألفاظ، فلما ثار عليه الإخوان غضب الإمام الشهيد وثار في وجه الغاضبين حتى لقد أخرج بعضهم، ثم أقبل مبتسمًا على هذا المهاجم المتجني وقال له: قل ما شئت، وانقدني كما ترى، فلن تُقَاطَع بعد ذلك. ولعلي أجد في قولك ما أصلح به خطأً أو أُقَوِّمَ به معوجًّا، شهدت هذا الرجل نفسه في اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير يثور ويفور ويكاد يتميز من الغيظ لأن أخًا قام ينتقد بعض ما يراه مائلا من أوضاع الجماعة،

فقلت: يا عجبًا ! كيف يُحرِّم هذا الأخ على غيره ما كان يستبيحه لنفسه؟ فسمعت من يهمس في أذني بالجواب ويقول: لأن المرشد الجديد كان قد رشحه وزيرًا، فهو يدافع عن الوزارة المحبوبة لا عن الحق الفقير.

وشهدت أخًا فاضلاً كان ينتقد تصرفات المرشد الحالي انتقادًا مُرًّا، ويصفه في مجالسه الخاصة والمجالس التي يشهدها بما لم يصفه به الغزالي أو صالح عشماوي، فإذا به في اجتماع الهيئة يدافع عن هذا المرشد نفسه دفاع الأبطال، ويحاول في عصبية أن ينفي عنه كل شبهة ويدرأ كل نقيصة. فسألت في دهشة: أتغير المرشد أم تغير هذا الأخ؟ فقيل لي: بل تغير هذا الأخ. كان غاضبًا قبل اليوم لأنهم افتاتوا على منصبه في الدعوة ووضعوا فيه أحد المقربين، ثم بدلت الحال غير الحال وأصبح الصَّفِيُّ المقرَّب مغضوبًا عليه، فرأى صاحبنا القديم أن الفرصة سنحتْ وأنه وشيكٌ أن يسترد مكانته إن هو انحنى واستدار ونظر إلى العيوب والأخطاء بعين الرضا لا بعين الإنصاف. وشهدتُ رجلا يفتي في دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فلما قيل له : "اتق الله" أخذته العزة بالإثم وكاد، في فورة الحماس، أن يرفع العصا في يده ويقول: إن شئتم برهانًا فهذا برهاني...

إن الحمقى لعنوا أشخاصنا ونسوا هذا. ثم انطلق الأستاذ حسن الهضيبي يجري بالجماعة جريًا ، بل يعدو بها عدوًا، إلى أفجع المصاير.

لست أدري أَنَسِيَ الإخوان أم تناسوا مواقف هذا "الحسن" مع أركان الفساد القديم؟ يوم لفحت الحرب بين الشعب المصري والقصر الملكي شاء المرشد "الموفق" أن يقول: فاروق ملك كريم، وأن ينحاز بمن معه إليه على ظنٍ أن القصر أقوى جبهة. ويوم طارت شرارة الكفاح بين الإنجليز المعسكرين على ضفاف القناة وبين المجاهدين الناقمين على بقائهم بين ظهرانينا، شاء المرشد الموفق أن يُطْفِئ هذا الشرر، وأن يُكذِّبنا حين صحنا: إن دماء المحتلين مستباحة. ويوم اشتاق هذا الشعب إلى إزالة الأحزاب الحاكمة وتطبيق دستور ١٩٢٣ شاء المرشد الموفق أن يدخل في معركة الدستور خصمًا للحرية وعونًا للباشوات المتآمرين مع

القصرومع أعداء البلاد. وباسم السمع والطاعة اقتيد الأغرار إلى مصارعهم. ألا ليتهم لم يُصْغُوا إليه، ولم يُخْدَعوا به. وما تُغني "ليت"؟ "يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين". هممت غير مرة أن أطوي هذا الذي كتبته في السمع والطاعة بعد الأحداث الجسام التي قرعت أنباؤها الآذان، وأغنت مرارتها عن كل تبيان. لكنني آثرت أن أَرْوِيَهَا كما وقعت في إبّانها لأمور: منها إنصاف الحقيقة العارية، وذكرها للتاريخ العدل، فلعل المتأمل فيها بعد انقضائنا يجد فيها معاني لا نُدركها نحن المعاصرين لها. ومنها قمع الغرور الذي يستولي على أغلب العاملين في البيئات الدِّينيَّة، فيشتَطُّ بهم بعيدا عن مرضاة الله وعن إقناع العقلاء".

بل لقد اتهم الغزالى فى نفس الكتاب بعض قادة الإخوان بالماسونية قبل أن يمسح اتهامه هذا فى طبعات الكتاب الجديدة، إذ قال عن الهضيبى: "استقدمت الجماعة رجلاً غريبًا عنها ليتولى قيادتها. وأكاد أوقن بأن من وراء هذا الاستقدام أصابع هيئات سرية عالمية أرادت تدويخ النشاط الإسلامي الوليد، فتسللت من خلال الثغرات المفتوحة في كيان جماعةٍ هذا حالها، وصنعت ما صنعت. ولقد سمعنا كلامًا كثيرًا عن انتساب عدد من الماسون، بينهم الأستاذ حسن الهضيبي نفسه، لجماعة الإخوان، ولكني لا أعرف بالضبط كيف استطاعت هذه الهيئات الكافرة بالإسلام أن تخنق جماعة كبيرة على النحو التي فعلته. وربما كشف المستقبل أسرار هذه المأساة". كما وصف سيد قطب بأنه "منحرف عن طريقة حسن البنا، وأنه بعد مقتل حسن البنا وضعت الماسونية زعماءَ لحزب الإخوان المسلمين، وقالت لهم: ادخلوا فيهم لتفسدوهم، وكان منهم سيد قطب". ولست أقصد أن أثبت هذا الاتهام، فمن الصعب علىَّ تماما أن أصدق بعمالة سيد قطب أو الهضيبى لأية جهة، فضلا عن أن الغزالى نفسه قد تراجع عما قاله فى هذا الشأن. بل كل ما يعنينى أن أسوق بعض شهادات الكبار من رجال تلك الجماعة فى بعض كبارها الآخرين، وهو ما يعنى أن واحدا كالشيخ الغزالى لم يكن يرى بعض كبار قادة الإخوان، على الأقل، فوق مستوى الشبهات، على الأقل: فى فترة من حياته

حتى لو غير رأيه هذا فيما بعد، أيا كان سبب التشكيك والتبرئة. بل لقد ذكر أنه قد هُدِّد من بعض الإخوان بأنه إذا تكلم قُتِل. وقد وصف د. يوسف القرضاوى فى ترجمته للشيخ الغزالى عن هذا واصفا المهدِّدين بأنهم "بعض أولى الهوس من الإخوان": هكذا نصا. كما أشار إلى أن الشيخ الغزالى قد حذف من كتبه بعض ما كان قد كتبه فى هذا الموضوع من مقالات، وإن كان قد عزا ما كتبه إلى شدة انفعالاته لدن غضبه، وهو ما قاله الشيخ الغزالى ذاته فى حاشية من حواشى كتابه: "من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث".

وهذا الاعتراف الصريح من الإخوانى البارز الشيخ محمد الغزالي أحد أقرب الشخصيات للشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان ثبت الآن صدقه.

وهنا لا يحتاج الكلام إلى تعليق فهو واضح ويتفق ما نريد قوله وإيصاله من أن ما يحصل الآن في الوطن العربي هو نتيجة تعامل قديم بين(الإخوان) والماسونية.

ففى دراسة حديثة تحمل عنوان (الماسونية والماسون في مصر) صدرت في كتاب عن سلسلة مصر النهضة بدار الكتب للباحث وائل إبراهيم الدسوقى جمع فيها الباحث تاريخ الحركة الماسونية في مصر وأسم مشاهير الماسونيين المصريين جاء أسم المستشار حسن الهضيبى بينهم. (لا تعليق).

٣- ليس حسن الهضيبي هو الماسوني الوحيد من رموز الإخوان بل أن الأستاذ سيد قطب شخصيا كان ماسونيا وقد ورد أسمه في نفس الدراسة السابقة عن الماسون في مصر) لقد كتب الشيخ "محمد الغزالي" في كتابه "من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث"

أن "سيد قطب" منحرف عن طريقة حسن البنا، وأنه بعد مقتل حسن البنا وضعت الماسونية زعماء لحزب الأخوان المسلمين، وقالت لهم ادخلوا فيهم لتفسدوهم، وكان منهم "سيد قطب".

للأسف الشديد قام الشيخ/محمد الغزالى بحذف تلك الفقرات من كتابه في طبعاته اللاحقة تحت ضغط قادة جماعة الإخوان المسلمين، ولكن النسخ المتوفرة من الكتاب طبعة عام ١٩٦٣ وهى موجودة بسور الأزبكية بالقاهرة تحتوى تلك الاعترافات عن حسن الهضيبى وسيد قطب. (لا تعليق).

كتب الشيخ "محمد الغزالي" في كتابه (من ملامح الحق)، وهو من أكبر رجالات الأخوان وصاحب للشيخ "حسن البنا" أن "سيد قطب" منحرف عن طريقة البنا، وأنه بعد مقتل البنا وضعت الماسونية زعماء لحزب الأخوان المسلمين، وقالت لهم ادخلوا فيهم لتفسدوهم وكان منهم "سيد قطب".

وكان خالد محمد خالد قريبا من الإخوان فى فترة من حياته، إذ كان يتردد على دارهم أيام حسن البنا ويستمع بإعجاب إلى خطبه، رحمهما الله، وألقى ذات مرة خطبة فى الإخوان بحضور البنا نفسه فى أحد المؤتمرات الحاشدة بطنطا، وكان له بين كبارهم أصدقاء كالشيخ الغزالى والشيخ سيد سابق، رحم الله الجميع، ومع ذلك كان يأخذ عليهم بكل شدةٍ موضوعَ التنظيم الخاص، الذى تلوثت يداه بالدماء الحرام على حد تعبيره، وكذلك غياب الديمقراطية، إذ يمشون على مبدإ السمع والطاعة دون نقاش أو مراجعة أو أية محاولة للفهم، بل للتنفيذ العميانى. وقد أكد أن إنشاء التنظيم العسكرى الخاص كان بعلم وإرادة حسن البنا، وسخر ممن يحاول إنكار علم الرجل به، قائلا:

هذا كلام له خبيء معناه ليست له عقول

ومؤكدا أن من أنشأوه وجعلوه سريا إنما فعلوا ذلك استعدادا ليومٍ وأمرٍ وهدفٍ يعرفونه، لينتهى أمر هذا التنظيم بالتمرد على المرشد ذاته. لكنه شدد على أن البنا كان جديرا بالحب والمهابة. كذلك أخذ على الإخوان تعجلهم فى الوصول إلى الحكم، واستعراض الذات من خلال المهرجانات والاجتماعات والمؤتمرات الكثيرة العارمة المتواصلة التى لا تؤذن بانتهاء، وإن أكد أن من حقهم التطلع إلى الإمساك بمقاليد السلطة لتنفيذ ما يؤمنون بو جوب تحقيقه شأن أى حزب سياسى أو جماعة إصلاحية، وبخاصة أنهم يهتفون صباح مساء أن "الإسلام دين ودولة" .

وفى "أيام من حياتى" للسيدة زينب الغزالى نجد كلاما لا أدرى كيف ينبغى أن أستقبله، إذ نجدها فى بعض فصول الكتاب تذكر أنهم، فى سجون عبد الناصر، قد أطلقوا عليها فى زنزانتها طائفة من الكلاب المتوحشة. وإلى هنا والكلام عادى، إذ ما أكثر ما قرأنا هذا من بعض من اعتقلهم عبد الناصر من التيار الإسلامى. ثم تمضى فتؤكد أنها، رغم نهش الكلاب جسدها فى كل جزء منه لعدة ساعات، لم تجد حين فتحت عينيها أى أثر لأى نهش، ومن ثم لم تشعر بأى ألم. وهنا أيضا قد يقول قائل إن هذه كرامة من الله. لكن من غير المعقول أن نقرأ لها بُعَيْد ذلك أن السياط قد أدمت جسدها إدماء، ولوثت ملابسها تلويثا، وكانت تؤلمها أفظع الألم. فكيف يتسق هذا وذاك؟ بل إنها لتقول بعد عدة صفحات إنها، عندما قابلت حميدة قطب فى المعتقل، "رأيت حميدة قطب أمامى، عرفتها، وهى لم تعرفني، فالسياط والكلاب والإجهاد والجوع والعطش والتمزق في جسدي، كل هذا قد غير ملامحي، وغير صورتي" . إذن فالكلاب قد نالت منها وآذتها، ومزقت جلدها تمزيقا، وشوهتها تشويها . كذلك تقول إنها قضت أياما وليالى طويلة فى زنزانة ماء وسخ دون نوم. وهذا غريب جدا، فإن الإنسان لا يستطيع أن يبقى بدون نوم طوال هذه الأيام والليالى كما فعلت هى حسب روايتها . وأغرب منه وأعجب أن تقول إن سِنَةً من النوم قد أخذتها وهى فى الماء (كيف؟ لاأدرى)، وإنها قد حلمت بأنها تأكل وتشرب أطايب الطعام والشراب بما أشبعها وأرواها إلى ما بعد استيقاظها . ولا

أقف عند رؤيا الطعام والشراب، ولكننى أتساءل: كيف لإنسان أن ينام فى الماء دون أن يدخل الماء أنفه فيموت اختناقا ؟ كما لا أنوى أن أدخل فى روايتها عن صلاتها فى الماء الوسخ رغم السياط والآلام التى كانت تحس بها فى أخمص القدم جراء الضرب عليه، ولا عن سير صفوت الروبى فى ذلك الماء الوسخ كى يعذبها، وهو القادر على أن يأمر بإحضارها حيث هو ويضربها ويعذبها كما يحلو له دون أن يخوض فى الأقذار. إنى لا أقصد التهوين مما صنعه جلاوزة عبد الناصر بمن كان يعتقلهم من أبناء التيار الإسلامى، بل كل ما هنالك أننى أفتقد المعقولية فى هذا الكلام.

وبعد عدة أعوام قرأت ما يلى فى صحيفة "المصريون" بتاريخ ٢٥ يوليه ٢٠٢٠م تحت عنوان "أسرار تنشر لأول مرة عن يوسف ندا وزير مالية الإخوان" بقلم إيمان هانى: "أكد الإعلامي محمد الباز أن محاولات تشويه الرئيس عبد الفتاح السيسي من قبل جماعة الإخوان هي نفسها المحاولات التي قامت بها الإخوان لتشويه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. وأضاف الباز خلال تقديم برنامجه: "آخر النهار" المذاع على فضائية "النهار" قائلا: "جماعة الإخوان وقفت خلف حملات تشويه عبدالناصر. وتابع نقلا عن أبو العلا ماضي: "فوجئ بيوسف ندا، وهذا الرجل كان أقرب إلى وزير مالية الإخوان، وأحد الأضلع الكبيرة في الجماعة، يتصل به ويطلب مقابلته، وعندما التقاه قال: إزاي تكتب الكلام دا؟ وقال له إن كتاب "أيام من حياتي" لزينب الغزالي لم تؤلفه هي، وإنما هو من كتبه وأنه نسج فيه قصصًا خيالية عن تعذيبها بسجون عبدالناصر حتى نكسب قلوب وملايين المصريين". أسوق المنشور كما وجدته دون تعليق عليه، وأترك القارئ يطالعه فى ضوء ما كتبته عن استغرابى ما قالته زينب الغزالى عن التعذيب الرهيب الذى تعرضت له فى معتقلات عبد الناصر.

هذا، ولا داعى للاستشهاد بما كتبه ثروت الخرباوى فى "قلب الإخوان" و"سر المعبد"، فقد يقال إن الخرباوى موتور يريد التشنيع على الجماعة بعد أن خرج عليها، بخلاف الشرباصى والغزالى، اللذين لا يمكن

أن يتهمهما أحد بمثل تلك التهمة. ودعنا كذلك من أمثال مختار نوح وعصام سلطان وكمال الهلباوى ومحمد حبيب وعبد المنعم أبو الفتوح وأبو العلا ماضى، وغيرهم كثير، وإن لم يكن من الحصافة إهمال شهادات كل هؤلاء تماما، وقد كانوا من كبار الإخوان المتنفذين والقريبين من القمة فى كثير من الحالات. وعلى كل حال فالعبرة فى أمر الإخوان وغير الإخوان بالفعل لا بالكلام، وعلى هذا فليس المهم أن يدبج أحد لنا الشعارات البديعة من مثل "الأيدى المتوضئة" و"الإسلام هو الحل" وما أشبه، إذ ما أسهل تدبيجها على أى إنسان، بل المهم هو التنفيذ والقدرة على الإنجاز. وقد وصل الإخوان مؤخرا إلى الحكم، وانتخبهم الذين انتخبوهم فى مجلسى النواب والشورى وفى الرئاسة، ويبقى أن يَرَوْا ماذا سيصنعون فى الحكم، وهل سيكونون كغيرهم ممن سبقوهم فلم ينجزوا تغييرا ولا إصلاحا، أم هل سيثبتون أنهم رجال صلاب ذوو عزيمة ونية خالصة نقية، وأنهم عند كلمتهم، وإن كان يغلب على ظن الكثيرين أن همهم فى المقام الأول هو نصرة الجماعة حتى إنهم لا يهتمون بوضع أيديهم إلا فى أيدى من يعمل لصالحهم لا الذى يعمل لصالح الإسلام، مع إقرار أولئك المنتقدين بأن الإخوان قد عُذِّبوا واضطُهِدوا طويلا منذ ما قبل حركة يوليه ١٩٥٢م "دون أن يَفُتّ ذلك فى عضدهم" كما يقال.

ومع هذا فكثيرون جدا ممن لا ينتمون إلى جماعة الإخوان، بما فيهم من ينتقدونهم ويأخذون عليهم بعض مواقفهم وتصرفاتهم، يكرهون لهم الهزيمة فى الصراع الدائر الآن فى حلبة السياسة المصرية بينهم وبين ما يسمى بـ"جبهة الإنقاذ"، فهم رغم ذلك يرتبطون على الأقل بالإسلام بخلاف من يمدون أيديهم إلى الكنيسة، التى يَرَوْنَ من شواهدَ كثيرةٍ أنها تخطط للقضاء على دين الله فى مصر بشبهة أن مصر هى فى الأصل نصرانية، وأن المسلمين قد أَتَوْا من خارج الحدود وغير ذلك من الأوهام الزائفة التى لا تستند إلى حقائق التاريخ، إذ إن النصرانية قد أتت هى أيضا من وراء الحدود، كما أن المسلمين فى مصر هم مصريون أصلاء كانوا وثنيين أو يهودا أو نصارى ثم انخلعوا من دينهم القديم واعتنقوا دين الله عن اقتناع وبصيرة وحب، وهو الانخلاع الذى

لا يزال يجرى على قدم وساق أمام أعيننا من رفقاء الوطن، بل من الأوربيين والأمريكان فى بلاد الغرب ذاتها، دون أية شائبة من إكراه أو تضليل. يضاف إلى ذلك أن د. مرسى وأعضاء مجلسَىِ النواب والشورى قد أَتَوْا إلى مناصبهم بانتخابات صحيحة لم تعرف التزوير، وهنأهم على نجاحهم أعداؤهم، الذين يعملون الآن كل ما فى وسعهم وما فى غير وسعهم من أجل إفشالهم بما فى ذلك استعمال المولوتوف والرصاص والحرائق والسِّنَج والشُّوم والحجارة والوِنْش والسِّبَاب بالأم والعِرْض، فضلا عن المؤامرات وتجييش العواطلية للهجوم على قصر الرئاسة وتحطيم مقرات الإخوان وسرقة ما فيها، وما إلى ذلك.

وقد قرأت اليوم (الجمعة ٧ يونيه ٢٠١٣م) فى جريدة "المصريون" الضوئية، وفى موقع "أخبارك" و"شبكة المخلِّص الإخبارية"، بعدما كتبت الفقرة السابقة بعدة أسابيع تقريرا عنوانه: "جورج إسحاق: الإسلام سينتهي يوم ٣٠ يونيو" جاء فيه حسبما قرأت فى جريدة "المصريون" بقلم إسلام كمال الدين: "توعد جورج إسحاق، الناشط السياسي، الإسلاميين بانتهاء الإسلام في مصر يوم ٣٠ يونيو القادم، وقال إسحاق عبر صفحته على موقع التواصل الاجتماعي تويتر: "الإسلام كان على أيام الهجرة، أما الآن فالإسلام انتهى يوم ٦/٣٠". كما وجه رسالة للإسلاميين قال فيها: "انتظروا مفاجأتنا يوم ٣٠ يا أقذر خلق الله (الخرفان المسلمين)" على حد قوله. يذكر أن عددًا من النشطاء السياسيين والمعارضة يجهزون لتظاهرات حاشدة في مصر ضد حكم الرئيس مرسي والإخوان المسلمين في مصر". وفى نفس العدد من ذات الجريدة نقرأ تحت عنوان "ردًّا على جورج إسحاق- الجبهة السلفية: قوى الجاهلية تتحالف ضد الإسلام": "استنكرت الجبهة السلفية تصريحات جورج إسحاق، القيادي بجبهة الإنقاذ الوطني، التي توعّد خلالها الإسلاميين بانتهاء الإسلام في مصر يوم ٣٠ يونيو القادم. ونشرت الجبهة السلفية عبر حسابها الرسمي على موقع التواصل الاجتماعي: "فيس بوك" ما صرح به إسحاق في تدوينة عبر حساب منسوب له على موقع التدوينات القصيرة: "تويتر" قال فيها: "الإسلام كان على أيام الهجرة، أما الآن فالإسلام انتهى يوم ٦/٣٠"، وقالت الجبهة في معرض ردها على تلك التصريحات: "الصراع

على بقاء الإسلام. لذلك تتحالف قوى الجاهلية بمللها ونحلها وفرقها لتتحزب ضده، لكن الله يتم نوره، وينصر من ينصره، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. فانصروا الله كي يتحقق وعده بالنصر فيكم. وإن تتولّوْا يستبدلْ قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

كذلك يأخذ البعض على الإخوان أنهم يحرصون حرصا شديدا على استرضاء خصومهم بل على استرضاء أعداء الإسلام أحيانا إذا ما كانت مصلحتهم تقتضى ذلك، على حين لا يفكرون فى التعاون بحق مع من يخدم الدين. ومثالا على ذلك يدللون بما كان الإخوان أيام مبارك يشترونه من عشرات آلاف النسخ من الصحيفة التى يصدرها ذلك العتل المعروف باللدد فى عداوته للإسلام. ومن تلك الشواهد أيضا اقتصار دعوة د. محمد مرسى، بعد فوزه بالرئاسة، على العلمانيين وحدهم إلى لقائه بوصفهم "مثقفى مصر" وعدم دعوة أى من المثقفين الإسلاميين بل عدم اهتمام المسؤولين بالاعتذار لأولئك المثقفين حين احتجوا على ذلك التصرف الغريب وكأن الكتاب اليساريين والحداثيين هم وحدهم المثقفون الموجودون فى مصر لا مجرد فصيل واحد فقط ضئيل العدد وسط فصائل أخرى أكبرها نسبةً الإسلاميون. كما يشير المنتقدون أيضا إلى موقفهم من وزير الثقافة محمد صابر عرب، الذى أعلن مرارا عن رفضه لاتجاه الإخوان واستقال تعبيرا عن استنكاره وإنكاره لما حدث مع حمادة صابر المشهور بـ"مسحول الاتحادية" بما يدين أسلوب حكم د. مرسى ووزارة د. هشام قنديل، ومع ذلك ترجَّوْه البقاء فى الوزارة رغم تأكيده أن قراره نهائى، فعاد فى مشهد يذكرنا بعودة جمال عبد الناصر غِبَّ استقالته بعد هزيمة سبع وستين، إذ طالب رجالُه فى الوزارة والمنتفعون من وجوده على رأسها ببقائه لما يمثله من عبقرية لا تتوافر فى سواه، وهو ما يدل، فى نظر الكثيرين، على أن الإخوان لا يَرَوْنَ فيما قاله عرب فى حقهم تجاوزا للحقيقة. وأنا هنا إنما أعرض ما يقوله الناس عنهم.

على أن قسما من المنتقدين للإخوان، حين يقولون فيهم هذا الذى يقولونه، لا ينكرون أن للدكتور مرسى إنجازت طيبة، إلا أنها لا تظهر لجماهير الناس بسبب انسداد الأفق رغم ذلك أمامه، إذ هى فى الغالب

إنجازات سالبة تزيل ما كان موجودا من معوقات أمام الانطلاق نحو التقدم والرفاهية كتخلصه من حكم الجيش وتغييره للنائب العام، وليست إنجازات موجبة تحقق للشعب على سبيل المثال مستوى معيشةٍ ونظافةٍ وأمنٍ أفضل، أو هى اتفاقيات مع دولٍ أخرى تستغرق وقتا قبل تنفيذها وظهور ثمراتها. كما أن عربات القمامة الحكومية تشتغل جادة هنا وهناك، وكثيرا ما أرى عمال النظافة يعملون حولها وفوقها كجن سليمان وينظفون المكان وما فيه من حاويات، فلا يمر سوى وقت قصير حتى تعود القمامة إلى ما كانت عليه، وكأن أحدا لم يزلها قبل قليل. ترى ماذا يفعل الحاكم إذا كانت تصرفات الناس الذين يحكمهم بهذا الشكل؟ ولهذا أرانى أعطف على عمال النظافة فلا أقابلهم فى طريقى إلا وأكرمهم نافحا إياهم بعض المال أو شاريا لهم طعاما أو فاكهة أتقرب بها إلى الله سبحانه، ومربتا على أكتافهم أعطيهم الحرارة وأكبر من شأن عملهم، وأشعرهم أننى معهم بقلبى. ولقد كتبت مقالا منذ شهور بعنوان "اليد الواحدة لا تصفق" بينت فيه أن من العبث انتظار الفرج على يدى د. مرسى إذا كانت حكومته تحمل القمامة مثلا من الشوارع وتنظف مقالبها لتعود القمامة والنتانة بعيد قليل، وكأن شيئًا لم يكن. هذا عبث، وإلا فهل تصفق الكف الواحدة بدون الكف الأخرى؟ الحق أنه لا يمكن أى حاكم حتى لو كان من الملائكة أو من الجن أن ينجز شيئًا دون تعاون من رعيته.

وعلى نفس الشاكلة لا ينكر منتقدو الإخوان أن الظروف التى أَتَوْا فيها إلى الحكم ظروف صعبة، وأن خصومهم لا يتركون لهم فرصة للعمل الهادئ المثمر بل يتآمرون عليهم وتصل عداوتهم لهم إلى مدى مذهل، فضلا عما يلجأ إليه الإعلام المعادى من تضليل ونشر أخبارٍ تَدِينُهم ليس لها فى كثير من الأحيان أساس صحيح أو لها أساس، إلا أن الإعلام ينفخ فيها ويضخمها فتستحيل شيئًا غير الذى هى عليه فى الواقع. لكن هؤلاء المنتقدين أنفسهم يضيفون أن الإخوان كان ينبغى أن يعرفوا مقدما ما هم مقدمون عليه وأن يستطيعوا التعامل مع الأزمات التى يصطنعها خصومهم لهم، وإلا فما الذى زج بهم فى مأزق لا يمكنهم أن يسدوا فيه مَسَدًّا؟

إذن فهذا دليل على افتقارهم إلى الحنكة السياسية وتعجلهم فى الوصول إلى السلطة رغم ما يَحْتَوِشُها فى الفترة الحاليّة من تاريخ مصر من مصاعب ومفاظع.

وحجة الإخوان فى اتخاذ تلك المواقف هى أنهم إنما يتألفون القلوب بذلك، ناسين، كما يقول منتقدوهم، أن تألف القلوب إنما يكون لمن يغلب على الظن أنه مَرْجُوُّ الفَيْء إلى الحق. أما من ظهر بغضه للدين ظهورا بشعا وتكرر منه ذلك فكيف بالله يصح تألف قلبه أو مجاملته؟ وقد انقلب على الإخوان كل من ساندهم الإخوان فى الانتخابات وغير الانتخابات من خصومهم ولم ينلهم منهم سوى الإهانات والضرر. ومن هنا اتهمهم الكثيرون بأنهم يحبون من يؤذيهم ويضرهم. وليس من المتصور، كما يردد المنتقدون، أن يتألف النبى عليه السلام من الشعراء مهاجميه والمحرضين ضده من أمثال عبد الله بن الزِّبَعْرَى وأبى سفيان بن الحارث وأُمَيّة بن أبى الصَّلْت، ويُوَلِّى ظَهْرَه حسّانَ بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحَة وكعب بن مالك!

وها هو ذا مقال لأحد منتقدى حكم الإخوان صاحبه الصحفى طه خليفة، وهو أقرب إلى أن يكون معهم لا ضدهم. يقول الصحفى المذكور فى صحيفة "المصريون" بتاريخ ١٣ فبراير ٢٠١٣م تحت عنوان "مأزق المؤيدين لمرسى": "واحد مثلي انتخب الدكتور محمد مرسي وظل ينافح عنه لا يجد اليوم في جَعْبته الكثير الذي يجعله يستمر في الدفاع عنه وتبرير عدم قدرته على الحكم الرشيد الذي كان متوقّعًا منه ومن الحزب والجماعة التي ينتمي إليهما، فهو يخذلني سياسيًّا واقتصاديًّا وعلى كل صعيد آخر، ويضعني في مأزق، وأظن أن هناك آخرين لديهم نفس شعوري. الأوضاع في عمومها تحت إدارة مرسي كأول رئيس مدني منتخب تنتقل من سيء إلى أسوأ، وهذا ليس تجنيًا على الرجل، فالواقع أصدق أنباءً من الكتب. وإذا كنت أقول إن مبارك كان يدير مصر يومًا بيومٍ، فيؤسفني أن أقول إن مرسي يدير مصر ساعة بساعة، وهذه سياسة لا تصلح لإدارة وحدة محلية لقرية، فما بالنا بدولة كبرى مثل مصر؟ إنها طامّة كبرى.

التدهور طال مقام الرئاسة، والرئيس صار مستباحًا، وهان في الأعين كما هان كل شيء في مصر. فقد زالت الهيبة، وحلت الفوضى، والرئيس يبدو وكأنه لا يعنيه إلا البقاء في القصر حتى لو وصلت الإهانة مبلغًا عظيمًا، وحتى لو هبطت البلاد إلى الحضيض. وتُلامُ المعارضة أيضًا في سوء المآل، لكن اللوم له حدود لأنها رد فعل لأداء السلطة. والمعارضة من السلطة، فإذا كانت السلطة قوية وناجحة فإن المعارضة تكون كذلك. صرنا منكوبين في سلطة تتخبط، ومعارضة تساهم في صنع التدهور، وبينهما شعب ضائع، ودولة تنهار. يؤخذ على المعارضة أنها لم تكن يومًا هي الفعل، فلم تقدم مبادراتٍ ومشروعاتٍ وخططًا للعلاج، بل هي تأتي دومًا بعد السلطة المرتبكة ردًا عليها ونكايةً فيها. والاثنان: السلطة والمعارضة يتحملان مسؤولية الهاوية، لكن لكل طرف نصيبه فيها، فمسؤولية السلطة أكبر وأعظم باعتبارها تحكم وتدير، وفي يديها الأدوات كلها.

والمعارضة مازالت تفرط في فرصة سانحة بأن تكون السلطة القادمة حيث لا تملك غير الكلام والهتاف، وهذا لا يكفي لجعل الشارع المتردد أو الذي كان متعاطفًا مع السلطة ينضم إليها. والجزء الآخر من مشكلتها أن معسكر الفلول يستفيد من غضبها واحتجاجاتها على النظام ليمر من تحت غطائها إلى معسكر الاحتجاج وكأنه من شركاء الثورة، وكأنه يدافع عن الديمقراطية وضد الاستبداد، وهو المعسكر المؤيد للاستبداد، والذي لم يثبت يومًا أنه مع الديمقراطية والتغيير أو حتى الإصلاح. ولذلك اختلط الحابل بالنابل، فتحولت المظاهرات والاحتجاجات إلى أعمال تخريب وشغب. وكلاهما: السلطة والمعارضة يحاولان توظيف هذا التخريب في صراعهما بأن يلقي كل طرف مسؤوليته على الآخر، بينما يتحول بينهما الوطن إلى خرابة كبيرة.

صارت مشكلة أن تبحث كل يوم عن مبرر جديد للرئيس في الأزمة الشاملة التي يمر بها الوطن دون أن تجد إنجازًا ملموسًا تستند إليه وتستثمره في المنافحة. ليته كان قد أنجز وعدًا واحدًا من وعوده الخمسة

التي لم يتم منها شيء لا في المائة يوم الأولى ولا في المائة الثانية. لدينا رئيس، كما هو واضح وحتى إشعار آخر، بلا خطة ولا مشروع ولا رؤية ولا حسن تدبير ولا سياسة يسوس بها دولة مثخنة بالجراح. كنا متفائلين به، لكن الإحباط بدأ يسود الآن. لدينا رئيس تحتار في أمره فلا تفهم كيف يفكر ولا فيم يفكر، أو أن ملكة التفكير معطلة عنده، وهناك من هو قابع في الظلام يفكر نيابة عنه، ويقرر له فيورطه ويحمله مسؤولية كل الإخفاقات باعتباره الرئيس المنتخب!

من المحير مثلا إصراره في الإبقاء على هشام قنديل وحكومته ومعاندة شعبه وقواه السياسية وحتى حلفائه الإسلاميين. كنا نعيب على مبارك عناده، فإذا بنا نجد عنادًا أشدَّ لدى مرسي. فليس هناك أي مبرر لاستمرار رئيس حكومة فاشل يجلب الفشل لرئيسه، والاثنان يجلبان الفشل لمصر كلها. قلت وأكرر إن كل ساعة تمر على مصر دون علاج نزيف الخسائر بتهدئة سياسية وحلول غير تقليدية وحكومة قوية فلن يعوض تلك الساعةَ عامٌ كاملٌ من العمل إلا إذا كان الرئيس قد بدأ اليأس يتسرب إليه هو الآخر من الإنقاذ بعد أن لم يجد السلطة أمامه "كيكة" لذيذة أو وجد نفسه رئيسًا دون أن يدري دوره أو وظيفته باستثناء التشريفات والبساط الأحمر وحديث أهلي وعشيرتي والأنا المتضخمة في كل خطبه التي صارت مملة".

وهذا خطاب آخر موضوعه الإخوان والدكتور محمد مرسى رئيس الجمهورية وصلنى صباح اليوم قبل قليل من خالد صالح، الذى لا أعرفه شخصيا ولا أعرف ماذا يعمل بالضبط، وإن كانت تأتينى منه كل يوم تقريبا ضمن المجموعة البريدية التى يتفضل بإمدادها بالجديد عنده رسالة لطيفة يبدو فيها رجلا يتمتع بسكينة جميلة وحب لدينه. ورغم ما فى الرسالة من انتقاد للإخوان فلا أظنه يكرههم أو يقف منهم موقفا معاديا. يقول الخطاب، وقد أصلحتُ الأخطاء اللغوية القليلة التى كانت فيه وغيرتُ بعض الشىء فى طريقة استعماله لعلامات الترقيم: "أرسل لي الصديق العزيز م. أسامة منصور مراسلنا في كندا! فقرة فيديو للدكتور راغب السرجاني يجيب فيها عن سؤال: هل د. مرسي قوي أم ضعيف؟ كلام السرجاني عن قوة الرئيس مرسي في

مقابل ضعف خصومه صحيح إلى حد بعيد، وحديثه عن ثباته على خطواته نحو إعادة هيكلة الدولة وبناء مؤسساتها أيضا به الكثير من الصواب. ولكنه لم يتحدث عن اتهام نسبة كبيرة من الشعب للدكتور مرسي أنه يسعى لأخونة الدولة، وهو الخطأ الذي يراه البسطاء من المصريين إبدالا للحزب الوطني "المنحل" بجماعة الإخوان المتدينة! كما أن ثقته، أقصد د. السرجاني، في الرصيد الحقيقي للإسلاميين عند الشعب حاليا أراه خطأ تماما!

أعتقد أن الإخوان والسلفيين سيربحون الأغلبية في المجلس الجديد، ليس لرصيدهم عند الناس، فقد تأثرنا جميعا بالإعلام الموجّه (فليس كل ما يتناولونه كذبا وافتراء!)، وتأثرنا أكثر بالأخطاء المتتالية للحكومة ومؤسسة الرئاسة، وكثير من أعضائهما من التيار الديني، ولكنهم سيربحون الانتخابات القادمة لخبراتهم الواسعة في أسرار العملية الانتخابية (ورث السلفيون عن الإخوان تلك الخبرات القديمة)، ولتنظيمهم الجماعي العالي، ولسعيهم الدؤوب نحو أهدافهم الواضحة. وهكذا لابد أن تنتصر الجماعية على الأداء الفردي. أما باقي القوى والفرق فلا سعي دؤوب ولا تنظيم جماعي محترم ولا تحديد لأهداف إستراتيجية قصيرة وطويلة المدى، بل تشتت وعدم وقوف على أرضية راسخة من منظومة محددة للقيم يمكنهم بها تحديد طريقهم نحو الحكم. ومثلي، على سبيل المثال، بطبيعة التركيبة العقلية والثقافية الحالية له، لا يمكن أن ينضم سياسيا لا للتيار الإخواني ولا للتيار السلفي.

و للأسف لا أجد أي فصيل سياسي آخر يتعامل مع المشهد باحترافية وبقدرات اتصالية وإعلامية عالية تجعلني أسعى للانضمام له لأشارك سياسيا وإعلاميا في بنائه، ليس بمفردي، بل في زمرة مجموعة من المثقفين المتدينين بلا تشدد، المبدعين من خلال انبهارهم بالمبدع الأكبر جل وعلا صاحب هذه المقطوعة الكونية لانهائية الجمال، الراغبين في إيجاد دور هادئ غير صارخ أو متطرف على الساحة السياسية ليحققوا من خلاله طموحاتهم الثقافية والفنية الإبداعية. ولكن أنّى لنا هذا مع أشكال الأداء العام الهزيل الحاليّ على

أرض مصر، التي عاشت آلاف السنين مركزا مُشِعًّا للإبداع والفنون والعمارة والجمال (قالت لي واحدة ألمانية حين رأت هرم سقارة، وعلى بعد قريب منه مساحات شاسعة خضراء تعج بالمزروعات وبالنخيل: هذا المكان لا يمكن أن تجد مثله في مكان آخر من العالم. قمة الفلسفة والهندسة والمعمار والفن مع الزراعة والفلاحة والنخيل. شيء رائع!)، فإذا بنا الآن مركز مشع للسفه والهرتلة والسطحية السياسية والإعلامية والبلطجة المقننة والعنف المبرمج؟".

كما كتب مجدى حسين فى "الشعب" الجديد كلاما مهما فى هذا السياق أنقله كما هو دون تعليق، وهو بعنوان "الثورة المضادة تهاجم حزب العمل"، ومنشور فى ٢٩ أبريل ٢٠١٣م، وهذا نصه: "لم يصدقنا كثير من السياسيين والناس عندما كنا نقول لهم إن أمن الدولة والمخابرات لم يتوقفا عن العمل أبدا بعد الثورة، وإن كان ذلك فى ظروف مختلفة. وقد اتّهَمْنا الجهازين بعرقلة عمل حزب العمل وعرقلة إصدار جريدة "الشعب". وكان بعض السياسيين يقولون: مش معقول، ولماذا أنتم بالتحديد؟ ولكن تاريخ ثورة ٢٣ يوليو يقول إن كل المعتقلين السياسيين أُفْرِج عنهم عقب الانقلاب إلا أحمد حسين، وإن اتهامه بحرق القاهرة، الذى وجهه له الملك فاروق، ظل مصلتا عليه بعد الثورة المجيدة لفترة من الزمن! ويؤكد التاريخ أيضا أن أحمد حسين وحلمى مراد اعْتُقِلا فى أزمة مارس ١٩٥٤. عبد الناصر كان مصرا على استبعاد أحمد حسين والحزب الاشتراكى من المشهد السياسى، ليس لزعامة أحمد حسين وأنه كان أستاذا لعبد الناصر فحسب، ولكن لأن عبد الناصر كان قد بدأ بالفعل (بطريقته الخاصة) فى تطبيق برنامج الحزب الاشتراكى! وفى حالة التشابه فإن الخصومة السياسية تزداد، لأن الطرف المتواجد فى الحكم يريد أن يثبت أنه الأحق بتمثيل الاتجاه.

أما فى ثورة ٢٥ يناير فحزب العمل واجه نفس المعضلة مع الإخوان المسلمين، فكان همهم الأول استبعاد شبح حزب العمل لأنه سيذكّر الناس بأنه الحزب الاسلامى الوحيد الذى دعا لإسقاط مبارك بالوسائل السلمية، وأنه تم سحله بسبب ذلك وبسبب إفساح المجال للإخوان ولكل الإسلاميين لدخول البرلمان والعمل

السياسى بشكل واسع. ووصل الأمر فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة إلى تعاون الإخوان المسلمين مع أمن الدولة والأمن القومى فى استبعاد حزب العمل من قوائم الإخوان فى المركزين الأول والثانى، ووَضْع بعض عملاء للأمن وبعض الفاسدين فى هذين المركزين. وهو الأمر الذى أدى إلى دخول عضو واحد فقط من حزب العمل لمجلس الشعب (د. مجدى قرقر).

والسبب فى كل ذلك أن أجهزة الأمن عرقلت استعادة حزب العمل لنشاطه الطبيعى بعد الثورة. وتم استخدام نفس أساليب عهد المخلوع فى مسألة التنازع على رئاسة الحزب لوقف إصدار جريدة "الشعب" التى كانت قد عاودت الصدور بقوة الثورة وبقوة الحكم القضائى القديم لصالحها. وبالتالى لم يكن من حق الحزب أن يرشَّح على القوائم الحزبية إلا بإذن أى حزب شرعى، فوقع الحزب تحت مقصلة الاخوان كما أوضحنا، وكنا نظن أن بيننا جهادا مشتركا. وسيظل هذا موقفنا مع قواعد وأعضاء وشباب وجمهور الإخوان، ولكن ليس مع القيادة، التى تستسهل عدم الالتزام بالعهد والوعد.

ويعلم القاصى والدانى كيف قاتل حزب العمل فى مناصرة الرئيس مرسى ضد شفيق. ويعلم القاصى والدانى كيف تقاتل جريدة "الشعب" دفاعا عن الشرعية وستظل، ليس تأييدا للإخوان، ولكن من أجل المصلحة العليا للوطن، التى تقتضى الحفاظ على الشرعية المتولدة عن الثورة، بل الإنجاز الوحيد لها. ويعلم القاصى والدانى أننا رفضنا المهاترات ضد الإخوان ومعارضتهم بالباطل وبالأكاذيب وبالعنف، وأننا أيدنا كل ما هو إيجابى فى عهدهم على قلته. وفتحنا مساحات للوزراء والمسئولين لشرح إنجازاتهم. ويعلم القاصى والدانى أننا دافعنا عن مرسى بأساليب أقوى بكثير وأكثر إقناعا من أساليب الاخوان الإعلامية. وهذا مايعرضنا لمخاطر شديدة من القضاء الشامخ والمخابرات الأكثر شموخا ! وسنظل بإذن الله ندور مع الحق أينما دار، ولن نعقد مساومات غير مبدئية مع أى طرف كان. ولن يؤثر فى مواقفنا المتعلقة بالمصالح العليا

للوطن سخافات السيدة باكينام، التى دعت مؤخرا ٢١ حزبا لمناقشة موضوع مجلس العدالة والمساواة من بينها أحزاب جبهة "الانقاذ" وأحزاب تحت التأسيس دون حزب العمل!

كان حزب "العمل" وحيدا قبل الثورة بين الحركة الاسلامية، التى ترفض العمل على إسقاط مبارك. وكان وحيدا بين الأحزاب السياسية التى ترفض الدعوة لإسقاط مبارك. حتى حركة "كفاية" اتجه معظم قادتها للعمل تحت لواء البرادعى، والبرادعى يرفع شعار تعديل الدستور لا إسقاط مبارك. لم يكن من يصارع مبارك عشية الثورة إلا حزب العمل وشباب الإنترنت وعبد الحليم قنديل (نسأل الله أن يعيد له توازنه). لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن رئيس حزب "العمل" كان السياسى الوحيد فى السجون بسبب معارضته لمبارك حين اندلعت الثورة!

نفس هذه النخبة هى التى استبعدت حزب "العمل" من المشهد السياسى طوال العامين الماضيين. ولم نهتم بذلك، فقد كنا مشغولين بإعادة بناء الحزب. ويبدو أننا نجحنا إلى حد أن الثورة المضادة بدأت تشعر بخطورتنا، فقررت فى إحدى الغرف السوداء الالتفات لنا. وفى خلال الأسابيع الماضية حدثت كل هذه الهجمات التى تذكرنا بتحرشات الجيش الإسرائيلى على قطاع غزة بين الفينة والأخرى. بدأت عملية رفع القضايا على جريدة "الشعب" باتهامات السب والقذف كان أبرزها من الشركة المستخرجة لذهب السكرى وساويرس. نيابة مصر القديمة تستدعى رئيس حزب "العمل" لأن قارئا سب قارئا آخر على موقع "الشعب" الإلكترونى فى باب التعليقات، والشاكى ضابط جيش! بالمصادفة البحتة وفى نفس التوقيت يتم إستخراج قضية سب وقذف من عام ١٩٩٣ ضد المغفور له إبراهيم شكرى رغم أنه غادر هذا العالم الكئيب لأنها أيضا ضد مجدى حسين رئيس الحزب الحالى. وبقدرة ساحر مخابراتى نزل هذا الخبر المضحك على كل مواقع الإنترنت. وفى وقت تضمحل فيه سلطات الدولة ويضعف سلطان القانون إلى حد أنه يتم تجريف ٣٠ ألف فدان يوميا، وتدعو أطراف عديدة لجمع المال والتبرعات لأشياء شتى، إلا أن الحكومة العتيدة

انتفضت ضد حزب "العمل" بالذات لأنه أعلن عن اكتتاب لقناة فضائية قبل أن يستأذن هيئة الرقابة المالية لأنها قرأت فى جريدة "الشعب" ذلك. وهذا جيد، فهيئة الرقابة المالية تقرأ جريدة "الشعب". نعم هذا خبر جيد. لقد كسبنا زبونا يدفع ٤ جنيه فى الأسبوع لأنه يقرأ عدد الجمعة أيضا رغم أن يوم الجمعة إجازة. إذن رئيس الهيئة يشترى النسخة بنفسه يوم الجمعة أو يوصى بذلك أحد العاملين. ولكن لماذا لم تقرأ الهيئة المعلومات الموثقة التى نشرناها عن القنوات الممولة بالمليارات؟ أليس من قبيل الرقابة المالية التحقيق فى ذلك؟ ونحن نؤيد بشدة أن تستعيد الدولة عافيتها وصرامتها المركزية فى الحق. ونحن، فى كل الأحوال، سننتهى من إجراءات تسجيل الشركة خلال أيام. ولكن بلاش اليقظة الزيادة على حزب "العمل" بالذات لأنها ترتبط بتحركات أخرى بالتزامن.

وأخيرا يبقى أن محكمة الأحزاب حجزت للحكم قضية تشابه الأسماء التى رفعها عميل أمن الدولة والمخابرات (وفقا لوثيقة منشورة لم ينفها) فى ١٩ مايو. وتقوم القضية على أساس تشابه الأسماء بين حزب "العمل الجديد" وحزب "العمل الاشتراكى". والعملاء الذين يتحدثون باسم حزب "العمل الاشتراكى" لا يفعلون شيئا إلا محاربة حزب "العمل" الأصلى فى القضاء أو من خلال الإعلام المشبوه، ولكن لا يقومون بأى عمل سياسى إيجابى لترويج أنفسهم أو أفكارهم المفترضة.

ونقول للمحكمة إن اسم حزب "العمل الجديد" هو اقتراح من المستشار محمد ممتاز متولى رئيس المجلس الأعلى للقضاء حاليا. فعندما كان رئيسا للجنة الأحزاب قابله رئيس حزب "العمل" مرارا لبحث مسألة التنازع المزعوم على رئاسة الحزب. اقترح المستشار ممتاز تأسيس حزب جديد باسم حزب "العمل الجديد" للخلاص من هذه المشكلة. وقال له مجدى حسين: سنأخذ برأيك، ولكن سترى أن الأجهزة لن تتركنا فى حالنا، فهى التى وراء هذا التنازع المفتعل. فقال المستشار ممتاز: لا تسبق الأحداث!

وفى النهاية نقول للجالسين فى هذه الغرفة السوداء، سواء أكانت فى حدائق القبة أو مدينة نصر أو أى مكان: أنتم حمقى، ولا تعلمون ولا تَخْشَوْن الله. نحن فريق استشهادى، ولا يهمنا كل هذه الأفاعيل فى شيء، ولكننا مضطرون فقط لشرحها للجمهور حتى يكون على بينة. نحن لن نغير مواقفنا بسبب هذه الحماقات والمضايقات. وأعلنَّا مرارا استعدادنا لدخول السجون من جديد . ونحن لن نهرب، ولن نغير عناويننا، ولن نغادر البلاد . وإذا لم نستطع دفع الغرامات تَعَالَوْا وخذوا عفش بيوتنا كما حدث بالفعل أيام المخلوع حيث جاء المحضر ودخل بيت مجدى حسين بحثا عن الأجهزة الكهربائية إعدادا للمزاد، فطرده مجدى حسين وقال له: اذهب وأعلن عن موعد المزاد، ولكن لن تفتش البيت. وذهب ولم يعد حتى الآن!

نحن نستهدف بالتأكيد التمثيل الكبير والمؤثر فى البرلمان القادم، ولكن إذا لم يساندنا الشعب من الآن ويقتنع بما نطرحه من آفاق للاستقلال والتنمية والعدالة الاجتماعية من منظور إسلامى، وإذا لم يحدث ذلك بالمعدلات التى نأملها، فهذا لن يحزننا، لأن معنى ذلك أن الشعب لم يقتنع بعد بضرورة التحرر من الهيمنة الأمريكية الصهيونية باعتبارها سبب البلاء الرئيسى. ونكون بذلك قد أبلغنا رسالات ربنا من وجهة نظرنا بطبيعة الحال".

وبالمثل هناك مقال مؤلم لجمال المنشاوى عنوانه: "الداخلية والشنق فى الزنازين!" ينتقد فيه أداء د. مرسى فى الحكم: "وكأننا عدنا إلى عصر صلاح نصر وحمزة البسيوني وصفوت الروبي وفؤاد علام، الذين كانوا يحترفون تعذيب المعتقلين وينتهكون حرماتهم فإذا أرادوا الانتقام من أحد قتلوه ثم ادعوا انتحاره بشنق نفسه، إما في شباك الزنزانة كما حدث مع البطل سليمان خاطر، أو في كوع حوض الغسيل كما حدث مع الشهيد (نحسبه كذلك) كمال السنانيري والذي تحوم شبهة قتله حول فؤاد علام، كما ذكر ذلك الشهيد(نحسبه كذلك) طلعت فؤاد قاسم (أبو طلال القاسمي)، الذي ذكر أنه شاهد عملية القتل بنفسه حيث كانت زنزانته مقابلة لزنزانة السنانيري، ناهيك عن جرائم الموت تحت التعذيب المباشر والذي يقوم به صغار المخبرين

والضباط الذين لا دين لهم ولا إنسانية ولا مروءة ولا خوف من قانون، كما حدث مع الشاب خالد سعيد والشاب سيد بلال.

وبعد أن قامت الثورة ظننا أننا تحررنا من هذا الأسلوب ولفظناه إلى غير رجعة في وجود رئيس ملتزم إسلاميًا ويدعو إلى مشروع إسلامي أساسه احترام كرامة الإنسان، الذي كرمه الله عز وجل وحافظ على كرامته، وجعل حرمة دمه أكبر عند الله من حرمة الكعبة، لكننا في كل يوم نفاجأ بمأساة من مآسي الداخلية، وانتهاكاتها التي تعيدنا إلى عصور الظلام والقهر وانتهاك القوانين السماوية والأرضية. وهذا ما حدث مع المواطن وائل حمدي محمد رشدي، الذي لقي حتفه في قسم مصر الجديدة يوم ٢٤إبريل، والشرطة تقول إنه شنق نفسه في الزنزانة أثناء الليل مع وجود ستة محبوسين معه في نفس المكان. ولا نعلم كيف غافل الجميع وشنق نفسه مع عدم وجود تفسير لكيفية حصوله على السكين أو المطواة التي قطع بها طرف البطانيه ونسج منها الحبل الذي لفه حول عنقه مع عدم وجود كرسي يقف عليه! وتدل جميع الشواهد على أن المتسبب في الوفاة هو الضابط المسئول ليلتها الذي ضربه على رأسه بشومة، مما تسبب في وفاته. وللآن لم تجر الداخلية أي تحقيقات في الأمر!

الأمر الثاني هو حادثة إصابة المعتقل حامد أبو شيته من أهالي سيناء والمحكوم عليه على ذمة إحدى قضايا التنظيمات الإسلامية، والذي أصيب بالعمى نتيجة التعذيب، واسم الضابط الذي تسبب في ذلك معروف. وكانت هذه المعلومة من أسباب اختطاف الجنود في سيناء، ولم يحرك أحد ساكنًا، ولماذا يتحركون؟ والداخلية تجد في هذه التصرفات وسيلة للتنفيس ورد الاعتبار. ودليل ذلك أن هذه السلوكيات المريضة لا تحدث إلا مع الناشطين السياسيين أو المعارضين لحكم الإخوان. ومما يثير الدهشة والأسى أن الإخوان الذين كانوا يملأون الدنيا ضجيجًا وعويلاً على حقوق الإنسان وكرامة البشر، إذا اعتقل أحد منهم أو أصابه مكروه، فإن كان حيًا فهو بطل مغوار، وشهيدًا إن كان ميتاً، وتزخر أدبياتهم بفن اللطم على الخدود

وشق الجيوب على ما فعله عبد الناصر بهم، وقد كان متجاوزاً للحدود الآدمية في طرق تعذيبهم، ثم استمر ذلك في عهد مبارك، لا يتكلمون الآن عن هذه الأمور إطلاقاً، ولا تثير في نفوسهم أي رغبة في الإنكار أو المحاسبة لوزارة تقع تحت الإشراف المباشر للسيد مرسي، الذي ذاق بنفسه ألم السجن ومرارة الظلم بدون وجه حق. لكن يبدو أن فتنة المنصب وبريق السلطة، وضعف النفس البشرية، وتغليب مصلحة الجماعة، بزعمهم، لابد أن تنحني لها الرءوس وتذعن لها القلوب، وتتوقف عندها النداءات أو الاستنكار، وتداس عندها كل القيم والمبادئ والمثل، بما فيها قيم العدالة، والكرامة وحقوق الإنسان وحرمته المنتهكة التي هي أخطر عند الله من حرمة الكعبة.

والعجيب أن هناك مجلسًا لحقوق الإنسان كان من المفترض أن يقوم بدوره في هذه الرقابة على تصرفات الداخلية، ويرفع تقاريره للقيادة السياسية التي بيد السيد مرسي المظلوم سابقً، الظالم حاليًا لسكوته وتواطئه مع ما تفعله الداخلية من انتهاكات، خاصة وأنه المسئول الأول في البلاد ولا يكفي أن يظل يردد ليل نهار: "أنا رئيس لكل المصريين"، طالبًا منهم أن يطيعوه، متناسيًا أن رئيس كل المصريين يجب أن يحترم كرامتهم، ويحفظ إنسانيتهم، ويقتص لمظلوميهم من ظالميهم، ولا يتغاضى عما يفعله ظلمة وزارة الداخلية الذين يريدون إعادتنا إلى عصر الظلام والتعذيب السري والعلني والذي لم نجد له محاسبة سواءً في نظام مبارك أو مرسي، فلم نسمع عن ضابط في الشرطه أحيل للتحقيق لأنه امتهن كرامة مواطن، أو عذبه أو حبس حريته دون مبرر قانوني بالرغم من نص الدستور الجديد على تجريم هذه التصرفات، والتي لا نجد تطبيقًا واحدًا لمبادئه التي صمت آذاننا من التغني بمزاياه، وتقديسه لحقوق الإنسان، وإعادة الآدمية والكرامة للمصريين فلن يستعبدوا بعد إقراره، حيث سينبري من روجوا له للدفاع عن أي اعتداء على كرامة المصريين، وسيكونون سيفًا بتارًا يقطعون به اليد التي تمتد على أضعف مواطن مصري الذي حقوقه من حقوق الرئيس كما يقول الدستور. وسؤالنا هنا للسيد مرسي باعتباره أبًا للمصريين ومسؤولاً عنهم: ماذا لو تعرض أحمد أو عبد الله

محمد مرسي لما يتعرض له النشطاء والمساكين من عامة الشعب من تعذيب وسحل وفقأ للعيون؟ ترى ماذا كنت ستفعل؟ هل كنت ستتصرف كما تتصرف الآن وكأنك لا علم ولا دراية ولا سلطة لك؟ ننتظر الإجابة قريبًا بتحريك ملفات تعذيب الداخلية".

فى نفس الوقت حملة مضادة تسهدف الدفاع عن أداء د. مرسى قائلة ما يفيد أنه ممن ينطبق عليه المثل العربى القديم: "مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاع". أى أنه ليس ضعيفا كما يبدو لنا بل ينتظر فرصة ينقض فيها على فريسته بل فرائسه، ولكن بهدوء وأناقة، إذ هو لا يحب اللجوء إلى العنف مع خصومه أو التنكيل بهم، بل يمسك بمبضع الجراح يقطع به الجلد فى لباقة دون أن يُسِيل دما أو على الأقل: دون أن يُسِيل دما كثيرا يلطخ المكان. ويستشهدون على ذلك بما أنجزه فى مجال التخلص من حكم العسكر وتغيير النائب العام وإجراء انتخابات الشورى وغير ذلك بأقل قدر من العنف. وهو كلام لا يخلو، فى درجته الدنيا على الأقل، من مصداقية تبعث فى بعض الأحيان على الأمل، وبخاصة أن خصومه، رغم المدفعية الثقيلة التى يرجمونه بها والأساليب الملتوية التى يحاربونه بواسطتها والبلطجة التى يتعرض لها القصر بصفة شبه دائمة بوساطة الونش والمولوتوف والصواريخ والخرطوش والرصاص وسباب العِرْض، لم يصلوا معه إلى شىء يدل على أنهم سيكسبون المعركة رغم أن كثيرا من مؤسسات الدولة ليست معه إن لم نقل إنها تقف ضده.

ولعل المقال التالى لفراج إسماعيل المنشور فى جريدة "المصريون" الألكترونية بتاريخ ١٨ إبريل ٢٠١٣م تحت عنوان "القفاز الحريرى لمرسى"، يمثل أصحاب هذا الموقف الأخير، وإن جاء على الكاتب وقت منذ عدة أسابيع بدا فيه وكأنه انقلب على د.مرسى، ليعود بأخرة فيتخذ مجددا خط الدفاع عن الرجل. جاء فى المقال المذكور ما نصه: "التحبيط والتيئيس والتنفير من المستقبل بتلطيخه بالرؤى السوداء هو الطريق الذي أوصل أنصار نظام مبارك إلى لحظة الجهر بموالاته بعد أن كانوا يدارون أنفسهم طوال العامين الماضيين. منهم من ركب تيار الثورة ونافق الثوار واعتصم معهم في ميدان التحرير انتظارا للحظة الانقضاض التي ظنوا

أنها حانت بحكم إخلاء سبيل الرئيس المخلوع حسني مبارك. "التنفير" كلمة السر التي لم يكتشفها البعض، بل سار كثيرون في ركابها باكيا على اليوم وخائفا من الغد ومولولا على الماضي، ناسيا أن مبارك وأسرته ونظامه هم من أفسدوا في الأرض ونهبوا الخيرات ولم يتركوا للشعب إلا فتاتا يبكي عليه المنفرون الآن. يبكون على صناديق قمامة أحمد عز التي افتخر بها ذات يوم في مجلس الشعب واعتبرها برهانا على الرفاهية. التنفير مضى جنبا إلى جنب مع محاولة استدعاء العسكر للقيام بانقلاب عسكري يعيد الأوضاع إلى سابقها، وكانت أعلى أمانيهم تحقيق الفصل بين رئيس الجمهورية بوصفه قائدا أعلى للقوات المسلحة وبين قيادات تلك القوات من أول وزير الدفاع عبدالفتاح السيسي، الذي نشطوا في حملة مجنونة وغبية لتحرير التوكيلات له. كلها خطوات عملت لصالح عودة نظام مبارك. فخ ناعم مسكون بالشيطان، لكن مرسي ووزير دفاعه السيسي من الذكاء بحيث لم يقعا فيه، ومضى الاثنان في مهمة تحديث الجيش، الذي حوله مبارك إلى إنتاج الخبز وتمهيد الطرق وتشغيل صالات الأفراح وتأسيس فرق كرة قدم تحمل اسمه، وأحيانا تشجيع المنتخب الوطني!

مرسي أول رئيس مدني من خارج الجيش، لكنه فهم أكثر من مبارك الخارج من رحم العسكرية وقائد القوات الجوية في حرب أكتوبر أن قوة دولة إقليمية كبرى في حجم مصر تنبع من قوة جيشها وتحديثه وتدريبه المستمر، وليس إقامة منافذ توزيع الخبز عندما يتأزم انتاجه. نجح مرسي في شراء أسلحة جديدة من الصين وطائرات تجسس حديثة وغواصات، وكذلك شراء أسلحة وطائرات بدون طيار من تركيا. وهذه خطوة مهمة في مجال تنويع مصادر التسليح سيكون لها عظيم الأثر مستقبلا. وتمكن مرسي من إبرام اتفاقيات لشراء غواصات من ألمانيا وطائرات من فرنسا، إضافة إلى المضي في شراء السلاح الأمريكي من المعونة العسكرية، إلا أنها هذه المرة اختيارات ممتازة بشروط مصرية وبأسعار حقيقية، كشراء صفقة صواريخ متطورة جدا، وطائرات إف ١٦ متطورة، وإعادة تشغيل المصانع الحربية المحلية، والحصول على حق تصنيع الدبابات الأمريكية: "أبرامز" بتصنيع مصري ١٠٠٪. زاد الاهتمام بالتدريبات ونوعيتها لرفع الكفاءة القتالية والبدنية،

وإحكام السيطرة العسكرية على سيناء للدرجة التي أتاحت للجيش لأول مرة القيام بعملية هدم الأنفاق مع غزة بوسائل حديثة ومؤثرة. ولأول مرة منذ اتفاقية كامب ديفيد يتم ادخال المعدات العسكرية الثقيلة بإرادة مصرية كاملة بدون استئذان أو تشاور مع إسرائيل وواشنطن.

إنجازات في المجالات الأخرى قد لا ينتبه إليها البعض أو يعمل المنفرون على طمسها: ففي عهد مرسي تم الإفراج عن ٧٠٠ سجين مصري في السجون السعودية بعد مشاورات بينه وبين خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبدالعزيز. وبالنسبة للأردن تم وقف الحملات الأمنية وتسفير العمالة المصرية المخالفة بعد اتصاله بالعاهل الأردني الملك عبدالله. كان لمصر دور كبير في وقف العدوان على غزة، ونال الرئيس مرسي شهادة عالمية بحسن إدارته للأزمة، كما ظهرت القاهرة كطرف فاعل في القضية السورية ودعمها في المحافل الدولية. في المجال الأمني، ورغم الترهل الظاهر نتيجة إشاعة المنفرين للفوضى، قامت وزارة الداخلية بحملات أمنية مكثفة للقضاء على البؤر الإجرامية كما حدث في بحيرة المنزلة. الإفراج عن كل من تم اعتقاله أثناء وبعد ثورة ٢٥ يناير، ومنهم ضباط في الجيش، ثم مواجهة المحكمة الدستورية العليا وإفساد محاولتها للالتفاف على إرادة الشعب وإفساد صوته الانتخابي، بتحصين الجمعية التأسيسية ومجلس الشورى وتغيير النائب العام السابق وإقرار دستور جديد.

بقفاز حريري تمكن مرسي من فرض نفسه كرئيس لا ينازعه أحد سلطاته الدستورية في وقت روج فيه إعلام المنفرين لفكرة الرئيسين بإظهار المشير طنطاوي كرئيس ثان، كما حدث عند تقسيم شاشة التلفزيون الرسمي لصلاة الجمعة بين كل من مرسي في مسجد، وطنطاوي في مسجد آخر، فقد أقاله ورئيس أركانه الفريق عنان، وأخرج الجيش من اللعبة السياسية بدون قطرة دم واحدة بعد انهماكه فيها ٦٠ عاما. إطلاق عملية واسعة لتطهير مؤسسات الدولة من الفساد المستشري، ومن نتائجها إقالة عدد من قيادات الحزب الوطني المنحل مثل رئيس الرقابة الإدارية، ورئيس الجهاز المركزي للمحاسبات، ورئيس الجهاز المركزي

للتنظيم والإدارة، ومدير أمن القاهرة، ورئيس الحرس الجمهوري. إنه القفاز الحريري الذي يتحرك بدون ضجيج، لكنه يسفر عن ضربات موجعة للنظام القديم وإعلامه التنفيري".

ولفراج إسماعيل مقال آخر عن د. محمد مرسى والانتقادات التى يوجهها له خصومه واتهامهم له بالعجز والفشل. والمقال منشور فى جريدة"المصريون" أيضا، ولكن بتاريخ لاحق (١٢ يونيه ٢٠١٣م)، وعنوانه: "يكبلون مرسى، ويطالبونه بالإنجاز"، ويجرى على النحو التالى: "منذ تولي مرسي وحكومة قنديل مهامهما لم تتوقف الاضطرابات والمظاهرات وقطع الطرق والحرائق يومًا واحدًا. في النهار يتم تضييق الخناق عليهما لمنع أي عمل، وفي الليل تبدأ القنوات الفضائية من التاسعة مساء في حملات التشويه والمعايرة بعدم الإنجاز وتوصيل الرسائل السلبية السوداء للداخل والخارج عما يجري في مصر. وسط هذه المعمعة مطلوب من الحكومة أن تحل مشاكل الناس الحياتية، وأن توجد فرص عمل للشباب، وتزيد مرتبات موظفين يقضون ساعات العمل في الاعتصامات وإشعال الاضطرابات بحثًا عن مزايا وظيفية. مطلوب منها أن توجد رغيف الخبز وتوفر المستلزمات الضرورية وغير الضرورية والعملة الصعبة لاستيراد الغاز، الذي نبيعه رخيصًا بموجب عقود دولة مبارك لإسرائيل وغيرها.

عندما لا تجد الحكومة ذلك بسبب التكبيل والحصار اليومي الذي تفرضه المعارضة على الدولة لإفشال مرسي فتضطر لتخفيف أحمال الكهرباء بقطعه عدة ساعات يوميًا تبدأ الحملة المنظمة ضدها وتهييج الناس ودعوتهم للخروج والتظاهر يوم ٣٠ يونيه وعدم الرجوع إلى بيوتهم إلا بإسقاط رئيس الجمهورية وتشكيل مجلس رئاسي والدعوة لانتخابات مبكرة. لا يوجد رئيس دولة في العالم يستطيع العمل في تلك الأجواء المخنوقة والمكبلة. مصر محروسة برعاية الله بدليل أنها لا تزال صامدة رغم الحرب المريرة لتجويعها وتخويف السائحين من القدوم إليها والإساءة إلى بعض الدول الشقيقة والصديقة لمنعها من مد يد المساعدة. هل يجوز

لأحد أن يتهم الإسلاميين بالفشل في إدارة الدولة وهم يحاربون أكثر من عدو على أكثر من جبهة لإشغالهم عن التوجه نحو حل المشاكل الاقتصادية؟

بعد مرور ١٠ أيام فقط على بدء احتجاجات تركيا وصلت البورصة إلى أدنى مستوى لها خلال ١٠ سنوات رغم أن المظاهرات الكبيرة لا تزيد عن ميدان تقسيم بإسطنبول وبعض شوارع أنقرة ولا تشمل قطع طرق أو تهديد الأمن وإشعال حرائق المولوتوف وتجنيد أطفال الشوارع. ما حدث في الأقاليم الأخرى (٧٥ إقليمًا) احتجاجات محدودة العدد لا تزيد عن العشرات، ولم تستمر في الشارع طويلا . على الفور بدأ التأثير السلبي في القطاع السياحي الذي سجل نموًا بنسبة ٣٨,٦% خلال الربع الأول من العام الحالي ما قيمته ٥ مليارات دولار، ووصل عدد السائحين في تلك الفترة إلى ٥ ملايين سائح. تأثرت كذلك الأنشطة المرتبطة بالسفر، فحدث انخفاض ملحوظ على الخطوط التركية التي وصلت مساهمتها في القطاع الاقتصادي بـ٣٥ مليون راكب سنويًا من وإلى ٢٢١ جهة عالمية. شركات أجنبية تستثمر في تركيا أوقفت عملها معرضة الآلاف لفقدان وظائفهم مما جعل رجب طيب أردوغان يوجه لتلك الشركات انتقادات حادة فقد ساندتها الحكومة طويلا ووفرت لها الامتيازات والتسهيلات وها هي تستعد للرحيل بمجرد مظاهرات لم يزد عمرها عن ١٠ أيام، لكن رأس المال جبان بطبيعته. وزير الداخلية معمر جولر توقع في تصريح لقناة "إن تي في" التركية أن تبلغ الخسائر أكثر من ٣٠ مليون يورو. ١٠ أيام فقط من الاحتجاجات البسيطة إذا قورنت باحتجاجات مصر المؤبدة التي لم تتوقف يومًا واحدًا منذ قدوم مرسي عَرَّضَتْ أكبر الاقتصاديات الإقليمية للتراجع المخيف رغم تسجيله نموًا بنسبة ٨,٨% عام ٢٠١١، وكان مرشحًا لنمو كبير خلال العام الحالي والأعوام المقبلة. تتكلم عن اقتصاد دولة نجحت في تسديد كامل ديونها لصندوق النقد الدولي وتحولت إلى مانحة له.

المقارنة ظالمة لمرسي بكل المقاييس فقد استلم اقتصادًا منهارًا تمامًا واحتياطيًا متداعيًا ظل ينزف منذ ٢٥ يناير، وقد نجح هو على الأقل في وقف ذلك النزيف الذي كان يحدث بشكل شهري. تولى مسئولية دولة معدل الشفافية فيها صفر. الفساد يعشش في كل مكان وكل وزارة ومؤسسة. حجم الاقتصاد العشوائي ليس له مثيل. كيانات اقتصادية باعها نظام مبارك تسليم مفتاح، بطالة مرتفعة ومشكلات حياتية ليست وليدة عهد مرسي مثل انقطاع الكهرباء والماء. رغيف الخبز كان يختفي مرارًا في سنوات مبارك رغم سوء حالته. لا ننسى تدخلات القوات المسلحة بتوزيع إنتاجها منه عبر منافذها. قس على ذلك أزمات الغاز والسولار والبنزين، فكلها ليست جديدة. الإعلام الليلي وسياسيو القعدات يراهنون على "النسيان" فينسبون كل نقيصة لزمن الحكومة الحالية. لا يتوقفون عن محاصرتها بالمظاهرات وقطاع الطرق والاعتصامات وأطفال الشوارع لعرقلتها حتى يختنق الشعب فيثور ويندفع إلى الشوارع لخلع مرسي. مشكلة رئيس الجمهورية وحكومته أن صبرهما بلا حدود فلا يدركون خطورة ذلك الاختناق الذي يمسك به تحالف القوى المتأهبة للسيطرة على الحكم والقوى الموالية للنظام السابق ويديره إعلاميًا عدد من الإعلاميين كانوا نجومًا وحواريين لنظام مبارك".

هذا بالنسبة لموقفى من الإخوان منذ ضربهم جمال عبد الناصر فى ١٩٦٥م، أما بالنسبة إلى سيد قطب فما فَتِئْتُ حتى الآن أرى فى استمساكه بموقفه تجاه عبد الناصر ضربا من الرجولة لا يُبَارَى رغم أننى لم أَعُدْ أُرَافِئُه على كل شىء كتبه فى أمور الدين والسياسة. وهذا واضح من الفصل الذى خصصته لتفسيره المعروف: "فى ظلال القرآن" فى كتابى: "من الطبرى إلى سيد قطب- دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه"، حيث حللت منهجه وأفكاره فى ذلك الكتاب وأثنيت على كثير جدا مما قاله، لكنى أعلنت اختلافى مع بعض آرائه رغم هذا.

وكنا فى الجامعة نحرص على تتبع كتب سيد قطب، التى أذكر مثلا أننا كنا نقرأ منها كتاب "معالم فى الطريق" فى السنة الأولى بالجامعة فى الحافلات العامة ذاتها، لكن بعد تجليدنا إياه بفرخ ورق كيلا يعرف حتى

من يجلس أو يقف بجوارنا فى الأوتوبيس أننا نقرأ سيد قطب. وكان من عاداتى الإدمانية فى الجامعة القراءة فى الحافلات العامة مهما كانت مزدحمة حتى إننى ذات مرة، وكنت محشورا فى أحدها كأنى سردينة فى علبة، قد رفعت كتابا كنت أقرؤه إلى مستوى عينى فاستقر دون انتباه منى فوق قفا الراكب الذى يقف لصقى بفعل الزحام الشديد، فما كان منه إلا أن صاح مستنكرا: هل حُبِكَتْ القراءة إلى الدرجة التى تستذكر فيها على قفاى؟ ولا أدرى الآن أضحكتُ وقتذاك من عبثية الموقف أم اعتذرتُ للرجل أم جادلتُه كعادتنا نحن المصريين حين لا نريد أن نعترف بأخطائنا. المهم أن الأمر، بطبيعة الحال، قد عَدَّى على خير، وإلا ما كنت معكم الآن أسطر هذا الكلام السخيف، فتحملونى من فضلكم!

وظلت هذه العادة ترافقنى بعد ذلك عقودا حتى خَفَّت الآن بعدما صرت أوثر القراءة الكاتوبية على الكتاب الورقى، وأصبح بمستطاعى أن أركب الحافلة لمدة ساعة دون أن أشعر بالضجر لعدم القراءة، إذ أضحيت أنظر إلى ذلك على أنه فرصة لراحة العقل، الذى لم يعد يهدأ من التفكير، فأهتبلها فرصة لـ"تكبير مخى" حسب التعبير المصرى المشهور الذى يورد الواحد موارد الهلاك والخراب! أما إذا كنت مشغولا بتأليف كتاب ما فإنى أهتبل الفرصة للتفكير فى هذا الموضوع. وكنت فى لندن أركب الحافلة أُمّ دورين من شرق المدينة حتى وسطها عند أكسفورد ستريت أو المكتب الثقافى المصرى قريبا من الهايد بارك، وهى رحلة تستغرق نحو ساعة كنت أقضيها فى قراءة الكتب فى الطابق العلوى فى متعة ما بعدها متعة، مع التغيير بين الحين والحين بالنظر إلى الشوارع والمحلات وحركة الناس على الأرصفة، ويا لها من متعة أخرى! فـ"أين من عينىَّ هاتيك المجالى؟". وكنا أنا وزوجتى حين يغلبنا الحنين هناك إلى مصر نغنى، ونحن نضحك وندفع كرسىَّ ولدينا فى الشوارع، افتتاحية هذه القصيدة الرائعة لعلى محمود طه مع تحوير كلمة "المجالى" إلى "المجارى" إشارة إلى طفح المجارى الذى نعانى منه كثيرا فى مصر، ولا تعرفه بريطانيا أبدا.

وبخصوص الكتابة فقد بدأتُ، فى أواخر المرحلة الإعدادية (الأزهرية)، أجرب قلمى مقلدا العقاد فى أسلوبه وموضوعاته وآرائه. ومن العجيب أننى، على رغم حداثة معرفتى بالعقاد، قد شعرت بعد ذلك بسنة، حين صرت طالبا فى السنة الأولى الثانوية، بحزن شديد على موته مع أنه حين مات لم أشعر بتلك الدرجة من الحزن. وكنت فخورا أننى حصلت عقب موته على كتابين يترجمان له فقرأتهما وأنا فى غاية التحمس. لقد أحسست، وأنا طالب فى السنة الأولى بالأحمدية الثانوية، أننى قد صرت يتيما مرة أخرى، ولا أدرى لماذا. وأتصور أننى كنت واعيا على نحو ما بالدور الذى قام به العقاد فى حياة العرب والمسلمين، وبخاصة دفاعه عن الإسلام، فقد شعرت أن الإسلام قد فقد نصيره الجبار، وإن لم يكن تدينى فى ذلك الوقت بالتدين القوى كما أصبح عليه الحال بعد ذلك بسنة ونصف كما سيأتى بيانه. وكنت، وأنا فى الإعدادية، أردد فى سذاجة مخلصة أننى أريد الالتحاق بالكلية التى تخرّج الأدباء. أقصد كلية الآداب. ذلك أنى كنت أتصور أن الإبداع الأدبى لون من ألوان التخصص المختلفة، وأن هناك كلية تتكفل بإنتاج الأدباء هى كلية الآداب، خالطا بين التخصص فى دراسة الأدب وبين الإبداع الأدبى ذاته. ومن هنا كنت أتطلع فى شوق ولهفة إلى الالتحاق بها عندما يؤون الأوان وأحصل على الثانوية العامة. ونتيجة لـ"سذاجتى المخلصة" لم أصر أديبا ولا حتى صلحت لدراسة الأدب كما يرى القارئ بنفسه. وفى الصيف الذى تلا حصولى على الإعدادية قرأت كتاب العقاد: "أنا" وكتاب د. شوقى ضيف عنه: "مع العقاد"، اللذين أشرت إليهما آنفا. وقد سألت فى ذلك الحين طالبا أزهريا من قريتى أكبر منى عن الأستاذ الدكتور فأخبرنى أنه أستاذ بآداب الإسكندرية. ترى كيف عرف ذلك الطالب أن د. شوقى ضيف أستاذ بكلية الآداب، وإن أخطأ فقال: "جامعة الإسكندرية" بدل "جامعة القاهرة"؟ لا أدرى، ومن قال: "لا أدرى" فقد أفتى.

ولم أكن أعرف أننى بعد خمس سنوات سوف أدرس على يد الأستاذ الدكتور حينما عاد من إعارته إلى الأردن وأنا فى السنة الثالثة بالكلية، وتكون بينى وبينه لقاءات فى بيته بشارع المقياس بحى الروضة

حيث نظل نتحدث بين العصر والمغرب، وربما إلى قريب من العشاء أيضا. وقد علمت منه أثناء أحد تلك اللقاءات أنه قد وضع كتابه هذا عن العقاد فى ثلاثة شهور تردد خلالها على دار الكتب المصرية بباب الخلق بعدما طلبت منه دار المعارف تأليف ذلك الكتاب عقب وفاة العقاد، رحم الله كاتبينا الكبيرين. وقد أكون أثقلت على الرجل رحمه الله فى بعض هذه الزيارات، ولكنى كنت كمن وجد مرفأ آمنا أستكنّ فيه فأجد شيئا من الدفء فى القاهرة التى كنت أشعر بالغربة فيها مثلما كنت أشعر بها فى طنطا فى بداءة أمرى هناك. وكان الرجل يأتى لى فى كل مرة أزوره بفنجان قهوة وقطعة من الشيكولاته. وأحيانا كان يهدى لى كتابا من كتبه كـ"العصر العباسى الثانى" و"البطولة فى الشعر العربى"، فيكتب فى الإهداء: "إلى الصديق السيد فلان". نور الله قبره وكتبه من أصحاب الفردوس الأعلى.

وكان، رحمه الله، متواضعا دمثا واسع الصدر حتى إنى كنت أذهب فى الدلال عليه أحيانا مذهبا جريئا. فمن ذلك أن أخى الأصغر مختار كان قد قرأ كتاب الأستاذ الدكتور عن "البطولة فى الشعر العربى"، الذى كان قد أهدانيه، فعلق قائلا إن أسلوبه أحسن من أسلوب العقاد، فنقلت هذا للأستاذ الدكتور، ومضيت فى كلامى ذاكرا ما قلته لأخى من أنه لا يعرف شيئا. فسكت الأستاذ الدكتور، طيب الله ثراه، قليلا، ثم عقب بعد فترة قائلا: أتدرى أن أخاك عنده حق فى... فما كان منى إلا أن قلت ضاحكا: يا للغرور! ولعل أستاذى الكريم قد ضحك أو ابتسم جوابا على هذا التهور السخيف من شاب لا يدرك أحيانا أبعاد ما يقول. ومن طيبة قلبه وعظمة نفسه ما قاله لى ببساطة شديدة ذات زيارة من أن ولديه يناديانه بـ"شوقى" حافيا دون رسميات كما يفعل الأصدقاء بعضهم مع بعض. وقد دهشت لهذا آنذاك، إلا أننى حين أسمع ابنتى الصغيرة الآن تنادينى ضاحكة أحيانا بما هو أجرأ من هذا أقول: اشرب ياعم إبراهيم! لم يعجبك أن ينادى وَلَدَا أستاذِك الدكتور أباهما باسمه مجردا، فها هى ذى ابنتك الصغرى تناديك بما هو أجرأ. ما رأيك؟ على رأى المثل: من لا يرضى بالتوت يرضى بشرابه. وأى شراب! وقد كتب الفتى مقالا عن أستاذه فى ملحق "الهلال"

بعنوان "د. شوقى ضيف شيخ مؤرخى الأدب العربى– صورة قلمية"، وذهب إلى بيته يحمل فى يده نسخة من المجلة كى يهديها إليه، ففتح له هو ورفيقه البابَ ابنُ الدكتور، المهندس عاصم ضيف الأستاذ المتفرغ الآن بهندسة القاهرة حاليا، الذى أخبرهما أن أباه مريض فى الفراش، فسلمه الفتى نسخة المجلة ومضى ينزل السلم، ليفاجأ به يناديهما ويقول لهما إن أباه أصر على أن ينهض من فراشه ويستقبلهما. فكانت لفتة كريمة من الأستاذ الدكتور، رحمه الله.

وهأنذا أعود الآن إلى ذكريات الصبا، فأجدها تهيج بى، وتضغط على قلبى فى عذوبة مؤلمة. والحق أننى لم أتصور أننى سوف أتألم وأنا أكتب مستعيدا هذه الذكريات التى كم قاسينا فيها ومنها، ولكنها كانت تشتمل، رغم كل شىء، على ألوان من المتعة والسعادة. وهذا من رحمة الله بعباده، إذ لو كانت السعادة متوقفة على الغنى أو الصحة أو المنصب أو الحسب لكان معظم البشر تعساء. لكن الله سبحانه يضمّن أبسط الأشياء صورا من المتعة والرضا لا يكاد يصدقها العقل. وما زلت حتى الآن أذكر حكاية قرأتها ضمن مقرر اللغة الفرنسية فى الجامعة تتلخص فى أن طفلا لأحد الأثرياء كان يلعب فى حديقة قصر أبيه بلعبة آلية، لكنه كان يحس بالملل من الحبسة التى هو فيها داخل الحديقة فى حين كان هناك ولدٌ حافٍ بَذّ الهيئة رَثّ الأسمال يقف على الجانب الآخر من السور وفى يده فأر ميت يلعب به. وهنا تلبست الولد الغنى رغبة حارقة فى أن يحوز هذا الفأر، الذى بدا له أكثر حيوية وطرافة من لعبته الآلية التى ضاق بها من كثرة ما يملك من أمثالها، وتطلعًا إلى التغيير، فعرض على الولد المتشرد تبادل اللعبتين. تصوروا؟ وكان أولاد الفلاحين الذين يذهبون إلى وسيّة العمدة فى قريتى رحمه الله يحكون أمامى أيام الطفولة أنه قد يتصادف أن يكون ابن أخت العمدة الوسيم الأنيق المترف معهم فى الحقل مرتديا ملابس الفروسية وممتطيا حصانه، ويأتى موعد الغداء، فيصله أفخم الطعام فى سلة نظيفة مغطاة، بيد أنه كان يتنازل لهم عنه ويأكل من طعامهم الجَشِب، تغييرا للأوضاع ودفعا للسأم من كثرة ما طعم من هذه الألوان الفخمة من الأكل.

وكانت سعادتى تتلخص فى ذلك الوقت فى لعب كرة القدم، التى كنت بارعا متميزا فيها على مستوى القرية والقرى التى تحيط بها أو تنتمى إلى مركز بسيون، الذى تتبعه قريتنا، وفى مطالعة الكتب والالتحاق بنادى الكبار، هؤلاء الذين وهبنى الاقتراب منهم قدرا كبيرا من الاعتزاز بالنفس. ألست أصاحب أولئك العظام وأظل فى رفقتهم لأى وقت أريد دون أن يتدخل أحد بينى وبينهم أو يزعجنى أى شىء عنهم؟ فماذا أرغب أكثر من ذلك؟ ليس هذا فقط، بل لقد كنت أتطلع إلى أن أكون واحدا منهم. فكان فى هذا وذاك قدر هائل من الرضا بالحياة وعنها رغم ما كنا نقاسيه من فقر ويتم وغربة وضآلة. يا ألله! الحمد لك، وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام.

لقد بدأت الصورة تتضح لى فأعرف على الأقل، ولو على نحو غامض وساذج، ماذا كنت أريد أن أكون، وذلك على العكس مما كان عليه الحال وأنا أدرس فى المدرسة الابتدائية بالقرية، وهى المدرسة التى أخرجنى أبى من الكتاب وجمعية المحافظة على القرآن الكريم وألحقنى بها إعدادا لى كى ألتحق بإحدى المدارس الإعدادية بطنطا، بينما كان ينوى أن يدخل أخى الأكبر المعهد الدينى الأحمدى، إلا أن موته المأساوى المباغت قد أفسد كل شىء وأخذَنا جميعا فى اتجاه لم يكن يدور لنا فى بال ولا يخطر لنا على خيال. ذلك أننى أذكر أن المدرسين والمدرسات فى المدرسة الابتدائية، التى تحولت إليها قُبَيْل وفاة والدى، وظللت فيها بُعَيْدَها إلى أن رجعت أدراجى إلى الكتاب وجميعة المحافظة على القرآن الكريم، كانوا كثيرا ما يسألوننا أثناء الحصة لسبب أو لآخر عما نتطلع إلى أن نكونه عندما نكبر، فكان زميلى الذى يجلس بجوارى يعلن عن أمنيته أن يكون ضابطا، أما أنا فأرتبك وأخجل ولا أدرى ماذا ينبغى أن أقول، إذ لم يكن هناك شىء واضح فى ذهنى ولا كان لى تطلع أصلا لأى شىء، فقد مات والدى ولم أعد أعرف رأسى من رجلى، وكنت كلما حاولت أن أبصر شيئًا فى المستقبل فوجئت بجدار مصمت يلفه الصمت والظلام الحالك يمنعنى من

التقدم أو حتى التطلع. وقد انتهى زميلى ذاك إلى مدرسة الصنايع، ولم أعد أعرف أين هو الآن، وربما يكون قد مات، رحمنا الله جميعا.

لا، بل كنت فى حياة والدى وبعد موت والدتى أنظر بعين الغيرة والحسد إلى واحد من معارفه كان يأتى معه أحيانا إلى بيتنا من طنطا راكبا كل منهما موتوسيكله، فيكرمه الوالد غاية الإكرام طعاما ومعاملة، فكان عندى مثال الحرية المطلقة التى لا يتعين عليه معها ذهابٌ إلى الكتاب ولا تعرضٌ لخيزرانة الفقيه ولا حفظٌ لِلَّوح ولا تسميعٌ للحصة كل يوم، فضلا عن أنه كان يرتدى الملابس الإفرنجية، التى كنا ننظر إليها على أنها عنوان المدنية والأناقة، ويركب الموتوسيكل وينطلق به إلى حيث يريد لا ينازعه فى ذلك أحد أو يفرض عليه ما لا يشاء. إلا أننى، حين كبرت وكان والدى قد مات وعرفت الرجل عن قرب وفهمت أوضاع حياته وشخصيته، تبين لى أنه مثال التعاسة والاضطراب، وأنه لا يعجبه فى الدنيا أحد مثلما لا يعجب هو أحدا، بل لا يوجد تقريبا من يحبه، وبينه وبين طوب الأرض ذاته مشاكل وقضايا ومحاكم، وأن أحواله تسير فى خط معوج دائما، وأنه أبعد ما يكون عن الأناقة والتمدن، دعنا من أنه كان شحيحا بشكل لا يطاق، ويقتر على نفسه تقتيرا لا يخطر على بال، ويعامل أولاده معاملة غير إنسانية، وقد سماهم جميعا أسماء تبعث على الضحك، كما تعددت زيجاته، وكلها فاشل على نحو أو على آخر. ثم مات الرجل أخيرا منذ سنوات قليلة تاركا لأولاده إرثا لا بأس به، لكنه ترك مع الإرث التعاسة والخلاف حتى إن كثيرا منهم لا يستطيع الاستفادة مما ورثه بيعا أو انتفاعا كما ينبغى. وكلما تذكرت غيرتى القديمة من الرجل وتطلعى إلى أن أكون مثله حمدت الله سبحانه وتعالى على أنه لم يستجب لى.

ولعلى هنا لا أخرج عن الخط حين أضيف أن أخا أحد أصدقائى، وهو الآن من رجال القضاء وحاصل على درجة الدكتورية فى القانون، كانت أمنية حياته فى صغره أن يكون سائق قطار. وكنت وما زلت أستلطفه كثيرا. وهذا أمر طبيعى، إذ القلوب، كما تَرَوْنَ، عند بعضها البعض، وبرهان ذلك تشابه

الطموحات: فالعبد لله كان يتطلع إلى أن يكون سائق موتوسيكل، أما هو فكان طموحه ومنتهى أمله أن يصير سائق قطار كالرجل الذى يسوق القطار ويضرب سرينته وهو مارٌّ قريبا من بيتهم فى الإسكندرية! بل إن طموحه أفضل من طموحى كثيرا، ويكفى أن كارثة الموتوسكيلات أتفه من كوارث القطارات بما لا يقاس. فأنا لو متُّ بسبب حادثة موتوسيكل سأموت وحدى ولن يهتم أحد غير أهلى بما وقع لى، أما حادثة القطار فتقع فيها وَفَيَاتٌ كثيرةٌ وتتحدث عنها الصحف ونشرات الأخبار فى المذياع والمرناء أياما وأسابيع، وقد تصبح موضوعا للجدل السياسى والمشاغبات الحزبية. ولست أدرى الآن هل يشعر أخو صديقى بالحسرة لأنه لم يصر سائق قطار، أم هل رضى بقسمته وتقبل وضعه الجديد كرجل من رجال القضاء. للأسف لم تأت فرصة لأسأله هذا السؤال!

وكانت أمورى قد اضطربت بعد وفاة الوالد إلى الحد الذى لم أعد أحفظ معه القرآن كما ينبغى حتى إنى لأذكر أصيل يوم قضيته إلى ما بعد المغرب فى غرفة فى الطابق الثانى ببيت سيدنا الشيخ مرسى رضوان القريب من بيتنا، جالسا معه على الحصير فى حضور خال أمى، وكان يسمّع لى سورة "النساء"، فلم أُوَفَّق بل أخطأت كثيرا أنا الذى كان يتباهى بى ويشير إلىَّ بفخر بوصفى الولد الذى يحفظ ربعا كاملا فى اللوح الواحد فى بعض الأحيان، ويحفظ فى اليوم الواحد عدة ألواح، ويتخطى من كانوا يسبقونه بمسافة طويلة، ولذلك انتهى من حفظ القرآن فى وقتٍ جدٍّ مبكرٍ وغير اعتيادى. وكانت النتيجة فى ذلك اليوم أن عصا سيدنا الشيخ مرسى قد ألهبت جسدى إلهابا. وكنت أتوقع أن يتدخل خال أمى (ابن عم جدتى لأمى) فيشفع لى فلا أُضْرَب، لكنْ طَلَع نَقْبِى على شُونَة، إذ كانت الخيزرانة تنزل على جسمى فأبكى من النار التى تشعلها فيه، وخالى (كما كنا ننادى خال أمى) ولا هو هنا، مع أنه كان معروفا عنه طيبته ولطفه. وربما كان هو الذى ساقنى إلى سيدنا كى يمتحننى، فقد نسيت الآن الظروف التى أوقعت بى فى براثن سيدنا فى ذلك اليوم العصيب بعد أن انصرف الأولاد منذ وقت طويل إلى منازلهم. وكانت هذه أول وآخر مرة يسمّع لى

سيدنا فى هذا الوقت وبهذه الطريقة. ورغم ذلك فحينما عرض الشيخ عيد عطا على جدتى وخالى أن يأخذنى معه إلى طنطا لأتعلم فى المعهد الأحمدى عكفتُ على المصحف أحفظه، فاسترجعتُ ما كان قد تفلت منى فى وقت قياسى، ونجحتُ فى امتحان القبول دون مشاكل على الإطلاق، بل دون أن تخالجنى مشاعر الرهبة أو الخشية من الرسوب، فالحمد لله.

وبعد وفاة والدى كانت كرة القدم وصيد الطيور، وبخاصة الهدهد ذو العرف الملون الجميل وأبو فصادة، الذى لا يكفّ عن ترعيش ذيله، وتطييرُ النموس وطيارات الورق ساعة العصارى على الزراعية تمدنا بزاد عظيم من البهجة. وكانت القرية على فقرها وقَشَف المعيشة فيها أمتع منها الآن، وكانت الحقول والبساتين تحيط بها قريبا من بيتنا بخلاف الوضع الحالىّ، إذ يجب علىَّ الآن أن أمشى مسافة كبيرة داخل الشوارع والحارات الجديدة التى نشأتْ مع توسع العمران بالقرية قبل أن أجد نفسى فى النهاية وسط الحقول حيث أحب دائما أن أكون وأتنزه وأفنى فى الطبيعة وأنا أجوس وحدى بين الغيطان والأشجار والنخيل والجداول والطيور والمزروعات فى سكون وسكينة. ولم تعد فى قريتنا أية حدائق منذ وقت بعيد.

ولا تزال هناك فى خزانة عقلى ذكرى جميلة أرانى فيها، وأنا طفل صغير، فى الحقل مع بعض أقربائنا ضحى يوم صيفى جميل، وقد غمر الماء زراعتهم، ولعلها البرسيم، وقد أخذت الفراشات تطير حولى، والمكان كله خضرة نضرة، وأنا منطلق على حريتى سعيدا هانئا أفيض ابتهاجا، فقد كان أهلى تجارا ليس لهم أرض يزرعونها كأقاربى هؤلاء، فكان الذهاب إلى الحقل والانطلاق بين أحضان الطبيعة شيئًا مذهلا بالنسبة لى. وكثيرا ما ركبت النورج مع بعض أقاربنا هؤلاء حين يأتى الصيف ويدرسون القمح فى الجرن، فيدور النورج بعجلاته الحديدية المسنونة فوق أعواد القمح عدة أيام حتى ينتهوا من "الدِّرَاس" كما يسمونه. وذات مرة كنت راكبا النورج من الخلف واقفا على عارضته السفلية، وأحد الفلاحين من جيران بيت خالى يسوقه ويفرقع بالفرقلة للجاموستين اللتين تشدانه فى شكل دائرى، وإذا بى أفقد توازنى وتسقط قدمى تحت

العجلات، فأخجل من الصياح. ولكن ربنا ستر، وتنبه جارنا الفلاح، فأوقف النورج وأنقذنى. وكانت ساقى تؤلمنى إيلاما شديدا من الجروح التى أصابتنى والتى تفاقمت بفعل اشتداد الحر.

وما زلت حتى الآن أعشق التجول وسط الغيطان بعيدا عن المساكن، ومتى ما زرت القرية، على قلة ما أزورها الآن على عكس ما كنت أفعل قديما، أنتهز أية فرصة لآخذ جولة بين الحقول حيث أرتدّ بسرعة فأصير ذلك الصبى القديم الذى يريد أن يذوب فى عناصر الطبيعة، وأتمنى على الله أن يبعثنى يوم القيامة فى مثل هذه الخضرة وبين هذه الأنهار، وأسمع أصوات هذه الطيور، وتشملنى هذه السكينة العجيبة. وبين الحين والحين أتطلع إلى السماء وأبتهل صمتا أو همسا إلى الله أن يرحمنى ويتجاوز عن عيوبى وأخطائى وتقصيرى. وهنا أرجو ألا يفهم القراء أننى ملاك، فابتهالى لربى فى وسط هذا السكون لا يعنى أبدا أننى رجل تقى نقى، بل يعنى أننى أحبه سبحانه ولا أريده أن يعذبنى. ولا أظن إلا أن كل الناس يكرهون العذاب ويبتهلون إلى ربهم أن يتجاوز عن أخطائهم وخطاياهم. أم هناك من يدعوه عز وجل أن يقذف به فى النار ؟

ومرة من هذه المرات منذ سنوات بعدما كبرت وصرت أستاذا جامعيا كنت أجوس خلال الحقول على شط جدول قريب من القرية فيما وراء المقابر ورأيت هناك رجلا ريفيا طيب القلب دائما ما كنت أداعبه كلما مررت به، وكان مستلقيا تحت شجرة صفصاف، فقلت له بعد أن توقفت عنده وتحادثنا قليلا: يا عمّ سْدَحْمَد، هل يمكنك أن تصف لى الجنة كما تتصورها ؟ فأخذ يشير بيده إلى الحقول والنباتات من حوله قائلا: ستكون مثل ما نراه حولنا الآن: برسيم وبصل وأشجار. وأخذ يعدد ألوان النباتات الموجودة فى الحقول آنذاك. فضحكت مسرورا بالإجابة وقلت فى نفسى: يمينا لتكونن أحسن البشر حظا لو كُتِبَ لك يا إبراهيم أن تنجو من العذاب فيبعثك الله يوم القيامة فى مثل ذلك المكان ببصله وبرسيمه وشجره ومائه وطيره وسكينته وهدوئه ونظافته وشمسه الحنون ونسيمه العليل. وهل أنت طائل؟ المهم ألا يُلْقَى بك فى النار. ثم مضيت وأنا أستعجب من الرد العبقرى الذى سمعته من الشيخ الطيب سائلا المولى أن يجعله من أهل الجنة.

والآن إذا ما نظرت إلى أبرز ما بقى فى ذهنى من أحداث تلك المرحلة، أى المرحلة الإعدادية الأزهرية، فإنى لا أزال أذكر كيف كنت أمشى فى طرقات القرية فى إجازة الصيف التى سبقت انتقالى إلى السنة الرابعة الإعدادية فى معهد طنطا الأحمدى وأنا أقرأ فى كتاب "الحسين أبو الشهداء" للعقاد. ولا أظننى كنت أفهم الكتاب جيدا، لكن المهم أننى كنت حريصا على القراءة فى مثل هذا الكتاب، وكنت حريصا أيضا على ألا تفارقه عيناى حتى أثناء المشى. وكان ذلك فى الإجازة التى تفصل بين السنتين الثالثة والرابعة، إذ كانت المرحلة الإعدادية الأزهرية أوانذك أربع سنوات، بينما الثانوية خمس.

وكانت المرحلة الإعدادية الأزهرية تسمى قبل ذلك: "الابتدائية"، وظلت تحتفظ بهذه التسمية إلى أن انتقلنا إلى السنة الثالثة، فتغيرت تسميتها، ودخلتها اللغات الأجنبية فى نفس التوقيت، فكان من نصيبى دراسة اللغة الفرنسية. لم يخيرونا فى ذلك، بل فرضوه علينا فرضا، إذ جعلوا الفرنسية من نصيب الفصول الأربعة الأولى، والإنجليزية من نصيب الفصول الباقية. ولما كان اسمى "إبراهيم"، أى فى أول فصل، كان لزاما علىَّ أن أدرس الفرنسية. وقد كان. وفى البداية ألفيت الأمر عسيرا بعض الشىء، إذ دخل بنا الأستاذ سريعا على الجمل الكاملة بما فيها من أفعال متصرفة لا ندرى ما علاقتها بمصادرها، وبالذات صيغ الفعلين: "être" و"avoir"، اللذين يبتعدان فى التصريف عن مصدريهما ابتعادا تاما فلا أستطيع الربط بين الأمرين بخلاف ما عليه الوضع فى العربية، فضلا عما لاحظته، فى كل كلمة تقريبا، من وجود حروف لا تنطق، فماذا أصنع فيها؟ صحيح أن الأستاذ قد علمنا بعض القواعد التى تحكم النطق فى الفرنسية، إلا أننا كنا فى البداية كالقطط المغمضة لم نتنبه الانتباه الكافى لما يقول.

بيد أن الله سبحانه وتعالى قد قيض لى أخا لأحد زملائى اسمه كمال الصروى، والعجيب أننى لست متأكدا من اسم زميلى نفسه، ولعله فتحى، وكان أبوهما شيخا أزهريا، وكانت أسرتهما تسكن قريبا من المعهد الدينى بجوار محطة السكة الحديد بطنطا، فأفهمنى أنه ينبغى أن أضع نقطة تحت كل حرف لا يُنْطَق،

وشَرْطَة تحت كل حرفين متجاورين لا يُنْطَقان. كما كنت أضع، فوق الحرف أو الحروف التى يختلف نطقها عن كتابتها، النطق الفعلى لها . وبهذا انحلت أكبر عقدة فى تعلم اللغة الأجنبية حتى إننى كنت الأول فيها دائما، وحصلت فى كل سنة من السنتين اللتين قضيتهما بعد ذلك فى الأزهر على ٣٩ درجة من٤٠. ولا أستطيع فى هذا السياق أن أنسى فضل كمال الصروى، بارك الله فيه. ترى أين هو الآن؟ وأين أخوه؟ لقد طوتهما عنى الحياة مثلما طوتنى عنهما . وكان أستاذ المادة يشجعنى بقوة ويباهى بى، فأعطانى هذا، إلى جانب الثقة التى بثها فىَّ والدى رحمه الله، ثقة جديدة فى نفسى لدرجة أننى فى السنة الرابعة كنت قد أخذت مع زملائى إجازة امتحان آخر العام دون أن ندرس مع أستاذ الفرنسية، وهو أستاذ آخر غير هذا، خمسة دروس كاملة تمثل ثلث المقرر، فلم أجد أية صعوبة فى أن أستذكرها بنفسى دون أية مساعدة من أحد، وحصلت فى الامتحان على شبه الدرجة النهائية مثلما حصلت عليها فى امتحان التجربة الذى أخذناه فى منتصف العام، وكذلك الأمر فى النحو، وربما الصرف أيضا، على عكس الرياضيات، التى حصلت فيها فى هذا الامتحان التجريبى على درجة النجاح الدنيا من مجرد استذكارها سريعا بنفسى قبيل الامتحان، إذ كنت، كما أشرت من قبل، قد أهملتها إهمالا تاما كان من الممكن أن يتسبب فى رسوبى وانقطاعى من ثم عن التعليم. وكنت الطالب الوحيد من قريتى الذى اجتازها فى ذلك الامتحان.

لكن الله سلم، وأفلت العبد لله من الفشل برحمة منه تعالى وفضل، وبالثقة التى بثها فىَّ أبى وبعض أساتذتى، أما البعض الآخر فلا أظننى كنت أُوحِى لهم بأى ذكاء أو تميُّز، كأستاذ الجغرافيا مثلا وأستاذ التاريخ وأستاذ العلوم، وكذلك أستاذ الرياضيات، وكان اسمه عاطف، وكان أحمر الوجه أنمش ألثغ ينطق السين ثاء، وكان ماهرا فى مادته ومتحمسا تحمسا ناريا، بينما أكتفى أنا بالنوم فى حصته، فيتركنى فى حالى وأنا متلفف الرأس فى بطانة الكاكولا شبه الحريرية أستمتع بالدفء والنعاس اللذيذ، وإن ظللت فى ذات الوقت أشعر بتأنيب فى ضميرى جراء شعورى بتخلفى عن زملائى، الذين كنت أسمع من بعيد، وأنا نائم، أصواتهم

يجاوبون أسئلة الأستاذ ويحلون معه المسائل بصوت عال متحمس بل ملتهب تكاد نبراته تحرقنى إحراقا، فأغوص فى النوم أكثر وأكثر بغية الابتعاد عن مشاعر الهم واليأس. أما حين كنت أستيقظ وأحاول تعطيل الحصة كما يفعل التلاميذ الكسالى فى مثل تلك الحالة فقد كان الأستاذ عاطف ينهرنى ويقول لى مقرعا: "اُسْكُتْ يا عَيِّل. أنت لن تفلح أبدا"، فـ"يَسْكُتُ العَيِّل"، وقد ازداد إحساسه بالعجز والهوان. لكن الله الكريم قد سَلَّم مرة أخرى وأنقذ العَيِّل المهمِل الكسلان من عدم الفلاح. الحمد لله! ترى ماذا كان يمكن أن أكون لو كنت قد تركت التعليم؟ إن أهلى تجار، ومن المؤكد أننى كنت سأكون تاجرا مثلهم. بيد أن الرعاية الإلهية كان لها كلام آخر. والطريف أننى لم أحنق على الأستاذ عاطف قط. لكن بالله عليكم أيها القراء لم ينبغى أن أحنق عليه، والخيبة كانت خيبتى أنا، وبُنَيَّةً أيضا؟

وفى السنة النهائية لى بالأزهر كنت أحرر مجلة حائطية، وكنت أستعرض فيها مهاراتى الكتابية البدائية الساذجة ظانا أننى كاتب كبير نحرير. وأذكر مرة أن أستاذ مادة الفقه وقف أمام المجلة وهو يَشْرَئِبُّ حتى يمكنه قراءتها لأنه لم يكن طويلا بما فيه الكفاية، فأخذت أنظر إليه من جُنُبٍ وأنا سعيد لا تسعنى الدنيا من الفرح، لأفاجأ به ينادينى ويعاتبنى قائلا إنه سوف يبلغ الأستاذ صِدِّيق عوض (مدرس النحو، ولا علاقة بين لقبه ولقبى، فهو من قرية أخرى لا علاقة لها بقريتى، ولم تكن لى به أية معرفة سوى أنه كان يدرس لنا النحو والصرف) بأن إبراهيم عوض يرفع اسم "إن" المتأخر. الله أكبر! إذن فأنا لا أزال ولدا صغيرا يقف على الشاطئ ويظن نفسه مع ذلك سباحا كبيرا. ومن يومئذ وأنا أتنبه إلى تلك الغلطة ولا أقع فيها، وأضحك كلما وجدت أحدهم يرتكبها من الصحفيين والكتاب الذين أقرأ لهم، وكثير ما هم، إذ أتذكر عتاب الشيخ لى وما شعرت به ساعتئذ من خزى. أما الآن فلم يعد الطلاب يهتمون بشىء من هذا، بل إن كثيرا منهم حتى فى أقسام اللغة العربية لا يستطيعون كتابة أسمائهم كتابة صحيحة، ودعك من النحو والصرف. وقد قصصت على القراء كثيرا من طرائفهم فى ذلك المجال فى كتاب لى عن د. ثروت عكاشة فى الفصل الخاص بالميجر

طومسون وما قاله عن مواطنيه الفرنسيين، وهى طرائف تبعث على الهم والنكد لتَدَهْدِى حال التعليم على هذا النحو البشع مثل أى شىء فى حياة العرب والمسلمين فى الفترة النَحِسَة الحالية من تاريخهم، الذى لم يعد منذ وقت طويل بالمجيد .

ومع هذا فقد كان بعض زملائى يشجعوننى ويتحدثون عنى بوصفى أديبا . ومن ذلك أننى كنت أسكن فى إحدى حارات شارع الحلو بطنطا فى تلك السنة حيث يسكن الحجرة التى تقع فوق حجرتنا بعض الزملاء الأزاهرة من قرية أخرى، وكان أكبرهم شابا يسبقنى فى الدراسة بعام ويسمى: وحيد، فكان كلما ضمنا مجلس مع بعض من لا يعرفنى من الزملاء أشاد بى ورفعنى إلى السماء، وكأننى أتيت بالذئب من ذيله. ولا ريب أن لوحيد وأمثاله ممن كانوا يتعطفون علىَّ بكلمات الثناء المعطرة دَيْنًا عظيمًا فى رقبتى. ترى أين هم الآن؟ لقد ابتلعتهم زحمة الحياة مثلما ابتلعتنى أنا أيضا، اللهم إلا إذا تصادف أن قرأ أحدهم هذه السطور فتذكر ذلك الصبى البائس الذى كانوا يحنّون عليه بعبارات التشجيع ذات التأثير الساحر. والحمد لله أن لم تفسدنى تلك العبارات ولم تخرجنى عن طورى.

وكنت فى ذلك الحين أحاول تقليد أسلوب كامل الشناوى فى عموده: "ساعات"، الذى كان يكتبه بجريدة "الأخبار" تارة، والعقاد تارة أخرى. أما فى حصص الإنشاء فكنت موفقا إلى حد معقول، لكن كان هناك شاب أكبر منى قليلا اسمه أحمد سنبل يشتغل أبوه مدرسا فى قريتهم: الرجدية على طريق طنطا–المحلة الكبرى، وكان يكتب موضوعات إنشائية قوية يضمنها العبارات المحفوظة بسلاسة عجيبة، وكان يقف بناء على طلب الأستاذ فيقرأ موضوعه قراءة جَهْوَرِيّةً تستولى على لبى رغم أنه كان منافسا لى، وأحسبه كان يحظى من الأستاذ بتقدير أكبر من تقديره لى. وكان معنا فى نفس الفصل تلميذ من قريته يدعى: أحمد مسلّم، يتحمس له ويقلل من شأنى بالقياس إليه، فكنت أسلّم ضمنا بما يقول مع بعض الشعور الطبيعى بالغيظ، إذ لم تكن موضوعاتى سوى اجتهادات خالصة من قِبَلى لا أضمّنها شيئًا من تلك العبارات المحفوظة فتبدو باهتة

بعض الشيء. والعجيب أننى سألت بعد زمن طويل عن الزميل صاحب الموضوعات الإنشائية البارعة فقيل لى إنه اختصر الطريق ودخل مدرسة المعلمين فيما أظن، مكتفيا بشهادتها المتوسطة. غريبة!

أما كيف كنت أحصل على ما أريد قراءته من الكتب، فأقول لك، أيها القارئ، إننى كنت أقرأ ما يحضره زملائى معهم من كتب يخرجونها لمطالعتها فى الحصص الفاضية كما صورتُ ذلك فيما مضى من هذه الصفحات. كما كنت أشترى بعض ما أحتاجه من مكتبة صغيرة للكتب القديمة بشارع القاضى يملكها شاب اسمه مصطفى فافا (مع ملاحظة نطق الفاء الثانية مثل حرف الـ"V". لماذا؟ لا أدرى؟ وما معناها؟ لا أدرى أيضا والله! وبالمصادفة البحتة احتجت أن أرجع إلى كتاب فوزى العنتيل عن "التربية عند العرب" لوضع كتاب عن أدب الأطفال كلفنى به قسم اللغة العربية التى أعمل به، فبحثت عنه فى مكتبتى الخاصة لأفاجأ بنسخة من الكتاب فيها، وحين فتحتها وجدت خاتم مكتبة "فافا" على صفحة الغلاف الداخلية كالآتى: مكتبة فافا – توكيل دار لمعارف– طنطا شارع القاضى ت ٣٥٢٧"، فشعرت بنشوة كبيرة). فكنا نبدل الكتب التى قرأناها ونأخذ مكانها كتبا أخرى لقاء نصف قرش. وكان ذلك الشاب رقيقا معنا يعاملنا بلطف. ثم رأيته بعد سنوات طويلة فى مكتبة بنفس الشارع بعد مكتبته الأولى بعدة دكاكين قريبا من ميدان الساعة، لكنها مكتبة فخمة تحتوى على الكتب الجديدة المجلدة تجليدا فاخرا، وقد أطلق لحيته فى أناقة ولبس نظارة طبية ظريفة، ومعه زوجته المحجبة. باسم الله، ماشاء الله! وقد فكرت مرارا أن أحمل إليه بعض كتبى على سبيل الهدية اعترافا منى بجميله الكبير علىَّ وعلى أمثالى ممن كانوا يترددون على دكانته الصغيرة ويستبدلون بما قرأوه من كتب كتبا أخرى لم يقرأوها. وربما فعلتُها عما قريب (كنت فى طنطا منذ سنة ونصف، فسألت عنه ابن أخيه فى دكان قريب من دكانته الأولى، فأخبرنى أنه قد انتقل إلى رحمة الله، فملأنى الأسف). والغريب أن إمكاناتى المالية فى ذلك الحين كانت جدَّ شحيحةٍ. لكن ماذا تقول فى الغرام بالقراءة والرغبة المجنونة فى أن أدخل الكلية التى تخرّج الأدباء كما كنت أعتقد فى سذاجة آنئذ؟ وهأنذا قد

تخرجت من الكلية التى تخرج الأدباء، لكن دون أن أصير أديبا أو ناقدا أو أى شىء، ودون أن يحتفل المجتمع بنا، فنحن لا نقدم له طعاما ولا شرابا ولا ملابس، فلم بالله عليك ينبغى أن يهتم بنا أحد فى مجتمعاتنا العربية التى لم تعد منذ وقت طويل تفكر إلا فى الطعام والشراب والتناسل؟

لقد كان طعامنا جَشِبًا فى ذلك الوقت لا يكاد يخرج عن الفول والفلافل والجبن القريش الذى كانت جدتى ترسله لى يوم الجمعة فى السلالى مع عربة الأجرة التى كنا ننتظرها بفارغ الصبر، مع قطعة من اللحم وبعض البيض المسلوق والقُرَص والخبز الفلاحى ("العيش المُرَقْرَق" حسب تسمية أهل قريتى له، أو "العيش البَطّ"، بمعنى "المبطوط"، طبقا لما صار بعضهم على الأقل يطلق عليه)، ذلك الخبز الذى لم نكن مغرمين به آنذاك، والآن أشتريه "بشىءٍ وشُوَيّات" بعدما اختنقنا من خبز الأفران السيء فى القاهرة. فكان السائق يسلم كلا منا السَّلاّلى الخاص به ومعه بعض القروش، فنعود إلى المسكن ونحن متأبطون سلالياتنا، والخجل يسربلنا من منظرنا الغريب الذى ينم على أصلنا الريفى الكئيب. أقول ذلك لكى يعرف التلاميذ والطلاب فى هذا الجيل أن القراءة لا تتوقف على اليسر المادى، وإلا لَكُنَّا أبغض الناس لها ولَكُنَّا أجهل الجهلاء لما كنا نعانيه من فقرٍ ذَكَرٍ. لقد كنا نوفر بعض القروش الشحيحة التى كان أهلونا يرسلونها إلينا، لنشترى بها الكتب، تلك التى كانت تفتح لنا فى جدار حياتنا الصُّلْب الغليظ القاسى نافذة نطل منها على عالم الفكر والأدب، فنشعر أننا بشر راقون رغم كل ألوان الفقر والبؤس التى كانت تسود حياتنا. ولم نكن نشكو قط جشوبة طعامنا ولا قلته. بل كنا نوفر من تلك القروش الزهيدة ما ندخل به السينما أيضا. يا ألله! ترى كيف استطعنا تحمل تلك الحياة؟ وكيف لم نسقط إعياء ويأسا وعجزا؟ ليس هناك من جواب سوى أنها العناية الكبرى! لقد شاءت، فكان ما شاءت.

وهنا أخرج قليلا عن السياق لأقول إننى قد كتبت أولا فى الفقرة السابقة أننا "لم نكن نشكو جَشَبَ طعامنا"، ثم مضيت فى الكتابة لا ألوى على شىء. بيد أننى قد حاك فى نفسى شىء من صيغة المصدر

هذه رغم أنها تجرى على القياس، إذ الفعل حسبما أعرف هو "جَشِبَ يجشَب"، وهو فعل لازم، ومن ثم يقتضى القياس أن يكون مصدره: "جَشَبٌ" . لكنى بعد قليل عدت فتساءلت: ألا يمكن أن تكون تلك الصيغة غير موجودة فى المعجم؟ ومع أننى أرى وجوب الجرى مع القياس إلى حد بعيد بناء على أن الواحد منا، بالغة ما بلغت إحاطته باللغة، ليس كاتوبا يحتوى على كل شىء أو يتذكر كل شىء فى المعاجم، فقد آثرت هذه المرة الرجوع إلى القواميس، وهى قريبة منى لا تحوجنى إلى أكثر من ضغطة على فأرة الكتابة، إذ هى مشحونة فى الجهاز أمامى، لأفاجأ أن الصيغة هى "جُشُوبَة" (رغم أن صيغة "فعولة"، و"فَعَالَة" أيضا، هى المصدر القياسى من الأفعال التى على وزن "فَعُلَ يَفْعُلُ" لا التى على وزن "فَعِلَ يَفْعَلُ" كما هو الوضع مع الفعل الحالى)، وأن من الممكن أيضا أن نقول: "جَشَبَ الطعامُ يَجْشُبُ" (من باب "نَصَرَ"). فغيرتُها من "جَشَبٌ" إلى "جشوبة" لا لشىء إلا لكى أَسْلَم من الاتهام بالجهل. وكله إلا هذا الاتهام!

صحيح أنى كثيرا ما أقف أمام طلابى مقرا بجهلى الشديد، لكن إقرارك بعيبك شىء، ورضاك بسماع هذا العيب ذاته على لسان غيرك شىء آخر. وبالمناسبة فقد عرفت أن صفة الطعام فى تلك الحالة ليست "جَشِبٌ" فحسب، بل هى أيضا "جَشْبٌ" و"جَشِيبٌ" و"مجشوبٌ" و"مِجْشَابٌ". الله أكبر! والآن لماذا خرجت عن السياق واستطردت كل هذا الاستطراد؟ لقد فعلت ذلك لأبين للقارئ أننا كلنا أمام العلم صغار، فلا ينبغى أبدا أن نستنكف من الرجوع إلى الكتب والمعاجم أو استشارة الآخرين، لأن ما نعرفه بجانب ما نجهله هو نقطة فى محيط.

وبالمناسبة أيضا كنت قد استخدمت أمس فى حضور زميل لى أعمل معه فى أحد المشاريع الثقافية، وهو د. عبد العزيز نبوى الأستاذ بتربية عين شمس، كلمة "تَوَفَّرَ" بمعنى "تجمَّع وكَثُرَ"، فقال لى إن الصواب هو "تَوَافَرَ"، أما "تَوَفَّرَ على كذا" فمعناه اتجه بهمته إليه وانكب عليه. فأجبته أننى أتصور الاستعمالين صحيحين، لكنه أصر على ما يقول. وكان معنا "المعجم الوسيط" فوجدته يقول ما قاله الزميل الفاضل، وإن

كان قد ذكر صيغة "وَفَّر" بمعنى"كَثَّر"، وهو ما يجعل استعمال "تَوَفَّرَ" بالمعنى الذى استخدمتها له صحيحا على سبيل المطاوعة قياسا، فسكتُّ ما دام المعجم لا يفكر بطريقتى.

ثم لما عدت إلى البيت وجدت "تاج العروس" يقول: "والوافِرُ: البحرُ الرابع من بحور العَرُوضِ. وَزْنُه "مُفاعَلَتُنْ" ستّ مرّات. كذا! وفي اللسان: "مُفاعلتنْ مفاعلتن فعولنْ" مرّتين، أو "مفاعلتن مفاعلتن" مرّتين. سُمِّي هذا الشَّطرُ: "وافِرًا" لأن أجزاءَه مُوَفَّرة له وُفورَ أجزاءِ "الكامل"، غير أنه حُذِف من حروفه فلم يَكْمُل. والمَوْفور والمُوَفَّر منه، كمُعَظَّم: كلُّ جُزْءٍ يجوز فيه الزِّحافُ فيَسْلم منه. قال ابنُ سِيدَه: هذا قولِ أبي إسحاق. قال: وقال مَرّةً: "المَوْفُور: ما جازَ أن يُخْرَمَ فلم يُخْرَم، وهو فَعُولُنْ ومَفاعيلنْ ومُفَاعَلَتُن"، وإن كان فيها زِحافٌ غير الخَرْمِ، فلم تَخْلُ من أن تكون موفورةً. قال: وإنّما سُمِّيت موفورةً لأنّ أَوْتَادَها تَوفَّرت. منَ المَجاز: تَوَفَّرَ عليه، إذا رَعَى حرماته وبَرَّه..." . ومن هذا النص نرى أن هناك "توفر" بالمعنى الذى استعملتها له، وأن "توفر على" هو استخدام مجازى لا حقيقى.

ثم لم أكتف بهذا، بل بحثت فى كتب "الموسوعة الشعرية" الإماراتية وشعرها، فألفيت الإمام الشوكانى يستعملها بهذا المعنى ذاته فى بيت شعر له، فضلا عن بعض الشعراء المحدثين الآخرين، كما ألفيت عددا من كبار الكتاب فى العصور الأولى يصنعون صنيعى كالتوحيدى ولسان الدين بن الخطيب وياقوت الحموى وصلاح الدين الصفدى والحريرى وأبى هلال العسكرى وغيرهم ممن لا أذكر أسماءهم الآن. جاء فى "جمهرة الأمثال" للعسكرى مثلا فى شرح المثل القائل: "مات عريض البِطَان": "خرج من الدنيا سليما لم يثلم دينه. وقيل: معناه أنه خرج منها وماله متوفر كثير، ولم يُرْزَأ منه شيئًا" . وفى "خزانة الأدب" للبغدادى: "أنه لا يتصور في الفعل المرفوع أن يكون بدلاً من فعل مرفوع، وذلك لأن سبب الإعراب متوفر فيه مع قطع النظر عن التبعية، وهو تجرده عن الناصب والجازم، فرفعه لتجرده لا لكونه تابعا لغيره" . ومع هذا كله فإنى لا أفكر فى مجادلة

صديقى فيما قاله. لماذا؟ لا أدرى. وهل يعيبنى أن أكون أنا المخطئ؟ أبدا. أما هو فما قاله صحيح، إلا أن وجه الخلاف هو إنكاره صحة ما قلت، وهو ما أرى أنه صحيح أيضا.

كما لاحظت فى يوم آخر، وأنا أراجع تجربة طباعية لأحد الكتب، أن مَنْ كَتَبَ الجزء الذى أراجعه من الكتاب قد ضبط عين كلمة "عقد" (بمعنى مجموع السنوات العشر) بالفتح، وكنت أظنها بالكسر تصورا منى أننى قد راجعتها فى المعاجم فألفيتها مكسورة. ومن ثم سارعت دون تفكير إلى تصحيح الفتحة إلى كسرة عدة مرات، ثم بدا لى أن أفتح المعجم لأرى ضبط الكلمة كرة أخرى لأن الزميل الذى ضبطها بالفتح مدقق، وغالبا ما يستشير المعاجم، فوجدتها بالفتح، فعدت إلى معاجم أخرى قديمة وحديثة فوجدتها بالفتح أيضا. وهنا حاولت أن أعرف السبب فى أننى كنت مُصِرًّا على كسرها رغم ذلك، فخطر لى أنْ ربما قِسْتُها على "العِقْد" الذى يُلْبَس فى الرقبة. لكن هل هذا يكفى بالنسبة لى أنا الذى أحب التحقق من كل شىء بنفسى؟ هذا من أعجب العجب!

وكنا أحيانا ما نذهب فى السنة الرابعة الإعدادية إلى مكتبة البلدية فى دارةٍ جميلةٍ (بمقياس ذوقنا فى ذلك الزمان طبعا) فى آخر شارع النحاس قبالة السجن العمومى، فنقرأ بعض ما يتيسر لنا من كتب مثل روايات المنفلوطى المترجمة، أو بالأحرى: التى يُظَنّ أنها مترجمة. وسمعت فى ذلك الحين بمصطفى صادق الرافعى ابن طنطا، وإن لم أذكر أننى قرأت له أوانذاك شيئا. كما سمعت من زميل لى بـ"الدكاترة" زكى مبارك، ولا أظن أننى قرأت له هو أيضا فى ذلك الحين أى شىء مما كتب. ومع هذا فتأبى الظروف إلا أن تتم قراءتى لأول كتاب أطالعه للدكتور زكى مبارك فى شارع النحاس هذا، إذ كنت قد انتهيت من امتحان الثانوية العامة، وكنت أنزل عند زميل لى هو المرحوم أحمد الزاهد قريبا من النهاية الأخرى من الشارع من جهة شارع البحر، وتحديدا عند تقاطع النحاس مع شارع الشيخة صباح، وكأنى واحد من الأسرة بسرير خاص بى بناء على إلحاح والدته السيدة الطيبة الكريمة النبيلة ذات القلب الكبير التى كانت تفتح بيتها لأصدقاء أولادها يأكلون

ويشربون حتى لقد عددتُ أكواب الشاى التى قدمت لنا ذات مرة بعد انتهائنا من الغداء فألفيتها تقترب من العشرين كوبا، طيب الله ثراها وأسكنها أعلى فراديس الجنة، ووقع فى يدى كتاب "العشاق الثلاثة"، فقرأته وأنا فى حال رومانسية عجيبة، وطرت إلى السماوات العلا مع صاحبه فى حديثه عن جميل بثينة وكُثَيِّر عزة، ثم بالذات عن العباس بن الأحنف، الذى أعجبت به وبشعره إعجابا هائلا، وكذلك باسم صاحبته "فوز"، التى كانت ولا تزال فى حدود علمى هى الفتاة الوحيدة المسماة بهذا الاسم البديع. وقد كانت أيضا أول مرة أعرف أن المصدر من "فَتَنَ" يمكن أن يكون "فُتُون" حسب استعمال زكى مبارك، الذى كان يستكثر من استخدام تلك الصيغة بدلا من "فتنة"، وهو ما أخذته عنه وأكثرت منه استحسانا للصيغة الجديدة وحبا فى زكى مبارك رحمه الله. كما تنبهت فى ذلك الوقت إلى إكثاره أيضا من عبارة "وبعد"، "أما بعد"، "وبعد فأما بعد"، "وبعد فماذا أريد أن أقول؟"، وهو ما توقفت أمامه بعض الشىء عند دراستى له.

ومنذ ذلك اليوم دخل زكى مبارك عقلى وذوقى، ولم يخرج قط. بل لقد وضعت عنه كتابا كبيرا فى نحو ثلاثمائة صفحة وخمسين درست فيه أسلوبه، أسلوبه فقط دون أى شىء آخر. واهتبلت تلك الفرصة فدفعت عنه ما اتهمه به طه حسين من تهم سخيفة. وخرج الكتاب من قلبى كأنه طلقة الرصاص. ترى أكان يدور فى خيالى أثناء قراءتى أول كتاب من كتبه أننى سوف أكتب يوما عنه رحمه الله؟ والغريب أننى لم أؤلف أى كتاب عن العقاد مثلا رغم أن العقاد هو كاتبى الأثير، بل هو عندى عملاق الشعر والنقد والأدب والفكر الذى لا يمكن أن يضارعه مضارع، وإن كنت قد حللت له ثلاث قصائد كاملات فى كتابى: "فى الشعر العربى الحديث- تحليل وتذوق"، كما تحدثت فى فصلين كاملين عن منحاه النقدى فى كتابىَّ الآخرين: "نقد القصة فى مصر" و"مناهج النقد العربى الحديث"، فضلا عما كتبته عنه من فقرات هنا وهناك فى كتبى الأخرى.

أما المنفلوطى فقد دارت الأيام وعدت إلى روايته: "ماجدولين" منذ عدة أعوام، ووضعت عنها دراسة أقارن فيها بين الأصل الفرنسى والنسخة المنفلوطية بينت خلالها ما عثرت عليه فى صنيع المنفلوطى من تقديم فى الأحداث وتأخير وتبديل وحذف وإضافة، علاوة على النفحة العربية الإسلامية التى أضفاها على الرواية فى بعض المواقف. وأشركت معى عند ذاك سلوى الصغيرة، أقصد التى كانت صغيرة فى ذلك الحين، لأنها الآن طالبة فى كلية الهندسة على سن ورمح، فقرأتها معى وأبدت رأيها فيها، وشرحت لها أنا ذكرياتى مع الرواية حين كنت طالبا فى آخر المرحلة الإعدادية.

وهناك مصدر آخر أمدنى بعدد من الكتب الجميلة فى الإجازة التى كانت تفصل بين أزهريتى ومدرسيتى، أى بعد الانتهاء من المرحلة الإعدادية، وهو الزميل إبراهيم ربيع، الذى كان طالبا بمدرسة التجارة الثانوية، وكان من طلاب قريتى الذين يقرأون، فكنت أذهب إلى بيته فى عز الظهر و"العفاريت مُقَيِّلة" بتعبير أهل القرية عندنا، وأقف خلف العضادة اليمنى من الباب وأناديه فيخرج لى فأطلب منه كتابا فيعطينيه عن طيب خاطر رغم أنه لم يسبق أن كانت بيننا صداقة من قبل. بل إن الذكريات البعيدة كانت كفيلة أن تباعد بينى وبينه لأنه كانت هناك فى بداية الخمسينات من القرن الماضى بركة كبيرة فى المنطقة التى يقوم فيها بيتهم غويطة جدا لدرجة أنه قد غرق فيها ولد أو أكثر ونحن أطفال، وكنت أذهب لأصطاد منها، فكان يخرج ويخطف منا السنانير ويجرى بها إلى بيته مفسدا علينا متعتنا. إننى أضحك الآن وأنا أتخيل ما كان يحدث حينذاك، وكيف انقلبت الأمور فصار الولد المشاغب صديقا أوشبه صديق لى يعيرنى الكتب.

ومنذ بضعة عشر عاما فكرت أن أهديه بعض كتبى اعترافا بالجميل العظيم الذى طوق به عنقى، فسألت عنه أحد إخوته، وهو يسكن قريبا من بيتنا القديم، فإذا به يباغتنى بأنه قد مات منذ فترة، فبُهِتُّ. رحمه الله رحمة واسعة وأدخله الجنة. لقد كان لطيفا فى ذلك الحين أشد اللطف وأَرَقَّه إن جاز أن تجتمع الشدة والرقة فى شىء، وهما هنا تجتمعان بمشيئة الله، التى لا تقف فى وجهها مشيئة. ومن الكتب التى

أذكر أنى استعرتها منه "أمسيات قرب قرية ديكانكا" للقصاص الروسى نيقولاى جوجول، و"عودة ابن البلدة" لتوماس هاردى، وهو الكتاب الذى لم تتسع الإجازة لقراءة الجزء الثانى منه فقرأته فى السنة الدراسية التى تلت تلك الإجازة بمكتبة المدرسية الأحمدية الثانوية التى التحقت بها بعد تركى المعهد الدينى. وما زلت أذكر وصف هاردى لسقوط بطل الرواية فى النهر ومصارعته أمواجه فى آخر الكتاب، وإن كنت لا أذكر الظروف التى حدث فيها ذلك.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن أول كتاب طويل أقرؤه كان رواية "غادة كربلاء" لجرجى زيدان، الذى صادفته فى صندوق مهمل على سطح بيت صديق الصبا والأزهر محمود نحلة، الذى أصبح أستاذا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية والذى قرأت معه بعد ذلك بصوت عال بعض الكتب فى دَوّاسَة مئذنة الجامع الكبير بوسط القرية أثناء القيلولة، وعَرْف شجرة ذقن الباشا يهب علينا فينعش حياتنا القَشِفة، فكأننا فى الجنة يلاطف وجوهنا النسيم الحنون المضمخ بالعطر. و"الدواسة" هى الشرفة التى تدور بالمئذنة قرب نهايتها العليا المدببة والتى يطوف عليها المؤذن وهو ينادى الناس للصلاة. كما كنا نذهب إلى حديقة أحد أقارب والدته قريبا من الوحدة المجمعة من ناحية الطريق المفضى إلى عزبة الزواوى حيث نقضى الظهرية نقرأ أو نتناقش، مع الاستمتاع بالورد البلدى من أحمر وأبيض، وما أدراك ما الورد البلدى؟ ونتناول ما نجده هناك مما تخرجه الحقول فى موسم الصيف، كل ذلك دون أن ندفع مليما واحدا لقاء ذلك.

وممن قرأنا لهم فى تلك الفترة حسين عفيف. قرأنا له أنا ومحمود نحلة كتاب "الزنبقة"، وكنا نتبادل قراءته بصوت عال فى الدواسة المذكورة. ولمن لا يعرف حسين عفيف ولم يسمع به من قبل أسوق إليه المقالة التالية لفاروق شوشة، التى كتبها قبل أحد عشر عاما فى الذكرى المئوية لميلاد الكاتب الرقيق، والتى يجدها القارئ فى عدد الخامس عشر من سبتمبر ٢٠٠٢ من جريدة "الأهرام" المصرية تحت عنوان " حسين

عفيف في الذكري المئوية لميلاده" . وهذه هى المقالة كاملة لأهميتها فى التعريف بذلك الكاتب الحالم شبه المجهول لدى الأجيال الحالية:

"مازلت أذكر اليوم والرجل واللقاء كأنه حدث بالأمس القريب، بالرغم من مرور واحد وأربعين عاما عليه. كان ذلك في أحد أيام شهر سبتمبر عام١٩٦١ حين دخل عليَّ، في مكتبي بإذاعة البرنامج الثاني (البرنامج الثقافي الآن) في شارع علوي المجاور لشارع الشريفين حيث مبنى الإذاعة الرئيسي في قلب القاهرة، دخل علي رجل وضيء السمت والمحيا، نحيل كأشد ما يكون النحول، لكنه النحول الذي يصيب العشاق المستهامين، خفيض الصوت والنبرة، يخطو في حياء جم، ويتحدث في ألفة ممزوجة بالتواضع، وفي يده ديوانه "الأرغن"، الذي صدر له منذ شهور قليلة عن دار المعارف. وعرفني بنفسه، وتواضعه الجم لايفارقه: حسين عفيف الشاعر ومدير التفتيش القضائي بوزارة العدل. كان يبدو من سمته أنه يخطو إلي الستين وأنه من النوع الكتوم الذي يقتصد في البوح، فهو لا يتكلم كثيرا ولا يثرثر. وبدأت أتصفح ديوانه وهو جالس أمامي يرقبني في صمت متأمل. كنت قد قرأت له علي صفحات "الأهرام" عددا من مقطوعاته النثرية المتوهجة بالشاعرية والإيقاع الداخلي والغني الروحي والتأمل الشفيف. وقرأت له قبلها روايته: "زينات"، التي تكشف صفحاتها عن صدمته في تجارب شبابه الأولي، وكأنها تضم أصداء وظلالا وأطيافا لهذا الحب الأول وهذه الشحنة العاطفية المبكرة التي أوصلته إلي نهاية حزينة جعلته يكتفي، طوال حياته، بالغناء للمرأة والعزف علي أوتار الحب دون أن يقترب منها اقترابا حقيقيا يجعل منه زوجا وأبا، فظل عزبا حتي رحيله.

وانتهيت من تصفح "الأرغن" لأستأذنه في عرض الديوان ومناقشته من خلال برنامج "مع النقاد"، الذي أُسْنِد إليَّ أمر تقديمه بعد انتقال صاحبته الإعلامية الكبيرة الأستاذة سميرة الكيلاني من الإذاعة للعمل بالتليفزيون ضمن الكوكبة الأولي من الرواد الذين تم علي أيديهم وضع اللبنات الأولي في العمل التليفزيوني: سعد لبيب وصلاح زكي وعباس أحمد، ثم لحقت بهم همت مصطفي وآخرون. لم يتحمس حسين عفيف كثيرا لهذا

العرض. ويبدو أنه كان حريصا علي إهدائي ديوانه لتقديم مختارات منه في برنامج "شاعر وديوان"، الذي كنت أقدم من خلاله مختارات من روائع الشعر العربي: قديمه وحديثه، وكان بمثابة النافذة الأولى للدواوين الأولى في حركة الشعر الجديد أو الشعر الحر، الذي كان يذاع من إذاعة البرنامج الثاني لأول مرة في الوقت الذي كانت لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للفنون والآداب، ومقررها الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، تنظر إليه باعتباره نثرا، وتحيله إلى لجنة النثر بالمجلس. لكنني اكتشفت، بعد ذلك، أن عدم حماسه لمناقشة الديوان كان بسبب عزلته وانطوائيته وحرصه علي عدم المشاركة في أية حوارات أو مناقشات. ومشاركته في البرنامج سوف تتطلب بالتأكيد حديثا عن النفس وقراءة لبعض المختارات وإسهاما في الحوار وتعقيبا علي الآراء التي يبديها النقاد، الأمر الذي جعله يتمسك بموقف الاعتذار. لكنه لان آخر الأمر حين ذكرت له أني أفكر في أن يكون الناقدان اللذان سيناقشانه هما الدكتور محمد مندور والدكتور محمد غنيمي هلال، ويبدو أنه كان يكن لهما احتراما وتقديرا كبيرين.

كان تسجيل البرنامج بعد هذا اللقاء بأسبوعين، وفاجأني الناقدان باتفاقهما علي العديد من المحاور الرئيسية أبرزها التأثر الواضح في ديوان "الأرغن" بشاعر الهند والإنسانية طاغور: في قالب شعره وموضوعات تجاربه وصوره، وفي تطور حياته العاطفية، فضلا عن روح التأمل الشفيف ومحاولة النفاذ إلي الأسرار الأولي للحياة والكون والتوحد مع الطبيعة إحساسا ونبضا وعاطفة. وهو الأمر الذي حدا بالدكتور محمد غنيمي هلال إلي كتابة دراسية نقدية تحليلية للديوان نشرها بعد إذاعة البرنامج يوضح فيها كثيرا من النقاط التي أثارها الحوار. ويعد الديوان فتحا جديدا في الأدب العربي، إذ هو ضرب من الشعر العربي الحر غير المقيد بقافية أو وزن في معناها التقليدي سبق فيه الشاعر إلى نوع من التجديد في الشعر قد يكون النقد العربي بَعْدُ غير مهيأ لاستقباله، خاصة والمعركة بين ما سَمَّوْه: الشعر الجديد والقديم لمّا تخفّ حدتها بين فريقي النقد المتصارعين. ثم يقول في دراسته التي يتضمنها كتابه: "دراسات ونماذج– في مذاهب الشعر ونقده"

الصادر عن نهضة مصر: ولعل الأستاذ حسين عفيف قد استجاب في ديوانه لروح الشعر كما نفهمه في العصر الحديث، ألا وهو التصوير للمشاعر، أي إيرادها في صور تبعد بها عن التجريد من ناحية، وعن السرور والتعبير من ناحية أخري. ولا قيمة للموسيقي في هذا المفهوم إلا بمقدار ما تشد من أزر هذه الصور وتضيف إلي إيحاءاتها . وبهذا نفرق بين النظم والشعر. فإذا توافرت موسيقي الكلام وخلا من التصوير فإنه يكون نظما لا شعرا في حين لو توافرت روح التصوير للنثر وخلا من الموسيقى التقليدية فإنه يكون قد توافرت له روح الشعر.

ويلاحظ الدكتور هلال في ذكاء تأمل ونفاذ بصيرة ودقة حس ووعي أن حسين عفيف، في ديوانه، يري ما يراه طاغور من أن عبادة الجمال من عبادة الله، وأن الكون يعاني الألم لانفصاله عن الروح السرمد حتى يعود إليه بالموت. ولهذا كان الألم طابع الوجود: "لا أغنية جميلة لا يشيع منها الأسى

الذي ينبع في نفوسنا من عين مجهولة. لا زهرة لا يقطر منها الندى

ولا سرور لا يعبر عن نفسه بدمعة يذرفها في صمت. لا شيء أبدا لا يدين للألم. الوجود نفسه كان ألما كبيرا منذ انفصل عن الروح الشريد"

ولا يفوت غنيمي هلال، كما لم يفت الناقد الكبير الدكتور محمد مندور، في مناقشته لشعر حسين عفيف، وجود نزعة أبيقورية نهمة تتوقف عند تفاصيل الجسد في نشوة حسية عارمة تجاور نزعته الصوفية المتأملة والمتطهرة التي تسود معظم قصائده. لكن حيرة الشاعر الكبرى أمام مصير الإنسان والحياة والكون ترتطم بافتتانه بالجمال البشري في تجلياته المحسومة، وكأنه يعيش صراعا بين المطلق والنسبي، الخالد والفاني، الباقي والزائل. وهو أمر يختلف فيه حسين عفيف عن طاغور ويبتعد عن عالمه ابتعادا كليا .

وعندما يقترب غنيمي هلال، علي سبيل المثال، من بعض مقطوعات حسين عفيف في ديوانه: "الأرغن" فإنه يرى في قصيدته الثانية والخمسين انعطافا إلى عالم طاغور، وحبيبته تسأله: أذاكري أنت إذا

حان الفراق؟ فيجيبها حسين عفيف بقوله: سأذكرك كلما غرد طائر فأبلغني منك رسالة، وسأقطف الأزهار في الصباح وأضعها في الجدول ليحملها إليك، وأضمخ بالعطر النسيم الساري ليملأ به جوك. ارقبيني في كل شيء وانظريني في كل شيء. وإذا ما رأيت كوكبا يتهادى فاعلمي أني خررت صريع هواك، ولا ترقبيني بعد ذلك!

فهو يرى أن مثل هذا الشعر المنثور يحمل أصداء من القصيدة الأربعين لطاغور في ديوانه: "البستاني."، لكنها أصداء بعيدة لا ترتفع إلي مستوي دقة موقف طاغور وشموليته وروعة تصويره لهذا الموقف وهو يقول: احتفظي بهذا الوهم لحظة، ولا تنبذيه في سرعة القسوة حين أقول: سأهجرك أبدا، فخذي قولي على أنه الحق ليغشاك هنيهةً ضباب يهيم علي الأهداب السوداء من ناظريك، ثم ابتسمي في مكر ما بدا لك حين أعود من جديد!

أروع ما في حسين عفيفي أنه لم يضع كلمة "شعر" على دواوينه هذه بدءا بديوان "الأرغن" فديوان "الغدير" فديوان "الغسق" فديوان "حديقة الورد" فديوانه الأخير:"عصفورة الكناريا"، وترك لقرائه، وللنقاد من بعدهم، أن يطلقوا علي هذه الكتابات ما يشاؤون من تسميات. أما هو نفسه فيفاجئنا علي غلاف ديوانه: "الغسق" بقوله: "مقطوعات من الشعر المنثور، تعصر لب الحياة في كأس تحوي قيمتها الأصلية مصفاة مما يشوبها، تغني منها القطرة عن البحر. هدفها إيقاظ القلب باللفظ المشع والايحاء الهامس ليبصر الحقائق بنفسه من خلال إشراقاته ويكتشف طريقه الذي يضله مغمضا. فالقلب يبصر ما لا تراه العين، ويلهم كالطير اتجاه الريح، وهو أبعد إدراكا من العقل وأصوب".

ويقول عن ديوانه: "عصفورة الكناريا": "ما هو بشعر ولا هو بنثر. لا يصارح بل يوحي لتفهم وحدك، وفي إيجازه يكاد يطوي العوالم طيا. فكم ضاق بالشرح صدر، وضاع في التيه هدف". إنه إذن كما يقول في ختام ديوانه: "حديقة الورد": "شعر منثور يجري وفق قوالبَ عفويةٍ يصبها ويستنفدها أولا بأول. لا يتوخى

موسيقى الوزن، ولكنه يستمد نغمه من ذات نفسه. لا يشرح، ومع ذلك يوحي عبر إيجازه بمعانٍ لم يقلها. ليس كشعر القصيد ولا كنثر المقال، ولكنه أسلوب ثالث. ومعاناته في أنه يأبى إلا أن ينضبط دون الاستعانة بضوابط".

أفضل تعريف لهذا اللون من الكتابة الشعرية أن نقرأه في ذاته دون أن نقع في ولع التصنيف والسبق النقدي المتقافز. هذا لون من الكتابة الأدبية سماه صاحبه بـ"الشعر المنثور"، لا علاقة له بما يسمى الآن بـ"قصيدة النثر"، كما أنه لا علاقة لقصيدة النثر بكتابات سابقة في تاريخ إبداعنا العربي. والذين يحاولون اصطياد مشابهات أو مقاربات بين قصيدة النثر ونماذج عربية سابقة عليهم أن يكفوا عن هذا التحايل لإضفاء شرعية ليست مطلوبة ولا تضيف شيئًا. والأجدى أن يقال إن قصيدة النثر لدينا هي امتداد لقصيدة النثر في الكتابات الأوروبية، وصدى للترجمات التي شاعت لها في العربية، وبخاصة للشاعر سان جون بيرس.

أما حسين عفيف فهو خارج هذا السياق كله، ولا علاقة له من قريب أو بعيد بقصيدة النثر، وليس رائدا لها كما يزعم البعض. ولنتأمل ما يقول: "انتابت فؤادي رعشة مقدسة حين حمل إليَّ الفجر باكورة مقدمك، ورأيتك تخرجين إلى الوجود من أكمامك في زمرة العذارى اللاتي زفهن إليه هذا الصباح. ولقد راعني منك أنك زهرة موفورة الحسن، عذراء قد حسرت أكمامك للتو، فبدت مأخوذة بسحر الضياء، وأقبلت تنهل منه وهي مبهورة، فهبطت إليك من غصني واجفا، وحييتك بأنشودة عذبة من نغمي المبحوح، تقبلتِها في خفر وأومأتِ إليَّ باسمة. ورددتها لي بكأس من نداك رشفتُ فيها أنفاسك العطرة، ثم طرت أنا البلبل إلى غصني المياد أحمل بقلبي عبير الحب، وأنشره في البكور أهازيج.

إذا ما انقشع الظلام يا زنبقتي، وتثاءب عنك الفجر بيضاء فارعة بين أترابك، فانتظري بلبلك. لقد بات ليله ساهرا يصوغ لك الأغاني، ويرقب الصبح علي الضنى ليلقيها على سمعك. وإنه لمن وحي سحرك ما نضده، ومن وجده المبرح ما أترعها بالشجى. لم لا يغني على هواه وقد سلبه الحب وقاره؟ ألم تشبه فتنة

منك طاغية أردته سكران؟ أنا آتٍ أغرد مع الفجر، فانتظري مقدمي. ولسوف أرسلها أناشيد تأخذ بالألباب من أعلى الأيك. تري أأنت معيرتي وقتئذ سمعك، ومصغية للمشبوب من نجواي؟".

هأنذا أعود، في مناسبة الذكرى المئوية لميلاده، إلى ذكرياتي البعيدة مع هذا الشاعر المبدع والانسان الجميل المرهف من خلال رسائله الأنيقة المنمنمة التي كان يخصني بها كلما استمع، عبر برامجي الإذاعية، إلى قراءات من دواوينه، وإلى استضافتي له في حلقة من البرنامج التليفزيوني: "الأمسية الثقافية" في الشهور الأولى من عمر البرنامج خلال عام ١٩٧٧، وقبل رحيله بقليل. ويومها كان بصحبته صديقه رجل القضاء الأديب العالم المستشار وجدي عبدالصمد، الذي كان بدوره صديقا لصفوة من كبار المبدعين والمفكرين. وكانت استضافة شاعرنا في الأمسية فرصة لتقديم سطور من سيرة حياته. فقد ولد في السادس من ديسمبر ١٩٠٢ بمدينة طنطا. الأب كان يرأس المحكمة الشرعية بالقاهرة. وتقول "موسوعة أعلام الفكر العربي" الصادرة عن مكتبة مصر في جزئها الثاني: إن شاعرنا لم يعرف الاستقرار في تعليمه أو روابطه الانسانية على نطاق المجتمع بسبب تنقل والده الدائم بين المحاكم في طنطا والقاهرة والزقازيق وأسوان، مما كان سببا من أسباب انطوائيته وحبه للعزلة. تخرج في كلية الحقوق عام ١٩٢٨، وفي سنة ١٩٢٩ اشترك في تأسيس جمعية لشباب الحقوقيين ونشر كتيبا تحت عنوان "أزمة الحقوق"، ثم كتابا بعنوان "البطالة" سنة ١٩٣٢. انضم إلى جماعة "أبوللو" سنة ١٩٣٤، ونشر في مجلتها، قبل أن تحتجب، بعض قصائده التي التزم فيها عمود الشعر العربي. أصدر أول ديوان له بعنوان "مناجاة" عام ١٩٣٤، ثم ديوانه: "وحيد" عام ١٩٣٨، فمسرحية "سهير"، ثم ديوانه: "الزنبقة". وفي سنة ١٩٣٩ أصدر ديوانه: "البلبل" وروايته الشهيرة: "زينات". وفي سنة ١٩٤٠ أصدر ديوانه: "الأغنية"، ثم ديوان "العبير" سنة ١٩٤١. وبعد توقف لمدة عشرين عاما، بسبب عمله القضائي وعدم استقراره، عاود إصدار إبداعاته: "الأرغن" ١٩٦١، "الغدير" ١٩٦٥، "الغسق" ١٩٦٨، "حديقة الورد" ١٩٦٨، وأخيرا "عصفورة الكناريا" ١٩٧٧. وفي السادس من يونيو عام ١٩٧٩ كان رحيل

حسين عفيف عن سبعة وسبعين عاما دون أن يحس برحيله أحد، فقد مضى في هدوء كما عاش حياته كلها في هدوء بعيدا عن ضجيج الحياة الأدبية والثقافية وصراعاتها التي يدور معظمها حول ما ليس ينفع الناس غير طامع في جائزة أو شهرة أو ذيوع صيت، فحسبه أنه قال كلمته ومضى. وستظل كلماته تتحدث عنه وتشير إليه بأروع وأبقى مما يصنفه النقاد والدارسون".

وكنا فى الوقت المذكور نستذكر على سطح بيت محمود نحلة بين أكداس القش والحطب، كما فى كل بيوت القرية آنذاك، استعدادا لامتحان السنة الثالثة الإعدادية بالمعهد الدينى بطنطا، وكان اليوم يوم الثلاثاء الذى يسبق يوم الامتحان بثلاثة أيام لا غير، فوجدت ذلك الصندوق هناك، فأخذتُ بفضول صبى صغير أفتش فى محتوياته، فخرجت يدى بكتاب منزوع الصفحات الأولى والأخيرة، فأمسكته أنظر فيه فشدنى، فتركت الاستذكار وانهمكت فى مطالعة الكتاب لا أستطيع أن أحول عنه عينى إلى أن انتهيت من صفحاته المتاحة عند المغرب تقريبا، مضيعا هكذا يوما كاملا دون استذكار، تاركا الامتحان لربٍّ اسمه الكريم كما نقول فى قريتنا تعبيرا عن الثقة فى الله والتوكل عليه. ولم يخيب الرب الكريم ظنى. أما بقية حكايتى مع "غادة كربلاء" فهى أننى ظللت متشوقا لمعرفة مصير أبطالها، إلى أن كنت بعد ذلك بأكثر من عام فى دكاننا ذات ضحى، فرأيت شابا مارا أمامى فى الشارع كان معنا فى الكُتّاب، هو الأخ أحمد الصعيدى، وكنت أحبه لظرفه وهدوء طبعه، وكان قد ترك الكُتّاب منذ وقت طويل واشتغل حلاقا كأبيه وإخوته، فأبصرت فى يده كتابا دفعنى فضولى القاتل إلى سؤاله عنه، إذ كان من الواضح أنه رواية من روايات الهلال، فإذا به "غادة كربلاء". ترى ماذا كان ذلك الشاب يفعل به؟ بل أنَّى له به أصلا؟ لا أدرى. لكنى أدرى أننى استعرته منه وأكملت قراءة الرواية بعد أكثر من عام. ما رأيك أيها القارئ فى هذه الفوضى الشاملة التى كنا نتحرك بها فى دنيا المطالعة؟ لكن لا تنس من فضلك أن الغزَّالة تَغْزِل برجل حمار! ولا تنس قبل ذلك ما قاله رسولنا الكريم من أن "التدبير نصف المعيشة". ومن الكتب التى قرأتها فى بيت صديق الصبا محمود نحلة أو استعرتها منه

عدد من سلسلة "المكتبة الخضراء"، ومنها قصة "البجعات السبع"، التى تألمت وأنا أقرؤها بسبب ما وقع على بطلاتها الطيبات من سحر غشوم ظالم.

وأذكر هنا أننى كنت مفتونا بروايات جرجى زيدان عن تاريخ الإسلام وأصدّق ما يرد فيها من وقائع تصديقا مطلقا غير دار أن الرجل، كما لاحظ نقاده، كان يدس السم فى العسل. وبلغ من تأثرى الشامل بما تقوله رواياته أننى مثلا، حين فرغت من رواية "العباسة أخت الرشيد"، وكانت تدور حول تزوج العباسة سرا بأحد البرامكة وإنجابها منه ولدين دون علم أخيها الخليفة، الذى ما إن عرف بالأمر حتى قتل الزوج والطفلين جميعا، قد كتبت على ظهر إحدى الصور الداخلية بالرواية كلاما غاية فى القسوة فى حق الرشيد وَسَمْتُه فيها بالتوحش وانعدام الإنسانية. ثم انصرمت الأعوام، وتخصصت فى النقد الأدبى، وفى القصصى منه بالذات، فكتبت فى الرسالة التى حصلت بها على درجة الدكتورية من أكسفورد أنتقد صنيع زيدان وأفند مزاعمه الكاذبة فى أن رواياته هذه لا تختلف فى شىء عن كتب التاريخ الموثوقة سوى أنها تحتوى على قصة غرامية لا دخل لها فى أحداث القصة ولا فى صور شخصياتها، مبينا أن ما يقوله لا يمكن أن يكون صحيحا لا نظريا ولا واقعيا.

أيضا من مصادر الحصول على الكتب فى تلك الأيام الفقيرة مكتبة الوحدة المجمعة، وكان يشرف عليها الأستاذ محمد صالح، رحمه الله، وهو جار لنا، ونعرفه جيدا، وكنت أتردد على بيتهم، بل كان يعطينا بعض الدروس الخصوصية قبيل وفاة والدى، الذى كان يجهزنى أنا وأخى لإرسالنا إلى طنطا: أنا إلى المدارس، وهو إلى الأزهر أيام كان الأستاذ صالح طالبا فى كلية دار العلوم. وأذكر من الكلمات التى تعلمتها ودخلت معجمى اللغوى أثناء تلقينا تلك الدروس الخصوصية كلمة "يُدْعَى" بمعنى "يُسَمَّى"، التى قرأتها فى موضوع من موضوعات القراءة عن ولد إنجليزى يدعى: جون. لقد كانت معرفتى بهذه الكلمة بمثابة فتح. وقد ظننتُ أن الأستاذ محمد صالح سيكون سهلا فى إعارتنا ما نشاء من الكتب، إذ لم نكن نعرف أن هناك لوائح

وقوانين تنظم المسألة وتحدد عدد الكتب التى يجوز أن يستعيرها الشخص فى كل مرة. لكنه كان يخيب ظنى دائما بإصراره على أن أنتهى من الكتاب الذى أستعيره وأعيده أولا حتى يمكنه إمدادى بكتاب آخر. وهأنذا الآن أضحك وأنا أكتب هذا الكلام. لقد كنت أستغرب من تصرفه غير المفهوم لى فى ذلك الوقت، إذ ما الذى يضيره لو أعطانى المكتبة كلها دفعة واحدة؟ ولا حاجة على الإطلاق. لقد كنت أرى أنه يحبّكها دون داع.

وقد تعرضت أنا أيضا لموقف مثل هذا حين كنت معارا إلى جامعة قطر منذ عدة سنوات، إذ كانت الطالبات يردن، ككل طلاب الخليج وطالباته، الحصول على الألِف، أى على تقدير "الامتياز" بأية طريقة. وكن يبدين استغرابهن لأننا لا نستجيب لرغبتهن فيقلن: ما الذى يضيركم فى أن تريحونا؟ فكنت أقول لهن ضاحكا: لو فعلنا ذلك لرفتتنا الجامعة وعُدْنا بفضيحة إلى بلادنا. إلا أن البنات البجحات الظريفات كن يقمن بهجوم مضاد قائلات إن الجامعة لن تفعل هذا أبدا. وما عليكم إلا أن تحققوا لنا ما نريد، ولسوف تَرَوْن أنه لن يحدث أى شىء. فكنت أقوم بدورى بهجوم مضاد على هذا الهجوم المضاد قائلا: طبعا بعد أن تكون بصرة قد خربت، فحصلتن أنتن على الألف، ورحنا نحن فى أبو نكلة. وأرجو، أيها القارئ العزيز، ألا تسألنى عن "أبو نكلة" هذا، فقد حفظتها هكذا بمعنى أننا سنروح فى داهية، والسلام.

المهم أننى قرأت من مكتبة الوحدة المجمعة بالقرية بعض مسرحيات محمود تيمور، وكتاب "هارون الرشيد" لأحمد أمين (طبعة كتاب الهلال الأخضر الذهبى)، وكتاب "دور القرآن فى بناء المجتمع" للشيخ محمود شلتوت، الذى أطلعنى فى تلك الفترة الباكرة من حياتى على الجانب الاجتماعى والحضارى من الإسلام، ذلك الذى لا يعرف عنه معظم المسلمين الآن إلا أنه صلاة وصيام ولحية وحجاب وتقصير جلباب، ودمتم، حتى إننى، حين أصدرت منذ نحو سنتين كتابى: "الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ"، وألححت فيه على الجوانب الحضارية فى ديننا العظيم من علم وعمل وإتقان ولياقة

وجمال ونظام وإبداع وحرص على الوقت والتدبير، قد فوجئت بطالبة تأتينى إلى مكتبى وتقول لى تعبيرا عن دهشتها وفرحتها إنها قرأت الكتاب وقرأه معها أخوها وأختها وأمها، فكان تعليقهم جميعا أن أحدا لم يخبرهم من قبل بأن الإسلام هو هذا. وأتصور أن تأليفى ذلك الكتاب قد جاء، ضمن أسباب أخرى، تأثرا غير واع بكتاب الشيخ شلتوت الصغير الجميل الذى وقع فى يدى وأنا لا أزال طالبا فى المرحلة الإعدادية.

أما المرحلة الثانوية فقد قضيتها فى المدرسة الأحمدية بطنطا. وجَدَّتْ فى حياتى أشياءُ ينبغى التوقف إزاءها قليلا: من ذلك أننى ألفيت نفسى زميلا لطلاب آتين من مدرسة القديس لويس حيث تعلموا مقرراتهم المدرسية باللغة الفرنسية، ولم تكن مجرد مادة كبقية المواد كما هو الأمر فى حالتى. أى أن فرنسيتهم أحسن من فرنسيتى بمسافة واسعة جدا. فإذا أضفنا إلى هذا أننى لم أدرس كل مقرر الفرنسية الذى درسه نظرائى فى المدرسة الإعدادية، بل درست فقط نصف هذا المقرر اتضح لنا كيف كان وضعى الحرج بين هؤلاء الزملاء. ذلك أن الأزهر، حين أَدْخَلَ اللغات الأجنبية فى المرحلة الإعدادية، كنت أنا فى الفرقة الثالثة. ولما كانت سنوات الدراسة بالأزهر فى تلك المرحلة أربعا فقد قسموا المقرر بحيث تأخذ كل سنة ثلثى ما يأخذه طالب المدرسة فى العام الواحد. ولما كانت هذه أول سنة ندرس فيها الفرنسية كان نصيبى أنا وزملائى طلاب الفرقة الثالثة ثلثى مقرر السنة الأولى الإعدادية بالمدارس، وحين انتقلنا إلى الفرقة الرابعة درسنا الثلث الباقى من مقرر الفرقة الأولى مع الثلث الأول من مقرر الفرقة الثانية بالمدارس. ولا تنس، أيها القارئ الكريم، ما قلته لك من أنه كانت هناك خمسة دروس لم يكن الأستاذ قد شرحها لنا فى الفرقة الرابعة واستذكرتها أنا وحدى دون الاستعانة بأى شخص أو شىء آخر.

من هذا كله يتبين الموقف الصعب الذى وجدت نفسى فيه بالنسبة لمادة اللغة الفرنسية عندما انتقلت إلى الأحمدية الثانوية. إلا أن الله كان لطيفا بى، فلم أحس أننى أقل من زملائى المشار إليهم، بل كنت إلى حد ما من الطلاب المتميزين. والبركة فى الثقة التى زرعها فىَّ والدى وأنا طفل صغير، والتى قواها ثناء بعض

زملائى على نزعتى الأدبية وكتاباتى الأولى الساذجة التى كانوا، كرما منهم وعطفا، يَرَوْن فيها موهبة عظيمة تستحق الإشادة، بارك الله فيهم. على أننى، حين ظهرت نتيجة الامتحان آخر العام، كان ترتيبى السابع على المدرسة. وهذا أسوأ ترتيب حصلت عليه طوال حياتى الدراسية. لكن فى العامين التاليين كنت الأول على الشعبة الأدبية، بل إننى فى امتحان الثانوية العامة كنت الأول على محافظة الغربية، وهو ما آلمنى أشد الألم، إذ كنت أتطلع إلى أن أكون بين أوائل الجمهورية.

وقد تبين لى السبب فى تأخرى عما كنت أطمح إليه، إذ كنت أكتب موضوع الإنشاء الفرنسى من عقلى لا أحفظ له شيئا. وبطبيعة الحال كنت أكتب الفرنسية على طريقة "إنجليزى يا مرسى؟" أو بالأحرى: "فرنساوى يا خِلّ؟". زد على هذا أننى أهملت التراجم القصيرة التى كانت توجد قبل كل نص من نصوص الأدب الفرنسى للتعريف بكاتبه، ظنا منى أنه أمر غير مهم. فلما سألونا فى الامتحان أن نعرِّف بألفونس دوديه صاحب النص الذى امتحنونا فيه لم أستطع أن أقول شيئا، مع أن الأمر لم يكن يتطلب أكثر من حفظ ثلاثة أسطر تقريبا عن كل مؤلف، واكتفيت بتلخيص ما كنت قرأته فى رواية له درسناها ذلك العام باعتبارها ترجمة له بمعنى من المعانى. وبهذا نقصت درجتى فى الفرنسية، وكان هذا هو السبب فى عدم حصولى على أى مقعد بين العشرة الأوائل، وإن كنت أظن أن لى واحدا بين العشرة الثوانى. ولعل مجىء ترتيبى الأول على طلاب الجمهورية فى مادة اللغة العربية فى ذلك العام قد عوضنى بعض التعويض عن عدم حصولى على ما كنت أطمح إليه.

إلا أننى لم أعلم بذلك إلا فى منتصف العام حين ذهب، لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر فى احتفال عيد العلم فى تلك السنة والحصول على جوائز التفوق، أصدقائى من أوائل الجمهورية الذين كنت أزاملهم فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية قبل أن أتركها بعد ثلاثة أيام ليس إلا إلى قسم اللغة العربية بآداب القاهرة، قسم المشايخ، وهو ما كان مثار لغط بين طلاب المدينة الجامعية عرفت به يوما حين كنت فى مطعم المدينة أتناول

طعامى وجلست كالعادة على مائدة مع طالب آخر. وكالعادة أيضا أخذنا نتحادث، وجرنا الكلام إلى تحويلى لأوراقى من كلية الاقتصاد إلى كلية الآداب، فصاح رفيق المائدة: إذن فأنت الطالب الذى ترك الاقتصاد إلى اللغة العربية؟ يريد أن يقول: إذن فأنت الطالب المجنون الذى ترك كلية السفراء إلى كلية التُّرَبِيّة؟ وبلعتها ضاحكا وأنا أقول: نعم أنا هو!

ما علينا من هذا الاستطراد الذى لا أدرى كيف أتخلص منه، وبالذات فى ذكريات كهذه لم أستعدَّ لها كما ينبغى، بل أترك نفسى تسجل ما يَعِنّ لها دون ترتيب أو تَعَمُّل. والبركة فى الأستاذ طارق منينة أحد المشرفين على موقع "ملتقى أهل التفسير"، الذى طَقَّتْ فى دماغه أن يحاورنى فى بعض الشؤون المتعلقة بمسيرتى الفكرية، وبخاصة خلال إقامتى فى بريطانيا أدرس للحصول على درجة الدكتورية، فطَقَّتْ فى دماغى أنا أيضا أن أكتب ما تقرؤه الآن أيها القارئ العزيز بعُجَره وبُجَره من غير أية صنفرة. المهم أن زملائى، حين عادوا من مقابلة الرئيس وتسلم الجوائز، أخذوا يهنئوننى على نحوٍ خِلْتُ معه أن المسؤولين اكتشفوا فجأة، وبعد فوات الأوان، أننى واحد من العشرة الأوائل. إلا أنهم شرحوا لى الوضع، وهو أنهم قرأوا فى الكتاب التذكارى الذى أعطَوْه لهم فى الحفل أننى الأول فى مادة اللغة العربية على الجمهورية، وهو ما كان موضع دهشتنا جميعا: أنا وهم على السواء، لأننى كنت حاصلا فى تلك المادة على ٤٦ درجة من ٥٠، بينما كانت زميلة لهم قد أخبرتهم من قبل أنها حاصلة على ٥٨ درجة فى تلك المادة، فلم يكن متوقعا قط من ثم أن أكون أنا الأول. ومعنى ذلك، حسبما فسروا لى الأمر، أنها لم تذكر الحقيقة فى موضوع درجتها.

والطريف العجيب أن الزميلة كانت متفوقة على الجميع فى ذلك العام تفوقا مطلقا لأنها كانت الأولى على مستوى الجمهورية بين طلبة القسم الأدبى. ومع هذا فقد انتهى بها الأمر أنْ تركت كلية الاقتصاد مثلى، ومثلى أيضا حولت أوراقها إلى كلية الآداب، لا إلى قسم المشايخ بل إلى قسم الصحافة، ولكن بعد ضياع سنة من عمرها لم تحرز فيها شيئًا. كما أنها، فيما أذكر، لم تكن بين المتفوقين فى كليتها الجديدة، إذ حصلت

فى أول عام على تقدير "جيد"، ولا أذكر الآن شيئًا آخر عنها بعد ذلك. وقد غبطنى بعض زملائى على ما سَمَّوْه: "جرأتى" فى انتقالى إلى الكلية التى أحبها، بخلافهم هم، إذ لم يجدوا أنفسهم فى كلية الاقتصاد، لكنهم كانوا يَخْشَوْن كلام الناس إنْ هم تركوها إلى كلية أخرى هابطين بذلك من كلية القمة إلى إحدى الكليات التى ترقد فى القاع.

ومن اللطائف التى أضحكتنا فى تلك الليلة ما حَكَوْه عن زميل لنا أصبح أستاذا فى الجامعة، واشتغل بعد ذلك مستشارا ثقافيا فى أهم بلد فى العالم، من أنه أخرج أثناء الاحتفال بعيد العلم خطابا من جيبه سلمه للرئيس جمال عبد الناصر كان أخوه قد كتبه طلبا لشىء من الرئيس أو شكوى من شىء، فما كان من الأمن بعدما انتهى من تسلم جائزته وعودته إلى مكانه بين جمهور الحاضرين إلا أن أخذوه وسألوه، فى سياق استنكارهم لفعلته، عن المكان الذى يسكنه، فما كان منه إلا أن أجابهم وملء قلبه الفزع والرعب: "أنا؟ أنا؟ أنا مش ساكن"! فكانت نكتة الليلة.

على أن هناك أسبابا أخرى لنفورى من كلية الاقتصاد، فلم أكن مهتما بالفكر السياسى اهتماما خاصا، بل كان اهتمامى فى المقام الأول بالأدب والنقد والفكر الإسلامى، وهو ما لاءمه قسم اللغة العربية أعظم الملاءمة، وإن كنت فى البداية قد ترددت بين الالتحاق بقسم اللغة الفرنسية أو الصحافة أو اللغة العربية، فحسمها أننى، فى أول يوم ذهبت فيه إلى كلية الآداب، وهو اليوم الرابع من أيام العام الدراسى ٦٦– ١٩٦٧م، قد وجدت نفسى عند اجتيازى بوابتها فى مواجهة سلم، فصعدته دون تفكير، ولما بلغت الطابق الثانى انحرفت يمينا لأجد بعضا من الطلاب سألتهم: أى قسم هذا؟ فقالوا: قسم اللغة العربية، وهذا هو جدول المحاضرات خلفك. فاستدرت أنظر فى الجدول، فوجدت التفسير والحديث والأدب والنحو والصرف والنقد، فقلت فى نفسى: على بركة الله. سوف أدخل قسم اللغة العربية.

أما لماذا اخترت فى استمارة الرغبات، أثناء تقديمى لأوراقى إلى مكتب التنسيق الجامعى، كلية الاقتصاد فكان بإلحاح من صديق والدى بالقرية (العم أحمد جبريل رحمه الله، الذى كان متحمسا لى بعد وفاة والدى، ويشجعنى ويثنى علىَّ كثيرا، ووقف إلى جانبى فى بعض المواقف وقفات كريمة) ظنا منه أننى سوف أكون سفيرا. فقلت فى نفسى ساعتئذ: ولم لا أجمع بين دراسة الاقتصاد والسياسة رسميا ودراسة الأدب والنقد هوايةً؟ ألم يفعلها إبراهيم ناجى، الذى تخصص فى الطب رغم أنه كان شاعرا أديبا ؟ ألم يفعلها صالح جودت بجمعه بين شهادة كلية التجارة وإبداعاته الشعرية والنثرية؟ لكن المحاضرات الأولى بكلية الاقتصاد لم تشدنى، وبخاصة محاضرة د. رفعت المحجوب، الذى ما إن يقف أى طالب ليناقشه فيما عرضه من آراء حتى يعاجله دون تريث قائلا: اجلس! لا تخلط! وكان هذا هو الرد الذى تلقاه زميل لى بالمدينة الجامعية واستفزنى إلى المناقشة توضيحا لفكرة هذا الزميل. ولكن ما إن بدأت أشرح وجهة نظرى حتى سدد إلىَّ لكمة خطافية سمجة: اجلس! لا تخلط! فكان هذا سببا آخر لكراهيتى الاستمرار فى الكلية. وعندما كبرتُ وتولى د. المحجوب رئاسة مجلس الشعب ووجدتُه يصادر آراء المعارضين بنفس الطريقة تذكرتُ أسلوبه المنفِّر فى قمع عقول الطلاب، وقلت فى نفسى: واضح أن الرجل لم يتغير، ولن! الطريف أن بعض الناس فى قريتى كانوا يفتخرون، فيما بلغنى، بأننى أجلس فى الجامعة بجوار بنت الرئيس جمال عبد الناصر، وأن عبد الناصر نفسه هو الذى يقوم بالإنفاق علىَّ لتفوقى. يا ليت! ما كانت العين قد بكت، ولا كنت قد تعبت أو شعرت بالغربة والوحشة فى القاهرة، على الأقل: فى بداية انتقالى إليها. ومع ذلك فهأنذا أضحك هذه المرة ولا تغلبنى الدموع، فالموقف كله موقف ضاحك مضحك بامتياز!

وكنت فى المدينة الجامعية أسكن نفس المبنى الذى يسكنه زملائى فى كلية الاقتصاد (وهو المبنى الخامس، وكان فراشه رجلا لطيفا طيبا هادئا يحبنا) بناء على أننى فى الأصل واحد منهم رغم تحويلى لأوراقى إلى كلية الآداب (قسم المشايخ والفتّة)، فتكونت بينى وبين بعضهم صداقات استمرت لوقت طويل،

وبعضها لا يزال قائما، وإن خَفَّتْ لقاءاتنا بطبيعة الحال لافتراق الطرق وانشغالات الحياة. وكانوا حريصين فى ذلك الوقت على شراء "أهرام" الجمعة ليقرأوا "بصراحة" للأستاذ هيكل، الذى كنت أستغرب حرصهم على قراءة ما يكتب رغم وضوح انحرافه عن قول كلمة الحق وتفانيه بالحق والباطل فى الدفاع عن جمال عبد الناصر، الذى شرعت أبتعد عنه ولا أطمئن إليه ولا أطيق استبداده.

وذات جمعة قلت لهم: انظروا إلى "بصراحة" اليوم: كيف يقيم هيكل مقاله كله من أوله إلى آخره على الرقم ٣: فالعوامل التى أدت إلى وقوع الأمر الذى يتحدث عنه ثلاثة، والموانع التى كانت تقف فى طريقه ثلاثة، والأسباب التى أبطلت فعل هذه الموانع ثلاثة، والنتائج التى تحققت جراء تلك العوامل ثلاثة. . . وهكذا. هل يعقل أن تكون الحياة بهذا التناسق والتناغم، وبخاصة فى أمر معقد كهذا؟ ألا يدلكم هذا على أن الرجل لا يكتب من واقع الحياة، بل من تصنعات خياله وأنه يدلف إلى مقاله بفكرة أعدها مسبقا؟ لكن على من تنشد مزاميرك يا داود؟ ورغم ذلك فقد اقترحت، منذ نحو سنة، على أحد طلابى، وهو صحفى بـ"الأهرام"، أن يتخذ من هيكل ومقالاته وأسلوبه موضوعا لدراسة الدكتورية، وخططنا معا المنهج والطريقة اللذين سيتبعهما فى كتابة أطروحته. وهو ما قد يدل، إذا أردت أيها القارئ الغالى، على أننى لست سيئا تماما، إذ لا أزال أتمتع ببعض الموضوعية التى تجعلنى أتجاهل موقفى من واحد كهيكل وأقترحه موضوعا للدكتوراه لواحد من طلابى فى قسم اللغة العربية وآدابها.

ويقتضينى الحق أن أقول إننى تمتعت مع هؤلاء الزملاء بصحبة ممتازة، إذ كانوا من خيرة شباب مصر علما وانفتاح أفق وكثرة قراءة وعمق تفكير وشعورا وطنيا، مضافا إلى ذلك لدن بعض منهم الاستقامة الأخلاقية، والتدين المستنير. وقد استفدت أيما استفادة من هذه الصحبة، وكانت لنا مناقشات لا تنتهى: فى مطعم المدينة، وفى الغرفة التى نسكنها منها، وفى الشارع حيث كنا نتمشى فى كثير من الأحيان بعد

العصر من حى بين السرايات حيث تقوم المدينة الجامعية إلى التحرير، وأحيانا إلى العتبة، ومرة إلى حى الحسين ذاته. كل هذا ونحن منهمكون فى الكلام فى السياسة والدين والفلسفة والمشاكل العاطفية.

ومما لا أزال أذكره حتى الآن تلك المناقشة التى دارت بينى وبين زميلى صلاح أبو النجا، الذى أحيل بُعَيْد ثورة يناير المجيدة إلى المعاش، وكان موظفا مرموقا فى رئاسة الوزراء، وكنا فى ذلك الوقت مارَّين أمام حديقة الأورمان فى جولتنا المعتادة إلى التحرير، حول كتاب "سيرتى الذاتية" لبرتراند راسل، الذى كانت ترجمته طازجة فى ذلك الحين. وكان محور المناقشة هو: ما مصير راسل يوم القيامة؟ هل سيدخل النار بوصفه غير مسلم أم ماذا؟ وكان رأيى، بناء على ما كنت أجهله عنه فى ذلك الوقت، أنه لا يعرف الإسلام، أو على الأقل: لا يعرفه كما ينبغى، إذ هو بريطانى، فلن يعرفه إلا من المستشرقين المعادين له، فكيف يعاقبه الله تلك العقوبة على أمر خارج عن نطاق وسعه؟ هل كنت قرأت آنذاك ما كتبه الشيخ شلتوت فى تفسيره للآية ١١٥ من سورة "النساء": "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا"، التى تقول كما هو واضح إن من يعاقَب على الكفر برسالة محمد عليه الصلاة والسلام هو من تبين له الحق من الباطل ثم أصر على العناد وإنكار الحق والكفر برسالته عليه السلام رغم ذلك، وهو ما يفهم منه أنه إن لم يتبين له الحق فعذره قائم، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها كما تردد مرارا فى القرآن المجيد؟ ربما. فإذا كان الأمر كذلك فأغلب الظن أننى كنت أَصْدُر فى رأيى هذا عن الآية الكريمة. أما زميلى فكان رأيه أن الله لا بد أن يهدى من أراد بلوغ الحق، لا محالة. لكننى رددت عليه بأنه ليس شرطا أن كل من طلب الحق أدركه. وأستطيع فى هذا السياق الآن أن أشير إلى حديث الرسول الرحيم الذى يقول إن الإنسان قد يجتهد ويخطئ فى اجتهاده، بما يعنى أن طلب الحق لا يبلِّغ صاحبه إياه بالضرورة.

وبعد عدة عقود تصادف أن عثرتُ على المشباك (الإنترنت) بمقال راسل: "لماذا لست مسيحيا ؟" مترجما إلى العربية، فبحثت عن أصله الإنجليزى حتى وجدته، ثم كتبت دراسة طويلة عنه أناقش مبرراته فى الإلحاد وأفندها واحدا واحدا، ولكن باحترام تام، إذ كان الرجل مناصرا للقضية الفلسطينية، وهو ما شفع له عندى. وكنت قد اشتريت من لندن أواخر سبعينات القرن الماضى كتابه: "تاريخ الفلسفة الغربية"، ومنه يتبين أنه كان على علم بالإسلام خَوَّله كتابة فصلٍ ضافٍ عنه. كما علمت، حين كنت أستعد لوضع دراستى عنه، أنه كان له خال مسلم. عجيبة! وهكذا ترى، يا قارئى الكريم، كيف تترابط خيوط حياتى ترابطا وثيقا، إذ ما من قضية شغلتنى فى صباى أو شبابى إلا كان لى عودة إليها، وأحيانا دراسة عنها، فى كهولتى وشيخوختى.

وكنت فى المرحلة الثانوية أستعير ما أقرؤه من كتب من مكتبة المدرسة، وكانت مكتبة غنية وأنيقة. وما زلت أذكر الأستاذ الذى كان يتولى الإشراف عليها، وكان اسمه مختار، وكان يرحب بى كلما رآنى بعدما سلمته المقال الذى اشتركت به فى مسابقة من مسابقات المدرسة الثقافية، إذ أبدى دهشته من قدرتى على استخدام ألفاظ مثل "الأسفار"، وعدها إنجازا كبيرا، وصار يحدث بها المدرسين أمامى. وأعترف الآن أن معنى الكلمة لم يكن محددا فى ذهنى تمام التحديد. والطريف أن أخبار المسابقة قد توقفت، ولم يعلنوا نتيجتها ولا أَعْطَوْا أحدا ممن تقدموا إليها جائزة. كما أذكر أنهم كانوا يعطوننا فى المكتبة كراسة نجيب فيها على بعض الأسئلة عقب قراءتنا أى كتاب عن الأسلوب الذى صيغ به والأفكار التى يتضمنها ورَأْينا فيه وما إلى ذلك. وبصراحة كانت مثل تلك الأسئلة تربكنى. وما زلت حتى الآن أجد ضيقا وصعوبة إذا ما سئلت مثل تلك الأسئلة المحددة التى يراد من الواحد أن يجيب على كل منها فى سطر أو سطرين.

ومما قرأته من كتبٍ آنذاك "سارة" للعقاد وبعض عبقرياته وعدد من الروايات المترجمة. ومن الروايات المصرية القليلة التى قرأتها وقتئذ رواية "فديتكِ يا ليلى أو آثار على الرمال" ليوسف السباعى. ولا أدرى

السبب فى أن بطلها قد أوحى لى أنه فريد الأطرش. وقد رأيت أحد زملائى يقرأ روايات محمد عبد الحليم عبد الله، التى لم تشدنى فى ذلك الحين، إذ لم أبدأ قراءته إلا فى الجامعة، وأظن أن أول عمل قرأته له هو "شمس الخريف"، الذى طالعته فى شقة أسرة صديقى المرحوم أحمد الزاهد بشارع النحاس بطنطا، والذى نزل بلسما على جراح نفسى فى تلك الفترة، فقد تقمصتُ شخصية الشاب البطل وأخذت أهيم معه فى عزبة خورشيد القريبة من الإسكندرية بين الحقول والنباتات والطيور والفلاحين البسطاء، الذين ذكّرونى بأهل قريتى. وقد صار هذا الزميل، واسمه أحمد، فنانا تشكيليا، وكانت موهبته واضحة للعيان منذ كان معنا فى الأحمدية الثانوية، وأظنه من مركز السنطة. ولعلى قابلته مرة فى شارع رمسيس قريبا من العباسية أيام كنت معيدا، وفهمت أنه يعرض لوحاته فى مرسم هناك. ثم لم أسمع به ولم أره بعد ذلك قط.

كذلك كنت أشترى فى المرحلة الثانوية ما يتيسر لى شراؤه من كتب، وغالبا ما كانت كتبا مستعملة مما يباع على الأرصفة، ومنها كتاب "فن الأدب" لتوفيق الحكيم، الذى اشتريته بعشرة قروش من تاجرٍ رصيفيٍّ عند مسجد السيد البدوى. ومن تلك الكتب أيضا معجم فرنسى عربى طلابى استخدمته كثيرا فى ذلك الحين، وإن لم أتنبه إلى أنه معجم صغير لا يصلح إلا فى نطاق محدود. ولهذا كنت أستغرب كلما بحثت عن معنى كلمة فيه ولم أجدها، غير دار أنه قاموس فقير. وقد استعنت به مع ذلك فى قراءة بعض الروايات الفرنسية، وأهمها رواية هكتور مالو (Hector Malot): "Sans Famille"، وهى رواية حزينة عن صبى يتيم يتنقل من مكان إلى مكان مع موسيقار متجول، وينام فى العراء ويقاسى مصاعب الحياة مقاساة شنيعة، مما كان يحز فى قلبى ويكاد يبكينى. وظلت مكتبة فافا مع ذلك موئلا هاما أقصده للحصول على الكتب والروايات بثمن زهيد. وبطبيعة الحال لا ينبغى أن ننسى الكتب التى كنت أستعيرها من زملائى.

ومن غرامى بالقراءة أننى كنت إذا ما قصدت دار الخيالة وحدى اصطحبت كتابا معى أقرأ فيه قبل بدء العرض وفى الاستراحة بين الفلمين، فإذا ما بدأ الفلم أغلقتُ الكتاب وبدأ لون آخر من المتعة هو متعة

العيش مع أحداث الفلم وأبطاله على الشاشة. وهو نفسه ما كنت أصنعه أحيانا حين أذهب إلى ملعب الكرة فى سوق القرية قبل زملائى، إذ كنت آوِى إلى حقل من حقول الذرة على حدود السوق أقرأ فى الكتاب الذى معى. حتّى إذا حضر زملائى وبدأت التقسيمة وضعت الكتاب فى سيّالتى، وهى الجيب الجانبى الكبير، وخلعت جلبابى ونزلت أجرى مع الجارِين. وكنت من اللاعبين البارعين فى فريق القرية، وإن لم أستمر طويلا نظرا إلى وقوع هزيمة ١٩٦٧م، التى خيمت بظلالها السود على لاعبى قريتنا، فهجرنا كلنا تقريبا اللعب رغم أنه كانت هناك قرى كثيرة ظلت تمارس الكرة بعد الهزيمة.

ومما أذكره من التطورات اللغوية التى حدثت لى فى المدرسة الأحمدية أننى استعملت فى أحد مواضيع الإنشاء بالسنة الثانية الثانوية عبارة "بالعافية"، أى بالقوة والإكراه، وهو ما لم يعجب أستاذ اللغة العربية، وكان رجلا فاضلا هادئا لا يرتفع له صوت ولا ينفعل إلا فى النادر، فصححها لى إلى "بالقوة". إلا أننى لم أقتنع بالتصحيح، إذ بدا لى أن الكلمتين شىء واحد، فضلا عن أن عبارة "بالعافية" عبارة مشهورة ترددها الناس جميعا. لكنى عندما كبرت اقتنعت بما قاله الأستاذ الفاضل. بيد أننى عدت فى الأيام الأخيرة أفكر فى الأمر من جديد قائلا لنفسى: فعلا لا يوجد فرق بين "بالقوة" و"بالعافية". نعم، العافية هى الصحة الجيدة، ولكن أليست الصحة الجيدة هى القوة، أو لونا منها على الأقل، أو أن القوة تستلزم الصحة الجيدة؟ فلم إذن لا يصح أن نقول: "بالعافية" فى معنى"بالقوة"، على الأقل: مجازا مرسلا؟ صحيح: لم لا؟

كما وقع لى شىء غريب فى آخر السنة الثانية الثانوية، إذ صرت، كلما قرأت كتابا، أجد صعوبة بالغة فى ربط كلمات أية جملة فيه كى أخرج منها بمعنى. لم تكن المشكلة فى الكلمات، بل فى الربط بينها، فكأن عقلى مسبحة فقدت خيطها فتبعثرت حباتها شَذَرَ مَذَرَ. وحاولت كثيرا أن أتغلب على هذا العَرَض المَرَضِىّ المزعج، ولكن دون جدوى. فماذا فعلت؟ فأما بالنسبة للكتب غير المقررة فقد صبرت وتحملت رغم الضيق الشنيع الذى كان يسببه هذا الأمر لى، وأما بالنسبة للكتب المقررة فقد لجأت إلى الكتب الخارجية

وأخذت أحفظ التلخيصات التى توردها فى آخر كل درس. وبهذه الطريقة نجحت وكنت أول القسم الأدبى بالمدرسة. وقد ظلت هذه المشكلة معى وقتا طويلا خلال العام الدراسى التالى، فكنت أعانى من تتبع ما يريد العقاد أن يقوله فى "عبقرية الصديق" التى كانت مقررة علينا ذلك العام، وأنا الذى أقرأ العقاد وآلفه منذ عدة سنين ولا أجد فى فهم ما يكتبه صعوبة. لقد كانت محنة، لكن الله كعادته معى قد سَلَّم، وكان رءوفا بالصبى المسكين، فلم يدعه يرسب، بل وضعه على رأس المدرسة.

وفى الإجازة الفاصلة بين السنة الثانية والسنة الثالثة الثانوية وقع تطور كبير فى شخصيتى، إذ كنت مع زميلى المرحوم أحمد الزاهد وسائر أفراد أسرته فى عزبتهم التابعة لقرية سيدى غازى شمال كفر الشيخ حيث قضينا وقتا هانئا، ثم عاد بعضنا إلى شقة الأسرة فى شارع الشيخة صباح عند تقاطعه مع شارع النحاس بطنطا. وفتح أحدنا التلفاز ليلا، وكانت هناك مسرحية لا أتذكر اسمها الآن، وفيها ينام بطلها فيرى نفسه وقد وقع فى مأزق اجتماعى جراء غلطة أخلاقية ارتكبها، وهو يظن نفسه يقظان، فلما قام من النوم تنفس الصُّعَداء أن الأمر ليس إلا مناما لا حقيقة له، لكنه رغم ذلك قد أخذ على نفسه عهدا ألا يحيد عن سواء الصراط. ولم أكد أنتهى من مشاهدة المسرحية حتى قمت وتوضأت وصليت وعاهدت نفسى ألا أؤجل من الآن فصاعدا أية صلاة لما بعد وقتها. ولم أكن، بحمد الله، أقترف شيئا مما يصنعه بعض الشباب، بل كان الأمر يتعلق بتأدية الصلاة فى وقتها ليس غير. وهو ما حرصت ولا أزال أحرص عليه حتى الآن لدرجة أننى فى العالم التالى كنت أكون مثلا مستغرقا مع زملائى هؤلاء فى كرة القدم تحت بيت زميلى هذا رحمه الله رحمة واسعة، فأسمع الأذان فأستأذن من زملائى الذين يلعبون معى، وآخذ نَفْسِى إلى مسجد الشيخة صباح القريب لأصلى ثم أعود وأستأنف اللعب. كما أننى منذ ذلك اليوم لم يحدث قط أن أَجَّلْتُ بإرادتى صلاة الصبح لما بعد الشروق، اللهم إلا إذا راحت علىَّ نومة. وحتى فى هذه الحالة كنت أشعر بالتأثم الشديد لعدة أيام رغم معرفتى بما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم من أن القلم قد رُفِع عن ثلاثةٍ منهم النائم حتى

يستيقظ. لقد كنت أَعُدّ القيام من أحلاها نومةً لصلاة الصبح قبل الشروق ولو بدقائق ضربا من التحدى لم أكن أسمح لنفسى بالفشل فيه. أما إذا استيقظت قبيل الشمس بما لا يسمح لى بالوضوء واللحاق بالصلاة فى وقتها فكنت أجتزئ بالتيمم وأصلى فى موضعى كيلا يفوتنى الوقت.

وحين تزوجتُ سارت زوجتى معى على الالتزام بالصلاة أداءً لا تتركها أبدا وهى تقدر على ذلك، رغم أننا لا نسارع دائما إلى الصلاة فى أول الوقت، بل المهم هو ألا نؤخرها إلى وقت الصلاة التالية بالنسبة للظهر والعصر والمغرب والعشاء، فيما عدا حالات السفر كما هو معروف، أو إلى ما بعد شروق الشمس فى حالة صلاة الصبح كما قلت آنفا. وبالمناسبة فإننى أَقْصِر الصلاة وأجمعها الآن فى أى سفر طال أم قَصُرَ طبقا لما كان يفعله الصحابة متى ما غادروا المدينة المشرفة دون الالتزام بشرط الثمانين كيلومترا الذى يقول به بعض الفقهاء. ومن رأيى الأخذ بالرخص متى كانت متاحة، إذ من شأن ذلك تشجيع الناس على دوام تأدية الفرائض وعدم الكسل عنها. ذلك أنه من الأهمية بمكان أن تبقى علاقة الناس بربهم قائمة على أى وضع حتى لو كانت مجرد شعرة نحيلة، فهى خير من انقطاعها تماما والانصراف إلى إبليس واللجاج فى المعصية. ومن دَيْدَنى التذكير دائما برحمة الله سبحانه وتعالى ردا على من يصورونه عز وجل باطشا لا يرحم المقصِّرين والمخطئين مما يترتب عليه تنفير الناس من الدين وتيئيسهم من صلاح الأحوال وتشجيع الشيطان على الوسوسة لهم بأن الأمور ما دامت سيئة على هذا النحو ولا أمل فى رحمة الله فما الداعى للعنت ووجع الدماغ الذى لن يؤدى إلى خير؟

ومن الأمور التى ينبغى أن أسوقها هنا فى السنة الأخيرة لى بالمرحلة الثانوية تلك الأيام الثلاثة التى قضيتها فى هم مقيم، إذ كنت أسير فى شوارع طنطا فى عز النهار فتبدو الدنيا لى وهى تقطر سوادا وكآبة. لقد نبتت فى ذهنى بعض الخواطر الرديئة التى لا تليق بجلال الله، ولم أستطع لقلة حيلتى وضعف فهمى للدين فى ذلك الوقت مواجهة تلك الحالة الغريبة التى لو حدثت لى الآن ما وقفت أمامها ولا باليت بها بالة ولضحكت

على سخف الأمر كله. لكن ماذا تقول فى صبى عمره ثمانية عشر عاما لم يتعمق التعمق الكافى فى الدين؟ بيد أن الأمر قد انعطف انعطافة حادة وبهيجة عندما كنت أسير فى فناء المدرسة فرأيت أستاذ اللغة العربية الذى كنا جميعا نحبه ونكبره ونقبل على حصته بلهفة وفرحة، الأستاذ سيد أحمد أبو رية، فأقبلت عليه وترددت وأنا أفض له مغاليق قلبى متصورا أنه سوف ينهرنى على هذه الخواطر التى لا تليق. لكنى بُوغِتُّ حين رأيته، بعد انتهائى من رواية محنتى، يبتسم لى ويأخذنى فى كنفه ويمشى معى وهو يطمئننى بأن هذا دليل على قوة إيمانى. معقولة؟ معقولة ونصف! لقد مر الإمام الغزالى بحالة أشد من هذه حين انتابه الشك فى الدين، لكن كان هذا الشك هو سبيله إلى تمحيص عقيدته وإرسائها على صخرة صلبة لا تتزعزع أبدا. يعنى أنا يا أستاذ لست آثما؟ أبدا يا عم إبراهيم لستَ آثما ولا حاجة. اطمئن إلى دينك، فليس عليه غبار. رحم الله أستاذى العظيم الذى لم يمر علىّ أستاذٌ مثلُه علمًا وفهمًا واتساعَ أفقٍ ورحمةً وعطفًا.

لقد توثقت علاقتى بالرجل الكريم بعد ذلك وصرت أتردد على بيته فيستقبلنى أحسن استقبال، بل كنت أنام عنده بعد تركى طنطا إلى الجامعة وأقوم صباحا فأجده يحضر لى أحيانا الفَطُور فى السرير، أنا الذى لم أتعود على هذا التدليل، أو نأكل جميعا معا. رحم الله أستاذى الرحمة كلها وألحقنى به فى الجنة كى أستمتع بصحبته هناك كما استمتعت بها هنا على الأرض حيث كنا نتناقش فى كل شىء فى غرفة مكتبه بالمنزل أو فى شرفة شقته الرحيبة المطلة على حديقة المنزل التى تتخذها المدرسة الموجودة بالشقق الباقية فى البيت فناء لتلاميذها، أو نجوب شوارع طنطا معا أحدّثه عن كل ما يتعلق بى، وبخاصة أمورى فى الجامعة وشؤونى العاطفية، فألقى منه دائما ما يخفف عنى ويمتعنى ويوسع أفقى. وكان فوق ذلك ذا أسلوب أدبى جميل، فقد أذكر أنه بعث لى برسالتين ردا على خطابين منى أبثه فيهما من القاهرة آلامى وأتراحى، فكتب يرفه عنى بلغة تشبه لغة طه حسين. ولشديد الأسف ضاع الخطابان مع ما ضاع من أشيائى الكثيرة على مدار حياتى.

ولا تزال ترن فى ذاكرتى حتى الآن سؤالى إياه عن الصورة العجيبة التى أوردها نزار قبانى فى قصيدة "أَلْف أَهْوَاه"، التى كانت تغنيها كثيرا فى تلك الأيام نجاة الصغيرة:

ماذا أقول إذا راحت أصابعه تلملم الليل عن شعرى وترعاه؟

أى ماذا تقول لحبيبها؟ ذلك أن الصورة، على حلاوتها، غير واضحة المعنى، فكان جوابه أن المقصود: "تلملم شعرى الذى هو كالليل". ورغم أنى لم أقتنع بهذا التوجيه تماما فقد سكتُّ، لا لخجل من أستاذى العظيم، فلم يكن بيننا أى تحرج، فضلا عن أننى كنت طويل اللسان، لا أقصد بذلك السفاهة، بل أقصد الجرأة فى التعبير عن رأيى، وإنما لأنى لم أجد توجيها آخر أشد وجاهة. ومع الأيام ظننت أنه قد يصح أن نقول إن الفتاة تقصد أن يد حبيبها تشع أضواء وأفراحا وتقشع عن شعرها الظلام وترعاه حبا وحنانا. أما إذا لم يعجبكم، أيها القراء، هذا التوجيه أيضا بعد أن لم يعجبكم قبلا توجيه أستاذى، فاخبطوا، لا رأسكم أنتم، بل رأسى أنا فى أقرب جدار، وفداكم رأسى وحياتى كلها. المهم ألا تغضبوا، ولا يكن ذلك "الفلتان" المسمى: "نزارًا القبانى" سببا فى تعكير صفو العلاقات بيننا، والميت أبقى من الحى كما تعرفون. ويا لله لهذا الإعجاز الإلهى المتمثل فى كلام، مجرد كلام، نسمعه فيرتد إلينا الماضى حيا نابضا بل متوترا، وكأننى ذلك الصبى الذى كان يدور فى شوارع طنطا فى منتصف ستينات القرن المنصرم، فيأتيه صوت نجاة من كل المقاهى والدكاكين حوله تشدو بهذه الأغنية البديعة، التى كان يقول لنا زميلنا محمد الجروانى، رحمة الله عليه، إن اسمها: "أَلِفَ هَوَاه"، ويصر على أنها لا يمكن أن تكون "أَلْفُ أهواه". غفر الله له!

وسامحونى على ما سأقوله الآن وأنا أستمع إلى نجاة الصغيرة أمامى فى الكاتوب تغنى القصيدة وتعيد وتزيد فى قولها: "هنا جريدته فى الركن مهملةٌ"، إذ لا أملك نفسى من الرد عليها ضاحكا حتى تسرع فتنتقل إلى البيت التالى: "بسيطة! نظفى بها لمبة الجاز. خلِّصينا، هداك الله، وهاتى البيت الذى بعده"! كذلك اكتشفت اليوم السبت ١٨/ ٥/ ٢٠١٣م اكتشافا مضحكا لم أملك نفسى إزاءه من القهقهة رغم سماعى فى

نفس الوقت نجاة الصغيرة وهى تشدو بأغنية "ع الحلوة والمرة"، التى غناها من قبلها عبد الغنى السيد . والواقع أن غناء نجاة لها هو الألم والمعاناة مجسدين، إلا اليوم، فما إن اكتشفت أنها إنما تغنى هذه الأغنية فى فلم "بنت البلد" (١٩٥٤م)، واسمها فيه بدرية، وكانت تغنيها لحبيبها وابن عمها إسماعيل يس، الشاب الصعيدى المعمم بشال مفتول كرِوَاسة الجاموسة عندنا بالقرية، والذى تزوج فتاة فرنسية وتركها هى لشماتة الشامتين، حتى هرب ما كنت أشعر به من آلام فى كل مرة أسمعها فيها . لقد كان الألم يعتصر قلب نجاة، وهى تشدو بالأغنية الرائعة، ممسكة بصورة حبيبها ذى الفم الواسع الذى يمكن أن يبلع الدنيا كلها ويفيض منه جزء كبير، وهى تعاتبه وتبكى بكاء ملتهبا لعل قلبه يحن ويرجع إليها، ثم تغافل المخرج أحيانا وتنظر إلىَّ وكأنها تستنجد بى للتدخل بينها وبين حبيبها والشفاعة عنده وإصلاح ذات بينهما، غير عالمة أننى لا أصلح لهذه المهمة بالذات لأن القهقهة تغلبنى على نفسى، ولا يصح أن أذهب فى مثل هذه المهمة العاطفية الاجتماعية الحساسة وأنا أضحك وأقهقه، وبخاصة وأنا أرى أمامى بعض النسوة الصعيديات الخنشورات قد وقفن خلفها يساندنها عاطفيا وغنائيا قائمات بدور الكورس، وإن كن فى الحقيقة شامتات بها، إذ لا أظن أن ثمة فتاة يمكن أن تتعاطف فى مثل هذا الموقف مع فتاة مثلها . والحق أن هؤلاء الفتيات لا يصلحن إلا للَّطْم والتعديد والصُّوات وتلطيخ وجوههن ورؤوسهن بالطين والنيلة، أما الكورس فكلا وألف كلا ! يا نجاة، حرام عليك ! ألم تجدى إلا "سُمْعَة" كى تقعى فى غرامه، ثم تزيدى على هذا بأن تمسكى بصورته وتنزلى عياطا وبكاء وغناء ملتاعا ؟

ومما يفد على ذهنى الآن بشأن موضوع الغناء ما دار بينى، ذات مساء بين المغرب والعشاء فى مسجد السيد البدوى بطنطا حيث كنت أستذكر وأنا فى السنة الثالثة الثانوية، وبين الشيخ الديب أحد وعاظ المحافظة عن حكم الغناء، فقد كنت وما زلت أحب الاستماع إليه وإلى قارئى القرآن، فكان جوابه بسيطا وعبقريا فى آن: أن الأغانى كلام . فإذا كان كلام الأغنية سيئًا فهى سيئة، وإلا فلا . وأتصور أنها فتوى

بسيطة وواقعية وتصيب المحَزّ كما يقولون، وإن كنت أعى أن فى الغناء عنصرا آخر إلى جانب الكلمات ينبغى التحرز فيه، وهو الطريقة التى تؤدى بها المغنيات أغانيهن، فالمفروض أن يبتعدن عن التكسر السخيف المثير. وبطبيعة الحال هناك من يرى أن الاستماع إلى الغناء حرام. وهؤلاء أحرار فيما يَرَوْن، ولهم مطلق الحق فى ألا يستمعوا إليه ما داموا يستحرمونه، على ألا يصل الحال إلى الصدام مع مخالفيهم فى الرأى دون داع، فالأمر أمر فهوم وأذواق مختلفة.

وبعض من ينفرون من الغناء ويحرّمونه يتصورون أنه مظنة إثارة الشهوة، وهذه تقود إلى ارتكاب الزنا، غير دارين أن الأغانى بوجه عام لا علاقة لها بالإثارة الجنسية، بل قد يبكى مستمعها فى بعض الحالات شجنا ووجدا، لا مع الأغانى العاطفية وحدها، التى لا تحتوى فى الغالب إلا على ألفاظ الحرمان والألم دون أى لفظ موقظ للشهوة، بل لدى استماعه إلى الأغانى الوطنية أيضا، إذ تثير وجده وتهيج أشواقه نحو الماضى والطفولة والشباب أيام كان كل شىء بكرا طازجا لم يتلوث بعد كل هذا التلوث، وأيام كانت الآمال الوطنية والقومية تحلق فى الفضاء وتصل إلى السماء السابعة قبل أن ينكشف الأمر عن زيف كل شىء فى ذلك الحين وأن الأمر لم يكن يتعدى الكلام الكبير الفاضى والخطب الرنانة التى لا تقدم ولا تؤخر. وإذا ما دخل الإنسان اليوتيوب ورأى تعليقات المشاهدين على الأغانى العاطفية لوجد أنها كلها تعليقات حزينة مفعمة بالأسى، وبخاصة على الصبا والشباب وأيامهما التى انصرمت ولم يعد إلى عودتها من سبيل.

ومعلوم أن هناك أغانى اجتماعية للزوج وللولد وللأخ والأخت والأم، وعن النجاح فى الامتحان، وعن دخول الجامعة، وعن تطلع الصغار إلى ما يطمعون فى أن يكونوا عليه حينما يكبرون، وعن السعى على المعاش والرزق الحلال، فضلا عن الأغانى الدينية، إلى جانب أغانى التسلية والأغانى الفكاهية والأغانى الأخلاقية وأغانى الطبيعة وأغانى الأطفال. وهذا كله لا علاقة له بالمرأة والتعلق بها، وهذا إن كان التعلق

بالنساء فى حد ذاته حراما، وما هو بحرام، وكيف يكون حراما وقد أكد القرآن أنه أمر فطرى مركوز بل مغروز فى القلب غرزاً لا فكاك لأى إنسان منه؟ بل الحرام هو

الزنا وما يقود إليه، وإلا فالعواطف ليست فى أيدينا حتى نحاسَب عليها ونعاقَب بسببها، وهو ما لا يمكن أن يكون، فإن الله لا يكلف، دعك من أن يعاقب، نفسا إلا بناء على وسعها .

وتصوير الأمر وكأن الإنسان مجرد شهوة جنسية، فما إن يسمع أغنية من الأغانى حتى ينهض مسعورا وينتهك عِرْض أية امرأة تقابله فى الطريق، هو تصوير ساذج. نعم هناك غناء فاجر فى الكباريهات وبعض الأفراح وما أشبه، والمغنية فى هذه الحالة لا تغنى بل تشعل الغرائز بتأودها وتراقصها وعريها وغنجها حسبما نرى فى الأفلام والتلفاز، لكنْ ليس هذا هو الغناء الذى نحبه، بل ليس هو الغناء مجردا . إنما هو غناء وإثارة شهوات، بل قل إنه إثارة شهوات أولا وقبل كل شىء، وما مصاحبة الغناء له إلا ذَرٌّ للرماد فى العيون. وهذا اللون من الغناء هو الذى يخطر على بال من يَرَوْنَ الغناء حراما . أما الغناء ذاته فهو استجابة فطرية لما يشعر به الإنسان فى قلبه وخياله وعقله من مشاعر وأفكار وتصورات يريد أن يعبر عنها أو يسمع من يعبر عنها ويغنيها بصوته الجميل على إيقاع آلة موسيقية تزيد الصوت الجميل جمالا على جماله. وهل نحن أقل من الطيور التى تغنى على أغصانها وفى أوكارها وفى أجواز الفضاء استجابة لجمال الطبيعة من حولها، وبخاصة فى فصل الربيع؟ أم يريد بعض المتنطعين أن يحيلوا حياتنا جحيما لا يطاق، وكأننا قطع من الجماد، الذى لا يشعر ولا يفكر ولا يخال؟

من حق من يرى الغناء حراما أن يحرمه على نفسه، أما أن يفرض ذلك على سواه فليس له الحق فى ذلك. وبهذا يتعايش المحبون والكارهون للغناء فى سلام وتفاهم واحترام متبادل، وتدور عجلة الحياة فى انسجام. وكم وقفتُ إزاء هذه المغنية أو تلك وهى تشدو بقصيدة دينية تستجيش منا كل إحساس نبيل نقى، متسائلا: أيمكن أن يكون قلب تلك المغنية قد خلا تماما من كل أثر للإيمان؟ إن كثيرات منهن يشتهرن

بما هو بعيد كل البعد عن التدين بل بما يناقضه، لكن هل يعقل أن مثلها، وقد تربت فى بيئة مسلمة وكثيرا ما سمعت القرآن وأنصتت فى بعض الأحيان إلى بعض المواعظ والدروس الدينية، لا يمكن أن تشعر بأى شعور دينى؟ إننى كثيرا ما تغلبنى الدموع وأنا أنصت مثلا إلى قصيدة "قل: ادع الله"، التى تغنيها نجاة، وأستغرب كيف قد يظن الواحد منا أن نجاة إنما تغنى فقط بدافع الشهرة الفنية ليس إلا دون أن يكون فى فؤادها أى خشوع أو رغبة فى رضا الله، ولو فى ركن من أركان قلبها. والله أعلم!

وهناك كتاب أغان ومطربون وملحنون معروف عنهم التدين وحب الإسلام، منهم أحمد صدقى، الذى حج بيت الله الحرام وعمل عمرة مرات متعددة، وكان يصلى ويصوم كثيرا، ومحمد قنديل، الذى ذكر الأستاذ ميكى ماوس فى حديث تلفازى له أنه كان يصلى مع لا أدرى مَنْ مِنَ الملحنين حين يذهب إلى بيته ليحفّظه اللحن. ورأيت ذات مرة الملحن حلمى بكر فى حلقة من حلقات التلفاز التى يحلل فيها الأغانى والألحان للمستمعين يمسح دموعه، التى خانته ونزلت رغما عنه وهو يستمع إلى أغنية أسمهان الشاهقة الجمال والجلال عن المحمل النبوى. ذلك أن الأغنية فعلا مشجية مبكية رغم أن الرجل لم يشتهر بتدين. وأنا لا أذكر أننى سمعتها إلا وجاشت نفسى وأرادت دموعى أن تفر من مآقىّ لولا مغالبتى لها. وبالمناسبة فقد كانت أسمهان معروفة بسلوكياتها المثيرة للأقاويل، علاوة على ما اتُّهِمَتْ به من عمالتها لبعض القوى الأجنبية مما انتهى بها فى آخر المطاف إلى اغتيالها إغراقا فى البحر حسبما تقول بعض الروايات. لكن هذا شىء، وكون الأغنية بصوتها العبقرى مشجية مبكية شىء آخر. كما قرأت عن عبد اللطيف التلبانى، فيما كُتِب عنه من مقالات عقب ميتته المأساوية عام ١٩٨٩م، أنه رحمه الله كان دائما ما يمد يد المساعدة للطلاب المحتاجين. ولدينا كذلك المرحوم عبد الفتاح مصطفى، الذى كتب لنا طائفة من الأغانى والقصائد المبدعة، ولحنها وغناها كبار الملحنين والمطربين، وكان متدينا وأطلق لحيته فى أواخر عمره أيام لم تكن اللحية قد انتشرت انتشارها هذه الأيام حتى إن ضباط الشرطة وأمناءها يتظاهرون ويرفعون على وزير الداخلية الدعاوى كى يتركهم يربون

لحاهم، فى الوقت الذى يتقاعس فيه رجال الشرطة عن تأدية واجباتهم التى يأخذون عليها مرتباتهم، وقد ضِرْتُ أنا شخصيا ضيرا كبيرا، وما زلتُ، جراء هذا التقاعس.

وكانت هدى سلطان قد عادت فى آخر حياتها بعدما تحجبت بوقت طويل إلى تأدية بعض أغانيها بصوتها الذى كان لا يزال يحتفظ بشىء كثير من نضارته رغم السن العالية. وكانت تشعر بالبهجة العارمة وهى تتلقى تحية المستمعين وتستعيد ذكريات شبابها فى الحفل الذى شدت فيه بأغنية "إن كنت ناسى أفكّرك" حتى لقد ظننتُ أنها تبكى أو توشك أن تبكى. وآه لو عاد الشباب! لكنه للأسف لا يعود! وقد علق شخص اسمه رضا بدير على تسجيل الأغنية فى اليوتيوب قائلا: "الله يرحمك يا هدى زميلة العمر! عزفت معاها كثير على آلة الناى فى أعمال كثيرة". وبمناسبة هدى سلطان كنت فى طفولتى، حين أسمعها، فى أغنية "أول ما غِنيه جات ف عيونى"، وهى تقول: "قتلونى يا بوى قتلونى"، أتصور أنها تغنيها من القبر بعد أن قتلها الجناة، وبخاصة أن فى الأغنية لوعة حارقة وشجنا باهظا، غير دارٍ أن القتلة هم عيون حبيبها. ولكن أنى لى فهم ذلك فى طفولتى الساذجة؟ وبالمثل هناك نجاح سلام، التى تحجبت هى أيضا، ولا تزال تغنى بحجابها بين الحين والحين. وغَنِيّةٌ عن الذكر إفراج الحصرى (ياسمين الخيام)، التى ظلت تغنى رغم عودتها إلى الحجاب، الذى كانت قد خلعته زمنا، وذلك قبل أن تهجر الغناء كلية. والمعروف أن د. عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق كان يشجعها على الغناء: النظيف منه طبعا، وناله هجوم شديد من بعض المجلات الدينية وقتئذ فيما أذكر. وقد اختتمت شادية حياتها الغنائية بأغنية تتضرع فيها من أعماق الفؤاد رغم أنها كانت قد عزمتْ قبلا على مغادرة الساحة الفنية: غناءً ومسرحًا وأفلامًا. وكان الشيخ محمد الغزالى يستمع أحيانا إلى الغناء فى المذياع، وذكر ذلك فى بعض كتبه مستشهدا ببعض الأغانى الخالية مما يعاب ويُذَمّ... إلخ. بل إنه، فى كتابه: "من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث"، ليرى أن حب الاستماع إلى الغناء هو جزء من الفطرة التى لا ينبغى ولا يمكن أن تحارَب، بل يحسن الاستفادة منه فى تجديد النشاط الهامد

ومحاربة الإحساس بالملل وإيقاظ المشاعر الغافية ودعم الأخلاق القويمة واستنهاض همم العاملين ومساعدتهم على مواجهة الإرهاق والتعب وتحميس الناس للدفاع عن أوطانهم ودينهم بدلا من ترك الشباب يصغون إلى الأغانى الهابطة المستفزة للشهوات وأمثالها. مرة أخرى أنا أتحدث عن الغناء وحده، أما ما قد يصاحب الغناء من أمور خارجة عن الذوق واللياقة أو الخلق والدين فلا يدخل فى كلامى، ولست مسؤولا عنه.

ثم هأنذا أستمع إلى أغنية "فستان العيد"، التى يغنيها الثلاثى المرح مع جماعة من البنات الصغيرات، والتى لا أسمعها أبدا إلا وعدت من فورى على أجنحة الفن البديع إلى صباى حين كنت أسمع هذه الأغنية الرائعة دائما يوم العيد، فأتخيل سلوى حين كانت صغيرة تلبس فستان العيد الجديد والدنيا لا تسعها من الفرحة، ولا تريد أن تغادر موقفها أمام المرآة تتطلع فيها إلى فستانها الجميل، وكذلك حفيدتى لالة، التى لا أكف عن إطراء جمال فستانها الذى اشترته لها ماما بفلوس بابا، وأرى على وجهها علائم السعادة. فهل هناك "بنى أدوم" يمكن أن يرى فى تلك الأغنية إثما يردى صاحبه (مؤلفا وملحنا ومطربات، ومستمعا منحرفا فاسدا مثلى فوق البيعة) فى جهنم الحمراء؟ كل واحد حر، وقد خلقنا الله مختلفين، وخلق من البشر من لا يرتاح ولا يقرّ له قرار إلا إذا نكد على عباد الله المساكين، بينما ترى كثيرا من هؤلاء المنكّدين على غيرهم يعيشون دنياهم بالطول والعرض والتهافت المقيت والتدنى الذليل، وبالمخالفة التامة لما ينادون ويتفيقهون ويتنطعون به أمام الناس، وهو ما يجعلهم محط السخرية والتهكم والتشنيع والتصوير الكاريكاتيرى فى الأفلام والأغانى والمونولوجات والمسرحيات والروايات، وآخرها رواية "مولانا"، بغض النظر عن نية المهاجمين، وهل هم يحبون دينهم فعلا أو يهتبلونها فرصة لتسوية حساباتهم مع الدين نفسه متظاهرين بأنهم إنما يبغضون التنطع ويسخرون من التفيهق. أما نحن، عباد الله المساكين، فنؤمن برب كريم رحيم خلق عباده وسخّر لهم الدنيا وخلق لهم أفراحا ومسرات حلالا زلالا ليس عليهم حرج فى هُفُوّ أرواحهم إليها، وشرع لهم دينا يقوم على

التيسير، ويكره التنكيد . آمنت بالله ربا، وبمحمد نبيا ورسولا ليس هناك نبى ولا رسول فى قامته السامقة، وبالإسلام دينا عبقريا ليس كمثله دين.

هذا، ولم أقل شيئًا عما تحويه تلك الأغنية من القيم الإنسانية الجميلة كالفرحة التى أمرنا الرسول أن ندخلها على قلوب أهلينا فى العيد، وبخاصة الأطفال، الذين كان صلى الله عليه وسلم، يحبهم ويحنو عليهم ويعمل بكل سبيل على إبهاجهم وإسعادهم، وكالدعاء الذى تبتهل به الصغيرة لربها كى يطيل عمر بابا، الذى اشترى لها فستانها الجميل من خيره، وكالذوق البديع المتمثل فى الفستان الفاتن الذى تباهى به البنت لداتها حتى إن الدنيا لا تسعها من الفرحة. ثم هناك الكلمات الرائعة واللحن الساحر والغناء الفريد، وهذه كلها حسنات سوف يجزى بها الله كل واحد منهم جزاء حسنا بعشرة أمثال ما عملوا إلى سبعمائة ضعف، بل إلى ما شاء الله بغير حساب. إن الأغنية لتطفح بالمرح والبهجة بدءا من كلماتها التى تجسد سعادة البنات بفساتينهن تجسيدا، ومرورا باللحن الراقص المرح بإيقاعه السريع، وانتهاء بصوت الثلاثى المرح والبنات الصغيرات اللاتى لقنهن الملحن كلمات وأصواتا يرددنها لم يكن لها موضع فى الأغنية، فزادتها رغم ذلك فتنة فوق فتنتها الأولى. ولو كان الجاحظ حيا بيننا الآن وسمعها وسمع قول البنت الصغيرة السعيدة فيها عن فستانها الجديد: "ما بتشبعشى منُّه عنَيَّه" لقال عن الأغنية المرحة التى تكاد تطير فى الجو من شدة ما فيها من البهجة وحلاوة اللحن الراقص على دقات قلوب الصبايا الفرحات ما قاله أبو شعيب القَلّال عن قصيدة النواسى: "لو نُقِرَ هذا الشِّعْر لَطَنّ". لكنْ للأسف قد مات الجاحظ منذ قرون. فوا خسارتاه ألا تجد تلك الأغنية البديعة من يقدِّر لطفها وروعتها بعد أن فقدنا عمنا الكبير أبا عثمان!

وبالمناسبة ففى هذه الأغنية عبارة لم أسمع بها من قبل، وهى عبارة "شَبُّوا ولَبُّوا من فستانى"، التى تقولها البنت الصغيرة صاحبة الفستان عن بنات الحارة واشتعال غيرتهن حين أبصرن عليها الفستان الجميل الذى تزين صدره ركامة، وفَصَّلَتْه ماما . ولو سمعها زكى مبارك لقال عنها، بعبارته المشهورة عنه، إنها "وثبة

من وثبات الخيال"، لكن زكى مبارك كان قد مات قبلها ببضعة عشر عاما . وثم شىء آخر طريف فى الأمر، وهو أن الفتاة تبدى غبطتها بغيرة البنات الأخريات من فستانها رغم اعتقاد المصريين عموما، الذين منهم أم الفتاة بكل تأكيد، بأن عين الحسد والغيرة تضر أى شىء تقع عليه. أفلم تخش أم البنت أن تجىء الطوبة فى المعطوبة فتظهر لابنتها بنت ذات عين شريرة تندبّ فيها رصاصة تنظر إلى فستانها فينشقّ حتتين، ومن ثم تفسد فرحة ابنتها ؟ فلماذا تركتها إذن تخرج به متعرضة للعيون؟ نعم لماذا لم تحبس ابنتها فى البيت طوال يوم العيد وتنكد عليها بإمساكها عندها وحرمانها من اللعب مع لِدَاتها، أو على الأقل: لماذا لم تلبسها فستانا قديما مرقعا حائل اللون لا يستفز عيون الحاسدات؟ والله فكرة! ويمكنها أن تفعل ذلك فى العيد القادم، وعليكم خير!

إن الأغانى، كما قلت، ليست فقط الصوت الذى نسمعه ولا الكلام الذى يغنيه هذا الصوت، بل هى أيضا الماضى الذى ينتفض حينئذ ويتجسد رَأْىَ العين ومِلْءَ الكيان فى أسى جياش وحنين غلاب كثيرا ما يثير الدمع فى المآقى. وهو بلسم للقلب المتعب والبال الحيران. وهو، للجند فى القتال، بطولة وعزيمة مضافة إلى بطولتهم وعزيمتهم، وليس عبثا ولعبا كما قد يظن بعض الناس. والنبى عليه الصلاة والسلام قد سمح لجارية بالغناء فى بيت عائشة، وطلب من زوجته أن ترسل مع عروس من عرائس المسلمين من تغنى لها ليلة الدّخْلَة على زوجها . . . وعلى كل حال فأقصى ما يمكن قوله فى الغناء أنه موضوع خلافى بين الفقهاء. ولابن حزم مثلا والإمام الغزالى وعبد الغنى النابلسى وشلتوت والقرضاوى بحوث فى هذا الموضوع لا ترى فيه مذمة أو معابة أو مأثما، بل متعة حلالا ما دامت لا تخرج عن الدين.

وأنا أزيد على ذلك أن الأغانى قد تكتب، كما يكتب أى عمل بشرى آخر، فى صحائف حسنات الشعراء والملحنين والمغنين الذين تعاونوا فى إبداعها على هذا النحو. ألم يتقنوا عملهم، والإتقان قيمة حضارية وإسلامية ألح عليها سيدنا النبى عليه الصلاة والسلام؟ ألم يتيحوا لنا أسباب البهجة والرضا بما

أبدعوه وعرضوه علينا وأدخلوا به السعادة على نفوسنا ؟ إن هناك من عباد الله "الصالحين" من يريدون أن يظل الناس طول الوقت مقطبة لا تنفرج شفاهها عن بسمة ولا أفواهها عن كلمة سرور وابتهاج، وكأنهم أَعْطَوْا من أنفسهم عهدا لله ألا يَدَعُوا أحدا سعيدا وأن يعملوا كل ما فى طاقتهم للتنكيد على البشر. ترى كيف كان لنا أن نقطع طريق الحياة الطويل المرهق لو أنها خلت من هذه المسرات الجميلة البريئة من أغان عاطفية ودينية ووطنية واجتماعية وعائلية وفكاهية ووصفية وأطفالية؟ إن الحياة، فى جانب منها غير صغير، مملة وحزينة وقلقة وتدعو إلى الرثاء والبكاء، وكثير من أحداثها يعصر القلب عصرا، فماذا نفعل إزاء ذلك؟ هل نطقّ من أجنابنا حتى ينبسط بعض عباد الله النّكَدِيّين أم نسمع الأغانى، التى تربِّتُ على الكتف المرهق، وتبتسم للعيون الحزينة، وتبث الطمأنينة فى القلوب المرتجفة، وتدهن بالبلسم الشافى الأكباد المقروحة، وترسم الفرحة على الشفاه المكتئبة المزمومة؟ لا يا عم، نسمع الأغانى أفضل، فالحياة لا تنقصها الكآبة والتعاسة حتى نزيدها شقاء وإحباطا .

ثم ما دمنا نتحدث عن موقف الدين من الأغانى فلا يصح أن ننسى الأغانى الدينية، فمن شأنها تعميق الشعور الدينى فى نفس المسلم. وإنى أتساءل مرة أخرى: هل يعقل أن المطرب أو المطربة التى تغنى شيئا دينيا تخلو نفسها تماما من العاطفة الدينية، ويكون كل اهتمامها منصبا على تقديم أغنية تفرقع فى الساحة الفنية فقط؟ أنا لا أظن ذلك، إذ المغنى أو المغنية إنما هو شخص مسلم قبل كل شىء، ولا يمكن أن يخلو قلب كل مغن أو مغنية من النبض الدينى مهما كان فى حياته الشخصية بعيدا عن أداء العبادات ويعيش على حَلّ شَعْره كما نقول فى مصر. بل إن كثيرا منهم ومنهن آتون من بيئات متواضعة ليس فيها تمرد على الخلق الكريم ولا تعرف الفجور منهجا حياتيا، بل ترتبط بالدين الارتباط العادى فى أقل تقدير. كما أن منهم متدينين متمسكين تمسكا قويا بدينهم. وكثيرا ما يتردد فى نفسى هذا التساؤل وأنا أستمع مثلا إلى قصيدة "قُلِ: ادْعُ اللهَ إن يَمْسَسْكَ ضُرٌّ"، التى تغنيها كل من نجاة الصغيرة وشادية، وما من مرة سمعتها فيها إلا وشبت أحاسيسى

الدينية والتهبت وشعرت أنى ألامس النجوم، وآخذ فى التساؤل: أيعقل أن يكون كل هذا الشجن مرده إلى الرغبة فى تجويد العمل الفنى ليس إلا ؟ أمن المعقول أن نجاة وشادية، وهما تغنيان تلك القصيدة الرائعة على أنغام اللحن البديع لكمال الطويل، كان قلباهما خاليين تماما من أية حماسة دينية؟ أما أنا فلا أستطيع أن أمضى مع هذا الافتراض الغريب. وعلى أية حال لا أظن أن عاقلا يظن أن غناء نجاة أو شادية لهذه القصيدة يثير شهوات المستمعين.

وقد تناول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق هذا الموضوع فى كتابه: "الفتاوى" فقال ما نصه: "الأصل الذي أرجو أن يُتَنَبَّه إليه في هذا الشأن وأمثاله مما يختلفون في حِلِّه وحُرمته هو أن الله خلَق الإنسان بغريزة يَميل بها إلى المستلذات والطيبات التي يَجِدُ لها أثرًا طيبًا في نفسه، به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه. فتراه ينشرح بالمناظر الجميلة، كالخُضرة المُنَسَّقَة والماء الصافي الذي تلعب أمواجه والوجه الحسَن الذي تنبسط أساريرُه، وينشرح صدرُه بالروائح الزكيَّة التي تُحْدِث خِفَّةً في الجسم والروح، وينشرح صدره بلَمْسِ النُّعومة التي لا خشونة فيها، وينشرح صدره بلذَّة المعرفة في الكشف عن مجهول مَخْبُوءٍ، وتراه بعد هذا مطبوعًا على غريزة الحب لمشتهيات الحياة وزينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرْث.

الشرائع لا تَقضي على الغرائز بل تنظمها: ولعلَّ قيام الإنسان بمُهِمّته في هذه الحياة ما كانت لِتَتِمَّ على الوجه الذي لأجله خلَقه الله إلا إذا كان ذا عاطفة غريزية تُوجهه نحو المشتهيات وتلك المُتَع التي خلقها الله معه في الحياة، فيأخذ منها القدْر الذي يحتاجه وينفعه. ومن هنا قضت الحِكمة الإلهية أن يُخْلَق الإنسان بتلك العاطفة، وصار من غير المعقول أن يطلب الله منه، بعد أن خلَقه هذا الخلْق وأودع فيه لحِكمته السامية هذه العاطفة، نزْعها أو إِمَاتتها أو مُكافحتها في أصلها . وبذلك لا يُمكن أن يكون من أهداف الشرائع السماوية في أيِّ مرحلة من مراحل الإنسانية طلبُ القضاء على هذه الغريزة الطبيعية التي لابد منها في هذه الحياة.

نعم للشرائع السماوية بإزاءِ هذه العاطفة مطلب آخر يتلخص في كَبْح الجِمَاح، ومعناه مكافحة الغريزة عن الحدِّ الذي ينسى به الإنسان واجباتِه، أو يُفسد عليه أخلاقه، أو يحول بينه وبين أعمال هي له في الحياة ألزم، وعليه أوجب.

التوسُّط أصلٌ عظيم في الإسلام: ذلك هو موقفُ الشرائع السماوية مِن الغريزة، وهو موقف الاعتدال والقَصْد لا موقف الإفْراط ولا مَوقف التفريط، هو موقف التنظيم لا موقف الإماتة والانتزاع. هذا أصلٌ يجب أن يُفهم، ويجب أن تُوزَن به أهداف الشريعة السماوية. وقد أشار إليه القرآن في كثير من الجُزئيات: "ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ". "يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا"، "واقْصِدْ فِي مَشْيِكَ واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ".

وإذنْ فالشريعة تُوجِّه الإنسان في مُقتضيات الغريزة إلى الحدِّ الوسَط: فهي لم تنزل لانتزاع غريزة حُبِّ المال، إنما نزلت بتَعديلها على الوجه الذي لا جشَع فيه ولا إسراف. وهي لم تنزل لانتزاع الغريزة في حُبِّ المناظر الطيبة ولا المسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على ما لا ضرر فيه ولا شر. وهي لم تنزل لانتزاع غريزة الحُزْن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي لا هلَع فيه ولا جزَع. وهكذا وقفت الشريعة السماوية بالنسبة لسائر الغرائز. وقد كلَّف الله العقل، الذي هو حُجته على عباده، بتنظيمها على الوجه الذي جاء به شرعه ودينه. فإذا مال الإنسان إلى سماع الصوت الحسن أو النغم المستلذ من حيوان أو إنسان أو آلة كيفما كانت، أو مالَ إلى تعلُّم شيء من ذلك، فقد أدَّى للعاطفة حقَّها. وإذا ما وقف بها مع هذا عند الحدِّ الذي لا يصرفه عن الواجبات الدينية أو الأخلاق الكريمة أو المكانة التي تتَّفِق ومركزه كان بذلك مُنظمًا لغريزته، سائرًا بها في الطريق السوي، وكان مَرْضِيًّا عند الله وعند الناس. بهذا البيان يتَّضِح أن موقف الشاب في تعلُّم الموسيقى مع حرصه الشديد على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها وعلى أعماله المكلف بها

موقف، كما قلنا، نابعٌ من الغريزة التي حكَمها العقل بشرع الله وحكمه، فنزلت على إرادته. وهذا هو أسمى ما تطلبه الشرائع السماوية من الناس في هذه الحياة.

رأْي الفقهاء في السماع: ولقد كنتُ أرى أن هذا القدْر كافٍ في معرفة حكم الشرع في الموسيقى وفي سائر ما يحب الإنسان ويهوَى بمقتضى غريزته لولا أن كثيرًا من الناس لا يكتفون، بل ربما لا يؤمنون، بهذا النوع من التوجيه في معرفة الحلال والحرام، وإنما يقنعهم عرض ما قيل في الكتب وأُثِر عن الفقهاء. وإذا كان ولا بد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع في إثارة الشوق إلى الحج، وفي تحريض الغُزاة على القتال، وفي مناسبات السرور المألوفة كالعيد والعُرس وقُدوم الغائب وما إليها. ورأيناهم، فيما وراء ذلك، على رأيين: يُقرر أحدهما الحُرْمة، ويستند إلى أحاديث وآثار. ويُقرر الآخر الحِلّ، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار. وكان من قول القائلين بالحِلّ: "إنه ليس في كتاب الله ولا سُنّة رسوله ولا في معقولهما من القياس والاستدلال ما يقتضي تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات". وقد تعقّبوا جميع أدلة القائلين بالحُرمة وقالوا: إنه لم يصحَّ منها شيء.

رأْي الشيخ النابلسي: وقد قرأت في هذا الموضوع لأحد فقهاء القرن الحادي عشر المعروفين بالورَع والتقوى رسالة هي: "إيضاح الدلالات في سماع الآلات" للشيخ عبد الغني النابلسي الحنفي قرر فيها أن الأحاديث التي استدل بها القائلون بالتحريم، على فرض صحتها، مُقيدة بذكر الملاهي وبذكر الخمر والقيْنات والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك. وعليه كان الحُكْم عنده في سماع الأصوات والآلات المُطرِبة أنه إذا اقترن بشيء من المُحرّمات أو اتُخِذ وسيلةً للمُحرّمات أو أُوقعَ في المحرمات كان حرامًا، وأنه إذا سلِم من كل ذلك كان مباحًا في حضوره وسماعه وتعلُّمه. وقد نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء، أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من

المجون والمُحرَّم. وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء. وهو يُوافق تمامًا، في المغزى والنتيجة، الأصل الذي قرَّرناهُ في موقف الشريعة بالنسبة للغرائز الطبيعية.

الأصل في السماع الحِل والحُرْمة عارضة: وإذن فسماع الآلات ذات النغمات أو الأصوات الجميلة لا يُمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان أو صوت حيوان، وإنما يُحَرَّم إذا استُعين به على محرم أو اتُخِذ وسيلةً إلى محرم أو أُلهى عن واجب. وهكذا يجب أن يعلم الناس حُكْم الله في مثل هذه الشئون. ونرجو بعد ذلك ألا نسمع القول يُلْقَى جُزافًا في التحليل والتحريم، فإن تحريم ما لم يُحَرِّمه الله أو تحليل ما حرَّمه الله كلاهما افتراءٌ وقَوْلٌ على الله بغير علم: "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ والإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ)" (الأعراف/ ٣٣). والله أعلم". عفارم عليك يا أبا الشلاتيت!

ومع هذا كله لا بد من قول كلمة عما شاهدته لتوى فى اليوتيوب من مشهد تغنى فيه نجاة الصغيرة أغنية أحبها وأجدها رقيقة مشجية وتنفعل نفسى لها انفعالا عظيما، وهى أغنية "حمد الله ع السلامة"، ولم أكن أعرف أنها جزء من فلم. لكنى ما إن رأيت المغنية ذات الصوت الهامس الحالم الرقيق تستعد لاستقبال حبيبها محمود يا سين وقد أخذتها الحيرة فى اختيار الملابس التى ينبغى أن ترتديها فى استقباله رغم أن الملابس التى كانت تضعها على جسمها قد تخطت حدود الروعة والفتنة بأزمان شاسعة، ويدخل عليها بطل الفلم ويعدو نحوها متلهفا ويأخذها فى أحضانه ويحملها ويدور بها فى الغرفة وهى ملتصقة به التصاقا ثم ينزلها ويراقصها وقد تاها عن الوجود ثم يجثو عند قدميها فتنحنى عليه بوجهها فيغرق صدرها بالقبلات (وكفاية لحد هنا حتى لا يرفعا علىَّ قضية ويكسباها ويحبسانى سنة أنا أيضا، وأنا رجل لا قِبَل لى بالسجن ولا بالحبس حتى ولو فى بيتى)، ولم يشعرا بأنى أنظر إليهما وينبغى أن يراعيا وجودى ويستحييا منى، حتى

شرعت أضحك وأقول لنفسى بصوت عال وكأننى أخاطب رجلا سواى: ليس لك حق يا عم إبراهيم فيما قلتَه ترد به على كارهى الغناء، فهأنتذا ترى بأم عينيك وأبيهما ما ترى. فهل ترضى بهذا؟

لكن شيطان الجدل والفن سرعان ما التقط أنفاسه، وبدأ فى الهجوم المضاد قائلا فى قوة: ألم نقل قبلا إننا لسنا مع أى شىء إضافى فاسد أو مفسد فى الغناء؟ نحن ما زلنا على موقفنا من رفض أية إضافات غير غنائية! فألفيت نفسى أنظر إليه من تحت لتحت، وأنا أقول له: عَلَى بابا هذا الكلام يا عفريت يا ابن العفريتة؟ يبدو أنك لن تكف عن جدالاتك ووسوساتك حتى تردينى معك فى النار! وبالمناسبة فالأستاذ خالد صالح، وهو مصور للأفلام الوثائقية ويجمع بين حب الفن والدين تعرفت به منذ فترة قريبة، يقول لى مؤكدا إن الفنانين يرون فى هذه الأدوار عملا فنيا بحتا لا حرمة فيه، وهم لهذا يستغربون انتقاد من ينتقدهم فى القيام بها. إلا أننى، رغم أنى لست من المحبكين كما يرى القارئ، لا يمكننى الموافقة على مثل تلك التصرفات: لا فى الحياة ولا على الشاشة. ولكن لكى تكتمل الصورة لا بد من أن أذكر هنا ما سمعته منذ سنوات غير قليلة من فم زوجة ممثلنا المشهور فى حوار لها بإحدى الفضائيات من أنه يختم القرآن: لا أدرى أقالت: كل ثلاثة أيام، أم كل شهر ثلاث مرات! يا شيخة، قولى كلاما غير هذا!

وقبل أن أغادر ساحة الغناء وتعارض الرأى فيه تحريما وتحليلا أعرّج على الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى العالم والكاتب السعودى المعروف، الذى كان مغرما بالغناء مولها بنجاة الصغيرة بالذات وَلَهًا لم يكن، فيما يبدو، والله أعلم، ولها فنيا غنائيا فقط، بل عاطفيا أيضا حتى لقد ألف كتابا فى "أم الوليد" كما كان يسمى المطربة ذات الصوت العجيب الذى لم يخلق الله صوتا مثله (تكنية لها بابنها الوحيد: "وليد")، وأتى إلى القاهرة وقابلها بمعرفة بعض المصريين وقابلها وأهداها نسخة منه فى شقتها بالزمالك، فشكرته وأنبأته أنها، لو لم تكن القصائد الهائمة التى فى الكتاب قد نُظِمت فيها، لغنت منها شيئًا، وهو ما لم يعجبه إذ ورد على خاطره فى الحال أنها غنت لكامل الشناوى قصيدة "لا تكذبى"، وهى إنما نظمت فيها كما يعرف

الناس جميعا، وإن لم يبح لها بما دار فى خاطره، بل مكث حييا مرتبكا يعبث بأصابعه دون أن يدرى. وقد وصفها فى هذا اللقاء وقد ارتدت طرحة شفافة لم تغط رقبتها ولا صدرها. وقد ضحكت وهو يقول هذا وعلقت فيما بينى وبين نفسى: أنت طماع يا أبا عبد الرحمن. أوكنت تريد من نجاة أن تقابلك منتقبة كامرأة سعودية داخل السعودية؟ أقول: "داخل السعودية" لأن كثيرات منهن ما إن يصعدن إلى الطائرة مغادرات بلاد الحرمين حتى يخلعن ملابسهن التقليدية ويلبسن ملابس عادية، وأحيانا أبعد من العادية. أما فى البلاد التى يزرنها، وبخاصة إذا كانت أوربية، فإنهن يذهبن أبعد وأبعد. احمد الله أنها قد وضعت طرحة على رأسها، وإن كانت شفافة ولم تغط كل شعرها ولا جاءت ناحية وجهها أو صدرها. ويبدو أن فشل الشيخ الظاهرى فى أن تغنى له نجاة شيئًا من شعره الذى كتبه فيها، وبعد كل الذى تجشمه وتكلفه من أجل هذا اللقاء، إضافة إلى ما كان يلقاه من لوم وعتاب من مشايخه ومعارفه بسبب غرامه بالطرب، قد بغّضاه فيه، فتاب عنه كما يقول، وغير رأيه وكتب ذلك على رؤوس الأشهاد.

ومما قاله فى ذلك ما صرح به فى حوار أجرته معه صحيفة "الجزيرة" السعودية فى أواخر شعبان وأول رمضان لعام ١٤٢٨هـ من "أن لإبليس، لعنه الله، حيلة لئيمة بالدفع إلى الصوت الجميل بحجة جمال الأداء، ولكن الممارسة أثبتت أن المستحسَن على الحقيقة الصورة والتكسُّر العاطفي، وأن الأداء شيء ثانوي". ومن رأيه أيضا، كما ورد فى هذا الحوار، أن "الغناء جزء من الفن وليس رديفا له، ومن الغناء بدون آلة ما هو مباح في نطاق ضيق رحمة من الشرع بشرط التجرد من المحظورات كتجديف الكلمة وإثارة الغدد الجنسية. ومناسبات ذلك ضيقة كالأفراح والأعياد. ومع هذا فترك استماعه أفضل، وثبت لي بالتجربة العريضة أنه لا مكان للغناء المميت للقلب إذا حصلت العناية (بالتفرغ الكامل في وقت من الأوقات) لسماع كلام الله بصوت جميل جدا كصوت محمد رفعت وعبدالباسط عبدالصمد، مع التأمل لمعاني التلاوة،

والمراجعة السريعة في كتب التفسير والقراءات، أو تسجيل ما ينبغي مراجعته إن ثقل على الإنسان المراجعة. ولهذا بحمد الله لا أضيع من وقتي شيئًا".

والرجل حر فى موقفيه: فى موقف المتعلق بالغناء أولا، وفى موقف الرافض له الطاوى كشحه عنه آخرا، سواء كان هذا الطى نابعا من نفور فعلى أو كان عن رغبة فى تجنب النقد والإحراج فى بيئة محافظة، وهو الشيخ الملتحى الذى يتحدث فى وسائل الإعلام فى التفسير وشرح الأحاديث النبوية المشرفة. إلا أن كلامه عن دور إبليس فى مسألة الغناء يحتاج إلى وقفة، إذ لا يعنى إلا شيئًا واحدا هو أن الغناء جميعه عمل نسائى لا صلة للرجال به. وهذا طبعا غير صحيح البتة.

كما يفهم، من كلامه عن دور النظر إلى المغنية والاستمتاع بتكسرها العاطفى فى خلق التعلق بالغناء، أن كل الأغانى مرئية، وكلها تقوم على التكسر العاطفى. ولعله يقصد الإثارة الجنسية كما تشير إشارته الخاصة بالغدد الجنسية. فهل الأغانى العاطفية الحزينة تؤدى إلى إثارة الشهوات؟ هل كانت أغانى نجاة الصغيرة تثيره جنسيا؟ إن معظمها، إن لم تكن كلها تقريبا، أغان باكية دامعة كما نعرف كلنا. وقد كتب عنه أحدهم ذات مرة: "مرت بأبي عبد الرحمن فترة كان يسمع فيها هينمات ما فيَخْضَلّ دمعُه ويَغَصّ بريقِه". كما أن كثيرات من المغنيات غير جميلات، بل مقبولات فقط، وبعضهن ينزلن درجة أو أكثر عن تقدير "المقبول". أما أن هناك محتوى: عاطفيا أو وطنيا أو فكاهيا أو اجتماعيا أو تصويريا إلى جانب الأداء فهذا أمر طبيعى، وهو مسؤول مع الأداء عن تعلقنا بذلك الفن لا الأداء وحده. فالأداء بدون مضمون لا يمكن أن يملك علينا حسنا وقلبنا كما تصنع الأغانى بنا، وإلا فلم بالله نسمع الأغانى العاطفية أو الوطنية بهذا التبتل، ويبكى الكثيرون وهم ينصتون إليها، إذا كانت مجرد أداء؟

على أن هذا لا يمنع أن يقع بعض المستمعين، حتى لو كانوا مشايخ ملتحين، فى حب هذه المغنية أو تلك. فهو أمر متوقع، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن. وعلى كل من يمر بهذه التجربة ألا ينساق معها،

وليعرف أن المغنية التى يعشقها ليست فاضية له، كما أن هناك من أمثاله المغرمين صبابةً الكثيرين. فلو استجابت المغنية لكل من وقع فى غرامها فلن يكون عندها وقت حتى لدخول الحمام! بل لسوف تموت قبل أن تلبى طلبات الهائمين المنتظرين أمام باب شقتها فى طابور طويل من هنا حتى السعودية فى تبتّل وخشوع وبكاء ونهنهة ودموع. ثم إنها ليست بالصورة البراقة التى تبدو عليها لنا.

قال لى أحدهم مرة إن فلانة الممثلة الرقيقة التى كانت متخصصة فى إبكاء المشاهدين لأفلامها من شدة رقتها وملائكيتها وبؤس نفسيتها وما يقع عليها من ظلم ومآس كانت، إذا راجعها المنتجون فى قيمة الأجر الذى تريده تشخر لهم. يا ناس، اشكروا ربنا وتمتعوا بالصوت الجميل الشجى وبَسْ، ودعوا الست المغنية فى حالها كى تظل قادرة على أن ترفدكم بفنها البديع، والحمد لله أنها لا تشخر لكم كفلانة الملاك الطاهر التى تذوب رقة وحياء. وبعد فأنا متعاطف مع الشيخ الظاهرى الظريف الذى لم يتنكر لطبيعته الإنسانية فتعلق زمنا بالغناء الجميل من نوعية صوت نجاة، الذى يستدر الدمع من المآقى، وأعذره فى رجوعه عن حب الغناء حتى لو كان هذا الرجوع من خارج القلب. وكنت، وأنا فى السعودية، منذ نحو عشرين عاما، أسمع عنه الكثير، وإن لم أقرأ له شيئًا ذا بال. وهو ما أرجو أن أعوض شيئًا منه الليلة بقراءة كتيِّبه عن عبد الله القصيمى بلديّه المتمرد.

أما الكتاب الذى ألفه الشيخ ابن عقيل الظاهرى عن نجاة فإليك، يا عزيزى القارئ، قصته من فمه ذاته حسبما رواها لصحفى بجريدة "المدينة" السعودية بتاريخ ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٩م: "وأما سؤالك عن الكتاب الذي ألفته عن نجاة فهو مختارات من ديواني: "النغم الذي أحببته". وأظن أن ذلك قبل طبعه مع صورة مهيِّجة وترجمة ضافية وسرد لأغانيها وتواريخها وملحنيها وأصحاب الكلمات. وقد نُشِر بمجلة جمعية الثقافة والفنون، وقال لي سعادة الأستاذ محمد الشدي إنه عرض الموضوع على عالم نفسي، فقال: "إن أبا عبدالرحمن عاشقٌ بجدٍّ لمن كتب لها الكتاب". ولما شككتُ في أن أخي الأستاذ حمد القاضي، حرسه الله، وصَله

إليها أرسلته لها مع متأدِّب مصري اسمه علي الفقي، مضيفا إليه بعض مقالاتي الخاسئة عنها، ثم زرتها بصحبته في الزمالك أو أبو المعاطي أو العجوزة (نسيتُ لطول العهد، والحمد لله على هذا النسيان)، فجاءتنا بعد طول انتظار ولم يبد منها غير وجهها، وعلى بعض رأسها طرحة قماش بيضاء شفافة، وقد بدتْ رقبتها وبعض صدرها، وهذا غاية الستر عند فنانات العصر. ورحَّبتْ، وصرفتني إلى الحديث عن السعودية وأدبائها، وقالت: لولا أنني المعنيَّة لغنَّيت بعض الكلمات. ولم أقل: أنتِ غنيتِ "لا تكذبي" لِلْمُدَحْدَح العاشق عن سذاجةٍ: الشناوي، وأنت المعنيّة بذلك. وكان، رحمه الله، دميما كبير البطن قصير الرقبة. فلما بلغ به الشوق مبلغه صرحت له بأنها تحبه لأدبه الجميل، فصُدِم بعدها. لم أقل لها ذلك لأنه عُجِم عَلَى لساني، وضاق نَفَسي، وغصصتُ بريقي، وعَرِقْتُ، وصرتُ أثني أطراف أصابعي من غير وعي لشدة الخجل، فاستغربت هي ذلك. فلما خرجنا قال لي الفقي: يخرب بيتك! خجّلتنا معها! وسرُّ هذه الانغماسة طلاقٌ تكرَّر اضطرارا لأول زوجة لي أُحِبّها حبا شديدا، وعوضني الله بما هو خير في أواسط الكهولة، فَوَلّد لي هذا هياما وحبا وهميا، وتسلياتٍ بالتأوهات الساقطة في ألحان المغنين" .

وبعد، فمما لا ينبغى أن أمر عليه مرور الكرام، وأنا أتكلم عن المرحلة الثانوية من تعليمى، أننى عرفت فى مدرسة الأحمدية بطنطا طلابا نصارى لأول مرة. لقد كانت قريتى التى أتيت منها قرية مسلمة خالصة الإسلامية، إذ ليس فيها كنيسة كما هو الحال فى بعض القرى الأخرى، بل لم يكن فيها سكان نصارى على عكس قرية شفا المجاورة لقريتنا مثلا، إذ كانت فيها أسرة نصرانية فى الخمسينات والستينات من القرن الماضى هى أسرة عوض الله، وإن لم توجد فيها كنيسة. ومع خلو قريتى من أى ساكن نصرانى لأنها قد بنيت فى العصر الفاطمى فيما يبدو، استنتاجا من اسمها المطابق لاسم قبيلة كتامة المغربية، التى آزرت الفاطميين وأرست حكمهم فى مصر، فقد كنت أرى الكنائس فى طنطا وأمرّ بجوارها وأتعامل هنا وهناك مع النصارى، الذين لم يكونوا يشكلون نسبة تذكر فى تلك المدينة. وقد حضرت عرسا ذات مرة فى إحدى الكنائس،

وعمرى خمسة عشر عاما تقريبا، وكنت لا أزال طالبا فى الأزهر، وشاهدت بعض النصارى فى عيد السعف وهم يحملون فى أيديهم سعف النخيل فى شارع السكة الجديدة خارجين من شارع الصاغة حيث كانوا يتركزون. كما كانت هناك خنازير فى شارع الصاغة والمنطقة المحيطة به، ورأيت بعض الشبان ليلا يطاردونها ويضربونها بالنعال وهى ترعى القمامة فى مقلب من مقالبها هناك، وأنا فى الفرقة الثانية الإعدادية الأزهرية. وبالمثل شاهدت فى شارع القنطرة عصر يومٍ جنازةً خارجة من الكنيسة يمشى فيها القُسُوس، وتُضْرَب فيها الصنوج وتُعْزَف الموسيقى، ويتقدمها حصانان يجران عربة عليها نعش الميت متجهة ناحية ميدان الساعة وشارع المديرية فى طريقها إلى المقابر.

والآن أصبحت أجلس فى فصل واحد مع طلاب نصارى، وأذكر منهم الآن أديب، وكان لَسِنًا رغم أنه كان بلسانه ما نسميه فى مصر: "لَثّة"، وكان يحب أن يتحدث فى الدين ويجادل فيه، ولا أستطيع أن أتذكر موقفى من ذلك اللّسِن. بيد أننى أذكر جيدا أننا قد أخذنا فى مقرر التربية الدينية فى ذلك العام الحديثَ النبويَّ الشريفَ الذى يقول: "من ظلم معاهَدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طِيبِ نفسه فأنا حَجِيجُه يوم القيامة". ولا ريب أن هذا الحديث قد ترك أثره الشديد على نفسى وعقلى، فكنت ألتزم ولا أزال ألتزم به حتى الآن فى صرامة ما دام صاحبى النصرانى يتصرف باحترام وكياسة. وقد كان النصارى فى ذلك الوقت، والحق يقال، يحترمون أنفسهم، وكان المسلمون يحترمونهم أيضا.

وأذكر منهم أيضا سعد، الذى ارتبطتُ به بعض الوقت حين كنت فى السنة الأولى الثانوية، وذهبت معه مرة إلى شقتهم فى حارة تصل بين شارعى القاضى وأحمد ماهر من جهة البحر، واستقبلتنى أمه استقبالا طيبا. وقد طلبت منهم فى تلك الزيارة نسخة من الأناجيل، فأَعْطَوْنى نسخة صغيرة كنت أقرأ فيها فأجد أشياء تذكّرنى بالقرآن المجيد، بيد أن الأسلوب الذى صيغ به الكتاب كان مختلف الطعم والنكهة عما أعرفه من الأساليب العربية. كما كان هناك غموض فى بعض الأسفار لعُسْر الصياغة وركاكة العبارة، التى صرتُ

أعزوها الآن، بعدما تعرفت إلى طبيعة فن الترجمة، إلى ركاكتها فى لغتها الأصلية. ولا أستطيع أن أتذكر شيئا آخر يتعلق بذلك الموضوع. ومنهم أيضا قصدى، الذى كان يسكن شقة فى الدور الثانى من أحد المنازل فى طه الحكيم قريبا من شارع الويشى، وكنت أراه أحيانا جالسا فى شرفتهم الصغيرة الرشيقة وأنا مار من هناك. وقد اقترح علىَّ فى آخر ذلك العام قبيل الامتحان أن أدخل معه القسم العلمى كى أكون طبيبا، وبخاصة أننى، كما لاحظ، كنت قويا فى المواد العلمية، فقلت فى نفسى: أُفَكِّر. بيد أننى ما إن دخلت الامتحان الشفوى، وكان السؤال الموجه لى فى مادة "الأحياء" يتعلق بكبد أرنب محفوظة فى مادة كيمائية لعلها الفورمالين ورأيتها وهى على وشك التحلل وشممت رائحتها النفاذة، حتى انقلبت بطنى، وصرفت النظر تماما عن فكرة القسم العلمى. وذهب قصدى بعيدا عنى فى زحمة الحياة بعدما انفصلنا فى تخصصنا، ولم أعد أعرف أى شىء عنه.

وكان من بين أساتذتنا النصارى فى المدرسة أستاذ كان يدرس لنا فى السنة الأولى مادة "الرياضيات". وكان أوربى الملامح إلى حد ما. وكان الطلاب الأشقياء الضخام يطلقون عليه: "فَلْتَس"، فكان ذلك يزعجه ويعصِّبه إلى درجة شديدة. وأذكر الآن ما قاله لنا أحد هؤلاء الشياطين من أنه أخرج لهم بطاقته العائلية وأراها لهم مقسما فى انفعال أن اسمه ليس فلتس. وكان منهم أيضا فى تلك السنة الأستاذ كمال مدرس الجيولوجيا، الذى كان يلبس بدلة سكرية اللون لامعة من قماش الشاركسكين ("الشركستين" كما كنا ننطقها فى ذلك الوقت)، وكان وسيما يفرق شعره اللامع فرقا أنيقا، كما كان صارما يسيطر على الفصل سيطرة تامة رغم أنه لم يكن جسيما ولا طويلا. وكان يتفاصح إذا لفظ كلمتى "صُلْب" و"صَلْد"، اللتين كان ينطقهما: "صَلْب" و"صَلِد" مقلقلا دال الكلمة الأخيرة قلقلة قوية كى يُفْهِمنا نطقها "الصحيح"! وكنت فى دخيلة نفسى أبتسم لمعرفتى أن نطقه للكلمتين خطأٌ بَوَاح. وكان أستاذ الأحياء نصرانيا أيضا، ولكن لم يترك فىَّ أثرا لا طيبا ولا سيئا، إذ كان رجلا هادئا لا يهتم بالاقتراب من طلابه ولا تشجيعهم، بل يكتفى بالشرح فقط. وكذلك

الأستاذ رمزى، وكان يعطينا جغرافيا فى الثانوية العامة، وكان طيبا لطيفا، وكنا نضحك فى حصته ونداعبه، ولكن لا أظن أننا كنا نستهين به. وكان ينطق الواو مفخمة فتبدو لى غريبة جدا أنا الآتى من قريةٍ تُرَقِّقُها .

وكان منهم كذلك الأستاذ فكرى روفائيل، أستاذ التاريخ فى السنة الأخيرة لنا بالمدرسة، وكان فصيحا يحب استعمال العبارات المتميزة كقوله مثلا عن العثمانيين إنهم "دقوا أبواب فيينا فلم تُفْتَح لهم". يقول ذلك وهو يدق على السبورة أمامه بقبضة يده ويضغط على مخارج الحروف، وكأن فيينا تقف فعلا وراء السبورة وترفض أن تفتح للعثمانيين. وكانت هذه العبارة مثار تندر من جانب ابن قريتى وجارى فى التَّخْتَة المرحوم محمد عاشور، إذ كان يرددها مقلدا الأستاذ فكرى على نحو كاريكاتيرى مبالغ فيه. وأهم شىء يَرِد على ذهنى الآن ما لاحظه بعضنا، ولعلى واحد من هذا البعض، من أن الأستاذ روفائيل قد ذكر، بين البواعث التى دفعت المسلمين الأوائل إلى الخروج من جزيرتهم ونشر الإسلام فى أرجاء الأرض، العامل الاقتصادى. وقد ضايقنا هذا، وأحسب أن بعضنا قد ناقشه فيه، وتمت المناقشة بطريقة هادئة ومحترمة من الجانبين. وكنت أتردد على مدرستى هذه حتى بعدما صرت معيدا فى آداب عين شمس، وأذكر أننى قد قابلت الأستاذ فكرى كالعادة فى إحدى زياراتى لأستاذى سيد أحمد أبو رية هناك، وأنبأته بخِطْبَتى الأولى، فأكرم زيارتى وهنأنى على حسن اختيارى، وتمنى لى زواجا سعيدا، وكان ذلك قبل حرب رمضان المجيد . ولا أظننى قابلته بعد ذلك، فقد ترك أستاذى أبو رية الأحمدية إلى طنطا الثانوية، فلم أعد أذهب إلى مدرستى القديمة.

شىء آخر لا بد من ذكره فى هذا السياق، وهو العم فوزى صاحب بيت قديم واسع الغرف عالى الأسقف يسكن حجرة من حجراته بالدور الثانى بعض أصدقائى الأزهريين الذين عرفتهم بعد تحويل أوراقى إلى المدارس، وهم من قُرًى أخرى بعيدة عن قريتى. وفى زورة من زوراتى إليهم أخبرونى أن صاحب البيت ينزل إلى غرفتهم بانتظام ويجلس معهم مناقشا إياهم فى أمور الدين. ترى هل دَعَوْنى إلى المشاركة فى ذلك النقاش؟ لا أستطيع أن أحسم الجواب. لكنهم، فيما أذكر الآن بكل وضوح، تحدثوا إلىَّ عن زميل لهم متمرد

يعلن عدم اقتناعه بالدين، وإن كنت لا أذكر أكان لتمرده ذاك علاقة بتردد مالك المنزل على غرفتهم أو لا . المهم أنهم قالوا لى: لم لا تأتى وتناقش فلانا هذا ؟ وذهبتُ ودارت المناقشة على نحو عفوى، وأذكر أننى أخذت أسأله بعض الأسئلة مما يتصل بتمرده وهو يرد فى شىء من التخبط، أو هكذا بدا لى، وإن كنت لا أظن أنه اقتنع وقتذاك بما قلت، أو على الأقل: لا أظنه اقتنع تماما، أو لا أظنه رضى أن يعلن هزيمته فى حينها . وأيضا لا أعرف عن ذلك الشاب شيئًا بعد ذلك، ولعل اسمه كان سعيدا . وأغلب الظن أنه رجع عن تمرده وفاءَ إلى عقله وتبينتْ له عظمة الإسلام، أو هكذا أرجو بعد كل ذلك العمر الطويل الذى يشارف الخمسين عاما . ومعروف أن بعض الشبان تأتى عليهم أحوال يراجعون فيها كل شىء ولا يعجبهم ما يؤمن به أهلوهم ومعارفهم، فيريد الواحد منهم أن يثبت ذاته: فإن كان ما يتمرد عليه باطلا كان تمرده فى محله، وإلا فهو انحراف قد يَبْقَى مرتكسا فيه مدة تختلف من حالة لأخرى، وكثيرا ما يعود سيرته الأولى بعد أن يتضح له خطؤه.

كذلك حدث، خلال السنة الأخيرة لى بالمرحلة الثانوية وطنطا، أن أعلن التلفاز عن لقاء بين د.طه حسين ولفيف من الأدباء والكتاب، فحرصت على أن أشاهده. وبالفعل شاهدته عند صديقى المرحوم أحمد الزاهد، واستمتعت برؤية الدكتور طه وبأسئلة الكُتّاب له وردوده عليها وقوله: "لا تَعْنُفُوا بالبيت"، وأعجبتنى هذه العبارة كثيرا وأخذت أفكر فى الفعل الموجود فيها من ناحية وزنه الصرفى. . . ولفت نظرى بوجه خاص قوله إنه لم يفهم عبقريات العقاد، مما أثار زملائى الذين كانوا يشاهدون معنا اللقاء وسائر طلاب مصر على كتاب "عبقرية الصديق"، الذى كان مقررا علينا فى مادة اللغة العربية ذلك العام. وكان منطقهم أن طه حسين قد أعلن بكل صراحة ووضوح أنه لا يفهم العبقريات، فكيف يقررون علينا واحدة منها، ونحن لسنا طه حسين؟ وعبثا شرحت لهم ما فهمته من أن طه حسين لا يقصد المعنى الظاهرى، بل يريد أن يقول إنه لا يوافق العقاد على غايته من كتابة العبقريات ولا يوافق على ما فيها من آراء . ومن المؤكد أننى كنت قرأت

قبل ذلك "عبقرية محمد"، وربما قرأت أيضا ما كتبه طه حسين عنها من أنه لا يفهم معنى المقارنة بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين نابليون من ناحية القيادة العسكرية ووضع الخطط الحربية، إذ رأى طه حسين أن اختلاف الظروف بين طَرَفَىِ المقارنة لا تسمح بعقدها، فأين عصر نابليون والحروب التى خاضها والخطط التى كانت متبعة فيها من الرسول وعصره وحروبه؟ إلا أن الطلاب فى أنحاء الجمهورية كانوا قد وجدوا مناحة يشبعون فيها لطما.

وأذكر بهذه المناسبة أن أنيس منصور قد كتب عقب هذا اللقاء مقالا يهاجم فيه طه حسين على لمزه للعقاد قرأته فى مسجد المنشاوى بطنطا حيث كنت أستذكر دروسى ظهر اليوم التالى إذا صحت ذاكرتى. والطريف أن أنيس منصور عاد بعد فترة فأخذ يثنى على طه حسين وعلى أستاذيته العطوف المتفهمة ووضوح فكرته وما إلى ذلك مما يجرى على العكس من هجومه المذكور على الرجل. ومع هذا فقد ظل يُكْبِر العقاد ويذكر مفاخره حتى لقد كتب كتابا كبيرا جدا عن تطوره هو فى دنيا الفكر والثقافة جعل منطلقه صالون العقاد. أقصد كتابه: "فى صالون العقاد كانت لنا أيام"، الذى تحدث فيه عن نفسه أكثر مما تحدث عن عملاق الفكر والأدب العربى.

وفى ذلك العام أيضا بدأت أكتب قصة قصيرة استوحيتها من فتاة متعلمة فى سننا كنت أسمع عنها من بعيد، لكننى لم أجد نفسى فى هذا اللون من الكتابة إذ أردت أن أصور عبثها واستهتارها مما لم أكن مهيأ له لبعدى عن عالم البنات والنساء العابثات وجهلى به وشعورى من ثم أن ما أكتبه عن عبث الفتاة ولهوها مع الشبان وتلاعبها بعواطفهم وغرورها المهلك هو كلامٌ متكلَّفٌ غير صادر عن خبرة وتجربة، فتركت القصة بعد صفحتين أو نحو ذلك. وكنت فى السنة الأولى الثانوية قد كتبت قصة أقلد فيها قصص أجاثا كريستى البوليسية، تلك القصص التى تختلف عن سائر شبيهاتها من قصص الجرائم فى أنها لا تقوم على الإثارة والمطاردة وحيل المجرمين فى الإفلات من تعقب الشرطة لهم، بل على الذكاء وتعمية القاتل استفزازا لعقل القراء كى

ينهض وينشط ويحاول معرفة المجرم، الذى لم أفلح إلا مرة واحدة يتيمة فى تخمينه على كثرة ما قرأت لها من روايات وأقاصيص فى هذا الصدد . وبطبيعة الحال قد ضاعت تلك القصة مع ما ضاع من أشيائى فى تلك الفترة وما تلاها، وما أكثر ما ضاع من تلك الأشياء !

ولكن هل فى تلك الفترة اقتنيت تفسير محمد فريد وجدى الميسر؟ أم هل كان ذلك فى فترة لاحقة عندما ذهبت إلى القاهرة؟ لا أدرى. كل ما أذكره أننى عكفت على ذلك التفسير فقرأته، وقد أكون قرأته مرتين، وكنت سعيدا غاية السعادة أننى أطالع تفسير القرآن الكريم كاملا . لقد كتب الرجل تفسيره ذاك بأسلوب بسيط أقرب ما يكون لأسلوب الصحافة، مع شرح الكلمات التى تحتاج شرحا، فضلا عن إيراده أسباب النزول فى مواضعها، وفى وسط كل ذلك صفحة المصحف التى فيها النص المفسَّر. والآن كلما رأيت مع الطلبة أو الطالبات مصحفا يقرأون فيه أنبههم إلى أن قراءة القرآن هكذا لا تؤدى الغرض المطلوب، إذ ليس المقصود أن أتلفظ بكلماته، بل المقصود أن أفهمه، وهذا لن يتأتى إلا إذا عرفتُ أولا معانى تلك الكلمات، وقرأت تفسيرا له، مبسطا أول الأمر ثم موسعا بعد ذلك حسب ظروف كل شخص وغايته من قراءة التفسير. كما قرأت فى تلك الفترة تفسير جزء "عَمَّ" للشيخ محمد عبده، وتفسير جزء "تبارك" للشيخ عبد القادر المغربى السورى. وهكذا تعرفت إلى عظمة الإسلام وجماله من خلال العقاد ومحمد عبده وشلتوت ومن فى مستواهم. وهذه منة جليلة من الله سبحانه وتعالى لا أستطيع تأدية شكرها . وكان معى فى تلك الفترة معجم "مختار الصحاح"، أعطانيه طالب أزهرى كان قد أخذه من ابن عمه الذى يدرس فى مدرسة المعلمين بطنطا . وكنت سعيدا باقتنائى إياه سعادة عظمى، وكأنى قد ملكت اللغة العربية كلها فى يدى. إلا أننى لاحظت أننى لا أجد كثيرا من الكلمات فيه ولا فى معجم "المصباح المنير"، وبخاصة الكلمات الحديثة، غير متنبه إلى أن هذين المعجمين هما معجمان صغيران جدا أُلِّفا للطلاب المبتدئين منذ عدة قرون. لكن كان استعمالى لهذين المعجمين مع ذلك خطوة مهمة أشد الأهمية، وكان تعاملى معهما سهلا لمعرفتى الجيدة

بالصرف ومقدرتى، بطريقة أو بأخرى، على تجريد أية كلمة من أحرف الزيادة واستطاعتى العثور عليها فى المعجم ومعرفتى لمعناها .

أما الآن فنادرا ما يستطيع طالب أن يكشف فى المعجم عن أية كلمة، وذلك إن بدا له أصلا أن يفكر فى هذا الأمر، إذ هو لا يقرأ، وإذا قرأ فليست عايته الفهم بل الحفظ من أجل الامتحان لأنه لا يقرأ إلا الكتاب المقرر، بل فى كثير من الأحيان لا يقرأ ولا حتى الكتاب المقرر مكتفيا بالملخصات والمذكرات. ودعك من أن كثيرا منهم يعجز عن كتابة الكلمات كتابة صحيحة أو يفهم من أين جاءت وإلى أين تمضى. وما زلت أذكر كيف أتتنى منذ سنتين طالبة متفوقة فى السنة الرابعة بقسم اللغة العربية قائلة لى إنها لم تستطع أن تجد معنى كلمة "أُلْفَى"، التى أستخدمها كثيرا فى كتبى بدلا من "وَجَدَ"، وكانت قد سألتنى عن معناها كعادة الطلبة فى مثل هذه الحالة إذ لا يخطر ببالهم أبدا أن هناك شيئًا اسمه المعاجم، وكل ما يفهمونه هو أن الدكتور على علم بكل شىء، فأحلتها على المعجم كى تعتمد على نفسها فى فهم ما يُشْكِل عليها من ألفاظ وعبارات. ثم أَرْدَفَتْ أنها لم تجد فى المعجم إلا أنها حرف من حروف اللغة اليونانية، فعَرَفْتُ أنها تقصد "ألفا باتا جاما دلتا". ومن الواضح أن السبب عجزها عن التمييز بين "أَلْفَى" فعلا عربيا مزيدا بهمزة، وبين "أَلْفَا" حرفا من حروف الأبجدية اليونانية. فإذا كان هذا هو مستوى طالبة ذكية كنت أشجعها هى وأمثالها بالكتب والفلوس كى تحب القراءة، وأحبتها فعلا، وكنتُ مسرورا بما تبديه من تقدم فى هذا المضمار، فما بالنا بسائر الطلاب ممن لا اهتمام عندهم بعلم ولا ثقافة، وكثيرٌ ما هم؟

وأنا هنا لا أحاول النيل من ذكاء طلاب هذا الجيل، فلا أظن أنهم يقلون عن جيلنا فى ذكائهم، بل لا بد أن يكون فيهم من يتفوقون علىَّ وعلى أمثالى فى ذلك. كل ما هنالك أنهم لم يَتَلَقَّوْا تعليما جيدا فى المدارس منذ الطفولة، بل إنهم فى السنة الثانية والثالثة الثانوية بتشجيع من مدرسيهم لا يذهبون إلى المدرسة أصلا، والبركة فى السناتر (أى مراكز الدروس الخصوصية التى تُدِرّ على الأستاذ الواحد فى اليوم الواحد بضعة عشر

ألفا من الجنيهات وأكثر من ذلك فى كثير من الحالات)، ولا يجدون من الأمل ما يغريهم بالتعلم والقراءة وتحصيل أسباب الثقافة، إذ لا تنتظرهم بعد التخرج وظيفة يكسبون منها ما يطعمهم ويكسوهم ويوفر لهم المسكن ويساعدهم على إكمال نصف دينهم . . . وهكذا . ولو حدث أَنْ وجد أحدهم وظيفة كان المرتب ضئيلا لا يطعم عصفورا، مع أن أقل مرتب يمكن أن يكفى هذه الأيام شابا فى مقتبل عمره هو ألف وخمسمائة جنيه، على أن توفر له الدولة والمجتمع مسكنا إنسانيا يعيش فيه بأجر معقول. ولا ننس أن المجتمع كله تقريبا فى الوقت الحالى لا يقبل على القراءة، ولا يبالى بشؤون الثقافة والمعرفة والذوق السليم، ولا يقيم وزنا لقيمة الجمال للأسف الشديد، وما الطلاب إلا نبتة ذلك المجتمع، وهو ما يجعلنى أقيم لهم العذر، وإن كنت فى ذات الوقت أذكّرهم بأن إسلامهم يوجب عليهم حب المعرفة والاجتهاد بكل وسيلة فى تحصيلها مهما تكن ظروفهم وأحوال مجتمعهم، وأنه إذا جاز أن يهمل المتدين غير المسلم أمور المعرفة والذوق الجميل فإن هذا لا يجوز للمسلم بحال لأنه جزء من دينه لا يتجزأ، وسوف يكون محل حساب وثواب وعقاب.

أما ترك الأمور هكذا فلن يكون له من ثمرة غير استمرار التخلف والضياع الذى تعيشه البلاد مهما حاولنا مع طلابنا فى الجامعة، إذ الكثير منهم يأتون إلينا وهم لا يصلحون تقريبا لأى شىء ذى بال، إلا إذا أعيد تأهيلهم فى مقررات المرحلة الابتدائية فصاعدا من جديد لأنهم لا يستطيعون أن يكوّنوا جملة واحدة سليمة، بَلْهَ أن الأغلبية منهم لا يمكنها الكتابة الإملائية الصحيحة أبدا، وأن عقولهم فاضية مما هو مفيد، إذ لا يقرأون ولا يعرفون الطريق إلى الكتاب ولا يجدون فى أنفسهم رغبة فى ذلك بَتّةً. أما فيما لا يفيد فتراهم يسبقون شياطين عبقر ذاتها فى الألمعية واللوذعية بأشواط شاسعة، بخلاف ما لو كلفتَهم بشىء نافع فى ميدان العلم إذ ترى الواحد منهم وقد "بَلّطَ فى الخَطّ" لا يَرِيم مكانه ولا يتحرك إلى الأمام خطوة واحدة.

وكانت رحلة الأقصر وأسوان التى اشتركت فيها مع بعض زملائى من طلاب الثانوية العامة حدثا هاما . لقد استقللنا القطار من طنطا وقضينا على متنه ساعات طوالا فى الذهاب ومثلها فى الإياب، ونمنا فيه

وقمنا، وراقبت الشمس وهى تشرق وأنا أحاول الوضوء فلا أستطيعه لعدم وجود الماء فى دورات القطار. ولا أذكر الآن أكنت أتيمم أم أترك الشمس تطلع دون صلاة الصبح فى ميعاده انتظارا لتوافر الماء. وفى تلك الرحلة عرفنا على الطبيعة أشياء مهمة جدا عن تاريخنا الفرعونى وما خلّفه من آثار ومعابد وتماثيل وما يرتبط به من عقائد وأفكار وشخصيات تاريخية، وكذلك عن السد العالى، الذى كان العمل فيه لا يزال يجرى على قدم وساق آنئذ. كما اطلعت من كَثَبٍ على بعض مدن الصعيد، وكذلك بعض قراه التى كنا نشاهدها من نوافذ القطار، فضلا عن تنبهى إلى ضيق الوادى بطول نهر النيل بدءا من جنوب القاهرة تقريبا على عكس الحال فى الدلتا، التى تُوهِمُنا أن مصر كلها أرض خضراء، على حين أن المسكون والمزروع منها كله لا يبلغ نسبة الخمسة بالمائة من مساحتها. وكان الطلبة الكبار (كبار الأجسام غير المعروفين بالبراعة فى الدراسة) يقضون الوقت فى لعب الورق وما أشبه فى طرقات القطار، وأحيانا ما يناوشون الأساتذة ببعض الكلام غير المباشر، فيتجاهل هؤلاء ما يسمعون من المناوشة. وهو، والحق يقال، لا يعد شيئًا بمقاييس هذه الأيام.

ومما علق فى ذهنى من هذه الرحلة أننى جلست فى بعض الطريق مع أستاذ من أساتذة اللغة العربية أخذ يسألنى بعض الأسئلة اللغوية من مثل معنى كلمة "أسوان"، فأجبته فسُرَّ بى وأثنى علىَّ، وهو ما رفع معنوياتى بطبيعة الحال. ولست أذكر أننى رأيت ذلك الأستاذ بعد ذلك، وأغلب الظن أنه كان من مدرسة أخرى غير مدرستى. وكنت أصلى فى آخر العربة بعيدا عن المقاعد بين زملائى الذين كانوا يفترشون الأرض. ورغم أن العربة كانت مقصورة علينا نحن الطلاب فقد كان بعض الزملاء يهتبل توقف القطار ويثيرون المشاكل مع بياعى القصب الصعايدة على الرصيف. وأستغرب أنا هذا الحرص على إثارة المشاكل، وبخاصة مع أهل الصعيد المشهورين بالتهاب مشاعرهم وعدم تسامحهم مع أية إهانة تلحق بهم، وأخاف من انفجار معركة قد تخرج عن السيطرة. ولكن كان الله يسلم دائما.

وفى هذه الرحلة أيضا رأيت بعض السائحات فى الأقصر يلبسن البنطلونات، فكانت هذه أول مرة أرى ذلك فى الواقع لا فى السينما . ثم رأينا بعد ذلك أيام الجامعة بعض المضيفات الباكستانيات فى شارع سليمان وقد ارتدين سراويلَ فضفاضةً وسُتَرًا طويلة وأغطيةَ رأسٍ أنيقةً، فقلنا: هذا ملبس إسلامى وعصرى وأنيق فى ذات الوقت. وكان اكتشافا رائعا بالنسبة لنا . والآن ها هن أولاء الفتيات والنسوة المسلمات فى كل مكان يرتدين البنطال، وإن كان كثيرات من مستعمِلاته يخترنه محزقا، وأحيانا محزقا جدا . ولكنى أقول فى نفسى مع ذلك إنه أفضل من العرى الصريح، عرى الميكروجيب والبلوزات الكاشفة الصدر العديمة الأكمام. ثم إن الغالبية الآن من الجنس اللطيف يصلين، وإن كان تدينهن، وتدين كثير من الرجال معهن، يقف عند الصلاة والصيام، والحجاب (بالنسبة لهن) واللحية (بالنسبة للرجال)، ثم لا شىء ذا أهمية بعد هذا، وهو ما يجرد الإسلام من أعظم مزاياه، وهو أنه دين حضارى، بل هو الدين الحضارى الأوحد، إذ يُحِلّ العلم والعمل والإبداع والذوق الجميل والنظام والتخطيط والتضامن الاجتماعى ومد يد المساعدة للفقراء العاجزين والمحرومين المظلومين أرفع مكان فى الوقت الذى لا يُولِى كثير من المسلمين شيئًا من ذلك اهتماما . لكنى أعود رغم هذا فأقول: شىء أفضل من لاشىء. ولخيرٌ للمسلمين أن يرتبطوا بدينهم ولو بشعرة معاوية من أن ينفلتوا من كل صلة لهم به، لكن على أمل أن يفهموا دينهم يوما من الأيام نرجو أن يكون قريبا، وإلا فعلى الدنيا والذوق والفهم والعزة والكرامة العَفَاء .

وقد انتهت الرحلة ويداى مشققتان جراء التوضؤ فى الهواء الطلق والبرد فى الأقصر وأسوان حتى إننى، لشدة ألمى بسبب هذه التشققات، قد أجلت صلاة المغرب حين وصولى إلى طنطا، فلم أؤدها فى مسجد محطة السكة الحديد رغم أنه كان هناك وقت كاف جدا لتأديتها، وصليتها فى البيت مع العشاء والشعور بالإثم رغم ذلك مع أن الرسول كان يجمع الصلاتين أحيانا فى الحضر. لكن أنى لى أن أعرف هذا فى ذلك الوقت المبكر؟ بل إننى، حين عرفت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم أفهم الأمر فى

البداية كما ينبغى، بل ظننت أنه، عليه السلام، كان يؤخر الظهر إلى آخر الوقت مع التبكير بصلاة العصر فى بداية وقته، فتبدو الصلاتان وكأنهما مجموعتان. ورأيت بعد ذلك بنحو ست سنوات عالما من علماء الدين المشاهير جدا يؤجل صلاة الظهر إلى ما بعد عودته لبيته، فأنكرت ذلك عليه فى قلبى جاهلا أنه جائز. وقد استغرق الأمر وقتا طويلا حتى أفهم الوضع على وجهه الصحيح. وكنت، وأنا فى الثالثة الثانوية، أنزل كل صلاة من الدور الرابع فى الشقة التى كنا نشغل غرفة منها فى شارع السيد عبد اللطيف قريبا من تقاطعه مع شارع سعيد لأؤديها فى مسجد المنشاوى القريب على بعد أمتار. وكنت أكون فى عِزّ انهماكى فى الاستذكار، فأترك كل شىء وأسرع إلى المسجد. أما فيما بعد ذلك فكنت أصلى أحيانا فى البيت متى حانت الصلاة وأنا هناك كما يصنع كثير من الناس فى مصر المحروسة، اللهم إلا إذا كنت فى القرية، فإننى عندئذ كنت أذهب للمسجد. أما الآن فأصلى عادة فى بيتى بالقرية متى كنت فى زيارة لها.

وفى الصيف السابق على آخر سنة لى فى المرحلة الثانوية اتفقنا أنا وبعض الأصدقاء من طلاب الأزهر بالقرية ممن يكبروننى فى السن أن من يقوم منا من النوم أولا قبل الشمس عليه أن يوقظ الآخرين كى نصلى الصبح حاضرا. وقد وقعتْ فى ذلك الإِبّان بعض الأمور المضحكة: فمثلا كان هناك طالب طب بيتهم يقابل بيت خالى، الذى كنت أنام فيه فى تلك الأيام، فكنت إذا ذهبت لأوقظه أول واحد من الثلة عبر شباكهم المطل على الشارع بالدور الأول من بيتهم وسمعته يرد على تحيتى ماطًّا ياء "صباح الخير" (هكذا: "صباح الخيـــــــــــــــــــر") بصوته المتكاسل الأجش بفعل النوم عرفت فى الحال أنه لا ينوى أن يقوم حتى لو ضربته بالقنبلة النووية، فأضحك وأمضى لأوقظ الآخرين. وهذا الطالب هو د. سيد الحسينى صيرة، وهو الآن على المعاش. وأحيانا ما نلتقى فى دكان ابن خالى محمد العزلة، فنتذاكر الماضى الهانئ الجميل، أو بالأقل: الذى نظنه هانئا جميلا.

ومرة جاء إبراهيم الزواوى من بيتهم البعيد نسبيا ليوقظنى، ولم يكن الظلام قد انقشع بعد، وكانت خالتى رحمها الله تنام معى فى نفس الغرفة بالدور الثانى، فحين شرع ينادينى وجدت خالتى الطيبة توقظنى بصوت عال يسمعه الناس فى بلاد الإسكيمو قائلة: يا بُرْهُم (تدليل "إبراهيم")، هناك نَدّاهَة تناديك فى الشارع وتريدك أن تنزل لتخطفك، فلا تسمع كلامها ولا تستيقظ. فأخذت أضحك وأنا أستيقظ رافعا صوتى أطمئن زميلى بأنى استيقظت وأنى نازل فى الحال. وكان هو بدوره قد سمعها وهى توقظنى وتحذرنى من النداهة، فأخذنا طول الطريق نضحك أنا وهو وسائر الزملاء من طيبة الخالة، التى كان من الممكن أن تتركنى نائما "قتيلا" دون أن توقظنى أولا ثم تضطر إلى تحذيرى ثانيا، وكفى الله الخالات تعب الإيقاظ والتحذير. وكانت تلك الواقعة حديثنا وتفكهنا بقية أيام الصيف، رحمها الله.

أما النداهة فلمن لم يسمع بها هى امرأة أسطورية من الجانّ تتنصت على أى اثنين من الفلاحين يتفقان ليلا على القيام مبكرا قبل الفجر لسقى الأرض، فتذهب إلى أحدهما قبل الميعاد الذى ضربه مع رفيقه لتوقظه مصطنعة صوت ذلك الرفيق، وحينما ينزل إليها تأخذه فى الطريق إلى الحقل منفردة به وتقتله هناك أو تخبِّل عقله وتصيبه بالجنون. وبالمناسبة فقد ألف يوسف إدريس قصة بعنوان "النداهة" تقوم على إغواء أحد سكان عمارة من أهل المدينة لزوجة بوابها الريفية التى ظل يلح عليها بألوان الإغراءات المختلفة حتى أوقعها فى حبالته وأفسدها على زوجها، التى انتهى أمرها معه بأن تركت حجرة بئر السلم فى مدخل العمارة حيث كانت تعيش معه على الحلوة والمرة، وانطلقت إلى المجهول كما ينطلق الرجل الريفى مع النداهة إلى حيث الأذى الذى ليس منه اتقاء ولا شفاء.

والعجيب الغريب أن النداهة فى ذلك الصباح المبكر لم تصبنى بأى أذى، فهأنذا معكم "صاغ سليم" كما يقول العامة فى بلادنا المحروسة، ولم أُجَنّ، بل ما زال "عقلى فى راسى أعرف به خلاصى". ولكن ما وجه العجب فى هذا، والنداهة، كما هو معروف، لا توقظ الناس لصلاة الفجر، بل لا تنتظر أصلا حتى يؤذن

الفجر بل تأتيهم قبل ذلك فى الظلام، وسائر أهل القرية نيام نيام؟ وأخيرا فقد يظن بعض القراء أن الفعل: "نَدَهَ"، الذى اشْتُقّت منه كلمة "النداهة"، هو تحريف عامى للفعل: "نادَى" كما كنت أظن وأنا صغير. بيد أن "نَدَهَ" صيغة فعلية فصيحة صحيحة تماما، وتعنى شيئًا قريبا من النداء. ومنه اشْتُقّ اسم بعض أهل الريف: "المندوه"، أى الذى ندهته النداهة فيما أتصور. كفاكم الله، وكفانا معكم نحن والسامعين والقارئين، شرور النداهة! آمين.

ومن بين الفكاهات المتعلقة بصلاتنا الفجر فى ذلك الصيف أننا كنا، بعد الانتهاء من الصلاة، ننطلق إلى الساحل نتمشى ونأكل جميزا طازجا من قطب الحبشى حيث نجده هناك فوق جميزة يجمع ثمارها ويدلّيها فى سَفَطٍ لمن ينتظر دوره على الأرض من الشارين. فكان أحدنا، وهو الشيخ حمامة (اسم التدليل لـ"محمد أبو كوهية")، يقضى وقت الانتظار فى لعب بعض التمرينات السويدية التى تعلمها فى فريق الكشافة بتجارة الأزهر، فلا يكون من الحبشى إلا أن يترك عمله ليشاهده من أعلى الجميزة وهو يضحك ويقول لنا مداعبا بطريقته الريفية: "بُصّ يا جدع أنت وهو: الشيخ حمامة بيدوِّر الطنبور!" لتشابه الحركة التى كان يأتيها كشافنا مع حركة الفلاح حين يشغِّل الطنبور فى رى الأرض من الترعة. ثم يمضى فى التهكم على تلك الحركات الرياضية بأسلوبه الريفى المضحك، فنضحك نحن بدورنا من أعماق قلوبنا على هذه التعليقات الظريفة الساذجة. هيه! لقد كانت القلوب خفيفة لم تثقلها أعباء الحياة ولا غزتها المرارات ولا جرحتها الخيبات التى تصيبنا بها الدنيا "بنت الّذِين". رحم الله تلك الأيام، ورحم سذاجتنا القديمة وخُلُوّ قلوبنا من القلاقل والإزعاجات!

لو أننا

لو أننا

لو أننا، وآهِ من قسوةِ "لَوْ"

يا فتنتي، إذا افتتحنا بالـمُنَى كلامَنا

لكنّنا . . □

وآهِ من قسوتها: "لكننا" !

لأنها تقول في حروفها الملفوفةِ المشتبكهْ

بأننا نُنكِرُ ما خَلّفَتِ الأيامُ في نفوسنا

نودُّ لو نخلعهُ

نودُّ لو ننساه □

نودّ لو نُعيده لرَحِمِ الحياهْ

لكنني، يا فتنتي، مُجرِّبٌ قعيدْ

على رصيف عالمٍ يموج بالتخليطِ والقمامهْ

كونٍ خلا من الوَسامهْ

أكسبني التعتيمَ والجهامهْ

حين سقطْتُ فوقه في مطلع الصِّبا

قد كنتُ في ما فات من أيّامْ

يا فتنتي محاربًا صُلْبًا، وفارسًا هُمَامْ

من قبل أن تدوس في فؤاديَ الأقدامْ

من قبل أن تجلدني الشموسُ والصقيعْ

لكي تُذِلّ كبريائيَ الرفيعْ

كنتُ أعيش في ربيعٍ خالدٍ، أيّ ربيعْ

. . .

ماذا جرى للفارس الهمامْ؟

انخلع القلبُ، وولّى هاربًا بلا زِمامْ

وانكسرتْ قوادمُ الأحلامْ

يا من يدلُّ خطوتي على طريقِ الدمعةِ البريئهْ !

يا من يدلُّ خطوتي على طريقِ الضحكةِ البريئهْ !

لكَ السلامْ

لكَ السلامْ

أُعْطِيكَ ما أعطتنيَ الدنيا من التجريب والمهارهْ

لقاءَ يومٍ واحدٍ من البكارهْ

لا، ليس غيرَ "أنتِ" من يُعيدُني للفارسِ القديمْ

دونَ ثمنْ

دون حسابِ الربحِ والخسارهْ

هذا ما قاله صلاح عبد الصبور فى قصيدة "أحلام الفارس القديم"، وهذا ما أشعر به الآن وأنا أستعيد ذكريات الشباب، الذى يقول عنه أبو العتاهية: "روائح الجنة فى الشباب" ! . فأما إذا أراد القارئ أن يعرف رأيى فى تلك القصيدة الصَّبُورِيَّة فيمكنه مشكورا الرجوع إلى كتابى: "فى الشعر العربى الحديث– تحليل وتذوق"، وهناك سوف يجد ما أرجو أن تَقَرَّ به عينه.

ومن منابع النشوة فى تلك الفترة كرة القدم، التى كنت ألعبها ضمن الفريق الأول بالقرية بعد أن كنت ألعب مع الصغار قبل ذلك. وكنت من المتميزين إلى حد معقول. وكان لنا جمهورنا، الذى يتبعنا من قريتنا

إلى القرى التى نذهب لملاقاة فرقها، فيهتف لنا ويحملنا على الأعناق إذا انتصرنا، وكثيرا ما كنا ننتصر. ومن أحلى اللحظات فى مباريات الكرة تلك حين نتحلق شابكين أيدينا فوق أكتاف بعضنا البعض قبيل انطلاق صفارة البدء قريبا من دائرة منتصف الملعب، فنقرأ الفاتحة ثم يصيح قائد الفريق بصوتٍ جَهْوَرِيّ يسمعه الجمهور حول الملعب قائلا: "فريق كَامة يا"، فيرد باقى الفريق عليه للتو مكملا الكلمة الأخيرة المعلقة على لسانه قائلين: "عِيشْ"، فيعود ويقول: "يا"، فيقول الفريق مرة أخرى: "عيش"، "يا"، "عيش". والمعنى: "فريق كَابة يعيش"! وسر الفرحة أن ذلك معناه بدء المباراة وتعليق الأنفاس وانتظار الحركات النصف كُمّ التى يأتيها اللاعبون من ترقيص وتمرير وتهديف وصد وهجوم مضاد ينتهى بالانتصار فى كثير من الأحيان، فتعود القرية إلى بيوتها شاعرة بالمجد والفخار وكأننا حررنا فلسطين أو على الأقل: فتحنا عكا.

وكان فريقنا من الفرق المرهوبة بين القرى المحيطة بقريتنا، إذ كان التوفيق حليفه فى كثير من الأحوال. وفى أول دورة على مستوى المركز، وكان ذلك خلال صيف ١٩٦٦م قبل وقوع النكسة بنحو عام، جاء ترتيبنا الأول بعد أن تغلبنا على كل الفرق التى واجهناها، فقد سحقنا الفرقة الأولى أربعة دون رد، وكان من نصيبى تسجيل هدف منها، وهزمنا الثانية اثنين، كان لى شرف تسجيل أحدهما، إلى أن كانت المباراة الأخيرة بيننا وبين مشال (قرية د. زغلول النجار كما عرفت منذ عدة سنوات)، وفريقها من الفرق القوية، إلا أننا هزمناه بهدف دون مقابل على ساحة بسيون، وسجله مصطفى الجعيدى، وهو من كبار لاعبى الفريق. لكن عندما ترقينا إلى دورة المحافظة لم نحظ بنفس التوفيق. صحيح أننا غلبنا فريق الشين لانسحابه من أمامنا رغم أننا كنا متعادلين بهدف أحرزه العبد لله. وسر انسحاب الشين هو أن اللاعب الدولى الأسبق توتو، الذى كان يحكم اللقاء، قد احتسب لنا ضربة جزاء. أما كيف سجلت هدف التعادل فقد ركلتُ الكرة ضعيفة متهافتة كأنها إنسان فقير جائع يعانى الإعياء ويترنح، فمضت تشق طريقها فى كسل وتثاؤب بين الأرجل، التى بدا أصحابها وكأنهم قد أصيبوا بالشلل أو اعتراهم الخدر، أو كأن الكرة كانت مرصودة مَرْقِيّة، فلم يحاول أى من

لاعبى الفريق المضاد، على كثرة الأرجل التى قابلتها الكرة فى طريقها إلى المرمى، أن يوقفها مع أن أيا منهم لو نفخها بفمه لكانت وقفت مكانها لا تتحرك، إلى أن دخلت المرمى. وتوتو، لمن لا يرعفه، كان لاعبا دوليا مشهورا فى أيامه بفريقى الأهلى وطنطا.

لكننا انهزمنا بعد ذلك أربعة مقابل صفر من أبو صوير فى المباراة التى تلت، ووقعت أحداثها كالمباراة السابقة أيضا على إستاد طنطا، الذى أَمُرّ به عادة فى طريق الذهاب إلى القرية والإياب منها، فأتذكر هاتين المباراتين العجيبتّين. وقد غاب عن الفريق فى تلك المباراة اثنان من أهم أعمدته، وكانا الأكبر عمرا والأكثر خبرة بيننا، ولا أدرى السبب الحقيقى فى تخلفهما عن اللعب رغم أننا رأيناهما أثناء المباراة فى المدرجات بين الجمهور. وقد سرت شائعة يومئذ أنهما كانا يعرفان قوة الفريق المنافس، الذى قيل إنه استعان ببعض لاعبى فريق غزل المحلة ذاته، وأننا لن نصمد أمامه، فآثرا ألا يشاركا فى مباراة كهذه تجنبا للخزى والعار. والله أعلم. وأذكر أننى يومها قد صوبت أربع كرات قوية على مرمى أبو صوير، إلا أنها جميعا قد علت العارضة. وقد خرجنا من المباراة مكسورين كسرة مؤلمة. ولم يخفف عنى سوى ذهابى إلى البيت الذى كنت أسكنه أثناء العام الدراسى السابق، وكانت علاقتى بالأسرة صاحبة البيت جيدة وتهش لاستقبالى إذا زرتها، وكانت لها ابنة فى مثل سنى رقيقة وجميلة، فمكثت هناك مع الأسرة والفتاة الرقيقة الجميلة وقتا أزال عن نفسى بعض ألمها جراء الهزيمة، وأدخل عليها بدلا من ذلك قسطا عظيما من السعادة. صدقت يا أبا العتاهية: "روائح الجنة فى الشباب"!

ومن المرات التى ذقت فيها أنا بالذات طعم الفشل الكروى المُرّ تلك المَرّة التى انتصر فيها علينا فريق كفر أبو جندى (قرية محمد فوزى وهدى سلطان وهند علام الفنانين الإخوة المعروفين) ستّة لصفر، وهى المرة الوحيدة تقريبا التى انهزمنا فيها من إحدى القرى المحيطة على أرضنا. وكنت للأسف قائد الفريق، وكان يوما يعلم به ربنا، ولا أدرى ما الذى أصاب أفراد الفريق فى تلك المباراة، إذ أذكر مثلا أننى مَرَّرْتُ الكرة

عدة مرات لهذا أو ذاك من زملائى فيجد نفسه وقد انفرد بالمرمى المنافس، إلا أنه إما أن يتزحلق ويقع على الأرض فجأة وإما أن تطيش تصويبته فتخرج الكرة بعيدا عن المرمى. وشيعتنا القرية إلى بيوتنا يومها بشماتة غريبة وهتافات مسيئة، ناسيةً البهجات التى كثيرا ما أدخلناها على القلوب. ولكن ماذا تقول فى الكرة ومشجعيها، وهذا حالها دائما ؟

المرحلة الجامعية

ما إن حولتُ أوراقى من كلية الاقتصاد إلى كلية الآداب حتى انتظمت على التو فى محاضرات قسم اللغة العربية شاعرا بالسعادة أنْ تركت الكلية التى تخرج رجال السلك الدبلوماسى والسفراء كما كان الطلاب يظنون فى ذلك الوقت، ولم أنتظر حتى تأتى الموافقة على قبول أوراقى فى الكلية الجديدة، اطمئنانا منى إلى أن درجاتى أعلى كثيرا من درجات تلك الكلية، ووجدت نفسى فى الحال فى مقررات اللغة العربية وآدابها. وكان من أساتذتنا د. يوسف خليف ود. عبد الحميد يونس ود، عبد العزيز الأهوانى ود. شكرى عياد ود. حسين نصار ود. كامل جمعة ود. النعمان القاضى ود. عبد المنعم تليمة ود. محمود فهمى حجازى ود. أحمد مرسى، وكذلك الأستاذ عبد الحميد السيورى والأستاذ عبد الحكيم راضى (اللذان صارا دكتورين فيما بعد) . . . إلخ.

وكان بعضهم يملى علينا ما يريد قوله، وبعضهم يحاضرنا. وكنت أناقش كل الأساتذة تقريبا فيما يقولون. وكتبت أول بحث فى مادة التاريخ العربى قبل الإسلام، التى كان يدرسها لنا فى السنة الأولى د. حجازى، ولم يكن البحث أكثر من تلخيص لما قرأت فى بعض الكتب المتعلقة بالموضوع. وأذكر أننى ألقيته فى المحاضرة برباطة جأش وثقة بالنفس وصوت قوى، وكان زملائى ينصتون جيدا دون أن يحدث أحدهم أية ضجة، وهذا من فضل الله رغم أنى لم أقدم أى جديد آنذاك. ويتضح معنى ما أقول إذا ذكرت أن أحد

زملائى التوانسة، وكان معنا منهم فى الفرقة ثلاثة، وهو الأخ محمد بوزركونة، حين ألقى محاضرته لم يكن هناك ذلك الصمت الكامل، وربما كان ذلك راجعا إلى انخفاض صوته وغرابة لهجته.

أما فى السنة التالية فكان علينا مادة بحث بإشراف د. خليف، وكانت تدور حول موضوع الشك فى الشعر الجاهلى. ولا أدرى الآن السبب فى عزوفى عن مجرد القراءة فى ذلك الموضوع، الذى كنت أسمع ما قالته لنا زميلتنا حسنة الزهار، الأستاذة الآن بكلية البنات بجامعة عين شمس، والتى لم أقابلها إلا أمس بعد انقطاع دام نحو ثلاثة وأربعين عاما لم ير فيها أحدنا الآخر، وكان ذلك فى كليتها حين ذهبت، كما أفعل كل أسبوع، لإعطاء طلبة الدراسات العليا محاضرتين فى نصوص المستشرقين ومناهج البحث، وهما المحاضرتان اللتان أعتمد فيهما على استحثاث الطلاب إلى إخراج ما عندهم والحديث بكل حرية عن رأيهم فيما قرأوه فى الموضوع الذى أحاضرهم فيه، شاعرا بالنشوة وأنا أستمع إليهم وأعقب على ما يقولون أو أبدى رأيى فى أمر من الأمور التى يسألوننى فيها . . . إلخ، موضحا لهم أننى أستفيد منهم كما يستفيدون هم منى وأن المحاضرة دون مشاركة الطلاب فى النقاش لا تساوى الكثير، وأن كثيرا من الأفكار التى أعتز بالتوصل إليها وأعد نفسى ابن بجدتها هى فى الغالب ثمرة أسئلتهم أو اعتراضهم أو تعبيرهم عن رأيهم حتى لو اختلفت معهم فيما يقولون، إذ الحوار هو الأساس فى كثير من الاكتشافات الفكرية، وأن الأستاذ هو فى الحقيقة مجرد طالب علم، وكل ما فى الأمر أنه سبق طلابه إلى طريق المعرفة وأنه قرأ أكثر منهم، وإن كان منهم من قد يفوقه ذكاء وفهما، وأنه من الطبيعى جدا أن يقع فى الأخطاء من كل نوع، وأن ما يقوله ليس كلاما معصوما، بل هو مجرد اجتهاد قد يصح وربما لا يصح، وأن الحقيقة لا يعلمها على وجه اليقين والكمال إلا الله، أما نحن فغايتنا أن ندندن حولها، وأن هذا هو ما سوف يحاسبنا الله على أساسه بغض النظر عن إصابتنا إياها أو لا، وأنه لا يصح أن يحقر أى منهم قدراته العقلية والفكرية.

ترى هل يعى طلابى أبعاد ما أقول؟ أرجو هذا، وإن كان منهم من يؤكد لى أنهم قد تأثروا بكلامى وبإلحاحى الذى لا يفتر أبدا فصاروا يقرأون بعد أن كانوا لا يبالون بالكتاب ولا بالقراءة. وأحيانا ما أقول لنفسى إن كلامى سوف يؤتى ثماره بكل تأكيد ولو بعد حين، إذ لا يعقل أن يستحيل كل هذا الذى أقوله هباء منثورا دون أن يخلف وراءه أى أثر. ذلك أننى فى العادة لا أتصور أن يكون لكلامى تأثير ذو قيمة فى الطلاب، فأحاول أن أدخل الطمأنينة على قلبى بهذه الطريقة.

وكعادتى هنا فى استباق الأحداث للمقابلة بين ما كان وبين ما صار (وتكرير "بين" هنا مع اسمين ظاهرين سليم ليس فيه شائبة لغوية بالمناسبة) أقول: لقد دارت الأيام، وإذا بى أنغمس فى تلك القضية وأتناول ما كتبه مرجليوث فى بحثه الذائع الصيت: "The Origins of Arabic Poetry: أصول الشعر العربى"، فأترجمه وأعلق عليه وأدرسه فى كتاب مستقل، مع تفنيد كل ما جاء فيه مثلما فعلت مع كتاب "فى الشعر الجاهلى" لطه حسين فى كتابى: "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين"، وكذلك فى بحث لى طويل بعنوان "نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى: سرقة أم ملكية صحيحة؟" يجده القارئ فى كتابى الضخم" "أفكار مارقة- قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب"، ثم ينتهى بى الأمر إلى كتابة دراسة من عشرات الصفحات عما كتبه ابن سلام، الذى كنت فى البداية كغيرى من الباحثين أتصور أن ما قاله فى ذلك الموضوع هو الاعتدال المطلق والمنطق المحكم بعينه، فإذا بى منذ عدة أعوام قليلة أعكف عليه لأتبين أن معظم ما قاله ليس له أساس من الصحة، والباقى غير مقطوع به، إذ هو مجرد أحكام انطباعية أو مبتسَرة أو متسرعة من ناقدنا الكبير. وعنوان البحث المذكور هو "ابن سلام والشك فى الشعر الجاهلى"، وهو عبارة عن الفصل الأول من كتابى: "الأدب العربي- نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة".

أما سبب عودتى إلى بحث ابن سلام فى الأعوام الأخيرة فهو دليل قاطع على صحة ما أقوله من أن مشاركة الطلاب فى المحاضرة، حتى لو قالوا كلاما غير ذى قيمة، من شأنه أن يحفز عقل الأستاذ على التفكير

والإبداع. وهذا هو البيان: فقد حدث منذ عدة سنين قليلة أن كنت داخلا محاضرة "الثقافة العربية قبل الإسلام" للفرقة الأولى بقسم اللغة العربية بآداب عين شمس ظهرا، فوجدت طالبا كان يدرس فى السنة التمهيدية للماجستير يعترض طريقى فى الممر المؤدى إلى قاعة المحاضرة طالبا منى السماح له بحضور الدرس لأن أستاذهم لم يحضر ذلك اليوم، فرحبت به. وما إن شرعت أتكلم فى موضوع المحاضرة وأتناول الكلام عن الشك فى الشعر الجاهلى حتى علق قائلا إن ابن سلام قد أشار إلى أن الشعر الذى وردنا عن عاد وثمود غير صحيح لأن تينك القبيلتين قد بادتا عن آخرهما، ومن ثم لم يكن هناك من يمكن أن يكون قد روى شعرهما . قال الطالب ذلك دون أن تكون تلك هى النقطة التى أتحدث فيها ساعتئذ . ولكنى لم أعر تلك الشكلية اهتماما، بل ألفيت نفسى أقول له: اسمع يا فلان. هل تظن أن الله سبحانه قد أهلك نبييه: هودا وصالحا مع قوميهما ؟ أجاب: لا . فعدت أسأله مرة أخرى: وهل تظن أن من آمنوا من هاتين القبيلتين بذينك النبيين قد عوقبوا وأُهْلِكُوا مع الهالكين؟ فعاد يجيب أنْ لا . فقلت للطلاب: ليعطنى أحدكم مصحفا لأقرأ الآيات التى تعرضت لعاد وثمود وعقابهما . ثم أردفت سريعا: وبالذات سورة "هود"، التى أحسب أنها أكثر السور القرآنية تفصيلا فى هذا الموضوع.

فأعطتنى إحدى الطالبات مصحفا بعدما فتحته على الآيات المذكورة من تلك السورة الأخيرة، فقرأتُ على الطلاب بصوت عال ما جاء فى ختام الكلام عن كل قبيلة من القبيلتين وتمردها على نبيها: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ"، "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ"، ثم عقبت بقولى: إذن فعاد وثمود لم تبيدا عن آخرهما كما ظن ابن سَلّام جَرّاءَ فهمه الخاطئ لقوله تعالى فى سورتى "النَّجْم" و"الحاقّة" على التوالى: "وأنه أهلك عادا الأولى * وثمود فما أَبْقَى"، "فأما ثمودُ فأُهْلِكوا بالطاغية * وأما عادٌ فأُهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية" . ذلك أنه ظن أن الهلاك كان عاما

شاملا لم يُبْقِ ولم يَذَرْ أحدا من هاتين القبيلتين، غير متنبه إلى أن الكلام هو عن الكافرين منهما لا عن كل أفرادهما واحد واحدا، وإلا لكان معنى الكلام هو أن الله قد عاقب نبييه: هودا وصالحا ومن آمن بهما ضمن من عاقبهم واستأصلهم من الكفار المتمردين، وهو ما لا يمكن أن يكون.

ثم أردفتُ مرة أخرى: ولنفترض أن عادا وثمود قد استؤصلتا استئصالا تاما أفلم يكن هناك من القبائل العربية الأخرى من سمع بعض أشعار هاتين القبيلتين ورواها للأجيال القادمة؟ ثم مضيت فى توضيح فكرتى منبها إلى أن كلامى هذا لا يعنى بالضرورة أن ما جاءنا عن تينك القبيلتين من أشعار هو صحيح بالضرورة، بل كل ما أقصده هو أن حجة ابن سلام هى حجة داحضة، وإن كانت قد جازت على عقولنا قرونا طوالا. ثم قمت بتغيير سطر أو سطرين فى الطبعة الجديدة التى كانت توشك أن تظهر من كتابى: "فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام" فيها خلاصة هذا كله باختصار شديد كيلا أفسد طبعة الكتاب كلها. لكنى لم أكتف بذلك، بل عكفت على مقدمة ابن سلام لكتابه: "طبقات الشعراء" أقرؤها بتدقيق لأنتهى بوضع دراسة مطولة عن الموضوع برمته لم أكد أترك فيها شيئا مما قاله ابن سلام فى تلك القضية إلا بينت أن أدلته فيها ضعيفة أو معدومة، ونشرتها أولا على المشباك (الإنترنت)، ثم ضَمَّنتها بعد ذلك كتابى: "الأدب العربى– نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة" كما وضحت آنفا.

وكنت قد تنبهت إلى أهمية الحوار فى تحريك العقول وبلورة الأفكار وإبداعها منذ كنت فى الثانوية العامة، إذ قد أذكر أننى كنت ذات عصرية أستذكر دروسى فى مسجد السيد البدوى بطنطا، فجاءنى زميل لى (هو الذى ضربنى قبل عدة سنوات بالقبقاب فى رأسى) يسألنى عن شىء فى أحد المقررات، وكنت أظن أن معلوماتى فيه مشوشة فى ذاكرتى تشويشا تاما بحيث لا يمكننى أن أجمع أطرافها، لكنى ما إن بدأت أجيبه إلى مطلبه حتى ألفيتُ ما كنتُ قد نَسِيتُه من معلومات قد أخذ ينثال على تلك الذاكرة المظلومة، فتعجبتُ وعَزَوْتُ ذلك إلى أن سؤال زميلى لى قد أثار اعتزازى بنفسى حين قصدنى لأشرح له شيئا وكأنى

أستاذ لا مجرد زميل له. ولست أظن هذا التعليل فاسدا لا قيمة له، ولكنى أضيف إليه الآن أن استفاضتى فى الكلام يرجع فى جانب منه على الأقل إلى أننى لم أكن أفكر وحدى فى الأمر، بل كان يحاورنى شخص آخر يستفز ذاكرتى وعقلى بسؤاله وإنصاته لى، وإن كان حواره سلبيا، بمعنى أنه اكتفى بالسؤال ثم صمت وأخذ يسمع، وأنا أستفيض فيما كنت أحسب أنه قد طار من ذهنى.

وفى الجامعة صارت القراءة أغزر وأعمق، وتصدرتْ قائمةَ الكتب التى أقرؤها تلك المتصلةُ بتخصصى من نحو وصرف وتفسير وتاريخ أدب ونقد وما إلى ذلك. وكانت زمالتى وصداقتى لبعض طلاب كلية الاقتصاد والعلوم السياسية سببا فى انغماسى فى المناقشات السياسية، والدينية أيضا، فقرأنا وتناقشنا فى الشيوعية والوجودية والاتحاد السوفييتى، الذى كان له بين زملائنا أنصار ومفتونون، مثلما كان له كارهون، وإن كانوا فى ذلك الوقت قليلين، وكنا منهم، إلا أننا كنا نتميز عنهم بأننا لا نحب أمريكا أيضا، ونرى ولا نزال أن الإسلام أفضل من الشيوعية والرأسمالية معا جميعا. ومما أذكره من الكتب التى قرأناها فى ذلك الحين كتاب "آثرت الحرية" لفيكتور كرافتشنكو، الذى اشتريناه بعشرة قروش من سور الأزبكية القديم أيام كانت حديقة الأزبكية مكانا شاعريا مخضوضرا. وكنت أسمع من زملائنا الكارهين للشيوعية قولهم: نار الرأسمالية ولا جنة الشيوعية. وكنا نقرأ كتب العقاد التالية: "الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام" و"لا شيوعية ولا استعمار" و"هتلر فى الميزان" و"فى عالم السدود والقيود" والعبقريات، بالإضافة إلى ردوده على المستشرقين والمبشرين من خصوم الإسلام، وكنا نعتز بما كتبه أيما اعتزاز، ونعد ما خطه يراعه هو القول الفصل، ونفضله كثيرا على طه حسين، على العكس من اليساريين والعلمانيين، الذين كانوا يَرَوْن أن طه حسين أفضل من العقاد.

وكان نجيب محفوظ ضمن اكتشافاتى الجامعية، إذ لم أكن قرأت له من قبل، وكانت معرفتى به مقصورة على ما كنت أسمعه أوأقرؤه عنه. ومنه حديث سمعته له فى الإذاعة المصرية وجدته ينطق فيه كلمة "مغربى" بفتح الراء بدلا من كسرها، فأثار هذا استغرابى بشدة. كما كان لنا زميل أزهرى من القرية يصغرنا فى التعليم

بسنة أو سنتين قال لنا ، ونحن فى الإعدادية، إنه أرسل إلى نجيب محفوظ رسالة ضمنها بعض تجاربه فى الكتابة فرد عليه الأديب الكبير برسالة مثلها . إلا أننا لم نشأ أن نصدق ما يقول، وألححنا عليه أن يطلعنا على الرسالة إن كان ما يقوله حقا، فكان يَعِدنا ثم يسوّف. . . إلى أن كنا على مئذنة الجامع الكبير ذات ظهرية، ورأيناه من هناك على سطح بيتهم، وكان قريبا نسبيا من الجامع، فرأيناه يمسك ورقة فى الهواء ويقول إنها هى رسالة نجيب محفوظ. وانتهت المسألة عند هذا الحد، ولكننا بطبيعة الحال لم نصدق هذه الحيلة الساذجة. ولعل أول عمل طالعته لأديبنا العبقرى، الذى اتهمنى طبيب أسنان منذ عدة سنوات ظلما وافتراء بأنى شتمته فى المحاضرة أمام طلبتى قائلا إنه كافر وابن كلب، هو "الثلاثية"، التى أبكتنا وأضحكتنا حتى القهقهة بما فيها من حيوية وحياة لا أظن رواية عربية تحظى بهما أو بنصفهما . ثم كانت الثلاثية معبرا إلى عدد آخر من أعمال محفوظ والاستمتاع الضخم بما يكتبه.

ومرت الأيام والشهور والأعوام، وإذا بى أكتب عن الرجل عددا من الدراسات منها الفصل الأخير من كتابى: "فصول من النقد القصصى" حيث تناولت بالتحليل المفصل روايته: "رحلة ابن فطومة"، والفصل الثانى من كتابى: "ست روايات مصرية مثيرة للجدل"، الذى خصصت فيه عشرات الصفحات للحديث عن "أولاد حارتنا" والرموز التى تتضمنها وما قاله النقاد عنها على اختلاف مشاربهم وأهوائهم وغاياتهم، ورأيى أنا فى تلك القضية. وهذا إلى جانب ما كتبتُه عَرَضاً عن الرجل فى هذا الكتاب أو ذاك من كتبى. ورأيى الذى أدين به وعلى استعداد للشهادة به أمام الله يوم القيامة أن محفوظ، أيا ما يكن رأينا فى اتجاهه الفكرى ومواقفه السياسية، هو أديب عالمى بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. وقد كررت مرارا أنه أفضل كثيرا من بعض من حصلوا من الأوربيين والأمريكيين على جائزة نوبل فى الآداب، وأنه كان يستحقها قبل زمن طويل من حصوله عليها فى أواخر ثمانينات القرن المنصرم. كذلك أرى أن العقاد مثلا قلما يوجد له ضريع بين مفكرى العالم وكُتّابه، وأنه يستحق نوبل مثلما يستحقها محفوظ، بل أكثر مما يستحقها محفوظ. ولقد أكد محفوظ هذا

المعنى حين فاز بالجائزة، وإن لم يقتصر على ذكر اسم العقاد فى هذا السياق، بل أرفق به طه حسين فيما أذكر، وكذلك توفيق الحكيم.

وكان زملائى فى الجامعة الذين مر ذكرهم من خيرة طلابها، إن لم أقل إنهم خيرهم بإطلاقٍ ذكاءً وثقافةً ونقاءً وتدينًا واستنارةً. ولم نكن ننتمى إلى أية جماعة أو تنظيم، وكنا نستقى ديننا من العقاد وشلتوت وأمثالهما فى المقام الأول، كما كنا نقرأ فى الفلسفة والمذاهب السياسية، ولم نعرف الانغلاق ولا التبعية لأى شخص. كذلك كنا نحب أن نقرأ لزكى نجيب محمود لنصاعة أسلوبه وسخريته المبطنة رغم مخالفتنا لكثير مما يكتب. وقد شعرنا بالفرحة حين علمنا أنه سوف يناقش طالبا من طلابه فى المدرج الكبير بكلية الآداب، وهو الطالب إمام أحمد إمام، فذهبنا لحضور تلك المناقشة، وكانت أول مرة نحضر مناقشة رسالة جامعية. واشترك معه فى مناقشة الطالب د. فؤاد زكريا، الذى أذكر أنه اعترض، ضمن ما اعترض عليه من لغة الطالب، على استعماله كلمة "لاشَى"، قائلا إنه لا وجود لها فى المعجم، فاستغربت أنا من تلك التخطئة لتصورى أنه ما دام هناك "تلاشى" فمن الطبيعى أن يكون الفعل: "لاشى" موجودا أيضا لأن "تلاشى" هو المطاوِع له، والمطاوِع فرع من المطاوَع، وهو هنا "لاشَى". ذلك أننى أحب أن يطرد القياس فى اللغة إلى أبعد مدى، وإلا فما معنى القواعد اللغوية؟ وما لزومها ؟ هكذا كنت أفكر. والانطباع الذى خرجت به من جَرْس صوت د. فؤاد زكريا هو الحذلقة، إلا أنها كانت حذلقة محببة. كما كان هناك كذلك د. يحيى هويدى، الذى حظى منا بأقل قبول بين الأساتذة الثلاثة المناقشين، الذين أَثْنَوْا على مقدرة الباحث فى الترجمة من "الألمانية"، إن كنت لا أزال أتذكر ما حصل جيدا.

وكعادتى فى سبق الأحداث قبل حلول موعدها أذكر أننى قد دخلت مع د. فؤاد زكريا بعد ذلك بنحو عشرين سنة فى معركة فكرية على صفحات "الوفد"، إذ كانت تلك الصحيفة قد اتفقت معى فى منتصف الثمانينات على كتابة مقال نقدى كل أسبوع فى نحو ست صفحات أو سبع، وزودنى الأستاذ جمال بدوى

مدير التحرير ببعض الكتب أتخذ منها فى البداية موضوعات لمقالاتى، فاستقر عزمى على تناول كتاب د. زكريا عن "الحقيقة والوهم فى الحركات الإسلامية"، واختلفت معه فيما قال، لأفاجأ فى الاسبوع التالى بنشر الصحيفة ردا له على ما كتبت، وهو أمر طبيعى، إلا أن ما ليس طبيعيا أنهم لم يخبرونى بالأمر، علاوة على أنهم أجّلوا مقالى التالى ودون أن يخطرونى مسبقا كذلك. ثم زادوا فقالوا إنهم يغلقون باب الأخذ والرد فى الأمر، ودون أن يرجعوا إلىَّ أيضا، معتذرين عن نشر ردى على رد الرجل، فزاد هذا من حنقى، إلا أننى ضغطت على نفسى وقلت: دعك من العصبية المعروفة عنك يا خِلّ، وامض فى الكتابة وكأن شيئا لم يكن. بيد أننى فوجئت بهم ينشرون مقالا فى الرد على رد د. فؤاد زكريا لدكتور آخر ينتمى إلى الإسلاميين، فكانت هذه قاصمة الظهر، إذ توقفت عن إرسال أى شىء لهم بعد المقالين الآخرين اللذين كنت بعثت بهما إلى الصحيفة. وقد جاءنى شاب من تلاميذى كان يشتغل مصححا هناك يسألنى عن مقالى الجديد، فرفضت أن أعطيه شيئا رغم ما أكده لى من أنهم وعدوا بعدم الإقدام بعد ذلك على فعل أى شىء مما أغضبنى. إلا أننى أصررت على موقفى، لتنتهى صلتى بـ"الوفد" ولم تكد تبدأ. وقد عاتبنى صديق لى بأن هذه فرصة لى للانتشار وتحقيق الجماهيرية، لكنى اختلفت مع وجهة نظره مؤثرا كرامتى على جماهيريتى رغم أنه لم يجد فيما فعلته "الوفد" ما يمس تلك الكرامة.

وأعود إلى أيام الجامعة فأقول إننا كنا نخرج فى كثير من العصارى نسير على أقدامنا فى الغالب من حى بين السرايات حيث تقوم المدينة الجامعية حتى التحرير، وأحيانا نستمر فى السير والنقاش حتى العتبة، ومرة أكملنا السير إلى حى الحسين ذاته، ثم بعد تطوافة هناك فى الشوارع الصغيرة ركبنا الحافلة وعدنا أدراجنا إلى بين السرايات. وكثيرا ما كنا نذهب للسينما أو نقصد الآميريكين فى شارع ٢٦ يوليه "À l’Américaine": على الطريقة الأمريكية". وكنا ننطقها كما ينطقها كل الناس: "الأمريكين" (بإمالة الياء الثانية) لتناول الآيس كريم الذى كنا نسميه: "ثلاثة خنازير صغيرة" مُتَرْجِمِين، فى قهقهة وحبور، اسمه

الفرنسى: "Trois Petits Couchons"، فقد كان الجرسون يحضر لكل منا سلطانية تحتوى على ثلاث بولات، أى ثلاث قطع من الآيس كريم كروية الشكل، فنأكلها بالهنا والشفا ونضحك ونخرج سعداء إلى شارع ٢٦ يوليه (أو كما كنا وكان ناس كثيرون فى ذلك الوقت يقولون: شارع فؤاد)، الذى كان يبدو لنا فى آنذاك غاية فى الأناقة والأرستقراطية. وفى الفترة الأخيرة (وآخرها اليوم ١٣ فبراير ٢٠١٣م ظهرًا وأصيلاً) أتجول فيه كل عدة أيام، وقد أقف عند الواجهات الزجاجية أتفرج على الأحذية الجديدة كما كنت أصنع وأنا فى مقتبل الشباب. ولكن أين ٢٦ يوليه الحالى من ٢٦ يوليه القديم؟ وأين شارع سليمان ذلك الوقت من شارع سليمان الآن ببائعيه السريحة المنتشرين بعرباتهم فوق الأرصفة فى كل مكان؟ نعم أين شارع سليمان القديم من شارع سليمان ما بعد الثورة الينايرية، التى ما زالت توابعها المزلزلة تتالى حتى بعد مرور سنتين دون أن يكون هناك ما يدل على أن مصر سوف تستقر أمورها قريبا ؟

ياه ! لقد كنت آنذاك فى الثامنة عشرة إلى الثانية والعشرين، أما الآن ففى الخامسة والستين. وكنت وقتها أتنزه فى وسط البلد للتنزه ذاته، أما الآن فلا أنزل وسط البلد إلا لبعض الأعمال الرسمية أو الملحة. كما أذهب الآن وحدى، على العكس من الوضع أيام زمان حيث كنت لا أكاد أنفصل عن أصدقائى. وكنت فى تلك الأيام أشعر بالمستقبل ممتدا منبسطا إلى أبعد مدى، أما الآن فلم يعد أمامى إلا أيام قليلة أغادر بعدها الدنيا تاركا إياها للأجيال التالية كما غادرها من سبقونا وتركوها لنا . هكذا سُنَّة الحياة!

وفى الجامعة كان لبطل مذكراتنا هذه زملاء وزميلات منهم زميلة من بلد عربى مجاور جميلة وأنيقة وحيية لفتت نظره ثم لفتت شيئًا آخر غير نظره هو قلبه بل كيانه كله، وكان ذلك فى السنة الأولى، فكتب مقالا فى مجلة حائط كان يصدرها بمساعدة صديقه اليابانى المسلم الظريف الذى كان يصور المجلة بريشته البارعة، وكان عنوان المقال: "أميرتى ذات الحذاء الساحر"، ورسم اليابانى محسن يوشيهارو أوجاساوارا صورة قريبة الشبه بالأميرة. وشعر بطل مذكراتنا، على طريقة الفنانين، بالنشوة وهو ينشر المقال، إلا أن النشوة

لم تكتمل ولم تستمر، إذ كان المقال سببا فى قيام حاجز من التحرج بين الاثنين على مدار السنوات الأربع التى استغرقتها الدراسة بالكلية، وعادت الأميرة إلى بلادها دون أن يتحادثا، اللهم إلا مرة واحدة يتيمة دار حديث سريع بينهما على انفراد بعد المحاضرة المسائية التى كان يلقيها عليهم د. محمود فهمى حجازى العائد حديثا من ألمانيا فى تاريخ العرب قبل الإسلام حيث سمع بطل مذكراتنا لأول مرة باسم د. جواد على وكتابه الخاص بتلك الفترة من التاريخ العربى. لقد دعاها عقب المحاضرة وانطلق وهى تتبعه مسرعة تبعا لإيقاع سيره السريع مما أثار استغراب الزملاء، وسألها وهما وحدهما عن خطاب بعث به إليها على الكلية فأنبأته أنها تسلمته، ودار بينهما حديث سريع حول ذلك الخطاب دون أن يبدو عليها ضيق أو انزعاج من الأمر ودون أن تقول مع هذا شيئًا يشى بما تجنه فى قلبها. بيد أن غيابها على غير المعتاد فى اليوم التالى أفسد كل شىء وأيقظ حساسية الشاب، وهى المستيقظة بطبيعتها، فكانت الفاصلة. واصطبغت أيام بطلنا بالقلق والضيق والإحباط جراء ذلك الحاجز الصلب والصلد الذى قام بينهما بغتة، ولم يكن يخفف من ذلك سوى النظرات التى كانا يتبادلانها أثناء المحاضرات. لقد كان شديد الحساسية رغم جرأته الفنية تلك. ولو كان ذكيا لما نشر مثل ذلك المقال فى محيطه الضيق الذى لا يمكن أن تفوت الطلاب فيه فائتة، فضلا عن أن الطرف الآخر كان من بلد تغلب عليه التقاليد الصعبة. ومن يدرى، فلربما لم تكن تشعر نحوه بأى شىء. ولكن ماذا عن النظرات التى ظلت تُتَبَادَلُ بينهما طَوَال السنوات الأربع؟ كثيرا ما قال لنفسه: أتراها تهتم بك؟ فلِمَ إذن لا تُقْبِل عليك؟ فيجيب نفسه قائلا: وأنت ألا تهتم بها اهتماما ملك عليك أقطار نفسك وحياتك، ومع هذا فأنت لا تقبل عليها؟ إن هذا لمن ذاك.

والحقيقة أنه، رغم مرور كل تلك العقود الطويلة على صديقنا المحب القديم ورغم نضجه الفكرى والاجتماعى والنفسى ورغم قراءاته وما يرفد به قصاده المتوجعين (مثلما كان يتوجع أيام الجامعة) من نصائح فى هذا المجال وكأنه قد قطع السمكة وذيلها، ما زال عاجزا عن إجابة ذلك السؤال. وكان أيامئذ كثيرا ما

يسأل نفسه: وماذا لو كانت تبادلك الاهتمام وتصارحتما بما يشعر به كلاكما نحو صاحبه؟ أويمكن أن تتزوجها، وهى من بلد غير بلدك، وأنت غير مستعد للزواج ولا تستطيع الباءة التى تحدث عنها الرسول؟ لكن الحب بطبيعة الحال أعمى، أو قل: إنه إنسان طيب القلب على نياته لا يعرف مثل هذا المنطق الواقعى الأرضى. إنه يتغذى على ذاته ولا يستند إلى أى شىء خارج عن مملكته. وإلا فكيف تفسر، أيها القارئ، ما حدث لعنترة وقيس وجميل وكُثّيِر والعباس بن الأحنف وابن زيدون. . . إلى آخر القائمة الطويلة للمحبين العرب وحدهم؟ لو كان الحب للزواج فقط ماكانت قصص الحب الخالدة التى عرفتها وتعرفها وستعرفها الإنسانية على مدى تاريخها الطويل فى كل بقاع الأرض، وعند كل الأمم. لقد كانت تجربته العاطفية تلك تختلف عن تجربته العاطفية القديمة حين تفتح قلبه للحب أول مرة وفتح عينيه على السعادة الصافية وهام فى الملكوت وصعد إلى السماوات العلا . لقد كان الحب الأول خاليا من الإحباطات، فقد كان يرى فتاته طوال إجازة صيفية كاملة وعام دراسى كامل بين أهلها وإخوتها، ويكلمها وتكلمه ويناقشها وتناقشه ويتبادلان الرأى. . . إلى آخر ما يمكن أن يكون بين فتى وفتاة فى مثل تلك الظروف، مع الاحترام التام والعفة النقية الصافية التى لا تكدر صفاءها ذرة من عيب. أما هذا الحب الجديد فكان، مع عنفه وبطشه، مفعما بالحرمانات والمرارات على الدوام. وكان أصدقاؤه المقربون يحاولون على الدوام التخفيف عنه فيهدأ بعض الوقت لتعود الأمور سيرتها الأولى مرارة واشتعالا . . . وهكذا دواليك، إلى أن انصرمت السنوات الأربع، وعادت الأميرة إلى بلادها . ترى أين هى الآن؟ وماذا تصنع؟ اللهم أسعد حياتها إذا كانت لا تزال على قيد هذه الحياة!

على أن هذا الاشتغال بالأميرة كانت له فوائده التى لا تحصى. لقد عصمه الله به عن الدنايا، إذ من ذا الذى يهتم بمثل الأميرة أناقةً وجمالاً ورِقّةً وحياءً وأرستقراطيةً ونعمةً ورُفَهْنِيَةً ثم يمكن أن يتدهدى إلى من هى دونها أو إلى أى سلوك لا يليق؟ كما أن صديقنا ذا العواطف المشتعلة كان يعمل، دون تنبه منه، كل ما

من شأنه أن يزيده فى نظرها، طبقا للواقع الحقيقى أو للوهم الزائف المستكن فى ذهنه، رفعة وتفوقا، فكان يقرأ كثيرا، وإن كانت القراءة قد استحالت منذ وقت بعيد إدمانا لديه، فليس فيها فى ذاتها من جديد، إلا أنه كان أيضا لا يترك شيئا يقوله أستاذ من أساتذته ويكون له فيه رأى إلا ناقش الأستاذ بشأنه واستشهد بمن قرأ لهم من الكتاب والعلماء والمفكرين القدامى والمحدثين فى جرأة لا تعرف التردد أو الغمغمة، فكان الجميع يعاملونه معاملة خاصة حتى من لا يحبه منهم. وقد صقلت هذه المناقشات عقله وذوقه وشخصيته كلها، فخرج من الكلية وقد أمسى شخصا غير الذى كانه إلى حد بعيد، وهو ما عوضه بعض التعويض عن تلك الآلام الباهظة التى كان يصطليها فى معظم الأوقات طوال السنوات الأربع.

كما كانت الصلاة سبيلا إلى تخفيف الأوار المشتعل فى فؤاده، لكن الألم كان أقوى من أن يكون هناك حل حاسم يقضى عليه. وكانت الأغانى العاطفية سبيلا آخر للتخفيف عما يلاقيه من بُرَحَاء، إلا أنها، ككل شىء آخر، كانت تخفف عنه شيئا من التخفيف لتعود الأمور سريعا إلى ما كانت عليه من قبل. وكان يوم الجمعة يوما مملا لأنه لا يتمكن فيه من رؤية الأميرة، إذ الجامعة تغلق أبوابها. ومما لا يمكن أن ينساه صديقنا المحب أغنية عبد الحليم التى سمعها هو وبعض زملائه من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وهُمْ فى النصف الأول من أول أعوامهم الدراسية فى الجامعة، إذ كانوا عائدين ذات ليلة رمضانية بعد تناول السَّحُور فى مطعم المدينة الجامعية، فلم يشاؤوا الصعود إلى غرفهم، بل عاجوا على الصالون الزجاجى الواسع الموجود فى الطابق الأرضى من المبنى الخامس، وكان غير مضاء، ونور القمر النحيل يتسلل إلى ركن من أركانه، وكان هناك مذياعٌ يَدَوِىٌّ تنطلق منه أغنية "بأمر الحب"، فأنصت الجميع إنصاتا تاما، وجاشت مشاعره وهو يسمع المطرب الحاذق الحساس يشدو بقوله: "ونجمَهْ مسكْتِها بإيدى وكانت فى السما بِعيدَه * وشِىءْ فى الليل متوِّهْنى، وشىء ف عْنِيك بيندهْنى"، فازدادت عواطفه جيشانا، وكادت دموعه تطفر من مآقيه لولا الحاضرون رغم ما يسود المكان من عَتَمَة، وشعر بروحه تنطلق من زجاج الصالون وترتفع إلى الأعالى مع

كلمات الأغنية التى يطوّلها المغنى فى شجن قاهر وكأنه يطير معها إلى السماء يريد أن يفر من أوهاق الأرض وحسراتها. لقد كان سنوات أربعا صعابا تمام الصعوبة. رحم الله تلك الأيام الصعاب! إنها جزءٌ غالٍ من حياته لا يمكن أن يهون عليه. وهل تهون "الآلام" إلا على ابن الحرام؟ والآن هأنذا بعد أن كتبت هذا الكلام بعدة أسابيع أستمع إلى الأغنية المذكورة المسجلة على الكاتوب (أو الحاسوب إن شئت)، وأصل إلى البيتين اللذين يطيران بنا إلى النجم العالى الذى أمسك به الشاعر والمغنى فى رحلتهما السماوية وأمسكنا به معهما، ويرن فى أذنى صوت الأرغول البديع الحزين الذى يجاوب المغنى كلما أطال كلماته، فأتخيل تلك الليلة العجيبة، بل أعيش فيها من جديد رغم انصرام عشرات السنين وانتقالى معها من الصبا والشباب النضر المقبل على الحياة فى أمل، وإن كان حزينا شجيا، إلى الشيخوخة المولِّية، وأشعر بأن شيئا ما يقبض على قلبى ويؤلمه إيلاما، لكنه إيلام محبب رغم كل شىء، إذ فيه بعض من عطر الشباب الضائع، فتندى له عيناى، وتوشك الدموع أن تنفرط من سلكها لولا فضل من تماسك. اللهم عفوك ورحمتك!

وفى تلك الأيام وقعت فى يد الفتى رواية الكاتب الروسى ترجنيف المسماة: "الحب الأول"، فقرأها فألفى نفسه يتقمص بطلها ويشعر بما يشعر به ذلك البطل، ويحس وهو يطالعها بأن شيئا عنيفا يضغط على قلبه بل يعصره. كما قرأ فى السنة التالية رواية محمد عبد الحليم عبد الله: "شمس الخريف"، التى كانت أول شىء يقرؤه للكاتب. وكان يطالعها وكأنه بطلها مختار، ذلك الصبى الذى كان يهرب من الإسكندرية إلى عزبة خورشيد بعد موت أبيه وترمُّل أمه، فينطلق فى الحقول أو يجلس إلى عم خليل الرجل الريفى وأسرته فى الحقل هناك، فكان صديقنا يجد نفسه كثيرا فى الرواية وأحداثها وفى الطبيعة التى أبدع الكاتب فى وصفها فى النصف الأول من الرواية قبل أن تنتقل أحداثها مع انتقال البطل إلى القاهرة. ومع هذا كله لم تستطع الرواية أن تقضى على آلام صديقنا القضاء المبرم رغم أنها قد لَطَّفَتْ، أثناء مطالعته لها، من ألم النيران التى كان يصطليها بعض التلطيف.

لقد كانت الكتب، وبخاصة الروايات، إحدى وسائله إلى هدهدة الجراح التى تنتاش قلبه. ولعل هذا كان، دون أن يدرى، السبب فى وقوفه عند هذه الوسيلة الناجعة فى مداواة العواطف فى رسالته التى حصل بها على درجة الدكتورية من أكسفورد سنة ١٩٨٢م، وكذلك فى كتابه الذى ألفه فصلا بعد فصل مع كل محاضرة يلقيها على الطالبات فى جامعة قطر فى بداية هذا القرن، وهو كتاب "التذوق الأدبى" . وإنه ليستغرب كيف يقدم بعض المشايخ من المحسوبين على علماء الإسلام، وبضاعتهم من الفهم والعلم والتذوق ضئيلة مزجاة، على تحريم كتابة الروايات والقصص بحجة أنها تقوم على الكذب، إذ يكتب القصاص أن فلانا قام من نومه الساعة الفلانية فصنع كذا وكذا، وقال كيت وذيت، فى حين لا وجود لفلان هذا ولا لما ينسب له من أقوال وأفعال. ولا ريب أن هذا ضيق أفق وقسوة وتنطع وسخف، إذ يكفى أن هؤلاء المحسوبين على علماء الدين يريدون حرمان عباد الله من دواء نفسى ناجع، وإن كان مؤقتا، لكنه بكل يقين أفضل تماما من ترك المعذبين يتلظَّوْن فى نار الحرمان دون أن نتيح لهم وسيلة تخفيف لهذا العذاب تخلو من عصيان الله ولا تؤذى أحدا من عباد الله. ثم أين الكذب هنا، والمؤلف لا يقول بتاتا إنه يحكى شيئًا وقع، ولا يفهم القراء ذلك؟ ومن المعروف أن هناك اتفاقا ضمنيا على أن المؤلف إنما يروى ما يرويه من بُنَيَّات خياله وإبداعه. فلم التحبيك السخيف؟ إن هؤلاء المفتين يجهلون ما هو معروف فى النقد الأدبى من أن ما تقوله القصص لم يقع، ولكنه قابل لأن يقع، بمعنى أن حدوثه غير مستبعد، بله مستحيلا . وهذا مربط الفرس.

وقد كانت مشاعر صديقنا هذه نحو فتاته سببا فى إثارة موضوع مهم يتعلق بالحب، ألا وهو: هل يمكن أن يقع الإنسان، رجلا كان أو امرأة، على مدار حياته فى أكثر من حب، ويكون حبا صادقا صادرا من الأعماق؟ لا ريب أن حالة صديقنا كانت أبلغ رد على من يتوهمون أن الحب الصادق العنيف لا يقع سوى مرة واحدة فى العمر بحيث لا يمكن أن يتعلق قلب الشخص إلا بمحبوب واحد . ومن الواضح أن هذا الوهم لا علاقة له بدنيا الواقع، التى كثيرا ما نقابل فيها من يمر بتجربة الحب مرة واثنتين وثلاثا . . . وهكذا، وبخاصة

إذا لم يوفّق فى حبه السابق فلم ينل غرضه من الاقتران بمن يحب. وفى الإسلام لا مكان لتلك الرهبنة التى يمكن أن يظن بعض الناس أنها هى الحل لمن فشل فلم يحصل على ما يريد ولم يتزوج من ثم حبيبته. ومن الواضح أيضا أن الحياة لا تصيخ السمع لمن يردد مع أساطير الإغريق أن الله قد خلق كل اثنين من بنى الإنسان كيانا واحدا ثم قسم ذلك الكيان الواحد اثنين ثم أنزلهما إلى الأرض ليبحث كل منهما عن نصفه الآخر، الذى لا يستريح ولا يجد نفسه ولا سعادته إلا معه دون سواه من أفراد الجنس المقابل، بما يعنى أنه لا يمكن أن يكون لكل منا إلا شخص واحد يناسبه هو نصفه الذى كان ملتحما به فى السماء قبل أن ينزلا إلى الأرض. إن هذا كلام فنى جميل، لكنه غير واقعى ولا منطقى. والقلب يمكن أن يقع فى الحب أكثر من مرة. كل ما هنالك أن فوز المحب بمحبوبه حَرِىٌّ أن يخفف من لهفته إليه وانتقال الحب المشتعل الذى كان يكوى قلبيهما إلى عشرة ومودة هادئة فى أغلب الأحيان، إذ لم نر زوجين يظل كلاهما مشغوفا برفيقه نفس الشغف القديم الذى كان يعذبه قبل حصوله عليه.

كما كانت تلك التجربة فرصة لصديقنا للتمعن فى ذوقه تجاه الجنس اللطيف، فتنبه إلى أنه بوجه عام لا يميل إلى السُّمْر ولا إلى النحيفات أو الممتلئات، بل البضات. كذلك لم تكن تعجبه المرأة إلا إذا كانت أنيقة راقية العقل مثقفة مهذبة رغم أنه من الريف، ولم يكن فى الريف وقتها بنات يتعلمن إلا على سبيل الشذوذ والندرة، كما أن البيئة الاجتماعية التى خرج منها بيئة عادية جدا، إلا إذا تنبهنا إلى أنه كان يقرأ، ويقرأ بعمق، ويصاحب عمالقة المؤلفين ممن نوروا عقله، وصقلوا ذوقه، وأرهفوا عواطفه، ورَقَّوْا مطامحه، وأخذوا بيده من الأرض إلى السماء. ولا ننس أن أباه، وإن كان تاجرا ريفيا، كان يقرأ الصحف والمجلات كلها تقريبا، ويستمع إلى أحاديث كبار الكتاب والصحفيين فى الإذاعة، فضلا عن بعض الكتب حسبما مر من قبل. ولا شك أن لهذا كله تأثيرا على صديقنا المحب.

ولا بد كذلك أن نتحدث عن أصدقاء صاحبنا غير المصريين فى تلك المرحلة، كمحسن اليابانى، وريانج الكورى الشمالى، ومحمد الهندى، وغيرهم من طلاب الصين والاتحاد السوفييتى وفييتنام. وقد جعلته هذه الصداقات التى حظى بها فى المدينة الجامعية بحى بين السرايات بالقاهرة عالمى الفكر، فهو يناقشهم ويقارن بين ما يقولونه عن بلادهم وأديانهم وعقائدهم وما يراه هو حوله فى بلاده وما يعرفه عن دينه وأمته. . . وهكذا. وهو ما تكرر فى أكسفورد حيث انعقدت بينه وبين عدد من الباحثين من بلاد العالم المختلفة صداقة أو زمالة أو مجرد تعارف. وكان معظم هؤلاء الأصدقاء الذين تعرف إليهم فى جامعة القاهرة ظرافا خفاف الدم. فمحسن اليابانى مثلا لا يكف عن الضحك وحكاية نوادر جحا، الذى كان يسميه: "مهران العبيط"، أو بنطقه هو: "مَرَانْبِط". وقد كتبت عنه فى السنة الأولى بالجامعة مقالا بعنوان "الشعب المصرى شعب دمه خفيف"، شغل محسن منه حيزا كبيرا. ومما قلته عنه ما كان يردّ به علىَّ فى كل مرة أطلب منه على سبيل المداعبة أن يعطينى سترته، التى لم تكن تصلح لى لأن حجمى أكبر من حجمه كثيرا، فقد كان يقول: "انظر يا إبراهيم. إنها مكسورة". يقصد أن جيبها الداخلى ممزق بعض التمزيق. لكنه يتحدث عنها كما لو كانت منسوجة من الخشب أو من الحديد مثلا، ومن ثم لا يقول إنها ممزقة، بل مكسورة. وهنا أود أن أشير إلى أن اللغة الإنجليزية تقول عن الخيط إنه "broken"، والترجمة الحرفية أنه مكسور. أما نحن فنقول فى العربية إن الخيط مقطوع.

ولم يكتف صديقنا بمصادقة هؤلاء فى الجامعة فقط، بل أخذ معه محسن اليابانى إلى طنطا عند أسرة صديقه المرحوم أحمد الزاهد، فاحْتَفَوْا به أيما احتفاء وأحبوه حبا جما. ومن ناحيته أحبهم هو كثيرا جدا. بل أخذتُه أيضا إلى قريتى كتامة الغابة، وقضينا هناك ليلة أزعجتِ البراغيث فيها محسنا، فكان يقوم من نومه ويضم كفيه مفتوحتين انتظارا لقفزة برغوث من هذه البراغيث، وحينئذ كان يغلق الكفين عليه فإذا به فى الشَّرَك لا يستطيع منه فكاكا. بل زدت فأخذته مرة إلى قرية إخوتى من أبى: ميت الديبة التابعة لمركز

قلّين بمحافظة كفر الشيخ. ولما وصلنا كفر الشيخ وأردنا متابعة الرحلة إلى القرية المذكورة لم نجد إلا سيارة أجرة قديمة متهالكة من أيام نوح عليه السلام، أو ربما قبل نوح والطوفان، فلم نجد مفرا من ركوبها، ولم نجد فى داخلها مكانا لأينا، فتشعبطنا على الرفرف، وقد اختفت السيارة تماما وراء أجساد الركاب على الجانبين، وعلى الشنطة من الخلف، وعلى مقدمة السيارة ما عدا فرجة صغيرة من الزجاج كان السائق الريفى المفعوص تماما بين الركاب ينظر من خلالها إلى الطريق حتى لا يسقط ونسقط معه فى الترعة. ولست أستطيع أن أتذكر الآن هل كان هناك ركاب آخرون مسطحون فوق السيارة أو لا. وكان محسن اليابانى يضحك وأضحك معه على هذا الزحام المرعب الذى لم يشاهده قط فى سيارة، ونأخذ فى عَدّ الركاب فنجدهم قد تجاوزوا العشرين كثيرا رغم أن السيارة من الناحية القانونية لا ينبغى أن تحمل أكثر من سبعة ليس إلا. وكان الخطاطون يكتبون أيامها على زجاج سيارات الأجرة الأمامى: "أولاد النبى ٧ راكب". يا صلاة النبى! بالله عليكم هل شفتم عبقرية كعبقرية المصريين فى الربط بين النبى وسيارات الأجرة؟ ومما قاله لى محسن يوشيهارو أوجاساوارا ضاحكا، ونحن متشعبطون على السيارة: إنه سوف يكتب إلى أمه (ذلك أن أباه كان قد مات قبل ذلك) واصفا لها منظر السيارة ومحصيا لها عدد الركاب. ثم يردف قائلا: المشكلة أنها لن تفهم كلامى، بل ستظن أننى إنما أتحدث عن أوتوبيس لا تاكسى! فيفطس العبد لله من الضحك. ألم تفطسوا أنتم أيضا؟ إذا لم تكونوا قد فطستم فبالله عليكم أرجوكم أن تفطسوا، ولا تكسروا خاطرى. افطسوا! افطسوا!

وكنت كثيرا ما أذهب مع محسن إلى مدينة البعوث الإسلامية فى الدراسة حيث يسكن، فيطبخ لى (أو لنا إذا كان معى صلاح أبو النجا زميلى بالاقتصاد والعلوم السياسية، والسادس فى دفعتى من الثانوية العامة على الجمهورية) طعاما يابانيا: أرزا بدون لبن أو سمن أو زيت (وربما بدون ماء ولا أرز أيضا)، وفيه صراصير بحر وخنافس بحر، ولا أدرى ماذا أيضا من العناصر البحرية ذات الأسماء البشعة مع أن طعمها لذيذ، على الأقل: ألذ من الأرز اليابانى الشاهق البياض. وكنت آكل دون تقزز، إذ لم تكن هناك صراصير ولا دياولو، بل

مجرد أسماء فحسب. أما صديقى أبو النجا فكان يشمئز من الطعام ويكتفى بالنقنقة من أى لون محايد من ألوان الطعام المحسنى. وقد شاهدت محسن ذات مرة يصنع لى أنا وهو فى دقائق معدودات مخلل خيار لم أذق ألذ منه فى حياتى "ولا فى مماتى"، فقد أحضر الخبز وفَتَّهُ فى الماء حتى صار كالعجين وأضاف إليه ملحا وخلا ولا أدرى ماذا أيضا، ثم شرع يمرت قطع الخيار فى هذا العجين عدة دقائق، وإذا بقطع الخيار قد اصفرت وصارت طرية كالمخلل، وأربى مذاقها على الغاية فى الطعامة. هكذا ينبغى أن يكون أهل اليابان، وإلا فلا. ومع ذلك فلا بد من التنبيه إلى أنهم، مهما فعلوا وأبدعوا، لن يبلغوا مبلغنا فى العبقرية والاختراعات الخارقة. ألم نَصُرَّ نحن الفيل فى المنديل؟ ألم نعبئ الشمس فى زجاجات؟ ألم نخرم التعريفة؟ ألم ندهن الهواء دوكو؟ أويمكن اليابانيين أن ينجزوا عشر معشار شىء من هذا الذى أنجزناه نحن المصريين؟ لا طبعا، فنحن أُولُو حضارةٍ عمرها سبعة آلاف عام!

وكنت أنا وبعض زملائى الآخرين، على تفاوت بينهم فى ذلك، نساعد محسن اليابانى فى فهم الدروس والكتب، فنشرح له ونلخص كل شىء حتى كان أنشط زملائه وأسرعهم تعلما وتقدما. ولما انتهى من الليسانس بعد ستة أعوام (لاحظ أنه، حين أتى إلى مصر، لم يكن قد تعلم العربية، فدخل الآداب بعد مجيئه بسنة) عاد إلى اليابان، وانقطعت أخباره عنى، وإن كنت سمعت من صديق لى مصرى يعيش فى اليابان ومتزوج يابانية، وعرفنى عن طريق المشباك (الإنترنت) ودراساتى التى أنشرها من خلاله، أنه بحث عنه فى المشباك بناء على طلبى، فوجد له عدة كتب عن الأدب العربى. الله أكبر! لقد كبرنا إذن يا عم محسن وصار لنا ريش! فالحمد لله أنْ جاء تعبنا معك بفائدة، وأثمرت فينا صراصير البحر وخنافسه، وهذا هو الدليل!

وكمحسن اليابانى كان لى صديق آخر من كوريا الشمالية الشيوعية اسمه ريانج كان زميلنا عبد المنعم سعيد اليسارى يسميه: "ريانج الكافر"، مداعبة منه لبعض زملائنا المتدينين الصارمين. وقد طلب منى ريانج (الكافر طبعا) فى نصف العام الدراسى الأول لنا فى الجامعة أن يسكن معى حتى ينمى لغته ويصقلها من

خلال السكنى مع واحدٍ من أبناء اللغة لِمظٍ (لِمض) مثلى، فتركت المبنى الخامس إلى المبنى الثانى، مبنى الكبار ذى الغرف الزوجية الواسعة الأنيقة التى بكل منها حوض خاص بها لغسل الوجه. وأشهد لقد كان ريانج "الكافر" لطيف المعشر، ولا أظننى أنا أيضا كنت سيئًا . وكان يذهب إلى سفارتهم بين الحين والحين حيث يسهر مع زملائه هناك ويأتى وأنا نائم، فأستيقظ لصلاة الفجر فأجده ساهرا يقرأ على ضوء مصباحٍ مكتبىٍّ قد وضعه بعيدا عن عينى حتى لا أتأذى وأنا فى سابع نومة، وعيناه المشقوقتان الصغيرتان تبرقان لى عند استيقاظى، فأضحك ويضحك بدوره. ومرة وجدته يقوم من النوم ويشكو صداعا عنيفا فهمت من تأوهه منه أن رأسه يكاد ينفجر، مخبرا إياى أنه خُمَار المشروب الذى عَبَّ منه فى حفل السفارة، فقلت له مداعبا: انظر كم أن الإسلام لطيف نظيف، فنحن لا نشرب الخمر، ولا يصيبنا مثل هذا الصداع من ثم. فوافقنى، ربما مجاملة، وربما من أثر ما كان يعانيه من صداع، وربما من قلبه. غير أنه بقى كما كان "كافرا"، وسوف يذهب إلى النار خبْطَ لَزْقَ على رأى عبد المنعم سعيد .

وكان يزورنا بين الحين والحين شاب آخر من كوريا، لكنها كوريا الجنوبية، فكان ريانج "الكافر" يستقبله ويجامله، إلا أنه كان ينبهنى ألا أدعه يفتش أوراقه أو متاعه إذا جاء وهو بالخارج، موضحا لى ما لم أكن أجهله من أن الكوريتين بينهما من العداوة ما طرق الحداد . وكنت ألاحظ أن تصرفاته دائما تصرفات راقية دمثة أنيقة، وهو ما يتعارض وما أجابنى به حين سألته عن وظيفة والده، إذ كان يقول إنه عامل، فكنت ألوذ بالصمت. ثم لما ترك المدينة فى العام التالى صارحنى فى نوبة انبساط بأن أباه فى الحقيقة وزير وليس عاملا . ولعله قال إنه وزير العمل. ورجانى ألا أفشى ذلك السر إلا بعد مغادرته البلاد . و"أظن" أنه لا بد أن يكون قد غادرها خلال هذه الأعوام الخمسين، وإلا فأرجو أن تَنْسَوْا ما قلته لكم عن منصب أبيه.

وكان ضحوكا يستجيب لفكاهاتنا، وكانت تعجبه العبارة التى كان أخى الأكبر، رحمه الله، يرددها أمامه دائما كلما حصل على إجازة من الجيش وأتى يزورنى فى المدينة الجامعية، ألا وهى أنه حاصل على

المركز الأول فى العوم على الرمل، فيظل يضحك لها محاولا تصور كيفية السباحة فوق الرمل. وكان أذكى زملائه الكوريين مثلما كان محسن اليابانى أذكى وأنشط زملائه اليابانيين. ومرجع ذلك إلى أنهما اجتماعيان، فكان من السهل عليهما الاختلاط بنا والتعلم السريع منا، وبالذات لكثرة ما يدور بيننا وبينهما من حوار بالعربية وما كنا نشرحه لهما من الدروس.

ومع هذا كانت تندّ منه عبارات متعثرة ظريفة تُضْحِك الثكلى كما يقول العرب القدماء، مثلما حدث ذات يوم حين كان يعاتبنى على أمر فعلته ولم يسترح إليه، إذ أجبته (مازحا أو جادا: لا أدرى) بأننى حُرّ، فما كان منه إلا أن قال من فوره محتدا: عِنْدَكَ مَفِيشِى حُرّ! فضحكت، وانتهى الموقف المتأزم بسلام. ومرة أخرى طلبت منه أن يناولنى شيئا أو يحمل لى شيئا، فأتتنى إجابته للتو: أنا خَدَمِىٌّ يا إبراهيم؟ فضحكت قائلا: لا يا عم ريانج، بل أنت صعيدىٌّ! أقصد أنه يحبكها أكثر من اللازم دون داع كما يفعل إخواننا الصعايدة، الذين أنا والله العظيم واحد منهم، إذ كان جدى لأبى صعيديا من الصعيد الجوانى (أو "الدُّوَّانى" كما يقول أبناء عمومتنا هناك) هاجر إلى الوجه البحرى ليستقر فى نهاية المطاف فى قريتنا حيث تزوج ما لا أدرى عدده من النسوان من كل لون وطعم، فهو يتزوج ويطلق، ويتزوج ويطلق... ولهذا كانت جدتى لأمى، على قبرها شآبيب الرحمة والرضوان، كلما أزعجناها ونحن صغار بعفرتاتنا التى لا تنتهى، تشتمنا وتقول لى أنا بالذات وهى تشد شعرها منى: "يا صعيدى، يا ابن الـ..."، وأكملوا أنتم الباقى. وكانت تصفنا بأننا معجونون بماء العفاريت، فأضحك من هذه العبارة العبقرية، ولا أكف مع ذلك عن شيطناتى.

وفى أثناء العام الجامعى الأول، والمحاضرات فى الكلية على أذنه، صدرت الأوامر بمنعنا نحن طلاب المدينة الجامعية من الذهاب إلى المحاضرات والانتظام فى دورة تثقيفية اشتراكية تابعة لمنظمة الشباب بلغت روحى منها الحلقوم لأكثر من سبب: فأنا لا أحب الاشتراكية بالمعنى الذى صدعوا أدمغتنا به، وبخاصة أننا كنا نشعر أنها شىء يراد إدخاله رؤوسنا بدلا من الإسلام. وكانت رائحة الشيوعية النتنة تفوح من كلام المشرفين

الذين أحضروهم يقيمون معنا فى المدينة ويتقيأون ما عبأوهم به من الفكر اللقيط. وكان هؤلاء المشرفون الذين كانوا يقودون المناقشات ليلا فى مجموعات هم من السماجة والتنطع الاشتراكى، أو قل: الشيوعى، بحيث لم أكن أطيق الجلوس هادئا، بل كنت أتهكم على كل شىء فى الجلسة ولا أراعى النظام إلا مضطرا، وكنت أستغرب كيف يأخذ بعضنا نحن الطلاب الأمر مأخذ الجِدّ ويدخل فى مناقشات مع المشرفين وكأنه فعلا يؤمن بما يريدون أن يلقنونا إياه. ثم لا تنس أننى قد حُرِمْتُ طوال تلك الدورة اللعينة من رؤية الأميرة. صحيح أننا لم نكن نتحدث قط، لكنها على كل حال كانت على مقربة منى، وكانت هناك الالتفاتات المتبادلة التى لا تكاد تنتهى. وشىء خير من لاشىء. ألا لعنة الله على هذه الاشتراكية!

ثم بان الملعوب حين حانت الجلسات الخاصة بالدين، إذ جعلوها جلسة واحدة فى آخر يوم، وبالنهار، وجمعونا فى مطعم المدينة بربطة المعلم قبل الظهر، وأحضروا أستاذا من الحقوق فيما أذكر، ففتح الكتاب وهات يا قراءة مما أمامه، فلا تقسيم إلى مجموعات صغيرة ولا مناقشة ولا يحزنون ولا سهر ليلةً بعد ليلةٍ كمحاضرات الاشتراكية ومناقشاتها. أى أن المسألة فيما يخص الدين كانت بكشا فى بكش. وقد كانت النتيجة بعد أشهر قلائل هى الهزيمة الساحقة الماحقة، وعاش أبو خالد نَوَّراة بلدى! وإنى لأستعجب من الحمقى الذين يرددون فى سخف منقطع النظير أنه لو كان عبد الناصر حيا الآن لأوقف إسرائيل وأمريكا عند حدهما، وأرد عليهم وأنا أكاد أنفجر من الغيظ جراء هذا العته الميؤوس من علاجه: طبعا بأمارة الهزيمة التى أكلها وأكلناها معه بالسم الهارى على يد شذاذ الآفاق، فلم تقم لنا قائمة من يومها!

وكنت أكتب فى مجلة الحائط التى أصدرها أنا وبعض زملائى بين حين وآخر معارضا الماركسية. ويبدو أن مثل تلك المقالات، وكذلك المناقشات التى كنا ندخل فيها مع بعض الزملاء والأساتذة اليساريين، كانت أحد الأسباب فى أنْ رفضوا تكليفى بالمعيدية فى آداب القاهرة وتَعَطَّلَ تعيينى معيدا فى آداب عين شمس فترة من الوقت مما اقتضى، حين استقر اختيار قسم اللغة العربية علىَّ لشغل وظيفة "معيد" التى أعلن

عنها سنة ١٩٧١م، أن يرسلنى د. إبراهيم عبد الرحمن الأستاذ المساعد آنذاك بالقسم، بعد مرور عام وربع تقريبا من تاريخ الإعلان، إلى عميد شرطة يعرفه بلاظوغلى أحالنى بدوره إلى عميدٍ زميله بمبنى فى الدقى خلف كلية الفنون التطبيقية تقريبا حيث كان مَلَفِّى موجودا فيما أتصور، فكلف هذا الأخيرُ مشكورا ضابطًا شابًّا من مرؤوسيه بمقابلتى وتسديد الاستمارة الخاصة بى من خلال إجابتى على ما فى الاستمارة من أسئلة تريد الاطمئنان إلى أننى وأسرتى لسنا من الإقطاعيين أو الرأسماليين، وبطبيعة الحال لسنا من هؤلاء ولا هؤلاء، وذلك بعد أن أحضر لى ينسونا أو حلبة (المهم أنها كانت حاجة أَصْفَرَة، والسلام). وانتهى الأمر فى سلاسة عجيبة بعدما كنت، على مدار ثلاثة أشهر، لا أعرف رأسى من رجلى ولا أدرى هل سيتّم تعيينى فى وظيفة المعيد أو لا، وطمأنونى أنهم فى خلال يومين سوف يرسلون إلى الجامعة موافقة الأمن. وقد كان. فاللهمّ اجْزِ عنى كل من ساعدنى فى ذلك الأمر جزاء عظيما يكافئ هذه المعونة القيمة.

وحين وقعت الهزيمة، التى سَمَّوْها: "نكسة" لم نكن نعرف فى البداية أننا قد هزمنا، وهزمنا شر هزيمة يمكن تخيلها. لقد كانت الآمال عند جماهير الشعب فى الانتصار على إسرائيل على يد عبد الناصر تبلغ عَنَان السماء، وكان المذياع يعلن على الناس صبيحة الخامس من يونيه سنة ١٩٦٧م أن الطائرات الإسرائيلية تتساقط كالذباب، وكان هذا يسعدنا جدا. وكنت قد انتهيت من امتحاناتى بكلية الآداب قبلها بيوم، لكنى لم أكن قد عدت إلى القرية. وكنت، كما سبق التنويه، أسكن غرفة مشتركة فى المبنى الثانى بالمدينة الجامعية مع ريانج "الكافر"، وأذكر أننا وقفنا معا فى الشرفة نتطلع إلى السماء وهو يضحك جذلان سعيدا من الانتصار المؤزر الذى انتصرته مصر الاشتراكية على يد زعيمها الملهم. وأظن أنه هو صاحب تشبيه تساقط الطائرات الإسرائيلية الموهوم بتساقط الذباب. ثم أخذت مشاعرنا تتغير قليلا قليلا مع تقدم اليوم، فكان هناك قلق لا ندرى مبعثه، إلى أن علمنا الحقيقة بعد ذلك بيومين وتبين لنا أن الصوة الوردية التى رسموها لنا فى وسائل الإعلام كانت تضليلا فى تضليل. ومن بين ما قرأته فى الصحف ثانى يوم قبل انكشاف

الحقيقة مقال لأنيس منصور فيما أذكر يتحدث فيه، طبقا لما قال، من غرفة عمليات بالجبهة ماضيا فى تخديرنا بالأنباء الكاذبة، على حين لم تكن هناك جبهة ولا يحزنون.

وبعد ذلك بأيام كنت فى القرية فقابلت أحد الجنود من أبنائها الذين كانوا يلعبون معنا فى صغرنا، ففهمت منه أنه عاد إلى القرية من سيناء مباشرة دون أن يمر بوحدته العسكرية أو يسلم بندقيته، فعددت ذلك قلة وطنية، غير دارٍ بأبعاد الكارثة على وجهها الصحيح وأن المسكين لا ذنب له على الإطلاق، إذ لم يكن أمامه إلا أن يهرب بجلده من مجزرة تنتظر جميع جنودنا إذا بَقُوا فى سيناء بعد الهزيمة المذلة، أذل الله من تسبب فيها بغبائه واستبداده وكراهيته لدين أمته وموالاته للشيوعيين وكل من يبغضون الإسلام، وإن كانت الحقيقة تقتضينا القول بأنه لم يكن وحده فى ذلك، بل كان معظم حكام العرب والمسلمين مثله كراهية للإسلام وتآمرا مع الأجانب على أممهم. ولكن لا بد من المسارعة رغم هذا إلى القول بأن الشعوب التى يحكمها أولئك الحكام الخونة لا تستحق حكاما أفضل منهم لأنها كانت راضية بحكمهم بل كانت تُكِبّ على أحذيتهم تلعقها تعبيرا عن تقديسها لهم رغم حماقتهم وخيانتهم وقلة رحمتهم وما كانوا ينزلونه بها من عصف وعسف وهوان وتقتيل واعتقال ومصادرة للحريات والأموال.

والدليل على ما نقول أن تلك الشعوب حين هبت وثارت على أولئك الخائنين قد نجحت فى التخلص منهم فى شبه غمضة عين، فلم تُغْنِ عنهم جيوشهم ولا جلاوزتهم ولا أجهزة أمنهم ومخابراتهم، بل انهارت دولهم انهيارا سريعا لم يكن يخطر لأحد على بال. وكنت أظن أن عبد الناصر سينهض سريعا من تلك الكبوة العارضة ويحارب إسرائيل ويمرغ أنفها فى التراب انتقاما مما وقع بنا على حين غرة ليس عليه فيها أدنى مسؤولية. لكن زملائى المتخصصين فى العلوم السياسية قالوا لى حين تقابلنا فى العام التالى إن ذلك أمر بعيد لأن الجيش انتهى أمره، وإن الأمر يحتاج إلى وقت جد طويل حتى نحصل على طائرات جديدة بدل التى دمرت ويتدرب عليها الطيارون جيدا، وهو ما سوف يستغرق زمنا غير قصير.

وقد قام عبد الناصر بإعلان تنحيه وتحمله المسؤولية عن كل ما حدث، فما إن انتهى من خطابه الذى أعلن فيه ذلك حتى خرج المصريون إلى الشوارع يهتفون ببقائه ويجددون الثقة به. وكنت ليلتها فى طنطا، وسرت مع أستاذى أبو رية فى المظاهرات بشارع البورصة فيما أظن. ومما لا أَبرَح أذكره حتى هذه اللحظة أننى شاهدت فى أحد تلك الأيام فى أول شارع أحمد ماهر على شمال الداخل من ناحية شارع البحر، بين العصر والمغرب عقب معرفة الناس بالوكسة التى سموها: "نكسة"، رَفّاء بجلباب يتجه إلى السماء ويسب الدين لله سبحانه بسبب الهزيمة الفاضحة القاصمة، فاستغربت أشد الاستغراب من الغباء الذى يسول لبعض المتخلفين التطاول على الله فى أمر هم سببه الأول والأخير بسكوتهم على القهر والطغيان وتأليههم لحاكم فاشل أذاقهم صنوف العسف والتنكيل فى الوقت الذى يهتفون له فيه ويفدونه بحياتهم ودمائهم، وإن لم يكن عندهم دم البتة.

وقد ساعد على هذا التخدير القاتل ما برع فيه نظام عبد الناصر من تجنيد الفنانين من مؤلفى أغانٍ وملحنين ومغنين لتمجيد عبد الناصر والتغنى بالوطنية وبالكفاح وهجاء الاستعمار فى أعمال اتسم معظمها، والحق يقال، بالجمال والجاذبية رغم كل شىء حتى إننى، حتى الآن ومع كل ما قلته فى عبد الناصر مما يستحق أفظع منه وأشنع، ما إن أسمع شيئًا من تلك الأعمال حتى يستولى على فؤادى السحر القديم الذى كنت أجده لها فى نفسى عند سماعها فى صباى وشبابى، وأرتد مبهور الأنفاس إلى ذلك الماضى الذى كنا نظنه لشدة تخديرنا حينذاك جميلا ورائعا، ثم انكشف فى نهاية المطاف عن كابوس بشع مرعب. لقد كانت مشاعرى تجاه عبد الناصر ومواقفى منه متذبذبة، وأغلب الظن أن التيار العارم المناصر له كان له تأثير شديد علينا. لكنى بعد ذلك قد اتخذت موقفا ثابتا أو شبه ثابت منه حتى إننى، يوم وفاته وخروج الملايين لتشييع جثمانه، لم أشعر بالحزن ولا تعاطفت مع تلك الملايين، بل كنت أقرب إلى الضيق بهم منى إلى تفهم عذرهم.

وكنت أذهب فى الصيف إلى الإسكندرية حيث كان يعمل أخى الأكبر فى إحدى الشركات منذ كنت فى الإعدادية، فكنت أنزل عليه، فيتحملنى ويعطينى من المصروف ما تسمح به ماهيته الصغيرة. ومع ذلك كنت سعيدا . أما بعدما التحقتُ بالجامعة فكنت أتزاور أنا وزميلى صلاح أبو النجا، الذى تصادف أنْ كانت أسرته تسكن نفس الحى الذى يسكنه أخى قريبا من ترام الحضرة. وكان أبوه وأمه يستقبلاننى بترحاب، وكنت أحب ملاطفة إخوته: عادل الصغير (المستشار القضائى الآن)، الذى كان يزعجه مناداة أخواته البنات له بـ"ديدى"، وسامية وسهير وعفاف وعزة، وكانت البنات ذكيات، وكانت سهير أحلى الثلاث الكبيرات أسلوبا . أما حين عدت من بريطانيا فقد فوجئت بعزة ("عَذّة" بالذال كما كانت تنطق اسمها وهى صغيرة تمسك بذيل جلباب أمها البيتى خجلا أو خوفا منى رغم ملاطفتى لها) طالبة بالفرقة الثالثة بقسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية، فاختبرتها فى النحو والصرف خشية أن تكون قد دخلت القسم دون أن تكون مؤهلة له أو دون أن تكون محبة لمواده، لأفاجأ أنها متفوقة فى تلك المادة التى يخشاها معظم طلاب مصر، ولا أدرى لماذا، فتوقعت لها أن تكون معيدة فى الجامعة، وقد كان. وهى الآن أستاذة مساعدة فى كلية البنات بجامعة عين شمس مع زميلتى القديمة د. حسنة الزهار.

وعن طريق صلاح أبو النجا (الذى كان يكتب اسمه وهو صغير فى المدرسة الابتدائية: "سلاح" كما أخبرنا مرارا، فكنت أتندر عليه، وصرت بعدما كبرت وألفت الكتب أكتب له فى الإهداء إلى الصديق "سلاح" أبو النجا، والذى أخبرنا من نوادر أخيه الصغير اللطيف أنه كان إذا سألوه عما حفظه من القرآن الكريم فى المدرسة يجيب قائلا: لقد حفظنا سورة "الهِرّة" ! فيقولون له ضاحكين: هيا أسمعنا إذن سورة "الهرة" ! فيتنحنح ويبدأ فى التلاوة وهو يتمايل يمنة ويسرة على عادة الأطفال حين يُسَمّعون ما يحفظون من كتاب الله: "بسم الله الرحمن الرحيم. دخلت امرأةٌ النارَ فى هِرّةٍ حبستْها: لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خَشَاش الأرض. صدق الله العظيم"، فيصفقون له إعجابا بذكائه ودقة حفظه) أقول: لقد تعرفت من طريق صديقى

هذا إلى صديق آخر إسكندرانى كان مع عَمُّو "سلاح" فى مدرسة رأس التين هو هانى المرعشلى الأستاذ الحالى بتربية طنطا . ومن الذكريات الظريفة التى حكاها لى صديقى "سلاح" أن أستاذ الفرنسية كان يحبه ويطلب منه دائما أن يقرأ الدرس الفرنسى بعد الانتهاء من شرحه قائلا بصوته الرقيق: "Lisez Salah: لِيزِيه صلاح"، فينطلق الطلاب يغنون فى نغمة واحدة: "ليزيه صلاح. ليزيه صلاح. ليزيه صلاح. ليزيه صلاح. . ." وهم يتضاحكون.

وكان أبو هانى المرعشلى مديرا بالجمارك، وكان رجلا طيبا يكرمنا ويستقبلنا أحسن استقبال كلما زرناهم فى شقتهم الأنيقة المطلة على مقابر النصارى الشاعرية بالأزاريطة. وكان ينتقد أخلاق الناس فى مصر قائلا إنه كلما نزل صباحا للذهاب إلى عمله هتف قائلا تشجيعا لنفسه: حى على الجهاد ! يقصد أن أمامه يوما عصيبا بسبب وعورة أخلاق البشر والتوائهم وما انْطَوَوْا عليه من حب للأذى. وكان له ابن آخر هو هشام كان قد أصيب فى صغره بحُمَّى شوكية أورثته عجزا عن السيطرة على حركات جسمه وعن النطق. ومع هذا كان لطيفا وذكيا ويحبنا كثيرا، وكنا نحن نحبه أيضا ونداعبه. وكان يضع إصبعه بالطول تحت أنفه دلالة على الشارب كلما أراد أن يشير فى حديثه إلىَّ. ولا أدرى ما الذى كان يعجبه فى شاربى حتى يتخذه عنوانا علىَّ مع أننا جميعا كانت لنا شوارب. ولكن يبدو أن شاربى أنا بالذات كان صناعة يابانية (ألست صديق محسن يوشيهارو أوجاساوارا اليابانى ؟)، بينما كانت شوارب الباقين فالصو: صناعة صينية! ولو كان حيا الآن (إذ مات رحمه الله منذ أعوام) فلا أدرى كيف كان يشير إلىَّ. أتراه كان يمرر يده على رأسه أمامًا ووراءً إيماء إلى صلعى ؟

وبمناسبة الصين كان لنا فى المدينة الجامعية بالقاهرة بعض أصدقاء من الطلاب الصينيين نزورهم فى غرفهم، فكانوا يأتون لنا بكتيبات دعائية يقولون فيها إن الملاح يجدّف فى البحر بفضل أفكار الزعيم ماو، وكذلك الصانع يتقن عمله بفضل أفكار الزعيم ماو، وبالمثل تشرق الشمس على العالم بفضل أفكار الزعيم

ماو، ولم يبق إلا أن يقولوا إن الرجال ينامون مع زوجاتهم. . . إلى آخر ما تعرفونه أو ما أتصور أنكم تعرفونه، وينجبون منهن أطفالا بفضل أفكار الزعيم ماو، أو فلنقل: بفضل الزعيم ماو مباشرة دون المرور بأفكاره، إذ ليس فيما يحدث بين الرجل وامرأته فى الفراش موضع لأية أفكار: لا أفكار ماو ولا أفكار غير ماو.

وبالمناسبة أيضا أذكر أننى ضحكت حين قرأت للدكتور أحمد أمين فى تلك الأيام من كتاب "حياتى" أن زوجته فى الأيام الأولى من شهر العسل قد بحثت عنه ذات ليلة فى الشقة فوجدته فى مكتبه مشغولا تماما فلم يتنبه لها لأنه كان مستغرقا فى القراءة. ولما رويت القصة لفضيلة الشيخ محمد الغزالى وأنا أضحك، وكنت وبعض زملائى بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية حينذاك فى زيارة له فى بيته، علق قائلا وهو يضحك بدوره: طبعا حتى يذهب إليها وهو قارئ! فظللنا نردد كلمة الشيخ لأعوام طوال ونحن نضحك!

وهناك أيضا فتحى عثمان، وكان أكثرنا خبرة بالدنيا وأقوانا نزعة عملية وأقدرنا على الصبر على لأواء الحياة، إذ ذكر لنا أنه كان يعمل صيفا فى كافتريا (أو "قهوشية" كما كان يسميها أنيس بن منصور) لتوفير مصاريفه. وقد صار أوفرنا حظا من المال، وله دارة جميلة رائعة وفسيحة فى مدينة الشروق، وفيها كلبان شرسان مخيفان، بارك الله له فى دارته الرائعة، وكذلك فى الكلبين جميعا، ولكن بعيدا عنى، فأنا أخاف الكلاب موتا. وهناك كذلك زميلنا إكرام إسماعيل، الذى كان أصلبنا وأقوانا إرادة، والذى حين قابلناه فى الجامعة كان مفتونا بسقراط، ثم بكَانْط، ثم بجمال الدين الأفغانى، الذى كان معجبا بعزوبته ويراها عزوفا رجوليا عن شهوة الجنس، فكنت أقول له: ليس هذا من المفاخر فى شىء، وقد يكون الأمر مرجعه إلى ضعف جنسى لا يد للرجل فيه. وحين ذهبت إلى بريطانيا ثم عدت فوجئت بأنه قد تشيع.

وكنت أزوره ذات مرة استعادة للصداقة القديمة، ففوجئت أثناء نقاش دار بيننا أن رأيه شديد السوء فى عمر بن الخطاب وعائشة رضى الله عنهما. والغريب أن سبب هجومه على أم المؤمنين وابن الخطاب هو اعتراضه علىّ لتناولى رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن ببعض الكلمات الشديدة التى عدها الصديق

القديم مما لا يليق، بينما انجرف أثناء تبريره لاعتراضه ذاك إلى النيل من زوجة النبى وصَدِيقه الحميم رضى الله عنهما، غير واجد فيما قاله عن الفاروق وعن الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق شيئًا لا يصح، وهو ما جعلنى أضع حدا بينى وبينه ولا أصلى أو آكل معه يومها على أساس أن تأدية الصلاة جماعةً معناها أن المصلين هم على قلب رجل واحد، وهو ما لم يكن متوافرا، كما أن أكل العيش والملح معا إنما يعنى الوفاء والإخلاص، وأين هما فى مثل تلك الظروف؟ ثم انصرفتُ عنه وأنا غير مصدق لما سمعت. وكان قد سافر أثناء غيابى بالخارج إلى بعض البلاد العربية والإسلامية ليكون إلى جانب المهدى المنتظر عندما يحين أوان ظهوره. وقد انتهى به الأمر إلى الانزواء فى ملوى مسقط رأسه والابتعاد عن القاهرة وصخبها. ولا أدرى الآن ماذا يصنع ولا ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة أو لا، فقد انقطعت بيننا وبينه السبل.

قلت فى الفقرة السابقة إننى لم أعد أسمع بالأستاذ إكرام إسماعيل ولا أدرى شيئًا عن مصيره، إلا أننى قرات بعد ذلك بعدة ليال مقالا لعبد الرحمن بن لطفى منشور بجريدة "الشعب الجديدة" فى ٧/ ٥/ ٢٠١٣م فوجئت بأنه قد أتى على ذكر صديقى القديم فيه. وهذا نص المقال كاملا حتى تلموا بالسياق الذى ورد فيه اسم صديقى القديم الذى ما زلت أحن إليه رغم كل شىء، وعنوان المقال: "مرحبا بالشيعة فى مصر": "أنا أعلم أن هذا العنوان الذي اخترته لكلمتي هذه سيستفز ويضايق عددا كبيرا من إخوانى المنتسبين إلى الدعوة السلفية. وأنا اخترت هذا العنوان عن عمد لا لأستفزهم وأضايقهم ولكن لأنبههم أنهم غالَوْا فى التحذير من خطر المد الشيعي على حساب أخطار أشد بكثير من وجهة نظري وقعوا هم فيها وخالفوا فيها ما كانوا يفتون به كتفرقهم إلى أحزاب كثيرة بعد أن كانوا ينكرون الجماعات والأحزاب ويقولون: "لا أحزاب فى الإسلام ولا جماعات". وهذا في عهد الرئيس الطاغية، الذي خلعه الله، والذى كان يجب عليهم أن يخرجوا عليه ويدعون الناس للخروج عليه كما فعلنا نحن فى حزب العمل. وبعدما تولى علينا حاكم نأمل أن يقيم فينا شرع

الله واخترناه وشاركونا هم فى اختياره على هذا الأساس إذا بهم يقيمون أحزابا كثيرة فرقوا بها بين المسلمين وخالفوا هذا الحاكم بدلا من أن يعينوه على تنفيذ هذا الأمر الذى اخترناه من أجله ويأطرونه عليه.

أما بالنسبة لعقيدة الشيعة التى يحاربونها ويحذرون منها فنحن أيضا نحاربها ونحذر منها، ولكن لا نغالي فى ذلك. وأنا شخصيا كتبت عام ١٩٧٨ فى مجلة "الهدى النبوى"، التى كانت تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية، أحذر من كتب الشيعة،وذلك قبل قيام الثورة الإسلامية فى إيران. وذلك لأنني وجدت من يوزع كتبا تدعو إلى المذهب الشيعي والذى كان يوزعها فى بلدنا ملوى أخ كان يعمل سكرتيرا للشيخ محمد الغزالي السقا فى وزارة الأوقاف يدعى: إكرام إسماعيل، ولكنه ذهب إلى لبنان، وهناك تشيع وأحضر هذه الكتب معه مثل كتاب "المراجعات"، الذى زعموا أنه عبارة عن مناظرة بين عالم شيعي يدعى: عبد الحسين بن شرف الدين والشيخ سليم البشري شيخ الأزهر الأسبق ، وكتاب "المسائل الفقهية بين الشيعة والسنة ". ومن بين الكتب التى كان يوزعها كتاب بعنوان "لماذا اخترت مذهب الشيعة مذهب أهل البيت الأبرار؟". ووجدت فى هذا الكتاب سبا فى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين وافتراء عليهم، فكتبت ردا عليه بعنوان "كتاب آثم" فَنَّدْتُ فيه افتراءاته وأكاذيبه.

أما ما يحذّر منه الآن إخواننا السلفيون من أن الشيعة يقولون بتحريف القرآن وأن الصحابة كلهم ارتدوا عدا أربعة أو خمسة وأنهم يعتبرون التَقيَّة فريضة لا يقوم مذهبهم إلا بها فهو باطل واضح البطلان لا يُخَاف منه لأن بطلانه لا يخفى على العوام، فضلا عن طلبة العلم. وعندما اعتنق خطيب كوبري الجامعة حسن شحاته هذا المذهب وصرح به تبرأ منه ابنه حمزه. ولذلك فأنا أقول لإخواني السلفيين: لا تخافوا على المصريين من المذهب الشيعي، بل افرحوا بقدوم الشيعة إلى مصر لنعلمهم نحن المذهب السنى لأنه الحق الذى ذرةٌ منه تقف أمام جبل من الباطل. هذا لو سلمنا جدلا أن كل الشيعة يقولون بهذه العقيدة الفاسدة، لأنني قرأت لبعض علمائهم إنكار ذلك وقولهم إن مصاحفنا تطبع فى السعودية. وسمعت الدكتور طارق سويدان يقول إن السيد

حسين فضل الله شيخ السيد حسن نصر الله، الذى يقول عنه بعض السلفيين: "حسن نصر اللات"، ألف قصيدة يمدح فيها السيدة عائشة رضي الله عنها . بل إنني قرأت أن الإمام الخميني نفسه أمر أتباع المذهب الشيعي بالصلاة خلف أمام المسجد الحرام. وأذكر أن الرئيس السادات كان يشعل البايب ويقول: "اللى بيعمله الخميني ده ليس من الإسلام"، وكان الخميني وقتها أكثر التزاما بالإسلام من السادات لأن الخميني ذهبت له صحفية إيطالية لتجرى معه حوارا ،فرفض أن تدخل عليه إلا إذا سترت جسمها ورأسها كما يأمرها بذلك دينها، وكما يأمر بذلك الإسلام، فى حين ذهبت جيهان السادات لمقابله بابا روما، فرفض دخولها عليه إلا بعد أن تغطي رأسهما، فقلت فى نفس من الذى يفعل ما هو ليس من الإسلام؟ السادات أم الخميني؟

وأذكر أنني منذ عدة سنوات صليت الجمعة فى مسجد العزيز بالله بالزيتون، وكان خطيب الجمعة الشيخ حسن أبو الأشبال، ووجدته يقول إن إيران وحزب الله عملاء لأمريكا وإسرائيل، فأرسلت له ورقة وهو على المنبر أقول له فيها: إن كلامك غير مقنع لأن إيران وحزب الله أذلاّ أمريكا وإسرائيل. ولكنه لم يتراجع، وكرر كلامه بعد الصلاة، فتصديت له وقلت له إن مبارك هو عميل أمريكا وإسرائيل لأنه رفض الصلح مع إيران لأنها طالبته بإلغاء معاهدة السلام مع إسرائيل، فى حين طالبهم هو بتغيير اسم شارع خالد الإسلامبولى فى طهران. فسكت، ولم يرد علىَّ مما زادنى اقتناعا بأنه مخطئ.

وأخيرا أريد أن أقول لإخواني السلفيين: إنكم لا ترون غضاضة فى التعامل مع الذين يسبون الله ويزعمون أن له صاحبة وولدا، فمن باب أولى أن تتعاملوا مع الشيعة الجهلاء الذين يسبون الصحابة وتدْعونهم إلى دين الله الإسلام الذى لن يقبل الله من الخلق دينا غيره. وأقول لهم أيضا: إن السياح الإيرانيين الذين تخافون على العوام منهم لا يحسنون التكلم باللغة العربية ولا يقيمون في بلادنا إلا أياما معدودة، في حين يأتي إلى مصر آلاف الشيعة من العرب من السعودية والعراق والكويت والبحرين وغيرها، ومع ذلك لم يستطيعوا إقناع احد من المصريين بالتشيع إلا أعدادا قليلة لا تذكر. وكذلك لم نسمع أن أحدا من إخواننا في غزة تشيَّع مع أن إيران

تساعدهم وتمدهم بالمال والسلاح. فيجب عليكم يا أخواننا أن تُعْرِضوا عن هذا الأمر، وإن أردتم إقامة دولة أهل السنة فعليكم أن تحلوا جماعاتكم وأحزابكم وتبايعوا الرئيس محمد مرسي على إقامة شرع الله والحكم بما أنزل الله وتأطرونه عليه".

Bottom of Form

وقد طالعت بين التعليقات التى علق بها القراء على هذا المقال التعليق التالى، وفيه ذكر لأحمد زكى، وهو أيضا من معارفى، وكنت أراه كثيرا عند ذهابى إلى مكتب الشيخ الغزالى رحمه الله فى أوائل سبعينات القرن الفائت، ويجرى بيننا الحديث فى شؤون وشجون شتى. وهذا هو التعليق الذى لفتنى إليه دون بقية التعليقات: "إكرام إسماعيل لم يكن شيعيا أثناء وظيفته بالأوقاف، والشيخ الغزالي كان له سكرتير آخر، اسمه أحمد زكي، سلفيّ المشرب ذهب شيكاغو وتسبب في قضية مدنية بالمسجد بين الرجال والنساء مناوئا لأحمد صقر اللبناني حكم فيها القاضي بتعيين يهودي بمبلغ نحو ٣٥٠٠٠ دولار يمسك مفتاح المسجد. ثم أحمد زكي رجع لمصر وحلق ذقنه وأصبح مدرسا بلغات الأزهر. نعود لإكرام إسماعيل: كان يسكن في ميدان الجيزة، وسافر للشارقة، وتعرف على الشيخ عبد البديع صقر سكرتير الشيخ حسن البنا الشخصي، ثم تركه وتشيع. وهو عاطفي جدا حتى إنه قابل الحافظ عبد الله الغماري لما زار دبي ولم يتأثر به".

ومن أساتذتى الجامعيين الذين أرى أن أتوقف أمامهم قليلا د. شكرى عياد، الذى كان إذا أملى علينا شيئًا ينحاز ناحية النافذة الجنوبية القريبة من مقعد المحاضر ويملى علينا جملة أو نحوها ثم يصمت قليلا وينظر إلى الخارج وهو يفكر فى شىء من المعاناة يظهر فى تجاعيد جبهته. وكان يلبس فى العادة بيريها أزرق داكنا. وقد شرعت أبحث أنا أيضا هذه الأيام عن مثل هذا البيريه، ولعلى أوفق إلى شراء اثنين منه أرتديهما بالتبادل فأكون من المفكرين. أليس لى نفس كبقية من يلبسون البيريه فيظهر على سمتهم أنهم مفكرون؟

كما كان من أساتذتى أيضا د. يوسف خليف، الذى كان لطيفا دمثا رقيقا، وكان يملى علينا هو أيضا مادة تاريخ الأدب الجاهلى، وكنت أتصور أنه لا يصنع شيئًا سوى تلخيص ما كتبه أستاذه د. شوقى ضيف فى كتابه عن العصر الجاهلى وإعادة صياغته بأسلوبه الحلو القائم على الترادف. وذات مرة لاحظ أننى لا أكتب ما يمليه علينا فعلق ضاحكا بأن إبراهيم عوض (الذى هو أنا طبعا) يعرف أن د. خليف (الذى هو هو دون أدنى شك) ينتهج الترادف فى أسلوبه دائما، فهو لذلك يكتب مما أمليه جملة ويترك جملتين أو ثلاثا لها نفس المعنى. وقد ذهبت إلى بيته مع محسن اليابانى ذات ليلة، وأذكر أنه كان قريبا من ميدان الجيزة. كما ذهبت مع بعض زملائى فى مناسبة أخرى إلى شقة د. حجازى، وكان لايزال عَزَبا، وقدم لنا سباطة موز أخرجها من الثلاجة لنأكل منها. ولا أدرى أأكلنا منها فعلا أم غلبنا الحياء. ومن بين ما دار بيننا من نقاش فى تلك الليلة انتقاد أستاذنا لبعض الزعماء السوفييت الذين يريدون أن ينظروا لِلُّغة من زاوية شيوعية لا تلائم طبيعة اللسان البشرى.

أما د. شوقى ضيف فلم أره إلا فى العام الثالث لى بالكلية، إذ كان معارا قبل ذلك إلى الأردن. وكنت قد تأخرت تلك السنة فى القرية، ولم أحضر فى أول الدراسة لبعض الظروف الخاصة، فأتانى خطاب من صديق لى بقسم اللغات الشرقية هو المرحوم سليمان سباق يستحثنى على القدوم قائلا: "أقبل أقبل يا إبراهيم، فقد أتانا أستاذ عظيم يحتاج وجوده أن يكون واحد مثلك بيننا"، أو كلاما بهذا المعنى. ففى الحال صح منى العزم على السفر إلى القاهرة. وفى أول محاضرة تقريبا خرجت وراءه فى الفسحة التى تفصل بين نصفى الدرس، وسألته عن الكيفية التى أتغلب بها على تشتت الحديث عن الشاعر الواحد فى عدة مجلدات من كتاب "الأغانى"، فوعدنى بأنه سوف يجيب على هذا السؤال حين يعود لاستكمال الدرس بعد دقائق الراحة. وحين عاد تناول الموضوع فعلا كما وعدنى، لكنه انتقدنى قائلا إنه من الواضح أن الطالب الذى سألنى قبل قليل فى كذا وكذا لم يقرأ كتاب "الأغانى" ولا يعرف أن المستشرقين قد ألحقوا به مجلدا كاملا يحتوى على

الفهارس التى من شأنها تعريف القارئ بمواضع الحديث عن الشاعر المراد . فآلمتنى الملاحظة، ومكثت طوال كلامه وأنا قلق متوتر لا أدرى أأرد عليه أم أسكت حتى تنتهى المحاضرة ويصير لكل حادث حديث. وقد تغلب صوت الحكمة عندى هذه المرة على غير مألوف عادتى، فسكتُّ إلى أن انتهى الدرس وخرج الأستاذ، فخرجت وراءه سريعا حيث لحقت به فى الغرفة الملاصقة لقاعة المحاضرة.

وكان معى زميلتان، فتكلمتُ قائلا إننى أعرف جيدا كتاب "الأغانى" وأقرأ فيه، ولا يقلل من شأنى أنى لا أعرف فهارس المستشرقين، فالعبرة بأنى أقرأ وأتابع وأهتم. ثم أضفت قائلا فى حدة فنية لا أقصد بها تجاوز حدود اللياقة بل التدلل حتى يعرف أستاذى أننى غير راض عما قاله فى حقى: وإذا كنتم، يا أساتذتنا، قد وضعتم منا أصابعكم العشرة فى الشق فنحن قد وضعنا منكم أصابعنا العشرين: أصابع يدينا وأصابع قدمينا معا . ففغرت إحدى الزميلتين، وكانت من قسم اللغات الشرقية، فاها استغرابا واستنكارا لهذه الجرأة غير المعهودة. فأشرت إليها برفق أن تتركنى أتحدث على راحتى، وهو ما أَمَّن عليه الأستاذ الدكتور فى رقة وعطف.

ثم انتهى الموقف وعدت إلى المدينة الجامعية، وشيطان الفن يتنمر ويتقافز فوق كتفى تارة، وبين عينىَّ تارة أخرى، فلم أهدأ تلك الليلة حتى سطرت خطابا طويلا للدكتور شوقى ضيف أعنف من الكلام الذى تفوهت به فى اللقاء المذكور، ولم أنس أن أضمنه حكاية الأصابع العشرة والعشرين، وسلمته إياه فى غرفته، وانتظرت إلى المحاضرة التالية التى جئتها مبكرا وجلست فى الصف الأول على عادتى متحفزا بجوار الممر الذى يفصل بين نصفى القاعة. فلما دخل الأستاذ الدكتور كنت كُلِّى أعصابا مرهفة انتظارا لما سوف يكون عليه رد فعله. فما كان منه إلا أن تيممنى حيث أجلس وانحنى علىَّ هامسا بحنو جميل أنه قرأ رسالتى وأنه مسرور بها، وأنه سوف يهدينى كتابا من كتبه، وهو ما حدث، إذ وجدته يحضر لى نسخة من كتابه: "العصر العباسى الثانى" وقد كتب فيها إهداء جميلا نعتنى فيه بـ"الصديق السيد فلان".

الله أكبر. نعم هكذا ينبغى أن تسير الأمور، وإلا فلا. وقد أخذتُ منه رحمه الله تلك العادة، فلا أكاد ألمح طالبا نشيطا محبا للعلم والبحث حتى أشجعه بكل سبيل: بالكتب والمال والبسكويت والشيكولاتة والحديث الكثير عنه فى المحاضرة ومداعبته دائما أمام زملائه حتى أستفز قدراته ومواهبه وأُرْهِف اهتمامه بالعلم والثقافة لافتا إياه إلى خطر أمر العلم فى منظومة الحضارة وعند الله والرسول والملائكة، مبينا له أنه ما من دين يضع العلم فى ذات المكانة التى وضعه فيها الإسلام ولا تحدث عنه بنفس الحراراة والاهتمام كدين محمد. وبالمناسبة فالأستاذ الدكتور هو الذى اقترح علىَّ الكتابة عن محمود طاهر لاشين فى أطروحة الماجستير، وقد كتبتها تحت إشراف د. عبد القادر القط حين صرت معيدا بقسم اللغة العربية بآداب عين شمس، وإن كنت أنهيتها دون أن يرى الأستاذ المشرف شيئًا مما كتبته فيها، وتمت مناقشتى ونجحت والحمد لله، وكانت لجنة المناقشة مكونة منه ومن د. عز الدين إسماعيل ود. أحمد كمال زكى. ولست أذكر أننى كنت خائفا أو قلقا فى ذلك الوقت ولا فى أكسفورد عندما انتهيت من أطروحة الدكتورية هناك وناقشنى فيها Dr. Derek Hopwood (الذى كان يقول مفاخرا على سبيل الدعابة إن اسمه مكون من كلمتى "حُبّ" و"وُدّ"، والذى سمعت أنه غير طبيعى، وإن لم الحظ شيئًا من ذلك على الرجل، وبخاصة أنه كان له جيرل فرند تشتغل فى مكتبة مركز دراسات الشرق الأوسط معه. وكانت شخصيته بوجه عام ودودة) ود. محمد عبد الحليم الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ومترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية. وقد تبين لى بعد ذلك فيما بعد، حين اطلعت على كتاب أستاذى د. شوقى ضيف: "معى"، أنه رحمه الله قد اتخذ من كتاب "الأغانى" موضوعا لأطروحته فى الماجستير، ففسر لى هذا الأمر سر تعليقه المنزعج على ما قلته عن الكتاب. إنه "يعرفه كظهر يده" كما يقول التعبير الإنجليزى، فكان يتوقع أن يعرفه الطلاب كما يعرفه هو.

ومنذ ذلك اللقاء الأول والخطاب الأول للدكتور شوقى ضيف قامت علاقة خاصة بينى وبينه، فكان يستقبلنى فى بيته متى ما زرته ويحمل لى بنفسه، كرما منه ولطفا، فنجان القهوة وقطعة الشكولاتة، فأشرب القهوة رغم أنى لست من شاربيها لا هى ولا الشاى، وأجد فيها لذة وسرورا لأنها من يد الدكتور، وآكل الشيكولاتة هَمّ يا مَمّ. وما أكثر المناقشات التى دارت بيننا فى تلك الزورات: ومنها مثلا أن همزة "أنّ" بعد كلمة "حقا" تفتح ولا تكسر على أساس أنها واسمها وخبرها مصدر مؤول بالصريح فى محل رفع فاعل للفعل المقدر: "حَقّ". كما أبديت أمامه ذات مرة ضيقى بنفسى لإحساسى أننى أقل ثقافة ومقدرة على التأليف من العقاد وطه حسين وأحمد أمين، فكانت إجابته أنْ ليس لى الحق فى هذا الضيق لأن المقارنة ظالمة، إذ يجب أن أقارن بينى وبينهم حين كانوا فى مثل سنى، لا بعدما صاروا كتابا مشهورين يكبروننى بعقود من السنين، فهدأت نفسى قليلا .

ومن تلك المناقشات أيضا المقارنة بين العقاد وطه حسين. وقد فوجئت به يفضل الأول على الثانى كثيرا، قائلا إن العقاد كان يبدو مترفعا فى ظاهر الأمر، لكنه كان شعبيا ديمقراطيا فى حياته وتصرفاته على عكس طه حسين، وإنه من ثم قد ألف كتابا كاملا عن العقاد (هو "مع العقاد"، الذى قرأته بعد انتهائى من المرحلة الإعدادية)، فى الوقت الذى لم يفكر فيه أن يضع كتابا عن أستاذه طه حسين. وقد سجلت ما دار فى هذا الحديث وأردت نشره فى إحدى المجلات ضمن مقال لى رسمت فيه صورة قلمية له، إلا أننى فكرت أولا أن أطلعه عليه حتى يبدى ما يراه من ملاحظات، فأشار علىَّ بأن أبقى على كلامه الخاص بالعقاد وأحذف ما قاله فى طه حسين حتى لا يتهمه الناس بالتنكر لأستاذه، أو كما قال. فانصعت لرغبته احتراما له ولما يراه، ونشرت المقال فى منتصف سبعينات القرن الفائت بملحق "الزهور" التابع لمجلة "الهلال" على أيام المرحوم صالح جودت فيما أذكر، وكان بعنوان "د. شوقى ضيف شيخ مؤرخى الأدب العربى– صورة قلمية". نشره

لى الأستاذ نصر الدين عبد اللطيف، الذى لا أدرى ألا يزال حيا حتى الآن أم لا، وكان رقيقا مجاملا يشجعنا ويرحب على قدر وسعه بما أحمله إليه أنا وغيرى من مقالات. شكر الله له رقته ولطفه.

كما كتبتُ منذ عدة سنوات دراسة طويلة عن د. نصر أبو زيد بعنوان " نصر أبو زيد- أغلاط ومغالطات"، تناولت فيها، ضمن ما تناولت، النقد المجحف الذى وجهه د. جابر عصفور إلى أستاذه د. شوقى ضيف رحمه الله، واتهمه فيه بأنه لا يفهم شيئًا فى البنيوية ولا التفكيكية ولا الهرمنيوطيقية، وأنه قد انسحب من اللجنة التى تم تشكيلها لقراءة إنتاج د. نصر أبوزيد العلمى للنظر فى مدى استحقاقه للترقية إلى رتبة الأستاذ، حتى يأخذ مكانه د. عبد الصبور شاهين، الذى كانت بينه وبين أبو زيد ثارات قديمة، مع أن د. جابر عصفور كان يمجد أستاذه د. شوقى ضيف دائما ولا يجرؤ أن يقول فيه أثناء حياته ولا واحدا على المليون من ذلك الكلام. وقد نشرتُ هذه الدراسة فى كتابى: "أفكار مارقة" شاغلة فصلا كاملا من فصول ذلك الكتاب. وفى هذه الدراسة يجد القارئ دفاعا عن أستاذى وأستاذ د. جابر عصفور يعتمد على الحقائق والعلم ولا يعرف الهلس ولا توجيه الاتهامات الزائفة الملفقة التى لا تستند إلى أى أساس ولا تستشهد بالموتى الذين انتقلوا إلى العالم الآخر ولم يعد بوسعهم أن ينطقوا ولا أن يقولوا إن ما ينسب إليهم من استشهادات إنما هو كلام باطل لم يتفوهوا بحرف واحد منه.

ومن الأساتذة الذين لا يمكن الصمت عنهم فى هذه اللمحات د. حسن حنفى، الذى حاضرنا عامين متتابعين فى السنتين الأخيرتين لى بآداب القاهرة فى الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى على التوالى. ولم يكن له كتاب نرجع إليه، بل كان الطلاب يعتمدون على تسجيل ما يقوله فى المحاضرات: يقوله لا يمليه، إذ كان يتحدث بالإيقاع المعتاد فى الحديث ودون أى تنظيم. أما أنا فلم أكن أكتب شيئًا مما أسمعه منه، بل كنت أعود إلى المراجع أقرؤها فى المكتبة. وكنت ألاحظ أن د. حنفى يعزو بعض الآراء الغريبة إلى هذا الفيلسوف المسلم أو ذاك حتى إذا ما ذهبتُ وقرأتُ ما كتبه الفيلسوف نفسه فى كتبه ألفيته شيئًا مختلفا عما

يقوله الدكتور، وقد يكون مناقضا له، فأعود فى المحاضرة التالية وأعلن هذا على رؤوس الطلاب دون جمجمة أو تردد. وكانت المناقشات كثيرا ما تحتد بينى وبين أستاذى. ولا أذكر أنه حاول إسكاتى أو الانتقام منى طوال العامين اللذين قضيتهما فى الاعتراض معظم الوقت على ما يقول والمقارنة بينه وبين ما يقوله الفلاسفة المسلمون فى مؤلفاتهم، واتهامه بأنه يلوى كلامهم وينسب إليهم ما لم يقولوه.

فمثلا كان ينسب إلى بعض الفلاسفة المسلمين القول بأن الله يعلم الكليات فقط دون الجزئيات أو أنهم ينكرون الحياة الآخرة. فرجعت مثلا إلى كتابى ابن رشد: "فصل المقال" و"مناهج الأدلة" لأجده يؤمن بالحياة الآخرة وأنه لا شىء يند عن علم الله. كل ما هنالك أنه قد عرض آراء المتكلمين المسلمين فى تصور البعث من قائل بأنه سيكون جسديا، ومن قائل بأنه سيكون روحيا، ومن قائل بأنه سيكون جسديا لكن بأجساد جديدة أو شىء قريب من هذا. وقد علمنى هذا شيئا مهما، وهو عدم تصديق ما يسمعه الشخص أو يقرؤه من الآخرين دون تمحيص. وكان من رأى الأستاذ الدكتور أن ابن رشد قد بث آراءه فى شرحه لفلسفة أرسطو، على حين كان رأى العبد لله أن شرحه لأرسطو إنما هو عرض لأفكار أرسطو لا يُسْأَل هو عن شىء منه، أما كتاباه الآنفا الذكر فهما مناط البحث عن آرائه.

وأذكر أيضا أننى، فى إحدى المحاضرات وبعد انتهاء الدكتور حنفى من قول ما عنده وحلول ميعاد المناقشة، رفعت يدى طلبا للتعقيب، وكنت قريبا من آخر القاعة، فقال: سنبدأ من الصف الأول. فما كان منى إلا أن انتقلت من موضعى إلى الصف الأول كى أستطيع التعليق على ما قال قبل انتهاء المحاضرة. وكان معه قطعة من الطباشير فقذفها نحوى قائلا: ماذا تريد بانتقالك هذا؟ قلت له: أريد أن أتكلم قبل أن تنتهى المحاضرة. فقال: إذن تكلم، ولا تُطِلْ. فقلت ضاحكا، ولكن فى جد تام: بل سآخذ راحتى فى التعليق. فأجابنى حينئذ إلى طلبى دون تعسف. وقد حصلت فى المادتين اللتين حاضرَنا الأستاذ الدكتور فيهما خلال تَيْنِكَ السنتين على تقدير "ممتاز" و"جيد جدا" على التوالى. ولم يحصل أحد فى السنة الرابعة فى

مادة "التصوف الإسلامى" على أعلى من "جيد جدا" بما يدل على أنه لم يكن كذلك الأستاذ الآخر الذى أعطانى فى مادتيه فى ذينك العامين أنفسهما أدنى درجة فى تقدير "الجيد" . ولم أكن فى إجاباتى على أسئلة الدكتور حسن حنفى أستشهد بما يقول إلا على سبيل المناقشة له والاختلاف معه، ومع هذا لم يفكر الرجل فى طعن ظهرى فى الظلام. لكن لا بد من القول رغم ذلك بأننى حين أقرأ له شيئا الآن لا أستطيع إلا أن أتذكر طريقته فى عرض أفكاره أثناء المحاضرة، تلك الطريقة القائمة على الإتيان بنتائج خاطئة مبنية على مقدمات متهافتة. إلا أن هذه نقرة، وتلك نقرة أخرى! وقد تحدثت إلى د. شوقى ضيف ذات مرة عن آراء الدكتور حسن حنفى واختلافى مع ما يردده فى المحاضرات، فأبدى استغرابه لأنه، حسبما أخبرنى، كان عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين!

وأمس (الأحد ١٧ مارس ٢٠١٣م) ظهرا، وبعد أن كتبت ما كتبته هنا عن أستاذى د. حسن حنفى بعدة أيام، كنت فى المجلس الأعلى للجامعات لحضور انتخابات اللجنة العلمية الدائمة لترقيات أساتذة اللغة العربية، وفى طريقى للانصراف أنا وزميلى بآداب عين شمس د.محمد يونس عبد العال بعد انتهاء الجلسة وصلاتى الظهر ومقابلتنا الصديق فيصل بدير عون أستاذ الفلسفة الإسلامية بآداب عين شمس ومناقشاتنا الضاحكة حول أرسطو، وهل كان يصلى كصلاتى (التى صليتها أمامهم فى البهو) أو لا، لمحت شخصا يجلس على كرسى متحرك ويدفعه شخص آخر فى الممر المؤدى إلى غرف الاجتماعات بالطابق الثانى، فقلت فى نفسى: إننى أعرف هذا الوجه. ثم سرعان ما تنبهت إلى أنه أستاذى د. حسن حنفى، لا لأننى ما زلت أتذكر ملامحه الأولى أيام كان يحاضرنا وهو مدرس شاب، بل من صوره التى تنشرها له الصحف والمجلات والمواقع الألكترونية، فعدت أدراجى وناديت وأنا أنحنى ناحيته: د. حسن حنفى؟ فأجاب: نعم يا أخى. قلت له: تلميذك المزعج فلان. فلم يبد عليه ما يدل على أنه تذكرنى، وبخاصة أنه لم يرنى منذ أكثر من أربعين عاما، فضلا عن المباغتة التى تم بها الأمر، ولكنه رحب بى كما هو الحال فى مثل تلك الظروف على الطائر،

ثم افترقنا: أنا فى طريق الخروج، وهو فى طريق الدخول يدفعه الرجل الذى كان معه. وهذه أول مرة أقابله فيها أو أتحدث إليه بعد عشرات السنين.

وهناك أيضا الدكتور الذى كان يحاضرنا فى خلال السنة الثالثة فى مادة "النقد الأدبى"، وهو الذى ذكرت آنفا أنه أعطانى فى مادتيه أدنى درجات "الجيد"، ولم يكن له كتاب، كما لم يكن يملى علينا شيئا، اللهم إلا من يريد الكتابة السريعة وراءه وهو يتحدث بسرعة الكلام المعتاد. ومع هذا وجدت فى كتاب د. سهير القلماوى فى "النقد الأدبى" ما يقوله أستاذنا، الذى كان مثل د. حسن حنفى ود. محمود فهمى حجازى لا يزال مدرسا فى أول الطريق. وحدث ذات محاضرة أنْ كان يشرح مفهوما من مفاهيم النقد وجدت أنا أنه بحاجة إلى تمثيل يوضح ما يريد أن يقوله ويزيل ما يبدو فيه من غموض، فرفعت يدى وطلبت منه أن يزودنا بمثال توضيحى. إلا أنه توقف عن الشرح بغتة، وطلب منى أن أقف، سائلا إياى ماذا قلت، مع رنة غضب مكتومة فى صوته، فارتبكت لأنى لم أتوقع قط أن يكون هذا هو رد فعله، إذ أنا متعود على مثل تلك الأسئلة مع أساتذتى، وليس فى طلبى ما يمكن أن يضايق أحدا. وقد أسرع أحد الطلبة الفلسطينيين، وكان جالسا ورائى، إلى توضيح ما يريده إبراهيم، فما كان من الدكتور إلا أن سكت ولَمَّ أوراقه وكراريسه وترك المحاضرة دون تعليق. وحتى الآن لا أدرى لماذا فعل ذلك. وقد حصلت فى مادته، رغم المراجع المتعددة التى استعنت بها فى إجابتى فى آخر العام، على أدنى درجات "الجيد" كما قلت آنفا على حين حصلت فى كل مواد القسم تقريبا على تقدير "ممتاز"، وهو ما تكرر معى فى المادة التى حاضرَنا فيها العامَ الذى يليه.

ودارت الأيام إلى أن كنا فى عام ١٩٨٦م، وهو العام الذى قدمت فيه ثمانية كتب من أجل الترقى لرتبة "الأستاذ المساعد"، وكان الرجل عضوا فى لجنة تقويم أعمالى هذه، فلم تجد اللجنة فى أى كتاب من تلك الكتب شيئا واحدا إيجابيا، وكتبت تقريرا خلاصته أن كتبى الثمانية تخلو تماما من أى شىء يصلح لترقيتى إلى مرتبة "الأستاذ المساعد". وكانت النتيجة أننى لم أُرَقَّ للرتبة المذكورة، وهو ما أفزعنى وصرفنى عن

محاولة التقدم مرة أخرى للترقية لمدة خمس سنوات إيمانا منى بأن هناك تربصا بى لمنعى من نيل حقى رغم أنه كان من السهل علىّ أن أعيد الكَرّة العام القادم بكل سهولة. بيد أن زوجتى، بعد مضى خمس سنوات على الواقعة الأولى، قد أقدمت ذات زورة لها إلى أرض الوطن على تقديم بعض ما كان جاهزا لدىّ من كتب للترقية من وراء ظهرى، إذ كنت متوجسا من تكرر ما وقع فى المرة الماضية، فطلبت منها بالهاتف ألا تقدم شيئًا وتشددتُ فى ذلك تشددا عنيفا، إلا أنها تظاهرت بطاعتى ونوت فى سريرتها أمرا شجعتْها عليه والدتها حين سألتها عن توترها وضيق صدرها، فباحت لها بمخاوفى، فظنت السيدة النبيلة أن السبب هو خوفى أن يضيع ما أنفقته على طباعة الكتب الجديدة سدى، فقالت لها: تقدمى على بركة الله، ولسوف أدفع تكلفة الطباعة لإبراهيم. فلما أخبرتها ابنتها بالسبب الحقيقى غضبت ودعت على الظالمين وظلت تدفعها إلى التقدم، فقدمت زوجتى الكتب من ورائى، وكعادتى لم أعرف مَنْ أعضاء اللجنة التى تقرأ لى. ثم اتضح كل شىء بعد ذلك، إذ كان من بين الأعضاء د. عبد الصبور شاهين وعضوان آخران معاديان لى بسبب اتجاهى الفكرى، عضوان مستنيران لا رجعيان مثلى. وقد كانت النية متجهة هذه المرة إلى إسقاطى أيضا، بما يدل على أن توجساتى كانت فى محلها لولا أن د. شاهين قد تحدى العضوين الآخرين طالبا منهما أن يقرأ تقريره على لجنة الترقية الدائمة ثم يقرآ هما أيضا تقريريهما، وما إن انتهى من قراءة تقريره، الذى رفع فيه أعمالى إلى السماء، حتى أعرب العضوان الآخران عن موافقتهما على ذلك التقرير بعدما كانا قد أعدا تقريرا بأن أعمالى هذه المرة أيضا لا تصلح.

وكنت قدمت فى المرة الأولى ثمانية كتب أتصور أنها كافية لترقية مدرسين اثنين لا مدرس واحد. ومن بينها مثلا ثلاثة كتب عن المتنبى: واحد عن حياته وشخصيته تناولت فيه، ضمن ما تناولت، عقيدته وبينت أن الرجل مسلم ولم يتنبأ كما أشيع عنه، وليس فى إيمانه ما يشين سوى أنه مندفع هجام لا يتأنى فى الحديث عن نفسه وعرض أفكاره، وهو ما اقتضى منى تفلية شعره بيتا بيتا وتقليب كل ما قيل عن تمرده

على الإسلام خبرا خبرا . . . إلى آخر تلك التحقيقات المرهقة التى يعرفها عنى من يقرأون لى شيئا . كما أننى عالجت فى ذلك الكتاب ما يقال عن أصله الأسرى، وهل هو ابن سقاء كوفى أم هل هو ابن رجل من الهاشميين كما يقول الأستاذ محمود شاكر أم هل هو ابن الإمام المهدى المنتظر نفسه حسبما كتب عبد الغنى الملاح، فى كتابه: "المتنبى يستردّ أباه". وكعادتى لم أترك حجرا إلا قلبته على كل وجوهه بحثا عما يمكن أن يكون تحته من أشياء قد تفيد الموضوع. . . وغير ذلك من الموضوعات على مدار ثلاثمائة صفحة وثلاثين ونيف. ومع هذا قيل إننى لم أقدم أى جديد .

أما الكتاب الثانى فكان عن لغة المتنبى، وهو أكبر من الكتاب الأول. وقد تناولت فيه كل ما قيل فى ذلك الموضوع مناقشا مصححا مستدركا متوصلا إلى نتائج جديدة مستشهدا على هذه النتائج الجديدة بأشعار كثيرة من أشعار الرجل على عكس ما فعل من رددت عليهم إذ يقفون عند شاهد أو اثنين ثم يخرجون بما يخرجون به من نتائج. وقد استطعت من خلال القراءة المتفحصة الدقيقة لديوان المتنبى التوصل إلى عشرات السمات الأسلوبية التى تطبع لغته مما لم يتوصل إليه باحث من قبل فى حدود علمى. ومع هذا لم تجد اللجنة فى ذلك الكتاب أيضا شيئا يصح أن يُحْسَب لى، فى الوقت الذى وقفتُ فيه مثلا إزاء ألف مثبتة بعد واو فعل مضارع (لعله الفعل: "يدعو")، قائلة ما معناه أن "السيد الباحث" (هكذا بمثل تلك اللغة المهذبة!) لا يستطيع أن يفرق بين واو الفعل وواو الجماعة، مع أن هذا الأمر لم يتكرر فى هذا الكتاب ولا فى أى من الكتب الأخرى، فضلا عن أنهم قد علمونا هذه المعلومة فى الكتاب ونحن أطفال صغار، فالتزمنا بها منذ ذلك الحين لم نخطئ فيها قط. كما أن واحدا مثلى لا ينبغى أن يقال فى حقه هذا الكلام الصغير الذى ما كان يليق أن تردده اللجنة. وقد عدت يومذاك إلى أصول الكتاب عندى: سواء المسوَّدة التى كتبتها بيدى أو المبيَّضة التى نسختها لى زوجتى لأعرف من أين جاءت تلك الألف، فلم أجد تلك الألف، وهو ما

يدل على أنها ليست سوى غلطة من طابع الكتاب. ولنفترض أنها غلطتى أنا، فهل يحاسب الباحث على غلطة لم تتكرر عنده قبل ذلك ولا بعد ذلك قط؟

وفى الكتاب الذى ترجمتُ فيه عن الفرنسية بحث ماسينيون عن قرمطية المتنبى درست كل ما قاله الرجل عن مذهب الشاعر وفَلَّيْتُه تفلية ولم أترك شيئًا كتبه إلا بينت عواره تماما من خلال الشواهد الكثيرة على عادتى التى أراعيها دائما بحيث لا أترك لأحد مُتَعَلَّقا يشغب به على ما أقول، ثم لم أكتف بهذا، بل عمدت إلى كل الأخبار التاريخية المتصلة بهذا الموضوع فناقشتها خبرا خبرا فلم أجد فيها شيئًا يمكن الاعتماد عليه فى اتهام الرجل بالقرمطية كما صنع ما سينيون بِلَيِّه للنصوص وتأويله للأخبار لَيًّا وتأويلاً لا يصلحان فى ميدان البحث العلمى، وإن كان قد ذاع هذا الاتهام الماسينيونى بين الباحثين عربا وأجانب. فتركتِ اللجنة المذكورة هذا كله مما من شأنه أن يقلب ما هو شائع فى ذلك الحقل من حقول الدراسات المتنبئية رأسا على عقب، ووقفتْ عند كلمة مجاملة قلتها فى مقدمة الكتاب تشير إلى أنى قد ناقشت إحدى زميلاتى بقسم اللغة الفرنسية "على الواقف" فى "بضع" كلمات (أربع حسبما أتذكر الآن) من بحث ماسينيون. ويعلم الله أن الزميلة لم تقل شيئًا أستفيد به، إلا أن طبيعة المجاملة عندى أبت علىَّ إلا أن أشكرها على مناقشتى لها فى "بضع" كلمات فى النص الفرنسى. فماذا قالت اللجنة الموقرة؟ قالت إننى استعنت فى ترجمة البحث بفلانة هذه. يا للهول! والله الذى لا إله إلا هو لا أظن الزميلة المشار إليها تتذكر شيئًا مما دار بيننا فى المرة اليتيمة التى "وقفت" فيها أنا وهى لدقائق معدودات لا غير نتحدث أثناءها فى تلك الكلمات الأربع. أإلى هذا الحد يتربص بعض الناس ببعض ويُقَوِّل بعضهم بعضا كلاما لم يقولوه؟

وفى كتاب آخر لى أشرت إلى ما لاحظته من أن كلمة "أَوَى" كثيرا ما تكتب فى كتب د. طه حسين بمَدَّة على الألف، ولا أدرى حتى الآن لماذا. فهو يقول مثلا: "آوَى الرجلُ إلى بيته"، بمعنى "لجأ إليه أو دخله"، بدلا من "أَوَى" كما ينبغى أن تكون صيغة الفعل الماضى فى هذا السياق. ترى هل كفر العبد لله حين لاحظ

هذه الملاحظة؟ لكن اللجنة التى كانت تقرأ أعمالى كان لها رأى آخر، إذ خطأتنى أنا، ثم لم تكتف بهذا بل استشهدت بالقرآن على صواب استعمال المَدّة بدل الفتحة هنا . وهذان هما الشاهدان اللذان خطأتنى بهما : "قال (أى ابن نوح): سآوِى إلى جبل يعصمنى من الماء"، "قال (أى لوط): لو أن لى بكم قوة أو آوِى إلى ركن شديد" . وكان رأى اللجنة أن القرآن الكريم قد استعمل المَدّة لا الفتحة على الهمزة. فماذا يريد "السيد الباحث" بعد هذا ؟ وطبعا هذا كلام "فى البطيخ" أو "فى الهجايص" كما يقال فى مصر، إذ الفعل هنا مضارع لا ماض، وماضيه هو "أَوَيْتُ"، والمَدّة سببها همزة المضارعة لا همزة التعدية، وهو ما يعضد ما قلت، إلا أن كلام اللجنة طبعا لا ينزل الأرض. ترى بالله عليك أيها القارئ الكريم ماذا يمكن أن يقال فى مثل هذا الكلام؟

أما فى كتابى: "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين" فقد أثبتُّ أن الدكتور طه قد أخذ إنكاره الشعر الجاهلى، كلّه أو جُلّه، من ديفيد صمويل مرجليوث، الكُيْذُبَان الذى زعم أن طه حسين قد توصل إلى رأيه هذا فى نفس الوقت الذى توصل هو فيه إلى إنكاره صحة الشعر الجاهلى كله، مع أن هناك فارقا زمنيا يبلغ عشرة أشهر، كان بحث مرجليوث أثناءه قد وصل لمصر وقرأه كثير من كتاب مصر وعلمائها، فضلا عن المستشرقين الذين كانوا يحاضرون فى الجامعة بالقاهرة، وكانوا أصدقاء طه حسين، ويجتمعون فى بيته كل أسبوع، فضلا عن أنه هو الذى استجلبهم أو استجلب عددا منهم، وأن طه حسين قد ساق نفس الأدلة التى ساقها مرجليوث. لكن لجنتنا المبجلة تركت كل هذا مما لم يقله أحد من قبل وأمسكت بكلمة "الكيذبان" التى وسمتُ بها مرجليوث، الذى كان يستأهل ما هو أشنع من هذا الوصف. كما أننى قد أثرت لأول مرة فى بحث جامعى ما اتهم فريد شحاتة به طه حسين من أنه تعمّد قبل الزواج بسوزان فى فرنسا، وحاولتُ الوصول إلى رأى يريح ضمير العلم فلم أجد أمامى، بعد كل ما قمت به من تحليل وتدقيق وتقليب للأخبار المتعلقة بهذا الموضوع على كل وجوهها المحتملة، سوى الانتظار والتطلع إلى أن يقوم أحد الباحثين فيفحص سجلات كنيسة القرية التى تمت فيها خِطْبة طه لسوزان ليرى هل هناك ما يدل على صحة ما قاله

شحاتة أو لا. وهذا، كما يرى القارئ، كلام علمى لا يخر منه الماء. لكن لجنة الترقية تجاهلت كل هذا الجهد العلمى الدقيق وأخذت كالعادة تبحث بإبرة عن عيب فى الكتاب.

ويمكنك أن تقول نفس الشىء فى موقف لجنتنا الموقرة من كتابى: "مصدر القرآن"، إذ لم تر فيه حسنة واحدة على مدار الصفحات التى تقترب من الثلاثمائة والخمسين قلبتُ فيها النظر فى النص القرآنى ودرست ظاهرة الوحى من خلال أعراضها التى تبدو للناظر الخارجى، كما حللت فيها الاتهامات الموجهة إلى شخصيته عليه السلام من قِبَل الكافرين به من مستشرقين ومبشرين من أنه كان كذابا مخادعا أو واهما مخدوعا أو مريضا بمرض عصبى كالصَّرْع والهلوسة والوسوسة، وانتهيت إلى أن الرسول عليه السلام لا يمكن أن يكون مخادعا أو مخدوعا أو مريضا بمرض عصبى، وأن القرآن يستحيل أن يكون بشرى المصدر. كل ذلك من خلال تحليلات عقلانية لا تترك شيئا إلا قلبته على كل الوجوه دون تحرج من شىء بالغا ما بلغت قداسته عندنا نحن المسلمين، فضلا عن الاستعانة بما يقوله المتخصصون فى الطب وعلم النفس عن أعراض الأمراض التى أُلْصِقَتْ بالرسول عليه الصلاة والسلام بهتانا وزورا.

وبنفس العين نظرت اللجنة المبجلة إلى دراستى المعنونة: "موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم"، مدعية أننى لم أفعل شيئا سوى النقل عن د. موريس بوكاى، مع أن سبيلى تختلف تماما عن سبيل بوكاى. بل إننى قد اختلفت مع بوكاى فى تفسير عدد من الآيات القرآنية المتصلة بالمعارف العلمية الحديثة. ويستطيع القارئ أن يقيس رأى اللجنة فى كتبى الأخرى على ما سبق. وهكذا ما من شىء قد أتيت فيه بالجديد، وما أكثره فى الكتب التى قدمتها إلى لجنة الترقية، إلا وتجاهلته اللجنة وتنقصت من قيمته، وكأننى باحث ساذج لا يفقه شيئا. وهو موقف عجيب فوضتُ فيه الأمر إلى الله، الذى سوف أقف أمامه يوم القيامة ومعى أعضاء اللجنة وأشكوهم إلى رب عادل لا يرضى بأن يُظْلَم أحد من عباده على هذا النحو الجلف.

ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة: فإما اسودَّ وجه العبد لله وإما اسودَّ وجه عباد الله الآخرين.

والعجيب فى رأى كثير من الناس أننى لذت بالصمت فلم أحاول الشكوى ولا الكتابة فى الصحف. والسبب هو أننى بطبيعتى أشعر بالخجل من لَوْك اسمى فى الصحف والمجلات وعلى ألسنة الناس بوصفى مظلوما أشكو. وبطبيعة الحال فإننى لو كنت يساريا أو حداثيا لانتفضت الكرة الأرضية من اليابان إلى أمريكا، ومن القطب الشمالى حتى القطب الجنوبى، دفاعا عنى وهجوما على من وقفوا ضدى حتى لو كان كل ما قالته اللجنة فى حقى هو الصواب المطلق. وقد حدث هذا بعدها بقليل فى موضوع د. نصر أبو زيد. بل إن بعض من وقفوا يدافعون عن د. نصر كانوا من أعضاء اللجنتين اللتين قرأتا أعمالى واشتركوا فى الإجحاف بحقى. وأنا الآن حين تأتينى أعمال أى دكتور متقدم للترقية أتذكر ما وقع لى فأقرؤها بعين العطف والخوف من الله وأُغَلِّب النظرة الإيجابية، ولا أفكر فى الانتقام من أحد ولا حتى ممن أشعر أن لهم فكرا يختلف عن فكرى واتجاها يغاير اتجاهى، واضعا فى ذهنى دائما أن له أولادا وزوجة سوف يتألمون أشد الألم إذا لم ينجح فى الترقية وشعروا أن هناك إجحافا بحقه. وأرجو ممن له رأى فى تقاريرى غير ما أقوله هنا أن يتقدم بما عنده.

ونفس الشىء قل عن مناقشة المتقدمين لنيل درجتى الماجستير والدكتوراه، فإننى لا أحب أن أستعرض عضلاتى ولا أحرج أحدا، اللهم إلا مرة واحدة لم أستعرض فيها عضلاتى، ببساطة لأنى ليس لى عضلات أصلا ولمعرفتى بمحدودية علمى، بل خرج الأمر عن نطاق السيطرة حين قال الباحث ما معناه أننى أريد أن أنتقم منه لأننى نبهته إلى أمر فاته منهجيا أن يعمله، فلم يكن أمامى إلا أن أعلن استعدادى للانسحاب. ثم تطورت الأمور، واجتاز المناقشة بعد أن اقترح المناقش الخارجى، الذى كان متعاطفا معه ويظن أننى متحامل عليه، إعطاءه الدرجة بتقدير جيد جدا. وفى مثل تلك المناقشات لا أتردد إذا كنت قد ارتكبت ما آخذه على

الباحث من خطإ فى مصارحته أمام الملإ بأننى كنت أرتكب الخطأ الذى أنبهه الآن إليه. . . وهكذا أذكر كل شىء لاحظته فى الرسالة دون أن أجرحه، بل عادة ما أبتسم له وأداعبه مهما كان المأخذ الذى آخذه عليه كبيرا . وهو ماأفعله فى المحاضرات دائما رغم شدتى فى الأمور المتعلقة بالنظام والهدوء فى القاعة.

مرة واحدة يتيمة طوال ما يقرب من عشرة أعوام أعطيت بحثا واحدا يتيما لدكتور متقدم للترقى صفرا . لكن لماذا ؟ لقد كان البحث مكتوبا بالإنجليزية، وهى إنجليزية لا صلة بينها وبين الإنجليزية التى نعرفها ولا أية لغة أخرى. وربما وضعها الباحث على جوجل فتمت ترجمتها آليا، وقد أكون مخطئا فى هذا التعليل. والسبب فى كتابة البحث بالإنجليزية أنه مقدم إلى مؤتمر أجنبى خارج مصر، ولكن كان من الممكن تقديم أصله باللغة العربية إلى لجنة الترقية. أما سبب الصفر فلأن الباحث أقام بحثه على المقارنة بين بنت الشاطئ بجلالة قدرها وبين جيل الكاتبات الحاليات، فلم يجد من تمثل أولئك الكاتبات إلا فتاة تكتب على المشباك (الإنترنت) خواطر من خواطر الهواة الذين يجربون أقلامهم فى فضاء المشباك المفتوح لكل من هب ودب تتحدث فيها ضمن ما تتحدث عن راكب بجوارها فى الطائرة رأته يخرج عضوه ويستمنى أمامها، فشرعت تصف ما يقع. دعونا من النتانة التى تفوح فوحانا كريها من ذلك الكلام، وتعالَوْا فقط إلى المقارنة التى تَغَيَّاها الباحث فى كلامه. ترى هل يصح أن نقارن بين بنت الشاطئ وبنت مفعوصة وقحة لا علاقة لها بالتأليف والإبداع تكتب مثل هذه النتانات؟ هل مثل تلك الفتاة يصح أن نوقفها رأسا برأس إزاء د. عائشة عبد الرحمن؟ ومنذ متى تقدَّم البحوث للترقى فى ميدان الأدب العربى من باحث مصرى إلى لجنة مصرية باللغة الإنجليزية؟ ويا ليت اللغة التى كُتِب بها البحث قد تحقق لها الحد الأدنى من الصلاحية. أما بقية أبحاث ذلك الدكتور فقد أجزتُها، ولم آخذها بذنب هذا البحث الغريب.

وبعد أربع سنين قضيتها فى آداب القاهرة أخذتُ الليسانس بتقدير "جيد جدا"، وكنت الأول على الدفعة، والوحيد الحاصل على مرتبة الشرف. ومع ذلك قال القسم، الذى كان يرأسه فى ذلك الحين د.

شكرى عياد بعدما بلغ د. شوقى ضيف رئيس القسم السابق سن المعاش، إنه لا يحتاج إلى معيدين، مع أنهم عينوا فى كلتا السنتين: السابقة واللاحقة معيدين. وفهمت أن التيار اليسارى فى القسم لا يريد أن يعين معيدا ذا ميول إسلامية. وكعادتى سكتُّ فلم أكتب شكوى أو أخاطب أية جهة رسمية كما يصنع عادة من هم فى مثل وضعى مع أن أحد من كرهوا تعيينى هناك قد أرسل قبل بضع سنوات رسالة إلى جمال عبد الناصر كى يعين فى القسم حين وجدهم يستبعدونه من التعيين، وكان راسبا فيما بلغنى فى اللغة الإنجليزية، وهو ما أثمر تعيينه معيدا بفضل رئيس الجمهورية، الذى دخل إليه صاحب الرسالة من باب الكادحين قائلا إنهم رفضوا تعيينه لأنه منهم. كما قرأت منذ عدة سنين فى بعض الصحف أنه كان وراء فوز عميدة بجائزة من جوائز الدولة العلمية رغم أنها لا فى العير ولا النفير من ناحية القيمة الفكرية والأدبية، وذلك لقاء تعيينها ابنته معيدة فى الكلية التى ترأسها. ثم أعلنت كلية الآداب بجامعة عين شمس عن حاجتها إلى معيد، فقدمت طلبا إلى الكلية المذكورة، وعُمِلَتْ لنا مقابلة شخصية، وكان عدد المتقدمين لهذه الوظيفة كبيرا، إذ أذكر أنهم كانوا نحو خمسة عشر. وقد استقر الأمر فى نهاية المطاف على العبد لله بعد سنة وربع تقريبا من تلك المقابلة سمعت فى أثنائها أكثر من مرة أنهم اختاروا واحدا غيرى من المتقدمين، فامتثلت للأمر كعادتى، ولم أجد فيه ما يبعث على الاعتراض.

وقد أخبرنى د. إبراهيم عبد الرحمن رحمه الله، بعد أن تم تعيينى بتزكية منه عقب سماعه قصتى كلها، أنهم فى القاهرة كانوا يحذرونهم من تعيينى عندهم لأنى "ولد قليل الأدب"، مع أنى لم أُقِلَّ أدبى يوما على أحد من أساتذتى، يعلم الله، بل كنت مجرد طالب طموح يحب المحاضرات، ويحرص على الاستزادة من العلم ما أمكن، ولا يكف عن المناقشة والسؤال، مع احترام أساتذتى ولزوم حدودى. وأغرب ما فى الأمر أن تلك التهمة وأمثالها كانت من العوامل التى أتت بأثر عكسى، إذ جعلت بعض الأساتذة المؤثّرين بآداب عين شمس يتعاطفون معى، وبخاصة بعدما عرفونى عن قرب بدلا من الشبح الذى كان غارقا فى الظلام لا يظهر

منه شيء، فيصدقون كل ما يبلغهم عنه. لقد رَأَوْنى واضحا صريحا، وبى رغبة إلى العلم. وأطرف من هذا وذاك أنه كان هناك اثنان من المتقدمين لشغل الوظيفة المذكورة يمكن أن يُخْتارا للوظيفة المذكورة، إلا أن أحدهما آثر فى آخر لحظة أن يعيَّن فى جامعة المنيا مدينته، أما الثانى فقد بلغنى فى البداية أنهم قد اختاروه، لكنه كان كبير السن، وترك الدراسة منذ زمن بعيد، إذ لم يحاول فى تلك الفترة الطويلة مواصلة الدراسات العليا، ولا أدرى ماذا أيضا من الاعتبارات، مما جعل القسم لا يتحمس له. وهكذا فاز العبد لله بالوظيفة، التى أريد حرمانه منها بكل سبيل.

وأنا، حين أنظر إلى الماضى بعد كل هاتيك الأعوام، أحمد الله كثيرا لأنه لم يكتب لى التعيين فى آداب القاهرة، وكتبه لى فى آداب عين شمس حيث قضيت عشرات السنوات دون مشاكل تذكر. ولا أستطيع أن أتذكر طوال تلك السنين أنى آذيت أحدا أو نممت بين اثنين أو نلت بالباطل من أى زميل. كما أن عين شمس قد أرسلتنى فى بعثة علمية إلى جامعة أكسفورد للحصول على درجة الدكتورية حيث عشت هناك ست سنين أتقنت فيها الإنجليزية إلى الحد الذى كتبت بها رسالتى العلمية بأسلوب مفهوم ومعقول، بالإضافة إلى معايشتى للبريطانيين فى بلادهم واطلاعى على الحضارة الأوربية فى أكبر بلادها وأقواها.

ومن بين الشائعات التى طاردتنى عقب تخرجى من آداب القاهرة الزعم بأننى، حين كنت طالبا هناك، كنت أدخل القسم فأسأل عن "شكرى عياد" و"شوقى ضيف" وغيرهم من الأساتذة الكبار: هكذا حافيا دون ألقاب رغم أنى حتى الآن، وبعدما نَيَّفْتُ على الستين بخمس سنين وزيادة، لا أنادى عادة أى معيد من تلامذة تلاميذى إلا بـ"الأستاذ فلان". بل لا أذكر أننى ذكرت أى واحد من أساتذتى الذين وقفوا فى طريق تعيينى إلا مسبوقا بلقبه رغم إساءتهم لى. ودائما ما أنبه ابنى وبنتى، وهما يعملان بالتدريس فى الجامعة، أن يحترما أساتذتهما مهما كان الخلاف معهم، قائلا لهم على سبيل التحميس: هل تَرْضَوْن لأحد من تلاميذ والدكما أن يسىء إليه؟ هذه عادتى التى يلاحظها الجميع، ولست كهؤلاء الزملاء والتلاميذ الذين يفعلون ما

اتُّهِمْتُ أنا به ظلما وعدوانا، حتى إذا ما واجهوا من يجردونه فى غيبته من الألقاب كانوا حراصا أشد الحرص على تبجيله والتخاشع أمامه ومناداته بـ"أستاذنا".

وقد اشتغلت فى السنة التى تفصل بين تخرجى (١٩٧٠- ١٩٧١م) وتعيينى فى آداب عين شمس بمدرسة بنات ثانوية خاصة فى حى الحلمية الجديدة. وأتصور أننى لم أكن شديد السوء فى وظيفتى الجديدة. وقد حاولت فيها شيئا من التجديد، فكنت أقترح على الطالبات مثلا كتابة موضوعات تعبير مثل "بنت السابعة عشرة: عالمها ومشاكلها"، أو "أنتِ الآن فى عام ١٩٨١م. تكلمى". كما كنت أشرح أحيانا بعض الدروس الفرنسية إذا دخلت حصة إضافية تغيَّب عنها مدرس لغة الإفرنسيس، فكانت الفتيات والناظرة يستغربن أن يعرف أستاذ العربى اللغة الفرنسية، وكانت بعض الفتيات يقلن لى إنهن لا يصدقن أننى مدرس عربى لا فرنسى.

ومع أننى لم أكن شابا "لخمة"، بل أقرب إلى الانطلاق، كان تدينى يمنعنى من استغلال وجودى بين البنات رغم طماح النفس وتطلع القلب. وكانت البنات يتكأكأن حولى فى الفسحة كما يفعلن مع سائر المدرسين، ويقدمن لنا الشيكولاتة، فلا أدرى ماذا أفعل: فأنا أستحى أن آخذها، ومن جهة أخرى سوف تتألم البنت إذا رفضتها. فكنت أعتذر قبل أن ألين تحت ضغط إلحاح البنات، ثم أشكرهن شكرا جزيلا على لطفهن. ومع ذلك كنت أغايظهن طلبا للضحك. حدث مرة أن أخذت طالبة اسمها عطيات تثرثر حول حقوق المرأة وقاسم أمين، مستشهدة بالعبارة المشهور: "وراء كل عظيم امرأة"، فأجبتها ضاحكا على الفور: فعلا وراء كل عظيم امرأةٌ تجعل حياته جحيما لا يطاق. أو وراءه لا أمامه. أو وراءه والزمن طويل. فتغتاظ من إجابتى معلنة أننى متحيز ضد النساء. ترى ماذا كانت قائلة لو رأتنى الآن وأنا أكتب فى قضايا النسوية، ولى فيها أكثر من كتاب تناولت من خلاله كتابات نوال السعداوى وأمينة ودود وعبد الله الغذامى وغيرهم من العرب وغير العرب من المسلمين ممن يتهمون المجتمعات العربية والإسلامية بأنها مجتمعات ذكورية تظلم المرأة

وتجنى على حقوقها، وبينتُ أن كثيرا مما يقال دفاعا عن المرأة هو كلام لا أساس له من الصحة؟ لكن أين الآن عطيات، إن كانت لاتزال حية؟ هل يمكن أن يقع كلامى هذا فى يدها فتتذكر أستاذها القديم؟ ولكن هل هناك أحد يقرأ فى بلاد العرب والمسلمين سوى من ابتلاهم الله بهذا الداء الوبيل وكتب عليهم الشقاء به، داء الاهتمام بالكتاب، ونادرٌ ما هُمْ؟

ومن الطرائف التى وقعت لى فى تلك المدرسة أننى، فى أول حصة أدخلها للفرقة الثانية، انطلقت أشرح الدرس باللغة العربية الفصحى، فسمعتُ طالبة فى الصف الأول تحت عينى مباشرة فى ركن الفصل الأيمن بالنسبة لى تقول لزميلتها: الأستاذ حافظ الكتاب. ذلك أنها لم تكن تستوعب أن يتحدث إنسان، وبخاصة إذا كان شابا مثلى، بالفصحى ارتجالا . وكانت هذه الطالبة هى عطيات الشعنونة، الطيبة القلب مع ذلك، والذكية أيضا على طريقتها . ومما وقع لى بالمدرسة كذلك أن مدير المدرسة وصاحبها، وهو رجل أزهرى درعمى مشهور بالخطابة، قد تفوه أمامى فى إحدى الجلسات بمكتبه بكلام شديد فى حق المرأة مَدَّه ليضم تحت جناحه "فاطمة بنت محمد ذاتها" كما قال بوقاحة غير متوقعة. فلم أسكت على هذا التهور، وكتبت له رسالة سلمتها إياه يَدًا بِيَدٍ بينت فيها خَطَلَ كلامه، منتظرا أن يفاتحنى فيما حوته، لكنه كفأ على الخبر ماجورا، وسكت فلم ينطق، متجاهلا بهذه الطريقة الأمر كله. وبذلك انتهت المسألة ولم تكد تبدأ .

وفى تلك السنة ظهرتُ على شاشة التلفاز لأول مرة فى حياتى بين مشاهدى برنامج جماهيرى كان نجومه سيد مكاوى وصلاح جاهين وابنه، وأظنه بهاء الزجال والصحفى بجريدة "الأهرام" . ذلك أننى تعرفت فى ذلك الحين إلى شاب أكبر منى قليلا يعمل مصورا بالتلفاز المصرى، ومنتسب فى ذات الوقت إلى آداب القاهرة، وقابلتُه فى إحدى المرات أيام كنت أتردد عليها عقب تخرجى منها، فدعانى إلى حضور البرنامج حيث صوب آلته نحوى عدة مرات. وبطبيعة الحال لم أشاهد نفسى لأن البرنامج كان مذاعا على الهواء

مباشرة. وحتى لو كان مسجلا لما كان ممكنا أن أراه لأنه لم يكن عندى جهاز تلفاز. وعلى أية حال فإن ظهورى على الشاشة الصغيرة وعدمه سيان، فلست بالشخص المهم، ولا أنا أتيت بالذئب من ذيله، بل مجرد ولد مفعوص لا قيمة له يعرف بالمصادفة مصوِّرَ تلفازٍ دعاه فصَوَّرَه. وهذا كل ما هنالك، فما لزوم هذه الضجة الكذابة يا أبا خليل؟

وبعد انقضاء تلك السنة وعدة شهور بعدها تسلمت وظيفة "معيد" بآداب عين شمس، وبدأت مرحلة جديدة فى حياتى. وكان د.إبراهيم عبد الرحمن يشجعنى ويسند إلىَّ دخول بعض محاضراته بدلا منه، وأرجو أن أكون قد نجحت فى التجربة. وفى ذلك الحين كان الفتى يتردد على أحد العلماء فى مكتبه بعد أن كان هو وزملاؤه يترددون عليه فى بيته أيام الجامعة. وسبب تردده على مكتبه أن زميلا من ثلته كان يعمل ضمن السكرتارية فى ذلك المكتب. وذات يوم كتب الفتى للرجل رسالة سلمها له بنفسه وصف فيها حالته النفسية كشاب يريد أن يتزوج، وخطب فيها ابنته. ومر عليه فى اليوم التالى فإذا به يخبره أنه طالَعَ ما كتبه وأنه موافق مائة بالمائة، فأحس بالبهجة لكلامه الجميل. وسرعان ما تمت الخِطْبَة، وقضى فى البداية وقتا سعيدا.

وبكل يقين كانت موافقة الرجل على خِطْبَة الفتى لابنته، وبالذات من خلال رسالة صريحة كرسالته يتحدث فيها عن عواطفه وإملاءات الشباب عليه وحقوقه الطبيعية التى يطالب بها، هى النبل بعينه لا مراء فى ذلك، وبخاصة أن الفتى فى ذلك الحين كان لا يملك من الدنيا إلا راتبه. وقد أخبره الرجل الكريم أن ابن أحد الوزراء السابقين اليساريين قد تحدث فى خطبة عروسه لابنه، إلا أنه آثره عليه. كما أنبأته العروس أن أميرا خليجيا تكلم عنها، لكن الأب فضل الشاب الطنطاوى. ولا ريب أن هذا، أيا كان وجه الحقيقة فيه بالضبط، قد أثلج صدر الفتى وزاده اعتدادا بنفسه هو الذى لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، فضلا عن زيادة تقديره للعالم الجليل. وقد سَهَّل الأمر بين العالم والفتى أنه، حسبما كان يحس، أقرب زملائه إليه وأجرؤهم

فى الحديث إليه والدعابة معه. ومن ذلك مثلا أنه كان جالسا معه فى حجرة الضيوف ذات مساء، فنبح كلبهم فى الحديقة، فبدا عليه الضيق ونادى أنْ أسكتوا الكلب، فعلق الفتى على الموقف ضاحكا: ولماذا الضيق؟ من أعمالكم سُلِّطَ عليكم. فضحك الرجل من قلبه لهذا التوجيه الفكاهى للحديث النبوى الشريف. وفى زورة أخرى كان معه عصا غليظة سأله الفتى عنها، فأخبره أن ثم لصا يتوجس من احتمال سطوه على الفيلا، فهو يستعد له بها إذا باغتهم ليلا، فقال له مداعبا: ولكن ماذا لو أن أول شىء فعله اللص هو الاستيلاء على العصا؟ فكان جوابه وهو يضحك مقهقها: صحيح. ماذا لو فعل اللص ذلك؟

إلا أنه سرعان ما طفت على السطح بعض المزعجات: فمثلا كان ذاهبا ذات مساء إلى بيت العروس، وبينما هو سائر فى الشارع الرئيسى المؤدى إلى الشارع الموجود فيه بيتهم إذا بها تناديه من الناحية الأخرى المقابلة لتخبرنه أنها ذاهبة مع الدادة إلى الحلوانى لشراء بعض الجاتوه من أجل سيدة من معارف الأسرة ستزورهم تلك الليلة. ورغم فرحته بحرصها على مناداته وتعريفه بأنها لن تغيب فقد شعر أن فى الأمر ما لا يليق، إذ معروف أن هذا هو ميعاد زيارته الأسبوعية لها، فهل لم تجد والدتها سواها ترسله من أجل أمر كهذا لا علاقة له بها ولا به حتى إذا حضر لم يجدها فى انتظاره؟ وكان فى البيت أخواها الاثنان، فكيف تركتهما وأرسلتها هى؟ ثم مرة أخرى كانا جالسين فى ردهة الفيلا، فتركته بعض الوقت، ولما عادت سألها السؤال الطبيعى أين كانت، فإذا بها تجيبه أنها كانت تتعشى. يا داهية دُقِّى! الواقع أنه لم يكن يفكر فى عشاء ولا غداء، إذ من ذا الذى يكون جالسا مع خطيبته فى الأسابيع الأولى من الخطبة ثم يفكر فى الطعام؟ لكن هل يليق أن يكون خطيب البنت فى زيارة الأسرة ثم لا يُعْرَض عليه الطعام مثلما يتم الأمر فى كل البيوت المصرية فى تلك الحالة ولو من باب "بَرْو العَتَب" كما يقولون؟ وإذا كان لا بد من هذا التصرف الغبى، أفلم تشرح لها أمها أنها ينبغى ألا تخبره أنها كانت تتعشى بالداخل؟ وحين فاتح الفتى الرجل فى زيارة أخرى بالموضوع الذى

تكرر بطرق مختلفة وجدهم يحضرون له عشاء فى ذات الليلة، فازداد سخطه، واعتذر عن الأكل رغم إلحاح الفتاة شاعرا بأن فى الأمر شيئًا غير طبيعى لا يقبله الذوق.

ثم مرة من المرات وجدها تناديه باسم غير اسمه. وهنا بلغ السيل الزُّبى، وانصرف تلك الليلة بوجه غير الذى جاء به رغم محاولتها المستميتة استرضاءه وتفهيمه أنه مجرد سهو لا معنى له. ولما عاد إلى البيت لم يستطع إغضاء الطرف عما حدث حتى لو كان الأمر، كما قالت، مجرد زلة لسان لا تعنى شيئًا ذا بال. لقد أقسمتْ له أنه لا يوجد فى حياتها شخص بهذا الاسم، لكن أَنَّى لقلب شاب مثله فى تلك الظروف بالاطمئنان بهذه السهولة؟ كما لاحظ أنها تفتخر بمعرفة بنت أحد الممثلين المعروفين فى مصر، وهى زميلة سابقة لها فى المدرسة، فكان هذا دليلا عنده على أن المظهرية عندهم هى سيدة الموقف، وإلا فما الذى جمع الشامى على الحامى؟ إن أباها عالم، وتلك أبوها ممثل رغم أن الفتى كان ممن يشاهدون الأفلام ويحبون أداء ذلك الفنان. لكنْ لفت نظره بوجه عام أن أبناء الرجل لم يكن فى كلامهم ما يدل على اهتمام بالدين، فهم يتصرفون وكأنهم أفراد أسرة مصرية عادية تماما. بل بدا له فى بعض الأحيان وكأن الابن الأكبر يخجل من أن والده عالم رغم أنه هو وبقية أفراد الأسرة يعيشون فى رُفَهْنِيَةٍ من العيش بسبب وضع والدهم هذا. وقد غضب الفتى وبعث برسالة شديدة إلى والدها بسبب مناداتها إياه بغير اسمه، معلنا أنه لا يستطيع المضى فى الطريق بعد ما وقع ما وقع. وجاء أخوها الأكبر مرتين لمصالحته حتى عاد أخيرا، ولكن بقلب غير القلب القديم.

وكان ينتقد حماته بشدة أمام فتاته فتضيق وتعاتبه، فلا يبالى بعتابها. كما كان كثيرا ما يتجاهل وجود الأم معهما فلا يوجه لها كلمة أثناء الزيارة، فيبدو عليها الضيق الشديد، إذ لم تتعود أن يتجاهلها أحد ممن حولها. ذلك أنها، فيما يبدو، كانت تنتظر منه أن يقدم لها فروض الطاعة كأزواج بناتها الأخريات، الذين كان يحسب أنهم على قلب رجل واحد، إلى أن قال له أحدهم شاكيا ذات مرة إنه أراد استعارة السيارة الفولكس

فاجن من عديله فلان، لكن العديل صاحب السيارة الصغيرة عرض عليه أن يوصله إلى أى مكان يريد بدلا من أن يعطيها إياه يستعملها هو وزوجته وابنته كما يحب، ثم عقب قائلا: وماذا تساوى عربته هذه إزاء سيارتى الفارهة؟ وكان يعمل فى الكويت. كذلك لاحظ أن علاقته بزوجته متوترة. ولا شك أنه قد وقعت من الفتى بعض السخافات والتصرفات المتشنجة والرعونات الناتجة من نشوفة الدماغ وقلة الخبرة واندفاع الشباب وشدة الاعتداد بالنفس. أضف إلى ذلك بعض الأخطاء الأخرى التى بدرت منه بعد رجوعه عن غضبه الأول، ولم يكن يأتيها فى الفترة السابقة على ذلك الغضب.

كما ضايقه أنها وأخواتها كن يلبسن الملابس القصيرة ويكشفن شعورهن رغم تحمس والدهم فى دعوة النساء إلى التحجب، وهو ما فاتحه فيه مرارا. وكان، نزولا على طبيعة "إسلامه الأمريكانى" حسبما كان زملاؤه ينعتون تصرفاته ضاحكين، قد اشترى لخطيبته كاسكيتا جميلا تغطى به شعرها، إذ لم يكن الحجاب كما هو الآن قد انتشر بين النساء فى مصر، بل كانت الملابس القصيرة والشعر المكشوف والأذرع العارية هى كلمة السر فى أزياء الإناث. كما شرعتْ ترتدى التنورات الطويلة. ثم انتهى الأمر بعد سبعة شهور من بدء الخطبة بفسخها حين تحقق أنه وخطيبته لن يسعدا معا. وكان ذلك على إثر ذهابه فى زيارته المعتادة ليفاجأ بعدم وجودها فى البيت، إذ كانت تصاحب والدتها فى زيارتها للطبيب، وهو ما يشير إلى أن الأمر مقصود. وكان الأب فى رحلة خارج الديار لحضور أحد المؤتمرات. وحاول زوج أختها صاحب "السيارة الفارهة" إصلاح الأمر واعدا أن مثل هذا التصرف لن يتكرر، إلا أن الفتى أصر على فسخ الخطبة. ثم مضى كل منهما فى طريقه، وتزوجت هى بعده، وها هو ذا لا يجد لها فى قلبه أى شعور بالسخط بل يدعو لها بالسعادة، ويرى انفصالهما أمرا عاديا، إذ ما داما لم يوفَّقا معا فليوفَّق كل منهما مع شخص آخر. وهذه طبيعة الحياة، فما شُرِعَت الخِطْبة إلا ليعرف الخطيبان أثناءها هل سينجحان معا أو لا.

وكانت الفتاة قد أخبرته، ولا يدرى الآن فى أى سياق، ما كانت أسرتها قد قالته عنه لمن علموا من معارفهم بابتعاده فى المرة الأولى من أنه مريض بالسرطان. قالوا ذلك حتى يفهم من حولهم أنهم هم الذين تركوه لا هو. ولما أخبرته الفتاة بالأمر بعد ذلك لم يكن يعرف ما هو السرطان، بل كان يتصوره مرضا عاديا كأى مرض آخر. . . إلى أن شرح له الأمر زميل أُثِيرَ موضوع فسخ الخطبة فى حديثه معه ذات مرة، وجاء ذكر مسألة الإصابة بالسرطان مصادفة، فأفهمه معنى الكلام على حقيقته مبينا أن السرطان مرض قاتل، والعياذ بالله، إذ كان أبوه قد مات بالسرطان، وأبدى فزعه من قسوة قلوبهم وافترائهم على زميله، فكان هذا دليلا على أن الفتى قد اتخذ القرار الصحيح حين رفض الرجوع فى المرة الثانية، إذ لا يصلح أن تستمر علاقته بناس يتمتعون بهذه الغلظة ولا يجدون فى الكذب والتشويه الظالم أية معابة. وربما لم يكن رب الأسرة على علم بهذه الألاعيب النسائية. لكن ما لا يفهمه الفتى هو الكيفية التى برروا بها لمعارفهم قبولهم استئناف الخطبة بينه وبين ابنتهم رغم إصابته المزعومة بالسرطان. والغريب أن هذا الزميل نفسه قد مات بالسرطان هو أيضا بعد عدة عقود. وكلما تذكره الفتى أو مر ببيته أو جاءت سيرته ترحم عليه ودعا الله له بالمغفرة والرضوان. عافى الله الجميع من السرطان وغير السرطان. ويذكر الفتى بمناسبة الحديث عن الأمراض هنا أنه كتب رسالة، وهو بالطائف فى أواسط تسعينات القرن المنصرم، إلى د. صفاء خلوصى فى بريطانيا حملها إليه د. يوسف عز الدين العراقى، الذى كان يعمل معهم بتربية الطائف آنذاك ويسافر كل صيف إلى بلاد جونبول حيث يقضى الإجازة فى بيت لهم فى ويلز، فقال فى الرسالة: لو كانت لى دعوة مستجابة لابتهلت إلى الله أن يلغى المرض من الدنيا بحيث لا يمرض مؤمن ولا كافر. ذلك أن الحياة على الأرض فيها ما يكفيها، ولا ينقصها أن يكون هناك أمراض.

وعلى ذكر "إسلامه الأمريكانى" هذا كان الفتى ذات مرة بالطائف فى تسعينات القرن الماضى يصلى العشاء جماعة فى بيت زميل له مصرى أزهرى، وكان ينتظر مكالمة هاتفية هامة على بيت الزميل من شخص

سيقوم بخدمة له، فدق الهاتف وهما يصليان، وكان هو المأموم، فمد يده والتقطه وهتف قائلا: "سبحان الله" بصوت واضح كى يعرف الطرف الآخر أنه موجود فيعاود الاتصال بعد قليل، وإلا ضاعت عليه الخدمة المنتظَرة. فلما انتهيا من الصلاة أبدى زميله دهشته من تصرفه الذى بدا له غريبا، فقال له: وما وجه الغرابة فيه؟ أليس مباحا فى الصلاة أن يقول المصلى: "سبحان الله" لتنبيه من حوله؟ فقال: بلى. قال: فما عدا مما بدا؟ لقد التقطت الهاتف وقلت: "سبحان الله". فهل التقاط الهاتف يفسد الصلاة؟ قال: لا. قال: ففيم الدهشة إذن والاستنكار؟ فضحك. إلا أنه لم يشأ أن يسكت على ما حدث بل حكاه لزملائهما فى قسم اللغة العربية بتربية الطائف على أنه نادرة النوادر. فهذا واحد من مظاهر إسلام فتانا الأمريكانى المظلوم.

وكان الفتى قد تحدث مع أستاذه د. شوقى ضيف عقب فسخ خِطْبته فى ذلك الموضوع، فكان رأيه أن البنت "عقيرة". قالها بالهمزة بدلا من القاف كما هو الحال فى العامية المصرية فى كثير من المناطق. وكانت هذه أول مرة يسمع فيها الفتى تلك الكلمة، التى يقصد أستاذه بها أن البنات من أمثال خطيبته مسكينات مكسورات الجناح يقعن بين المطرقة (خُطّابهن) والسندان (أمهاتهن) ولا يستطعن أن يفعلن شيئا، ويتحملن وحدهن النتائج المؤلمة. وقد خطب الفتى هو أيضا وتزوج طالبة من قسمه بآداب عين شمس لفتت نظره بجمالها وأناقتها وذكائها ولباقتها ووطنيتها، فضلا عن أنها كانت تكتب ما تريد بأسلوب سلس. كما كانت تحب القراءة وتقبل على الكتب التى يعطيها إياها وتناقشه فيها، على عكس خطيبته الأولى، التى لم تكن تحب القراءة بتاتا، وهو ما أفزعه وكان سببا إضافيا لانهيار خِطْبَته لها، إذ كيف يمكن أن تستقيم الحياة بينهما على هذا الوضع، وهو الذى لا يطيق من لا يقرأون؟ وقد قرأتْ زوجته معه كثيرا جدا من الكتب العربية والإنجليزية وهما فى أكسفورد وتناقشا فيها. وكانت والدتها سيدة كريمة تحبه وتكرمه، بل تكرم أيضا أصدقاءه وزملاءه أثناء إقامته هو وابنتها فى بريطانيا، رحمها الله ورحم حماه أيضا، فقد كان رجلاً أَرْيَحِيًّا.

وكانت خطيبته الجديدة تحرص دائما على أن يذهب إلى بيتهم كل يوم تقريبا، وتغضب إذا لم يفعل. وإنه ليتذكر الأمر الآن فيردد مبتسما قول رب العزة: "وكان بين ذلك قَوَامًا".

وقد بدأ الفتى ينشر بعض المقالات هنا وهناك فى تلك الفترة: من ذلك مقال له عن رفاعة الطهطاوى ورحلته إلى باريس وما حاول لويس عوض أن ينسبه إليه مما يباعد بينه وبين التمسك بالإسلام نشره فى مجلة "الوعى الإسلامى". كما نشر بعض المقالات فى مجلة "الثقافة"، التى كان يرأس تحريرها آنذاك د. عبد العزيز الدسوقى، وساعده فى نشرها المرحوم د. عبده بدوى، الذى كان وافدا جديدا على قسم اللغة العربية بآداب عين شمس فى تلك الأيام، وكانت بين الفتى وبينه شىء من المودة، فكان يشجع الفتى ويحمل ما يكتبه إلى رئيس تحرير "الثقافة"، فينشرها مشكورا. وبالمثل نشر له د. بدوى مقالا فى العدد الثانى من مجلة "الشعر"، التى أُسْنِدَتْ رئاسة تحريرها إليه. وإضافةً إلى ذلك نشر له أ. نصر الدين عبد اللطيف بعض المقالات فى ملحق مجلة "الهلال": "الزهور" مشكورا، وكان يشجع الشباب ويبتسم فى وجوههم دائما. وهذه فرصة لأشكره على ما لقيته منه من احتفاء بى وبأمثالى من الكتاب الناشئين. أما إن كان قد انتقل إلى رحمة الله فإنى أدعو الله له بالغفران والإكرام. كذلك نشر الفتى مقالا فى مجلة "العربى" فى عهد أ. أحمد بهاء الدين عن أحمد فارس الشدياق ساعده على نشره المرحوم أ. محمد خليفة التونسى. ونشر د. حسين مؤنس له أيضا مقالا عن مالك بن نبى وفلسفة التاريخ فى مجلة "الهلال" رغم أنه لم يكن قد أرسل له المقال، بل أغلب الظن أنه سلمه للأستاذ نصر الدين عبد اللطيف، الذى كان يشرف على ملحق "الزهور"، ويبدو أنه قد وقع بالمصادفة فى يد د. مؤنس، فنشره فى "الهلال" ذاته بعد اختفاء "الزهور" عقب توليه رئاسة تحرير "الهلال" فى عهد أمينة السعيد، إن كانت ذاكرتى لم تنحرف عن سواء الصراط.

لكن فى ذات الوقت كانت له تجارب غير مريحة فى هذا الميدان: فمثلا يذكر أنه أعطى، وهو لا يزال طالبا فى آداب القاهرة، مقالا للدكتور شكرى عياد كان قد دبجه عن ملحمة العقاد: "ترجمة شيطان" وضَمّنه

بعض النظرات النقدية المتعلقة بتلك القصيدة، التى كان ولا يزال يكبرها ويراها عملا إبداعيا عظيما، وكان د. عياد يعمل مع الأستاذ يحيى حقى فى مجلة "المجلة"، وكان الفتى بطبيعة الحال يرجو نشرها فى تلك الدورية، فأخذها منه د. شكرى قائلا إنه سوف يسلمها للأستاذ حقى ويقول إنها من أحسن طالب عنده. ثم وقف الأمر عند هذا الحد، إذ أنبأه أستاذه بعد فترة أن المقال قد ضاع منه: هكذا بكل بساطة!

ومرة أخرى كتب مقالا عن مالك بن نبى وفلسفة التاريخ وحمله إلى مجلة "الإذاعة والتليفزيون" ليسلمه إلى الأستاذ أحمد بهجت بناء على ما كان يظهر له فى مقالاته من تواضع وروح فكهة، إلا أن مساعد الأستاذ بهجت أخذها منه واعدا إياه أن يسلمها له. لكنه كان كلما مر عليه ليعرف مصير المقال لم يجد إلا اعتذارات وتسويفات، فما كان منه فى المرة الثالثة، وقد ضاق صدره وركبه عفريت، إلا أن أصر على أن يأخذ المقال من سامى محمد، الرجل الذى كان قد تسلمه منه ووعده بتسليمه إلى أحمد بهجت. وعبثا حاول سامى محمد، وقد رأى الشرر يتطاير من عينى الفتى، أن يستبقى المقال مؤكدا له أنه سوف يُنْشَر فى العدد القادم، لكن كان غضب فتانا قد بلغ الغاية فى التأجج، فأصر على استرداد المقال معلنا احتقاره لهذه الطريقة فى التعامل بين البشر، ثم أخذه وانصرف دون أن يلقى السلام تعبيرا عن اشمئزازه. ثم مرت الأعوام ليعلم الفتى، حين عاد من بريطانيا، أن المقال قد تم نشره فى مجلة "الهلال" أيام رئاسة د. حسين مؤنس لتحريرها كما سبق القول آنفا.

هذا قبل سفرى إلى أكسفورد. فلما ذهبت وعدت كانت قد راحت السكرة وجاءت الفكرة، إذ سلمنى ساعى البريد بعد عودتى بشهور خطابا رسميا لا أدرى لماذا انقبض قلبى وأنا أتسلمه وأفتحه، وشعرت أن بداخله ما لا يسر. وفعلا ما إن فضضت الظرف حتى وجدت رسالة من الضرائب تطلب منى أن أدفع حوالى ستمائة جنيه وبضع عشرات أخرى من الجنيهات لقاء ما نشرته من مقالات. وا مصيبتاه! إننى لم أتقاض من المقالات التى كنت نشرتها قبل سفرى نصف هذا المبلغ ولا ربعه ولا حتى عشره، إذ كانت

مكافأة المقال فى ذلك الحين نحو خمسة جنيهات أو تقل قليلا . وليس لتقدير الضرائب الجزافى هذا من معنى إلا أننى كنت أكتب كل يوم على مدار هذه السنوات مقالا ، وأن مكافأة المقال بالشىء الفلانى، وهو طبعا ما لم يحدث ولا يمكن أن يحدث. ووجدت العرق يتفصد منى ضيقا وسخطا .

وكانت هذه الرسالة بداية لف ودروان حول نفسى لمدة عامين وأكثر أحاول أن أقنع المسؤولين فى الضرائب بحقيقة الأمر وأننى كنت طوال السنوات الست الماضية خارج الديار مشغولا بالدراسة فى بريطانيا لا أكتب شيئا ، ولا أتقاضى شيئا . وبدا الأمر كما لو كان فى طريقه للحل، إذ طُلِبَ منى إثبات ما أقول، فسررت لأن هذا أمر من السهولة بمكان. لقد أحضرت لهم جواز سفرى، وخطابا رسميا من الكلية بأنى لم أكن فى مصر فى الفترة المشار إليها . لكن الضرائبيين، بعد اطلاعهم على تلك الوثائق التى طلبوها هم أنفسهم عادوا فقالوا: وإِنْ! لا مفر من الدفع . أما لماذا فلا أدرى. ثم عدت إلى الدوخة مرة أخرى، ذاهبا إلى القصر العينى حيث مصلحة الضرائب، آيبا من القصر العينى إلى بيتى، والمشكلة تتعقد أكثر وأكثر، والمبلغ المطلوب منى تسديده يزداد أكثر وأكثر حتى بلغ نحو ألف جنيه فى النصف الأول من ثمانينات القرن الماضى، وهو مبلغ ضخم فى تلك الآونة. ثم جاءنى أخيرا إنذار بالدفع أو الحجز. وهنا كان سخطى قد بلغ منتهاه، ولكن ما العمل؟

أخذت نفسى إلى الضرائب، وروحى فى حلقى، فسألت فى الاستقبال عن القسم الذى بعث بالإنذار لى، فقالوا: اسأل فى الأرشيف. فلم أكذب خبرا، وقصدت الأرشيف، فوجدت شابا يتناول فَطُوره، فقلت له: هل صحيح أنكم سوف تحجزون على أثاث بيتى فعلا ؟ فأكد لى الأمر بكل ما لديه من قوة. وهنا سألته: دعنا من الرسميات، وقل لى: لو أنك فى مكانى وجاءك مثل هذا الخطاب فماذا كنت فاعلا ؟ ثم شرحت له الأمر من "طق طق" إلى "سلام عليكم"، فما كان منه إلا أن نحى الشطائر التى كان يأكلها جانبا، وهو يقول: تعال معى. قلت له: فلتكمل طعامك. قال: لا ، حتى أحل مشكلتك. قلت وأنا غير مصدق: إننى دائخ منذ

سنتين، فهل يمكنك أن تحلها لى بهذه البساطة؟ قال: سوف ترى. ثم أخذنى إلى الدور الرابع فى المصعد إلى السيدة التى أتردد عليها عبثا طوال تلك المدة، وأخذ يقول لها: انْسَىْ كل ما كان بينكم وبين الدكتور فيما مضى، وابدئى معه من اليوم. وكانوا قد طلبوا منى أن أحضر لهم خطابات من المجلات التى كنت أنشر فيها قبل سفرى تبين كم من المال قبضت لقاء ما نشرته من مقالات، فنظروا فيها فوجدوا أن كل ما قبضته أولا عن آخر نحو خمسين جنيها، فربطوا علىَّ ضرائب بحوالى أحد عشر جنيها. معقول؟ نعم معقول ونصف.

وقد حاولت أن أكافئ موظف الأرشيف بأى شىء، فاعتذر بصدق متمنيا لى السلامة. سلمه الله، وبارك فيه أينما كان، وسَهَّل له طريق حياته. وقد مزقت يومها دفتر الضرائب قبل أن أغادر مصلحة الضرائب وألقيت بمِزَق الدفتر فى سلة المهملات، ولم أكتب تقريبا شيئًا من يومها فى مجلة إلا مقالا واحدا فى مجلة "الشعر" أيام أ. خيرى شلبى، نقدونى عليه مائة جنيه فيما أذكر. صحيح أننى قد نشرت بعض المقالات والحوارات هنا وهناك، ولكن دون مليم واحد. وعلى كل حال كانت الضرائب على المقالات قد ألغيت.

وقد نشرت، منذ أكثر من عشرة أعوام، وأنا بالدوحة فاضٍ لا شغلة ولا مشغلة، مقالا ساخرا عن هذا الموضوع فى "المشباك" (الإنترنت) بعنوان "من بعدما كاد الأولاد يباعون فى المزاد" تخيلت فيه أن الضرائب، حين أرادوا الحجز على ممتلكاتى، لم يجدوا ما يفى بالمبلغ المراد تحصيله، فقاموا بعمل مزاد على ابنى وابنتى، ورسا المزاد على جيرانى، الذين أخذوا الولدين منى، وصرت أراهما يذهبان ويجيئان أمامى دون أن أجرؤ على التحدث إليهما أو إطفاء غلة الشوق إليهما بقبلة أو ضمة، فكانت مأساة لم يسبق لها مثيل. وهذا هو المقال:

"أثناء قراءتى فى بعض كتب الدكتور محمد أركون أستاذ تاريخ الفكر الإسلامى بجامعة السوربون من أجل إعداد دراستى التى سبق نشرها فى بعض الصحف الألكترونية عن رأيه فى القرآن الكريم صادفتنى كلمة له سريعة عن الفيلسوف الجزائرى "بلديّاته" مالك بن نبى، ذلك الرجل الذى استطاع أن يحرز نجاحا

كبيرا، فى ما خلّف من دراسات، فى تحويل دراسة التاريخ الإسلامى إلى علم ذى قوانين بحيث لا تقتصر قراءتنا له على مجرد الإلمام بالمعلومات، بل تتجاوز ذلك إلى استخلاص العبرة مما وقع فيه لا على الطريقة الوعظية القديمة رغم أهميتها، بل على طريقة علماء العلوم الطبيعية والرياضية ما أمكن، وفى هيئة معادلات وقوانين. وكانت الإشارة فى معرض حديث أركون عن القرآن والدراسات التى وضعها بعض المعاصرين من الكتّاب المسلمين عن كتاب الله الكريم، ومنها كتاب مالك بن نبى: "الظاهرة القرآنية"، فوجدته يتهم الكتاب بالضحالة والبعد عن الروح العلمية ومحاولة العزف على أوتار المشاعر الدينية التى لا عقل لها، أو شىء من هذا القبيل.

وسرحتُ بفكرى مستغربا هذا الكلام الذى أقل ما يمكن أن يوصف به أنه بعيد عن الحقيقة تمام البعد، وفيه ظلم كبير لبن نبى ولكتابه القيم، لكنى سرعان ما فِئْتُ إلى نفسى وعقلى فلم أستطع أن أجد جوابا على هذا الاستغراب إلا أن الرجلين يمثلان نمطين مختلفين تمام الاختلاف: فأما مالك فمفكّر متحمس لدينه يتألم لأوضاع أمته ويحاول أن يطبّ لها ويأخذ بيدها من المستنقع الذى غاصت فيه أرجلها منذ قرون ولا تستطيع أن تتخلص منه، مؤمنا أن علاجها إنما يكمن فى استمساكها بالقرآن الكريم والحرص على هويتها الإسلامية، وأنها لو عادت إلى هذا الدين وفهمته وطبقته كما ينبغى أن يُفْهَم ويُطَبَّق فى هذا العصر بناء على ما يقتضيه منطق الدين والعقل ومنطق الحياة والطبيعة البشرية فهى حقيقةٌ أن تخرج من الورطة الحضارية التى ارتكست فيها، بأقل مجهود ممكن وأسرعه.

وأما أركون فقد اختار أن يحمل على كاهله وِزْر التشكيك فى كتاب الله وإثارة الشبهات من كل لون فيه من خلال مغالطة الحقائق المعروفة، وتزيين الخروج على الملة واللحاق بأوربا لحاق التبعية والانقياد، مطنطنا فى تلك الأثناء بأسماء بعض العلوم الإنسانية الجديدة التى يعرف جيدا أنها تبهر كثيرا من "البُلْه" الآتين من دول العالم الثالث، ومنه عالم الإسلام، وناثرا مصطلحاته الغريبة التى من شأنها اجتذاب الآذان الضعيفة

المناعة التى تظن أنه كلما كان الكلام غير مفهوم كان معنى ذلك أنه كلام عميق لا يستطيع أن يقدره حق قدره إلا ذوو الألباب. وفاتهم أنْ ليس كل ما يلمع ذهبا !

وشىء آخر: أن بن نبى لم يستطع أن يلتقطه المستشرقون لأنه لم يرض لنفسه أن يلتقطوه، وكان واعيا بما يفعلونه للإيقاع به وبأمثاله من شبان المسلمين ممن ساقتهم الأقدار للاقتراب من دوائرهم، وبخاصة فى فرنسا . وقد حكى لنا ، رحمه الله، فى الجزء الثانى من كتابه الرائع الخطير: "مذكرات شاهد للقرن" بعض ألاعيبهم وأساليبهم لالتقاط من لا يبالون من شباب العرب والمسلمين بدين أو وطن، وكل همهم الوصول إلى المناصب والحصول على الأموال والشهرة والاستمتاع بالنساء، ثم فليذهب كل شىء بعد ذلك إلى الجحيم. ومن بين من جاء ذكرهم من هؤلاء المستشرق لويس ماسينيون، الذى كان يزعم أنه صديق للعرب وللمسلمين، والذى قال الأستاذ محمد لطفى جمعة (الكاتب والمحامى المصرى المعروف) عنه فى بعض ما كتب إنه قد اعتنق الإسلام، وهو ما سارعتُ إلى مناقشته فى مقدمة كتبتها لأحد كتبه قائلا إن مسألة كهذه لا يمكن أن نتقبلها بهذه البساطة، بل لا بد من دليل واضح مقنع، وبخاصة أن ما نعرفه عن الرجل يقول عكس هذا . ثم وجدت جمعة نفسه قد عاد فى موضع آخر من كتاباته فأبدى تشككه فى الرجل، فعرفت أن اتجاه ذهنى فى هذه المسألة كان سليما بحمد الله.

وبن نبى فى هذا يختلف تمام الاختلاف عن أركون، الذى قرَّبه الفرنسيون وعيّنوه فى جامعة من أعرق جامعاتهم، وهم يعرفون أنه استثمار نافع ومفيد أشد النفع والإفادة، إذ يمكن أن يكون مخلبا لاصطياد الطلاب العرب والمسلمين الذين تسوقهم الأقدار إلى الاحتكاك به فى محاضراته أو أثناء العمل فى رسائلهم العلمية تحت إشرافه، فينطلقون يمجّدونه ويعلون من شأنه دون تحفظ بل دون تفكير، وهو ما استفزنى فكتبت الدراسة التى لم يبعد بها العهد والتى نُشِرت فى بعض المجلات الألكترونية مؤخرا . لقد آلمتنى مزاعم الرجل التافهة المتهافتة ضد القرآن من أنه نتاج للمخيال الجماعى العربى لا وحى إلهى، وذلك رغم قلة إلمامه بالتراث

الإسلامى وعدم تعمقه فى فهمه، مع الاستعاضة عن ذلك فى نفس الوقت بلَوْك كثير من العبارات التى لا رأس لها ولا ذيل، وسَوْق طائفة من المصطلحات العجيبة التى يريد بها أن يحرف العقول عن القرآن والإسلام، والتخفى وراء قدر من الغموض مقصود لِيُوقِع فى رُوع القارئ المسكين أنه بصدد فكرٍ عميقٍ لمفكرٍ عملاق، وهو ما يروّج له بعض من الطلاب الذين درسوا على يديه فى باريس وحصلوا على درجة الدكتورية فى تخصص غير تخصصهم الأصلى، وأخذوا يرددون دعاواه السخيفة فى الدين الذى أتى به محمد عليه السلام والكتاب الذى أُنزِل عليه. وهل هناك خدمة أفضل من هذه يمكن أن يؤديها أى منا للغرب، الذى يعمل بكل قواه منذ أن بزغت شمس الإسلام حتى الآن على خنق نور الله، مستعينا بعلمائه وساسته ورحّاليه وصحفييه وإدارييه وعسكرييه ومستشرقيه ومبشريه، وبالاستعانة كذلك بتلامذته وحوارييه من بين أظهرنا ؟

وقد بدأ اهتمامى بمالك بن نبى منذ أن كنت طالبا فى الجامعة، فقرأت له أنا وأصدقائى آنذاك كل ما وقعت عليه أيدينا من كُتُبه التى ترجم كثيرا منها الدكتور عبد الصبور شاهين. وقد راعنى وأعجبنى منها تلك الروح العلمية التى تريد أن تقنّن كل شىء، مما ذكّرنى بابن خلدون ومقدمته التى نحا فيها نفس المنحى، مع الفارق المتمثل فى أن بن نبى قد ركّز كلامه وفكره الفلسفى على المجتمعات الإسلامية القديم منها والحديث، بخلاف ابن خلدون، الذى جاء كلامه فى هذا الصدد عامًّا يهدف من ورائه إلى أن يصدق على كل مجتمع مسلما كان أو غير مسلم. وهو ما كتبته فى مقال لى عن هذا المفكر الجزائرى حاولت نشره فى أواسط السبعينات من القرن الماضى فى مجلة "الإذاعة والتليفزيون" المصرية متشجعا بوجود الأستاذ أحمد بهجت على رئاسة تحريرها، وإن لم أستطع رغم ذلك أن أقابله (بل لم أره أو أتصل به حتى الآن)، إذ كنت فى كل مرة من المرات القليلة التى ترددت فيها على المجلة أقابل سكرتير التحرير، الذى كان يبيع لى الكلام المعسول مستغربا (أو قل: مستنكرا)، فيما يبدو، أن يتجرأ شاب صغير لا هو فى العير ولا فى النفير على التفكير فى النشر فى أشهر مجلة فى مصر فى ذلك الحين وأوسعها انتشارا، لكنه فى ذات الوقت أخذ

يسوّف فى مسألة النشر، إلى أن ضاق صدرى بعد المرة الثالثة، فصممت أن أذهب فأسترد المقال بأى ثمن، ولم يشفع للرجل، وكان مسؤولا فى وزارة الإعلام، أنه أخذ يطيب خاطرى ويؤكد لى أن أحمد بهجت قد أصدر أمره بنشر المقال، لكنْ كان العفريت قد ركبنى فلم أَلِنْ لكلامه، وأخذت عيناى تقذفان بالشرر، ورفضتُ أن أتفاهم أو أبقى معه لحظة، وصممت على أخذ المقال بأى سبيل، فلم يجد بدا من أن يناولنيه، وانصرفت دون أن ألقى عليه تحية الانصراف.

وقد أعطيت المقال بعد ذلك للأستاذ نصر عبد اللطيف مدير التحرير فى مجلة "الهلال" قبل أن أترك مصر بعدها بقليل إلى بريطانيا فى بعثة للحصول على الدكتورية فى النقد الأدبى، ولم أعد أعرف عن مصير المقال شيئا، وبخاصة أن الدكتور حسين مؤنس قد تولى عقب ذلك رئاسة التحرير بعد الشاعر صالح جودت وغيّر من نظام المجلة ملغيا ملحق "الزهور" الذى كان الأستاذ نصر عبد اللطيف ينشر لنا فيه مقالاتنا بكل مودة ورقة وترحاب كشخصيته الكريمة رغم أنه لم يكن يعرف واحدا مثلى معرفة شخصية، لأفاجأ بعد عودتى من البعثة بعد ست سنوات (فى عام اثنين وثمانين) بأحد الأصدقاء يزفّ لى النبأ بأن مجلة "الهلال" قد نشرت المقال، فظللت أبحث عن العدد الذى ظهر فيه إلى أن وجدته.

وإنى لأذكر الظروف التى كتبت فيها المقال. لقد كان ذلك فى شقة الصديق المذكور بالإسكندرية حيث كنت، وأنا لا أزال فى العشرينات من عمرى، أسافر من قريتى "كُتَّامة الغابة" فى محافظة الغربية إلى عروس البحر المتوسط كل صيفٍ وأنزل ضيفًا على أخى وأختى وصديقى هذا فأقضى هناك أوقاتا هانئة رغم قلة المال فى ذلك الوقت. وأذكر أنى انتهيت من المقال فى جلسة واحدة معتمدا على كتابين أو ثلاثة لمالك بن نبى وعلى الذاكرة أكثر مما اعتمدتُ على نصوص الكتب مباشرة. وكان يخيَّل لى حينها أننى أضحيت كاتبا كبيرا ! ألست أكتب عن فيلسوف كمالك بن نبى، وأنتهى من كتابة مقالى عنه فى شوط واحد وأنا جالس ممددا بطول الأريكة فى بيت صديقى السكندرى؟ وقد أبرزتُ فى ذلك المقال الفكرة التى كانت

وما زالت تسكن عقلى منذ تعرفى بكتابات المفكر الجزائرى من أن مالك بن نبى هو فيلسوف القوانين التاريخية كابن خلدون، وإن لم أذكر الفرق الذى أومأت إليه قبل قليل بين المفكّرَين.

ويبدو أن هذه الفكرة هى التى شفعت للمقال عند الدكتور مؤنس، إذ كان، كما هو معروف، أستاذا للتاريخ، وكان مستغرقا فى أخريات حياته فى البحث فى أحوال المسلمين ومحاولة العثور على دواء لأمراضهم الحضارية والنفسية والاجتماعية من خلال الدين المحمدى العظيم مثلما كان يصنع مالك بن نبى، فنشره مشكورا رغم أنه لم يسمع بى لا قبل ذلك ولا بعده لأنى لم أعاود الكرّة فى محاولة نشر أى مقالات لى لا فى "الهلال" ولا فى غيرها من المجلات المصرية بعد الذى جرى، اللهم إلا مقالا فى مجلة "الشعر" منذ عدة أعوام نشره لى أحد الأصدقاء، وإلا مقالا آخر بعده فى مجلة "المصور" أرد فيه على أستاذ مصرى يعيش فى سويسرا منذ وقت طويل كنت وضعت كتابا عن رسالته التى حصل بها على درجة الدكتورية من فرنسا وشكّك فيها فى أحداث السيرة وأخذ يتخيل من عند نفسه بدلا منها أحداثا ما أنزل الله بها من سلطان، فبدلا من أن يتعرض لأدلتى الصلبة التى نقضت بها فكرة كتابه المحورية وهلهلتُ ما تفرع منها من أفكار جزئية، وجد أن من السهل عليه الاكتفاء بمقال فى مجلة "المصوّر" يدّعى علىّ فيه أنى مارست معه الإرهاب الفكرى وأنى استهدفت عقيدته بالتشكيك أو ما إلى ذلك مما لست أذكره بمضى الزمن، ظنا منه أن ذلك سيصرفنى عن التعرض له ولما كتب، فحبّرت ردا على هذا الذى كتبه متحديا إياه أن يدلنى على أى شىء فى كتابى يعضد ما ادّعاه علىّ، وحكّمت القراء فى المسألة تاركا لهم الرجوع للكتاب المذكور والبحث فيه عما يمكن أن يكون مصداقا لدعواه ضدى إن استطاعوا.

وأغلب الظن أننى لو رجعت الآن للمقال الذى كتبته عن مالك بن نبى فلن أرضى عنه، أو على الأقل لن يكون له فى عينى ذلك البريق القديم، إذ لن يخرج فى أحسن الأحوال عن أن يكون تمرينا مبكرا لما

أصبحت أكتبه فيما بعد ولا أستطيع مع ذلك أن أحس تجاهه بالرضا التام مهما بذلتُ فيه من جهد وتجويد . ولكن ما هذا الذى جرى يا ترى مما جعلنى أعزف عن التفكير فى النشر بالمجلات؟

بعد عودتى من بريطانيا إثر حصولى على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م بشهور جاءنى خطاب حكومى صغير أحسست، لا أدرى لماذا، عند تسلمه بشىء من الانقباض فى صدرى، ففتحته لأجد أنه من مأمورية الضرائب التى فى قصر العينى تطالبنى فيه بتسديد نحو سبعمائة جنيه عن المقالات التى أكتبها فى المجلات المصرية، وهو ما يعنى أننى كنت أكتب كل شهر فى كل مجلة من هذه المجلات مقالا طوال السنوات التى قضيتها فى بريطانيا، وأننى كونت ثروة من هذا النشاط، فى حين أن الحقيقة عكس ذلك تماما، فإنى لم أكن قد نشرت أى شىء منذ سفرى إلى المملكة المتحدة فى عام ١٩٧٦م، ببساطة لأننى كنت خارج البلاد، فضلا عن انشغالى التام هناك بدراستى. وقد ذهبت ثانى يوم إلى مأمورية الضرائب وكلِّى اطمئنان إلى أننى متى أريتهم جواز السفر فسوف تنتهى المشكلة على الفور ويقولون لى: "نحن آسفون على هذا الإزعاج". ومن يدرى؟ ربما عوّضونى كذلك عما سببوه لى من توتر. ولكن من الواضح أننى كنت واهما، إذ إننا نتعامل مع إدارة حكومية تنتمى إلى العالم الثالث. فطلبوا منى أن أوافيهم بخطاب من كليتى تقول فيه إننى كنت فعلا بالخارج طوال السنوات الماضية التى يطالبوننى بتسديد ضرائب عما يُفْتَرَض أننى كتبته أثناءها من مقالات. ورغم استغرابى هذا الطلب لاعتقادى أن جواز السفر يجيب على ما يطلبون بأجلى بيان، علاوة على أنه لا يمكن أن يكذب بينما يمكن أن يزوِّر الواحد، لو أراد، مثل هذا الخطاب الذى يطلبونه، فقد قلت لنفسى: "بسيطة! تاهت ولقيناها".

وذهبت للكلية فأعطتنى الخطاب المطلوب الذى سلمتُه بدورى للضرائب منتظرا أن يعتذروا لى عن وجع الدماغ الذى سببوه لى ظلما . لكننى كنت واهما مرة أخرى، إذ أحالونى إلى لجنة للنظر فى الخطاب والجواز، لتقول اللجنة لى بعد مدة لا أدرى كم طالت إننى ينبغى أن أدفع المبلغ مضافا إليه الفوائد . وعبثا

حاولت على مدار سنتين أو أكثر أن أتفادى دفع هذا المبلغ الكبير عن عدة مقالات كان كل ما قبضته مكافأة لها هو بضع عشرات من الجنيهات لا تزيد عن الخمسين إلا قليلا . . . إلى أن وصلنى ذات يوم خطاب حكومى أصفر صغير، فانقبض قلبى مرة أخرى، وفتحته لأجدهم ينذروننى إنذارا نهائيا بالدفع خلال خمسة عشر يوما أو يحجزوا على أثاث الشقة الذى أمرونى ألا أتصرف فيه، وإلا اتُّهِمْتُ بالتبديد . وكان المبلغ قد بلغ فى تلك الأثناء بسبب الفوائد ألف جنيه، وهو مبلغ ضخم جدا بالنسبة لواحد مثلى فى ذلك الحين من منتصف ثمانينات القرن الماضى.

وقد شعرت بالعرق ينساب غزيرا من كل مكان فى جسدى، لا لفداحة المبلغ فقط، بل لما فى الأمر من غَبْنٍ جلف، فإنى لم أكسب من العملية كلها كما قلت إلا نحو خمسين جنيها من عدة مقالات لا راحت ولا جاءت ولا قيمة لها . لكن: هذا "ألله"، وهذه حكمته، وهذه هى الأوضاع فى بلادنا المحروسة، بينما يهرب اللصوص بالملايين التى سرقوها من جيبى وجيبك وجيوب الآخرين المساكين دون أن يهددهم أحد بشىء بل معززين مكرمين، وعلى خدّ كل واحد منهم بوسة (بوسة شرعية طبعا . أخوّية يعنى، وليست من التى بالى بالك) . وأذكر أنى قضيت آنذاك "ليلة ليلاء" كما نقول نحن أساتذة العربى، الله يلعن العربى وسنينه الذى يغرى بكتابة مقالات لا معنى لها ولا فائدة من ورائها وتوقع فى مشاكل ضريبية من هذا النوع، ثم فى نهاية المطاف لا يقرؤها أحد إلا من يرومون إثارة الجدال والمماحكة!

وذهبت ثانى يوم من الفجر بعد أن ضاعفتُ جرعةَ الدعاء عقب الصلاة بأن يجىء الله بالفرج هذه المرة، ووصلت لمأمورية الضرائب التى أصبحتُ أحفظ موقعها ومكاتبها كما أحفظ بيتى، وسألت فى الاستقبال عن مكان تصدير الخطاب فقالوا لى: الأرشيف. وكان فى الطابق الأرضى على يمين الداخل، فدخلتُ فوجدتُ موظفا شابا يقضم شطيرة (شطيرة، وليس كما يتظرف السخفاء: "شاطر ومشطور وبينهما طازج")، فقت له وأنا أطلعه على الرسالة: من فضلك، من الذى أرسل لى هذا الخطاب؟ فقال على الفور

بعد أن ألقى نظرة سريعة عليه: أنا . فقلت ضاحكا من شدة البلية: وهل ستحجزون فعلا على أثاث شقتى؟ فقال: نعم بكل تأكيد . فقلت وأنا لا أزال أضحك من فداحة الهم: وأين أنام أنا وأولادى إذن؟ فقال: ولكن هذه هى التعليمات، وأنا العبد المأمور. فتخيلتُ الفضيحة أم جلاجل التى ستتسبب لى فيها مأمورية الضرائب بين الجيران عندما يأتون ويقيمون مزادا علنيا للأنتريه وغرفة النوم والسفرة التى فى الشقة، وهى أشياء ليست ذات قيمة. ثم من يدرى؟ربما أضافوا الأولاد أيضا إلى المزاد إذا لم تَكْفِ هذه الأشياء لتغطية المبلغ المطلوب.

وتصورت أولادى وقد اشتراهم أحد الجيران وألحقهم باسمه ولم يعد لى فيهم نصيب ولا أستطيع أن أقول لهم: "ثلث الثلاثة كم؟"، وهم يروحون ويجيئون أمام عينى، فقلت له كمن هبط عليه الإلهام فجأة: يا أخى الفاضل، دعنا من الرسميات والقانون، وتعال نتكلم من الناحية الإنسانية. فوجدته يتوقف عن الطعام لينصت، فشجعنى هذا على المضى فى الكلام، وقلت له الحكاية من "طق طق" لـ"سلام عليكم"، ثم عقبت قائلا: "والآن ضع نفسك فى مكانى، وقل لى من فضلك كيف تتصرف". وإذا به يضع الشطيرة جانبا (الشطيرة لا الشاطر والمشطور والطازج الذى بينهما كما يقول السخفاء للتهكم بلساننا القومى، بلاهم الله بمأمورية الضرائب كما بلانى وأرانى فيهم يوما) ويقول: تعال معى. فقلت له: إلى أين؟ فقال: لأحلّ لك المشكلة. قلت له وأنا غير مصدق، وفى نفس الوقت فرحان لأن أولادى لن يباعوا منى فى المزاد، هؤلاء الأولاد الذين كلفونى الكثير ووُلِدوا وترَبَّوْا فى إنجلترا، و"يضربون بالقُلّة" بلسان جون بول وينادوننى ب"دادِى"، التى أصوّبها لهم قائلا: "ضاضِى لا دادِى" بحجة أن لغتنا هى لغة "الضاد" لا "الداد" (باختصار: أولاد عمولة، وليسوا شُغْل سُوق): هل من المعقول أن المشكلة التى حيرتنى طوال السنوات الماضية سوف تنحلّ الآن وبهذه السهولة؟ فأكد لى أنْ نعم. فقلت له (وأنا أكاد أطير من الفرح لولا أننى قلت لنفسى: انتظر حتى تنحل المشكلة فعلا، وبعدها يصير لكل حادث حديث كما نقول نحن أهل العربى، وعندك يا أبا خليل برج الجزيرة على مقربة منك

يمكنك أن تصعد فوقه وتطير كما تحبّ وتفعل مثلما فعل عباس بن فرناس فتنزل على جذور رقبتك بالطريقة التى تُشْمِت بك أمة محمد وعيسى وموسى جميعا): الله ينعم عليك! ولكن لم لا تنتهى من الشطيرة أولا؟ (الشطيرة لا الشاطر والمشطور والـ . . . إلخ كما يقول الـ . . . إلخ للتهكم بالـ . . .إلخ أيضا). فقال بارك الله فيه: دعنا من الشطيرة الآن (بطبيعة الحال حتى أكون صادقا، فالكذب خيبة، لقد قال: "الساندويتش". ولم يكن من اللياقة ولا اللباقة فى شىء كما لا يخفى عليكم، ولا كان عندى نفس، أن أنبهه إلى أن الصواب هو أن يقول: "شطيرة". ألا لعنة الله على الشطيرة والساندويتش معا! هل هذا وقته؟).

المهم: أخذنى الشاب ابن الحلال فى المصعد إلى السيدة التى كانت تتولى ملف الضرائب الخاص بى والذى كانت مشكلته فى ذلك الوقت قد صارت أعقد من مشكلة الملف النووى للعراق وإيران وكوريا الشمالية (التى منها صديقى "ريانج الكافر") جميعا، ولم يبق إلا أن تقرر أمريكا ومعها بريطانيا وأستراليا ضربى بالقنابل والصواريخ بكل أنواعها أثناء المزاد العلنى، لينبرى الفصحاء ممن يحملون أسماءنا ويدينون رسميا بديننا ويتكلمون لغتنا (لغة الشاطر والمشطور وبينهما ما تعرفون فلا داعى لتكملة الكلام)، وهم الآن أكثر من الهم على القلب ويعرضون خدماتهم بحرارة فى كل مجلة وجريدة ورقية أو ألكترونية وفى كل إذاعة مرئية أو صوتية، فيتهموننى بالإرهاب والكباب والهباب وتقطيع الرقاب واستحقاق العقاب والعذاب بسبب التخلف الدينى (أى الإسلامى طبعا، وهل هناك غيره؟) وتعكير صفو الأمن الدولى، ويطالبون بمحوى من على الخريطة محوا تاما لا يبقى ولا يذر إكراما للأمريكان والأستّرال والإنجليز. يا حفيظ، يا حفيظ! شىء يجنّن، شىء يغيظ!

وكل هذا من أجل شوية "لحاليح" لا تساوى شيئًا بجنب الملايين والمليارات التى يسرقها اللصوص الذين لا يستطيع أن يحملق فى وجوههم أحد من هؤلاء الأذيال الأنذال، وإلا كان مصيره النكال والوبال والضرب بالنعال! لكن ماذا تقول فى الضمير الحَرِج والعَسِر للمتدلّهين فى غرام أمريكا؟ حساسيتهم الأخلاقية حساسية

من الطراز الأول! أم تريدونها فوضى؟ لا يا سادة، ألم تسمعوا بقول الشاعر الشاطرىّ المشطورىّ الطازجىّ وهو يقول:

لا يَسْلَم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يُراق على جوانبه الدَّمُ؟

فلماذا إذن المعاظلة؟ أومن يقول الحق فى هذه البلاد كِخّة؟

وعند وصولنا فاتَحَ الرجلُ الطيبُ الموظفةَ المسؤولةَ عن الملف النووى الإبراهيمى "مسز إكس" (على وزن هانز بليكس) فى الموضوع فقالت له إنها تعرف القصة، وإن عليه (أى علىّ أنا العبد لله) أن يدفع الألف جنيه. . . إلى آخر ما تعرفونه الآن أكثر منى من كثرة ما تابعتم الموضوع على شاشات التلفاز وفى الصحف ومحطات الإذاعة المحلية والعالمية، فما كان منه إلا أن قال لها بكل بساطة وعبقرية: "دعيك مما فات، وخلِّنا أولاد اليوم، وابدئى معه من هذه اللحظة، وخذى أقواله فى كل ما تحتاجين أن تكتبيه فى التقرير" . يعنى أننى سأكون مصدر المعلومات المطلوبة منى. والعجيب الغريب أنها استجابت لما قال! الله أكبر! ولماذا لم يكن الكلام هكذا من الأوّل؟ إذن لَكُنّا وفّرنا الوقت الذى ضاع، والأعصاب التى تهرّأت، والمال الذى أُهْدِر على البنزين والزيت الذى أكلته السيارة، ودوخة البحث كل مرة عن مكان أضع فيه سيارتى لحين الانتهاء من السبع دوخات فى متاهة الضرائب! ثم بعد كلمتين من هنا وكلمتين من هناك، وحسبة ولا حسبة برما (وبالمناسبة فبرما هذه لا تبعد عن قريتى أكثر من ثمانية كيلومترات، وتقع فى منتصف الطريق بينها وبين طنطا)، أعطتنى ورقة لأدفع المبلغ الذى يجب علىّ أن أسدده فى الخزينة. ترى كم كان هذا المبلغ أيها القارئ الكريم؟ أحد عشر جنيها وكسور! يا أخى قل: اثنا عشر جنيها، وخَلِّ الباقى لأجلك، فما بين الجيّدين حساب! لا والله يا أخى القارئ لن يرجع الباقى إلى جيبى، فهو لك حلاوة البراءة! وذهبتُ ودفعتُ وعدتُ ونزلت مع الرجل الطيب وأنا أتوقع أن يلمح لى بشىء لقاء هذه الخدمة العظيمة التى لم تكن تخطر لى على بال، لكن الرجل الطيب لم ينطق ولم يلمح، فحاولت أنا أن أومئ، لكن الرجل الطيب ولا هو هنا .

فأخذت أشكره وأطيل الشكر على عادتى مع كل من أدَّى إلىّ معروفا وأعود فأشكره من جديد متوقعا أنه سوف يستجمع شجاعته ويقول أى شىء . لكن يبدو أن الجرعة المضاعفة من الدعاء فى أعقاب صلاة الفجر قد آتت مفعولها، فمد الرجل الطيب يده يصافحنى إيذانا لى بالانصراف مطمئّنا أنه لا شىء مطلوب منى لا تحت الترابيزة ولا فوق الترابيزة، ثم دخل واستأنف أكل الشطيرة (الشطيرة لا الشاطر ولا المشطور ولا الطازج الذى بينهما يا مفترين الكذبَ على المجمع اللغوى مثلما يفترى الكذبَ على المقاومة والمتدينين المسلمين من يواطئون أمريكا على إجرامها وفحشها) .

سبحان الله ! وأين كان هذا الرجل الطيب من البداية؟ ولماذا لم يخطر لأى من الذين تعاملت معهم على مدار السنتين وزيادة الماضيتين أن يفكر بهذه الطريقة العبقرية والبسيطة والعادلة فى آن؟ وكيف يستطيع هذا الرجل الطيب الجالس فى الأرشيف أن يحل المشكلة بتلك المهارة وتلك الثقة، ولا يستطيع الموظفون المختصون والمديرون الذين فوقهم واللجان التى تشكلت لبحث هذا الملف النووى أن يصنعوا مثل صنيعه؟ بل كيف استجابت الموظفة لتوجيهه ولم تأخذها العزة بالإثم فتصر على موقفها، ومن لا يعجبه الكلام فليشرب من البحر (الشارب هو أنا بطبيعة الحال، أم هناك رأى آخر؟) ؟ حكمتك يا رب! تضع سرك فى أضعف خلقك!

أخذنى الكلام فنسيت أن أقول لكم إنهم، عندما شكلوا لجنة لدراسة حالتى، كلفونى أن أدور على كل المجلات المصرية (والحمد لله أنْ لم يطلبوا منى أن أدور أيضا على مجلات الوطن العربى كله) وأحضر من كل منها بيانا بما يمكن أن أكون قد أخذته منها من مكافآت (أى بصريح العبارة "كعب دائر")، ولكنى اكتفيت بالمجلات التى تعاملتُ معها فعلا لا كل المجلات كما طلبوا، وإلا لكنت لا أزال إلى يومنا هذا أجمع تلك البيانات ومعى عسكرىّ أُمّىّ لا يعرف الرحمة ولا يمكن التفاهم معه: ننتقل من قطار إلى قطار، ونرتحل من قسم شرطة فى كل محافظة إلى آخر وقد رُبِطَت يده بالقيد الحديدى فى يدى كيلا أهرب قبل أن أدفع الأحد

عشر جنيها وكُسُورا التى كانت فى ذمتى للحكومة والتى كانت كفيلة بإصلاح أحوال ميزانية الدولة آنذاك، فإن أحدا لا يدرى أين تكون البركة حسبما قال سيدنا رسول الله! كما نسيت أيضا أن أخبركم أننى لم أغادر مأمورية الضرائب فى ذلك اليوم إلا بعد أن مزقت البطاقة الضريبية ستمائة ألف حتّة بعدد الحِتَت التى دعا السودانىُّ (المفقوعُ المرارة مما وقع له من سرقة محفظته فى قلب القاهرة) أن يمزق الله دولة السودان ومصر إليها بعد أن كان يهتف من أعماق قلبه قبلها مباشرة وبعُلُوّ حِسّه أن السودان ومصر حِتّة (هِتّة) واحدة! ثم رميتها بعد ذلك فى صندوق الزبالة كما لا أحتاج أن أقول. وكان هذا آخر عهدى بكتابة شىء فى أية مجلة مصرية بفلوس، اللهم إلا المقال الوحيد الذى أشرت إليه قبل قليل. ثم ألغيت الضرائب على الكتب والمقالات بعد ذلك بقليل! عجايب! بعد خراب بصرة؟ أما كان من الأول؟".

وهذا المقال واحد من مقالات كثيرة مشباكية تتميز بالطول حتى ليبلغ المقال الواحد عشرات الصفحات، وقد يزيد عن مائة صفحة، بل أحيانا ما يصل لعدة مئات من الصفحات. وساعدنى على هذا أن الإنترنت لا يرفض طلبا لأى كاتب، علاوة على أن المواقع التى تنشر لى كانت تتفهم هذا الوضع وتفسح صدرها لما أكتب كموقع جريدة "الشعب" و"واتا" وغيرهما، علاوة على موقعى الشخصى ومدونتى، اللذين انتهى الأمر بإغلاقهما: الأول لأن الهاكرز قد وضعوا فيه فيروسا أفزع القراء بالإعلان الذى يحذرهم من دخوله تجنبا للضرر، والثانية لا أدرى السبب فيه. بل حاولت أن أصمم مدونة أخرى أنا وبعض المتحمسين لكتاباتى، ففشلنا. وقد كان بعض القراء الأعزاء أنشأوا لى ركنا على الفيس بوك لا يزال شغالا حتى الآن، وأنشر فيه بنفسى بين الحين والحين بعض ما أكتب، فضلا عما ينشرونه هم مشكورين. وكان هناك قراء، وإن كانوا قليلين، ينتظرون مثل تلك المقالات التى تحتاج قراءتها إلى أشخاص يتقنون سباقات الماراثون القرائى. وقال لى بعضهم إنهم ينتظرون المقال من الجمعة للجمعة، وما إن يظهر حتى يعكفوا عليه من الصباح إلى الغروب. وقد جمعت كثيرا من تلك المقالات أو الدراسات بالأحرى وأصدرتها فى كتب ضخمة منها: "ست روايات مصرية مثيرة للجدل"

و"أفكار مارقة" و"موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين- دراسة لرواية "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد، و"تيس عزازيل" ليوتا" مثلا .

وكان د . لطفى عبد البديع رئيس القسم آنذاك، رحمه الله، قد كلفنى أنا وبعض المعيدين الآخرين من زملائى بآداب عين شمس أواسط سبعينات القرن الماضى بالقيام بتعليم طلاب القسم قواعد اللغة العربية من نحو وصرف، فأبهجنى ذلك إبهاجا كبيرا، وأقبلت على تعليم الطلاب قواعد لغة الضاد، منتهجا نهجا جديدا تمثل فى تكليفى لهم بإحضار صحيفة "الأخبار" الصادرة يوم المحاضرة معهم ليقرأوا معى عمود أنيس منصور: "مواقف" واحدا بعد واحد بصوت عال، وكلما وقع القارئ فى غلطةٍ رَفَعَ زميلُه الذى يتنبه إلى تلك الغلطة يده وصحح له خطأه. كما كنت أقوم أنا نفسى بقراءة النص مع تعمد ارتكاب بعض الأخطاء، على أن يقوم من يلاحظ أخطائى بتصحيحها . ثم لم أكن أكتفى بهذا، بل أكلفهم بأن يكتب كل منهم بضعة سطور فى موضوع أقترحه عليهم، ثم يقرأ كل منهم ما كتب مراعيا قواعد النحو والصرف، وإذا أخطأ نبهه زملاؤه. وفى أثناء ذلك نقف قليلا إزاء بعض أبواب النحو وقوفا سريعا للتذكرة فقط. ورغم أن كثيرا من الطلاب والطالبات كالعادة شرعوا يتغيبون كراهية لبذل الجهد وتوخِّى الجِدّ فقد قال لى، بعد وقت طويل، بعض من كانوا يحرصون على الحضور ثم صاروا معيدين فدكاترةً بالقسم إنهم كانوا يستمتعون بتلك الطريقة الجديدة، وإنهم قد استفادوا كثيرا منها .

وقد حصلت على درجة الماجستير عام ١٩٧٤م عن أطروحتى الخاصة بمحمود طاهر لاشين الروائى والقصاص المعروف. وأعطتهانى اللجنة بتقدير "ممتاز". وكان د. شوقى ضيف هو الذى اقترح علىَّ هذاالموضوع، فقبلته شاكرا، واستمتعت بالكتابة فيه أيما استمتاع. وسجلتُ لدرجة الدكتورية بعدما اخترت أن تكون رسالتى عن الشاعر الأموى الفرزدق، الذى أخذت أقرأ ديوانه وأخباره وترجمته هو وبعض الشعراء المعاصرين له كالأخطل وجرير لمدة عامين قبل أن ترسلنى جامعتى إلى أكسفورد للحصول على درجة

الدكتورية فى موضوع آخر غير الفرزدق. كما درَّست للسنة الأولى من قسم اللغة الإنجليزية قبل أن أسافر فى بعثة بريطانيا مباشرة مادة "اللغة العربية"، فأعطيتهم، ضمن ما أعطيتهم من عناصر مقرر المادة، رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، ورواية "عمالقة الشمال" لنجيب الكيلانى، وحللتهما معهم مثلما حللت باقى عناصر المقرر. ويمكن أن يجد القارئ تحليل الروايتين المذكورتين فى كتابى: "فصول من النقد القصصى". وأعطيت أيضا نص المازنى الذى يتحدث فيه عن بعض ذكرياته مع ابنته الصغيرة التى ماتت، وكذلك قصيدة "العودة" لإبراهيم ناجى للفرقة الأولى من قسم اللغة الفرنسية التى دخلت لها بعض المحاضرات على سبيل الاحتياط. ولكنى للأسف لم أحتفظ بما كنت كتبته عن هذين النصين من تحليل أدبى.

إلا أننى حتى الآن ما إن أقرأ نص المازنى حتى يجيش الدمع فى عينى رغم أن المازنى لم يشر من قريب أو بعيد إلى دموع أو أحزان، بل اكتفى بسرد بعض الذكريات المجردة، التى لا يمكن أىَّ إنسان (أقول: "إنسان"، وضَعْ تحتها مائة خط) أن يطالعها دون أن يغلبه البكاء. منك لله يا مازنى! ولكن كيف يمكن أن نتصور العبقرية شيئًا آخر غير هذا؟ وهذا هو المقال العجيب:

"في بعض الأحيان أكون جالسا إلى مكتبي قبل طلوع الشمس، وأمامي الآلة الكاتبة أدقّ عليها وأرمي بورقةٍ إِثْرَ ورقةٍ، وإلى جانبي فنجان القهوة أرشف منه وأذهل عنه، فأحس راحتَيكِ الصغيرتين على كتفي، فأدير وجهي إليكِ، وأرفع عيني لأصبّح على بستان وجهكِ، وأستمد من عينيكِ النجلاوين وافترار ثغركِ النضيد ما أفتقر إليه من الجَلَد والشجاعة، وأرفع يديَّ فأطوّقكِ بذراعيّ، وأُلِمّكِ في حجري، وأضمكِ إلى صدري، وألثم خدك الصابح، وأمسح على شعرك الأثيث المرسل على ظهرك وجانب محياك الوضيء، وأتملى بحسنك، وأنشر في كهف صدري المظلم نور البشر والطلاقة، فتدفعين ذراعك الغضة، وتتناولين ببَنَانك الدقيقة ورقةً مما كتبتُ وترفعينها أمام عينيك، وتتخذين هيئة الجدّ الصارم، وتُفِيضين على نفسك السَّمْحة العطوف، وأنت مضطجعة على ذراعي، سَمْتًا وأبهة يغريان بالابتسام.

وأنا أنظر إليك وفي قلبي سكينةٌ وجَوًى من قربك المعطّر بمثل أنفاس الروضة الأُنُف في البُكْرَة النَدِيّة، وألمح شفتيك الرقيقتين تختلجان، وعينيك تلمعان، فتطيب نفسي بسرورك الصامت، ثم أسمع ضحكتك الفضية، وأراك تغطين وجهك الحلو بالورقة، فيستطيرني الفرح ويستخفّني الجَذَل، ولكني أتظاهر بالخوف على الورقة التي لا قيمة لها أن يمزقها أنفك الجميل، فترمين رأسك على ذراعي، وينسدل شعرك الذهبي المتموج كالستار، وتصافح سمعي من ضحكاتك العذبة موجات لينة، ثم تعتدلين على ساقي وتدفعين ذراعيك فتطوّقين بها عنقي، وتجذبين وجهي إليك، ولكنك تشفقين على رقة شفتيك من خشونة خدي، فتلثمين أذني الطويلة، وتعضينها أيضا، فأصرخ، فتثبين إلى قدميك خفيفة مرحة وتخرجين بعد أن خَلَّفْتِ في صدري انشراحا، وفي قلبي رضا، وفي روحي خفة، وفي نفسي شُفُوفا، وفي عقلي قوة، وفي أملي بسطة واتساعا، وفي خيالي نشاطا، فأضطجع مرتاحا وأغمض عيني القريرة بحبك، ثم أفتحها على:

صَيْدٍ حُرِمْنَاه على إغراقنا   في النَّزْعِ، والحرمانُ في الإغراقِ

إي والله لولا الإغراق ما كان الحرمان. وهل هو إلا الشعور به من الإسراف في الرغبة، واللجاجة في الطلب؟ بل أفتح العين على جثة صغيرة حملتُها بيديَّ هاتين إلى قبرها وأنزلتُها فيه، ووَسَّدْتُها التراب بعد أن سويتُه لها بكفي ورفعت من بينه الحصى الدِّقَاق، ثم انكفأتُ إلى بيتي جامد العين، وعلى شفتيّ ابتسامة متكلّفة، وفي فمي يدور قول ابن الرومي:

لم يُخْلَق الدمع لامرئٍ عبثًا   الله أدرى بلوعة الحَزِنِ

وتدخل عليّ زوجتي لتحييني تحية الصباح، فأتلقاها بالبشر والبشاشة، وأَهِمّ بأن أحدّثها بما كبر في وهمي قبل لحظة. ولكني أزجر نفسي وأردها عن التعزي باللفظ. ولو أني شرعت أحدثها بشيء من ذلك لما فرغتُ. فما أخلو بنفسي قط إلا رأيتني أستطيب أن أتخيل فتاتي على كل صورة وكل هيئة وفي كل

حالة، ويحلو لي أن أُفْشِي بيني وبينها أحاديث في كل موضوع من جدٍّ وهَزْلٍ، ويسرني أن أسمع نكتها، وأراني أستملح فكاهتها، وأنتحلها فيما أكتب، وأضحك أحيانا بصوت عال، بل أقهقه غير محتشم.

فإذا تعجَّبَ لي داخلٌ متطفلٌ عليَّ في هذه الخلوة المحببة إلى نفسي رفعت له وجها كالدِّرْهَم المَسِيح، وهربت من الجواب الذي يطلبه بعينه أو لسانه، وتركته يظن بعقلي ما يشاء. وماذا أقول له؟ في وسعي أن أكذب، فما لِبَاب الكذب مفتاح. ولكن الكذب ينغِّص علي المتعة التي استفدتها من الحوار الذي كان يدور بيني وبين حياة".

الله الله الله الله الله! والله يا مازنى لو لم تكن قد تركت خلفك سوى هذا المقال لكفاك خلودا فى عالم الأدب والإبداع! لقد نسختُ هذه السطور فى هذه المذكرات الآن من كاتوبى حيث كنت أحتفظ بها لحين الحاجة إليها، فلم يتسن لى أن أقرأها لأن كل ما فعلته هو مجرد النسخ واللزق. لكنى عدت فقلت لنفسى: ولم لا تعيد قراءتها الآن بعدما ألصقتَها لتجدد العهد بها ولترى أستُبكيك هذه المرة أيضا بعد أن أبكتك كثيرا من قبل أم لا؟ ثم شرعت أقرأ وأنا متماسك حتى إذا ما تغلغلت فيها ألفيت صدرى يعلو ويهبط دلالة على قرب انفجار العاصفة، ثم إذا بى بعد لحظات أبكى كما هو حالى فى كل مرة. وأنا الآن أتساءل: متى يا ترى كان أول عهدى بذلك النص العبقرى العجيب؟ أغلب الظن أننى تعرفت إليه فى مقرر "اللغة العربية" الخاص بالتوجيهية عام ١٩٦٥- ١٩٦٦م مع قصيدة "العودة" لإبراهيم ناجى، تلك القصيدة البديعة التى قلما يوجد لها فى آداب الأمم المختلفة نظير، والتى قررتُها هى أيضا إما على طلاب قسم اللغة الإنجليزية فى السنة المذكورة أو على طلاب قسم اللغة الفرنسية قبل ذلك كما سبق أن قلت قبل قليل، ثم قررتها بعد ذلك بزمن طويل على طالبات جامعة قطر، وإن لم أترك لها تحليلا مكتوبا البتة مع استحقاقها لمثل هذا التحليل، فهى درة شعرية نفيسة قلما نجد مثلها فى أى أدب من آداب الأمم:

هذه الكعبةُ كُنّا طائفيها   والمصلّين صباحًا ومساء

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها　　كيف بالله رجعنا غرباء

دارُ أحلامي وحبي لَقِيَتْنا　　في جمودٍ مثلما تلقى الجديدْ

أنكرتْنا، وهي كانت إن رأتنا　　يضحك النور إلينا من بعيدْ

رَفْرَفَ القلب بجنبي كالذبيحْ　　وأنا أهتف: يا قلب، اتئدْ

فيجيبُ الدمعُ والماضي الجريح:　　لِمَ عُدْنا؟ لَيت أنّا لَم نعُدْ

لِمَ عُدنا؟ أوَ لَم نَطْوِ الغَرَامْ؟　　وفَرَغْنا مِن حنينٍ وأَلَمْ؟

ورَضِينا بسكونٍ وسلامْ　　وانتهينا لفراغٍ كالعَدَمْ

أيها الوكر، إذا طار الأليفْ　　لا يَرَى الآخرُ معنًى للسماءْ

ويَرَى الأيام صُفْرًا كالخَريفْ　　نائحاتٍ كرياح الصَّحْراءْ

آه مما صنع الدهر بنا!　　أو هذا الطلل العابس أنتْ

والخيال المطرق الرأس أنا؟　　شَدّ ما بِتْنا على الضنك وبِتّ

أين ناديكَ؟ وأين السَّمَرُ؟　　أين أهلوكَ بساطًا وندامَى؟

كلما أرسلتُ عيني تنظرُ　　وَثَبَ الدمع إلى عيني وغامَا

موطنُ الحسن ثَوَى فيه السأمْ　　وسرت أنفاسه في جوّهِ

وأناخ الليل فيه وجَثَمْ　　وجَرَتْ أشباحه في بهوِهِ

والبِلَى أبصرتهُ رَأْيَ العِيَانْ　　ويداه تنسجان العنكبوتْ

صحتُ: يا ويحك! تبدو في مكان　　كل شيء فيه حيٌّ لا يموتْ

كل شيءٍ من سرورٍ وحَزَنْ　　والليالي من بهيجٍ وشَجِي

وأنا أسمعُ أقدامَ الزمن　　وخُطَى الوحدة فوق الدَّرَجِ

رُكْنِيَ الحاني ومغنايَ الشفيقْ وظلالَ الخلد للعاني الطَّلِيحْ
علم الله لقد طال الطريقْ وأنا جئتك كيما أستريحْ
وعلى بابك ألقي جَعْبَتي كغريبٍ آبَ من وادي المِحَنْ
فيك كَفَّ الله عنى غربتي ورسا رحلي على أرض الوطنْ
وطني أنتَ، ولكني طريدْ أبديُّ النفي في عالَم بؤسي
فإذا عدتُ فللنجوى أعودْ ثم أمضي بعد ما أُفْرِغ كأسي

وأقول فى ناجى مثل ما قلته فى المازنى، إلا أننى قبل هذا وذاك لا بد أن أتجه إلى الله فى علاه بالثناء والحمد على ما أنا فيه من نشوة علوية الآن، فهو خالق البشر وخالق ناجى والمازنى والعبقرية والإبداع والقدرة على الاستجابة لهذا الجمال والارتعاد له والبكاء منه والراحة بعد هذا البكاء. سبحان الخالق المبدع! والحق أننى أرثى لأمة العرب، التى لا تقرأ ولا تعلم شيئًا عن هذه المنن الإلهية ولا تُوليها أى اهتمام لو افترضنا المستحيل وقُدِّر لها أن تشعر بها. إنها لا تستطيع أن تتذوقها، بل لا تستطيع أن تلتفت إليها مجرد التفات. وكيف تلتفت إليها، وهى ليست طعاما يؤكَل أو شرابا يُجْرَع أو قميصا يُلْبَس أو لُبًّا يُقَزْقَز أو تبغا يُدَخَّن؟ أمَا إنك يا عم إبراهيم لرجلٌ فاضٍ ليس لديك ما يشغلك، فنراك تريدنا أن نهتم مثلك بهذه السخافات والتفاهات التى تضيع وقتنا الثمين ولا تعود علينا من ورائها أية جدوى. لعل الله أن يشغلك بشىء ينفعك فى حياتك بدل هذا الفراغ القاتل الذى لا تعرف كيف تستفيد به.

وكنت قد تزوجت فى صيف ١٩٧٥م، وبعدها بعام تقريبا كنت فى طريقى إلى لندن، وحدى أولا لمدة شهرين إلى أن لحقت بى زوجتى. وكان هناك حمل، لكن الجنين مات قبل نزوله، وكان بنتا وصفت لى أمها شعرها بأنه غزير فآلمنى هذا الوصف كثيرا، وقضينا فى شقتنا وقتا عصيبا كله حزن، وبخاصة بالليل. وكنا فى منطقة منعزلة عن الناس من حولها لا نسمع إلا أصوات الخفراء وضرب النار بين الحين والحين خوفا

من لصوص مواد البناء، إذ كانت منطقة مسورة تحتوى على مقادير هائلة من الحديد المسلح والأسمنت وما إلى ذلك مما يغرى اللصوص بالسطو والسرقة، ثم من الله علينا ببنت أخرى فى أكسفورد سميناها بذات الاسم الذى كنا ننوى تسمية البنت السابقة به، وعوضنا الله بها عن أختها التى نرجو منه سبحانه أن يجعلها شفيعة لنا يوم القيامة وتأخذ أمها، ومعها أبوها فوق البَيْعَة (يا رب!)، بحبلها السُّرِّىّ إلى الجنة كما يقول رسولنا العظيم، وهو ما لا يوجد له مثيل فى أى دين من الأديان: سماوية كانت أو أرضية. قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده إن السِّقْط لَيَجُرّ أمه بسَرَرِه إلى الجنة إذا احتسبَتْه". بل إن هناك حديثا آخر أكثر تفصيلا، وإن لم يكن بنفس قوة الحديث السابق، وهو حديث عجيب ليس له، ككثير من أمور الإسلام العظيم، مثيل فى أى دين آخر: "إن السِّقْطَ لَيُرَاغِمُ رَبّهَ إذا أَدْخَل أبويه النارَ، فيقال: أيُها السِّقْطُ المُراغمُ ربَّه، أَدْخِلْ أبويكَ الجنّةَ. فيَجُرُّهما بسَرَرِه حتى يُدْخِلَهما الجنة".

نعم عندى أمل فى أن أدخل الجنة، لا بعملى بل برحمة الله. ذلك أن العمل قد يصح وربما لا يصح، أما الرحمة فلا يمكن أن يلحقها أدنى شك. وكثيرا ما أدعو الله قائلا: "لا حساب ولا عقاب ولا عتاب، بل دخول للجنة بغير حساب". والله عند ظن عبده به، وأنا لا أتوقع منه عز شأنه إلا خيرا، فهو غنى عن تعذيب عباده، ورحمته سبقت غضبه، وسماحته وسعت كل شىء، وهو يغفر الذنوب جميعا، وقد خلقنا ضعفاء، وفتح لنا باب التوبة طوال اليوم والليلة على مصراعيه دون إغلاق، وهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وهو الغفور الرحيم. ومن جهتنا نحاول التزام الجادّة ونجتهد فى ذلك ونأخذ حياتنا مأخذ الجد، ولكننا لا ندعى ولا يمكن أن ندعى العصمة، بل نخلط عملا صالحا وآخر سيئا، وإن لم يكن بمقدورنا أن نعرف نسبة كل من العملين إلى الآخر. فاللهم رحمتك وعفوك ورضاك.

وقد قامت الحكومة بإلحاقنا، نحن المبعوثين المصريين عام ١٩٧٦م بمعهد بريطانى فى إمبابة لتعليم الإنجليزية لمدة ثلاثة شهور كى تؤهلنا للتفاهم السريع بمجرد وصولنا إلى لندن. وكانت لغتى الأجنبية الأولى

هى الفرنسية بخلاف زملائى كلهم فيما أذكر. ولاشك أننى قد استفدت كثيرا من هذه الدروس، إذ هيأتنى للكلام بتلك اللغة، وإن كان بطريقة مكسرة وبطيئة ومضحكة. ولكن كما هو معروف: شىء خير من لاشىء. كما أنه لا يوجد شىء فى الدنيا يتم للتو واللحظة، فالله قد خلق الدنيا فى ستة أيام. وأى أيام؟ إن كل يوم منها إنما هو دهر طويل، وليس أربعا وعشرين ساعة. ومن وقائع تلك الأيام أننى تناقشت وزميل لنا ممن كان يدرس الإنجليزية فى المعهد البريطانى معنا، وكان متخصصا فى العلوم الطبيعية، حول الموضوع التالى: أيهما أهم فى الإسلام؟ الصلوات النافلة أم القراءة؟ أما أنا فأكدت أن القراءة أهم لأنها فرض، على العكس من صلوات السنة، إذ السنن لا ترقى إلى مرتبة الفروض. بيد أنه ظل متشبثا بالرأى المخالف.

وعند وصولى إلى مطار لندن شرعت أتلفت حولى لأستوعب الأوضاع هناك كيما أرى الفرق بيننا وبينهم، فشاهدت، ضمن ما شهدت، عاملا من عمال المطار يسير مجدا فى طريقه وبيده قطعة شكولاتة، فاهتممت أن أنظر لأعرف ماذا سوف يفعل بغلاف الشيكولاتة بعد أن يأكل ما فيه، فألفيته بعدما انتهى من أكلها يبقى الورقة فى يده ولا يلقيها على الأرض، فسرنى هذا التصرف، وإن كنت فى طريقى من المطار فى الحافلة التى أقلتنى إلى محطة فيكتوريا قد لاحظت أن جانب الطريق ليس خاليا تماما من بقايا الأوراق الصغيرة، إلا أن نهر الطريق ذاته كان نظيفا تماما. وقد خيبت قطع الورق المتناثرة على جانب الطريق ظنى، إذ كنت أتصور أن بريطانيا نظيفة تمام النظافة. ومع هذا فإن مصر لا يمكن أن تصمد للمقارنة معها ولو لثانية. إلا أننى كنت أحن رغم ذلك إلى مصر حنينا طاغيا، وحين انتهيت من دراستى وقضيت الشهرين اللذين قيل لى إن من حقى قضاءهما فى بريطانيا على حساب الوطن عدت إلى مصر وقلبى يسبقنى لأفاجأ بعد وصولى بقليل أننى صرت أفكر فى بريطانيا أنا وزوجنى تفكير المَشُوق ونحلم بها ونتمنى العودة إليها، ولكن دون دراسة ووجع دماغ وتعب قلب.

وبعد بلوغى محطة فكتوريا بوسط لندن ذهبت إلى المكتب الثقافى المصرى، فأعطانى الموظف بعض العناوين لأدبر أمرى فى المبيت بأحدها . وهو تصرف سخيف منه لأن هذه كانت أول مرة أذهب فيها إلى تلك البلاد، وكانت لغتى ضعيفة. وقال: حين تعود هنا غدا، وكان الغد جمعة، فسوف تقابل زملاءك، فيأخذونك معهم وتسكن مثلهم فى المدينة الجامعية. وفى ذلك اليوم قابلت رجلا إنجليزيا فى الحافلة طلبت منه المعاونة فلبى عن طيب خاطر، واصطحبنى إلى حانة هناك وطلب لى زجاجة كوكاكولا، ثم طلب لى زجاجة أخرى مشكورا، فلم أملك إلا أن أقدم له، كفاءَ كَرَمِه الذى لم أتوقعه، علبة الجلاش التى لم أحضر من مصر سواها، فقبلها شاكرا. ثم أجرى اتصالا هاتفيا ببيت شباب فيما أذكر أركبنى بعده سيارة أجرة زود سائقها بعنوان الهوستيل (بيت الشباب) الذى اختاره لى لأقضى فيه ليلتى. وهناك بعد أن استقررت فى الغرفة التى خصصوها لى سألت فتاة الاستقبال عن الطعام، فأجابتنى أنهم لا يقدمون سوى الفَطُور. أما العشاء فعلىَّ تدبير أمره بنفسى. ثم اقترحتْ أن أسير إلى نهاية الشارع مرورا بالمسجد لعلى أن أجد دكانا لا يزال مفتوحا (إذ كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة أصيلا) فأشترى منه بعض الطعام.

وهنا تركت كل ماقالته الفتاة الهادئة مما فهمتُه، وما أَقَلَّه، وما لم أفهمه، وهو الأكثر، وشَبَطْتُ فى كلمة "المسجد" قائلا فى نفسى: لن تضيع يا أبا خليل، وعندك مسجد ! ولما حاذيت المسجد وجدته بناء ضخما جدرانه وسقفه من الخشب، وكان فى مرحلة التشييد لا يزال. وهناك وقفت أمام نافذة زجاجية ونظرت بالداخل، فوجدت شابا أسود فيه بعض ضخامة، فنقرت على الزجاج، ففتح وطلب منى أن أَدْخُلْ. فقلت له: أنا مسلم، وأبحث عن محل أو مطعم أبتاع منه طعاما، فكرر الإجابة أَنِ ادْخُلْ. فأعدت الكلام بأننى إنما أريد طعاما، فكرر الرد أَنِ "ادخل، وسوف أقدم لك طعاما". فقلت له: فى المسجد؟ قال: نعم فى المسجد. وهنا رقصت عصافير بطنى بعدما كانت تصيح وتصرخ وتلطم خدودها وتشق جيوبها وتنعى حظها، ولولا الحياء لرقصت أنا أيضا .

وبعدما دخلت وتوضأت وصليت وجدت أمامى أطباقا مملوءة بخيرات ربنا من أرز وبامية فيها نوع من اللحم أكلته فوجدته سمكا، إلا أنه كان لذيذا جدا. والطريف أننى كلما حكيت القصة لطلابى وطالباتى فى الجامعة كان رد فعلهم رسم كل علامات النفور والاشمئزاز على وجوههم وشفاههم. لكن لا ينبغى أن ننسى أننى كنت جوعان جدا، والجوع يضفى على أى شىء نأكله جاذبية وسحرا مهما كانت تفاهته. كما أننى قد علمت حينذاك أن دكاكين بريطانيا تغلق بعد الخامسة أو الخامسة والنصف بما يعنى أن من الممكن جدا أن أقضى بقية اليوم، ثم الليلة بكاملها، دون طعام. كذلك لا ينبغى أن ننسى أنه قد سبق لى قبل ذلك بسنين أن طعمت صراصير البحر مع صديقى اليابانى دون أن يحدث لى شىء. كما كنت أرى زميلا لى فى المدينة الجامعية من أندونيسيا يأكل البرتقال أبو صرة بعد أن يغمسه فى الملح مستغربا استغرابى لما يفعله. ثم لِمَ تستغربون أن يكون الله قد حَلَّى فى فمى طبق البامية بالسمك، والله على كل شىء قدير؟

وقد أخبرنى مُدَثِّر، وهذا اسم الشاب النيجيرى صاحب طبق السمك بالبامية، أن أهل الخير من السيدات العربيات حين يأتين إلى المسجد يتبرعن ببعض المال، فيصنع منه طعاما للعابرين من أمثالى. تعيش السيدات، ولْيبارك الله فى السيدات، ولْيغفر الله للسيدات، ولْيسعد الله السيدات، اللاتى لولا عطفهن وكرمهن لمات المسكين، الذى هو أنا، فى ذلك اليوم جوعا. من قال إن النساء سيئات؟ إخص على من يقول عنهن هذا حتى لو كان القائل هو أنا. أيعيب عاقلٌ هؤلاء اللاتى جعلهن الله زينة الدنيا وبهجتها ومتوليات أمر طعامها وشرابها، وغير طعامها وشرابها؟ إنه إذن لغبى جهول! وصدق من سماهن: "الجنس اللطيف"؟ إنهن القوارير، بينما نحن البلاليص!

ولو كان الشدياق مكانى لوضع فى فضلهن هذا كتابا يخلّدهن طَوَال الدهر وجلس عند أقدامهن يتغزل فيهن ويقول فى حمدهن والثناء عليهن وعلى حلاوتهن وجمالهن، لا على باميتهن وسمكهن، الشِّعْر الجميل الذى يرى، وأنا معه تماما، أنهن يستحققنه. أما العبد لله فإنه يكتفى بالدعاء لهن من أجل السمك والبامية،

والله أعلم بالسرائر وما تكنه. وهو سبحانه وتعالى قد أمر بالستر، فلا داعى للفضائح! آهاه! لقد نسيت شيئًا آخر مهما، ألا وهو أن مدثر قد شفع تلك الغدوة الشهية بإصبع أو اثنين من الموز الذى يعادل الإصبع منه سباطة كاملة من موزنا القزم، إذ كانت الموزة فى حجم الذراع. وأرجو أن تمرروا لى تلك المبالغة، فلا شك أن الجوع قد أدار رأسى فلم يعد عندى تمييز. وكان الموز غاية فى الحلاوة وطيب الرائحة. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أستلطف مَوْزَنا الصغير الذى تصادف أن رأيت فلما هناك يظهر فى أحد مشاهده محمود ياسين وهو يمسك منه أثناء جلوسه على المائدة موزة فى حجم الإصبع الصغير، فسألت زوجتى: ما هذا الشىء الذى يمسكه الرجل فى يده؟ فقالت ضاحكة: إصبع موز. فلم أُرِدْ أن أصدق ما تقول بسهولة. والعجيب أنه كان يحركه وهو يتكلم مستعينا به على توضيح ما يقوله لبطلة الفلم الجالسة معه على المائدة، فاستغربت أنه لا يخجل من الإمساك بهذه الموزة المتقزمة ولا يسارع إلى القذف بها فى شدقه كى يدارى هذا العار.

ولما وصلنا إلى لندن انتظمنا فى معهد آخر لاستكمال تأهيلنا اللغوى. وكنت قد تأخرت فى السفر فلم أرافق زملائى عندما غادروا مصر، بل سافرت بعدهم بعدة أسابيع لبعض الظروف التى لا أتذكرها الآن، وكانت ظروفا رسمية فيما أتصور. وبعد وصولى إلى لندن بعدة أسابيع نقلونا إلى ميناء هيستنجز حيث استأنفنا التأهل اللغوى فى معهد آخر، وسكن كل منا مع أسرة بريطانية حتى نكتسب القدرة على التفاهم بلغة جونبول ونعيش فى الجو الإنجليزى. ومن هنا كان القرار بعدم اصطحابنا لزوجاتنا معنا فى البداية. وكان كل شىء يتم فى سلاسة ويسر ودون مشاكل أو لخبطات، إذ من الواضح أن كل أمورنا قد خُطِّطَ لها تخطيطا سليما ودقيقا لا يعرف الارتجال والعفوية والتخبط الذى نعرفه فى بلادنا. وهذا بلا شك ثمرة من ثمار الحضارة المتقدمة.

وقد لاحظت أن الأمور كلها تسير فى كل مكان ببريطانيا على هذا النحو حتى لأذكر أننى، فى السنة الأخيرة، وقد قضيتها أنا وأسرتى فى لندن، قابلت فى المنطقة التجارية بشرق لندن حيث كنت أسكن،

مبشرا روسى الأصل يوزع الكتاب المقدس على الرصيف بعدد من اللغات المختلفة، فأخذت منه نسخة بالإنجليزية وأخرى بالعبرية أملا فى أن أتعلم العبرية بعد عودتى إلى مصر حتى أستطيع أن أقرأه بها . ولما لم أجد نسخا بالعربية صارحته برغبتى فى نسخة من الترجمة العربية للكتاب المقدس، فما كان منه إلا أن أخرج نوتة وقلما وسجل ذلك، قائلا لى: تعال إلى هنا الأسبوع القادم فى مثل ذلك الوقت بالضبط، وسوف تجد معى نسخة فى انتظارك. وهو ما كان. لم يقل لى إنه قد نسى، أو فُتْ علينا غدا يا سيد، أو أى شىء من هذا القبيل الذى تجرى عليه حياتنا ببلادنا فى كل المجالات. يا رب، اجعل بلادنا مثل بريطانيا فى التقدم الحضارى. آمين!

وكان من نصيبى الإقامة فى هيستنجز مع أسرة مكونة من رجل ذى أصل إسبانى وامرأة بريطانية، ومعهما بنت فى المرحلة الابتدائية اسمها شارون من زوج المرأة السابق وولد رضيع اسمه آدم كان يبكى كثيرا لعيب خلقى فى خصيته، إن كنت فهمت ما قاله لى أبوه، إذ كانت إنجليزيتى فى ذلك الوقت المبكر شديدة الضعف. وكان معى فى البيت شاب إيرانى أصغر منى أرسله أبوه إلى بريطانيا ليحصل على البكالوريوس اسمه إسماعيل. وكان لطيف المعشر، ولكنه لم يكن يصلى أو يصوم، إلا أنه كان يعرف أحكام الدين فى هذه الأمور جيدا . ومن ذلك ما شرحه لى من أن المسح على اليدين فى التيمم لا يتطلب، كما علمهم الشيخ فى إيران، مسح الذراعين كلهما كما هو الحال فى غَسْل الوضوء، بل المطلوب هو مسح اليدين فقط حتى الرسغين. وكنت قد تعلمت فى الفقه الشافعى أن مسح اليدين يعنى مسح الذراعين بالكامل قياسا على ما يحدث مع الماء . وقد سارعت، حين سمعت من إسماعيل هذا الكلام، فتلوت الآية الخاصة بالتيمم فلم أجد فيها كلاما عن الذراعين بل عن اليدين فحسب على عكس آية الوضوء، التى تنص نصا على غسل الأيدى حتى المرافق، فبدا كلامه مقنعا . ومن عجب أنه، كما قلت، لم يكن يصلى أو يصوم. لكننى انتفعت بما قال. كما كانت تنزل عند تلك الأسرة وتتعلم معنا الإنجليزية فى نفس المدرسة فتاة فرنسية أصغر منا فى

السن صِغَرًا واضحًا، فكانت تُقْبِل علىّ فى المدرسة وتحدثنى وتتعامل معى بلطف وفرحة، حتى إذا كنا فى المنزل شعرتُ بها تبتعد. أتراها كانت حريصة على ألا تغضب الأسرة، التى قد تكون لاحظتْ أن ربها أو ربتها لا ترتاح لى لأننى أصلى وأصوم مثلا؟ مجرد تساؤل.

ذلك أننى كنت حريصا، بقدر إمكانى وفهمى فى ذلك الوقت، على ألا يصدر عنى ما يضايق أحدا حتى إننى كلما استحممت توخيت أن أنظف الإسفنجة والبانيو مما يكون قد عَلِق بهما من شعيرات انفصلت عن جسمى، على عكس إسماعيل، الذى كان يتصرف حسبما يحلو له، وحتى إننى كنت أؤجل إفطارى فى رمضان لحين تناول الطعام مع الجميع بعد نحو ساعتين كيلا أرهق ربة البيت. ومع هذا لاحظت أن رَبَّتَىِ الأسرة كانا يستلطفان إسماعيل أكثر. فمن ذلك أننى وإسماعيل، فى اليوم الأول لتركيب السنترال هيتنج (التدفئة المركزية) بالمنزل، كنا فى غرفتى نسمر ونتناقش، فشعرنا أن الجو حار لا يطاق، فقام هو وخفض درجة الحرارة فى جهاز التدفئة. ثم إنى فى اليوم التالى سألت ربة المنزل عما ينبغى أن أفعله إذا ما أحسست بشدة الحرارة فى غرفتى، فقالت ما معناه أننى ينبغى ألا ألمس شيئا، بل علىّ أن أعود إليهم حتى يتصرفوا هم، وإلا أفسدتُ الجهاز. فرددت عليها بعفوية: لكن إسماعيل قام بتخفيض درجة الحرارة دون أن يحدث شىء. وفى الحال وجدتها تنهض من مكانها كمن أصابتها لوثة، حقيقة لا مجازا، وتبكى بعصبية غريبة قائلة إننا بهذا سوف نهدم البيت، أو كلاما بهذا المعنى. ومع هذا لم تظهر هى أو زوجها شيئًا من هذا الغضب لإسماعيل، بينما أَبدَيَا الضيق نحوى.

وكان هذا من أغرب ما صادفت فى حياتى. ولما شكوت لبعض زملائى سلوك المرأة نحوى، وسلوك زوجها بالتبعية، قال لى زميل ممن يظنون أنهم قطعوا السمكة وذيلها، وليس غشيما مثلى، إننى لم أفتّح عينى مع الزوجة كما ينبغى. فاستغربت ذلك ضاحكا. ثم عدت فنظرت إلى المسألة من زاوية فكاهية قائلا فى نفسى إن المرأة، وإن لم تكن قبيحة، فهى أيضا عادية وليست جميلة تُغْرِى، فضلا عن أنها أكبر من أمثالى

سنا . وإنى لأذكر أيضا أنها، فى بداية إقامتى معهم، قد سألتنى عن زوجتى وهل معى صورة لها أو لا، فأريتها صورتها التى كنت أحضرتها ضمن حاجيّاتى، فتأملتها برهة ثم ردتها لى.

وقد وقعت بعض الطرائف المزعجة أثناء إقامتى مع تلك الأسرة: فمنها أن ربة البيت كانت تقدم لى فى السَّحُور كل ليلة مربى أو عسلا حتى ضاق صدرى بهذا اللون الطعامى الذى لا يتغير، والذى أجده كل ليلة على المائدة حين أستيقظ لتناول السَّحُور، ففاتحتها برغبتى فى شىء من التغيير. مثل ماذا؟ قلت لها: بيضتان مثلا . قالت فى ضيق واضح: ألست تحب السكر وتطلب أن يكون الشاى (باللبن والله!) حلوا؟ قلت: وهل معنى ذلك أن أظل آكل المربى والعسل على الدوام؟ قالت: لكن البيض غال. فقلت فى سرى: ماذا أقول لبنت الفرطوس هذه؟ ثم توكلت على الله قائلا فى نفسى: هى مَوْتَةٌ أم أكثر؟ وأكدت لها أن ثمن المربى والعسل هو نفسه ثمن البيضتين. فاقتنعت ونزلت أخيرا على رأيى بعدما ظننت أن روحى ستطلع قبل أن أنجح فى زحزحتها عن عنادها وتيبُّس مخها . كما لاحظت أنهم ينادون إسماعيل بـ"إشماعيل" (بالشين) فأبديت دهشتى، فغضب الرجل منى وكأننى قد طعنته فى عِرْضه. وهذا إن كان الطعن فى العِرْض يزعجهم فى شىء! ثم نسمع من يقولون إن الإنجليز دائما أهل سياسة ودهاء من طراز رفيع! لا، يا سيدى أنت وهو، ليس دائما، وإن لم تصدقونى فاسألوا مدام جونزاليش وزوجها ذا الصوت الهادئ الصادر عن فمه وأنفه معا، والعينين اللتين لم أكن أرتاح لنظراتهما، وما هما إلا مجرد مثال!

وأخيرا ذهبت إلى أكسفورد، وكان أحد الموظفين فى مكتبنا الثقافى بلندن قد أعطانى عنوان دارس مصرى قديم فى تلك المدينة أوصانى أن أتصل به حال وصولى حتى يساعدنى فى التعرف إلى المدينة إلى أن تستقر أقدامى فيها بصفته أقدم منى فى الجامعة هناك. وقد اتصلت بالزميل المذكور متلهفا على مقابلة مصرى مثلى فى تلك المدينة التى لا أعرف ولا يعرفنى فيها أحد، وأحتاج إلى من يزيل عنى مرارة الغربة فيها، وبخاصة أن لغتى الإنجليزية كانت ضعيفة لا تساعدنى على العوم فى بحر المجتمع هناك. إلا أن الزميل

المذكور واعدنى أن يلتقى بى بعد يومين. ولما تقابلنا وجدت أنه لم يكن يبعد عنى إلا بعرض شارع واحد، فدهشت من طول أناته فى ضرب الميعاد. ومع هذا فقد استقبلنى هو وزوجته استقبالا طيبا، وقدمت لى السيدة بعض الشطائر المنزلية اللذيذة وعصير البرتقال. وقد استسمحته أن أصلى العصر عنده فسمح مشكورا. ولما أعلنت عن رغبتى فى الاتصال به مرة أخرى قال إنه سوف يقوم هو بهذا الاتصال، فلا ينبغى أن أشغل نفسى بالأمر. ثم لم يحدث أن اتصل بى مرة أخرى طوال السنوات الست التى قضيتها فى بريطانيا.

ومع ذلك فقد تقابلنا بالمصادفة فى وسط المدينة ذات ضُحًى بعد مجىء زوجتى، فأخبرنى أنه ينتظر صديقا له يشتغل فى السلك الدبلوماسى المصرى بسويسرا دخل حانة هناك يأخذ كأسا. وأكد لى دون أن أسأله أنه هو نفسه لا يشرب. ثم افترقنا، ولم ير أحدنا الآخر إلا أثناء استعدادنا نحن الدارسين المصريين بأكسفورد لحفل عشاء أردنا أن نقيمه لأساتذتنا البريطانيين. وقد انقسمنا طائفتين: طائفة تقول إننا لن نقدم للأساتذة إلا الطعام والعصائر، وطائفة قالت: بل لا بد أن نقدم لهم خمرا ما داموا يشربون الخمر. وكنت أنا من الطائفة الأولى، وهو ذات الموقف الذى وقفته زوجتى بين زوجات الدارسين المصريين، على عكس زوجة صاحبنا، التى قالت لزوجتى وبقية النساء إنها، حين تدعو أحدا من الأساتذة إلى بيتها، تعمل كل ما من شأنه إرضاؤهم وإدخال المسرة على قلوبهم بما فى ذلك تقديم الويسكى. ثم رأيت صاحبنا نفسه يشرب الخمر فى إحدى الحفلات. إذن فلم قال لى ما قاله عن صديقه الذى يعمل بسفارتنا فى سويسرا؟ وقد تذكرت صَلاَتى فى بيته، فعزوت إليها السبب فى نفوره من قيام معرفة بيننا، وعرفت أنه كان يكذب علىَّ حين صور نفسه فى صورة الكاره للمشروبات الكحولية.

وفى أول حفل جامعى أشارك فيه، وهو الحفل الذى يستقبلون فيه الطلبة الجدد فى بداية العام، كان هناك عشاء قُدِّم لنا فيه أرز ولحم، وكان قبالتى قسيس الكلية يأكل فى طبقه مشغولا بطعامه دون أن ينظر إلينا. وكانت قطعة اللحم التى فى طبقى كبيرة، وكنت شديد الجوع، إذ كنت أعيش عيشة العَزَب، إذ لم

تكن زوجتى قد لحقت بى بعد، إلا أننى أردت أن أستوثق من أن اللحم ليس خنزيرا . وتصادف أن كان جالسا بجوارى شاب أصغر منى من لبنان اسمه محمد، فسألته: كيف لى أن أعرف أن اللحم ليس لحم خنزير؟ فاستمهلنى حتى يشم الطبق، ثم قربه إلى أنفه دون أن يبدو عليه التحرج، ثم أعلن بكل ثقة أنه خنزير. كل ذلك، وعمنا القسيس ولا هو هنا، وإن كنت متيقنا أنه معنا بكل خلجة فى أعصابه. وإنى لأسأل: ألا تعرف الجامعة أننا مسلمون؟ فلم قدموا لنا لحم خنزير إذن؟ لقد كان البريطانيون يحتلون بلادا إسلامية كثيرة، وعندهم مستشرقون ومبشرون يعرفون كل شىء عن الإسلام وأتباعه، فأين غاب هذا كله عنهم؟

وقد تكرر هذا الأمر مع زوجتى حين كانت فى المستشفى بعد ذلك بشهور أثناء الحمل، إذ وجدتْ قطعة اللحم التى قدمت لها فى الغداء أكبر حجما مما يقدم لها من اللحم كل يوم. ثم اكتشفت أنه لحم خنزير رغم أنها كانت قد أخبرتهم بأنها مسلمة لا تأكل هذا النوع من الطعام ردا على سؤالهم لها لدن دخولها المستشفى. ولما راجعتْهم يومها بخصوص الخنزير اعتذروا، واستبدلوا به قطعة لحم حلال، لكنها كانت أقل حجما بكثير. وإنى لأتصور أنهم يفكرون على النحو التالى: فلنقدم لهم الخنزير، وحينئذ إما أن يأكلوه خجلا من الرفض، أو يأكلوه جهلا ثم يكتشفوا فيما بعد أنه خنزير. وفى الحالتين سيكون الجدار العالى والسميك الذى بين المسلم والخنزير قد انهدم، وهو مكسب ليس بالقليل. أما إن أصر المسلم على عدم أكل الخنزير فما أسهل أن نقول له بكل أدب واحترام: "آسفون! لقد فاتتنا هذه المرة، ولن نكررها بعد ذلك"، فيقبل عذرنا عن تلك الغلطة. ويا دار، ما دخلك شر!

وفى ليلة الحفلة تلك، فيما أظن، كانت عودتى إلى البيت برفقة طالبة بريطانية صغيرة تسكن فى الطابق الذى يقع أسفل شقتى بمنزل تابع للجامعة أنزلونى به مؤقتا إلى أن تلحق بى زوجتى من مصر. وقد سألتنى ونحن فى طريق العودة عن معنى كلمة ". . ."، فاستغربت استغرابا شديدا، وسألتها: من أين لك بهذه الكلمة؟ قالت: من ابن الملك حسين، فقد كان زميلا لى فى المدرسة الثانوية. أما الكلمة التى سألتنى

الطالبة الصغيرة الآتية لتوها من المرحلة الثانوية فهى اللفظ العامى الذى يطلق على عضو الذكورة، وإن كانت قد نطقته بالذال لا بالزاى. ولست أستطيع الآن أن أتذكر ماذا فعلتُ للخروج من ذلك الموقف المحرج. لكننى دهشت أن يكون هذا هو مستوى أبناء الحكام العرب. وهذا طبعا لو كان ما قالته البنت صحيحا، ولا أستبعد أن يكون.

وما دمنا فى هذه السيرة فقد فوجئنا بعد ذلك بسنتين أو نحو ذلك بخبر فى صحيفة محلية توزع مجانا فى أكسفورد وتقوم على الإعلانات مُفَادُه أن أميرا سعوديا يدرس فى جامعة أكسفورد للحصول على الدكتورية قد تُوُفِّىَ فى مسكنه، ولم يكتشف وفاته إلا سائقه البريطانى، الذى لم يكن أميرنا يختلط بأحد سواه، ويسكر معه. وسر دهشتى هو أن يكون مثل هذا الأمير موجودا معنا فى الجامعة فلا يكلف نفسه الاتصال بزملائه من أمثالنا نحن صفوة الأكاديميين فى العالم العربى، مفضلا الاختلاط بالسائق الإنجليزى. وكان رأيى أن هذا هو المستوى اللائق بذلك الشاب، فهو لا يصلح لنا، بل يصلح لطبقة السائقين، فضلا عن أنه لا يهمه العلم فى قليل أو كثير بقدر ما يهمه الخمر والسكر وما يرتبط بالخمر والسكر والسائقين.

وكنا فى البداية أنا وزوجتى نشعر بحنينٍ طاغٍ إلى مصر، وكلما فكرنا فى أننا سوف نبقى فى بريطانيا نعانى هذا الحنين أربع سنوات نزداد غما، فلا نجد ما نتعزى به فى ليالينا الطويلة حين يضيق صدرى بالقراءة سوى لعب الورق رغم أننا لم نكن من محترفيه، بل كنا سذجا نريد التسلى لا غير. والحمد لله أننا لم نكن نعرف أننا سنبقى فى بريطانيا ست سنوات لا أربعا، وإلا كنا قد جُنِنَّا. وكنت أتلقى دروسا خاصة فى اللغة الإنجليزية مع مدرسة أمريكية هى مسز أَدَمِكْ قامت بيننا وبينها صداقة، فكانت تزورنا هى وابنها دوجلاس، ومعهما سيدة أسكتلندية، فنقضى أمسية جميلة تبدأ بعشاء شهى مما تبرع فيه زوجتى وتظل السيدتان تعربان عن سعادتهما بما فيه من ألوان الطعام اللذيذة، فتنشرح زوجتى لذلك الإطراء، وتستمر الأمسية فى الحديث والعصائر وما إلى ذلك. وكانت تلك الزيارات تشكل لى أنا وزوجتى فرصة لممارسة الحديث

بالإنجليزية واكتساب بعض التعبيرات الجديدة وتطبيق ما نعرفه عبر الكتب من لغة جونبول بدلا من قبوعها فى أمخاخنا خاملة لا تُسْتَخْدَم وبقائها مجرد معلومات نظرية لا جدوى منها .

وبناء على هذا الاعتبار كنت حريصا على دعوة من أستطيع دعوتهم إلى بيتنا من أجل الغرض نفسه. ومن ذلك أننى دعوت شابا أمريكيا فارعا تعرفت إليه فى حجرة الطلاب بالجامعة، وقدمت له زوجتى إحدى عشرة شطيرة من ألوان الطعام المختلفة. وحين قابلته ثانى يوم كان ما قاله لى تعليقا على العزومة إننا نحن المصريين نأكل كثيرا . خيبة الله عليك من أمريكانى جربان ! أأنا الذى أكلت الأحد عشر ساندويتشا أم أنت؟ ومثله حدث مع أحد أساتذة الجامعة الذين دعوناهم فى اللقاء المذكورآنفا ، إذ بعدما أكل ما لذ وطاب من الكفتة والكباب لم يجد ما يعقب به على الكرم المصرى سوى الملاحظة السخيفة بأننا نأكل كثيرا ، مع أنه كان ممتلئ الجسم قبل أن يأكل أكلنا . بالله قولوا لى: ماذا نفعل مع هؤلاء المكشوفى الوجه؟

وفى الأيام الأولى من وصول زوجتى إلى أكسفورد وقعت حادثة غريبة، فبينما كنا نتمشى فى الهاى ستريت، وهو أحد الشوارع التى تأخذك إلى خارج أكسفورد ويؤدى إلى لندن، مارين أمام بنك هناك، إذا بنا نجد الرصيف مرشوشا بخمسات جنيهات إسترلينية جديدة يصعب عدها ، وامرأة عجوز تجمعها ، وبجوارها شاب يسلمها ما يجمعه بدوره، فألفينا أنفسنا أنا وزوجتى ننحنى معهما ونساعد فى جمع ما تناثر على الرصيف من الخمسات الكثيرة جدا ، ونعطيها المرأة نزولا على ما كنا نرى الشاب يصنع، وبخاصة أنه قال لنا إنها أخبرته بأنها سوف تحمل المال إلى قسم الشرطة. وكان هناك مفتش حافلات واقفا أمام البنك لا يبالى بما يقع أمامه، فسألته عن الأمر فأجاب بأنه لا يعرف عنه شيئا وانصرف إلى شأنه وكأنه لا يرى شيئا مما يدور حوله. ثم فوجئت، عند الانتهاء من جمع الخمسات التى تجل عن الإحصاء وإعطائها للسيدة العجوز، بأنها قد أخذت المال وركبت حافلة عكس اتجاه قسم الشرطة. يا خيبتك يا خِلّ أنت وزوجتك !

لكن زوجتى كانت قد ارتابت فى كلام العجوز، وأبقت على "خمساية" معها، وهو ما أبى "شرفى المصرى" أن يقبله حتى لو أُرِيقَ على جوانبه الدم، فأخذتُها منها، فلم تملك إلا أن تسلمها لى نزولا على حكم التقاليد والأصول. ألست زوجها، وعليها الطاعة؟ وسألتُ مدرستى الأمريكية ماذا أفعل بها، فقالت لى ضاحكة: هاتها لى، ولا تشغل نفسك بالأمر. فقلت لها إننى خائف عليها من دخول النار، فأكدت لى ضاحكة أنها لا تخاف نارا ولا دياولو. الله يخرب بيت الشيطان، والشيطانة أيضا . فكدت أسلمها لها، لكن الأمر انتهى بوضعى "الحتة بخمسة" فى حصالة المسجد، الذى اقترحتُ ضاحكا على كبير المسلمين فى أكسفورد مستر أحمد بُولُوك أن نطلق عليه: "مسجد السيدة أكسفورد رضى الله عنها" . بركاتك يا طاهرة، يا شريفة! لكن الشيطان الرجيم أخذ يوسوس لى بعدها قائلا: ولماذا لم تسدد أول شىء لكمة إلى العجوز تطيرها بها من المكان وتستولى على الفلوس كلها ؟ ألم تسرق بريطانيا الملايين المملينة من مصر يوم كان للجنيه صولة وطولة، مما يساوى مليارات مثلثة بسعر اليوم؟ فماذا تكون تلك الخمسات إزاء هذه المليارات؟ إنها لا تشترى سوى "شوية" ترمس. فقلت له كما قالت له الست فايزة أحمد من قبل: ابعد يا شيطان، ابعد يا شيطان، ابعد يا شيطان! أم تريدنى أن أدخل النار؟ ثم أنحنى على حذائى أهم بقذفه به، فيجرى بعيدا عنى وهو يخرج لسانه ويأتى أشياء أخرى لا داعى لذكرها .

وفى الأسابيع الأولى لنا بأكسفورد كنت أنا وزوجتى نشعر بالملل والحنين القاهر الموجع إلى مصر. ومن بين ما لجأنا إليه لمواجهة الملل والحنين اجتماعنا مع بعض زملائنا العرب هناك ليلة الأربعاء فى بيت د . كمال أبو ديب قريبا من إدارة الجامعة بوسط المدينة، وكانت له زوجة إنجليزية. وكان يطلب من كل منا أن يحضر معه قطعة جبن رومى وزجاجة خمر، فاستسخفتُ هذا الطلب ولم أكن أحضر ولا حتى عصير ليمون أو برتقال كرد عملى على هذا الطلب الرذل اعتمادا على أنه إذا لم يكن على استعداد لتقديم مشروب حلال لضيوفه من بيته فلا داعى للاجتماع عنده أصلا .

وكانت تدور بيننا المناقشات مقبولة فى أول الأمر، إلى أن ثار بيننا نقاش حول الإسلام والنصرانية، فوجدت وجيه فانوس، الذى كان يقول إنه مسلم، وكان له ولد رضيع فى ذلك الوقت اسمه صبحى، والذى كانت زوجته تحضر معها فى كل مرة زجاجة خمر تتأبطها، ينتصر للنصرانية بحجة متخلفة هى أنه بينما يقول القرآن: "وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة. . ." بما يعنى أن القرآن مشدود إلى الماضى، إذا بالنصرانية تتحدث عن ملكوت السماوات، وهو أمر من أمور المستقبل. يريد أن يقول إن القرآن رجعى، والنصرانية ديانة مستقبلية. وهو ما استفزنى إلى الرد على هذا التخلف الأبله فى ثورة عنيفة بأن فى الكتاب الذى يقدسه النصارى كلاما طويلا ومفصلا عن قصة الخلق الأول، التى تقع فى أسحق زمان مضى، مثلما أن فى القرآن كلاما كثيرا جدا عن الجنة، وهى تمثل أبعد نقطة فى المستقبل. ثم تدخل أبو ديب، الذى كنت أظنه حتى ذلك الوقت من المسلمين، قائلا دون مناسبة إنه لما كان فى أمريكا ووجد لويس عوض يهاجم الإسلام انبرى يرد عليه مدافعا عن الإسلام رغم أنه هو نفسه نصرانى. وكانت هذه الليلة هى آخر ليلة أجتمع فيها مع إخواننا هؤلاء، لاحقا بزوجتى، التى كانت قد قررت قبل أسبوع ألا تأتى معى إلى تلك اللقاءات واصفة المكان بأنه وكر.

وسبب ذلك أن أبو ديب فى ذلك الاجتماع السابق مد يده دون أدنى إنذار بكأس لها، فقالت له: أنا مسلمة لا أشرب الخمر. فرد بقوله: وماذا يعنى هذا؟ إن كثيرا من المسلمين هنا يشربون الخمر. فعادت تقول له: ولكنى أصلى وأصوم. فاستمر فى ترديد عبارته البلهاء: وماذا فى ذلك؟ وهنا كان صبرها قد نفد، فثارت وصاحت تعنفه قائلة: أقول لك إننى مسلمة أصلى وأصوم، فتقول لى: وماذا يعنى هذا؟ ما الذى جرى لك؟ والواقع أننى كلما تذكرت تلك الليلة شعرت بالفخر لموقف زوجتى، التى تركتها تأكل الرجل أكلا وأنا مطمئن أنها ستلقنه درسا لن يضيع أبدا من ذاكرته، فأنا أعرف طبيعتها. وكانت تلك آخر مرة تذهب إلى تلك اللقاءات، ولحقت أنا بها بعد أسبوع.

وكان من رواد تلك اللقاءات أيضا زميلى بالجامعة عبد النبى صطيف، الذى لم أره يوما فى صلاة الجمعة بالمسجد رغم أنه كان يؤكد لى أنه لا يترك الصلاة أبدا، إلا أنه يصلى صلواته بالبيت، وإن كنت سمعت من طالب سورى آخر أنه نُصَيْرِىٌ، وليس مسلما . وكان صطيف من الفخورين دائما بالدكتور كمال أبو ديب، ويراه مفكرا وكاتبا كبيرا، أما أنا فقد اكتشفت منذ البداية، ثم تأكد لى فيما بعد، أنه سطحى لا يفهم النصوص ويدخل على موضوعه بآراء وأفكار مسبقة لا يستطيع أن يقدم برهانا على شىء منها سوى الرطانات الطنانة والمصطلحات الغامضة التى لا تعنى شيئا . ويمكن القراء أن يجدوا، فى كتابى: "المرايا المشوهة" بالفصل الثانى، شيئا من رأيى فى د . أبو ديب وما يسطّره.

وفى الفصل الدراسى التالى من العام الأول لى بأكسفورد التحقتُ بمدرسة "فرذر إيديوكيشن كولدج" بغية مزيد من تعلم اللغة الإنجليزية، ودخلت مباشرة مستوى "الفرست سرتفيكيت"، وهو المستوى الذى لا يصل إليه المتعلم إلا بعد ثلاث سنوات. وحصلت فى الامتحان على تقدير "A"، أى "ممتاز"، لأنتقل بعد ذلك إلى مستوى "البروفشيانسى"، الذى لم أقض فيه سوى فصل دراسى واحد من ثلاثة فصول، وحصلت فى امتحانه أيضا على تقدير "ممتاز" . وكان معى طلاب عرب يدرسون الإنجليزية طول عمرهم، وبعضهم كان يدرس بالجامعة الأمريكية فى بلده، وحصلوا على تقدير "C"، أى "جيد" . وكانت زوجتى تتعلم على حسابى فى ذات المدرسة التى أتعلم بها . كما كان هناك مدرس يأتى لتعليمها فى البيت بعد توقفها عن الذهاب إلى المدرسة المذكورة عقب إنجابنا يمنى، وكان يسهر معنا ونقدم له العشاء تعبيرا عن شعورنا بجميله، إذ كان يتقاضى "شوية بنسات" فى الحصة التى كانت تمتد لساعتين. وكان مستر نايجل نايت رجلا لطيفا لطيف الحضور. وكان يتمتع بصبر أيوب، ويصحح لى كذلك ما أكتبه من فصول الرسالة، فكان ينبهنى عادة إلى غلطة أو اثنتين فى الصفحة الفولسكاب. وأحسب أن الأمر على هذا النحو معقول جدا .

وقد ساعدنى على التفوق فى امتحانات اللغة الإنجليزية كثرة ما قرأته من كتب فى تعليم اللغة الإنجليزية حتى إننى أحصيتها فوجدتها تبلغ الخمسة والثلاثين. وكنت كلما انتهيت من كتاب انتقلت إلى كتاب أعلى. . . وهكذا. وبطبيعة الحال كانت هناك صعوبات ناشئة من اختلاف اللغتين ونظاميهما. فمثلا كنت إذا أردت أن أقول إننى كنت ألعب الكرة فى صغرى كل يوم عصرا أستخدم الماضى المستمر، فأقول: " I was playing"، فتصحح لى المدرسة الكلام إلى "I played". فأستغرب ولا أفهم السبب فى تصحيحها لما كتبتُه. ذلك أننا فى اللغة العربية نستخدم الماضى المستمر للتعبير عن هذا المعنى أيضا إلى جانب التعبير عن وقوع حدث فى الماضى فى الوقت الذى يقع فيه حادث آخر. وهو نفسه ما يفعله الفرنسيون فى لغتهم. وظللت فى حيرة من الأمر إلى أن تنبهت فى نوبة من نوبات الإلهام التى تحدث عادة على حين بغتة إلى أن اللغة الإنجليزية لا تستعمل الماضى المستمر إلا فى الحالة الثانية، كما أنها لا تستعمل الماضى البسيط للتعبير فقط عن وقوع حدث فى الماضى مرة واحدة، بل عن وقوعه باطراد بوصفه عادة من العادات أيضا، وهو ما يستعملون له كذلك التركيب التالى: "I used to play...".

ومن الأخطاء التى نبهنى فى البداية إليها الأستاذ المشرف علىَّ، وهو د. مصطفى بدوى أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة الإسكندرية سابقا، عدم تفرقتى بين "foreword" و"forward"، وتصورى أنهما كلمة واحدة هى الأخيرة، وبخاصة أن نطقهما نفس النطق. ومع هذا فلو سئلت عن مدى رضاى عن المستوى الذى أحرزته فى تلك اللغة بعد كل هذا التعب فى تعلمها أقول بملء فمى: لست راضيا عن نفسى. ولكن لا بد أن أضيف أيضا أننى لو كُتِبَ لى أن أبقى فى بريطانيا واشتغلت فى إحدى جامعاتها مثلا لوصلت فيها، فيما أتصور، إلى نفس مستواى فى اللغة العربية بغض النظر عن أن مستواى فى لغتى مرتفع أو لا.

وقد اخترت فى البداية أن يكون موضوع أطروحتى هو القصّاص عبد الحميد جودة السحار، ومضيت فيه نحو سنتين، إلا أن كليتى فى مصر اعترضت على هذا الموضوع قائلة إنها لا تريد أن أمارس بل أدرس

النقد القصصى، فأخبرت المشرف بأننى أريد تغيير الموضوع وصارحته بوجهة نظر الكلية، فكان رأيه أنى إذا ما أردت الاستمرار فى موضوعى الأصلى فسوف يقف إلى جانبى، إلا أننى رددت بأن كليتى هى التى تنفق على بعثتى، ومن ثم ينبغى تنفيذ ما تريد على طريقة "اربط الحمار فى المكان الذى يريده صاحبه"، وأن الأفضل المسارعة إلى تغيير الموضوع خشية من إصرارها على موقفها وتضييع الوقت من ثم سدى. وغيرت الموضوع بعد أن كان قد مر عامان ونصف من مدة بعثتى، لأكتشف أن الموضوع الذى اخترته قد حصل فيه قبل قليل باحث من مصر على درجة الدكتورية، فأرسلت أطلب من أحد أصدقائى فى مصر أن يوافينى بدراسته، التى كان قد أصدرها كتابا.

والحق أننى ما إن انتهيت من قراءتها حتى شعرت بما يشبه الإحباط، إذ أحسست أنه قد سد علىَّ الطريق والباب والشباك، ومواسير الصرف الصحى وبلاعاته أيضا. وكانت ليلة ليلاء، لكن ما إن بزغ نور الصباح حتى قالت ثقتى بنفسى كلمتها، وشعرتُ أننى "قادر ونصف" على أن أتعامل مع الموضوع وكأن أحدا لم يكتب فيه من قبل. وبالفعل وضعت خطة، واعتمدت منهجا، واخترت نقاط ارتكاز كانت ثمرتها دراسة مختلفة إلى حد بعيد عن دراسة زميلى، وكأننا نكتب فى موضوعين مختلفين. فالحمد لله. وقد استغرقت رسالتى حوالى ثلاثمائة وستين صفحة. وفى الشهرين اللذين بقيتهما فى بريطانيا عقب نجاحى فى مناقشة الرسالة فى أواخر يوليه ١٩٨٢م قمت بترجمتها إلى العربية، وأعطيتها عنوان "نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م".

وكنت قد قرأت للدكتور مصطفى بدوى كتابا عن الشاعر والناقد الإنجليزى كوليردج قبل أن أسافر إلى أكسفورد، وإن لم أكن أعرف وقتئذ أنه يشتغل فى جامعتها، بل كنت أحسب أنه يعمل فى مصر. فلما علمت أنه مشرفى سررت. ولا شك أننى قد أفدت منه كثيرا: الانضباط فى العمل، فهو يطلب منى مقابلته كل أسبوعين تقريبا ليتابع نشاطى ويرى مدى تقدمى فى عملى ويراجع معى ما كتبته من رسالتى وما إلى

ذلك. وهو يكتب ملاحظاته بدقة واهتمام، ويقف معى عند الدقائق يناقشنى فيها ويبدى رأيه بخصوصها. ومن ذلك مثلا أننى، قبل أن أغير موضوع الرسالة كما سبق أن شرحت آنفا، كنت أتناول ما قاله السحار فى بعض قصصه من أن بطلها قد انفصل عن زوجته، فترجمت العبارة إلى "He divorced her". إلا أن الأستاذ المشرف اعترض على ذلك قائلا إنه لم يطلقها بل انفصل عنها. فقلت له: وما الفرق؟ قال إن من الممكن انفصال الرجل عن زوجته دون أن يطلقها. قلت له: لكن هذا إنما يقع فى أوربا، أما عندنا فالانفصال يعنى الطلاق، وهو ما يرشحه السياق ويقصده السحار فيما هو واضحٌ بَيِّنٌ. لكنه أصر على تفسيره. ومع أننى لم أقتنع وقتها بما قال فلا شك أن الدقة تقتضى أن يلتزم المترجم بما جاء فى النص.

وبالرغم مما كان يبرز على السطح من اختلاف بيننا فى وجهات النظر تجاه الإسلام والحضارة الغربية لم تصل الأمور إلى درجة الصدام، بل كان كل منا يكتفى بإبداء رأيه فقط دون المسارعة إلى التصعيد. فمن ذلك مثلا أننا كنا، فى بداية التحاقى بجامعة أكسفورد، فى وسط المدينة ليلا ذاهبَيْن فيما أظن إلى أحد اللقاءات الجامعية، ولا أدرى السبب فى أن اتجه الحديث إلى ما يتهم المستشرقون به الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب الجهاد، فقلت ما معناه: هل كان الغربيون يريدون للرسول أن يقتله المشركون كما يعتقدون هم أنه قد حدث مع السيد المسيح كى يفركوا أيديهم عندئذ حبورا وسرورا؟ فكان رده: إن الأمر متوقف على ما نريده من النبوة: هل نريد صاحبها رجل حرب؟ أم هل نريده رجل سلام؟ ولا أظن إلا أن مقصده من الرد جَلِىٌّ تماما. ثم وجدته يشرب الخمر ويأكل الخنزير، ويباهى بالحضارة الغربية مباهاة شديدة، وألحظ عليه ضيقا خفيا إذا لم أرافئه على ما يقول مع أننى، علم الله، لا أنكر ما تتفوق فيه تلك الحضارة على الأوضاع البائسة فى بلادنا. لكنى إنما كنت أعارض ما أشعر به من أن الأمر ليس أمر مقارنة بين البلاد العربية حاليا وبين الدول الأوربية، بل بين الحضارة الغربية والإسلام نفسه، وبخاصة أن موقفه النافر من الإسلام واضح كما كنت ألاحظ دوما.

كما كان من رأيه أن اللغة العربية يناسبها الصوت العالى على عكس الإنجليزية، وأنه قد تنبه إلى هذا حين كان مبتعثا إلى بريطانيا ورأى زملاءه المصريين هناك يرفعون أصواتهم كلما تحدثوا بلغتهم، على عكس ما كانوا يفعلون حين يتكلمون الإنجليزية، إذ تنخفض أصواتهم تلقائيا . وقد استغربت هذا التفسير العجيب الذى لا يدخل العقل. ورأيى أنا العبد الغلبان أن الطلاب المصريين، حين يتكلمون العربية فى بريطانيا ، يعلمون تماما أن أحدا ممن حولهم من الإنجليز لا يعرف تلك اللغة، فكانوا دون أن يشعروا يرفعون أصواتهم على طريقة المصريين عموما ، اطمئنانا إلى أن أحدا لن يفهم ما يقولون، بخلاف ما لو كانوا يستعملون الإنجليزية، التى يعرفها الناس جميعا من حولهم.

ثم إن أهل الخليج، فيما لاحظت، أخفض صوتا منا نحن المصريين مع أنهم، بالله وتالله ووالله وتُرَبِ الكعبة وبكل ألوان القسم الأخرى، يتحدثون العربية مثلنا ، بل إنهم هم الذين اخترعوا العربية وسجلوها باسمهم فى الشهر العقارى. لقد كنت مثلا ألاحظ، وأنا واقف أنتظر دورى على صندوق الهاتف العمومى فى الطائف، أن الشاب الذى يتحدث أمامى مباشرة يتحدث بصوت جد خفيض حتى إننى أنا الذى أكاد ألتصق بقفاه لا أسمع مما يقول شيئا . وكنت أتساءل: كيف للفتاة التى على طرف الهاتف الآخر (إذ كان من الواضح أن المكالمة غرامية) أن تسمعه؟ على أن انخفاض صوت أولئك الناس ليس خاصا بالحديث الهاتفى فى الشارع، بل يشمل كلامهم داخل قاعات المحاضرة حين يكونون بانتظار الأستاذ الدكتور، على العكس مما نراه ونسمعه فى قاعات المحاضرات فى الجامعات المصرية، إذ يخيل لى وأنا داخل القاعة أننى أمام عشة فراخ. وفى قطر كان الأمر أكثر هدوءا بطريقة تثير استغرابنا نحن المصريين. بل كثيرا ما دخلت على البنات هناك فأجدهن صامتات لا تحدث إحداهن الأخرى، وهو ما كنت أعلق عليه مداعبا بل متهكما ، فيضحكن. فما رأى أستاذى د . مصطفى بدوى؟ وأذكر أننى قد أشرت إلى رأيه هذا وعقبت عليه تعقيبا سريعا فى أحد كتبى.

زد على ذلك أن إحدى بناته كانت تلبس فى عنقها الصليب. وذات مرة كان هو وأسرته ضيوفا عندنا، وكنا نتناول الطعام، فجاءت سيرة رمضان فأشرتُ إلى أن الصيام يدور مع دروان الفصول الأربعة: فمرة يأتى فى الصيف، ومرة يأتى فى الخريف، ومرة يأتى فى الشتاء، ومرة يأتى فى الربيع، فما كان من بنته ذات الصليب إلا أن علقت قائلة: "This is awful" . وهو رد غبى لا معنى له، إذ لا أستطيع ولا يستطيع أى عاقل أن يعرف لماذا ينبغى أن يكون هذا التنوع الزمنى فى الصوم "awful"، فعقبت قائلا إن المقصود بهذا هو أن يَخْبُر المسلمون الصيام فى كل الظروف والأحوال. وأمن أبوها على كلامى، من باب المجاملة على ما لاحظت. وهنا أود أن أوضح أن ذلك النوع من الزيارات كان يتم بطريقة شبه دورية، فكان هو يستضيف طلابه مرة فى العام، فتقدم زوجته الهولندية لنا طعاما لطيفا وترحب بنا ترحيبا دافئا، ونعزمه نحن بدورنا فى بيوتنا هو وأسرته. وكان هو يقيم فى قرية قريبة من أكسفورد فى بيت يعود تاريخ بنائه إلى فترة زمنية بعيدة نسبيا، وكان منخفض سقف البهو، وفى السقف مسمار حَدَّادِىّ يعتز به لأنه من الأدلة على عراقته. وقد شرح لنا مرة أن أحد ضيوفه قد انتقد وجود هذا المسمار غير واع بأهميته التاريخية، وهو ما ضايقه مضايقة شديدة. فضحكت فى سرى من ضيقه ومسماره وقلت فى نفسى: ولا مسمار جحا فى زمانه. ولم أقل له بطبيعة الحال شيئًا من هذا كيلا أزيده ضيقا.

وقد لاحظت أن بعض طلابه من العرب كانوا ينادونه فى الحفلات بـ"مصطفى" حافيا على الطريقة الإنجليزية، لكنى كنت حريصا على استعمال لقب "الدكتور" معه وعنه دائما جريا على التقاليد الإسلامية التى تحترم الكبير حتى لو كان ذلك فى حديثى مع زوجتى. يمكنكم أن تقولوا إننى أحبكها دون داع، لكن هذا لا يحرك فىَّ شعرة من الضيق، فهو فى أى الأحوال د. مصطفى بدوى، وليس مصطفى. هكذا تعلمنا الاحترام من أهلنا ومن ديننا مهما كان الاختلاف بيننا وبين الآخرين. وإذا كنت الآن لا أذكر فى العادة اسم أى من المعيدين الصغار إلا مشفوعا بلقب الأستاذ أو الآنسة أو الأستاذة، فما بالكم إذا ذكرت أستاذى الذى

أشرف عليَّ وأرشدنى طوال ست سنوات وتعلمت منه الكثير؟ ومن أقوال الحكماء: "عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به". بل إننى قد دافعت عنه مرة ضد ما عابه به أحد تلاميذه البريطانيين الصغار من أن إنجليزيته ليست كاملة، بل تظهر فيها آثار اللغة العربية، وعددت هذا لونا من العنصرية الإنجليزية. ولو كنت أُخَلِّى لمشاعرى الشخصية العِنَان لتركت الشاب البريطانى يقول فيه ما يريد دون أن أتدخل، بل لساعدته ضده. وعلى المستوى الشخصى كنت ألاحظ أن رائحته طيبة، ولم أشم ما ينفّرنى منه قط، كما كان دائما مهندما، وهى حسنة لا بد من ذكرها هنا.

وبالمثل كنت واعيا بأنه لا يحاول التدخل فى آرائى العلمية. كما كان يكرر أننى أَفْضَل منه درايةً بالموضوع الذى أدرسه، لأن هذا هو تخصصى، أما هو فوظيفته توجيهى منهجيا وعلميا ليس غير. وهذا أيضا معنى جميل وقيمة عظيمة لا يمنعنى ما كان ينشأ بيننا من اختلاف من ذكرها والإشادة بها. إلا أننى لا ينبغى أن أغفل ما وقع منه تجاهى من تقصير بل من إساءة حين لم يسند إلىّ إلقاء محاضرة علمية فى إحدى ندوات الجامعة على نحو ما فعل مع بعض زملائى رغم أن لغتى كانت أفضل من لغتهم، على الأقل: بمقياس امتحانَىِ "الفرست سرتفيكيت" و"البروفشيانسى" كما سبقت الإشارة. ولا شك أن هذا مما يُؤْخَذ عليه دون مراء، وإن لم يخلّف الأمر فى نفسى أثرا كبيرا، وكل ما أردته من ذكره هنا هو تكملة الصورة ليس إلا.

كما آخذ عليه أننى، حين طلبت منى الجامعة أن أترك السكن الطلابى الخاص بالمتزوجين وأبحث لى عن سكن آخر فى السنة النهائية لى بالبعثة بما يعنيه هذا من اضطراب حياتى فى وقت أنا أحوج ما أكون فيه إلى السكينة حتى أشطِّب رسالتى فى سلام وصفاء ذهن، قد لجأت إليه كى يكلم الجامعة فى تركى بالسكن الجامعى الشهور الباقية لى أسوة على الأقل بالزميل المصرى النصرانى الذى تركوه للسنة السادسة فى ذلك المسكن، لم يهتم بل كان إِلْبًا علىَّ مع الجامعة، وهو ما استدعى بحثى عن مسكن فى أكسفورد ثم لما

لم أجد بغيتى منه فى تلك المدينة وقراها مددت البحث إلى لندن حيث استقررت هناك السنة الأخيرة لى ببريطانيا فى بيت لرجل هندى مسلم بشرق العاصمة البريطانية.

ورغم ذلك كانت السنة الأخيرة لى ولأسرتى بالبعثة أكثر بهجة لأنى انتقلت فيها من أكسفورد الصغيرة الضيقة المجال إلى لندن الواسعة الهائلة التى تضم، فيما تضم، السفارة المصرية والمكتب الثقافى واتحاد الطلاب وهايد بارك والمسجد الكبير، والحافلة التى تقلنى من شرق لندن حيث كنا نسكن إلى وسط البلد فى ساعة كنت أهتبل فرصتها فى القراءة أحيانا والتمتع أحيانا أخرى بالنظر إلى الشارع الممتلئ حيوية وحركة من الطابق الثانى فى أوتوبيسات لندن المعروفة. ولتكميل الصورة أكثر قد ينبغى أن أقول إن أحد طلابى ممن صاروا زملاء لى فيما بعد قد حكى لى أنه لما ذهب يزور أكسفورد أيام كان فى مهمة علمية فى تسعينات القرن الماضى قابل د. بدوى وجاء ذكرى على لسانه، فلاحظ على وجه مشرفى القديم عدم ارتياح وأنه لا يحب أن يمضى فى الكلام معه عنى. هذا ما قاله التلميذ الزميل، والعهدة عليه. وقد حاولت هنا أن أرسم صورة له ولعلاقتى به محايدة على قدر ما أستطيع، ولعلى لم أظلم الواقع، أو لعلى لم أظلمه كثيرا.

كما وقعت بينى وبين مشرفى موقعة عنيفة ذات ضحى فى مكتبه بعد أن انصرم من زمن البعثة أكثر من نصفها، إذ كنت فى إحدى مقابلاتى الدورية معه، ونشأ بيننا نقاش فى موضوع من الموضوعات اختلفنا فيه، فظن هو أننى على غير الحق، وثار ما كان مستكنا وراسبا فى نفسه منذ وقت طويل، فقال ما معناه أننى بما أفعل إنما أضع نفسى فى وجه المدفع. يقصد أننى بهذا أضيع على نفسى الفرصة فى العودة إلى بلادى بالدرجة العلمية التى أُبْتُعِثْتُ من أجلها. فقلت له: لا مدفع ولا حاجة. ليس هناك سوى واحد فقط بيده قرار حصولى على الدكتوراه أو لا هو هذا الذى فوق. وأشرت إلى الأعلى ناحية سقف المكتب، قاصدا الله سبحانه وتعالى. فقال: هذا مجرد كلام تقوله. يقصد أننى أهوِّش أو لا أدرى أبعاد ما أتلفظ به. فعدت أؤكد كلامى قائلا: إننى لا أبالى حصلت على الدكتوراه أو لا، وأنا على استعداد لأن أشتغل تاجرا فى قريتى

فى الدكان الذى تركه أبى، والذى ينتظر أن نفتحه منذ عقود. فبدا عليه الاستغراب الشديد من الجنون الذى اعترانى طبقا لما يراه منى. ثم عاد يقول: يمكنك أن تكمل دراستك فى جامعة إكستر مع شعبان بدلا منى. يقصد د. محمد عبد الحى شعبان، الذى سوف أقول كلمة عنه بعد قليل. فقلت له ما معناه: لا شعبان ولا رمضان. دولتى أرسلتنى إلى أكسفورد، فإما أن أحصل منها على الدكتورية وإما أن أرجع بدون شهادة. فقال: خلاص. تسمع الكلام. قلت: أنت أول من يعرف أننى أشتغل بكل جدية. فبدا عليه الارتياح لجنوح الكلام إلى المسالمة بعد العاصفة التى لم يكن يتوقعها منى فيما هو واضح. واعتدل ميزان الأمر بيننا واستقام منذ ذلك اللقاء البركانى، فلم تحدث خلافات أو مشاكل حتى انتهيت أول واحد بين طلابه من الدكتوراه. وكان هو أول المهنئين لى حين نزلت من الطابق الثانى حيث الغرفة الصغيرة التى قضينا فيها أنا والمناقشان وحدنا دون أى جمهور أكثر من ساعتين انتهتا بأنْ بشرانى أنهما سوف يوصيان بمنحى درجة الدكتورية، وقدم لى عصير برتقال مرتين، أما هو فصب لنفسه بعض الخمر من زجاجة جميلة.

وأحب أن أوضح أن د. بدوى قد أحضرنى قبل اختيار المناقِشَيْن ليسألنى هل هناك اعتراض لى على أى منهما، موضحا أن لوائح الجامعة تقتضيه أن يسألنى هذا السؤال حتى إذا كان هناك من أعترض عليه منهما اسْتُبْعِد من المشاركة فى المناقشة، وإن لم يكن لى الحق مع هذا فى اختيار أى من المناقشين. فأجبته بأنه لا فرق لدىَّ بين مناقش وآخر، وليس لى أى اعتراض على أحد. ولا ريب أن هذا تقليد عظيم، على أقل تقدير: من حيث المبدأ، وإن كان البشر قادرين على تفريغ أى مبدإ جليل من مضمونه لو شاؤوا. إلا أننى فى ذات الوقت أرى أن الإنجليز بوجه عام أذكى من أن ينزلوا إلى هذا المستوى الخائب رغم أنهم بشر كبقية البشر فى نهاية المطاف. لكنهم يتسمون بالنزعة العملية، وهذه النزعة توجب عليهم ألا يفسدوا على أنفسهم ما تتمتع به جامعاتهم من سمعة طيبة بما يعنيه هذا من انصراف الطلاب الأجانب مع الأيام عنها إلى جامعات الدول الأخرى.

أما شعبان فهو د. محمد عبد الحى شعبان، ولم أكن سمعت به من قبل. وحين رفضت أن أحول الإشراف إليه طبقا لعرض د. بدوى إنما كنت أبين له أننى لا أبالى بما يهددنى به من طَرْفٍ خفىّ ولا أقبل أى حل والسلام، بل أحرص على حقى كاملا مهما كانت النتائج. ثم مرت الأيام، وانتهيت من كتابة رسالتى، فقابلت فى لندن زميلى عبد الحميد شيحة، الذى تطرق الحديث بينى وبينه إلى د. شعبان، لا أدرى كيف ولا لماذا، فألفيته يقول إنه يزعم فى كتبه أن النبى عليه السلام كان قاطع طريق. . . أو شيئًا بهذا المعنى. ثم مرت الأيام مرة أخرى وعدت إلى أرض الوطن حيث قضيت نحو خمسة أعوام وزيادة لأسافر فى إعارة إلى كلية التربية بالطائف. وذات ضحى كنت أبحث فى مكتبة الكلية عن رواية والتر سكوت: " The Talisman"، التى يتحدث فيها عن صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، فلم أجدها، ولكن وجدت اسم د. شعبان، الذى يبدأ لقبه بحرف "S"، يأتى بعد لقب سكوت فى بطاقات المكتبة. وهنا نظرت فوجدت كتابا له بعنوان "Islamic History"، فقام فى نفسى أننى سوف أعثر فيه على ما قاله فى حق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبالفعل وجدت ذلك فى أول فصل من فصول الكتاب حيث قرأت أن النبى لم يكن فى نظر د. شعبان إلا تاجرا يسير على خطا جده قُصَىّ وأنه إذا كان الأمر قد انتهى بإعلان النبوة وانتشار الإسلام فهذا مما لم يكن يدور له فى بال. . . إلى آخر هذه الأنغام الشاذة التى يبرع فى عزفها عتاة المستشرقين والمبشرين. وأنكى من ذلك أن الرجل لم يكلف نفسه الرجوع إلى أى مرجع عربى تقريبا . بل إن مراجعه الإنجليزية ذاتها كانت قليلة جدا، وتنحصر فى بعض المسائل الفرعية المكتوبة من وجهة نظر يسارية. زد على ذلك إهداءه الكتاب إلى وزير البترول السعودى، والمعنى فى بطن المؤلف. وقد أثارت هذه الأمور كلها استيائى ودفعتنى إلى ترجمة الفصل المذكور متبعا إياه بدراسته تبلغ ستة أضعافه حجما نعيتُ فيها انهيار المنهج العلمى على يدى المؤلف الشارد المسكين، ثم أخرجت ذلك بعد عودتى من السعودية إلى مصر فى كتاب بعنوان "ثورة

الإسلام– أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا: ترجمة وتفنيد" . ثم علمت بالمصادفة من المرحوم د . مصطفى الشكعة أن د . شعبان كان يَدْرُس فى أمريكا أيام كان هو مستشارا ثقافيا لمصر هناك، وأنه كان يشرب الخمر وما إلى هذا، وإن كان قد أضاف أنه قد عاد فى أخريات حياته إلى مصر ورجع يصلى. وقد فهم د . الشكعة هذا المعنى الأخير من إشارة إلى صلاة الجمعة وردت على لسان الرجل فى اتصال هاتفى بينهما ، مما استنتج منه أن الرجل صار يصلى . وكان د .شعبان قد مات قبل حديثى عنه مع الأستاذ الدكتور . وما دمنا قد بدأنا بولتر سكوت أحب أن أقول للقارئ إننى قد عثرت فى الدوحة على روايته التى كنت أبحث عنها فى الطائف، وقرأتها فألفيتها مملة ثقيلة الأسلوب طويلة الجمل على نحو مرهق. كما وجدت فيها سذاجةً ذكرتنى بسذاجة الروايات التاريخية التى ألفها جرجى زيدان وجرى فيها على طريقة سكوت.

وكنت فى بداية إقامتى فى بريطانيا قد ركزت اهتمامى على اللغة الإنجليزية وتعلمها وإتقانها ، وأهملت دون قصد منى اللغة الفرنسية التى كانت تمثل لغتى الأجنبية الأولى فى مصر، إلى الدرجة التى كربتُ فيها أن أنساها ، وظننتُ أننى لن أستفيد منها بعد ذلك أبدا . بيد أن الله الرحيم قد بث فى قلبى التحمس لها من جديد ، وصعب على نفسى أن أفقد لغة كنت أعرفها وكنت حريا لو اهتممت بها قليلا أن أستخدمها فى قراءة المصادر والمراجع، فأقبلت عليها كرة أخرى ودرستها من البدايات الأولى كأننى أتعلمها من جديد ، مستفيدا من تجربتى فى تعلم لغة جون بل، مما أثمر معرفة بها أفضل وأعمق. وقد أفدت، إلى جانب ذلك، من أن اللغتين تشتركان فى كثير من الألفاظ مع اختلاف النطق هنا عنه هناك، واختلاف شيات المعنى أيضا فى بعض الأحيان، إلى جانب أن بين اللسانين تعبيرات كثيرة مشتركة تبعا لتقارب الثقافتين وتمازج تاريخ البلدين وتقاربهما جغرافيا ، إذ لا يفصل بينهما إلا بحر المانش. وقد انتهيت إلى أنْ صار من السهل علىَّ القراءة بالفرنسية، التى طالعت بها كثيرا من الكتب والدراسات والمقالات مما لم أطالع عشر معشاره من قبل ولا كان فهمى له بنفس الاتساع والعمق. وهو ما أحمد الله عليه كثيرا، فلا ريب أن هذه نعمة جزيلة.

وقد كنت، وأنا أدرس الإنجليزية بالذات، واعيا بوجوه التشابه والتخالف بينها وبين لغة الضاد فى النطق والإعراب والصرف والنحو والصور البلاغية وما إلى هذا، مما كان عونا كبيرا لى حينما فكرت فى وضع كتاب فى الترجمة بعد عودتى بقليل من بريطانيا، إذ ألفت كتابا بعنوان "الترجمة من الإنجليزية- منهج جديد" قسمته قسمين: الأول عبارة عن مقارنة نظرية بين اللغتين، وضحت فيه الفروق بينهما فى بناء الجملة والأزمنة وبعض التراكيب كأسلوب الشرط، إذ لاحظت أن كثيرا من الكتاب المتسرعين غير المتعمقين يزعمون أن العربية لا تعرف ما تعرفه الإنجليزية من أزمنة كثيرة كالماضى البعيد والمستقبل البعيد مثلا، فبينت أن لغتنا تعرف ذلك كما تعرفه الإنجليزية، وربما أفضل، لكنها لكونها لا تخصص لذلك الموضوع بابا خاصا من أبواب النحو ظن المتسرعون السطحيون أنها متخلفة عن لغة جون بل فى ذلك. إنها مثلا تعرف باب "كان وأخواتها"، وهو باب لا تعرفه الإنجليزية. ولو كنا بارعين فى تسويق أنفسنا وثقافتنا لملأنا الدنيا ضجيجا بأن الإنجليزية لاتعرف فى نحوها هذا الباب، الذى لو وقفنا منه لدن "كان" وحدها وتنبهنا إلى أن مجىء خبرها مضارعا يعطينا على الفور زمن الماضى المستمر، كما هو الحال فى قولنا: "كان محمد يلعب (عندما حضر أبوه من السفر)"، وهو نفسه ما نستخدمه للدلالة على اطراد عمل ما أو تعودنا عمله فى الماضى (كان سعيد يذهب دائما إلى الكتاب فى طفولته بعد عودته من المدرسة)، مما تستخدم له الإنجليزية نفس زمن الماضى البسيط (Saeed went to...). أما إذا جاء خبر "كان" فعلا ماضيا فإن هذا يعطينا الماضى البعيد: "كان أحمد (قد) عاد من طنطا حين سأل أبوه عنه"... وهكذا. أما أساليب الشرط فيمكن الإشارة إليها على وجه السرعة كالآتى: "إذا استذكرت نجحت"، "إن تستذكر تنجح"، "لو كنت (قد) استذكرت لنجحت". وطبعا هناك تفاصيل أكثر من هذا لا تعرفها الإنجليزية.

أما الدعوى السخيفة بخلو العربية من "الأدفرب" فيُخْرِس صوتَ زاعميها إشارتُنا إلى اشتمال النحو العربى على أبواب ظرف الزمان، وظرف المكان، والحال، والتمييز، والمفعول المطلق، والمفعول لأجله، وهو

ما يقابل الأدفرب فى الإنجليزية والفرنسية. وواضح أن العربية هنا أغنى كثيرا من هاتين اللغتين. ورغم ذلك تجد فى أصحاب ذينك اللسانين استطالة زائفة علينا وعلى نحونا ولغتنا. ولهم كل الحق، فنحن نعانى منذ وقت طويل من أزمة ثقة بالنفس، وإن شاء الله نسترجع تلك الثقة المفقودة مع استرجاعنا مستوانا الحضارى القديم العالى. لكن متى؟ هذا ما احتارت البريّة فيه! ومن ناحيتى فإنى أفكر فى وضع نحو للغة العربية آخُذُ فيه هذه الاعتبارات فى الذهن عند تأليفه. فهل أنشط لذلك يوما قريبا؟ دعواتكم لى من فضلكم. وبالمناسبة فكثيرا ما أقول هذا وغيره للطلاب والطالبات الغانيات الذين تأتى منهم كل عام مجموعة ليتعلموا اللغة والثقافة العربية، وأجد لذة كبرى فى التدريس لهم مع بعض زملائى من القسم وخطاطٍ من خارج الجامعة يعلمهم تحسين الخط مما لم يعد له مكان فى النظام التعليمى الآن، فكانت ثمرته المرة أن معظم الطلاب حاليا يكتبون بخطوط شائهة قبيحة قميئة لا تكاد تُقْرَأ فى بعض الأحيان.

وقد طالعت فى أكسفورد ولندن كثيرا جدا من الكتب العربية والإنجليزية والفرنسية فى تخصصى وفى السياسة والتاريخ والإسلام واليهودية والنصرانية، وكذلك فى الأدب والنقد الإنجليزى والأوربى. وكانت مكتبة مركز دراسات الشرق الأوسط ومكتبة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية ومكتبة بريزنوز كولدج بأكسفورد، ومكتبة مدرسة السّيوَاس بجامعة لندن، ومكتبة أحد المساجد التى كنت أصلى فيها الجمعة بشرق العاصمة البريطانية حيث كنت أسكن فى السنة الأخيرة لى ببريطانيا، إلى جانب مكتبتى الحى الذى كنت أسكنه بشرق لندن ومكتبى الخاصة الخاصة، هى المصادر التى أحصل منها على ما أقرؤه من كتب. وقد اشتريت آلافا من الكتب ملأت أكثر من عشرين صندقا من صناديق الشاى الأبلكاش شحنتها إلى الإسكندرية وتسلم معظمها أخى، والباقى أحضرته معى. وقد تعلمت أن أحصل على الكتاب بأرخص الأسعار، فكنت أشترى الكتب المستعملة عادة. وكنت أبحث على الرفوف على أرخص نسخة من الكتاب المستعمل المراد شراؤه، إذ كثيرا ما يكون هناك تفاوت هائل فى السعر بين نسخة وأخرى. كما حصلت

على كثير من الكتب الجديدة فى التخفيضات السنوية التى تطرحها مكتبة بلاك وِلْ فى أكسفورد. وبعض الكتب اشتريتها من لندن وغيرها من المدن البريطانية. وبعضها اشتريته من بروكسل أو من باريس. وكثير من الكتب ابتعتها وأنا مارٌّ بإحدى المكتبات عَرَضًا فى هذه المدينة أو تلك كما هو الحال مثلا حين كنت أسير خارج سور حديقة هايد بارك، ففوجئت بمكتبة تعرض كالعادة بعض ما لديها من كتب على الرصيف، فنظرت فيها، فإذا بى أمام كتاب برتراند راسل: "تاريخ الفلسفة الغربية"، فاشتريته بحالة شبه جديدة بثلاثة جنيهات إسترلينية أيام كان الجنيه المصرى محترما. يا بلاش!

ومرة أخرى كنت مع زميل مصرى لى فى لندن، حين كنت لا أزال أسكن أكسفورد، فاشتريت طبعة ١٩٣٩م من الموسوعة البريطانية بعشرين جنيها. يا بلاشين! وفيها قرأت مادة "Pearls" حين أفزعنى ما فهمته خطأً من الآية الثانية عشرة من سورة "فاطر" التى تذكر أن الحلى موجودة فى البحار والأنهار كلتيهما، إذ ظننت كما يظن كثير جدا من الناس أنها لا تتوافر إلا فى المياه الملحة... إلى أن وقع نظرى، وأنا ضائق الصدر أشد الضيق فى غرفة مكتبى بالقاهرة، على الموسوعة المذكورة فألفيتها تذكر أن اللؤلؤ يتوافر فى الأنهار كما يتوافر فى البحار. ومن ثم فلو لم يكن لتلك الطبعة من فائدة سوى إمدادها لى بهذه المعلومة لكان هذا كفاء ما دفعته من ثمن فيها وزيادة. وقد وجدت نفس الليلة فى ترجمة القرآن للعالم الهندى الكبير عبد الله يوسف على ما يعزز ما تقوله الموسوعة البريطانية، فزادنى هذا ارتياحا على ارتياح. ثم وقع بعد ذلك فى يدى بطريق المصادفة المحضة كتاب "المنتخب فى تفسير القرآن الكريم"، وهو تفسير بسيط جدا يناسب القارئ المبتدئ فى ذلك المجال أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لأجد فيه بهامش الآية المذكورة أن هناك أنهارا فى روسيا والأورال ووسط أوربا وإسكتلندا والبرازيل يوجد فيها اللؤلؤ والألماس والسيليكون والزيركون والياقوت والذهب، فأثبتُّ ذلك كله فى كتابى عن "مصدر القرآن". وهذا الهامش وأمثاله من صنع

كبار المتخصصين فى العلوم الطبيعية فى مصر. وهو شىء يتميز به هذا التفسير الشديد البساطة، ولولاه ما كنت أقبلت عليه.

ولكى أزيدك من الشعر بيتا يا عزيزى القارئ أقول لك إننى اشتركت فى حلقة تلفازية على هامش أحد معارض الكتاب بأواسط تسعينات القرن الماضى مع د. زغلول النجار ود. مستجير عن الإعجازالعلمى فى القرآن الكريم، وكان من رأى الدكتور مستجير أن الكلام فى هذا الموضوع تعسف وتكلف، وأنه يكفينا فى تفسير الكتاب الكريم علوم اللغة والقرآن وما يجرى مجراها، فانبريت ألفت النظر إلى أن علماء التفسير الفطاحل المتبحرين فى اللغة والنحو وعلوم القرآن قد يخطئون فهم النص القرآنى، كما هو الحال مع الطبرى، الذى يعد بحقٍ أبا المفسرين جميعا وعمهم وخالهم وجدهم أيضا، فقد فسر قوله تعالى فى الآية المذكورة: "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغ شرابه، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ. ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها . . ." بما يفيد أن الحلى إنما تستخرج من البحر الملح فقط، وأن الكلام فى الآية إنما يقوم على التعميم، أى يذكر البحرين: الملح والعذب مع إرادة البحر الملح فقط، ناسيا بل متناسيا أن عبارة "من كلٍّ" لا يمكن أن تفيد التعميم بل لا بد أن يكون معناها هو أن الحلى تستخرج من كل من البحار الملحة ومن الأنهار العذبة. أما السبب الذى أوقعه فى تلك الغلطة البلقاء فهو أن معارف عصره لم تكن تعرف سوى ما قال، فكرره بقضه وقضيضه رغم أنف النحو واللغة. ولكننى استطعت أن أنجو من ذلك الخطإ الذى كنت أعتقد أنا أيضا صحته بالرجوع للكتب الحديثة التى لم تكن متوافرة له، رحمه الله، كالموسوعة البريطانية مثلا، التى لم أعد بحاجة إليها لاعتمادى الآن على طبعة ٢٠١٢م.

ومرة أخرى كنت أسير ذات ضُحًى صيفيٍّ فى شارع لندنى جميل ووجدت فى الكتب الموضوعة على رف أمام إحدى المكتبات بالشارع كتابا هنديا بالإنجليزية ينتصر لبوذا فى مواجهة الرسول الكريم، فأخذت أقلب صفحاته التى لم تكن تتجاوز الخمسين وألممت بزبدته ثم تركته ومضيت فى طريقى وأنا أقول:

حتى أنت يا هندى؟ لم يبق إلا بوذا تقارنه بالنبى وتنصره عليه؟ والحق أننى كلما تذكرت تلك الواقعة ندمت على أنى لم أشتّر الكتاب. ومما ندمت كذلك على أننى لم أحاول أن أقتنى نسخة أو صورة منه كتاب "Muhammad and Learning"، وهو من تأليف المستشرق البريطانى ن. ستيفن. وكنت قد استعرته من مكتبة الحى بشرق لندن، وقرأته أو قرأت بعض فصوله، فلفت انتباهى تحمس كاتبه لما يحتوى عليه القرآن والحديث من نصوص تتعلق بالعلم والتعلم يراها عجيبة غاية العجب، إذ تفوّق فيها الرسول على آخر ما توصلت إليه الحضارة الحديثة من مبادئ ومفاهيم.

فمثلا يقول إن أقصى ما بلغته المجتمعات الغربية فى عصرنا بعد كل ذلك التقدم الحضارى المذهل هو أن العلم قد صار حقا من حقوق الإنسان، فماذا قال محمد فى هذا الموضوع، محمد الأمى ابن المجتمع البدوى فى القرن السابع الميلادى أيام كانت الكنيسة تحرّم على أتباعها مجرد قراءة الكتاب المقدس؟ لقد قال إن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. فانظر إلى الفرق بين ما توصلت إليه البشرية بعده بأربعة عشر قرنا قطعتْ فيها ما قطعته من مراحل حضارية تدير الرؤوس كجعل العلم حقا للبشر بما يفيد أن من حق الإنسان الاهتمام بالتعلم أو إهمال هذا الحق تبعا لرغبته، وبين ما يقوله الإسلام من أن التعلم فريضة، وهو ما يعنى أنه لا بد لكل إنسان من أن يطلب العلم، وإلا حوسب حسابا عسيرا على إهماله تلك الفريضة، فضلا عن أن الإسلام لا يميز بين الرجل والمرأة فى هذا المضمار. وقد قرأت زوجتى هى أيضا بعضا من فصول ذلك الكتاب وترجمتْ، بإيعازٍ منى، فصلين ضاعا فى زحمة الاستعداد للعودة إلى مصر، وكانت قد اقتربت، فكان أن أرجعنا الكتاب إلى مكتبة الحى دون أن نفكر للأسف فى تصويره. يا مائة خسارة!

وكنت كتبت عن ذلك الموضوع فى كتابى: "الحضارة الإسلامية" السطور التالية: "ولقد قرأت فى لندن عام ١٩٨٢م كتابا بعنوان "Muhammad and Learning" للبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن دور الرسول الكريم فى مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه

رجل مثله يعتزى إلى أمةٍ باديةٍ أُمّيّةٍ تعيش فى القرن السابع الميلادى إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب، الذى يؤكد أنه سيظل إلى الأبد وصمة عار فى جبين من اجترحوه، وكذلك فى جبين الكنيسة لارتضائها ومباركتها هذا العمل المخزى، على عكس محمد، الذى دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثا فى طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وساواه فى الفضل بالاستشهاد فى سبيل الله، بل فضّل العلماء على العبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يَفْضُل به البدرُ سائرَ الكواكب. وفى ضوء هذا يمكننا أن نقدر صنيع العقاد حق قدره حين أكد أن "التفكير فريضة إسلامية"، بل جعل هذه العبارة عنوانا لواحد من أهم كتبه فى مجال الدراسات الإسلامية. وإذا كنت نادما الآن على شىء فعلى أنى لم أصور الكتاب وأترجمه. لقد عَهِدْتُ إلى زوجتى أن تقوم بترجمته، ولم تكذّب خبرا فترجمتْ فصلين أو ثلاثة، لكنها توقفت، إذ كنا نستعد للعودة إلى مصر بعد حصولى على الدكتورية من جامعة أكسفورد أوانذاك، ثم ضاع ما كانت قد ترجمتْه لا أدرى أين، ولا كيف! إلا أن الله سبحانه قد وضع يدى، وأنا أكتب هذه السطور، على صفحاتٍ من ذلك الكتاب متاحةٍ فى كتاب آخر وجدته على المشباك عنوانه: " Glimpses from the Life of the Prophet Muhammad" لبعض العلماء البارزين (Eminent Scholars, Glimpses from the Life of the Prophet Muhammad, England, PP. 102- 112). فله سبحانه وتعالى الحمدُ والمنّةُ كفاءَ هذه النعمة الجليلة".

وبالمثل لا ينبغى أن أتجاهل رسالة د. زكى مبارك التى حصل بها على درجة الدكتورية من السوربون، والتى طبعتها ونشرتها له إحدى المكتبات فى باريس، ووقع الكتاب فى يدى فى أكسفورد. لقد اكتفيت بفَرِّه آنئذ، لكنّ ما لاحظته من أنه أصغر حجما من الطبعة العربية لم يفارق بالى... إلى أن خطر لى سنة ١٩٩٦م أن أقارن بين الطبعتين لأعرف سبب التفاوت الكبير فى الحجم بينهما. وكان علىَّ أولا تأمين نسخة من الأصل الفرنسى، فحللت تلك المشكلة بطريقة أرسين لوبين وحصلت على نسخة مصورة من الكتاب الموجود عند ابنته السيدة كريمة دون أن تعرف أنها لى، ولا أدرى الآن السبب فى أننى لم أشأ أن أطلعها على شىء من الموضوع أصلا رغم ما كان بيننا من معرفة سابقة. وقمت بالمقارنة المطلوبة فوجدت أن الطبعة العربية ليست ترجمة للأصل الفرنسى بل إعادة صياغة له فيها حذف، وتصحيح، وإعادة ترتيب، وإضافة فصول وفقرات جديدة.

وكان هذا كشفا جديدا على الساحة الأدبية، وإن لم يأخذ الأمر حظه من الذيوع والنقاش كما هو المعتاد فى مثل تلك الظروف، إذ كنت وما زلت لا أجيد تسويق نفسى. وقد ألقيت ما كتبته حول ذلك الموضوع فى مؤتمر عن زكى مبارك منذ سنين فى المجلس الأعلى للثقافة. كما نشر لى المجلس الأعلى للثقافة أيضا فى ذلك الوقت ترجمتى للرسالة الصغيرة التى كتبها زكى مبارك فى السوربون تمهيدا لرسالته المذكورة، وهى عن النثر فى القرن الثالث الهجرى. بقى أن أقول إن السيدة كريمة زكى مبارك بعد ذلك حين علمت بالأمر أعطتنى نسخة أصلية من الكتاب، فصار عندى نسختان منه: هذه النسخة الأصلية، والنسخة المصورة التى اعتمدت عليها فى المقارنة. وبالمناسبة فقد كان رأى د. مصطفى بدوى فى رسالة زكى مبارك أنها سيئة ولا يتوفر لها المنهج العلمى. وقد رددت بأنها رسالة رائعة أسلوبا وأفكارا وعرضا. صحيح أن زكى مبارك، فى الطبعة العربية، ينحو أحيانا نحو العنصر الشخصى، لكن لماذا ينبغى أن ندين أية رسالة فيها الطعم الشخصى ما دامت تجرى على قواعد البحث العلمى وتقدم الجديد؟ ثم كم من الكتّاب يتمتعون

بما يتمتع به الدكاترة زكى مبارك من أسلوب قوى حار عجيب يغزو عقول القراء وقلوبهم غزوا لا طاقة لأحد بإيقافه؟ ولا شك أن هذا الاختلاف بينى وبين مشرفى فى الرأى كان هو وأمثاله وراء انفجار العاصفة التى مر الحديث عنها .

ومن الكتب التى اشتريتها أيضا فى بلاد الإنجليز ولا يصح أن أمر عليها مرور الكرام ترجمة المستشرق الفرنسى المعروف ريجى بلاشير للقرآن الكريم إلى لغة بلاده . لقد كنت أرجع، وأنا هناك، إلى النسخة الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية بأكسفورد حين كنت أكتب الفصل الخاص بتلك الترجمة من كتابى: "المستشرقون والقرآن" إلى أن انتهيت من ذلك الفصل ومن غيره من الفصول التى جمعتها بعد عودتى إلى الوطن وأصدرتها فى كتاب بالعنوان السابق. إلا أننى فى آخر زورة لى إلى أكسفورد، وكان ذلك فى اليوم التالى لمناقشة رسالتى، وكنت ذاهبا لتصحيح بعض الكلمات التى طلبت منى لجنة المناقشة تصحيحها فى نسخ الرسالة الموجودة بالجامعة، وبعد انتهائى من تصحيح الكلمات القليلة، مررت بمكتبة ثورنتون أند صن، وهى مكتبة تبيع الكتب القديمة والجديدة، وفيها غرفة خاصة بالكتب العربية والإسلامية وتلك التى ألفها مستشرقون عن العرب والإسلام، فأعطَوْنى مفتاح الغرفة وطلبوا منى كالعادة أن أغلقها علىّ من الداخل لأنهم لا يسمحون بدخولها لأى إنسان وحده، بل يقصرونه على من يثقون بهم فقط . الحمد لله على تلك الثقة الغالية !

وبينما أنا أنظر لأرى هل هناك من جديد فى الكتب الموجودة بالقاعة شد نظرى كتاب غريب أمسكت به، فإذا هو ترجمة بلاشير للقرآن الكريم فى طبعة صغيرة نسبيا ومغلفة بغلاف بلاستيكى زيتى غليظ، وشبه جديدة، بل تكاد أن تكون جديدة، إن لم تكن فعلا جديدة. ونظرت فى سعرها فوجدته ثلاثة جنيهات ونصفا . يا٣ بلاليش فى بعض! ثم نظرت ثانية إلى الكتاب اللُّقْطَة فإذا به ملصق عليه تذكرة صغيرة بالصفحة الأخيرة الخالية مطبوع عليها اسم المستشرق البريطانى هاملتون جب وعنوانه فى كمبريدج. الله أكبر ! فلم أُكَذِّب خبرا، وأخذتها فى الحال ودفعت ثمنها وعدت إلى لندن وأنا أطير من الفرح بسبب الكنز البديع الذى

عثرت عليه ذلك اليوم. وكنت قد اشتريت عددا من ترجمات القرآن إلى الإنجليزية والفرنسية سواء من بريطانيا نفسها أو من خارج بريطانيا: مباشرة أو بالبريد، وكذلك من السعودية بعد ذلك ومن قطر. ثم لما تعلمت التعامل مع الكاتوب والمشباك (الكمبيوتر والنت) صار عندى ترجمات أخرى غير الترجمات التى كانت لدىَّ قبلا والتى تجاوزت الثلاثين، دون أن أدفع مليما واحدا فى تلك الترجمات الجديدة.

وقد قمت بترجمة بعض الكتب والفصول فى بريطانيا، وإن لم أنشر ما نشرته منها إلا بعد عودتى إلى مصر: ترجمت رواية "آخر اليهود فى مصر" من الفرنسية، ومؤلفها هو إدجار سيد، ومن منشورات إحدى الدور اللبنانية. ولم تنشر الترجمة حتى الآن، وإن كانت صحيفة "آفاق عربية" القاهرية قد نشرت منها فصلا واحدا فى تسعينات القرن الماضى ثم توقفت عن النشر. كما أخذها ابن أحد المشايخ المعروفين لينشرها عن الدار التى أنشأها أبوه، إلا أنه عاد فأرجعها لى دون نشر، لأكتشف بعد فترة أن ورقة كبيرة ضاعت من المخطوط مكتوب عليها من الوجهين. وترجمت أيضا كتاب سراج على العالم القرآنى الهندى عن "الجهاد فى الإسلام" من الإنجليزية، ونشرته أكثر من مرة، ودرسه الطلاب معى. كما ترجمت فصولا عن القرآن المجيد من كتاب بلاشير عن تاريخ الأدب العربى ومن مقدمات بعض الترجمات القرآنية الفرنسية، وضَمَّنْتُها كتابى: "المستشرقون والقرآن" الآنف الذكر.

وقد قرأت الكثير مما ألفه المستشرقون والمبشرون من كتب ودراسات، فألممت بعالم الاستشراق والتبشير إلماما طيبا ساعدنى بعد ذلك حين شرعت أضع الكتب والبحوث، إذ كانت الخريطة واضحة بخطوطها العامة وكثير من تفاصيلها وأسرارها. ومن هنا فإن ما قد يستغرق فى يد غيرى من المؤلفين سنوات يمكن أن يأخذ منى شهرا أو شهرين. كما تنبهت هناك إلى أهمية المعاجم والموسوعات، وعرفت أن معجما واحدا لا يكفى ولا حتى معجمين أو ثلاثة لأن كل معجم يتميز بأشياء وينقصه أشياء، فالمعاجم يكمل بعضها بعضا. وينطبق هذا على دوائر المعارف. كما تنبهت إلى أن المعاجم عالم واسع وأنها ليست كلها للكلمة

ومعناها، بل هناك معاجم من كل نوع وملة، وكلها هام أشد الأهمية. وكنت أظن أن الأوربيين عرفوا ألوانا من المعاجم والموسوعات لم يعرفها أجدادنا، لكنى تبينت أن تراثنا يضم كنوزا هائلة كنت جاهلا بها، وما زلت حتى هذه اللحظة لا أعرف عن معظمها سوى القليل الذى لا يغنى ولا يسمن من جوع.

على ذكر المعاجم فقد اشتريت من هناك قاموس إلياس الإنجليزى العربى من أكسفورد (طبعة قديمة جدا)، والعربى الإنجليزى من لندن (أيضا طبعة قديمة جدا). وأذكر أننى كنت حديث عهد بأكسفورد، فسألت المكتبىّ عن ثمن القاموس الأول، فقال: خمسة جنيهات (إسترلينية)، فساومته حتى نزل بالثمن إلى ثلاثة أو ثلاثة ونصف، وهو يقول لى مبتسما إننى صعب، فقلت له بصراحتى المعهودة: فعلا أنا صعب كما تقول. ولكن لا تنس أننى طالب. قلت هذا وأنا أضحك، فضحك هو أيضا، وكان مسرورا. ولنفترض أنه لم يكن مسرورا، فهو حر، وليشرب من البحر إن شاء، وعنده بحمد الله بحران: ليس البحر الأبيض والبحر الأحمر كما قال خالد الذكر أبو الهزائم، وإلا لكانت وقعتى مُطَيِّنَة، بل بحر المانش وبحر الشمال. وإذن فلا يهم أن يكون مسرورا، بل المهم أننى كنت مسرورا، وأرجو من الله أن تكون أنت أيضا يا عزيزى القارئ مسرورا. أم تراك غير مسرور؟ أنت تعرف ماذا سأقول لو أجبتنى بأنك غير مسرور، فخذها من قصيرها وابتسم، فالنبى تبسم. كما اشتريت من أكسفورد معجم "محيط المحيط" لبطرس البستانى بخمسة جنيهات، ومعجم "المفردات" للراغب الأصفهانى، و"قاموس الإسلام" بالإنجليزية لباتريك هيوز المبشر المعروف، وكتبا أخرى كثيرة جدا جدا لكبار المستشرقين والسياسيين الأوربيين. واشتريت كتبا وقواميس وموسوعات كثيرة عن الآداب الأوربية وعن اليهودية والنصرانية وديانات الشرق الأقصى والهند، وعن الكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة وتواريخ الدول الأوربية، وترجمات لبعض دواوين الشعراء العرب ولبعض درر التراث، وكلها بأثمان زهيدة.

ولما عدت إلى مصر استمررت فى السير على تلك السياسة حتى صار عندى ما لا يقل إن لم يزد عن مائتى معجم وموسوعة. أما الآن فبفضل المشباك (النت)، تللك النعمة الإلهية الكريمة التى لا يستفيد منها المسلمون فى أمور حياتهم الجادة إلا فى أضيق نطاق، والتى سوف يكون حسابهم يوم القيامة بسبب عدم استفادتهم منها حسابا عسيرا شديد العسر، فقد صارت المعاجم ودوائر المعارف لدىَّ تلالا حتى إننى لم أعد أقوم من مكانى لأبحث عن كتاب أو معجم فى مكتبتى الورقية إلا نادرا جدا جدا. ولماذا أقوم من مكانى وأضيع وقتى فى البحث عن الكتاب وفَرِّه ورقة ورقة، والكاتوب بحمد الله يكفينى هذا كله وينجزه لى فى أسرع وقت، علاوة على أنه يوفر لى فرصة النسخ الآمن السريع الذى لا يكاد يستهلك زمنا ؟

أما المحاضرات فلم أحضر منها فى أكسفورد إلا عينة صغيرة أعطتنى فكرة جيدة عما يدور فيها، وأهمه أن الهدوء والسكون هما السمة السائدة، فلا ضجيج ولا عجيج، ولا صوت من الشارع يمكنه التسلل عبر النوافذ ذات الطاقين الزجاجيين إلى آذان الدارسين أو الأساتيذ داخل قاعات المحاضرات، والإنصات والصمت هو سيد الموقف بين الطلاب والطالبات فلا كلام بينهم ولا همس، بل إنصات تام واهتمام بما يقوله الأستاذ المحاضر، على عكس الحال هنا، فأنت فى الجامعة بمصر تجد نفسك فى سويقة: فالميكروباصات تقف أمام بوابة الجامعة وتحت شبابيك قاعات الدرس بكل ما يمكنك أن تتخيله من صخب ونداءات عن مسار كل ميكروباص، ولا يمكنك أن تمضى فى شرحك للدرس كما ينبغى أن يكون الشرح، وإن كان الطلاب والطالبات لا يجدون أى غرابة فى هذا، بل يتعايشون معه على أحسن وفاق ممكن. كذلك فأنت فى الجامعة تجد نفسك أمام مجموعة من الشباب غير المؤهل للتعليم الجامعى إلا فى حالات نادرة، ويحتاجون إلى العودة إلى الحضانة لتدريبهم على التعامل مع العلم والتعليم بما يليق. الصمت عندهم كارثة لا تطاق ولا تُحْتَمَل، وهم لا يملون الثرثرة، وليس فى ثرثتهم ما يفيد البتة. لا يريدونك أن تسألهم فى شىء، فإذا أقللت عقلك وألقيت عليهم سؤالا كان الجواب هزة بالرأس كما يفعل الرجل الهندى حين تقول له أو يقول هو لك أى شىء، والفرق

هو أن الهندى يرتدى عمامة ضخمة ظريفة فوق رأسه، ثم هو يبتسم لك ابتسامة أظرف، أما الطالب المصرى فكثير جدا منهم لا شىء فوق رأسه ولا داخل رأسه ولا فى أى مكان يتعلق برأسه، فضلا عن أنه لا يبتسم لك عند توجيه السؤال إليه، بل يتباله ويتجاهل أن الكلام موجه له ويظل زامًّا شفتيه وعقله مهما حاولت أن تفهمه أنك تقصده. وأنت لا تعرف العبد لله وطريقته فى التعريف بالطالب أو الطالبة التى يوجه إليها السؤال.

إننى أولا أنظر إلى الطالبة المقصودة بالسؤال وأشير إليها بإصبعى، ثم لا أكتفى بهذا، بل أقول: الطالبة التى تلبس طرحة شكلها كذا، ولونها كذا، وتجلس فى الصف الفلانى، وتضع يدها على خدها (وهنا تنزل هى يدها من على خدها تضليلا لى)، وقد أنزلت الآن يدها من على خدها (وهنا تعيد يدها إلى خدها مُضِيًّا مع سياسة التضليل)، وتحاول من جديد أن تعيد يدها إلى موضعها السابق على خدها لمزيد من التضليل. . . وأمضى فى هذا الموال، وهى ولا هى هنا. وبعد عدة دقائق أخرى فى هذا الموشح العبثى، وبعد أن تجد أننى لن أيأس وأتركها فى حالها، تقول فى براءة عجيبة ودهشة أعجب: أنا؟ فعندئذ يتنفس العبد لله الصُّعَدَاء، ويقول لها: "نعم أنت"، ثم يعيد السؤال من جديد. ولكن لا بد أن تضع فى ذهنك أنك تتعامل مع ضرب من الطلاب المصريين لا يمكنك أن تزحزحه عن موقفه وتجعله ينطق مهما فعلت. ولسوف تباغَت بالطالبة المذكورة بعد هذا العذاب الأزلى تهز رأسها كالرجل الهندى دون أن تتفوه ببنت شفة، معيدة الأمر كله إلى المربع الأول.

وممن حضرت لهم محاضرات فى أكسفورد د. كون صاحبة كتاب "الهاجرية"، وكانت لها سن فضية لم تعجبنى. وقد شاهدتها تحرك يديها أثناء المحاضرة تحريكا حادا لا يخلو من عنف، وكأن المتحدث رجل خشن. وهناك محاضر آخر شاب وجدته يقول إن في القرآن أشياء كثيرة شاذة (أو كلمة بهذا المعنى) من الناحية النحوية والصرفية، وذكر من بينها استعمال "الذى" بمعنى الذين" فى قوله تعالى: "وخضتم كالخوض الذي خاضوا"، أى كالذين خاضوا. فعاجلته بأننى أنا العربى لا أفهمها إلا على أن معناها: "وخضتم كالخوض

الذي خاضوه"، وإلا فما معنى أنكم خضتم كالذين خاضوا ؟ إذ السؤال هو: أى خوض ذلك الذى خاضه هؤلاء وأولئك؟ فقال إن الطبرى هو الذى قال ذلك. ثم وعدنى بأن يخبرنى فيما بعد بالموضع الذى أستطيع أن أجد فيه هذا التفسير، فلم أُكذِّب أنا خبرا ونزلت، عقب افتراقنا، إلى مكتبة المعهد الذى كنا نتناقش فيه وفتحت تفسير الطبرى عند الآية المذكورة فلم أجد شيئا من ذلك، بل وجدته، رحمه الله، يقول فى تفسير هذه العبارة: "وخضتم أنتم أيضا أيها المنافقون كخوض تلك الأمم قبلكم"، وهو ما يتسق تماما مع ما قلته. إذن الطبرى لم يقل ما نسبه إليه المستشرق الشاب. ثم بدا لى أن أنظر فى تفسير نظام الدين النيسابورى المطبوع على هامش كتاب الطبرى، فوجدته، بعد أن أعربها الإعراب السابق، يضيف ما يلى: و"قيل" إن أصلها "الذين" فحذفت النون. أى أن النيسابورى لا الطبرى هو الذى ساق هذا التوجيه، فضلا عن أن النيسابورى إنما ساقه بصيغة التمريض، وهو ما يعنى أن الرواية ليست وثيقة، بل مجرد كلام يقال دون تحقيق.

كما أن بعض المحاضرين كان يحاضر من كراسة معه يملى منها على الطلاب فيكتبون ما يسمعونه. وقد استغربت ذلك كثيرا، إذ كنت أظن أن هذه الطريقة هى من ابتداعنا نحن العالم الثالث الكسول. إلا أننى، حين أعدت النظر، وجدت أن ما يمليه المحاضر بهذه الطريقة قد يكون فكرة جديدة لم يطمئن بعد إلى صحتها، فهو ينظر فى الكراس الذى دوّنها أو دوّن خلاصتها فيه ويمليها منه على طلابه إلى أن يستيقنها فيطبعها ويذيعها فى الناس: طلابا وأساتذة وقراء عاديين. وهذا مجرد تفسير أحاول به أن أجد لهذا النوع من المحاضرين عذرا لما يفعلون.

وأذكر أن أستاذى د. شوقى ضيف، فى السنة الثالثة لنا بالجامعة، قد أعطانا بعض المحاضرات وهو ينظر فى كشكول بيده، وإن كنت لا أستطيع القول الآن هل كان يملى منه علينا أم هل كان يكتفى بالنظر لما فى الكشكول ليذكِّر نفسه بما توصل إليه من أفكار جديدة. وسر ذلك أنه فى تلك السنة بدا له أن يراجع ما كان كتبه فى عقيدة أبى العلاء المعرى، التى كان يردد فيها قبلا ما هو شائع بين الدارسين من اتهام لصاحبها،

إذ ظهر له أن دين الرجل يخلو من المغامز، وأن ما فى شعره من كلام يوهم أنه يهاجم الدين إنما قصد به فضح من يتسترون بردائه ليظهروا تقواهم المصطنعة المغشوشة، أو شيئًا من هذا القبيل. ثم إن الأستاذ الدكتور قد أصدر طبعة جديدة من كتابه عن "الفن ومذاهبه فى الشعر العربى" فيها هذا الكلام الذى قاله لنا فى ذلك العام.

وقد لاحظت أن فى جامعة أكسفورد ضربين من الدروس: محاضرات يتكلم فيها الدكتور دون أن يقاطعه أو يسأله أحد، وقاعة بحث تتكون من عدد محدود من الطلاب يتحدث فيها مَنْ عليه الدور فى عرض بحثه فينفض ما فى جَعْبَته، ثم يناقشه زملاؤه فيما قاله، والأستاذ أثناء ذلك يوجه الجلسة بلطف. وأنا عادة ما أجمع فى محاضراتى بين هاتين الطريقتين، فأعرض ما عندى من أفكار، وفى ذات الوقت أحب أن يسألنى الطلاب وأسألهم وأستفز عقولهم نحو التفكير والمناقشة والأخذ والرد، ولا أجد للمحاضرة طعما إن لم يشاركنى الطلاب التفكير والكلام، وأعدها فاشلة لو سكتوا فلم يسألوا أو يعلقوا أو يعرضوا ما يكون فى جَعْبَتهم. وأحب أن يكون لهم موقف ورأى، وأقول لهم باستمرار إن كلامى طوال المحاضرة دون مشاركتهم لى فيها يشعرنى بأنها جبل علىَّ أن أزحزحه وحدى، وأنَّى لى ذلك؟

وبالمثل أؤكد لهم أننى أستفيد مما يقولون استفادة عظيمة لأن كلامهم من شأنه تحريك عقلى وإلهامى بالأفكار الجديدة مهما تكن قيمة ما يقولونه فى حد ذاته، إذ العلم يقوم، فيما يقوم، على الحوار والأخذ والرد وتقليب الفكرة بين طرفين أو عدة أطراف بدلا من استقلال شخص واحد بهذه المهمة. لكن المشكلة تكمن فى أن طلاب الجيل الحالى بوجه عام لا يقرأون، ومن ثم لا يجدون فى حَصَّالات أمخاخهم ما يمكنهم الاستعانة به فى التعقيب والمناقشة وتكوين رأى خاص بهم. وهناك شىء آخر آخذه على الطلاب فى الجامعة الآن، وهو أن كثيرا منهم لا يستنكفون أن يمشوا بأحذيتهم فوق البنشات ومن فوق رؤوس زملائهم وزميلاتهم دون أن يجد أحد من الطرفين أى غرابة أو شذوذ أو خروج على مقتضيات الذوق واللياقة فى هذا التصرف. وإنى

لأقر هنا أننى قد فشلت فى التوصل إلى القضاء على هذه الظاهرة الشاذة، إذ ما زال الطلاب يجترحون هذا الخطأ رغم كل ما قلته وفعلته تنبيها لهم ألا يأتوه.

وأعجبنى فى بريطانيا أشياء أخرى كثيرة منها مثلا ما يسمونه: الـ"تشايلد بينيفت"، وهو عبارة عن مصروف جيب يتقاضاه الطفل من الدولة كل أسبوع يأكل منه الشيكولاتة والآيس كريم وما أشبه. وكنت أصرفه لطفلىَّ الصغيرين من مكتب البريد وأنا هناك، وإن تأخر علمى به وقتا كبيرا لأن من حولنا من المصريين لم يخبرونا به رغم أنهم يصرفونه لأولادهم منذ البداية، فلم أستفد منه إلا بعد مرور ثلاث سنوات. كما كان للطفل الحق فى الحصول على زجاجة لبن كل يوم. ومرة أخرى لم يقل أحد من المصريين أو العرب أو المسلمين ممن حولنا شيئًا عن هذا الحق الأطفالى، فظللنا نشترى لطفلينا اللبن طوال وجودنا هناك، ونحن نرى زملاءنا المصريين وغير المصريين يحصلون على اللبن كل يوم دون أن نعرف أنه لبن مجانى. وإلى جانب هذا كان هناك معونة الإيجار السكنى، ولم أعرف عنه شيئًا إلا بعد مرور عدة أعوام، ومن شخص لا يدرس فى أكسفورد. وحين عرفت (متأخرا) بهذه الحقوق كنت أقولها لكل من يقابلنى. ومرة كنت أزور واحدا من زملائنا فى ريدنج كان أكبر منا سنا ومشهورا بالوقار وقلة الكلام، وتصادف أن كان بعض المبعوثين الجدد مارّين به فى ريدنج وزاروه فى نفس الليلة، فأنبأتهم بذلك الموضوع لأباغت به يقول فى شىء من الانفعال أمامهم: ولماذا هذه العجلة؟ لا يزال الوقت مبكرا. وحتى الآن لا أدرى السبب فى ضيق صدره بما فعلت. ربنا يشفى. لقد سقط الرجل من نظرى، وتبين لى أن وقاره وصمته لا يعنى أنه شخص محترم. بالله ماذا يمكن أن يقال فى أولاد بلدك الذين يخفون عنك مثل ذلك الأمر فى الوقت الذى يعطى البريطانيون أصحابُ البلادِ أولادَنا وإيانا الحقَّ فى الحصولِ على هذه المزايا؟

ومما أعجبنى أيضا أننى، طوال السنوات الست التى قضيتها هناك، لم أشاهد خناقة فى الشارع ولا سمعت تشاتما ولا زعيقا ولا زمارة سيارة. بل إن سيارة الآيس كريم كانت، حين تأتى إلى سمرتاون هاوس

حيث كنا نسكن مع الطلاب الأجانب المتزوجين، تضرب الجرس الكهربى مرة واحدة، ثم تعيد ضربه مرة أخرى حين تكون على وشك الانصراف. وأذكر، بمناسبة الهدوء والحرص على أعصاب الآخرين، أن أحد الدارسين الإيرانيين قد شكا إلى إدارة سمرتاون هاوس من الضجة التى يحدثها بائع اللبن فى الصباح الباكر حين يُنْزِل صناديقه ليوزع عبواتها على عتبات الشقق، وهى ضجة لا أظن العامل يستطيع أن يسيطر عليها على النحو الذى يطالب به المبعوث الإيرانى. ولكن كان إحساس الشاكى بتلك الضجة (المحدودة فيما أظن) قويا لأنه كان يسكن بالطابق الأرضى شقة مطلة على فناء المسكن الجامعى فيسمعها بوضوح لا يتسنى لغيره ممن كانوا يسكنون طابقا علويا أو شقة مطلة على الشارع لا على الفناء.

وهناك طبعا النظام والنظافة والدقة والإتقان واحترام المواعيد بوجه عام، وبخاصة فى المصالح الحكومية، والنشاط العلمى والثقافى، فالبريطانيون ليسوا مثلنا من الذين يكبّرون أمخاخهم ولا يشغلون أنفسهم بأى شىء يستلزم التفكير والتقدير، ويفاخرون بأنهم لا يزعجون أنفسهم بل يتركون عقولهم تثخن وتغلظ دون أن يكلفوها بعمل يتعبها ويرهقها، وكأننا نتعامل مع عقول عَجَّالية. أعوذ بالله! ثم نتشدق مع ذلك بأننا نحب الإسلام ونغار عليه ومستعدون لفداء رسول الله بالنفس والنفيس. وهو كذب وافتراء على الواقع والتاريخ، إذ لو كنا نحب رسول الله حقا لأحببنا مبادئه التى دعا إليها والقيم التى أتانا بها، ولتحولت حياتنا إلى خلية نحل فيها يعمل كل واحد فيها بأظفاره وأسنانه، ولَكُنَّا ننتج ما نحتاجه بأيدينا وعقولنا على عكس ما هو سائد اليوم، ولصارت شوارعنا نظيفة ومنظمة وهادئة تسودها السكينة ولا تسمع فيها صوت بوق سيارة يكاد يفقد الإنسان الطبيعى عقله ورشاده ويصيّره مجنونا رسميا. كيف بالله يزعم الزاعمون أننا مجتمع إسلامى نحب ديننا ونبينا، وكل ما نفعله يناقض ديننا ويزعج رسولنا عليه الصلاة والسلام؟

إن الغالبية منا تقضى معظم وقتها لا تصنع شيئا، وكل من يقود سيارة لا يكف عن الزمر وإزعاج الناس وتشييط أعصابهم، ولا يراعى أن هناك مارة ينبغى المحافظة على حياتهم وراحة بالهم، كما أن المارة فى

الطريق يتصرفون وكأنهم يتنزهون فى حديقة عامة لا فى شارع تجرى فيه السيارات، ومن ثم تراهم عند عبور الطريق مثلا يتهادَوْن كأنهم غزلان تتعاجب. ما كل هذه التنبلة؟ الدنيا كلها تطير طيرانا، ونحن نمشى فى دروب الحياة ببطء السلحفاة. أعوذ بالله من هذا التخلف والتنطع والتباطؤ والكسل والقمامة والضجيج والشتائم التى يغرم أصحابها بذكر السوءات والأعراض وسب الأب والأم بالبذىء من الألفاظ. وفى بريطانيا أيضا الاختراعات التى لا تتوقف طول الوقت، أما بالنسبة لنا فيُؤْثَر فى بعض الدول العربية الخليجية عن بعض علمائها قولهم إن الله قد خلق لنا الغربيين كى يخدمونا ويعملوا ويتعبوا بدلا عنا حتى نتوفر نحن على عبادة الله، وكأننا نعبد الله فعلا كما يريد منا ربنا أن نعبده أو كما أفهمنا رسولنا معنى العبادة الحقة. إننا نعيش على التدليس والخداع، خداع أنفسنا قبل خداع الآخرين، ولانبالى ولا نشعر أن هناك شيئًا خطأ. الحق أن قول هذا الكلام هو التخلف والعته والبله بعينه وقضه وقضيضه! ذلك أن من لا يعمل ولا ينتج بيده ما يحتاجه فهو عبد حقير مستذل، وإن ظن نفسه سيدا.

وعلى الناحية الأخرى لم يعجبنى فى بريطانيا ما لاحظته من أن الواحد منهم، وبخاصة من الجنس اللطيف، إذا كنت تعرفه وقابلته فى الشارع وحييته فإنه يبتسم لك ابتسامة زائفة من خارج القلب، فكأنه يدوس على زر نور ليضىء المصباح لمدة فيمتو ثانية، ثم يعيد الضغط على الزر فينطفئ المصباح فى الحال، فلا تشعر أبدا بحلاوة الابتسامة أو دفئها. وكثير منهم يسمعونك الكلام الجميل حين تكون لهم مصلحة لديك، فإذا انقضت المصلحة انقضى معها الكلام الجميل. وكنت أستغرب هذا التصرف لتصورى أنه من سمات الأمم الضعيفة، فإذا بى ألاحظه فى بريطانيا ذاتها. وقد تُكْرِم الواحد منهم أو من الأوربيين عموما فى بيتك وتضيّفه على أحسن ما يرام، ثم تقابله فى اليوم التالى فلا تجد عنده أدنى فكرة عن التمر هندى، وكأنك لم تكرمه وتتصرف معه تصرفا إنسانيا راقيا. كما تكرر معى خُلْف بعضهم وعده لى دون أدنى اعتذار، على

حين أنه متى ما وعدنى موظف بمصلحة حكومية كان وعده ضمانا أكيدا لحصولى على ما وعدنى به حتى لو أراد تجاهل وعده أو نَسِيَه أو بالأحرى: تناساه.

أذكر أننا، حين انتقلنا للإقامة فى لندن أوائل العام الدراسى ١٩٨١- ١٩٨٢م، ذهبنا بيمنى إلى حضانة الحى، فقالت لنا الناظرة إنه لا يوجد مكانٌ فاضٍ لها، ولكن يمكننا أن نأتى بها فى أول الفصل الدراسى التالى، وهو ما صنعناه، فقالت لنا إنه لا يوجد لها مكان فاض، فكان ردنا أنها قد وعدتنا بتوافر مكان فى أول الفصل التالى، فقالت: حقا؟ قلنا: حقا والله العظيم حقا. فردت فى الحال: إذن فلتدخل إلى الفصل. وعدنا يومها إلى البيت بدون يمنى، لنرجع آخر اليوم لأخذها، وكانت سعيدة، وكنا نحن أيضا سعداء. وكنا، حين نعبر الشارع أمام المدرسة، نعبره فى أمان الله التام، إذ كانت هناك سيدة اللولى بوب، وهى امرأة تقف فى وسط الشارع رافعة ما يشبه مصاصة اللولى بوب الذى يحبه الأطفال. ومتى ما بدأت تتهادى من الرصيف إلى منتصف الشارع توقفت السيارات فى الحال، وكأنه أمر نزل به الوحى الإلهى على قوم من عتاة المؤمنين. فانظر إلى هذا، وقارن بينه وبين قيادة السيارات فى بلادنا على طريقة الثيران الهائجة التى تدوس فى طريقها كل من وما يقابلها، وتضرب البوق قائلة لك: ابعد عن طريقى يا بنى أدوم، وإلا فذنبك على جنبك.

ولا يطلب منك الإنجليزى شيئا إلا قال لك: من فضلك. كما أنه لا يحصل منك على شىء إلا قال لك: شكرا. وبالمثل لا يخطئ فى أمر إلا قال: آسف، أو آسف كثيرا. وهكذا. بل إن كمسارى الاوتوبيس يشكرك وهو يسلمك التذكرة، وكان الأولى أن تقول له أنت: شكرا لا هو لأنه هو الذى يخدمك. ليس هذا فقط، بل إن هذا الكمسارى كلما توقف الأوتوبيس فى محطة من المحطات سارع فوقف على الباب مادا يده لأخذ كرسى الطفل منك ووضعه فى المكان المخصص لذلك فى السيارة بحيث لا يعوقك شىء وأنت تصعد فى الحافلة. كل هذا وهو يقول لك: ثانك يو! بالله عليكم أليس هذا جميلا حتى لو كانت كلمة الشكر كلمة آلية لا تخرج من القلب؟ إن مثل تلك العبارات هى "شحم التعاملات اليومية"، الذى من شأنه "زَفْلَطَة"

تروس الحياة ومساعدتها على الحركة والدوران فى سلاسة ويسر، ودون احتكاك أو اصطدام، أو على الأقل: بأقل قدر من الاحتكاك والتصادم. أليس هذا أفضل مليون مرة من كلمة "ماشى"، التى نسمعها من كثير ممن نمد لهم يد العون، والتى كثيرا ما لا نسمعها ولا نسمع غيرها فى مثل هذه الحالة، وكأننا نتعامل مع جمادات لا عقل لديها ولا إحساس ولا ذوق ولا حضارة ولا دين؟

وأنت إذا دخلت محلا لتشترى شيئًا فإنك تجد البائع واقفا زنهارا لك ولأمثالك من الشارين يخاطبك بأكثر الألفاظ تأدبا وتلطفا، مسميا إياك: سِيرْ أو جنتلمان، مع أنك (أو "أنا" حتى لا تغضب) لا سير ولا جنتلمان ولا حاجة أبدا . إنما هذه عادتهم. فهم شعب من التجار بارع أشد البراعة فى معاملة الزبائن وأكل مخهم بالريق الحلو والمعاملة المستقيمة، على عكس الحال فى بلاد أخرى أنا وأنت نعرفها يتحول البائع فيها إلى منفر للشارين ومناكف لهم كأنه يتقرب إلى الله بالاصطدام بهم دون أدنى داع. فقط لكى يرضى نفسه بأنه انتصر على العميل الذى يسوقه حظه الهباب إليه ورَدَّه من حيث جاء خائبا لم يشترِ ما كان يريد شراءه منه، ومن ثم لم يعطه ما كان يمكن أن يكون رزقا حلالا ساقه الله إليه. والتاجر البريطانى عادة لا يكثر من جدالك: فمثلا حين تدخل المحل يهب لمقابلتك قائلا: هل يمكننى مساعدتك يا سيدى؟ مع أنك لا سيده ولا ديالو، ولكنها أصول النجاح فى التعاملات التجارية، وهو لا يريد إلا أن ينجح. فإذا قلت له: "لا، بل أريد مجرد إلقاء نظرة على ما فى المحل" وجدته ينسحب من طريقك ويخلى بينك وبين ما تريد من "نظرات" و"عبرات" و"فى سبيل التاج" و"بول وفرجينى" و"ماجدولين" و"الشاعر سيرانو دى برجراك" أيضا . ولم يحدث أن تجهم بائع لنا ونحن هناك، ولم يحدث أن ضاق أحد من الباعة من أسئلتنا عما عنده أو ما ليس عنده من بضائع مهما كانت الأسئلة تافهة، بل لا يتدخل العملاء الآخرون الواقفون فى أدب وصمت فى الطابور استحثاثا لك على الانتهاء من كلامك بحجة أنهم "مستعجلون" و"ليس عندهم وقت" كما هو الحال فى بلادنا مع أن الوقت عندنا "بالزوفة"، وليس لدينا ما نصنعه به سوى أن ننبش بأصابع يدينا فيما بين أصابع قدمينا .

ومن الأمور التى تريح العين والأعصاب كلها تناسق المبانى والبيوت، فكلها فى الشارع على طراز واحد عادة، وبارتفاع واحد ، وبمساحة واحدة، وبلون واحد . وحين تدخل الشارع ترى منظر البيوت مريحا جميلا لا نشوز فيه ولا اضطراب ولا عوج، وما من بيت إلا وله حديقة أمامية وأخرى خلفية تزودانك بالهواء النقى والخضرة الطازجة. وكنت سكنت فى لندن فى السنة الأخيرة لى هناك شقة بالدور الأرضى بشرق المدينة فى بيت يملكه أحد الهنود المسلمين، وببعد بيتّين عن منزل آخر لنفس الرجل. المهم كانت هناك الحديقة الخلفية، وكنا قد انتقلنا من أكسفورد إلى ذلك المنزل فى الخريف، ولما دخلت الحديقة كانت مصوِّحة، وأغصان الأشجار جرداء، ثم مضت الأيام والأسابيع والشهور، وانقطعتُ عن دخولها فترة طويلة انشغالا بعملى فى الغرفة المطلة على الشارع أنظر إليه وإلى المارة فيه من خلال النافذة الزجاجية بعرض الجدار كله تقريبا وأنا مستمتع بالدفء الذى يلامس خدى كأنه زغب الحرير جراء التدفئة الزيتية التى كنت أشغّلها بالغرفة مع إدارة جهاز التسجيل ببعض الأشرطة الفاتنة لبعض المغنين والمغنيات المصريين الذين أعشق أصواتهم، إلى أن جاء الربيع، فحملت علاء الدين الصغير فوق كتفىَّ وأنا ألاعبه ودخلت به الحديقة، وإذا بها تتلألأ جمالا وزهورا من كل لون ورائحة، فاستغربت، إذ كنت ظننت أنها قد صَوَّحَتْ وجفت إلى الأبد، فإذا بها كانت فى البيات الشتوى ليس إلا، ولما عاد الربيع عادت لها الحياة والأناقة والجمال.

وبالمناسبة فأى إنسان فى بريطانيا يمكنه بسهولة شديدة امتلاك منزل جميل عن طريق سلفة من البنك بفائدة قليلة حسبما أعرف. ومن هنا كان الرجل الهندى المسلم الذى كنت أسكن شقة فى بيته يملك هو وأولاده بيتّين فى نفس الشارع. وكان بالقرب منا أيضا شاب إسكندرانى يملك منزلا محترما وواسعا رغم أنه مجرد ساقٍ فى مشرب. وكانت زوجته امرأة غير متعلمة. أريد أن أقول إنهما شخصان عاديان جدا، ولا يملكان من الدنيا الكثير، ومع هذا كان لهما بيت كبير معتبر لو قضيا فى مصر مئات الأعوام على هذا

النحو لما تيسر لهما الحصول على منزل هكذا. وكانا حديثَيْ عهد ببريطانيا، والدليل على ذلك سنهما الصغيرة نسبيا حتى إنهما لم يرزقا إلا بولد واحد صغير حديث عهد بالفطام.

وكنت، إذا ما أردت الذهاب إلى وسط لندن، أركب الحافلة ذات الطابقين وأصعد إلى الطابق الثانى وأجلس ثم أفتح كتابا معى وأقرأ طوال الساعة (تقريبا) التى تستغرقها الرحلة. وكم قرأت من الكتب وأنا فى الطابق الثانى من الحافلة اللندنية. والجلوس جنب النافذة والإطلال منها على الشارع متعة ما بعدها متعة. لقد كنت أحس أننى ملك، ولكن غير متوج. ومن الكتب التى قرأتها بهذه الطريقة صحيح مسلم مترجما إلى الإنجليزية بقلم عبد الحميد صديقى. وما أشد ما استمتعت بتعليقاته الهوامشية التى يشرح فيها عبارة أو فكرة فى هذا الحديث أو ذاك. مثال ذلك تعليقه على الحديث الذى يقول إن الإناء يستغفر للاعقه، والذى كنت أفهمه على أنه دعوة إلى ألا يغرف الإنسان فى طبقه أو صحنه أكثر مما يعرف أنه سيأكله فعلا لا على أنه دعوة إلى لعق الإناء مثل القطط، إذ أشار فى هذاالتعليق إلى الكميات الهائلة من الطعام التى سوف ترمى فى القمامة على مستوى العالم الإسلامى إذا ما ترك كل منا فى طبقه بعض حبات الأرز، وهو ما زادنى اقتناعا بفهمى للحديث الشريف.

لقد كنت أرى بعض أفراد من جماعة التبليغ والدعوة حين يأتون إلى أكسفورد يطبخون طعامهم بأنفسهم فى الغرف الملحقة بالمسجد وينامون فيها، وهو سلوك جميل وذكى ويقلل المصروفات إلى أقل حد ممكن، وبخاصة أن من يتبرعون بالدعوة فى هذه الحالة هم من الناس العاديين الذين لا يتوافر لهم المال الكثير. لكننى لم أكن مستريحا عندما أرى بعضهم بعد الانتهاء من أكل ما فى إنائه يثنى سبابته متتبعا بها بقايا الطعام والصلصة حتى لا يترك شيئا دون أن يأكله، وكان لون الصحن يسودُّ حينئذ. وقد ذكرنى هذا بالحديث الشريف، فقلت إن الأمر سيكون أسوأ لو تحول المسلم بعد الانتهاء من الطعام إلى قط يلعق ما بقى فى إنائه، وهو ما لا أظن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقصده، بل هو مثل قوله: "أولموا ولو بظلف شاة" أو "إذا

قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها". ذلك أن القيامة حين تقوم لن تترك فى عقل أحد مسكة يفكر بها فى غرس الفسيلة. كما أننا لم نسمع قط أن أحدا قد أولم بظلف شاة. . . إنما الكلام على المجاز.

وقد سرنى أن يمد الأستاذ صِدّيقى عينه إلى ما وراء طبق الشخص الفردى فيبصر العالم الإسلامى كله ويتخيل أطنان الأرز التى سوف تلقى فى سلال الزبالة نتيجة لترك كل منا فى صحنه بعض حبات الأرز التى لا تساوى فى ذاتها شيئا. وناهيك بما يحدث فى الدول العربية الغنية حين تكون هناك دعوة طعامية يتخلف عنها كثير من الأكل الذى يكون مصيره أكوام الزبالة، ويأثم أصحاب الدعوة إثما عظيما بينما يحسبون هم أنهم يحسنون صنعا، غير دارين أن هذا قد يكون مقدمة لزوال النعمة التى يرفلون فيها، إذ هو لون من البطر والجحود حتى لو لم يقصدوه قصدا. كما سرنى أن الأستاذ صديقى قد فهم حديث الرسول هذا الفهم العميق المتحضر، ولم يأخذه بحرفيته فينادى بلعق الأطباق والصحون كالقطط والكلاب مثلما يفهم بعض المتدينين حديث الرسول فى النهى عن إسبال الإزار، الذى أفهمه على أنه تحذير من تطويل ذيول الجلاليب كبرا وخيلاء أو تركها تمسح الأرض بما عليها من أتربة وقاذورات فتتسخ ويكون منظرها قبيحا قميئا، فترى الواحد منهم يقصّر جلبابه إلى منتصف ساقه حتى فى عز البرد على نحو مثير للهزء والسخرية. والغريب العجيب أن كثيرا منهم يعود فيرتدى فى نفس الوقت سروالا تحتيا طويلا يدارى به الجزء العارى من ساقه. أذنك منين يا جحا؟ ويزيد الطين بلة أن كثيرا من المتدينين يقصّرون بناطيلهم أيضا تطبيقا للحديث الشريف حسب فهمهم، وفاتهم أن الرسول، حتى لو أخذنا نهيه هذا حرفيا، إنما قد أراد الإزار لا البنطال، إذ نص على الإزار نَصًّا. ولكن ماذا نعمل فى بعض العقليات؟

ومثل ذلك ما وقع لى بعدما انتهينا أنا وزوجتى ووَلَدَانا من عمرتنا ذات مرة أثناء عملى بالسعودية فى تسعينات القرن الماضى حين كنا نصلى الصبح جماعة خارج المسجد الحرام (لسبب لا أذكره الآن) أمام سور يفصل بينه وبين المنطقة المجاورة، فجاءت صلاتى مباشرة أمام ذلك الفاصل، ولما انتهيت من الصلاة

أردت أن أغادر المكان لأصل إلى زوجتى فآخذها هى والولدين ونعود إلى الطائف. لكن الله ابتلانى بشاب من هذه النوعية، فكان كلما أردت الانصراف مال بجذعه نحوى كأنه يرقص ومنعنى بذراعه تاركا الصلاة لانشغاله بى وبما أصنع تمام الانشغال. وهو بطبيعة الحال، وهذه هى الطامة الكبرى، يظن أنه يطبق سنة النبى عليه السلام. ألم يقل صلى الله عليه وسلم: "إذا كان أحدُكم يصلِّى فلا يَدَعْ أحدًا يمرُّ بين يدَيه، ولْيَدْرَأْه ما استَطاع. فإن أبى فلْيقاتِلْه، فإنما هو شيطانٌ"؟ لكن هل أنا شيطان، وقد انتهيت لتوى من العمرة ومن صلاة الفجر فى الحرم أنا وأهلى؟

لقد فات ذلك الشاب أن يفهم معنى قوله عليه السلام: "بين يديه". وكان لزاما عليه أن يعمل عقله ويقلب العبارة فى دماغه ليعرف ما تدل عليه: فإن كان المعنى المطلق هو المقصود بما يفيد أن كلمة "بين يديه" تشمل كل الأرض من حيث يصلى المصلى حتى الكعبة، أيا كان البلد أو المكان الذى يصلى فيه، كان على المسلمين جميعا فى أرجاء العالم الإسلامى كله أن يتوقفوا عن الحركة إلى الأبد لأنه ما من وقت من أوقات النهار أو الليل إلا وهناك ملايين تصلى فى كل مكان، و"بين يديه" تشمل كل الأرض من لدن المكان الذى يصلى فيه كل فرد حتى الكعبة. ولا يقول بهذا من فى رأسه بعض عقل. وإن كان المعنى النسبى هو المراد فالمقصود ألا يمر المار فى المنطقة التى يتحرك فيها المصلى قياما وقعودا وركوعا وسجودا فقط، وهذا ما كان ينطبق علىَّ، إذ كنت خارج نطاق حركة ذلك الشاب. ومع هذا ترك سيادته الصلاة وأخذ يتبعنى كلما اتجهت يمينا أو شمالا فاردا ذراعيه كى يمنعنى من الانصراف، غير مُعْطٍ الصلاة احترامها، وكأنه لا يقف بين يدى الله سبحانه بما يتطلبه ذلك الوقوف من خشوع وتركيز وما إلى ذلك. اللهم تولنا برحمتك يا أكرم الأكرمين.

ولا بأس هنا من إيراد حديث ساقه ابن حزم فى كتابه: "المحلى"، وإن وُصِفَ بأنه لا يصح، لكنه مع هذا يشير إلى المصائب التى يمكن أن تقع بسبب هذا الفهم الخاطئ للحديث الكريم الذى نحن بصدده.

يقول الحديث المذكور إن "رجلا جاءَ إلى عثمانَ بنِ عفّانَ برجلٍ كُسِرَ أنفُهُ، فقالَ: مرّ بينَ يديّ في الصّلاةِ، وقد بلغني ما سمعتَ في المارِّ بينَ يدَيِ المصلّي. فقالَ لَهُ عثمانُ: فما صنعتَ أشدُّ يا ابنَ أخي. ضيّعْتَ الصّلاةَ وكَسَرْتَ أنفَه". فشكرا لسيدنا عثمان بن عفان، وإن كان الحديث غير صحيح من ناحية القواعد التى وضعها علماء ذلك الفن. ومثل ذلك ما يحكونه من أن أحدهم رأى مصليا يحرك إصبعه فى التشهد لدى وصوله إلى صيغة التوحيد، فما كان منه إلا أن مد يده وكسر الإصبع المتحركة من فرط غيرته على السنة النبوية، إذ قد أفهمه البعض أنه لا يصح تحريك الإصبع فى تلك الحالة. فهل رأيتم سخفا وتنطعا، بل هل رأيتم إجراما وغباء وانغلاق ذهن وقلب، مثل هذا قط؟

ومُضِيًّا مع هذاالموضوع فإننا نتساءل: ترى هل ينبغى أن يفقأ الواحد منا عين من ينظر فى بيته دون إذن منه كما جاء فى بعض الأحاديث النبوية؟ يقول أحد هذه الأحاديث إن "رجلا اطّلَع على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جحر في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ومع النبي صلى الله عليه وسلم مِدْرَاةٌ يحك بها رأسه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو علمتُ أنك تنظر لطعنت بها في عينك. إنما جُعِل الاستئذان من أجل البصر". إذن فما أكثر العيون التى سوف تُفْقَأ لهذا السبب. إننى أفهم الحديث بما يعنى أن حرمات البيوت أمر مغلظ لا بمعناه الحرفى بحيث أسارع إلى الطعن بالقلم الذى بيدى فى عين من أراه يفعل ذلك. ويا حبذا لو فقأت العين الأخرى حتى لا أترك له فرصة لارتكاب الأمر ثانية فى المستقبل. ألم يقولوا فى الأمثال: الباب الذى يجيئك منه الريح، سُدَّه تستريح؟ سيقول بعض الناس: أتقف فى وجه حديث النبى عليه الصلاة والسلام؟ وجوابى من الحديث نفسه. ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم للرجل المتجسس: "لو علمتُ أنك تنظر لطعنتُ بها في عينك؟"؟ بلى قال ذلك. ألم يره النبى وهو يتجسس عليه؟ بلى رآه. فلم يا ترى لم يطعنه بالمدراة فى عينه ويفقأها؟

ومثل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لتركبنّ سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه". ذلك أن ما أفهمه من هذا الكلام هو أن هناك سننا تحكم المجتمعات البشرية والتاريخ الإنسانى. وكما وقع السابقون فى أخطاء بعينها اجتماعية وسياسية واقتصادية ونفسية فلسوف يقع المسلمون فى ذات الأخطاء لأن هذه أخطاء البشر فى كل المجتمعات متى ما توافرت ظروفها. وكما تفلص السابقون من أهل الأديان الأخرى من دينهم قليلا قليلا فلسوف يقع من المسلمين ذلك مع الأيام. . . وهكذا. وليس فى الأمر ضِبَابٌ ولا جحورٌ، ولكنه المجاز وتأكيد الفكرة عن طريق المبالغة التعبيرية، وإلا فمن المستحيل تمام الاستحالة أن يدخل أحد من البشر، فضلا عن أمم بكاملها، جحر ضب. أليس كذلك؟ بل إننا لو أخذنا الحديث على ظاهره لكان معناه أن المسلمين الذين خاطبهم النبى عليه السلام، وهم الصحابة، سوف يتبعون سنن من كان قبلهم بما فى ذلك التفلت من الدين، وهو ما لم يحدث. ذلك أنه صلى الله عليه وسلم، وإن خاطب الصحابة فى هذا الحديث، كان يقصد أمة المسلمين فى عصور الانهيار الدينى والخلقى، التى هى بيت القصيد فى الحديث الشريف.

والآن فلنعد إلى بريطانيا. وقد كنا نتحدث عن الحافلات، ولا بأس من الانتقال إلى سيارات الأجرة وما كنت ألاحظه من أن سائق التاكسى يحمل لك متاعك ويضعه فى شنطة السيارة حين تركب، ثم يعود فيحمله لك من الشنطة ويضعه على الرصيف حين تنزل. فهل فى بلادنا الحبيبة من يصنع ذلك من سائقى التاكسى أو من أى سائق؟ كما أنه، عندما تشير إليه لتركب، لا يقف فجأة فى منتصف الشارع كما يقع فى بلادنا المحروسة، بل يركن السيارة جنب الرصيف فى الموضع الذى تقف فيه بالضبط ولا يفعل ما يفعله سائق التاكسى فى مصر حين يتعمد الوقوف بعيدا عنك كى يتلذذ برؤيتك وأنت تجرى وراءه. ثم إنه لا يمكن أبدا أن يعتذر عن توصيلك إلى أى مكان حتى لو طلبت منه أن يحملك إلى المريخ. وهذا كله لا تعرفه بلادنا للأسف. كذلك لا يحدث أن يركّب سائقُ التاكسى أحدًا آخر معك أثناء الطريق، لأن التاكسى قد صار فى

خدمتك منذ أن تركب إلى أن تنزل. وهو يلتزم فى تحديد الأجرة بما يقوله العداد لا بما يشاء له هواه وطمعه وقلة عقله وفساد ذمته. أما هنا فأنت تعرف ما يحدث أفضل منى. ثم إن التاكسى، ككل شىء آخر فى تلك البلاد، نظيف وسليم وأنيق، والسائق هادئ مهذب مهندم. أقول هذا طبقا لما لاحظته يوم كنت أعيش فى تلك البلاد. ورغم ذلك فلا بد من التأكيد بأن كلامى هذا ليس معناه أن بريطانيا هى جنة الله فى أرضه، إذ هناك معايب كثيرة ذكرت بعضها، وأضيف إليه أكلها الخنزير وشربها الخمور وتكبرها على الشعوب الأخرى وسرقتها لكثير من دول العالم واحتلالها بلادنا لعشرات السنين ومناصرتها إسرائيل بل خلقها لها خلقا رغم أنف العدل والإنسانية والقانون، وممارستها الزنا واللواط والسحاق على نطاق واسع وتقنينها كل ذلك، وكفرها بالله واليوم الآخر والرسل والكتب السماوية بوجه عام.

والأوكازيونات فى بريطانيا كثيرة، ولا تكاد تتوقف، ففضلا عن الأوكازيونات الموسمية هناك تخفيضات التصفيات عند إغلاق المحلات وما إلى ذلك، كما أن هناك محلات مهمتها عرض البضائع المخفضة على مدار العام. وفى أكسفورد ستريت كنا نجد دائما دكاكين تعلن عن تخفيضات، وكلها تخفيضات حقيقية. والكل يشترى، والكل مسرور. وقد اشتريت ذات مرة من أكسفورد حذاء مخفضا من خمسة عشر جنيها إلى جنيه واحد، وكان السبب أن مقاس فردة منه حسبما هو مكتوب بداخلها أقل من الفردة الأخرى بنصف درجة. وقد طابقتهما فلم أشعر بأى فرق، كما لبستهما فلم أحس بشىء. ومرة أخرى اشتريت شبشبا لأكتشف بعد مرور عام أن الفردتين كلتاهما يمين، فذهبت إلى المحل، الذى حاول صاحبه البحث عن الفردة الغائبة فلم يوفق، فما كان منه إلا أن أرجع لى ثمن الشبشب كاملا من تلقاء نفسه. هذا شغل شياطين! أقصد شغل دهاة يعرفون كيف ينجحون، وينظرون إلى بعيد لا إلى ما تحت أقدامهم كبعض الناس الذين يعرفون أنفسهم.

وهناك معارض تقام فى العطلة الأسبوعية هنا وهناك: فى كنيسة أو مدرسة أو صالة عامة، وفيها تباع مختلف الأشياء، وتستطيع أن تشترى أنت أو أنا أو غيرنا منها ما يحب كل منا شراءه من الأغراض بملاليم، أقصد ببنسات زهيدة، كبدلة أو حذاء أو كتاب مما يتبرع به الناس فتبيعه الكنيسة أو أية جمعية أخرى لتتبرع بما تجنيه من أثمانه للشعوب الفقيرة بغرض تنصيرها مثلا . وإلى جانب هذا كله هناك مؤسسة أوكسفام، ولها محلات فى كل مكان تبيع مثل تلك الأشياء طوال العام. وهناك أيضا محلات خاصة لبيع الأشياء المستعملة يقصدها البريطانيون دون أى إحساس بالخجل. وكم اشترينا من كل ذلك كتبا وملابس وتحفا وأحذية وأرسلناها إلى أصحاب نصيبها فى مصر، فسَدّتْ حاجاتٍ ماكان لها أن تنسدَّ لولا تلك النزعة العملية التى أتمتع بها، والتى ساندتنى زوجتى فيها مساندة نبيلة، وإن كانت ثمرتها خيبات ثقيلة ومرارات بطعم الحنظل لا تطاق ولا تُحْتَمَل.

أما الكتب فتجدها فى المكتبات المنتشرة فى كل مكان. بل إنك لتجد فى الأسواق الأسبوعية بياعين يعرضون ما عندهم من الكتب المستعملة. وقد اشتريت مرة من بائع فى سوق الأربعاء بأكسفورد، أيام كان ينعقد وراء مدرسة فرذر إيديوكيشن خارج المدينة تماما وقبل أن ينتقل إلى وسط البلد ، نسخة أثرية ضخمة من الكتاب المقدس مذهبة ذات جلد صلب وتحتوى على رسوم وخرائط وهوامش على جانب كبير من الفائدة بعد أن ظللت أتردد عليه كل أسبوع تقريبا عارضا عليه مبلغا أقل مما يقوله رغم أن السعر لم يكن عاليا أبدا، لكننى كنت أحب أن أداعبه وأضحك معه. . . إلى أن رأيته يعطينيها ذات أربعاء بأقل مما كنت أعرضه عليه. عجبت لك يا زمن! أما كان من الأول؟ صَدَقَ من قال: بريطانى!

وكان يوم السوق متعة كبيرة لى أنا وزوجتى، ومعنا الولدان، بدءا من السير من سمرتاون هاوس حتى موضع السوق، الذى يبعد عن مسكننا بضعة كيلومترات كنا نقطعها ضاحكين نثرثر ونتهكم ونلاحظ ونقارن ونتناقش فى كل شىء، وانتهاء بشراء ما نريد من خضراوات وفواكه وملابس وأحذية، وكتب أحيانا، ومرورا

بالشمس المبتسمة إذا كنا فى الصيف وبالتهامنا أحيانا بعض ما اشتريناه من فواكه شديدة الإغراء كما حدث حين اشترينا ذات سوقٍ صندوقين من العنب اليونانى الكبير الحجم الداكن الزرقة الشديد الحلاوة الغزير العصارة، فقد جلسنا على دكة خارج السوق عند قنطرة هناك، وهات يا أكل واستمتاع حتى أتينا على أحد الصندوقين أو على معظم ما فيه.

وأتصور أن منظرنا كان معروفا فى أكسفورد طولا وعرضا بعربة الأطفال التى ندفعها كل تلك المسافة وقد حمّلناها فى طريق العودة بما لذ وطاب من خيرات السوق مستعملين الشيالة التحتية والأماكن الفاضية داخل العربة ذاتها حول الطفلين اللذين كنا نرقدهما "خلف خلاف" وقد دثرناهما فى الشتاء بالقفافيز وأغطية الرأس الصوفية وسحبنا عليهما غطاء العربة من فوق، وأخذنا ننظر بين الحين والحين من الفرجة إليهما فنستمتع بمنظرهما وهما راقدان فى أمان الله دافئين يظللهما حبنا ورضانا عنهما وعن الحياة وشُكْرُنا لله سبحانه أن رزقنا بهما ووهبهما الصحة وخفة الظل فملآ حياتنا بالبهجة والسعادة. ولا أظن أن أحدا فى أكسفورد كان يشترى كل تلك الصناديق التى نشتريها، ونكرم من محتوياتها ضيوفنا، الذين لم يكونوا دائما بالمهذبين على ما سيأتى بيانه حالا .

ومن ذكريات السوق أنه لم يكن معنا يوما نقود كافية، وأحسَّ مستر شو بذلك، فأعطانا مشترياتنا على أن نحضر الثمن الأسبوع القادم. شكرا يا مستر شو على إنسانيتك وذوقك وتهذيبك! ويزيدك إنسانية وذوقا وتهذيبا أننا لم نطلب منك ذلك ولا ألمحنا إليه ولا توقعناه مجرد توقع. إنما هى مبادرة كاملة منك. شكرا مرة أخرى. ومن تلك الذكريات أيضا أننى، حين جاء دورى فى الطابور أمام بائع آخر كنا نسميه هو وإخوته بـ"الشنَبات" لأن لكل منهم شاربا كبيرا مثلما كنا نسمى مجموعة أخرى من بائعى الفواكه والخضراوات هناك بـ"الغجر" لأننا عندما وطئت أقدامنا السوق أول مرة فوجئنا بصياحهم على بضاعتهم فى نَفَس واحد، فلقبناهم فى الحال بـ"الغَجَر" على سبيل التفكه، أقول: حين جاء دورى أمام "كبير الشنبات"، وكنا من زبائنهم الدائمين

ومن الشارين الكبار عندهم إن لم نكن أكبر الشارين بإطلاق، مددت يدى فالتقطت حبة عنب ووضعتها فى فمى لأقرر كم كيلوجراما ينبغى أن أشتريها منه طبقا لمدى حلاوته. وما إن رفعت حبة العنب ناحية فمى دون أن تكون قد وصلت إلى فمى فعلا حتى شاهدت على وجه "الشنب الكبير" نذر عاصفة سرعان ما انفجرت مدمدمة فى صورة خطبة عصماء عن حقوق الملكية التى انتهكتُها، إذ قال لى فى حجة قاطعة كالسيف الهندوانى الباتر: هل يصح أن أمد يدى إلى جيبك وآخذ ما فيه؟ فصرت فى نصف هدومى لهذا المنطق الجبار المفحم، وحاولت بكل ما بقى لى من عقل أن أشرح له أن الأمر لا يستحق شيئًا من تلك الضجة وأننى إنما كنت أريد تذوق العنب لأعرف مدى سكريته. ولكن من يقرأ ومن يفهم يا إبراهيم؟

وكان هذا واحدا من أسخف موقفين تعرضت لهما أثناء مُقَامى ببريطانيا . وكلما تذكرت هذه الواقعة تعجبت من رد فعل الرجل، وقلت ضاحكا وكأننى أخاطبه وجها لوجه: يا ابن الذين، وأين كانت حقوق المِلْكِيَّة المقدسة حين احتللتم بلادنا وجرفتم ثرواتها لمدة سبعين عاما ؟ خيبة الله عليك! أما الموقف الآخر فكان فى بيتى، إى والله فى بيتى وعلى يد بنت مفعوصة دعوناها هى وأمها، التى كانت تدرس لنا الإنجليزية فى فرذر إيديوكيشن كولدج، إذ بعد أن أكلت هى وأمها هنيئًا مريئًا وشفعنا الطعام بما لذ وطاب من الفواكه والشراب، أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وعَنَّ لى، فى سياق لا أتذكر طبيعته الآن، أن أشير إلى زوج السيدة (والد البنت الحمقاء الشعنونة) بوصفه أكبر منى فى السن ويستحق الاحترام، وكان ناظر مدرسة، فاستخدمت كلمة "elderly" تبعا لما قاله لى صديق مسلم إسكتلندى كان يزورنا ويسهر معى كثيرا من الليالى وأجد فى صحبته ودا ودفئًا، وكنت قد استفسرت منه عن لفظة تستخدم للتعبير عن المعنى المذكور، فاقترح بعد عدة مداولات وأخذ ورد بينى وبينه تلك الكلمة، التى ما إن خرجت من فمى وقبل أن أحاول استردادها وإعادتها من حيث خرجت حتى استحالت الضيفة الصغيرة شيطانة تقذف بالحمم البركانية متهمة إياى بأننى قد أسأت إلى والدها وأننى تجاوزت حدودى وما شابه ذلك من الجنون الأزلى. وعبثًا حاولتُ،

وأنا فى غاية الحرج، أن أفهمها سر اللّبْس المضحك، وتدخلت أمها تهدئ من ثورة ابنتها، ولكن ليس بالقوة الكافية. ومرة أخرى من قال إن كل البريطانيين باردون؟ فماذا تقولون فى هذه الحمقاء الملتاثة؟

وبينى وبينكم ما زلت حتى الآن متحيرا لا أستطيع أن أجزم بالكلمة التى تعبر عن المعنى المراد. ربما لأن الإنجليز لا يعرفون هذا المفهوم أصلا. وأحيانا أرى أن أقرب الكلمات إلى هذا المعنى هى "senior". ومع ذلك فلا أخفى عليكم أننى كلما فكرت فى استخدامها سرت فى جسدى قشعريرة، وتمثلت أمام عينى تلك الشيطانة النزقة، فأخنق الكلمة فى حلقى. منها لله! لم يثمر فيها ما أكلته من السمك بأنواعه المختلفة والأرز البنى الشهى، والكفتة اللذيذة التى تأكل أصابعك وراءها، والسلاطات التى تأكلها بل تلتهمها بعينيك قبل فمك، وغير ذلك من الأطعمة الجميلة التى وضعت فيها زوجتى ذوب اهتمامها وذوقها والتى تناولناها على ضوء الشموع لانقطاع التيار الكهربى فى تلك الليلة للمرة الأولى والأخيرة، لتأتى هذه البنت المفعوصة فتفسد كل شىء، غير مراعية أنها ضيفة فى بيتنا ولا أننا غرباء عن لغتهم، فوقوع مثل ذلك الخطإ من ثم وارد، وبقوة.

والعجيب أن مورين كانت قد اصطحبت ابنتها معها إلى المدرسة أكثر من مرة قبل ذلك وأوكلت إليها مهمة تصحيح كراساتنا. فأين ذُهِب بعقلها إذن حين ركبها العفريت فى بيتنا؟ لو كانت هذه البنت تقيم فى مصر لعملوا لها زارا ودقوا طول الليل على رأسها بالدفوف إلى أن يطردوا من جسدها ذلك العفريت الشرير الذى كان يركبها! وعلى ذكر الزار هاجت فى رأسى الآن ذكرى ليلة قضيتها فى طفولتى بين نساء حينا بالقرية فى بهو بيتٍ قريبٍ من بيتنا منتصف خمسينات القرن الماضى، وكان أبى لا يزال حيا، وماتت أمى، وظلت الدفوف تضرب طوال السهرة، والمرأة التى عملوا لها الزار تلبس ملابس خاصة وتتطوح وتترنح يمينا ويسارا كأنها ملبوسة، وأنا فى غاية الملل والضيق. يبدو أننى ولد مستنير من يومى لا أومن بهذه الخرافات المتخلفة! يا بختك يا خِلّ مع الحداثيين!

هذا، ولم يحدث فى بريطانيا أن تعثرت أقدامنا قط ونحن سائرون فى أية مدينة أو قرية أو طريق ريفية سرنا فيها، وإن كادت قدماى أن تنزلقا مرة على القشرة الجليدية التى تكسو الشارع ذات صباح كنت مسافرا فيه إلى لندن، وأوشكت أن أتزحلق فى المسافة القصيرة التى كانت تفصل بين سمرتاون هاوس والمحطة التى سوف أستقل منها الحافلة إلى وسط أكسفورد حيث سآخذ الأوتوبيس إلى العاصمة لولا حذرى الشديد وأنا أنقل قدمى ببطء وتركيز، فضلا عن الوهج الذى أزعج عينىَّ من انعكاس أشعة الشمس على الجليد صباحا. والسبب فى عدم تعثر المشاة فى تلك البلاد أنه لم تكن هناك حفر أو حجارة فى أى مكان، كما لا أذكر أننا قابلنا بلاطة مكسورة أو مخلوعة أو مقلقلة من بلاط الرصيف، أو كان الرصف غير مطابق للمواصفات. زد على هذا أن الرصيف فى كل من نهايتيه ينحدر بطريقة تدريجية تجعله مساويا لأرض الشارع عند التقائهما، فضلا عن وجود هذا الانحدار بالعَرْض أمام كل بيت بحيث لا تجد ربة المنزل أية صعوبة فى إنزال الدراجة أو كرسى الطفل أو عربته إلى الطريق. كما أن ارتفاع الرصيف موحد فى كل مكان، وعلى نحو يكفل للجميع الصعود إليه والنزول منه بسلاسة ومتعة، فلا يخضع للعشوائية بتاتا.

وواضح أنه ما من شىء إلا خُطِّط له وعُمِل حسابه. لقد استعملوا عقولهم ولم يعطوها إجازة بحجة تكبير المخ كما نفعل فى مصر. ولا أدرى أى هدف يتغياه المصريون من تكبير أمخاخهم ما داموا لا يستغلونها أبدا. لو كنت منهم لألقيتها فى الزبالة وأرحت واسترحت. ومن هنا ترانى أقول دائما فى أحاديثى ومحاضراتى وكتبى إن حساب المسلمين سيكون عسيرا غاية العسر يوم القيامة نظرا إلى أن الله لم يَكِلْهُمْ لعقولهم وحدها كما هو الحال مع الشعوب المتقدمة حاليا، بل أكرمهم سبحانه وتعالى، إلى جانب ذلك، بالإسلام دين العقل والحضارة والتقدم والاستنارة، فلم يستغلوا هذا ولا ذاك حتى صاروا فى العصور الحديثة، شعوبا وحكومات، آخر أمم الأرض وأذلها وأهونها وأتعسها رغم كل المزايا التى أفاضها الله عليهم من موقع ممتاز ومناخ طيب وثروات طبيعية مباركة وتاريخ طويل ودين هو القمة فى الحضارة، فضيَّعوها سدى.

ومن بين متعنا أيضا فى أكسفورد النُزَه التى كنا نقوم بها صيفا فى القرى والحقول المحيطة بالمدينة حيث كنا نقضى الساعات ننتقل من طريق إلى طريق، ونمر بقرية وراء قرية بما فيها من محلات أو آلات نشترى منها ما نحتاج من حلوى وألبان، وأراجيح وزحاليق يلعب عليها ولدانا، فتدفعهما أمهما بينما أقرأ أنا فى كتاب أو أنصت إلى إذاعة القاهرة فى مذياع صغير نحمله معنا أينما ذهبنا، فيبلّ شوقنا إلى بلادنا ويزيل بعضا من أشجان حنيننا، ويعيدنا إلى الماضى، الذى تبدو لنا ذكرياته سعيدة لارتباطها بصبانا وشبابنا وبلادنا وأهلينا بعد أن تركناهم وتغربنا بعيدا عنهم فى بريطانيا، التى تختلف عنا فى كل شىء من دين ولغة وعادات وتقاليد وثقافة وذوق وغير ذلك. وفى بعض الأحيان كنا نمر بحقل تزينه الزهور العجيبة التى تغسل العين والقلب والنفس والروح غسلا فنشهق إعجابا ونهيم فى الملكوت، وتسبح كل خلجة من خلجاتنا الخالق العظيم المبدع الجميل سبحانه جل جلاله. وذات مرة أخذتنا سيدة أسكتلندية عرفناها عن طريق مسز أدامك، الأمريكية التى كانت تعطينى فى بداية وصولى أكسفورد درسا خصوصيا فى الإنجليزية، أخذتنا إلى موضع فى أكسفورد بعيد عن العمران لترينا زهور الـ"بلو بلز"، أى الأجراس الزرقاء، وكانت رحلة جميلة، ومشهدا رائعا شاهق الروعة. يا ترى كم واحدا فى مصر، ودَعْكَ مِنْ "كم واحدة؟"، يمكن أن يفكر فى أمر كهذا؟ أتريدون الصراحة أم بنت عمها؟ ولا واحد أو واحدة!

كما زرت بعض الغابات هناك: منها غابة وجدنا أنفسنا أنا و"إشماعيل" (بالشين من فضلكم حتى لا يغضب الرجل الأسبانى الأصل ذو الصوت الفحيحى رب البيت الذى كنت أنزل به فى هستنجز. أتذكرونه؟) حينما كنا نتمشى ذات عصرية وأردنا أن نثبت أننا متحضران كالأوربيين فقلنا: نعتمد فى سيرنا على الخريطة، ولا نسأل أحدا. ورغم أننا لم نستطع أن نفهم منها شيئًا فقد ركبنا رأسينا وظللنا نسير متوهّمَيْنِ أننا متجهان الاتجاه الصحيح... إلى أن ألفينا أنفسنا فى غابة شاسعة، فاخترقناها متصوِّرَيْنِ أننا سوف نفرغ منها بعد قليل. لكن كان للغابة رأى آخر. وبعد وقت طويل خلناه دهرا، وخفنا أن نظل سائرَيْنِ طوال الليل بين تلك

الأشجار التى لا تنتهى، وجدنا أنفسنا خارج المدينة عكس الاتجاه الذى كان ينبغى أن نتخذه. وحتى لا أطيل عليكم ولأننى لا أذكر التفاصيل الآن أقول إننا بلغنا البيت أخيرا بعد المغرب بوقت طويل، وكنا فى رمضان: أنا صائم، وإشماعيل (بالشين من فضلكم!) مفطر. ولكننا كنا من فرط السعادة بسبب النجاة لا نحس بجوع. وفى حالتى أنا بالذات لم أكن (كما شرحت لكم من قبل) أتناول طعامى مع المغرب، بل أؤجله لحين تناول أهل البيت عشاءهم، ومن ثم لم يكن هناك بالنسبة لى أى فرق.

ومن ذكريات الغابة أيضا الضحى الجميل الذى قضيناه ذات صيف فى غابة تربض على أطراف أكسفورد من ناحية الطريق المؤدى إلى لندن فى نهاية الهاى ستريت، فقد قضينا فيها ضحى جميلا، إذ كانت السناجب تهبط من فوق غصون الأشجار وتأتى إلينا فتداعبها يمنى الصغيرة، التى تزوجت الآن وأنجبت ولدا لطيفا آية فى الذكاء والانتباه وكثرة الحركة وسرعة الالتفات نحو أية نَأْمَة مهما تكن ضئيلة أو أى منظر مهما يكن صغيرا أو بعيدا، فضلا عن حدة ملامحه، مما ذكّرنى بالسناجب، فسميته: "السنجاب"، وصار الجميع لا ينادونه ولا يتحدثون عنه إلا بـ"السنجاب": جاء السنجاب، ذهب السنجاب، السنجاب يبكى، السنجاب يرضع، السنجاب يفعل كذا، السنجاب يُسَوِّى كيت، السنجاب نائم، السنجاب مستيقظ... إلخ. وهو، من ناحيته، كلما رآنى هش لى واهتز فرحا، فأفرح لفرحه فوق فرحى لنفسى برؤيته. وكنت أسمع الناس يقولون: أعز من الولد ولد الولد. لكننى لم أكن أعرف حقيقة هذا الكلام إلا بعدما صار لى أحفاد (حتى الآن أربعة: لالة "الأستاذة": ٥ سنوات تقريبا، وخالد "الفيلسوف": حوالى سنتين، وعمرو "الحكيم": ١٤ شهرا، وهؤلاء أبناء علاء الدين بالترتيب، وإياد ابن يمنى، "السنجاب": ١٥ شهرا)، إذ أشعر أن كلا منهم مدهون بالعسل ومرشوش بالسُّكَّر حتى ليتحول الواحد منهم فى حضنى إلى حلاوة خالصة، حلاوة ليس إلا. اللهم بارك فى أطفال الدنيا أجمعين، وزدهم حلاوة على حلاوتهم.

وأثناء إقامتى فى بريطانيا زار أنور السادات تل أبيب. وقد ظننت فى البداية أن كلامه عن استعداده للذهاب إلى أقصى مكان فى الأرض مجرد مبالغة لا يقصدها. ثم ظننت أنه، بعد انفجار الثورة الإيرانية وإعلان قادتها عداءهم لإسرائيل ومناصرتهم للفلسطينيين وغلق سفارة الكيان الصهيونى وتحويلها إلى سفارة لفلسطين، سوف يعيد حساباته. لكن اتضح فيما بعد أن الأمر قد تم ترتيبه بليل. ثم وَقَّعَتْ مصر معاهدة كامب ديفيد. وكان من رأيى أنه ما من معاهدة تبقى للأبد، وأنه ما من اتفاق قام بين دولتين إلا سقط مع الأيام، وأن الفيصل فى هذا هو قوة الدولة التى أجحف بها الاتفاق، وأنه متى ما قويت مصر كان باستطاعتها تمزيق كامب ديفيد. وبالنسبة للثورة الإيرانية كنت أراها بعين المتحمس، ولا أزال، رغم اختلافى الحادّ مع بعض معتقدات الشيعة ومواقفهم السياسية. والسبب فى ذلك أنها ثورة شعبية خالصة. كذلك فإننى لا أخفى سرورى بما أسمعه ممن زاروا إيران مؤخرا عن نظافة البلاد هناك، كما يسرنى فوز السينما الإيرانية ببعض الجوائز العالمية رغم خلو أفلامها من الرقص والعرى والإجرام وما إلى هذا. وكنت، كلما حدثت انتخابات هناك، أنظر إلى إعلانات المرشحين فلا أجدهم يوسخون الجدران بالكتابة أو بإلصاق الأوراق عليها، بل يكتفون بتعليق لافتات قماشية تزال فور انتهاء العملية، وكان الله يحب المحسنين. وإذا صح ما نسمعه ونقرؤه فى وسائل الإعلام عن التقدم الصناعى والعسكرى فى إيران فمعنى ذلك أن الثورة قد نجحت، ولم تعد مجرد شعارات فارغة. كما أن الانتخابات الرئاسية هناك لا تقل كثيرا عن نظيراتها فى الدول الديمقراطية انضباطا ونظافة. اللهم إلا أن يكون كل ذلك دعاية إيرانية كاذبة. فهل هى كذلك؟

لكنى لا أستطيع رغم هذا كله إخفاء ضيقى بتعصب الإيرانيين لشيعيتهم إلى الحد الذى يسبون فيه كل صحابى خالف عليا رضى الله عنه وعنهم جميعا دون أن يُعْفُوا السيدة عائشة وأباها أنفسهما، بينما يحترم السُّنَّةُ جميعَ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. بل إنهم ليفضلون عليًّا على معاوية وعمرو بن العاص، ولكن دون أن يتجاوزوا حدودهم بالتطاول على أى صحابى حدث بينه وبين علىٍّ خلاف. صحيح

أن عليا، كرم الله وجهه، كان يُلْعَن على المنابر فى بعض فترات العهد الأموى، لكن لا بد من التنبيه إلى أن ذلك كان فيما مضى، وقد انتهى الآن، ولم يعد أحد يفعله. كما أننا نخطئ خطأً فاحشا حين نظن أن أهل السنة كانوا يفعلون هذا أو يَرْضَوْنَه، بل فاعِلُوه بعض الأمويين المتعصبين، أما سائر السنة فلا توافقهم عليه. وذلك كله يختلف عن سِبَاب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وكثير من الصحابة الآخرين منذ القديم حتى عصرنا على لسان الشيعة، بل وإخراجهم من الملة فى كثير من الأحيان.

أقول هذا ردا على ما ورد فى رواية إبراهيم عيسى: "مولانا" من إرادة التسوية بين الفريقين فى مسألة سباب الصحابة. وهى تسوية خاطئة. وفى رأيى أنه لا ضير ولا تثريب على أى من السنة أو الشيعة فى التمسك بمذهبهم بشرط ألا يسب الأخيرون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم، فيما وراء ذلك، أحرار. فليؤمن الشيعة أن عليا وذريته هم الوحيدون الذين لا يصح أن يحكم المسلمين أحد سواهم إلى الأبد، وليؤمن السنيون أن أساس الحكم فى الإسلام هو الشورى لا الوراثة، على ألا يحاول أى طرف فرض معتقداته على الطرف الآخر، وأن يتعاونا على البر والتقوى فى النقاط المشتركة، وما أكثرها! هذا ما أومن به، لكن الواقع يقول شيئًا آخر للأسف. ولسوف يندم الطرفان على الشقاق الحاصل بينهما إلا إذا غَلّبا صوت العقل والدين الحقيقى، وتفاهما وتفاوضا ووصلا إلى شىء يرضى بقدر الإمكان الطرفين جميعا مع تنازل كل منهما عن بعض ما يشترطه، إذ لا يُعْقَل أن يحصل أحدهما على كل شىء بينما يُحْرَم الآخر من كل شىء.

وعلى هامش الكلام الحالى أذكر أننى قد تعرفت بدكتور جامعى إيرانى بمكتب الشيخ محمد الغزالى بوزارة الأوقاف قبل حرب رمضان المجيدة بسنة أو نحوها، وكنا نتقابل بعد العصر فنزور بعض الأماكن، فإذا أردنا الصلاة أممنا مسجدا من المساجد التى فى طريقنا وقَدَّمْتُه ليصلى بى إماما، غير واجد فى ذلك ما يخدش صلاتى. وكنت أفعل ذلك حتى أزيل ما يمكن أن يكون بنفسه من مشاعر سلبية، فضلا عن أنه أكبر منى فى السن. بل لقد ذهبنا فصلينا الجمعة فى مسجد بمصر الجديدة وراء إمام سنى طبعا، ولم ألحظ

عليه غضاضة فى ذلك، اللهم إلا إذا قيل إنه كان يستعمل التقية. وبهذه الطريقة لن ننتهى، ولن نصل إلى حل. كل ذلك قبل أن أعود فى الأعوام الأخيرة فأقرأ فى كتب القوم لأجد فى بعضها ما لا يمكن التسامح فيه. ومع هذا فكما قلت: ينبغى أن يعرف الطرفان أنه لن يكون لهما أى مستقبل إلا إذا نسيا اختلافاتهما، وتخلى بالذات الشيعة عن سب الصحابة وعن محاولة التمدد فى الدول السنية، وتعاونا معا على البر والتقوى، وإلا فلسوف يأكلهما الغرب جميعا، ولاتَ ساعةَ مندم. وليس من المعقول ولا المقبول أن يكون لكل منهما علاقات دبلوماسية طبيعية مع كثير من الدول غير الإسلامية بما فيها تلك التى تكره الإسلام وتتآمر على أتباعه، فى الوقت الذى يتربص كل منهما بالآخر ويراه عدوا مبينا لا سبيل إلى الهوادة معه.

وأنا، حين أقول هذا، أعرف تماما أن الكلام النظرى غير الواقع العملى، وأن أى إنسان متى صار فى الحكم وجد أن ما كان يقوله ويتصوره سهلا قد أضحى صعب التحقيق، وبحاجة إلى وقت طويل وتنازلات وألاعيب ومؤامرات قبل إمكان تنفيذه. أما إذا تصور أحدهما أنه، باستعانته بالغرب على ضرب الآخر وإزاحته عن طريقه، سوف يتحقق له ما يريد فهو غَبِىٌّ لا يفهم التاريخ ولا نفسية الغربيين، وخائن للإسلام الذى جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم، إذ إن الغرب، بعد أن يسلط أحد الطرفين على صاحبه فينتصر عليه، سوف يستدير إلى المنتصر ويدمره تدميرا، ويتخلص من الطرفين كليهما مثلما وقع مرارا فى التاريخ. لقد حارب محمد على مثلا الدولة العثمانية وانتصر عليها وأذلها، ثم حارب الوهابيين وانتصر عليهم وأذلهم. وفى النهاية ماذا حدث؟ لقد انقلبت عليه أوربا فحطمته بعد أن استنزفت قواه تلك المعارك التى لم تكن أصابعها الشيطانية بعيدة عن تحريك خيوطها. وعندنا إيران والعراق، إذ سلط الغرب كليهما على صاحبه، ثم استداروا على العراق فحطموه وقتلوا رئيسه بعد أن حصلوا منه على ما يريدون، وها هم أولاء يتحرشون بإيران، ويطلعون كل يوم عليها بتهديد لا ندرى متى يضعونه موضع التنفيذ.

أكتب هذا، وأنا لا أوافق إيران على بعض معتقداتها وسياساتها . لكن هل هناك دولة يوافق الإنسان على كل ما تعتقده أو تقوله أو تفعله؟ المهم أن تكون حسنات التعاون معها أكثر وأفضل من حسنات معاداتها أو على الأقل: مقاطعتها ومخاصمتها . وهل يعقل أن تكون إسرائيل والولايات المتحدة أقرب إلى مصالحنا من إيران رغم كل ما يمكن أن يقال فى حق إيران، وكثير منه صحيح؟ لكن أليس كل ما يقال، وليس كثير منه فقط، فى حق أمريكا والصهاينة صحيحا صحة مطلقة؟ ومع ذلك فلنا علاقات بأمريكا وكل الدول الغربية التى أذلتنا واحتلتنا ونهبتنا ووقفت منا دائما موقف المعاداة ونصرت إسرائيل بل خلقتها خلقا . فكيف نقف من إيران موقف التعنت الرافض لأى تفاهم أو تعاون؟ فلْنَعُدَّها "إسرائيلاً" أو "أمريكةً" أخرى إذن ونتعامل معها بهذا المنطق. أقول هذا، ولى دراسات فى التشيع قلت رأيى فيها بصراحة ضد بعض معتقدات الشيعة ومواقفهم وتفسيراتهم يجدها القارئ فى كتابىَّ: "سورة النورين" و"مسير التفسير" . لكن هذه نقرة أخرى، إذ نحن الآن إنما نتحدث بلغة السياسة والمصالح الوطنية . ثم إننا لسنا مكلفين بجبر الآخرين على الالتزام بما نؤمن نحن به، وإلا فأنى لنا بتلك الدولة التى تقبل تدخلنا فى شؤونها على هذا النحو البغيض؟

وبعد كتابتى هذا بعدة أسابيع قرأت، فى موقع صحيفة "الرأى" الكويتية، مقالا بعنوان "دانيال بايبس: ادعموا الأسد لمنع انتصار الإسلاميين" يدور حول دانيال بايبس اليهودى الأمريكى الذى يكره العرب والإسلام كراهية العمى جاء فيه أن الغرب لا يسمح لأى من الطرفين المسلمين بالانتصار على الطرف الآخر، بل يساعد كلا منهما على تحطيم الطرف الآخر . وهو نفسه ما قاله الشيخ صبحى الطفيلى، أحد قادة الشيعة فى لبنان وأول أمين عام لحزب الله هناك، فى حديث متلفز له منشور على الإنترنت يؤكد فيه أن الغرب وإسرائيل يباركان الصراع الدائر الآن فى سوريا ويعملان بكل جهدهما على تدمير الطرفين: الحكومة والثوار، ولا يفكران أبدا فى إيقاف الحرب بينهما بل لا يسمحان بذلك إل أن يتم التخلص منهما كليهما . كما دعا الشيخ إلى عدم ذهاب شباب الشيعة اللبنانيين لمساعدة النظام العلوى فى سوريا، مؤكدا أن أى شاب شيعى يذهب لسوريا

لذلك الهدف ويُقْتَل لا يموت شهيدا، بل مصيره جهنم، وبئس المصير، لأنه يريق دماء المسلمين ويعضد الحاكم الظالم. وبالمثل هاجم هجوما شديدا حزب الله، الذى اتهمه بمساندة الظلم العلوى فى سوريا، قائلا إن أهل السنة لا يكرهون أهل البيت بل يحبونهم حبا جما، ولا يمكن أن يعتدوا على مزاراتهم ومساجدهم أو يفكروا فى إلحاق الأذى بالشيعة.

يقول المقال ما نصه: "دعا السياسي والمؤرخ الأميركي دانيال بايبس، الذي يوصف بأنه أحد أقطاب "المحافظين الجدد" في الولايات المتحدة، واشنطن والحكومات الغربية إلى تقديم الدعم للرئيس السوري بشار الاسد، قائلا في مقالة كتبها في موقع "ذا جويش برس" الإلكتروني اليهودي إن ذلك يحدث توازنا بينه وبين معارضيه ويمنع انتصارا للإسلاميين في سورية. وكتب بايبس أن"المحللين يتفقون على أن تلاشي قدرات النظام السوري يتسارع وأنه يواصل تراجعه شيئًا فشيئًا، وأن انتصار الإسلاميين أصبح مرجَّحا بشكل متزايد"، مضيفا: "ردا على ذلك فإني أغيّر توصيتي السياسية من الحيادية إلى شيء يجعلني، بصفتي إنسانيا ومعاديا منذ عقود لعائلة الاسد، أتوقف لأكتب أن الحكومات الغربية يجب أن تدعم النظام الديكتاتوري الخبيث لبشار الاسد". وأوضح بايبس أن "المنطق الذي دفعني لتقديم هذا الاقتراح النافر هو أن قوى الشر، عندما تحارب بعضها بعضا، تصبح أقل خطرا علينا، مما يجعلها أولاً تركز على أوضاعها المحلية، ويمنع ثانيا أيا منها من تحقيق انتصار بحيث تشكل خطرا أكبر. القوى الغربية يجب أن تدفع الأعداء إلى طريق مسدود بينهم من خلال دعم الطرف الخاسر لجعل الصراع بينهم يطول أكثر".

وأشار إلى أن "هذه السياسة لها سابقة. فخلال معظم فترة الحرب العالمية الثانية كانت ألمانيا النازية في موقع الهجوم ضد الاتحاد السوفياتي، وكان إبقاء الجنود الألمان منشغلين في الجبهة الشرقية أمرا حاسما لانتصار الحلفاء. لذلك قام فرانكلين دي روزفلت بمساعدة جوزف ستالين من خلال تموين قواته وتنسيق جهود الحرب معه. وإذا استعدنا الأحداث يتضح أن هذه السياسة البغيضة أخلاقيا، ولكنِ الضرورية

إستراتيجيا، حققت نجاحا. ستالين كان وحشا اسوأ بكثير من الأسد". وكتب بايبس: "الحرب العراقية-الإيرانية بين العامين ١٩٨٠ و١٩٨٨ أوجدت وضعا مماثلا. فبعد منتصف العام ١٩٨٢، عندما أصبحت قوات آية الله الخميني في موقع الهجوم ضد قوات صدام حسين، بدأت الحكومات الغربية تدعم العراق. نعم النظام العراقي هو الذي بدأ الأعمال العدائية، وكان أكثر وحشية، لكن النظام الإيراني كان أكثر خطورة من الناحية العقائدية، وكان في موقع الهجوم. الخيار الأفضل كان أن تعيق الأعمال العدائية الطرفين لمنع أي منهما من الخروج منتصرا، أو في التعبير الساخر لهنري كيسنجر: من المثير للشفقة أن أيا منهما لا يستطيع ان يخسر".

وقال بايبس إن "تطبيق هذه السياسة على سورية اليوم تسوّغه أوجه شبه كثيرة: الأسد يشغل دور صدام حسين الديكتاتور البعثي الذي بدأ العنف. القوى المتمردة تشبه إيران. الذي كان ضحية في البداية يصبح أقوى مع الوقت، ويمثل خطرا إسلاميا متزايدا. القتال المستمر يعرّض الجوار للخطر. الجانبان ينخرطان في جرائم حرب، ويمثلان خطرا على المصالح الغربية. بهذه الروح فإني أدعو إذاً إلى أن تذهب المساعدة الاميركية إلى الطرف الخاسر أيا كان".

وذكّر بايبس بتحليل كتبه في العام ١٩٨٧ ويقول فيه: "في العام ١٩٨٠ عندما هدد العراق إيران مصالحنا كانت على الاقل جزئيا تكمن مع ايران. ولكن العراق كان في الموقف الدفاعي منذ صيف ١٩٨٢، والولايات المتحدة وقفت بحزم إلى جانبه. وإذا حاولنا الرجوع إلى ذلك الوقت واستقراء المستقبل، وعاد العراق الى موقع الهجوم، وهو تغيير لم يكن مرجحا، ولكنه لم يكن مستحيلا، فإن الولايات المتحدة كان سيتعين عليها أن تنتقل من ضفة إلى أخرى مجددا وتمنح دعمها إلى إيران". وأضاف بايبس: "نعم، بقاء الاسد يفيد طهران، النظام الأكثر خطورة في المنطقة، ولكن انتصار المتمردين، تذكروا، سيعزز كثيرا الحكومة التركية، التي تتحول بصورة متزايدة إلى حكومة مارقة، ويقوي الجهاديين، ويستبدل حكومة الأسد بإسلاميين منتصرين وهائجين.

استمرار القتال يسبب ضررا أقل للمصالح الغربية من استيلاء الإسلاميين على السلطة. هناك توقعات أسوأ من أن يتصارع الشيعة والسنة، وأن يقتل جهاديو حماس جهاديي حزب الله والعكس. الأفضل ألا يفوز أي من الطرفين".

وقال بايبس إن "إدارة الرئيس باراك أوباما تجرب سياسة طموحة بشكل مبالغ فيه، ودقيقة تقوم على دعم المتمردين الجيدين بأسلحة قاتلة وشملت ١١٤ مليون دولار من المساعدات، في الوقت الذي تستعد فيه لشن هجمات محتملة بطائرات من دون طيار ضد المتمردين السيئين. فكرة جيدة، لكن التلاعب بقوى الثوار من خلال التحكم عن بعد ليس له حظ كبير بالنجاح. في النهاية المساعدات ستقع في أيدي الإسلاميين، والضربات الجوية ستصيب المتمردين الحلفاء. من الأفضل أن يتقبل المرء حدوده وأن يطمح الى ما هو مُجْدٍ: دعم الطرف المتراجع". وتابع: "في الوقت نفسه يجب على الغربيين أن يكونوا أوفياء لأخلاقياتهم وأن يساعدوا في وقف الحرب على المدنيين، ملايين الأبرياء الذين يعيشون أهوال الحرب الاهلية. الحكومات الغربية يجب أن تجد آليات تلزم الاطراف المتنازعة بقواعد الحرب، خصوصا تلك القواعد التي تعزل المحاربين عن غير المحاربين. قد يشمل ذلك الضغط على ممولي المتمردين وداعمي الحكومة السورية لربط دعمهم بشرط الالتزام بقواعد الحرب. هذا سيلبي واجب الحماية". وانتهى بايبس إلى القول إنه "في اليوم السعيد الذي تحارب فيه إيران والأسد الثوار وأنقرة حتى يستهلكوا بعضهم البعض يمكن للحكومات الغربية عندها أن تدعم العناصر غير البعثية وغير الإسلامية في سورية لمساعدتها في توفير بديل معتدل عن خيارات اليوم البائسة وقيادة سورية إلى مستقبل أفضل".

وفى منتصف مدة البعثة اشتركت مع عدد من المبعوثين فى رحلة رتبها لنا اتحاد الطلبة المصريين فى بريطانيا إلى القارة الأوربية زرنا فيها بلجيكا، نقطة انطلاقنا هناك، وفرنسا وهولندا. وكانت رحلة رائعة بكل المقاييس، ولكن آثرت زوجتى أن تبقى فى أكسفورد وأعطيها ما كنت سوف أدفعه لها هى والولدين.

وأحسب أنه قد فاتها الشيء الكثير بعدم اشتراكها في تلك الرحلة. وقد شهدنا في بروكسل وأمستردام شيئا لم نلحظه في بريطانيا، ألا وهو عَرْض بيوت الدعارة مومساتها في نوافذ زجاجية كبيرة في الشارع جالسات شبه عرايا على كراسيّ فوتيل انتظارا لما يجود به حظ كل واحدة منهن عليها من زبائن. كما شاهدت في هولندا طواحين الهواء والتقطت لها بعض الصور عند الغروب في طريق عودتنا إلى بلجيكا من أمستردام مرورا ببعض المدن الأخرى صيفا، وقد ساد نفسي السكون الجميل والابتهاج الهادئ الشامل. وكنا في بروكسل ننزل في فندق ثلاثة نجوم، لكنه نظيف، وكل أموره دقيقة منتظمة. ولم يكن يعجب المبعوثين أن ننزل في فندق ينام في كل غرفة من غرفه ثلاثة أشخاص كل منهم على سرير بسيط، وهو ما لم أجد فيه معابة أو غضاضة، إذ المهم عندي النظافة والنظام، وهما متوافران بحمد الله، فضلا عن كفاية الطعام وجودته. أما الغرف فلم نكن نصعد إليها إلا بعد العَشَاء، إذ كنا دائما نجوب شوارع بروكسل في بلجيكا.

وفي هولندا سرني جدا منظر طواحين الهواء ونحن نغادر تلك البلاد الصغيرة الجميلة الأنيقة. ولا أستطيع أن أنسى منظر بعض الشبان السود وهم يركلون كرة القدم في الشارع وسط خطوط الترام في منتصف أمستردام، ويشوطونها في أي اتجاه يحلو لهم، ثم يعدون وراءها يستردونها ويعاودون ركلها دون أي اعتبار لأي شيء، ولا أحد ينكر عليهم. كذلك رأيت بعض المباول المقامة على النهر مبنية على شكل أسطواني له فتحة يدخل منها المتبول، فينزل ما يتبوله إلى النهر مباشرة من خلال ماسورة مدفونة في باطن الأرض، وهو ما أثار نفوري واستغرابي رغم أني أتيت من بلاد لا تهتم بنظافة ولا ذوق ولا لياقة. أما في باريس فقد رأينا المسلة المصرية وبرج إيفل وأخذت صورا كثيرة هناك. وبالقرب من المولان روج بحي مونمارتر وجدت دكانا لبيع الأواني الجنسية كالكوب الذي يبرز من قاعه عضو الذكورة منتصبا. وعلى نهر السين شاهدت باعة الكتب، وتوقفت عند بعضهم، فألفيته منهمكا في قراءة كتاب وهو جالس وقد مدد رجليه في وجوهنا غير مبال بأي اعتبار، وهو ما يستحيل أن تقابل مثله في بريطانيا، إذ البائع يقف لك زنهارا طول الوقت لا يجلس

أبدا، وهو يعرض عليه خدمته بكل أدب واحترام دون أن يفرض نفسه عليك أو يضايقك. كذلك لا بد أن أذكر أننى، عند تحميض الصور التى كنت ألتقطها فى بريطانيا وغير بريطانيا، وما كان أكثرها، كنت أبعثها بالبريد إلى أحد المعامل المختصة مستخدما أظرف خطابات مدفوعة الأجر مقدَّما من طرفهم، وكان محددا على الظرف سعر التحميض مضافا إليه فلم جديد بدل الفلم الذى تم تحميض صوره. وكان يتجمع عندى كثير من تلك الظروف التى كانوا يوزعونها علينا فى الشقق من خلال فتحة باب الشقة دون أى إزعاج للساكن، فكنت أستخدم القديم منها دون مبالاة بارتفاع السعر المكتوب على الظروف الجديدة، ولم يحدث قط أن قالوا لى إن هذا السعر قديم تم رفعه، بل كانوا يتعاملون بالسعر القديم المسجل على الظرف معتبرين هذا كلاما قطعوه على أنفسهم، فلا بد من الالتزام به. فأى براعة فى التعامل التجارى مع البشر يا إلهى هذا التعامل؟ وفى القهوة التى كنا ننتظر الحافلة بالقرب منها فى باريس قبيل العودة إلى بروكسل نقطة انطلاقنا كل صباح، حيث كان بعض زبائنها يجلسون على كراسى فوق الرصيف مثلما هو الوضع فى مصر وجدت الحمام البلدى، فاستغربت أشد الاستغراب، إذ كنت أظنه من بقايا العهود البائدة عندنا، فإذا بى أقابله فى مدينة النور على سن ورمح.

وكنا، فى الفندق البلجيكى، نقضى الجزء الأول من الليل قبل أن ننام فى الضحك والتهكم. ومن ذلك أنه كانت هناك جماعة من الكلاب نسمع نباحها فى فناء الفندق حين نخلد إلى غرفنا، فلاحظ بعضنا ضاحكا أن درجة علو نباحها يقل كل ليلة عن التى قبلها، وفسر ذلك بعبقريته الفريدة بأن الفندق يذبح بعضها كل يوم ويقدم لحومها لنا فى العشاء، فضحكنا. منه لله صاحب الملاحظة! وذات ليلة تهنا فى الشوارع، وأردنا الرجوع إلى الفندق فاستوقفْنا سيدة بلجيكية وشرحنا لها الوضع، ويبدو أنها وجدتنا قد ابتعدنا عن الفندق كثيرا، فقالت تعرب عن دهشتها: أُولَ الله. فقلت وأنا أضحك: مش حاقول ألله. أقصد أننا فى ورطة لا يناسبها أن نردد كلمة "الله"، التى نستخدمها عند إبداء الإعجاب لا عند الوقوع فى ورطة.

وضحكنا . ثم عدنا بطبيعة الحال فى النهاية إلى الفندق. وكنت قد فتحت قبل السفر إلى بلجيكا الموسوعة البريطانية على مادة "بلجيكا" كى أعرف عن البلاد التى سنزورها ما يعيننى على التعامل معها وفهمها والاستمتاع بها .

وفى أثناء العودة إلى بريطانيا ركبنا العبّارة مثلما ركبناها فى الذهاب. ولكن على عكس المرة الأولى التى كان الموج فيها رهوا كان البحر هذه المرة مضطربا، فأُصِبْنا بدُوَار البحر، وشعرت بتعب بالغ وهمود تام، فكان أن تهالكت على كرسى هناك فى بهو السفينة عاجزا لا أَستطيع شيئًا بجانب كرسى تجلس عليه سيدة إنجليزية تعانى مثلما أعانى، وأنا أقول لها تعبيرا عما أشعر به من التضعضع: "I am going to die"، فرَدّتْ على الفور: "So am I". فلم أتمالك نفسى من الابتسام رغم ما أنا فيه من عناء وتعب، للسجعة الظريفة التى لا أدرى أقصدتْها السيدة قصدا أم جاء ردها على عواهنه. وحين انتهت الرحلة شعرت أننا كنا فى الجنة، ثم طُرِدْنا منها . لكنْ خفف عن النفس عودتى إلى أحبائى: زوجتى وطفلىَّ، بارك الله فيهم.

وهناك شىء بدأت الاهتمام به وأنا فى بريطانيا، ألا وهو الرجوع الكثير إلى المعاجم للتحقق من صحة استعمال هذه الكلمة أو ذلك التعبير أو ذاك التركيب. وكنت أفعل هذا حين أكتب رسالة لأحد الأصدقاء فى مصر أو أترجم شيئًا من الكتابين اللذين ترجمتهما هناك من الفرنسية والإنجليزية. بل لقد ركبنى الوسواس فى هذا الصدد لدرجة مزعجة. وزاد الطين بِلّةً شكى الكبير فى أن أستطيع العودة إلى التأليف مرة أخرى بعد انقطاعى عن ذلك طوال السنوات الست التى قضيتها هناك. وفى تلك الأثناء عرفت أن هناك أسماء كثيرة ثلاثية تقبل أكثر من ضبط ككلمة "رغْم" و"عبْر". وقد أضفت إلى ذلك فيما بعد لفظ "سمّ"، التى تضبط بفتح السين وكسرها وضمها بعدما كنت أظن أنها لا تقبل إلا فَتْحَ السين بمعنى "ثَقْب" وإلا ضَمَّها للسم القاتل.

وكان أحد الأسباب وراء ذلك هو أننى بدأت أنظر فى الكتاب المقدس كثيرا فلاحظت أنهم يحرصون على تشكيل كل كلمة بجميع ألوان الضبط التى تقبلها الكلمة، فيضعون على راء "رغْم" مثلا ضمة وفتحة وكسرة فى نفس الوقت. وطبعا كانت أخطئ فى ضبط بعض الكلمات جريا مع الاتجاه العام جاهلا أنه خطأ، كما هو الحال مع لفظ "ثقْب"، الذى كنت أضم قافه، فنبهنى زميل لى قبل سفرى إلى بريطانيا بأن الصواب فتحها. وكنت أراسل أصدقائى وزملائى المصريين من بريطانيا وأصف لهم فى تحمسٍ ونشوةٍ كل ما يلفت نظرى مقارنا بين الأوضاع هناك ونظيراتها فى بلادنا المحروسة. وحين عدت من البعثة استرددت بعض تلك الخطابات، وما برحت أحتفظ بها حتى الآن على أمل التمكن من نشرها يوما كى تعطى القارئ صورة لتفكيرى واهتماماتى وآرائى ومواقفى فى ذلك الحين. وهى خطابات ضاحكة فى كثير من الأحوال.

وقبيل عودتى إثر حصولى على الدكتورية فكرت فى أن أتعلم الفارسية والألمانية والعبرية على أن أبدأ هذا المشروع عقب وصولى إلى مصر، واشتريت لهذا الغرض بعض المعاجم الخاصة بتلك اللغات. بل لقد شرعت أتعلم على نفسى الفارسية وأنا لا أزال فى لندن، ومضيت فى ذلك شوطا معقولا حتى لقد كنت أستطيع التكلم بها فى أمور الحياة اليومية بينى وبين نفسى واضعا فى ذهنى أنه قد تتاح لى فرصة للذهاب إلى إيران والعمل ولو أستاذا زائرا فى إحدى جامعات طهران رغم أن فورة حماستى الأولى للثورة الإيرانية كانت قد خفت بعدما تنبهت إلى أنها ثورة شيعية قبل أن تكون إسلامية. أما الألمانية فقد انتسبت أنا وزوجتى بعد رجوعنا إلى القاهرة إلى معهد جوتة بوسط البلد، وقطعت المراحل الست فى المعهد فى ثلاثة فصول دراسية ليس إلا. لكن لسبب لا أذكره الآن انقطعت عن متابعة آخر مرحلة إلى نهايتها فلم أدخل امتحانها، وتوقفت عن الذهاب إلى المعهد المذكور. ومع هذا كنت قادرا على قراءة ترجمات القرآن الألمانية بغير قليل من اليسر. ولهذا يرى القارئ فى بعض كتبى فى ذلك الوقت أسماء عدد من تلك الترجمات.

ثم حدث أن سافرت فى آخر ثمانينات القرن البائد إلى السعودية فى إعارة لفرع جامعة أم القرى بالطائف، فاصطحبت معى بعض هذه الترجمات، التى كانت قد أرسلتها لى، تباعا من ألمانيا، مستشرقة ألمانية شابة لطيفة مهذبة عرفتها أنا وزوجتى فى القاهرة هى مارينا هاوكه، التى كرَّمتنى مشكورة بإرسال نسخة من رسالتها الأكاديمية بعد أن أحرزتْ درجة الدكتورية. إلا أن عدم وجود مطبوعات ألمانية بالسعودية وانشغالى هناك بتأليف الكتب شغلنى عن متابعة التبحر فى لغة الجرمان، بل أنسانيها بعد ذلك مع الأيام. أما العبرية فلم يتعد الأمر حدود الأمانى، إذ فكرت ذات مرة فى الانتساب إلى قسم اللغة العبرية بآداب عين شمس، إلا أننى لم أنفذ شيئا من تلك الأمنية، فبقيت حبيسة القلب، ثم أُنْسِيتُها مع الزمن.

وقبيل عودتى إلى مصر استخرجت أنا وزوجتى اشتراكين فى الأوتوبيس وجبنا بهما أرجاء لندن على مدى أسبوع كامل استمتعنا خلاله كما لم نستمتع طوال السنوات الست التى قضيناها فى بريطانيا. لقد كنت انتهيت من الدراسة، وصرت فى حكم الحاصل على الدكتورية، فضلا عن أننا أصبحنا نتصرف هناك كما لو كنا من أهل البلاد، فلا حنين مؤلم ولا ملل ولا كآبة رغم أننا كنا نتطلع إلى العودة، لكنه التطلع المبهج لا المزعج كما كان الحال فى بداية إقامتنا فى بلاد الإنجليز على ما حكيت من قبل. وكنا، خلال هذا الأسبوع، نخرج من البيت صباحا وقد جهزنا الشطائر والعصائر، إلى جانب ما كنا نشتريه ونحن بالخارج من آيس كريم وما إليه، ونظل طول النهار وجزءا من الليل نركب هذه الحافلة أو تلك فى الطابق الثانى ونتفرج على الشوارع والمحلات إلى أن نجد شيئا مغريا فننزل من الحافلة ونتمشى فى ذلك المكان حتى نشبع منه، فنركب حافلة أخرى تقلنا إلى حى آخر حسب المصادفة. وفى النهاية حين نشعر أننا قد ارتوينا بهجة ومسرة كنا نعود إلى البيت... وهكذا دواليك طوال الأيام السبعة، التى يمكن أن نسميها على طريقة أفلام الستينات المصرية: "سبعة أيام فى الجنة". لقد كنا فى الصيف آنذاك، وما أدراكم ما الصيف فى بريطانيا؟ وتبدت لنا لندن فى أبهى زينتها، وكنا نحن أيضا فى أحسن حالاتنا النفسية. وكنت، حين أعود آخر النهار، أعكف على رسالتى

الجامعية أترجم منها مقطوعية ذلك اليوم حتى انتهيت منها مع انتهاء الشهرين اللذين أعطانى المكتب الثقافى الحق فى قضائهما فى بريطانيا مطلق السراح لمجرد الاستمتاع بعد الانتهاء بنجاح من الدكتوراه. يا لها من أيام!

هذا، ولا بد عن كلمة عن الجو فى بريطانيا . إنها فى الصيف، حين تشرق الشمس، جنة الله فى الأرض بخضرتها وغزارة أشجارها ورقة شمسها وتنوع تضاريسها وجمال ريفها وما فيه من نظافة ونظام. وهو ما ينطبق على مدنها أيضا، فالمشى فيها متعة، إذ الرصيف موجود فى كل مكان لا يغيب أبدا بحيث إنك تمشى من أول المدينة إلى نهايتها دون أن تغادر الرصيف، اللهم إلا حين تريد عبور الشارع فحسب. كما أن الحمامات متوافرة فى كل مكان لا ينقطع منها الماء ولا الصابون ولا المناشف، وهى نظيفة تمام النظافة، فلا قاذورات ولا نتانات، وإن كانت العبارات والمناظر البذيئة موجودة على جدران مراحيضها وبطانات أبوابها رغم ما يسود المجتمع هناك من إباحية كنت أتصور أنها كفيلة بانصرافهم عن كتابة مثل تلك العبارات أو رسم هذه المناظر.

أما فى الشتاء فتهبط درجة الحرارة فى بعض الأحيان إلى مستوى لا يطاق. كنت فى زيارة للندن يوما مع رجلين من الباكستان حين كنت لا أزال من سكان أكسفورد، وكان الجو باردا، ورغم أنى كنت مرتديا سترة صوفية وبلوفرا صوفيا ومعطفا صوفيا فقد شعرت حين نزلت من السيارة أن مناشير تقطع عظامى. رهيب! كما أننى، فى الشتاء الذى سبق عودتى، كنت بصحبة مصرى فى سيارته قريبا من أكسفورد فى مشوار ما، وكانت ندف الثلج قد شرعت تنزل ونحن نغارد لندن صباحا، إلا أننى لم أكن أشعر بأى برد وأنا بداخل السيارة نظرا لتشغيله التكييف الممتع الذى كان يشع دفئا حنونا . وفجأة تعطلت السيارة بالليل قريبا من إحدى القرى الأكسفوردية، وفى اليوم التالى كان علينا أن نسير إلى البيت الذى كنا قد استأجرنا فيه الليلة السابقة غرفة نقيم فيها إلى أن يذوب الجليد بضع عشرات من الأمتار فى الثلج الذى كان قد تكاثف، فكنت

أشعر بنار لا تطاق فى قدميَّ وكأننى أعذّب فى الجحيم. بل لقد شعرت أنهما قد انتفختا وبلغتا من الضخامة بحيث أمستا تملآن الكون كله، فكدت أبكى لولا بقية من تجمُّل لم يشأ أن يتخلى عنى فيفضح ضعفى. وما إن بلغنا الغرفة المستأجرة حتى تشهدت غير مصدق بالنجاة، وأخذت حماما ساخنا وصليت، ثم فتحت كتابا معى بعنوان "An Apology for Mohammed and the Koran" لجون دافنبورت، من مطبوعات القرن التاسع عشر، ومضيت أقرأ فيه فى سكينة وسلام واستمتاع بدفء الغرفة، بينما استراح زميلى فى سريره. وفى بعض أيام الشتاء ينتشر الضباب ويصبح النهار مظلما كأنه ليل حتى إنك لا تستطيع أن تبصر جارك فى الطريق إذا ابتعد عنك مترا.

وكنت ذات صباح فى هستنجز أيام كنا نسكن مع أسر بريطانية كى نتعود على التفاهم بالإنجليزية ونلتقط بعض التعبيرات الحية من أفواه أفرادها، وكنت لابسا سترة بلاستيكية سميكة محشوة ضد البرد، وهطل المطر وأنا أسير فى طرقات المدينة قرب البيت الذى أنزل فيه، فلجأت إلى ركن بين المساكن مزدحم بالشجر، وجلست على مقعد حجرى هناك، وأخذت أفكر فيما عساى أقوله لأصدقائى وصفا لما أنا فيه الآن، فخطر لى أبيات أبى القاسم الشابى التالية التى تبدو وكأنه قد نظمها خصيصا فى وصف سترتى التى تقينى البرد والمطر:

سقف بيتى حديدْ * ركن بيتى حجرْ

فاعصفى يا رياحْ * وانتحب يا شجرْ

واسبحى يا غيومْ * واهطلى بالمطرْ

واقصفى يا رعودْ * لست أخشى خطرْ

وقلت لنفسى: صدق الإنجليز حين قالوا فى مثل هذا المطر الغزير الذى يَسُحّ سَحًّا: إنها تمطر قططا وكلابا (raining cats and dogs). وكنت سعيدا وأنا فى موقفى ذاك الغريب.

وأخيرا حان ميعاد العودة إلى أرض الوطن بعد غيابٍ امتدَّ ستَّ سنواتٍ زرتُ فيها مصر أنا وأسرتى فى منتصف المسافة لمدة شهر. وكانت عودتى فى بداية العام الدراسى ١٩٨٢– ١٩٨٣م، وتسلمت عملى، وأعطَوْنى جدولا لم أكن مستعدا له، إذ كان علىَّ بمقتضاه أن أتناول بالتحليل قصائد من العصر الإسلامى والأموى، والعصر العباسى، والعصر الحديث، إلى جانب مادة الترجمة، ومادة القصة، فاشتريتُ نسخة من كتاب "المنتخب من أدب العرب" وقمت باختيار عدد من القصائد الإسلامية والأموية والعباسية مما يتضمنه من أشعار، أما قصائد الشعر الحديث فقد انتقيت نصوصها المبكرة من هذا الكتاب، والباقى من دواوين أصحابها مباشرة. كما اخترت عشر روايات مشهورة قمت بتحليل كل منها فى نحو عشرين صفحة. وبذلك مر العام الدراسى معى على خير.

وبالنسبة للترجمة اخترت عددا من النصوص الإنجليزية التى تناسب الطلاب المصريين، وقمت بترجمتها شارحا فى الهوامش الطريقة التى ترجمتها بها والأسباب التى دفعتنى إلى اتباع تلك الطريقة ولماذا قسمت هذه الجملة الإنجليزية إلى جملتين فى الترجمة أو ضممت هاتين الجملتين فى جملة واحدة، ولماذا زدت هنا كلمة، وحذفت هنا أخرى. . . إلخ، مع اهتبال كل سانحة للمقارنة بين اللغة الإنجليزية واللغة العربية من ناحية العبارات والتراكيب والنحو والمفردات وغير ذلك. ولم أكتف بهذا الجانب التطبيقى، بل قدمت للكتاب بمقارنة نظرية بين اللغتين، وإن لم تكن شديدة التفصيل، قصدت بها تنبيه الطالب إلى الطريقة التى يمكن أن يتعامل بها مع الإنجليزية حين يريد ترجمة نص من نصوصها إلى لغة الضاد. وسميت الكتاب: "الترجمة من الإنجليزية– منهج جديد". وكان الكتاب ثمرة سريعة لما مررت به من تجارب أثناء تعلمى لغة جونبول.

إلا أن لجنة الترقية التى قرأت أعمالى بعد نحو خمس سنوات لم تجد فى الكتاب أى شىء صالح البتة، مثلما لم يعجبها شىء فى كتابى الآخر: "فصول من النقد القصصى"، إذ ما من شىء كتبتُه فى ذلك الكتاب إلا أنكرتْه اللجنة المذكورة كما هو الحال حين أتت إلى تحليلى لرواية نجيب محفوظ: "رحلة ابن

فطومة"، الذى تناولتُ فيه أسلوبها وشخصياتها وبناءها الفنى ورموزها رمزا رمزا والقضايا التى عالجتْها، فلم تبال اللجنة الموقرة بأى شىء من ذلك، وشرعتْ تنتقد وتستنكر عائبة علىَّ، إى والله، أننى لم أهتم بفك الرموز التى تحتوى عليها الرواية. بالله ماذا يمكن أن يقال فى الرد على هذا الانتقاد؟ شكرا جزيلا. لقد سكتُّ، وتركت كتابى يشهد لى يوم القيامة حين نقف أمام الديان سبحانه وتعالى. المضحك أن الذين يتقدمون للترقية اليوم يمكنهم الاكتفاء بعدة أبحاث صغيرة لا تزيد على أربعة فصول من كتابى المذكور حجما وموضوعا.

وأذكر أننى، فى العام الأول بعد عودتى من بريطانيا وانخراطى فى العملية التعليمية، قد أنفقتُ مع الطلاب فى المحاضرات شهرا كاملا فى تحليل قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير الشاعر المخضرم المشهور، ولم أكد أترك فيها شيئًا دون شرح، ثم بعد أن انتهيت من الشرح والتحليل والقراءة المتكررة طلبت من الطلاب أن يقوم أحدهم فيتلو القصيدة بصوتٍ عالٍ حتى أطمئن إلى أنهم قد فهموها ومن ثم يستطيعون قراءتها قراءة سليمة، فرفع طالب يده فى تحمس شديد طالبا التلاوة، فأعطيته الإذن بعدما اطمأننت إلى أنه ذو صوت مجلجل واثق يسمعه كل من فى قاعة المحاضرة من الطلاب بوضوح تام، كما كانت مخارج الألفاظ عنده واضحة جدا، إلا أن الرضا لم يستغرق أكثر من الزمن الذى استغرقه نطق الشطر الأول من البيت الأول، إذ سمعت الطالب ذا الصوت المجلجل والثقة الشديدة بالنفس والمخارج الواضحة يقول: "بانت سعادُ، فقلبى اليوم مُتَبَوِّلْ". فشعرت للتو أنى قد سقطت من حالق على جذور رقبتى، وضحكت وضحك الطلاب، وقلت فى نفسى: لله يا زَمْرِى! أهذه هى ثمرة الجهد المضنى الذى بذلته طوال شهر كامل؟ ترى ما علاقة الحب والعذاب والهوان الذى يلاقيه المحب على يد حبيبته بالتبول؟ الحمد لله أن الأمر قد وقف عند حد التبول لم يتجاوزه إلى شىء آخر! ثم كيف فات الطالب اللوذعى أن التبول لا علاقة له بالقلب؟

لقد أنفقنا وقتا طويلا على مدار أربعة أسابيع نحاول أن نعرف: هل سعاد هذه امرأة حقيقية أو مجرد رمز؟ وإذا كانت امرأة حقيقية فكيف لم يجد الشاعر حرجا فى أن يتحدث أمام النبى عن سحر فمها وحلاوة

ريقها ثم يشبه هذا الريق بالخمر متفننا فى وصفها بما يدل على أنه عاشق موله بالشراب؟ بل كيف تركه النبى يقول هذا الذى قال؟ وإذا كانت مجرد رمز فما المقصود بها؟ هل المقصود بها مثلا الجاهلية، التى يراها الشاعر قد خذلته ولم تنفعه بشىء أمام المد الإسلامى الكاسح؟ . . . إلى آخر تلك القضايا التى تثيرها القصيدة الجميلة. لكن الطالب العبقرى قد ترك هذا كله إلى البول والتبول. ولكن يحمد له على كل حال أنه لم يطالب بأخذ عينة من بول الشاعر لتحليلها فى أحد المعامل لمعرفة مدى إصابته بالسكر جراء القهر الذى جرعته إياه حبيبته القاسية الظالمة، أو الذى أذاقه إياه طالبنا الجهورى الصوت بكلامه عن التبول. وهكذا يكون التعامل مع النصوص الشعرية على أيدى بعض طلابنا . ومع ذلك فقد كان مستوى الطلاب فى تلك الحقبة أفضل كثيرا من مستواهم حاليا . سألتنى منذ أيامٍ طالبة من طلاب السنة التمهيدية لدراسة الماجستير، متخصصة فى الأدب العربى ولغته، عن معنى كلمات كـ"طنطنة" و"على عواهنه" وما أشبههما من الألفاظ والعبارات، بينما اكتفى زملاؤها وزميلاتها بالنظر إليها دون أن يتقدم أحد للرد على استفساراتها بما يدل على أن المستوى واحد .

وكنت، وما زلت، أحاول دائما انتهاز كل فرصة لتقديم الجديد فى محاضراتى وكتبى ودراساتى حتى لو كان الموضوع الذى أعالجه قد سبق أن كتب فيه مؤلفون كثيرون. ودائما ما أقول لطلابى إننى أفيد من أسئلتهم وتعليقاتهم مهما كان مستواها، وإن الأستاذ لا يستغنى عن طلابه، إذ إنهم بما يقولونه فى المحاضرة يستفزون عقله وفكره وخياله، أو هذا ما يحدث معى على الأقل. ودائما ما أكرر على مسامعهم أن الأستاذ مشروع فكرى لا يكتمل أبدا حتى لو امتد عمره إلى يوم الدين، وإن من الطلاب من يمكن أن يعرف ما لا يعرفه أستاذه رغم آلاف الكتب التى قرأها واحد مثلى.

فمثلا كنت أحاضر طلابى فى قسم اللغة العربية بآداب عين شمس أواخر ثمانينات القرن الماضى فى موضوع "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين"، وهو الموضوع الذى كنت قد وضعت فيه كتابا

بهذا العنوان، وإذا بطالب يرفع يده ويقول إننى قد ظلمت طه حسين. يقصد أننى قد اتهمته بأنه أخذ إنكاره للشعر الجاهلى من المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث. وفى الحال وجدتنى أقول له: اسمع يا فلان. لقد نسيتُ، وأنا أؤلف ذلك الكتاب، شيئًا مهما لا أدرى كيف ولا لم فاتنى، ألا وهو الرجوع إلى كتاب "قادة الفكر" للدكتور طه حسين، إذ فيه فصل هام عن هوميروس وردتْ فيه الإشارة إلى الشعر الجاهلى وجاهلية اليونان. أرجو أن تنزل الآن إلى المكتبة وتستعير الكتاب المذكور وتحضره بسرعة. وذهب الطالب، لكنه لم يستطع اللحاق بالمحاضرة مرة أخرى، فأتى إلى مكتبى حيث ألفانى أنتظره مع بعض زملائه، وفى يده الكتاب، الذى أخذته منه شاكرا له تعبه، وفتحتُه على الفصل الأول الخاص بهوميروس وشرعت أقلب صفحاته. ولم يطل بنا الانتظار، إذ وقعتُ على نصٍّ مهمٍّ جدا للدكتور طه يقول فيه إنه ما كانت الحضارة الإسلامية، التى ظهر فيها مَنْ ظهر مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال، لِتُوجَد لو لم توجد البداوة العربية التى سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم. هكذا بالنص على ما سوف يأتى بيانه.

فأريتُ النصّ للطلاب ثم شفعتُ ذلك، وأنا أبتسم، بسؤال الطالب الذى فجَّر المسألة قائلا: "أوما تزال عند اتهامك لى بأنى ظلمت طه حسين؟ إن هذا الكتاب، كما يتضح من مقدمته، قد صدر قبل ظهور البحث الذى وضعه مرجليوث عن الشعر الجاهلى بأسابيع قليلة جدا مما يدل على أن الدكتور طه لم يكن، حتى ظهور دراسة مرجليوث، يشك أدنى شك فى صحة الشعر الجاهلى أو فى وجود شعرائه. ثم إنه لم يكتف بذلك، بل ها هو ذا يؤكد أنه لولا وجود ذلك الشعر ما وُجِدت الحضارة الإسلامية. وهو كلام كبير وخطير!". وقد انتهى الأمر بعد فترة بأن وضعتُ بحثا من عشرات الصفحات برهنت فيه على أن طه حسين لا يمكن إلا أن يكون أخذ نظريته فى إنكار الشعر الجاهلى من مرجليوث، وإن لم أنشر هذا البحث

على المشباك إلا بعد ذلك بسنوات، وعنوانه: "نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى: سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وفى إحدى المحاضرات أواسط تسعينات القرن المنصرم بتربية الطائف، وكنت أتحدث أوانئذ عن بشار وابن المقفع، انبرى بعض الطلاب السعوديين يرددون على سبيل الجزم ما يقال عن زندقة بشار وابن المقفع، فقلت لهم إننى لم ألحظ فيما تركه الرجلان من آثار أدبية ما يدل على زندقة. ثم وعدتهم أننى سأحاول أن أكتب فى ذلك الموضوع: فأما بالنسبة لبشار فقد كتبت عقب ذلك كتابا كاملا تجاوز أربعمائة الصفحة عنه، وفيه فصل طويل عن عقيدته فتشت فيه كل شىء يتعلق بتلك القضية من أخبار الشاعر وشعره وأحداث حياته وكلام العلماء عنه وعن دينه لأنتهى، بضمير مستريح، إلى القول بأننى لا أستطيع أبدا المشاركة فى اتهام الرجل بالزندقة.

أما ابن المقفع فقد بحثت طويلا، ولكن دونما طائل، عن كتاب الطباطبائى الذى ادعى فيه أن ابن المقفع قد وضع كتابا فى معارضة القرآن. ولهذا لم يتسن لى أن أضع وعدى عنه موضوع التنفيذ. وأخيرا منذ سنوات ثلاث تقريبا استطعت الوصول إلى صورة من كتاب الطباطبائى بتحقيق المستشرق الإيطالى فرانشيسكو جبريلى أرسلها لى من سويسرا الأستاذ ثابت عيد مشكورا ومأجورا، وطبعة جديدة بتحقيق جديد، وإن كان رديئا، كانت صادرة لتوها زودتنى بها طالبة ذكية ترتدى النقاب، فكافأتها على اهتمامها بما أرجو أن يكون قد أدخل على قلبها السرور كما أدخلت هى مشكورة على قلبى السرور. وكانت ثمرة ذلك كتابة دراسة من عشرات الصفحات عن عقيدة ابن المقفع أثبتُّ فيها أن ما قيل عن زندقته هو كلام مرسل لا أساس له من الصحة. والدراسة منشورة على المشباك منذ ذلك الحين.

ومنذ عدة سنوات قليلة كنت فى سبيلى إلى دخول محاضرة للسنة الأولى بقسم اللغة العربية بآداب عين شمس فى مادة "ثقافة العرب قبل الإسلام"، فقابلنى فى الطرقة طالب من طلاب السنة التمهيدية لدراسة

الماجستير، ولما علم أننى داخل محاضرة استسمحنى أن يحضرها بدلا من تضييع وقته دون استفادة، إذ اعتذر أحد أساتذتهم عن حضور محاضرته فى ذلك الوقت، فأذنت له. وما إن شرعت أتكلم فى موضوع الدرس، وكان عن انتحال الشعر الجاهلى ونحله، حتى اندفع يقول إن ابن سلام قد أنكر الشعر المنسوب إلى عاد وثمود بحقٍّ متسائلا: من أدى لنا ذلك الشعر يا ترى، والقرآن يقول إن هاتين القبيلتين قد بادتا عن آخرهما، فلم يبق منهما أحد يمكن أن يروى لنا شعر شعرائهما ؟ والطريف أننى، ككل الباحثين، كنت أتقبل ما قاله ابن سلام دون نقاش على أنه هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من أية جهة، لكن ما إن سمعت ما تفوه به الطالب على غير انتظار ولا مقدمات حتى قلت له من فورى: هل تظن أن الله سبحانه قد أهلك مع عاد وثمود نبييهما ؟ فأجاب أنْ لا. فعدت فسألته: وهل تظن أنه سبحانه قد أهلك معهما من آمن من تلك القبيلتين بهما ؟ فعاد يقول: لا. قلت للطلاب: أعطونى مصحفا وافتحوه على آيات سورة "هود" التى تتكلم عن هذين النبيين وقوميهما. ثم قرأت من السورة المذكورة قوله تعالى عن القبيلتين المذكورتين وما أنزله بكل منهما من عقاب: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ"، "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" (الآيتان ٥٨، ٦٦)، ثم عقبتُ قائلا: فمن الواضح أن عادا وثمود لم تُسْتَأْصَلا على بَكْرَة أبيهما، بل نجى الله نبييهما ومن آمن بهما، وإذن فمن المحتمل جدا أن يكون بعض هؤلاء المؤمنين الناجين من القبيلتين هم الذين رَوَوْا ما بلغنا عنهما من شعر. أقول: من المحتمل، ولا أجزم بالأمر.

وعلى هذا تسقط حجة ابن سلام، التى غبنا نرددها كل هذا الوقت الطويل دون أن نتريث لحظة لنعيد فيها النظر. ولم أكتف بهذا، بل سرعان ما كتبت بحثا كبيرا أناقش فيه كل ما كتبه ابن سلام عن ذلك الموضوع فى مقدمة كتابه: "الشعر والشعراء"، فوجدته قد غالى فى شكوكه دون داع. صحيح أنه لا بد أن يكون هناك شعر جاهلى منحول ومنتحَل، لكن ليس بهذا الاتساع ولا للأسباب التى ساقها ابن سلام بالضرورة.

ويجد القارئ هذا البحث فى بداية كتابى: "الأدب العربى– نظرة عامة لبيير كاكا: عرض ومناقشة" تحت عنوان "ابن سلام و الشك فى الشعر الجاهلى" . فكما يرى القارئ كان للطلاب فضل علىّ من خلال تعليقاتهم واعتراضاتهم وأسئلتهم العارضة. فما بالك لو كانوا يقرأون كتبا ودراسات إضافية غير ما هو مقرر عليهم، ويفكرون فيما يقرأون ويقلبونه فى أذهانهم لتكوين رأى خاص بهم يتحمسون من أجله ويدعون له ويدافعون عنه، ولا يكتفون بالحديث العفوى عما بقى فى أذهانهم مما سمعوه ذات مرة فى محاضرة أو طالعوه فى كتاب مقرر قرأوه من أجل الامتحان؟

وقد ألفت بعد عودتى من بريطانيا كثيرا من الكتب والدراسات ونشرتها ورقيا، كما نشرت فى السنوات العشر الأخيرة الكثير جدا مما كتبتُ على المشباك (الإنترنت) . ومما ألفته من كتب أرجو من الله أن يجعلها فى موازين حسناتى الشائلة: "المستشرقون والقرآن" و"مصدر القرآن" و"دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل" و"نظرات فى الموسوعة العربية الميسرة" و"القرآن والحديث– مقارنة أسلوبية" و"لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه" و"الحضارة الإسلامية– نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ" و"أفكار مارقة" و"فى التصوف وأدب المتصوفة" و"عصمة القرآن وجهالات المبشرين" و"الفرقان الحق: فضيحة العصر" و"موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين" و"دفاع عن النحو والفصحى" و"وليمة لأعشاب البحر بين قيم الإسلام وحرية الإبداع" و"مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى" و"إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية: خطاب مفتوح للدكتور محمود على مراد"، و"ثورة الإسلام: أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا" و"افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين — دراسة نقدية لرواية العار" و"النزعة النصرانية فى قاموس المنجد" . . . إلخ. . . إلخ.

ولعل القارئ قد لاحظ أن كل الكتب المذكورة فى الفقرة السابقة هى دراسات إسلامية، وقد يتسرع بعض القراء فيظنون أننى لا أعتز إلا بهذه الكتب تصورا منى أن الله سبحانه لا يأجر الكاتب إلا على كتبه

الدينية. بيد أنى أسارع هنا إلى التأكيد بأن هذا المعنى أبعد ما يكون عن ذهنى وقصدى، فالله سبحانه يأجر المؤلفين على كل حرف يكتبونه، سواء كان فى الدين أو فى الكيمياء أو الفيزياء أو النحو أو اللغات الأجنبية أو الطب أو فى غير ذلك، فمداد العلماء، أىّ علماء، يساوى عنده سبحانه وتعالى دماء الشهداء دون تفرقة بين عالم وعالم. لكننى قد أردت أن ألفت نظر القارئ إلى أننى، وإن كنت متخصصا فى الأدب العربى والنقد الأدبى، لم أنحصر فى نطاق تخصصى لا أخرج عنه.

كذلك فإن لبعض هذه الكتب حكايات تستحق أن تُرْوَى: من ذلك مثلا أننى، وأنا فى السعودية معارا إلى جامعة أم القرى بفرع الطائف، فوجئت بزميلنا رئيس القسم، وكان مصريا، يخبرنى ذات يوم بأن "فلانا الفلانى"، قبل أن يغادر المملكة عائدا إلى مصر بعد انتهاء مدة إعارته، قد كتب فىَّ إلى إدارة جامعة أم القرى شكوى يتهمنى فيها بالكفر مرفقا بها نسخة من كتابى: "مصدر القرآن" كدليل على هذا الكفر بعدما سرقها من مكتبة زميل مصرى آخر يشتغل معنا فى ذات الجامعة كنت أهديتها إليه. فاستغربت الخبر لأكثر من سبب: أن كتابى هو دفاع علمى شرس عن صدق نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ودعنا من الكتب الأخرى التى نذرت نفسى فيها للتصدى للمستشرقين والمبشرين وكارهى الإسلام عموما . فكيف بلغت بفلان الفلانى الجرأة والوقاحة مبلغ قلب الحقائق وجعل الدفاع عن الإسلام ونبيه كفرا وضلالا ؟ ثم إن هذا الفلان الفلانى كان معروفا بأنه شَخّارٌ نَخّارٌ سبّابٌ للدين، ولا يذكر أمه إلا بسوأتها، ولا يجد حرجا فى أن يتحدث عما يجرى بينه وبين زوجته فى الفراش، فضلا عن أننى قد ساعدت هذا الفلان الفلانى مساعدة فعالة وحاسمة على تأليف معجم نشره وأخذ منه مالا غير قليل، وهو الذى لم يكن قد كتب فى ذلك الموضوع سوى صفحات لا تصلح أن تكون معجما ولا نصف معجم ولا حتى عشره، بل لم يفكر مجرد تفكير فى أن يجعل منه معجما ، لكنْ مجرد بحث صغير فى ورقات معدودات، فظللت معه، مخالفا مشورة زوجتى، التى كانت ترى فيه شخصا لا يُؤْمَن جانبه، أوجّهه وأدله على المصادر والمراجع وأخطط له المنهج الذى ينبغى أن

يكون عليه الكتاب، وأمده بالمعاجم الأجنبية التى لا يفقه من لغاتها ولا من أية لغة أجنبية أخرى شيئًا بالمرة، وغير ذلك من ألوان المساعدة حتى انتهى من المعجم، فأخبرنى أن اسمى سوف "يلعلع" فى المقدمة باعتبارى صاحب الجميل الأوفى عليه. وفوق ذلك كنت أحيانا ما أدخل الأستوديو الذى يحاضر منه للطالبات عن طريق الدائرة التلفازية المغلقة، ويتصادف أن تكون الطالبات قد سألنه سؤالا محرجا فيغلق الميكروفون ويسألنى عن الجواب فأمده به، كما هو الحال حين سالنى مرة عن الفرق بين الوزن الصرفى للفعل المضارع: "يَرْجُون" حين يكون للرجال وبينه هو نفسه حين يكون للنساء، فقلت له: إنه "يَفْعُون" و"يَفْعُلْنَ" على التوالى، ثم شفعت ذلك بشرح السبب الذى وراء هذا الفرق بين الوزنين، كل ذلك اعتمادا على ما كنت درسته فى المرحلة الإعدادية بالأزهر. وفوق هذا كانت الكتب التى ألفها فى النحو تتميز بالسذاجة والاضطراب والغموض فى الشرح والاهتزاز فى تعريف المصطلحات التى يعرفها كل من له أى تماس بذلك العلم. ومع هذا كله فإن المعجم المذكور، عندما خرج إلى النور، كان يحمل أسماء عدد ممن كانوا يعملون معنا فى القسم رغم أنهم لم يساعدوه عشر معشار ما ساعدته، ما عدا اسمى أنا. ولم أقف كثيرا عند هذا، وإن كنت لم أعرفه إلا بعد عودتى أنا أيضا من الإعارة بزمن غير قصير.

كذلك استغربت الأمر لأن ما أخبرنيه الزميل المذكور لم يكن له من معنى إلا أن القسم كان يعلم بالشكوى الكاذبة ولم يتحرك ويتصل بالجامعة يُفْهِمها أن الأمر كيدى لا أساس له من الصحة مع أنهم جميعا كانوا يكرهون فلانا الفلانى هذا وَيَرَوْنَه شرا محضا، لكنهم كانوا جميعا يخشون أذاه. ثم لماذا يقول لى الزميل هذا الكلام الآن بعدما صار فى ذمة التاريخ؟ والعجيب أنه قد تبين لى أن لِحْيَةً تولت بعد ذلك رئاسة إحدى الجمعيات الإسلامية فى القاهرة كانت مشتركة فى الأمر ولو بالصمت وانتظار الأذى، إن لم يكن اشتراكا إيجابيا. ومن أطرف الأمور أنه، بعد مرور سنوات غير قليلة أعيد طبع "مصدر القرآن"، الذى كان فى الطبعة الأولى مكتوبا باليد بخط النسخ، وأخذه الناشر وعرضه فى معرضٍ كتابيٍّ كانت جامعة أم القرى قد أقامته فى رحابها،

فكان أحد الكتب التى حظيت فى هذا المعرض بالثناء وعُلِّق اسمه فى لوحة الشرف. لقد مات صاحب اللحية، وكنا نسميه: "الرجل المرقّع" لخفة ظله ولأنه كان يفوت فى الحديد مهما كانت صعوبة المأزق الذى يجد نفسه فيه، ولحرصه الواضح على المال.

ويوم مات كتب عنه أحد الصحفيين الشبان يثنى على زهده وعزوفه عن ملذات الدنيا، فذكر أنه دخل عليه يوم عيد الأضحى فوجده يأكل الفول النابت عازفا بهذا عن اللحم. فضحكتُ لأنى أعرف من حرصه الشديد على المال ما لا يعرفه الصحفى الشاب الساذج حتى إنه كان يقتسم هو وأسرة زوج ابنته الأستاذ بالجامعة وبنتان أخريان له فى سن الزواج شقة واحدة توفيرا للفلوس رغم كبر مرتبيهما، وحتى إن الطعام الذى كان يقدمه لزملائه فى جامعة أم القرى حين تأتى نوبته لدعوتنا إلى الطعام طبقا للنظام الذى كنا نجرى عليه ونُدْعَى بمقتضاه إلى بيت أحدنا كل أسبوعين تقريبا، كان مثار تندر من الزملاء، إذ بينما كان كل من الداعين يبذل قصارى جهده لتكون الدعوة حافلة بأطايب اللحم كان صاحب اللحية يقدم لنا الفطير والجبن الأبيض والعسل الأسود. والطريف أننى لم أكن أجد غضاضة فى هذا الطعام، بل على العكس كنت أرى فيه لونا من التغيير يخرجنا عن الوتيرة الواحدة المملة، علاوة على أن يوم ذهابنا إلى بيته كان يوما بهيجا لخفة ظل الرجل كما سبق القول. وقد مات صاحبنا فلان الفلانى أيضا تاركا وراءه دكان الكشرى، الذى لم يجد، وهو الأستاذ الجامعى، مشروعا غيره يستثمر فيه فلوس السعودية.

أما كتاب "إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية" فتتلخص قصته فى أن المستشار رابح لطفى جمعة ابن الأستاذ محمد لطفى جمعة كان يحدثنى فى تسعينات القرن الماضى عن صديق له يعمل أستاذا بالجامعات السويسرية ويخدم الإسلام هناك اسمه د. محمود على مراد، وأنه قد حصل من باريس على درجة الدكتورية بأطروحة أعدها عن سيرة ابن إسحاق، فأبديت تشوقى إلى الاطلاع عليها لعلى أكتب عنها كلمة أو أترجمها مثلا، فلم يكذّب المرحوم جمعة خبرا، وأرسل إلى د. مراد، الذى سارع فبعث لى بنسخة من

رسالته. وما إن وصلت الرسالة حتى شرعت أنظر فيها، فإذا بها هجوم ساحق ماحق على ابن إسحاق وسيرته ملخصه أنه اخترع سيرة نبوية من عندياته تقربا لخلفاء بنى العباس وتملقا لهم، وأن قريشا لم تضطهد الرسول قط، وأنه لم تكن هناك هجرة إلى الجبشة بل معسكرات اعتقال فى بعض المدن الحبشية المطلة على البحر الأحمر بضغط من القرشيين، وأن الأخدود الوارد ذكره فى سورة "البروج" هو أخدود حفره أبو لهب لتعذيب مسلمى مكة بالنار المتأججة فيه، ولا علاقة له بالموحدين المؤمنين بالمسيح الذين عذبهم اليهود، وأن هذه النار الملتهبة هى السبب فى تلقيب عم الرسول باسم "أبى لهب"، وأن أبا طالب عم الرسول لم يقم بحمايته، بل الله هو الذى حماه. . . إلى آخر مثل هذا الكلام الذى يقوم على التشكيك فى كل وقائع السيرة المحمدية وتقديم سيرة أخرى من بُنَيّات الوهم بحجة تطبيق المناهج المعاصرة فى البحث على ذلك الموضوع.

فكان أن شمرت عن ساعد الجدّ وساقه وابتدأت أكتب ردا علميا منهجيا دقيقا عن تلك الأطروحة الغريبة الشاذة، ثم سرعان ما أصدرت الكتاب، وأرسلت منه عدة نسخ إلى د. مراد فى سويسرا، الذى بادر عقب ذلك إلى الاتصال بى، فظننت أنه يريد أن ينبئنى بوصول نسخ كتابى إليه، لأفاجأ بأنه إنما اتصل ليستفسر عن وصول رسالته إلىّ أو لا، فحكيت له الأمر، وهو ما دهش له أشد الدهش لسرعة قراءتى رسالته وكتابتى كتابا عنها، وإن كان حتى ذلك الحين لم يكن يعلم بفحوى ما سطره قلمى. فلما وصلته النسخ الهدايا فوجئت به ينشر فى مجلة "المصور" مقالا يتهمنى فيه بأننى أُرْهِبه وأكفّره، وهو بطبيعة الحال ما لا صحة له البتة. فكتبت بدورى فى نفس المجلة ردا على الرد بَسَطْتُ فيه حقيقة المسألة أمام أعين القراء وقلت لهم: إذا استطاع أى إنسان أن يجد فى كتابى المذكور أى تهديد أو تكفير فأنا جاهز لأى قرار يتخذه القراء بشأن ما كتبت أيا كانت طبيعة ذلك القرار. ولم يعلق الدكتور مراد بكلمة على مقالى ذاك، ولم يكن باستطاعته أن يعلق لأنه لم يحدث أن كفّرته أو هدّدته قط.

ثم مرت الأيام، وإذا بى، وأنا خارجٌ ذات عصرية من مبنى ماسبيرو بعد الانتهاء من تسجيل أحد البرامج الإذاعية، أجد فى كشك الصحف والمجلات الموجود على يسار الخارج من ماسبيرو العدد الجديد من مجلة "الهلال"، فأمسكت به أتعرف إلى موضوعاته، لأجد مقالا طويلا نسبيا عن كتابى المذكور مع صورة للكتاب أعلى كل صفحة من صفحات المقال، وإذا المقال للدكتور محمد سليم العوا فى فض الاشتباك الحاصل بينى وبين د. مراد. وللأسف قد ضاع عدد "الهلال" مع ما ضاع من أشياء كثيرة منى. ثم إن د. مراد قد مات بعد ذلك بوقت غير طويل دون أن أراه أو أرى حتى صورته. يا خسارة!

أما كتاب "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية" فكنت ألفته فى أواخر ثمانينات القرن المنصرم، ثم أخذته معى إلى السعودية وهو مسودة أملا فى أن أراجعه وأنشره هناك، بيد أنه لم يتح لى ذلك، فعدت به إلى مصر مرة أخرى بعدما اختلطت أوراقه وصار من الصعب علىّ أن أعيد ترتيبه كما كان. ثم بدا لى أن أنشره على حسابى، فطبعت منه خمسمائة نسخة اشترى الطلبة منها ما اشتروه، وأخذت أهدى الباقى كعادتى لمن يطلبه. وإنى لأستغرب كيف أن الناشرين لم يترامَوْا على نشره فى الوقت الذى ينشرون بتحمس بالغ كثيرا من الكتب التافهة. صحيح أننى لست ممن يسوقون أنفسهم جيدا، لكن أين ذُهِب بعقول الناشرين؟ هذا أمر محير! وللتاريخ أذكر أن أيا من دورالنشر المسماة بالإسلامية لم تفكر فى الاتصال بى لنشر أى من كتبى، على الأقل: كتبى التى أدافع فيها عن الإسلام، فى الوقت الذى تنشر فيه الغث والثمين لمن يستحق ومن لا يستحق.

ثم مرت الأيام، وبدا للأستاذ عادل النادى مقدم برنامج "مع النقاد" سابقا أن يعرضه مشكورا فى حلقة من برنامجه، فاستضفت د. عبد العزيز نبوى وأستاذا آخر كبيرا مشهورا بكتابته فى الأدبيات والإسلاميات. وذهبت فأحضرته معى بالسيارة من بيته، وكانت معه حقيبة سوداء لاحظت أنه كان حريصا عليها طوال الطريق. ولما بلغنا مركن السيارات فى ميدان عبد المنعم رياض تركت سيارتى فيه، وأخذت الحقيبة من الأستاذ لأضعها فى شنطة السيارة إلى أن نعود، فأصر على أن يحملها معه إلى الإذاعة، فظننت أنه يخاف

عليها من السرقة، فحملتها عنه، وكانت أول مرة أحمل حقيبة لأحد ، وبررته لنفسى بأننى كبير فى السن، ولم تعد تلك المسائل ذات حساسية عندى البتة، فضلا عن أن الرجل ضيفى، كما أن احترامى له إنما هو احترام للعلم والعلماء . وفى أثناء تسجيل البرنامج، وبينما نحن منهمكون فى المناقشة والأخذ والرد، طلب الأستاذ الدكتور الكلمة وشرع يعاتبنى لأنى أهملت الإشارة إلى كتابه الذى سبق أن تناول فيه ذات الموضوع. قال هذا وهو يخرج كتابه عن البيان النبوى من الحقيبة، فكدت أضحك: إذن فهذا هو السبب فى حرصه على اصطحابها معه!

والحق أن ما قاله الأستاذ الدكتور خطأ صراح لأن الكتابين مختلفان تماما فى الموضوع وفى منهج التناول وفى النتائج، ولم يسبق لأحد طوال الأربعة عشر قرنا الماضية أن حاول الكتابة فى المقارنة العلمية الإحصائية بين كتاب الله وحديث الرسول من حيث المفردة والصيغة والتركيب والعبارة والمتصاحبات والمتضادات والأبنية الفنية قط. ومن هنا كتبت، ولأول مرة فى حياتى، فى رأس غلاف الكتاب إنه أول دراسة من نوعها فى تاريخ الفكر الإسلامى. لكن لما كان الأستاذ الدكتور ضيفا علىّ فى البرنامج، ولما كنت أنا الذى دعوته لمناقشة الكتاب، فقد آثرت ألا يكون الرد مباشرا حتى لا أولم ضيفى، فاكتفيت بالقول بأن كتابى تم تأليفه قبل كتابه، وهذه حقيقة تاريخية لا مراء فيها . لكنه عاد يقول إن تاريخ صدوره المذكور على الغلاف متأخر عن تاريخ صدور كتابه. فوضحت له أننى كنت قد انتهيت من تأليفه أواخر الثمانينات، إلا أنه لم يقدر له الصدور إلا بآخرة. وبهذا عبرت المأزق الذى أراد ضيفى الجليل أن يضعنى فيه دون أن يكون هناك ما يدعو إلى ذلك، وسكتُّ فلم أقل إن موضوع الكتابين مختلف تماما كما سبق أن شرحت آنفا .

ونصل إلى كتاب "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل"، الذى ألفته فى الطائف حين كنت أعمل فى كلية التربية بها فى السنوات الخمس الأولى من تسعينات القرن البائد . وقد استعرت له عشرات الكتب دفعة واحدة من مكتبة صديقى السورى د . عثمان جمعة ضميرية، إذ ذهبت إليه يوم

خميس، وهو يوم إجازة فى السعودية، وحملت فى عربتى من مكتبته نحو ستين كتابا مرة واحدة، وعدت إلى بيتى بعد أن قضيت وقتا ممتعا مع الشيخ عثمان. وهذا غير ما أخذته من مكتبة تربية الطائف، وكانت مفتوحة لى آخذ منها ما أشاء بغير حساب. والبركة فى الأستاذين خالد الأمين وإبراهيم بخارى، أمينى المكتبة، الذين لاحظا ترددى الغزير عليها والقراءة فيها والاستعارة الواسعة منها فى الوقت الذى لم يكن أحد من الأساتذة تقريبا يزورها، فاقترحا مشكورين أن آخذ ما أشاء من الكتب دون أن أسجله فى ورق استعارة، وأكتفى بتقييده فى نوتة خاصة. وكان من نتيجة ذلك أننى أحصيت ذات مرة ما كان عندى من كتب أخذتها من المكتبة فوجدتها مائة وعشرين كتابا. يا ساتر استر! والحمد لله لم يضع منى كتاب واحد رغم ذلك.

وقد ركزت فى هذا الكتاب على المواد الدينية وحدها فى الموسوعة المذكورة، وتركت بقية المواد المتعلقة بالجوانب الأخرى من الحضارة الإسلامية. وكان المستشرقون قد مخضوا دائرتهم الكبيرة واستخلصوا منها المواد الدينية فقط، وأصدروها فى مجلد خاص بإشراف هاملتون جب وآخرين بعنوان "Shorter Encyclopaedia of Islam". فعكفت على ذلك المجلد وتتبعت مواده مادة مادة، وكلما وجدت شيئًا يحتاج إلى الرد قمت بمناقشته وتمحيصه وتقديم وجهة النظر الإسلامية وفندت ما قاله المستشرق كاتب المادة، ثم نَظ□□□مْتُ فصول الكتاب ما بين فصل يتناول ترجمة الآيات القرآنية فى الكتاب، وآخر يتناول القرآن الكريم، وثالث يتناول الرسول عليه السلام، ورابع يتناول القضايا الفقهية التى تعرضت لها الموسوعة... وهكذا. ولم أقتصر على هذا فحسب، بل أحضرت ترجمة هذا المجلد التى قام بها د. راشد البراوى، ونظرت فيها وسجلت مآخذى عليها أيضا.

أما كتابا "النزعة النصرانية فى قاموس المنجد" و"نظرات فى الموسوعة العربية الميسرة" فكانا استجابة لما لاحظته فى الموسوعة والقاموس المذكورين من انحراف عن الإسلام إلى وجهة النظر الكتابية: فأما "المنجد" فمن المفهوم أن يتبنى أصحابه وجهة النظر الكتابية، وبالذات النصرانية، إذ هم جماعة من رجال الدين

النصارى. لكن الطامّة الكبرى فى "الموسوعة العربية الميسرة"، التى صدرت عن مؤسسة حكومية مصرية أيام الرئيس جمال عبد الناصر، فكيف تعكس وجهة النظر الكتابية فى معظم موادها، وكأنها صادرة فى بلد يهودى أو نصرانى؟ لقد كان مشرفا عليها د. زكى نجيب محمود ود. إبراهيم بيومى مدكور ود، سهير القلماوى، فكيف خرجت على النحو الغريب الذى خرجت عليه؟ لقد شعرت أن علىَّ فريضة محتومة لا مفر من تأديتها، فأديتها، وكتبت أنبه إلى هذا العُوَار الفادح الذى تعانى منه الموسوعة المذكورة، ونجحت فى إصدار الكتاب، وإن لم أحصل من ورائه على مليم أحمر أو أصفر، بل أخذت ٤٠٠ نسخة منه سُلِّمَتْ لأهلى فى القاهرة حين كنت فى السعودية حيث ألفت الكتابين المذكورين. وقد تم تأليف الكتابين فى مدينة الطائف الجميلة ذات الجو البديع أيام عملى بكلية التربية بها حين كانت تتبع جامعة أم القرى فى تسعينات القرن الماضى. أما فى مقابل "النزعة النصرانية فى قاموس المنجد"، الذى لم يزد عن خمسين صفحة، فقد حصلت على مائتى نسخة منه وألفى ريال. فحمدا لله. ويبدو أن الكتاب الذى ألفته عن الموسوعة المشار إليها قد آتى ثمرته مع مرور الوقت، إذ كنت ذات ظهرية فى دار الكتب القطرية منذ أكثر من عشرة أعوام، فوجدت على الأرض كتابا كبيرا من عدة مجلدات نظرت فيه من باب الفضول فألفيته الطبعة الجديدة من الموسوعة المذكورة، وألقيت نظرة على بعض المواد التى كنت انتقدت ما جاء فيها، فوجدت كلاما مختلفا ومعقولا. فقلت: أرجو أن يكون ذلك من جراء ما كتبه العبد الفقير إلى ربه تعالى. وفى كل الأحوال أدعو الله أن يجزينى على ما قدمت فى الكتاب الآنف الذكر، الذى لم تزد صفحاته على مائة صفحة. وعندى الآن فى الكاتوب نسخة كاملة من الطبعة الجديدة من تلك الموسوعة.

كذلك لى عدة كتب أيضا فى دراسة بعض السور القرآنية: بعضها لم أضف فيه شيئًا جديدا بالمرة تقريبا، وهو سورة "التوبة"، الذى جريت فيه على الأسلوب التقليدى فى تناول الآيات، إذ كنت أتناولها آية آية أو آيتين آيتين شارحا ما تقولانه، ودمتم! لكن لا بد من إضافة القول أيضا إننى حرصت على أن يكون أسلوبى

فى الشرح سلسا بسيطا ما أمكن، مع البعد التام عن الخلافات المعهودة فى كتب التفسير والعنعنات وما إلى ذلك. وبعضها، وتمثله سورة "الرعد"، التى كانت أول سورة أعرض لها بالتأليف فى السعودية حين أعطونى فى الجامعة مادة "دراسات أدبية من القرآن الكريم"، قد تناولته بالطريقة التقليدية أيضا، لكننى أضفت إلى ذلك وقوفى عند بعض الأساليب اللغوية كأسلوب "قل" فى السورة وفى القرآن عموما، وبعض القضايا الدينية كقضية "المشيئة البشرية وحدودها فى الدنيا والآخرة وعلاقتها بالمشيئة الإلهية". وأتصور أننى قد جئت بشىء جديد هنا، مثلما جئت بشىء جديد حين وقفت عند المسألة الخاصة بمرحلة نزول تلك السورة المختلَف حولها بين أهل التفسير: أهى يا ترى المرحلة المكية أم المدنية؟ وهنا عكفتُ على أسلوب السورة مفردات وتراكيب وعبارات وصورا وما إلى هذا فألفيت أن فيها أكثر من ثلاثين ملمحا أسلوبيا تختص بالوحى المكى أو تغلب عليه، فأعلنت، وأنا مطمئن الضمير، أنها من الوحى المكى. على أن الجديد فى ذلك الكتاب لم يقف عند هذا الحد، إذ رجعت، ضمن ما رجعت إليه من مراجع، إلى بعض الترجمات القرآنية كترجمة محمد أسد: "The Message of the Qur'an" حين وجدت أن بعض كتب التفسير القديمة تصل بفترة الحمل إلى عدة سنوات، فوجدته يؤكد أنها لا يمكن أن تتجاوز تسعة شهور إلا باللتيا والتى. وقد كان رجوعى فى هذا الكتاب إلى أسد هو البذرة التى أثمرت كتابا كاملا عنه رصدتُ فيه أشياء فى ترجمته التفسيرية للقرآن المجيد ولجزء من أحاديث البخارى تبعث على الدهشة، ولا أزيد. وهذا وغيره من القضايا موجود فى كتابى: "فكر محمد أسد (ليوبولد فايس) كما لا يعرفه الكثيرون".

أما فى كتبى عن سورة "طه" وسورة "النجم" وسورة "الرحمن" وسورة "المائدة"، والثلاثة الأولى تم تأليفها فى السعودية لطلبة كلية التربية بالطائف لذات الغرض الذى ألف له كتابى عن سورة "الرعد"، على حين ألفت الرابع بعد عودتى مباشرة من هناك، فقد مضيت فيها شوطا آخر، إذ رجعت فيها إلى ترجمات المستشرقين والمسلمين غير العرب للقرآن الكريم إلى الإنجليزية والفرنسية، والألمانية أيضا فى سورة "طه" قبل

أن أنسى تلك اللغة مع مضى الأعوام وعدم توافر كتب بها بين يدىّ فى السعودية فى تلك الفترة. كما اعتمدت منهجا جديدا فى تناولها، إذ لم أتتبع الآيات آية آية لحين الانتهاء من السورة كما فعلت مع "التوبة" و"الرعد"، بل قسمت الدراسة إلى فصول: كل فصل يعالج شيئًا فى السورة. فمثلا هناك فصل عن السمات الأسلوبية التى تنفرد بها سورة "طه"، فقد لاحظت أن فى كل سورة بعض الأشياء اللغوية التى تميزها عن غيرها، وفصل عما فيها من ملامح أسلوبية مكية أو مدنية، وفصل عن القضايا الهامة التى تشتمل عليها، وفصل عن المقارنة بين السورة وبين ما يناظرها فى الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى. . . وهكذا.

ومما ألفته من كتب تستحق إلقاء الضوء عليها هنا كتاباى عن خليل عبد الكريم: "اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة" و"لكن محمدا لا بواكى له": فأما "اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة" فقد بينت فيه بالأدلة الموثقة تهافت الكلام المنسوب لعبد الكريم فى الكتب التى تحمل اسمه وسخفه وزيفه وبطلانه. ثم شفعت كتابى هذا بكتاب آخر عنوانه: "لكن محمدا لا بواكى له" خصَّصْتُه للرد على قلة الأدب والعربجة التى يعج بها كتاب "فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين"، الذى يحمل اسم عبد الكريم أيضا، وأكدت فيه أننى لا تصور أبدا أن يكون عبد الكريم هو مؤلفه. وإذا بى أتسلم، وأنا أعمل فى جامعة قطر منذ نحو عشر سنوات، رسالة من أحد معارفى تتضمن صورة لمقال كتبه خليل عبد الكريم عنى وعن كتابى: "اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة" ونشره فى مجلة "أدب ونقد" فى عدد أكتوبر٢٠٠١م.

وفى هذا المقال لم يحاول عبد الكريم أن يرد على أى شىء مما بينتُ سخف منطقه وتدليسه فيه (أو بالأحرى: منطق الذين كتبوا له الكلام وتدليسهم)، وهو كثير كثرة فادحة، بل اكتفى بالثناء علىّ والقول بأنى. . . وأنى. . . مما سيطالعه القارئ الآن. وقد تعمدت أن أضع المقال كاملا بين يدى القارئ كى يعرف أن أمثال عبد الكريم لا يملكون شيئًا من الحجة، وإلا لردّ على انتقاداتى له وتفنيداتى العنيفة لما جاء فى

الكتب التى تحمل اسمه. بالعكس لقد أَقَرّ بأننى قد نجحت فى فهم مرامى كلامه ووضعت يدى على ما يريد أن يقوله مما لم يحن الوقت بعد للتصريح به، وهو إقرار غريب لأن أمثال عبد الكريم دائما ما يدّعون أنهم أفهم للإسلام ممن يغارون على الدين وأحرص على الدعوة إليه وانتشاره. كما أود أن ألفت القارئ إلى التدليس الذى لجأ إليه هنا أيضا والمتمثل فى تلاعبه بعنوان كتابى، إذ سماه: "اليسار الإسلامى وتطوراته.." (هكذا بالحرف والنقطة)، بدلا من "اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة" كى يضلل القارئ عن العنوان الحقيقى الذى يفضحه ويفضح مراميه ومرامى من يشجعونه على هلاكه.

وهذا هو نص المقال، وعنوانه: "فى كتاب إبراهيم عوض: اليسار الإسلامى وتطوراته..": "سلك أ. د. إبراهيم عوض سلوكًا حضاريًا بالغ الروعة والسموّ يليق به كأكاديمى وأستاذ جامعى بخلاف من عداه من "الإسلامويين". أصدر، مشكورًا، كتابًا يقرب من ثلاثمائة صفحة قدَّم فيه عرضًا نقديًا لمؤلفاتى: "لتطبيق الشريعة لا للحكم"، "الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية"، "قبيلة قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية"، "الأسس الفكرية لليسار الإسلامى"، "مجتمع يثرب: العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى"، "شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة". ويتضاعف امتنانى له لو تفضل بآخر يتناول باقيها: "الإسلام والدولة الدينية والدولة المدنية" و"العرب والمرأة" و"بصائر فى عام الوفود وفى أخباره" و"فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين".

ووجه الرقىّ فى منحى الأستاذ الفاضل والذى فهمتُه بعد قراءة كتابه يتمثل فى عدة أمور أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ١- أنه لم يجنح إلى التكفير كبعضهم، ولم يعمد إلى الرمى بالردة، ولم يسارع إلى الاتهام بالخروج عن الملة، ولم يُفْتِ باستحلال الدم، ولم يحرّش على القتل، بل على العكس يدين هذه الاتجاهات. ٢- وبالتالى فهو يؤكد أن الإيمان علاقة شديدة الخصوصية بين العبد والرب، وأن الله جل شأنه هو وحده الذى يحاسب عليه. ٣- لم يستنفر فخامة رئيس الجمهورية (كما فعل أحدهم، ومن أعجب الأمور

أن البعض حتى هذه اللحظة يعدّه مفكرا مستنيرا) ولا غيره من المسؤولين ولا حرّض أحدا منهم ضدى. ٤- لا يقر اللجوء إلى القضاء، إذ يرى أن السلوك الأمثل هو الرد والتفنيد والتعقيب، ومبدؤه: "كتاب مقابل كتاب"، وهو ما حدث إبان الحضارة الإسلامية الزاهرة. وهو ذاته حقق ذلك فى هذا الكتاب الذى نقد فيه طائفة من كتبى، وأنتظر منه الآخر لتغطيةِ (أو بمعنى أدق: لنَقْدِ) باقيها، وله المنة. كما أصدر تعقيبا على كتاب د. محمود على مراد عن السيرة النبوية عنوانه: "إبطال القنبلة النووية" وغيره. ٥- لم يقرأ قراءة سطحية كما يفعل البعض (هذا إذا قرأ ولم يسمع كلمة من هنا وجملة من هناك ثم يدبج مقالة)، بل تعمق فى المطالعة، ومن ثم فطن إلى ما هو مخبوء بين السطور وما جاء، تحت ضغط الظروف، تلميحا لأن الوقت لم يحن بعد، وربما لعقود قادمة، للتصريح به، وما ألغزتُ فيه ففَقِهَ ما رميتُ إليه. ٦- امتلك قدرًا مُفَرْسَخًا من الفراسة جعله يدرك أن المستجِدّات المتلاحقة والمستحدثات المتوالية والتغييرات المتعاقبة قضت باستحالة استمرارية الأسلوب التفخيمى التبجيلى عند الكتابة عن الصحابة مثلما فعل العقاد وهيكل وخالد محمد خالد . . .إلخ أو عن غيره من المواضيع، وأنه من الحتم اللازم ظهور الأسلوب الموضوعى النقدى المتوازن مثل الذى ألزمْنا أنفسنا به، وأن من الخطإ المنهجى الفادح قَمْعَ هذا المنزع لأن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء عبث وتضييع وقت. ٧- دَلّ كتابُه الناقد أو نقدُه المكتوب على صبره وتأنِّيه، فهو لم يتسرع أو يهرول بل نقّب وحَفَر ونقّر، وبذا قدّم دليل الثبوت على أن مؤلفاتنا (وهذا من فضل الله علينا) شديدة التوثيق. بل إن هناك من وصفها بالمبالغة فى هذا المضمار. ولعل هذا يفسر إحجام كل من كتب عنها حتى من الهيئات العلمية عن التصدى لنقدها نقدا موضوعيا كما فعل الدكتور إبراهيم عوض. أكتفى بهذه النقاط حتى لا يطول المقال.

أما تعدِّيه على شخصى الضعيف فى كل صفحة تقريبا فلم يؤذنى لأننى أتأسَّى بالحبيب المصطفى عليه وآله أزكى السلام، فقد خرجتُ من طول معايشتى لسيرته العطرة أنه ما غضب لنفسه قط. إنما آلمنى أنه جرَّح بسببى أخى وصديقى د. سيد محمود القمنى، ونال من الزميلتين الفاضلتين الأستاذتين فريدة وأمينة

النقاش، وكنتُ آمل ألا أغدو طريقا لإيلامهم. مسألتان أَسْتَمِيحه عذرا كيما أعلِّق عليهما: الأولى- سألت الله تبارك وتعالى له أن يريح صدره مما حاك فيه بأن يوفق أحد الدارسين فى حياته لا من بعده ويثبت له أن مؤلفاتى ليست من عملى، ولكنها من تصنيف طائفة من المستشرقين (ص٢٦٠)، لأنه يؤذينى كثيرا أن يظلّ هذا الخاطر يَسُوط فى صدره (فى "أساس البلاغة" للزمخشرى: سَاطَ الهريسة، وساط الأَقِط: خَلَطَه). الأخرى- أفزعنى عندما شكك فى مصريتى ونسبنى إلى الجزيرة إياها البالغة القداسة الشديدة البركة، فأنا لا يسرنى يا دكتور أن يكون عندى "حُمْر النَّعَم" كما يقول أصحابك الميامين فى أمثالهم البليغة ولغتهم الفصيحة وأن تُنزَع عنى مصريتى! أتعرف لماذا؟ لأن مصر وحدها دون غيرها هى التى علّمت الدنيا بأسرها أمرين: الضمير والحضارة. ختاما أ. د. إبراهيم عوض، شكرا".

هذا ما كتبه خليل عبد الكريم. وكنت قد اتهمته بالتسرع والالتواء فى قراءة النصوص والجهل بنصوص أخرى على قدر كبير من الأهمية أو التجاهل لها، فضلا عن العجز عن استخلاص النتائج الصحيحة مما يقرأ، إلى جانب تدليسه فى الاستشهاد بالنصوص هو وسيد القمنى، الذى نقل عن د. جواد على من كتابه "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" نصًّا طويلاً فأسقط بضعة عشر سطرا منه عامدا متعمدا دون أن يترك مكانها نقاطا كى يعرف القارئ أن هاهنا كلاما محذوفا لا يصح حذفه البتة لأنه يفسد المعنى ويقلبه رأسا على عقب، ثم زاد على ذلك فلَحَمَ الكلامين بطريقة خبيثة لا يتنبه معها القارئ إلى عملية التلاعب الدنيئة التى تمت بلَيْل! والنص المذكور خاص بالكلام عن أمية بن أبى الصلت، وهل استعان بالقرآن فى نظم الأشعار المنسوبة إليه والتى تشبه آى الذكر الحكيم؟ أم هل النبى هو الذى استعان بشعر الرجل؟ أم ترى الأمر كله لا يخرج عن استقاء الاثنين من مصدر مشترك؟ وقد انتهى جواد على إلى أن أشعار أمية ذات الصبغة القرآنية الواضحة منحولة عليه بعد الإسلام، ومن ثم فلا تشابه بين شعره وبين كتاب الله على الإطلاق مما لا يعود معه مجال للحديث عن أثر شعره فى القرآن المجيد.

لكن تدليس سيد القمنى يقلب القضية رأسا على عقب، إذ يُظْهِر جواد على فى صورة المشايع لما يردده ملاحدة عصرنا من أن الرسول قد استعان بشعر أمية، وهو عكس ما انتهى إليه الرجل فى كتابه. ويمكن القارئ الرجوع إلى دراسة مطولة لى فى هذا الموضوع منشورة فى بعض المواقع المشباكية، ضمَّنتها بعد ذلك كتابى: "أفكار مارقة"، عنوانها: "القرآن وأُمَيّة بن أبى الصلت: أيهما أخذ من الآخر؟"، بيَّنْتُ فيها بالدليل الصارم القائم على وقائع التاريخ وتحليل النصوص واستشفاف الجو النفسى والاجتماعى فى ذلك العصر أن من المستحيل القول باقتباس القرآن من شعر أمية، وإلا لكان قد فضح النبىَّ عليه السلام هو ومن يشايعه على موقفه من مشركين ويهود، وبخاصة قومُه بنو ثقيف الذين دخلوا جميعا الإسلام ولم نسمع من أى منهم ولا حتى من أقرب المقربين إليه كأخته أو أبنائه أن هناك تشابها (مجرد تشابه!) بين شعره وبين القرآن الكريم، وأنه إذا كان لا بد أن نقول بالتشابه بين شعره وبين كتاب الله فلا بد أن يكون هو المقتبس من القرآن لا العكس. لكن القمنى قد تلاعب بالنص الذى نقله من كتاب "المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" بحيث يبدو وكأن جواد على يقول بتأثر القرآن بشعر الشاعر الثقفى كما ذكرنا، وهو ما يجده القارئ مفصَّلاً فى كتابى: "اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة".

ويبقى ثانى الكتابين، وهو كتاب "لكن محمدا لا بواكى له"، الذى ألفتُه ردا على كتاب "فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين"، الذى يحمل اسم خليل عبد الكريم، ويتهم سيدنا رسول الله بأنه لا رسول ولا حاجة، بل هو صناعة خديجية ورقية، فقد تسلمته بنت خويلد، التى كانت نصرانية حسب تدليس واضعى الكتاب، الذين زعموا أيضا أن مكة كانت إبراشية نصرانية وأن خديجة تزوجت محمدا على سنة النصرانية وعقد قرانها عليه قسيس (إى والله أنا لا أمزح!)، فتسلمت محمدا الشاب الفقير اليتيم بعُجَره وبُجَره وفقره وجهله حسبما يلمح الكاتب بوضوح تام على طول الكتاب، فـ"صنفرته وقلوظته" (بنص التعبير العربجى الوارد فى الكتاب)، ونقلته من حضيض الفقر وذلته إلى لبس الحرير وأكل الخمير (حسب عبارة من وضع الكتاب

السافل) حتى جعلت منه، بمعاونة ورقة بن نوفل، نبيا، وما هو فى الحقيقة بنبى ولا يحزنون. والكتاب مفعم بالتطاول السفيه والبذاءات المنحطة والاتهامات الكاذبة وعبارات التقليل من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولَعَنَ من يكذب ويتطاول عليه لعنا كبيرا فى الدنيا والآخرة، وهو ما شعرت معه وكأن خنجرا مسموما يخترق قلبى وأحشائى، فتجردت للرد على ما فيه من جهل وحوذية لا يصلحان فى ميدان العلم، وبخاصة إذا كان الأمر خاصا بسيد الأنبياء والمرسلين.

وأما كتاب "الفرقان الحق: فضيحة العصر" فقد سطرته فى الدوحة وأنا أدمدم بسبب ما قرأته فيما يسمى بـ"الفرقان الحق" من سباب سافل للمسلمين وربهم ونبيهم ودينهم وأمهاتهم وكل شىء يتعلق بهم والزعم أنهم زُنَاةٌ أبناءُ زَوَانٍ بما فيهم رسولهم الكريم، فامتشقت قلمى وهويت به على الجلود الحميرية الثخينة التى كتبتْه زاعمة أنه من عند الله، مبرهنة بذلك على نحو لا يقبل الجدال أنها إنما تجرى على تراث فى التزييف والتحريف عريق، وأن ما زنّها به القرآن الكريم من أنهم يحرفون الكَلِم عن مواضعه هو حقائق تاريخية لا سبيل إلى نكرانها، بل لا تزال ماضية فى طريقها حتى الآن. وقد لاحظت أن كلام أولئك الحمير عن فرقانهم الملفق قد انكتم بعد ظهور كتابى على الإنترنت. لقد نزل عليهم كالصاعقة أو كالزلزال، فطير عقولهم، وأفقدهم صوابهم، فلم أرهم بعدها يتحدثون عنه كأنه لم يكن ولم يدر لهم ببال.

وفى قطر قدر لى أن أشارك فى مؤتمرين أدبيين فى سورية والأردن على التوالى فى عامين متتاليين فى أوائل النصف الأول من العقد الأول من القرن الحادى والعشرين. وفى رحلة سورية ذهبت برفقة د. حسام الدين الخطيب، وهو سورى، إلى دمشق، وتوجهت معه إلى منزله هناك حيث تخلف وتركنى أكمل رحلتى إلى حمص، التى كان قسم اللغة العربية فى آداب البعث بها هو الذى ينظم مؤتمر الأدب المقارن حيث أشارك ببحث عن الاستعراب والأدب المقارن. وأخذت الحافلة إلى حلب من دمشق حيث كان علىَّ أن أسجل بياناتى فى المحطة هناك كأنى سأنتقل من دولة إلى دولة أخرى، وهو ما أشعرنى بالوحشة والتوجس. ولكن

ما إن بدأت الرحلة حتى داخلنى إحساس بالحنان نحو البلاد، التى تذكرت فجأة أننا كنا نشكل معها بلدا واحدا فى بعض عهد عبد الناصر. وكان الأصيل جميلا، والحافلة منطلقة على الطريق المختلف عن طرقنا فى الدلتا حيث التلال والغابات حولنا مما لا نشاهده فى طرق مصر. وكانت الحافلة هادئة فلا ضجة ولا ثرثرة ولا مذياع يغنى كما هو الحال فى مصر. وكانت تجلس إلى جوارى فتاة فى العشرينات من عمرها ألفيت نفسى بحاجة إلى أن أتحدث إليها لأعرف كيف أتصرف حين أنزل فى حماة حيث يعيش د. راتب سكر، رئيس قسم اللغة العربية منظم مؤتمر الأدب المقارن الذى كنت ساشارك فيه ببحث، بينما د. حسام الدين الخطيب قد أتى بوصفه مستمعا ومناقشا فحسب.

وقد ساعدتنى الفتاة أيما مساعدة هى وأبوها، الذى كان ينتظرها فى محطة الحافلات فى حلب بسيارته نصف النقلية، إذ كانت بنته تشتغل فى دمشق، ويأتيها كل يوم ليحملها من المحطة إلى المنزل. وقد ظلا معى إلى أن أتى د. راتب سكر بعد أن اتصل الأب به مشكورا بالهاتف وأعطيت الآنسة كتابين من كتبى التى أحضرتها معى من قطر لأهديها إلى أصحاب النصيب من المكتبات العامة والزملاء المشاركين فى المؤتمر من أهل البلد أو الضيوف. وقد أسعدتنى صحبة د. سكر أيما إسعاد، إذ طاف بى فى وسط حماة وأخذ يقص علىَّ تاريخ كل أثر أو بناية عامة نمر بها، بالإضافة إلى نواعير حماة الشهيرة، التى اصطحبنى إلى الحمامات المتصلة بها وشرح لى كل ما يتعلق بها على الطبيعة. ومما قاله لى فى تلك الليلة أن أباه شارك فى ترميم قبلة الجامع الكائن على نهر العاصى، ولم أكن قد علمت بعد أنه نصرانى. كما حدثنى عن أبى الفدا المؤرخ الشهير وملك حماة (ت٧٣٢هـ)، وكذلك عن أحمد الفيومى صاحب معجم "المصباح المنير" (ت٧٧٠هـ)، إذ كان من سكان المدينة زمنا. ثم عرض علىّ أن يعشّيَنى فى مطعم كباب وكفتة، فآثرت أن آكل طعاما أبسط، وهو ما فعله بعد أخذ ورد، فأطعمنى الفتوش (طبق سلطة سورى معروف غاية فى اللذة والطعامة!) وبعض الأطباق الأخرى. وكانت ليلة من ليالى العمر المعدودة، لا على طريقة شادية وفاتن حمامة

الملتاعة، بل على طريقة د .راتب سكر اللطيفة الظريفة الممتلئة حيوية وحبورا رغم أننى كنت متهالكا ومرهقا غاية الإرهاق، والفضل كله لظرافة د. سكر وحيوية شخصيته وروعة حديثه وسحر نبرة صوته وطريقة شرحه للأشياء وتدفق حديثه بالحيوية.

وانفصلنا على أن يأتينى فجرا إلى الفندق الذى أنزلنى فيه ليصطحبنى إلى حمص حيث يعمل وحيث ينعقد المؤتمر. وفعلا جاءنى فى ميعاد الفجر، وأخبرنى أنه سوف يثرثر قليلا مع صاحب الفندق ريثما أفرغ من الصلاة فى غرفتى فألحق به. وما إن انتهيت من الصلاة وارتداء ملابسى ولحقت به حتى تبين لى أنه دفع عنى إيجار الغرفة، وعبثا حاولت أن أرد له ما دفعه من مال، إذ لم يرض ذلك أبدا. ولو كنت قد ذهبت مباشرة إلى حمص ونزلت فى الفندق الذى حجزت لنا الجامعة فيه غرفة لكل مشارك منا لما كان هناك حرج من جانبى. ولا ريب أن ما صنعه د. سكر معى فى تلك الليلة من طعام وفندق هو مما لا يمكننى نسيانه أبدا مهما طال الزمن، إن طال الزمن بى أكثر من ذلك. وإنى لا أزال أذكره بكل تفاصيله وقوة خطوطه ونصاعة ألوانه، وبخاصة أن من كنت أتوقع منه معاملة أفضل لم يصنع عشر معشار ما فعله راتب سكر، الذى لم يكن يعرفنى من قبل ولم يسمع حتى باسمى. وزادنى تقديرا لما فعله ما عرفته عرضا بعد عودتى إلى الدوحة بوقت طويل أثناء حديث لى مع د.صلاح كزارة السورى من أن د. راتب نصرانى. ثم سارع قائلا إنه، رغم نصرانيته، قوى النزعة العروبية، مثنيا عليه وعلى دماثته، ومؤكدا لى أنه لا وجه لاستغراب ما صنعه معى، إذ هو أهل للكرم والدماثة.

وقد أثار انتباهى فى حمص الحديقة العامة الهائلة المساحة الكثيرة الأشجار بالقرب من الجامعة، والنظافة النسبية غير المتاحة فى مصر، وتوافر الرصيف فى كل مكان حتى فى الحوارى الضيقة وصلاحيته للسير عليه دون أية مشاكل، على العكس تماما مما فى بلادنا . كما أخذ بصرى تمثال شديد الضخامة بعيد العلوّ لحافظ الأسد يقوم فى الميدان القريب من جامعة البعث. وكان الاحتلال الأمريكى للعراق أيامها فى

بدايته، وإسقاط تمثال صدام حسين لا يزال حيا فى الذاكرة. وكنت أشعر كأن الأسد يطأ بقدمه الهائلة فوق رؤوس المارة. وخامرنى إحساس أن يوما سوف يأتى يحدث فيه لهذا التمثال وأشباهه ما حدث لتمثال صدام، على رغم ما ساورنى ساعتذاك من خوف على سورية. ولم أكن أعلم أنه بعد نحو عشرة أعوام سوف تهب فى سورية ثورة شعبية تهدفُ إلى تحطيم الاستبداد والترويع والاستعباد والتعذيب، والتخلص من حكم النصيريين وقهرهم وبطشهم، وتمزِّقُ صورحافظ وبشار الأسد، وإن كانت الثورة لم تنجح بعد رغم التضحيات الجسورة والغالية التى قدمها الشعب السورى من ماله وبيوته وأرواحه. وأملنا فى نجاحها رغم هذا عظيم بفضل الله.

ولفت نظرى أن المشتركين السوريين فى المؤتمر يتنادون رسميا فى الجلسات بعبارة "الرفيق الفلانى" على عادة الماركسيين، فازداد توجسى، كما لاحظت أن أحدا منهم ولا من غيرهم لا يبدأ إلقاء بحثه أو تعليقه على بحوث الآخرين باسم الله الرحمن الرحيم. وحين أتى دورى لإلقاء بحثى قلت: "بسم الله"، وبدا الأمر لى على قصر العبارة وكأننى أتيت أمرًا إدًّا. ومن بين من استرعى انتباهى من الأساتذة السوريين د. غسان مرتضى لما كان يتمتع به من خفة ظل. ولعله أشار ضاحكا أو جادا إلى شربه الفودكا فى روسيا، إذ أذكر أنه حصل على الدكتورية من الاتحاد السوفييتى، ولعلى لا أكون مخطئًا. وقد قرأت منذ عدة سنوات، عندما كنت أعد بحثًا لى فى الأدب المقارن بين "حى بن يقظان" و"روبنسون كروزو"، عن ذات الموضوع، فتذكرت الأيام الجميلة التى قضيتها فى حمص بحديقتها العامة الممتدة لمسافة طويلة. كما رأيت بعض الأساتذة السوريين يحتسون الخمر دون حرج فى المآدب العامة التى كانوا يضيفوننا فيها هنا وهناك. وحين عدت إلى الدوحة كان من بين ما فعلت الاتصال بالدكتور راتب سكر لشكره على ذوقه وكرمه وصحبته الممتعة، وبالدكتورأحمد دهمان عميد آداب البعث آنذاك، الذى أبدى دهشته لاهتمامى بالاتصال به من العاصمة القطرية وشكره على حفاوتهم بنا فى المؤتمر.

وقد التقيت بالدكتورحسام الخطيب فى المطار ونحن عائدان إلى قطر بعدما افترقنا فى حمص، وفتحت معه حساب سيارة الأجرة التى أقلتنا من المطار فى دمشق إلى بيته قبل أن ننفصل لأذهب وحدى إلى حماة كما شرحت آنفا، وكنت فهمت أنه لا يقبل أن أشاركه الدفع، بيد أنه خطر لى أنْ ربما كان الأليق عرض الدفع مرة أخرى، فكان نصيبى ما يساوى عشرة جنيهات مصرية أو نحو ذلك، وقال لى بعد أن حسبها وارتبك بعض الشىء: أرجو مسامحة كل منا للآخر إن كان أحدنا قد دفع أكثر من نصيبه قليلا . وقد ارتحت كثيرا حين أخذ منى الأجرة حتى لا يكون فى نفسه شىء . وفى مطار دبى كنا جالسين ننتظر الطائرة التى ستقلنا إلى الدوحة، إذ كنا نزلنا ترانزيت هناك، فألفيته يقوم من مجلسه بغتة وينادى قائلا باهتمام شديد: يوسف! يوسف! ثم مال علىَّ قائلا: يوسف القعيد . فبقيت فى مكانى حتى سلم وعاد، ولم أسأله عن شىء، ولم يحدثنى هو عن شىء . وتذكرت أول يوم مر علىّ فى جامعة قطر فى رمضان، حين كان بعضنا نحن الأساتذة يصلون، فوجدته يقول ما معناه أنه سوف يصلى معنا، بيد أنه لم يتبع القول بالعمل، ولم يكررها من بعد مثلما لم يفعلها من قبل: لا فى رمضان ولا فى غير رمضان. ولا أدرى لماذا قال ما قال بالذات فى أول أيام رمضان ما دام لا يشارك فى الصلاة أصلا .

ومن بين ما لفت نظرى فى ذلك المؤتمر أن منظميه قد جعلوا د . حسام الخطيب ضيف شرف رغم أنه لم يشترك بشىء ولا حتى بتعليق، فقام هذا عندى دليلا على المكانة العالية التى يحتلها من نفوس القوم فى سورية، بيد أن د . صلاح كزارة بدد هذا الاستنتاج حين قال لى إن فلانا (أحد كبار منظمى المؤتمر) قد فعل هذا عمدا وأرسل يدعو د . الخطيب من قطر نفسها طمعا فى أن يساعده د . الخطيب على العمل أستاذا معارا إلى جامعة قطر، لكنه خيب ظنه، ولم يصنع له شيئا . وقد أضحكنى هذا الأمر كثيرا . كما ضحكت حين أخبرنى زملائى المصريون فى قطر، ولم يكونوا يعرفون عنى شيئا حين قدمت أوراقى إلى الجامعة هناك، أنه لم يبق فى المنافسة بين المتقدمين فى ذلك العام لوظيفة أستاذ بالجامعة سوى العبد لله وأستاذ سورى أو

أردنى (لا أذكر الآن)، وأنه قامت معركة بينهم وبين د . حسام بسبب ذلك: هو يريد أن يأتى بصديق له سورى (أو أردنى)، وهم يتعصبون لى، لا لأنهم يروننى أفضل الاثنين، فقد قلت إنهم لم يكونوا يعرفوننى قبلا ، ولكن لأننى مصرى مثلما يتعصب هو للأستاذ الآخر لأنه صديقه. وقالوا لى إن العميد قد سأل عنى د . إبراهيم الجندى، الأستاذ معنا بآداب عين شمس، ولكن فى قسم التاريخ، فقال كلمة طيبة فى حقى ساعدت، فيما يبدو، على ترجيح كفتى.

وأجد لزاما علىَّ هنا أن أشكره وأشكر كل زملائى المصريين عليها نظرا إلى أن السنوات الأربع التى قضيتها فى قطر كانت، رغم صغر قطر ووجودى وحدى هناك دون زوجتى وأولادى، اللهم إلا زورة من فاطمة وسلوى الصغيرة مرتين كل عام: مرة فى رمضان والعيد الصغير، ومرة فى آخر السنة قبيل العودة الصيفية إلى أرض الوطن، كانت أجمل سنوات عمرى دون أدنى مبالغة، وكأننى كنت أعيش فى الجنة. وأرجو من الله أن يكافئ كل من كان سببا فى فوزى بتلك الإعارة التى أعدها خارج إطار الزمن لما حوته من بهجات وسعادات من بينها تعرفى هناك إلى رجل لطيف أنيق كريم النفس مهذب حلو الروح منفتح على الناس، وكان يحبنى وأحبه كثيرا هو المرحوم الأستاذ هانى الطايع، وهو من إخوان سورية، ولكنه كان شيئا آخر غير الإخوان الذين خبرتهم أو تناولتهم بالحديث هنا . وكنا كثيرا ما نلتقى فى مكتبة الثقافة بالمرقاب بالدوحة أو فى بيته أو فى بيت د . حجر البنعلى وزير الصحة فى ذلك الوقت. وقد هيأ لى بكياسته وحسن تصرفه طباعة كتابين لى فى الدوحة. وجاء عند مغادرتى البلد إلى المطار يودعنى هو ود . خالد ، وهو سورى أيضا، وكانت لى به علاقة طيبة، إلا أن علاقتى بالأستاذ الطايع كانت شيئا مختلفا . رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى. كما عرفت هناك د . حسن على، وهو خريج آداب عين شمس. وقد أتى يزورنى حين علم أننى فى الدوحة، وذكرنى بالمحاضرات التى كنت أدخل لهم فيها وأنا مدرس مساعد أعلمهم النحو بطريقتى الخاصة.

وكان الزملاء المصريون بجامعة قطر يظنون أننى سوف أحمل فى قلبى حنقا على د. الخطيب، لكننى قلت لهم إن ما صنعه أمر طبيعى جدا مثلما عضدونى هم بدورهم رغم أنهم لا يعرفوننى. ولم أكن أشعر تجاه الرجل بأى شىء، ولا أظننى قد أَوْلَيْتُ أو بدا علىَّ أننى أُولِى الأمر أى اهتمام. وبمناسبة ما نحن فيه من حديث عن الأستاذ الدكتور لا بد من القول بأنه كان طوال الوقت دمثا رغم ما يحيك فى النفس من إحساس بأنه بارد المشاعر لا يهتم بمن حوله ولا يفكر فى إشراك أحد منهم فى خير مما يعرف هو دهاليزه ويستأثر به لنفسه فحسب. كذلك لم يَحِكْ فى صدرى شىء حين علمت أنه، رغم تقدمى بطلب إلى جامعة قطر بالمشاركة فى مؤتمر الأدب المقارن بحمص، قد طلب هو أيضا أن يشارك فيه، مما أحنق د. سلامة السويدى رئيسة القسم قائلة إنه كان ينبغى ألا يفعل هذا لمشاركته من قبل فى عدد من المؤتمرات على العكس منك أنت الذى تشارك فى مؤتمر على حساب الجامعة لأول مرة. ثم أردفت: ومع هذا فسوف أفعل كل ما بوسعى كى تسافر إلى سورية. وقد قام الأستاذ الدكتور مشكورا بقطع تذكرتينا بعد أن أخذ الورق فى غيابى من الجامعة، وأراحنى من عبء الجرى على مكاتب الطيران وما يتصل بذلك من وجع دماغ، وإن كان بعض "الناصحين" قد همس فى أذنى، ولا أدرى مدى صحة ما همس به، بأنه لم يفعل ذلك حسبة لوجه الله، بل ليفوز بأى تخفيض يمكن الحصول عليه على التذكرتين الحكوميتين فى مثل تلك الحالة. وقد تكون تلك الوسوسة نخة من الشيطان. ما علينا، فالمهم أننى استمتعت استمتاعا عظيما بالأيام الرائعة التى قضيتها فى سورية. وشكرا لجامعة قطر، وشكرا للدكتورة سلامة السويدى، التى كنت أطلق عليها: "نسمة القِسْم".

أما رحلة الأردن، التى قمت بها العالم التالى، فقد كنت فيها وحدى، وكانت أيضا على حساب جامعة قطر. وقد عشنا أياما بهيجة هناك فى صحبة الزملاء العرب وغير العرب. ومن بينهم دكتور مصرى أتى على حسابه للاشتراك فى مؤتمر النقد الأدبى بجرش، وفهمت منه أنه يفعل ذلك كلما أتيحت له فرصة حتى يحرز بعض النقاط التى تفيده عند تقدمه للترقى إلى درجة جامعية أعلى. وكان من جامعة قناة السويس فيما

أذكر، لطيف المعشر ضحوكا طيب القلب ولا يعرف الخبث. ومن بينهم مستشرقة صغيرة من بولندا بصحبة دكتور فلسطينى يشتغل معها فى نفس الجامعة التى تشتغل فيها هناك. وكانت مصرية الروح تحب الضحك والاندماج مع الآخرين. وكنا نبقى فى صالة الطعام بعد العشاء وانتهاء النشاطات العلمية النهارية، فنضحك من أعماق قلوبنا . ولكن لم يعجبنى فى الفلسطينى ما علق به على شعر المستشار حسين نجم، الذى كان ينشره فى جريدة "الراية" القطرية دفاعا عن القضايا العربية، وعلى رأسها قضية فلسطين وقضية العراق، من أنه شعر مباشر لا يتمشى مع الاتجاه الجديد فى الشعر. يقصد الغموض والبرود ونشارة الخشب، التى يزعم الفَشَلَة أنها هى الشعر، ولا شعر غيرها . وسبب ضيقى بملاحظته، التى علق بها على بحثى فى مؤتمر جرش للنقد الأدبى، أن القضية الفلسطينية سوف تفقد، بهذه الطريقة، أكبر نصير لها، إذ لا شىء يُبْقِى التحمس لتلك القضية على المستوى الإبداعى الأدبى مشتعلا متلظيا سوى ذلك الشعر الذى لا يعجب سيادته. وهو ما يذكرنى بطنطنة د. محمد مندور، فى كتابه: "فى الميزان الجديد"، بما سماه: "الشعر المهموس"، الذى لا يصلح فى مواقف الحرب والقتال والتهديد والفخر والهجاء، بل لا يصلح أيضا فى بعض مواقف الحب حين يزداد بالمحب أوجاعه فيصرخ ويجأر شاكيا النار الملتهبة بين جنبيه... إلخ.

وفى تلك الرحلة أعدوا لنا غداء شهيا ذات يوم فى أحد المعسكرات الحربية فوق جبل على الحدود مع إسرائيل. ووقفنا قريبا من حافة المرتفع، فشاهدنا هناك بعيدا فى قاع الوادى رجلا إسرائيليا يعمل وهو جالس القرفصاء فى قطعة أرض هناك. وتساءلت: إلى متى يدوم الاحتلال الإسرائيلى لأرض فلسطين العربية المسلمة؟ وحتام سيظل العرب والمسلمون فى وضعهم هذا المخزى الجبان المتهافت الجعجاع رغم هذا عاجزين عن استرداد الحقوق المغتصبة من أيدى الإسرائيليين؟ ثم جاء الطعام الشهى اللذيذ الذى أعده الجنود والضباط لنا . وعندئذ، لا أقول إننى قد نسيت كل شىء، لكن سأكون كاذبا لو قلت إننى ظللت بنفس تحمسى للأمر كما كنت وأنا أشاهد الرجل الإسرائيلى فى الحقل فى قاع الوادى قبل قليل.

وقد تعرضت، بعد عودتى من إعارتى إلى جامعة قطر بقليل، لهجوم شديد فى إحدى الصحف زعم صاحبه أن بعض طلابى قد أبلغوه بأننى شتمت فى إحدى محاضراتى المرحوم نجيب محفوظ وقلت عنه إنه كافر ابن كلب. أستغفر الله! إننى أحب الروائى الكبير رغم اختلافى مع بعض اتجاهاته الفكرية والسياسية، وكنت ولا أزال أقول إنه أفضل من كثير ممن حصلوا على جائزة نوبل، كما قلت عن "الثلاثية" من قبل حصوله على نوبل إنها قلما نجد لها نظيرا فى الأدب العالمى، وشعرت بالفخر العظيم به وببلدى وبدينى حين أُعْطِيَتْ له نوبل، فكيف أقول عنه إنه كافر ابن كلب؟ بل إننى، حين سئلت من اللجنة التى عملت معى المقابلة الشخصية عام ١٩٨٩م قبل ذهابى إلى الطائف فى إعارة إلى فرع جامعة أم القرى هناك، عن وقع فوز محفوظ بالجائزة النوبلية على نفسى، أجبت بأن فوزه بتلك الجائزة مبعث فخار لنا جميعا عربا ومصريين ومسلمين لأن محفوظ مصرى عربى مسلم. ولو كان غيرى مكانى لحاول التنصل من محفوظ خوفا من ضياع التعاقد معه. والطريف أن الدكتور السعودى الذى كان يحادثنى أثناء المقابلة الشخصية قد بدا عليه الارتياح كثيرا من تلك الإجابة، التى من الواضح أنه لم يكن يتوقعها ولا كان يتصور أنها ستكون إجابة أى مصرى فى تلك الظروف.

وقد استضافتنى بعض الفضائيات أيام الهجوم الآنف الذكر، فقلت إن شتمى للرجل لا يمكن أن يكون قد وقع إلا فى حالة واحدة ليس إلا، وهى أن أكون فقدت وعيى للحظات تلفظت فيها بما قلته ثم ارتد لى وعيى دون أن أعرف أننى شتمت الرجل. وكان مهاجمى معى على الهواء هاتفيا، فتراجع فى الحال عما قاله، وهو ما أثار استغرابى، إذ لو صدقنا أنه برىء فى اتهامه لى وأن بعضهم قد ضلله فعلا فاتهمنى دون نية سيئة أفما كان ينبغى أن يعود إلىَّ أولا فيسألنى ويتحقق من الأمر منى بدلا من الإثارة السخيفة التى أحدثها مقالاه فى الموضوع؟ وكان د. محمد عباس قد كتب مقالا اتهم فيه ذلك المهاجم بأنه، فيما كتبه عنى، كان

مدفوعا من جهات نصرانية محلية انتقاما منى لما رددت به عليها من مقالات وكتب فضحتُها وعريتُها ونسفتُها فيها .

وهناك كذلك كتابا "الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ" و"فى التصوف وأدب المتصوفة"، وقد ألفت كلا منهما فى أسابيع معدودات نزولا على اقتراح من الزميل رئيس القسم، الذى ألفى نفسه فى مأزق حين بدأ العام الدراسى وفرضت عليه الظروف فرضا توفير أستاذ يدرّس هاتين المادتين، فعرض علىَّ الأمر لأجد نفسى أوافق فى الحال اعتمادا على توفيق الله، الذى لم يخذلنى، وكان الكتابان فى أيدى الطلاب منذ وقت مبكر: فأما كتاب "الحضارة الإسلامية" فصدر مع بداية الفصل الدراسى، ثم عقبه الكتاب الثانى بعد عدة أسابيع لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة. فحمدا لله، الذى لم يخذلنى والذى ابتهلت إليه أن يساعدنى على تقديم شىء نافع وجديد فى ذلك الكتاب.

وقد اجتهدت فى كتاب "الحضارة الإسلامية" فى أن أقدم للطلاب صورة صحيحة للإسلام فى شموليته، فركزت فيه على أن الإسلام هو أنقى وأنصع وأعظم صورة للحضارة الإنسانية، وأنه لا يتوقف عند الصلاة والصيام والحجاب وما إلى ذلك مما تظن جماهير المسلمين أنه هو وحده الإسلام، بل يمتد إلى العمل والإتقان والنظافة والنظام والجمال والذوق الراقى والإبداع والعلم والثقافة الرفيعة، وأننا لا نُعَدّ مسلمين بحق إذا أهملنا هذه الجوانب وظننا أن العبادات التقليدية وحدها تكفى فى دين محمد، وأنه ليس أمامنا من سبيل للخروج من مأزق التخلف الذى يحاصرنا من كل جانب إلا بإعمال هذه المبادئ الإسلامية، وإلا استمر ضياعنا وخضوعنا لأعدائنا وذلتنا أمامهم وخنوعنا لأوامرهم كأننا عبيد عندهم. وقد ذكرت لى طالبة ممن درسوا الكتاب معى أن أفراد أسرتها عندما قرأوا الكتاب أجمعوا على أن أحدا لم يبصرهم من قبل بأن هذا هو الإسلام.

ومن الكتب التى ألفتها لمواجهة حاجة الدراسة إليها كتاب "التذوق الأدبى"، وكتاب: "دراسات فى النثر العربى الحديث"، فقد وضعتهما فى الدوحة حين أُسْنِد إلىَّ تدريس هاتين المادتين "للطالبات" هناك، إذ لم يكن ينتمى إلى قسم اللغة العربية أى من الطلاب الذكور، بل كن كلهن بنات. وهذا من أعجب العجب. وقد شمرت عن ساعد الاهتمام والقراءة للكتاب الأول، فكنت أؤلفه فصلا فصلا قبل دخول المحاضرة الخاصة بذلك الفصل. ثم نشرته، وصار مقررا على الطالبات لسنتين أو ثلاث. أما الكتاب الآخر فاقتصر أمره هناك على كتابة معظم فصوله بخط اليد، إلى أن عدت إلى جامعة عين شمس بعد أسعد أربعة أعوام فى حياتى قضيتها فى الدوحة تلتها عدة سنين عمدتُ بعدها إلى الكتاب فأتممت بعض ما كان ينقصه، ثم أصدرته لطلاب قسم اللغة العربية وبعض الأقسام الأخرى التى تدرس الأدب العربى كقسم اللغة الإنجليزية مثلا. وإنى لأعتز بـ"التذوق الأدبى" أيما اعتزاز، وأرى، حقا أو وهما، أنه يصمد بقوةٍ للمقارنة مع أمثاله من الكتب الغربية التى تتناول فلسفة الآداب والفنون.

وفى "دراسات فى النثر العربى الحديث" يجد القارئ فصولا هامة فى بعض إبداعات ذلك الأدب فى العصر الحالى كأسلوب طه حسين مثلا، الذى أتصور أن ما كتبته عنه فى ذلك الكتاب هو تفصيل غير مسبوق فى تحليل أسلوب الرجل، وإنْ تناولتُه من خلال دراستى لمجموعة "المعذبون فى الأرض" وحدها، وكتحليلى لرواية "فتاة مصر" ليعقوب صروف، التى سبقت "زينب" بسنوات، ولم تكن روايةً ساذجةً كما يقال عادة عن كل عمل روائى سبق رواية هيكل، بل اشتملت على بعض القضايا السياسية والاجتماعية والدينية ذات الخطر، فضلا عن ارتفاع مستواها الفنى، وكرصدى لما اعترى الأسلوب النثرى فى العصر الحديث من تطورات: معجما وصيغا وتراكيب وصورا وأجناسا أدبية، إلى جانب مشاركة المرأة العربية أديبةً ناثرةً، وكذلك ظهور أدب الأطفال، لأول مرة تقريبا فى تاريخ الأدب العربى.

ولكتاب "لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه" قصة طريفة، إذ كنت فى صيف عام ٢٠٠٤م فى بيتى بالقرية أنا وزوجتى وابنتى الصغرى نتناول غداءنا، وفجأة ضرب هاتف المنزل، فأخبرنى المتصل بأنه المذيع فتحى الملا، وأنه بسبيل أن يقدم مساء ذلك اليوم حلقة عن كتاب أ. شريف الشوباشى: "لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه"، ورجانى رجاء حارا أن أترك الغَدَاء الآن وآتى إلى القاهرة للتو حتى أكون أحد ضيوف البرنامج. وكانت هذه أول مرة أعرف فيها الأستاذ الملا، فلم أستطع الاعتذار عن عدم تلبية ملتمسه، وقطعت الإجازة على الفور، وأخذتُ نفسى وزوجتى وابنتى ووصلنا القاهرة بعيد الغروب حيث صليت المغرب وغيرت ملابسى وذهبت للجزيرة القريبة من ميدان التحرير من ناحية جسر قصر النيل حيث يوجد أستوديو تسجيل الحلقة، للمشاركة فى الحلقة المذكورة التى ضمتنى أنا والدكتور عبد الله التطاوى بوصفنا معارضين لما قاله الأستاذ الشوباشى بحق اللغة العربية وسيبويه من كلام رأيناه ظلما مبينا، ود. عبد المنعم تليمة وأ. الشوباشى نفسه باعتبارهما الطرف المقابل. وقد سجلت كل ما دار بينى أنا ود. التطاوى وبين خصمينا فى تلك الحلقة مع التوسع الشديد فى مناقشة ما طُرِح فيها من قضايا وخلافات ووجهات نظر، وأصدرته فى كتيب أتصور أنه من أهم ما ألفتُ فى حياتى مع التصوير الفكاهى والكاريكاتورى فى بعض الأحيان مما أضفى على الموضوع الجاد قسطا غير قليل من الحيوية والابتسام.

ولقد اكتشفت، أثناء رحلتى التأليفية، أن سمعة كثير جدا من الأسماء اللامعة لا تقوم على أساس صلب من المعرفة والمنهجية، وأن هذه الأسماء لا تتمتع فى كثير من الأحيان بالأسلوب السليم، وهو الحد الأدنى من متطلبات الكتابة. لقد سمعت مثلا، وأنا فى السعودية، تهليلا عاليا للدكتور عبد الله الغذامى، لكن لما شرعت فى القراءة له والكتابة عنه تبين لى أنه تهليل هش متهافت يستند إلى البكش والهلس والإشادة به على الفاضى، فكانت ثمرة ذلك دراستين وضحت فيهما ضحالة إحاطة الرجل بالموضوعات التى يتناولها، ولجوءه إلى إطلاق المزاعم الزائفة والتدليسات الجريئة التى لا تعرف حمرة الخجل والتعامل الهازل مع أشد

القضايا جدية والتناقضات التى تجل عن الحصر،وكثيرا ما تتتابع فى سطرين متتالين، والثقة المتورمة بالذات رغم هزال الذات ونحافتها وضآلتها. وهاتان الدراستان موجودتان فى كتابى: "أدباء سعوديون" و"ست دراسات نسوية إسلامية". ووالله ثم والله لقد كنت فى دهشة باهظة طوال الوقت الذى كنت أقرأ فيه الغذامى أو الوقت الذى كان علىّ أن أرد فيه على هذا الهراء. وما وجدته فى كتابات الغذامى وجدته على نحو أو على آخر فى كتابات إسماعيل أدهم وخليل عبد الكريم وسيد القمنى وأحمد صبحى منصور ومحمد أركون وهشام جعيط وصادق جلال العظم والمدعو: "عباس عبد النور"، وغيرهم كثيرون. ويمكن القارئ أن يرجع إلى كتابى الضخم: "أفكار مارقة"، ففيه من ذلك الكثير.

ولأن آخر من قرأت لهم من أولئك الكتاب هو صادق جلال العظم، الذى رغم كثرة ما قرأته عنه لم أكن قد اطلعت على أى شىء تقريبا من كتاباته إلا منذ ليلتين حين أخذتنى سلسلة من المصادفات إلى كتابه: "ذهنية التحريم"، فإنى أود التريث قليلا لدن البحث المنشور فيه عن رواية "آيات شيطانية"، إذ هو مثال على كل ما أخذته على أمثاله ممن سبق أن كتبت عنهم وأوردت أسماء بعضهم آنفا: فهو لا يحسن القراءة العلمية ولا يتنبه إلى سياق الأحداث أو لا يحاول أن يضعها فى الحسبان، ثم هو فوق ذلك يعاظل ويقلب الحقائق التى تخزق العيون محاولا أن يوهمنا أن السم الوحىّ عسلٌ شهىّ. . . إلخ. ولست ناويا أن أذكر كل شىء سخيف وجدته فى هذه الدراسة، وما أكثره، إذ كل ما فيها تقريبا سخيف ومتهاو، بل سأجتزئ بالقليل منها على ما يتحمله السياق فى الكتاب الذى بين يدى القارئ: فهو مثلا يدافع عن رواية رشدى زاعما أن رشدى لم يقصد بها شرا، وأخذ يقلب الحقائق واحدة وراء الأخرى ويلصق العيوب بمن امتشق قلمه للرد على كفريات رشدى حتى لقد توقعت أن يطالبنا صادق العظم بأن نصلى ونسلم على رشدى بوصفه النبى الأول فى الخطة الخمسية الإلهية الجديدة بعدما انقضت الخطة الخمسية الفائتة بأنبيائها الذين كان خاتمهم محمدا عليه الصلاة والسلام. والعجيب أنه، بعد هذا كله وبعد أن صدغ دماغنا بمحاولته الفاشلة تلميع صورة رشدى والزعم

بأن روايته لا تسيء إلى الإسلام فى شيء، يستدير من الناحية الأخرى فيقول إنها حلقة فى سلسلة أعمال الأدب التى تتخذ من السَّخَر بالمقدس والتهكم عليه موضوعا لها . إذن ففيم دفاعه عنها على مدى عشرات الصفحات السابقة واتهامه لمنتقديها بأنهم لا يفهمون شيئًا، بل بأنهم لم يقرأوا الرواية كما قرأها هو؟

ومثالا على ما أقول أشير إلى أنه يدافع عن تسمية الرواية سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام بـ"ماهوند"، ولكن دون أن يشير إلى معنى هذه الكلمة، التى تعنى الشيطان أو الوحش أو الصنم أو النبى الكذاب أو الإله الزائف حسبما جاء فى "قاموس أكسفورد" التاريخى ومادة "Mahound" فى موسوعة "ويكبيديا" مثلا، ولها ارتباط بـ"الكلب: hound" كما يشير معجم "Dictionary.com":

Archaic. Muhammad. Origin: 1350–1400; Middle " English Mahun, Mahum < Old French, short for Mahomet; .”-d by association with hound1

إذ نراه يكتفى بالقول بأنه "اسم أوربى قروسطى قَدْحِىّ للنبى محمد"، ويتبنى سفسطة رشدى بأنه "كثيرا ما يحدث أن يطلق عدو قوى على عدوه الأضعف اسما قدحيا أو يصفه بصفة تحقيرية خسيسة، كما أنه كثيرا ما يحدث أن يتبنى الطرف الأضعف فى غمرة الصراع مع الأقوى هذا الاسم أو هذا الوصف عامدا متعمدا على سبيل تأكيد الذات. أى بدلا من أن يحط الاسم أو الوصف التحقيرى من قدر المسمَّى به يعمل المسمَّى على رفع شأن الاسم (والوصف) وتحويله إلى ميزة عالية وخصلة حميدة، وإلى موقع قوة جديد". ثم يمضى فيقدم بعض الأمثلة على ذلك قائلا إنه "حين ينعت المستعمر الأوربى الأبيض الإنسان الإفريقى الأسود بالسواد يرد الإفريقى قائلا متمردا: نعم، أنا أسود، وفخور بالسواد لأن السواد جميل ورائع... إلخ. وحين يستخدم المحتل الإسرائيلى عبارة "عربى" كمرادف لكل ما هو منحط وخسيس ومشوه يرد العربى قائلا ثائرا: سَجِّلْ! أنا عربى". بهذا المعنى وبهذه الروح تبنى النبى عامدا متعمدا، فى رواية رشدى،

اسم ماهوند، الذى أطلقه عليه الأعداء، فتحول الوصف بذلك إلى شىء آخر تماما، أى إلى عكس ما كان مقصودا به من إهانة وتحقير من جانب الخصوم والأعداء".

بل إنه فى الفصل الثانى من كتابه: "ما بعد ذهنية التحريم"، وهو الفصل المسمى: "سرير بروكروستوس"، ينفى نفيا باتا قاطعا أن يكون لكلمة "Mahound" أى ارتباط من بعيد أو قريب بـ"الكلب". ويلفت الانتباه أن نطق كلمة "hound" هو نفس نطق هذا الجزء من اسم "Mahound". وفى مقال بعنوان "رد على الشيطان" كتب العماد أول مصطفى طلاس، فى موقعه الإلكترونى، عن هذه النقطة قائلا عن تسمية النبى عليه السلام بـ"ماهوند" فى الرواية: "منذ اللحظة التي سمي بها النبي: "ماهوند" نضح الإناء بما فيه. كأن الخائن عرّى نفسه ليقول: نعم أنا عدوّ. وأنا أفتش في الأزقة التي حضنتني ذات يوم، ولدى المبشرين الذي علموني البذاءة بالقول وبالفعل، عن الكلمات التي أحتقر فيها نبيكم، وقرآنكم، وكلكم، وألصقها فيكم. إن كلمة "ماهوند" استعرتها من الإنكليزية، وهي كلمتان: "ما" و"هوند". وتعني الأولى خاصتي، كما تعني الثانية كلب الصيد".

وفى "خيمة العدد" رقم ٤٧ من مجلة "المعرفة" الإلكترونية الشهرية كتب على العميم تحت عنوان جانبى هو: "حتى لا نكون حيطة واطية" ما يلى مما له صلة قوية بما نحن فيه: "على الرغم من أن الغربيين يحبون أكل لحم الخنزير حباً جماً، إلا أن وصف أحد بالخنزير يظل عندهم شتيمة. وكذلك الكلب. ولم نسمع أن جماعات الرفق بالحيوان ومنها الكلب احتجوا على هذا الاشتقاق اللغوي الذي يراد به التحقير للنساء اللاتي يحترفن هذه المهنة الساقطة. ونجوى كرم ومحطة LBC المشفرة ارتجا عندما رد عليهما سعودي ردا فوريا، لله دَرُّه: إن لديه كلبة وكلبا، وسيسمي الكلبة بكذا ويسمي الكلب كذا، فقطع الإرسال. قال هذا الردَّ فور سماعه أن كلبها المدلل يحمل اسم "محمد". ونعلم وتعلم ماذا يعني هذا الاسم في وجدان أي مسلم. إنه اسم خير البشر أجمعين من لدن آدم عليه السلام. واختيارها هذا الاسم، وهي المسيحية

الكاثوليكية، لايكون بريئًا، فالمصطفى عليه الصلاة والسلام كان يُنعت في لغة القرون الوسطى المسيحية بلفظ تحريفي بذيء سافل وهو "ماهوند"، الذي يعني "الكلب". وقد حُرِّف هذا الاشتقاق من لفظة "Mahomet". وغير بعيد أن يخرج علينا شخص مريض "مريض بكره الإسلام والديانات السماوية كافة" مثل صادق جلال العظم، ويماحك بجدل عقيم، دفاعا عن نجوى كرم، أن لفظة "محمد" لا تحيل بالضرورة إلى اسم نبي الإسلام عليه الصلاة وأزكى التسليم، وأن لفظة "الكلب" في الثقافة واللغة العربية لا تحيل إلى معنى الخسة والنجاسة والنذالة، وإلى كل شيء مهين، مع أن أوفى الأوفياء لا يرضى أن يشبَّه وفاؤه بوفاء الكلب. أقول غير بعيد لأنه فعل مثل هذه "الفعلة" مع سلمان رشدي في روايته الآبقة: "آيات شيطانية"، إذ جعل يلف ويدور في أن لفظة "ماهوند"، وهي اللفظة القروسطية المسيحية التي استعملها رشدي في روايته، لا تعني "الكلب" مع أنها معلومة ابتدائية أشار ويشير إليها، على سبيل النقد، كثرة كاثرة من المستشرقين والدارسين الغربيين الذين تعرضوا لصورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى. لذا استحق أن يوصف بأنه مغالط مريض. أما نجوى كرم، وهي الفنانة التي حققت نجاحها الفني والتجاري من خلال مبيعات أشرطتها في الخليج والسعودية، فلا أقل من وقفة مقاطعة حازمة من بيع أشرطتها وظهورها على بعض المحطات الفضائية، التي أزعم أن لنا نفوذا اقتصاديا عليها، لكي تتأدب وتكون عبرة لغيرها. فديننا ووجداننا وكرامتنا ليس "حيطة واطية يستدنيها كل من هب ودب". وهذا النص منقول عن عدد ٣/ ١٢/ ١٤١٩هـ من مجلة "الاقتصادية". وفى حلقة من برنامج "الاتجاه المعاكس" بتاريخ ٢/ ٧/ ٢٠٠٧م عن تكريم سلمان رشدى فى بريطانيا يقول محمد إبراهيم مبروك عنه: "عندما يقول عن سيدنا محمد: ماهوند، كلب صيد، عندما يقول عن عائشة وحفصة أنهم أمهات الزواني، عندما يتهم الرسول بالنفاق وأنّ هُوَّ نافق المشركين وساومهم على العقيدة الإسلامية ذاتها، ماذا يبقى بعد ذلك في صلب العقيدة الإسلامية؟ هو حَقَّرْ في العقيدة الإسلامية".

وهذا نص ما كتبه رشدى فى الرواية عن هذا الموضوع:

Pronounced correctly, it means he-for-whom-thanks-"

should-be-given, but he won't answer to that here; nor, though he's well aware of what they call him, to his nickname in Jahilia down below -- _he-who-goes-up-and-down-old-Coney_. Here he is neither Mahomet nor MocHammered; has adopted, instead, the demon-tag the farangis hung around his neck. To turn insults into strengths, whigs, tories, Blacks all chose to wear with pride the names they were given in scorn; likewise, our mountain-climbing, prophetmotivated solitary is to be the medieval baby--

."frightener, the Devil's synonym: Mahound. That's him

وواضح تمام الوضوح ما فى هذا الدفاع من هزل وهزال وسفسطة لا تجوز على عقل عاقل: فأولا هل أطلق أحد من أعداء الرسول المكيين الذين تدور حولهم الرواية اسم "ماهوند" أو معناه على الرسول؟ طبعا لا . ثم هل كانت الماهوندية عنصرا من عناصر ماهية الرسول وشخصيته مثلما أن العروبة عنصر فى ماهية الفلسطينى، والسواد عنصر فى شخصية الإفريقى مثلا ؟ طبعا لا أيضا . فلم إذن يستجلبها رشدى لروايته دون أن يكون لها موطئ قدم فيها ؟ إن أحدا لم يكن يسمى النبى أو يناديه بـ"ماهوند" حتى نقول إنه قد قبل هذه التسمية ثم قلبها من التحقير إلى المدح والافتخار . كذلك قال رشدى إن المحقَّر يعمل على تغيير مجرى الأمور بحيث يصير موضوع التحقير مبعث فخار له، فأين نجد النبى أو أحدا من أصحابه أو أتباعه يوما من الأيام قد عمل هذا ؟ فمثلا كانت قبيلة "أنف الناقة" تستعرّ من ذلك اللقب حتى استطاع الحطيئة الشاعر أن يحول تلك المذمّة محمدة، فقال:

قومٌ هُمُ الأنفُ، والأذناب غيرهمو ومن يُسَوّي بأنف الناقة الذّنَبَا ؟

فاستدار الأمر عقبئذ بزاوية قدرها ١٨٠ درجة، ومن يومذاك وقبيلة "أنف الناقة" تتفاخر بلقبها بعد أن غبر عليها زمن كانت تَدّارَؤُه وتقول إنهم من بنى قريع. يقول عبد القاهر الجرجانى فى"أسرار البلاغة فى علم البيان": "وقد عرفتَ ما كان من أمر القبيلة الذين كانوا يعيّرون بـ"أُنْف الناقة" حتى قال الحطيئة:

قومٌ هُمُ الأَنفُ، والأذْنَابُ غَيْرُهُمو   ومَن يُسَوّي بأَنْف النَاقة الذنَبا ؟

فنَفَى العار، وصحّح الافتخار، وجعل ما كان نَقْصًا وشَيْنًا، فضلاً وزَيْنًا، وما كان لقبًا ونَبْزًا يسوءُ السمع، شَرَفًا وعزًّا يرفع الطَّرْف، وما ذاك إلا بحسن الانتزاع، ولُطْف القريحة الصَّنَاع، والذّهن الناقد في دقائق الإحسان والإبداع، كما كساهم الجمالَ من حيث كانوا عُرُّوا منه، وأثبتهم في نِصَاب الفضل من حيث نُفُوا عنه. فَلرُبّ أنفٍ سَلِيمٍ قد وَضَع الشِّعْرُ عليه حَدّه فجَدَعَه، واسمٍ رفيعٍ قَلَب معناه حتى حطّ به صاحبَه ووَضَعه".

وبالمثل كان وضع شخص ما على الصّلْيب بغية قتله أو تعذيبه مبعث عار وشنار للمصلوب وقومه إلى أن رثى أحد الشعراء شخصا مصلوبا بقوله:

عُلوٌّ فى الحياة وفى المماتِ   بحقٍّ أنت إحدى المعجزاتِ

فعندئذ تحولت الدفة، وملأ صَلْبُ ذلك الرجل قومَه شعورا بأن صاحبهم رجل عظيم عالى الهمة والقدر فى حياته وفى مماته. جاء فى "أسرار البلاغة فى علم البيان": "وقد عُلِم أنْ ليس في الدنيا مُثْلَةٌ أخزَى وأشنعُ، ونكالٌ أبلغ وأفظع، ومَنْظرٌ أحق بأن يملأ النفوس إنكارا، ويُزْعِج القلوبَ استفظاعًا له واستنكارًا، ويُغْرِيَ الألسنةَ بالاستعاذة من سُوء القضاء، ودَرَكِ الشقاء، من أن يُصلَب المقتول ويشَبَّح في الجِذع، ثم قَدْ تَرَى مَرْثيةَ أبي الحسن الأنباري لابن بَقِيّة حين صُلِب وما صَنَع فيها من السّحْر حتى قَلَبَ جُملةَ ما يُسْتَنْكَر من أحوال المصلوب إلى خِلافها، وتأَوّلَ فيها تأويلاتٍ أراك فيها وبها ما تقضي منه العجَب:

عُلوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ   بحَقٍّ أَنت إحدى المعجزاتِ

كأنّ الناسَ حَوْلك حينَ قاموا وُفودُ نَداكَ أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خطيبًا وكلُّهُمو قيامٌ للصّلاةِ
مددتَ يَدَيْك نحوهُمُ احتفاءً كمَدّهما إليهم بالهِبَاتِ
ولما ضاق بطنُ الأرض عن أنْ يَضُمَّ عُلاكَ من بعد المماتِ
أصَاروا الجوَّ قبرَكَ واستَنَابُوا عن الأكفانِ ثوبَ السّافياتِ
. . . إلخ".

لقد كان المشركون من قوم الرسول عليه الصلاة والسلام يفترون عليه تارة أنه كاهن، وتارة أنه شاعر، وتارة أنه كاذب، وتارة أنه يفرق بين المرء وزوجه، ولم يقل أحد قط إنه "ماهوند"، أستغفر الله. بل الماهوند هو من يطلق عليه هذا اللفظ الحقير مثله، أو يسوغه محاولا الضحك على ذقون القراء. وبالمناسبة لم نسمعه عليه السلام يوجه شيئًا من هذه الألفاظ بحيث تصبح مبعثا للحمد بدلا من الذم كأن يقول مثلا: نعم أنا شاعر أشعر ببؤس الفقراء واليتامى والمساكين وشقائهم وأبحث لهم عن حلول تصيّرهم بشرا سعداء. أو نعم، أنا كاهن أكهن لكم المستقبل وأعرفكم بما ينتظركم فى غيبه من عز ومجد وازدهار إذا اتبعتم ما جئتكم به لتفوزوا وتكون أيامكم القادمة خيرا عميما وبركة شاملة. بل رفضها القرآن تماما، ورد عليها وفندها وبين سخفها وكذّب من يدعيها على الرسول. أى أن السفسطة التى يسفسط بها رشدى والعظم ليس لها محل إلا فى الدماغ الخرب والذوق الفاسد والضمير المنحط. وحتى حين كان يقول البعض عنه: "مُذَمَّم" لم يحاول أن ينتحل هذا اللفظ ثم يحوله من معناه السيء إلى معنى جيد قط، بل قال إنه "محمد" لا "مذمم". فكَوْنُ رشدى يستعير اسم "ماهوند" من أوربا العصور الوسطى ليضعه على لسان القرشيين، الذين لم يفكروا يوما فى وصف محمد به، إنما يدل على قلة أدبه وبذاءة عقله ولسانه، وإن حاول أن يضحك على قرائه من المسلمين بالتوجيه المهترئ الذى وجهه به وانبرى العظم كاره الإسلام وراميه بأبشع التهم ومصوره بأنه خرافات

وأساطير وأفكار متخلفة ينبغى استبدالها بالثقافة الحديثة الأوربية ليبرر له ما سفسط به. وصدق من قال: الطيور على أشكالها تقع.

وانطلاقا مما قلناه عن تطاول بعض الكفار على رسول الله فى مكة ننتقل إلى ما قاله صادق جلال العظم عن ذلك اللقب المسىء إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مثال آخر على الهراء الذى يهرف به فى سفسطة سمجة: "على صعيد آخر توجد فى التراث روايات تشير، على ما يبدو، إلى أن محمدا لم يكن اسم النبى الأصلى أو الأول، بل ظهر الاسم فى سياق الإهانات التى كانت توجهها إليه قريش مسمية إياه: "مذمما". وهناك حديث رفعه البخارى إلى أبى هريرة عن النبى مباشرة يقول: "ياعباد الله، انظروا كيفَ يصرفُ اللّهُ عنّي شَتمَ قُرَيْشٍ ولعنَهُم. إنّهم يشتمونَ مُذمَّمًا، ويلعنونَ مُذمَّمًا، وأنا محمَّدٌ". أى "سَجِّلْ! أنا محمد". وتذكر رواية أخرى أن عبد الله بن الزبير سمى محمدا ابن الحنفية: "مذمما" لرفض الأخير مبايعته سنة ٦٦هـ".

والآن بالله عليكم، أيها العقلاء، هل يمكن أن يخطر فى أى ذهن سليم أن هذا الرد من سيدنا رسول الله معناه أنه لم يكن يسمَّى قبله: محمدا، بل اخترع هذا الاسم فى التو واللحظة ردا على المشركين؟ المنطق يقول إنهم قد أرادوا الإساءة إليه بقلب اسمه من "مُحَمَّد" إلى "مُذَمَّم"، الذى هو على وزنه عروضاً، وعلى عكسه معنًى مثلما قلب المسلمون اسم "أبو الحكم" إلى "أبو جهل" مثلا. وأنت، يا عظم، تقول إن الضعفاء يتخذون المعايب التى يرميهم بهم الأقوياء أسماء لهم ويقلبونها إلى معنى المدح والافتخار. فما الذى جعلك هنا تقول إن الرسول قد نفر من تسمية المشركين له بـ"مذمم"؟ ألم يكن المفروض أن يقبل تلك التسمية المسيئة ويقلب معناها إلى شىء طيب؟ واضح أنك من الذين يحلونه عاما، ويحرمونه عاما، ولست من الكتاب النزهاء المستقيمى الضمير. ثم هل يمكن أن يكون للنبى اسم آخر قبل محمد هو اسمه الأصلى ولا يذكر ذلك أحد من أعدائه المشركين واليهود والمنافقين والنصارى ومسيلمة وأمثاله من المتنبِّئين الكاذبين وتابعيهم

أو كتاب الرومان مثلا ؟ لقد أوردت لنا الأحاديث عددا من أسماء الصحابة والصحابيات التى غيرها النبى لسبب أو لآخر، ولم يحاول أحد أن يكتم هذه الأخبار، فلم يعتِّمون يا ترى على حادثة تغيير النبى اسمه لو كان له اسم سابق؟ وما هو هذا الاسم يا ترى؟

لقد جهد صادق العظم فى الدفاع عن رشدى ورد الاتهام الذى يرشقه به من كتبوا عن كتابه: "الآيات الشيطانية" من أنه إنما يردد مقولات المستشرقين ضد الإسلام ونبيه مثلما فعل فى هذه النقطة هشام جعيط، الذى زعم أن اسم النبى الحقيقى هو قُثَم، لكنه قام بتغييره فى المرحلة المدنية إلى محمد حتى يطابق ما فى الكتاب المقدس من نبوءات عن رسول اسمه محمد، ناسيا أن ذلك لو كان حدث لحولها أعداء النبى من أهل الكتاب فضيحة تقضى عليه وعلى دينه قضاء مبرما، وهو ما رددت عليه فى الفصلين الخاصين بهشام جعيط من كتابى: "أفكار مارقة" . ومع ما أجهد صادق العظم به نفسه فى الدفاع عن سلمان رشدى فها هو هذا يردد آراء بعض المستشرقين الشديدى التعصب من أن اسم النبى الأصلى لم يكن محمدا .

ويمضى العظم مستشهدا ببيت لعلى بن أبى طالب هو البيت الأخير من البيتين التاليين:

لَقَد أَكرَمَ اللَهُ النَبيَّ مُحَمَّدا   فَأَكرَمُ خَلْقِ اللَهِ في الناسِ أَحْمَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّهُ   فَذو العَرشِ مَحْمودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

بوصفه دليلا على أن اسم النبى لم يكن محمدا فى الأصل، بل الله هو الذى سماه هذه التسمية.

وأود أن أبين للقارئ أن صياغة البيتين، فى إحساسى، لا تنتمى إلى تلك الفترة الفحلة: فالمعنى ركيك، إذ هل يعقل أن يقول الشاعر فى أول البيت الأول إن الله قد أكرم نبيه محمدا، ثم يختم البيت بأن اسمه أحمد ؟ كذلك هل يمكن أن يقع شاعر فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الشعر العربى فى قطع همزة "اسم"، فيقول: "إسمه"؟ ولنفترض أن البيتين صحيحا النسبة لعلى بن أبى طالب فهل من اللازم أن يقصد إلى القول بأن النبى كان يسمى فى البداية: "أحمد" ثم سماه الله بعد ذلك: "محمدا"؟ فأين يا ترى، فى القرآن أو فى الحديث،

أن الله قد غير اسمه صلى الله عليه وسلم من "أحمد" إلى "محمد"؟ ولم لا نقول إن ابن أبى طالب إنما يقصد أن الله سبحانه قد شاء أن يسمِّى منذ البداية: "محمدا" لا أن يسميه هو بنفسه ذلك؟ إن كل شىء يصنعه البشر فهو فى نظر المؤمن فعل الله: "وما رَمَيْتَ إذ رميتَ، ولكن الله رمى"، "والله خلقكم وما تعملون"، "وخلق كل شىء فقدَّره تقديرا" . . . وهذا لو كان البيت (أو البيتان) لعلى، إلا أن هناك من ينسبهما إلى أبى طالب نفسه، وأبو طالب مات دون أن يعلن إيمانه برسالة ابن أخيه، فكيف ينظم مثل ذينك البيتين المؤمنين القويبى الإيمان؟ علاوة على أن اشتقاق اسم ما من اسم "محمود" ليس شرطا أن يكون "محمدا" بل يمكن أيضا أن يكون "أحمد"، الذى كان هو اسم النبى حسب البيت الأول من البيتين موضع المناقشة. ثم هل يمكن أن يقال، وبالذات فى ذلك العصر المبكر من تاريخ الإسلام، إن الله أراد أن يجل النبى؟ الإجلال إنما يكون لله من البشر لا منه لهم.

كما استشهد صادق العظم بشطر بيت لحسان على أن اسم "محمد" إنما أطلقه الأنصار على النبى عليه الصلاة والسلام بما يعنى أنه ليس اسمه الأصلى بل اسما حدث بعد أن لم يكن، أطلقه عليه الأنصار عندما هاجر إليهم. وهذا الشطر هو: "وألبسناه اسمًا مَضَى ما لَهُ مِثْلُ". وهذه رواية "السيرة النبوية" لابن هشام. فهل قال أحد فى الدنيا إن الأنصار هم الذين سموا النبى محمدا بهذا الاسم؟ فمتى كان ذلك يا ترى؟ وأين؟ ومن ذا الذى سماه منهم بذلك؟ على أن رواية البيت التى فى الديوان شىء آخر حسبما يجده القراء فى الأبيات التالية التى نقلناها من ديوان الشاعر بطبعاته المتعددة: طبعة المحمدية عام ١٢٨١هـ، وطبعة السعادة ١٣٣١هـ، وطبعة هرشفيلد، وطبعة عبد الرحمن البرقوقى، وطبعة سيد حنفى، وطبعة وليد عرفات جميعا:

كُنّا مُلُوكَ الناسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ فَلَمّا أَتَى الإِسْلامُ كانَ لَنا الفَضْلُ
وَأَكْرَمَنا اللَّهُ الّذي لَيسَ غَيْرَهُ إِلَهٌ بِأَيّامٍ مَضَتْ ما لَها شَكْلُ

بِنَصْرِ الإِلَهِ وَالنَبِيِّ وَدِينِهِ   وَأَكْرَمَنا بِاسْمٍ مَضَى ما لَهُ مِثْلُ
أولَئِكَ قَوْمي خَيْرُ قَوْمٍ بِأَسْرِهِم   فَما عُدَّ مِن خَيْرٍ فَقَوْمِي لَهُ أَهْلُ

ومعناه أن الله سبحانه وتعالى قد أكرم قوم الشاعر، ضمن ما أكرمهم به، بتسميتهم بهذا الاسم الكريم: اسم "الأنصار"، وهو ما يرشّح له كلامُه فى الشطر الأول عن نصرة قومه للدين وللنبى عليه الصلاة والسلام. ولنفترض أن الرواية التى أوردها العظم هى الرواية الصحيحة فالمعنى هو أن الله قد ألبسَنا (أى ألبس الأنصار) اسما مضى ما له مثل. والفرق بين المعنيين هو أن العظم ينطق الفعل: "ألبسناه" بتسكين السين، بينما هو مفتوحها بما يعنى أن الله قد ألبسَنا اسما، لا أننا نحن الذين ألبسْنا النبى محمدا اسما، وهو ما لا يعرفه التاريخ. ثم يتصور صادق العظم رغم ذلك أنه عالم نحرير، وابن بجدتها! فانظر كيف لا يستطيع العظم قراءة مثل هذا النص الصغير قراءة صحيحة البتة، وكيف لا يستطيع أن يحقق ما يقرؤه ويعرف أين يجد النصوص المطلوبة. إنه يخبط خبط عشواء، ثم يريد منا أن نعده كاتبا ليس له من ضريع.

كذلك فسُنّة الإسلام تجرى على عكس السُّنّة التى ذكرها الكاتب، إذ كان النبى عليه الصلاة والسلام، كلما لقى شخصا يتسمى باسم معيب، قام بتغيير الاسم إلى اسم جميل أو مقبول، كما هو الحال مثلا حين غير اسم "عاصية" (إحدى زوجات عمر بن الخطاب) إلى "جميلة"، و"عبد العزى" إلى "عبد الله": فمن رواية بسر بن عبيد الله: "كانت تحت عمر بن الخطاب امرأة تسمى: عاصية، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم: جميلة. وكانت امرأة جميلة، وكان عمر يحبها، فكان إذا خرج إلى صلاة مشت معه من فراشها إلى الباب. فإذا أراد الخروج قبّلتْه، ثم مضى، ورجعتْ إلى فراشها". ومن رواية عبد الله بن الحارث: "تُوُفِّيَ صاحبٌ لنا غريبًا فَكُنَّا على قبرِهِ أَنَا وابنُ عمرَ وعبدُ اللَّهِ بنُ عمرٍو. وَكانَ اسمي: العاص، واسمُ ابنِ عمرَ: العاصِ، واسمُ ابنِ عمرٍو: العاص، فقالَ لَنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: انزلوا وأقبروهُ، وأنتُمْ عَبيدُ اللَّهِ. فنزلنا فقبَرْنا أخانا وصعِدنا منَ القبرِ وقد أُبدِلَت أسماؤُنا". ومن رواية سعيد بن المسيَّب "أَنَّ جَدَّه

حَزْنًا قدِم على النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم، فقال : ما اسمُك؟ قال: اسمي حَزْنٌ. قال: بل أنت سهلٌ. قال: ما أنا بمُغَيِّرٍ اسمًا سمّانيه أبي. قال ابنُ المُسَيِّبِ: فما زالَتْ فينا الحُزُونَةُ بَعْدُ" . وعن خيثمة بن عبد الرحمن "أنّ أباه عبدَ الرَّحمنِ ذهب مع جدّه إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ، فقال له: ما اسمُ ابنِك؟ قال: عَزِيزٌ. فقال النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: لا تُسَمِّه: عَزِيزًا، ولكن سمِّه: عبدَ الرّحمنِ. ثم قال: أحبُّ الأسماءِ إلى اللهِ عبدُ اللهِ وعبدُ الرّحمنِ والحارثُ" . وعن عبد الرحمن بن صفوان: "هاجر أبي صفوان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة فبايعه على الإسلام، فمد النبي صلى الله عليه وسلم إليه يده فمسح عليها ، فقال له صفوان إني أحبك يا رسول الله . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب. فكان صفوان بن قدامة حيث أتى دار الهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة دعا قومه وبني أخيه ليخرجوا معه، فأبوا عليه، فخرج وتركهم، وخرج معه بابنيه عبد الرحمن وعبد الله، وكانت أسماؤهم في الجاهلية عبد العزى وعبد نهم، فغير أسماءهم النبي صلى الله عليه وسلم" . ومن رواية عبد القيوم أبى عبيدة: "كنت مع أبي راشد الأزدي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي راشد : ما اسمك؟ قال: عبد العزى أبو معاوي. قال: لا ولكنك عبد الرحمن أبو راشد . قال: فمن هذا معك؟ قال: مولاي. قال: ما اسمه؟ قال: قيوم. قال: لا، ولكنه عبد القيوم أبو عبيدة" . وعن عبد الرحمن بن سبرة: "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت :عبد العزى. قال: بل أنت عبد الرحمن" .

وقد سمى الله تعالى نبيه: "محمدا"، فهل يسوغ لأحد أن يهجر هذا الاسم الجميل الذى سماه الله به إلى اسم "شيطان" أو "وحش" أو "صنم" أو "كلب"؟ الحق أن الصنم والوحش والشيطان والكلب إنما هو من يطلق عليه هذا الاسم. وهذا رسول الله يقول: "إنّ لي أسماءً، وأنا محمّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الّذي يمحو اللهُ بيَ الكُفرَ، وأنا الحاشرُ الّذي يُحشَرُ النّاسُ على قدَمي، وأنا العاقبُ الّذي ليس بعدَهُ أحدٌ.

وقد سمّاهُ اللهُ: رءوفاً رحيمًا" . فما المغزى من وراء هجران هذه الأسماء وإطلاق اسم "ماهوند" عليه صلى الله عليه وسلم، وبخاصة أننا نعلم ماذا يعنى "ماهوند"؟ ترى هل يصح ذوقا، ودعنا من العقيدة والدين، أن نسمى رسولنا الكريم اسما يعنى الشيطان والصنم؟ فلم لا نطلقه على من اختاره وعلى من دافع عن هذا الاختيار الشنيع؟ من الآن فصاعدا نستطيع أن نسمى كلا من سلمان رشدى وصادق العظم: "ما هوند"، أو بصريح العبارة: "شيطان" أو "كلب" . . . ولا أظن إلا أن كلا منهما سوف يرحب بذلك طبقا لفلسفته الغبراء ! لقد كان الإسلام فتوحا متعددة فى عالم الحضارة والثقافة والذوق، وبالمثل كان فى عالم الأسماء فتحا لا يضاهَى، إذ رفض الأسماء القبيحة أو التى يشتم منها اعتقاد منحرف أو ذوق فاسد أو معنى كريه. . . وهكذا، ودعا إلى استبدالها بأخرى ليس فيها قبح ولا انحراف عقيدى ولا فساد ذوق. فلم يريد بعض المنتسبين إلى ذات الجنس الذى ننتسب إليه أن يرتدوا بنا على الأعقاب ظانين أنهم سوف ينجحون فى خداعنا وتنكيس أذواقنا والإساءة إلى نبينا الكريم بحجة أنهم إنما يريدون الأفضل؟ خسئوا وخسروا وخابوا !

ثم هناك فى كتاب صادق العظم مسألة الغرانيق. ذلك أن سلمان رشدى قد وظف الرواية التى تقول إن النبى، حين كان يقرأ سورة "النجم" عقب نزولها من السماء، أدخل فيها الجملتين التاليتين عن اللات والعزى ومناة تألفا لقلوب المشركين، الذين لا يريدون أن يستمعوا إلى الدعوة الجديدة ولا يطيقون هجومها على أوثانهم. وقد انتقد المسلمون الغيورون على دينهم استعانة رشدى بتلك الرواية ورَأَوْا فيها رغبة من جانبه فى الإساءة إلى الإسلام، فانبرى السيد صادق جلال العظم للدفاع عن رشدى وتسويغ ما صنعه من هذا الكيد الفاشل مطنطنا بأن هذه الرواية موجودة فى كتب التراث، ناقلا النص التالى عن تاريخ الطبرى ليدلل على أن رشدى لم يقصد شرا ولا أراد كيدا، بل كل ما فعل هو الاستشهاد بما كتبه الطبرى وأمثاله.

ولنسمع أولا ماذا يقول: "فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على صلاح قومه، محبا مقاربتهم بما وجد إليه السبيل، قد ذكر أنه تمنى السبيل إلى مقاربتهم، فكان من أمره في ذلك ما حدثنا ابن حميد،

قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد المدني، عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تَوَلِّى قومه عنه، وشَقَّ عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه. وكان يسره، مع حبه لقومه وحرصه عليهم، أن يَلين له بعض ما قد غَلُظ عليه من أمرهم حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه، فأنزل الله عز وجل: "والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى". فلما انتهى إلى قوله: "أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه: "تلك الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لترتجى". فلما سمعت ذلك قريش فرحوا، وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فأصاخوا له، والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يتهمونه على خطإٍ ولا وهم زلل. فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقا لما جاء به، واتباعا لأمره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد، إلا الوليد بن المغيرة، فإنه كان شيخا كبيرا، فلم يستطع السجود، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها. ثم تفرق الناس من المسجد، وخرجت قريش، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم، يقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر. قد زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن تُرْتَضَى. وبلغت السجدة مَنْ بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: أسلمت قريش، فنهض منهم رجال، وتخلف آخرون.

وأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، ماذا صنعتَ؟ لقد تلوتَ على الناس ما لم آتِك به عن الله عز وجل، وقلتَ ما لم يُقَلْ لك! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك حزنا شديدا، وخاف من الله خوفا كثيرا، فأنزل الله عز وجل، وكان به رحيما، يعزيه ويخفض عليه الأمر، ويخبره أنه لم يك قبله نبي ولا رسول تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى

على لسانه صلى الله عليه وسلم، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته. أي فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل. فأنزل الله عز وجل: "وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحْكِم اللهُ آياتِه والله عليمٌ حكيمٌ"، فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن، وآمنه من الذي كان يخاف، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم أنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن ترتضى. يقول الله عز وجل حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: "ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمةٌ ضِيَزى" أي عوجاء، "إن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم. . . (إلى قوله:) "لمن يشاء ويرضى". أي فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده؟ فلما جاء من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتكم عند الله، فغيَّر ذلك وجاء بغيره.

وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عله وسلم قد وقعا في فم كل مشرك، فازدادوا شرًّا إلى ما كانوا عليه، وشدةً على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم. وأقبل أولئك النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم من إسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا دَنَوْا من مكة بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مستخفيًا . . .

فلما أمسى أتاه جبرئيل عليه السلام فعرض عليه السورة. فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افتريتُ على الله، وقلتُ على الله ما لم يقل. فأوحى الله إليه: "وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره. . . (إلى قوله:) "ثم لا تجد لك علينا نصيرا". فما زال مغموما مهموما حتى نزلت: "وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ. . . (إلى قوله:) "والله عليمٌ حكيمٌ". قال: فسمع من كان بأرض الحبشة من المهاجرين أن أهل مكة قد أسلموا كلهم

فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان. . . ".

وسلمان رشدى حين استعمل فى روايته حكاية الغرانيق، وصادق جلال العظم حين انبرى للدفاع عن رشدى، إنما يريدان إلى القول بأن محمدا، عليه الصلاة والسلام، كان يتمنى أن يصالح القرشيين حتى يكسبهم إلى صفه بدلا من استمرارهم فى عداوتهم لدعوته وإيذائهم له ولأتباعه، ومن ثم أقدم على تضمين سورة "النجم" تَيْنِك العبارتين عقب قوله تعالى: "أفرأيتم اللاتَ والعُزّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى؟" على النحو التالى: "إنهنّ الغرانيق العُلا * وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى". والمقصود من وراء ذلك كله هو الإساءة للرسول الكريم بالقول بأنه لم يكن مخلصا فى دعوته، بل لم يكن نبيا بالمرة، وإلا لما أقدم على إضافة هاتين الآيتين من عند نفسه. بل إن العظم ليؤكد أن ولاء الرسول الأول كان لقومه لا لدينه. قالها بصريح العبارة مما لا يمكن تأويله، فهو ماركسى لا يؤمن بالإسلام ولا بأية غيبيات كالوحى وما أشبه زاعما أن هذا كله تخلف ورجعية. وأنا لا أناقشه فى هذا، فكل إنسن حر فيما يؤمن وفيما يكفر، لكننى أريد أن أنبه القراء إلى ضعف منطقه وتهافت حججه وعدم تبصره وعجزه عن التفكير المنهجى العلمى ومسارعته إلى ترديد كل ما يتصور أنه يضر الإسلام دون تمحيص أو تحقيق. ترى هل الطبرى معصوم؟ إن العظم، بالطريقة التى تناول بها هذا الموضوع، يومئ إلى أن محمدا فى تبليغه للوحى غير معصوم، أما الطبرى فى إيراد تك الحكاية فمعصوم ونصف. أقول هذا رغم معرفتى أن العظم لا يؤمن بوحى ولا بنبوة، لكنه التمادى مع الخصم إلى آخر شوطه. فهل ما قاله الطبرى فى هذه القضية هو مما اتفق عليه العلماء؟

وكيف يكون معنى قوله تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحْكِم اللهُ آياتِه والله عليمٌ حكيمٌ" هو قراءته فى القرآن ما ليس من القرآن، بما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام قرأ فعلا جملتى الغرانيق وأدخلهما فى القرآن، وأنه قد افترى على

الله ما لم يُوحِهِ إليه طبقا لكلامه هو عن نفسه فيما مضى من الحكاية السابقة، والله ذاته يقول فى الآيات ٧٣-٧٥ من سورة "الإسراء": "وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا" التى استشهدت بها رواية الطبرى على أنه قد دخل القرآن على لسان النبى ما ليس من الوحى، بما يفيد أنه قد افترى على الله وركن إلى الكفار، فى الوقت الذى يقول القرآن فيه إنه لو كان افترى على الله شيئا لأذاقه من العذاب ضعف الحياة وضعف الممات دون أن يجد من ينصره من الله، مع أن هذه الآيات نفسها تقول بأجلى بيان إن الله قد ثبته فلم يكد يركن إليهم، فضلا عن أنه سبحانه لم يعذب نبيه؟ ومرة أخرى كيف سكت كل أعداء النبى فلم يستغلوا هذه الآيات المتناقضة؟ بل كيف وقف المسلمون هم أيضا ساكتين فلم تعرض لبعضهم الشكوك والحيرة؟ ثم يظن العظم أنه كاتب لم يخلق الله مثله بين العباد !

إن هذه الحكاية هى مما يحلو للمستشرقين والمبشرين والملاحدة وأمثالهم أن يرددوها للمكايدة وإثارة البلبلة، مع أن أقل نظرة فى سورة "النجم" أو فى سيرة حياته صلى الله عليه وسلم كافية للقطع بأن تلك القصة لا يمكن أن تكون قد حدثت على هذا النحو! وقد أقدم بلاشير فى ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم على شىء بلغ الغاية فى الشذوذ والخيانة العلمية، ألا وهو إثبات هاتين الآيتين المدَّعَاتَيْن فى نص ترجمته لسورة "النجم" بزعمهما آيتين قرآنيتين كانتا موجودتين فيها يوما . ولنبدأ بالنظر فى أول السورة حيث نقرأ: "وما ينطق عن الهوى"، و"ما زاغ البصر وما طغى" . فكيف فات الطبرى المؤمن بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام أن الحكاية الظريفة التى أوردها هى مما يتناقض تناقضا أبلق مع تينك الآيتين؟ أليستا تقولان إن محمدا لا يمكن أن ينطق عن الهوى، وإنه قد أدى ما رآه وسمعه دون زيادة أو نقصان بعيدا تماما عن الوهم؟ فهذا هو صادق العظم، بناء على تلك الرواية السخيفة، يقول إن ولاء الرسول الأول كان لقومه لا للإسلام، وأن ولاءه هذا، أو فلنقل: هواه، قد جعله ينطق بما ليس قرآنا . وأنا هنا لا يهمنى العظم فى قُلٍّ أو كُثْرٍ، فهو وما

أداه إليه عقله من الإيمان بما يشاء، لا يستطيع أحد أن يتدخل فيما بينه وبين ضميره. لكن هذا لا يعنى أن نتركه يهرف بما لا يحسن دون أن ننكر عليه ونفضح عجزه ونمزق هراءه الذى يضحك به على الذقون محاولا أن يخيل للقراء أنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل الذى يهمنى هو الطبرى. فكيف فات الطبرى أنه بذلك يناقض نفسه ويخالف ما جاء به القرآن الكريم فى حق الرسول وتبليغه آيات الوحى السماوى؟ وهذا إن كان الطبرى يصدق تلك الحكاية على ما يريد العظم أن يوهمنا، وهو ما تقوم دونه أسداد وأسداد، إذ من المعروف أن الطبرى إنما يورد كل ما وصله من روايات يضعها بين يدى القارئ ويخلى بينه وبينها، ولا يعنى أبدا أنه يؤمن بما فيها بالضرورة.

والحق أن من الممكن أن يكون المعنى هو أن الشيطان قد ألقى فى القرآن الذى قرأه الرسول على المشركين بعضا من ألفاظه الكفرية على لسان الحاضرين من أعداء الإسلام كما سوف يأتى بيانه، فسارع الرسول إلى تبيان الحق فلم يبال أى مسلم ممن كانوا حاضرين آنذاك بشىء مما ردده رقعاء المشركين من الثناء على اللات والعزى ومناة ردًّا على هجوم سورة "النجم" عليها، وكأنه لم يكن، وهذا معنى أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ثم يُحْكِم الله آياته. أو ربما كان معنى التمنى هو أن النبى كان يتمنى ألا يكون الوحى بهذا العنف فى مهاجمة الكفار حتى يمكن استلانة قلوبهم حسب ظنه، إلا أن الله سرعان ما ثبت قلب رسوله على الحق الناصع المستقيم ونفى عن قلبه هذا التطلع العارض الذى لا يترك أثرا لا فى النفس ولا فى التصرفات. إن من يقول لعمه، حين أتاه وفد قريش يلحون عليه أن يُسْكِت عنهم وعن أصنامهم ابن أخيه فينزل العم على إلحاحهم ويعرض على ابن الأخ شيئًا من المهادنة، فيقول له: "والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته" لا يمكن البتة أن يركن إلى الكفار ويردد مثل هذا الكلام الكُفْرِىّ الذى يضرب دعوته فى الصميم ضربة من شأنها أن تُسْمَع آثارها فى جميع أرجاء الجزيرة العربية وخارج الجزيرة العربية لو كانت قد حصلت.

هذا بالنسبة إلى الطبرى، أما بالنسبة إلى التفكير المجرد فسواء صدقنا بالوحى السماوى أو لا فإن تينك الجملتين لا تنتميان إلى أسلوب القرآن، أى ليست منه: فإن كان القرآن من عند محمد فإن الجملتين اللتين قالهما محمد ليستا من ذلك الأسلوب. وإن كان القرآن وحيا من الله فإنه قد قال لنا إن محمدا لا يمكن أن ينطق عن الهوى، ومن ثم لا يمكن أن ينطق بهما أبدا حتى لو انطبقت السماء على الأرض. أما كيف نستطيع أن نحكم على مدى تناغم الجملتين وبقية آيات القرآن فلسوف أبين ذلك للقارئ بالتفصيل بعد قليل. ولا أظن أحدا يمكن أن يطرح الاحتمال الثالث، وهو أن الله هو الذى أنزل هاتين العبارتين ثم عاد فحذفهما. ولو افترضنا أن أحدا قد فقد رشده وقال ذلك فالرد بسيط، وهو أن الأسلوبين مختلفان تمام الاختلاف، مما لا يمكن معه أن يكون الأمر صحيحا. أى أن الحكاية السخيفة الخاصة بجملتى الغرانيق هى حكاية خرافية من أولها إلى يائها.

وقد تناول عدد من علماء المسلمين قديما وحديثا الروايات التى تتعلق بهاتين الآيتين المزعومتين وبينوا أنها لا تتمتع بأية مصداقية. والحقيقة إن النظر فى سورة "النجم" ليؤكد هذا الحكم الذى توصل إليه أولئك العلماء، فهذه السورة من أولها إلى آخرها عبارة عن حملة مدمدمة على المشركين وما يعبدون من أصنام بحيث لا يُعْقَل إمكان احتوائها على هاتين الآيتين المزعومتين، وإلا فكيف يمكن أن يتجاور فيها الذم العنيف للأوثان والمدح الشديد لها؟ ترى هل يمكن مثلا تصوُّر أن ينهال شخص بالسب والإهانة على رأس إنسان ما، ثم إذا به فى غمرة انصبابه بصواعقه المحرقة عليه ينخرط فجأة فى فاصل من التقريظ، ليعود كرة أخرى فى الحال للسب والإهانة؟ هل يعقل أن تبلع العرب مثل هاتين الآيتين اللتين تمدحان آلهتهم، وهم يسمعون عقب ذلك قوله تعالى: " ألكم الذكَر وله الأنثى؟ * تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى * إن هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن تتّبعون إلا الظن وما تَهْوَى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى"؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوره! كما أن وقائع حياته صلى الله عليه وسلم تجعلنا نستبعد تمام الاستبعاد أن

تكون عزيمته قد ضعفت يوما، فقد كان مثال الصبر والإيمان بنصرة ربه له ولدعوته. ومواقفه من الكفار طوال ثلاثة وعشرين عاما وعدم استجابته فى مكة لوساطة عمه بينه وبينهم رغم ما كان يشعر به من حب واحترام عميق نحوه، وكذلك رفضه لما عرضوه عليه من المال والرئاسة، هى أقوى برهان على أنه ليس ذلك الشخص الذى يمكن أن يقع فى مثل هذا الضعف والتخاذل! ليس ذلك فحسب، إذ ليس من المظنون بتاتا أن يقف المشركون صامتين خُرْسًا أمام هذه الخديعة التى خدعهم محمد إياها حين مدح آلهتهم ثم لم يشأ أن يتركهم يهنأون بهذا المدح سوى سويعات أو دقائق، فأين شعر الشعراء المشركين أو اليهود أو النصارى؟ وأين المنافقون واليهود اليثربيون فلم يحاولوا أن يحاربوا النبى وأتباعه بهذه الفضيحة؟ هل من المعقول أن ينزل سهم الله على الجميع المتربصين الحاقدين الذين لا يمكن أن يجدوا سلاحا أفعل من هذا السلاح لتفويقه إلى عنق الإسلام ليقتلوه، فإذا بهم يصمتون تماما ولا يفتحون لهم فما بكلمة؟

وقد ذكر سلمان رشدى فى روايته المسيئة أن خالد بن الوليد، الذى تضطرب الرواية فتجعل إسلامه فى المرحلة المكية، قد بدأ يشك هو وبعض المسلمين فى أمر النبى عليه السلام، وإن كان قد ظهر لهم أن النبى كان أبعد منهم نظرا. كما تزعم الرواية أن سلمان كان يكتب الوحى للرسول، لكنه اكتشف عدم إخلاصه فى دعواه النبوة، إذ كان يضع القواعد والقوانين أولا ثم يأتى جبريل فيوافق عليها، ليكون هو أول من يكسرها. وكان تعليق سلمان على هذا قوله إن الذى يكون قريبا من الحاوى يسهل عليه اكتشاف أخاديعه. ويمضى سلمان فى الرواية فيسخر من الإسلام وتشريعاته قائلا إن هذه التشريعات لم تترك شيئًا إلا قعّدَتْه وقنّنَته بما فيها الفُسَاء وما ينبغى للمسلم أن يفعله إذا فسا، وكيف أن الإسلام يحرم أن تعلو المرأة الرجل أثناء الجماع، كما يحرم هرش مواضع بعينها من الجسم مهما تكن دواعى الهرش. ويزعم الكاتب أن سلمان قد سكت فى البداية على خداع محمد لأن الخطر الجاهلى كان محدقا بهم. كما تشير الرواية إلى أن من بين الأسباب القوية التى دفعت بسلمان بعيدا عن النبى والإسلام اتخاذ النبى عددا من الزوجات أكبر من العدد الذى حدده

القرآن للمسلمين، استرضاه النبى بالصفقة التى ساومه عليها الجاهليون، وهى أن يذكر اللات والعزى ومناة بخير فى القرآن مقابل اعتراف أهل الجاهلية بالمسلمين وضمهم إياه إلى دار الندوة ليصبح عضوا فى مجلس المدينة.

وكما افترى رشدى على سليمان الفارسى الأكاذيب افتراها أيضا على هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، الذى سماه رشدى: كريم أبو سمبل، والذى كان يتهم بعلا الشاعر الشاب الهجّاء بأنه "ينيـ. . ." زوجته هندا، التى تقول الرواية عنها إنها نامت مع كل كتّاب الجاهلية، أى مكة، وإن لم يعد ينام معها منذ وقت طويل. ويقول الكاتب إنه، بسبب شبابها الدائم، قد غفر الناس لها عهرها وثراءها الخرافى وسحقها لثورة الجياع عن طريق شرطتها، مستوحيا فى رسم شخصيتها صورة إميلدا ماركوس. بل إنه يجعلها ساحرة تحول الرجال الذين لا ينحنون أمام هودجها إلى ثعابين، وتمسكهم من ذيولهم وتطبخهم وتتعشى بهم. وفى مشهد آخر نرى النبى عليه الصلاة والسلام فى الفراش عاريا تغطيه ملاءات السرير فى بيت هند، وحين بدى استغرابه تقول له إنها قد التقطته بعدما سقط فى شوارع "الجاهلية" كما يسقط السكران فى بالوعة المجارى. وكان "قد قضى يوما شاقا فى الصعود غلى الغار والهبوط منه، وفى محاولة تسكين ثورة أتباعه على قبوله صفقة "الجاهليين" ومدحه أصنامهم فى القرآن. ونراها تحاول أن تطعمه قطع الشمام فى فمه، ولكنه يأخذها منها ويأكلها بنفسه. فتمد يدها فى جيب جلبابه وتداعبه فى صدره مبدية استهانتها بزوجها، وتصارحه بأنها تتخذ العشاق بعلم هذا الزوج. ونسمعها تقول له إن إلهه إذا كان قد رضى واعترف بآلهتها الثلاث: اللات والعزة ومناة فإنهن لا يرضَيْنَ أن يكنَّ بناته بل أندادا له.

وعند فتح مكة تأتى هند إلى الرسول منتقبة، وترتمى عند قدميه ناطقة بالشهادتين، وتقبل أصابعهما إصبعا إصبعا، وعقلة عقلة، وتلعقها وتمصها فى شبق، والرسول يصيح بها: كَفَى! هذا خطأً، فالعبادة لا تصح إلا لله. ثم يعفو عنها الرسول وهوشارد، وإن كان قد أحس بالسخرية فى هذه القبلات. وبعد الفتح

تجلس هند فى عِلّيَة بقصرها زمنا طويلا تتفرغ فيه لكتب السحر، ثم تخرج من عزلتها داعية زوجها إلى الاحتفال معها بالانتقام من ماهوند . ثم يسقط ماهوند مريضا، فيتساءل وهو فوق صدر عائشة، وبصره ناحية المصباح: من هناك؟ أهذا أنت يا عزرائيل؟ فتسمع عائشة صوتا نسائيا جميلا لكنه فظيع: لا يا رسول الله، لست بعزرائيل. ثم ينطفئ المصباح، فيقول ماهوند: وهل هذا المرض منك أيتها اللات؟ فترد: إنه انتقامى منك، وأنا سعيدة بذلك. فليعقروا لك جملا ويضعوه فوق قبرك. . . وهذا يعنى، كما هو واضح، انتصار الوثنية على الإسلام.

نعم من الواضح أن رشدى يريد أن يبث فى رُوعنا أن الوثنية قد انتصرت فى النهاية على الإسلام: فها نحن أولاء نرى من يأكلون الخنزير، ومن يشربون الخمر، ومن يعبدون اللات والعزى، ومن يقصدون ماخور "الحجاب" لممارسة الدعارة حيث تسكن اثنتا عشر بغيا: عائشة وحفصة وزينب وسودة. . . إلى آخر أسماء زوجات النبى وصفاتهن، إذ فسر المؤلفُ المجرمُ مطابقةَ أسماء البغايا مع أسماء أمهات المؤمنين بوصفها رد فعل من سكان "الجاهلية" على أمر ماهوند لزوجاته بالتحجب والتخفى عن عيون الرجال. ويقضى عاهرات الحجاب وقتهن فى مداعبة بعل حتى تثور شهوته، ويتزوجن فى النهاية منه زواجا صوريا مشترطات عليه أن يمر كل ليلة على واحدة منهن، ثم يطالبنه بأن يتسمى هو أيضا بـ"محمد" ما دمن قد تسمَّيْن بأسماء زوجاته. وهناك عاهرة منهن اسمها زينب يقصدها الشواذ المبتَلَوْن بالرغبة فى مضاجعة النسوة الميِّتات، تلك العملية التى كانت هذه البغى تزاولها مع قصادها بالتزام الصمت والسكون التامين أثناء الجماع، فكأنهم يجامعون امرأة ميتة. وهذه بعضٌ فقط من القاذورات التى يحتوى عليها صندوق زبالة لرواية، ليأتى صادق بن جلال بن العظم فيزعم أنها تخلو من الإساءة إلى الإسلام ويحمل على من ينتقدون مؤلفها الشاذ: الشاذ فى عقله وفى غير عقله. صدق من قال: من لم ير من ثقوب الغربال يكن أعمى!

أما من الناحية الأسلوبية التى وعدت القارئ بها فإن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطا للشفاعة يوم القيامة دون تعليقها على إذن الله، وهو مالم يسنده القرآن فى أى موضع منه إلى أى كائن مهما تكن منزلته عنده سبحانه. ولن نذهب بعيدا للاستشهاد على ما نقول، فبعد هاتين الآيتين بخمس آيات فقط نقرأ قوله تعالى: "وكم مِنْ مَلَكٍ فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويَرْضَى". فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله؟ ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيتى الغرانيق كلمة "تُرْتَجَى"، وهى أيضا غريبة على الأسلوب القرآنى، إذ ليس فى القرآن المجيد أى فعل من مادة "ر ج و" على صيغة "افتعل". أما ما جاء فى إحدى الروايات من أن نص الآية هو: "وإنّ شفاعتهن لَتُرْتَضَى"، فالرد عليه هو أن هذه الكلمة، وإن وردت فى القرآن ثلاث مرات، لم تقع فى أى منها على "الشفاعة"، وإنما تُسْتَخْدَم مع الشفاعة عادةً الأفعال التالية: "تنفع، تغنى، يملك".

كذلك فقد بدأت مجموعةُ الآيات التى تتحدث عن اللات والعُزّى ومناة بقوله عَزّ شأْنُه: "أ(ف)رأيتم...؟"، وهذا التركيب قد تكرر فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى خطاب الكفار، ولم يُسْتَعْمَل فى أى منها فى ملاينة أو تلطف، بل ورد فيها جميعا فى مواقف الخصومة والتهكم وما إلى ذلك بسبيل كما فى الشواهد التالية: "قل: أرأيتم إن أتاكم عذابُه بَيَاتًا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون؟" (يونس/ ٥٠)، "قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حلالا وحراما، قل: آللهُ أَذِنَ لكم أم على الله تفترون؟" (يونس/ ٥٩)، "قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِد شاهدٌ من بنى إسرائيل على مِثْلِه فآمن واستكبرتم؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين" (الأحقاف/ ١٠)، "أفرأيتم الماء الذى تشربون؟ * أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المُنْزِلون؟ * لو نشاء جعلناه أُجَاجًا، فلولا تشكرون" (الواقعة/ ٦٨ — ٧٠). فكيف يمكن إذن أن يجىء هذا التركيب فى سورة "النجم" بالذات فى سياق ملاطفة الكفار ومراضاتهم

بمدح آلهتهم؟ وفوق هذا لم يحدث أن أُضيفت كلمة "شفاعة" فى القرآن الكريم (فى حال مجيئها مضافة) إلا إلى الضمير "هم" على خلاف ما أتت عليه فى آيتى الغرانيق من إضافتها إلى الضمير "هنّ".

وفضلا عن ذلك فتركيب الآية الأولى من الآيتين المزعومتين يتكون من "إنّ (وهى مؤكّدة كما نعرف) + ضمير (اسمها) + اسم معرّف بالألف واللام (خبرها)"، وهذا التركيب لم يُسْتَعْمَل لـ"ذات عاقلة" فى أى من المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم (وهى تبلغ العشرات) إلا مع زيادة التأكيد لاسم "إنّ" بضميرٍ مثله كما فى الأمثلة التالية: "ألا إنهم هم المفسدون/ ألا إنهم هم السفهاء/ إنه هو التواب الرحيم/ إنك أنت السميع العليم/ إنك أنت التواب الرحيم/ إنه هو السميع العليم/ إنه هو العليم الحكيم/ إنه هو الغفور الرحيم/ إنى أنا النذير المبين/ إنه هو السميع البصير/ إننى أنا الله/ إنك أنت الأعلى/ إنا لنحن الغالبون/ إنه هو العزيز الحكيم/ وإنا لنحن الصافّون/ وإنا لنحن المسبِّحون/ إنهم لهم المنصورون/ إنك أنت الوهاب/ إنه هو السميع البصير/ إنه هو العزيز الرحيم/ إنك أنت العزيز الكريم/ إنه هو الحكيم العليم/ إنه هو البَرّ الرحيم/ ألا إنهم هم الكاذبون/ فإن الله هو الغنى الحميد". أما فى المرة الوحيدة التى ورد التركيب المذكور دون زيادة التأكيد لاسم "إنّ" بضميرٍ مثله (وذلك فى قوله تعالى: "إنه الحق من ربك"/ هود/ ١٧) فلم يكن الضمير عائدا على ذات عاقلة، إذ الكلام فيها عن القرآن. ولو كان الرسول يريد التقرب إلى المشركين بمدح آلهتهم لكان قد زاد تأكيد الضمير العائد عليها بضميرٍ مثله على عادة القرآن الكريم بوصفها "ذواتٍ عاقلةً" ما داموا يعتقدون أنها آلهة. وعلى ذلك فإن التركيب فى أُولَى آيَتَىِ الغرانيق هو أيضا تركيب غريب على أسلوب القرآن الكريم.

مما سبق يتأكد لنا على نحوٍ قاطعٍ أن الآيتين المذكورتين ليستا من القرآن، وليس القرآن منهما، فى قليل أو كثير، سواء قلنا إن القرآن وحى سماوى من عند الله أو سايرنا الملاحدة الكافرين وقلنا إنه تأليف محمد بن عبد الله. بل إنى لأستبعد أن تكون كلمة "الغرانيق" قد وردت فى أى من الأحاديث التى قالها النبى عليه

الصلاة والسلام. وينبغى أن نضيف إلى ما مرّ أن كُتُب الصحاح لم يرد فيها أى ذكر لهذه الرواية، ومثلها فى ذلك ما كتبه ابن هشام وأمثاله فى السيرة النبوية.

ولقد قرأت فى كتاب "الأصنام" لابن الكلبى أن المشركين كانوا يرددون هاتين العبارتين فى الجاهلية تعظيما للأصنام الثلاثة، ومن ثم فإنى لا أستطيع إلا أن أتفق مع ما طرحه سيد أمير على فى كتابه القيم: "The Spirit of Islam" من تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث، بناءً على ما ورد من روايات فى هذا الموضوع ، إذ يرى أن النبى، عندما كان يقرأ سورة "النجم" وبلغ الآيات التى تهاجم الأصنام الثلاثة، توقّع بعضُ المشركين ما سيأتى فسارع إلى ترديد هاتين العبارتين فى محاولة لصرف مسار الحديث إلى المدح بدلا من الذم والتوبيخ. وما قاله أمير علىّ وجيه غاية الوجاهة ومقنع تماما، فقد كان الكفار فى كثير من الأحيان إذا سمعوا القرآن أحدثوا لَغْطًا ولَغْوًا كى يصرفوا الحاضرين عما تقوله آياته الكريمة (فُصّلَتْ/ ٢٦) . إذن فهذا الذى يقوله الكاتب الهندى هو من ذلك الباب. ولتقريب الأمر أمثّل لهذه الطريقة بواقعة كنت من شهودها، إذ كان رئيس ومرؤوسه يتعاتبان منذ أعوام فى حضورى أنا وبعض الزملاء، وكان الرئيس يتهم المرؤوس المسكين بأنه يكرهه، والآخر يحاول أن يبرئ نفسه عبثا لأنه كان معروفا عنه خوضه فى سيرة رئيسه فى كل مكان. وفى نوبة يأس أسرع قائلا وهو يؤكد كلامه بكل ما لديه من قوة: " إن ما بينى وبينك عميق! "، فما كان من زميل معروف بحضور بديهته وسرعة ردوده التى تحوّل مجرى الحديث من وجهته إلى وجهة أخرى معاكسة إلا أن تدخل قائلا فى سرعة عجيبة كأنه يكمل كلاما ناقصا: "فعلا ! عميقٌ لا يُعْبَر" . وهنا أمسك الرئيس بهذه العبارة وعدّها ملخِّصةً أحسن تلخيص للموقف ولمشاعر مرؤوسه المزنوق الذى يحاول التنصل مما يُنْسَب إليه! ومن ذلك أيضا ما كان بعض أصدقائنا المدرسين يعابث به تلميذاته إذا رآهن قد أسرفن فى التحمس لقاسم أمين وإبراز أهمية الدور التى تؤديه المرأة فى الحياة، إذ كان،كلما ردّدن أمامه العبارة المشهورة فى هذا السياق من أن "وراء كل عظيم امرأة"، يجيبهن مرة: "طبعا وراءه لا أمامه، فهو

صاحب الصدارة والتفوق، أما هى فتابعة له"، ومرة: "فعلا وراءه، والزمان طويل"، ومرة: "وراءه مسوّدة عيشته" . . . وهكذا .

كذلك حاول د . العظم بكل سبيل ووسيلة أن يدافع عن سلمان رشدى ضد الغاضبين من تطاوله على الدين وعلى الرسول عليه الصلاة والسلام زاعما أنه لم يسئ إلى الإسلام فى شىء . وهذا، والحق يقال، بجاحة تتخطى الحدود، فرواية رشدى مفعمة بل تطفح بألوان الأذى والعدوان والكذب والتهكم بكل شىء فى دين الله: فمن هذا قوله إن النبىقد وجد فى خديجة الأم والأخت والحبيبة والعرّافة والصديقة، مع أن بيت الرسول كان أبعد ما يكون عن العِرَافة والكهانة، كما كان عليه الصلاة والسلام يكره الكهان والعرافين، ويعلن دائما أنه لا يعلم الغيب

ومما دافع به صادق العظم عن رشدى وروايته ضد من هاجموهما من الكتاب المسلمين، الذين كنت واحدا منهم إذ وضعت كتابا عن الرواية فى مائتين وخمسين صفحة بغدما فليتها تفلية وأرهقتنى إرهاقا شديدا بسبب طبيعتها الغرائبية والأسطورية وتداخل الشخصيات والوقائع والعصور والنصوص والبلاد والأجناس فيها تداخلا مزعجا، إضافة إلى لغتها المعقدة التى حللتها كما لم يحللها أحد ممن كتب عنها من العرب حسب علمى وأشرت إلى هذا الجانب منها مبينا كيف أن رشدى يعلم من خبايا الإنجليزية ودقائقها وزواياها المظلمة وتعبيراتها البذيئة ويقدر على التعامل مع محسناتها البديعية كما لا يقدر غيره من الإنجليز الصميمين، فحسب د . صفاء خلوصى، فى مقاله الذى كتبه عن الكتاب فى مجلة "العرب" اللندنية" فى أوائل تسعينات القرن الماضى، أننى أقصد حلاوة أسلوب رشدى، بينما أنا أقصد شيئا آخر كما هو واضح من كلامى هنا، أقول: مما دافع به صادق العظم عن رشدى وروايته ضد من هاجموهما من الكتاب المسلمين تقريعهم على أنهم، حسبما قال متعالما، لم يلتفتوا إلى شىء هام جدا التفت عو بعبقريته الفريدة إليه، وهو أن رواية رشدى تنتمى إلى تيار فى الكتّاب والأدب قديم يتمثّل فى معارضة المقدس. ثم راح يتسعرض بعض

أمثلة من تلك الكتابات فى تراثنا . ولست أعارضه فيما قال، لكنى لا أرى أنه قد جاء بالذئب من ذيله، فكلنا نعلم هذا، ويكفى أن نشير إلى الشعر القرشى واليهودى فى هجاء الإسلام ورسوله منذ اللحظات الأولى من تاريخ الدعوة المحمدية كما هو الحال فى أشعار عبد الله بن الزِّبَعْرَى وسفيان بن الحارث فى مكة، وكعب بن الأشرف فى المدينة مثلا، وما كان الكفار يلجأون إليه من صرف القلوب والأسماع عن الإنصات إلى الوحى الذى يتلوه النبى على الناس فور تلقيه إياه، إذ كانوا يحدثون من اللغو واللغط ما يصرف الناس عن التنبه إلى ما يقوله النبى عليه الصلاة والسلام، كما كان النضر بن الحارث يتتبع الرسول أينما ذهب بحيث إذا جلس إلى قوم يدعوه إلى الإسلام فتح هو كتابا من أقاصيص فارس وملوكها وقادتها وشرع يقرأ عليهم منه مما أشارت إليه آيات القرآن فى سورتى "فُصِّلَتْ" و"لقمان" على الترتيب، فضلا عما كان المتنبئون الكذابون فى أواخر حياة الرسول يزيفونه من الآيات التى يريدون إيهام أتباعهم أنها تتنزل عليهم من السماء كما يتنزل القرآن على محمد .

إلا أننى لا أتفق معه مثلا فى التصديق بما ينسب للوليد بن يزيد من كفريات شعرية تتحدى الله وتستهزئ بالمصحف الشريف وتحكى كيف كان يفوِّق إليه السهام وقد علقه على الحائط طالبا منه أن يخبر الله يوم القيامة بأن الوليد هو الذى مزقه وأهانه. . . وما إلى هذا . ومن الممكن أن يكون الرجل خفيف الدين، بيد إنه لمن الصعب علىَّ القبول بأن هذه الأشعار من نظمه حتى لو ثبت أنه كان زائغ العقيدة فعلا، إذ من المستحيل أن ينظم الرجل مثل تلك الأشعار، ثم يتنصت التاريخ مرهفا أذنيه لعل إنسانا يعترض أو يرد عليه شعره هذا بشعر مثله أو برسالة أو بكتاب أو بخطبة أو تنتقض عليه جماعة محاربة تخرج على الدولة فلا يسمع التاريخ شيئا، وكأن المسلمين قد نَسُوا غيرتهم على إسلامهم تمام النسيان. فهل يعقل هذا عاقل أو بلا عقل؟ لا إخال. وهل كان الوليد مجنونا حتى يُقْدِم على نظم تلك الأشعار الكافرة دون تحسب للنكير عليه والتمرد على سلطانه؟ أتصور أن بعض أفراد البيت المروانى هم صانعو تلك الأشعار أو مكلفو بعض الشعراء بنظمها وناحلوها الرجل لتحطيم خصمهم الجالس فى دست الحكم توصلا إلى إزاحته والحلول محله، أو لعل بعض

الشعراء الرقيقى الدين أو الملحدين الزنادقة هم الذين فعلوا هذا متخفين وراء ظهر خليفة أموى مثله اشتهر صدقا أو كذبا بضعف الوازع الدينى، أو من الممكن أن يكون أعداء الأمويين وراء هذه الأشعار زيادة فى تشويه صورتهم. وواضح أننى لا أنفى أن يكون فى العصور الإسلامية الأولى من يُقْدِم على نظم مثل تلك الأشعار، إلا أننى أستبعد أن يكون صاحبها هو الوليد بن يزيد، الذى لا أنفى بالضرورة أن يكون رقيق الدين، لكن هذه نقرة أخرى. وفى كتابه: "العصر الإسلامى" نجد د. شوقى ضيف، رغم حديثه عن شغف الوليد باللهو والقصف والصيد وتأكيده لبراعته فى شعر الخمر والمجون، لا يميل إلى التصديق بصدور تلك الكفريات عن ذلك الخليفة الأموى، مرجعا أخبارها وأشعارها إلى الصراع داخل البيت المروانى على كرسى الخلافة.

وبالمثل لا أوافق صادق العظم على اعتبار رسالة "مفاخرة الجوارى والغلمان" من باب "معارضة المقدس"، إذ الجاحظ لم يعارض فى أى من صفحاتها ولا فقراتها المقدس، ولا كان فى ذهنه شىء من هذا حين انبرى للكتابة فى ذلك الموضوع. كيف، وهو يتربع فى صدر المدافعين عن القرآن والإسلام مثلما نرى فى "الرد على اليهود" و"الرد على النصارى" و"نظم القرآن" و"آى القرآن" و"الرد على من ألحد فى كتاب الله عز وجل" و"دلائل النبوة"؟ ثم إنه يقول فى مقدمة تلك الرسالة ما نصه: "ونعوذ بالله أن نقول ما يُوتِغ ويُرْدِي، وإليه نرغب في التأييد والعصمة، ونسأله السلامة في الدِّين والدنيا برحمته" تبرؤا مسبقا مما يمكن أن يدور فى خَلَد إنسان من أنه إنما راغ الكتابة فى ذلك الموضوع خروجا على مقتضيات الخلق الكريم والتدين السليم. بل إنه ليعد التحرج فى ذلك المجال ضيقا فى الأفق وسطحية فى التدين. ومعروف أن الجاحظ من الكتّاب الذين يحبون تقليب الأمور والنظر دائما إلى الشىء ونقيضه مؤمنين أنه ما من أمر إلا وله جانبان متقابلان، وأنه من تمام العلم بالأمر أن تراه من وجهيه بل من وجوهه جميعا.

فنزعته العقلية إذن لا معارضة المقدس هى التى دفعت به إلى معالجة ذلك الموضوع امتدادا لما صنعه مع موضوعات أخرى قابل فيها بين وجهتى النظر المتعارضتين نحوها. بل إنه، حين يكتب مدافعا عن الدين،

يجتهد فى عرض حجج الخصوم عرضا قويا قبل أن يكر عليها فينسفها . وهذا هو السبب الذى حدا بابن قتيبة وغيره إلى الظن السئ بأبى عمرو عثمان رحمه الله وبكتبه، إذ اتهمه بأنه، حين يعرض حجج خصوم الإسلام، يتوسع ويفصل، فإذا ما صار إلى الرد عليهم اختصر وتجوَّز. وهو ما لا أوافقه بوجه عام عليه من خلال معرفتى بمنهج الجاحظ فى معالجة تلك الموضوعات. والجاحظ، فى كتابه الذى نحن بصدده، حين يعرض وجهتى النظر فى الموضوع المذكور، إنما يعرض ما يقوله المغرمون بالجوارى والمغرمون بالغلمان. ولا شك أنه كان هناك فى ذلك الوقت من يتبنى كلا من الرأيين، فجاء الجاحظ فأدى ما يقوله كل من الفريقين كما هو. فإذا كان هناك سخرية فهى سخرية الجاحظ من كلا الفريقين، اللذين يتجادلان فى أى الحرامين هو الأفضل من الحرام الآخر. أما إذا كان لا بد من القول بأن هناك سخرية من المقدس ومعارضة له فهى من جانب أصحاب الجوارى وأصحاب الغلمان لا من جانبه هو.

ولأمثال هؤلاء أقوال مسفسطة "تضحك الثكلى" كما كان أجدادنا العرب يقولون. من ذلك ما يقوله الحشاشون لمن ينصحهم بالإقلاع عنه، إذ يجيبون قائلين فى تلاعب ظريف بالكلمات: والله إن كان حراما فنحن نحرقه، وإن كان حلالا فنحن نشربه. ومن ذلك أيضا أننى، فى نهار رمضان منذ عدة سنوات، رأيت بياعا شابا يدخن وهو يبيع لى بعض الخضراوات. ولما كنت أشترى منه بين الحين والحين رأيت أن أداعبه لتدخينه علنا أمام الناس فقلت له: أيصح وأنت رجل ملء هدومك أن تدخن فى رمضان، وأمام الناس فى الظهر؟ فما كان من الشيطان إلا أن رد ردا أفحمنى وشغلنى بظَرْفه عن الاستمرار فى الكلام، إذ قال: ماذا أفعل؟ إننى أسلى صيامى! ترى بم كان يمكن أن أرد على هذا الظرف الأصيل المخرس؟ لقد خرست فعلا ، وانتهى الأمر، وانصرفت وأنا أقهقه، وما زلت حتى هذه اللحظة أضحك دون أن أتمالك نفسى فأتوقف حتى لقد فكر أهلى فى إرسالى إلى العباسية، ونحن منها جِدُّ قريبٍ! وأحيانا ما أقول لنفسى ضاحكا أيضا : ألا يمكن أن يغفر الله لهذا البياع لقاء خفة ظله؟ ألم يقل الرسول: تبسمك فى وجه أخيك صدقة؟ إن

هذا الشقى لم يبتسم فى وجهى فقط، ولا جعلنى أنا نفسى أبتسم فقط، بل جعلنى أقهقه. أقهقه يا عالم! أتفهمون معنى "أقهقه" فى هذا الزمن الكئيب؟ أولو كان الرسول حيا وسمع من ذلك العفريت هذا الرد أما كان سيضحك كما كان يفعل بسبب مقالب الصحابى نعيمان؟

قالت أم سلمة أم المؤمنين: "خرج أبو بكرٍ الصّدّيقُ قبل وفاةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم بعامٍ في تجارةٍ إلى بُصرَى، ومعه نُعَيمانُ بنُ عمروٍ الأنصاريّ وسُلَيطُ بنُ حرملةَ، وهما ممّن شهِدا بدرًا مع رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم.وكان سُلَيطُ بنُ حرملةَ على الزّادِ، وكان نُعَيمانُ بنُ عمروٍ مَزّاحًا، فقال لسُلَيطٍ: أطعِمْني. قال: لا أُطعِمُك حتّى يأتيَ أبو بكرٍ. فقال نُعَيمانُ لسُلَيطٍ: لأَغِيظَنّك. فمرُّوا بقومٍ، فقال نُعَيمانُ لهم: تشترون منّي عبدًا لي؟ قالوا: نعم. قال: إنّه عبدٌ له كلامٌ، وهو قائلٌ لكم: لستُ بعبدٍ، أنا ابنُ عمّه. فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تُفْسِدوا عليّ عبدي. قالوا: لا بل نشتريه، ولا ننظر في قولِه. فاشْتَرَوْه منه بعشرِ قلائصَ، ثمّ جاؤوه ليأخذوه، فامتنع منهم، فوضعوا في عُنقِه عِمامةً، فقال لهم: إنّه يتهزّأُ، ولستُ بعبدِه. فقالوا: قد أَخْبَرَنا خبَرَك. ولم يسمعوا كلامَه، فجاء أبو بكرٍ الصّدّيقُ، فأخبروه خبرَه، فاتّبعَ القومَ فأخبرهم أنّه يمزَحُ، وردّ عليهم القلائصَ، وأخذ سُلَيطًا منهم. فلمّا قدِموا على النّبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم أخبروه الخبرَ، فضحِك من ذلك رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم وأصحابُه عليهم السّلامُ حولاً أو أكثرَ".

وعلى نفس المنوال لا يصح أن نعد، من باب معارضة المقدس، اقتراح عمرو بن العاص على عثمان ألا يقتل عبيدَ الله بن عمر بن الخطاب فى قتله الهرمزان بناء على أن ذلك القتل إنما وقع قبل أن يتولى الخلافة. إن العظم يعتبر هذا الاقتراح استخفافا واستهتارا بالدين وتحديا للمقدس وتسخيرا له فى خدمة السياسة، ثم ينطلق فى فاصل سمج فى محاولة تلقين عثمان وابن العاص أصول التدين والإيمان الصحيح المستقيم. عجبا! والحق أننا قد نتفق مع مقترح ابن العاص أو نختلف معه، لكن لا يمكن أن نتفق مع صادق العظم أو

فرج فودة، الذى نقل عنه الحكاية مبتورة لزوم توبلتها بالبهارات المثيرة للشهية، فيما يقولانه ضد الصحابيين الجليلين.

ففى كتاب "الأوائل" لأبى هلال العسكرى نقرأ ما يلى عن اختلاف الصحابة، رضوان الله عليهم، فى بعض الأمور الفقهية: "وكان اختلافهم قبل ذلك في الفقه، ولم يكن اختلافاً يخطّئ فيه بعضهم بعضا. فلما نقموا أمر عبيد الله بن عمر... قال عبد الرحمن بن أبي بكر: مررت بالهرمزان وجفينة وأبو لؤلؤة وهم نَجِيٌّ، وذلك قبل أن يُطْعَن عمر. فلما بغتهم ثاروا وسقط من بينهم خنجر له رأسان. قال: وهو الخنجر الذي أصيب به عمر رضي الله عنه. فدعا عبيد الله الهرمزان وأدخله إلى مربد، وقال: انظر إلى فرس عندي. فقال: لا إله إلا الله. فقتله وواراه، وأرسل إلى جفينة، وكان نصرانيا، وأدخله المربد وضربه. فلما وجد مس السيف خر وصلب على الأرض صلبا وسجد. ثم خرج فقتل امرأة أبي لؤلؤة وبنتا له وابنا له صغيرا، فأُخِذ وحُبِس، وذلك في اليوم الثاني من موت عمر. فلما قام عثمان استشار في أمره، فقال عمرو بن العاص: دماء سُفِكَتْ في غير ولايتك، فاجعلها دية. فأخذ منه خمس ديات وخلى سبيله. وأنكر علي عليه السلام ذلك، ورأى قتله، فلما وَلِيَ خافه عبيد الله، فقدم الكوفة، وسأل الأشتر أن يأخذ له أمانا من علي، فأبى، وقال: إن رأيتُه لأقتلنه بالهرمزان فلحق بمعاوية. فقال معاوية: الحمد لله الذي جعلني أطالب بدم عثمان، وجعل علياً يطالب بدم الهرمزان".

وفى "الكامل" لابن الأثير: "جلس عثمان في جانب المسجد بعد بيعته، ودعا عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وكان قَتَل قاتل أبيه أبا لؤلؤة، وقتل جفينة رجلاً نصرانيًا من أهل الحيرة...، وقتل الهرمزان، فلما ضربه بالسيف قال: لا إله إلا الله! فلما قتل هؤلاء أخذه سعد بن أبي وقاص وحبسه في داره وأخذ سيفه وأحضره عند عثمان، وكان عبيد الله يقول: "والله لأقتلن رجالاً ممن شَرِكَ في دم أبي"، يعرّض بالمهاجرين والأنصار. وإنما قتل هؤلاء النفر لأن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة قُتِل عمر: رأيت عشية أمس الهرمزان

وأبا لؤلؤة، وجفينة وهم يتناجون، فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي ضرب به عمر، فقتلهم عبيد الله. فلما أحضره عثمان قال: أشيروا علي في هذا الرجل الذي فتق في الإسلام ما فتق! فقال علي: أرى أن تقتله. فقال بعض المهاجرين: قُتِل عمر أمس، ويُقْتَل ابنه اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان. فقال عثمان: أنا وليُه، وقد جعلتها دية، وأحتملها في مالي".

فكما نرى ليس هناك استخفافٌ ولا استهانةٌ بالدين ولا تحدٍّ له إلا فى العقول المريضة، إذ من الجلىّ أن عثمان، رضى الله عنه، كان مكروبا لما حدث، ولم يستطع أن يبصر طريقا ينفذ منه خلال هذه المعضلة الفقهية، فجمع الصحابة واستشارهم، فاختلفوا، وصار الأمر على شفا وقوع كارثة، إذ من الممكن لو قُتِل ابن عمر، الذى لم يكن قد قتل من قتلهم إلا لشبهات قوية ثارت فى نفسه، علاوة على أن مقتل أبيه، الذى كان ما فتئ طازجا، قد أطار جانبا كبيرا من عقله وحلمه. ولا ننس أن الدولة كانت فى مهب الريح آنذاك، وليس ينقصها أن تنقسم على نفسها فى تلك القضية وترتكس فى فتنة مستطيرة الشر والشرر إن لم يستطع عثمان أن يحسن التأتى لذلك الأمر. وبعد أن استشار الصحابة كما رأينا برز له داهية العرب ابن العاص بحلٍّ أراه وجيها غاية الوجاهة: فمن جهة أخذ السياق الذى ذكرته آنفا فى الاعتبار فلم يقتل ابن عمر من باب درء الحدود بالشبهات، ومن جهة لم يهدر حق أسر الهرمزان وبقية القتلى، إذ أعطاهم خمس ديات، ومن ماله الخاص. فأين الاستخفاف بالمقدس واستخدامه فى خدمة السياسة من جانب ابن العاص هنا؟ لكن ابن العظم يصر على أن يتحذلق ويتفلحس وهو قاعد إلى مكتبه وقد ارتدى ثوب المثالية المطلقة. ولم لا؟ أتراه خاسرا شيئا؟

فليتفلحس ابن العظم كما يحلو له، فلن يضارَّ بشىء، بل سيكسب سمعة مدوية بأنه رجل مبادئ لا يعرف التردد ولا التلجلج ولا يفهم إلا المضى على سَنَنِه فى خط مستقيم لا يميل به يمنة ولا يسرة، وفى ذات

الوقت سوف يكون قد شكك طوائف من الناس فى عثمان وعمرو رضى الله عنهما، وتلك عنده غاية الغايات. وبالمناسبة فإننى لا أوافق عليا رضى الله عنه حين لم يعتبر دفع الديات لأهل القتلى حكما صحيحا، وأصر بعد توليه الخلافة على أن يقتل ابن عمر رغم أن القضية كانت قد نُظِرَتْ قبلا وانتهى الأمر فيها إلى الحكم بدفع الدية. ثم أتراه كان مسترجعا من أسر المقتولين فى هذه الحالة ما كانوا قد أخذوه من ديات؟ إن هذا التشدد فى إمضاء الأمور هو مما أخذه بعض المؤرخين والكتّاب على سيدنا على كرم الله وجهه، وكان سببا فى أن انتقضت عليه الأمور مع ورعه وتقواه. وأخيرا فقد يقول قائل: ولماذا لم يُبْدِ علىّ نفس الهمة فى موضوع اغتيال عثمان؟ من هنا كان لا بد من أن نأخذ فى الحسبان السياق والظروف التى وقع فيها الخطأ حتى لا نضل الحكم السليم، فكثيرا ما تكون هذه الظروف مخففة للحكم أو ملغية له. وهذا أمر معروف ومعمول به فى ميدان القضاء، وبخاصة حين تكون البلاد فى حالة اضطراب سياسى مربك ومرهق كالحالة التى كانت عليها دولة الإسلام فى ذلك الحين، وتكون للقضية المنظورة وشيجة عنيفة تشجها بذلك الاضطراب.

وممن اتهمهم صادق جلال العظم بمعارضة المقدس ابن المقفع والمتنبى وأبو العلاء المعرى. قال مثلا عن أول هؤلاء الثلاثة: "لا بد من الإشارة إلى ابن المقفع لنمعن النظر قليلا بالاستهزاء النقدى المبطن والراقى جدا فى نعومته ورهافته بالمقدس الذى تنطوى عليه الرواية القائلة إنه ظل يستعمل زمزمة المجوس أثناء طعام العشاء ليلة اليوم السابق لإعلان إسلامه، فسأله على بن على: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فأجاب: كرهت أن أبيت على غير دين. ومعروف كذلك أنه عارض القرآن، ليس على سبيل المضاهاة التهكمية للشكل والأسلوب والسجع والفخامة والبلاغة فحسب، بل على سبيل نقد مادته وتعاليمه أيضا. واستيفاءً لهذا الغرض أسمى أحد كتبه بـ"الدرة اليتمية".

وابن المقفع هو ذلك الكاتب الأموى العباسى المشهور، وهو من أهل القرن الثانى للهجرة، ومن أصل فارسى. وعند قيام الدولة العباسية اتصل بعم الخليفة المنصور، عيسى بن على، وأصبح كاتبا لديه ذا حظوة. وتحكى الروايات أنه قال لعيسى بن على ذات ليلة: قد دخل الإسلام في قلبى، وأريد أن أُسْلِم على يدك. فقال له عيسى: ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس. فإذا كان الغد فاحضر. ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس. فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت على غير دين. فلما أصبح أسلم على يده. وابن المقفّع عَلَمٌ من أعلام الكتاب يتسم إبداعه بقوة الأسلوب وروعة القص والتحليل. ومن أشهر ما وصل إلينا من تراثه الفكرى والأدبى "كليلة ودمنة، والأدب الصغير، والأدب الكبير، ورسالة الصحابة، والدُّرَّة اليتّيمة" .

وأول شىء ننظر فيه هو تلك الحكاية التى فرغنا منها لتونا، والتى وردت فى "وَفَيَات الأعيان" لابن خَلّكان، فهى مثال على الأخبار التى لا تثبت على التمحيص لما فيها من أشياء لا يقبلها المنطق، إذ ما دام الإسلام قد دخل قلب الرجل فمعنى هذا أنه أمسى مسلما، فالإسلام إنما يُعْنَى أولا وقبل كل شىء بالنية، ولا يقف عند الرسوم والأشكال كثيرا . وما دام الرجل قد انتهى إلى أن ما كان عليه من دين أسلافه لم يعد يدخل العقل أو القلب، فكيف يصر على أن يتبع رسومه وشعائره إلى الغد حينما يحضر كبار رجال الدولة وأعيانها، وهو الذى لم يعد مقتنعا به؟ أوَيمكن التصديق بأنّ من دخل الإسلام قلبه، وبالذات إذا كان كابن المقفع نفسه، أحد كبار كتاب عصره، يقبل أن يظل متمسكا بدياناته الوثنية القديمة ومناسكها على هذا النحو المضحك لأن مولاه آثر أن يؤجل مراسم إعلان إسلامه إلى أن يجتمع عنده كبار رجال الدولة من الغد؟ إن كل ما عرضه عليه عيسى بن على هو تأجيل الإعلان الرسمى لا أكثر، ولم يعرض عليه أن يؤجل دخوله فى الإسلام إلى الصباح، إذ كان ابن المقفع قد صار مسلما وانتهى الأمر بمجرد أن اقتنع بدين النبى العربى كما أكد ذلك لعم الخليفة.

وإذا كان كاتبنا قد عز عليه أن يبيت على غير دين فلم يا ترى لم يسمّ اسم الله على الطعام ويكون قد بات على الإسلام، وهو الدين الذى نوى أن يعلنه على الملإ من غده؟ أقول: على الملإ لا بينه وبين ربه، لأن الأمر بينه وبين ربه قد بات محسوما ! إن الطبيعى أن يكون سيره فى نفس الاتجاه الذى نوى أن يمضى فيه كما يقضى المنطق والعقل لا بعكسه. أليس كذلك؟ ثم إذا كانت الزمزمة هى تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لسانا ولا شفة، ولكنه صوت يديرونه في خياشيمهم وحلوقهم فيفهم بعضهم عن بعض كما جاء فى "القاموس المحيط"، فلماذا يا ترى زمزم ابن المقفع على الطعام فى تلك الليلة، وليس ثَمّ ناس على دينه القديم يتفاهم معهم بهذه الزمزمة؟ أتراه كان بعقله خلل؟ لكنْ أمثل ابن المقفع يصاب فى عقله بخلل كهذا، وفى ظرف كهذا، وأمام واحد من كبار رجال الدولة كهذا؟ من هنا فإنى أرفض هذه الجانب من الرواية كما سأرفض أشياء أخرى عن ابن المقفع وزندقته لا تقنع الطفل الصغير رغم ترددها فى عدد من الكتب. ولا ننس، إلى جانب هذا، أنه قد أعلن إسلامه اليوم التالى. فلو كان مستخفا بالمقدس (أى الإسلام) فلم أعلن إسلامه إذن؟ وإذا كان ثم معارضة للمقدس فلم ينبغى أن تكون المعارضة موجهة إلى الإسلام، الذى اختاره بمحض إرادته وليس إلى دينه القديم، الذى لم يعد يقنع عقله أو يريح قلبه وضميره؟ أو لماذا لا يكون المقصود بالمعارضة والاستخفاف هو عيسى بن على، الذى أصر على أن ينتظر ابن المقفع بإعلان إسلامه إلى الغد واجتماع كبار رجال الدولة لشهوده غير دار أن الدخول فى الإسلام محله القلب لا مجتمع كبار القوم؟ أرجو أن يعنى صادق العظم نفسه بالجواب عن هذه السؤالات قبل أن يستظرف ويستخف دمه.

أما اتهام ابن المقفع بمعارضة القرآن فى كتاب "الدرة اليتيمة" فلا بد أن نعرف أولا أن هذا الكتّاب ليس سوى كتابه: "الأدب الكبير" حسب نشرة صبيح لها بمقدمة من الأمير شكيب أرسلان، فضلا عما كتبه ابن المقفع فى هذه الرسالة من أن "أصل الأمرِ في الدينِ أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنبَ الكبائرَ، وتُؤَدّيَ الفريضةَ. فالزم ذلك لزوم من لا غنى له عنهُ طرفة عينٍ، ومن يعلم أنهُ إن حُرِمَهُ هلك. ثم إن قدرتَ على أن

تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضلُ وأكملُ" . ثم إن لدينا سؤالا منطقيا ينتظر الجواب ويلح فى طلبه إلحاحا عنيفا صارخا: فلنفترض أن ما قاله ابن طباطبا العلوى فى القرن الثالث الهجرى بعد موت ابن المقفع بقرن كامل فى كتابه" الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله" من أن ابن المقفع قد وضع فعلا كتابا فى معارضة القرآن استشهد منه فى رده عليه بكثير من فقراته، فأين كان ذلك الكتاب طوال ذلك القرن؟ هل نزل من السماء بغتة فى عصر القاسم بن إبراهيم بعدما كان قد رفعه الله إثر فراغ ابن المقفع من وضعه فلم يطّلع عليه قبل ذلك أحد، إلى أن جاء القاسم فكانت مشيئة الله أن يفرج عنه وينزله عليه كى يختصه بشرف الانفراد بتخطئته قبل أن تزدحم على مورده الأقلام ولا يكون هناك فرصة له للتميز فى هذا الميدان؟ ولقد وضعت دراسة تبلغ خمسا وستين صفحة درست فيها الاتهامات التى رُمِىَ بها ابن المقفع فى عقيدته بما فيها دعوى معارضته القرآن، وبينت بالمقارنات الأسلوبية والمضمونية أن ما استشهد به ابن طباطبا العلوى على زندقة ابن المقفع من نصوص قيل إنه يعارض بها القرآن لا ينطبق على ابن المقفع، الذى نعرفه. وقد يكون هناك ابن مقفع آخر مغمور هو المقصود بلعائن ابن طباطبا، وبخاصة أنه يشير إليه فى رده عليه بقوله: "خَلْفُ سوءٍ استخلفه إبليس على ما خلّف مانى من الضلالات، يسمَّى: ابن المقفع، عليه لعنة الله بكل مرأًى ومسمع. . . فوضع كتابا أعجمى البيان، حكم فيه لنفسه بكل زورٍ وبهتان" . فهل كان ابن المقفع مغمور الشأن إلى الحد الذى يشير إليه فيه ابن طباطبا بأنه "يسمى: ابن المقفع"، فضلا عن وصفه لأسلوبه بأنه أعجمى البيان؟ وبمكنة القارئ أن يطالع هذا كله وأضعافه فى بحثى المذكور آنفا والمنشور على المشباك بعنوان "هل كان زنديقا؟ هل كتب معارضة للقرآن الكريم؟ كلمة فى عقيدة ابن المقفع" .

وأَصْلُ هذا البحث هو ما أثاره طلابى فى كلية التربية بجامعة أم القرى- فرع الطائف ذات محاضرة فى أوائل تسعينات القرن المنصرم من أن ابن المقفع زنديق لا يمت للإسلام بصلة. أى أن تحوله إلى الإسلام لم يكن صادقا، بل ظل الرجل فى أعماقه كافرا. فهو إذن كان يتظاهر بالإسلام، على حين ما بَرِحَ، فيما بينه

وبين نفسه، على دين قومه القديم كما كان قبلا . وهم، فى هذا، إنما يرددون ما جاء فى بعض كتب التراث التى ترجمت للرجل. وكان جوابى عليهم أن الاتهام بالزندقة لا يعنى بالضرورة أن المتَّهَم بها زنديق فعلا، إذ ثمة فرق كبير بين توجيه التهمة وبين ثبوتها حقا على من رُمِىَ بها . وزدت فقلت لهم إن ما قرأته لابن المقفع وعنه لا يجعلنى أصدق مثل تلك التهمة. فالرجل يبدو مسلما يبعث إسلامه على الاطمئنان، ولم يُؤْثَر عنه شىء من شأنه أن يشككنا فى عقيدته.

كما دار بينى وبينهم فى ذات التوقيت نقاش آخر حول عقيدة الشاعر العباسى بشار بن برد، الذى لم يكن رأيهم فيه أفضل من رأيهم فى ابن المقفع. وهو ما حدانى إلى أن أعكف على شعر الرجل وعلى كل ما وقعتْ يدى عليه من كتب ودراسات تتعلق به وبشعره وشخصيته واعتقاده، وكانت ثمرة ذلك أنْ وضعت كتابا من أربعمائة صفحة عنه خصصت منه فصلا طويلا يبلغ عشرات الصفحات لدراسة عقيدة الشاعر قلبت فيه الأمر على كل وجوهه ولم أترك صغيرة ولا كبيرة إلا فحصتها فحصا دقيقا مرهقا، فتبين لى أن الرجل كان مسلما، وإنْ أخذتُ عليه فى ذات الوقت أنه لم يكن يلتزم فى حديثه فى بعض أمور الدين جانب الجِدّ والوقار، وهذا كل ما هنالك. وقد أوردت أدلة وبراهين وشواهد كثيرة وقوية جدا على صحة ما أقول. وانتهيت إلى الاطمئنان إلى عقيدة الرجل. وأنا حين أقول هذا لا يخطر لى أبدا على بال أن أُنَصِّب نفسى قَيِّمًا على دين الرجل ومصيره عند ربه، إذ مَنْ أنا أو غيرى حتى نفكر مثل هذا التفكير؟ إنما هى متطلبات البحث الأدبى لا أكثر ولا أقل، فهى مجرد اجتهادات علمية قد تصيب، وقد تخطئ. أما الحقيقة فهى عند الله سبحانه وتعالى. وإذا كنا لا نعرف مصيرنا نحن فهل يمكننا الادعاء بأنا نعرف مصير الآخرين؟ فأرجو من القراء دائما أن يكونوا على ذكر من هذا الذى نقول، منعا لسوء الفهم.

وكنت من قبل قد صنعت نفس الشىء مع المتنبى، الذى أصدرت عنه فى منتصف ثمانينات القرن الفائت ثلاثة كتب، فاتضح لى أن الرجل مسلمٌ عادىٌّ مثلى ومثل ملايين المسلمين رغم ما لاحظته أحيانا على

شعره من الإغراق فى بعض المبالغات التى ينبغى ألا نحمّلها ما لا تحتمل، بل علينا أن نفهمها فى إطار فنه الشعرى. ويجد القارئ هذا الكلام فى كتابى: "المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته" . كذلك تناولت، وأنا فى السعودية، المسألة ذاتها فيما يخص الشهرستانى صاحب "الملل والنحل"، إذ كان قد تعرَّض لمثل تلك التهمة، فتبين لى أن إسلام الرجل لا غبار عليه وأنه ليس فى يد متهميه أى دليل على صحة ما يرمونه به فى دينه. ولمن يريد الاطلاع على هذا الموضوع يمكنه أن يقرأه فى الفصل الذى خصصته لذلك المفكر الكبير فى كتابى: "من ذخائر المكتبة العربية" . كما قيل شىء من هذا عن كتاب "الفصول والغايات" لأبى العلاء المعرى، الذى اتُّهِم بأنه قد أراد به مضاهاة القرآن. لكنى وجدته فى ذلك الكتاب ينافح عن القرآن ذاته منافحة صلبة، فمن ثم أنكرت بكل قوة أن يكون المعرى قد أراد معارضة القرآن، وعددت ما اتُّهِم به فى هذا السبيل كلاما فارغا لا يُؤْبَه به. و"كم فى الحبس من مظاليم" كما يشير المثل العامى المصرى!

وبالمثل تحدث صادق العظم عن التلاعب فى النص الأصلى للقرآن الكريم زاعما أنه أمر حقيقى وأنه حدث مرارا. ومن بين من اجترحوا هذا التلاعب فى رأيه، وبدم بارد وسوء مقصد، الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى بدلا من توجيه الشكر له والثناء عليه لإدخاله مزيدا من الضبط على خط المصحف بما يساعد على تحرى الدقة فى قراءة النص الكريم نجد صادق العظم يتهمه أبشع الاتهامات فى هذا المجال معتمدا على نص لا يدخل العقل ينسب فيه ابن عساكر إلى والى بنى أمية زعمه نزول الوحى عليه مما لا يمكن أن يعقله أحد لديه شىء من الرشد، وكذلك على ما ورد فى رسالة عبد المسيح الكندى. ولن أقف عند كل ما قاله العظم، وإلا فلن أنتهى، وإنما سأتوقف فقط عند هذه النقطة الأخيرة. ترى هل يعقل أن يقدم رَجُلُ عَبْدِ الملكِ بن مَرْوان على مثل هذا التلاعب بالقرآن الكريم؟ فلماذا يا ترى؟ هل كان هناك نص فى القرآن على أحقية على وإدانة معاوية فحذفه؟ لقد مات كل من على ومعاوية منذ زمن غير قريب، وانتهى الصراع بينهما بنجاح معاوية واستتباب الأمر له ولورثته من بعده، ولم يكن هناك حينئذ سوى الخلاف بين عبد الملك وابن الزبير،

وهذا موضوع لا يمكن الزعم أبدا بأن للقرآن صلة به أى صلة. فلم إذن يُقْدِم الحجاج أو غير الحجاج على العبث بالنص القرآنى فى ذلك العصر؟ وفوق هذا فمن الجلى الواضح أن صادق العظم لا يعرف شيئًا عن مراجعه ومصادره، أو يعرف، لكنه يتباله ويتساذج علينا، وإلا فهل هناك شخص فى دماغه مسكة من عقل يتخذ من رسالة عبد المسيح، ورسالة عبد المسيح بالذات، مستَندا للقول بأن القرآن قد لحقه العبث فى عهد عبد الملك بن مروان؟ الواقع أنه ليس أمامى سوى استنتاجين، وكلاهما أضرط من أخيه. ألا وهما أن العظم لا يعرف كيف يبحث بحثا علميا، أو أنه يقصد قصدا الإساءة إلى الإسلام، ومن ثم يلجأ عامدا متعمدا إلى مثل رسالة الكندى لأنها تساعده على إيقاع تلك الإساءة بمنتهى اليسر والسهولة. ولكن هيهات ثم هيهات!

ورسالة الكندى هى إحدى رسالتين دينيتين جداليتين مترابطتين: الأولى من مسلم اسمه عبد الله بن إسماعيل الهاشمى إلى مسيحى يسمى عبد المسيح بن إسحاق يدعوه فيها إلى الإسلام، والثانية رد من هذا إلى ذاك يفند فيها الإسلام ويتطاول على الرسول الكريم ويبين له أن النصرانية أفضل من الدين الذى أتى به محمد، وأن المسيح إله نزل من عليائه وتجسد فى شكل بشر ليفدى العالم من خطيئته، على حين أن محمدا ما هو إلا رجل جلف ونبى كذاب. وهل يمكن أن يصدق عاقل أو حتى مجنون أن نصرانيا فى ذلك الزمن يخطر له فى بال أن يتطاول على النبى محمد فى دولة الإسلام ويتهمه أمام مسلم هاشمى قوى الدين بأنه رجل جلف ونبى كذاب، وأن عيسى إله تجسد ومات على الصليب، وأن الإسلام دين فاسد؟ ثم لقد كان الهاشمى والكندى صديقين يعيشان فى أيام الخليفة العباسى المأمون بن هارون الرشيد، الذى يمت إليه عبد الله بن إسماعيل بآصرة القربى، ويشتغل فى خدمته عبد المسيح بن إسحاق على ما يقول ناشرو الرسالتين. فمنذ متى كان الأصدقاء الحميمون على شاكلة الهاشمى والكندى يتحاورون فى الدين فى رسائل مكتوبة، وهم يتقابلون فى كل وقت، ويمكنهم النقاش شفاها؟

كذلك كيف تسكت كل كتب التراث عن تينك الرسالتين ومؤلفيهما، بل كيف يسكت جميع علماء المسلمين فلا يردون على ما أثاره الكندى من أراجيف وشبهات، وهذا إن تركوه أصلا يعيش لحظة واحدة بعدما نال من رسولهم بكل هذه العدوانية والبذاءة والانحطاط؟ وهل يصدق أحد أن المأمون، حين يشير إلى النبى، يقول عنه: "صاحبنا" حسبما جاء فى رسالة عبد المسيح الموهوم؟ إن هذا لهو المستحيل بعينه! وفوق هذا فلا يوجد فى تاريخ الإسلام هاشمى ينطبق عليه ما ذكرته له الرسالة من اسم ونسب وصفات شخصية إلا بعد عصر المأمون، الذى قيل إن الرسالتين قد أُلِّفَتا فيه، بأكثر من قرن، أما عبد المسيح فلا يوجد له من أثر فى التاريخ بتاتا نستطيع أن نتعقبه ونعرف من خلاله من هو: ببساطة لأنه شخصية مصنوعة صناعة. كما لوحظ أن الهاشمى يقع فى أخطاء لا يقع فيها مسلم عنده أدنى إلمام بالدين، من مثل قوله إن الرسول كان يقول: "السلام عليكم ورحمة الله" لكل إنسان، مسلما كان أو غير مسلم. ذلك أن رسائله، عليه الصلاة والسلام، إلى غير المسلمين من ملوك وأمراء متاحةٌ لمن يريد، وليس فيها تلك الصيغة أبدا لأى واحد من غير أتباعه. كذلك ورد فى رسالة الهاشمى أحاديث منسوبة للنبى عليه الصلاة والسلام لا وجود لها أصلا حتى فى كتب الأحاديث الضعيفة، وتحتوى على ألفاظ لم ترد فى أى حديث كلفظى "الديانة" و"الفظاظة". وبالمثل يستحيل أن يقول أحد المسلمين فى تلك العصور: "ويقول الله مؤكدا"، بل إنى لأحسبها غريبة جدا حتى فى عصرنا هذا. وأيضا لا يعقل أن يسمِّىَ مسلمٌ آنذاك كتبَ العهد القديم والعهد الحديث بـ"الكتب العتيقة" و"الكتب الحديثة"، فهاتان تسميتان لم تعرفا إلا فى عصرنا الحديث، أو أن ينخرط الهاشمى فى نوبة من المديح والثناء على القساوسة واصفا إياهم بالخشوع والتقوى، أو يقول إن المسيح قد بعث الحواريين دعاة له إلى الأمم فى حين يؤكد الإسلام أنه إنما بُعِث إلى بنى إسرائيل فحسب، وهو ما يؤكده العهد الجديد حينما أورد على لسان المسيح عليه السلام قوله إنه لم يبعث إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة. ومن سخافات الرسالة أيضا ما وضعه ملفقوها على لسان الهاشمى من أن النبى كان يُوَادّ النساطرة، وأنهم من

جهتهم كانوا يحبونه ويعضدونه ويساعدونه على تأدية رسالته. وهو كلام أخطل لا يتصور صدوره أبدا من أى عالم مسلم... إلى آخر ما الرسالةُ مفعمةٌ به من الأخطاء والتناقضات والمستحيلات. ومع هذا كله نرى صادق العظم يعض بالنواجذ على ما جاء فيها مما يظن أنه ينال من الإسلام والمسلمين. وهذا كله وأضعافه متاح، لمن يريده، فى ردى على تلك الرسالة التافهة تفاهة من نشروها وتفاهة من يحسبون أنها يمكن أن تساعدهم على إيهام المسلمين بصحة تلفيقاتهم ضد دينهم. وعنوان هذا الرد هو: "رسالة تافهة يطنطن بها المبشّرون! هتك الستّار عما فى رسالة الكندىّ الحِمَار من عار وعُوَار". وهو يشكل فصلا من كتابى: "حجج الإسلام وشبهات خصومه".

أما ما حرص العظم على الإشارة إليه من الدعاوى المتهافتة لبعض علماء الشيعة من أن مصحف عثمان لا يتضمن كل النص القرآنى، بل حذفت منه أشياء، فهو أسخف من السخف ذاته، ولن يوصِّل العَظْمَ عَوْضُ إلى ما يريد من التشكيك فى عصمة القرآن من التحريف أو الضياع. وأحيله إلى رسالتى التى تناولت فيها سورتى "النورين" و"الولاية"، اللتين يزعم فريق من غلاة الشيعة أنهما كانتا ضمن سور القرآن لكنْ حذفهما خصوم علىٍّ كى يطمسوا ما ذكره القرآن من حقه هو وذريته إلى الأبد فى الولاية وحكم المسلمين. وعنوان الرسالة هو: "سورة النورين التى يزعم فريق من غلاة الشيعة أنها من القرآن الكريم"، وهى متاحة على المشباك بصورة بى دى إف. وفيها أبين بالإحصاءات والمقارنات الأسلوبية والمضمونية المفصلة التى لا يخر منها الماء أن تَيْنِكَ السورتين لا يمكن أبدا أن تكونا من القرآن المجيد. وأظن أن قدر صادق العظم العلمى الحقيقى قد اتضح الآن بعد هذه التطوافة القصيرة فى بحثه عن كتاب سلمان رشدى: "الآيات الشيطانية".

وآخر موضوع أود تناوله من كتاب صادق العظم هو تأكيده أن محاولة معاقبة المتمردين على الدين، الذى يراه شيئًا رجعيا متخلفا، هى محاولة مقضى عليها بالفشل، إذ إن قاطرة التقدم لا ترحم من يقف فى طريقها، بل تدهسه، ولن تستطيع المجتمعات الإسلامية الصمود أمام اختراق الحضارة الغربية لها مهما حاولت

وفعلت، ولا بد لها إذن أن تتخذ العلم الحديث وما ترتبط به من التطبيقات التكنولوجية منهج حياة بدلا من التشكيلات المعرفية السابقة من دين وأسطورة وسحر وتنجيم وغيب وخرافة وخوارق وحكمة متوارثة وأمثال متداولة واعتقادات شائعة، وذلك بناء على ما قاله ماركس فى تحليلاته لتقدم البشرية. وهو يؤكد أن سلمان رشدى واعٍ تماما بكل هذا، ويؤمن بأن الحضارة التى تعيش على أمجاد ماضيها ولا تعرف كيف تعبر العالم الثالث أو كيف تتجاوز فضاءه الخارجى المسحور بحيث ترجع إلى التاريخ بكل ما يتطلبه منثقل وزن فمصيرها هو مزبلة التاريخ الشهيرة. وهو ما يوافق صادق العظم سلمان رشدى عليه تمام الموافقة. ثم يضيف قائلا إنه حين يمعن النظر فى موضوع سلمان رشدى يستنتج أن العالم الإسلامى بحاجة اليوم إلى حداثة العقل والعلم والتقدم والثورة بدلا من أصالة الدين والشرع والتراث والرجعة وكل ما لا يؤكّل عيشا حافيا من مثل هذا الكلام. والغريب أنه، رغم ذلك، يعود عقب هذا إلى القول بأن محمدا كان نبيا ورعا تقيا أرسله الله لتنفيذ خطته الكونية، وفى نفس الوقت كان رجل سياسة وتاجرا يحسب كل شىء بالمسطرة والقلم وزير نساء. كيف؟ لا أدرى. كما يقف أمام ما ورد فى القرآن من معجزات خوارق لا يعقلها المنطق قائلا ما معناه: أليس الأحجى أن أفهم مثل هذه الأشياء على أنها مجرد رموز بدلا من الاعتقاد فى صحتها شأن العميان والجهال؟ ويختم بحثه بالتساؤل التالى: "هل يعمل مثقفو العالم الإسلامى على تقدم مجتمعاتهم وتحرر شعوبهم حين يتجاهلون هذه المسائل كلها ويضعون سلاح النقد جانبا ليسايروا، دون قناعة حقيقية وجدية فى معظم الأحيان، ما هو سائدٌ من تعميمات دينية، ومُسَيْطِرٌ من أساطير تاريخية، ومُتَحَكِّمٌ من خرافات شعبوية، وشائعٌ من إيديولوجيات أصولية ارتدادية؟ هذا هو نوع الأسئلة والمشكلات والقضايا التى يريد أعداء رشدى وخصومه شرقا وغربا قمعها ومنع قيام أية مناقشة مفتوحة وعصرية حولها فى العالم الإسلامى، أو أية مراجعة عقلانية علمية جديدة لمعناها ودورها وأهميتها فى حياتنا الاجتماعية والثقافية والفكرية المعاصرة".

ونبدأ بحكاية عجز المجتمعات الإسلامية (الحتمى المزعوم) عن إيقاف عملية اختراق الحضارة الغربية لها مهما اتخذت من إجراءات وتمادت فى عقوبة المتمردين على دينهاوتقاليدها وعقائدها وما إلى هذا، فنسأل: أية حضارة غربية تلك التى يتحدث عنها صادق العظم؟ لقد كان الرجل ماركسيا، أى على دين الكتلة الشرقية من العالم الغربى، وهو دين يختلف عن دين الكتلة الغربية من ذلك العالم، بل يتناقض معه فى جوانب كثيرة وجوهرية منه، فأى الدينين يقصد ؟ وها هى ذى روسيا قد عادت ففتحت الكنائس وصارت تعتنق النصرانية بعدما كانت دولة إلحادية. كما أن المعسكر الليبرالى يناصر النصارى فى كل مكان فى العالم ضد المسلمين. وفى ذات الوقت فإن كثيرين من الغربيين، ومنهم كثيرون من علية القوم من وزراء ومستشرقين وأساتذة جامعيين وصحافيين وكتاب وفلاسفة وسياسيين ومغنين وفنانين ولاعبى كرة وملاكمين، يعتنقون الإسلام هاجرين ليبراليتهم إلى دين محمد، الذى يرى العظم أنه مهزوم من قِبَل ليبراليتهم لا محالة ولا مناص.

لقد بلغ أمر الإسلام فى أوربا أن صار أتباعه فى عاصمة فرنسا مثلا، وما أدراك ما عاصمة فرنسا ؟ يصلّون علنا فى الشوارع على الأرصفة بسبب كثرتهم وتحولهم من حالة الانخناس إلى الاقتحام. ولو كان الأمر كما تنبأ مسيلمتنا الكذاب لما سمعنا بأى شخص يعتنق الإسلام هناك ولاسْتَخْفَى الذين يشذون عن ذلك بصلاتهم بعيدا عن العيون والآذان فى غرف مغلقة. كما شاهدنا كيف وقف موسيقار هولندى مسلم فى مواجهة ملكة هولندا، وحولها كبار السياسيين والمشاهير والمتنفذين، يدعوها علنا إلى الإسلام صارخا بأن عيسى ليس سوى عبد لله ورسوله. ولقد أخذت الدهشة بمجامع عقولهم فذهلوا لبعض الوقت، ثم لما عاد إليهم وعيهم وأفاقوا من الغاشية التى حطت عليهم قام رجال الأمن وأنزلوا الموسيقار من فوق خشبة المسرح حيث كان يقف. ولا أظن القراء نَسُوا أن أخت زوجة تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى السابق دخلت الإسلام. وقد صرحت بعد اعتناقها دين النبى العربى الكريم برأيها فى زوج أختها على نحو لا يمكن أن يسره

أبدا، ولم تبال. ومن قبلها تحدث الأمير تشارلز فى بعض محاضراته وخطبه عن الإسلام بإعجاب وإجلال. ولتكن نيته بعد ذلك ما تكون، فالمهم أنه قال فى الإسلام كلاما عظيما لا يستطيع أن يقوله كثير من المسلمين، وعلى مسمع ومشهد من الدنيا كلها . وليست هذه الأمور وليدة اليوم، بل انبرى للدفاع عن الإسلام منذ وقت طويل كبار المثقفين الأوربيين، ومنهم شخصيات عالمية رفيعة بعضهم أسلم، وبعضهم لم يدخل الإسلام لكنه كتب فى دين النبى العربى الكريم كلاما راقيا . ونذكر فى هذا المجال على الطائر هادريان ريلاند من القرن الثامن عشر، ويوهان رايسكه من نفس القرن، وجوته، وفكتور هيجو، وبوشكين، وتوماس كارلايل، وجون دافنبورت، وتوماس آرنولد وغيرهم. بل إن أحد أخوال برتراندراسل ذاته فى القرن التاسع عشر كان مسلما، ومعروف مَنْ برتراند راسل، ومِنْ أية أسرة ينحدر، وإلى أية طبقة تنتمى أرومته. . . ويقول سيد عبد الماجد الغورى مؤلف كتاب "محمد حميد الله سفير الإسلام وأمين التراث الإسلامى فى الغرب" على لسان حميد الله، رحمه الله، إن متوسط منيهتدون كل يوم إلى الإسلام فى فرنسا على عهده يتراوح ما بين ثمانية أفراد إلى عشرة، منهم الرجال والنساء، ومنهم أصحاب المناصب الكبرى كسفراء البلدان ورجال الدين وأساتذة الجامعات. كذلك من المعروف لكل إنسان أن هناك ترجمات للقرآن الكريم إلى اللغات الأوربية المختلفة بعضها من صنع مسلمين أوربيين مثقفين ثقافة رفيعة ويحتلون مراتب عالية بين بنى أوطانهم.

وفى خبر بموقع "المرصد الإسلامى" منشور بتاريخ السبت ١٨/ ٥/ ٢٠١٣م بعنوان "المسيحية في بريطانيا تواجه انهيارًا كارثيًا، والإسلام في انتشار" نقرأ ما يلى: "تحدثت صحيفة بريطانية اليوم الجمعة عن "اضمحلال" الديانة المسيحية في البلاد أسرع ما كان يُعتقد، بينما تتزايد أعداد المسلمين باستمرار. وقالت "ديلي تلغراف" إن المسيحية في بريطانيا يمكن أن تواجه انهيارا كارثيا بحسب إحصاءات رسمية تشير إلى أنها تضمحل أسرع مما كان يعتقد بنسبة ٥٠%، مشيرة إلى أن واحدا من كل عشرة أشخاص ممن هم تحت سن الـ٢٥ يدين بالإسلام. وأضافت الصحيفة أن هناك تحليلا جديدا لإحصاء أجري عام ٢٠١١ يوضح أن

عقدا من الهجرة الجماعية ساعد في إخفاء حجم تدني الانتساب إلى المسيحية بين السكان البريطانيين، بينما كانت هناك زيادة كبيرة في الإسلام، وخاصة بين الشباب. وأوضحت أن النتائج الأولية لإحصاء ٢٠١١، الذي نشر العام الماضي، يبين أن إجمالي عدد الناس في إنجلترا وويلز الذين يدينون بالمسيحية تدنى بواقع ٤,١ ملايين، أي بنسبة ١٠%. وفي نفس الوقت زاد عدد المسلمين في إنجلترا وويلز بنسبة ٧٥%. . وأشار الإحصاء إلى أن الشباب الأصغر سنا ابتعدوا عن الدين بالكلية حيث يصف ٦,٤ ملايين شخص أنفسهم بأنهم بلا دين، وهذا يعني لأول مرة أن أقلية من الناس سيصفون أنفسهم بأنهم مسيحيون خلال العقد القادم". فعلام يدل هذا يا عظم؟ على كل حال هذا هو التقرير فى أصله الإنجليزى، وعنوانه: "Christianity declining 50pc faster than thought – as one in 10 under-25s is a Muslim"، وهو منشور بتاريخ ١٦/ ٥/ ٢٠١٣م، وصاحبه هو جون برينجهام، محرر الشؤون الدينية بالصحيفة:

"Christianity could be facing a catastrophic collapse in Britain according to official figures suggesting it is declining 50 per cent faster than previously thought. A new analysis of the 2011 census shows that a decade of mass immigration helped mask the scale of decline in Christian affiliation among the British-born population – while driving a dramatic increase in Islam, particularly among the young. It suggests that only a minority of people will describe themselves as Christians within the next decade, for first time. Meanwhile almost one in 10 under 25s in Britain is now a Muslim. The proportion of young people who describe themselves as even nominal Christians has dropped below half for the first time. Initial results from the 2011 census published last year showed that the total number of

people in England and Wales who described themselves as ”Christian fell by 4.1 million – a decline of 10 per cent .

إن الغربيين، حين يشيمون من أنفسهم القدرة على إبادة الآخرين بل على أكلهم فى بطونهم أكلا، لا يتورعون أبدا عن ذلك. وليس هذا صنيع بشر متحضرين تحضرا حقيقيا يريدون نفع الآخرين بل صنيع مجرمين عريقين فى الإجرام، وإن تغطَّوْا بورقة توت حضارية زائفة سرعان ما تنكشف فى أول اختبار عن سوأة قبيحة منتنة. أما الكلام عن عجز الإسلام عن الوقوف فى وجه الثقافة الغربية فهذا كلام حواة موتورين لا عقلاء عالمين. كتب فهمى هويدى مؤخرا على مدونته تحت عنوان "أكلة لحوم البشر": "في الأسبوع الماضي تناقلت وكالات الأنباء العالمية تقريرا علميا أمريكيا ذكر أن المهاجرين الإنجليز الأُوَل الذين قَدِموا إلى أمريكا أوائل القرن السابع عشر "اضطروا" لأكل لحوم البشر بعدما تعرضوا لمجاعة أودت بحياة ٨٠٪ منهم. وذكر التقرير أن الباحثين في معهد سميثونيان تيقنوا من ذلك حين عثروا في مستعمرة قديمة على بقايا عظام لفتاة في الرابعة عشر من عمرها. وحين قاموا بتحليلها باستخدام التقنية الحديثة وجدوا أن أولئك المهاجرين قاموا بتكسير جمجمة الفتاة للحصول على المخ، والتهام لحم الوجه والرقبة. وعقب انتهاء البحث بدأ عرض وجهها بعد إعادة تكوينه في متحف التاريخ الطبيعي بواشنطن، أما ما تبقى من هيكلها العظمي فقد تقرر عرضه في موقع اكتشافه ببلدة جيمس تاون في ولاية فرجينيا.

أصل القصة التي تناقلتها وكالات الأنباء أن أول مجموعة من المهاجرين الإنجليز ضمت ١٠٤ أشخاص، وأنهم ذهبوا إلى أمريكا عام ١٦٠٧ وأسسوا هناك بلدة جيمس تاون. إلا أن أعدادهم ظلت تتناقص بمضي الوقت، بحيث لم يبق منهم على قيد الحياة بعد الأشهر التسعة الأولى لهم في العالم الجديد سوى ٣٨ شخصا. وحين جاء الشتاء الرهيب وهدد البقية الباقية منهم فإن ذلك اضطرهم إلى أكل لحم الفتاة، لكي يبقوا على قيد الحياة.

تذكرت أنني طالعت القصة ذاتها في وقت سابق ولكن برواية أخرى فعدت إلى كتاب الباحث السوري المقيم في الولايات المتحدة منير العكش، الذي صدر قبل ٤ سنوات (عام ٢٠٠٩) تحت عنوان "أمريكا والإبادات الثقافية". له كتاب آخر مهم سبق أن أصدره تحت عنوان "أمريكا والإبادات الجماعية". عندئذ وجدته خصص فصلا للموضوع في الكتاب الأول بعنوان "من يأكل لحم البشر؟"، ولاحظت أنه استهله بعبارتين تقول إحداهما إن "القضاة (الإنجليز) في القريب العاجل سيقررون أكل لحوم البشر ويجعلونه بديلا طبيعيا لدفن الموتى"، وهي منسوبة لوزير الداخلية البريطاني وليم هاركورت الذي شغل منصبه بين عامي ١٨٨٠ و١٨٨٥. العبارة الثانية تقول إن الاعتقاد السائد لدى الإنجليز أن أكل لحم الرجل الأسود يقوي الحياه ويطيل العمر. وقد قالها أجانانت أوبيسيكير أبرز علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين وأستاذ المادة بجامعة برينستون الأمريكية.

روى الكاتب انه شهد الاحتفال بالذكرى المئوية الرابعة لتأسيس أول مستعمرة إنجليزية أقامها المهاجرون وأطلقوا عليها اسم جيمس تاون تخليدا لملكهم جيمس الأول. وكانت المنطقة التي استقروا فيها جزءا من إمبراطورية كبيرة للهنود الحمر حملت اسم فيدرالية بوهاتن، التي سكنها ٣٠ شعبا أبادهم المهاجرون عن بكرة أبيهم ولم يبق منهم بعد أقل من قرن أكثر من ٦٠٠ إنسان. وقد تحدثت مراجع عدة أثبتها الباحث عن أن المجاعة حين حلت بالمهاجرين فإنهم لجؤوا إلى أكل جثث الهنود الذين استضافوهم ورحبوا بهم في البداية، إذ كانوا يقتلونهم، كما كانوا يغيرون على قبورهم في الليل لينبشوها ويسرقوها ويأكلوا جثثها الطازجة. ثم إنهم راحوا يأكلون جثث موتاهم البيض، حتى إن واحدا منهم ذبح زوجته وأكل لحمها باستثناء الرأس. وقد أشارت بعض الدراسات التاريخية الأمريكية إلى مثل تلك الجرائم، فنشرت جامعة إنديانا كتابا لاثنين من المؤرخين تحت عنوان "قاتل هنود الكرو- ملحمة جونستون أكال الكبد". وذكر المؤلفان أن الرجل أمضى أكثر من عشرين سنة يقتل هنودا من شعب الكرو، ويسلخهم ويأكل أكبادهم. ووثقا أكثر من ٣٠٠ حالة قتل ارتكبها صاحبنا ليرضي شغفه بأكل الأكباد.

تحدث الكتاب أيضا عن أن البريطانيين كانوا مهووسين بأكل لحوم البشر في العصور الوسطى، إلا أنهم ألصقوا التهمة ذاتها بالشعوب التي وفدوا عليها واتهموها بالهمجية. وهو ما حدث لسكان أمريكا وأستراليا الأصليين بل إن التهمة وجهت أيضا إلى الأيرلنديين. الفكرة ذاتها وثقها كتاب آخر أصدرته جامعة شيكاغو في كتاب صدر باسم "أكل لحوم البشر والقانون العرفي" خلص إلى أن أكل لحوم البشر كان شائعا لدى الإنجليز في القرن السابع عشر. لكنه تطور وتعزز مع اتساع رقعة التجارة البريطانية ومع الزحف الاستعماري إلى كل قارات الأرض. أهم ما أثبته كتاب منير العكش في هذه المسألة ان أكل لحوم البشر كان عرفا مستقرا لدى البريطانيين في تلك المرحلة من التاريخ، وهو انطباع يخالف ما أعلنه العلماء الأمريكيون مؤخرا، الذين أكدوا أن ذلك كان سلوكا استثنائيا أملته الضرورات (التي تبيح المحظورات). وهو ما يعد نموذجا للتحيز المعرفي الذي يعلي من شأن الجنس الأبيض، وينسب الهمجية والوحشية إلى الشعوب الضعيفة الأخرى. وقد شاء ربك أن يكشف بعض المؤرخين الحقيقة قبل أن يلجأ علماء الأجناس إلى طمسها وتزييفها".

وفى موقع "فوبيا" يعرض د. ثائر دورى كتاب منير العكش: "أمريكا والإبادة الثقافية" فيقول: "يُعَدّ هذا الكتاب محطة على طريق بدأه المؤلف لتشريح ثقافة وتاريخ الواسب الزنابير (البيض، الأنغلوساكسون، البروتستانت)، ولشرح فكرة أمريكا التي تعني استبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة، وتاريخ بتاريخ، فأنجز في سبيل ذلك عدة كتب "تلمود العم سام"، و"حق التضحية بالآخر"، و"فكرة أمريكا". بعد المقدمة يُصدّر الكاتب الفصل الأول من كتابه: "أمريكا والإبادات الثقافية " الصادر عن دار رياض الريس باستشهاد لتوماس مكولاي مهندس سياسة التعليم الإنكليزية للشعوب المستعمرة، إذ يقول عن الهند: "لا أظن أبدا أننا سنقهر هذا البلد: "الهند" ما لم تُكْسَر عظام عموده الفقري التي هي لغته وثقافته وتراثه الروحي"

يُعد توماس مكولاي واضع دستور الإبادة الثقافية الأنغلوساكسوني، وهو النهج الذي اتبعه الأنغلوساكسون في كل البلدان والقارات التي استعمروها في سبيل خلق جيل من أولاد مكولاي وظيفتهم استعمار شعوبهم

لصالح الأنغلوساكسون. إن الإبادة الثقافية تُكْمِل مهمة الإبادة الجسدية، وأحيانا تغني عنها، وقد تكون أكثر نجاعة كما يقول مارك توين باستشهاد آخر للمؤلف. يقول: "وقفت بجانب وزير الحرب وقلت له إن عليه أن يجمع كل الهنود في مكان مناسب ويذبحهم مرة وإلى الأبد . وقلت له إذا لم توافق على هذه الخطة فإن البديل الناجع هو الصابون والتعليم (soap and education). فالصابون والتعليم أنجع من المذبحة المباشرة، وأدوم وأعظم فتكا . إن الهنود قد يتعافَوْن بعد مجزرة أو شبه مجزرة، لكنك حين تعلّم الهندي وتغسله فإنك ستقضي عليه حتما، عاجلا أم آجلا . التعليم والصابون سينسفان كيانه ويدمران قواعد وجوده. وقلت له:سيدي، اقصف كل هندي من هنود السهوب بالصابون، والتعليم، ودعه يموت" .

بعد كل الإبادات الجسدية بالأسلحة النارية وبالأسلحة البيولوجية عبر نشر جراثيم الجدري، وبعد التجويع والمطاردة، جاء دور "المحرقة الأخيرة للوجود الهندي" عبر سياسة الإبادة الثقافية الممنهجة التي اتبعها الغزاة الزنابير ضد من تبقى من ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يشغلون فضاء أمريكا قبل مجيء المستوطنين الغزاة. فكان يتم انتزاع أطفال الهنود الحمر بالقوة من أمهاتهم وآبائهم وضمهم إلى مدارس داخلية أشبه بمعسكرات اعتقال وعمل حيث تُزْرَع في ذاكرة الهندي لغة الغزاة وثقافتهم، ويعلمونه كره واحتقار حضارته وعاداته وتقاليده. ويشرح المؤلف، الذي قضى سنوات يراجع الوثائق الحكومية الأمريكية الخاصة بهذا الموضوع، أن الأمر يتم منذ لحظة إدخال الطفل إلى المدرسة، فيتم قص شعره الطويل الذي يعد مفخرة عند الهنود، وله مكانة كبيرة في الثقافة الهندية، فلا يتم قصه إلا كعقاب على جريمة كبيرة، كما تحرق ثيابه الهندية، ويحشر الطفل في بنطلون ويجرد من اسمه الهندي، ويطلقون عليه اسما أنغلوساكسونيا، كما يحظرون عليه التحدث بلغته الأم. وأما الحياة داخل هذه السجون، التي أطلقوا عليها اسم مدارس، فهي أشبه بالجحيم إن لم تكن. فالراتب الغذائي لا يسد الرمق، والأطفال يعملون أعمالا شاقة كما في معسكرات الاعتقال، فينظفون ويمسحون ويفلحون ويزرعون. ويصل يوم عملهم إلى ست عشرة ساعة ليتناولوا بعدها أردأ أنواع الطعام، ثم

ينامون بأسوأ الظروف، ويتعرضون للاغتصاب والانتهاك الجنسي بشكل منظم من قبل وحوش بشرية أسندوا إليها إدارة هذه السجون، . والنتيجة النهائية لكل ذلك أن أكثر من خمسين بالمئة من الأطفال في هذه المدارس قد ماتوا . وبكلمة أخرى قضت هذه المدارس على ربع الهنود الناجين من المذابح المباشرة على مدى خمسة أجيال متعاقبة. ومن بقي على قيد الحياة إما مدمر نفسيا يحاول الانتحار أو يرى الدنيا بعيني الزنابير.

لقد دمروا حضارة الهنود وتاريخهم تدميرا تاما إلى حد أن أبناء الهنود الحمر اليوم يصدقون أن أجدادهم كانوا متوحشين يأكلون لحوم البشر قبل أن يدخلهم الزنابير البيض في الحضارة! أُوكِلَتْ إدارة هذه المدارس إلى حثالة المجتمع الأمريكي الأبيض من متخرجي السجون وأصحاب السوابق والساديين ومغتصبي الأطفال. لذلك لم تخلُ مدرسة من الاغتصاب الجنسي. فتقرير المجلس الأعلى لهنود كاريبو ١٩٩١ يذكر، استنادا إلى شهادة ١٨٧ تلميذا، أن ٨٩ منهم تعرض للاغتصاب، ورفض ٦٠ تلميذا الإجابة، بينما قال ٣٨ تلميذا إنهم لم يتعرضوا . أما تقرير وزارة الصحة لعام ١٩٩٣ فيقول إن نسبة اغتصاب الأطفال في هذه المدارس بين عامي ١٩٥٠ ١٩٨٠ تبلغ ١٠٠٪. واستباحة الجسد هذه التي رأينا تكرارا لها في العراق في فضائح سجن أبو غريب وغيره ليست عملا عشوائيا، ولا نزوة من سجانٍ ساديٍّ أو مختلٍّ كما يحاول إعلام الزنابير تصويره، بل تدخل ضمن سياق عملية منظمة لكسر الضحايا وإفقادهم الأمل في المقاومة، فلا يبقى أمام الشخص المُنْتَهَك إلا أن ينتحر أو أن يستسلم لشهوات الرجل الأبيض التي يلخصها لانسلوت أندروس بقوله: "الأرض قطعة من اللحم موضوع على المائدة. يقطع منه الإنسان ما يشتهي. وما إن يضع القطعة في صحنه حتى تصبح له. كذلك إذا اقتطعنا بلدا لا يوجد فيه سكان (بيض) فإنه يصبح لنا".

يطلق الكاتب على الفصل السابع من كتابه اسم "أولاد مكولاي". ومكولاي هو مخطط سياسة كسر العمود الفقري للهند بواسطة التعليم: "علينا أن نربي طبقة تترجم ما نريد للملايين الذين نحكمهم، طبقة من أشخاص هنود الدم والبشرة، لكنهم إنكليزيو الأفكار والتوجه والأخلاق والعقل". إن خلق جيل من السماسرة

عبر التعليم يرى العالم بعيون البيض: "وجوه بيضاء، أقنعة سوداء"، كما يعبر فرانز فانون، يُغني الغزاة عن الجيوش والأساطيل. وسياسة الاستعمار الداخلي هذه طبقها الأنغلوساكسون أينما حلوا، ونجد آثارها اليوم في كل مكان من العالم وصلته موجة "التحضير" الأنغلوساكسوني عبر خلق جيل نغل من المثقفين يَرَوْن العالم بعيون أنغلوساكسونية، فيشنعون على أهلهم دينهم وعاداتهم وتقاليدهم وطريقة حياتهم، ويحتقرون تاريخ أمتهم، ويَرَوْن ألا خلاص لأمتهم إلا بتحولها إلى خادمة في مطابخ سادتها، وأن تستسلم للمصير الذي قرره هؤلاء السادة. فإن فكرت بالتمرد والمقاومة نعتوها بأشد النعوت تحقيرا، وكانوا أقسى عليها من أعدائها، فحملوها مسؤولية ما يجري لها. وإن أتيح لأحدهم أن يمسك بندقية فلن يتردد بالتصويب على أمه وأهله. يقول مكولاي:

"صياغة العقل الهندي تحتاج أولا إلى جهود حثيثة لإعادة كتابة التاريخ والثقافة الهندية المكتوبة بالعربية أو بالسنسكريتية، على أن يتم ذلك بأقلام هنود إنكليزيي الثقافة والذوق والأفكار والتوجه والأخلاق والعقل".

وهذه السياسة استنسخها الأنغلوساكسون في كل مكان، ومن ذلك وطننا العربي. وعندما يصبح عدد نغول مكولاي كافيا تنتفي الحاجة للجيوش والأساطيل، لأن هؤلاء المشحونين بكراهية أهليهم وثقافتهم وتاريخهم يتكفلون بالمهمة، "فلا الاحتلال يسمى بـ"احتلال" ولا المقاومة تسمى بـ"مقاومة"، وتبرعوا بأقسى حملات التشنيع على ثقافتهم وأهليهم. فبفضل هؤلاء السماسرة صارت حضارة الهنود موضع شك وسفسطة، وصارت مساهماتها في الفلسفة والعلم والأدب والفن موضع جدل والتباس. وبفضلهم سُلِبَ الهنود كثيرا من إنسانيتهم، وسُلِقَتْ مقاومتهم للاحتلال بأشنع الأوصاف. وصار الغزاة منقذين ومخلصين، ولم يجيئوا إلى الهند إلا لانتشال أهلها من مستنقع الجهل والتحجر وتمدينهم".

أهمية هذا الكتاب ليست لأنه يرصد مأساة إنسانية تعرض لها الهنود الحمر ومتمثلة بإبادة ثقافتهم وحضارتهم بعد إبادة أجسادهم، بل لأنه يكتسب أهمية راهنة. فعندما خرج الانكليز من جزيرتهم إلى أراضي

الهنود الحمر توهموا أنهم عبرانيون وأن الهنود الحمر كنعانيون، فأنشأوا إسرائيل الكبيرة التي هي أمريكا . ومع بداية القرن العشرين حان الوقت للانتقال من المجاز إلى الحقيقة، وبَدَلَ إبادة الكنعانيين المتوهَّمين حان وقت إبادة الحقيقيين، فأقاموا اسرائيل الحقيقية الصغرى في فلسطين، وما زالت القصة تتوالى فصولا حتى اليوم. فالطرد والإبادة الجسدية والثقافية هو المصير المقرر لنا على أيدي العبرانيين المتوهَّمين والحقيقيين.

كتاب على كل عربي مقاوم أو متردد أو حتى مساوم أن يتمعن في معانيه لأن مصير الجميع مقرر سلفا على أيدي العبرانيين. فحتى الذين خانوا قومهم من كنعانيي المجاز، الهنود الحمر، لم يكن مصيرهم أفضل من الذين قاوموا. فالجميع طُرِدوا وأبيدوا جسديا وثقافيا".

وقد ورد تعريف "أبناء مكولى" فى ترجمة الوغد البريطانى بالنسخة الإنجليزية من "الويكيبيديا" على النحو التالى:

The term "Macaulay's Children" is sometimes used to "
refer to people born of Indian ancestry who adopt Western culture as a lifestyle, or display attitudes influenced by colonisers ("Macaulayism") – expressions used disparagingly, and with the implication of disloyalty to one's ."country and one's heritage

وفى ترجمة هذا الوغد البريطانى بالنسخة العربية من "ويكيبيديا" يرد، فى سياقه الكامل، كلامه عن الهند وتحطيم تراثها الثقافى واستعبادها من خلال أبنائها أنفسهم على النحو التالى: "يشتهر بخطابه الذى ألقاه في البرلمان الإنكليزي في الثاني من شباط ١٨٣٥م، والذي جاء فيه: "لقد سافرتُ في الهند طولا وعرضا، ولم أر شخصا واحدا يتسول أو يسرق. لقد وجدت هذا البلد ثريا لدرجة كبيرة، ويتمتع أهله بقيم أخلاقية عالية ودرجة عالية من الرقي حتى إنني أرى أننا لن نهزم هذه الأمة إلا بكسر عمودها الفقري، وهو تراثها

الروحي والثقافي. ولذا أقترح أن يأتي نظام تعليمي جديد ليحل محل النظام القديم لأنه لو بدأ الهنود يعتقدون أن كل ما هو أجنبي وإنكليزي جيد وأحسن مما هو محلي فإنهم سيفقدون احترامهم لأنفسهم وثقافتهم المحلية، وسيصبحون ما نريدهم أن يكونوا: أمة تم الهيمنة عليها تماما" . والآن أظن القارئ الكريم يستطيع أن يبصر بوضوح أن صادق جلال العظم وأمثاله من بنى جلدتنا هم بعض أبناء مكولاى ليس إلا !

ثم ألم تكن هناك حرب طاحنة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، وكلتاهما تنتمى إلى الحضارة الغربية، لا تقلّ إن لم تزد عن الحرب بين الغرب والإسلام؟ فكيف يا ترى ينبغى أن نفهم كلام السيد صادق العظم؟ إنه يتحدث عن ماركس ونبوءاته وكأنها الوحى السماوى رغم ما اتضح لكل ذى عينين من غير عميان الماركسية أنها نبوءات مغشوشة رآها صاحبها فى المنام وهو عريان السوأة فلا ينبغى أخذها مأخذ الجد . والعظم ومن على شاكلته من أيتام الماركسية أعظم برهان على صحة ما نقول، إذ أين الماركسية الآن؟ بل أين الاتحاد السوفييتى ذاته ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية واليمن الجنوبى وصومال سياد برى وأفغانستان برباك كارمل. . . إلخ؟ بل أين بورقيبه وعبد الناصر وبشار الأسد وغيرهم ممن صدّقوا، على نحو أو على آخر، ما يهرف به أخونا العظم من استحالة الوقوف فى وجه اختراق الحضارة الغربية لمجتمعاتنا ومحاولتها القضاء على ديننا المتخلف الرجعى؟

ولقد قالها قبلا د . طه حسين، الذى ألح فى كتابه: "مستقبل الثقافة فى مصر" الصادر أواخر ثلاثينات القرن الماضى، على أن السبيل إلى إلى التحضر والعزة والسيادة "ليست فى الكلام يُرْسَل إرسالا ولا فى المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هى واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عِوَجٌ ولا التواء، وهى واحدةٌ فَذَّةٌ ليس لها تعدد . وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاءَ فى الحضارة خَيْرِها وشَرِّها، حُلْوِها ومُرِّها، وما يُحَبّ منها وما يُكْرَه، وما يُحْمَد منها وما يعاب" . هكذا مرة واحدة، خبط لزق، وكأننا بصدد شروة طماطم! وقد علق على هذه الدعوة المريضة د . محمد محمد

حسين رحمه الله فى كتابه: "الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر" فقال إن هذا الكلام الماسخ "شبيهٌ بقول آغا أوغلى أحمد، أحد غُلَاة الكماليين من الترك فى أحد كتبه: "إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الأوربيين، حتى الالتهابات التى فى رِئِيهم والنجاسات التى فى أمعائهم".

وطبعا ليس لذلك من معنى إلا أنه ما دامت أوربا تُلْحِد فلا بد لنا نحن أيضا أن نُلْحِد ونكفر بالله وبملائكته ورسله واليوم الآخر، وما دامت أوربا تنظر إلى الرسول على أنه نبى غير حقيقى فلا بد لنا نحن أيضا على سبيل التبعية أن ننظر إليه صلى الله عليه وسلم بنفس العين، وما دامت أوربا تبيح الخنزير والخمر والميسر والزنا واللِّوَاط والسِّحَاق والربا فلا بد لنا أيضا أن نصنع صنيعها فنأكل الخنزير ونشرب الخمر ونلعب الميسر ونزنى ونَلُوط ونُسَاحِق ونُرَابِى... وهكذا. أليس هذا بعض ما تتضمنه حضارة أوربا من شرور وعيوب مما أوصانا طه حسين أن نأخذه مع حضارة أوربا صفقةً واحدةً دون انتقاءٍ أو تطهيرٍ؟ إن الرجل حريص أتم الحرص على أن "نرى الأشياء كما يراها (الأوربى)، ونقوِّم الأشياء كما يقوِّمها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها، ونطلب من الدنيا مثل ما يطلب، ونرفض منها مثل ما يرفض".

وعلى هذا فإذا سمعناه يقول فى موضع آخر: "إذا دعَوْنا إلى الاتصال بالحياة الأوربية ومجاراة الأوربيين فى سيرتهم التى انتهت بهم إلى الرقىّ والتفوق فنحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما فى سيرتهم... ونحن، حين ندعو إلى الاتصال بأوربا والأخذ بأسباب الرقىّ التى أخذوا بها، لا ندعو إلى أن نكون صُوَرًا طبق الأصل للأوربيين كما يقال، فذلك شىء لا سبيل إليه ولا يدعو إليه عاقل. والأوربيون يتخذون المسيحية لهم دينا، فنحن لا ندعو إلى أن تصبح المسيحية لنا دينا، وإنما ندعو إلى أن تكون أسباب الحضارة الأوربية هى أسباب الحضارة المصرية لأننا لا نستطيع أن نعيش بغير ذلك، فضلا عن أن نَرْقَى ونَسُود"، إذا سمعناه يقول ذلك عرفنا أنه لا يقول ما فى قلبه، وإنما يحاول أن يخدعنا عن نفسه، فهذه طريقة طه حسين: يضرب الضربة، ثم يستدير إليك حين يرى أنك لم تمت بَعْدُ قائلا: "أنا آسفٌ

أنْ آلمتُك عن غير قصد"! ثم يمضى مسددا لك اللكمات والضربات المُصْمِيَة التى يريد بها أن يقتلك! وبمناسبة ما قاله طه حسين عن أنه لا يريد للمسلمين أن يعتنقوا المسيحية فإنى لا أستطيع أن أطرد عن ذاكرتى ما خطر لى الآن مما قرأته عن تعميده فى كنيسة إحدى القرى بالجنوب الفرنسى قبيل زواجه من سوزان، أو عن اقتران حفيدته بشاب يابانى، أو ما سمعتُه أواسط ثمانينات القرن الماضى من أستاذةٍ للغة الفرنسية، لها بباريس صلة قوية، عن تنصّر ابنه رسميا فى فرنسا آنذاك، وإن كنت لا أريد أن أخوض فى هذا الأمر أكثر من هذا لأنى لا أملك بين يدىّ الآن وثائق مكتوبة.

وهذا الكلام الذى يردده صادق العظم على سبيل المثال، ومن قبله طه حسين، هو السخف بعينه، وإلا فلماذا لم يتبع الأوربيون أيام تخلفهم وتقدم الحضارة الإسلامية هذه الحضارة قلبا وقالبا وتخلَّوْا عن دينهم وعاداتهم وتقاليدهم وأذواقهم وسلوكهم وأخلاقهم؟ لقد أخذوا من حاضرتنا الغابرة أشياء، وتركوا أشياء، وها هم أولاء قد صاروا فى نظر العظم وأمثاله المثال الذى ينبغى أن يحتذى. وطه حسين والعظم وأشباههما إنما يرددون مقولات الغربيين ويتبَنَّوْن نظرتهم فى أن أوربا هى مركز العالم، وليس هناك أى سبيل أمام أية دولة أو أمة إلا أن تفنى فى الأوربيين وتصير عبدة لهم، إذ هى النموذج والمثال الأعلى الذى لا بد من احتذائه لكل من يريد نجاحا وتقدما واستنارة وغنى. صحيح أنهم يتظاهرون بأنهم يريدون لك الخير والسعادة والتقدم مثلهم، ولكن حاول أن تصدقهم، فلن تجد منهم إلا الحرب العَوَان لك والعمل بكل طريق على إبقائك حيث أنت متخلفا مريضا فقيرا جاهلا معتمدا فى كل أمورك عليهم حتى يمكنهم ساعة الجد أن يركّعوك تحت أقدامهم بل أن يطحنوك بأضراسهم. وما طه حسين وصادق العظم ومن على شاكلتهما سوى القاطرة التى تشد بقية العربات إلى وادى التبعية والعبودية والضلال والهوان. ومع هذا فلسوف تسمع صرير الأقلام مزعجا يزعم أنهم هم القادة المعلمون الذين ينبغى أن يصيخ إليهم الجميع ويتبع خطاهم الجميع لا مناص من ذلك، وإلا عُدَّ من يخالفهما متخلفا رجعيا لا ينتمى إلى العصر، ومكانه متاحف التاريخ.

لقد نسيت أوربا، ونسى وراء نسيانها قرودنا الذين يلعبون طبقا لأوامرها "عجين الفلاحة" و"نومة العازب" ولا يحسنون غير تلك الألاعيب البهلوانية الرخيصة التى يغرم بها المختلفون، أن أوربا لم تكن طوال عمرها متقدمة قوية متعلمة غنية صحيحة البدن والعقل، بل كانت تعانى التخلف والانغلاق والتكلس العقلى فى الوقت الذى كانت حضارتنا فيه عفية قوية ثرية عالمة صاحبة ذوق سليم بل مترف، وكان أسلافنا ينظرون إلى أهلها بوصفهم متوحشين أقداما منحطين. فلا يصح أبدا تصوير الأمر على أساس أنه إما أن نتبع أوربا فى كل شىء وإما الطوفان. لا يا أخى منك له، لا أوربا معصومة من الخطإ والخطل والانحراف والضلال، ولا الطوفان ينتظرنا إن لم نجث على ركبنا أمامها. فلنأخذ من أوربا علمها ومناهجها العلمية وشهوة المعرفة والتقدم واقتحام الطبيعة وحب المغامرة والثقة بالنفس والاعتماد على الذات والتعاون والتنظيم والتخطيط، لا بتفاصيلها، فقد تكون كامنة فى تلك التفاصيل ثعابين وعقارب وبلايا ورزايا، بل كقيم ومبادئ عامة، على أن يكون معلوما لدينا تماما أن كل ما أوردتُه الآن من مبادئ وقيم متوافرٌ فى ديننا على أحسن وجه، ويتفوق على نظيره الأوربى تفوقا كبيرا.

وسأمثل لذلك بمثالين اثنين: فأما أحدهما فحق كل إنسان فى التعليم، ذلك المبدأ الذى توصلت إليه الحضارة الحديثة بعد طول عذاب، وبعد أن كانت الكنيسة فى العصور الوسطى مثلا تحرم على أتباعها قراءة الكتاب المقدس ذاته. فماذا يقول الإسلام فى هذا الموضوع؟ لقد جعل الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولم يكتف بجعله حقا كما صنعت الحضارة الحديثة. والفرق بين الأمرين هائل لفتنى إليه فى مطلع الثمانينات فى لندن كتاب استعرته من مكتبة قريبة من المسكن الذى كنت أقطنه بشرق لندن اسمه: "Muhammad and Learning"، إذ قال مؤلفه إن الفريضة لا يمكن صاحبَها التنازلُ عنها، ولا بد له من أدائها، وإلا كان آثما ولم يصح إسلامه بالصورة المنشودة، أما الحق فلصاحبه أن يتنازل عنه ويهمله

ولا يطلبه. وهو ما يحدث الآن فى البلاد العربية، وبالذات فى مصر حيث لا يهتم التلاميذ والطلاب بتحصيل العلم رغم ما تبذله الدولة من أموال طائلة وجهود مضنية فى هذا السبيل.

وأما ثانى الأمرين فهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام ما معناه أن المجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر. وهو ما لا وجود له فى أى دين أو مذهب أو منهج فى الدنيا كلها، بل كل ما يتمناه المخطئ فى أى مكان هو أن يخفَّف عنه العقاب، أما إن سُومِح فإنه يقبل يديه ظهرا لبطن، وبطنا لظهر، ولا يكاد يصدق بالنجاة. لكن الرسول أتى بالفذ المدهش، وهو أن المخطئ يحصل على أجر هو أيضا. ذلك أنه يكفى فى الإسلام أنه عزم وبذل كل ما لديه من جهد ولم يقصر، وهذه كلها قيم عظيمة لو فشل صاحبها مرة لسوف ينجح مرات ومرات. ومع هذا فصادق العظم يرمى الإسلام بأنه لا يشتمل إلا على الخرافات والأساطير والغيبيات (يقصد الخرافات التى لا أصل لها) والأمثال السائرة والحكم الوعظية، ودمتم!

أما أن قاطرة التقدم، أى التقدم العلمى والاقتصادى والعسكرى والصحى، لا ترحم من يقف فى طريقها فذلك مما نملك ترف المشاحّة فيه، فالأمر أوضح من أن ينكره أحد. ولقد غَبَر على المسلمين قرون وهم متخلفون فى هذه الميادين تخلفا يبعث على الرثاء والغثيان، فكانت النتيجة ما نرى من ضعفهم الشائن وتساقط بلادهم فى يد الغربيين يصنعون بها وبهم ما يشاؤون من إذلال ما بعده إذلال، واحتلال يعمل على تدمير الحاضر والمآل، وانتهاك أعراض وانتهاب أموال، واعتداء على الإسلام مخز مهين، وهم لا يريدون استخلاص الدرس ولا استيعابه رغم بساطته، ألا وهو أنهم ينبغى أن يتعلموا ويستخدموا تلك النعمة التى وضعها الله فى رؤوسهم: نعمة العقل والتفكير والإبداع، وما يرتبط بها من دراسة كل صغيرة وكبيرة واكتشاف للمشكلات ووضع حلول لها وتخطيط لكل شىء ونظام صارم واقتحام جسور لمجالات الكون وطموح غلاب لاهب إلى السيادة والعزة والكرامة. ولا ريب أن منهم كثيرين يعرفون ماذا ينبغى عمله للخروج من هذه الدائرة الجهنمية، إلا أن الغالبية الساحقة تحرن كالبغال فلا تريد أن تنتقل عما هى مرتكسة فيه من تخلف ومذلة وفوضى وجهل

قيد أنملة رغم أنها لا تحتاج إلى التخلى عن دينها فى شىء على عكس ما تظنه تلك الأغلبية الساحقة، التى يوهمها الأغبياء من المنتسبين إلى العلم الدينى، وكذلك من أمثال صادق العظم الرافضين للإسلام، أنه فى خطر، وإن كان لكل من الفريقين غاياته وأهدافه التى تتناقض وغايات الفريق الآخر وأهدافه تماما .

فأما العظم فقد رأينا أنه لم ير شيئًا فى الدين سوى المعجزات والخرافات والغيبيات والأساطير والأمثال والحكم، وكأن الدين ليس فيه دعوة إلى العلم لم يصل إليها الغرب حتى الآن، وليس فيه إلحاح على التثبت مما نسمع أو نقول قبل أن نسلم به أو نذيعه، وليس فيه تنظيم صارم حتى فى صفوف الصلاة، وليس فيه استحثاث على العمل وتفضيل له على العبادة التقليدية، وليس فيه أن النظافة من الإيمان، وليس فيه أن الدين يسر لا عسر، وليس فيه أن الله يغفر الذنوب جميعا ، وليس فيه التضامن الاجتماعى على أحسن وضع، إذ يكفى أن يكون الضمير الداخلى الذى يخشى صاحبه ربه هو الفيصل فى ذلك لا القانون، وليس فيه إقرار بالشهوات وأهميتها وحتمية إشباعها والحملة على من يتجاهلها نفاقا وبهلوانية. . . إلخ، ودعونا من أن الإسلام ليس فيه خرافات ولا أساطير، بل فيه تشريعات قويمة وأخلاق كريمة وعقائد مستقيمة، وقصص هادف ومنطق للحق جانف، وقيم رائعة ومبادئ بارعة، ومثل عالية وغايات سامية.

هل معنى ذلك أن الدين يخلو من الحديث عن المعجزات؟ كلا وحاشا . إذن فماذا ؟ إذن فالدين يقر بأنه كانت هناك فعلا معجزات وقعت على أيدى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم. وعلى العكس من اتجاه تفكير صادق العظم أرى أن إقرار القرآن بمعجزات الأنباء والرسل السابقين هو من نقاط القوة والإقناع العجيبة فى دين محمد . كيف؟ إن محمدا صلى الله عليه وسلم، فى الوقت الذى يقر فيه بمعجزات النبيين والمرسلين الآخرين، يرد على كفار قومه، كلما تحدَّوْه وطلبوا منه معجزة، بأنه ليس إلا بشرا رسولا ليس فى مستطاعه القيام بخارقة دون أن يشاء الله ذلك، ثم هو لا يستجيب لهم أبدا رغم هذا معلنا ، كما يأمره القرآن، أن عصر المعجزات قد ولى، وأن تأثيرها فيما سبق كان محدودا لا يكاد يذكر. فانظر كيف يقر محمد

بمعجزات الرسل، لكنه ينفى أن يكون قادرا على الإتيان بمثلها . ولقد كان بمكنته منذ اللحظة الأولى أن يعلن أنه لا يوجد فى الدنيا: لا فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل أية معجزات، مغلقا بذلك هذا الباب الذى يأتيه منه الريح كى يطمئن ويستريح. وعلى من يعترض عليه أن يثبت العكس، وهو ما لن يستطيعه أحد كائنة ما كانت عبقريته، إذ المعجزات قد مضت فى الزمان الأول وانتهى أمرها ، ولا يمكن أحدا البرهنة عليها واقعيا . لكنه، صلى الله عليه وسلم، سلك سبيلا أخرى تماما جلبت عليه وجع الدماغ، فتحمل وجع الدماغ لأنه صادق لا يهمه ما يقاسيه فى سبيل هذا الصدق العبقرى المذهل.

قد يقول السفهاء إنه كان يتقرب إلى أصحاب الأديان الأخرى بذكر معجزات أنبيائهم ومرسليهم حتى يؤمنوا به، ولو كان قد أنكر تلك المعجزات لانصرفوا عنه. قد يقول السفهاء، وما أكثرهم، ذلك، إلا أن الجواب على ما يقوله السفهاء سهل يسير، إذ لم يكن القرآن فى ذلك الوقت المبكر من عمر الدعوة قد نص بعد على عالمية رسالته بحيث يهمه أصحاب الأديان السابقة إلى هذا الحد، فضلا عن أن اليهود والنصارى من المكيين لم يكونوا عنصرا هاما هناك: سواء من ناحية العدد أو من ناحية أن غالبيتهم لم يكونوا عربا، بله أن يكونوا قرشيين، وهم الذين يهمونه فى ذلك الوقت. ثم فلنفترض أن اليهود والنصارى كانوا يهمونه رغم ذلك لأن اليهودية والنصرانية كانتا لاتزالان موجودتين ومؤثرتين فهل كان ذلك ينطبق مثلا على ديانة إبراهيم أو نوح من قبل إبراهيم؟ فلماذا ذكر معجزات إبراهيم ونوح إذن؟ وهذا لو كان يعمل لأتباع الأديان السابقة حسابا يمنعه من تجاهل ذكر المعجزات التى عملها أنبياؤهم. أما حين نعلم أنه لم يكن يعمل حسابا لأى شىء من ذلك فعندئذ لن يكون لما قد يقوله السفهاء أى معنى. كيف؟ لقد حمل على هؤلاء الأتباع حملة شعواء، ووجه ضربات مصمية بل صاعقة لجوهر عقيدتهم حين نفى أن يكون الله ربا لبنى إسرائيل وحدهم بحيث يكونون هم أبناء الله وأحباءه، ورماهم بقساوة القلوب وقتل الأنبياء والتعنت والتساخف معهم بمطالبتهم طوال الوقت بالآيات المعجزات دون تفكير فى مد يد التعاون معهم أبدا والمسارعة فى كل منعطف طريق إلى الكفر بهم، ونفى

أن يكون عيسى إلها أو ابنا للإله أو أنه نزل إلى الأرض لفداء البشر من خطيئتهم، أو أنه قد صُلِب أو قُتِل، أو أنه سيحاسبهم بنفسه يوم القيامة بل سيحاسَب كما يحاسَب سائر البشر، ومنهم محمد ذاته. فماذا يمكن أن يقول السفهاء فى ذلك؟ وقد يقول السفهاء أيضا إن محمدا قد غير رأيه مع الأيام فى موضوع الخوارق حين أحرجه القرشيون فصار ينفى أن يكون فى طوق أحد من البشر الإتيان بشىء منها. والجواب على ما يقوله السفهاء هو أنه قد ظل يذكر، وبمنتهى الاحترام، خوارق السابقين من النبيين والمرسلين رغم تحزب مدعى الإيمان بهم ضده وموالستهم مع المشركين من قومه حتى بعدما هاجر إلى المدينة بسنوات.

والحل؟ الحل ليس فى الكذب وتصوير الإسلام على أنه دين الغيبيات والخرافات الأساطير والخوارق والأمثال السائرة والحكم الوعظية فقط، ودمتم، وليس الحل فى النظر إلى المعجزات المذكورة فى القرآن على أنها مجرد رموز كما يدعو صادق العظم فى بعض ما كتب فى دراسته التى تناولها الآن، مما يجرى فيه على مذهب القاديانيين، الذين يقولون مثلا إن وادى النمل الذى مر به سليمان وجنوده موضع تسكنه مجموعة من القبائل الكثيرة كالنمل، أو إن هدهد سليمان هو ضابط فى جيشه كان يرسله عليه السلام فى مهمات استطلاعية فيأتيه بالخبر اليقين، أو إن صُنْع عيسى من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا معناه أنه قادر برسالته على هداية البشر، وهم بطبيعة الحال مخلوقون من الطين، فيكون بمستطاع الواحد منهم بعد أن تتم هدايته على يديه أن يطير فى سماوات الروحانية... إلخ، وهو ما فَنَّدْتُه وبينتُ وجه العوار الفادح والقادح فيه فى كتابى: "من الطبرى إلى سيد قطب- دراسة فى مناهج التفسير ومذاهبه"، وبخاصة أن القرآن لا صرَّح ولا لمَّح بأنه إنما يرمز أو يضرب أمثالا، إذ كان واضحا تمام الوضوح أنه يتحدث عن وقائع تاريخية تتسم بخرقها لنواميس الطبيعة، بل الحل هو تصنيف عناصر الإسلام بحيث يكون لكل عنصر طريقة فى التعامل معه: فأما الغيبيات فتتمثل فى الإيمان بالله سبحانه واليوم الآخر، الذى من شأن الاعتقاد فيه تحفيز الناس على بذل أقصى ما عندهم من طاقة لعمل الخير وتثبيط اندفاعهم نحو الباطل والأذى والظلم والتجاوز. ويدخل تحت

هذه المظلة الاعتقاد فى الأنبياء والرسل. وهذا العنصر جوهرى فى الدين لا يمكن أن يكون ثم دين بدونه. وليس فى هذا ما يضير أحدا، بل فيه المصلحة كل المصلحة متى وقف البشر عند ما يقوله القرآن والرسول فيه دون زيادة أو نقصان.

وأما المعجزات فالحل فى أن نغلق بابها لأنها تنتمى إلى عصر مضى وانقضى، ولا سبيل لرجعتها. ولن يستفيد المؤمنون منها فى حياتهم الحالية شيئًا لأن جميع السبل إليها قد انسدت، فلا مجال للوصول إليها. وبدورهم ليس للكافرين بالأديان من داع إلى التوقف إزاء تلك المعجزات ومحاولة بث الشبه بشأنها، لسبب بسيط هو أنهم لا يمكنهم التدليل على صحة موقفهم المنكر لها. ولا ينبغى أن ننسى أن موقف عدد من فلاسفة العصر الحديث من القوانين الكونية هى أنها ليست حتما فى ذاتها، بل كل ما يستطاع قوله بشأنها هو أن "أ" تقع عقب حدوث "ب" مثلا لا أن وقوع "ب" يستلزم حتما أن تحدث "أ" عقبها لا محالة. وقد سبقهم الإمام الغزالى إلى هذا منذ قرون، ورتب على ذلك الكلام القول بأن مشيئة الله هى التى اقتضت مثلا أن النار متى شبت فى شىء أن تحرقه، وأنه سبحانه لو أراد أن تشب النار ولا تحرق لكان ما أراد، بخلاف بعض فلاسفة ومفكرى عصرنا الذين أنكروا الله جملة. وأرى أنه ليس فى القول بوجود قوانين كونية مطردة والإيمان بوجود الله ووجوب اعتمادنا على أنفسنا فى تحقيق ما نصبو إليه أى تناقض: فالله هو الذى شاء أن يكون نظام الكون هو هذا النظام الذى أمامنا، ولو شاء تغييره لغيره، وهو ما تمثّل فى المعجزات، الذى قال هو نفسه إن عصرها قد انصرم، ولا سبيل إلى عودتها. وهو سبحانه الذى فرض علينا العمل والاجتهاد إذا أردنا أن ننجز شيئًا، ولا بد أن ننجز كل شىء يمكن إنجازه، وإلا حوسبنا وعوقبنا فى الدنيا خزيا وهوانا وتخلفا وأمراضا وجهلا وفوضى وقذارة وفقرا ومعاناة وتعرضا للاحتلال والنكال على أيدى الأمم الأخرى، وفى الآخرة نارا مستعرة تحرق وتصهر وتخزى وتهين وتؤلم ألما لايطاق.

ولنعلم أن واجبنا الآن هو الإيمان بأن الكون مؤسس على نظام وقوانين مطردة إلى يوم الدين، ولا سبيل إلى التعامل معها والإفادة منها وتجنب مصاعبها ومتاعبها إلا بالعلم والتخطيط والنظام والاقتحام والخيال الخلاق والإبداع والإرادة الغلابة والطموح إلى ترويض الطبيعة من حولنا والاستمتاع بخيراتها التى خلقها الله لنا . ومن لا يفهم هذا فذنبه على جنبه. ولقد ذاقت جنوبنا كثيرا جدا من النتائج المترتبة على ذنوبنا، فلا نلومن إذن غير أنفسنا . أما إذا استمررنا على ما نحن فيه من غيبوبة فكرية وبلاهة حضارية وفوضى واعتساف للأمور وبغض لمواجهة الحقائق ورضا بالتعايش المحبور مع القمامة والنتانة والقبح والتشويه فى كل مكان ومع التمسك بالقشور والنفور من العلم ومشقاته وإيثار الخرافات على المنطق والعقل فلسوف نبقى فى مكاننا لن نبرحه، بل سوف نتراجع ونتقهقر أكثر وأكثر، وتدوسنا أقدام الأمم فنتحول إلى مماسح لأحذيتهم يحكّون فينا قاذوراتِ جزَمِهم ثم يحتقروننا رغم ذلك ويشمئزون من منظرنا ويتجنبون ملامستنا أو مجرد الاقتراب منا خوفا من أن يعديهم الجرب الحضارى والإنسانى الذى نحمله فى أجسادنا وعقولنا وأذواقنا وضمائرنا . أعوذ بالله! فالإسلام مجموعة من القيم: القيم العقلية، والقيم العاطفية، والقيم الذوقية، والقيم الأخلاقية، والقيم الاعتقادية، والقيم العبادية. وعلينا أن نجتهد فى تحقيق هذه القيم وألانختزل الدين فى قيم العبادة والملابس والجنس فحسب. ويا ليتنا، فيما يخص العبادة، نهتم بكل ألوانها، بل الغالب أن ينصب اهتمامنا على الصلاة وحدها تقريبا، إذ لا كلام كثير عن حقوق الفقراء والمستضعفين والمساكين واليتامى المحتاجين فى أموالنا .

وإنى لأستغرب تساخف صادق العظم وزعمه أن الإسلام مجموعة من الخرافات والأساطير وما إلى هذا بسبيل. ألم تأته الآيات والأحاديث التالية: "قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون؟"، "ايتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين"، "قل: إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا"، "إنما يتذكر أولو الألباب"، "إن فى ذلك لآيات لقوم يعلمون/ يتفكرون"، "وقل: رب، زدنى علما"، "إن الظن لايغنى من الحق شيئًا"، "إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا"، "قل: لا أقول لكم: عندى خزائن الله ولا

أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ"- "العلماء ورثة الأنبياء"، "من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع"، "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع"، "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، "اطلبوا العلم ولو فى الصين"، "فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب"، "مَن غَدا لِعلمٍ يتعلّمُه فتَح اللهُ له به طريقًا إلى الجنةِ وفَرَشَتْ له الملائكةُ أكنافَها، وصلّت عليه ملائكةُ السماءِ وحيتانُ البحرِ. وللعالِمِ منَ الفضلِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ. والعلماءُ ورَثَةُ الأنبياءِ. إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا دِرْهمًا. إنما ورَّثوا العِلْمَ، فمَنْ أخَذ بالعِلْمِ أخَذ بحظٍّ وافرٍ. وموتُ العالمِ مُصيبَةٌ لا تُجْبَرُ، وثُلْمَةٌ لا تُسَدُّ، ونجمٌ طُمِسَ. وموتُ قبيلةٍ أيسَرُ مِن موتِ عالِمٍ"؟

ومن الغريب المريب أن صادق العظم لا يهمه من سيرة الرسول إلا أنه تزوج فى شبابه من سيدة فى الأربعين، وفى كهولته من نساء فى مثل سن بناته، وهو ما يحتاج إلى متخصص فى علم النفس (المرضى طبعا)، ويدل على أنه زير نساء على حد قوله. عجبا! أهذا كل ما يشغلك فى شخصية الرسول وحياته أيها العظم؟ ألا تعلم أن العرب وغير العرب فى ذلك الوقت كانوا يعددون فى زواجهم؟ فما المشكلة إذن فى أن يعدد النبى كما يعدد غيره فى مجتمعه وخارج مجتمعه؟ لا تقل إن القرآن قد حدد التعدد بأربعٍ لا يَزِدْن، إذ ينبغى أن تعرف أن هذا التحديد لم يقع إلا بعد أن كان النبى قد تزوج مَنْ تزوجهن من نسائه. فإلى أين يا ترى كن سيذهبن لو طلق الرسول مازاد على أربع؟ ثم ما دام الأمر قد وصل بنا إلى هذا اللون من النقاش فمعنى ذلك أن محمدا هو مؤلف هذا الدين؟ فإذا كان ذلك كذلك فلم يا ترى أصدر تشريعا بتحديد التعدد بأربع، وهو يعرف أن هذا التحديد يضره ولا يفيده بحال، بخلاف التعديد فإنه لا يضره بل يفيده فى كل الأحوال؟ كذلك لا بد أن نكون على ذكر من أن الرسول كان يكلَّف أحيانا بما لا يطالَب به غيره من المسلمين كالتشريع الذى حرم عليه استبدال زوجة بزوجة فى سورة "الأحزاب" منذ نزول الآية الخاصة بذلك إلى أن يموت، وكمواصلة الصيام يومين متتاليين فى حين يحرم ذلك على أى مسلم آخر، وكالصدقات، إذ يحرم عليه

أخذها هو أو أحد من أقربائه البتة مهما كان احتياجهم إلى المال، دون سائر المسلمين. . . فعلينا أن ننظر فى ترك ما زاد على أربع من الزوجات فى عصمته فى ضوء هذه الخصوصية.

أما بالنسبة إلى سن عائشة حين تزوجها فالخلاف قائم بين الكتاب والمفكرين والمؤرخين: فالمحدّثون بوجه عام يحددونه بالتاسعة تقريبا، على حين يسنّنها العقاد وقتذاك بنحو أربع عشرة سنة، بينما يوصلها د. شوقى ضيف إلى حوالى العشرين عاما. وهى لم تشتك لأحد من تلك الزيجة، بل كانت سعيدة بزوجها على الدوام وشديدة الغيرة عليه ومحط حسد الأخريات كما قالت أمها لها ذات مرة خلال أزمة الإفك. وهذه السعادة كانت شعور سائر زوجاته لا عائشة وحدها. بل إن عائشة قد ظلت بقية عمرها، أى على مدى عشرات السنين، أرملة لم تتزوج نزولا على حكم القرآن، فلم تفلت منها كلمة واحدة تشى بتأففها من ذلك الزواج أو ضيقها بهذا الزوج، بل عاشت وفية القلب والعقل والضمير لذكراه. فإذا كانت هناك من ضرورة للاستعانة بعلم النفس هنا فليكن علم نفس السعادة والهناء والتوفيق الزوجى، ولسوف ينتهى التحليل النفسى إلى أن سر هذا التوفيق هو شخصية الرسول أولا وأساسا. وأخيرا فقد يهمك بالمرة، أيها العظم، أن يدرس علماء النفس حالة مريم عليها السلام وخطبة يوسف النجار العجوز لها، ذلك الذى كان فى الثمانين من عمره آنذاك، وكانت هى فى الثانية عشرة.

وقبل أن أغادر هذه النقطة أرى أن أورد هنا نص الرسالة التى وصلتنى بالبريد الإلكترونى عن ذات الموضوع مع شىء ضئيل من التصرف، وهى للأسف غُفْلٌ من اسم المؤلف. وسبب إيرادى لها هنا أن أبين للقارئ الكريم أن هناك على الأقل من يقدم الأدلة على أن عمر عائشة حين تزوجها النبى لم يكن بالصغير كلمة واحدة. كما أن بعض المستشرقين أنفسهم يشيرون إلى أن الفتيات فى البلاد الحارة كالجزيرة العربية يبلغن وينضجن فى سن مبكرة عكس نظيراتهن فى البلاد الباردة. ولماذا نذهب بعيدا، وكثير من الزيجات فى مصر كانت تتم فى تلك السن التى يستنكرها العظم ومن شايعه على موقفه العدوانى من الرسول عليه الصلاة

والسلام؟ وبالمثل يؤكد ر. ف. بودلى المستشرق البريطانى، فى الكتاب الذى تناول فيه سيرة النبى، أن المجتمعات تختلف فى تلك المسألة ولا تجرى فيها على سنة واحدة، بل لكل مجتمع ظروفه، قائلا إن مثل هذا الزواج كان ولا يزال عادة آسيوية، بل ما زالت هذه العادة فى شرق أوربا، وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وعادية حتى الآن فى بعض المناطق الجبلية البعيدة فى الولايات المتحدة. وهذا نص كلامه بالحرف تقريبا. بل إنه ليؤكدتأكيدا قويا نضوج شخصية عائشة عند انتقالها إلى بيت النبى واستعدادها التام للقيام بواجباتها الزوجية والمنزلية، وإن لم يكن رأيه فى بنت الصديق طيبا على الدوام، لكن هذا موضوع آخر.

تقول الرسالة: "دائما ما يثار موضوع زواج عائشة أم المؤمنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسألة عمرها حسب ما ذكره البخاري من أنه عقد عليها وهي ابنة ست سنين وتزوجها وهي ابنة تسع سنين... ولكن انظروا إلى هذه المقاربة المنطقية التي تحسب من الشواهد التاريخية عمر السيدة عائشة حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. بمراجعة التواريخ التي في كتب السيرة: "الكامل، تاريخ دمشق، سير أعلام النبلاء، تاريخ الطبري، تاريخ بغداد، وفيات الأعيان..." فإن البعثة النبوية استمرت ١٣ عامًا في مكة و١٠ أعوام بالمدينة، وكان بدء البعثة بالتاريخ الميلادي عام ٦١٠م، وكانت الهجرة للمدينة عام ٦٢٣م أي بعد ١٣ عامًا في مكة، وكانت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٣م.

والمفروض بهذا الخط التاريخي المتفق عليه أن الرسول صلى الله عليه

وسلم تزوج عائشة قبل الهجرة للمدينة بثلاثة أعوام، أي في عام ٦٢٠م، وهو ما يوافق العام العاشر من بدء الوحي، وكانت تبلغ من العمر ٦ سنوات، ودخل بها في نهاية العام الأول للهجرة أي في نهاية عام ٦٢٣م، وكانت تبلغ ٩ سنوات، وهو ما يعني حسب التقويم الميلادي أنها ولدت عام ٦١٤م، أي في السنة الرابعة من بدء الوحي حسب رواية البخاري أيضا. هذا هو المتعارف عليه أو ما يعتقد أنه الصحيح. حسنا! ماذا

لو تم حساب عمر السيدة عائشة بالنسبة لعمر أختها أسماء بنت أبي بكر؟ هل ستظل رواية البخاري صحيحة؟ سوف نرى. تقول كل المصادر التاريخية السابق ذكرها بلا اختلاف واحد بينها أن أسماء ولدت قبل الهجرة للمدينة ب ٢٧ عامًا، مما يعني أن عمرها مع بدء البعثة النبوية عام ٦١٠م كان ١٤ سنة وذلك بإنقاص ١٣ سنة من عمرها قبل الهجرة، وهي سنوات الدعوة النبوية في مكة، لأن ٢٧– ١٣= ١٤ سنة، وكما ذكرت جميع المصادر بلا اختلاف أنها أكبر من عائشة بـ١٠ سنوات. إذن يتأكد بذلك أن سن عائشة كان ٤ سنوات مع بدء البعثة النبوية في مكة. أي أنها ولدت قبل بدء الوحي بـ٤ سنوات كاملات، وذلك عام ٦١٠م.

ومؤدّى ذلك بحسبة بسيطة أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما عقد عليها في مكة في العام العاشر من بدء البعثة النبوية كان عمرها ١٤ سنة لأن ٤+ ١٠= ١٤ سنة، أو بعبارة أخرى أن عائشة ولدت عام ٦٠٦م، وتزوجت النبي سنة ٦٢٠ م، وهي في عمر ١٤ سنة، وأنه، كما ذُكِر، دخل بها بعد ٣ سنوات وبضعة أشهر، أي في نهاية السنة الأولى من الهجرة وبداية الثانية عام ٦٢٤م، فيصبح عمرها ١٨سنة كاملة، وهي السن الحقيقية التي تزوج فيها النبي الكريم عائشة.

وهذه طريقة أخرى تقوم على حساب عمر عائشة بالنسبة لوفاة أختها أسماء: تؤكد المصادر التاريخية السابقة بلا خلاف بينها أن أسماء توفيت بعد حادثة شهيرة مؤرخة ومثبتة، وهي مقتل ابنها عبدالله بن الزبير علي يد الحجاج الطاغية الشهير، وذلك عام ٧٣هـ، وكانت تبلغ من العمر ١٠٠سنة كاملة. فلو قمنا بعملية طرح لعمر أسماء من عام وفاتها ٧٣هـ، وهي تبلغ من العمر ١٠٠سنة كاملة، فيكون ١٠٠– ٧٣= ٢٧ سنة، وهو عمرها وقت الهجرة النبوية، وذلك ما يتطابق كليا مع عمرها المذكور في المصادر التاريخية. فإذا طرحنا من عمرها ١٠ سنوات، وهي السنوات التي تكبر بها أختها عائشة، يصبح عمر عائشة ٢٧– ١٠= ١٧ سنة، وهو عمر عائشة حين الهجرة. ولو دخل بها النبي في العام الأول يكون عمرها آنذاك ١٧+ ١= ١٨ سنة. وهو ما يؤكد الحساب الصحيح لعمر السيدة عائشة عند الزواج من النبي صلى الله عليه وسلم. ويعضد ذلك

أيضاً أن الطبري يجزم بيقين في كتابه: "تاريخ الأمم" أن كل أولاد أبي بكر قد وُلدوا في الجاهلية، وذلك ما يتفق مع الخط الزمني الصحيح ويكشف ضعف رواية البخاري، لأن عائشة بالفعل قد وُلِدَتْ في العام الرابع قبل بدء البعثة النبوية".

ثم هل كان الرسول زير نساء؟ لقد عَدّد زوجاته نعم، ولكن لم يثبت قط أنهن كن يشغلنه عن أداء واجب أو يدفعنه إلى اقتراف إثم. وأنا هنا لا أحاول أن أنفى عنه صلى الله عليه وسلم سعادته بالزواج واستمتاعه به بما فيه الناحية البيولوجية، فالجنس إحدى المتع الكبرى فى الحياة، ومن ينكر ذلك فهو منافق كبير. والعبرة أن يكون إشباعه فى حلال وألا يشغل صاحبه عن معالى الأمور وأداء الواجبات أو يوطّئ كرامته للنساء يصنعن به ما يردن دون أن يملك من أمر نفسه معهن شيئًا. كما لم تكن زوجاته، عليه الصلاة والسلام، كلهن صغيرات السن على خلاف ما يزعم العظم. ثم لقد كانت حياته قشفة زاهدة، وليست هذه بحياة زير النساء. وكانت علاقته بنسائه تقوم على التفاهم والتعاطف، ولم تكن هناك مناكفات بتاتا، ودَعْك من التفكير فى أن تكون هناك فضائح. فلماذا يثير العظم هذه المسائل؟ لقد نجح الرسول فى زواجه بخديجة، أكبر زوجاته سنا، بنفس المقدار الذى وُفِّق به فى زواجه بعائشة، أصغرهن والوحيدة البكر بينهن، والتى كانت تشعر بالغيرة الشديدة تجاهها وتجاه مَنْ كن على صلة بها، مما يدل على أن شبابها وجمالها وبكارتها وبنوتها للصديق أقرب أصحابه إليه لم يغلبه على نفسه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يطق أن يسمعها تقول مرة كلمة فى حق خديجة، التى كانت قد ماتت منذ أعوام وصارت مجرد ذكرى بعيدة، فكان رده شديدا لم تَنْسَه عائشة وأخذت تستميحه الرضا.

فعنها رضى الله عنها "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر ذكر خديجة، فقلت: ما أكثر ما تكثر من ذكر خديجة، وقد أخلف الله تعالى لك من عجوز حمراء الشدقين، وقد هلكتْ في دهر! فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا ما رأيته غضب مثله قط، وقال: إن الله رزقها مني ما لم يرزق أحدا

منكن. قلت: يا رسول الله، اعف عني. والله لا تسمعني أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه. وفي رواية: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها والاستغفار. قال: ورُزِقَتْ مني الولدَ إذ حُرِمْتُنَّه مني. فغدا عليَّ بها وراح شهرا". فهل هذا الرجل فى نبله وسموق طباعه وكرم أخلاقه، يا ابن العظم، زير نساء، ويحتاج إلى محلل نفسى؟ خيبة الله عليك! إن قلبى لينبض حنانا وشجنا وأنا أقرأ هذا الحديث البديع، وأحمد الله على أن لم يجعل سبيلى سبيل السافلين المنحطين! إن بعض الناس الممروضين فى عقولهم وقلوبهم، وبخاصة من الشيوعيين الأدناس الأنجاس، إذا استافوا عبير الورد الطيب الزاكى تأففوا وسدوا أنوفهم فى حين يعيشون كالصراصير فى خزائن الخراء فرحين منتشين بما يتنفسونه من روائح، وما يطعمونه من فضلات. فلعنة الله على كل سافلٍ زنيم!

وبالنسبة لتعاملى مع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحظت، وأنا أراجع فى موقع "الدرر السنية" الحكم على ما أستشهد به من أحاديث، أن الحديث الواحد كثيرا ما يكون له أكثر من حكم صحة وضعفا وحسنا وغير ذلك، تبعا لاختلاف الرواة مع أن نص الحديث واحد بالحرف هنا وهناك وهنالك، أو يكون الاختلاف بين الروايتين مجرد حرف زائد أو كلمة استعمل مرادفها فى الراوية الأخرى... وهكذا. والسبب هو الاعتماد فى المقام الأول والأخير على السند لا المتن. وأنا، بوجه عام، أحترم هذا المقياس لأن وراءه جهدا هائلا رغم علمى بأن المحدثين قد يختلفون فى تعديل هذا الراوى أو ذاك أو تجريحه حسب ما يتاح لكل منهم من بيانات حوله أو حسب القواعد التى وضعها للجرح والتعديل أو حسب اخلاف العقليات والمفاهيم... إلخ. وهذا من شأنه أن يحفزنى على إعمال عقلى فى الربط أو المقارنة بين الأحاديث المختلفة المتصلة بذات الموضوع، وفى استلهام الروح العامة للإسلام، وفى إنصاتى إلى ما تقوله شخصية الرسول أو تومئ إليه، وفى استنطاق التاريخ، وفى أخذ الطبيعة البشرية وأوضاع المجتمع فى الاعتبار، وفى التنبه إلى مقتضيات السياق، وفى مراجعة الروايات المتعددة للحديث الواحد، وللأحاديث المختلفة للموضوع الواحد،

وفى التعرف إلى ما يقوله التخصص العلمى المرتبط بالمسألة موضوع البحث. . . وهلم جرا. أما الآيات فأمرها يختلف إلى حد ما عن الأحاديث، إذ ليس فيها روايات مختلفة، كما لا يوجد اختلاف بين القراء حول صحتها أو عدمها مثلا. بيد أن سائر الاعتبارات التى ينبغى وضعها فى الحسبان هنا وهناك واحدة تقريبا.

لنأخذ بعض الآيات والأحاديث نموذجا للكيفية التى أفهم نصوصها بها معملا عقلى ومستلهما الروح العامة للإسلام وآخذا السياق فى الاعتبار: فمثلا فى آيات الإفك التى يعرف القاصى والدانى أنها نزلت تبرئةً للسيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها مما بُهِتَتْ به فى قصة ضياع العِقْد الذى فقدته فى الصحراء مَرْجِعَها هى والنبى والمسلمين من غزوة بنى المصطلق، نرى القمى المفسر الشيعى المعروف يصرف القصة عن حقيقتها حتى لا يُضْطَرّ إلى الإقرار بأى فضل لبنت أبى بكر رضى الله عنها وعن أبيها رضى واسعا ملء السماوات والأرضين. وأى فضل أعظم من الفضل الذى ظلت أم المؤمنين تباهى به نظيراتها، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل تبرئتها من فوق سبع سماوات؟ ولا ننس أن لعلىٍّ صلة بالقصة، إذ لما استطلع النبى رأيه حين دارت الشائعات فى أرجاء المدينة كان رده حسبما تحكى لنا الروايات أن النساء كثير. صحيح أنه رضى الله عنه لم يلوث لسانه بقالة سوء فى سيدة كريمة لم يلحظ عليها أية ريبة، إلا أنه لم يراع مدى وقع الكلمة على نفسها، إذ كان كل همه إراحة الرسول من القلق الذى كان يعانيه، فظن أن الرسول إن نفض يده منها واقترن بغيرها فقد أراح نفسه. فبعض علماء الشيعة يحولون قصة الإفك من فضل يزين عرضها وكرامتها إلى منقصة تنال منها، إذ زعموا أن الآيات المذكورة إنما نزلت لإدانة عائشة بسبب اتهامها لمارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله فى سمعتها وسلوكها.

ولْنقرأ ما كتبه القمى فى تفسير قوله تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُوا بِٱلإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ والَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ". قال: "أما قوله: "إن الذين جاؤا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خير لكم" فإن العامة رَوَوْا أنها نزلت

في عائشة وما رُمِيَتْ به في غزوة بني المصطلق من خزاعة. وأما الخاصة فإنهم رَوَوْا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة والمنافقات. حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن فضال قال: حدثنا عبد الله بن بكير عن زرارة، قال: سمعت أبا جعفر عليهما السلام يقول: لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه حزنا شديدا، فقالت عائشة: ما الذي يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جُرَيْج. فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليّا وأمره بقتله، فذهب علي عليه السلام إليه ومعه السيف. وكان جريج القبطي في حائط، وضرب عليّ عليه السلام باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب. فلما رأى عليا عليه السلام عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعا ولم يفتح الباب. فوثب علي عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولى جريج مدبرا. فلما خشي أن يرهقه صعد في نخلة، وصعد علي عليه السلام في أثره. فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء. فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إذا بعثتني في الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى في الوبر أم أتثبت؟ قال: فقال: لا بل تتثبت. فقال: والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال ولا ما للنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذى يصرف عنا السوء أهل البيت".

وبادئ ذى بدء نلفت النظر إلى كلمتى "العامة" و"الخاصة" فى النص السابق: فالعامة هم أهل السنة، والخاصة هم المتشيعون. ومغزى إطلاقهما واضح لا يحتاج منى إلى أى شرح، فهما تتكلمان من تلقاء نفسيهما. كذلك نلفت النظر إلى وضع الكاتب لعائشة مع المنافقات فى خانة واحدة واتهامهن جميعا بنفس الجرم، ألا وهو قذف مارية فى عرضها. وثالثا لا أتصور أبدا النبى يخرج على مبدإ التثبت قبل إيقاع العقوبة بالمتهم، فلعله برىء، إذ تقول الرواية إنه عليه السلام ما إن سمع التهمة من ضَرّة فى ضَرّتها حتى بادر بإرسال علىّ لقتل جريج دون أن يكلف نفسه أن يسألها ولو عن مصدر الخبر. ورابعا كيف يأمر بقتل جريج ويترك

شريكته فى الإثم ما دام قد صدّق أن الأمر وقع كما قالت عائشة فيما نُسِب لها زورا وبهتانا ؟ ولقد كان النبى يتريث أشد التريث فى مسائل الزنا وعقوبته حتى إنه إذا أتاه شخص وأقرّ من تلقاء نفسه بمواقعة تلك الفاحشة كان يراجعه مرارا ويفتح له الباب بعد الباب لعله يرجع ويتوب ولا يعود لذلك أبدا . بل إنه كان يستحب الستر فى تلك الأمور ولا يرتاح لمن يأتيه شاهدا على أحد بالزنا قائلا له: لو سترتهما بثوبك لكان أفضل. فكيف يسارع هنا إذن إلى الأمر بتوقيع العقوبة على متهم دون أن يتثبت من التهمة المنسوبة له، بل دون أن يعطيه الفرصة للدفاع عن نفسه؟ وقبل ذلك كله هل كانت عائشة لتجرؤ على أن تنال من عرض الرسول بهذه الخفة المتناهية؟

ثم إن موقفه، صلى الله عليه وسلم، من اتهام عائشة فى عِرْضها قد اختلف عن ذلك اختلافا تاما ، فلم يسارع بعقابها رغم أن الشائعات التى تلوك سيرتها كانت تتطاير فى أرجاء المدينة. كذلك كيف نسى ملفقو القصة أن عائشة وأباها متّهمان عند رسول الله حسبما يفترون عليهما ، لعن الله كل كذاب أشر ؟ فكيف صدّق الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه البساطة امرأة يزعم الشيعة أنها منافقة بنت منافق؟ أعوذ بالله، وأستلعنه من يتقول على أم المؤمنين الأقاويل. كذلك كيف يرمى جريج نفسه من فوق النخلة دون أن تنكسر أضلاعه؟ بل كيف يفكر فى الرمى بنفسه من فوقها أصلا ويقدم على ذلك الخطر الفظيع؟ وأغرب من هذا أن تمر الرواية على حادثة السقوط من فوق النخلة دون أن تعلق بكلمة واحدة على ما حدث له من جرائه !

وقبل ذلك كله كيف يريدنا هؤلاء أن نتجاهل قصة الإفك الحقيقية التى تورط فيها حسان ومِسْطَح بن أُثَاثة وحَمْنَة بنت جحش وابن أبى سلول وغيرهم وما يتصل بذلك من قصص معروفة فى كتب الحديث والسيرة والتاريخ؟ ليس أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن عائشة لم تُتَّهَم أصلا ، ومن فالسؤال هو: من يا ترى هو صاحب قصة الإفك الأخرى التى اتُّهِمَتْ فيها عائشة؟ ليس أمامنا فى هذه الحالة إلا أن نقول إنه فريق يبجّل عائشة ويريد أن يقول إن الله برأها من فوق سبع سماوات كى يكون ذلك شرفا لها . لكن هل يعقل أن يقدم

من يبجّلون عائشة على رميها أولا فى عرضها حتى يتسنى لهم الزعم بأن السماء قد برأتها ؟ ذلك أمر لا يدخل العقل. وإما أن عائشة قد اتُهِمَتْ فعلا فى عرضها . فهل يعقل، والأمر هذا، أن يتجاهل القرآن المسألة وكأنها لم تقع فلا يتكلم عنها بوصفها موضوعا غير ذى شأن؟ ذلك أيضا أمر لا يمكن أن يتقبله العقل. كما أننا حين ننظر فى آيات سورة "النور" الخاصة بقضية الإفك نرى أن الكلام من أوله إلى آخره إنما يستخدم ضمير جماعة الذكور بما يدل على أن المتهمين هم رجال أو خليط من رجال ونساء على الأقل، لا جماعة من النساء فقط هن عائشة والمنافقات كما تزعم الرواية الآثمة. وفوق ذلك فالقرآن يشير إلى زاعمٍ رجلٍ لا إلى زاعمةٍ امرأةٍ لتلك الفرية: "والذى تَوَلَّى كِبْرَه منهم له عذابٌ أليم" . ثم لقد أرسى القرآن الحكم الشرعى فى تلك الظروف، وهو الإتيان بأربعة شهداء، فكيف تجاهل النبى هذا كله وبعث عليّا فى الحال ومعه السيف كى يقتل جريج دون توفر أربعة شهود ؟

لهذا نجد رواية أخرى لتلك القصة عند القمى فى تفسير قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمي" (الحجرات/ ٦)، إذ أضاف الكلام التالى: "فأتى به رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقال له: ما شأنك يا جريج؟ فقال: يا رسول الله، إنّ القبط يَجُبّون حشمهم ومن يدخل إلى أهاليهم، والقبطيون لا يأنسون الاّ بالقبطيين. فبعثني أبوها لأدخل اليها وأخدمها وأُونسها" . وهو كلام يدابر العقل، إذ معناه أن الرسول لم يكن يعرف كل تلك المدة لم جاء جريج مع مارية من مصر، وأن جريج كان يخدم مارية طوال الوقت ويدخل عليها ويخرج ويقضى لها مطالبها دون علم الرسول. ومعناه قبل ذلك أن القرآن يتهم رسول الله بأنه قد أقدم بجهالة على معاقبة جريج وكاد أن يصبح نادما على ما فعل لولا لطف الله الذى أراد أن يكشف حقيقة أمره وبراءته بوقوعه الدّرَامِىّ من فوق النخلة.

ثم إن الرواية تذكر أن أباها هو الذى أرسل جريج فى رفقة ابنته، مع أننا نعرف أنها لم تكن فتاة حرة، بل جارية أرسلها المقوقس لا أبوها . فهذه ثغرة خطيرة فى الرواية تحطمها تحطيما . كما أن المقوقس لم يرسل

مارية وحدها، بل أرسل سيرين أيضا، وهى التى أهداها الرسول لحسان بن ثابت، فلماذا لم نسمع أن سيرين كان يصاحبها رجل مجبوب كجريج يقوم على شؤونها ؟ كذلك هناك صعود جريج النخلة، وهو ليس حَلاً لأنه لا يستطيع أن يبقى فوقها إلى الأبد، وإن كان صعود علىٍّ كرم الله وجهه النخلة وراءه أبعث على الاستغراب والتعجب، إذ ما الداعى له، وجريج لا يمكن أن يطول مكثه هناك، بل لا بد أن ينزل، وبسرعة. على الأقل حين يقرص بطنه الجوع، أو يحتاج إلى النوم أو قضاء الحاجة. كما أن صعوده النخلة يذكّرنا بما يفعله الشرير عادةً فى الأفلام، إذ يتسلق برجا أو سطح حجرة فوق أعلى المنزل أو صارية سفينة مثلا، مع أن أقل تفكير من جانبه كفيل بأن يباعد بينه وبين اللجوء إلى هذا الحل المضحك لأنه لا يمكنه البقاء هناك إلى آخر العمر. وعادة ما تكون نهايته فى ذلك الموضع المرتفع نهاية مأساوية كما يعرف مشاهدو الأفلام والمسلسلات.

ومع هذا كله فإن إصرار القمى على تلويث صحيفة عائشة يدفعه إلى المضى فى غَيّه قائلا بأن الله إنما أراد أن يظهر براءة جريج على يد علىّ. أى أنه سبحانه قد دبّر اندفاع علىّ بالسيف يريد الإجهاز على جريج فى هوج ودون تبصر أو محاكمة بناء على تكليف رسول الله له بذلك لا لشىء إلا لكى يثبت براءة المصرى المسكين! وهو ما يعنى أن الأقدار قد جهزت عليًّا لتصحيح الخطإ الذى كاد أن يقع فيه النبى عليه السلام، أستغفر الله، وإن قال بعضهم إن الرسول كان يعرف براءة مارية منذ البداية وإنه إنما أمر عليًّا بقتله تظاهرا بذلك ليس إلا كى يوقظ ضمير عائشة حين ترى رجلا بريئًا يوشك أن يُقْتَل ظلمًا وافتراءً. أى أنهم يريدوننا أن نصدق هذا التوجيه السخيف الذى يقول إن النبى قد أقدم على ترويع جريج المسكين على هذا النحو الشنيع الذى كان يمكن أن ينتهى نهاية مأساوية فتَزْهَق روح الرجل جَرّاء سقوطه من فوق النخلة لا لشىء سوى إيقاظ ضمير عائشة، وهو ما يذكرنا بالمثل الشعبى القائل: جاء يكحّلها فأعماها! وهكذا يتخبط بعض علماء الشيعة لمجرد الرغبة الأثيمة لتشويه أخلاق عائشة ورميها بالفسق طبقا لحكم الآية، أستغفر الله. كذلك فالآيات تتحدث عن شائعات تجوب أنحاء المدينة من لسان إلى لسان، على حين أن روايتنا هذه لا

تتحدث إلا عن عائشة وحدها، وإن ذُكِرَتِ "المنافقات" على سبيل "بَرْو العتَب" كما نقول فى مصر ليس إلا، وإلا فلماذا لم تظهر فى الصورة أولئك المنافقات اللائى لا أحسب القمى وأضرابه إلا يقصدون بهن بعض زوجات رسول الله الأخريات، وبالذات حفصة كراهيةً منهم للفاروق رضى الله عنه؟

ثم ما موقع الآية التالية من الإعراب فى جملتنا هنا: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور/ ٢٢)؟ إنها، فيما نعرف جميعا، إنما نزلت لتحضّ أبا بكر على الاستمرار فى معاونة بعض أقربائه الفقراء الذين اشتركوا فى نشر الإشاعات ضد ابنته الكريمة الطاهرة العفيفة والذين أقسم فى حُمُوّ غضبه أن يتوقف عن الإنفاق عليهم. أما على رواية "الخاصّة" فكيف نفهمها؟ لقد أورد القمى فى تفسيره لها ما يلى: "في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: "ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى"، وهى قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، "والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا"، يقول: يعفو بعضكم عن بعض ويصفح، فإذا فعلتم كانت رحمة من الله لكم. يقول الله: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم"؟".

وهو تكلف بل تنطع، فإن القرآن لا ينزل بتحنين القلوب على قرابة رسول الله، وكأنهم جماعة من الشحاذين، مع أنهم لا تجوز عليهم ولا لهم الصدقات أصلا. كما أن أمر القرآن بالعفو والصفح عن آل رسول الله ليس له من معنى إلا أنهم مشاغبون مستفزون للآخرين وأن على المسلمين الإغضاء والتجاوز عن هذا الشغب والاستفزاز. ترى هل يصح مثل هذا التفسير؟ لكن المفسر الشيعى يمزق الآية كما نرى كى يسلم له ما يريد، وهيهات! وأخيرا وليس آخرا فإن الآية الأخيرة فى آيات الإفك تقول بصريح العبارة: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"، وهو ما لم يلتفت المدلسون المفترون إلى أنه ثناء على عائشة وكل زوجات الرسول، إذ تنفى الآية

الكريمة أن تكون أى من أمهات المؤمنين امرأة خبيثة، وتؤكد على العكس من ذلك أنهن طيبات طاهرات لأنهن زوجات الرسول الطيب الطاهر.

وفى تفسير قوله عز شأنه للآية الثالثة والثلاثين من سورة "الأحزاب": "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَاةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا" يقول القمى: "وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: إنما يريد الله لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهل البيت ويُطَهِّركم تطهيرًا". قال: نزلت هذه الآية في رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وذلك في بيت أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ثم ألبسهم كساء خيبريًّا، ودخل معهم فيه ثم قال: "اللهم، هؤلاء أهل بيتي الذين وعدتني فيهم ما وعدتني. اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا". نزلت هذه الآية فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: أبشري يا أم سلمة. إنك إلى خير. وقال أبو الجارود: قال زيد بن علي بن الحسين عليه السلام: إن جهالا من الناس يزعمون أنما أراد بهذه الآية أزواج النبي، وقد كذبوا وأثموا. لو عَنَى بها أزواجَ النبي لقال: "لِيُذْهِب عنكن الرجس ويطهركن تطهيرا"، ولكان الكلام مؤنثًا كما قال: "واذكرن ما يُتْلَى في بيوتكن، ولا تبرَّجْن، ولستّن كأحد من النساء". وقال علي بن ابراهيم: ثم انقطعت مخاطبة نساء النبي، وخاطب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إنما يريد الله لِيُذْهِب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا".

وتفسير الآية على هذا النحو هو استمرار لموقف الشيعة، فهم لا يريدون لأحد من بيت رسول الله أن يحظى بأى شرف أو خير إلا إذا كان من طرف فاطمة رضى الله عنها حتى إنهم لَيُدْخِلون عليًا ختن رسول الله وسبطيه فى مفهوم "أهل البيت" ويخرجون زوجاته صلى الله عليه وسلم مع أن "الأهل" بالنسبة إلى الرجل إنما يراد بهم أول ما يراد زوجه أو زوجاته كما هو الاستعمال القرآنى والنبوى. إننا نحب فاطمة وابنيها

وزوجها حُبًّا جَمًّا، بيد أننا نؤمن فى ذات الوقت أن شرف الانتساب إلى أهل البيت هو من حق زوجات الرسول أيضا، وأن هذا لا يضر فاطمة وأسرتها الصغيرة ولا يزعجهم فى شىء، وبخاصة أن أهل الرجل، كما قلنا، إنما هن زوجاته فى المقام الأول. ثم إن سياق الآيات إنما هو سياق الحديث عن نسائه صلى الله عليه وسلم، ولا ذكر فيه على الإطلاق لعلى أو فاطمة أو ابنيهما. ولهذا نرى علماء الشيعة يقولون إن الكلام عن نساء النبى قد انقطع وابتدأ كلام آخر عن فاطمة وأسرتها، ثم عاد الكلام مرة أخرى إلى النساء فى قوله سبحانه عقب ذلك: "واذكرن ما يُتْلَى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة. . ." . وهو تكلف لا معنى له أبدا وتمزيقٌ أَرْعَنُ لنسيج الآيات، وبخاصة أن الآية الكريمة لا يمكن أن تكون قد نزلت أولا دون عبارة "إنما يريد الله لِيُذْهِب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا"، وإلا كان معنى هذا أن الآية نزلت وظلت غير مكتملة وعارية عن الفاصلة فترة من الوقت، وهو غريب.

أما القول المنسوب إلى زيد بن على رضوان الله عليه بأنه لو كان المقصود زوجات النبى لقالت الآية: إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت. . ." فليس بشىء، ولا أظنه قاله، فقد أوضحنا أن "الأهل" ليسوا زوجات الرجل فقط، بل لهن فقط المقام الأول. وإذا كان علىٌّ ذاته حين سئل عن سلمان، حسبما يُرْوَى عنه، قد قال: "هو منا أهل البيت"، وفى رواية أخرى: "إنه رجل منا أهل البيت"، وفى رواية ثالثة: "ذاك أميرٌ منا أهل البيت"، مدخلا بذلك هذا الفارسى، الذى لم يكن بينه وبين الرسول أو أى أحد من أسرة الرسول صلة، ضمن "أهل البيت"، أيضيق نطاق "أهل البيت" عن أن يستوعب عائشة وحفصة وسائر زوجات النبى، وأغلبيّهن الساحقة من العرب؟ وأخيرا إلى القارئ هذا الدليل الحاسم الذى لا يمكن أى متنطع المماراة فيه، ألا وهو قوله تعالى على لسان الملائكة خِطَابًا لسارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام حين تعجبت من بشارتهم لها بأنها ستحمل وتلد رغم كبر سنها: "قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ" (هود/ ٧٣) . فها هم أولاء الملائكة يتحدثون إلى سارة زوجة إبراهيم على أنها "أهل

البيت" الإبراهيمى، أو على الأقل: فرد من أفراده. فما القول فى هذا؟ لا أظن أن هناك عاقلا ولا حتى مجنونا يمكن أن يجادل فى أن معنى الآية الكريمة هو ما قلناه!

ولقد سبق أن حذّر القرآن نساء النبى فى الآيتين السابقتين ألا يخضعن بالقول حتى لا يطمع الذين فى قلوبهم مرض وأن يلزمن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأن يُقِمْن الصلاة ويُؤْتِين الزكاة ويُطِعْن الله ورسوله تمام الطاعة. ومن قبل قال لهن سبحانه وتعالى إنه من يأت منهن بفاحشة مبينة يضاعَفْ لها العذاب ضعفين، ومن يَقْنُت منهن لله ورسوله يؤتها الله أجرها مرتين. وعلى هذا لا يمكن أن يُفْهَم قوله سبحانه عقب ذلك: "إنما يريد الله ليُذْهِب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" إلا بمعنى أن هذا الحساب المخصوص لَكُنّ عنده سبحانه وتلك الأوامر والنواهى منه إليكن إنما يراد بها إذهاب الرجس عنكن وتطهيركن تطهيرا مع سائر بيت الرسول. هذا هو وجه الكلام لغةً وعقلاً وذوقًا، أما سوى ذلك فلا.

ولو كان القرآن قد استعمل فى هذه الآية عبارة "يا نساء النبى" بدلا من "أَهْلَ البيت" لكان قد أَنَّثَ الكلام فقال: "إنما يريد الله ليُذْهِب عنكن الرِّجْس يا نساء النبى ويطّهركن تطهيرا"، لكنه إنما عنى "أهل البيت" كلهم بما فيهم النبى عليه السلام لا "نساءه" فقط، وهو ما لم يفطن له من اعترض بهذا الاعتراض. أما تعقيب الطوسى على قول عكرمة إنها "في أزواج النبي خاصة" بأن "هذا غلط، لأنه لو كانت الآية فيهن خاصة لكَنَى عنهن بكناية المؤنث كما فعل في جميع ما تقدم من الآيات نحو قوله: "وقَرْنَ في بيوتكن ولا تَبَرّجْنَ، وأطعن الله، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة"، فذكر جميع ذلك بكناية المؤنث، فكان يجب أن يقول: "إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت ويطهركن"، فلما كَنَى بكناية المذكر دل على أن النساء لا مدخل لهن فيها"، أقول: أما تعقيب الطوسى هذا فهو حجة عليه لا له، لأن استعمال ضمير جماعة المذكرين فى الآية القرآنية كان ينبغى أن يُخْرِج فاطمة هى أيضا من "أهل البيت" طبقا لكلامه، مع أن السيدة الزهراء عند الشيعة هى المحور فى كل هذا. وبالمناسبة فإخراج زوجاته صلى الله عليه وسلم من "أهل البيت" هو موقف عام عند

جميع المفسرين الشيعة الذين رجعت إليهم فى هذه الدراسة، ولست أظن إلا أنه هو موقف المفسرين الشيعة كلهم بلا استثناء.

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام من رواية أبى هريرة رضوان الله عليه: "غُفِرَ لامرأَةٍ مُومِسَةٍ مرَّتْ بِكَلْبٍ على رأسِ رَكِيٍّ يلْهَثُ كاد يقتُلُهُ العطَشُ، فنزَعَتْ خُفَّها فأَوثَقَتْهُ بخمارِها، فنزعَتْ لَهُ الماءَ، فغُفِرَ لها بذلِكَ". ذلك أن ثم سؤالا يثور فى الذهن للتو واللحظة، وهو: هل يعقل أن يغفر الله للمومس عهرها وفحشها وارتكاسها فى الخنا مع ما لا يحصى من الرجال لمجرد أنها سقت كلبا عطشان؟ إذن فدخول الجنة سهل إلى هذا الحد. وذلك من شأنه أن يجرّئ الناس على مقارفة الذنوب تحت وهم أن أى عمل صالح مهما كان ضئيلا سوف يمحو كل الخطايا والسيئات. إلا أننى سرعان ما أتنبه إلى أن الحديث لم يقل إن الله قد غفر لها كل ذنوبها، بل اكتفى بالقول بأنه سبحانه وتعالى قد غفر لها، أما مقدار الذنوب التى غفرها لها فلم يحددها الحديث. وقد تكون المرأة تابت قبل ذلك وأنابت، ولكن بقى عليها من الذنوب شىء قليل جاء سقيها الكلب فمحاه، أو قد يكون ربها قد سامحها على كل ذنوبها بهذا العمل القليل نظرا إلى وضعها البائس، إذ كانت من بيت ضال آثم لم يربها أبوها ولا أمها على العفة والطهارة، بل على العهارة والنكارة، وكان رجال المجتمع الذى تنتمى إليه يُكْرِهونها على البغاء بينما هى فى أعماقها تشمئز من ذلك، ولكن لا تستطيع أن تضعه موضع التنفيذ، أو قد يكون قلبها، رغم انغماسها فى أعمال الدعارة، مفعما بالخوف من الله والارتعاب من حسابه، وكانت حادثة الكلب العطشان فرصة انفجر فيها ذلك الخوف، أو ربما نظر الله إلى نيتها فرأى اهتمامها منصبا على سقى الكلب دون مبالاة بأن يتحدث الناس عنها وعن عملها، أو ربما كان اهتمامها بكلب أعجم لا فائدة ترجى أو تتوقع منه لها مما رجّح ما اجترحته من حسنة... إلخ. ثم لا ينبغى، قبل ذلك كله، أن ننسى فضل الله وبره بعباده ورحمته إياهم ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة صعف إلى ما شاء الله دون حساب، وأنه سبحانه قد بشرنا بأنه يغفر الذنوب جميعا. وبالمثل لا يصح أن نسقط من

حساباتنا أن الإسلام يحب أن يبقى أمر مصير الشخص فى الآخرة مترجحا بين الشك واليقين بحيث يستفز قدرات الإنسان على العمل الصالح فيبذل أقصى ما يستطيع بخلاف ما لو اطمأن تماما أو يئس يأسا لامثنوية فيه: فالاطمئنان الكامل يغرى صاحبه بالتراخى والكسل، واليأس المطلق يركس صاحبه فى الآثام ما دام مصيره قد تقرر وتيقن أنه رائح فى داهية!

وفى الروايتين التاليتين لنفس الحديث نجد فى ثانيتهما ما لا نجده فى الأولى، مما يلقى الضوء على ما كان غامضا يبعث على الحيرة: فعن عبد الله بن مسعود: "حدَّثنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم، وهو الصادقُ المصدوقُ : إنَّ أحدَكم يُجْمَعُ في بطنِ أمّه أربعينَ يومًا، ثم يكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثم يكونُ مُضغَةً مِثْلَ ذلك، ثم يَبعَثُ اللهُ إليه ملَكًا بأربعِ كلماتٍ، فيكتُبُ عملَه وأجلَه ورزقَه وشقِيٌّ أم سعيدٌ، ثم يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ. فإنَّ الرجلَ ليَعمَلُ بعملِ أهلِ النارِ حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسبِقُ عليه الكتابُ فيَعمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ، فيَدخُلُ الجنةَ. وإنَّ الرجلَ ليَعمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسبِقُ عليه الكتابُ فيَعمَلُ بعملِ أهلِ النارِ، فيَدخُلُ النارَ" . فما معنى "يسبق عليه الكتاب"؟ أليس هذا قولا بالجبر يمكن اتخاذه تكأة لاتهام الإسلام بأن أمر الحساب الأخروى فيه لا يقوم على أساس من العدل؟ لكن تعَالَوا نقرإ الحديث التالى عن سهل بن سعد الساعدى أن" الرجلَ ليَعْمَلُ عملَ أهلِ الجنةِ فيما يبدو للناسِ، وهو مِن أهلِ النارِ. وإنَّ الرجلَ ليَعْمَلُ عملَ أهلِ النارِ فيما يبدو للناسِ، وهو مِن أهلِ الجنةِ" . فعبارة "فيما يبدوللناس" تزيل الغبش، وتوضح الغامض، وتريح الضمير.

ثم يأتى الحديث الثالث التالى، وهو من رواية سهل الساعدى أيضا ليحيل كل شىء نهارا ساطعا مشرقا . يحدثنا الصحابى الجليل "أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ الْتَقَى هو والمشركونَ فاقتَتلوا، فلمّا مال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ إلى عسكرِه، ومالَ الآخرونَ إلى عسكرِهم، وفي أصحابِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ رجلٌ لا يَدَعُ لهم شاذةً ولا فاذةً إلا اتّبعها يضربها بسيفِهِ. فقالوا: ما أجزأَ مِنّا اليومَ أَحَدٌ

كما أجزأَ فلانٌ. فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: أمَا إنّهُ من أهلِ النارِ. فقال رجلٌ من القومِ: أنا صاحبُهُ. قال: فخرج معَهُ: كلما وقف وقف معَهُ، وإذا أسرعَ أسرعَ معَهُ. قال: فجُرِحَ الرجلُ جُرْحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ، فوضع نصْلَ سيفِهِ بالأرضِ، وذبابُهُ بين ثدييْهِ، ثم تحاملَ على سيفِهِ فقتلَ نفسَهُ، فخرج الرجلُ إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ فقال: أشهدُ أنكَ رسولُ اللهِ. قال: وما ذاك؟ قال: الرجلُ الذي ذكرتَ آنفًا أنّهُ من أهلِ النارِ، فأعظمَ الناسُ ذلك، فقلت: أنا لكم بهِ، فخرجتُ في طلبِهِ، ثم جُرِحَ جُرْحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ، فوضع نَصْلَ سيفِهِ في الأرضِ، وذبابُهُ بين ثدييْهِ، ثم تحامَلَ عليهِ فقتلَ نفسَهُ، فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ عندَ ذلك: إنّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنةِ فيما يبدو للناسِ، وهو من أهلِ النارِ. وإنّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ النارِ فيما يبدو للناسِ، وهو من أهلِ الجنة".

وهناك حديثٌ جدُّ عجيبٍ من أحاديث سيدنا رسول الله، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ"، وأنا أحبه وأحب أن ألفت الأصدقاء والأهل إلى العمل بما يدعو إليه، ألا وهو إخراج الصدقات. وسواء بعد ذلك أكان المعنى هو أن إخراج الصدقات للمحتاجين والمساكين والمسحوقين والمفقورين يداويهم مما هم فيه من مرض الحاجة والبؤس والتعاسة أم أن المقصود هو مداواة مريض المُعْطِى بإخراج الصدقات لمحتاجيها رغم أننا، فى هذه الحالة الثانية، لا نستطيع من الناحية العملية أن نعرف كيف تداوى الصدقة مرضانا ولا إلى أى مدى. كذلك من الممكن أن تكون مداواة الصدقة للمريض راجعة إلى أن مخرج الصدقة ترتفع معنوياته من خلال الإيمان بأنها تداوى الأمراض فعلا كما حدثنا صلى الله عليه وسلم، فتكون النتيجة أن يصير أقدرَ على مواجهة المرض. ومعروف أن ارتفاع الأمل فى الشفاء عند المريض هو أحد العوامل التى تساعد على هذا الشفاء وسرعة حصوله. وقد يكون المراد أن النفس تحتاج إلى أن نتعهدها بالعلاج حتى تبرأ مما تشعر به من الشح الطبيعى المغروز فى أعماقها، فيكون هذا مداواة لها من هذا المرض. ولنفترض أن المقصود هو مجرد الحث على التصدق على المحتاجين بانتهاز سانحة المرض

وشعورالمريض وأهله بالضعف والهشاشة فى مواجهته مما يساعدهم على تمثل مشاعر الضعف والهشاشة عند الفقراء والبائسين فى مواجهة متاعب الحياة ومصاعبها، أفلا نسارع إلى الاتصاح بما نصحنا به رسول الله واضعين فى اعتبارنا أنه كان من الممكن جدا أن نكون نحن لا هُمْ المساكينَ المحاويجَ؟ وهل نرضى فى هذه الحالة أن يتخلى الآخرون عنا ولا يتذكرونا أو يمدوا أيديهم بالخير لنا؟ وهكذا نرى أنه على أية ناحية قلبنا الحديث الشريف فلسوف نجده عجيبا غاية العجب. ثم يقول ابن العظم إن الإسلام مجرد أساطير وخرافات وحكم وعظية وأمثال سائرة!

وللحديث رواية أخرى أطول من هذه يجرى فيها على النحوالتالى: "داووا مرضاكم بالصَّدقةِ، وحصِّنوا أموالَكم بالزَّكاةِ، وأعدُّوا للبلاءِ الدُّعاءَ"، وخلاصة حكم المحدث كما جاء فى موسوعة "الحديث الشريف" بموقع "الدرر السنية" أنه، وإن كان في سَنَده مَنْ رُمِيَ بالكذب فقد عمل به جماعة من علمائنا وغيرهم. وهو حسن، ومعناه صحيح. وأنا قد أفهم الزيادة التى فى هذه الرواية على أنها تشير إلى ما يحدث فى كل الدول حين تتسع الفوارق بين الطبقات على نحو هائل، إذ عادة ما ينتهى الأمر، طال الزمن أو قصر، إلى اشتعال الأحقاد وانفجار الثورات، التى تطيح بعروش أصحاب الأموال وتصادر أموالهم لحساب الفقراء أو لحساب الدولة. وكان بمقدورهم، لو عقلوا وتصرفوا تصرفا إنسانيا وأخرجوا حقوق البائسين فيها، أن يتجنبوا هذا المصير الشنيع. وقد يصح أن نضيق من نظرتنا فلا نتحدث عن الثورات الجامحة الجائحة، بل عن انتشار اللصوصية والقتل بسبب انتشار الفقر واتساعه وشناعته فى مجتمع من المجتمعات، وكان بالمستطاع النجاة من هذا كله أو تقليصه إلى أقل حد ممكن لو أنصت الأغنياء إلى صوت الإنسانية والحكمة فلم يَنْسَوْا نصيب المستضعفين فيما أقامهم الله عليه من مال. ومن الممكن طبعا أن نفهم الحديث على نحو أو أنحاء أخرى كما فعلنا مع الأحاديث السابقة.

وفيما يخص استجابة الدعوة التى يدعو بها العبد ربه والتى وردت الإشارة إليها فى نهاية الحديث الماضى لاحظت أننا كثيرا ما ندعو الله فلا يستجاب لنا، وهو ما يستغربه الناس، وقد يظنونه مناقضا لقوله تعالى مثلا: "وقال ربكم: ادعونى، أستجبْ لكم". وكان هذا الأمر مبعث تساؤل بينى وبين نفسى، فوجدت الحل فى الحديث التالى وأشباهه فعن أبى سعيدٍ الخُدْرِىّ قال: "ما من مسلم يدعو ليس بإثم ولا بقطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها. قال: إذن نُكْثِر. قال: الله أكثر". فاستجابة الدعاء حاصلة حاصلة، إلا أنها لا تأخذ شكلا واحدا على سبيل الحتم والضرورة، بل هناك أشكال شتى ذكر الحديث منها ثلاثة. كما أن الدعاء المتجاب له شروط أورد الرسول بعضها هنا حين اشترط ألايكون فى إثم أو قطيعة رحم. وفى الحديث التالى ذكر لبعض آخر منها. فمن حديث أبى هريرة: "أيها الناسُ، إنّ اللهَ طيّبٌ لا يقبلُ إلا طيّبًا، وإنّ اللهَ أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" (المؤمنون/ ٥١)، وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" (البقرة/ ١٧٢). ثم ذكر الرجلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يمدُّ يدَيه إلى السماءِ: "يا ربِّ، يا ربِّ"، ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وملبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام. فأنَّى يُستجابُ لذلك؟".

ولا يصح أن ننسى أن استجابة الدعاء على النحو الذى يريده صاحبه قد تكون ضارة به وبمصالحه، إذ لا يستطيع، بسبب لهفته ورعونته وضيق صدره، أن يرى سوى ما تحت قدميه غير مدرك أن ما يريد من الله تحقيقه له قد يكون فيه الهلاك الوَحِىّ أو الضرر المزعج على أقل تقدير. ولا شك أن الدعاء لون من ألوان التوكل على الله، ومعلوم أن التوكل على الله عندنا فى ديننا يستلزم أن يقوم الإنسان بواجبه على قدر طاقته لا يألو أى جهد كى يكون توجهه إلى ربه بالطلب حرِيًّا أن ينال القبول. فعن أنس بن مالك: "قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، أَعقِلُها وأتوكَّلُ أو أُطلقُها وأتوكَّلُ؟ قال: اعقِلْها وتوكَّلْ"، إذ لا يصح أن أترك ناقتى دون عقال يربطها حتى

لا تنطلق فى الصحراء وتشرد بعيدا بينما أنا أصلى أو أقضى حاجتى أو أبيع وأشترى، ثم أتساءل: لماذا لم تبق فى موضعها حتى أنتهى من مباشرة أمرى؟ وقال صلى الله عليه وسلم: "لو توكلتم على اللهِ حقَّ توكُّلِه لَرَزَقكم كما تُرْزَقُ الطيرُ: تَغْدُو خِماصًا، وتَرُوحُ بِطانًا" . وهذا كلام حكيم، فالطيور لا تبقى راقدة فى أعشاشها باسطة يديها نحو السماء تبتهل إلى ربها أن يسوق رزقها إليها حيث هى دون جهد أو تعب منها كما يتصور بغباءٍ قاتمٍ كثيرٌ من المتدينين غافلين عن أن ديننا لا يمكن أبدا أن يقبل هذا السلوك أو المنطق، بل تنطلق الطيور كل صباح تاركة عشها الدافئ الآمن وصغارها الذين لا يستقلون بأنفسهم بل يحتاجون إلى رعايتها، بحثا عن دودة تلتطقها أو حبة قمح تحملها فى منقارها أو قشة حطب تحتاجها لتبنى بها عشا لها . . . وهكذا. والدعاء فى كل الأحوال جدير بأن يبث فى قلب الداعى الطمأنينة والشعور بأن له ربا ينظر إليه ويعطف عليه ويرحمه ويمد يده ليخرجه من ظلمات الحيرة والقلق إلى نور الراحة واليقين والمودة، بدلا من الشعور البارد بالوحدة المظلمة التى تكظ النفس باليأس والقنوط، وتجعل الحياة باهظة العبء لا تطاق ولا تحتمل.

ونعود بعد هذه التطوافة إلى ما كنا فيه من الحديث عن مسيرتى الفكرية فأقول إنه بالنسبة للسفر إلى خارج الديار بعد عودتى من البعثة الأكسفوردية فقد سافرتُ إلى جامبيا فى صيف ١٩٨٦م بفضل زميل وصديق قديم كنا ندرس معا فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية قبل أن أتركها بعد ثلاثة أيام لا غير، وهو الأستاذ فتحى عثمان، الذى كنا نلقبه: "فوستوك" تندرا على ما كنا نظنه حذلقة فيه، لكنه كان طيب القلب عملى النزعة جادا يعرف حقيقة الحياة أفضل منا لاضطراره إلى العمل المبكر لكسب رزقه رغم أننا لم نكن أفضل منه ماديا، إلا أننا لم يكتب لنا العمل مثله فى الإجازات الصيفية ونحن صبيان. لقد أهديته عن طريق صديقنا المشترك أ. صلاح أبو النجا، الذى كان يراه كلما أتى إلى القاهرة من المغرب حيث كان يعمل فى منظمة الإيسيسكو (منظمة الدول الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) كتابى: "مصدر القرآن"، فوجدت بعد قليل رسالة تنتظرنى عقب عودتى من زورة من زوراتى للقرية مع أولادى كانت موجودة تحت عقب باب الشقة فى حدائق القبة، وفيها يعرض أ. فتحى عثمان، إذا كانت بى رغبة، أن أسافر إلى شمال غرب أفريقيا أو الباكستان مشتركا فى دورة لتقوية مدرسى اللغة العربية والدين الإسلامى ومفتشيهما، فوافقت على الفور لحبى للسفر والرحلات، قائلا: أهلا وسهلا بالعرض حتى لو لم آخذ فلوسا فى المقابل. وآثرتُ جامبيا على الباكستان، التى كان منتظرا أن أشترك فى مؤتمر الإعجاز العلمى للقرآن والسنة فيها بعد قليل، إذ كانت الهيئة المشرفة على المؤتمر قد اختارت، ضمن البحوث المقبولة من مئات البحوث المقدمة إليها، بحثى عن "موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم"، وكانت تذكرة السفر والإقامة هناك على حساب المؤتمر. إلا أننى، لدن عودتى من القرية يوم الخميس السابق على يوم السبت يوم السفر إلى جامبيا، نحيت جانبا المرور بالكلية وقتئذ، مستبعدا أن يكون هناك ما يستحق أن أمر بها من أجله، وبخاصة أننى كنت مرهقا بعد أن عُجْنَا على طنطا ودرنا فيها لبعض الوقت واشترينا من السوق بعض الأغراض. وكانت غلطة سخيفة، إذ كان هناك خطاب من مؤتمر الباكستان قد وصلنى على الكلية ذلك اليوم ذاته لم أعلم به إلا بعد مرجعى بعد شهر من

جامبيا تطلب منى فيه إدارة المؤتمر أن أرسل إليهم ملخص البحث بالإنجليزية كى يتسنى لهم إرسال تذكرة السفر. وكانوا قد ضربوا لذلك ميعادا أقصى انتهى أثناء وجودى فى جامبيا . وبذلك ضاعت علىَّ فرصة السفر إلى الباكستان، فأسفت لهذا أشد الأسف، إذ كانت فرصة طيبة لى للاطلاع على الأوضاع فى بلد إسلامى مهم فى آسيا كما اطلعت على الأوضاع فى بلد إسلامى فى أفريقيا على المحيط الأطلسى فى حضن السنغال. وقد كتبت أكثر من مائة وستين صفحة عن الرحلة الجامبية وما شاهدته وخبرته هناك من أحوال الناس والمناخ والطبيعة والطيور والغابة والعادات والتقاليد وما إلى ذلك، وللأسف لم تتح لى فرصة نشر تلك الرحلة حتى الآن. وأرجو ألا أموت قبل نشرها . آمين.

ومن طرائف جامبيا أن البُوم والفَرَاش هناك كبير ضخم، حتى إن البومة تساوى بومتين أو بومة ونصفا من بُومنا، وحتى إن الفراشة لَتَضْعُف فراشاتنا عدة مرات، كما أن الإمساك بها أسهل من الإمساك بالفراشة المصرية، وألوانها أنصع وأجمل. وكنت كلما مررت بالأولاد فى قرية من القرى التى كنت أتجول فيها أيام الإجازات مع أحمد الشاب الغينى الذى تعرفت إليه هناك، وكانت عربيته ممتازة، أجدهم يشيرون إلىَّ فى استغراب كأنى هبطت عليهم من الفضاء الخارجى قائلين: تُوبَابْ (بتفخيم الباء)، أى أبيض. وكنت أضحك ملء أشداقى وأقول لأحمد: إذا كنت أنا "تُوبَابًا"، فماذا هم قائلون فى الأوربيين؟ ورأيت ذات مرة صبيا فى نحو الثانية عشرة ومعه ولد صغير عمره حوالى سبع سنين ميميين ناحية المحيط الأطلسى بينما كنت راجعا أنا من هناك قبيل الغروب، فبدا لى أن أداعبهما، فقلت للصبى: هل يمكن أن تبيعنى هذا الولد ؟ فرد فورا، وبكل جدية: هذا الولد ليس ملكا لى (I am not the owner!) . فضحكت كما لم أضحك من قبل. كذلك أذكر من وقائع تلك الرحلة أن موظفى الفندق الصغير اتصلوا بى فى غرفتى ليلة من الليالى طالبين منى أن أنزل لأقابل سيدة جامبية تنتظرنى فى بهو الفندق وتريد أن ترانى. فنزلت، وإذا بها تصارحنى بأنها معجبة بى. لماذا يا ستى، كفى الله الشر؟ فتقول: لأننى أراك دائما من أمام منزلى وأنت فى طريقك إلى

المسجد . الله أكبر ! هذه أول مرة أسمع أن امرأة تعشق رجلا لأنها تراه ذاهبا إلى المسجد . إذن فهذا هو العشق الشرعى على نفس نمط الشورت الشرعى الذى يتحدث عنه السلفيون وأشباههم ! لكن يا ستى، أنا متزوج، وزوجتى تنتظر عودتى فى مصر . وماذا فى أن تتزوجنى إلى جانب امرأتك التى فى مصر ؟ إن القرآن قد أحل للرجل أربع زوجات. يا ستى، الله لا يسوؤك، أنا عاجز عن التعامل مع زوجة واحدة، فأنّى لى بالنجاح مع أربع ؟ لا تخف، سوف تنجح. لكن زوجتى سوف تقتلنى إذا تزوجت عليها . أبدا لن تقتلك. كيف تعرفين ؟ إنها امرأتى أنا لا امرأَتُكِ، وأنا أعرف طباعها النارية، وسوف تكون نهايتى مهببة بهباب أسود لو أصختُ إلى مقترحك. ثم من أين آتى بالمهر فى تلك البلاد، وأنا لا أملك فيها شيئًا ؟ لا تشغل بالك بالمهر، فقد ذكر القرآن أنه يكفى أن يدفع الرجل لزوجته ربع دَلَسِى (والدلسى هو الجنيه الجامبى) . وهل فى القرآن ذكر لعملتكم المحلية أيضا ؟ نعم طبعا . بالله عليكم أيها القراء، ماذا أقول لهذه المرأة؟ أرجو أن تدركونى وتنقذونى من طوفان حججها الغريبة هذه.

وأخيرا فقد يهمكم أن تعرفوا أننى قضيت، مُذْ غادرتُ القاهرة فى طائرة شركة آليطاليا حتى بلغت جامبيا ، يوما كاملا مررت فيه بروما ، التى مكثتُ فى مطارها سبع ساعات التهمت فيها الإسباجتى اللذيذة مع اللحم والمقبلات والحلويات بكميات كبيرة أكرمنى بها الطباخ الإيطالى فى مطار ليوناردو دافنشى بحب ومودة، وصليت ونمت وقرأت فى كتاب معى عن رحلات أحد المستكشفين الإنجليز الأوائل فى أواسط أفريقيا ، ثم هبطت الطائرة فى مطار محمد الخامس بالمغرب، ثم فى مطار أكرا عاصمة السنغال، ثم مطار جامبيا ، الذى ذكّرنى بموقف سيارت الأجرة فى بلدنا أيام كان موجودا عند المقابر، والذى ترك كبير موظفيه أمور إدارته لدن عودتى عندما تأخرت الطائرة يوما كاملا تقريبا ، وأخذ يلعب الطاولة ويحدث هو وخصمه صخبا عاليا وطرقعات مصمة بقشاطات اللعب، مما ذكرنى بقهوة عمى إبراهيم قنديل فى موقف السيارات

فى القرية، ولم يبق إلا أن أرى أبو الغَشَم وحَسَن سمنة والشيخة عزيزة وبقية الوجوه الأليفة التى كنا نراها فى قديما هناك.

وقد قابلت فى بانجول عاصمة جامبيا، التى تقع فى حضن السنغال على شاطئ الأطلسى، الشيخ حامولى مبعوث الأزهر فى تلك البلاد، إذ فوجئت أول يوم فى المدرسة التى كان علينا أن نلقى بها محاضراتنا على المدرسين والمفتشين الجامبيين المذكورين آنفا برجل مصرى يدخل علىَّ ويعرفنى بنفسه. وبعد أخذ ورد لبعض الوقت تبين لى أنه يعرفنى على السماع، إذ كان يعرف الشيخ الشوادفى الملاح أحد أبناء قريتنا من جيلى، فهما زميلان يُدَرِّسان بمعهد طنطا الأزهرى، وكان الشيخ الشوادفى يحدثه عن قرية كتامة ومن خرجتهم من رجال العلم والأدب، ومنهم العبد لله، بغض النظر أيستحق العبد لله أن يُدْرَج بين العلماء والأدباء أم لا، فدهشت من ترتيبات القضاء الإلهى، الذى يجعل رجلا مصريا فى آخر الدنيا يعرف العبد لله رغم أنه لم يكن قد سبق له أن رآه أو سمعه. يا لغرابة الأقدار! وكانت فرحة الشيخ الحامولى بالعبد لله لما يحمله من عطر مصر لمتغرب مثله فى آخر بلاد المسلمين طاغية حتى إنه حين حان رجوعى لمصر كان حزينا جدا. والطريف أنه قد سمى ابنته التى كان زوجته حاملا بها آنئذ على اسم بنتى: يمنى. وكان يدعونى على الطعام فى بيته بين الحين والحين، وبخاصة يوم عيد الأضحى، الذى حل ونحن هناك، ويكرمنى إكراما بالغا. بارك الله له فى أولاده وصحته وماله وأم عياله. كما عرفت هناك الشيخ سعيد زميل الشيخ حامولى، الذى يختلف عنه أشد الاختلاف فى الشخصية والطباع، وكان يسكن فى قرية قريبة من العاصمة لا فى العاصمة ذاتها. وقد دعانى مرة إلى بيته وقدم لى بناء على رغبتى خبزا بيتيا وفولا مدمسا وجبنا قريشا وما إلى ذلك. وكان يقطن بيتا يؤجره "من بابه" له حديقة بنى فيها فرنا مصريا أعدَّ لنا فيه "الخبز المرقرق" كما نسميه فى قريتنا. وأرجو أن أكون قد أدخلت على هذين الرجلين السرور بمجيئى من مصر مضمَّخا برائحتها العبقة لا لفضل

فىَّ، بل الفضل كل الفضل فى أنى مقبل من مصر. وكنت أداعب الأطفال فى البيتين المصريين، وأشعر بالسعادة حين ألاعبهم وأنفحهم بعض الألطاف كما هو حالى مع أى طفل أجده بالبيت الذى أزوره.

ولإعجابى بذكاء أحمد الغينى وبراعته فى اللغة العربية واستطاعته التحدث بالفصحى بسهولة كبيرة رغم أنه لم يزر أى بلد عربى فقد أرسلت له بعض الكتب الخاصة بتعلم لسان الضاد على عنوانه فى بانجول بعد عودتى إلى أرض الوطن حسبما وعدته. ثم علمت أنه حصل على منحة دراسية من المملكة العربية السعودية، لتنقطع أخباره تماما عنى بعد هذا. وأرجو من الله أن يكون صديقى الظريف الذكى قد بلغ ما تؤهله له مواهبه، فهو يستحق الكثير لجده ولوذعيته وظرفه وأدبه وكفاحه. لقد كان يبيع فى سوق بانجول لوازم النساء من أدوات تجميل وما إلى ذلك. وقد أعجبنى هذا منه، وعلمت أن البلاد الأفريقية فى تلك المنطقة منفتحة بعضها على بعض بحيث تجد فى جامبيا كثيرا من الأفارقة المنتمين إلى الدول الأخرى لا يجدون فى دخولها ولا فى الإقامة فيها أية صعوبة، بل ينتقلون من بلد إلى بلد وكأنهم إنما ينتقلون من مدينة إلى أخرى داخل بلادهم. ولا شك أن هذه سياسة موفقة، ويا ليت جميع الدول العربية تفعل ذلك، وبخاصة أن روابطنا نحن العرب فيما بيننا أقوى من روابط الأفارقة، كما أننا كنا إلى عهد قريب دولة واحدة، فجاء الاستعمار فمزقنا شر ممزق. وكان يمكن أن تكون عقابيل هذا التمزيق أقل سوءا مما هى الآن لو لم تعش كل دولة تقريبا فى انعزالية تامة عن سائر الدول العربية بحيث تقوم الحدود الجغرافية فى وجه العرب الآخرين حاجزا صلبا لا يُخْتَرَق، فلا يستطيع العربى فى كثير من الأحيان الدخول إلى أية دولة عربية أخرى إلا بتأشيرة وتفتيش وتوجس، وكأنه لها عدو مبين.

ولنكتف الآن بالكلام عن جامبيا ونعود إلى مصر والجامعة وطلابنا فيها. وأنا أحب أن يناقشنى الطلاب دائما ولا يكتفوا بالسماع، وإلا صارت المحاضرة أثقل من الجبل على قلبى وطغى علىَّ الضيق والملل. وهناك فى هذا الباب طرائف مضحكة، وبخاصة أننى أحب مداعبة طلابى والتهكم على أى وضع سخيف لا

منطق فيه. ومما دار بينى وبين طلابى فى الجامعة من نقاش ما وقع ذات محاضرة فى الثمانينات حيث أخذنَا الكلام إلى الجنة والنار، فقلت لهم إننى كلما أردت تحميس ابنى الصغير إلى تأدية عمل طيب (وكان أيامها تلميذا فى أول المرحلة الابتدائية) أقول له إن الله سوف يعطيك فى الجنة شيكولاتة، فما كان منهم إلا أن قالوا فى نفس واحد كأنى قد كفرت بالذى خلقنى من تراب فسوانى فعدلنى فجعلنى دكتورا، وإن لم يحسن صورتى كثيرا: إن ذلك لم يرد فى القرآن! فضحكت وأردت أن أغيظهم وأثير فضولهم فأكدت أن ذلك الأمر موجود فى كتاب الله. إلا أنهم أصروا على موقفهم وإنكارهم مستغربين أن يكون القرآن قد ذكر الشيكولاتة بين أطعمة الجنة وهم لا يعلمون رغم حفظهم له عن ظهر قلب. فعدت أقول لهم وأنا أبتسم: إن ذلك موجود فى سورة "الزخرف". فمضوا فى الحَرْد قائلين: هذا لا يمكن أن يكون. قلت لهم وقد شعرت أن الأمر قد بلغ إناه، ومن ثم لا بد أن أوضح لهم خطأ موقفهم: ألم تقرأوا قوله تعالى: "فيها ما تشتهيه الأنفس، وتَلَذُّ الأعين"؟ فابنى تشتهى نفسه الشكولاتة، وعينه تلتذ برؤيتَها. فما المشكلة فى ذلك؟ أم ترون أن الجنة لن يكون فيها إلا الثريد وهُبَر اللحم؟ إن كل إنسان ممن كتب الله لهم دخول الجنة سوف يحظى بكل ما يشتهيه من طعام وشراب وصداقات وحب وغير ذلك من اللذائذ والسعادات، أم ترى الجنة إنما صُنِعَتْ على مزاج عرب القرن السابع الميلادى وحدهم وعلى قدر عقولكم الضيقة الحرجة؟ فسكتوا مغيظين لأنى استطعت الهروب من ثقوب الشبكة التى ظنوا أنها من الضيق بحيث لا تسمح لمثلى بالنجاة. فالحمد لله على الإفلات من هذا المأزق.

ثم حدث منذ سنتين أن أخبرنى أحد أصدقائى بأن صديقا صحفيا شابا قد أتاه فى حالة نفسية يرثى لها: نعم يرثى لها بكل معانى الكلمة، فقد كان يحب امرأة حبا جامحا جائحا قد ملك عليه كل حياته، إلا أن أهله رفضوا زواجه منها لأنها تكبره بعدة سنوات، فضلا عن أنها أرملة، ولها طفلان. وسر تعاسته التى كان عليها يوم جاء صديقى منذ عامين هو أنها تزوجت من جديد وتركته يعانى غصص الحب ولم تحترم

وعدها له بألاتتزوج سواه. وقد فكر فى الذهاب إلى بيت زوجها ليواجهها بخيانتها، وليكن ما يكون. وحاول صديقى أن يهدئه موضحا له أن الأمر لا علاقة له بالخيانة، وأنها على العكس قد تصرفت التصرف الصحيح الوحيد نظرا للظروف التى أحاطت بهما والتى تمنعهما من الزواج، ودعا الله أن يخفف عنه ما يحسه من حرقات وآلام مبرحة، فانتهز فرصة الدعاء والتمس منه أن يطلب من الله أن يدفع زوجها إلى تطليقها حتى ترجع إليه. لم يعنفه صديقى، بل أفهمه بهدوء أن هذا دعاء لا يصح لأن الرجل قد تزوجها على سنة الله ورسوله، علاوة على أنه هو لن يستطيع الزواج بها حتى لو كانت بلا زوج: فأهله يرفضون ذلك، وهو لا يملك شقة يعيشان فيها، بل إنه لا يستطيع تأجير واحدة، فمرتبه رغم أنه يمكن أن يكفيهما نظريا لا يمكنه واقعيا ذلك "لأنك يا صديقى طَفِسٌ، وهمك على بطنك: تريد أن تأكل طول النهار والليل كبدة ولحما، ولا تقدر أن تعيش على الفول والفلافل كما أفعل أنا مثلا" . . . إلى آخر ما يمكن أن يقال فى مثل ذلك الموقف.

ثم قال له: إن الله قادر على أن يعوضك عن حرمانك منها فى الدنيا بأن يجمع بينكما فى الجنة. فقال متحمسا: كيف؟ قال: بأن يجعل لكل منكما، أنت والزوج، نسخة منها. فقال فى ألم العشاق واندفاعهم وأنانيتهم: لا أريد أن يشاركنى فيها أحد. قال: إنه زوجها. ومع هذا أتصور أن من الممكن ألا يشعر أو يدور بخَلَده بتاتا أن هناك من يملك منها نسخة أخرى، بل يتصور أنها له خالصة. وكان منطلق صديقى فى هذا التصور أن المرأة الواحدة كثيرا ما تتزوج أكثر من رجل، وكلهم يحبها، وكلهم يرغب أن تكون زوجته فى الجنة (هذا طبعا إذا راح رائحة الجنة! وليقابلنى إذا ورد على جنة!)، فما العمل؟ فقال له الصحفى الشاب: وهل مرت هذه المسألة من قبل فى عهد النبى؟ قال له ضاحكا، لكنه كان يقصد مع هذا كل كلمة نطق بها: فى عهد النبى لم يكن هناك، يا صديقى، صحفى أرعن مثلك ومندفع أنانى، بل كان الصحابة كلهم عاقلين حكماء. وما زال به يعالج همه ويضاحكه ويخفف عنه ويفسح له فى طاقات الأمل والرجاء كلما تقابلا حتى هدأت مشاعره وطاب قلبه، وانتسخت آلامه. وهو الآن يشكر الله أن أتاح صديقى له ليقف إلى جانبه حتى

عبر المحنة بدلا من أن يندفع فى سَوْرَة حماقة من حماقاته فيتسبب فى فضيحة له ولحبيبته ولأهليهما جميعا . هذا ما قاله لى صديقى العزيز الذى لا يكاد يفارقنى فى حل أو ترحال، وبينى وبينكم لا بد لى من الإقرار بأننى لا أستطيع أن أحل هذه المشكلة المعقدة بالبساطة التى حلها بها صديقى وصديق الصحفى الشاب الولهان. كان الله فى عون المحبين العاشقين !

كذلك فبعض الطلاب يقصّرون سراويلهم على نحو لافت للنظر . وأسأل، وأنا أعرف الجواب، عن سبب هذا التقصير الغريب، فيقولون: سُنّة عن رسول الله . فأسألهم: وهل كان النبى يلبس سراويل أصلا ، فضلا عن أن تكون سراويل قصيرة كهذه؟ فيرد بعضهم: إن من السنة تقصير الإزار، والسراويل إزار . فلا أجد ما أجيب به على هذا الذكاء الخارق. ثم أرى بين أبناء جيراننا شبانا يرتدون جلبابا قصيرا . وقبل أن يقولوا إنهم يطبقون سنة رسول الله ألفت نظرهم إلى أنهم يلبسون تحت الجلباب سراويل طويلة، وأحيانا ما تكون سراويل منامة، قائلا لهم: إذا كان تقصير الثياب سنة، فلم تلبسون تحتها بيجاما طويلة الساقين؟ ولا أسمع عادة جوابا . ثم أسألهم: وهل تظنون أن هذا التقصير الغريب المخالف للذوق العام فى الملابس يرضاه الرسول؟ كيف لا تفهمون أن المقصود بالتقصير هو النهى عن جر الإزار لما كان يعنيه هذا التصرف من خيلاء وكبر وبطر ولما يترتب عليه من اتساخ ذيل الثوب؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ جَرَّ ثوبه خُيَلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة" . وقال عليه الصلاة والسلام: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر"، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة. قال عليه السلام: "إن الله جميل يحب الجمال. الكِبْر بَطَر الحق وغَمْط الناس" . ثم لا ينبغى أن ننسى أن تطويل الإزار يمكن أن يؤدى إلى نتائج لا تخطر على البال، كالذى وقع لجبلة بن الأيهم، وكان من سلالة ملوك بنى غسان، إذ لما أسلم وخرج يحج وطئ رجل من بنى فزارة إزاره المسبل على الأرض فحله، فلطم جبلةُ الرجلَ الفزاريَّ فهشم أنفه، فأراد عمر رضى

الله عنه أن يأخذ للفزارى بحقه بأن يمكنه من لطم جبلة كما لطمه، إلا أن ابن الأيهم استكبر وهرب من البلاد ولحق بقيصر الروم، الذى أكرم نزله، فتنصر جبلة عنده ومات مرتدا .

وقد لاحظت أن عددا غير قليل من المسلمات المتدينات الآن يحرصن على المغالاة فى تطويل الثياب، فتكون النتيجة أن تنجر على الأرض وتتسخ اتساخا مزعجا دون داع. بل إننى ألاحظ فى الأزياء الشائعة هذه الأيام بين النساء وجود رفارف تتدلى أو ترفرف يمينا ويسارا مما يمكن أن يعرضهن لمشاكل هن فى غنى عنها، إذ قد تعلق هذه الرفارف فى مسمار مثلا أو يغلق عليها باب المصعد، بل قد تنشب فى خطاف سيارة نقل مارة إلى جانبهن فتجرهن إلى حتفهن، كالذى قرأته مرة من أن أحد الشبان كان راكبا دراجته البخارية، وكان يلبس سويترا مفتوحا يرفرف فى الهواء، وجاءت من الخلف سيارة مرت بجواره وعَلِقَ طرف السويتر بخطاف من خطاطيفها، فجرته السيارة وأوقعته من فوق الموتوسيكل ومات تحت عجلاتها . ومن هنا فكلما شاهدت امرأة تركب وراء زوجها وترفرف ملابسها فى الهواء أخشى عليها من مثل هذه المصائب، وأدعو الله أن يحميها، وهى ولا هى هنا . فنحن فى مصر بلد العجائب حيث لا يفكر الناس فى العواقب أبدا . وما دمنا فى سياق الحديث عن الخطاطيف والمسامير وما يمكن أن يترتب عليها من مصائب فهناك حديث للرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "مرَّ رجلٌ في المسجدِ ومعَه سهامٌ، فقال له رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم: أمسِكْ بنِصالِها" خوفا من أن تصيب نصالها أحدا من الناس فى ملابسه أو فى جسده. وفى حديث آخر نسمعه صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مرَّ أحدُكم في مسجدِنا أو في سوقِنا، ومعه نَبلٌ، فَلْيُمْسِكْ على نِصالِها بكفِّه أن يصيبَ أحدًا من المسلمين منها بشيءٍ. أو قال: لِيَقْبِضْ على نِصالِها". والملاحظ أن كثيرا منا لا يلتفت إلى هذه الاعتبارات فتقع الكوارث التى كان من الممكن جدا بشىء من الوعى واليقظة تداركها، كوضع المقشة مثلا بحيث تكون يدها ناتئة فى الهواء لا مستريحة على الجدار، مما يمكن فى حالة الظلام أو عدم التنبه إليها أن يصيب طَرَفُها عينَ أحدنا .

إن المسألة ليست مجرد تحكم فى الأزياء، بل إن وراءها لحكمة لا بد أن نتنبه إليها، وإلا كنا ممن يخرون على النصوص عميا وبكما وصما دون فهم ودون تفكير وتدبر. ولنفترض أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أمر بذلك لمجرد الأمر، فهل ما يصلح للعرب فى جزيرتهم الحارة يصلح مثلا لأهل الجزر البريطانية حين يصيرون مسلمين، ونرجو أن يكون قريبا، وبلادهم شديدة البرودة؟ ودعونا من الإسكيمو، الذين لو جَرَوْا بعد إسلامهم، ونرجو أن يكون قريبا أيضا، على هذه الطريقة فى اللُّبس شتاءً لتجمدت سيقانهم؟ ترى أين ذُهِبَ بعقول هؤلاء الذين يظنون أنهم إنما يطبقون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا النحو العجيب؟ والغريب أن كثيرا من هؤلاء لا يقرأون عادة ولا يمسكون بكتاب ولا يُضْبَطون متلبسين بالتفكير. أليس طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟ أليسوا مسلمين؟ فلم لا يهتمون بالقراءة والكتاب، والقراءة واجبة، بينما يهتمون كل هذا الاهتمام بنافلة من النوافل، إن كانت أصلا نافلة أو لها أية علاقة بالدين إلا بالمعنى الذى شرحته، وأرجو ألا أكون مخطئا؟ لقد لاحظت فى الفترة الأخيرة بوجه عام أن الطلبة، إذا حدثتهم عن النظافة والنظام والجمال والذوق والاهتمام بالعمل والإتقان والتردد على المكتبة وتحصيل العلم والحرص على الإبداع وتشغيل العقل، تلك الهبة الإلهية التى لا تقدر بثمن والتى لا يفطن المسلمون بوجه عام إلى أهميتها فى الفترة الحالية من تاريخهم، لا يبدون أى اهتمام أومبالاة، بخلاف ما لو لمست مثلا موضع النقاب بالنسبة للنساء، أو اللحية أو تقصير الثياب بالنسبة للرجال، أو الاستماع إلى الأغانى، فإنهم حينئذ ينطقون مبدين تحمسهم للنقاب واللحية وتقصير الثوب وتحريم الأغانى رغم أن معظمهم إن لم يكونوا كلهم يستمعون إليها، وتجدهم على استعداد لإنفاق كل ما لديهم من وقت فى التدليل على ما يقولون، ويرددون الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى يظنون أنها تنصر فهمهم. وعبثا أحاول أن أنبههم إلى أن الأمم إنما تتقدم بالعلم والإتقان والإبداع والنظام والذوق الجميل، ولكن على من ترتل مزاميرك يا داود؟ ألم يسمعوا الرسول عليه الصلاة والسلام وهو

يقول: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى هاهنا (ويشير إلى صدره)؟ أم تراه قال: ولكن ينظر إلى لحاكم وذقونكم؟

فمثلا كنت أحاضر طلاب الدراسات العليا فى إحدى كليات الجامعة منذ أيام، وجاءت سيرة الاعتقاد فى عَيْن الحسود، فانبرى طالب ذاكرا قوله تعالى فى الآية الحادية والخمسين من سورة "القلم": "وإنْ يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقونك بأبصارهم لما سمعوا الذِّكْر، ويقولون إنه لمجنون"، فحكيت لهم تجربتى مع تفسير هذه الآية حين قرر سورتها علينا د. شكرى عياد فى السنة الأولى بآداب القاهرة فى مادة التفسير فى العام الجامعى ٦- ١٩٦٧م، وكيف أننى، حين قرأت ما قاله بعض المفسرين القدماء عنها باعتباره إشارة إلى القدرة على الإصابة بالعين، لم أقتنع، بل نظرت إليها على أنها تعبير مجازى عن مدى الكراهية التى كان المشركون يكنونها لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما نقول مثلا فى تعبيراتنا اليومية إن عين فلان تصدر شَرَرًا، والمقصود أنه غاضب حاقد على علان أو ترتان، ولا يعنى أبدا أن عينيه تصدران شررا تحرقانه به. ومثله قولنا عمن ينظر بِوَلَهٍ إلى فتاة جميلة إنه سوف يأكلها بعينيه. ولا أكل ولا يحزنون، بل هو مجاز. كما ورد فى حديث للنبى عليه الصلاة والسلام قوله: "نظرُ المؤمنِ إلى محاسنِ المرأةِ سَهمٌ من سِهامِ إبليسَ مسمومٌ"، ونحن كثيرا ما ننظر إلى النساء فلا نرى سهاما ولا رماحا، بل المقصود تصوير الأمر تصويرا بيانيا يجسد أمام أعيننا المعنى المراد، وهو ما يترتب على كثرة التطلع إلى النساء والاشتغال بأجسادهن من أخطار نفسية وخلقية واجتماعية. ولو كان الأمر أمر حسد بالمعنى الذى يفهمونه من حيث الإصابة بالعين لكان أولى بالمشركين أن يحسدوه ويَعِينُوه صلى الله عليه وسلم بسبب اختيار خديجة إياه زوجا لها دون رجال قريش جميعا رغم أن كبار القوم وأغنياءهم حاولوا خطبتها بعد ترملها، فردَّتهم ولم ترض واحدا منهم، وسعت هى بنفسها إلى لفت نظر هذا الفتى الفقير عن طريق الوسيطات واتخاذها زوجا لها. فكان ينبغى، إذا فكروا فى حسده وإزلاقه

بعيونهم المؤذية الشريرة، أن يحسدوه على زواجه بخديجة الغنية الأرستقراطية التى رفضتهم جميعا من قبل. أليس هذا هو ما يقوله المنطق والعقل؟

ثم قلت لهم: المعروف أن الحاسد إنما يحسد الآخرين على ما هم فيه من نعمة. وهذا يقتضى أن ينظر الحاسد إلى ما فيه الآخرون على أنه نعمة تستحق الحسد لأنه محروم منها. فهل كان الكفار يحسدون النبى على ما أسنده الله إليه من مسؤولية الرسالة والدعوة؟ لقد كانوا يكفرون بما يدعوهم إليه ويسخرون منه ويتهمونه، كما تقول الآية، بالجنون. فأين الحسد إذن؟ وكيف نقول إنهم كانوا يريدون إصابته بالعين حقدا منه على ما يتمتع به دونهم من جنون؟ ثم إن الآية على كل حال تقول إنهم يكادون أن يُزْلِقوه بأبصارهم لا إنهم أزلقوه فعلا، بما يدل على أن عيونهم لم تؤثر فيه، فأين العين هنا؟ كما أنه عليه السلام لم يقع له يوما أن تعثر فى مشيه، فضلا عن أن يكون هذا التعثر، أو الانزلاق كما تقول الآية، سببه عيون الكفار. فكيف يفهم فاهم من الآية أنها تتحدث عن العين وما كان الكفار يصيبون به الرسول بأبصارهم؟ بل إن اليهود أنفسهم، وكانوا يحسدون النبى وقومه على النبوة لأنهم يعرفون قدرها وأبعادها، لم يَعِينُوا النبى بل تمثل حسدهم له فى حقدهم عليه وجحودهم لدعوته، وهذا كل ما هنالك. وهذا التفسير ورد فى حديث نبوى شريف: "كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا، إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: "وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تَبَيَّنَ لهم الحقُّ". قال ابن عباس: من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا، ولكن الحسد حملهم على الجحود".

وبعد أن كتبت ما سبق بأكثر من أسبوعين بدا لى أن أنظر فى كتاب "تلخيص البيان فى مجازات القرآن" للشريف الرضى، فألفيته يقول فى الآية المذكورة إن العبارة المشار إليها "استعارة. والمراد بالإزلاق هاهنا إزلال القدم حتى لا يستقر على الأرض. وذلك خارج على طريقة للعرب معروفة. يقول القائل منهم:

نظر إليّ فلان نظرا يكاد يصرعنى به. وذلك لا يكون إلا نظر المقت والإبغاض، وعند النزاع والخصام. وقال الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا فى موقف   نظرا يزيل مواقف الأقدام

وقد أنكر بعض العلماء أن يكون المراد بقوله تعالى: "لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ" الإصابة بالعين، لأن هذا من نظر السخط والعداوة، وذلك من نظر الاستحسان والمحبّة" . فحمدت الله على توافق رأيى فى هذه النقطة مع رأى مثل ذلك العالم الأديب. ونفس الشيء وجدته فى "تفسير كتاب الله العزيز" للهوارى الإباضى، إذ قال: "قال عز وجل: "وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ" أي: لينفذونك "بِأَبْصَارِهِمْ" لشدة نظرهم عداوة وبغضاً "لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ"، أي القرآن، بُغضًا له، "وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ" . يعنون محمدًا عليه السلام" .

هذا مجمل ما قلته لطلابى محاولا أن نجد طريقا لنا من خلال الآية، مضيفا أننى، وأنا صغير، كنت أسمع عن أحد جيراننا بالقرية أنه حساد، أى أن عينيه قادرتان على إيقاع الضرر بمن أو بما ينظر إليه، لكننى لا أستطيع أن أتذكر ولو حادثة واحدة تثبت هذا الذى كان يقال عن الرجل. كذلك لو كان ما يقال عن عين الرجل وأذاها صحيحا لما بقيت بقرة ولا جاموسة ولا جمل ولا حمار فى الشارع على الأقل حيا، لأنهم كانوا يتهمونه بحسد البهائم. ولو افترضنا، مجرد افتراض جدلى، أن حيوانا فى الشارع تصادف موته عند أو عقب نظرة ذلك الرجل إليه فهناك ملايين المرات التى نظر فيها ذلك الرجل إلى هذا الجمل أو تلك الجاموسة أو تيك النعجة أو ذلك الجمل ولم يحدث أى ضرر. فلم الإمساك بتلك المرة وإهمال المرات الملايين الأخرى؟ ثم لا تَنْسَوْا، يا أبنائى، أن هذا الاعتقاد ليس له من معنى إلا اختفاء التفوق من على وجه البسيطة. هكذا قلت لهم، شارحا. ذلك بأنه ما من إنسان متفوق فى شىء إلا وهناك من يحسده على ما يتمتع به من تفوق. فإذا كانت العين تضر بالمعنى الذى تفهمونه فالنتيجة الحتمية أن صاحب النعمة لا بد أن تضره العيون المصوبة إليه طوال الوقت تحسده على ما هو فيه، وتنزل به الأمراض أو الموت أو خراب الديار حتما مقضيا، لأنه لو أفلت

من عينٍ عائنٍ فلن يفلت من عيون سائر العائنين، وما أكثرهم، وبخاصة فى البلاد التى لا ينصرف الناس فيها إلى العمل بل يضيعون وقتهم كله فى الحقد على الآخرين والاجتهاد فى تعويقهم وإيذائهم. أليس كذلك؟

وظننت أن كلامى ومنطقى سوف يفعلان فعلهما ويدفعانهم على الأقل إلى التروى والتفكير فيما أقدّمه من وجهة نظر. إلا أنهم لم يعيروا ما قلته لهم أى انتباه، بل كانوا يرددون أن الحسد مذكور فى القرآن، وهو ما لم أنفه، إذ الحسد فعلا آفة بشرية لا يخلو منها مجتمع، ولا يمكن عاقلا أن ينكره حتى لو لم يتعرض له القرآن بالذكر. لكن المشكلة فى فهم الطريقة التى يعبر بها الحاسد عن حسده: هل هى النظر الحاقد بالعين فيصاب المنظر إليه فى جسده أو عقله أو نفسه أو ماله أو أولاده أو بيته، أو طعامه إذا كان يأكل حين نظر إليه الحاسد فيتسمم الطعام وينقله أهله إلى المستشفى ليدركه الأطباء قبل أن يموت؟ ثم أضحك فأقول: لكن ماذا لو أن جرعة الحقد فى نظر الحاسد إلى الطعام كانت أضخم وأكثر فعالية؟ هل يترتب عليها أن الأطباء لن يستطيعوا معالجة المتسمم، وأنه سوف يموت لا محالة؟ إن تأثير الحسد فيما أفهم يتمثل فى تشويه الحاسد صورة المحسود واتهامه بما هو منه براء أو الكيد له عند رؤسائه أو الوقيعة بينه وبين أحبائه وأصدقائه أو وضع العراقيل فى طريقه أو التآمر عليه للزج به فى السجن أو شكايته عند المسؤولين بأنه يريد بالدولة شرا أو حرمانه من حقه فى ترقية مثلا أو الطعن فى عرضه أو الادعاء على زوجته بأنها تخونه... وهكذا مما من شأنه أن يحول حياته إلى جحيم لا يطاق. فهذا هو الشر الذى أفهم أن يجترحه الحاسد فى حق المحسود. أما أن يقال إن الله سبحانه وتعالى قد أقام كونه على نظرة تؤذى وكلمة توقف أذى هذه النظرة، فهذا ما لا أفهمه أبدا. وأرجو أن يغفر الله لى سواء كنت على صواب أو كنت مخطئا، فنحن فى حاجة ماسة إلى غفرانه سبحانه وتعالى.

ولقد تعرضت عائشة إلى محنة عاتية بل إلى أعتى المحن فى حياتها حين انفجرت حادثة الإفك، إذ اتهمت فى عرضها وهى مَنْ هى؟ إذ هى ابنة الصديق وزوجة خاتم الأنبياء والمرسلين وأحبهم إليه وأحظاهم

عنده بالمودة والإعزاز، فماذا كان تعليق أمها على تلك الواقعة الكريهة التى لا يمكن أن يقع لامرأة عربية شىء أبشع وأبغض إلى القلب منها ؟ لقد بلغ عائشة أن الناس كانوا يخوضون فى سيرتها فسألت أمها: "يا أمتاه، ماذا يَتَحَدَّثُ الناسُ؟ قالت: يا بُنَيَّةُ، هوِّني عليك، فواللهِ لقلَّما كانت امرأةٌ قطُّ وَضِيئَةً عندَ رجلٍ يُحِبُّها، لها ضرائرُ، إلا أكْثَرْنَ عليها. قالت: فقُلْتُ: سبحان الله، أوقد تحدَّثَ الناسُ بهذا؟". وهذا كل ما قالته الأم وردت به عليها الابنة، فلا كلام عن العين ولا يحزنون. ولو كان هناك إيمان بالعين لقالت أم رومان لابنتها: "يا حبيبة قلب أمك يا أختى، يا حبة عينى، لقد حسدتك ضرائرك، قلع الله عيونهن"، ولردت عليها عائشة بأن عيون ضرائها التى تندب فيها رصاصة قد حسدتها، فكان ما كان من انتشار الشائعات التى تهدم الأعراض وتدمر البيوت وتقضى على السعادات والمسرات. لكن شيئًا من ذلك لم يكن.

وخذ هذه عندك أيضا أيها القارئ الكريم الذى أحبه وأحب له أن يقف عند ما أقول مفكرا فيه دون أن يخر عليه عَمًى وصممًا وبَكَمًا من غير أن يفكر فيه ويُعْمِل حاسته النقدية فيقبله أو يرفضه بعد أن يكون قد قلّبه فى عقله ومحّصه وأعطاه الوقت لينضج ويصل فيه إلى ما يرتاح إليه صدره بعيدا عن أى تاثير خارجى ما دام قد قرأ كل وجهات النظر وراجع النصوص ونظر فيما كتبه العبد لله بهدوء وتجرد وسكينة: فقد روى أحد المسلمين قائلا: "قلتُ لابنِ عباسٍ: أرأيتَ هذا الرَّمَل بالبيتِ ثلاثةَ أطوافٍ، ومَشْي أربعةِ أطوافٍ؟ أسُنَّةٌ هو؟ فإنَّ قومك يزعمون أنه سُنَّةٌ. قال: فقال: صدَقوا، وكذبوا. قال: قلتُ: ما قولُك: صدقوا وكذبوا؟ قال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَدِم مكةَ، فقال المشركون: إنَّ محمدًا وأصحابَه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيتِ من الهزلِ. وكانوا يحسدونَه. قال: فأمرهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يَرمُلوا ثلاثًا، ويمشوا أربعًا. قال: قلتُ له: أخبِرْني عن الطوافِ بين الصفا والمروةِ راكبًا، أسُنَّةٌ هو؟ فإنَّ قومك يزعمون أنه سُنَّةٌ. قال: صدَقوا وكذَبوا. قال: قلتُ: وما قولُك: صدَقوا وكذَبوا؟ قال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثُرَ عليه الناسُ، يقولون: هذا محمدٌ. هذا محمدٌ. حتى خرج العواتقُ من البيوتِ. قال: وكان رسولُ اللهِ صلَّى

اللهُ عليهِ وسلّمَ لا يضربُ الناسَ بين يديْهِ. فلما كثُرَ عليه ركِبَ، والمشيُ والسعيُ أفضلُ. وفي روايةٍ: نحوه. غيرَ أن قال: وكان أهلُ مكةَ قوم حسدٍ. ولم يقل: يحسدونَه".

والآن ها هو ذا ابن عباس يقول إن أهل مكة كانوا قوم حسد. وهنا سيسارع الكثيرون قائلين: وماذا تريد بعد ذلك من دليل يا عم إبراهيم؟ ولكن هل قلت لكم إنى أنكر الحسد؟ لقد قلت إن الحسد موجود لا يمكن المشاحة فيه، إلا أننى أختلف مع معظم الناس بشأن معناه وأثره. ولنعد إلى ابن عباس، فماذا قال؟ قال إن أهل مكة، بما أنهم أهل حسد، قد اتهموا الرسول والمسلمين بأنهم ضعاف مهازيل لا يقدرون على المشى، فمن ثم رَمَلَ الرسول ليريهم أنه ليس ضعيفا أبدا، وأنه لا يقدر على المشى فقط بل على الجرى أيضا. ثم جرى وأراهم من نفسه ومن نفوس المسلمين قوة. أليس هذا ما يقوله الحديث؟ أفلو كان أهل مكة يَعِينون كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى: "وإن يكاد الين كفروا ليزلقونك بأبصارهم..." أكانوا يقولون عن المسلمين إنهم ضعاف مهازيل؟ لقد كان ينبغى أن يقولوا: الله يخرب بيتهم. إنهم لا يتأثرون بشىء مما نفعله لهم، بل يزدادون قوة على قوتهم. وعندئذ يخر المسلمون صرعى لا يستطيعون أن ينهضوا، فضلا عن أن يمشوا، فضلا عن أن يجروا، ولكان رد فعل الرسول لِحَسَدِهم أن يأمر المسلمين بأن يتظاهروا بالضعف والتهافت حتى لا تصيبهم عيون المشركين الحسادة أكثر مما أصابتهم. هذا ما يقوله العقل والمطق، لكنْ أنا أعرف ماذا سيرد به علىّ معظم الناس، ألا هو: لكن الحسد مذكور فى القرآن. وعندئذ سأخرس فلا أتكلم لأنه من الواضح أن الكلام واستخدام المنطق صار لا يجدى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد!

وإليك، قارئى العزيز، هذا الحديث كذلك، فقد روى معاذ بن جبل "أن نبي الله صلى الله عليه وسلم جلس في بيت من بيوت أزواجه، وعائشة عنده، فدخل عليه نفر من اليهود فقالوا: السام (أى الهلاك والموت) عليك يا محمد. قال: وعليكم. فجلسوا فتحدثوا، وقد فهمت عائشة تحيتهم التي حَيَّوْا بها النبي صلى الله عليه وسلم، فاستجمعت غضبا وتصبرت، فلم تملك غيظها، فقالت: بل عليكم السام وغضب الله ولعنته.

بهذا تحيون نبي الله صلى الله عليه وسلم؟ ثم خرجوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما حَمَلَكِ على ما قلتِ؟ قالت: أولم تسمع كيف حَيَّوْكَ يا رسول الله؟ والله ما ملكت نفسي حين سمعت تحيتهم إياك! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا جَرَمَ كيف رأيتِ رددتُ عليهم. إن اليهود قوم سئموا دينهم، وهم قوم حُسَّد، ولم يحسدوا المسلمين على أفضل من ثلاث: رد السلام، وإقامة الصفوف، وقولهم خلف إمامهم في المكتوبة: آمين". فها هو ذا سيدنا رسول الله يقول إن اليهود قوم حسادون، إلا أن الحديث لم يتركنا فى عماية من أمرنا، بل وضح لنا أن حسدهم قد تجسد فى التحية الإجرامية التى حَيَّوْه بها صلى الله عليه وسلم. ولو كان الحسد على ما يفهمه العامة وأشباههم لكان اليهود قد نصبوا فى عيونهم صواريخ سام٣ وأطلقوها على المسلمين رشقة واحدة فخَرَّ هؤلاء على بكرة ابيهم يفرفرون كالدجاجة المذبوحة. لكنهم لم يفعلوا شيئًا من هذا، بل لجأوا إلى التآمر والتطاول والبذاءات، وهو ما يجرى مع فهمى للحسد وأفاعيله.

وفى ذات الاتجاه يجرى الحديث التالى، إذ يذكر أبو أيوب الأنصارى أنه بعد انتصار المسلمين المدوى فى بدر وقع فى يد المسلمين أسرى كثر من مقاتلى المشركين، "فقتلنا وأسرنا، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ما أرى أن تكون لك أسرى، فإنما نحن داعون مؤلفون. فقلنا، معشرَ الأنصار: إنما يحمل عمرَ على ما قال حسدٌ لنا. فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ، فقال: ادعوا لي عمر. فدُعِيَ له، فقال: إن الله عز وجل قد أنزل عليَّ: ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض. تريدون عَرَضَ الدنيا، والله يريد الآخرة. والله عزيز حكيم". وفى هذا الحديث أن الأنصار كانت تظن أن عمر إنما أشار على الرسول بقتل الأسرى حسدا منه لهم لأنهم اختاروا الإبقاء على الأسرى لمفاداتهم فيما بعد بالمال، فى الوقت الذى رأى عمر قتل هؤلاء الأسرى لتخليص المسلمين من شرهم فلا يعودوا لمقاتلتهم مرة أخرى. أى أن الأنصار، وهم مسلمون من الطراز الأول، يرمون عمر بن الخطاب بالحسد. لكن الحسد، كما هو واضح، ليس أن يَعِينَهم عمرُ بعينه الضارة، بل معناه أنه لا يريد أن يأخذ الرسول بالرأى الذى كان عليه باقى المسلمين،

ومنهم الأنصار. ثم، وهذا هو المهم، لقد نزل القرآن بما يوافق رأى عمر المتهم من قِبَل الأنصار بالحسد. فما رأى قرائى الأفاضل؟

ثم هذا الحديث الذى رواه أبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفى: "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقدم عليه وفد بني تميم، عليهم قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن الأهتم: ما تقول في الزبرقان بن بدر؟ فقال: يا رسول الله، مطاع في أنديته، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر مما وصفني به، ولكنه حسدني. فقال عمرو: والله يا رسول الله، إنه لَزَمِنُ المروءة، ضيق العَطَن، لئيم الخال، أحمق الولد. والله يا رسول الله ما كذبت أولا، ولقد صدقت آخرا، ولكني رَضِيتُ فقلت أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما (أى حكمة)". فها هو ذا الزبرقان بن بدر، وهو صحابى كما نرى، يفهم الحسد، الذى اتهم به عمر بن الأهتم، على أنه إظهاره بمظهر القليل المناقب، مع أن الرجل لم يقصر فى مدحه، وهو ما دعاه فى المرة الثانية التى تصدى فيها لوصفه بتشويه صورته تماما، مبررا ذلك بأن كل شخص فيه وفيه، وأن العبرة بالحالة النفسية التى يكون عليها الواصف: فإن كان راضيا أورد صادقا فضائل الموصوف، وإن كان ساخطا عليه أورد صادقا أيضا رذائله. والمهم أن الزبرقان لم يشتك من ضرر أوقعته به نظرات عين ابن الأهتم القاتلة.

وهناك حديث ضعيف سأورده رغم ضعفه لأنه يتمشى مع ما جاء فى القرآن الكريم عن ابنى آدم حين قرب كل منهما قربانا تقبل الله أحدهما ورفض قربان الآخر، فما كان منه إلا أن قتل أخاه الذى تُقُبِّل قربانه. ذلك أن قتله لأخيه إنما كان بسبب حسده إياه لرضا الله عنه دونه. يقول الحديث الضعيف: "إِيَّاكُم والكِبْرَ، فإنَّ إبليسَ حَمَلَهُ الكِبْرُ على أن لا يَسْجُدَ لآدمَ. وإِيَّاكُم والحِرْصَ، فإنَّ آدمَ حَمَلَهُ الحِرْصُ على أن أكل من الشجرةِ. وإِيَّاكُم والحَسَدَ، فإنَّ ابْنَيْ آدمَ إنما قَتَلَ أحدُهما صاحبَه حَسَدًا، فهو أَصْلُ كلِّ خطيئةٍ". أأستمر

فى هذا الموضوع أم أكتفى بما سبق، وهو كافٍ جدا ؟ ومع هذا كله فإنى أقترح أن يَنْهَدَ عدد من العلماء من مختلف التخصصات التى لها صلة بالحسد لدراسة هذا الموضوع حتى يشفوا صدورنا بالنتائج العلمية التى يتوصلون إليها ويتقربوا إلى الله بما يفعلون، فهو سبحانه العليم والخبير، ويريد منا أن نكون علماء خبراء. "ولله المثل الأعلى فى السماوات والأرض".

وهذا هو نفسه ما يقوله الشيخ محمد عبده فى كتابه: "تفسير سورة عم" لدن تفسير قوله تعالى فى سورة"الفلق": "قل أعوذ برب الفلق * . . . * ومن شر حاسد إذا حسد". ونص كلامه فى هذا الشأن هو: "الحاسد الذى يتمنى زوال نعمة محسوده، ولا يرضى أن تتجدد له نعمة. وهو، إذا حسد، أى أنفذ حسده وحققه بالسعى والجد فى إزالة نعمة من يحسده، من أشد خلق الله أذى، ومن أخفاهم حيلة، وأدقهم وسيلة. وليس فى طاقة محسوده إرضاؤه بوجه ولا فى استطاعته الوقوف على ما يدبره من المكايد، فلا ملجأ منه إلا إلى الله وحده، فهو القادر على كف أذاه، وإحباط سعيه. وقانا الله شر الحاسدين، وكف عنا كيد الكائدين. والله أعلم". فكما يرى القارئ ليس فى كلام الرجل أى شىء عن العين والعائن والمَعِين (المَعْيُون)، بل الكلام عن الأساليب الطبيعية فى محاولة الحاسد الإضرار بالمحسود عن طريق التآمر والكيد والتسلل فى نعومة كنعومة الحيات والثعابين ليضرب ضربته القاتلة فى خفاء كخفاء الشياطين.

ثم تذكرت المونولوج الذى يغنّيه إسماعيل يس عن أصحاب العيون المؤذية وحملته عليهم لما ينزلونه بالناس حولهم من ضرر لا يقاوم كانفجار النجفة الجديدة الغالية التى فى الصالون بمجرد أن يبدى العائن إعجابه بها أو موت معزة جدته أو مرضه هو وتطوحه وفقدانه الاتزان عقب قيام صديقه الحَسَّاد بإطراء صحته وأحواله المادية. . . إلى آخر ما يقوله المونولوجست صاحب الفم الكبير، الذى لا أدرى لماذا لم يمرض وتتكسر رجلاه وتشتعل سيارته وينهدم بيته ويحترق مسرحه من كثرة ما صُوِّبَ إليه من نظرات حاقدة بسبب نجاحه فى فنه واستيلائه على القلوب أفلاما ومسرحيات ومونولوجات، أو على الأقل: بسبب كِبَر فمه الذى

لا يدانيه فى الاتساع فم آخر فى الدنيا والذى يستحق أن يدخل به بكل جدارة موسوعة جينيس، فضلا عن ابنه ياسين، الذى كان متفوقا فى دراسته حتى لقد دخل معنا كلية السياسة والاقتصاد سنة ١٩٦٦م حسبما قرأت فى كشوف الطلاب أوانذاك، وإن كان قد تركها إلى معهد السينما بالقاهرة كما تركتها أنا أيضا إلى كلية الآداب، ثم تُوُفِّىَ عام ٢٠٠٨م بسبب السرطان، رحمه الله. وهذا نص المونولوج:

يا اللِّى تَمَلِّى تحسدْ غِيرَكْ، بَطَّلْ قَرّ

سَمِّى وْصَلِّى دى عْنِيكْ مُوشْ هَتْجِيبْها البَرّ

* * *

مَرَّة حَسُودِى

شَكْلُه قْرُودِى

شافْنى قالْ لى: إشّ امَّالْ!

نعمة عظيمه

وقِيمَة وسِيمَهْ

وعِزّ وْشُهْرَة وْمَالْ وجِمَالْ

عَنْها وارَوَّح

كده باْتَطَوَّح

زَىّ الفرخة الدايخة تمامْ

عينه الصافية

ما خَلِّتْ عافيهْ

ورُوشِتّاتْ ما اعرفش بْكَامْ

و لا جَهْ قال لى: بَسّ اشْ حالَكْ؟ بِعْدِ الشرّ!
يا اللِّى تَمَلّى تحسدْ غيرك، بَطّلْ قَرّ
* * *
واحد غِيرُهْ
كَتّرْ خِيرُهْ
جانى بسرعة يْطُلّ عَلَيّا
شافْ نجفْتنا
قالْ لى: دى فتنه
ده احْنا ولا فْ عِزّ الضُهْرِيّه
تَمِّ الجملهْ
راحت عامله:
"بِي". يعنى ما لحقتْش تْبَاتْ
عينه الصافيه
راحت طافيه
النور، واتحرقوا اللّمْباتْ
قلت له: خلى عندك ذُوقْ ولاّ امشى انْجَرّ
يا اللى تملى تحسد غيرك، بطل قرّ
* * *
واللى هاوِسْنِى

وهَيِفِرْسِنِى

واحد غيرهم لُهْ كراماتْ

رِمْشُه صْغَيّرْ

ِنّه يْطَيّرْ

بيتْ بدورين وتلات عمارات

معزةْ ماما

هَبَدْها كرامهْ

طَقّتْ ماتت فى دقيقتينْ

عينه الصافْيَه

تجيب الكافْيَه

و لا مدفعْ رشّاشْ برُوحِينْ

ولا بِيْجَلِّى. كل حياته يا شَرّ اشْتَرّ

يا اللى تملى تحسد غيرك، بَطّلْ قَرّ

وأنا، كلما تذكرت هذا المونولوج الذى نظمه المرحوم ابن الليل أو سمعته، تعجبت غاية التعجب من حملة مؤلفه ومغنيه على العائن، إذ ما ذنبه، وهو قد خُلِقَ هكذا؟ اللهم إلا إذا كان المونولوج يتهكم بمن يعتقدون فى مثل تلك الأمور أو يشنع على الحقود الذى لا يهدأ ولا يرتاح إلا إذا أفسد على صاحب النعمة نعمته، لكن بطريقة كاريكاتورية مجازية لا حقيقية. ولكن هل الأمر كذلك؟ وحتى لو كان هذا هو هدف الزجال والمونولوجست فهل سوف تفهم الناس أن هذا هو هدفهما فعلا؟ أحسب أن الناس سوف تتصور أن الفنانَين، على العكس، إنما يؤكدان هذا الاعتقاد ويعملان على تثبيته فى العقول والنفوس.

وعلى نفس الشاكلة ينبغى ألا تكون هناك امرأة جميلة أنيقة إلا ويتم تشويهها جراء الحسد الذى لا بد أن تحسدها إياه كل امرأة قبيحة، وما أكثرهن والحمد لله، الذى لا يحمد على قبح سواه. ثم ألا يقع الحسد من العميان رغم أنهم لا ينظرون إلى أحد لعدم وجود عيون لهم أصلا ؟ فما القول فى حالتهم؟ لكن لقد نسيت يا عم إبراهيم أن هناك، إلى جانب العين، ما يسميه العامة بـ"القَرّ" و"النَق" و"النَبْر"، وهو كلامٌ بالفم لا نظرٌ بالعين. أى أن حياتنا كلها ملغمة بالعيون والأفواه، ولا مفر من ثم من الإصابة. فالحسد يشبه صواريخ سام٣ فى أنه لا يمكنك أن تهرب منه مثلما كانت الطائرات الإسرائيلية تعجز عن تجنب هذا الضرب من الصواريخ، وينتهى أمرها دائما إلى السقوط.

وأحيانا ما أقول ساخرا: إن الحسد هو سبب تخلفنا، وهو دليل قاهر على أنه موجود بالمعنى الذى يعتقد فيه كثير من الناس فى مجتمعاتنا. كيف؟ إننا ما دمنا أمةٌ حسّادة قرارة نقّاقة نبّارة ليس لنا من شغلة ولا مشغلة طوال النهار والليل إلا تصويب العيون والأفواه إلى ما يتمتع به الآخرون من نعم فإن النتيجة الحتمية هى أن يحسد بعضنا بعضا، وبالتالى فكلنا مصابون مضرورن، وتكون النتيجة العامة هى الحرمان من النعم بسبب العين والقر والنق والنبر. وهل التخلف إلا الحرمان من النعم: نِعَم الغنى والنظافة والعلم والإبداع والنظام وراحة البال؟ فكيف بالله عليكم يمكن أن نتقدم ونتحضر، وصواريخ سام٣ شغالة لا تكل ولا تمل؟

لكنى أعود فأقول: وعلى أى شىء نُحْسَد، ونحن متخلفون وحياتنا كلها مضطربة ولا شىء تقريبا سليم فيها، والفقر والقذارة والمرض هو كلمة السر فى واقعنا؟ ثم أعود فأقول: وهل أنت فى مجتمع يفكر أفراده بمنطقية وعقلانية؟ ترى لو أننا نعيش فى مجتمع منطقى عاقل أكان بائع الروبابيكيا الجائع المريض البائس ذو الأسمال البالية الذى يدفع أمامه عربة محطمة قذرة لا تحتوى إلا على أتفه الأشياء يكتب على عربته: "يا ناس يا شَرّ، كفاية قر"؟ على رأى المثل: قالوا للقرد: سوف نسخطك. قال: كيف تسخطوننى وأنا مسخوطٌ خِلْقَةً؟ وهناك ناحية فى الاعتقاد بالعين لا أدرى كيف يمكن العقل هضمها، ألا وهى أن العين

فى هذا الميدان لا تعرف التخصص فى الأذى، فهى تمرض الشخص وتكسر رجله وتهدم بيته وتحطم سيارته وتفشله فى الامتحان وتبغضه فى زوجته التى كان يعشقها ويطير بها طيرانا وتصيبه بفيروس الكبد الوبائى وتطلق المرأة من زوجها وتموّت الشحط الفحل الذى لو أطلقت عليه مفعا رشاشا ما أثر فيه. . . إلخ إن كان لذلك من آخر. بل إنها بالنسبة للمرض وحده لا تعرف أيضا أى تخصص، فهى تصيب بالسرطان والعمى والحمى والنسيان والبرص والخناق وبقية الأمراض التى تعرفها البشرية والتى تعرفها وسوف بمشيئة الله تعرفها ما دامت الدنيا لا تخلو من صواريخ سام٣. إن الله سبحانه قد أقام دنياه على التخصص، إلا أن العين تشذ عن هذه السنة الكونية، وهو ما يضاعف الهم والغم، إذ لا ندرى كيف نحمى أنفسنا أمام هذا الطوفان الذى لا ينتهى من الأضرار والآذاء كالإنسان الذى تنهال عليه السهام من كل جانب.

ومشكلة أخرى لا تقل عن هذه تعقيدا، وهى أن هذا الاعتقاد يوقع العداوة والبغضاء بين الناس والجيران والأقارب. ولتوضيح ما أريد قوله أذكر أن نجفة قد انفجرت مصابيحها ذات مرة فى بيت أحد معارفى قبيل وصولى، فوجدتهم قد اجتمعوا وكأنهم مجلس حرب، وأخذوا يضربون أخماسا لأسداس لمعرفة من يا ترى آخر واحد نظر إلى النجفة فأصابها بعينه التى تستحق الخرم حتى لا يَدَعُوه يدخل بيتهم مرة أخرى، وبعد عدة مداولات صاح أحدهم: وجدتها، وجدتها. فقالوا: من؟ قال إن آخر شخص زارنا هى فلانة أمس، وقد لاحظتُ أنها نظرت مرة إلى النجفة، فليس إلا هى. فعندئذ هدأت النفوس، واستقرت الآراء على أنه لا ينبغى تركها تدخل الشقة ثانية حتى لو انطبقت السماء على الأرض. وعبثا حاولت أن أقنعهم بسخف فهمهم وتعليلهم للأمر، قائلا لهم: هل تظنون أن نظرة الست الطيبة الكريمة تلك ظلت منذ أمس تدور فى أرجاء الغرفة لا تستطيع أن تصل إلى النجفة إلا قبيل مجيئى إليكم بلحظات؟ ثم ألم تزركم هذه السيدة قبل ذلك عشرات المرات ولم يحدث شىء لا للنجفة ولا للتلفاز ولا للأطفال، فكيف نسيتم هذا كله ولم تتنبهوا إلا لهذه المصادفة التى لا تعنى شيئًا؟ ثم أية نجفة هذه التى تتهمونها بأن عينها الحسادة هى التى فجرتها، وأنتم

تعلمون أن لديها بدل نجفتكم الرخيصة هذه نجفا كثيرا غاليا؟ ألم تجد إلا نجفتكم هذه؟ يا ناس، أين ذُهِبَ بعقولكم؟ لكن طبعا كنت كمن يؤذن فى مالطة. ثم أضفت قائلا: ومن أدراكم أنها هى وليست شخصا آخر زاركم قبلها أو ذكر نجفتكم من بعيد فظلت نظرته أو كلمته تدور حول نفسها لا تستطيع أن تشق طريقها نحو الهدف المبتغَى إلا الآن؟ وواضح أن مثل ذلك الاعتقاد يوقع الكراهية وسوء الظن بين الناس، ويجعل كل إنسان متربصا بالآخر متهما له ولمشاعره.

وقد ذكرنى هذا بدكتور يُعَدّ بمثابة تلميذ لى كنت عنده فى الدوحة ذات صباح، وجاءت ابنته الوحيدة الصغرى تجلس معنا، وكنت أستلطفها وأحب أن أدخل على قلبها البهجة بالألطاف التى يحبها الأطفال، وبمداعبتها والثناء عليها. فجريًا على عادتى قلت لأبيها أُسْمِعُها كى تفرح: "من أين أتيتم بهذه البنت الحلوة؟"، ظنا منى أن ذلك سوف يسعده، إلا أننى فوجئت به ينتفض ويبسط كفه فى وجهى وهو يقول: "ما هذا يا دكتور؟ قل: أعوذ برب الفلق". فنزلتْ علىَّ جرادل الماء المثلج التى فى الدنيا كلها، وأردت أن أتداخل فى نفسى حتى لا تقع علىّ عين. لقد صرت فى لحظةٍ حَسّادًا نقّاقًا قرّارًا نبّارًا. وخشيت أن تصاب البنت بالمصادفة بأى شىء فى ذلك اليوم، أو ذلك الأسبوع، أو ذلك الشهر، أو ذلك العام، أو ذلك القرن، أو ذلك الدهر، فتُنسَب إصابتها إلى تأثير عينى، التى تستحق أن يندبّ فيها رصاصة. أعوذ بالله منك يا عم إبراهيم يا حقودى!

كما ذكرنى بما كان الإنجليز رجالا ونساء يقولونه حين يَرَوْنَنا فى أكسفورد ندفع بنتنا التى كانت ترضع فى تلك الأيام، وصارت الآن أستاذة مساعدة بالجامعة، إذ كانوا يوقفوننا، فى الشارع أو فى المحلات التى نرتادها لشراء ما نحتاجه من حاجيات الحياة، ملتمسين منا أن يلقوا نظرة على البنت وهم يصيحون فى إعجاب (بالإنجليزية طبعا، خذوا بالكم!): يا للعينين الجميلتين! يا للرموش الطويلة! (Look! Beautiful eyes! Long eye-lashes). ولو لم أكن قد شكمتُ زوجتى وشرحتُ لها

منذ بداية تعارفنا قبل أن نسافر إلى بلاد الإنجليز بسنوات أن مثل تلك الاعتقادات لا أساس لها من الصحة ولا من الإعراب أو التصريف لأخذتِ البنتَ وعَدَتْ فى شوارع أكسفورد هربا من كلام الإنجليز وأعينهم، وكأنْ قد أصابها مس أو خالطها رعب كرعب بطل المقامة المضيرية، الذى كان الناس يجرون وراءه وهم يصرخون: يا أبا الفتح، المَضِيرَة! فلا يزداد إلا جريا وهربا. المهم أن بنتى حتى الآن لم يصبها بحمد الله شىء لا فى رموشها ولا فى عيونها. اللهم إلا إذا قال متنطع: ومن أدراك أنها لن تصاب؟ فأردّ أنا عليه: لكن يا أخى، لقد نَقّ الإنجليز وقَرُّوا عليها منذ عشرات السنين. فيرد فى تنطع أشد: وإِنْ! ولسوف نرى. ثم إنه لن يخيّب ظنّه تنطعُه حين يلحظ أنها أصبحت ترتدى نظارة بعدما كانت تبصر رقم الحافلة اللندنية من بعيد جدا وهى طفلة صغيرة، فيقول: وهل بعد النظارة من دليل على أن العين والنَّقّ والقَرّ حق؟ فلا أجد أنا العبد الفقير من مفرٍّ أمام هذا المنطق القاهر الجبار إلا أن أقول له: بارك الله فى عقلك الترللى يا أخى! نسيت أن أقول إننى وزوجتى كنا نسعد عند سماع ذلك الإطراء الجميل، ونشعر فى أعماقنا بالشكر لله على أَنْ مَنَحَنا بنتا جميلة، على الأقل: فى عيون الإنجليز! ولم نفكر قط فى أن هذا الإطراء يمكن أن يصيب البنت بشىء!

ويتعرض د. جواد على فى الفصل الرابع والثمانين من الجزء الثالث من كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب" لبعض الاعتقادات الجاهلية المرتبطة بهذا الأمر فيتحدث عن "التمائم" قائلا إنها "عُوذَة على هيئة قلادة من سيور تضم خرزا، وقد تكون من خرزة واحدة تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين، فاذا كبر الطفل انتزعت التميمة منه. وقيل: التمائم خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم، فأبطله الإسلام". ثم يضيف أنهم كانوا يعتقدون انها تمام الدواء والشفاء، وأنه قد أشير اليها في الشعر الجاهلي، وعدها بعض الصحابة من الشرك، لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت وأرادوا دفع ذلك بها، وطلبوا دفع الذفى من غير الله.

كما تكلم عن العين فقال: "كان للجاهليين رأي وعقيدة في العين وفي أثرها في الحياة، فهم يعتقدون بأثر العين وإصابتها . ولخطر هذه الإصابة وأهميتها تفننوا في ابتداع وسائل الوقاية منها، وحماية أنفسهم من أثرها . وقد زعموا أن عيون بعض الناس تصيب، وانها إن أصابت شيئًا أهلكته، فان العين لا تنتج الا شرا، وهي لا تكاد تكون في خير مطلقا . ولذلك تجنبوا "العائن" وابتعدوا عنه. و"العائن" و "المعيان" و "العَيُون" هو مَنْ تصيب عيونه. فكان أحدهم اذا ما اتصل بإنسان، وصادف أن نظر ذلك الإنسان إلى شيء أعجبه، أو رأى شيئًا لفت نظره، ثم صادف أن وقع مكروه لمن نظر اليه أو إلى ما كان قد رآه "العائن" نُسِب ذلك المكروه اليه، ورُمِيَ باصبة العين". ومما قاله أيضا فى هذا الصدد إن الإصابة بالعين "لا تقتصر على اصابة عيون الإنسان، فقد تصيب عيون الحيوان كذلك" ف"هناك حيوانات عديدة لها قدرة على الاصابة بعينيها مثل الحيات والثعلب والطاووس". و"يعبر عن العين التي تصيب المَعِين ب"النفس". يقال: نفستُه بنفس، أي أصبتُه بعين، وأصابت فلانا نفس، أي عين. . . وما أنفسه، أي ما أشد عينه. . . وللحاسد نفس على المحسود، وقد يصل نفس الحاسد إلى حد الإهلاك. والعائن ربما لا يتعمد الأذى، إنما عينه هي التي تصيب بمجرد المقابلة أو وقوع النظرة على الشيء، ولذلك كان أذاه عند المقابلة ووقوع عين العائن على المعيون. أما الحاسد فإنه يصيب في النية وفي الحضور، لأن عينه تنفذ وتصل إلى المحسود، وإن كان غاضباً عن الحاسد. ولخطر الحسد وشدة أذاه، اتخذت الوسائل الخاصة بمقاومةعيون الحسود . . . ".

وقد حاولت أن أجد ذكرا للحسد والحاسد فى الشعر الجاهلى فلم أظفر إلا بالبيت التالى لحاتم الطائى:

وَكَلْمَةِ حاسِدٍ مِن غَيْرِ جُرْمٍ   سَمِعْتُ وَقُلْتُ: مُرّي فَانْفُذِيني

ومن الواضح أن حاتما إنما يتكلم عن الحقد والكراهية التى تدفع صاحبها إلى التقول على من يحسدهم ومحاولة تشويههم وتحقيرهم بين الناس وافتراء التهم الكاذبة عليهم. ومن الواضح أيضا أنه، بتلقائيته عجيبة،

لم يشغل نفسه بما يشاع زورا عنه، بل طوى كشحه وثنى عطفه عنه غير مبالٍ أو مضيع وقته فى الرد عليه أو الاشتغال به. لقد نصح ابن القيم المسلمين بعدم الانشغال بالحسود وعَيْنه، عادًّا هذا جزءا من علاج العين والحسد. فها هو ذا حاتم الطائى، قبل أن يظهر ابن القيم بقرون، ينفذ هذه النصيحة على نحو تلقائى حكيم. وهذا ما نريده من الناس: ألا يصدقوا بهذا الاعتقاد أو ينشغلوا به وبمن يقال إن لديهم مقدرة على الإصابة بالعين، اللهم إلا ثبت على نحو علمى على ما سوف نبسطه بعد قليل أن العين تصيب فعلا وتؤذى. والمناسبة هناك شعر منسوب لعنترة بن شداد يرد فيه كلام عن الحسد، لكن هذا الشعر غير صحيح البتة كما بينت ذلك فى كتابى عن ذلك الشاعر، بخلاف شعره الحقيقى، الذى يخلو تماما من الإشارة إلى الحسد والحاسدين. أما كلمة "العين" بالمعنى الذى نحن فيه فلم أقع لها على شواهد شعرية جاهلية سوى قول علقمة الفحل عن حصانه:

بَغُـــوجٍ لَبَانُـــهُ يُتَمُّ بَرِيمُـــهُ   عَلَى نَفْثِ راقٍ خَشْيَةَ العَيْنِ مُجْلِبِ

وبطبيعة الحال أنا لا أجهل أن هناك أحاديث منسوبة للنبى عليه الصلاة والسلام تقول مثلا: "العين حق. ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغتسلوا". ولو ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك وحيا من السماء، وبالمعنى الذى يقصده من يؤمنون بالعين، لما كان لى إلا أن أصدق ما قاله سيدنا رسول الله. لكن لى عدة ملاحظات: هل قال النبى ذلك فعلا؟ الجواب هو أن كتب الحديث تقول إن هذا حديث صحيح. إذن فمن حيث الرواية: الحديث صحيح. لكن هل إذا كان الحديث صحيحا فى نظر أهل الحديث من ناحية الإسناد أفلا بد أن يكون صحيحا بالضرورة؟ هل الأحاديث مجرد رواية لا دخل لها بالتفكير المنطقى فى مضمونه ومعناه؟ ثم هل قاله صلى الله عليه وسلم على سبيل الوحى؟ أم هل كان ذلك مجرد اجتهاد منه كاجتهاده فى مسألة تأبير النخل، الذى اتضح أن ما أشار به فى هذا الخصوص كان فى غير موضعه ولم يكن هو الأسلوب السليم فى عملية التلقيح؟ لكن هل يترك الله الأمر فى هذه الحالة دون

أن يتم تصحيح الخطإ على نحو أو على آخر كما حدث فى تأبير النخل؟ معنى هذا أن يكون النبى قد قال ذلك أولا حتى يمكن أن يصحّح ما يكون قد وقع منه من سهو أو نسيان أو خطإ، فهل قاله فعلا ؟ كذلك هل يمكن أن يسبق شىءٌ القَدَر؟ إن القدر هو مشيئة الله عز شأنه، فهل يمكن أن يخطر هذا المعنى على بال رسول الله صلى الله عليه وسلم وينطق به فى حديث يظل يردده المسلمون طوال الحياة؟ ترى هل هناك شىء يقع على الأرض أو فى السماء يمكن أن يكون بمشيئة غير مشيئته سبحانه، بله أن تسبق تلك المشيئة مشيئته تعالى، بله أن يكون هذا الشىء هو العين، التى يرى ابن القيم أنها قد تصيب، وقد تخيب، فضلا عن أنها ليست بالقضية الهامة على الإطلاق، بل هى لا فى العير ولا فى النفير، وبخاصة أن معظمنا لا يرى أثرا لها فى الواقع؟ أقول: "معظمنا" لمجاراة الطرف الآخر من باب الحكم الافتراضى سدا لباب اللجاج ليس إلا . فكيف يمكن أن نصدق أن الرسول عليه السلام يلجأ، فى الكلام عنها، إلى هذا التعبير المتجاوز؟ الواقع أننى فى أشد الحيرة.

ومن الأحاديث التى قررت ذلك الموضوع أيضا الحديثان التاليان: "انطلق عامرُ بنُ ربيعةَ وسهلُ بنُ حُنَيفٍ يريدان الغسلَ. قال: فانطلَقا يلتمِسانِ الخمرَ. قال: فوضع عامرٌ (كذا، والصواب سَهْلٌ) جُبَّةً كانت عليه من صوفٍ، فنظرتُ إليه فأصبتُه بعينيَّ، فنزل الماءَ يغتسلُ. قال: فسمعتُ له في الماءِ قرقعةً، فأتيتُه فناديتُه ثلاثًا، فلم يُجِبْني. فأتيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخبرْتُه فجاء يمشي فخاض الماءَ كأنّي أنظرُ إلى بياضِ ساقَيْه. قال: فضرب صدرَه بيدِه، ثم قال: اللهمَّ أذهِبْ عنه حرَّها وبردَها ووصَبَها . قال: فقام. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: إذا رأى أحدُكم من أخيه ومن نفسِه ومن مالِه ما يُعْجِبُه فلْيُبرِّكْهُ فإنَّ العينَ حقٌّ". ففى هذا الحديث نجد أن الحاسد هو عامر بن ربيعة طبقا لرواية ابنه عبد الله الراوى الأول للحديث، إلا أن راوى الحديث الأخير يقول إن الصواب هو سهل بن حنيف، أما عامر فهو المحسود . أما الحديث الثانى فمن رواية أبى أمامة بن سهل بن حنيف، والحاسد هو عامر بن ربيعة، والمحسود هو سهل

بن حنيف: "اغتسلَ سهلُ بنُ حُنَيْفٍ بـ"الخَرّارِ" فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامرُ بنُ ربيعةَ ينظرُ، وكان سهلُ رجلاً أبيضَ حسنَ الجلدِ، قال: فقال له عامرُ بنُ ربيعةَ: ما رأيتُ كاليومِ ولا جلدَ عذراءَ. قال: فوُعِكَ سهلٌ مكانَه، واشتدّ وعَكُه، فأتى رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ فأخبر أنّ سهلاً وُعِكَ، وأنه غيرُ رائحٍ معك يا رسولَ اللهِ. فأتاه رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ فأخبر سهلٌ بالذي كان من أمرِ عامرٍ، فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: علامَ يقتلُ أحدُكم أخاهُ؟ ألا برَّكْتَ؟ إنّ العينَ حقٌّ. توَضَّأْ له. فتوضّأ له عامرٌ، فراح سهلٌ مع رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ ليس به بأسٌ".

والآن أى الحديثين هو الصحيح؟ إن هناك روايتين متناقضتين للحدث تبعا للراوى الأول، فكل راو يذكر أن أباه هو المحسود، وأن الطرف الآخر هو الحاسد. وكلا الحديثين موجود فى "السلسلة الصحيحة" للألبانى. ثم هل كان المحسود، أيا كان، يحتاج إلى أن يخلع ملابسه حتى يرى الحاسد لون بشرته؟ أليست بشرة الواحد منا تظهر حتى وهو مرتدٍ ملابسه؟ أم كان الرجال فى ذلك الوقت يغطون كل بقعة من أجسادهم؟ كذلك متى كان رجال العرب، فضلا عن المسلمين، يتفاخرون بأن جلودهم تشبه جلود العذارى، كى يحسد بعضهم بعضا على هذا؟ ثم إن هناك رواية ثالثة للحديث لم يذهب فيها الحاسد إلى النبى يخبره بما وقع لزميله، بل اضطر الرسول لسؤال قوم المحسود عمن يتهمونه، فقالوا له: فلان. فعندئذ أحضر فلانا هذا، ونهاه عن أن يَعِينَ أخاه المسلم، آمرا إياه بدلا من ذلك بأن يباركه لدى الثناء عليه. وواضح أنها رواية لا تتسق مع الروايتين الأخريين أبدا.

وهذا نص الرواية، وصاحبها هو المحسود نفسه: سهل بن حنيف، إذ تقول إنه "خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالخرّار دخل ماء يغتسل، وكان رجلا وضاء، فمر به عامر بن ربيعة فقال: لم أر كاليوم حسن شيء ولا جلد مخبأة. فما لبث سهل أن لبط به، فدعا له نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟من تتهمونه به؟ قالوا: عامر بن ربيعة. فدعا عامرا ودعا بإناء فيه ماء فأمر

عامرا، فغسل وجهه في الماء وأطراف يديه وركبتيه وأطراف قدميه، ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم صيغي إزار عامر وداخِلَتَه فغمرها في الماء ثم أفرغ الإناء على رأس سهل وأكفأ الإناء من دبره، فأُطْلِقَ سهل لا بأس به".

وقد ورد ذكر "القرقعة" فى الحديث الأول، وهى صوت الحديد عند اصطدامه بالحديد وما أشبه ذلك من الأصوات على ما جاء فى "معجم اللغة العربية المعاصرة" للدكتور أحمد مختار عمر. وإنى لأتساءل: ما دخل القرقعة هنا بالعين والإصابة بها ؟ ثم كيف يترك الرجل زميله فى هذا الوضع المفزع ويذهب لرسول الله كى يخبره بما حصل دون أن يحاول مساعدته مع أن كل الشواهد تدل على أنه فى خطر عظيم إذ لم يستطع الرد عليه حين ناداه ثلاث مرات لا مرة واحدة، وسمع الحاسد، بدلا من ذلك، صوت قرقعة، وكأن هناك حديدا يصدم حديدا ؟ ثم ماذا كان يمكن أن يقع لو لم يكن هناك رسول الله؟ لقد كان الرجل فى كرب عظيم، وكانت حياته فى حرج كما يفهم من سياق الرواية. ألِإلى هذا الحد يكون خطر العيون، وتكون حياة الشخص المَعِين رهنا بالمصادفات التى لا تجرى على قانون؟ أنا لا أُكذِّب كلاما ثبت أن رسول الله قاله فعلا، بل كل ما أبغيه هو محاولة إقامة مثل هذا الأمر على أسس علمية صلبة بدلا من الاعتقاد فى شىء لا ندرى مدى مبلغه من الصحة. ولا أظن الرسول عليه السلام يضيره أو يغضبه أن نحاول التحقق من أمر أخبرنا به. إننا نحبه صلى الله عليه وسلم حبا جما، ونحب أن نتأكد مما يُرْوَى عنه ومن صحته كى نصدق أنه قاله حقا. ذلك أن حبنا الحقيقى له صلى الله عليه وسلم يقتضينا أن نلجأ إلى العلم للتحقق من صحة أى شىء. أليس هو الذى نادى بفضل العلم والعلماء ؟ أليس القرآن هو الذى يدعو الكفار إلى الإتيان بأثارة من علم إن كانوا صادقين؟

ترى هل يغضب الرسول أو يجد فى الأمر مِسَاسًا برسالته إذا ما أراد أحد الصحابة التحقق مثلا من أن عدم تأبير النخل لا يمنعه من الإثمار؟ بل لقد حدث هذا فعلا، وقام الصحابة بتجربة ما قاله الرسول فى

هذا الشأن فترتب عليه أن النخيل لم يثمر ذلك العام، فراجعوه عليه السلام، فما كان منه سوى أن قال بكل بساطة وتواضع ونزول على مقتضى الحق والواقع: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، ولم يقل لهم فى غضب: كيف تراجعوننى فى أمر أخبرتكم فيه برأيى؟ ففى الحديث "أنَّ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ مرّ بقومٍ يُلقّحون، فقال: لو لم تفعلوا لصَلح. قال: فخرج شِيصًا. فمرَّ بهم فقال: ما لنخلِكم؟ قالوا: قلتَ كذا وكذا. قال: أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم".

وفى حديث الذبابة حصل أن بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث قد خطر له أن يجرى تجربة علمية على جناحى الذبابة ليرى هل فى أحد جناحيها داء، وفى الآخر دواء كما ورد فى حديث آخر للرسول عليه السلام، وقيل إن أولئك العلماء التجريبيين قد أَلْفَوْا ما قاله صحيحا. فهذان مثالان يبينان بأجلى بيان أن إخضاع ما قاله الرسول أو ما يُنْسَب إليه للتجربة العلمية لا يصادم الإسلام فى شىء، بل يجرى فى نفس اتجاهه. وانظر إليه صلى الله عليه وسلم وهو يصيح فى مسمع التاريخ فى عظمة وصدق ونبل وسموق: "إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو مما أسمع. فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار". وهذه هى العظمة المحمدية، فهو صلى الله عليه وسلم لا يزعم لنفسه أنه فوق كل خطإ، بل يعلن بصريح العبارة أنه بشر، وأن الخطأ وارد عليه. صحيح أنه عليه السلام لا يمكن بتاتا يقترف إثما أو يرتكس فى سلوك لا يليق أو يغفل تبليغ أى شىء من أمور الوحى أو يغيره، بيد أن هذا لا ينفى أن يقع فى أخطاء عقلية أو حسابية أو ينسى أو يسهو. وقد صلى ذات مرة الصلاة الرباعية ركعتين على سبيل السهو، ولما نبهه أصحابه تنبه ولم تأخذه العزة بالإثم، ونهض فأكمل بكل بساطةٍ الركعتين الباقيتين.

وكان الصحابة على وعى بهذا، إذ كانوا يميزون فيما يقوله الرسول أو يراه أو يصنعه بين وحى نزل عليه فلا بد من اتباعه وبين اجتهاده برأيه فعندئذ كانوا يراجعونه إذا ما وجدوه لا يحقق المطلوب. ففى غزوة بدر

مثلا اختار الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل المسلمون موقعا عند أدنى ماء من بدر يتمترسون فيه وينتظرون لقاء الكفار، إلا أن بعض الصحابة كان لهم رأى آخر. لكنهم سألوه أولا: هل هذا الموضع الذى اختاره قد اختاره بوحى سماوى؟ أم هل كان مرجع الاختيار هو الاجتهاد الشخصى؟ ولما أجاب الرسول بأنه مجرد رأى منه أشار عليه الصحابى المذكور بضرورة اختيار موقع آخر يحقق الغرض، وعندئذ نزل الرسول على رأيه دون أية غضاضة. فقد ورد أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم قال لأصحابِهِ: أشيروا عليَّ في المنزلِ. فقال الحُبَابُ بنُ المُنذِرِ لرسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم: أرأيتَ هذا المنزلَ: أمنزلٌ أنزلَكَه اللهُ ليس لنا أن نتقدّمَه ولا نتأخّرَه؟ أم هو الرّأيُ والحَربُ والمكيدَةُ؟ فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم: بل هو الرّأيُ والحَربُ والمكيدَةُ. قال: فإن هذا ليس بمنزلٍ. انطلِقْ بنا إلى أدنى ماءِ القومِ فنُعسكِرَ فيه ثمّ نُغَوِّرُ ما وراءَه من الآبارِ ثمّ نبني عليهِ حوضاً فنملأه ماءً ثمّ نقاتلُ القومَ فنشربُ ولا يشربونَ. فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: لقد أشَرتُ بالرّأيِ. ثم أمرَ بإنفاذِهِ، فلم يَجئ نصفُ اللّيلِ حتّى تحوّلوا كما رأى الحُبابُ، وامتَلكوا مواقعَ الماءِ.

أما ما قاله أبو عيسى الرمانى ردا على أبى على الجبائى (المعتزلى)، الذى كان ينكر تأثير العين بهذا المعنى وكان يؤكد أن "الإصابة بالعين لا تصح"، من أن ما ذكره الجبائى "غير صحيح لأنهُ غير ممتنع أن يكون الله تعالى أجرى العادة لصحة ذلك لضرب من المصلحة وعليه إجماع المفسرين وجوّزه العقلاء فلا مانع منه" طبقا لما أورده الطبرسى فى تفسير الآية رقم ٥١ من سورة "القلم"، أما هذا الذى قاله الرمانى فلا يكفى لأنه لا يترتب بالضرورة على عدم امتناع شىء ما من الناحية النظرية عن الوقوع أن يكون فعلا صحيحا من الناحية الواقعية، وإلا لجاز أن يقع فى الدنيا أى شىء تقريبا، وبخاصة أن العلم فى تلك الأيام لم يكن قد اتسع ولا تعمق اتساعَه وتعمقَه الآن، فكانت الأشياء الجائزة نظريا من الكثرة بحيث لا تكاد تحصى. وعلى أية حال

فإن التحقق علميا من صحة أمر ما لا يضايق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يناقض الدين الذى أتى به فى شىء.

ومما أورده الطبرسى فى هذا الصدد أيضا قوله: "وقيل: إن الرجل منهم كان إذا أراد أن يصيب صاحبه بالعين تجوَّع ثلاثة أيام ثم كان يصفه فيصرعه بذلك، وذلك بأن يقول للذي يريد أن يصيبه بالعين: لا أرى كاليوم إبلاً أو شاءً أو ما أراد، أي كإبل أراها اليوم. فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم كما كانوا يقولون لما يريدون أن يصيبوه بالعين– عن الفراء والزجاج". وهذا الكلام يثير الشك فى الأمر، إذ من ذا الذى يصبر على تجويع نفسه بما يترتب عليه من مقاساة الجوع عدة أيام كى يصيب بعينه إنسانا آخر؟ ومن أين نشأت هذه القاعدة التى يقال إنهم كانوا يتبعونها عند الحسد بنظرة العين؟ وهل فى الآية ما يشير إلى شىء من ذلك؟ ولقد كان الرسول موجودا بين ظهرانى الكفار وتحت أبصارهم طول الوقت قبل البعثة، فلماذا لم يحسدوه إلا حين أتاهم بالدين الجديد، وليس فيه من أمور الدنيا ما يمكن أن يُحْسَد الإنسان عليه؟ لقد كان الرسول أهلا لأن يحسد حين تزوجت به خديجة بعدما رفضت كل من تقدم إليها من كبار القوم، وبخاصة أنها هى التى عرضت الأمر عليه لا أنه هو الذى تقدم إليها. لكنهم لم يفعلوا. أتراهم يفعلون الآن، وقد صار محط أذى الناس ومؤامراتهم وشتائمهم واتهاماتهم وسخريتهم وتشنيعهم؟

ولقد ساق الطبرسى تفسيرا آخر للآية ختم به الكلام فى الموضوع، وهو: "وقيل: معناه أنهم ينظرون إليك عند تلاوة القرآن والدعاء إلى التوحيد نظر عداوة وبغض وإنكار لما يسمعونه وتعجب منه فيكادون يصرعونك بحدّة نظرهم، ويزيلونك عن موضعك. وهذا مستعمل في الكلام. يقولون: نظر إليَّ فلان نظرًا يكاد يصرعني، ونظرًا يكاد يأكلني فيه. وتأويله كله أنه نظر إليّ نظرًا لو أمكنه معه أن يأكلني أو يصرعني لفعل– عن الزجاج". وهذا هو التفسير الصحيح فى نظرى مع تسليمى بأن من الممكن أن يكون ما قلته فى المسألة

خطأ فى خطإ فى حالة ما لو تبين من التجربة العلمية أن ما سقته من تفسير للأمر يناقض الواقع فعلا لا نظرا وجدالا .

ثم كيف يغيب عن بالنا أن الإيمان بتأثير العيون فى الأشياء والأحياء ليس من بنود الدين، بل هو من أمور الدنيا مثل التصديق مثلا بأن الأرض تدور حول الشمس، إذ هناك من يعتقدون أن العكس هو الصحيح، ومنهم علماء دين يشار إليهم بالبنان كالشيخ ابن باز مثلا ، فهل يقدح هذا فى إيمانهم ؟ كما كان كثير من علماء التفسير فى العصور الماضية يتصور أن مدة الحمل قد تصل إلى خمسة أعوام، وأن من الأطفال من نزل من بطن أمه بأسنان، إذ تقول رواية منسوبة للضحاك التابعى أنه وُلِد بعد أربع سنين وقد نبتت ثناياه، وفى رواية أخرى عنده أيضا أن هَرِم بن سنان قد نزل من بطن أمه بعد خمس سنين، ومن هنا أخذ اسم "هَرِم" . ويجد القارئ هذا الكلام فى تفسير الزمخشرى المعتزلى المعتز بالعقل أيما اعتزاز (وفى تفسير غيره أيضا) للآية الثامنة من سورة "الرعد" . وبالمثل كان كثير من مفسرينا القدامى يؤكد خطأً أن الحلىّ لا تستخرج إلا من البحار الملحة، ولا يمكن من ثم أن توجد فى الأنهار العذبة رغم أن هناك أنهارا كثيرة هنا وهناك تحتوى على الذهب والفضة والألماس والزيركون والياقوت واللؤلؤ. فهل يقدح هذا فى إيمانهم؟ أبدا، بل هو جهل ببعض حقائق الحياة. كما قرأت فى كتب المتصوفة أن بعضهم كان إذا توضأ يستحيل الماء الذى ينزل من أعضائه قضبانا من الذهب، وأن بعضهم يستطيع الطيران من سطح بيته إلى سطح الجامع الذى يصلى فيه، وأن بعضهم الآخر يستطيع أن يحط على سن الصارى ويبقى هناك طوال الليل. وهذا كله، وإن كان كذبا أبلق ودجلا وتلفيقا، لا يخرج صاحبه من الملة.

ولماذا نذهب بعيدا، وفى"صحيح مسلم" نقرأ الحديث التالى الذى رواه أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وهو "أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: "لا عَدْوَى"، ويُحدِّثُ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال "لا يُورَدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ" . قال أبو سلمةَ: كان أبو هريرةَ يُحدِّثُهما كلتَيهما عن رسولِ اللهِ صلَّى

اللهُ عليه وسلَّمَ ثم صمت أبو هريرةَ بعد ذلك عن قوله: "لا عَدْوَى"، وأقام على "أن لا يُورَدَ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ". قال: فقال الحارثُ بنُ أبي ذُبابٍ (وهو ابنُ عمِّ أبي هريرةَ): قد كنتُ أسمعُك يا أبا هريرةَ تُحدِّثُنا مع هذا الحديثِ حديثًا آخرَ قد سكتَّ عنه. كنت تقول: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لا عَدوى"، فأبى أبو هريرةَ أن يعرف ذلك، وقال: "لا يُورَدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ". فما رَاه الحارثُ في ذلك حتى غضب أبو هريرةَ فرطَنَ بالحبشيةِ، فقال للحارثِ: أتدري ماذا قلتُ؟ قال: لا. قال أبو هريرةَ: قلتُ: أبيتُ. قال أبو سلمةَ: ولعَمري لقد كان أبو هريرةَ يُحدِّثُنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: "لا عَدوى"، فلا أدرى أَنَسِيَ أبو هريرةَ أو نَسَخَ أحدُ القولَينَ الآخَرَ". فأما أولا فلا يمكن أن يقع نسخ فى هذا الأمر لأنه ليس تشريعا، بل مسألة طبية، والمسائل الطبية إما حقيقة أو باطل، ولا تتحول من هذا إلى ذاك بنسخ. وثانيا: ها هم أولاء بعض الصحابة يختلفون فى العدوى، وهى كالعين، دون أن يشكك أحدهما فى دين الآخر. وثالثا: سواء قال أبو هريرة، نقلا عن النبى عليه السلام، إنه لا عدوى أو لم يقل، وسواء أنكر أنه قال ذلك أو لم ينكر، فهناك أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فعلا بأنه لا عدوى. فما العمل؟ ولقد أبى عمر بن الخطاب أن يدخل المينة التى كان فيها الطاعون بالشام لدن سفره فى خلافته إلى هناك، واستغرب الصحابة عليه ذلك متصورين بأنه يهرب من قدر الله، فكان جوابه الحصيف أنه يفر من قدر الله إلى قدره، فهل يكون الفاروق رضى الله عنه قد خالف كلام النبى عليه الصلاة والسلام بأنه لا عدوى؟ المعروف أن هناك أمراضا غير معدية، وأخرى معدية، وأن العدوى قد تتم عن طريق التنفس، أو عن طريق الدم، أو عن طريق اللمس، أو عن طريق الأكل والشرب. . . فلعل الرسول، حين قال إنه لا عدوى، كان يتحدث عن أحد الأمراض التى لا تعدى. والأمر أمر طب. صحيح أن الأطباء قد يخطئون بعض الوقت ثم يصلون مع الأيام إلى الصواب الذى لم يكونوا يعرفونه، إلا أن المسألة رغم ذلك تبقى مسألة علمية لا اعتقادية. ومن الممكن جدا أن يقول الرسول فى مثل تلك الحالة

كلمة الفصل فى الأمر ويخطئ الأطباء، لكن هذا لا يحولها من مسألة علمية إلى مسألة اعتقادية. وأرجو أن يكون موقفى الآن قد اتضح.

الخلاصة أن أقصى ما يمكن أن يقال فيمن ينكرون دوران الأرض حول الشمس وأمثالهم من الناحية العلمية هو أنهم يخالفون حقائقَ مُجْمَعًا عليها، لكن لا يصح اتهامهم أبدا فى دينهم. وعلى كل حال فإنه ليس من صميم مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام إبلاغنا بأن العين تؤثر فى الجمادات والأحياء، بل جوهر مهمته هو هدايتنا من ضلال الشرك إلى استقامة الإيمان، ومن التخلف إلى التحضر، ومن الجهل إلى العلم، ومن الكسل والخمول إلى النشاط والجد، ومن ذل السؤال إلى عزة العمل والإنتاج، ومن الزنا إلى العفة والطهارة، ومن السُّكْر والخمر إلى الصحو واليقظة، ومن القذارة إلى النظافة، ومن القبح إلى الجمال، ومن فساد الذوق وانعدام اللياقة إلى رُقِىّ السلوك وسُمُوّ الشعور، ومن الالتواء والمخادعة فى التصرفات إلى الاستقامة والصدق فى معاملة الآخرين، ومن التعلق بقشور الدين إلى الحرص على جوهره، ومن النفاق والرياء إلى الصراحة والإخلاص، ومن الخيانة إلى الوفاء، ومن الغلظة إلى الرقة، ومن القسوة على اليتيم والمسكين والضعيف والمهمَّش إلى احترام إنسانيتهم وأخوتهم والعطف عليهم ورحمتهم، ومن التقليد القرودى إلى الإبداع والاختراع، ومن التنطع فى تتبع دقائق الشكليات الدينية التى لا تفيد بشىء إلى لوذعية الالتصاق بالجوهر النافع المجدى. . . إلخ. ومن غرائب هذا الباب ذلك الحديث المنسوب للنبى عليه الصلاة والسلام، ونصه: "أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ بِالأَنْفُسِ"، أى بالعين. ووجه الغرابة فى هذا الكلام هو أنه يخرج الموت بالعين من قضاء الله وقدره، وكأن شيئًا يمكن أن يخرج عنهما، أو يقول بأن أكثر الموت فى أمة المسلمين راجع إلى العين، إذ إن وقائع التاريخ لا تساعد على هذا الاقتناع، ودعك من أنه يجعل منا أمة من الحسادين الذين يصيب بعضهم بعضا بنظرات العيون. ويكفى فى التدليل على ما نقول أن نشير إلى أن مرض سهل بن حنيف فى الماء بسبب نظر عامر بن ربيعة إليه وثنائه على بشرته البيضاء وهو يستحم عاريا هو

الحالة الوحيدة فى هذا الموضوع فى عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين على الأقل، إذ لم نسمع بحالة غيرها فى ذلك الوقت. والمضحك أن هناك حديثا فى شرح موطإ الإمام مالك المسمى بـ"المنتقى" يقول: "رَوَى ابْنُ السُّنِّيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: "كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا خَافَ أَنْ يُصِيبَ شَيْئًا بِعَيْنِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، وَلا تَضُرَّهُ"، وهو ما لا معنى له إلا أن عينه عليه الصلاة والسلام كانت هى أيضا مؤذية لولا أنه كان يستعين على أذاها بتبريك الشىء أو الشخص الذى ينظر إليه. الله أكبر! لم يبق إلا أن يقال هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم. ألا إن هذا لهو الهوس بعينه!

ليس ذلك فقط، بل يمضى الهوس بذلك الموضوع حتى لنقرأ فى ذات الكتاب للقرطبى كلاما عجيبا، إذ من رأيه أنه "لَوْ أَتْلَفَ الْعَائِنُ شَيْئًا ضَمِنَهُ، وَلَوْ قَتَلَ فَعَلَيْهِ الْقِصَاصُ أَو الدِّيَةُ إذَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ عَادَةً. وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَالسَّاحِرِ الْقَاتِلِ بِسِحْرِهِ عِنْدَ مَنْ لا يَقْتُلُهُ كُفْرًا، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَيُقْتَلُ، قَتَلَ بِسِحْرِهِ أَمْ لا لأَنَّهُ كَالزِّنْدِيقِ". ومعنى هذا أن القرطبى لا مانع عنده أن يقتل العائن كم قتيلا للتجربة، ولكن حين نتأكد من خلال التجارب أنه يَعِين فعلا فعندئذ لا بد من قتله إذا مات المَعِين (المَعْيُون). والواقع أننا لو أخذنا بهذا الحكم العجيب الذى سوف يجعلنا مهزلة الأمم لسوف يقوم الجهلة، وما أكثرهم وأشد حماقتهم واختلال عقولهم، باتهام بعضهم بعضا بالقتل عن طريق العين، وسوف ينتهى الأمر بتفانى المسلمين. وشكرا للإمام القرطبى على غيرته "القاتلة" على الدين، فهكذا ينبغى أن تكون الغيرة، وإلا فلا. وعلى خلافه ابن عبد البر والإمام النووى، إذ يقول الأول نقلا عن صاحب "المنتقى": "إنَّ مِنَ الطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ الإعْجَابَ بِالشَّيْءِ الْحَسَنِ، وَالْحَسَدَ عَلَيْهِ، وَهَذَا لا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ. فَلِذَا لَمْ يُعَاتَبْ عَامِرٌ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى تَرْكِ التَّبْرِيكِ الَّذِي فِي وُسْعِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ قَدْ تَقْتُلُ، وَتَوْبِيخُ مَنْ كَانَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ سُوءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ تَحْتَ الْقَدَرِ السَّابِقِ بِذَلِكَ كَالْقَاتِلِ يَقْتُلُ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ يَمُوتُ بِأَجَلِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ إنَّمَا تَعْدُو إذَا لَمْ يُبَرِّكْ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ أَنْ يُبَارِكَ". وهذا كلام معقول رغم أنى لا أطمئن إلى أن العين قد تؤذى.

وفى "المنتقى" كذلك نقرأ للنووى أنه "لا يُقْتَلُ الْعَائِنُ، وَلا دِيَةَ وَلا كَفَّارَةَ أَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى مُنْضَبَطٍ عَامٍّ دُونَ مَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضِ الأَحْوَالِ مِمَّا لا انْضِبَاطَ لَهُ. كَيْفَ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ فِعْلٌ أَصْلاً، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ حَسَدٌ وَتَمَنٍّ لِزَوَالِ النِّعْمَةِ؟ وَأَيْضًا فَالَّذِي يَنْشَأُ عَنِ الإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ حُصُولُ مَكْرُوهٍ لِذَلِكَ الشَّخْصِ، وَلا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ الْمَكْرُوهُ فِي إِزَالَةِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَكْرُوهٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَثَرِ الْعَيْنِ. قَالَ الْحَافِظُ: وَلا يُعَكِّرُ عَلَيْهِ إِلا الْحُكْمُ بِقَتْلِ السَّاحِرِ، فَإِنَّهُ فِي مَعْنَاهُ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَسِرٌ". وفى "المنتقى" أيضا أنه قد "نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِمَامِ مَنْعُ الْعَائِنِ إِذَا عُرِفَ بِذَلِكَ مِنْ مُدَاخَلَةِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا رَزَقَهُ مَا يَكْفِيهِ وَيَكُفُّ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ آكِلِ الثُّومِ وَالْبَصَلِ الَّذِي مَنَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ لِئَلا يُؤْذِيَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمَجْذُومِ الَّذِي مَنَعَهُ عُمَرُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ الاخْتِلاطَ بِالنَّاسِ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْمَوَاشِي الَّذِي يُؤْمَرُ بِإِبْعَادِهَا إِلَى حَيْثُ لا يَتَأَذَّى بِهَا أَحَدٌ".

واضح أن أمر الحسد، كما تفهمه الغالبية الساحقة منا، هو مجرد كلام فى كلام: فالحاسد يقول كلاما فتقع مصيبة من جراء هذه الكلام، والمحسود يقول كلاما يتقى به شر المصيبة فتنقشع المصيبة بعد وقوعها. ولكن لم يسأل القوم أنفسهم: إذا كان المريض الذى وعكه الكلام يمكن ببعض الكلام أن يعود سليما كما كان، فكيف بالله يمكن أن تعود مثلا النجفة التى انفجرت واحترقت صحيحة مرة أخرى؟ واضح أن هناك طبقية وتفرقة حتى فى هذا المجال: فأشياء تعود صحيحة كما كانت، وأشياء لا يمكن أن تعود. كذلك فات من يعتقدون هذه الاعتقادات أن ثمة لونا آخر من الحسد يحبه الدين، ومع هذا نراهم يَعْمَوْنَ تماما عنه ولا يتطرق أحد منهم إليه، ألا وهو الحسد فى الخير. وذلك حين ترى إنسانا متفوقا فى مجال من مجالات الخير فتحاول أن تقلده: من ذلك رجلٌ كريم يخرج من ماله فى سبيل الله مساعدة لفقير أو مسكين أو مريض، أو طالبٌ ينفق وقته فى طلب العلم والقراءة والتردد على المكتبات والندوات والمحاضرات، أو مؤلفٌ يسهر ليله فى مراجعة الكتب والبحوث والكتابة والتأليف، أو عالِمٌ يعكف على تجاربه فى المعمل كى يحقق فرضا افترضه

أو نظرية بدت له، أو شرطىٌّ يجتهد فى حفظ الأمن وحراسة الممتلكات الخاصة والعامة لا يألو فى ذلك جهدا، أو صاحبُ مطعمٍ يعمل بكل قواه على نظافة دكانه وجودة الطعام الذى يقدمه لقصاده، أو كناسٌ يحرص على تنظيف الشارع الذى كُلِّفَ بتنظيفه فى إخلاص وعزيمة.

بالله عليكم هل سمعتم بأحد يتحدث فى هذا اللون من الحسد ويشير إليه وينبه الناس من حوله عليه؟ أبدا. لماذا؟ لأن هذا حسد إيجابى يقوم على العمل لا الكلام، ويحتاج إلى بذل الجهد، ويدل على أن أصحابه قوم متحضرون، ونحن ضد العمل والحضارة والتقدم، ولا نفكر إلا فيما يعوق الحياة ويفسدها، أما ما يفتح طرقها نحو العلا والرقىّ فبيننا وبينه خصومة وعداء، ونتصور أن أمر الدنيا وجوهرها كلام فى كلام. يقول رسولنا الكريم: "لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ: رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهو يتلوهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ فيقولُ رجلٌ: لو آتانِي اللهُ مثلَ ما آتَى فلانا فعلْتُ فيهِ مثْلَ ما فعلَ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالا فهو يُنفقهُ في حَقِّهِ فيقولُ رجلٌ: لو آتانِي الله مثلَ ما آتى فلانا فعلتَ فيهِ مثلَ ما فعلَ". هذا ما ينبغى أن يكون فيه الحسد، فلنبتدر فى هذا الميدان الخيرات إذا كنا حقا نؤمن بأن الحسد مذكور فى الإسلام.

وبالنسبة لى شخصيا أرانى لا أهتم بموضوع العين ولا أضعه فى ذهنى. وسر ذلك، بالإضافة إلى الأدلة التى بسطتها هنا، أننى لم أشاهد فى حياتى أية حادثة تقول إن للعين تأثيرا فى الحياة. كما أن حياتى تسير فى عكس هذا الاتجاه تماما. ذلك أننى كنت طوال عمرى تقريبا متفوقا فى الدراسة، أقصد من الناحية الرسمية، مهما كنت فى واقع أمرى ضئيل الذكاء متخلفا عن غيرى فى الفهم والعلم أشواطًا طِوَالاً، ومع هذا لم يحدث أن أصابنى أى أذى من كلام الناس عنى وعن تفوقى: أقصد التفوق الرسمى لا الحقيقى كما قلت. كما كنت لاعبا بارعا فى كرة القدم على مستوى القرية والمركز، ورغم هذا ظللت ألعب طول حياتى دون أن أصاب فى قدمى أو ساقى أو ركبتى إصابة تمنعنى من الاستمرار فى ممارسة تلك الهواية.

أما ما لاحظه أحد زملائى حين اعترانى اختناق أمامه ذات مرة منذ سبعة عشر عاما، وكت حديث عهد بالعودة من السعودية من إعارة بالطائف، من أن مرجع ما أنا فيه من معاناة هو حسد الناس لى على الإعارة وفلوس الإعارة، فهو خارج المنطق تماما . وإلى القارئ الأسباب: فأولا كان مرتبى قليلا بالقياس إلى كل زملائى بما فيهم مَنْ يعدون بمثابة تلاميذ لى، ولا داعى للدخول فى التفاصيل. ثانيا لقد كانت هذه الحالة المرضية امتدادا لما أصابنى قبل ذهابى إلى السعودية وحصولى على "ملايين" السعودية، واستمر معى فترة هناك حتى إن الطبيب الهندى (هندى: خذوا بالكم!) الذى كان يعالجنى فى الطائف وصف لى دواء الربو، وأخبرنى أننى سأظل أعانى تلك الحالة طوال حياتى، وهو ما لم أقتنع به، فقمت بإيقاف الأدوية بعد حين بناء على تفكير عميق فى الأمر ومراجعة لتفاصيل حالتى منذ أصابتنى وتطوراتها وفعل الأدوية معى، واتضح أنه ليس عندى ربو ولا يحزنون. لقد جاء الاختناق وذهب كما جاء دون أن أزعج نفسى بالبحث عمن عاننى وأطلب منه أن يستحم لأغتسل أنا بدورى بماء استحمامه. لقد عولجت وانتهى الأمر، وإن لم يمنع هذا من أن أشرق أحيانا بقطرة ماء أو أغص بلقمة، وهو ما يحدث لأى إنسان آخر سواء ذهب إلى السعودية أو لم يذهب، وحصل على الملايين أو على الملاليم. لكن من يسمع؟ ومن يقرأ؟ ثم، وهذا هو المهم، من يفتح عقله ويقتنع بما أقول؟

وقد قابلت هذا الزميل اليوم بعد أن كتبت الكلام السابق بعدة أسابيع، فسألته عن آخر أخبار سفره فى مهمة أستاذ زائر إلى إحدى دول الخليج، فقال: ليس أستاذا زائرا بل إعارة. قلت متمنيا له التوفيق: على بركة الله، وربنا يتمم على خير. فعقب بقوله: خذ بالك. لا تفتح هذا الموضوع أمام زوجتى. فقلت له: لماذا؟ هل ستسافر من وراء زوجتك وأولادك؟ قال: لا بل بعلمهم، إلا أنها ترى أنه لا ينبغى أن يعرف بهذا الأمر أحد . قلت: خوفا من العين والحسد؟ فتردد قليلا كأنه يريد أن يقول: لا، ثم سرعان ما عاد يقول: نعم. فقلت له: لستُ معها فى هذا، اللهم إلا أن يكون حذرها خوفا من أن ينطّ فى المسألة حقود أو حاسد

فيفركشها من يدك بالاتصال بالجامعة التى تنوى أن تدعوك فيفسد عليك أمرك عند المسؤولين فيها. أما حكاية العين وما إليها فلست أومن بها. فسكت الرجل. وكنت أزوره فى المستشفى لأطمئن عليه بعدما اتصل بى البارحة يخبرنى أنه محجوز فيها، فدعوت الله له بسرعة الشفاء، وخرجت منصرفا بعد أن أنفقنا وقتا لذيذا ضاحكا تعدى الساعة والنصف غسلنا به بعض هموم الحياة المتخلفة فى بلادنا المحروسة.

وصحبة صديقى وزميلى هذا من ألذ الصُّحَب، فهو طيب وابن نكتة ومتدين على طريقته، وكان غَزِلا فى شبابه، ولا يزال فى أعماقه ذلك الغَزِل الذى كانه أيام الشباب، والذى كان يشد الفتيات إلى التعلق به والالتفاف حوله، بينما العبد لله ضاربٌ لخمة: يتطلع بقلبه، لكن دينه يمنعه ويحجزه، فلا طال بلح الشام ولا عنب اليمن. أما زميلى العزيز فكان يخاف الله وتحبه الفتيات. كيف؟ هذا ما لا أدريه. بالله عليكم، أليست خيبة؟ وأنا دائما ما أقول لنفسى: خيبة الناس السبت والأحد، وأنت يا خِلُ خيبتك لم تقع لأحد! ثم أضحك على طريقتى فى تحويل كل شىء أو حدث إلى مادة للضحك.

وأخيرا أذكر أننى، فى اللقاء الذى أجريته قبل سفرى إلى السعودية قابلت أستاذا مثلى ذاهبا إلى نفس الجامعة لم أكن أعرفه من قبل، بمرتب أفضل كثيرا من مرتبى، لكن فى مكة وليس فى الطائف مثلى، فقلت خلال حديثى معه إننى ذاهب إلى السعودية لأكسب بعض المال أستعين به على مطالب الحياة. فما كان منه إلا أن رد علىَّ فى الحال منتفضا كمن لدغته عقرب قائلا: أما أنا فذاهب لأجاور فى الحرم. ترى بم ينبغى أن أعلق على مثل هذا الهجص؟ قل له أنت يا حسين! أغلب الظن أنه ممن يخافون العين. ومع هذا فقد علل صديقى الأستاذ الجامعى سبب اختناقى منذ سبعة عشر عاما بالعين التى أصابتنى نتيجة لما كَيَّلْتُه من المال تكييلا فى السعودية. والواقع أننى أستحق ما جرى لى، إذ كان ينبغى ألا أصرح بالسبب الحقيقى لسفرى للعمل فى السعودية، وأقول بدلا من ذلك إننى ذاهب لتقوية إيمانى أيضا بالمجاورة فى مسجد رسول الله. وقد اخترت المسجد النبوى احتراما للاختصاص، إذ ما دام زميلى قد اختار البيت الحرام فمن الواجب أن

أضع حصاة ملح فى عينى وأترك له الجمل بما حمل، وأبحث لى عن جامع آخر اقتداء بالشحاتين، الذين لا يفكر أحدهم أبدا فى الوقوف بالموضع الذى يقف فيه شحات آخر لينافسه، بل عليه أن يفتش له عن موضع للشحاتة آخر. ومن الأمور المضحكة أن الأستاذة الدكتورة التى أتردد عليها للعلاج فى مستشفى عين شمس التخصصى فى السنوات الأخيرة كلما سألتنى عن حالى كان جوابى واحدا لا يتغير: مثل الجن! فتفزع فى كل مرة قائلة: باسم الله! ما شاء الله! أمسك الخشب! لكنى لا أمسك الخشب أبدا، وإن كنت حريصا على أن أشكر الله دائما على نعمه كلها صغيرة أو كبيرة.

وقد تناول ابن القيم موضوع العين فى بعض كتبه، فقال إنها "سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والـمَعِين، تصيبه تارة، وتخطئه تارة: فإن صادفته مكشوفا لا وقاية عليه أثرت فيه ولا بد، وإن صادفته حذرا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام لم تؤثر فيه". كما أكد حَقِّيَّتَها استنادا إلى آية سورة "القلم" وآيات سورة "الفلق" وبعض أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم، وحمل على من يحاولون إعمال عقولهم فيها متهما إياهم فى دينهم ومؤكدا أنه لا ينكرها إلا من قل نصيبهم من العقل والسمع واتبعوا أهواءهم وما يمليه عليهم الشيطان. وأحب ألا يفوتنى النص على أن الزمخشرى، وهو مَنْ هو بين المعتزلة، ومعروف مَنْ هم المعتزلة، كان يؤمن بالعين. أقول هذا إبراء للذمة لأن كثيرا من القراء قد ينصرف تفكيرهم، بعد قراءة كلام ابن القيم، إلى المعتزلة ظنا منهم أنه إنما يشير إليهم باعتبارهم يميلون إلى تأويل النصوص التى تتحدث فى مثل تلك الموضوعات. ويقول القرطبى إن الاعتقاد فى العين هو "قَوْلُ عَامَّةِ الأُمَّةِ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَنْكَرَهُ قَوْمٌ مُبْتَدِعَةٌ، وَهُمْ مَحْجُوجُونَ بِمَا يُشَاهَدُ مِنْهُ فِي الْوُجُودِ، فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ أَدْخَلَتْهُ الْعَيْنُ الْقَبْرَ، وَكَمْ مِنْ جَمَلٍ أَدْخَلَتْهُ الْقِدْرَ لَكِنْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلا يُلْتَفَتُ إِلَى مُعْرِضٍ عَنِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ يَتَمَسَّكُ بِاسْتِبْعَادٍ لا أَصْلَ لَهُ، فَإِنَّا نُشَاهِدُ مِنْ خَوَاصِّ الأَحْجَارِ وَتَأْثِيرِ السِّحْرِ مَا يَقْضِي مِنْهُ الْعَجَب، وَيُحَقِّقُ أَنَّ ذَلِكَ فِعْلٌ بِسَبَبِ كُلِّ سَبَبٍ". ولا أدرى هذا الغرام بإلحاق مثل هذا الأمر بدائرة الاعتقاد والتشريع، وكانه بند من بنود الدين رغم أنه فى

أحسن أحواله لا يزيد عن أن يكون أمرا من أمور الدنيا التى يدور حولها اختلاف بين الناس: مسلمين وغير مسلمين. ولا يزيد إنكار تأثير العين عن إنكار تأثير الأحجار الذى يتحدث عنه القرطبى. فهل يصح أن نتهم مثل ذلك المنكر فى عقيدته ونطعنه فى دينه؟ الواقع أن الأمر أهون من ذلك كثيرا. وأنا، فى كل ما أقوله عن الحسد، أعمل دائما على نقله من دائرة الغيبيات إلى دائرة الطبيعيات، ومن مجال الإيمان إلى مجال الواقع والتجربة العلمية. ولو لم يكن لى فى هذه القضية سوى هذه الإضافة لرجوت أن يثيبنى الله عليها.

والآن أسوق، فيما يلي مع التصرف الكبير، ما كتبه ابن القيم فى طرق علاج العين مما أمكن بعض الباحثين تلخيصه: أولا الرقية الشرعية. والمقصود العلاج النبوي لهذه العلة، وهو أنواع. وقد روى أبو داود في سننه عن سهل بن حنيف قال: "مررنا بسيل، فدخلت فاغتسلت فيه، فخرجت محموما، فنمي ذلك إلى رسول الله، فقال: مروا أبا ثابت يتعوذ. قال: فقلت: يا سيدي، والرقى صالحة. فقال: لا رقية إلا في نفس أو حمة أو لدغة". والنفس العين. فمن التعوذات والرُّقَى الإكثار من قراءة المعوذتين وفاتحة الكتاب وآية الكرسي. ومنها التعوذات النبوية، نحو "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق"، ونحو "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة". ومن جرب هذه الدعوات والعُوَذ عرف مقدار منفعتها وشدة الحاجة إليها. وهي تمنع وصول أثر العائن وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها وقوة نفسه واستعداده وقوة توكله وثبات قلبه، فإنها سلاح، والسلاح بضاربه".

ثانيا الإكثار من قراءة سورة "الفلق". فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إلي، أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني. وهو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجبر المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير. فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف

ويحذر وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع. "ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه". ثالثا الأمر بالاغتسال كما ثبت في السنة النبوية المطهرة. فيؤمَر العائن بغسل مغابنه وأطرافه وداخل إزاره. وفيه قولان: أحدهما أنه فرجه، والثاني أنه طرف إزاره الداخل الذي يلي جسده من الجانب الأيمن. ثم يصب على رأس المَعِين من خلفه بغتة. وهذا مما لا يناله علاج الأطباء ولا ينتفع به من أنكره أو سخر منه أو شك فيه أو فعله مجربا لا يعتقد أن ذلك ينفعه. رابعا رقية جبريل عليه السلام للنبي التي رواها مسلم في صحيحه: "باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس او عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك". خامسا الشرب والاغتسال من الماء المقروء عليه آيات من القرآن أو الماء الذي وضع فيه آيات مكتوبة. أما وسائل الوقاية من العين فهي أولا المحافظة على قراءة المعوذتين والتعويذات الشرعية. وثانيا التسلح بسلاح الذكر. وثالثا الدعاء بالبركة لمن خاف أن يصيبه بالعين. ورابعا قول "ما شاء الله لا قوة إلا بالله". خامسا ستر محاسن من يخاف عليه من العين.

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب: أحدها التعوذ بالله تعالى من شره واللجوء والتحصن به واللجوء إليه. السبب الثاني تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه. فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره قال تعالى: "وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا". وقال النبي لعبد الله بن عباس: "احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك". السبب الثالث الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا. فما نُصِر محسود على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله. ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر. فبغيه سهام يرميها من نفسه. ولو رأي المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه. ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله. السبب الرابع التوكل على الله. من يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم. وهو من أقوى الأسباب

في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه. ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدا. السبب الخامس فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه. وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه. فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه. فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر.

السبب السادس الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها تدب فيها دبيب الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محابّ الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره كما يذكر المحب التامّ المحبَّةِ لمحبوبِه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه فلا يجعل بيت إنكاره وقلبه معمورا بالفكر في حاسده والباغي عليه والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه. السبب السابع تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه. السبب الثامن الصدقة والإحسان ما أمكنه فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد. السبب التاسع، وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ازددت إليه إحسانا وله نصيحة وعليه شفقة. السبب العاشر، وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب، هو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه.

هذا ما قاله ابن القيم، وإني لأتساءل: وهل يمكن أن يبقى، بعد هذا كله، للإنسان أى عقل يمكنه به مواجهة الحياة وتدبير أموره والسعى وراء رزقه وتحصيل العلم وأداء واجباته الإنسانية والوطنية والأسرية

والشخصية؟ والطريف أن ابن القيم يطلب ستر محاسن من يخاف عليه من العين. ألا يرى، رحمه الله، أن هذا يتعارض مع قوله تعالى: "وأما بنعمة ربك فحدِّثْ" ومع قول الرسول الكريم: "إنَّ اللهَ إذا أنعم على عبدٍ نعمةً يحبُّ أن يرى أَثَرَ نعمتِه على عبدِه" ومع ما قاله عمران بن حصين الصحابى الجليل فى الحديث التالى، إذ روى بعض الصحابة قائلا: "خرج علينا عمرانُ بْنُ حُصَيْنٍ، وعليهِ مُطرَفٌ منْ خزٍّ، وقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: منْ أنعمَ اللهُ عليهِ نعمةً فإنَّ اللهَ يحبُّ أن يرى أثرَ نعمتِهِ على عبدِه"؟ ترى كيف نوفق بين هذا وذاك؟ أيمكن أن يأمرنا الله أو رسوله بشىء يعرضنا للضرر والأذى؟ أعوذ بالله ممن يقول بهذا.

كذلك ينصح ابن القيم صاحب النعمة بألا يفكر فى أمر حاسده ولا ينشغل به أبدا. ترى هل بعد كل ما قاله ابن القيم فى ذلك الموضوع يمكن أن يُخْلِيَ المحسودُ عقلَه وقلبَه من التفكير فى حاسده وأذاه؟ وأيا ما يكن الأمر فلا شك أن خلو عقل واحد مثلى وقلبه من الانشغال بذلك الأمر هو أكبر تحقيق لما ينادى به ابن القيم. أليس يطلب منا ألاننشغل بالحاسد؟ فأنا قد أخرجت الحاسد والحسد بالمعنى الذى يتحدث عنه من ذهنى تماما، ولم يعد له أى تأثير علىَّ، بل أتصرف وأتحرك فى حياتى كأنه غير موجود بالمرة، فأرحت واسترحت. أما حث ابن القيم لنا على إخراج الصدقات فإنى، رغم اختلافى معه فى موضوع الحسد والحاسدين جذريا بمعنى أن نظرة العائن تضر المعيون بالطريقة التى شرحها، أحبذ هذا الحث فى حد ذاته أعظم التحبيذ دون أن أربطه بما نحن فيه، إذ الحياة مفعمة بالتعساء والمسحوقين والمظلومين المهضومى الحقوق. فهذه فرصة ينبغى اهتبالها لمد يد المساعدة لأولئك الأشقياء المضطهدين لعل الله أن يكفر عنا سيئاتنا ويتقبلنا فى رضوانه.

كذلك يلاحظ أن ابن القيم يحيل فى تأثير حسد الحاسد إلى مدى ما فى قلب المحسود من إيمان. وهذا أمر لا ينضبط، إذ كيف نقيس مقدار ما فى قلب الشخص من إيمان؟ كما أن عدم تعرض واحد مثلى للحسد من أى شخص يمكن، بهذه الطريقة، أن يفسَّر بأنه دليل على قوة إيمانى بالنسبة للصحابة الذين كان

الحسد يؤثر فيهم. فهل هذا ما يريد ابن القيم الانتهاء إليه أو على الأقل: يوافق عليه؟ ثم من يا ترى سوف يرضى أن يقال عنه إنه حساد حقود، ثم يزيد فيرضى أن يغتسل ويعطى ما اغتسل به من ماء لمن يقول عنه إنه قد حسده وآذاه؟ ودعك من أن هذا الباب لو انفتح فلن ينغلق أبدا، وسوف يجر فى أعقابه فتنا وخصومات لا تنتهى، إذ نحن مجتمع مهووس بفكرة العين والحسد، وسوف يتهم كل منا الآخر بأنه السبب وراء ما اُبْتُلِىَ به من مرض أو فشل أو مصيبة فى بيته أو سيارته أو زوجته أو أبنائه، علاوة على أن هذا سوف يأخذنا بعيدا عن المصيبة التى ينبغى مواجهتها، وبدلا من الذهاب إلى الطبيب مثلا لمعالجة مرضانا سوف نضيع وقتنا فى اتهام الآخرين بأنهم حسدونا فتسببوا فى مرضنا وبأن المهمة الملحة التى تنتظرنا هى الحصول على ماء استحمامهم للتداوى به. ومن يرضى يا ترى أن يقال عنه إنه هو سبب ما نزل بالآخرين من بلاء بما يعنى أن قلبه أسود مفعم بالحقد يكره أن يتمتع أحد من عباد الله بنعمة دون أن يتمنى زوالها عنه؟ قد يقول البعض إن إيمان الحاسد ينبغى أن يدفعه إلى الموافقة على الاغتسال وإعطاء ماء الغسل لمن يطلبه منه. لكن أَوَلَوْ كان عنده إيمان أكان يترك نفسه يحسد الآخرين أصلا؟ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "الحسَدُ يُفْسِدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصَّبْرُ العسلَ"، "لا يجتمِعُ في جوفِ عبدٍ الإيمانُ والحسَدُ"، "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"، "لا حسدَ إلا على اثنتينِ: رجلٌ آتاه اللهُ الكتابَ وقام به آناءَ الليلِ، ورجلٌ أعطاه اللهُ مالاً فهو يتصدَّقُ به آناءَ الليلِ والنهارِ". وبالمثل نرى ابن القيم يؤكد أن الحاسد يمكن أن يحسد نفسه. كيف؟ هذا ما لا أتصور أنه يكون، إذ الحاسد إنما يكره أن يتفوق عليه الآخرون بنعمة لا يتمتع هو بها، فكيف يحسد بالله نفسه، وحسده نفسه إنما يجرى عكس اتجاه نزعة الحسد عنده؟ إن هذا أشبه بمن يربط نفسه بالسلاسل ثم يصيح بالناس أن يهبوا لفكها عنه وتحريره منها. أم هو كلام لمجرد الكلام، والسلام؟ لو كان هذا الكلام صحيحا لوجب على الحاسد ألا يستبقى فى بيته أية مرآة حتى لا يقع بصره على نفسه ولو على سبيل الخطإ فيصوب عينه الهيدروجينية إلى جسمه أو صحته أو وسامته فيضيع فى شربة ماء. كما أقترح ألا يبيع الزَّجَّاج

مرايا لأحد إلا إذا أحضر له روشتة من طبيبَىْ عيون يزيد مرتب كل منهما عن عشرة آلاف جنيه فى الأسبوع ويتردد على عيادته فى اليوم ما لا يقلّ عن خمسين مريضا يشهدان فيها أنه لا يمكن أن يحسد نفسه، وأن تخصصه فى الشر هو حسد الآخرين، أو أنه خائب نائب لا يحسد أصلا ولا حتى قطة!

ثم لماذا لا نحاول استثمار وجود الحاسدين فى مجتمعاتنا استثمارا قوميا بدلا من محاولة القضاء على الحسد وتضييع الوقت والجهد فى ذلك؟ إن إسرائيل مثلا تتمتع بما لا نتمتع نحن بعُشْرِه من نظافة وعلم ونظام وجِدٍّ وعمل وإتقان واختراع وغنى وديمقراطية، فلماذا لا نستنفر حاسدينا ونوقفهم على الحدود طالبين منهم أن يوجهوا قوتهم الحسدية إلى الإسرائيليين فيوقفوا طائراتهم فلا تضربنا بالصواريخ والقنابل، ويعطلوا مصانعهم فلا تنتج شيئًا يستعينون به علينا، ويُفْشِلوا طلابهم وعلماءهم فلا يهتموا بعلم ولا بمعرفة ويعيشوا مثلنا جهلاء يرتعون فى بحبوحة الكسل والخمول العقلى ويكبِّروا أمخاخهم مثلما نكبر نحن أمخاخنا، وينتهى الأمر بأن نكون نحن وهم فى مستوى واحد من البلادة الذهنية ثم نزيد نحن عليهم بكثرة العدد ويكون النصر من ثم حليفنا؟ بل إننا ليمكننا الاستغناء عن هذا التعب كله والاكتفاء بتكليف حسادنا أن يكثفوا حقدهم على هؤلاء الأعداء الألداء ويركزوا هذا كله فى عيونهم ثم ينظروا بها إليهم فيمرضوهم مرضا يقضى عليهم، أو يهدموا عليهم بيوتهم فنتخلص منهم ومن شرهم إلى الأبد. أتصور أنه لا يمكن أن يكون هناك حل لمشكلة الحسد والحساد لدينا أفضل من هذا. إنها كاستثمار القمامة بدلا من صرف الجهد والمال والفكر فى محاولة التخلص منها عبثا، والاجتهاد بدلا من ذلك فى تدويرها وإعادة استعمالها بحيث نستفيد منها استفادة عظيمة. أم ترى الحسد عندنا لا يصلح إلا على المستوى المحلى على اعتبار أننا لا نستطيع أن ننتج شيئًا ذا قيمة للنطاق العالمى؟

بل لماذا لم يحسد المسلمون أحدا من المشركين الأغنياء أو المتمتعين بصحة الثيران، وما كان أكثرهم فى ذلك الوقت الذى كان المسلمون فيه مستضعفين غاية الاستضعاف فى مكة، أو يحسدوا أحدا من اليهود

والمنافقين من أصحاب الثروات الفاحشة فى المدينة حين كانوا لا يزالون ضعفاء فقراء هناك قبل أن تنتعش أحوالهم المالية؟ ألم يكن المسلمون يحسد بعضهم بعضا كما رأينا فى حالة الرجل المستحم الذى حسده زميله المسلم فلم يستطع أن ينجو من نظراته التى آتت أُكُلَها السام فى التوِّ واللحظة؟ لقد كان المسلمون إذن أحرى أن يحسدوا الكفار واليهود والمنافقين. أم تراهم قد كتب الله عليهم ألا يؤثر حسدهم إلا فى إخوانهم المسلمين وحدهم؟

ولنستدر إلى الناحية الأخرى ونتساءل: لماذا لم يفكر اليهود والمنافقون فى حسد أحد من المسلمين كعبد الرحمن بن عوف، الذى كان تاجرا ناشطا سرعان ما أصبح من كبار المتمولين فى المدينة منذ سأل الناس هناك أن يدلوه على السوق وقصده وصار واحدا من دهاقنته؟ كما كان عمر يتمتع بسمت يملأ العيون بالمهابة ويوقع الخشية فى القلوب، فلم يا ترى لم نسمع بأن أحدا قد حسده من المسلمين أو من اليهود أو من المنافقين، مثلما لم نسمع بأن أحدا قد حسد عليا، كرم الله وجهه، على بطولاته العسكرية العبقرية التى أظهرها فى حروب الإسلام ضد الكفر واليهودية؟ ولماذا لم نسمع بوقوع الحسد على أحد من القادة المسلمين الكبار الذين فتحوا البلاد وأَضْحَوْا أُولِى صولة وجولة تملآن العقول دهشة، والقلوب رعبا، وتغريان من ثم بالحقد والحسد، إن لم يكن من قِبَل المسلمين فمن قِبَل أصحاب البلاد المفتوحة الموتورين؟ ولقد اقترح ابن القيم على صاحب النعمة أن يخفى نعمته حتى لا تقع عليها أبصار الحساد فيضروه، فكيف بالله يمكن هؤلاء القواد الفاتحين أن يخفوا بطولاتهم وفتوحهم الشادهة عن العيون والعقول؟ بل لماذا لم يخف ابن القيم كتبه ومؤلفاته عن العيون حتى لا يتعرض للحسد المبير؟ ولماذا لم يخف الطبرى والغزالى وابن حزم والزمخشرى والقرطبى وابن سينا وابن رشد والفارابى وابن الهيثم والخوارزمى والبيرونى وابن خلدون وأبو نواس وأبو العتاهية وابن زيدون والمتنبى عبقرياتهم وإبداعاتهم العلمية والأدبية عن عيون العالم كيلا يحسدهم عائن فيرديهم فى الهلاك أو على الأقل: يمنعهم الإبداع فتصير قرائحهم بين غمضة عين وانتباهتها مجدبة لا تبض

بقطرة من قطرات العبقرية والتميز؟ فها هو ذا القارئ يرى معى أن الأبواب مسدودة بغاية الإحكام فى وجه ن يقولون بالحسد عن طريق العين على النحو الذى يؤمن به جماهير المسلمين!

والعبد لله، خوفا من أن يكون كل ما كتبه هنا فى أسوإ الفروض والاحتمالات خطأً فى خطإ، يقترح أن يقوم فريق من علماء المسلمين يضم بعضا من علماء الدين من تقليديين وتجديديين، وبعضا من علماء البيولوجيا، وبعضا من علماء الكيمياء، وبعضا من علماء الفيزياء، وبعضا من علماء النفس، وبعضا من علماء الاجتماع، وبعضا من علماء الأنثروبولوجيا، أى بعضا من كل طائفة من العلماء الذين تتصل تخصصاتهم بهذه المسألة، بدراسة ذلك الموضوع. ولا يَحْتَجَّنَّ أحدٌ بأن موضوع العين وتأثيرها فى العالم المادى هو من السمعيات أو الغيبيات، التى لا يمكن دراستها دراسة علمية تجريبية، إذ العين جزء من العالم المادى، وجسم الشخص الذى يُضَارّ بها هو جزء من العالم المادى، والأذى الذى ينزل به هو جزء من العالم المادى، فمن السهل إذن إخضاع الأمر للدراسة العلمية التجريبية. وبذلك نضع حدا للاختلاف فيه، أو على أقل تقدير: نتقدم فى هذا السبيل خطوة أو عدة خطوات. وسوف تكون دراسة هذا الموضوع كدراسة موضوع الجاذبية الأرضية أو العدوى المرضية مثلا لا تزيد ولا تنقص. والإسلام هو دين العلم بامتياز، ولاريب أنه سيرحب أشد الترحيب وأعظمه بمثل تلك الدراسة. هذا ما أقترحه، راجيا من الله تعالى أن يبعث لتأدية تلك المهمة من العلماء من يَرَوْنَ أهميتها ويتقربون إليه سبحانه بتنفيذها. وبالمناسبة فلسنا نحن المسلمين ولا العرب وحدنا الذين نؤمن بالعين، فالإيمان بالعين قديم ومنتشر بين كل الأمم وكل الأديان فى كل أرجاء الأرض قديما وحديثا كما أشار إلى ذلك ابن القيم، مع الاختلاف فى بعض التفاصيل وفى الوسائل التى ينبغى اللجوء إليها لتفادى الإصابة بالعين بين ثقافة وأخرى. ومن يرجع إلى الموضوع فى أية موسوعة سوف يجد ذلك. إلا أن انتشاره الواسع هذا فى ذاته لا يصيّره فى نظرى صحيحا، بل الذى يصيِّره صحيحا هو الدراسة العلمية التجريبية، إذ ما أكثر الأمور التى كانت الأمم جميعها تؤمن بصحتها ثم اتضح أنها مجرد أوهام.

كذلك بدا لى أن أعود إلى التفاسير الحديثة فألفيت أصحاب بعضها يفهمون ما أفهمه من آية سورة "القلم" وأمثالها، ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا، الذى كتب فى تفسير الآية الرابعة والخمسين من سورة "النساء"، وهى عن اليهود وحسدهم النبى عليه السلام والعرب لأن الله اختاره لحمل آخر الرسالات السماوية، واختارهم لتحمل عبء المسؤولية معه وما يترتب على ذلك من عز ومجد لا يريد اليهود أن يشاركهم أحد فيه، ونصها: "أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا". ويقول رشيد رضا: "أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، الأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: سَبَقَ فِي الْآيَاتِ قَبْلَ هَذِهِ أَنَّ الْيَهُودَ حَكَمُوا بِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَهْدَى سَبِيلاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ مِنَ الْحَسَدِ وَالْغُرُورِ بِأَنْفُسِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، فَهُمْ فِي شَرِّ حَالٍ، وَيَعِيبُونَ مَنْ هُمْ فِي أَحْسَنِ حَالٍ، فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ يُرِيدُونَ أَنْ يَضِيقَ فَضْلُ اللهِ بِعِبَادِهِ، وَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَضْلٌ أَكْثَرُ مِمَّا لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ لِمَا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْغُرُورِ بِنَسَبِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ مَعَ سُوءِ حَالِهِمْ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: هَلْ غَرَّرَ هَؤُلَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ تَغْرِيرًا، أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فِي هَذَا الْكَوْنِ فَهُمْ يَمْنَعُونَ النَّاسَ، فَلَا يُؤْتُونَهُمْ مِنْهُ نَقِيرًا، أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ؟ أَيِ: الْعَرَبُ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا، وَالْعَرَبُ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَقَدْ كَانَتْ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ فِيهِمْ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَإِنَّهَا مَدَنِيَّةٌ مُتَأَخِّرَةٌ، وَكَانَتْ شَوْكَةُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ قَوِيَتْ. فَالْآيَةُ مُبَشِّرَةٌ لَهُمْ بِالْمُلْكِ الَّذِي يَتْبَعُ النُّبُوَّةَ وَالْحِكْمَةَ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ حَالَ الْيَهُودِ يَوْمَئِذٍ كَانَ لَا يَعْدُو هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ: إِمَّا غُرُورٌ خَادِعٌ يَظُنُّونَ مَعَهُ أَنَّ فَضْلَ اللهِ مَحْصُورٌ فِيهِمْ، وَرَحْمَتَهُ تَضِيقُ عَنْ غَيْرِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِمَّا حُسْبَانُ أَنَّ مُلْكَ الْكَوْنِ فِي أَيْدِيهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَحُونَ لِأَحَدٍ بِشَيْءٍ مِنْهُ وَلَوْ حَقِيرًا كَالنَّقِيرِ، وَإِمَّا حَسَدُ الْعَرَبِ عَلَى مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمُلْكِ الَّذِي ظَهَرَتْ مَبَادِئُ عَظَمَتِهِ، انْتَهَى مَا قَالَهُ فِي الدَّرْسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا عَنْهُ فِي ذَلِكَ غَيْرُهُ.

وَأَقُولُ: فَسَّرُوا الْحَسَدَ بِأَنَّهُ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُسْتَحِقِّ لَهَا، وَلَمْ يَرِدْ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي قَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ "الْبَقَرَةِ": "وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ" (٢/ ١٠٩)، وَفِي سُورَةِ "الْفَلَقِ". وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِي آيَةِ "الْبَقَرَةِ" هُمُ الْيَهُودُ، فَهُوَ لَمْ يُسْنِدِ الْحَسَدَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَقَدْ سُلِبَ مِنْهُمُ الْمُلْكُ، يَتَمَنَّوْنَ عَوْدَتَهُ إِلَيْهِمْ وَقَدْ كَبُرَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَسْبِقَهُمُ الْعَرَبُ إِلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنِ النَّصَارَى يَوْمَئِذٍ يَحْسُدُونَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ مُتَمَتِّعُونَ بِمُلْكٍ وَاسِعٍ، وَلَا مُشْرِكُو الْعَرَبِ لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ الَّتِي قَامَ بِهَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ حَقٌّ، وَلَا أَنَّهَا تَسْتَتْبِعُ، فَإِنَّ مَنْ ظَهَرَ لَهُ حَقِّيَّةُ الدَّعْوَةِ صَارَ مُسْلِمًا. وَأَمَّا الْيَهُودُ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِمَّنْ ظَهَرَتْ لَهُمْ حَقِّيَّةُ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ، وَمَنَعَ الْحَسَدُ بَاقِيَ الرُّؤَسَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا، وَتَبِعَهُمُ الْعَامَّةُ تَقْلِيدًا لَهُمْ. وَقَلَّمَا يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ بَعْدَ ظُهُورِهِ لَهُمْ مِثْلُ الْحَسَدِ وَالْكِبْرِ، فَالْحَسُودُ يُؤْثِرُ هَلَاكَ نَفْسِهِ عَلَى انْقِيَادِهَا لِمَنْ يَحْسُدُهُ لِأَنَّ الْحَسَدَ يُفْسِدُ الطِّبَاعَ. وَفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ هُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ حَسَدُوهُ وَحَسَدُوا قَوْمَهُ الْعَرَبَ لِأَنَّهُ مِنْهُمْ، وَهُمْ أَسْبَقُ إِلَى الْخَيْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

وَرَدَ فِي بَعْضِ أَسْبَابِ نُزُولِ الْآيَةِ أَنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ كَكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ لَمْ يَجِدُوا مَطْعَنًا يَقُولُونَهُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا تَعَدُّدَ أَزْوَاجِهِ. وَقِيلَ: حَسَدُوهُ عَلَى ذَلِكَ. وَالْآيَةُ تَرُدُّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ لِأَنَّ بَعْضَ أَنْبِيَائِهِمْ كَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ كَانَ لَهُمْ أَزْوَاجٌ كَثِيرَةٌ، كَمَا رَدَّ عَلَيْهِمُ اسْتِبْعَادَهُمْ أَنْ يَكُونَ الْمُلْكُ فِي غَيْرِ آلِ إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُ تَعَالَى أَعْطَى آلَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْحَاقَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّبُوَّةَ فَضْلًا مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَيْهِ تَعَالَى، فَكَذَلِكَ يُعْطَى ذَلِكَ لِآلِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَا حَجْرَ عَلَى فَضْلِهِ. فَإِنْ كَانَ هَذَا الْفَضْلُ الْأَلَهِيُّ لَا يَنَالُهُ إِلَّا مَنْ لَهُ سَلَفٌ فِيهِ، فَلِلْعَرَبِ هَذَا السَّلَفُ. عَلَى أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَى بَاطِلَةٌ، وَإِلَّا لَكَانَتْ هَذِهِ الْعَطَايَا قَدِيمَةً أَزَلِيَّةً، وَلَيْسَ الْإِنْسَانُ قَدِيمًا أَزَلِيًّا، وَلَوْ كَانَ أَزَلِيًّا لَمَا أَمْكَنَ أَنْ تَكُونَ بَعْضُ فُرُوعِهِ أَزَلِيَّةً، فَإِيتَاءُ اللهِ تَعَالَى بَعْضَ الْبَشَرِ الْفَضْلَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِمَحْضِ الِاخْتِصَاصِ وَالِاخْتِيَارِ وَذَلِكَ مَوْكُولٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِمَزَايَا وَفَضَائِلَ

فِيمَنْ يُعْطِيهِ ذلِكَ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ كُلُّ مَنْ يَكْتَسِبُ مِثْلَ تِلْكَ الْمَزَايَا مُسْتَحِقًّا لِهَذَا الْفَضْلِ، وَالنُّبُوَّةِ وَمُقَدِّمَاتِهَا بِمَحْضِ الاخْتِصَاصِ.

أَمَّا كَثْرَةُ النِّسَاءِ لِدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَقَدْ نَقَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ كَانَ لِدَاوُدَ مِائَةُ امْرَأَةٍ، وَيُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ سُورَةِ "ص" وَأَنَّهُ كَانَ لِسُلَيْمَانَ أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةِ امْرَأَةٍ وَسَبْعُمِائَةِ سُرِّيَّةٍ فَكَيْفَ يَسْتَنْكِرُ أَتْبَاعُهُمَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعُ نِسْوَةٍ، وَقَدْ تَزَوَّجَ أَكْثَرَهُنَّ لِحِكَمٍ وَأَسْبَابٍ عَامَّةٍ أَوْ خَاصَّةٍ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ مِنَ الْجُزْءِ الرَّابِعِ؟ وَفِي سِفْرِ "الْمُلُوكِ" مِنْ كِتَابِهِمُ الْمُقَدَّسِ مَا نَصُّهُ: ١١/ ١: "وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ مُوآبِيَاتٍ وَعَمُونِيَاتٍ وَأَدُومِيَاتٍ وَصَيْدُونِيَاتٍ وَحَثِّيَاتٍ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهَؤُلَاءِ بِالْمَحَبَّةِ وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُمِائَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ وَثَلَاثُمِائَةٍ مِنَ السَّرَارِي فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ" إِلَى آخِرِ مَا هُنَاكَ مِنَ الطَّعْنِ فِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَرَّأَهُ اللهُ". ومن الواضح أن الحسد، كما يفهمه رشيد رضا، لا علاقة بينه وبين العين، بل هو شعور نفسي ضار لصاحبه قبل أن يكون ضارا بالمحسود.

ومنهم كذلك محمد الطاهر بن عاشور صاحب "تفسير التحرير والتنوير"، إذ وجدته يقول فى تفسير آية سورة "القلم" ما نصه: "عرَّف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحو النبي صلى الله عليه وسلم من الحقد والغيظ وإضمار الشر عندما يسمعون القرآن. والزلَق (بفتحتين): زلَل الرجل من مَلَاسَةِ الأرض من طين عليها أو دهن، وتقدم في قوله تعالى: "فتُصْبِحَ صعيدًا زَلَقًا" (في سورة الكهف/ ٤٠). ولما كان الزَّلَق يفضي إلى السقوط غالبًا أُطْلِق الزلق وما يُشْتَقّ منه على السقوط والاندحاض على وجه الكناية، ومنه قوله هنا: "لَيُزْلِقونك"، أي يسقطونك ويصرعونك. وعن مجاهد: أيْ ينفذونك بنظرهم. وقال القرطبي: "يقال: زلق السهم وزهق، إذا نفذ"، ولم أره لغيره. قال الراغب: قال يونس: لم يُسْمَع الزَّلَق والإزلاق إلا في القرآن. اهـ. قلت: وعلى جميع الوجوه فقد جعل الإزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة

المكنية، شبهت الأبصار بالسهام ورمز إلى المشبه به بما هو من روادفه وهو فعل "يزلقونك". وهذا مثل قوله تعالى: "إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا" (آل عمران/ ١٥٥)". وبالمثل نجد فى "التفسير الواضح" للدكتور محمد محمود حجازى ما يلى: "اعلم أن هؤلاء المكذبين لا يألون جهدا في عداوتك، فمهما لاقيت منهم فهو قليل. ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: وإن يكاد الذين كفروا لينظرون إليك نظر الحاقد الكاره حتى كأنه من شدة الغيظ والحنق يكاد يزلق قدمك ويرميك من طولك. فهذه النظرات المسمومة كأنها سهام محسوسة حين يسمعون منك القرآن. أرأيت وصفا أدق من هذا للحاقد الحاسد؟ ويقولون: "إنه لمجنون" كما قالوا سابقا. وما هذا القرآن إلا ذكر للعالمين، وشرف للناس أجمعين، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن آتيا على يد مجنون؟".

وفى تفسير "الوسيط في تفسير القرآن الكريم" للدكتور محمد سيد طنطاوى نقرأ فى تفسير آية "القلم": "ختم سبحانه السورة الكريمة ببيان ما كان عليه الكافرون من كراهية للنبى صلى الله عليه وسلم ومن حقد عليه، فقال تعالى: "وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبۡصَارِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَالَمِينَ". وقوله: "لَيُزْلِقُونَكَ" من الزَّلَق (بفتحتين)، وهو تزحزح الإنسان عن مكانه. وقد يؤدى به هذا التزحزح إلى السقوط على الأرض. يقال: زَلَقه يَزْلِقه، وأَزْلَقه يُزْلِقه إزلاقا، إذا نحاه وأبعده عن مكانه، واللام فيه للابتداء... و"إن" هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، و"لَمَّا" ظرفية منصوبة بـ"يزلقونك"، أو هى حرف، وجوابها محذوف لدلالة ما قبلها عليه. أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك. أى وإن يكاد الذين كفروا ليهلكونك، أو ليزلون قدمك عن موضعها، أو ليصرعونك بأبصارهم من شدة نظرهم إليك شزرا بعيون ملؤها العداوة والبغضاء حين سمعوا الذكر، وهو القرآن الكريم. "وَيَقُولُونَ" على سبيل البغض لك: "إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ"، أى إن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن الأشخاص الذين ذهبت عقولهم. "وَمَا هُوَ"، أى القرآن الذى أنزلناه عليك، "إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ"، أى تذكير بالله تعالى وبدينه وبهداياته، وشرف لهم وللعالمين

جميعا . وجاء قوله: "يَكَادُ" بصيغة المضارع للإشارة إلى استمرار ذلك فى المستقبل. وجاء قوله: "سَمِعُوا" بصيغة الماضى لوقوعه مع "لما"، وللإشعار بأنهم قد حصل منهم هذا القول السّيِّئ. وجاء قوله: "لَيُزْلِقُونَكَ" بلام التأكيد للإشعار بتصميمهم على هذه الكراهية وحرصهم عليها".

وفى سورة "الكهف" نقرأ قوله تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)".

وواضح أن زوال نعمة صاحب الجنتين ليس بسبب حسد الآخر له، إذ لم يُبْدِ ذلك الآخر أى إعجاب بها يمكن اتخاذه شماعة للقول بأنه هو السبب فى تدميرهما، بل كل ما قاله المحروم له هو أنه ينبغى أن يشكر ربه على ما هو فيه من نعمة سابغة بدلا من الاغترار الأحمق بالغنى العميم الذى يتمتع به. والطريف أن الذى أثنى على الجنتين هو صاحبهما نفسه. فهل نردد ما يقوله العوام من أنه لا يحسد المال إلا صاحبه؟ لكنى

قد رددت على هذه النقطة من قبل، وهأنذا أزيدكم من الشعر بيتا، وهو أن الآيات لا تتكلم أبدا عن الحسد والعين، بل عن الكفر والجحود، وأن الله قد عاقب صاحب الجنتين لا لأنه عانهما، بل لأنه لم يشكره سبحانه على ما خَوَّله من نعم دنيوية. بل إن الرجل نفسه قد صرح بذنبه، وهو أنه أشرك بالله سبحانه. ألم يقل حين رأى جنته قد صارت أثرا بعد عين: "ياليتنى لم أشرك بربى أحدا"؟ ولوكانت العين الحسودة هى السبب لقال مثلا: "يا ليتنى لم أَعِنْ جنتى". وليس شرطا أن نفهم القصة فهما حرفيا، إذ ما أكثر ما نقابل فى الدنيا من أغنياء لا يشكرون النعمة ولا يحدث لهم من ذلك شىء، ومعنى ذلك أن عقاب الفرد الجاحد بحرمانه من النعمة سريعا ليس هو القاعدة. وأنا أفهم الآية الكريمة فى المقام الأول على أنها إنذار لمشركى قريش بأنهم إذا لم يدخلوا الدين الجديد ويتخلَّوْا عن كفرهم وشركهم فإن الأمور سوف تدور دورتها وتنتقل النعمة منهم إلى المسلمين، لكن بالتدريج على نحو ما يحدث فى الحياة، إذ إن تحول حال الأمم من الغنى والقوة إلى الفقر والضعف والمذلة والتخلف لا يتم بين عشية وضحاها، بل يستغرق وقتا قد يطول وقد يقصر كما هو معروف فى تاريخ الأمم والحضارات. وفى حالة قريش لم يحدث أن انتصر المسلمون عليهم فى غمضة عين، بل أخذ الأمر سنوات. لقد كان الشرك فى جزيرة العرب قد شارف نهايته، فجاء الإسلام وسدد الضربة الأخيرة لينهار بناؤه انهياره الضخم لدن فتح مكة ثم تتوالى الانهيارات إلى أن تسود عقيدة التوحيد تماما فى بلاد العرب وتنطلق إلى الآفاق العالمية عَقِيبَئذٍ.

ومثل قصة صاحب الجنتين قصة قارون، إذ نقرأ فى سورة "القصص": "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى

قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)".

وواضح هنا أيضا أن الأمر ليس أمر حسد، على الأقل: لأن المؤمنين لا يفكرون فى أن يحسدوا الكافرين وَيعِيُنوهم، فضلا عن أن الآيات لا تذكر حسدا ولا عينا، ولا تومئ إليهما مجرد إيماء، بل أمر كفر وحسن تقدير، إذ الإنسان العاقل ينبغى أن يشكر الله على ما أسبغ عليه من مال وغنى، وأن يقدم الآخرة على الدنيا لأن الدنيا زائلة، والآخرة هى الحياة الباقية، لا بالنزول عن المال بل بشكر الله عليه وعدم نسيان حقوق المسحوقين العاجزين فيه.

وعلى نفس الشاكلة نقرأ ما تقوله سوة "القلم" عن كفار قريش واغترارهم بما هم فيه من قوة وغنى وتذكير الآيات لهم بما وقع لأصحاب الجنة مما يمكن جدا أن يقع لهم إذا ما مضوا فى نفس الطريق وأصروا على الكفر والعصيان والبخل وقسوة القلب: "وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى

بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)". والطريف أن هذه السورة هى السوة التى ورد فيها قوله تعالى: "وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)". فلو كان الأمر أمر حسد وعين لكان أصحاب الجنة هم الذين ينبغى أن يُحْسَدوا لا الرسول لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن صاحب جنة، بل هم، أما هو فصاحب رسالة كانوا يكذبونه ويستضعفونه ويضطهدونه ويؤذونه ويكفرون بما جاء به ويأتمرون به ليقتلوه بسببها.

وفى سورة "البقرة" نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: "ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانِكم كفارا، حسدًا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحقُّ. فاعفوا واصفحوا حتى يأتىَ الله بأمره". فها هى ذى الآية تتحدث صراحة ومباشرة عن الحسد، فماذا قالت؟ لقد قالت إن كثيرا من أهل الكتاب كانوا يحسدون المسلمين على إيمانهم النقى بالله سبحانه وتوحيده وطاعته والتزامهم بمبادئ دينهم وإخلاصهم له، وكان هذا الحسد يجعلهم يتمنّوْن أن يكونوا قادرين على رد المسلمين عن دينهم. خذوا بالكم: رد المسلمين عن دينهم لا إصابتهم بالعين. ثم تمضى الآية فتأمر المسلمين بالعفو والصفح عنهم إلى أن يأتى الله بأمره. ولو كان الحسد هو الإضرار بالعين فكيف تأمرهم الآية بالصفح والغفران؟ إن معنى ذلك أن يموت المعيونون أو يمرضون مرضا يقرقعون فيه من شدة بُرَحَاء الألم، وهم هنا المسلمون جميعا. فهل هذا يعقله عاقل؟ وهل يمكن أن تكون الظروف التى كان فيها المسلمون حينئذ مسوغا لذلك الموقف السلبى الضار؟ أويستحق احتياج المسلمين من الكفار الاغتسال وإعطاءهم الماء الذى اغتسلوا به كى يصبوه على أنفسهم أن يكون مبررا لشىء من هذا؟ وعلى أية حال لقد مرت الأيام، وأتى الله بأمره، وانتصر الإسلام على الشرك والمشركين، فهل سمع أحد بأن الرسول أو أيا من الصحابة قد طلب حينئذ من المشركين بعد اعتناقهم الإسلام أن يغتسلوا

ويأتوهم بماء الاغتسال حتى يستحم المسلمون السابقون به إزالة لآثار العين الحسادة أو إزالة ما كان باقيا منها لا يزال؟ أبدا. فما القول فى ذلك؟

قلنا ونقول إن الحسد هو كراهية ما فيه الآخرون من نعمة وتفوق ونجاح، والعمل على إفشالهم ودهورتهم وتجريدهم من الخير الذى ينعمون به. وهذا إنما يتحقق بالتآمر عليهم وتشويه سمعتهم أو سرقتهم أو تلفيق الدعاوى القضائية لهم أو الوقيعة بينهم وبين رؤسائهم فى العمل أو كتابة التقارير الظالمة ضدهم. . . وهكذا لا بالعين وتسديد نظراتها إليهم بالأذى والشر حسبما يفهم كثير من الناس. ومما يؤكد ما قلناه فى تفسير هذه الآية أن عبد الله بن عباس فى الحديث التالى الذى هو راويه يقول إن حسد اليهود للمسلمين قد دفعهم إلى جحود الإسلام، أى الكفر به وبالرسول الذى دعا إليه. يقول الحديث: "كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا، إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم. وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم. . . من بعد ما تبين لهم الحق". قال ابن عباس: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئًا، ولكن الحسد حملهم على الجحود". ولم يقل، رضى الله عنه: "لكن الحسد حملهم على أن يوجهوا إليهم مدافع أعينهم الشريرة".

وفى "السيرة النبوية" لابن هشام كلام عن حسد من اليهود للمسلمين اتخذ صورة التآمر من لدن أحفاد القردة والخنازير على أتباع النبى العربى، ولم يتمثل فى عيون حسادة تنزل الأذى والمرض بهم من نظرات يصوبونها إليهم. يقول ابن هشام: "قال بن إسحاق: ومر شأس بن قيس، وكان شيخا قد عسا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد. لا والله

ما لنا معهم، إذا جتمع مَلَؤُهم بها، من قرار. فأمر فتى شابا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم/ ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأَنْشِدْهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه الأشعار.

وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج. وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعا قال ابن هشام: قال أبو قيس بن الأسلت:

على أن قد فجعت بذي حفاظ　　　فعاودني له حزن رصين

فإما تقتلون فإن عمرًا　　　أعض برأسه عضب سنين

. . . قال بن إسحاق: ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكَب: أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَةً. فغضب الفريقان جميعا وقالوا: قد فعلنا. موعدكم الظاهرة (والظاهرة: الحَرّة). السلاح السلاح! فخرجوا إليها، فبلغ لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به من قلوبكم؟ فعرف أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وما صنع: "قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعلمون * قل يا أهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون".

وأنزل الله في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية: "يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم * يأيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تُقَاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون. . . (إلى قوله تعالى:) وأولئك لهم عذاب عظيم". فهذا ما نريد أن يتنبه إليه القراء، ألا وهو أن الحسد شعور نفسى بغيض بشع يسول لصاحبه العمل على إيقاع الأذى بالمحسود من خلال تآمر عليه يمنعه من الحصول على حقه مثلا أو وقيعة بينه وبين من يحب أو الكيد له عند رئيسه. . . إلخ. وفى هذا الشاهد رأينا اليهود يثيرون الإحَن القديمة ويشعلون نارها الخابية كى يعود المسلمون إلى التحارب وقتل بعضهم بعضا بدلا مما نجح الرسول فى إرسائه بينهم من التضافر والاتحاد فى جبهة واحدة ضد العدو الذى يريد الفتك بهم والقضاء على شأفتهم. وقد نجح اليهود فى البداية، وكاد الأمر يتحول قتالا شرسا بين الأوس والخزرج لولا مسارعة الرسول إلى تنبيههم إلى ما نصب لهم من مؤامرة أوشكوا أن يوحلوا فيها. إذن لا عين ولا غُسْل، بل تآمر من جانب اليهود، ووعى ويقظة من قِبَل المسلمين لألاعيب الحاقدين الحاسدين وإحباط لمؤامراتهم وتفويت للفرصة عليهم.

وفى رسالة "فصل ما بين العداوة والحسد" يقول الجاحظ الخبير بأدواء النفوس المتغلغل فى أطوائها: "والحسد، وإن كان مُوَكَّلا بالأدنى فالأدنى، فإنه لم يَعْرَ منه الأبعد فالأبعد. فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب انتهى إليه خبر مشاركٍ له في الصناعة من أهل خراسان وجنْبة بلْخ من اتساق الرياسة في بلده وجميل حاله ونبيل محلّه عند أهل مصره وطاعة العامة له وترادف الناس عليه، فطار قلبه فَرَقًا، وأخذتْه الأَرْباء، وتنفّس الصُّعَداء وانتفض انتفاض المفلس الممطور. فقال لي رجلٌ من إخواني كان عن يميني حين رأى ما رأى منه: بحقٍّ قال من قال: "لم يُرَ ظالم أشبه بمظلوم من حاسد نعمة، فإن نَفَسه متّصل، وكربه دائم، وفكرته لا تنام". وهو في أهل العلم أكثر، وعليهم أغلب، وبهم أشدُّ لصوقًا منه بغيرهم من الملوك

والسُّوقة. وكأن من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته القصوى قد استشعر حسد كل ما يَرِد عليه من طريفِ أدب، أو أنيقِ كلامٍ، أو بديعِ معنًى. بل قد وقع بخلده لضعفه، وقرَّ في روعه لخساسته أنه لا ينال أحدٌ منهم رياسةً في صناعة، ولا يتهيأ له سياسةُ أهلها إلا بالطَّعن على نواصيهم، والعيب لجلَّتهم، والتحيُّف لحقوقهم". قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر، الذي يُعْرَف بـ"صريع الغواني": خُيِّل إلى نَوْكَي الشعراء أنهم لا يُقْضَى لهم بجودة الشعر إلا بهجائي والطعن في شعري، ولسانٍ يُهْجَى به عِرْضِي، لا أنفكُّ متَّهَما من غير جُرْمٍ إلا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التي أوهمتْهم أنه لا يسجَّل لهم بجودة الشعر إلا إذا استعملوا فيَّ ما خُيِّل إليهم".

ويمضى فيتحدث عن تجربته فى هذاالميدان وما ابتُلِيَ به من الحسد على أيدى الحاقدين قائلا: "وإني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدِّين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاعته. وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلَّفًا لملكٍ معه المقدرة على التقديم والتأخير، والحَطِّ والرَّفْع، والترغيب والترهيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلِمة: فإنْ أمكنتْهم حيلةٌ في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلِف له فهو الذي قصدوه وأرادوه. وإنْ كان السيد المؤلَّف فيه الكتاب نحريرا نقابا، ونقريسا بليغا، وحاذقا فطنا، وأعجزتْهم الحيلة، سرقوا معاني ذلك الكتاب وألَّفوا من أعراضه وحواشيه كتابا، وأهدوه إلى ملك آخر، ومتُّوا إليه به، وهم قد ذمّوه وثلبوه لمَّا رَأَوْه منسوبًا إليَّ، وموسومًا بي

وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري، وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل، وسلْم صاحب بيت الحكمة، ويحيى بن خالد، والعتَّابيّ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلِّفي الكتب، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيِّرونه إماماً يقتدون به، ويتدارسونه بينهم،

ويتأدّبون به، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم، ويروونه عنيٍّ لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة، ويأتمُ بهم قومٌ فيه؛ لأنه لم يترجم باسمي، ولم يُنسب إلى تأليفي. ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحصفاً كأنه متن حجرٍ أملس، بمعانٍ لطيفةٍ محكمةٍ، وألفاظ شريفة فصيحة، فأخاف عليه طعن الحاسدين إنْ أنا نسبته إلى نفسي، وأحسد عليه من أهمّ بنسبته إليه لجودة نظامه وحسن كلامه، فأُظهره مُبْهماً غُفْلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرف وُضّاعها، فينهالون عليه انهيال الرّمْل، ويستبقون إلى قراءته سباق الخيل يوم الحلْبة إلى غايتها.

وحسد الجاهل أهون شوكةً وأذلُ محنا، من حسد العارف الفطن؛ لأن الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطعن على الكتاب في أوّل وهلة يُقرأ عليه، من قبل استتمام قراءته ورقةً واحدة؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده. وليس ثْلبه مفسَّرًا مفصّلا، ولكنه يُجمل ذلك ويقول: هذا خطأ من أوله إلى آخره، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه، ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً وطعناً وإطناباً في الحمْل على واضع الكتاب، كان ذلك أقرب إلى القبول منه. وهو لا يعلم أن المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به، وبكّته بالجهل، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء، وقضى بغير روية، فسقط عنه وبطل. والحاسد العارف الذي فيه تقيّةٌ ومعه مُسْكَةٌ، وبه طَعْمٌ أو حياةٌ إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال في إسقاطه تصفح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله، وردد فيه بصره وراجع فكره، وأظهر عند السيد الذي هو بحضرته وجلسائه من التثبُّت والتأني حِبالةً يقتنص بها قلوبهم، وسببًا يسترعي به ألبابهم، وسُلّمًا يرتقي به إلى مراده منهم، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخُدَع، فيوهم به القصد إلى الحق والاجتباء له. فربما استرعى بهذه المخاتل والخدع قلب السيد الحازم.

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّفي الكتب إذا كان العارض لها على السيد الذي منه تُرْجَى أثمانها، وعنده تنفق بضائع أهلها، على هذه الصِّفة التي وصفتُها من الحسد والحذق بأسبابه، والمعرفة

بالوجوه التي تثلم المحسود وتهدُّه، وتضع منه ومن كتبه، لا سيما إنْ كان مع استبطان الحسد واستعمال الدهاء والذكاء جليسًا لازمًا، وتابعًا لا يفارق، ومحدِّثًا لا يريم، وليست له رِعَةٌ تحجره عن الباطل، ولا معه حذرٌ يبعثه على الفكر في العواقب. فإن هذا ربما وافق فترة السيد ترداد الكلام، وكثرة تكراره عليه، من تأكيد خطائه، ونصرته قوله، وذياده عنه، واحتجاجه فيه، فيؤثر في قلبه، ويضجِّع رأيه. فليس للسيد الذي يحبُّ أن تصير إليه الأمور على حقائقها، وتُصوَّر له الأشياء على هيئاتها، حيلةٌ في ذلك إلا حَسْم مادة هذا من أهل الحسد، بالإعراض عنهم، والاحتجاز دونهم.

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد، إذا لم يُعْمَل بشهوته ولم تنفذ سهام لطائفه، أن يقرَّ على نفسه بالخطأ، ويعترف أن الطَّعن الذي كان منه في الكتاب عن سهوٍ وغفلةٍ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد، وكان مشغول الفكر مقسَّم الذهن، فلما فرغ له ذهنُه وانفرد له همُّه راجَعَ ما كان بَدَر منه، لتُ[illegible]ظَنَّ به الرِّعة، ويقال إنه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلا من عقل وازع، ودينٍ خالص. وإنما ذلك حيلةٌ منه ودهاءٌ قدَّمه أمام ما يريد أن يوكِّد لنفسه ويوطِّد لها من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب عن غير موافقةٍ على مواضع، ويجعل ما قد تقدم له من الرجوع عن قوله عند ما تبيَّن له خلاف ما قال أوثقَ أسباب عدالته، وأحكمَ عُرَى نَصَفَتِه. . . ".

فمن هذا يتبين أن الحسد ليس بنظرة من العين تصيب المنظور بأذى، بل فى الكراهية التى تؤلم الحاسد قبل أن تؤلم المحسود، وفى التآمر الذى يراد به الحط من قدره وإضراره وإنزاله من مرتبته وتضييع النعمة عليه والحصول عليها بدلا منه. . . وهكذا. وإنى لأنتهز الفرصة لإزجاء الشكر هنا لصديقى العالم النحرير الظريف د. محمود عباس عبد الواحد، الأستاذ بكلية اللغة العربية الأزهرية بشبين الكوم، الذى نبهنى الليلة بعدما كتبت الصفحات الماضية عن الحسد بعدة أسابيع إلى ما كتبه الجاحظ فى هذا الموضوع، فقلت له: يا عجبا! كيف نسيت أن أرجع إلى الجاحظ، وقد قرأت وأنا شاب صغير هذا الذى كتبه عن الحسد ؟

ثم قلت له، وكنا جالسين معا عند كشك الحاج منصور على بعد أمتار من بيتى وبضعة مئات أمتار من بيته فى حى حدائق القبة كما يحدث لنا كثيرا: بمشيئة الله سوف أنظر من جديد فيما كتبه الجاحظ وأستفيد منه وأستشهد به، وأذكر إلى جانب هذا أنك أنت الذى أذكرتنى به، وكنت له ناسيا. وهأنذا قد فعلت. اللهم اشهد!

وفى "الأغانى": "قال إسحاق (الموصلى): قلت في ليلة من الليالي:

هل إلى نظرة إليك سبيلُ   يُرْوَى الصَّدَى ويُشْفَى الغليلُ

إن ما قَلّ منك يَكْثُرُ عندي   وكثيرٌ ممن تحب القليلُ

قال: فلما أصبحت أنشدتهما الأصمعي، فقال: هذا الديباج الخسرواني، هذا الوشي الإسكندراني، لمن هذا؟ فقلت له: إنه ابن ليلته؛ فتبينت الحسد في وجهه، وقال: أفسدته! أفسدته! أَمَا إن التوليد فيه لَبَيِّنٌ". وهنا يقول إسحاق الموصلى إن الأصمعى قد حسده، لكنه لم يتهمه بأنه له نظرات صاعقة تنطلق من عينيه كالصواريخ المدمرة، بل بأنه حقد عليه براعة بيتيه، فدفعه الحقد إلى أن يتنقص من شأنهما بعدما كان يمدحهما ويصفهما بكل رائع من القول ظنا منه أنهما ليسا لإسحاق. فلما عرف أنهما لإسحاق لحس حكمه الطيب عليهما، وادعى أنهما من الشعر المولد الجديد الذى لا يعجب أصحاب الذوق الكلاسيكى المرتبطين بالقديم لأنه يمثل الأصالة فى نظرهم.

ثم إلى القارئ هذا الخبر الساخر. ومغزاه، فيما نحن بصدده، واضح غاية الوضوح. كتب أبو حيان التوحيدى فى كتابه: "البصائر والذخائر" ما نصه: "قال المدائني: تذاكَرَ قومٌ مِنْ ظُرَّاف البصرةِ الحسدَ، فقال رجل: إن الناس ربما حسدوا على الصَّلْب. فأنكروا ذلك، ثم جاءهم بعد أيام فقال: إن الخليفة قد أمر أن يصلب الأحنف ومالك بن مسمع وقيس بن الهيثم، وحَجَّام يعرف بـ"حمدان". فقالوا: هذا الخبيث يُصْلَب مع هؤلاء؟ فقال: ألم أقل إن الناس يحسدون على الصلب؟". وبطبيعة الحال لا يمكن أن يزعم هنا أحد أن

الحسد هو العين، وإلا فما الذى يمكن أن تصنعه العين بالمحسود أبشع مما هو فيه؟ اللهم إلا إذا قيل إنها يمكن أن تطيّره من موضعه على الصليب فينجو! ها ها ها .

وفى "التمثيل والمحاضرة" لأبى منصور الثعالبى كلام عن الحسد يصب فى معنى واحد هو أن الحسد إنما يشقى الحاسد ولا يضر المحسود فى شىء: "الحسد داء الجسد . الحسود لا يسود . الحسد أول ذنبٍ عُصِيَ الله به في السماء والأرض. لا راحة لحسودٍ . ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلومٍ من الحسود . أقل الناس سرورًا الحسود . حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها . الحسود يأخذ نصيبه من غموم الناس، فينضاف إلى ذلك غمه بسرور الناس، فهو أبدًا مغمومٌ. الحسود فقيرٌ، وعند الناس حقير. الحسود يَعْمَى عن محاسن الصبح بعينٍ تدرك دقائق القبح. الحساد يحسدون أكثر مما في المحسود، لأن بعضهم يظن عند المحسود ما لا يملك، فيحسده عليه. الحسد والنفاق والكذب أَثَافِيُّ الذل. الحاسد مغتاظٌ على من لا ذنب له، بخيلٌ بما لا يملكه، طالبٌ لما لا يجده. لا يرضى عنك الحسود حتى تموت. كأن الحاسد إنما خُلِقَ ليغتاظ. يكفيك من الحاسد أنه يغتم عند سرورك. الحاسد ساخط على أقدار الله تعالى . عقوبة الحاسد من نفسه. الحاسد يرى زوالَ نعمتك نعمةً عليه" .

وفى الوقت الذى يهتم فيه كثير ممن ينتسبون إلى العلم الدينى بمثل تلك القضايا جاعليها هِجِّيرَاهم نراهم لا يقفون كثيرا ولا قليلا أمام النصوص الإسلامية التى تحض على العلم وتعلى من شأنه وشأن أهله وتصور سموق مكانتهم وأجرهم عند الله، وتنص على إكرام الله لهم وتنبئنا بشهود الملائكة مجالسهم وتواضعها فى حضرتهم ورضاها بما يصنعون، وتؤكد أن الخروج فى طلب العلم إنما هو خروج فى سبيل الله وأن العلماء هم ورثة الأنبياء وأن مرتبتهم تعلو مرتبة العُبَّاد كثيرا جدا حتى إن رسول الله، حين قارن بينهما، قد شبه فضل العالم على العابد بتفوق نور البدر على نور الكواكب. كذلك فهؤلاء العلماء لا يُعَنُّون أنفسهم بتبصير الأمة بالتخلف العلمى المخزى الذى نحن فيه. إن من يسمع كلام الكثيرين منهم عن اللحى مثلا ليتصور أنها هى

الجهاد الأعظم، وأن الإسلام سوف يضيع لا محالة إن لم يلتح أبتاعه على بكرة أبيهم وأن أمرهم كله منتهٍ حتما إلى البوار والخذلان مهما فعلوا إن لم يطلقوا لحاهم، فى الوقت الذى تتوثب فيه الدنيا من حولنا علما وصناعة وإبداعا وإنتاجا وتخطيطا، وكثير من علمائنا الدينين وغير الدينيين هائم فى عالم آخر من صنع الوهم لا صلة بينه وبين الحياة. وإنى لأتصور أن الرسول عليه الصلاة والسلام لو عاد إلى الدنيا ورأى أحوالنا وانشغال علمائنا بتلك السفاسف لكان أول من ينكر عليهم، وأن كثيرا منهم سيكونون أول الشاغبين عليه والمحاربين له رغم تنصيبهم أنفسهم الآن ناطقين باسمه وتظاهرهم بالدفاع عن سنته، وما سنته إلا العلم والعمل والإتقان والنظافة والنظام والذوق والجمال والتفكير السليم.

وهذا يدعونا إلى الحديث عما قرأته فى رواية "الإخوة كارامازوف" للأديب الروسى الشهير فيودور ديستويفسكى من أن السيد المسيح قد عاد إلى الأرض أيام محاكم التفتيش فى إسبانيا (تلك التى قُتِل فيها قِتْلَةً بشعةً أعداد غفيرة لا تحصى من المسلمين الإسبان) وأخذ يعمل المعجزات كما كان يعملها من قبل حسبما ورد ذكرها فى الأناجيل، داعيا الناس إلى الإيمان والصلاح، فاستجابت له الجماهير فى شغف وحب. إلا أن رجال الكنيسة ألقوا القبض عليه بتهمة الهرطقة والخروج على الملة وأودعوه السجن وحكموا عليه بالموت حرقا. وفى الزنزانة زاره المفتش العام قائلا له إن الكنيسة لم تعد فى حاجة إليه وإن ظهوره من شأنه أن يفسد عليها وعلى رجالها كل شىء، وإن حرية الاختيار التى يدعو إليها ويعلى من شأنها لا يريدها معظم البشر ولا يستطيعون التعامل معها. وعلى ضوء هذا يمكن أن نتوقع علام سيكون الموقف الذى سيقفه من الرسول كثير ممن ينصِّبون أنفسهم متحدثين باسمه صلى الله عليه وسلم، بينما هم فى الواقع بعيدون عن مبادئه وإنسانيته العظيمة ورحمته العميمة وسعة أفقه وحبه للبشر ورغبته فى أن يتبوأ العباد أفضل المنازل فى الدنيا والآخرة واشمئزازه من التنطع والتهافت على الشكليات التى لا تؤدى إلى طائل والتى يجتهد أصحابها

بكل ما أوتوا من قوة فى أن يجعلوا من الحبة قبة، والقبة حبة، وكل ذلك باسم الدين، والدين من ذلك وممن يقولون به براء.

أليس مما يدعو إلى العجب أن ينتشر إطلاق اللحية على نطاق واسع بين المواطنين بهذا النحو اللافت للنظر وتقوم تظاهرات بين رجال الشرطة وأمنائها للمطالبة بإطلاقها فى الفترة الأخيرة، وتنتشر معها فى الوقت ذاته أكوام القمامة فى كل مكان؟ وبالمثل كثيرا ما تعجبت من اهتمام كثير من المتدينين بتعليق لافتات ترشد الناس إلى أماكن صلاة العيد خارج المساجد، وفى ذات الوقت لا نرى أى اهتمام بإزالة الزبالة من الشوارع. إن صلاة العيد سنة، على حين أن إماطة الزبالة عن الطرق فرض، ودعنا من أن الإعلانات المذكورة ليست خاصة بالصلاة ذاتها، فمعظم الناس يحبون صلاة العيد بما فيهم من لا يركعونها طول العام، بل هى خاصة بتأديتها خارج المساجد. فانظر إلى مدى اهتمام هذه الطوائف بهامش الهوامش وإهمالهم البشع لما هو واجب لا يصح التفريط فيه. صحيح أن التخلص من الزبالة فى الشوارع هو عمل الحكومة فى المقام الأول، لكنْ كثيرا ما أرى عمال البلدية يبذلون جهودا مضنية لنقل تلك الأكوام، وأشعر نحوهم بالرثاء والعطف فأمد يدى إليهم بالطعام والمال عند مرورى بهم وهم يطفحون الدم فى إزالة زبالة المواطنين الذين فقدوا كل حس حضارى ودينى حقيقى، وأبتسم لهم وأربت على صدروهم وأكتافهم إشعارا لهم بمدى تقديرى لجهدهم الكريم المشكور وتشجيعا لهم لمعرفتى أنهم لا يتقاضَوْن على هذا العمل المضنى ولا عشر ما يستحقون. وكنا ننتظر من أولئك الحريصين على تنبيه الناس إلى أماكن صلاة العيدين أن يولوا قضية النظافة شيئًا من اهتمامهم وجهدهم، إن لم يكن من أجل شىء فمن أجل تحبيب الناس فى الإسلام من خلال رؤيتهم مدى اهتمام أفراد الجماعات المنتسبة إليه بالقضاء على القذارة والنتانة، وإشاعة النظافة فى كل مكان، وبخاصة أن لهم أتباعا فى كثرة النمل، ويأكلون الزلط لو أمرهم مشايخهم بهذا. لكن من الواضح أن كل شىء فى حياتنا قد انقلب رأسا على عقب، وأن قائمة الأولويات قد انتكست. وهذا طبيعى من أمة تخلفت تخلفنا الزرىّ، ولكنه ليس

طبيعيا ولا مفهوما ولا مقبولا من أمة تزعم أنها تحب رسولها وأنها على استعداد لتفديته بالنفس والنفيس، وهو ما لا أصدق حرفا منه، فإن من يحب إنسانا يعمل بكل طاقته على تنفيذ ما يريد ولا يكتفى بالكلام الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ولا عطش.

وقد يكون مناسبا هنا أن أشير إلى ما جاء فى رواية "مولانا" لإبراهيم عيسى من أنه لا مناص لأى داعية يظهر فى التلفاز أن ينساق مع فهم جماهير المسلمين بوجه عام لدينهم بحيث لا ينبغى أبدا أن يقول لهم أى شىء من شأنه إيقاظ عقولهم ولفت أنظارهم إلى الجوانب الإيجابية الحضارية فى الإسلام، بل يحصروا كلامهم فى النقاب واللحية وطاعة أولى الأمر وما إلى هذا كى تظل هذه الجماهير على خنوعها وخمولها فيكون انقيادها للحاكم سهلا . أما من يخرج على هذه القاعدة من الدعاة فمصيره الحرمان من الظهور فى برامج التلفاز أو الصعود على منابر المساجد، وما يتبع ذلك من حرمانه من الهيلمان والشهرة والثراء الفاحش. وقد شدتنى فى البداية رواية إبراهيم عيسى نظرا لما غاصت بى فيه من ذلك العالم الخفى: عالم المشايخ التلفازيين وارتباطاتهم بأمن الدولة وحرصهم على رضا الحكومة عنهم وابتغائهم وجه المسؤولين ورجال الأعمال الذين يظهرون على فضائياتهم لتسويقهم وتحلية نشاطهم القذر وتبييض صحائفهم القطران وتطييب ما يشيع فيها من نتن وعفن، وفراغة ما يقدمونه للمشاهد من مواعظ وقصص وقضايا تافهة لا تأخذ بيد متخلف فتحضِّره، ولا جاهل فتعلِّمه، ولا قليل الذوق فترقيه، ولا تافه فتسمو به، ولا محشو الذهن بالخرافات العامية فتنظفه من المعتقدات المنحطة. . . إلخ، كل ذلك بغية انتشال أنفسهم من البيئة المنحطة التى أتوا منها إلى حيث يعيشون فى القصور والترف الذى لا يستحقون أن يجرى شىء منه على ألسنتهم، دَعْكَ من أن يَحْيَوْا بل أن ينغمسوا فيه انغماسا، وإن كان هذا الوضع غير مقصور على المشايخ السَّكَّة، بل يشمل معهم وربما قبلهم الصحفيين والكتاب النصف كُمّ، الذين يعرفهم الكاتب جيدا، والذين كانوا يغرقون بأخطامهم فى مذاود البرسيم والفول المدشوش فى حظيرة النظام آنئذ .

إلا أننى سرعان ما تنبهت، بمجرد ما انتهيت من مطالعة الرواية، إلى ما فيها من عيوب ليست بالضئيلة: منها مثلا أن بطلها، رغم ما وُصِف به من أنه سطحى لا يهتم بالقراءة ولا يعمل بتاتا على إضافة أى جديد إلى ذهنه منذ تخرجه، هو رجل ذكى واسع العلم مستنير يعرف المخارج العلمية المتعمقة لكل مأزق، ويحيط بتفسيرات القرآن وبالأحاديث الشريفة وكتب الفقه والأصول والعقيدة والتاريخ والسياسة، ويلم بكل تفاصيلها وكأنه كاتوب يحتوى على كل شىء، ويفهم مراميها ومواضع الحاجة إليها والطريقة التى يمكن الاستفادة بها منها، ويظهر عبقرية فى تنزيل النصوص الدينية على سياقاتها المناسبة ولا محمد عبده فى زمانه. وهذا اضطراب فى رسم شخصية بطل الرواية لا يغتفر من الناحية الفنية.

كذلك من المستحيل أن تعترف زوجة لزوجها الداعية الإسلامى الذى يملأ السمع والبصر ويشغل الدنيا والناس، بأنها قد خانته وزنت مع الطبيب الذى كان يعالج ابنهما، دون أن يكون هناك ما يدينها أو يكرهها على الإقرار بالخيانة، اللهم إلا أن زوجها قد خطر له فجأة أن يتهمها بذلك لفكرة برقت فى مخه بعد وقوع الخيانة المفترضة بزمن طويل دون أن يقدم أى دليل على ما يقول لأنه ليس معه أى دليل على ما يقول، فتندلق كالجردل وتعترف فى الحال بأنها فعلا قد خانته مع أنه كان من السهل عليها، فضلا عن أن هذا هو وحده المتوقع فى مثل تلك الحالة، أن تنكر ما خطر لزوجها مجرد خطور وتصر على الإنكار فلا يستطيع هو أن يثبت أى شىء، وبخاصة أن شريكها فى الزنا قد مات وشبع موتا، وامحت معه آثار الجريمة تمام الامحاء. لو كان الزوجان هما الأمير تشارلز فيليب آرثر جورج، ولى عهد بريطانيا، والأميرة ديانا سبنسر لكان هناك مجال للتصديق، أما مع هذين الزوجين الـمَشْيَخِيَّيْنِ فكلا ثم كلا، اللهم إلا إذا قال لنا أحدهم ساخرا إن "مولانا" قد فقد رجولته ونخوته منذ صار شيخا فضائيا مخصيًّا مِنْ قِبَل أمن الدولة، فهذا أمر آخر. وبالمناسبة فـ"مولانا" هذا هو، فى رأى بعض من اطلعوا على الرواية ويعرفون دنيا الفضائيات وأسرارها، الشيخ فلان الفلانى الذى يلعب بالبيضة والحجر، وله ألاعيب وملاعيب، وكانت له منذ أيامٍ فتوى "مولانوِيّة" أثارت لغطا

وسخطا، وتلقى لكمة فى وجهه منذ مدة، ولكن لم توقعه أرضا، ومن ثم لم يوقف الحكم المباراة ويخرجه من الحلبة خيفة على حياته.

وأنكى من ذلك وأدل على التهافت الفنى لدى الكاتب وبلاهة غريبة فى شخصية الزوج الداعية المبجل الذى يسميه الجميع بـ"مولانا"، أن يسارع بعد أيام قلائل إلى مسامحتها رغم معرفته أن مباحث أمن الدولة لا بد أن تكون على علم بتلك الخيانة، وكأن كل ما فعلته أنها أكلت خسا مثلا رغم نهيه لها عن أكل الخس! وأشد فى النكاية أن مباحث أمن الدولة تسكت على "مولانا"، الذى نكلت به تنكيلا مفزعا لخروجه على طوعها، فلا تسارع إلى استثمار هذه الفضيحة المزلزلة ولا تشيعها فى العالمين لتقضى عليه القضاء المبرم. ودعنا من أنهم لم يفضحوه على المشباك بالصوت والصورة حين زنى بنشوى الممثلة التى وزُّوها عليه لتكون أداة لفضحه عندما يؤون الأوان مثلما صنعوا مع فلان الفلانى رجل الراقصة الفيلسوفة حين صوروه عاريًا مَلْطًا وهو يجامعها وتصدر منها أصوات الغنج والشبق خلال ذلك طبقا لما يقوله رواد المشباك ويتناقلونه فى المواقع الإلكترونية المختلفة، والعهدة عليهم.

ثم هل كان تفجير الكنيسة، لو صح ما تقوله الرواية التى لا أظنها صحيحة أبدا من أنه عمل إرهابيين مسلمين، بحاجة إلى أن يقوم به صهر نجل الرئيس السابق بالذات، وإلى أن يلجأ هذا الصهر إلى التظاهر بالتنصر وحفر الصليب على رسغه بالسكين ولجوء النجل إلى "مولانا" كى يعيد عقل صهره إلى رأسه... إلى آخر شغل الأرسينين لوبينين هذا، وما أكثره فى هذه الحكاية وأعقده، من أجل أن ينقذه، وكأن وضع شحنة من المفرقعات فى سيارة أو سيارتين قرب الكنيسة أو تحتهما أو حول وسط إرهابى يندس بين مرتادى الكنيسة بوصفه واحدا منهم بعد أن يدق وشم الصليب على رسغه مثلا ويعلقه فى رقبته أمر من الاستحالة بمكان؟ وللعلم فقد قرأت مقالا يوم الأحد بعنوان "ثقافة الهزيمة- عصابة البقرة الضاحكة ٦" بموقع "مصرنا" يذكر كاتبه أن المقدم محمود عبد النبي العضو السابق بائتلاف "ضباط لكن شرفاء" قد صرح،

فيما يتعلق بتفجير كنيسة القديسين، بما يلى: "وأما حادث تفجير كنيسة القديسين بالأسكندرية فى ١ يناير٢٠١١ كلفوا أناس من تنظيم يعرف بأسم "جند الله" لتنفيذه بهدف أسكات النبرة العالية التى كان يتكلم بها فى الفترة الأخيرة البابا شنودة، وفق مخطط رجال العادلي كان من المفترض القضاء علي الجناة فى العملية نفسها حفاظا على سريتها لكن عناصر "جند الله" تمكنوا من الهروب خارج حدود مصر بعد تنفيذها . وفي النهاية، أكد المقدم محمود عبد النبي أمتلاكه لمستندات تدين أحد مساعدي حبيب العادلي المتهم في قضية قتل ثوار ٢٥ يناير، وجود علاقة قوية بين البلطجية ووزارة الداخلية في عهده، و أن منصور العيسوى (وزير الداخلية مارس– نوفمبر ٢٠١١) قام بتحويله للنيابة العامة للتحقيق معه بسبب إدلائه بتصريحات لإحدى الصحف بشأن هذا التنظيم. وعن انفجار السيارة المفخخة أمام كنيسة القديسين قال المقدم محمود عبد النبي فى حواره مع برنامج الحقيقة للأعلامى وائل الأبراشى على قناة " دريم الفضائية " فى ٢٨ يوليو ٢٠١١ أنه تم الأستعانة بسيارة مصادرة من الجمارك ليس لها ملف و لا صاحب لتنفيذ العملية" . ومع هذا نرى من يتهم حكومة حماس بأنها هى وراء تفكير الكنيسة المذكورة قائلا إن عدد من الحقوقيين الأقباط قدوا للنيابة العام بلاغا حول تورط حركة حماس في تفجيرات كنيسة القديسين والتي وقعت عشية رأس السنة الميلادية ٢٠١١ إلي نيابة أمن الدولة العليا .

وهنا أحب أن أشير إلى أن الصحفى إبراهيم عيسى قد أثبت فى نهاية رواية "مولانا" أنه قد بدأها عام ٢٠٠٩ وفرغ منها عام ٢٠١٢م. يريد إلى القول بأنه كتبها فى عهد حسنى مبارك، وكان ينوى نشرها فى ذلك العهد بوصفه ولدًا فَتِكًا شجيعا لا يبالى ولا يخشى فى سبيل المعارضة السياسية أحدا ولا شيئًا . وهذا هو المستحيل بعينه حتى لو صدقنا أن إبراهيم عيسى كان يعارض مبارك بحق وحقيق، وليس بالاتفاق مع أمن الدولة بغية التدليل على أن مبارك حاكم مستنير متسامح يترك معارضيه ينتقدونه دون أن ينالهم بأى

سوء، وإن كان موقف عيسى بعد الثورة من الرئيس المخلوع ودفاعه الملتهب عنه يصب، عند كثيرين ممن لا تقنعهم مواقفه السياسية فى العهد البائد، فى صالح من يتهمونه بأنه لم يكن معارضا حقيقيا أوانذاك.

وهناك فى الرواية أيضا حكاية عمر ابن "مولانا" المريض والموجود فى بريطانيا للعلاج، وإن كان أبوه قد انتابه الشك فى أن يكون قد مات وأخفت زوجته عنه حقيقة الأمر، وهى حكاية أعقد من ذنب الضب، ولا لزوم لها فى الرواية، فضلا عما فيها من لامعقولية. وهذا عيب شنيع آخر من عيوب العمل يفسده إفسادا شديدا . ثم لا ينبغى القفز فوق الأسلوب وما فيه من ركاكة وتفكك أحيانا، وووعورة وعثكلة أحيانا أخرى، وخلط بين الفصحى والعامية لا يجرى على منهج، وسطحية لغوية وفقر أسلوبى، بالإضافة إلى الأخطاء النحوية والصرفية التى كنت أحسب إبراهيم عيسى قد برئ منها، فإذا به لا يزال مرتكسا فيها . وقد أشعرتنى هذه النواقص بأن فن الكاتب لا يزال كما هو ضعفا وهزالا وافتعالا كما ألفيته فى روايته التى قرأتها له منذ أعوام طوال عن ذلك الشيخ الذى وضع عمله خصيصا للنيل منه وتشويه صورته وإظهاره بمظهر اللوطى القرارى. ثم، وهذا مربط الفرس، لا يمكن أى داعية مهما كان بهلوانا أن يزعم أن النصرانية، كما نعرفها اليوم، دين يقبله المسلم بوصفه دينا صحيحا كما تريد الرواية أن توهم القارئ المسكين به فيما دار من حوار بين صهر النجل و"مولانا" . هذه واسعة جدا يا أبا خليل، وبعيده عن شنبك! ثم أخيرا وليس آخرا تلك القفلة غير الحراقة التى انتهت بها الرواية، وهى البحث عن حسن صهر النجل، الذى نفذ تدمير الكنيسة وهرب. ترى هل يسمح أمن الدولة أولا أن يقال إنه هو المنفذ ؟ ولنفترض أنهم قد سمحوا أو غُلِبوا على أمرهم ووضعت الكنيسة يدها عليه، هل كانت تستطيع أن تمس شعره فى رأسه؟ إذن ما معنى هذه القفلة الساذجة؟

وبالمثل هناك مطاردة أمن الدولة والرئاسة للشيخ الصوفى المنتسب لبيت النبوة، الشيخ مختار الحسينى. ذلك أن الرجل لم يأت شيئا يمكن أن يوغر عليه الصدور فى الأمن أو فى رئاسة الجمهورية، فقد لجأ النجل إلى الشيخ ليساعده على التخلص من رؤيا مزعجة كانت تنتابه بطريقة مطردة فى الآونة الأخيرة،

وهى أن شخصا يخلع عنه ملابسه ثم يلقيه على بطنه دون أن يقوم هو بمقاومته. فتساءل الشيخ: ترى هل هى رؤيا أو واقع حقيقى؟ وهو تساؤل يستحيل أن يوجهه الشيخ إلى ابن الرئيس مهما بلغ تهوره أو حماقته وبلاهته. وهنا تقول الرواية إن النجل قد اتخذ منه منذ ذلك الحين موقفا عدائيا قاتلا، فصار الأمن يطارد الرجل ويؤذيه فى سمعته ويهاجم بيته ويسلط عليه أوباش الناس كى يزعجوه وينفضوا عنه أتباعه. والآن أنا أيضا، مثل الشيخ، لا أفهم سر هذا العداء من جانب الحكومة والحاكم للشيخ الطيب المسكين. قد يقال إن الشيخ قد عرف أن ابن الرئيس يعانى فى حياته من أمر مخز كهذا. لكن أليس ابن الرئيس هو الذى لجأ إليه؟ قد يجاب على هذا السؤال بأن الشيخ قد فهم أن الأمر واقع حقيقى لا رؤيا تظهر فى المنام، ومن هنا الخطر. والرد على الرد هو: لكن النجل قد قصد الشيخ ابتغاء العون منه، فكيف يعاونه دون أن يعرف حقيقة المعاناة التى يعانيها النجل بغض النظر عن كونها رؤيا أو واقعا حقيقة؟

إن أحدا لم يضرب النجل على يده كى يستعين بالشيخ، بل هو الذى بادر من تلقاء نفسه إلى ذلك. فعلام العداوة إذن إذا كان النجل هو الذى باح من عند نفسه بالسر للشيخ، الذى تقول الرواية إن معرفته به قد دفعت النجل إلى إصدار أوامره بإيذائه وتحويل حياته إلى جحيم، بل واغتياله فى نهاية الأمر؟ هذا ما لا أفهمه ولا أستسيغه، بَلْهَ أن أبلعه. ثم إذا كانوا بغبائهم خائفين من الشيخ لقد كانوا أحرياء أن يغتالوا "مولانا" أيضا لأنه الوحيد الذى يعرف ما كان يعرفه الشيخ، إذ ائتمنه الرجل على سر لقائه بنجل الرئيس وما دار بينهما من حديث بخصوص المعاونة المنشودة. فلماذا لم يفعلوا، وما كان ذلك ليكلفهم شيئا، إذ إن اغتياله لأهون من اغتيال الشيخ، الذى كان له أتباع بالملايين كما هو الحال فى كل طريقة صوفية ليس لـ"مولانا" أتباع مثلهم؟ هذه نقطة نقص أخرى فى الرواية. وقبل ذلك كله متى كانت أسرة الرئيس الراحل تفكر فى الاستعانة بشيخ من شيوخ المسلمين، وبخاصة أن النجل اشترط على الشيخ ألا يحدثه فى محنته عن القرآن والاستعانة به؟ فما الذى كان ينتظر الشيخ أن يقوله فى معاونته؟ لقد كانت الأسرة تتصرف وكأنها لا يربطها بالإسلام أى رابط،

وهو ما أكده من كانوا لصيقين بهم من رجال الدولة الذين فتحوا قلوبهم وتحدثوا لنا بمستودع أسرار الأسرة الحاكمة. كما كانت هناك حالة انسجام وتناغم بين النجل وكبير القبط حتى لقد كان كبير القبط يثنى عليه دائما ويعلن ترحيبه الملتهب بوراثته لأبيه فى رئاسة البلاد دون حرج أو حياء أو مراعاة لمشاعر أى إنسان فى البلد، ولم نسمع بمثل ذلك الانسجام والتناغم بين النجل وبين أى عالم إسلامى.

أما إذا كان لا بد من الاستعانة بشيخ من الشيوخ المسلمين لقد كان أمامهم وعلى مد ذراعهم الشيوخ الخانعون الذين يلبسونهم فى أقدامهم فلا يبدون تذمرا ولا تأففا، والذين لا يمكن أن يفكروا فى إفشاء مثل ذلك السر. ثم إننا لم نسمع عن النجل بأنه كان شاذا. لقد سمعنا مثلا أنه كان مدمنا لبعض ألوان الشموم، أما الشذوذ فكلا ثم كلا. وهنا نعيد القول مرة أخرى: هل يظن إبراهيم عيسى أن أحدا، فى ضوء ما قاله فقط عن شذوذ النجل، ودعنا من المصائب المتلتلة الأخرى، يمكن أن يصدقه حين يقول إنه بدأ وضع الرواية وحسنى مبارك لا يزال فى الحكم بما يعنيه هذا من أنه كان ينوى طبعها ونشرها فى عهده، وهذا إن وجد ناشرا مجنونا، ولو من خارج مصر العربية، قد فقد رشده يقبل أن يطبعها ويوزعها ؟

إلا أن هذا كله لا ينسحب على الحوار البارع الذى تمتلئ به الرواية من أولها إلى آخرها، وبخاصة حين تكون غزالة "مولانا" رائقة، فإنه يأتى حينئذ بالدرر النفيسة. وإنى لأعجب من استطاعة إبراهيم عيسى أن يأتى لنا بهذه الفكاهات البارعة فى روايته التى بين أيدينا رغم ثقل ظله الباهظ فى البرامج التلفازية التى يظهر فيها حتى إنى لأتساءل: هل صاحب هذه الفكاهات التى تضحك الثكالى وذلك الشخص الذى يظهر فى التلفاز ويقع من نفسى موقعا ثقيلا غير مريح هو رجل واحد ؟ كما لا ينطبق ما عبثُ به الرواية على كثير من المعلومات المفصلة الهامة التى تتعلق بالفرق الإسلامية وما بينها من خلافات وصراعات، وكذلك قضايا الفقه والحديث والتفسير وتفسير أمثلتها التاريخية الماضية من جديد بأثر رجعى، والطريقة التلقائية الطبيعية التى بُثَّ بها هذا كله فى ثنايا حوارات الرواية.

ومن تجاربى مع من يسمَّوْن بـ"الإسلاميين"، الذين أنتمى إليهم بمعنى من المعانى، أننا، حين كنا نصلى جماعة فى المبنى (ب) بالمدينة الجامعية بحى "بين السرايات"، يصر أحد الطلاب، وكان من كلية الزراعة، على أن يتقدم الصفوف ليصلى بنا إماما فى الصلوات الجهرية رغم أنه أخنّ على نحو غير مريح. بطبيعة الحال أنا لا أسخر من الرجل، أستغفر الله، فليس له ذنب فى خنته، إذ الله هو الذى خلقه هكذا، بل ألفت النظر إلى عدم اللياقة والغلاظة التى يتصف بها للأسف كثير من متدينينا . كما أننى، وأنا مدرس مساعد بالجامعة سنة ١٩٧٦م، ذهبت إلى مجلة "كذا" بحى قريب من القصر العينى سعيا لنشر مقال كنت كتبته عن "ظلال القرآن" لسيد قطب، فقابلت هناك شابا من أصحاب المجلة، وفى أثناء وجودى معه أبصرت شخصا داخلا المجلة لا أستطيع أن أتذكر الآن كيف خطر لى أنه الأستاذ محمد عبد الله السمان رحمه الله، فاستأذنت الشاب الذى كان معى أن أكلم الرجل، فقال: بكل سرور. ولكن ما إن تقدمت نحو الأستاذ السمان فرحا بلقاء كاتب يدافع عن الإسلام حتى بُوغِتُّ بالشاب ذات نفسه يقف فى طريقى حائلا بينى وبين الحديث إلى الرجل بصدره العريض المشرع فى طريقى كالجدار، وهو ما أثار استغرابى واستنكارى وضيقى.

وبالمثل تعرفت، وأنا فى السعودية، إلى ناشر مصرى شاب لحيته تكاد أن تصل إلى ركبتيه، عاد من هناك فى نفس التوقيت الذى عدت فيه من إعارتى عام ١٩٩٥م. وكنا قد اتفقنا على أن ينشر لى كتاب "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل" (والكتاب موجود على المشباك، أى الإنترنت)، وأعطانى ثلث المبلغ الذى وعدنى به، وفى مصر أعطانى الثلث الثانى. . . إلى هنا، والأمور ماشية عال العال، وإن لم تكن مواعيده معى على ما يرام، لكن لا ينبغى أن ندق على تلك النقطة كثيرا، أما الذى لم يكن ماشيا كما ينبغى فهو إلحاحه علىَّ أن أدخل معه شريكا فى عملية النشر والتوزيع مثيرا شهيتى بأن فلوسى سوف تتضاعف مرتين فى خلال عام واحد، وإلا فلأشتر منه قطعة أرض وراء النادى الأهلى بمدينة نصر بسعر المتر ٥٠٠ جنيه (يا بلاش! وهذا سعر خاص بى بالمناسبة حسب كلامه!)، وأنا أحاول الاعتذار بقلة

فلوسى صادقا وجهلى بأمور التجارة، بينما هو لا يكل ولا يمل. وفى مرة رأيته يأتينى على غير ميعاد فى شقتى التى كنت أشطبها قبل انتقالى إليها بالحدائق، وكان ذلك قبيل الإفطار فى رمضان، فاستبقيته ليأكل معى وأخذته لنفطر فى الشقة القديمة مفاجئًا زوجتى بضيف آخر ساعة، وكان هناك كالعادة سلطة خضراء، وفى السلطة بصل، فكان حريصا غاية الحرص على أن ينحى السلطة جانبا على الطبق مما جعل منظر الطبق والعام الذى فيه منفرا، فابتسمت منبها إياه إلى أن معه سواكا يستطيع أن يزيل به رائحة البصل، وأستطيع أن أعطيه بعض المعجون بالإضافة ذلك، ما دام لا يريد أن يذهب إلى الجامع وفى فمه تلك الرائحة، لكنه لم يأخذ برأيى. فاستغربت منه هذا التنوق فى أمر كهذا وفى أمر اللحية التى كان يطلقها على نحو مبالغ فيه ولا يتناسب أبدا مع قصره الظاهر، فى الوقت الذى لا يريد أن يسلمنى بقية مستحقاتى رغم تأكيده بأنه يكسب فى السنة الواحدة من وراء النشر ضعف ما ينفقه. . . وكفاية لحد هنا، فقد شرعتْ أعصابى تشيط!

ولكنْ من اللازم مع ذلك أن أضيف أنه حتى الآن لم يعطنى حقى. بل زاد فقال أمام أحد رجال القانون إنه إذا أراد أن يشكونى فليشكنى فى السعودية حيث كتبت معه عقد النشر. فانظر، أيها القارئ، إلى الخبث الشيطانى الذى يريد أن يقنعنا بأن الله الذى فى السعودية غير الله الذى هنا فى مصر. أليس المهم هو الله، والله موجود فى كل مكان؟ أم ترى هذا الثعلب يريدنى أن أقطع تذكرة تكلفنى عدة ألوف من الجنيهات، علاوة على تكلفة إقامتى فى جدة لمدة شهور أو سنوات حتى يتم الفصل فى القضية، وهو ما يحتاج إلى ميزانية دولة، بالإضافة إلى تكلفة إقامته هو أيضا مع تعويضه عن تركه أشغاله فى مصر طوال تلك الفترة، وإلا تحجج بأنه موجود خارج بلاد الحرمين الشريفين، ولا يمكنه من ثم حضور جلسات القضية؟ أما أنا فتفسيرى للأمر من واقع ملاحظاتى وتقليبى للمسألة جيدا أنه كان يخطط لوضع يده على ما ظنه عكمة أحضرتها من إعارتى للسعودية، من خلال إغرائى بمشاركته فى أعمال النشر وأكل مالى حلالا بلالا أو توريطى فى قطعة أرض تباع لى ولغيرى فى ذات الوقت أو ما إلى هذا، وكانت الدفعتانِ الأُولَيَانِ شِصًّا أراد به اصطيادى، ولما

ألفانى لا أستجيب لمخططاته قال لنفسه: هذا الرجل لا يستحق أن أعطيه بقية حقه ما دام لم يقع فى الشَّرَك.

هذا ما خطر لى، والله أعلى وأعلم.

ومن المناسب، فى سياق الكلام عن تربية اللحية، أن أنقل الخبر التالى من جريدة "المصريون"، وهو عن آخر تطورات قضية الضباط الملتحين، تلك التى فاقت فى أهميتها قضية الأسلحة النووية والهيدروجينية فى العالم، والأمر كله سخف فى سخف، إذ ما دخل الدولة فى أن يطلق بعض رجال الشرطة لحاهم أو لا يطلقونها؟ ناس يريدن تربية لحاهم، فلماذا تمنعهم الدولة من تلك التربية؟ ولكنْ على الناحية الأخرى ما كل تلك الأهمية التى يوليها هؤلاء الضباط وأمناء الشرطة للحية، وكأنهم سيفتحون بها عكا أو ينتشلون مصر مما هى فيه من تخلف شامل على كل الأصعدة، ويعيدون إليها الأمن الذى نفتقده هذه الأيام، ويقضون على إسرائيل ويردون للفلسطينيين حقوقهم المشروعة المهدرة؟ والخبر عنوانه: "وعود رئاسية للملتحين بالعودة للعمل خلال ٧٢ ساعة"، وهو يجرى كالتالى: "وعدت مؤسسة الرئاسة الضباط الملتحين بحل الأزمة الخاصة بهم في غضون ٧٢ ساعة، وذلك بعد إجرائها مفاوضات مع وزارة الداخلية لعودة الضباط إلى عملهم تنفيذاً للحكم القضائى، فيما هدد عدد من الضباط بالتصعيد إذا استمر التجاه. وقال العقيد أحمد شوقي إن وفدَ الضباط الملتحين الذي التقى بمحمد حسين مستشار الرئيس للأمن وعدهم بدراسة المشكلة والرد عليهم في غضون ثلاثة أيام، مشيرًا إلى أن مستشار الرئيس أبلغهم بسعى مؤسسة الرئاسة خلال الأيام المقبلة للتفاوض مع وزارة الداخلية وبحث عودتهم إلى العمل في أقرب وقت.

وأضاف شوقي أن مستشار الرئيس عرض عليهم مجموعة من الحلول منها عودتهم إلى العمل ولكن بلبس مدنى إلى فترة معينة لحين توفيق الوزارة لوضعهم الجديد وإعطائهم كل حقوقهم، فضلاً عن مقترح آخر بعملهم فى وزارات كالبترول والكهرباء أو الانتظار لحين انتخاب مجلس النواب وهو ما رفضه الضباط الملتحون. وأشار شوقي إلى أن الضباط طالبوا مؤسسة الرئاسة خلال اللقاء بضمانات حقيقية لعودتهم إلى

العمل في غضون مدة محددة، بالإضافة إلى رفع الظلم الواقع عليهم من وزارة الداخلية كرفع القضايا وتوقيع الجزاءات، فضلاً عن تنفيذ حكم محكمة القضاء الإدارى بعودتهم إلى العمل. وأضاف النقيب أحمد حمدى، أحد الضباط الملتحين، أنهم تلقوا وعدًا من مؤسسة الرئاسة بحل القضية في غضون ٧٢ ساعة، مهددًا بالتصعيد حال أخلت الرئاسة بوعدها فى حل القضية، فيما توقع النقيب أحمد حسن أن يتم لقاء بين الضباط الملتحين والرئيس محمد مرسي في غضون ثلاثة أيام، مشيرًا إلى أنه لا يوجد حتى الآن حل واضح من جانب مؤسسة الرئاسة للمشكلة، موضحًا أنَّ الضباط وضعوا مجموعة من المقترحات أمام الرئاسة التى وعدت بدراستها والرد عليها خلال أقرب وقت. لكنه أشار في الوقت ذاته، إلى أن "هناك إشكالية لدى مؤسسة الرئاسة لحل القضية نظرًا للإجراءات القانونية التى اتخذتها وزارة الداخلية ضد الضباط من الفصل التعسفي وفرض الجزاءات على الضباط". يا مُهَوِّن!

والغريب أن اللواء محمد إبراهيم وزير الداخلية قد رفض تنفيذ الحكم القضائى، وهدد أنه لن يسمح لهؤلاء الضباط والأمناء الملتحين بالعودة إلى أعمالهم ما دام على رأس وزارة الداخلية. وهو أمر بالغ السوء، ويبعث برسالة مخيفة للمجتمع تقول إنه لا قيمة لأحكام القضاء لدى المسؤولين ولا للحرية الشخصية. أقول هذا رغم تصورى أن إطلاق اللحية لا يقدم فى الدين ولا يؤخر، لكنى أصر مع هذا على قوله احتراما لاختيار الآخرين وإرادتهم ونزولا على اختلاف العقول والأذواق طبقا للسنة الإلهية. وقد علق أحد رجال الشرطة الملتحين على تصريحات الوزير بأن الوزارة ليست عزبة يملكها كى يمنع من العمل فيها من يشاء، وأنه لا توجد قواعد أو لوائح تمنع أعضاء هيئة الشرطة من إعفاء اللحية، وأن ما قاله الوزير بخلاف ذلك هو مجرد كلام مرسل. وبعيدا عن هذا الموضوع ألفت الانتباه إلى أن مثل تلك التعليقات لم تكن ممكنة من قبل ولا مسموحا بها البتة، وأن من كان يفكر مجرد تفكير فى الاعتراض على تصريحات الوزير فلا بد من التنكيل به. إذن فنحن أمام ثورة أطلقت عقال ألسنة الناس وحفزتهم على أن يقولوا ما يعتمل فى نفوسهم ويسلكوا السبيل التى

يريدون سلوكها، وإن كان بعضهم يستخدم ذلك أحيانا فيما لا يفيد، وبعضهم يستخدمها فيما يضر أيضا. وأملنا معقود على الزمن وأثره، إذ نرجو أن يفيء المصريون إلى الاعتدال فى كلامهم وتصرفاتهم بعد أن يفيقوا من صدمة الثورة وألا يتأخر هذا كثيرا. كما نتطلع إلى أن يحترم المسؤولون أحكام القضاء ولا يقفوا فى طريقها ما دمنا قد اخترنا الديمقراطية سبيلا لنا، وإلا فلنفضَّ سيرة الثورة ونعود إلى المربع الأول من جديد، ونأتى بحبيب العادلى وحسنى مبارك يحكماننا مرة أخرى. وقد طالبت الدعوة السلفية الرئيس محمد مرسي بإقالة الوزير لتصريحه بأنه لن يقبل عودة الضباط الملتحين إلى العمل بوزارة الداخلية حتى لو حُكم عليه بالحبس. وقال المهندس عبد المنعم الشحات، المتحدث باسم الدعوة السلفية، في حسابه على "تويتر"، الجمعة: وزير الداخلية يعلن أن السجن أهون عليه من عودة الضباط الملتحين (يا ساتر يا رب!). ومع هذا فنحن لا نرضى له السجن. يوجد خيار سلمي يسمى: الاستقالة".

غير أن المسألة اتخذت منحى خطيرا حين وصلت الأمور إلى التفكير فى تكفير وزير الداخلية لموقفه الذى لا نوافقه عليه مثلما لا نوافق الضباط وأمناء الشرطة الملتحين على فهمهم للمسألة وتصورهم أنهم يحاربون من خلالها معركة عظيمة لنصرة الدين. لقد دخلنا إذن فى التكفير والآثام والردة من أجل اللحية، وكأن رسول الله قد نص على أن ليس للإسلام سوى قاعدة واحدة هى تربية اللحية وتشعيثها. أهؤلاء هم الذين يريدون أن يحكموا مصر؟ إن الوزير مخطئ، ولا أظنه فعل ذلك من دماغه، وإلا أفليس لرئيس الوزراء ورئيس الجمهورية آذان يسمعون بها ما يجرى، وألسنة يعبرون بها عن موقفهم منه؟ لكن أن تصل الأمور إلى الخوض فى التكفير والردة والزعم بأن إطلاق اللحية، وخصوصا بهذه الطريقة الهائشة الشعثاء التى لا يستريح لها النظر، أمر أجمع عليه المسلمون بحيث إن من يرى غير ذلك يكون خارجا عن الدين، فتلك هى الطامة الكبرى. وأبشروا يا مسلمون بالفشل الذريع إذا ما استمررتم تمارسون حياتكم على هذا النحو العجيب. وبعد أن كتبت الكلام السابق بيوم قال الشيخ أحمد فريد، عضو مجلس إدارة الدعوة السلفية، بناء على ما ذكرته

جريدة "المصريون" تحت عنوان "فيديو- أحمد فريد لـ"وزير الداخلية": الإخوان لن ينفعوك" بتاريخ ١٤/ ٥/ ٢٠١٣م: "إن وزير الداخلية ينفذ توجيهات الإخوان المسلمين والرئيس في معارضة عودة الضباط الملتحين إلى عملهم بجهاز الشرطة، لافتًا إلى أن حبيب العادلي وزير الداخلية في عهد الرئيس المخلوع ما كان يجرؤ على أن يذكر تصريحات اللواء محمد إبراهيم". وتابع، خلال برنامجه على قناة "أمجاد"، أن وزير الداخلية يتحدى الدستور والقضاء، وقبض ثمن استمراره في منصبه بمنع الضباط الملتحين من العودة، قائلا: "ما تفعله خيانة لدينك ووطنك، والسلطة الحالية لن تنفعك".

ورغم أنى مع حق من يريد الالتحاء فإن القول بأن ما يفعله الوزير خيانة للدين والوطن هو كلام ضخم وفى غير محله. والأمر أبسط من هذا فى رأيى. ومع ذلك فكلٌّ وما يراه. وكان بعض المتدينين قد تساءل عما إذا كان ينبغى تكفير الوزير أو لا. فهل من المعقول يا إلهى أن تبلغ الأمور هذا الحد المفزع؟ ولأمر ما قال رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه: "ألا هلكَ الْمُتَنَطِّعونَ! ألا هلَكَ المتنطِّعونَ! ألا هلكَ المتنطِّعونَ!"، ولأمر ما أيضا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: "والذي لا إله إلا هو ما رأيت أحدا كان أشد على المتنطعين من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا رأيت أحدا أشد عليهم من بعده من أبي بكر. وإني لأظن عمر كان أشد أهل الأرض خوفا عليهم أو لهم". وعن أبى سعيد الخدرى: "يخرُجُ فيكم قومٌ تَحْقِرُونَ صلاتَكم مع صلاتِهم، وصيامَكم مع صيامِهم، وعملَكم مع عملِهم، ويقرأُونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهم. يَمْرُقونَ منَ الدّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ: يَنْظُرُ في النَّصْلِ فلا يَرَى شيئًا، ويَنْظُرُ في القِدْحِ فلا يَرَى شيئًا، ويَنْظُرُ في الرِّيشِ فلا يَرَى شيئًا، ويَتَمَارَى في الفُوقِ".

تعالوا نقرأ معا مقال على عبد العال المنشور فى موقع "الإسلاميون" بتاريخ الأحد ١٣-٥-٢٠١٣م تحت عنوان "الشيخ ياسر برهامي يرفض تكفير وزير الداخلية بسبب تصريحاته عن اللحية والضباط الملتحين": "رفض الشيخ ياسر برهامي، نائب رئيس الدعوة السلفية، الحكم بتكفير وزير الداخلية المصري

اللواء محمد إبراهيم بسبب قول الأخير إنه طوال ما بقي حيًّا فلن يسمح بدخول الضباط الملتحين لممارسة عملهم بوزارة الداخلية. وذهب برهامي إلى أن "الذي كفّره بذلك متجاوز للضوابط الشرعية"، مشيرا إلى أن "التسرع في التكفير عمومًا، وللمعيَّن خصوصًا، مِن علامات أهل البدع. ويتأكد ذلك في حق مَن ليس من أهل العلم". وجاءت فتواه ردا على أحد السائلين، ونشرها موقع "صوت السلف"، الذي يشرف عليه الشيخ. وقال الدكتور برهامي: إن "التصريحات التي صرَّح بها الوزير تصريحات شديدة الاستفزاز لمشاعر كل مسلم ملتزم، فضلاً عن مخالفتها الصريحة للشرع ثم لواجباته الدستورية والقانونية". متسائلا: "فكيف يقول هذا المسئول الأول عن تنفيذ الدستور والقانون إنه لن يحترم ذلك الحق للضباط الملتحين؟"، مؤكدا أن ذلك ولا شك "جريمة شرعًا وقانونًا (. . .)، لكن التأويل والجهل يمنعان من اعتبار ذلك ردة أو استحلالاً يكفّر به". كان برهامي قد سئل: ما حكم وزير الداخلية في شرع الله بعد تصريحاته حول اللحية والضباط الملتحين؟ وهل يسع السكوت عليه؟ بمعنى: أليس هذا استهزاءً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل محاربة واضحة صريحة لها؟

وفي توضيحه للمستفتي قال برهامي: لم نكفِّر "أمن الدولة في النظام السابق" رغم جرائمهم التي لا وجه للمقارنة بينها وبما قاله الوزير، فقد كانوا أعظم صدّاً عن سبيل الله بما لم يوجد في العالم! ومع ذلك فلم نكفرهم لأجل عدم استيفاء الشروط وانتفاء الموانع. فكيف نكفر الوزير بذلك؟! هذا لا يجوز. أما في شأن السكوت عن تصريحات الوزير فقال الداعية السلفي المعروف إن الساكت عن تصريحات الوزير شريكه في الإثم، خصوصًا إذا كان في موضع المسئولية "بل هو المسئول عن الوزير وتصرفاته". والإشارة هنا واضحة إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء لأنهما المسؤولان عن وزير الداخلية.

وفي نفس الفتوى سأل الشيخ: ما الموقف من الاعتقالات التي بدأنا نسمع عنها الآن لبعض الإخوة السلفيين خصوصًا؟ وهل نستعد لحرب بدأها الإخوان علينا بالفعل؟ فأجاب: إلى الآن لم يصل إلينا في أمر

الاعتقالات أنها عودة لطريقة النظام السابق. ثم خاطب المستفتي قائلا: لكن "تأكد أنها لن تعود لا من الإخوان،ولا من غيرهم. ويستحيل أن نسمح بذلك، ولكن لا بد من التثبت قبل أي تصرف. وأضاف: الذي وصلنا أن ما تم لبعض الأفراد كان بأدلة النيابة، ونحن نتابع الأمر قانونيًّا ولن يكون هناك سكوت عن أي تجاوز من أي شخص يخالف ما نص عليه الدستور من حقوق المواطنين سواء كان المُعْتَدَى عليه مسلمًا أو غير مسلم، فضلاً عن أن يكون ملتزمًا من أي اتجاه كان. وفي السياق ذاته، وتعليقا على تصريحات وزير الداخلية، كتب الشيخ عبدالمنعم الشحات في تدوينة له على "تويتر" يقول: وزير الداخلية يعلن أن السجن أهون عليه من عودة الضباط الملتحين (يا ساتر يا رب). ومع هذا فنحن لا نرضى له السجن يوجد خيار سلمى يسمى "الاستقالة". كما هاجم حزب النور وزير الداخلية على التصريحات ذاتها".

وبمناسبة ما نحن فيه من حديث عن اللحية وحكم إطلاقها أسوق الحكايتين التاليتين: فقد فوجئت، وأنا فى الإسكندرية فى بدايات ثمانينات القرن الماضى عند بعض معارفنا، بهم يتحدثون فى ضيق عن مطاردة أحد الضباط كل ليلة لابن من أبنائهم مما دفع الولد إلى الهرب عند أخته المتزوجة فى مكان آخر من المدينة. وبالسؤال عن سبب المطاردة قيل لى إنه قد أطلق لحيته، وهو ما لا يعجب الشرطة، فتطارده هو وأمثاله وتضيق عليهم وتُعْنِت حياتهم. وكان تعليقى أنه إذا كانت الشرطة تشبه الثور الغبى فى هيجانه ضد المنديل الأحمر الذى نمسك به فيهاجمنا وينطحنا ويؤذينا، فما أحرانا أن نكون نحن عقلاء وننحى المنديل بعيدا بحيث لا تقع عليه عيون الثور الأحمق الغبى، وبذلك نسلم من الأذى وتعب البال، رغم تسليمى بأحقية أى إنسان فى تربية لحيته. ثم أضفت أن إطلاق اللحية ليس بالركن الركين فى الإسلام، بل هو سنة، وفى رأى طائفة من العلماء: هو سنة اجتماعية ليس إلا. وليس من الحصافة فى شىء أن أعرّض حياتى وحياة أهلى لكل هذا العنت والضرر فى سبيل أمر كأمر اللحية ليس له كل تلك الأهمية التى يظنها كثير من الملتحين. إلا أن الشاب المذكور رفض هذا الاقتراح قائلا فى نبرة حاسمة وعالية: "إن التشبه بالرجال فلاحٌ". فسكتُّ حين

لم أجد لكلامى صدى فى نفسه. ثم مرت الأيام لأعرف أن ذلك الشاب، وهو حاصل على الإعدادية ويشتغل نجارا، لا يكمل أبدا عملا بدأه، وأن مواعيده كلها فاشوش، وأنه يعتمد بشكل كبير على معونة أمه، وأنه فوق ذلك يدخن، وأنه لم يبدأ عملا عند أحد الزبائن إلا وانتهى الأمر بخلاف مع العميل وترك بقية حقه لأنه لم يكمل العمل. وقد ضقت بهذا كله ضيقا شديدا لأننى أحب له ولأهله الخير والفلاح، وشعرت جَرّاءَ ما عرفته من حقيقته المناقضة لمظهره بمرارة شديدة.

أما الحكاية الأخرى فتتعلق بشاب طبيب أزهرى ملتح حديث عهد بالتخرج كنت أراه فى تلك الفترة كثيرا، ونتحدث فى أمور الدين، فلاحظت منه اهتماما باللحية غير عادى باعتبارها أساسا من أسس الإسلام لا يمكن أن يكون هناك إسلام ولا إيمان بدونها. وكان رأيى ولا يزال أن إطلاق اللحية مسألة شخصية واجتماعية وأنها لا تمثل من الدين الحقيقى قليلا أو كثيرا، مع عدم إنكارى على من يرى خلاف ذلك، إذ هناك من يرى وجوبها أو على تقدير: سُنِّيَّتَها. والشاهد فى هذا الكلام هو انبراؤه للتو واللحظة معلنا أن هناك سبعة عشر حديثا توصى باللحية، فرد أحد أفراد جماعته ممن كانوا حاضرين ذلك النقاش مصححا أن الأحاديث التى تحض على هذا أربعة وعشرون لا سبعة عشر. وهنا ضحكت قائلا: أوعددتم أحاديث اللحية أيضا؟ بارك الله فيكم. ثم قلت للطبيب: أراك تقتنى كتب الصحاح وكتب الفقه كاملة وما أشبه، فى الوقت الذى لا أرى فى مكتبتك أى كتاب فى تخصصك. فهل هذا يصح؟ إن الله سائلك يوم القيامة عن عدم إتقانك لعملك وإهمالك التبحر فى تخصصك، ولن يحاسبك على أنك لم تكن فقيها ولا محدثا لأن هذا خارج تخصصك.

ومن الطريف أننى ذات مرة كنت أحدثه عن وجوب زواجه بعدما تخرج ووجد وظيفة يعيش منها ويستطيع أن يفتح بيتا، فقال عند الكلام عن الشروط التى يتطلبها فى العروس إنه يريد فتاة أمية لا تستطيع القراءة ولا الكتابة. لماذا يا مولانا؟ لكيلا تكتب رسائل غرامية لأحد. فقلت له: وهل تظن أن الفتاة الأمية لا تشعر بعاطفة ولا شهوة أو أنها تتحدث مع أمها الأمية مثلها طول النهار فى العقيدة والدين والأخلاق الفاضلة،

ولا تعرف المراسيل الغرامية؟ إن البنت المتعلمة، على الأقل، قد حفظت بعض الآيات والأحاديث، ودخل دماغها بعض المعلومات التاريخية والسياسية والجغرافية والرياضية والطبيعية والدينية مما تستعين به فى كلامها بدلا من أن يكون كل حديثها عن الطبخ والزريبة والبهائم والجلة مما لا تحسن سواه الفتاة الأمية. ثم أردفت مداعبا: إن أمامك على الناحية الأخرى من الطريق بيتا يضم، فيما أسمع، خمس فتيات جميلات ومتعلمات أو يتعلمن، ومنهن خريجات جامعيات. فكيف لا تفكر فى خِطْبَة واحدة ممن تخرج منهن بدلا من الاقتران ببنت لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف الألف من كوز الذرة؟ ويبدو أن كلامى قد أثر وأثمر فى عقله، إذ سمعت بعد شهور أنه خطب واحدة من الفتيات الخمس الجميلات، ثم خطب أخوان له أختين من أخواتها. إلى هنا، والأمر عال العال. لكن الذى ليس بعال، فضلا عن أن يكون عال العال، أبدا أنه قد دعا لحفل الخطبة وحفل القران كل الناس إلا العبد لله. ما رأيك أيها القارئ العزيز فى هذه الحدوتة؟ بالزيت أم ملتوتة؟

وبالمناسبة أعرف بعض الصحفيين الذين يعملون فى جريدة تابعة لأحد الأحزاب المتشددة التى ترى فى اللحية والنقاب ركنين عظيمين من أركان الدين، ودائما ما يشكون أن إدارة الجريدة يؤخرون رواتبهم بالأشهر، فضلا عن أنهم لا يسلمونها لهم كاملة بل بالحتة، إلى جانب أنهم حتى الآن لم يعملوا على إلحاقهم بنقابة الصحفيين رغم عملهم عندهم لمدة عامين. ثم إن رئيس التحرير يقول متباهيا، للصحفيين الذين يشتغلون تحت يديه والذين لا يرقب فيهم إلا ولا ذمة، بل يُخْرِج فيهم كل عقد نقصه وحماقته، إنه كان عضوا فى الحزب الوطنى، لكن الله مَنَّ عليه بأن أطلق لحيته. يا سلام على الإيمان الذى يخر من الرجل خريرا! أوسعوا الطريق، ففاتح عكا ومحرر فلسطين قادم بلحيته التى من الله بها عليه، فهى لحية ولا كل اللحى! أرأيتم تنطعا وخبثا كهذا التنطع والخبث؟ ولقد قال هذا عقب تخفيض الجماعة مرتبات الصحفيين إلى النصف دون أن تعلمهم بذلك مسبقا، وهو ما تكرر بعدها بشهور، إذ نزلت المرتبات إلى الربع. وليأكل الصحفيون الغلابى من تحت أرجلهم كما يحبون.

وأخبرنى صحفى شاب يعمل معهم أنه كان يغطى مؤتمرا ما، فقابل هناك واحدا من مسؤولى الحزب الذى يصدر تلك الجريدة، فقرَّعه هو وزملاءه على أنهم لا ينشرون له صورا جميلة فخمة كالتى ينشرونها لفلان دائما. وفلان هذا هو ذلك الشاب الذى يخرج كل يوم علينا بتصريح يهاجم فيه رئيس البلاد ويعترض على كل ما يفعله أو يقوله بسُخْفٍ ما له نظير. ثم جلس المسؤول على مكتب من المكاتب هناك وأمر صحفينا الشاب هو وزملاءه بالتقاط صور جميلة له تنشر مع أحاديثه وأخباره كفلان الزنان. ثم زاد فطلب من الصحفى المسكين أن يحمل له حقيبته عنه ويتبعه. وقد ظن الشاب فى البداية أنه نوع من العشم الذى يتعشمه الأب فى أولاده، إلا أن المسألة طالت وباخت، والمسؤول الملتحى يتحرك هنا وهناك، والشابُّ حاملُ الشنطة يتحرك وراءه دون أن يكلف الرجل خاطره النظر خلفه إلى حامل شنطته أو توجيه كلمة له يطيب بها خاطره أو الاعتذار بأى عذر كاذب عما يجشمه إياه من إرهاق. وهنا غُلِب حمار الصحفى الشاب وبلغ به الاشمئزاز مداه، فطلب من الرجل الثقيل الظل أن يسترد شنطته. ولما جاءنى وروى لى الواقعة قلت له: إن هذا البغل يظن أنك، ما دمت تشتغل فى جريدة الحزب، فأنت عبد عندهم، وظيفتك حمل حقائبهم دون تذمر. ولأنه واحد من رجال الحزب وجب عليك فى نظر ذلك الأعمى البصيرة أن تشتغل خادما له دون أن تفتح فمك بنأمة اعتراض.

وقصة أخرى كنت شاهدا وسامعا لها منذ يومين، إذ كنت أزور بعض معارفى، ولهم ابن مدرس مساعد، ولداه الصغيران حرارتهما شديدة الارتفاع، فاتصل بزميل جديد فى العمل بمثابة تلميذ له، أبوه طبيب أطفال ذو لحية، كى يسأله عن ميعاد عيادة الوالد، فأعطاه هاتفه، فاتصل به، وكنا يوم الخميس، فقال له الطبيب إنه ليس بالعيادة الآن، بل بالمنزل (وهذا المنزل يبعد عن المنزل الذى كنا فيه بنحو خمسين مترا)، ولما شرح له الأب الشاب أمر طفليه الصغيرين (سنتين، وسنة) كان رده: اطمئن، فمرض الأطفال الصغار لا يخيف. وعلى كل حال يمكنك أن تأتينى فى العيادة يوم السبت. وكانت عيادته تبعد عن المنزل نحو ثلاثين

كيلومترا، إذ هما يسكنان القاهرة الجديدة فى حين أن يعادته تقع فى حدائق القبة، وهو ما يعنى أن على الطفلين أن يبقيا مرتفعى الحرارة يومين وزيادة إلى أن يتكرم الطبيب الملتحى (الذى لا يستطيع أن ينطق بجملة واحدة دون ترصيع ما يقوله بآية قرآنية أو حديث نبوى) برؤية الطفلين المريضين المسكينين، إذا بقى الطفلان على قيد الحياة أو لم تتدهور حالتهما تدهورا شنيعا .

وشىء آخر فى الحكاية هو أن الأب الشاب كان حريصا دائما على أن يصطحب ابن الطبيب معه فى سيارته كلما رآه أو علم أنه ذاهب إلى الشغل أو راجع منه نظرا لما بينهما من جيرة وما يشعر به تجاهه من تعاطف جراء ما يتعرض له من تعب وإزعاج ومصاريف فى ركوب ثلاث مواصلات أو أربع فى كل مرة ذهابا وإيابا، فضلا عن اهتمامه بأن يأخذه معه كلما كان هناك شغل فى يده يمكن أن يستفيد منه الابن ماديا . والأب الطبيب يعرف ذلك جيدا، وكثيرا ما رآه وهو ينزل ابنه أمام بيتهم، وكثيرا ما دار بينهما الحديث. وأعرف فوق ذلك أن أبا الطفلين المريضين سوف يدفع أتعاب الطبيب. وكنت أتصور، وأنا أتابع المكالمة بينه وبين الطبيب الملتحى، أن هذا الأخير سوف يرحب بأن يستقبله هو والطفلين فى منزله حالا ليفحصهما ويصف لهما الدواء، وهو ما لن يستغرق سوى دقائق غير معدودات، أو يصف له أى دواء خافض للحرارة هاتفيا . وحتى لو كان أبو الطفلين لن يدفع شيئا، أو حتى لو لم يكن يعامل ابنه بهذه الروح الإنسانية، فأين حقوق الجيرة؟ بل أين حقوق الإسلام؟ بل أين حقوق الإنسانية؟ بل أين حقوق الطفلين الصغيرين المسكينين؟ بل أين واجب الطبيب نحو مرضاه، وبخاصة أن هذا الواجب لن يستغرق سوى عدة دقائق يمكنه أن يحتسبها عند الله، الذى لا يضيع عنده المحتسَبات والذى لا يكف هو عن الاستشهاد بآياته وأحاديث نبيه؟ وبطبيعة الحال قد ذهب أبو الطفلين بهما، عقب مكالمته مع الطبيب الملتحى، إلى طبيب آخر إذ لا يمكن أى أب الانتظار يومين أو أكثر فى هذه الحالة إلا إذا كان ملتاث العقل أو حجرى القلب لا يبالى بالنتائج، وبخاصة أن الطفلين الرقيقين الهشين كانا يتألمان ويصعب عليهما التنفس الطبيعى نظرا لإصابتهما بالرشح وانسداد الأنف. وقد سألت اليوم

السبت الوالد الشاب: هل اتصل بك الطبيب اليوم ليسألك عن الطفلين ولماذا لم تأخذهما إلى عيادته، كنوع من برو العتب كما يقول العامة؟ قال لى الوالد الشاب: لا لم يتصل، ولا اتصل بى ابنه ليعرف ماذا فعلتُ بابنىَّ. وأخيرا فالولد ملتح كأبيه، وإن لم تكن لحيته بضخامة لحية الوالد .

ثم حكاية أخرى أيضا، فقد اتصل بى هاتفيا منذ عدة سنين شخص أنبأنى أنه يريد أن يشترى منى بعضا من كتبى حددها بالاسم، فضربت له موعدا حضر فيه بالتمام. ولما فتحت له الباب وجدته يعطينى ظهره، فلما سمع حسى استدار لى ففوجئت بلحيته الطويلة جدا والكثة جدا، فأخذت أداعبه مستفسرا عن سر إدارته ظهره للباب،قال: كيلا أجرح أحدا إذا ما فتح الباب وكان هناك من يجلس فى الردهة. فقلت له وأنا لا أزال أضحك: فى هذه عدّاك العيب. ثم دعوته للدخول، فدخل. وبعدما قدمت له واجب الضيافة قمت فأحضرت له الكتب، وكانت سبعة عشر. فسألنى عن ثمنها فأجبته: إنها هدية لك إعجابا باهتمامك بالقراءة وأنت الأسطى السابق الذى كان يصلح الرادايرات كما ذكرت لى. وأنا، على كل حال لا أبيع كتبى لمن يطلبها منى. فشكرنى، وشرع يفلّى الكتب، فألفى واحدا منها قد طالت عقبَه بعضُ الرطوبة، فبان عليه الأسف الشديد، واستسمحنى أن أغيره بواحد يخلو من هذا العيب. قلت له وأنا لا أزال أضحك: معلهش! تغاض عن هذا العيب البسيط، وسامحنى. فالكتاب جديد تماما، إلا أن الرطوبة قد طالت بعض نسخه، وهذه من أقلها عيبا . لكنه ظل قلقا غير سعيد، وعاد إلى الإلحاح ثانية، فأجبته بأنى أتوقع أنه سيبيع الكتب إلى بعض العرب، ومع ذلك فأنا راض تمام الرضا عن ذلك. وباركت له صفقته، التى أنكرها، والتى أصررت أنا ضاحكا على أنها صحيحة. ثم أعلنت له أنه بهذه الطريقة يحزننى ما دام لا يستطيع أن يقبل منى هذا "التقصير" غير الخطير. كل هذا وكأننى لم أقل له شيئا . فكنت حاسما هذه المرة، وإن ظللت رغم هذا منذ ذلك الحين أثنى فى قلبى عليه وعلى اهتمامه بالكتاب والعلم. وفى النهاية غادرنى. وبعد عدة أيام وجدته يعاود الاتصال بى، فحسبت أنه يريد أن يناقشنى فى بعض آرائى الموجودة فى كتبى، إلا أنه أخذ

يستسمحنى أن يزورنى مرة أخرى كى أغير له النسخة المرطوبة، فأصررت على الرفض مستعجبا منه ومن تصرفه الغريب. ترى ماذا أفعل؟ ومع هذا فإنى غير حانق عليه، بل متعاطف معه إلى حد كبير للأسباب التى سقتها . لكن لم يعجبنى هذا التنطس المرهق الذى أشعرنى وكأنى قد قصرت تقصيرا شديدا فى حقه. والحكايات التى من هذا النوع كثيرة.

وأحب أن أهتبل هذه السانحة فأنقل هنا مقالا كتبه محمد محسن أبو النور على صفحته الفيسبوكية بعنوان "قذائف أمام السفارة الإيرانية" يقول فيه: "ما لا يعرفه البعض أن كاتب تلك الأسطر كان قبل ٧ سنوات عضوا نشطا في تنظيم الدعوة السلفية بمسقط رأسه بمحافظة بني سويف وما يزال يحتفظ بصور له ألتقطت بلحيته التي كادت أن تصل إلى منتصف صدره.

ومن حسن الحظ أن تلك الفترة الجامعية في حياته كانت ثرية وانضم فيها لأغلب التيارات الدينية والمدنية بشكل أعطاه قدرة كبيرة على فهم طبيعة تفكير كل جماعة وكل حزب وكل تنظيم. وحتى الفرقة الثالثة من المرحلة الجامعية كانت صورة بطاقته الجامعية بلحية كبيرة لدرجة جعلت عناصر من جهاز أمن الدولة المنحل تطارده في كليته ثم في محيط منزله، وكان ينتظر زبانية الجهاز المنحل في كل ليلة، حتى أقنعه أستاذه الدكتور محمد فهيم بالعدول عن هذا الطريق وأقنعه بأن يكون أزهريا وسطيا . وقد كان.

ما قُصد من الأسطر السابقة توضيح خلفية علاقات متشعبة وغير محدودة بتنظيم الدعوة السلفية بوجه خاص والإسلاميين الأصوليين بوجه عام. ففي عام ٢٠٠٥م، عندما قرر الدكتور أيمن نور الترشح في انتخابات الرئاسة أمام الرئيس المخلوع مبارك، قرر كاتب تلك الأسطر أن يذهب إلى صناديق الاقتراع وأن يعطي صوته لرئيس حزب الغد بديلا عن مبارك الذي بلغ من العمر أرذله. ليس هذا هو بيت القصيد، لكن المهم في هذه الواقعة أنه قبل أن يدلي بصوته لصالح الدكتور أيمن نور قابل محمود حسين، أمير الشاب في الدعوة السلفية ببني سويف، وهو شاب أبيض البشرة طويل القامة، لديه قدرة هائلة على الإقناع، غير أنه كان

فاشلا في الدراسة وكثير الرسوب ودائم الاستدانة. محمود حسين غضب بشدة عندما علم أن كاتب تلك الأسطر سيذهب أصلا إلى صندوق الانتخابات وأخبره بأن العملية الديمقراطية حرام شرعا في الأساس وأنه حتى لو ذهب وأفسد صوته ستعد تلك مخالفة شرعية كبرى.

موقف آخر لا يمكن لجيل شباب الدعوة السلفية ببني سويف أن ينسوه، عندما قرر أحدهم وهو شاب أسمر البشره حسن السريرة طيب القلب كان يدرس اللغة الفرنسية بجامعة الأزهر، عندما قرر أن يتصل بالشيخ محمد حسين يعقوب يسأله عن مسألة ألمت به فما كان من الشيخ يعقوب إلا أن سأله سؤالا واحدا كان صاعقا ومباغتا في آن. . . قال الشيخ: يا ولدي ماذا ترتدي؟ رد إبراهيم: ألبس "تريننج" . قال الشيخ: اذهب والبس جلبابا وبدل ثياب الغرب، وعُدْ واتصل بي، وسوف أُجيبُك. الموقف الثالث في نفس السياق هو حديث لكاتب تلك الأسطر مع أحد الشبان البارزين في الدعوة السلفية عندما تحدثا حول الفارق بين آية الله الخميني والشاه المخلوع، فما كان من الشاب السلفي إلا أن كال الشتائم إلى شخص الخميني، وأخذ يمتدح الشاه "العفيف النزيه الجدع" .

الغريب في كل تلك المواقف أن أمير الدعوة السلفية ببني سويف، أو كما كان يوصف، خاض هو وحزبه: "النور" الانتخابات الديمقراطية بعد الثورة بكل قوة وحصلوا على ربع مقاعد البرلمان المنحل. السؤال الآن: هل تغيرت الديمقراطية أم تغيرت مفاهيمهم؟ أما الشيخ يعقوب، الذي يتحدث في هاتف محمول فنلندي، ويرتدي جلبابا صنع في الصين، ويركب سيارة كورية، ويظهر في قنوات كل معداتها صنعت في فرنسا والولايات المتحدة، فقد أنكر على إبراهيم أنه ارتدى "تريننج" وهو يحادثه، بحجة أنه تقليد غربي، ونسي أن ينكر على نفسه كل التقاليد الغربية التي يقوم وينام عليها . المشهد الثالث والحوار مع الشاب السلفي الذي يمتدح الشاه لمجرد أنه لم يحاول تصدير المذهب الشيعي، فإنه ينطوي عن جهل تام بالتاريخ والسياسية لأن كاتب تلك الأسطر عندما سأله عن مصدر معلوماته أخبره بأنه سمع ذلك في شريط كاسيت لأحد مشايخه. وقبل أيام

ذهب جمع من شباب الدعوة السلفية، الذي يعتقدون أنهم يغارون على سنيتهم، أمام منزل القائم بالأعمال الإيراني واقتحموا سوره، ووجهوا أبشع الشتائم إلى نجاد وخامنئي والسفير مجتبي أماني نفسه. أمس عادوا وكرروا تلك الأفعال أمام مقر السفارة بميدان المساحة بالدقي وزادوا على ذلك أن أحرقوا علما مكتوبا عليه "الله أكبر"، وهو علم الجمهورية الإسلامية الإيرانية، في واقعة هي الأولى من نوعها في التاريخ أن يحرق إسلاميون شيئًا مكتوب عليه لفظ الجلالة.

وكان استدعاء ما سبق ضرورة ملحة عند التحدث عن تلك الوقائع التي لا يجب أن توصف إلا بأنها قذائف لا يمكن قبولها حتى في زمن الحرب، وهي لا تخدم في المقام الاول إلا عدونا الرابض عند الحدود الشرقية والذي دنس جنوده المسجد الأقصى قبل أيام. صحيح أن الإيرانيين لهم أفعال لا ترضي عاقلا منها، على سبيل المثال وليس الحصر، دعمهم المطلق وغير المحدود للنظام الدموي في دمشق، إلا أن لغة التظاهر والانتقاد يجب أن تكون في إطار تعاليم الدين الإسلامي الذي حض على الأخلاق وأمر باتخاذ الأدب وسيلة عند الاختلاف. يا سلفيون، ليس هكذا تورد الإبل!".

وقد كنت أحسب أن سوء الرأى فى اللحى الطويلة الكثة شيئًا مستحدثا، فإذا به قديم، وإذا به أيضا قد وقع من علماء مشهود لهم بالغيرة على دين الله والذب عنه بحيث لا يمكن أحدا الارتياب فى نيتهم واتهامهم بمعاداة سنة من سنن رسول الله كما يقول الملتحون دائما غير دارين أن طائفة من العلماء الكبار لا يَرَوْن فيها ذلك، إذ هى عندهم مسألة من المسائل الشخصية والعوائد الاجتماعية. ولا داعى طبعا للاستشهاد بالشعراء وما قالوه فى ذلك النوع من الملتحين حتى لا يحتج أحد بالقول بأن الشعراء يتّبعهم الغاوون وأنهم فى كل واد يهيمون.

يقول ابن الجوزى فى "أخبار الحمقى والمغفلين"، وانظر مغزى العنوان: "قال الأحنف بن قيس: إذا رأيت الرجل عظيم الهامة طويل اللحية فاحكم عليه بالرقاعة، ولو كان أمية بن عبد شمس. وقال معاوية

لرجل عتب عليه: كفانا في الشهادة عليك في حماقتك وسخافة عقلك ما نراه من طول لحيتك. وقال عبد الملك بن مروان: من طالت لحيته فهو كَوْسَجٌ في عقله. وقال غيره: من قَصُرَتْ قامته، وصَغُرَتْ هامته، وطالتْ لحيته فحَقِيقٌ على المسلمين أن يُعَزُّوه في عقله. وقال أصحاب الفراسة: إذا كان الرجل طويل القامة واللحية فاحكم عليه بالحمق، وإذا انضاف إلى ذلك أن يكون رأسه صغيرا فلا تَشُكَّ فيه. وقال بعض الحكماء: موضع العقل الدماغ، وطريق الروح الأنف، وموضع الرعونة طول اللحية. وعن سعد بن منصور أنه قال: قلت لابن إدريس: أرأيت سلام بن أبي حفصة؟ قال: نعم، رأيته طويل اللحية، وكان أحمق. وعن ابن سيرين أنه قال: إذا رأيت الرجل طويل اللحية فاعلم أن ذلك لنقصان في عقله. قال زياد ابن أبيه: ما زادت لحية رجل على قبضته، إلا كان ما زاد فيها نقصا من عقله. قال بعض الشعراء:

إذا عرضتْ للفتى لحيةٌ وطالت فصارت إلى سُرَّتِهْ

فنقصان عقل الفتى عندنا بمقدار ما زاد في لحيتهْ

. . . وعن المدائني قال: قرأ إمام: "ولا الظالين" بالظاء المعجمة، فرفسه رجل من خلفه، فقال الإمام: آه! ضهري! فقال له رجل: يا كذا وكذا، خذ الضاد من "ضهرك" واجعلها في "الظالين" وأنت في عافية. وكان الرادّ عليه طويل اللحية.

قال الجاحظ: أخبرني أبو العنبس قال: كان رجل طويل اللحية أحمق جارنا، وكان أقام بمسجد المحلة يعمره ويؤذن فيه ويصلي. وكان يعتمد السُّوَر الطوال ويصلي بها، فصلى ليلة بهم العشاء فطَوَّل، فضجوا منه، وقالوا: اعْتَزِلْ مسجدنا حتى نقيم غيرك فإنك تطوِّل في صلاتك، وخلفك الضعيف وذو الحاجة. فقال: لا أطوِّل بعد ذلك. فتركوه، فلما كان من الغد أقام وتقدم فكبر وقرأ الحمد، ثم فكر طويلاً وصاح فيهم: إيش تقولون في "عَبَس"؟ فلم يكلمه أحد إلا شيخ أطول لحيةً منه وأقل عقلاً، فإنه قال: كَيِّسَة. مُرَّ فيها . . . وقال

أبو العباس: سألت رجلاً طويلَ اللحية فقلت: إيش اليوم؟ فقال: والله ما أدري، فإني لست من هذا البلد . أنا من ديرِ العاقول" .

ويقول البهاءزهير:

وأَحمَقٍ ذي لِحيَةٍ كَبيرَةٍ مُنتَشِرَه
طَلَبتُ فيها وَجهَهُ بِشِدَّةٍ فَلَم أَرَه
مَعرِفَةً لَكِنَّهُ أَصبَحَ فيها نَكِرَه
ثَورٌ غَدا أُعجوبَةً بِلِحْيَةٍ مُدَوَّرَه
لَو كانَ ذاكَ الثَورُ عِجـــــــلاً عَبَدَتهُ السَمَرَه
تَبّاً لَها مِن لِحْيَةٍ كَبيرَةٍ مُحتَقَرَه
عَظيمَةٍ لَكِنَّها لَيسَت تُساوي بَعَرَه
كَم قَريَةٍ لِلقَملِ في حافاتِها وَمَقبُرَه
يُقسَمُ عُشرُ عُشرِها يَكفي رِجالاً عَشَرَه
يَحْسُدُها الخِنزيرُ إِذ يُبصِرها مُنتَشِرَه
وَيَشتَهي لَو أَنَّهُ يَمْلِكُ مِنها شَعَرَه
قَد نَبَتَت في وَجهِهِ فَوقَ عِظامٍ نَخِرَه
بارِدَةً ثَقيلَةً مُظلِمَةً مُنكَدِرَه
كَأَنَّها سَحابَةٌ فَوقَ البِلادِ مُمطِرَه
ما كانَ قَطُّ رَبُّها مِنَ الكِرامِ البَرَرَه
قَد تَرَكَت حامِلَها مِنها بِحالٍ مُنكَرَه

إذا خَطَت أَقدامُهُ كانَت بِها مُعَثَّرَه
وَإِن مَشى رَأَيتُ فَو قَ الأَرضِ مِنها غَبَرَه
أُصولُها قَد رُوِّيَت مِن رِيقِهِ بِالعَذِرَه
وَقَد أَتَت خَبيثَةً مُنتِنَةً مُستَقذَرَه
مُضحِكَةً ما كانَ قَطْ طُ مِثلُها لَمَسخَرَه
فَلَو مَضى السَوقَ بِها وَزَفَّها بِالمِزمَرَه
لَحَصَّلَت لَهُ مَغَلْ لَ ضَيعَةٍ مُوَفَّرَه
لِجَوْفِ مَن يُبْصِرُها لِلخَوْفِ مِنها قَرقَرَه
وَتِلكَ قالوا ضَرطَةٌ عِندَ النُّحاةِ مُضْمَرَه

وأنا لا أحاول الإساءة إلى الملتحين، وإنما ألفت النظر إلى أن إطلاق اللحية، فضلا عن إطالتها وتضخيمها وكأن صاحبها داخل بها معركة حربية، ليس من أساسيات الدين. وحتى لو قلنا مع القائلين بأنها فرض فلا يمكن أن تكون فرضا مهما. وأحسن من تربية اللحية مليون مرة أن يعطف الواحد منا على المحتاجين المهمشين المسحوقين، وبخاصة أولئك الذين يَسْعَوْن وراء رزقهم فلا يحرزون منه إلا ما شَحَّ ولم يَكْفِ. وهنا أنتهز الفرصة فأقول إن كثيرا من الناس العاديين الذين لا يُعْرَفون بتدين خاص أو لافت للنظر وليس للواحد منهم أية لحية متى ما طلبتَ منهم التبرع لمحتاج فإنهم يسارعون إلى ذلك التبرع. وكم شهدتُ تنادِيَ بعض الرجال إلى جمع الأموال لحارس عمارة، أو لأرملة فقدت زوجها وصارت مكلفة بتدبير أمور المعيشة للأولاد الصغار الذين تركهم لها، أو لمريض يصعب عليه دفع مصاريف علاجه الباهظة... وما إلى ذلك.

وأرجع إلى اللحية، فأقول: قد أُضْطَرّ بين الحين والحين إلى ترك لحيتى دون حلاقة ليوم أو يومين أو أكثر بسبب العجلة أحيانا، أو الضيق بجردها بالموسى كل يوم، أو لبقائى بالمنزل لعدم وجود ما يستلزم

الخروج. بل إننى قد أطلقت لحيتى أول وصولى أكسفورد لمدة شهر قبل وصول زوجتى، وطالت اللحية طولا مفرطا، ولى صورة بها أشعر بالانزعاج كلما استخرجتها ونظرت فيها، فإنى أشبه فيها كارل ماركس. بل إن لحيتى لتتفوق على لحيته فى ضخامتها وقبحها . وكانت تدفعنى دائما إلى الهرش، وبخاصة حين أضع خدى على الفراش. ولما حلقتها فى النهاية، بعد أن قص أحد زملائى بالمقص شعرها الغزير، ظهر تحتها عدد من الدمامل الصلبة، مثل كارل ماركس أيضا، لعنه الله، وغفر لى! وفى السعودية كان يحدث أحيانا أن أترك لحيتى دون حلاقة، فأُفاجَأ من زملائى بمن يهنئنى. على ماذا يا صديقى؟ على أنك قد أطلقت لحيتك. فأشرح له أننى إنما اضْطُرِرْتُ لذلك بسبب العجلة أو الملل من حلاقتها كل يوم. ثم أضيف قائلا: وغدا إن شاء الله سوف آتيكم بها مجرودة كالعادة. وما زلت أستغرب كيف أن بعض الناس يرى فى إطلاق اللحية ما يدعو إلى المباركة. ومع هذا فقد أذكر أن أحد كبار الإخوان المسلمين، ولعله المرحوم عمر التلمسانى نفسه، قد كتب، بمجلة "الدعوة" فى ثمانينات القرن الفائت، مقالا كبيرا على صفحتين يهنئ فيه المرحوم أحمد حسين بإطلاق لحيته، ومعه صورة للرجل آنذاك ملتحيا وممددا فى فراشه مشلولا، فكان ذلك المقال مبعث دهشة بالغة لى.

وعَوْدًا إلى صحيفة أولئك الشكلانيين المتشددين فى غير مستوجب للتشدد فإننا لنتساءل: كيف يريد أمثال هؤلاء أن يقنعونا بأنهم قادرون على إدارة شؤون دولة كاملة فى الوقت الذى يعجزون عن إدارة شؤون صحيفة صغيرة؟ ولزيادة الطين بِلّةً فإن إدارة الجريدة قبل أن تكتب للصحفيين عقود العمل أجبرتهم على كتابة استقالات مسبقة وأوراقا يُقِرّون فيها زورا وزيفا أنهم قد تسلمواجميع مستحقاتهم وأنه لا يحق لهم المطالبة الجريدة بشىء عند تركها، وذلك بغية الاستعانة بها ضدهم إذا ما فكر أحد منهم فى الشكوى إلى الجهات المختصة. كما اشترطوا على أحد الصحفيين هناك، من باب الحقد والحسد (لكن بدون عين تستأهل الخزق)، أن يترك دراساته العليا بحجة التفرغ للصحيفة مع أنه يؤدى عمله على الوجه الأكمل، ولكنها تماحيك

الحقد والحسد (بدون عين من فضلكم). وهذا الحزب معروف بتشدده فى مسألة اللحية والنقاب وما أشبه. وهكذا يكون التدين والتمسك بالسنة وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا فلا. وهنا أُمْسِك فلا أصرِّح بكل ما أعرف مما يدل على صحة ما يقوله المثل البلدى: "مِنْ بَرَّهْ ها الله ها الله، ومِنْ جُوَّهْ يِعْلَمَ الله!".

ومن قبل كنت أكتب فى صحيفة "آفاق عربية" فى أواسط التسعينات أيام كانت تابعة للإخوان المسلمين، وكنت أدير الصفحة الثقافية (دون مقابل) بناء على طلبِ وسيطٍ من طرفهم يشتغل صحفيا بالجريدة أيضا، وبعد قليل شعرت أن المسؤولين عن الجريدة لا يريدون أن أكتب العمود الذى كنت أكتبه فى تلك الصفحة تحت عنوان "كلمة فى العظم" لو أمكن أو على الأقل: أقلله إلى أضأل حد ممكن بحيث تكون الصفحة كلها تقريبا لنشر ما يصل الجريدة من مقالات وأشعار وقصص من شُدَاة الأدب. ومعنى هذا أن أتحول إلى مصحح إملاء ونحو وصرف، إذ كان مستوى ما كان يصلنا سيء للغاية، فكنت أختار ما يصلح للنشر رغم انحطاط المستوى العام على نحوٍ مُخْزٍ. وقد مضت الأمور بطريقة أو بأخرى دون أن أعلم أنهم يدبرون فى نفوسهم أمرا بسبب استمرارى فى كتابة العمود كل مرة، فقد فوجئت أن الصحفى الوسيط بينى وبينهم يقول لى إنهم يريدون أن يختصروا المقال الذى أرسلته مع مواد النشر الخاصة بالعدد الأخير بعض الشيء، فعرفت أنها تماحيك، فكان جوابى أنهم إذا تدخلوا فى المقال فسوف أترك الصفحة، فألفيتهم يعبثون به، مما يدل على أن النية مبيتة، فتركت لهم الجمل بما حمل، وأنا مستاء ومستغرب من هذه التصرفات الغريبة التى أرى أن الإسلام لا يرتضيها. وكل ما فعلوه هو أنهم نشروا فى العدد التالى شكرا لى على تعاونى مع الصحيفة طوال العام السابق. أهذا هو كل ما عندهم؟ أهذه تصرفات تليق برافعى شعارات الإسلام؟ لقد كان الأمر مفزعا.

ثم مرت الأعوام، وصار للإخوان موقع إلكترونى فى عز سطوة حسنى مبارك، فاتصل بى ذلك الوسيط وناشدنى التعاون معه، فكنت أبعث ببعض المقالات فينشرها . . . إلى أن أنبأنى فجأة أنهم بصدد دفع مكافأة لكل مقال: مائة جنيه، فأجبته بأنى لا أريد فلوسا، وبخاصة أن مائة جنيه ليست مبلغا يعتد به هذه الأيام. لم أقل ذلك على سبيل استضآل المبلغ، ولكن كى تكون صلتى به صافية لا يشوبها شَوْب، لكنه أصر على أن آخذ المكافأة، فقلت له بعد أخذ ورد طويلين فى قفشة ضاحكة كاشفة: خلاص. ادفعوا لى بالمرة مكافآت المقالات التى نشرتموها لى من قبل. فقال ضاحكا هو أيضا: نحن أولاد اليوم. فقلت: ماشٍ. ثم كتبت نحو ثمانية مقالات، وإذا به يرسل لى بعد وقت طويل جدا مكافأة أربع فقط. أين الباقى يا صديقى؟ قال: الجماعة يقولون إنه لا توجد فلوس. فضحكت لأننى أعرف أنهم ينفقون كثيرا جدا على العزائم والمؤتمرات وما إلى ذلك. المهم أنهم قرروا، وكأننى غير موجود ولا قيمة لرأيى ولا موقفى ولا اعتبار لحقى ولا للموعدة التى وعدونى إياها، المهم أنهم قرروا أن يأكلوا نصف المكافآت دون أن تختلج فى وجوههم خالجة. وأنا لا أتحدث هنا عن المال فى حد ذاته رغم أنه حقى بل بعض ضئيل من حقى.

ثم أُعْلِن فى الصحف بعدها بقليل عن دعوتهم إلى حفل غداء فى فندق من الفنادق الكبيرة، ودَعَوْا هذا وذا وذاك وذلك وذَيَّاك وهذاك وهَذَلِكَ ممن لم يأكلوا حقوقهم، ولم يَدْعُوا العبد لله، الذى لا يُقْبِل عادةً على مثل تلك الدعوات والمناسبات، ولكن كان يسره أن يرى الناس الكُمَّل وهم يتصرفون التصرف الذى يحسن بهم فى مثل ذلك الموقف. ومن الناحية الأخرى أين قلة المال التى اشتكاها بالنيابة عنهم ذلك الوسيط، وها هم أولاء يقيمون الحفلات التى تكلفهم شيئًا وشويات؟ فكما يرى القارئ فالحال بعضه من بعض هنا وهناك. وسلم لى على الأيدى المتوضئة، والإسلام هو الحل، وتعالوا نُصْلِح الدنيا بالدين. . . ثم مضيت أكتب فى الموقع بعد ذلك بفترة دون مقابل، إلى أن توقفت، ولا أذكر الآن ظروف ذلك التوقف. وكل هذا كان قبل الثورة الينايرية بوقت طويل.

لقد كنت فى تلك الأيام أسخر أمام الوسيط المذكور من هذه الشعارات، وما زلت أسخر من كل من يرفع مثل تلك الشعارات، وإن كنت لا أرى فى استعمال الشعارات الدينية رغم ذلك أية غضاضة، فهذا شىء، وذاك شىء آخر، إذ هى مجرد شعارات كأية شعارات أخرى. ولو فكرنا فى تجريم اللجوء إليها لكان ينبغى تجريم استعمال أى لون من الشعارات، إذ الاحتمال قائم فى كل الحالات أن يكون الغرض من تلك الشعارات هو العمل على تضليل الناخبين والتلاعب بعقولهم. والمفروض هو أن يتنبه لذلك الناخب نفسه ويتجنب الوقوع تحت طائلة تأثيره. أما إذا ظل الناخب على حاله البائس لا يريد رقيا ولا تطورا ولا يحاول الفهم والتمييز فذنبه على جنبه. وإلا فلِمَ نجرّم الشعارات الدينية ونجوّز الشعارات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية مثلا، وكلها تؤدى فى حالة الكذب والتضليل إلى نفس النتيجة؟ ألا إن هذه لتفرقة انتخابية لا معنى لها.

وعلى كل فالجميع تقريبا يستعملون، أو يمكنهم أن يستعملوا، الدين على نحو أو على آخر فى دعايتهم الانتخابية ومخاطبتهم لجماهير الشعب. أم ترانا نسينا ما كان يؤكد به حزب التجمع لجماهير المصريين فى بعض المواسم الانتخابيه فى بدايات أمره من حرصه على تطبيق الشريعة الإسلامية وسعيه الدءوب إلى ذلك، وهو أبعد ما يكون عن الشريعة وتطبيقها تماما؟ ونفس الشىء ينطبق على الناصريين، وقد أشار إلى ذلك إبراهيم عيسى فى الفصل الخاص بعبد الناصر من كتابه: "أفكار مهددة بالقتل- من الشعراوى إلى سليمان رشدى". وقرأت فى بعض المواقع الإلكترونية الليلة: "كشف المهندس أسامة محمود العضو السابق بحزب "الدستور"، الذي يتزعمه الدكتور محمد البرادعي، أن الحزب يستغل بعض الفتيات في ارتداء النقاب خلال فعاليات الحزب بهدف إخفاء هويته العلمانية المناهضة للشريعة الإسلامية.

واتهم أسامة أمانة حزب الدستور بمنطقة الشاطبي بالإسكندرية بإخفاء مجموعة من الملابس النسائية في بعض الأدراج، ومنها "النقاب"، بغرض استعماله في إظهار التعددية".

ومع ذلك فقد انتخبتُ نائبَىْ حزب الحرية والعدالة فى منطقتى بحدائق القبة كما انتخبت، للأسباب التى سبق ذكرها، د. مرسى، وما برحتُ أرى أنه الرئيس الشرعى لمصر، ولا بد من تركه يأخذ فرصته كاملة مع انصراف الشعب فى ذات الوقت إلى العمل والبناء بدلا من التظاهرات التى لا تنتهى وقطع الطرق لأتفه الأسباب حتى لو ماتت دجاجة فى قرية على الطريق، وبدلا من الشتائم السافلة الموجهة إلى رئيس الجمهورية على الجدران فى كل مكان، والبرامج السخيفة التى لا تذر شيئا تعمله الحكومة إلا تهكمت عليه وقلبت الحقائق المتعلقة به رأسا على عقب، وأشاعت الأكاذيب وافترت على الرئيس المفتريات دون رمشة من عين، ودون خوف من الله أو خوف على الوطن، مع مطالبة رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة فى نفس الوقت بتوفير كل شىء، وفى الحال، رغم أن الله قد أمرنا بالعمل، وإلا متنا جوعا وعطشا وعريا. والمضحك أن الذين كانوا يطالبون الرئيس مرسى بكذا أو بِكَيْت من الأمور قد انقلبوا على رؤوسهم حين شرع ينفذ ما كانوا يطالبونه به: فمن كانوا مثلا يريدون منه أن يغير النائب العام عادوا فانقلبوا عليه حين غيره وقالوا: كيف تمس النائب العام وتتدخل فى شؤون القضاء؟ كما كان هناك ترحيب كبير عقب الثورة بما أعلنه نبيل العربى وزير الخارجية فى ذلك الوقت من عزمه على التقارب مع إيران، ثم إذا بالجميع تقريبا يتحولون فى موقفهم من هذه المسألة تحولا جذريا حين يَرَوْنَ حكومة هشام قنديل تتقارب مع إيران، وينادون بالابتعاد تماما عن إيران المجوسية، قائلين إنها أخطر علينا من إسرائيل ذاتها... وهلم جرا.

وهذا مقال لفراج إسماعيل منشور فى ٢٨ أبريل ٢٠١٣م بصحيفة "المصريون"، التى صارت تهاجم الإخوان بعدما غبر عليها زمن كانت تدافع عنهم بضراوة، وتهاجم خصومهم مهاجمة شرسة، ثم فجأة انقلبت عليهم، ولم تعد ترى فيهم ولا فى الرئيس مرسى أية حسنة تقريبا، على العكس حين انتخبتهم، إذ كنت أدرى عيوبهم، إلا أننى حين أوازن بينهم وبين خصومهم أو من يسيرون فى نفس اتجاههم أجد أنهم أفضل السيئين، فضلا عن أننى كنت وما فتئت أؤكد أن المعوَّل الأكبر فى الإصلاح على الشعوب لا على الحاكم، وأن شعوبنا

لا بد لها أن تتغير وتتطور، لا فكاك من ذلك، وإلا فلا أمل فى أى شىء، وهو ما يبدو للأسف أنها لا تضعه فى اعتبارها . يقول فراج إسماعيل مباشرة تحت مقال لجمال سلطان فى النسخة الإلكترونية من الصحيفة المذكورة يجرى فى عكس الاتجاه تماما: "أحد أبناء قريتي لما رأى العدد المحدود جدًا للصبية أثناء هجومهم بالمولوتوف يوم الجمعة الماضي على قصر الاتحادية، رمز سيادة الدولة، قال ساخرًا: هؤلاء لو هاجموا دوار العمدة عندنا لاعتقلناهم في دقائق أو أرديناهم قتلى في الحال لأنهم يقومون بعمل إرهابي يرخص القانون استخدام أقصى درجات الحزم والقوة معه.

معه حق. لماذا تُرِك عدة أفراد يعدون على أصابع اليدين يشعلون النار في سيارة شرطة، وكادوا يتمكنون من اقتحام قصر كان مجرد الإشارة إليه في عهد مبارك الترحيل إلى المعتقل؟ إنها دولة مبارك التي يواجهها مرسي بمفرده ثم نهاجمه لأنه يحاول تطهيرها ونتهمه بالأخونة، ونسعد بمن رفع المنديل الأبيض من مستشاريه الذين اختارهم من قوى أخرى لها منهج وتفكير مختلفان. ومن يدري؟ فربما يكون بعضهم خلايا نائمة في القصر كما أشار الأستاذ محمود عوض في أحد مقالاته الأخيرة. دولة مبارك موجودة بقوة وكثافة في كل المؤسسات. القضاء يدفع مصر إلى ما قبل ثورة ٢٥ يناير. أجهزة عديدة تقف متأهبة للانقضاض مع إبراز حالة الانفلات لإعطاء انطباع بأن دولة مرسي منهكة ومريضة لا تستطيع حماية مقراتها السيادية. وحتى الشرطة، التي يقال إنه تم أخونتها، يتعرض أحد ضباطها للضرب والسحل بعد أن أخرجه مجموعة من الشباب من سيارته. رسالة لمن يعنيه الأمر من دولة مبارك بأنه لا يوجد رئيس منتخب ولا حكومة ولا داخلية ولا مخابرات ولا أمن دولة. نفهم ذلك عندما نرى بعض الوجوه التي رمت قصر الاتحادية بالمولوتوف ظاهرة بما يمكن من الاستدلال عليهم خلال ساعة واحدة، كذلك الوجوه التي سحلت ضابط الشرطة ظاهرة ومن اليسير التعرف عليها . كلهم يظلون طلقاء ليعودوا مرة أخرى، وإذا قبضت الشرطة على بعضهم ذرًا للرماد في العيون

يقوم القضاة بإطلاق سراحهم. كل مؤسسة في دولة مبارك تكمل الأخرى، فيما تقوم قنوات الردح بتوفير الغطاء الإعلامي للتشويه وصياغة الصور السلبية.

استغرب الأستاذ فهمي هويدي بأن الأجهزة الأمنية لا تقبض على الأشخاص الذين تظهر وجوههم بوضوح في الفيديوهات التي تبثها القنوات الفضائية أثناء قيامهم بإشعال الحرائق في المباني والمقرات وإلقاء المولوتوف، بينما نجحت السلطات الأمريكية خلال ساعات قليلة من ضبط الشقيقين المسئولين عن تفجير بوسطن من خلال صور الكاميرات رغم أن نصف وجه كل منهما كان مغطى! أخطر ضربات دولة مبارك نجاحها في محاولة التخلص من بعض الصقور الذين كانوا يرهبونها. لقد أخافهم الشيخ عاصم عبد الماجد، الذي منع بجسارته انسحاب الشرطة من الشوارع عندما دبرت دولة مبارك لاعتصامهم وإضرابهم عن العمل. نجحت تلك الدولة في التخلص منه، وبالتالي إضعاف الجماعة الإسلامية، التي تتميز بقواعدها في الصعيد، خصوصًا في المنيا وأسيوط وسوهاج ولعبت دورًا كبيرًا في إسقاط أحمد شفيق في الانتخابات الرئاسية وفوز محمد مرسي.

عبد الماجد يسمونه: "أسد الصعيد" كما كان أحمد شاه مسعود يسمى بـ"أسد بنشير"، مع اختلاف دور كل منهما، وهكذا أزاحته دولة مبارك من طريقها بالضغط الإعلامي العنيف على الجماعة الإسلامية والذي اضطرها إلى إصدار بيان تتبرأ به من تصريحات عادية جدًا يطالب فيها الرجل بالاعتصام والتظاهر السلمي أمام المحاكم ومنازل القضاة. نسي الجميع أن القوى الأخرى تهجم بالمولوتوف على قصر الاتحادية، وأن حركة ٦ إبريل أغلقت دار القضاء العالي بالجنازير، ووضعت البرسيم أمام منزل محمد مرسي في الشرقية، وأن بعض رجال النيابة والقضاء الذين جمعهم أحمد الزند صوبوا رصاصهم من داخل النادي على المتظاهرين السلميين ضدهم. استقالة عبد الماجد ضربة قاصمة لقواعد الجماعة الإسلامية في الصعيد

التي ستضعف كثيرًا . وهذا أكبر إنجاز لدولة مبارك انتقامًا مما فعلته الجماعة عندما أحبطت خطة إضراب الشرطة وإغلاق الأقسام وتفريغ الشوارع أمنيًا .

في إطار الحرب الشرسة تمت فبركة ما قيل إنه تفريغ لمكالمات بين الإخوان وحماس أثناء ثورة يناير للإيحاء بأنها صنيعة حماس وأنها المسئولة عن فتح السجون وإطلاق سراح محمد مرسي الذي كان معتقلا بقرار إداري في اليوم الأول للثورة وليس محكومًا عليه قضائيًا . أحمد شفيق في حواره الأخير مع قناة "القاهرة والناس" تحدث عن ضابط في الداخلية أخبره قبل ظهور نتيجة الانتخابات الرئاسية بأن اجتماعًا هامًّا يجري داخل مكتب الوزير، وأنه (أي شفيق) اتصل مرتابًا بالدكتور كمال الجنزوري، الذي ظهر حائرًا وقال له: "تفتكر نقدر نعمل أيه؟" . هذا القول يؤكد أن الداخلية ورئيس الحكومة وقتها كانا يمثلان ركنًا هامًّا في دولة مبارك . نفس الأمر ينطبق على قوله بأن مطار القاهرة اتصل به ليخبره بأن تعليمات عليا وصلت بمنع سفر بعض القيادات: منهم عصام سلطان، ومنهم من ينتمي إلى الإخوان. وهذا يعني أن دولة مبارك كانت متحكمة في موانئ مصر مع الخارج. مرسي يقود معركة بقاء أو سقوط للثورة أمام دولة مبارك، التي اخترقت جميع المؤسسات وزرعت خلاياها النائمة داخل القصر الجمهوري" .

ونعود الآن إلى ما كنا بصدده قبل قليل، فقد ظهر العبد لله مرة منذ أكثر من سنتين على قناة تابعة لتلك الجماعة الأخرى، التى استطردنا منها إلى الحديث عن جماعة الإخوان، فقال ضمن ما قال إنه، وإن لم يحبذ النقاب، يرى من حق أية فتاة أو امرأة أن ترتديه، وإن المنتقبة أفضل ألف مرة من السافرة التى تكشف ذراعيها وصدرها وشعرها وتشغل الشبان والرجال بمفاتنها . وقد علق بعض من يعرفونه ممن شاهدوا الحلقة أن الجماعة لن تستضيفه على فضائيتها بعد ذلك أبدا لقوله إنه لا يحب النقاب، فكان رده أنه لم يسع إلى الظهور عندهم أو عند غيرهم وأنه غير حريص على مثل تلك اللقاءات التلفازية، وأنهم هم الذين طلبوا استضافته. ثم إنه لم يحرم النقاب، بل قال إنه لا يحبه، وهو حر فى ذلك، فالنقاب ليس ركنا من أركان الدين،

ولا يقول بفرضيته سوى بعض علماء الدين فقط. إنه فى رأيى ورأى كثير من الفقهاء من قبلى حلال، لكنه غير ملزم للمسلمات. أما من يرى فرضيته فهو حر أيضا فى ذلك. والعبد لله يشبهه بأكل الضَّبّ، فهو حلال، ومع هذا لم يكن النبى عليه السلام يحبه، وحين قُدِّم إليه تركه لخالد بن الوليد، فأكله خالد بينما امتنع هو عنه قائلا إنه ليس من طعام قومه. يقول ابن عباس: "دخلتُ على خالتي ميمونةَ (إحدى أمهات الأمؤمنين) وخالدِ بنِ الوليدِ، فقالت ميمونةُ: يا رسولَ اللهِ، ألا أُطْعِمُك مما أهدى لي أخي من الباديةِ؟ فقرَّبَتْ ضَبَّينِ مَشوِيَّينِ على ثِنوٍ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: كلُوا، فإنه ليس من طعام قومي. أجدُني أُعافُه. وأكل منه ابنُ عباسٍ وخالدٌ، فقالت ميمونةُ: لا آكلُ من طعامٍ لم يأكلْ منه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ". فما وجه الخطإ فى هذا؟ المهم أن توقُّع المتوقعين قد صدق، ولم يُدْعَ العبد لله إلى تلك القناة ولا إلى أية قناة دينية مرة أخرى فى العهد الجديد.

وكانت هذه الجماعة، أو على الأقل: فصيل كبير منها، قد أصدر إبان الثورة الينايرية بيانا تم تعميمه على كل المواقع الضوئية وإرساله إلى كل صاحب إيميل يعلن أن الخروج على الحاكم حرام بما فى ذلك التظاهرات ضده وإنْ جَلَدَك على ظهرك وإنْ وإنْ... وهو ما استفزنى إلى كتابة مقال طويل بعنوان "إلى شيوخ الضلال: لا تتظاهروا إذا شئتم، ولكن لاتخذِّلوا المتظاهرين". وهذا هو المقال: "(أُرْسِل لى على البريد الضوئى مقال عنوانه: "كلمة بشأن المظاهرات قبل فوات الأوان" يحذر كاتبه، طبقا لبعض النصوص القرآنية والحديثية التى أوردها، من الخروج فى أية تظاهرات تطالب بإصلاح أحوالنا الفاسدة المنتنة. وقد عَنَّ لى أن أكتب ردا على ذلك المقال حين قرأته فألفَيْتُه يخلط الأوراق، ويفسد الأمر إفسادا شنيعا. وقد قسمت المقال أقساما وردت عليه قسما قسما، مثبتا فى بداية كل قسم منه نجمة، وفى بداية ردى على كل قسم نجمتين):

* يقول الكاتب: بعد أن عانينا حقبة طويلة من بطش الأنظمة الحاكمة وجبروتها واعتدائها على مقدساتنا وحرماتنا وكرامتنا، وبعد أن ذقنا الأمرين من دعم الأنظمة الشرقية والغربية لهذه الحكومات وغَضّ الطرف عن انتهاكاتها لحقوق الإنسان بل تزويدها بوسائل البطش والتعذيب والتنكيل بالدعاة إلى الله، أصبح فجأة مطلوبا منا أن ننزل إلى الشوارع لإسقاط هذه الحكومات والإتيان بحكومات ديموقراطية كبديل لها، ولم يجدوا طبعا أفضل من الشباب المسلم ليكون وقودا لهذا النظام الجديد.

** وأقول أنا: الحق أننى مستغرب من منطق الكاتب صاحب المقال. ذلك أنه يصور لنا السكوت على الظلم والاستبداد والقمع والهوان طيلة هذا الوقت وكأنه هو القاعدة التى ينبغى أن تسود، ومن ثم فمن الخطإ والخطل أن يفكر أحد فى الخروج على هذه القاعدة والوقوف فى وجه الطغاة المستبدين، إذ ما دمنا قد خنعنا فى الماضى وأخذنا بالجزمة على وجوهنا، فلماذا نفكر فى الثورة والتمرد الآن على هذا الوضع؟ أليس هذا هو ما يقوله الكاتب؟ أو أليس هذا هو ما يفهم من كلامه؟ فهل ثَمَّ عاقل يوافق على ذلك الذى يقوله كاتب المقال؟ يا أخى، لقد كنا خانعين، وهذا ضلال وإثم مبين، واليوم تحررنا وفكرنا فى التكفير عن هذا الخنوع. ففيم الخطأ فى هذا؟ أم ترى الصواب بل الواجب المطلوب هو مداومة الخنوع، بينما الخطأ هو التحرر من ذلك الخنوع؟ واضح أن هذا هو ما يرمى إليه كلامك أو ما يُفْهَم من كلامك. إن هذا لهو بعينه تزيين الباطل، وتحسين المذلة والهوان، وإغراء للناس بالصمت الجبان. فهل هذا هو شرع الله، وهذا ما يريده من المسلمين رسول الله؟ أستغفر الله!

* يقول الكاتب: أيها الأخ المسلم، لا وقت للمزيد من الكلام والعبارات، بل نريد منك إجابات على هذه الأسئلة: إنك تنزل إلى الشارع بهدف إسقاط حكومة والإتيان ببديل، وهذا الأسلوب مهما اتخذ طابعا سلميا فهو في النهاية ثورة وجهاد، فهل أنت تجاهد تحت راية إسلامية واضحة نقية أم تحت رايات عمية لا تدري ما انتماءاتها أو أهدافها؟ هل تعلم ما حكم الجهاد تحت رايات عمية غير إسلامية المقاصد؟ اقرأ

معي قول رسول الله صلى الله عليه وسالم: "من قاتل تحت راية عمية: يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية، فقُتِل، فقِتْلَة جاهلية" . رواه الإمام أحمد ، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وفي رواية لمسلم: "ومن قتل تحت راية عمية: يغضب للعصبة، ويقاتل للعصبة، فليس من أمتي" . قال أبو زيد اللغوي: "العمية: الدعوة العمياء، فقتيلها في النار" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "تكون فتنة يقتتلون عليها ، على دعوى جاهلية، قتلاها في النار" . رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه" .

** وأقول أنا : والجواب على أسئلة الكاتب هو: إذا لم يكن طلب الحرية والعزة والكرامة ومحاسبة المسؤولين عن الفساد ومراجعة الحكام الظلمة المستبدين اللصوص الخونة القتلة الذين يلقون بالأبرياء فى غيابات السجون، ويولون أمور المسلمين لقساة القلوب واللصوص والملاحدة ومن لا يتقى فى الأمة ربًا ولا يرعى فيها إلاً ولا ذمة، إذا لم يكن هذا كله هو الراية الإسلامية التى يسأل عنها الكاتب فليس فى الدنيا راية إسلامية إذن. اللهم إلا إذا قال: إن الراية الإسلامية هى راية الخنوع والذل والهوان والحقارة والجبن والرضا بالظلم والاستزادة منه، وكراهية الحرية والأحرار، والنفور من الخير والأخيار. أما عشق الحرية والجهاد فى سبيل رد الحقوق إلى أصحابها والتمرد على الطغيان والجبروت ومناطحة العمالة للمستعمر المجرم ونصر الكفر على الإسلام فهذه هى الجاهلية فيما يبدو.

وأى فتنة فى أن يبحث المسلم عن العدل والمساواة أمام القانون وأن ينال كل ذى حق حقه فلا يظلمه ظالم ولا يضرب ظهره أو بطنه أو قفاه أو وجهه ضارب أو يقتله قاتل دون ذنب أو جريرة؟ أوقد التاث ضمائر بعض القوم وانطمست بصائرهم فلم يعودوا يعون شيئًا من أمور الدنيا ، وصاروا من الغباء والخطل والبلاهة إلى الحد الذى تختلط عليهم عنده مثل تلك الأمور الواضحة الشفافة؟ فيا لضيعة الإسلام إذن! أإذا نهض فريق من المؤمنين فتنادَوْا بوجوب استرداد حقوقهم المهدرة وحرياتهم المُضاعة وكراماتهم المُذَالة، أيكون هذا فتنة

جاهلية؟ أوتريدون بعد هذا أن يصدّقكم الناس حين تقولون لهم إن الإسلام دين عظيم؟ فأين بالله عظمة دين يصوره بعض أتباعه أو من يدّعون أنهم أتباعه بصورة الكاره للحرية، المناصر لمصادرة الحقوق، المبارك لقتل البشر واعتقالهم دون جريمة ارتكبوها؟ وهل إذا قام بعض الأحرار الشرفاء الكرام النفس الرافضين للمهانة والذل وقالوا للمستبد: "كفى، واخْشَ الله واتركنا وارحل" يكونون قد اتبعوا العصبية الجاهلية؟ إذن فاستبداد الحاكم العربى برعاياه وتعذيبه لهم وسَوْق مصلحيهم إلى السجون والمعتقلات وسرقته أموالهم بالمليارات ومحو آثار الإسلام من البلاد وتزوير الانتخابات وتهميش كل صاحب ضمير طاهر وصوت حر أبى ويد نظيفة هو الإسلام كل الإسلام. فهل يقول هذا عاقل؟

إن اتهام الأحرار بأنهم مثيرو فتنة إنما هو دعوى جاهلية. ألم يقل المشركون فى مكة إن محمدا إنما جاء ليفرق بين المرء وأهله، وإنهم كانوا فى ثبات ونبات إلى أن أتاهم الإسلام مفرّق الجماعات وهادم اللذات فنشر بينهم الفتنة وقام البيت الواحد بعضه على بعض؟ فما الفرق بين ما يقوله الكاتب وبين ما كان يقوله المشركون؟ جاء فى "السيرة النبوية" لابن هشام فى حكاية ما اقترحه الوليد بن المغيرة على المشركين كى يرددوه عن القرآن الكريم: "ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سِنٍّ فيهم، وقد حضر الموسمُ، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإن وفود العرب ستَقْدَم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا. فأَجْمِعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا ويردّ قولُكم بعضُه بعضا. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فَقُلْ، وأَقِمْ لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أَسْمَعْ. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالُجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كله رَجَزه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر. لقد رأينا السُّحّار وسِحْرهم، فما هو بنَفْثهم ولا

عَقْدهم. قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة (قال ابن هشام: ويقال: لَغَدَقٌ)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِف أنه باطل. وإنّ أقرب القول فيه لأَنْ تقولوا: ساحرٌ جاء بقولٍ هو سحرٌ يفرّق به بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله: "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وحيدًا * وجعلتُ له مالاً ممدودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * ومَهّدْتُ له تمهيدا * ثم يطمع أن أَزِيدَ * كلا إنه كان لآياتنا عنيدًا"، أي خصيما".

ثم إن المتظاهرين الذين يخرجون إلى الشارع مسمعين صوتهم للطاغوت ولأمتهم وللدنيا كلها لا يقاتلون أوّلاً. وحتى لو قاتلوا فهم لا يقاتلون انحيازا لأية عصبية من العصبيات ثانيًا، بل يستظلون بلواء العدل والحرية والكرامة والمطالبة بالحقوق المهدرة. إنهم يريدون إيقاظ أمتهم وتأمين حقوقها وإيقاف الطغاة عند حدودهم والرجوع بهم إلى ما ينبغى أن يلتزموه من أنهم ليسوا سوى خدم للشعب لا مسلّطين عليه يضربون أبشاره ويقتلونه ويسرقونه ويسلخونه ويسحلونه ويعدمون أحراره أو يلقون بهم فى غيابات السجون. ولا صلة بين شىء من هذا وبين العصبية، فضلا عن أن تكون تلك العصبية عصبية جاهلية. ولو نظر الكاتب إلى ما وصل إليه الغربيون من حرية ورفاهة واحترام وتقدم علمى وحضارى بعيد المدى لعرف أنهم لم يتسنَّ لهم شىء من ذلك إلا بالثورات والتظاهرات. لقد كان ملوكهم فى العتوّ والتجبر والغطرسة بل التألُّه مثل حكامنا نحن العرب والمسلمين، إلا أن شعوبهم استطاعوا عن طريق الثورات والتظاهرات أن يُرُوهم العينَ الحمراء ويعرّفوهم أن الله حق. ومن يومها وهم لا يفكرون فى ظلم رعيتهم، وإلا فهم يعلمون تمام العلم أن السَّحْل وقصف الرقاب ينتظرهم. ومن يومها لم يعد عندهم فِتَنٌ بالمعنى الذى يحذرنا الكاتب منه.

لماذا؟ يجيب الشيخ الغزالى على هذا التساؤل فى "الإسلام والاستبداد السياسى" قائلا إن "إسقاط حكومة ما فى البلاد التى تسودها النظم الديمقراطية عمل معتاد. وفى الغرب شواهد متجددة على أن استبدال وزارة بأخرى أمر هين. وسحب الثقة من أية وزارة هناك يرجع إلى رغبة الشعب فى تحقيق مطالب معينة أو رؤية لون جديد من النظم والأفكار. وقلما تسقط حكومة هناك لخروجها عن طبيعة وظيفتها، فإن يقظة الأمم هناك وأمانة الحكام لا تسمحان بتطور الأمور على هذا النحو القاتم. وليت الأمور فى الشرق تجرى على هذا النسق الرتيب فيستريح الحاكم والمحكوم من اضطراب الأجواء وعصف الأنواء. ويبدو أن دول الغرب نظمت أحوالها كذلك على ضوء ما أفادت من تجارب ماضيها، فإن الثورات الطائشة والانقلابات المفاجئة كلفت الأمم تضحيات ثقيلة. فلما جاء واضعو الدساتير الحديثة ليحكموا العلائق بين الشعوب وحاكميها أقاموا فى صلب النظم الدستورية أعمدة ثابتة تشبه مانعات الصواعق لتفرغ الجماهير فيها غضبها إذا رأت حاكمها أخطأ فى حقها، دون أن يتعرض جوهر الحكم لزلزال يَدُكّ بنيانه. وهذا حسن! وما يمنع المسلمين من الإفادة منه إلا أنهم مغلوبون على أمورهم من قديم. والمرء لا ينظّم بيته إلا إذا كان سيدا فيه. وقديما قال المتنبى:

سادات كل أناسٍ من نفوسهمو   وسادة المسلمين الأَعْبُدُ القَزَمُ

وربما كانت أمم الغرب غير محكومة بما أنزل الله، فهى على كلٍّ محكومة بما أرادت لنفسها".

ويقول عمر العبقرى العظيم لمن حوله ذات يوم: "لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر تذهب بنا شرقا وغربا، فلن يعجز الناس أن يُوَلُّوا رجلا منهم: فإن استقام اتبعوه، وإن جَنَفَ قتلوه. فقال طلحة: وما عليك لو قلت: وإن تعوَّج عزلوه؟ فقال عمر: لا. القتل أنكر لمن بعده". وعمر، حين قال ما قال، إنما كان ينطلق من مبادئ الإسلام القائمة على الحرية والكرامة وأن السلطان ليس سوى خادم لرعيته يشتغل لديها بأجر تدفعه له لقاء إشرافه على أمورها لا سيد يملك رقابها ويتصرف فيها كما يشاء، ويقطفها متى أراد. قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إنه سيكون عليكم أمراء مضلون يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم. إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: وما نصنع يا رسول الله؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى. نُشِروا بالمناشير وحُمِلوا على الخُشُب. والذى نفسى بيده لَمَوْتٌ فى طاعة الله خيرٌ من حياة فى معصية الله". فالرسول الكريم يستحث الناس على مقاومة الظلم حتى لو نُشِروا فى سبيل ذلك بالمناشير. ثم يأتى بعض القوم فى آخر الزمان وكأنهم يفتون المسلمين بأن يباركوا تنكيل حكامهم بهم ويستزيدوا منه ويتقربوا إلى الله به!

ولا سبيل للمسلمين إلى تجنب هذه الفتن إلا أن يعملوا على أن يكون لهم نظام حكم شورى بحيث يأتى الحاكم إلى سدة الحكم أو يتركها برأى الشعب ليس إلا. حينئذ سنقول، ونحن مطمئنون: وداعا للفتن! ترى هل أمة محمد أقل من أمم الغرب؟ بالعكس إن ديننا لهو دين الحرية والعزة والكرامة. ونزيد عنهم وقتئذ بإيماننا بالله واليوم الآخر. والمسلم إذا فرّط فى كرامته وعزة نفسه فسوف يبوء يوم القيامة بالخزى المبين ويعذبه الله بعذاب النار، إذ كيف يكون مسلما وذليلا فى ذات الوقت؟ هذا ما لا يمكن أن يكون! ولا يُقْبَل من المسلم أن يقول إننى كنت مستضعفا فى الأرض، وهو يقدر على ألا يكون حتى لو كان الحل هو الهجرة بعيدا عن ديار الظلم، اللهم إلا إذا عجز عن ذلك عجزا مطلقا. قال عز شأنه: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ" (المنافقون/ ٨)، "لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ

اللّهُ عَفُوًّا غفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غفُورًا رَحِيمًا" (النساء/ ١٠٠).

ومعروف أن من أسماء المولى سبحانه وتعالى "العزيز"، فعلى المسلم أن يعمل بكل ما فى وسعه على التحقق بالعزة امتثالا لقول القرآن المجيد: "ولله المثلُ الأعلى فى السماوات والأرض"، وإن كانت عزة الله مطلقة لا أول لها ولا آخر، أما عزة الإنسان فمحدودة. إلا أنه يبقى هناك دائما فرق بين العزة والذلة كالفرق ما بين السماء والأرض.

* يقول الكاتب: فهل هذه التظاهرات إسلامية أم جاهلية؟ مطلوب منك في هذه التظاهرات ألا تردد شعارا إسلاميا لأنه شعار طائفي! مطلوب منك أن تقف صفا واحدا ويدا بيد مع العلماني والنصراني والنصيري وعبدة الشيطان، فأنتم إخوة تناصلون لنفس الهدف! مطلوب منك ألا تردد عبارات تنديد بأمريكا وغيرها، فنحن لا نريد أن نخسر دعمهم لقضيتنا! مطلوب منك أن تطالب بالديموقراطية وتعدد الأحزاب! مطلوب أن تسقط النظام بحشد الأكثرية، وأنت تعلم أن الميزان في شرعنا هو الحق، وليس رأي الأكثرية! أخي المسلم: لست أنت من اختار توقيت النزول إلى الشارع والثورة بل التوقيت جاء من أطراف غير معروفة. ألا تخشى أن تصبح ورقة ضغط في أيدي القوى المهيمنة؟ ألا تخشى أن يذهب جهدك ودمك إلى جيوب العملاء والمنتفعين؟

** وأقول أنا: لقد اشترك النبى عليه الصلاة والسلام قبل الإسلام فى حلف الفضول، وأثنى عليه وعلى الأساس الذى قام عليه وأكد أنه لو دُعِيَ إلى مثله فى الإسلام لأجاب: "لقد شَهِدْتُ مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جُدْعان ما أُحِبّ أن لي به حُمْر النَّعَم. ولو دُعِيتُ به في الإسلام لأجبتُ". لقد حدث هذا الحلف فى الجاهلية، أى بين قوم جاهليين، ومع هذا لم يعبه رسول الله ولا قال فيمن تعاقدوا عليه كلمة يُشْتَمّ منها أى لون من ألوان المذمة، بل مدحه وأكبره كما قرأنا فى كلامه الشريف. إن التعاون على الخير هو

من الأمور الواجبة حتى لو كان الطرف الآخر فى عملية التعاون غير مسلم. ثم إنه لا توجد دولة خالصة الإسلام مائة فى المائة أو لا تكاد توجد . فماذا نفعل؟ هل ندير ظهورنا للآخرين رافضين أى تعاون بيننا وبينهم على ما فيه مصلحتنا المشتركة؟ إن بين البشر على اختلاف أديانهم وأوطانهم وثقافاتهم وأغراضهم مصالح مشتركة لا حصر لها، ولا بد أن تمضى هذه المصالح، وإلا توقفت الحياة. ثم هل المسلمون فى مصر فى الظروف الحالية التى نعرفها جميعا يملكون أمورهم فى بلادهم بحيث يمكنهم أن يُقْصُوا غير المسلمين من المعادلة السياسية؟ وهل، لو ملكوا زمام أمورها، يحسن منهم أن يقصوا غير المسلمين؟ لقد كان الرسول أحرى أن يفعل هذا لو كان هذا هو المنهاج السليم. لكننا نعلم أنه، بمجرد هجرته إلى المدينة، قد كتب صحيفة يرسى فيها أسس التعاون بينه وبين اليهود محددا لكل طرف من طرفيها واجباته وحقوقه. صحيح أنهم غدروا ببنود هذا الدستور. لكن هذا موضوع آخر.

أما قول الكاتب إن "الميزان في شرعنا هو الحق، وليس رأي الأكثرية" فهذا المبدأ لا يمكن العمل به إلا عن طريق الأكثرية. كيف؟ ترى لو أن المسلمين يمثلون أقلية فى مجتمع من المجتمعات فكيف يتسنى لهم أن ينفذوا هذا المبدأ كما هو حالهم مثلا فى فرنسا أو بريطانيا أو حتى فى أية دولة إفريقية أو آسيوية غير مسلمة؟ لقد كان المسلمون فى بداية الدعوة أقلية فى مكة، فهل استطاعوا أن يضعوا هذا المبدأ موضع التنفيذ؟ الواقع أنهم لم يستطيعوا هذا إلا بعدما صاروا فى المدينة أغلبية بحيث أضحى لكلمتهم وزن ومعنى. ليس هذا فحسب، إذ إن المسلمين الحاليين فى بلادهم ذاتها، أقصد البلاد التى يشكلون فيها أغلبية ساحقة ماحقة، لا يستطيعون أن يعيشوا وفق شريعتهم ومبادئ دينهم فى كثير من الأحيان، بل تفرض عليهم أوضاع تناقض دينهم تمام المناقضة، وكثيرا ما تملى عليهم الأقليات هذه الأوضاع كما نعلم جميعا. أليس كذلك؟ والسبب فى هذا هو أنهم لم يتوصلوا إلى النظام الذى من خلاله يستطيعون أن تكون لهم فى بلادهم كلمة

محترمة يؤخذ بها. وما دام بيننا من يسمى الانتفاضات والتظاهرات من أجل نيل الحقوق: "فِتَنًا" فلا أمل فى التوصل إلى هذا المستوى الذى بلغته كثير من الدول الأخرى.

إن الكاتب فى هذا السياق يشير إلى ما يصاحب الانتفاضات والتظاهرات من متاعب وإزعاجات. ولكن هل يمكن أن تخلو الحياة يوما من المتاعب والإزعاجات؟ هل خلت حياة الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم حتى بوصفه نبيا وقائدا سياسيا وعسكريا من المتاعب والإزعاجات؟ إن القرآن ليؤكد أن حياة الإنسان يحوطها الكَبَد من كل جانب: "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ في كَبَدٍ" (البلد/ ٤). إن الولادة مؤلمة، والتسنين مؤلم، والجوع مؤلم، وارتفاع الحرارة مؤلم، والعطش مؤلم، والتعلم مؤلم، والجهل مؤلم، والملل مؤلم، والشك مؤلم، والحيرة مؤلمة، والإهانة مؤلمة، والحرمان مؤلم، واليتم مؤلم، والفقر مؤلم، والتخلف مؤلم، والمرض مؤلم، والبرد مؤلم، والحر مؤلم، والحروب مؤلمة، والثورات مؤلمة، والتظاهرات مؤلمة... والتاريخ فى معظمه ثورات وانتفاضات وحروب ومؤامرات. ولولا هذا ما كان تقدم ولا تطور ولا انتقال من حال إلى حال ولبقيت الحياة تراوح مكانها فى مرحلتها الأولى أيام كان يعيش الإنسان فوق الأشجار أو فى الكهوف والغيران، ويمشى عاريا لا يستره إلا شعر جسده، ويأكل الطعام نيئًا: لحما كان أو نباتا. فليست التظاهرات والانتفاضات وحدها هى المؤلمة كما نرى. ولو أننا خفنا من كل مرحلة جديدة نحن مقبلون عليها لما فيها من منغصات وآلام ما تحركنا خطوة واحدة ولَشَلَّتِ الحياة.

وإنى لأذكر بكل وضوح كيف كنت فى بداية كل مرحلة تعليمية أشعر بخوف وألم لأننى كنت أنتقل معها من مكان ووضع ألفته إلى مكان ووضع جديد علىّ تماما كما هو الحال حين تركت قريتى إلى طنطا وأنا صبى صغير فى الثانية عشرة من عمره، وكنت أشعر بحزن كاسح تدمع معه عينى وقلبى لمفارقتى حضن جدتى، التى تولت تربيتى بعد موت أمى فأبى، وكما هو الحال حين انتقلت لدن دخولى الجامعة إلى القاهرة، وحين انتقلت للدراسة فى جامعة أكسفورد ببريطانيا رغم أن زوجتى كانت معى... وهكذا. وسبق أن

ذكرنا أن الجاهليين كانوا مستنيمين تماما إلى أوضاعهم وراضين بها، فلما جاء الإسلام نظروا إليه على أنه شىء مزعج وفتنة لا تطاق، ومن ثم رأيناهم يحاربونه حربا لا هوادة فيها. ولو قُيِّضَ للجاهليين أن ينصتوا إلى كلام كاتبنا ما أسلموا ولظلوا يرددون حتى يوم الناس هذا أنه فتنة شنيعة سوف تأخذ العرب والبشر إلى ما لا تُحْمَد عُقْباه. كذلك لو قُيِّض لنبينا أن ينصت إلى ذات الكلام وخَشِيَ اشتعال الحروب والغزوات التى خاضها، ومات فيها من مات، وتيتّم من تيتّم، وأُسِر من أُسِر، وترمّل من ترمل، وفقد أعضاءه من فقد، وافتقر من افتقر، ما كان إسلام ولا توحيد ولا إمبراطورية عربية ولا شىء من هذا التاريخ العظيم الذى خطه المسلمون فى صحائف الحضارة والمجد ولا ولا . . .

* يقول الكاتب: أليس كل هذا فتنة وخلط بين الحق والباطل؟ ألم يقل الله تعالى: "ولا تَقْفُ ما ليس لك به عِلْم"؟

** وأقول أنا: نحن مع الكاتب فى ألا يندفع المسلم فى أمر لا يعرف له مصدرا ولا موردا. إلا أن هذا لا ينطبق على ما نحن فيه الآن، إذ المتظاهرون يعرفون أنهم إنما نهضوا من أجل المطالبة بالحقوق المهدرة، ودفع المظالم المتجذرة التى تحولت بسبب استمرارها لعقود طويلة إلى ما يشبه أن يكون سنة طبيعية كطلوع الشمس من المشرق وغيابها فى المغرب و سقوط أى شىء ذى ثقل إلى الأرض. . . وهلم جرا. أما إذا تمادى الكاتب فى وصف الأمر بأنه اقتفاء ما ليس للمتظاهرين به علم، ففى هذه الحالة لن يكون هناك شىء واحد فى هذه الدنيا يمكن أن يكون لنا به علم، ومن ثم كان علينا أن نقف أَشلاّء لا نحرك ساكنا أبدا ولا نفكر فى تصحيح خطإ مهما تكن بشاعته وشناعته. ومن يا ترى يقول بهذا؟ أم عند كاتبنا بديل نافع غير استمرار المسلمين فى الخنوع والهوان والرضا بالظلم وتقبُّل ضرب الظهر والوجه والقفا والسجن والاعتقال وسلب الأموال وقصف الرقاب، وهم يبتسمون ويقولون: ليس فى الإمكان أبدع مما كان؟

* يقول الكاتب: ألسنا في زمن الفتن؟ فلماذا لا نقرأ الأحكام الخاصة بهذا الزمن؟ هل أهمل الرسول الكريم توجيهنا لهذه الفترة؟ سأورد لك في هذه العجالة بعض الروايات عن النبي الكريم، وأترك لضميرك وعقلك الكلمة الأخيرة: "حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ جَابِرٍ: حَدَّثَنِي بُسْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْحَضْرَمِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ. فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قال: نَعَمْ. قلت: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قال: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قلت: وَمَا دَخَنُهُ؟ قال: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. قلت: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قال: نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قال: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قلت: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قال: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قلت: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قال: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ". عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح مَنْ كَفَّ يده". إسناده صحيح على شرط الشيخين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به". رواه: الإمام أحمد والشيخان. عن بسر بن سعيد: "أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال عند فتنة عثمان بن عفان رضي الله عنه: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي فبسط يده إليَّ ليقتلني؟ قال: كن كابن آدم".

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بين يدي الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا . القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي . فكَسِّروا قِسِيَّكم، وقَطِّعوا أوتاركم، واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دُخِلَ على أحدكم فليكن كخير ابني آدم" . رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وهذا، وابن حبان في "صحيحه" بنحوه. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب" . وقد رواه: الإمام أحمد وأبو داود أيضا من وجه آخر عن أبي موسى رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بين أيديكم فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا . القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: كونوا أحلاس بيوتكم" .وقد رواه الحاكم في "مستدركه" من طريق أبي داود، ثم قال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وأقره الذهبي في "تلخيصه" . وعن أبي موسى أيضا رضي الله عنه أنه قال: "يا أيها الناس، إنها فتنة باقرة تدع الحليم فيها كأنما وُلِد أمس. تأتيكم من مأمنكم كداء البطن لا يُدْرَى أنّى يؤتى. المضطجع فيها خير من القاعد، و القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي" . رواه نعيم بن حماد في "الفتن"، والروياني، وابن عساكر في "تاريخه" . وعنه رضي الله عنه قال: "ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة بين يدي الساعة. قال: قلت: وفينا كتاب الله؟ قال: وفيكم كتاب الله . قال: قلت: ومعنا عقولنا ؟ قال: ومعكم عقولكم" . رواه نعيم بن حماد في "الفتن" .

عن عمرو بن وابصة الاسدي قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تكون فتنة النائم فيها خير من المضطجع، والمضطجع فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الراكب، والراكب خير من المجري. قتلاها كلها في النار . قال: قلت: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال:

ذلك أيام الهرج. قلت: ومتى أيام الهرج؟ قال: حين لا يأمن الرجل جليسه. قال: قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: اكفف نفسك ويدك، وادخل دارك. قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن دخل رجل عليَّ داري؟ قال: فادخل بيتك. قال: قلت: أفرأيتَ إن دخل عليّ بيتي؟ قال: فادخل مسجدك، واصنع هكذا (وقبض بيمينه على الكوع)، وقل: ربي الله، حتى تموت على ذلك". وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: "صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعناه يقول: إن بين يدي الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع أقوامٌ خَلاَقَهم فيها بعَرَضٍ من الدنيا يسيرٍ". قال الحسن: "والله لقد رأيناهم صورا بلا عقول، أجساما بلا أحلام، فراش نار، وذِبّان طمع. يغدون بدرهمين، ويروحون بدرهمين. يبيع أحدهم دينه بثمن العنز". رواه الإمام أحمد، والطبراني في "الأوسط". قال الهيثمي: "وفيه مبارك بن فضالة: وثّقه جماعة، وفيه لين. وبقية رجاله رجال الصحيح".

وعن حذيفة أيضا رضي الله عنه أنه قال: "أتتكم الفتن مثل قطع الليل المظلم. يهلك فيها كل شجاع بطل، وكل راكبٍ مُوضِعٍ، وكل خطيب مِصْقَع". رواه ابن أبي شيبة. وعن أبي الطفيل عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أنه قال: "أنا لِغَيْر الدجّال أَخْوَفُ عليَّ وعليكم". قال: فقلنا: ما هو يا أبا سريحة؟ قال: "فِتَنٌ كأنها قطع الليل المظلم". قال: فقلنا: أي الناس فيها شر؟ قال: "كل خطيب مِصْقَع، وكل راكبٍ مُوضِعٍ". قال: فقلنا: أي الناس فيها خير؟ قال: "كل غني خفي". قال: فقلت: ما أنا بالغني ولا بالخفي. قال: "فكن كابن اللَّبون: لا ظهرٌ فيُرْكَب، ولا ضرعٌ فيُحْلَب". رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه". وعن زيد بن وهب عن حذيفة رضي الله عنه قال: "أتتكم الفتنة ترمي بالرَّضْف. أتتكم الفتنة السوداء المظلمة. إن للفتنة وقفات ونقفات، فمن استطاع منكم أن يموت في وقفاتها فليفعل". رواه الحاكم في "مستدركه"، وزاد في رواية أخرى عن زيد بن وهب، قال: "سئل حذيفة رضي الله عنه: ما وقفاتها؟ قال: إذا غُمِد السيف. قال: ما نقفاتها؟ قال: إذا سُلَّ السيف".

قال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه "، ووافقه الذهبي في "تلخيصه". وقد رواه أبو نعيم في "الحلية" بنحوه مختصرا. قال ابن منظور في "لسان العرب": "النقف: كسر الهامة عن الدماغ ونحو ذلك، كما ينقف الظليم الحنظل عن حبه. والمناقفة: المضاربة بالسيوف على الرؤوس. ونقف رأسه ينقفه نقفا ونقحه: ضربه على رأسه حتى يخرج دماغه". وقال أيضا تبعا لابن الأثير: "وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: "اعدد اثني عشر من بني كعب بن لؤي، ثم يكون النقف والنقاف"، أي القتل والقتال. والنقف: هشم الرأس. أي تهيج لفتن والحروب بعدهم. وفي حديث مسلم بن عقبة المري: "لا يكون إلا الوقاف ثم النقاف ثم الانصراف". أي: المواقفة في الحرب ثم المناجزة بالسيوف ثم الانصراف عنها.

وعن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه قال: "جُعِلَتْ في هذه الأمة خمس فتن: فتنة عامة، ثم فتنة خاصة، ثم فتنة عامة، ثم فتنة خاصة، ثم تأتي الفتنة العمياء الصماء المطبقة التي يصير الناس فيها كالأنعام". رواه عبد الرزاق في "مصنفه"، والحاكم في "مستدركه" من طريقه، وقال: "صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه". ورواه الحاكم أيضا من حديث محمد بن الحنفية عن علي رضي الله عنه قال: "تكون في هذه الأمة خمس فتن: فتنة عامة، وفتنة خاصة، ثم فتنة عامة، وفتنة خاصة، ثم تكون فتنة سوداء مظلمة يكون الناس فيها كالبهائم".

قال الحاكم: "صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه".

وعن كرز بن علقمة الخزاعي رضي الله عنه قال: "قال أعرابي: يا رسول الله، هل للإسلام من منتهى؟ قال: نعم. أيُما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله بهم خيرًا أَدْخَل عليهم الإسلام. قالوا: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: ثم تقع فتن كأنها الظلل. قال: فقال أعرابي: كلا يا رسول الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده؛ لتعودُنَّ فيها أساود صبا يضرب بعضكم رقاب بعض".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أربع فتن تكون بعدي: الأولى يسفك فيها الدماء، والثانية يستحل فيها الدماء والأموال، والثالثة يستحل فيها الدماء والأموال والفروج، والرابعة صماء عمياء مطبقة تمور مَوْر الموج في البحر حتى لا يجد أحد من الناس منها ملجأ، تطيف بالشام، وتغشى العراق، وتخبط الجزيرة بيدها ورجلها. تُعْرَك الأمة فيها بالبلاء عرك الأديم، ثم لا يستطيع أحد من الناس أن يقول فيها: مَهْ مَهْ. لا يدفعونها من ناحية إلا انفتقت من ناحية أخرى". رواه نعيم بن حماد في "الفتن". قال في "كنز العمال": "ورجاله ثقات، ولكنْ فيه انقطاع".

وعن حذيفة أيضا رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لن تفنى أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمعامع. قلت: يا رسول الله، ما التمايز؟ قال: التمايز عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام. قلت: فما التمايل؟ قال: تميل القبيلة على القبيلة فتستحل حرمتها. قلت: فما المعامع؟ قال: سير الأمصار بعضها إلى بعض تختلف أعناقهم في الحرب". رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح الإسناد"، وتعقبه الذهبي بأن فيه سعيد بن سنان. قال: "وسعيد متهم به". وعن علي رضي الله عنه أنه قال: "ستكون فتنة عمياء مظلمة منكسفة، لا ينجو منها إلا النُّوَمَة". قيل: وما النُّوَمَة؟ قال: "الذي لا يدري ما الناس فيه". رواه العسكري في "المواعظ"، ونقله عنه صاحب "كنز العمال". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تدوم الفتنة الرابعة اثني عشر عامًا، ثم تنجلي حين تنجلي وقد انحسر الفرات عن جبل من ذهب تُكِبّ عليه الأمة، فيقتل عليه من كل تسعة سبعة". رواه نعيم بن حماد في "الفتن".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أربع فتن تكون بعدي: الأولى يسفك فيها الدماء، والثانية يستحل فيها الدماء والأموال، والثالثة يستحل فيها الدماء والأموال والفروج، والرابعة صماء عمياء مطبقة". وعن الحكم بن نافع بلاغا: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تكون في أمتي

أربع فتن تصيب أمتي في آخرها فتن مترادفة: فالأولى يصيبهم فيها بلاء حتى يقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف. والثانية حتى يقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف. ثم الثالثة كلما انقطعت تمادت. والفتنة الرابعة يصيرون فيها إلى الكفر إذا كانت الأمة مع هذا مرة، ومع هذا مرة، ومع هذا مرة، بلا إمام وجماعة، ثم المسيح، ثم طلوع الشمس من مغربها، ودون الساعة اثنان وسبعون دجالا منهم من لا يتبعه إلا رجل واحد". رواه نعيم بن حماد في "الفتن"، وله شواهد كثيرة. وعن حذيفة أيضا رضي الله عنه أنه قال: "تكون فتنة لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون أخرى، فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون الخامسة دهماء مجللة تنبثق في الأرض كما ينبثق الماء". رواه ابن أبي شيبة. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها ستكون فتنة تستنظف العرب، قتلاها في النار، اللسان فيها أشد من وقع السيف". رواه: الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب". قوله: "تستنظف العرب ": قال ابن الأثير وابن منظور: "أي تستوعبهم هلاكا". أسأل الله لي ولكم العافية.

** وأقول أنا: الكاتب ينصح المسلمين إذا أرادوا أن يُرْضُوا ربهم ويفوزوا بالجنة أن يعتزلوا تماما ما يجرى على ساحة السياسة من تظاهرات واعتصامات وما إلى ذلك ويتركوا غيرهم ينال كل شىء، أما هم فيبوؤون بخيبة الدنيا والآخرة. إن مكاسب الانتفاضة سوف تذهب حينئذ إلى غير المسلمين من شيوعيين ونصارى ونصيريين ومن إليهم ممن ذكرهم الكاتب، ولأُمّ المسلمين الهَبَلُ. ولا عزاء لهم فى شىء، فقد أخذوا بنصيحة أخينا المقدام فحق عليهم الخذلان. إن الفتن التى ينبغى الابتعاد عنها هى المنازعات التى يثيرها بعض الطامحين والطامعين فى الحكم ممن لا يهمهم مصالح المسلمين، بل كل ما يريدونه هو مغانم الكرسى والتحكم فى رقاب العباد وسَوْقهم أمامهم سوق الدواب بالعصا والسوط. على أن الابتعاد عن تلك المنازعات

لا يعنى أن يُصِمّ المبتعد أذنيه ويغلق عينيه عن الأمر بحيث لا يكون له فيه أية مشاركة. بل المقصود، فيما أفهم، ألا ينحاز إلى فريق من الطامحين الطامعين ضد الفريق الآخر تحت اعتبار قبلى أو مصلحى مثلا، بل يعمل كل ما فى وسعه على المصالحة والقضاء على أسباب النزاع. أفلم يقل القرآن الكريم: " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الحجرات/ ٩– ١٠)؟ أم ترانا ينبغى أن نهمل ما يقوله المولى سبحانه وتعالى ونأخذ بكلام كاتبنا المفضال؟

وعلى أية حال ليس فى تظاهرات الشباب هذه الأيام اقتتال أو تطلع إلى أية مغانم خاصة، بل كلها مطالب إصلاحية للأمة كلها. وإذا كان قد وقع صدام فهم ليسوا مسؤولين عنه، بل المسؤول هو مَنْ جَنَّد المشاغبين وسَلَّطهم على أولئك الشبان النبلاء، فقذفوهم بالطوب وبالرصاص، فلم يجدوا بدا من الرد على الحجارة بحجارة مثلها. أما الرصاص والإبل والخيول والحناطير والعربات المصفحة والمدرعة التى قتلت منهم من قتلت فهذه ليس لهم منها قَلَّ أو كَثُرَ، بل كانوا يسألون الله السلامة. فماذا كان الكاتب يريد منهم؟ أكان يريد منهم أن يتركوا للبلطجية المجرمين الجمل بما حَمَل ويُخْلُوا لهم الساحة ويكتفوا من الأمر بما هتفوا به من هتافات لن تؤكِّل عيشا حافيا إذا لم يواصلوا التظاهر والصمود من أجل فوز الأمة بحقوقها أو ببعض حقوقها التى طالما تُجُوهِلَتْ واعْتُدِيَ عليها من قِبَل الحكام؟ أم ماذا؟ إن كل ما يفعلونه الآن إنما هو الصراخ بكلمة حق عند سلطان جائر طبقا لما أمر الرسول عليه السلام المسلمين به، ولو لم يعملوه لباؤوا بخسران مبين.

لو أن الكاتب طلب من المسلمين فى تلك الظروف أن يحكّموا عقولهم ويمحصوا الأمور التى تقع من حولهم ويعملوا على فهمها ومحاولة الخروج منها بأكبر قدر من المكاسب وأقل نصيب من الخسائر لقلنا له:

نعم، ونعام عين. أما أن يكون مطلبه هو هروب المسلمين من وجه الأحداث والاعتصام بالسلبية والفرار من الميدان وتركه للأطراف الطامحة الطامعة تقرر مصيره ومصير الدولة كلها دون أن يكون لهم رأى أو موقف، فهذا ما لا أدرى كيف يكون. الواقع أنهم لو انتصحوا بما ينصحهم به الكاتب لأخذوا أبشع مقلب يمكن أن يأخذوه.

كذلك فإن هذه الفتن التى تتحدث عنها الأحاديث النبوية المذكورة إنما هى فِتَن آخر الزمان حين يظهر المسيح والدجال وتطلع الشمس من مغربها وينحسر الفرات عن جبل من ذهب تُكِبّ عليه الأمة فيقتل عليه من كل تسعة سبعة كما تقول الأحاديث التى رواها كاتبنا. فهل نحن الآن فى آخر الزمان؟ فأين المسيح إذن؟ وأين المسيخ الدجال؟ وأين جبل ذهب الفرات؟ وهل صارت الشمس تطلع من مغربها ونحن لا ندرى؟ إننا الآن فى عز التاريخ، وليست هناك شواهد بعد على أننا مشرفون قريبا على يوم القيامة. ولقد قامت بعض الفتن فى عهد الرسول، فلم نره صلى الله عليه وسلم يعتزل الفتن، بل كان يقتحمها ويأخذ بقرونها ويذللها فتذل له عليه السلام. هذا هو الموقف الإيجابى الذى ينبغى أن نحتذيه ونسير على منواله لا أن نفر ظانين أننا بهذا الفرار نحسن صنعا. ولقد انتقد كثير من المراقبين قوات الجيش المصرى الرابضة الآن فى ميدان التحرير حين هاجم البلطجيةُ رجالَ الانتفاضة الشرفاء فتركهم الجيش أوّلاً يمرّون، ثم تركهم مرة أخرى يعتدون على أبطال الانتفاضة. وكانت حجته أنه لا يريد أن ينحاز إلى أحد الطرفين، مما كانت ثمرته وقوع عدد من القتلى والجرحى كنا فى غنى عن وقوعه لولا هذا الموقف العجيب الذى ينادى به كاتبنا. ولو كان رجال الجيش منعوا المعتدين من دخول ميدان التحرير أول الأمر ما كانت هذه الكارثة.

إن الدعوة إلى تأثيم المظاهرات ليس له إلا عاقبة واحدة هى أن يظل المسلمون فى هم وغم وفقر واستبداد وشقاء فلا يصلح لهم حال أبدا، فما دام حكامهم مطمئنين إلى أن شيوخ الضلال تقول بحرمة التظاهر والوقوف فى وجه المستبدين فما الذى يضطرهم إلى سلوك الصراط المستقيم؟ هاتوا لنا ملائكة تحكمنا إذا

أردتم أن يلتزم المسلمون بنصائحكم التى تودى بهم فى داهية. لكن لم نسمع فى يوم من الأيام، ولن نسمع كذلك فى مُقْبِل الأيام، أن ملائكة قد حكمت البشر، بل حكام البشر لا يكونون إلا من البشر، الذين يمكن أن يكذبوا ويسرقوا ويقتلوا ويستبدوا ويَطْغَوْا فى البلاد. فماذا يفعل المسلمون؟ أيتركونهم يصنعون بهم ما يشتهون دون نكير أو تأفف أو كفاح؟ ترى هل المسلمون أصنام لا تحس ولا تفهم ولا تتألم ولا تتطلع إلى إصلاح؟ يا لهوانهم إذن إن صح فيهم هذا الذى أقول! ترى ماذا نصنع بقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"، وبقوله أيضا: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"؟ وماذا نصنع بما قال أبو بكر رضى الله عنه غِبَّ توليه خلافة المسلمين: "أيها الناس، فإني قد وُلِّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم. فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقَوِّمُوني"؟ وماذا نصنع بما رَدَّ به أحد المسلمين على عمر فبارك عمر رده عليه حين قام فى الرعية خطيبا فقال: "إذا رأيتم فيّ اعوجاجا فقوِّموني". فنهض رجل وقال لعمر: والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناك بسيوفنا. فقال عمر: الحمد لله، الذي جعل في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يقوّم عُمَرَ بسيفه"؟

إن أمثال الكاتب، على العكس من ذلك، يستشهدون دائما بالحديث التالى: "عن عوف بن مالك، عن رسول الله قال: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلّون عليكم وتصلّون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة. وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه فاكرهوا ولا تنزعوا يدًا من طاعة"، مع أنه لا وشيجة بين هذا الحديث وما نحن فيه من تظاهرات سلمية. كذلك لو أُخِذ هذا الحديث على ظاهره لما كان أسهل من إفساد الحاكم على راحته لأمور البلاد والعباد مع التحرُّم بصلاةٍ نفاقيّةٍ يؤديها كيلا يخرج عليه خارج. الله أكبر!

حتى لو ظاهر الأعداءَ فى الداخل والخارج ضد الإسلام؟ نعم حتى لو ظاهر الأعداءَ فى الداخل والخارج ضد الإسلام. ألا يصلى؟ بلى هو يصلى. فاتركوه يفعل بكم وبدينكم ومصالحكم وكرامتكم ويضربكم بالجزمة القديمة ما شاء له إجرامه وجبروته وساديّته. وإياكم أن تهبّوا وتأخذوا على يده، وإلا حقت عليكم لعنة الله والرسول والملائكة والناس أجمعين.

أما قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر: "إن الناس إذا رَأَوُا الظالم فلم يأخذوا على يده عَمَّهم الله بعقابه"، أو قوله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكرا فاستطاع أن يغيره بيده فليفعل، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" فإياكم ثم إياكم أيها المسلمون ثم إياكم أن تصدّقوا منه شيئًا فتحاولوا تطبيقه. إنه حديث للزينة ليس إلا. أستغفر الله! لقد فات الكاتب وأشباهه أن المراد من الحديث الذى ينهى عن الخروج من الطاعة هو ألا يسارع كل إنسان يسخط على الحاكم فى أمر خاص بالخروج عليه (الخروج بالسلاح لا التظاهر لإسماعه شكاة المظلومين. أم ترى يجب على المسلم أن يطقّ من أجنابه ولا يفتح فاه بشكوى أبدا؟)، وذلك حتى لا يتحول الأمر فوضى عارمة وينهار بناء الدولة والمجتمع. كما يراد به من يسخط على السلطان لأنه عاقبه ولم يتركه يفلت بجريمته. ذلك أن هناك ناسا يريدون أن يبغوا فى الأرض وأن يذلوا الآخرين فلا تفتح الدولة فاها، بل تبارك ما صنعوا. ويا حبذا لو أعطتهم عليه جائزة أيضا. لكن لا يمكن أن يكون المراد هو رضا الأمة بكل ما يصنعه الحاكم بها من مظالم ومفاسد واستبداد وترويع ونهب وسلب ومحسوبية، وبخاصة إذا لم يتولّ الحكم بناء على اختيار الأمة بل اغتصبه اغتصابا: سواء كان الاغتصاب اغتصابا بَوَاحًا أو بالانتخابات المزورة التى لا تساوى بصلة. ومثل ذلك الحكم هو حكم غير شرعى.

ولقد بين الرسول الكريم أن من يتطلع إلى الحكم ويطلبه لا ينبغى أن ينال منه شيئًا، حسبما قال لأحد الصحابة ممن طلب منه توليته عملا من أعمال الدولة. فعن أبى موسى الأشعرى: "دخلتُ على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أَمِّرْنا يا رسول الله، وقال الآخر مثله، فقال: إنا لا

نُوَلِّي هذا مَنْ سأله ولا مَنْ حَرَص عليه" . فإذا نهضت عندئذ طائفة هائلة العدد تعبر عن ضمير الشعب فتنادت بالإصلاح وعملت على ردع ذلك الحاكم وإيقافه عند حده فما وجه الإنكار عليها فى هذا، وبخاصة حين يكون إنكارا سلميا يُسْمِعون به صوت احتجاجهم للأمّة والعالم ويحرجون به الظلمة الفسقة الضالين المضلين، اللهم إلا إذا كنا جماعة من المازوكيين، الذين يتلذذون بتعذيب الآخرين لهم؟ وحاشا للمسلم أن يكون مازوكيا !

ولنفترض أنْ كان هذا الذى كتب الكاتب فى مقاله صحيحا ، فكيف نصنع بقول رسولنا الكريم: "من قُتِل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد" ؟ أليس معناه بكل وضوح أن الحاكم (مَثَلُه مَثَلُ أىّ شخص آخر. أم على رأس الحاكم ريشة؟) إذا أراد أن يغتصب عِرْض مسلم أو ماله أو ضَيَّق عليه فى دينه، فدافعه هذا المظلوم عن ماله وعرضه فقُتِل أثناء هذا الدفاع فهو شهيد ؟ أليس معنى ذلك أن الإسلام يحض على ذلك الدفاع؟ أتراه، لو كان الاستسلام هو مبدأه فى مثل هذه الحالة، يعلى على هذا النحو من شأن الشهادة فى سبيل الدفاع عن الحقوق؟ ألم يكن أجدر بالحديث حينئذ أن يقول مثلا : من اغتصب الحاكمُ مالَه أو اعتدى على عِرْضه فليتركه له عَفْوًا صَفْوًا لا يكدّره عليه بمكدر ؟ وماذا نقول لرسول الله ذاته حين أعطى الدرة لرجل من المسلمين ليقتص بها منه لقاء ما تصور أنه قد آذاه بها ؟ أوقد أخطأ الرسول عندما طاف بذهنه أن للرعية حقا عند الحاكم تستطيع بناء عليه أن تقتص منه؟ ثم ماذا نقول فى هذا النص النبوى الكريم: "إنَّ الناس إذا رَأَوُا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم اللّه بعقابٍ"؟ أو هذا: "لا يَقِفَنَّ أحدكم موقفا يُقْتَل فيه رجلٌ ظلمًا ، فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه. ولا يقفنّ أحدكم موقفا يُضْرَب فيه رجلٌ ظلمًا ، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه" . فإذا كانت هذه عقوبة من يرى الظلم ويسكت فلا ينصر المظلوم، فما بالنا بالمظلوم نفسه؟ لا شك أن عقابه يكون أشنع وأفظع إذا سكت عن حقه ورضى أن يضرب ويهان ويسرق،

متصورا أنه يتقرب إلى الله بهذا الصمت وذلك الخنوع كما يريد الكاتب. ثم هل هناك معصية أبشع من الاستبداد السياسى بكل مفاسده ومساوئه؟ إذن فلنقرأ قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "ما من قومٍ يُعْمَل فيهم بالمعاصى ثم يَقْدِرون أن يغيّروا ثم لا يغيّرون إلاّ يوشك أن يعمهم اللّه منه بعقابٍ". ولم يستثن الحديث معاصى الحكام. ومن الطبيعى أن تأتى مثل تلك المعاصى على رأس الفساد فى أى بلد، إذ هى أُسُّ الكثير من المعاصى الأخرى. ثم هل من العدل أن يتميز الحاكم بأنه فوق السؤال والمحاسبة دون باقى الشعب؟ إذن أبشروا فى بلادكم بخراب شامل يا مسلمون!

إن الفتنة الحقيقية إنما هى الفتنة التى تصيب المسلم جَرّاء ما يقوله شيوخ الضلال من أنه يجب على المسلمين الصمت إزاء ما ينصبّ على رؤوسهم من مظالم وكوارث يُنْزِلها بهم حكامهم الأوساخ الذين يعملون لحساب أعداء دينهم وأوطانهم. ذلك أن مثل هذا الكلام يوقع فى رُوع الناس أن الإسلام هو دين الخنوع والركوع للبشر والرضا بالظلم والهوان. وأين فى الناسِ العقلاءِ الشرفاءِ الذين لم تتلوث فطرتهم وينتكس عقلهم من يرضى بهذا؟ إن الحيوانات ذاتها لتعاف وترفض وتنكر وتقاوم أى إيذاء يقع بها، فلم يظن شيوخ الضلال أن المسلمين أقل من الحيوانات، ويَرْضَوْن بما لا ترضى به الحيوانات، ويضعون أنفسهم فى منزلة أدنى من منزلة الحيوانات؟ لقد تحررت الشعوب الأخرى، ولم يبق خانعا خائفا مرتعبا يرتعد من حكامه سوى المسلمين، فهل تريدون، يا مشايخ الضلال، أن يبقى المسلمون دون غيرهم من الأمم عبيدا مهانين، بينما الدنيا كلها قد كسرت قيودها وأغلالها وانطلقت تسعى فى الأرض عزيزة شامخة؟ حرام عليكم، والله حسيبنا فيكم! وبعد، فقد أقر المسؤولون الذين قامت التظاهرات ضدهم تهتف بسقوطهم بأنها تظاهرات نبيلة تعبر عن حقوق الشباب، فما رأى كاتبنا الهمام؟ أم تراه يفضل أن يكون ملكيا أكثر من الملك ذاته؟".

وأزيدك، أيها القارئ العزيز، من الشعر بيتا كما يقولون فى السعودية فأورد لك هذا الخبر الذى طالعته لتوى فى جريدة "المصريون" الضوئية يوم الثلاثاء ٢١ مايو ٢٠١٣م والذى يدل على أننا نؤذن فى مالطة مع هؤلاء

الناس، الذين يظنون أنهم يعيشون فى كهف من الكهوف المظلمة بالعصر الحجرى، إذ تحدثت الصحف عن سلفيين يوقعون فى استمارات حركة "تمرد"، التى تهدف إلى إسقاط د. محمد مرسى الرئيس الذى أتى به الصندوق فى انتخابات نزيهة شهد بها العالم كله وشارك فيها إخواننا البعداء، الذين يفاجئوننا كل يوم بما من شأنه تطيير كل أبراج العقل جميعا، فتعليقا على هذا "قال المهندس عبد المنعم الشحات، المتحدث باسم الدعوة السلفية، إن السلفيين الذين ظهروا يوقعون علي استمارة تمرد لازالوا يرون أن الرئيس السابق مبارك ولي أمرهم . وأضاف في لقاء علي مصر ٢٥ : لا أعرف كيف يفكرون. بعضهم كان يري أن مبارك "متغلب"، فهو ولي أمرهم، ثم صار الرئيس مرسي "متغلب"، فصار ولي أمرهم. وهناك من يري أن "ما بني علي باطل فهو باطل"، ومازال يدين بالولاء لمبارك. وأردف: السلفيون المداخلة يبالغون في استعذاب الواقع برغم أن عقيدتهم تنكره" . الكارثة أن هؤلاء القوم يحاولون أن يقنعونا أنهم هم الصورة المثلى للإسلام وأن حكمهم للبلاد سيكون أعظم حكم مر بها فى تاريخها الطويل. لله يا زمرى ويا طبلى!

وكيلا نترك مسألة إعفاء اللحية دون ختام نسوق ما كتبه الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق فى كتابه: "الفتاوى" تحت عنوان "حلق اللحى": "آراء الفقهاء: تكلم الفقهاء على حَلْق اللحى: فرأى بعضهم أنه مُحَرَّم، ورأى آخرون أنه مكروه، ومنهم من شدّد فوصفه بأنه من "المنكرات"، وبأنه "سَفَهٌ وضلالة أو فِسْقٌ وجهالة" . ونحن لا نشكُّ في أن إبقاءها وعدم حَلْقها كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان يأخذ من أطرافها وأعلاها بما يحسنها، ويجعلها مُتناسبة مع تقاسيم وجهه الشريف، وأنه كان يُعنَى بتنظيفها وتخليلها بالماء، عملا على كمال النظافة. وكان الأصحاب، رضوان الله عليهم، يُتابعونه في كل ما يختاره ويسير عليه في مظهره وهيئته، حتى مِشْيته.

مِن سُنَن الفِطْرة: وقد وردت عنه صلى الله عليه وسلم أحاديثُ تُرغِّب في توفيرها ضمن أمور تتصل كلها بالنظافة، وتحسين الهيئة وإظهار الوَقار، وعُرِفَتْ تلك الأحاديث عند العلماء بأحاديث "خِصَالِ الفِطْرة

أو سُنَنِها" . والكلمة تَعني الآن الأشياء التي تتفق وخُلُق الإنسان في أحسن ما شاء الله من الصور. وكان في هذه الخصال الواردة مع إعفاء اللحية في تلك الأحاديث: "السواك، وقصّ الشارب والأظافر، وغسل البراجم، وهي عُقَد الأصابع ومعاطفها، واستنشاق الماء وإزالة شعر الإبط والعانة والختان" . وقد أخذت هذه الخصالُ، عند كثير من الفقهاء الباحثين عن أحكام الشريعة، حُكْمَ السُّنِّيَّة أو الاستحباب، وأخذتْ حُكْم الكراهة. وإعفاء اللحية واحدة من هذا الخصال، لا يعدو حُكْمُه حُكْمَها، وهو السُّنِّيَّة والاستحباب. على أن كلمة "سُنَّة" أخذت، في دور الاجتهاد، غير مَعناها في زمن التشريع، فهي عندهم ما يُثَاب المرء على فِعْله ولا يُعَاقَب على تركه. وقد كان معناها الطريقة العملية التي يستحسنها الناس، ويرى فيها النبيُّ ما يَرَوْنَ فيها، فيسير عليها ويُرغِّب أصحابه فيها.

عادةٌ قديمةٌ: وقد أرشدنا التاريخ في قديم العرب وغيرهم إلى أن إعفاء اللحْية كان عادة مُسْتَحْسَنَة، ولا يزال كذلك عند كثير من الأمم في علمائها وفلاسفتها مع ما بينهم من اختلافٍ في الدين والجنسية والإقليم، يَرَوْنَ فيها مظهرًا لجمال الهيئة وكمال الوقار والاحترام. والرسول، عليه السلام، مِن دأبه إرشاد أمته إلى ما يجعلهم في مقدمة أرباب العادات المُسْتَحْسَنة التي تُوَفِّر بحسب العُرْف مظاهرَ الوقار وجمالَ الهيئة. ومِن ذلك جاءت أحاديث الترغيب في توفير اللِّحْية، كما جاءت أحاديث الترغيب في السواك وتنظيف عُقَد الأصابع ومَعَاطِفِها.

الأمر بمخالفة المشركين: نعم جاء، في أحاديثَ خاصةٍ باللحية، الأمرُ بالإعفاء والتوفير، وعَلَّلَتْ ذلك بمُخالفة المجوس والمشركين. ومن هنا فقط أخذ بعض العلماء أن حَلْق اللِّحْية حرامٌ أو مُنْكَرٌ. والذي نعرفه في كثير مما ورد عن الرسول في مثل هذه الخصال أن الأمر كما يكون للوجوب يكون لمجرد الإرشاد إلى ما هو الأفضل، وأن مُشابهة المخالفين في الدين إنما تَحْرُم فيما يُقْصَد فيه التشبُّه من خصائصهم الدينية. أما مُجرد المشابهة فيما تجري به العادات والأعراف العامة فإنه لا بأس بها، ولا كراهة فيها ولا حُرمة. وقد قيل

لأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، وقد رُئِيَ لابسًا نعلينِ مَخصوفين بمساميرَ: إن فلانًا وفلانا من العلماء كرها ذلك لأن فيه تشبُّهًا بالرهبان. فقال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يلبس النِّعال التي لها شعر، وإنها من لباس الرهبان.

ونحن لو تمشينا مع التحريم لمجرد المشابهة في كل ما عُرِف عنهم من العادات والمظاهر الزمنية لوجب علينا الآن تحريم إعفاء اللحى لأنه شأن الرهبان في سائر الأمم التي تُخالفنا في الدين، ولَوَجَبَ الحكم بالحرمة على لُبس القُبَّعَة. وبذلك تعود مسألتها جَذَعَةً بعد أن طوى الزمن صفحتها، وأخذت عند الناس مسلك الأعراف العامة التي لا تتصل بتديُّن ولا فِسْقٍ ولا بإيمانٍ وكُفْرٍ. والحقُّ أن أمر اللباس والهيئات الشخصية، ومنها حَلْق اللحية، من العادات التي ينبغي أن ينزل المرء فيها على استحسان البيئة: فمَن دَرَجَتْ بيئتُه على استحسان شيء منها كان عليه أن يُسَايِر بيئته، وكان خُروجه عمّا أَلِفَ الناس فيها شذوذاً عن البيئة. والله الموفق للسداد".

وعودة إلى ما قلته عن النقاب أرى أن أنقل هنا ما كتبه الشيخ محمد الغزالى فى كتابه: "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث". قال رحمه الله: قرأت كتيبا في إحدى دول الخليج يقول فيه مؤلفه: إن الإسلام حرم الزنا! وإن كشف الوجه ذريعة إليه، فهو حرام لما ينشأ عنه من عصيان! قلت: إن الإسلام أوجب كشف الوجه في الحج، وأَلِفَه في الصلوات كلها. أفكان بهذا الكشف في ركنين من أركانه يثير الغرائز ويمهد للجريمة؟ ما أضلّ هذا الاستدلال! وقد رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، الوجوه سافرة في المواسم والمساجد والأسواق فما روي عنه قط أنه أمر بتغطيتها، فهل أنتم أغير على الدين والشرف من الله ورسوله؟ وللنظر الى كتاب اله ورسوله لنستجلي اطراف الموضوع:

١- إذا كانت الوجوه مغطاة فمِمَّ يغض المؤمنون أبصارهم كما جاء في الآية الشريفة: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم..."؟ أيغضونها عن القفا والظهر؟ الغض يكون عند

مطالعة الوجوه بداهة، وربما رأى الرجل ما يستحسنه من المرأة فعليه ألا يعاود النظر عندئذ كما جاء في الحديث. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: "يا علي، لا تُتْبِعِ النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة" !

٢- وقد رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، من تستثار رغبته عند النظر المفاجئ. وعندئذ فالواجب على المتزوج أن يستغني بما عنده كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ـ أي ليذهب الى زوجته ـ فإن ذلك يرد ما في نفسه". إن لم تكن له زوجة فَلْيَعِ قوله تعالى: "ولْيستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله".حكى القاضي عياض عن علماء عصره، كما روى الشوكاني، أن المرأة لا يلزمها ستر وجهها وهي تسير في الطريق، وعلى الرجال غض البصر كما أمرهم الله.

٣- في أحد الأعياد خطب النبي، صلى الله عليه وسلم، النساء، ومصلى العيد يجمع الرجال والنساء بأمر من رسول الله، فقال لهن: "تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم". فقال امرأة سفعاء الخدين جالسة في وسط النساء: لم نحن كما وصفت؟ قال: "لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير»"يعني عليه الصلاة والسلام أن نساء كثيرات يجحدن حق الزوج، وينكرن ما يبذل في البيت ولا تسمع منهن إلا الشكوى! قال الراوي: فجعلن يتصدقن من حليهن، يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتمهن! والسؤال: من أين عرف الراوي أن المرأة سفعاء الخدين؟ والخد الأسفع هو الجامع بين الحمرة والسمرة ـ ما ذلك إلا لأنها مكشوفة الوجه. وفي رواية أخرى: كنت أرى النساء، وأيديهن تلقى الحلى في ثوب بلال. فلا الوجه عورة ولا اليد عورة.

٤- قال بعض النساء: إن الأمر يكشف الوجه في الحج أو في الصلاة يعطى أن الوجه يجب ستره فيما رواء ذلك، وأن على المرأة ارتداء النقاب والقفازين! ونقول: هل إذا أمر الله الحجاج بتعرية رؤوسهم في

الإحرام كان ذلك يفيد أن الرءوس تغطي وجوبا في غير الإحرام؟ من قال ذلك؟ من شاء غطى رأسه ومن شاء كشفه.

٥- عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن أمرأة جاءت الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي. فنظر اليها رسول الله فصعَّد النظر إليها وصوَّبه ثم طأطأ رأسه لم يجبها بشيء. فلما رأت أنه لم يقض فيها بشيء جلست. وفي رواية أخرى أن أحد الصحابة خطبها، ولم يكن معه مهر، فقال له النبي: التمس ولو خاتما من حديد! وانتهت القصة بزواجه منها. والسؤال: فيم صعد النظر وصوبه إن كانت منقبة؟

٦- عن ابن عباس: كان الفضل (أخو ابن العباس) رديف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجاءت امرأة من خثعم تسأله، فجعل الفضل ينظر اليها وتنظر إليه، وجعل رسول الله يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر. فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده الحج. وقد أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحة، أفأحج عنه؟ قال: نعم. وكان ذلك في حجة الوداع، أي لم يأت بعده حديث ناسخ.

٧- وحدثت عائشة قالت: كان نساء مؤمنات يشهدن مع النبي صلاة الفجر متلحفات بمروطهن (مستورات الأجساد بما يشبه الملاءة)، ثم ينقلبن الى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يُعْرَفْن من الغَلَس. تعني أنه لولا غبش الفجر لعرفن لانكشاف وجوههن.

٨- على أن قوله تعالى: "ولْيَضْرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ على جيوبهن" يحتاج الى تأمل، إذ لو كان المراد إسدال الخمار على الوجه لقال: ليضربن بخمرهن على وجوههن، ما دامت تغطية الوجه هي شعار المجتمع الإسلامي، وما دامت للنقاب هذه المنزلة الهائلة التي تنسب اليه. وعند التطبيق العملي لهذا الفهم اضطرت النساء لاصطناع البراقع أو حجب أخرى على النصف الأدنى للوجه كي يستطعن السير، فإن إسدال الخمار من فوق يعشى العيون، ويعسر الرؤية. ومن ثم فنحن نرى الآية لا نص فيها على تغطية الوجوه! ولاشك أن بعض النساء

في الجاهلية، وعلى عهد الإسلام كن يغطين وجوههن مع بقاء العيون دون غطاء، وهذا العمل كان من العادات لا من العبادات، فلا عبادة إلا بنص.

٩- ويدل على ماذكرنا أن امرأة جاءت الى النبي، صلى الله عليه وسلم، يقال لها: أم خلاد، وهي متنقبة تسأل عن ابنها الذي قتل في إحدى الغزوات، فقال لها بعض أصحاب النبي: جئت تسألين عن ابنك وأنت متنقبة؟ فقالت المرأة الصالحة: إن أرزأ ابني فلم أرزأ حيائي! واستغراب الأصحاب لتنقب المرأة دليل على أن النقاب لم يكن عبادة!

١٠- قد يقال: إن ما رُوِيَ عن عائشة يؤكد أن النقاب تقليد إسلامي، فقد قالت: كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات، فإذا جازوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه. ونجيب بأن هذا الحديث ضعيف من ناحية السند، شاذ من ناحية المتن، فلا احتجاج به. والغريب أن هذا الحديث المردود يروج له دعاة النقاب مع أنهم يردون حديثا خيرا منه حالا، وهو حديث عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي، صلى الله عليه وسلم، وعليها ثيابٌ رِقَاقٌ، فأعرض عنها وقال: "يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا. وأشار الى وجهه وكفيه". ونحن نعرف أن الحديث مرسل، ولكن الحديث قوَّته روايات أخرى، وهو أقوى من الحديث الذي سبقه.

١١- وأدل على ذلك السفور المباح مارواه لنا مسلم أن سبيعة بنت الحارث ترملت من زوجها وكانت حاملا، فما لبثت أياما حتى وضعت، فأصلحت نفسها، وتجملت للخطاب! فدخل عليها أبو السنابل أحد الصحابة، وقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك تريدين الزواج؟ إنك والله ما تتزوجين إلا بعد أربعة أشهر وعشرة أيام. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعتُ عليَّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي! وأمرني بالتزوج إن بدا لي. كانت المرأة مكحولة العين مخصوبة الكف، وأبو السنابل ليس من محارمها الذين يَطَّلِعون بحكم القرابة على

زينتها . والملابسات كلها تشير الى بيئة يشيع فيها السفور! وقد وقع ذلك بعد حجة الوداع، فلا مكان لنسخ حكم أو إلغاء تشريع.

وأعرف أن هناك من ينكر كل ما قلناه هنا، فبعض المتحدثين في الإسلام أشد تطيرا من ابن الرومي! وهم ينظرون إلى فضائل الدنيا والآخرة من خلال مضاعفة الحُجُب والعوائق على الغريزة الجنسية. ويعلم الله أني، مع اعتدادي برأيي، أكره الخلاف والشذوذ، وأحب السير مع الجماعة، وأنزل عن وجهة نظري، التي أقتنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة. فهل ما قلته رأي انفردت به؟ كلا كلا. إنه رأي الفقهاء الأربعة الكبار، ورأي أئمة التفسير البارزين. إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأيا مرجوحا، ويتصرفون في قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحي والثقافي والاجتماعي لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبي والعلمي. إن من علماء المذاهب الأربعة من يرى أن وجه المرأة ليس بعورة، وأثبت هنا نقولا عن كبار المفسرين من أتباع هذه المذاهب:

قال أبو بكر الجصاص، وهو حنفي، في تفسير قوله تعالى: "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . . .": قال أصحابنا: المراد الوجه والكفان، لأن الكحل زينة الوجه، والخضاب والخاتم زين الكف. فإذا أبيح النظر الى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر الى الوجه والكفين. ويقول القرطبي، وهو مالكي: لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة، وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما. ويقول الخازن، وهو شافعي، مفسرا الاستثناء في الآية: قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: الوجه والكفان. ويقول ابن كثير، وهو سلفي: ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين. وهذا هو المشهور عند الجمهور. وقال ابن قدامة في "المغني"، وهو مرجع حنبلي: المرأة كلها عورة إلا الوجه، وفي الكفين روايتان! ونختم برأي ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير: أولى الأقوال في ذلك بالصواب من قال في الاستثناء المذكور

عن زينة المرأة المباحة: عنى بذلك الوجه والكفين، ويدخل الكحل والخاتم والسوار والخضاب. وإنما قلنا ذلك أقوى الأقوال لأن الإجماع على أن كل مُصَلٍّ يستر عورته في الصلاة وأن للمرأة أن تكشف وجها وكفيها في الصلاة، وأن تستر ما عدا ذلك من بدنها، وما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره. والمذهب الحنفي يضم ظهور القدمين الى الوجه والكفين منعا للحرج.

وبعد هذا السرد نسارع الى التنبيه بأن المجتمع الإسلامي بما شرع الله له من آداب اللباس والسلوك العام هو شيء آخر غير المجتمع الأوروبي بشقيه الصليبي والشيوعي، فإن هذا المجتمع أدنى الى الفكر المادي البحت وأقرب الى الإباحة الحيوانية المسعورة. إن الملابس هناك تفصَّل للإثارة لا للستر، والتزين للشارع لا للبيت، والاختلاط لا يعرف التصون أو تقوى الله، والخلوة ميسورة لمن شاء، والقانون لا يرى الزنا جريمة ما دام بالتراضي! وتكاد الأسر تكون حبرا على ورق. إن الإسلام شيء آخر مغاير كل المغايرة لهذا الاتجاه الطائش الكفور، فهل أحسنا نحن بناء المجتمع القائم على حدود الله؟ إننا قدمنا للإسلام صورا تثير الاشمئزاز. وفي خطاب لأحد الدعاة المشاهير قال: إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر! ثم ذكر حديثا أن امرأة مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها! فلما مات استأذنته أن تشهد الوفاة وتكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى. قال الخطيب: فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها: إن الله غفر لأبيك لأنك أطعت زوجك! أكذلك يُعْرَض ديننا سجنا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله به أن يوصل؟ وجاءتني رسالة من طالبة منعها أبوها من الالتحاق بالجامعة، قالت: إن أبانا يقول لي ولأخواتي البنات: "إن الله دفنكن أحياء، فلا أتركككن لما تردن من خروج! هذا فهم الأب الأحمق لآية "وقَرْنَ في بيوتكن ولا تَبَرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى". . .". هذا ما قاله الشيخ الغزالى، ولا أقول إن هذا سوف يحسم الأمر، فقد قرأت، حين سافرت إلى السعودية أواخر عام ١٩٨٩م معارا إلى فرع جامعة أم القرى بالطائف، ردودا نارية على الرجل تدافع عن الرأى المقابل. ولكن كل ما أقول إن هذا هو رأى كثير من العلماء ليس إلا . فلم يكن ينبغى أن يكون رد فعل

القائمين على القناة المذكورة التى استضافتنى هو ما أشرت إليه. وعلى المجتمع أن يتسع لجميع الآراء والمواقف دون أن يحاول أى منها إقصاء الآخر أو تجريمه.

وهناك زيارة غزة، التى قمنا بها شتاء ٢٠١٢م، وهى من الأحداث الهامة جدا فى حياتى، فقد أتاحت لنا الفرصة لرؤية الفلسطينيين فى وطنهم، وإشعارهم أننا لن ننساهم. وقد لمسنا مدى الفرحة الطاغية حين ذهبنا ورأينا كيف استقبلونا ووفروا لنا مُقَاما غاية فى الراحة والإكرام والتكريم وسهروا على راحتنا وأمننا، وأخذونا وطوّفونا بأنحاء القطاع كله. لقد كانت هناك منذ عدة سنوات مراسلات علمية عن طريق المشباك بينى وبين أحد الأساتذة الجامعيين الفلسطينيين، وهو د. موسى إبراهيم أبو دقة، الذى كان أيام زيارتنا للقطاع يشغل منصب عميد الدراسات العليا بجامعة الأقصى الفلسطينية. ثم انقطعت المراسلات الألكترونية بيننا فترة من الزمن لأفاجأ به يعرض علىَّ فى خريف العام الماضى زيارة القطاع أنا ومن أرشحهم من معارفى وزملائى وأصدقائى وتلاميذى، فاستجبت وعرضت الفكرة على عدد ممن أعرف، فاستجاب منهم د. محمد عباس ود. حلمى القاعود ود. عاصم نبوى الأستاذ بهندسة شبين الكوم والصحفى محمود القاعود، بالإضافة إلى ابن د. عاصم نبوى، المهندس محمود. وقد كتب د. عباس ود. القاعود عن هذه الزيارة فى الصحف عقب عودتنا، ولكن لم يتسن لى أن أكتب شيئًا عنها، اللهم إلا كلمة كتبتها فى صحيفة "دنيا الوطن" الإلكترونية الغزاوية عن الكاتبة الفلسطينية أ. فتحية صرصور، التى كنت أقرأ لها قبل ذهابى للقطاع، لكنى رأيتها هناك رأى العين وتعرفت إليها، وهى الأستاذة فتحية صرصور. وإلى القارئ الكلمة التى كتبتها عن الأستاذة فتحية صرصور:

"كنا فى غزة فى الشتاء الماضى نحضر مؤتمرا عقدته جامعة الأقصى ودعانى لحضوره أنا وبعض من رشحتهم من الأصدقاء والزملاء الصديق د. موسى أبو دقة، وفى إحدى الجلسات كانت أمامى سيدة لا أعرف عنها شيئًا بل لم أر وجهها، فقامت لتقول كلمة تعلق بها على رأى من آراء أحد الأساتذة المتحدثين فى الجلسة، وقدمت نفسها قائلة: فتحية إبراهيم صرصور، فنبّه لى الاسم الذى سمعته ما كان غافيا من ذهنى، وتذكرت أننى قرأت له أشياء فى صحيفة "دنيا الوطن" الغزاوية التى يصدرها الأستاذ إبراهيم عيسى والتى ينشر فيها أطيافٌ لا حصر لها من كُتّاب الوطن العربى من المحيط إلى الخليج، بل مما وراء المحيط والخليج أيضا، وهو ما يثير منى العجب والإعجاب، إذ ها هى ذى فلسطين مرة أخرى تجمع العرب والمسلمين فى دنيا التأليف والإبداع كما جمعتهم من قبل فى دنيا النضال ضد الغرب وربيبته إسرائيل. وكما كانت فلسطين بمثابة جرس إنذار أيقظهم بعنف من رقدة الفشل بل العدم ها هى ذى تنشر لهم إبداعاتهم دون أن تنتظر منهم جزاء ولا شكورا، وهو ما يؤكد قولى الذى أردده دائما من أن الفلسطينيين هم قاطرة العالم العربى والإسلامى، وأنه لولا صمودهم أمام جحافل قوات الغزو الغربى الصليبى والصهيونى لكان العالم العربى قد ضاع كله وتم احتلاله.

وعقب الكلمة التى عقبت بها السيدة فتحية صرصور وجهت إليها الحديث قائلا: ألست أنت التى تكتبين فى صحيفة الأستاذ إبراهيم عيسى: "دنيا الوطن"؟ فأجابت: بَلَى، أنا هى. فرحبت بها، فكان ترحيبها بنا أجمل وأكمل. وعرفت من خلالها الآنسة الذكية الموهوبة الأستاذة دلال خريجة قسم اللغة الإنجليزية والترجمة الفورية، كما تعرفت أيضا إلى السيدة جين الأسترالية، التى تتبنى دلال نفسيا وتتحمس لها وتؤمن إيمانا قويا بقدراتها ومواهبها. ثم انتهى المؤتمر وعدنا إلى مصر، فكأننا قد خرجنا من الفردوس. إى والله كان هذا حالى وحال من كلمونى من زملائى عن رحلة غزة بعد العودة إلى أرض الوطن، وإن كانت فلسطين هى وطن كل العرب والمسلمين فى ذات الوقت.

واتصلت بى الأستاذة فتحية هاتفيا من غزة بعد ذلك بقليل أثناء انعقاد إحدى الندوات بصالون نون الأدبى، الذى تشرف عليه مع د. مى عمر نايف إحدى زميلاتها الكريمات، وقدمتنى إلى الحاضرات والحاضرين مثنيةً علىَّ بما أنا غير أهله، وقالت من فرط كرمها إنها تخلع القبعة إكراما لى. فضحكتُ لأنى أعرف أنها تلبس طرحة لا قبعة. وعزمتُ من يومها أن أرسل للصالون النونى قبعة من القاهرة حتى ترفعها لمن تريد تكريمه: ترفعها حقيقة لا مجازا، وهو ما فعلتُه منذ عدة أسابيع. فلها الشكر. وهى قبعة كاوبوى أصيل لا ينقصها إلا حصان الكاوبوى ومسدسه، ثم الكاوبوى نفسه بعد ذلك، وهو ما لا قِبَل لى به! تكفينى القبعة، وهى ليست بالإنجاز القليل!

وبالمناسبة فقد كنا نسير ذات مرة فى أواخر سبعينات القرن الماضى فى لندن فى وسط المدينة ذات صباح مشرق جميل، فرأت ابنتى، التى كانت فى الحضانة فى ذلك الوقت، بعض رجال الشرطة الإنجليز فى ملابسهم الأنيقة الزاهية وقوامهم الرشيق، فقالت لى إنها تريد أن أشترى لها "a soldier"، فأجبتها باننى اشتريت لها هذا الـ"soldier"من قبل. أقصد عسكريا من هؤلاء العساكر الأنيقين ذوى البزات الحمراء الزاهية والسوداء الداكنة والذين يباعون، على سبيل التذكار، فى علبة من علب البلاستك الأسطوانية. لكنها عاجلتنى قائلة فى استنكار إنها تريد "a moving one"، أى عسكريا متحركا. فلم أفهم ماذا تريد، فقالت موضحة لى أنا الذى لا يفهم بسهولة: "مثل هذا"، والحمد لله أنها لم تقل: "مثل هذا يا بنى آدم"! وأشارت إلى أحد رجال الشرطة الواقفين على مقربة منا. فقلت لها ضاحكا: اذهبى أنت إليه وقولى له إننى أريد أن يشتريك بابا لى. فردت بأنها تستحى أن تفعل ذلك. تريد أن تقول: أما أنت فلا تستحى يا بابا. فضحكتُ وتظاهرتُ بأن الشرطى سوف يقبض علىّ لو قلت له هذا الكلام. لكن على من تنشد مزاميرك يا داود؟ وكان يوما يعلم به ربنا، ولا أدرى كيف وضعتُ حدا لهذا الأمر وخرجت من هذا المأزق بصنعة لطافة "مصرية".

واليوم أحب أن أقول إننى متعجب أشد التعجب من هذا النشاط الغزاوى الجميل فى دنيا الثقافة، ومنه صالون نون (نون النسوة على ما فهمتُ وعلمتُ)، الذى يعقد لقاءاته بانتظام رغم كل الظروف المعوقة التى نعلمها جميعا. فللمشرفات على الصالون منا التحية والتقدير والإعجاب والدعوات الطيبة. إنهن يعملن فى صمت ومثابرة وطول نَفَس وإيمان بدور الثقافة والإبداع. بارك الله فيهن وأكرمهن وأعلى مراتبهن وكتب أسماءهن فى صحائف المجد والتاريخ.

وفى يدى الآن، وأنا أكتب هذه السطور، بعض الكتب التى سطرها يراع الأستاذة فتحية صرصور، فضلا عن كتاب يشتمل على بعض محاضرات الصالون عن أدب المرأة. أما كتب السيدة صرصور فهى: "نماذج من الأدب العالمى" و"قصة الخليل إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم" و"الرؤيا فى القرآن الكريم" و"خصائص الأسلوب فى شعر فدوى طوقان". والكتب الأربعة تعكس تنوع اهتمامات السيدة الفاضلة وحرصها على أن تظهر مؤلفاتها فى أحلى صورة ممكنة طباعيا وإخراجيا. وهذا من الأمور التى تعجبنى، إذ الكتب بوجه عام لا تلقى منا فى إخراجها العناية الواجبة. لكن الأستاذة لا يفوتها هذا، وهو من حسناتها الدالة على رقى ذوقها.

وما دام الكلام قد جرنا إلى فدوى طوقان فربما كان ينبغى أن أذكر أننى مهتم بتلك الشاعرة منذ وقت طويل حتى لقد اخترت لها قصيدة درّستها سنة ١٩٧٦م لطلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزية، اللاتى كنت أحاضرهن وأنا شاب فى مقتبل العمر حين كنت مدرسا مساعدا، وكنت ولا أزال معجبا أشد الإعجاب بهذه القصيدة البديعة. كما قرأت منذ عدة أشهر كتابها عن سيرة حياتها وتألمت لها مما وقع من بعض أفراد أسرتها تجاهها فحرمها من استكمال تعليمها الرسمى ومن الزواج، وإن تساءلت أحيانا فيما بينى وبين نفسى: ترى هل كان يقدَّر لفدوى طوقان أن تكون شاعرة ملء السمع والبصر لو استكملتْ مسيرة التعليم؟ على أية حال أنا أرى أنه لم يفتها الكثير جرَّاء هذا، إذ إن أسلوبها الشعرى والنثرى هو من الأساليب الجميلة المتفردة.

لكن لم يعجبنى حديثها عن عاطفة الحب التى ربطت بينها وبين رجل بريطانى حين زارت بريطانيا بترتيب من أحد أقربائها هناك، إذ هى فى آخر المطاف رغم يساريتها مسلمة، أما هو فليس كذلك. وبالمثل لم أرتح ليساريتها رغم إيمانى بأن لكل إنسان الحرية المطلقة لاعتناق ما يرى أنه حق. بيد أننى، رغم هذا الإيمان، أرى أن من حقى أنا أيضا إبداء رأيى. أليس كذلك؟ فها هو ذا القارئ يرى أن هناك شيئًا آخر مشتركا بين الأستاذة فتحية صرصور وبينى، وهو اهتمامنا نحن الاثنين بفدوى طوقان. وبالمناسبة فأنا أحب أخاها إبراهيم حبا شديدا، ولا شك أنه صاحب فضل على أخته عظيم، فضل نفسى وفكرى، فله الرحمة من الله.

تحية منى للأستاذة فتحية صرصور ولكل سيدات غزة ورجالها وشبانها وشاباتها، ولكل بيوت غزة وأشجارها ومساجدها وشوارعها. ولا أظننى سوف أنسى أبدا صباح الجمعة الذى سبق عودتنا من غزة بيوم، ذلك الصباح البديع العجيب الذى قضيته متمشيا على الشارع الموازى للبحر ذاهبا آيبا على مقربة من حلقة السمك، وكانت قطرات المطر الناحلة تسقط على رأسى فتنعشنى، وأنا أفكر فى أهل غزة وصمودهم ونبلهم وعزة نفوسهم. بارك الله فى أهل غزة الأبية الصابرة المناضلة، وكتب لها النصر على أعدائها، ولأهلها استرجاع بلادهم عربية مسلمة شامخة!".

وهناك أيضا تعليق كتبته على مقال بعنوان "غزة نبض القلب" نشرته السيدة فتحية صرصور فى "دنيا الوطن" عن زيارة الوفود العربية بما فيها الوفد المصرى الذى تحدثت عنه. وهذا هو التعليق: "دخلت مجلة "دنيا الوطن" خصيصا هذا الصباح، وهو الصباح الأول لى بعد وصولى البارحة للقاهرة قادما من غزة حيث كنت أشترك فى المؤتمر الأول لعمداء الدراسات العليا والبحث العلمى، أو بالأحرى: "خارجا من الجنة" كما كنت أقول دائما لزملائى الفلسطينيين والمصريين وغيرهم ممن شاركناهم شرف الوجود فى غزة العزة والكرامة، إذ كنت أسمى إقامتنا فى غزة معززين مكرمين مُتْحَفين بالألطاف الغزاوية: "خمسة أيام فى الجنة"، وكنت أشعر ونحن نغادر هذا الجزء الغالى من الوطن العربى بشعور آدم وهو مطرود من الفردوس، أقول: لقد دخلت

لأبحث عن أى مقال للأستاذة فتحية صرصور كى أقول لها كلمة تستحقها فوجدتها سبقتنى إلى كتابة هذا المقال الإنسانى الجميل الذى ما إن وصلت فيه إلى حكاية الآنسة المترجمة الظريفة حتى جاشت مدامعى، ولكنى كعادتى السيئة أمسكت نفسى رغم أنى وحيد فى غرفة نومى ومكتبى، وباقى البيت نائم لا يزال.

يا سلاااااااااااام! إن الأستاذة صرصور لا تتذكر فقط ما وقع بينى وبينها، بل تتذكر شيئا آخر لم أكن أتصور أنها كانت حاضِرَته، فضلا عن أن يظل منقوشا فى ذاكرتها الكريمة بهذا الشكل، وهو ما حدث بينى وبين الآنسة المترجمة الكفيفة الظريفة الذكية اللوذعية، بارك الله فيها، ولم تشأ الأستاذة أن تكتفى برواية ما حدث، بل وشّته بحسها الإنسانى الجميل. وإنى لأنتهز هذه الفرصة كى أرجوها تبليغ تحياتى ومودتى وحبى وتقديرى للآنسة المذكورة مشفوعة بقبلاتى على رأسها ويديها، فهى تستحق هذا وأكثر، وكذلك للدكتورة جين الأسترالية، التى لا بد أن مترجمتنا الظريفة تعرفها، إذ هى التى ترجمت لها ملخص بحثها للمؤتمرين، وكانت تصحبها طوال الوقت.

شىء آخر أحب أن أذكره هنا، وهو الساعة البديعة التى قضيتها صباح يوم الرحيل، يوم الجمعة الماضى، فقد ذهبت لأداء صلاة الفجر فى المسجد القريب من فندق بيتش، الذى كنت أنزل فيه مع بعض زملائى فى المؤتمر، وبعد العودة قررت أن أستأنف رياضة المشى التى كنت قد أهملتها منذ أن وصلت غزة، فمضيت أحث الخطا فى الشارع المحاذى للشاطئ صعودا وهبوطا . . . إلى أن لمحت بائع "سميط" هابطا من شارع متفرع منه وهو يدفع عربته المتهالكة ذات العجلتين الملتويتين قاصدا، فيما أقدّر، مزاد السمك القريب، فيممته قاصدا مطارحته بعض الحديث فى ذلك الصباح الغزاوى الساحر الذى أغرق قلبى مع رذاذ مطره بالدفء والحنان والرضا وأنا أستمتع بمرأى ما حولى وأفكر فى زملاء الجامعة الغزاويين الذين زاملتهم سنين أربعا فى كلية الآداب بقسم اللغة العربية وآدابها من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠م، ولم أستطع أن أتتبع خيط حياة أى منهم فى غزة، فقلت له على سبيل المداعبة وفتح الحديث: ماذا تبيع؟ فأشار إلى ما معه من سميذ

وغيره، فالتقطت سميذة كبيرة وقد عدت بمشاعرى إلى طفولتى حين كنا نُفْتَن بهذا النوع من الخبز، وسألته عن ثمنها فقال: شيكل. ثم أخرج من جيبه شيكلا يرينيه حتى يعرّفنى معنى الشيكل. فأجبته أنْ ليس معى إلا فلوس مصرية. ثم أدخلت يدى فى جيبى فأخرجت ما معى من أوراق مالية ناويا أن أعطيه خمسة جنيهات أو عشرة فلم أجد، فاعتذرت وكدت أنصرف.

إلا أن رجلين فلسطينيين أقبلا فى تلك اللحظة على دراجة بخارية يريدان أن يشتريا شيئًا من الرجل، فطلبا منه أن يعطينى ما أريد وهما يتكفلان بدفع الثمن، فاعتذرت قائلا لهما إنى أنزل فى فندق فيه كل شىء، ولكنى إنما اردت أن أحييه ليس إلا. ثم تنبهت إلى أننى لا ينبغى أبدا أن أكون أقل من هذين الغزاويين النبيلين شهامة وكرما، فوضعت يدى فى جيبى وأنا أشعر بوخزة فى قلبى وأخرجت آخر ورقة معى من فئة الخمسين جنيها وقدمتها له، وأخذت السميذة. وظن الرجل لطيبته أننى أنتظر الباقى، فقلت له إنها هدية منى له، فأخذ يتمتم خجلا، على حين شعرت أنا بشىء من الرضا لأنى تصورت أننى أدخلت على قلب أحد الغزاويين بعض المسرة، إذ إننى أومن أنه لا ينبغى أن يشعر غزاوى بأى حزن لأنه شىء لا يليق. ولكننى الآن، وأنا أكتب هذه الكلمة، أحس بالندم يجتاحنى اجتياحا لأنى لم أضاعف للرجل النحيل الطيب المبلغ الذى قدمته له. أرجو أن يغفر الله لى لأنى لم أمض مع تيار الحنان شوطا أبعد.

هذا، ولا بد، ما دمنا فى سيرة الغزاويين وذكرياتى فى غزة، أن أذكر الأستاذ عبد الله عيسى محرر "دنيا الوطن"، فإن مجلته تؤدى دورا عظيما فى الربط بين قطاع كبير من كتاب الوطن العربى لا يبتغى هو من وراء ذلك جزاء ولا شكورا إلا من ربه. وهذا ما دفعنى إلى ذكره فى المؤتمر والثناء عليه وعلى مجلته. لو أننى أعرف أين يقع بيته لكنت قمت بزيارته. فسلاما للأستاذة فتحية صرصور، التى أثمر لقائى بها فى المؤتمر كل تلك النفحات والبركات. وتأبى غزة إلا أن تكون أريحية على أحسن ما تكون الأريحية".

والعبد المسكين يحب دينى حبا شديدا، ويرى أنه دين مظلوم وأن من ظلموه هم أهله حيث تحول الإسلام فى فهم المسلمين فى الأعصر الأخيرة تحولا حادا من دين يدفع إلى الأمام إلى دين يعوق ويصد عن التقدم. لقد ترك المسلمون فى العصور الأخيرة قيم دينهم العظيمة واستبدلوا بها أشياء تسير عكس اتجاهه وعضوا عليها بالنواجذ . وأنا دائما ما أدعو إلى أن نعيد فهم الإسلام الفهم اللائق به بحيث نتقدم ونقوى ونرقى ونعز ونكرم بدلا من هذا الهوان والتخلف والضعف المزرى الذى نصطلى ناره منذ قرون حتى لقد أتت الدول الأجنبية التى كان اسم المسلمين كفيلا بتطيير النوم من عيونها واحتل بلادنا وسامتنا سوء العذاب والهوان وجردتنا من أموالنا واعتدت على أعراض نسائنا، والغالبية من الأمم الإسلامية راضية بوضعها لاترى فيها ما ينبغى تغييره، أو لا تحاول جادة أن تجتهد فى إزالة وصمة هذا العار عنها . وهذه القضية تشغلنى طوال عمرى، ولا أكف أبدا عن تناولها، وأحاول دائما أن ألفت النظر إلى جوانب العبقرية والعظمة فى الدين الذىأتى به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلك الجوانب التى لا يأبه بها عامة المسلمين ولا يهتمون بها، بل لا يفكرون فيها، لإيمانى أننا إن اهتممنا بتلك القيم وطبقناها فسوف يكون النصر حليفنا فى معركة التخلف والصدام مع الغرب، وسوف تعود الحضارة الإسلامية إلى الصدارة كما كانت من قبل لعدة قرون، وهى قيم أخلاقية رفيعة تفتقر مجتمعاتنا إليها افتقارا شنيعا لا يليق.

ومعروف أنه ما من حضارة إلا وتستند إلى مجموعة من القيم الخلقية، كالتعاون والإتقان والصدق والوفاء بالوعد والتراحم والصبر والانضباط والنظام. . . إلخ. والإسلام هو، فى الواقع، مجموعة من القيم الأخلاقية قبل أن يكون عبادات وتشريعات، إذ العبادات والتشريعات بدون الحرص على تلك القيم لا تؤدى إلى طائل، بل يتحول الأمر إلى تمسك بالشكليات لا يقدم ولا يؤخر. والواقع أن دينًا دون أخلاق هو كعدمه سواء بسواء. ترى كيف يمكن مثلا إنشاء مشروع سكة حديدية دون تعاون بين المديرين والمهندسين والمشرفين والموظفين والحرفيين والعمال والتجار والمخططين والممولين والمستوردين؟ أو كيف يتم هذا

العمل دون صدق أو إخلاص أو احترام للمواعيد وللخطة الموضوعة سلفا ودون إعطاء كل ذى حقه حقه كاملا غير منقوص وغير متأخر؟ إن أقل تأخير فى المواعيد معناه خسارة مال كنا نستطيع ألا نخسره، ومعناه أيضا فساد فى الأعصاب وقلق وتوتر، ومعناه أيضا تأخر فى مواعيد أمور أخرى مترتبة على هذا العمل أو مرتبطة به، وخسارة مالية فيه كذلك. . . وهلم جرا. وقس على ذلك كل عمل من أعمالنا. كذلك فإن القذارة تؤدى إلى انهيار الذوق وضيق الصدر وانتشار الأمراض واللامبالاة بأى إتقان، وهذا بدوره يكلف أموالا دون أى داع، كما يصيب الأمة بفقدان الكرامة وضياع الرغبة فى التقدم. وخُلْف الوعد فى عملٍ ما يترتب عليه إنفاق مزيد من المال وتخلّف صاحب المصلحة المعطلة عن العمل الموكول إليه فى الشركة أو المؤسسة التى يعمل بها لأن عليه متابعة عمله المتأخر بنفسه مما يتولد عنه إهماله لعمله الأساسى، وهو ما يقود بالتبعية إلى إهمال مصالح الآخرين الموكولة إليه. . . وهلم جرا.

ومن القيم الأخلاقية الهامة أيضا الصبر. والفهم العام له أنه الرضا بالبلوى دون عمل شىء، أو الصمت على ما ينزل بالإنسان من أذى وظلم مع انتظار مفاجأة تقضى على ذلك الظلم أو تزيل ذلك الأذى. لكنه فى الإسلام شىء آخر، شىء أعظم من ذلك وأوسع مدى وأبعد آثارا وأهم منزلة بحيث لا يمكن أن يتم أمر إلا به ومن خلاله، سواء كان ذلك الأمر متعلقا بالعلم أو بالإنتاج أو بالإبداع أو بالكفاح من أجل نيل الحق من السلطان أو بتوعية المواطنين بما لهم وما عليهم أو بالإتقان لما يُوكَل إلى الشخص من عمل، أو تحمُّل خسارة أو مرض أو فشل أو ضياع حق، دون أن يضعف الشخص المبتَلَى أو تنهار مقاومته أو يسخط ويذهب فيشكو لكل من يقابله متضعضعا غير متماسك. . . إلخ. ذلك أن الصبر معناه أن يكون الإنسان طويل النَّفَس فلا يضيق صدره سريعا إذا ما وجد أن العمل الذى فى يديه يحتاج إلى وقت طويل وشغل متواصل يوما وراء يوم، وأسبوعا وراء أسبوع، وشهرا وراء شهر، وسنة وراء سنة، ويحتاج منه إلى متابعة بذل الجهد ليلا ونهارا، فى العمل والشارع والبيت، وحده ومع الآخرين، وكذلك إلى المراجعة وتكرار التجربة والصيانة واليقظة على

الدوام، مثلما يحتاج إلى إنفاق المال الكثير مع انتظار المكاسب بعد زمن بعيد، وتحمل الإرهاق المضنى والقلق الذى يفرى النفوس، والشكوك التى تلدغ القلوب إلى أن تنجلى الغمرة ويسفر الصبح لذى عينين، فضلا عن الصبر على تشكيك الآخرين فى جهده وبذرهم العقبات فى طريقه ومحاربتهم له وعملهم على تضييع جهوده عبثا .

لنأخذ مثلا الصبر فى حياة الطالب، إذ عليه فى كل يومٍ القيام من نومه وترك السرير بما فيه من دفء وراحة، وهذا يحتاج إلى الصبر على حرمانه من الراحة والكسل اللذيذ والإقبال على التعب الذى ينتظره طوال النهار. ثم هو بحاجة إلى أن يتوضأ ويصلى، ويغير ملابسه ويلبس حذاءه بعد تلميعه، ويسير إلى محطة القطار، ويقطع التذكرة، وينتظر وسيلة المواصلات، وينفق فيها بعض الوقت حتى تصل به إلى المحطة التى ينزل عندها، حيث يكون عليه أن يسير مرة أخرى إلى مدرسته أو جامعته، ثم الصبر على صعوبة الصمت والتركيز فيما يقوله الأستاذ، وإعداد الواجبات المدرسية بما تعنيه من مغالبته لذة مشاهدة التلفاز والانكباب على الكتاب والكراريس وحفظ النص وفهم الدرس وحل المسائل ومراجعة المقرر كل حين حتى لا ينسى ما كان قد استذكره من قبل، ثم السهر أيام الامتحان بكل ما يعنيه هذا من تحمل القلق وتكرير ما كان قد درسه من قبل والتغلب على الملل الناشئ من جراء ذلك، ثم الصبر فى انتظار ظهور نتيجة الامتحان... إلخ. وهكذا كل سنة عاما بعد عام حتى يتم تخرجه. ثم هناك من جهة أخرى صبر الأهل على الإنفاق على ابنهم وتوفير الكتب ومصاريف الدراسة والملابس والطعام له... إلخ. وهناك لون آخر من الصبر لا يخطر عادة فى بال الناس، ألا وهو الصبر على النعمة من مال غزير يطرأ أو منصب كبير يستجدّ مثلا، إذ ترى بعض الناس متواضعا شكورا لطيف المعشر ما كان فقيرا أو عائشا فى الظل، فإذا ما اغتنى أو تسنم منصبا ضخما تغيرت شخصيته وبان للناس منه عورات شنيعة. فهذا ليس من الصابرين، بل من البطرين المستكبرين. وهكذا نرى كيف لا يستغنى أى شىء فى الحياة عن فضيلة الصبر.

وقد كنت قرأت للشيخ محمد عبده فى شبابى ما كتبه فى تفسير سورة "العصر" عن قيمة الصبر فذهلت لما اكتشفته فى الصبر من معانٍ وأبعادٍ كانت غائبة عن وعيى لأنى لم أُنَشَّأ على هذا الفهم العظيم للصبر. قال الشيخ: "الصبر خُلُقٌ من أمهات الأخلاق، بل مِسَاكُ كل خلق. قالوا فى فضل الصبر: إنه ذُكِر فى القرآن نحو سبعين مرة. وليس لنا فائدة كبرى فى تحديد العدد، ولكن جاء فى الكتاب العزيز ذكر الصبر ومَدْح أهله وتبشيرهم بالفوز والفلاح. والصبر مَلَكَةٌ فى النفس يتيسر معها احتمال ما يشقّ احتماله، والرضا بما يُكْرَه فى سبيل الحق. وهو خُلُقٌ يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق. وما أُوتِىَ الناس من شىء مثل ما أُوتُوا من فقد الصبر أو ضعفه. كل أمةٍ ضَعُفَ الصبر فى نفوس أفرادها ضَعُفَ فيها كل شىء، وذهبت منها كل قوة. ولنضرب لذلك مثلا نقص الصبر، فإن من عرف بابا من أبواب العلم لا يجد من نفسه صبرا على التوسع فيه والتعب فى تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هين لين لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعبا، ويسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه. ولو كان عنده احترام حقيقى لسَلَفه لاتخذهم أسوة له فى عمله فحذا حَذْوَهم وسلك مسلكهم وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين. ثم هو إذا تعلم لا يجد صبرا على مشقة دعوة الناس إلى عِلْم ما يعلم وحَمْلهم على عرفان ما يعرف، ولا جَلَدًا على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متى ما لاقى أول معارضة قبع فى بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون. يجلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه، أو يكلّ والده من الإنفاق عليه فيصرفه إلى حرفة أخرى يظنها أربح له، فينقطع عن الطلب ويذهب فى الجهل كل مذهب. وكل هذا من ضعف الصبر.

يبخل البخيل بماله، ويجهد نفسه فى جمعه وكنزه، وتَعْرِض له وجوه البر فيُعْرِض عنها ولا ينفق درهما فى شىء منها، فيؤذى وطنه وملته، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته. ولو نظرنا إلى ما قَبَضَ يده لوجدناه ضَعْف الصبر. ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول إليه لما أصيب بذلك المرض

القاتل له ولأهله. يسرف المسرف فى الشهوات، ويتهتّك المتهتِّك فى المنكرات، حتى يَنْفَد المال، وتسوء الحال، ويستبدل الذل بالعز، والفقر بالغنى. ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره فى مقاومة الهوى وضبط نفسه عن مواقع الرَّدَى. ولو صبر فى مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خَسِر ماله، وأفسد حاله.

وهكذا لو أردتُ أن أَعُدّ جميع الرذائل وأبحث عن عللها الأولى لوجدت أنها تنتهى إلى ضعف الصبر أو فقده. ولو سردتُ جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذى تستمد منه حياتها ما وجدت لها ينبوعا سوى الصبر. أفلا يكون جديرا بعد هذا بأن يُخَصّ بالذكر؟ فـ"الحق" حياة العلم، ومستنام السكينة، ومُطْمَأَنّ العقل، ومستقر الراحة للنفس. و"الصبر" مُسْتَمَدّ الفضائل، ومَدْحَرَة الرذائل، ومِلاك الصالحات، ومِسْلاك الحسنات. فجدير بهذين الأصلين الجليلين أن يُخَصّا من بين أعمال الإنسان بالإشادة بذكرهما، والتنويه بفضلهما، ولَفْت النفوس إليهما خاصة لتبدأ بإحرازهما، فتصلح بهما أعمالها كافة".

كذلك أحب أن أقف قليلا إزاء قيمة أخرى من قيم الإسلام التى يهملها المسلمون إهمالا فظيعا منذ قرون، واستفحل الأمر فى السنين الأخيرة، ألا وهى قيمة العلم. وفى القرآن الكريم إلحاح على أن العلم نعمة إلهية أفاضها الله على البشر كما فى قوله تعالى فى أول نزول القرآن: "عَلَّم الإنسانَ ما لم يَعْلَم" (العَلَق/ ٥)، وقوله سبحانه عن آدم عليه السلام: "وعَلَّم آدَمَ الأسماءَ كلَّها" (البقرة/ ٣١)، وقوله عن يوسف عليه السلام: "وإنه لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْناه" (يوسف/ ٦٨)، وقوله سبحانه عن العبد الصالح في قصة موسى عليه السلام: "وعَلَّمْناه مِنْ لَدُنّا علما" (الكهف/ ٦٥)، وقوله جل شأنه عن داود عليه السلام:" وعلّمناه صنعةَ لَبُوسٍ لكم" (الأنبياء/ ٨٠)، وقوله جَلّ وتبارك عن رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلّمك ما لم تكن تَعْلَم" (النساء/ ١١٣)، وقوله عز شأنه في خطاب المؤمنين: "واتقوا الله، ويعلّمكم الله". وهو ما يعنى أن العلم نعمة من الله سبحانه أنعم بها على عباده من البشر. كذلك يعلى القرآن الكريم من شأن الحكمة ويعدّها خيرا كثيرا: "يُؤْتِي الحكمةَ من يشاء. ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيرا

كثيرا" (البقرة/ ٢٦٩)، ولا يسوّي بين العلماء والذين لا يعلمون: "قل: هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُون والذين لا يَعْلَمُون؟" (البقرة/ ٢٦٩) . والله سبحانه يرفع المؤمنين الذين أوتوا العِلْمَ درجات عالية لا يرقى إليها غيرهم: "يَرْفَعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتُوا العِلْمَ درجاتٍ" (المجادلة/ ١١) .

وفى الحديث الشريف أيضا نصوص عجيبة فريدة لا نظير لها فى أى دين أو مذهب أو فلسفة كما هو الحال فى النصوص التالية: "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رِضاً بما يصنع" . "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع" . "منهومان لا يقضي أحدهما نهمته: منهوم في طلب العلم لا يقضي نهمته، ومنهوم في طلب المال لا يقضي نهمته" . "اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم" . "طلب العلم فريضة على كل مسلم. وإنّ طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر" . "من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء . وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما . ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر" . "فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض" . "خيار أمتي علماؤها، وخيار علمائها رحماؤها . ألا وإن الله تعالى ليغفر للعالم أربعين ذنبا قبل أن يغفر للجاهل ذنبا واحدا . ألا وإن العالم الرحيم ليجيء يوم القيامة وإن لنوره ضوءا يمشي فيه ما بين المشرق والمغرب" . "ذُكِر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان: أحدهما عابد ، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليُصَلُّون على معلِّم الناس الخير" . "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر

على سائر الكواكب" . "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر" . "من كانت له جارية فأحسن أدبها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران اثنان" .

ولو نظرنا فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام لنرى موقفه العملى من العلم لوقفنا ذاهلين أمام ما صنعه، وهو الأُمّىّ، عقب الانتصار فى غزوة بدر مثلا حين وقع فى يد المسلمين عشرات الأسرى من كفار قريش، إذ عرض عليهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلق سراح كل من يقوم منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة. وقد كان هذا الصنيع نقطة الانطلاق إلى نشر التعليم بين المسلمين، إذ كان عدد القارئين والكاتبين فى المجتمع الجاهلى جِدَّ ضئيلٍ كما هو معروف. وجدير بنا أن نتوقف نحن بدورنا إزاء هذا العمل العبقرى من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذلك العمل الذى كان وراء انتشار حركة التعليم بين أفراد الأمة الناشئة، فضلا عن إلحاحه صلى الله عليه وسلم على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمة، وهو ما يتميز به عن سائر الأنبياء .

ووجه العبرة فى هذا أن العرب، رغم انتشار الأمية بينهم فى الجاهلية انتشارا واسعا، سرعان ما تخلصوا منها وقَضَوْا عليها وأَضْحَوُا الأمة الأولى للعلم والثقافة والفكر فى العالم أوانذاك رغم ضعف الإمكانات . إنه، عليه الصلاة والسلام، لم يؤلف اللجان ولم يخصص الميزانيات ولم يستكثر من بناء المدارس والجامعات لهذا الغرض، إذ كان ذلك صعب التنفيذ فى تلك الظروف إن لم يكن مستحيله، بل اكتفى بالمتاح بين يديه، وهو أقل من القليل. ومع ذلك فإن هذا القليل الذى يكاد يقرب من حد العدم قد أتى بتلك الثمار المدهشة، وهى ثمار لا يمكن المقارنة بينها وبين ما تحقق من نتائج فى ذلك الميدان بطول البلاد العربية وعرضها منذ عصر النهضة الحديثة التى بدأت قبل أكثر من قرنين من الزمان مع توفر الإمكانات الهائلة التى لم يكن الصحابة يحلمون بواحد على المليون منها . لقد كانوا يتلقَّوْن تعليمهم مثلا فى المسجد، والمساجد لا تكلف الدولة شيئا يذكر . ولم يستقدم عليه الصلاة والسلام لصبيان المدينة خبراء تربويين ولا مدرسين من

الخارج بالعملة الصعبة، بل اعتمد على الأسرى الذين لو كان قد استبقاهم عنده دون عمل لكلفوه "شيئا وشويّات" . لكنه بثاقب نظره وإلهامه العظيم اقترع هذا الحل العبقرى الذى أتى بأعظم النتائج دون أن يدفع فيه شيئًا على الإطلاق.

وينبغى التنبه إلى أن معظم الآيات والأحاديث التى تحض على العلم وترفع من شأنه لا تحصره فى ميدان العلم الدينى، بل تطلق القول إطلاقا مما يدل على أن العلم فى الإسلام لا يقتصر على العلم الدينى وحده. ويؤكد هذا ما أشار إليه الأمير شكيب أرسلان من أن فى القرآن آيات متعددة تحث على السير فى الأرض والنظر والتأمل فى السحاب والجبال وما إلى هذا، وهو ما يشير إلى أن الأمر مفتوح المصاريع، وليس خاصا بلون واحد من ألوان العلم. كما أن قوله صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا العلم ولو فى الصين" يقطع بأن العلم هنا هو العلم الدنيوى لأن أهل الصين فى ذلك الوقت كانوا وثنيين، ومن ثم فليس من المعقول أن يجعلهم النبى عليه السلام مرجعا فى العلم الدينى (انظر شكيب أرسلان/ لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟/ تقديم محمد رشيد رضا/ دار البشير/ القاهرة/ ١٩٨٥م/ ١٣٦- ١٣٧) .

وقد قرأت فى لندن عام ١٩٨٢م كتابا بعنوان "Muhammad and Learning" للبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن دور الرسول الكريم فى مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه رجل مثله يعتزى إلى أمةٍ باديةٍ أُمّيّةٍ تعيش فى القرن السابع الميلادى إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب، الذى يؤكد أنه سيظل إلى الأبد وصمة عار فى جبين من اجترحوه، وكذلك فى جبين الكنيسة لارتضائها ومباركتها هذا العمل المخزى، على عكس محمد، الذى دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى

السعى حثيثا فى طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وساواه فى الفضل بالاستشهاد فى سبيل الله، بل فضّل العلماء على العبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يَفْضُل به البدرُ سائرَ الكواكب. وفى ضوء هذا يمكننا أن نقدر صنيع العقاد حق قدره حين أكد أن "التفكير فريضة إسلامية"، بل جعل هذه العبارة عنوانا لواحد من أهم كتبه فى مجال الدراسات الإسلامية. وإذا كنت نادما الآن على شىء فعلى أنى لم أصور الكتاب وأترجمه. لقد عَهِدْتُ إلى زوجتى أن تقوم بترجمته، ولم تكذّب خبرا فترجمتْ فصلين أو ثلاثة، لكنها توقفت، إذ كنا نستعد للعودة إلى مصر بعد حصولى على الدكتورية من جامعة أكسفورد أوانذاك، ثم ضاع ما كانت قد ترجمتْه لا أدرى أين، ولا كيف! إلا أن الله سبحانه قد وضع يدى، وأنا أكتب هذه السطور، على صفحاتٍ من ذلك الكتاب متاحةٍ فى كتاب آخر وجدته على المشباك عنوانه: "Glimpses from the Life of the Prophet Muhammad" لبعض العلماء البارزين (Eminent Scholars, Glimpses from the Life of the Prophet Muhammad). فله سبحانه وتعالى الحمدُ والمنّةُ كفاءَ هذه النعمة الجليلة.

ليس ذلك فقط، بل إن الإسلام كان حريصا تمام الحرص فى ذات الوقت على القضاء على منابع الخرافة والدجل والأساطير، فقد حرّم السحر تحريما قاطعا ولم يتساهل فيه أى قدر من التساهل، وكان حربا شعواء على الكهانة والعيافة والزجر وما شابه ذلك من ضروب الانحراف الفكرى والعقيدى. وفى القرآن نفىٌ قاطعٌ لما كان المشركون يزعمونه بالكذب والباطل عن الرسول عليه السلام من أنه كاهن. ذلك أن الكهانة خرافة وانحطاط فكرى وحضارى، أما نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فدعوة إلى اليقظة العقلية والإبداعات العلمية والعمل على إحراز المجد فى الدنيا عن طريق العلم وإكرام العلماء والاستعانة بأفكارهم واجتهاداتهم. وأين الكهانة من هذا؟ إنها هى التخلف ذاته، إذ هى الجهل مجسدا. يقول المولى جل جلاله: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ" (الطور/ ٢٩)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقة/ ٤٠– ٤٣).

وها هى ذى بعض الأحاديث النبوية التى تناولت هذا الموضوع. وقد تشددت فيه تشددا ربما بدا غريبا عند من لا يتنبه إلى الموضع البارز الذى يحتله العلم فى دين محمد، وأن الإسلام هو دين العقل والعلم ويكره الخرافة والجهل كراهية رهيبة: "العيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت" (والعيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يُخَطّ في الأرض. والجبت: الشيطان). "من أتى عرّافا فسأله عن شيء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة". "من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِل على محمد". "أكبر الكبائر عند الله يومَ القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمْي المحصَنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم".

على أن الأمر لا يقف عند هذه النقطة، بل إن الإسلام ليربط بين الفتن المبيرة وبين الجهل حتى ليقول الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا: "إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويُرْفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهَرْج". والهرج: القتل. كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن العمل مع الجهل ليس له جدوى مهما كثر، على العكس مما لو كان العمل قليلا، والعلم كثيرا: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله عز وجل". قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله". قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرني عن العلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل".

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم ذلك الحديث العجيب الذى يعكس معرفة تامة بأبعاد العلم والجهل والثمار الخطيرة التى تترتب على كل منهما. قال عليه السلام: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسُئِلوا فأَفْتَوْا بغير علم،

فضلوا وأضلوا" . ومن المهم جدا أن ننبه إلى أن العلم هنا ليس مقصورا على الفقه والتوحيد وما شابه، بل هو مطلق، فالرسول الكريم لم يحدده بل تركه مفتوح الأبواب. صحيح أن كلمة "أَفْتَوْا" ترتبط فى أذهان كثير من المسلمين بالفتيا فى الدين، إلا أن هذا بدوره تضييق دون أى داع. فالفتيا فى الأصل هى إصدار حكم أو رأى فى مسألة ما . ولعل الحديث التالى يصح أن يكون شاهدا على ما أقول، فالعلم فيه مضاف إلى الدنيا، والجهل منسوب إلى الآخرة، مما يدل على أن العلم والجهل مفتوحان فى الإسلام: فقد يكونان للدنيا، وقد يكونان للآخرة، ولا تخصص لأى منهما بأى منهما . وهذا هو الحديث: "إن الله يبغض كل جعظريٍّ جواظ سخّاب في الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بالدنيا جاهل بالآخرة" .

وبالنسبة لأهمية العمل والإنتاج نلاحظ أن القرآن المجيد لا يكاد يذكر للإيمان إلا ويَقْرِن به العمل. ثم إن العمل فى القرآن ليس مجرد العمل، أىّ عمل، بل العمل الصالح. والعمل الصالح ليس فقط هو الصلاة والصيام والصدقات وأمثالها مما يقتصر ذهن الناس عادة عليه لدن سماعهم عبارة "العمل الصالح"، بل يتسع ليشمل كل عمل نافع للفرد والمجتمع والإنسانية، بدءا من كسح المجارى وانتهاء بتأليف الكتب والجهاد فى سبيل الله، مرورا بقيادة القطار وخَبْز العيش وإلقاء الأحاديث الإذاعية وتطبيب المرضى وتجهيز الأم طعام زوجها وأولادها . . . إلخ. بل إن العمل فى الإسلام عبادة من العبادة ذات مكانة عظيمة كما جاء فى أحد أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أكل أحد طعاما قَطُّ خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده" . "لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس" . "من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورا له" . "ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة" . "اِكْلَفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تملُوا . وإنّ أَحَبّ العمل إلى الله أَدْوَمُه، وإنْ قَلّ" . "(عن

عائشة:) كان (الرسول) فى مهنة أهله: يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق". "إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة. قالوا: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: الهموم في طلب المعيشة". "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة". "مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان خَرَجَ يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خَرَجَ يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خَرَجَ يسعى على نفسه يُعِفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان".

"لما قدموا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال: أقاسمك مالي، وأنزل لك عن إحدى امرأتيّ. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك. فخرج إلى السوق فباع واشترى فأصاب شيئًا من أَقِطٍ وسمن، فتزوج". "(عن أسماء بنت أبى بكر:) تزوجني الزبير، وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شي غير ناضح وغير فرسه. فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء، وأخرز غَرْبَه وأعجن. ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكنّ نسوة صدق. وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ". "إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه". "إن الله تعالى يحبّ من العامل إذا عمل أن يُحْسِن".

ومعروف أن الوقت هو أحد العناصر الحاسمة فى العمل، إذ لا يتم عمل إلا داخل الوقت. من هنا تحرص الأمم المتحضرة على الوقت لأنه ثروة لا تقدر بثمن. أما الأمم المتخلفة فلا تبالى بتضييع الوقت حتى إنهم ليصدق عليهم أنهم يقتلون الوقت قتلا، أى يضيعونه دون عمل. ولكن انظر إلى حديث الرسول التالى الذى يبين قيمة الوقت ويؤكد لنا أن الله سائلنا يوم القيامة ماذا فعلنا بأوقاتنا وهل أنفقناها فيما يفيد أو ضيعناها

دون أن نستفيد أو نفيد المجتمع منها شيئًا، فضلا عن حرصه عليه السلام على أن يحوّل المسلم علمه إلى عمل ولا يكتفى بالكلام دون تطبيقٍ فِعْلِيّ: "لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْأَل عن خمس: عن عمره فِيمَ أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عَمِل فيما عَلِم".

وهناك النظافة والذوق الجميل. يقول الرسول: "عن عائشة أنها قالت: كان الناس أهل عمل، ولم يكن لهم كُفَاة، فكانوا يكون لهم تَفَلٌ، فقيل لهم: لو اغتسلتم يوم الجمعة؟". "كانوا (أى بعض الناس) يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستاكوا، فقال: تدخلون عليَّ قُلْحًا؟ استاكوا، فلولا أن أشقّ على أمتي لفرضت السواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء". "استاكوا وتنظفوا وأَوْتِروا، فإن الله وِتْرٌ يحب الوِتْر". "اتقوا الملاعن الثلاثة: البِراز في الموارد وقارعة الطريق والظل". "الإيمان بضع وسبعون: أفضلها قول "لا إله إلا الله"، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان". "(عن أنس:) حَدّث نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم بحديث، فما فرحنا بشيء منذ عرفنا الإسلام أشد من فرحنا به. قال: إن المؤمن لَيُؤْجَر في إماطة الأذى عن الطريق، وفي هداية السبيل، وفي تعبيره عن الأرتم، وفي منحة اللبن". "من أكل ثوما أو بصلا فليعتزِلْنا أو ليعتزِلْ مسجدنا، وليقعدْ في بيته". "إن أمتي يُدْعَوْن يوم القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء. فمن استطاع منكم أن يُطِيل غُرَّته فليفعل". "إذا قمتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، واجعل الماء بين أصابع يديك ورجليك". "لا يبولنّ أحدكم في الماء الراكد".

فهذا هو الإسلام كما أفهمه. إنه الإسلام الحضارى. ولذلك وضعتُ منذ عامين تقريبا كتابا عن الحضارة الإسلامية. قصدت أن أقول للقراء: هذا هو الإسلام. نعم، الإسلام هو عقيدة صلبة وإيمان بالله قويم، وأخلاق صافية، وصبر وعمل وجد وجَلَدٌ وكفاح وسعى وراء الرزق وحفاظ على الكرامة ونظافة ونظام وذوق ولياقة وإبداع. أما الاشتغال بالتوافه وحسبانها من الدين، بله هى الدين ذاته، فأمر لم يقل به سيدنا رسول الله ولا

تعبدنا الله سبحانه وتعالى على أساس منه. إن الفارغين يقيمون الدنيا ولا يقعدونها من أجل هذه الشكليات التى لا تقدم ولاتؤخر، وهم أحرار فيما يفهمون ويتصرفون، ولكننا لا نشاركهم فهمهم واتجاههم. ونحسب أن سبيلنا أجدر أن تكون هى السبيل المؤدية إلى النجاح والفلاح. أما إن كنا أخطأنا الطريق فأملنا فى عفو الله ورحمته كبير.

وشىء آخر هو أن تركيز كثير من الدعاة يتجه إلى المحرمات والشكليات أكثر مما يتجه إلى الواجبات والجوهريات، فتراهم يحذرون الناس من الزنا مثلا والغيبة والنميمة، ويكادون يرون كل شىء حراما لا يصلح أن يعمله المسلم حتى جعلوا الحياة سجنا خانقا وجحيما لا يطاق، فارتبط الدين فى أذهان كثير من الناس بالنكد والتصعيب والتعسير بهدف التعسير فى حد ذاته، وكأن الإسلام لم يأت لجعل الحياة سهلة يسيرة وقضاء مصالح العباد، فى الوقت الذى لا يهتم فيه أولئك الدعاة بالحث على تحصيل العلم أو إتقان العمل أو الإبداع، فلا كلام لهم عن القراءة أو المحاضرات أو الندوات أو المكتبات أو استقلال الفكر أو اقتحام المشكلات ومحاولة إيجاد حلول لها مع أن هذه الأمور هى من صميم جوهر الدين، ولا اهتمام بتحذير المسلمين من توسيخ الشوارع والأماكن والمبانى العامة، ولا تنبيه على قبح الضجة وضرب بوق السيارات عمالا على بطال. . . وبالمثل نراهم يسودون الدنيا فى وجوه الناس مهولين فى وصف العذاب الذى ينتظر من ينكشف شىء من شعرها مثلا حاصرين الدين فى بعض الشكليات على أهمية بعضها، لكن ليس إلى الدرجة التى يوهمون الناس بها، فتقابلك فى كل مكان على جدران الكليات الجامعية مثلا لافتات تقول: "الحجاب قبل الحساب"، أو "يزول الغلاء إذا تحجبت النساء"، مع أن الغالبية العظمى من نساء مصر متحجبات حتى لو لم نرض عن طريقة التحجب فى بعض الأحيان، ومع ذلك فالأسعار مشتعلة طوال الوقت كأن قد ركبها ألف عفريت. وفى الوقت ذاته لا يمكنك أن تجد أبدا على جدران الكلية أو على ألسنة الطلاب المهتمين بهذه

الأمور دعوة إلى التردد على المكتبة أو حضور الدروس أو إعداد المحاضرة مسبقا أو التحذير من الغش فى الامتحان.

وقد عانيت، وأنا صغير، من الطريقة التى يخوف بها كثير من الدعاة جماهير المسلمين من توافه الأخطاء بحيث كنت أظن أن النار فاغرة لى فاها طول النهار والليل لأى خطإٍ حقير، وأشعر بكثير من التوتر تصورا منى أن العذاب واقع لا محالة حتى إنى كنت إذا فاتتنى، وأنا نائم، صلاة الصبح أداء أنفقت الأسبوع كله ساخطا على نفسى، شاعرا أننى قد أتيت أمرا إدا لا غفران له رغم معرفتى بأن الرسول عليه السلام قد أعفى النائم من الحساب والعقاب، بل رغم الحديث التالى، وهو من رواية قتادة: "سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فقال بعض القوم: لو عَرَّسْتَ بنا يا رسول الله. فقال: إني أخاف أن تناموا عن الصلاة. فقال بلال: أنا أوقظكم. فنزل القوم فاضطجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عينه، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طلع حاجب الشمس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بلال، أين ما قلت؟ قال بلال: يا رسول الله، ما أُلْقِيَتْ علي من نومة مثلها قط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها إليكم حين شاء. ثم قال: يا بلال، قم فأذن الناس بالصلاة. فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابيضت قام فصلى". فكيف يعذب الإنسان نفسه على أمر ليس فى يده، علاوة على أنه قد حدث لرسول الله والصحابة أنفسهم؟ ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتركنا عند هذا الحد، بل زاد فبشرنا بأن الثواب العميم ينتظر من يبتسم فى وجوه الناس أو يرشدهم إلى الطريق أو يطعم جائعا أو يكسو عاريا أو يساعد طالبا على التعلم أو يميط حجرا أو مسمارا أو كسرة زجاج عن نهر الطريق، علاوة على أن الحسنة بعشر أمثالها إذا عملناها، وبمثلها إذا لم نعملها، بخلاف السيئة فبمثلها فقط، وهذا إن حاسَبَنا الله عليها ولم يغفرها لنا، أما إن تركناها ولم نفعلها خشية لله فإنها تتحول إلى حسنة ونأخذ عليها أجرا. كذلك نرى كثيرا من المشايخ لا يهتمون بأمور الذوق والجمال والنظام كما لو كان المسلمون لا ينتمون إلى البشر، أو

على الأقل: كأنهم لا ينتسبون إلى عالم الحضارة، وأن كل همهم حشو بطونهم بالطعام والشراب، وكفى بالله شهيدا .

والكارثة أن الناس تظن أن هؤلاء المشايخ عندهم العلم كله، وأن ما يقولونه هو القول الفيصل فى كل شىء، وأنه لا يحق لك أن تخالفهم، وإلا بؤت بجهنم، والعياذ بالله، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام له رأى آخر، فما كل من ركب الحصان خيّال. فعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: "كان الناسُ يسألون رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ عن الخيرِ، وكنتُ أسألُه عن الشرِّ مخافةَ أن يُدركَني، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنا كنا في جاهليةٍ وشرٍّ، فجاءَنا اللهُ بهذا الخيرِ، فهل بعد هذا الخيرِ شرٌّ؟ قال: نعم. فقلتُ: هل بعد ذلك الشرِّ من خيرٍ؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ. قلت: وما دخَنُه؟ قال: قومٌ يستَنُّون بغيرِ سُنَّتي، ويَهدون بغير هديي. تعرفُ منهم وتنكرُ. فقلتُ: هل بعد ذلك الخيرِ من شرٍّ؟ قال: نعم، دُعاةٌ على أبوابِ جهنمَ. من أجابهم إليها قذفوه فيها . فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، صِفْهم لنا . قال: نعم، قومٌ من جلدِتنا ، ويتكلمون بألسنِتنا . قلتُ: يا رسولَ اللهِ، فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم. فقلتُ: فإن لم تكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: فاعتزِلْ تلك الفرقَ كلَّها ولو أن تعَضَّ على أصلِ شجرةٍ حتى يدركَكَ الموتُ، وأنت على ذلك" . فكما ترى هناك دعاة يُضِلّون ويقودون إلى جهنم. وقد يكون هؤلاء الدعاة من الملاحدة الذين يبذلون كل ما فى طاقتهم من أجل صرف الناس عن الإسلام، وقد يكونون من المنافقين الذين يتظاهرون بخدمة الإسلام، وهم فى الواقع يضرونه، وكثيرا ما يكونون من الجهلاء الذين يسيئون إلى الدين ويضرونه بسبب الجهل والعونة وضيق الأفق والغباء والتنطع، وما أكثره هذه الأيام، إذ يتصدى الواحد منهم للفتيا فى كل شىء، وهو غير أهل لذلك.

ومع هذا فهناك دعاة لطاف ظراف، وأظن أن زعيم اللطافة والظرافة فى الدعوة الدينية التلفازية حاليا هو د . عطية مبروك، الذى تصادف أن كنت سهران أمام التلفاز منذ عدة أعوام أيام كنت أشاهد التلفاز،

فأخذت أحول مؤشر المحطات حتى توقفتُ عرضا عند فضائية كان يتحدث فيها أستاذ أفرنجى الملابس، فأخذت أستمع إليه إذ كان وجها جديدا بالنسبة لى، وسرعان ما تبين لى أننى أمام ممثل ظريف خفيف الظل أستاذ فى فن التهكم والسخرية من العقلية المصرية حين تتدين فتسىء إلى الدين أكثر مما تحسن. وغبت فترة طويلة لا أعلم من هذا الرجل حتى سألت طلابى وطالباتى عنه ووصفته لهم وصفا دقيقا فقالوا إنه د. عطية مبروك. وكلما تصادف أن شاهدت حلقة له، على المشباك فى الغالب، لم أتماسك عن الضحك والقهقهة لفرط ظرفه وحلاوة روحه، بغض النظر عما يقول، فمثلى من الفساد والانحراف وقساوة القلب بحيث لا يؤثر فىَّ أى كلام أو أى متكلم حتى لو استخدم القنبلة الهيدروجينية بغية إصلاحى وتقويم ما اعوجَّ من شخصيتى وإعادتى إلى الصراط المستقيم وإرجاع عقلى إلى رأسى.

ثم تعرفتُ فى الفترة الأخيرة إلى شاب يشتغل فى الدار المصرية اللبنانية فى شارع عبد الخالق ثروت، التى كنت أتردد عليها لبعض الأسباب الخاصة، فرأيت هناك ضمن موظفيها شابا هادئا يؤم الموجودين فى الصلاة، وأنا منهم، واستمعت إليه فى صلاة المغرب فألفيته ذا صوت حنون يدخل القلوب فيستولى عليها استيلاء هادئا مهذبا، وإن لم يراع صاحبه أصول التلاوة والتجويد. أى أنه دخل القلوب بنفسه دون أى عون فنى. وكنت أداعبه وأشير إلى حلاوة صوته، فيشكرنى، ثم ينتهى الأمر عند هذا الحد... ولكن أخيرا قبل أن أتوقف عن التردد عن المكتبة بعد أن أنفقت ثلاثة أشهر ذاهبا إليها أو آيبا منها قال لى د. عبد العزيز نبوى الأستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس، إنّ حازم، وهو اسم الشاب صاحب الصوت الحنون، هو مثل أبيه ظرفا وفكاهة، فقلت له: من أبوه هذا الذى تتحدث عنه؟ فقال: إنه د. مبروك عطية. فعقبت قائلا: إذن فالدكتور مبروك عطية لا يريد أن يتركنا أبدا مهما تركناه نحن. إنه وراءنا وراءنا مهما ابتعدنا وهربنا! والأكادة أن الأستاذ حازم إمام وخطيب هو أيضا. الله أكبر، على من طغى وتجبر!

وكثير من خريجى الأزهر فى الفترة الأخيرة لا يعرف كوعه من بوعه، ومن ثم ترى من المتخصصين فى أمر الدعوة من يتصدَّوْن لتلك المهمة الجليلة دون أن يكونوا على قدر المسؤولية، فهم لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون، فضلا عن عجزهم عن تنزيل النصوص على واقع الحياة العامة للناس جميعا أو الظروف الخاصة بالشخص صاحب المشكلة مثلا . والناس، رغم ذلك، تنظر إليهم على أنهم جميعا علماء نحارير، بينما الكثير منهم لا يستطيعون شيئًا مفيدا البتة. وهذه ليست دعوة إلى تصديق ما أقوله أو أكتبه واعتناقه دون أى نقاش بحجة أننى أعرف ما لا يعرفه الآخرون، فدائما ما أقول لطلابى إننى لا أريدكم أن تخروا عميا وصما وبكما على كلامى، إذ أنا إنسان يجوز عليه الصواب والخطأ، وعلى هذا فلا بد أن تعرضوا كل ما يصدر عنى من آراء وأفكار على عقولكم، لكن لا بد لكم من القراءة والاطلاع على الدوام حتى تكونوا على المستوى الذى يؤهلكم لهذا النظر وذلك الحكم. ليس هناك إنسان منا معصوم، وأقصى ما يمكننى تأكيده أننا كلنا نجتهد: فأحيانا نصيب، وأحيانا نخطئ. صحيح أنى أحب أن يوافقنى الآخرون على ما أرى، إذ إن هذا ميل بشرى، لكن هذا الميل الفطرى لا ينبغى أن يدفعنى إلى إيهامكم بأن كلامى لا يخر منه الماء . لا بد أن نتعاون جميعا على بلوغ الصواب وألا يسلم فريق منا أذنه وعقله وقلبه للفريق الآخر ويصدق ما يقوله فى خمول واستسلام، فهذه هى الكارثة حقا .

مرة علمت من طالبة أنها قد دفعت مبلغا من المال فى ورقات بلا قيمة علمية تستذكرها ليلة الامتحان كى تنجح دون أن تقرأ شيئًا فى المقرر العلمى الذى تدرسه بالكلية، وهى تظن أنها قد نالت المطلوب كله، فعلقتُ ضاحكا: رزق البله على المجانين. فما كان منها إلا أن ردت فى الحال بأن هذا حرام. تقصد أن الرزق من الله لا من المجانين، وأننى بما قلت قد خرجت على أصول الإيمان، وكأنى قلت إن الرازق ليس هو الله بل المجانين. فقلت لها دهشا: من قال لك ذلك؟ قالت: شيخ الجامع. فسكتُّ. وهذه طالبة جامعية، فانظر إلى مستوى عقليتها . وهى لم تقرأ كتابا واحدا فى حياتها، بل إنها لا تحضر المحاضرات. وكانت قد

لقيتنى عند بوابة الجامعة الخلفية حيث كنت خارجا بعيد الغروب بعد انتهاء محاضراتى ماشيا كالعادة رغبة فى التريض، وكان معها مذكرة كتبها طالب من الطلاب تباع بالشىء الفلانى، فاستوقفتنى وسألتنى هل صحيح أننى كلفتُ الطلبة بشرائها للاستذكار منها، فأنكرت أن أكون قد قلت ذلك، ثم اقترحتُ عليها أن ترجعها إلى المكتبة التى اشترتها منها وتسترد فلوسها، لكنها كانت مصممة على الاحتفاظ بها لأنها لا تطيق أن تقرأ كتابا كاملا أو أكثر فى المقرر، وتريد بضع وريقات فيها الشفاء من كل داء تستطيع أن تقرأها ليلة الامتحان كما يصنع كثير جدا من الطلاب. فلما أعيانى الكلام معها قلت لها: رزق البُلْه على المجانين! فكان أن قالت لى إن هذا الكلام حرام!

والآن إلى أى مدى أنا راض عن نفسى وعما حققته فى مجالات حياتى المختلفة؟ فأما من الناحية العلمية فلا شك أننى مهما كنت الآن جاهلا لا أزال فقد قطعت مسافة طويلة عريضة من رحلة العلم، وإن كنت أعرف تمام المعرفة واليقين أننى حتى لو قدر لى أن أعيش إلى يوم القيامة فسأظل مشروع عالم لم ولن يكتمل. وأما من الناحية المادية فقد انتقلت من الفقر إلى الغنى: لا أقصد أننى من أصحاب الثروات، وإن كان عندى والحمد لله مال يكفينى ويفيض عن حاجاتى، بل أقصد أنه ما من شىء تطلعتْ إليه نفسى أو نفس أولادى أو زوجتى إلا وأقدرنى الله على شرائه. على أن يكون مفهوما أن تطلعاتنا ليست مهووسة، بل معتدلة عاقلة. كما أن حالتى الصحية معقولة: فنظرى لا يزال قويا بحمد الله حتى إننى قلما أحتاج إلى استعمال النظارة رغم تخطىَّ سن الخامسة والستين. ومقدرتى على المشى عظيمة، فضلا عن أننى أستمتع به استمتاعا كبيرا كأنه شهوة من شهوات النفس. والأمراض التى اعترتنى فى الفترة الأخيرة أمراض متوقعة بسبب تقدمى فى السن، فوق أنها تحت السيطرة، حتى الآن على الأقل، ويتابعنى فيها أكبر الأطباء فى مصر فى مستشفى عين شمس التخصصى، والعلاج والدواء متوافران تماما دون أن أدفع شيئا، بفضل التأمين الصحى.

ومن ناحية الزواج أعتقد أننى كنت موفقا إلى حد كبير: فزوجتى جميلة ومثقفة وأنيقة وقوية الشخصية وكريمة، ولها مواقف وقفتها إلى جانبى لا يستطيع كثير من الرجال الأقوياء الأشداء أن يقفوها . وهى عادة ما توافينى حتى بالماء أشربه وأنا أكتب. وكانت تقول لى إنها كانت تتمنى أن تتزوج أديبا وتقدم له العصائر أثناء انهماكه فى الكتابة والتأليف، وهو ما فعلته معى على مدى عمرنا الزوجى حتى أصابها هى السكر بدلا منى. ولهذا فحين تضيق أحيانا أو تتظاهر بالضيق لأننى "أعطيهم دائما قفاى" حسب تعبيرها (تقصد انشغالى بالكاتوب والجلوس معظم الوقت إلى المكتب) يكون جوابى ضاحكا: "اشبعى إذن. ألم تتمنى أن تتزوجى كاتبا؟ فهذه حياة الكاتب" . ولا يعنى هذا أنها بلا عيوب، فمن من البشر بلا عيوب؟ وأنا نفسى مملوء بالعيوب لا أنكر ذلك. إلا أنه لا بد من القول بأننا متفاهمان فى الأمور الهامة والقضايا الكبرى، ولا نختلف إلا فى أمور الحياة اليومية التافهة أحيانا . ولو قدر لبيت فى الأرض أن يخلو من خلافات الزوجين لكان بيت النبوة أجدر بهذا . وكنا كثيرَىِ النقاش ولا نجد مشاكل فى الحديث بيننا إلا نادرا، ولكن لا تَنْسَوْا أننى رجل، وهى امرأة، وكثيرا ما تختلف رؤيتا الرجال والنساء ويصعب على كلا الطرفين تفهم وجهة نظر الطرف الآخر، ولا دخل لأى منهما فى ذلك، بل هى طبيعة الأمور. وقد أقول لنفسى أحيانا مصطنعا لسان الحكمة والعقل بعد زوال موجبات الانفعال: يا أخى، هى تنتمى إلى جنس، وأنت إلى جنس آخر، والاختلاف بينكما شىء طبيعى، فكن واسع الأفق. لكن هذا إنما يكون ساعة الهدوء بعد انقشاع فورة الغضب، أما ساعة الغضب ذاته فأمر آخر. وهى تبارينى فى النقاش لأنها تقرأ الكتب وتسمع التلفاز جيدا، ولأن ميولنا وأفكارنا واحدة حتى فى السياسة. وكثيرا ما يخطر لأحدنا الخاطر أو الذكرى فتخطر للآخر نفس الفكرة، ونتعجب من هذا التوافق. وهى متدينة رغم أنها لا يظهر عليها شىء خصوصى فى هذا المجال، لكن اعتزازها بدينها وبوطنها يفوق المعدل الاعتيادى. ولها مواقف فى الغضب لهما والاعتزاز بهما عجيبة.

وأحيانا ما تصفنى بالعبقرية حين تكون راضية عنى، فأضحك وأقول لها: لا أظننى عبقريا، بل حقيقة الأمر أنه لا بد أن يصير كل من يريد إنجاز شىء "حمار شغل"، فتستغرب، فأشرح لها أن الكلام على المجاز، إذ المهم فى الإبداع هو بذل المجهود والاستمرار فى محاورة المشكلة حتى تنحل، والصبر على متاعب البحث والتأليف، وإعطاء الذات كلها للعلم والكتابة، والثقة بالنفس وعدم بخس قدرها إزاء الآخرين حتى لو كانوا أعظم فلاسفة العالم ومفكريه وكتابه، والاطمئنان إلى عون الله فى كل الظروف والأحوال، وعشق العمل الذى أمارسه. وأنا بحمد الله أعشق عملى، وأجد لذة لا توصف وأنا أحضِّر لكتاب جديد أريد تأليفه، وكذلك وأنا أكتبه، وإن كنت أمر بمرحلة هبوط وضيق وملل إثر كل كتاب أنتهى منه. أما حين تكون غاضبة كأية زوجة تغضب مع زوجها أحيانا فتؤكد أنها أذكى منى، فأعلق قائلا: "أما فى هذه فعندك حق"، ثم أضحك، فتغضب أكثر، فأزداد أنا ضحكا . . .

ولعل بعض القراء يطرأ فى ذهنه أن يسألنى عن الجوائز التى أحرزتها فى حياتى والمناصب التى شغلتها، فأقول إن المحصلة فى الناحيتين صفر كبير، إذ لم أفز تقريبا بأية جائزة ذات قيمة، كما لم أتول أى منصب أيضا. فأما من ناحية المناصب فأنا أكرهها لما فيها من قيود لا أطيقها ولافتقارى إلى الصبر الذى يتطلبه المنصب وما يوجبه على شاغله من الاتصال الدائم بالناس والاستماع إلى مطالبهم ومشاكلهم والتنبه إلى مؤامراتهم وتخطيطاتهم والأساليب الملتوية لكثير منهم فى الحصول على ما ليس من حقهم والكيد لبعضهم البعض والاستعداد الدائم للقيام بأى عمل فى أى وقت متى ما تطلب العمل ذلك وما يستتبعه ذلك من تقييد لحرية الحركة وعدم الانطلاق كما يحلو للشخص وقتما يشاء. وهذا كله يتعارض مع طبيعتى.

أما الجوائز وعضوية اللجان الثقافية فقد صرت أنظر إلى نفسى على أنه ليس من حقى التطلع إلى أية جائزة أو انتظار تعيينى عضوا بأية لجنة تتصل بأمور الثقافة، فى الوقت الذى أعى فيه تمام الوعى أن كثيرا من الفائزين بالجوائز الكبرى والشاغلين المقاعد فى اللجان لا يستحقونها فى قليل أو كثير. كما أن بعض من

يعرفوننى يستغربون أننى مستبعد من هذه وتلك. لكن ما الذى يمكننى أن أقول غير ما قلت؟ فلنغلق الباب على هذا الموضوع بالضبة والمفتاح، ولننصرف إلى ما يفيد ويجدى. وكنت أقرأ بأُخَرَةٍ ترجمة محمد حميد الله العالم الباكستانى الشهير، فعرفت أنه كان كلما رُشِّح لجائزة عالمية اعتذر عنها مؤثرا الابتعاد عن مواطن الشهرة ووجع الدماغ. أنا أيضا كلما رشحنى قسم اللغة العربية لجائزة الملك فيصل أو لجائزة الدولة التقديرية فى الآداب اعتذرت، وإذا ألح بعض الزملاء ولم أجد بدا من الموافقة فى جلسة مجلس القسم انتهزت أول فرصة وسحبت أوراق ترشيحى من إدارة الكلية.

ولست أريد بهذا أن أقارن نفسى بالدكتور حميد الله، أكرم الله مثواه، بل دافعى إلى الاعتذار عن قبول تلك الترشيحات هو غلبة الظن علىَّ أنها لن تأتى بثمرة، قياسا على حالات لا تحصى أعرف أسرارها من المتصلين بمراكز اتخاذ القرار فى تلك الدوائر، واستسلاما إلى الخاطرة التى تعشش فى مخى منذ أعوام، وتقول إنه ليس لى أن أتطلع إلى الجوائز، التى حتم حجزها لناس بأعيانهم ممن لا يملك كثير منهم عشر معشار ما يؤهل للفوز بها. ونفس الشىء قُلْ عن نشر المقالات فى مجلات الدولة وصحفها أو طبع الكتب فى السلاسل التابعة لها. بل إننى، بوجه عام، أنشر كتبى على حسابى إراحة لذهنى واشمئزازا من الأنباء التى أسمعها عما يقع من مساومات ومشاحنات فى تلك الدهاليز المعتمة. وبعض الناس يظنون أن الأمور سوف تتغير فى العهد الجديد، بيد أنى لا أشاطرهم هذا التوقع إلا من حيث إن الذين سوف يحصلون عليها سيكونون من أنصار هذا العهد دون أن يكونوا بالضرورة من المستحقين للفوز بالجائزة أو بعضوية اللجان الثقافية. والشواهد على ذلك حاضرة. أما إن كانت الأخرى وصلح الحال واعتدل الجو فمن ذا الذى يكره صلاح الأحوال واعتدال الأجواء؟

ومن ناحية الذرية عندى ثلاثة أبناء: بنتان وولد: البنت الأولى أستاذة مساعدة فى الجامعة، والولد الأوسط مدرس مساعد، والصغرى طالبة جامعية. وهى فنانة موهوبة فى الرسم، وكنت أريد لها أن تدخل

كلية الفنون الجميلة، لكنها آثرت الهندسة. ولم يسبب لى أى منهم مشاكل خلال الدراسة، والحمد لله، ولم يعرّضنى لحرج. ولدىَّ أربعة أحفاد: ثلاثة من ابنى، وواحد من بنتى. وكلهم مبعث سعادة ورضا لى. وحين أحمل أيا منهم أحس كأننى طائر فى السماء السابعة، وأتأمل الولد أو البنت منهم، سواء كان يقظا أو نائما، فأشكر الله بقلبى ولسانى شكرا عميقا وأغمره أو أغمرها بالقبلات، وأدرك كم أنا محظوظ أن عندى مثل أولئك الأحفاد الأذكياء الأصحاء اللطاف. وأدعو الله لهم بالسعادة والكرامة فى حياتى وبعد مماتى. وأحس بقلبى ينبض بالحنان والشكران وأنا أحمل أيا منهم، وبخاصة إذا كنت وحدى. وقد أحمل أحدهم فى الصلاة، فتتضاعف سعادتى: به وبالصلاة فى آن.

ولكل منهم لقب خاص به: فهذا "سنجاب" لأنه حاد الملامح دقيقها، شديد الذكاء، كثير التلفت لأقل نأمة، يقظ لدرجة مذهلة، ودائما ما يغرس أظافر أصابع قدميه فى صدرى كى يتسلقنى، ولا يستقر أبدا. وسنجابنا هذا عمره عام وشهر. وهذه "أستاذة" من قبل أن تبلغ الرابعة من عمرها لأنها تتكلم وتتصرف كأنها مدرّسة ذات علم وخبرة وتجارب، وتردد عبارت الكبار. وهذا "فيلسوف" لأنى لاحظت أنه، فى فترة الرضاعة، كان إذا استيقظ بكى كما يبكى الأطفال عادة عندما لا يجدون أحدا حولهم، إلا أن بكاءه هادئ جدا لا يكاد يُسْمَع، وكأنه يبكى فى سره أو داخل فمه أو ينوى فقط أن يبكى، فقلت: هذا الولد فيلسوف. إنه يريد أن يبكى، لكنه يقول فى نفسه: وما الداعى لإزعاج بابا وماما؟ خَلِّهِما ينعما قليلا بالهدوء! ثم يسكت ولا يمضى فى البكاء ولا يرفع عقيرته أبدا بالصراخ مخاطبا نفسه: "تعال على نفسك يا أبا الخلود، واسكت، ولا داعى لإزعاج الآخرين ببكائك". أليست هذه، بالله عليكم، طريقة الفلاسفة فى التفكير العاقل والتصرف المنطقى؟ وعمر الفيلسوف عامان. أما عمرو الصغير، الملقب بـ"الحكيم" لأنه أشد من خالد هدوءا وأقل بكاء، فأتصور أنه مدهون بالزبد وعسل النحل من شوشة رأسه إلى أخمص قدميه، وكلما رأيته أطلب قطعة خبز طرى لأغمّسها منه! واليوم سنحتفل ببلوغه العام الأول من عمره المديد المبارك بمشيئة الله كما احتفلنا

منذ شهر بابن عمته السنجاب. اللهم بارك فى أولادى وأحفادى، وبارك فى كل الأبناء والأحفاد، فهم فلذات الأكباد، وأنت الذى غرست محبتهم وبواعث القلق عليهم فى القلوب.

ولكن هل معنى هذا أن حياتى خالية من المنغصات؟ كلا، إذ ما أكثر المنغصات فى حياتى وفى حياة أى إنسان بالغا مابلغ علو منصبه أو عظم ثروته أو استقامة صحته أو ضخامة نفوذه أو قوة شخصيته أو جلاله ووقاره واحترام الناس له. لقد كُتِب على ابن آدم، أيا كان لونه وطبقته وجنسيته ومنصبه ولسانه وشخصيته وماله، نصيبه من وجع الدامغ فى الدنيا. "لقد خلقنا الإنسان فى كبد": هكذا قال الله تعالى، ولا معقِّب لقوله. والإنسان منذ يولد وهو فى عناء: بدءا من صرخة الاستهلال، وانتهاء بالموت، ومرورا بالتسنين والجوع والعطش والفشل والقلق والملل والعجز ومتاعب الدراسة والامتحانات والخوف من العفاريت والأشباح والمستقبل والمجهول والخيانة والظلم والحرمان والقبح... إلخ إن كان لتلك القائمة من آخر. وبالنسبة لى لقد ماتت أمنا صغيرة، ونحن أيضا صغار، ثم لحق بها أبى بعد نحو ثلاث سنوات، وأنا لا أزال فى التاسعة، وانتقلنا كما قلت من الستر إلى الفقر، وبعد أن كان لنا أب وأم صرنا يتامى كاملى اليتم منذ وقت مبكر. ومن جهة الأمراض عانيت كثيرا من نزلات البرد، وما أسخفها وأشد إزعاجها، وبخاصة فى طورها الأخير: طور الكحة. ولهذا كلما اعترتنى تلك النوبة كان أول شىء أفكر فيه الآن هو المشروب المهدئ للسعال. وطبعا هناك أمراض أخرى، وقد أخذت بنصيبى منها، وإن كان الله قد عافانى، حتى الآن على أقل تقدير، من خطيرها. فالحمد لله.

وأما من الناحية الدينية ومدى إحسانى أو إساءتى واستحقاقى من ثم للجنة أو النار فهذا أمر لا أستطيع أن أفتى فيه بشىء لأنه من اختصاص الله سبحانه وتعالى. وقد استغربت وأنا أشاهد، على قناة الجزيرة منذ نحو اثنتى عشرة سنة، سيدة نصرانية غربية ممن يعملن مع الكنيسة تقول عن نفسها إنها سوف تذهب إلى الجنة لأنها لم ترتكب فى حياتها ما يمكن أن تعاقَب عليه. قلت لنفسى: على الأقل ينبغى التأدب

مع الله، فمن منا يا ترى يستطيع أن يحكم على إيمانه أو عمله ونيته؟ لقد علّم الله رسوله، على جلال قدره، التواضع وخفض الجناح، وأمره أن يقول للمشركين: "مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ" . وأين هذه المرأة من الرسول؟ أليست على الأقل تعبد بشرا مثلها وتزعم أنه إله؟ ومع هذا نراها تتجاوز قدرها وتتعدى حدودها وتؤكد أنها ذاهبة بكل يقين إلى الفردوس. إن هذا الشعور المغرور هو فى حد ذاته مَهْلَكَة، وقد حذرنا الله منه لأنه تألٍّ على الله، فكأن الله يأخذ باقتراحات البشر وينفذ أوامرهم؟ ومع هذا فطمعى عظيم فى عفو الله وغفرانه، وعندى أمل ألا ينتهى طمعى إلى غير طائل، وإلا كانت مصيبة كبرى! كله إلا النار وأهوال النار! اللهم إنى لا أطلبها باستحقاق منى بل باستحقاق منك، فأنا الخطاء، وأنت التواب الرحيم.

وأنا دائم الحمد لله على كل نعمة أنعم بها علىَّ مهما دقت أو جلت: فإذا أكلت بقسماطة حافية شكرته سبحانه. وإذا غسلت يدى أو قصصت أظافرى أو حلقت ذقنى أو رششت على جسمى شيئا من العطر أو اغتسلت أو ارتديت ملابسى أو خلعتها أو قضيت حاجتى شكرته عز وجل. وإذا استمعت بأغنية شكرت الله على ما أبدع عَبْر الحناجر التى تهتف، والأوتار التى تعزف، والقلوب التى تشعر، والعقول التى تفكر وتبدع، والأيدى التى تنقر، والأفواه التى تصفر، والقريحة التى تَنْظِم، والذوق الذى يستقبل ويستجيب. وإذا سمعت نكتة أو شاهدت موقفا مضحكا فى فلم سَبَّحَتْ كل خلية فى عقلى وقلبى بتمجيد الله، الذى خلق المبدعين القادرين على إضحاكنا وإسعادنا طبقا لما بثه فى كونه من قوانين نفسية وعقلية واجتماعية وعصبية وفنية لا يستطيع أى شىء أو أى شخص أيا كان أن يحيد عنها قيد أنملة. وهو ما تشير إليه، بأسلوب غير مباشر، الآية الكريمة التى تقول: "وإنْ مِنْ شىءٍ إلا يسبِّح بحمده، ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم" . فالتسبيح هنا يعنى الطاعة المطلقة التى لا يستطيع أحد أن من المخلوقات أن يخرج عليها، بل الكل يعنو لها ويسير بمقتضاها، إذ نحن جميعا فى قبضته سبحانه لا يمكن أن نفلت منها رغم الحرية النسبية التى يتمتع

بها البشر هبةً منه سبحانه والتى على أساسها وبقدرها سوف نحاسب يوم القيامة مع تفاوت هذا المقدار الموهوب من الحرية باختلاف الأشخاص واختلاف ظروفهم، ومن ثم تفاوت الحساب طبقا لوسع كل إنسان: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها".

ولكن هل أنا تقى نقى لا أجترح الخطأ؟ كلا ثم كلا، فسخافاتى كثيرة، وغلطاتى أكثر، ولكنى لا أفكر فى أذى الآخرين، وعادة لا أشعر بالحسد تجاه أحد، وإذا تسلل شىء منه إلى دخيلتى حاولت أولا بأول كنس قلبى منه وتهوية غرفات نفسى حتى تخرج روائحه الكريهة، إذ يخجلنى أمام نفسى أن أراها متلبسة بالحسد أو الحقد على أى إنسان، وأعده شيئا لا يليق ولا يطاق. ورغم ميلى، بعد أن تجاوزت الشباب، إلى المجاملة ومداعبة الآخرين وعدم الصدام بأى إنسان ما وسعنى ذلك، فإن عصبيتى تغلبنى إذا ما ألفيت من أمامى يحمق أو يتحامق ولا يرعوى أمام الحقوق وأصول اللياقة، وما أكثر أمثال هؤلاء فى المجتمعات المتخلفة. ولا شك أن هناك من ضايقتهم تلك العصبية، وأرجو ممن قد تكون هذه العصبية آذته يوما أن يسامحنى، سواء كنت أنا أو هو على حق، فلست أقصد إهانة الآخرين، بل كل ما أتغياه هو أن أرى الأمور أمامى ماضية فى طريقها المستقيم بقدر الإمكان. وبالنسبة إلى إساءاتى إلى الآخرين فقد يشفع لى أن نيتى طيبة فى العادة لا أخطط لإيذاء أحد، بل كثيرا ما أتسامح فى حقوقى إذا جاء من أكلها أو ضيعها علىَّ وبَسَط عذره. وعلى الناحية الأخرى سريعا ما أفىء إلى الحق متى تبين لى أنى قد ابتعدت عنه. وفى أغلب الأحيان أقدر على تخيل نفسى فى موضع الآخرين الذى أساؤوا إلىَّ فأتفهم بواعثهم وأتخيل دوافعهم، مما من شأنه أن يخفف غضبى سريعا إذا كان هناك ما يستوجب مراجعة ذلك الغضب والتراجع عنه.

وبالنسبة لزوجتى وأولادى فإنى أعلن بملء فمى أننى لست زوجا ولا أبا مثاليا، ولكنى لست فاشلا أيضا، فبيتى بحمد الله يسير سيرا طبيعيا دون مشاكل تذكر ودون فضائح. أنا إنسان عادى فيه وفيه، مع شىء من ضيق الصدر فى بعض الأحيان. وأحاول بكل ما فى طوقى أن أدخل السعادة على قلوب زوجتى

وأبنائى، فأنجح أحيانا، وأخفق أحيانا أخرى. وقد أنفعل وأحتد حينما يكون هناك ما يستحق الانفعال، وأحيانا دون أن يكون هناك ما يستحق، وتنتقدنى زوجتى المحبة، وتقول لى كما تقول أميمة زوجة الشيخ حاتم الشناوى فى رواية "مولانا" له، بل كما تقول كل زوجة لزوجها فى كل البيوت تقريبا: آه لو يعرف الناس كيف تعاملنا! فأضحك أو أغضب طبقا للموقف، مستغربا هذه الملاحظة، إذ إنى لم أقل قط إننى مثال أعلى ولا أنا رجل تقى لا أحيد عن الصراط المستقيم، بل أقول: إننى رجل عادى، لكنى لا أحمل حقدا على أحد، وأحاول على قدر ما أستطيع أن ألتزم جانب الحق، فأنجح أحيانا، وأفشل أحيانا. ثم إن الرجل فى بيته يتخفف من عبء المجاملات وأشباه المجاملات مما يقتضيه التعامل مع الآخرين ممن لا تربطه بهم صلة قرابة لصيقة. فمن الطبيعى أن تظهر عيوب الشخص فى بيته أوضح مما تظهر خارج البيت. وفضلا عن ذلك فليس لى أنصار ولا أتباع ولا أشياع كـ"مولانا" يقتدون بى ويتخذوننى أسوة لهم، بل أنا مجرد حِتّة أستاذ جامعى يحبنى بعض طلابى، ويضيق بى البعض الآخر الذين أظنهم أكثر عددا نظرا إلى حرصى على سيادة النظام، ولو فى حده الأدنى، فى المحاضرة، وعدم الاستجابة إلى كسل جماهيرهم ورغبتهم فى حذف أكبر قدر من المقرر وتسهيل الامتحان إلى أبعد مدى بحيث يحله كل واحد منهم بإصبع قدمه.

ومع هذا فإن زوجتى كثيرا ما تستغرب استغرابا شديدا كيف أننى "رجل طيب القلب متسامح إلى هذا الحد" طبقا لكلامها. وهنا أضحك أيضا وأقول: "ارسى لك على بر، وحددى موقفك منى: "أنا رجل طيب أم سيء؟". أما بالنسبة لى فإننى لم أغير ولن أغير رأيى أبدا فيك. ولن أقول إلا ما قلته لأول مرة تعارفنا فيها". ثم أضحك ثانية متذكرا وذاكرا الحديث الشريف عن أبى زرع وأم زرع ومسارعة الزوجات بوجه عام إلى أن تقول كل منهن لزوجها عند أول بادرة: "ما رأيت منك خيرا قط!"، فتغتاظ من المغزى الذى يكمن وراء استشهادى بذلك الحديث النبوى، بينما أغرق أنا فى الضحك والقهقهة. ومع هذا فإننى، ولو على المستوى النظرى والفلسفى، أعى جيدا أن تركيبة الرجال العقلية والنفسية مختلفة عن تركيبة النساء

وأن هذا هو سبب الاختلاف الذى كثيرا ما يقع بين الرجل والمرأة، وأنه ما دام الله قد خلقنا وخلقهن على النحو الذى نعرفه فلا ينبغى أن يلوم الرجل منا زوجته إذا ما اختلفت وجهة نظرها معه أحيانا إلى أمور الحياة، وبخاصة أننى وزوجتى قلما نختلف فى المسائل الهامة والكبيرة، بل فى توافه الحياة وتفصيلاتها اليومية غالبا . هذا على المستوى الفلسفى، أما على المستوى الواقعى فقد أتسامح مع ما تقول، وقد أنفعل، وقد أنهزم (هزيمة تكتيكية طبعا : خذوا بالكم) . وهنا تعلق ابنتى الصغرى قائلة بضحك: أوتخاف ماما إلى هذا الحد يا بابا ؟ فأجيب وأنا أخافت من صوتى وأضائل من شخصى: من خاف سلم يا بنيتى ! وهل هناك بابا لا يخاف من ماما ؟ ثم أعود إلى الضحك والقهقهة. والآن ما رأيكم أنتم أيها القراء ؟ أأظل سائرا على هذه الشاكلة أم أزمجر كالأسد الغضنفر ؟ لكن الأسد الغضنفر لا يصلح أن يكون زوجا لبنت حواء، بل لا يصلح أصلا أن يزمجر فى وجه بنت اللبؤة، وإلا كان يومه أسود من قرن الخروب. واسألونى أنا يا من لست أسدا ولا غضنفرا .

أما مع أولادى فقد اجتهدت فى تربيتهم: فكنت أحيانا أصيب، وأحيانا أخطئ. وحين كانوا صغارا لم أكن أضربهم ولا أشتد عليهم، وإن لم أظل هكذا بعدما كبروا وصاروا يستطيعون التمييز بين الخطإ والصواب ويمكنهم أن يختاروا فيقدموا على هذا التصرف أو ذاك أو يمتنعوا عنه. ولكن لا أذكر أننى عاقبت أيا منهم إذا ما حصل فى الامتحان على درجة أقل مما أتوقع أو أتصور أنه يمكنه إحرازها . وقد سمعت مرة من د . إبراهيم عبد الرحمن فى أوائل سبعينات القرن الماضى أن د . طه حسين كان يكافئ ابنه وابنته إذا ما أحرزا درجة سيئة فى الامتحان. ولا أدرى مدى صحة هذا الخبر، إلا أننى على كل حال لم أصل يوما إلى هذا المستوى الراقى من التربية، ولا أستطيع أن أتبع تلك السُّنَّة الظريفة. وبحمد الله فإننى لم أَشْكُ قط منذ عقود طويلة من قلة ما أحتاجه من مال لشراء أى شىء لى أو لأولادى، وبالذات لأن مطالبنا ومطالبهم بوجه عام مطالب معتدلة. والآن ما رأى أولادى فىَّ؟ كما هو الحال مع كل الأولاد هناك ما يعجبهم منى مثلما

هناك ما ينتقدوننى عليه. ومن جانبى قد أقتنع بما يقولونه فىَّ سلبا أو إيجابا، وأحيانا لا أقتنع. وهكذا الحياة. لكنهم، فيما أتصور، يروننى رجلا طيبا فى تعاملى مع الناس. أما معهم فهذا شىء آخر كما سبق أن قلت. وبالنسبة لأحفادى فإنى لا أطيق أن أراهم يبكون أو يتألمون، وبخاصة أنهم لا يزالون صغارا ما بين العام الواحد والأعوام الأربعة، فكل ما يفعلونه يكون أحلى على قلبى من العسل. وأقصى ما يكون من رد فعل عندى إذا ما كنت مشغولا بأمرٍ مُلِحٍّ أن أحمل الواحد منهم وأسلمه لأمه وأبيه، أو لجدته إذا كان عندنا، وأطلب منه أو منها مراعاته حتى أستطيع أن أنجز عملى. ثم أقوم رغم ذلك بين الحين والآخر لأُبِلَّ ظمأ روحى إلى رؤيتهم وسماعهم وألعب معهم قليلا قبل أن أعود إلى مزاولة ما كنت مستغرقا فيه من عمل.

لقد كان بمكنتى أن أقدم لنفسى صورة أفضل من ذلك وأزعم أن كل شىء فى حياتى لا أحسن ولا أروع، بيد أن صراحتى وخشيتى من ربى تمنعنى ذلك وتجبرنى إجبارا على أن ألتزم الصدق. فسامحونى، إذ لم أستطع أن أرضيكم. ولعل لحرصى على أن أظهر لطلابى وقرائى ومعارفى بصورتى الطبيعية الواقعية دخلا فى أنى لم أترك تأثيرا فى أحد يذكر، فلم يقل لى أحد مثلا إنه قد أقلع عن ذنبه أو خلع دينه واعتنق الإسلام بسبب ما قرأه لى فى مقال أو كتاب أو سمعه منى فى ندوة أو محاضرة. وقد شغلنى هذا الأمر كثيرا وحيرنى، إذ كثيرا ما أسمع أن الداعية الفلانى أو الكاتب العلانى قد تاب أو أسلم على يديه كذا وكذا شخصا، أما أنا فلا، حتى لقد سألت ابنتى الصغيرة ضاحكا منذ أسابيع ونحن نسير معا فى الشارع: لماذا أبوك فاشل فى التأثير على الناس فيما يدعوهم إليه من أمور الدين أو الأخلاق يا سلوى؟ قالت فى الحال بعفوية عجيبة: لأنه ليس لك لحية! الناس يا بابا لا تسمع ولا تصدق إلا المشايخ الملتحين. وكنت أشاهد قبيل قليل الشيخ محمد حسان فى تسجيل مصور على المشباك يقول فيه لمذيع خليجى إنه كان يصلى هو وبعض المشايخ فى أحد المطارات الأجنبية، فإذا بأسرة أمريكية تلفت مع الملتفين حولهم يستطلعون طِلْعَهم، لينتهى أمر تلك الأسرة معهم بعد عدة أيام من وصول الطرفين إلى أمريكا بدخولها الإسلام. أما أنا فلم يحدث

معى شىء من هذا رغم أنى قد مكثت فى الغرب ست سنوات، واختلطت بهم فى بيتى وفى الشارع وفى الجامعة وفى الحافلة وفى الأسواق. يبدو أننى سيء جدا، وإلا فكيف تفسرون هذا الأمر؟ آه، نسيت أن أذكر لكم أن شابا عربيا يقيم بدولة أوربية ومثقف ثقافة عالية وعلى غير دين الإسلام، اتصل بى قائلا إنه مسلم منذ فترة، ولم يعزم بعد على معالنة أسرته بذلك لمعرفته أنهم سوف يتألمون ويعترضون رغم أنهم لن يتألموا ولن يعترضوا إذا ألحد وترك الإيمان بالله أصلا. والشاهد فى الحكاية تأكيده لى أن دخوله الإسلام إنما تم بناء على ما قرأه لى من كتابات فى تجلية حقيقته وفى المقارنة بينه وبين غيره من الأديان. الله أكبر! لقد فعلتها أخيرا، ودون أن أطلق لحيتى! يا للعجب!

ولا نكران أن لى أخطائى الكثيرة رغم محاولاتى الدائبة، والفاشلة فى كثير من الأحيان، أن أكون إنسانا مستقيما. لكن لا بد أن أصارح القارئ بأننى صرت أقل توترا مما كنت فى شبابى بسبب تلك الأخطاء، فأستغفر الله على ما أكون قد اجترحته من خطإ ثم أترك الأمر بين يدى الله لا أدعه يسمم علىَّ حياتى كما كان يحدث لى حين أستيقظ من نومى بين الحين والحين فأجد أن الشمس قد طلعت دون أن أدرك صلاة الصبح رغم ما اتخذته من احتياطات يفترض أنها كفيلة بإيقاظى قبل الشروق. لقد بذلت جهدى، وانتهت المسألة، وصار الأمر بين يدى الله متوقفا على مشيئة الله ورحمته وكرمه، وأملى فى كرم مولاى شاسع لا ينتهى، وأنا مقر بكل ذنوبى لا أمارى ولا أشارى. وأحيانا ما أقول لنفسى: رغم طمعى فى دخول الجنة بغير حساب فإننى لمحظوظ لو اقتصر نصيبى على النجاة من النار وأُرْسِلْتُ إلى الأعراف، إذ لا ريب أنها أفضل من جهنم حيث النار والحريق وصهر البطون والجلود والضرب بمقامع الحديد ومقاساة العذاب الأليم. ولكنى كلما قرأت الأحاديث التالية تجدد لدىَّ الأمل فى رحمة الله، فكانت نتيجته لا الاطمئنان الخامل الذى يردى صاحبه فى النار: نار الدنيا تخلفا وهوانا وفقرا وذلة على المستوى الفردى والوطنى والإسلامى، ونار الآخرة التى تشوى الأبدان والأرواح، بل تكثير المجهود ومضاعفة النشاط من أجل رضا الله، مع إعمال عقلى دون

خوف من أى شىء سوى ربى، ودون مراعاة لأى اعتبار سوى ما أرى أنه الحق، عارفا أن الإنسان ما دام اجتهد ولم يَأْلُ، ولم يتصدَّ لما لا يحسن، وأخلص العزم والنية، فالأجر بمشيئة الله فى انتظاره على أى من حاليه: أخطأ أو أصاب.

ومن هذه الأحاديث العجيبة "أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها، أو منافقوها (شك إبراهيم)، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم. فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا. فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم. وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان. هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم مقدار عظمها إلا الله. تخطف الناس بأعمالهم: فمنهم المؤمن يبقى بعمله أو الموبق بعمله أو الموثق بعمله، ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه، ثم يتجلى. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود. تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود. حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود. فيخرجون من النار قد امتُحِشُوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل. ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني

ذكاؤها . فيدعو اللهَ بما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله: هل عَسَيْتَ إن أُعْطِيتَ ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار. فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قَدّمْني إلى باب الجنة. فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيت أبدا؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب. ويدعو الله حتى يقول: هل عسيتَ إن أُعْطِيتَ ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. ويعطي ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة. فيقول الله: ألستَ قد أَعْطَيْتَ عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أُعْطِيتَ؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب، لا أكونن أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة. فإذا دخلها قال الله له: تمَنَّهْ. فسأل ربه وتمنى، حتى إن الله ليذكِّره يقول: "كذا وكذا" حتى انقطعت به الأماني. قال الله: ذلك لك، ومثله معه. قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة، لا يرد عليه من حديثه شيئًا، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله تبارك وتعالى قال: "ذلك لك، ومثله معه". قال أبو سعيد الخدري: وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة! قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: ذلك لك، ومثله معه. قال أبو سعيد الخدري: أشهد أني حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ذلك لك، وعشرة أمثاله. قال أبو هريرة: فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّي لأعلمُ آخرَ أهلِ النّارِ خروجًا منها، وآخرَ أهلِ الجنّةِ دخولاً: رجلٌ يخرُجُ من النّارِ حَبْوًا، فيقولُ اللهُ: اذهَبْ فادخُلِ الجنّةَ. فيأتيها، فيُخيَّلُ إليه أنّها ملأى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربّ، وجدتُها ملأى. فيقولُ: اذهَبْ فادخُلِ الجنّةَ. فيأتيها فيُخيَّلُ إليه أنّها ملأى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربّي، وجدتُها ملأى. فيقولُ: اذهَبْ فادخُلِ الجنّةَ، فإنّ لك مثلَ الدّنيا وعشرةِ أمثالِها، أو إنّ لك مثلَ عشرةِ أمثالِ الدّنيا.

فيقولُ: أتسخَرُ منّي، أو تضحَكُ منّي، وأنت الملِكُ؟ فلقد رأيتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم ضحِك حتّى بدت نواجذُه. وكان يُقال: ذلك أدنى أهلِ الجنّةِ منزلةً". وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: "بينا ابنُ عمرَ يطوفُ إذ عرض رجلٌ فقال: يا أبا عبدِ الرحمنِ (أو قال: يا ابنَ عمرَ)، هل سمعتَ النبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ في النجوى؟ فقال: سمعتُ النبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقول: يُدْنَى االمؤمنُ من ربِّه (وقال هشام: يدنو المؤمنُ) حتى يضعَ عليه كنَفهُ، فيُقرّره: تعرف ذنبَ كذا؟ يقول: أعرفُ. يقول: "ربِّ، أعرفُ" مرتين. فيقول: سترْتُها في الدنيا، وأغفرُها لك اليومَ. ثم تُطوى صحيفةُ حسناتِه". وأيضا هذا الحديث: "إنّ اللهَ عزّ وجلّ كتب الحسناتِ والسيئاتِ ثم بيّنَ ذلك: فمن همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها اللهُ لهُ عندهُ حسنةً كاملةً. فإن عملها كُتِبَتْ لهُ عشرُ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ. وإن هو همّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها اللهُ لهُ عندهُ حسنةً كاملةً. فإن عملها كُتِبَتْ لهُ سيئةً واحدةً".

وقال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيدِه لو لم تذنبوا لذهب اللهُ بكم ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون اللهَ فيغفرُ لهم". "إنّ اللهُ يُمهلُ حتّى يذهبَ شَطرُ اللّيلِ الأوّلِ، ثمّ ينزلُ إلى سماءِ الدّنيا، فيقولُ: هل من مستغفرٍ فأغفرَ له؟ هل من سائلٍ فأُعطيَه؟ هل من تائبٍ فأتوبَ عليه؟ حتّى ينشقّ الفجرُ". وفى حديث آخر "أنّ ناسًا من أصحابِ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قالوا للنبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: يا رسولَ اللهِ، ذهب أهلُ الدّثُورِ بالأجور: يُصَلُّون كما نُصَلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضولِ أموالهم. قال: أو ليس قد جعل اللهُ لكم ما تَصَدّقون؟ إنّ بكل تسبيحةٍ صدقة. وكل تكبيرةٍ صدقة، وكلّ تحميدةٍ صدقة، وكل تهليلةٍ صدقة، وأمرٌ بالمعروفِ صدقة، ونهيٌ عن منكرٍ صدقة. وفي بُضْعِ أحدكم صدقةٌ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، أيأتي أحدنا شهوتَه، ويكون لهُ فيها أجرٌ؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلالِ كان لهُ أجرًان". "بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدّ عليه العطشُ، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثّرى من العطشِ، فقال الرجلُ: لقد بلغ هذا الكلبُ من

العطشِ مثلَ الذي كان بلغ مني. فنزل البئرَ فملأ خُفَّه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكر اللهُ له فغَفر له. قالوا يا رسولَ اللهِ، وإنَّ لنا في هذه البهائمِ لأجرًا؟ فقال: في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ". "غُفِر لأمرأة مومسة مرت بكلب على رأس رَكِيٍّ يلهث (قال: كاد يقتله العطش)، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفِر لها بذلك".

ثم هناك هذا الحديث، وهو من رواية أبى هريرة، الذى أحبه حبا جما، وكتبت مقالا طويلا دفعت به سفاهة المتسافهين عليه من بعض أبناء عصرنا المتجاوزين لحدودهم والعادين قدرهم: "كنَّا قُعودًا حولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ معنا أبو بكرٍ وعمرُ في نفرٍ، فقامَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ من بينِ أظهُرِنا فأبطأَ علينا، وخَشِينا أن يُقتَطَعَ دونَنا وفزِعنا فقمنا، فكنتُ أوَّلَ من فزِعَ، فخرجتُ أبتغي رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى أتيتُ حائطًا للأنصارِ لبني النَّجَّارِ فدُرتُ بهِ أجدُ لهُ بابًا فلم أجد، فإذا ربيعٌ يدخلُ في جوفِ حائطٍ من بئرٍ خارجةٍ (و"الرَّبيعُ": الجدوَلُ)، فاحتفزتُ كما يحتفِزُ الثَّعلبُ فدخلتُ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ: أبو هريرة؟ فقلتُ: نعم يا رسولَ اللَّهِ. قالَ: ما شأنُكَ؟ قلتُ: كنتَ بينَ أظهرِنا فقمتَ فأبطأتَ علينا، فخشينا أن تُقطعَ دونَنا ففزِعنا، فكنتُ أوَّلَ من فزِعَ، فأتيتُ هذا الحائطَ فاحتفزتُ كما يحتفِزُ الثَّعلبُ، وهؤلاءِ النَّاسُ ورائي. فقالَ: يا أبا هريرةَ، وأعطاني نعليهِ، قالَ: اذهب بنَعْلَيَّ هاتينِ. فمن لَقيتَ من وراءِ هذا الحائطِ يشهدُ ألا إلهَ إلاَّ اللَّهُ مستيقِنًا بها قلبُهُ فبشِّرْهُ بالجنَّة. فكانَ أوَّلَ من لقيتُ عمرُ، فقالَ: ما هاتانِ النَّعلانِ يا أبا هريرة؟ فقلتُ: هاتانِ نعلا رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بعثني بهما: من لقيتُ يشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ مستيقِنًا بها قلبهُ بشَّرتُهُ بالجنَّةِ. فضربَ عمرُ بيدِهِ بينَ ثديَيَّ، فخررتُ لاسْتي، فقالَ: ارجع يا أبا هريرة. فرجعتُ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فأجهشتُ بكاءً، وركبني عمرُ، فإذا هوَ على أثَري، فقالَ لي رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ما لكَ يا أبا هريرةَ؟ قلتُ: لقيتُ عمرَ فأخبرتُهُ بالَّذي بعثتني بهِ، فضربَ بين ثدييَّ ضربةً خررتُ لاستي، قالَ: ارجع. فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: يا عمرُ، ما

حملكَ على ما فعلتَ؟ قالَ: يا رسولَ اللّهِ، بأبي أنتَ وأمّي، أبعثتَ أبا هريرةَ بنعليكَ من لَقِيَ يشهدُ ألا إلهَ إلاّ اللّهُ مستيقنًا بها قلبُهُ بشّرهُ بالجنّةِ؟ قالَ: نعم. قالَ: فلا تفعل، فإنّي أخشى أن يتّكِلَ النّاسُ عليها . فخلِّهم يعملونَ. قالَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ: فخلّهم".

وأخيرا وآخرا هأنذا أمضى فى السنة السادسة والستين من عمرى، الذى لا أدرى متى سينتهى وأفرغ أنا أيضا من أمور الحياة الدنيا وأنتقل إلى العالم الآخر، الذى أرجو من الله ألا يكون مصيرى فيه سيئا، وإلا كانت كارثة. نعم كارثة إذا ألقيت فى النار، التى لا شك أننى سأكون عندئذ مستحقا لها لأن الله لا يظلم أحدا من عباده. إلا أن الله قد يرى فىّ غير ذلك بغض النظر عن استحقاقى لذلك أو لا . وفى كل الأحوال فإنى أضع عشمى فى رب كريم عفو غفور ودود حليم عطوف كتب على نفسه الرحمة ووعد بالتغاضى عن الذنوب جميعا، وهو أهل لذلك، إذ لا معقب لحكمه. وأرجو ألا يخيب عشمى فى الله، وبمشيئته تعالى لن يخيب. والحق أننى أتصور نفسى مرميا فى جهنم تحاصرنى النار من كل جانب وتحرقنى وتشوينى ويُبَدّل جلدى مرة بعد مرة إلى ما لا نهاية لأذوق العذاب من جديد، وأصرخ وأستغيث فلا مغيث. هل يمكن أن يتخلى الله عن عبد من عباده كان يحبه ويحب رسوله وحاول على قدر وسعه واستطاعته أن يكون مسلما طيبا، ففشل أحيانا، ونجح فى بعض الأحيان، فلا يمد يده الكريمة المباركة ليمنعه من هذا المصير التعيس؟ هذا ما لا أرجوه، وإن رجائى لفى ضمانة كريمة!

المهم: هأنذا قد تجاوزت الخامسة والستين بعد أن كنت ولدا صغيرا فى الكتاب لا أعرف الألف من كوز الذرة، وإن كنت أعرف كيف آكل كوز الذرة: المشوى طبعا! يا له من زمن! إننا نحن البشر أبناء الزمن وسجناؤه لا نستطيع له عصيانًا ولا عنه حِوَلاً . وإنى لأذكر أننى، حين كنت تلميذا صغيرا بالقرية، كنت أتمنى أن أكون مثل واحد من أقربائنا من بعيد كان يسكن طنطا ويأتينا بين الحين والحين راكبا مثل والدى عجلته البخارية ولابسا بنطلونا وقميصا، فكان هو المثال الأعلى الذى كنت أتمنى أن أكونه بحذافيره: حريةً وملابسَ

إفرنجيةً ودراجةً بخاريةً وانعتاقا من الكتاب واللوح والحصة والخيزرانة والقيام كرها من النوم اللذيذ للذهاب إلى الفقيه وعصاه والتمتع بالطعام الخصوصى الذى كان يأكله عندنا . ومع هذا كان هناك أمر يحيرنى كثيرا وينغص علىّ تلك الأمنية، وهو أننى كنت أتساءل دائما: إذا ما صرت أنا فلانا الفلانى فمعنى ذلك أننى لم أعد إبراهيم. إذن فكيف سأستمتع بصيرورتى الجديدة؟ ذلك أنه لن يكون هناك فى الحالين سوى قريبنا الطنطاوى ذاك، فهو الذى سيستمتع لا أنا! أما كيف خطر لى ذلك الخاطر الفلسفى فى تلك السن المبكرة فهذا ما يحيرنى أيضا فوق حيرتى الفلسفية السابقة.

كذلك كنت فى طفولتى وصباى الأول واعيا بالزمن جدا أيام الأخمسة والجُمَع. ذلك أننى، على قدر ما كنت أشعر بالسعادة الخانقة أصيل الخميس حين أنصرف من الكتاب عارفا أن أمامى بقية اليوم والليلة واليوم التالى أيضا، وعلى قدر ما أقضى فعلا ليلة الخميس فى بهجة وسرور غير مُعَنٍّ نفسى فى التفكير بأى شىء يتعلق بالكتاب، وكذلك صبيحة الجمعة عندما أستيقظ مبكرا على غير العادة وأنطلق إلى مصطبة الحاج إسماعيل أبو صيرة التى تشرق عليها شمس الصباح طلبا للدفء فى صباح الشتاء البارد وانتظارا لمن ينفخ ربنا فى صورته من أطفال الشارع فيستيقظ مبكرا مثلى كى نتحدث ونلعب معا فى ذلك الصباح الخالى من الهموم، ويمكنك أن تلحق به الضحى أيضا والظهر وما بعد الظهر بقليل، وهو الوقت الذى أذهب فيه عادة مع والدى إلى عزبة عاشور حيث يخطب الجمعة ويصليها بنا فى جامعها الجديد الأنيق الذى لم يكن له مثيل فى الجدة والأناقة فى بلدنا، والفضل فى ذلك للحاج عبد المحسن الشرشابى، الذى أنشأه وأنفق عليه فيما أذكر الآن، على قدر هذا وذاك وذلك يكون همى وغمى مع اقتراب المغرب يوم الجمعة، إذ تشرع نفسى تسودَّ مع اسوداد الآفاق، وأتمثل الكتاب وأتذكر ما ينبغى حفظه وتسميعه على الفقيه والحبسة هناك طول اليوم دون لعب أو دلال ودون أن يكون لك حرية فى عمل أى شىء وحيث لا تعامل مع التلاميذ إلا من خلال الخيزرانة والفلقة. نعم كنت مستقيما متفوقا بالمعنى الذى يصدق على نشاط التلاميذ الكتاتيبيين آنذاك، ولكن هناك

الخيزرانة والفلقة مثلما أن هناك تلك الأخطاء التى قد نرتكبها فى البيت ونُشْكَى مِنْ جرائها إلى سيدنا الشيخ مرسى رضوان، رضى الله عنه وأسكنه الفردوس الأعلى، فيرى فى تجلية من تجلياته أن يمدنا فى الفلقة ويهرئ أخامص أقدامنا بالعصا اللدنة الرفيعة كأنها النار الموقدة. واسألنى أنا، فقد اصطليت حَرّ نارها مرة، ظلما والله العظيم كما شرحت فى موضع آخر من تلك المذكرات. وعلى هذا فقد كان هناك دائما احتمال قائم أن أُمَدّ فى الفلقة أو تنهال علىَ عصا سيدنا الشيخ مرسى، تلك العصا التى يقولون إنها من الجنة مع أنها هى النار بعينها. مفارقة مضحكة! أليس كذلك؟ وقد صار خوفى ورعبى من يوم السبت أفظع وأشنع بعد موت والدى وتناقص اهتمامى بالتعليم، وبخاصة أنه لم يعد هناك جديد يقدمه لى الكتّاب بعدما انتهيت مبكرا من حفظ القرآن وتعلم الكتابة والقراءة والقواعد الأربع فى الحساب، وهو كل ما يقدر الكتّاب على تقديمه لنا.

ونفس الشىء ينطبق على أيام الإجازات الأخرى فى مولد النبى والعيدين، وكذلك على الإجازة الصيفية التى تطول ثلاثة أشهر حين صرت طالبا فى معهد طنطا الدينى. ففى إجازة العيد مثلا كان يوم الوقفة، أى اليوم السابق على العيد مباشرة: سواء فى ذلك العيد الصغير أو العيد الكبير، هو يوم بدء الفرحة الكبرى حيث نقضى اليوم فى التغنى بـ"بكره العيد ونعيّدْ. وندبحوك يا شيخ سيِّدْ. ونعلقوك فى الترسينة. ونقولوا: اللحمة السمينة. وكنت أتصور أن المقصود بذلك هو الشيخ سيد الحانوتى، وكان سمينا، رغم أنه كان رجلا طيبا. والدليل على ذلك أنه لم يقترب منى مثلا فيدفننى فى القبر، وإلا ما كنت الآن أكتب ما أسطره هنا من سخافات لا تنتهى. أليس كذلك؟ وقبل ذلك بيوم كنا نحاول استباق الفرح فنغنى: "يا برتقان احمرْ وجديد. بكره الوقفة، وبعده العيد. يا برتقان احمرْ وصغيّرْ. بكره الوقفة، وبعده نغيَّر"، أى نغير ملابسنا القديمة ونرتدى بدلا منها ملابس العيد الجديدة الزاهية ذات الألوان الفاقعة عادة. وكانت تلك الفرحة تصل ذروتها عند الإخلاد إلى الفراش وفى أحضاننا أو قربيا منا الجلباب والحذاء (أو الصندل) الجديدان، وتمتد تلك الذروة

إلى صباح العيد حين نرتديهما ونسير فى الشوارع نضرب الأرض بأحذيتنا مباهين الأطفال الآخرين، وفى جيوبنا القروش القلائل التى أعطيت لنا مصروفا للعيد فنأكل بها البالوظة من قطب الحبشى، الذى يغرف لنا طبقا من صينيته المفتقرة إلى أدنى متطلبات النظافة، ولكن لا خوف علينا ولا على بطوننا، فهى قادرة على سحق الزلط نفسه، فما بالك ببالوظة الحبشى حتى لو كانت الصينية مجنزرة وفيها كل سموم الأرض؟ ثم ينقلب كل ذلك حزنا وكربا مع انقضاء ظهر يوم العيد وخلو الزراعية عند المقابر من الحشد الهائل الذى يشبه حشد يوم الحشر حيث كان سامر العيد منصوبا على سِنْجة عشره، والدنيا كلها هيصة وزمبليطة، وجميع أطفال القرية قبل قليل هناك بملابسهم الجديدة وزماميرهم وبمبهم وصواريخهم والأراجيح والصناديق صاعدة هابطة بمن عليها من الركاب، فلم يبق أحد من ذلك الحشد، اللهم إلا من لا يزال فى جيبه قرش أو قرشان منا ويريد ركوب الدراجة بهما من عمى أحمد الشيخ العجلاتى الواقف هناك بدراجاته المتهالكة الخردة. وينزل ستار الفرحة عند المغرب. وفى اليوم التالى يثقل قلبى هم طويل عريض. لقد انقضى كل شىء، وكلها يوم واحد ونعود لموال الكتاب. يا للخيبة! أهذه هى الحياة؟

وأذكر وقفة لى بباب جامع سيدى شهوان القائم فى حارة موازية للشارع الذى فيه بيتنا وبيت خالى حيث كنت واقفا ضحى ذات يوم صيفى، وفى يدى كرة من الإسفنج صنعتها لتوى، إذ كنت بارعا فى صنعها وفى صنع ألوان أخرى من الكُرَى، وفجأة بزغ فى قلبى من حيث لا أدرى خوف من انصرام عهد الطفولة وما كنت أستمتع به فيه من لعب الكرة وتطيير الطيارات والنموس الورقية عصرا على الطريق الزراعى والجرى مع سائر مشجعى القرية وراء الفريق الكبير لكرة القدم بالقرية هنا وهناك والتهنؤ بانتصاراته المدوية على كل الفرق الأخرى تقريبا. لقد غزا قلبى وأنا واقف بباب الجامع وحدى، وليس هناك أحد فى حارة العطفى التى يقع فيها المسجد، حزن قاهر، فتمنيت أنْ لو بقيت طفلا ألعب على راحتى دون أن أحمل هما. ترى هل كنت آنذاك فى المرحلة الإعدادية بالأزهر؟ أم هل كنت لا أزال تلميذا بالكتاب أو جمعية المحافظة على القرآن

الكريم؟ لا أستطيع أن أتذكر الآن على وجه اليقين، وإن كان يغلب على ظنى أننى كنت قد ذهبت إلى الأزهر. مرة أخرى كيف ثار مثل هذا الإحساس بالزمن ومغزاه فى قلب طفل صغير فى ذلك العمر المبكر، وبهذه الحدة وهذا الخوف من انقضاء المسرات والأفراح سريعا؟ ألا إنه لأمر غريب! وكلما تذكرت تلك الواقعة هاج حزن بنفسى على الأيام وطبيعة الزمن وسرعة انقضاء الحياة وانصرام كل شىء وتحوله إلى ماض وذكريات، ترى أين يذهب كل ذلك؟ أُعْطِى عمرى لمن يعرف ويأتينى بالخبر اليقين. أحيانا ما أدعو الله لبعض من يعزُّون علىَّ معزّة خاصة، ويلتهب الدعاء فألتمس من مولاى أن يبلّغ أدعيتى لهؤلاء الأعزاء حيث هم حتى يفرحوا ويشعروا أننى متذكر لجميلهم وما صنعوه معى من مواقف كريمة وأغدقوه علىَّ من حنان فياض وعطف نبيل، وهنا أتوقف وأحاول أن أخترق الستار المستحيل الذى يفصل بينى وبين من مَضَوْا، فلا يمكننى أن أرى فى ذلك الستار ولو ثَقْب إبرة أستطيع أن أنظر من خلاله، فحينئذ أكتفى بأن أَكِل الأمر إلى سيدى يصنع فيه ما يشاء دون أن أتعب عقلى فى التخيلات التى لا يمكن أن تصل مما أريد إلى شىء.

وهنا أحب أن أضيف أن الماضى والحاضر والمستقبل إنما هى مفاهيم بشرية لا تنطبق على الله سبحانه، وفى اعتقادى أن كل شىء فى أى زمان أو فى أى مكان حاضر حضورا أبديا فى علم الله دون أن يكون هناك قبلٌ أو بعدٌ أو قدامٌ أو وراءٌ أو أعلى أو أسفل بحيث لا يصح أن نقول إن الله يعلم كذا قبل وقوعه، اللهم إلا إذا كان المقصود: قبل وقوعه بالنسبة لنا. أما بالنسبة له عز شأنه فكل شىء حاضر حضورا أبديا بكل هيئاته وأوضاعه وتطوراته دفعة واحدة. أما كيف ذلك فهو أمر من أمور الغيب لا يمكننا إدراكه لأننا محصورون فى سجن القدرات والمفاهيم البشرية. ولقد كنت فى شبابى أقول فى نفسى: سوف أطلب من الله سبحانه، إذا كتب لى أن أدخل الجنة، أن يطلعنى على الإبراهيمِين الصغار الكثيرين الذين كنتهم فى الدنيا حتى أرى نفسى وأنا رضيع، وكذلك وأنا صبى فى الكتاب، وتلميذ فى الأزهر، وطالب فى الأحمدية الثانوية، وباحث بالجامعة، ومعيد وعروس ودكتور... وبالذات وأنا فى فترة الصبا والشباب، وكيف كنت أبدو

وأتصرف وألبس وألعب الكرة وأقرأ وأكتب وأحب وأتألم فى سبيل ذلك الحب. وكنت أتخيل أنْ سوف يكون تحقيق هذا الطلب شيئًا ممتعا . ألست أستعيد الزمن الذى انصرم ومضى واختفى عن عيوننا وجميع حواسنا، وليس إلى مرجعه هنا فى الدنيا من سبيل؟

وبالمثل تنبهت مبكرا، حين نكون بصدد انتظار مباراة هامة بين الفريق الذى نشجعه وفريق منافس له، إلى المفارقة المتمثلة فى رغبتنا فى حلول المباراة وبدء اللعب غير متنبهين إلى أن هذا البدء هو فى ذات الوقت بداية العد التنازلى لانتهاء المبارة وانصرام اللذة التى نستشعرها أثناء مشاهدة اللعب بحيث لا تكون هناك لذة بعد انقضائه. وهو ما قاله لى فى شبابى صديق متزوج، إذ كان يستعجب من رغبة الرجل عند الجماع فى الوصول إلى لحظة الذروة حتى يستمتع باللذة العظمى. وهى ذاتها، كما كان يقول لى فى حسرة، لحظة الانطفاء فى نفس الوقت. فماذا نفعل فى حياة قائمة فى كل أمورها على مثل تلك المفارقة المزعجة؟ هكذا كان يقول لى، أما أنا فكنت أسكت، إذ لم أكن قد دخلت دنيا بعد، فلم أكن أفهم مرامى كلامه. لكن كان معنا زميل آخر ابن جِنْت ومقطّع السمكة وذيلها، فكان يتهكم به قائلا: وهل حُبِكَتْ يا رجل حتى تتفلسف وأنت فى هذا الموقف؟ خَلِّكَ فيما أنت فيه، ودعك من الفلسفة الآن، فليس هذا وقتها ولا موضعها . ثم يضحك، فنضحك معه. وهذا ينطبق أيضا على رواية ممتعة نقرؤها، أو سهرة جذابة نسهرها، أو محاضرة شائقة نستمع إليها، أو حفل غنائى نحضره، أو رحلة فاتنة نشترك فيها . كما ينطبق على تحضير الدكتوراه وأشباهها، إذ الباحث صاحب الرسالة يريد أن يمر الوقت بسرعة حتى يكون دكتورا، فى حين أنه لكى يتم ذلك لا بد له أن يكبر فى السن ويقترب من ثم من نهاية عمره. كذلك كنت، فى صغرى، أتصور أننى، عندما أكبر وأنتهى من التعليم وأتخرج من الجامعة وأحصل على وظيفة، سوف أكون سعيدا سعادة خالصة، فلا كُتّاب ولا تسميع ولا ضرب ولا خبط ولا أحد يأمرك أو ينهاك على غير ما تهوى، فتعمل أو تكسل، وتخرج أو تدخل، وتنام أو تستيقظ، وتمد رجلك أو تثنيها دون أن يكون هناك من يؤاخذك على شىء مما تأتى أو

تدع. ثم تخرجت من الجامعة، بل صرت أشتغل فى الجامعة، فإذا الذى كنت أتوقعه من السعادة الخالصة وهم سخيف لا وجود له إلا فى ذهن ولد صغير ساذج مثل العُبَيْد لله، فالحياة تشتمل فى جانب منها على مقدار كبير من المشقات وألوان الكَمَد والكَبَد، لا مفر من ذلك لأى إنسان حتى لو كان نبيا رسولا .

نعم أنا الآن أستاذ، بل أستاذ كبير فى الجامعة (إِحِمْ! إِحِمْ!)، والطلاب ينظرون إلىَّ أنا وزملائى على أننا خالو البال من أية منغصات، غير دارين أن هناك فرّاشا يراقب حضورنا وغيابنا ويبلغه للسلطات فتسألنا السلطات: أين كنا فى اليوم الفلانى فلم نحضر المحاضرة العلانية؟ وهناك الطلاب الذين لا يتعاونون مع الأستاذ فلا يقرأون شيئا ولا يفهمون مما تقول شيئا، وإذا سألتهم لا يجيبون بشىء لأن أمخاخهم أنظف من الصينى بعد غسله وشطفه أيضا، ومن ثم يشعر الأستاذ بالملل وثقل الوقت الباهظ وكأنه يدفع جبلا بيديه وحده دون نظرة شفقة، مجرد نظرة، من أحد . وهناك على الجانب الآخر الطلاب الأذكياء المتفوقون على قلتهم ونسبية ذكائهم وتفوقهم، وهؤلاء يمكن أن يشكلوا عبئا عليك إذا تهاونت فى إعداد المحاضرة. ثم هناك رئيس القسم، الذى قد يكون أحد طلبتك القدامى، ولا بد لانتظام العمل من أن ينسى هذه التلمذة السابقة أحيانا مهما حاول أن يكون مجاملا حافظا للود، وهو ما يضعك فى حرج أو ترقب حرج إن خرجت عن الأصول، ولا بد من الخروج عنها بين الحين والحين بوصفك بشرا من ناحية، وتعيش فى مجتمع متخلف يجبرك على مخالفة الأصول طوال الوقت من ناحية أخرى. ثم هناك نظام الجودة، الذى يكفى ما يتطلبه من ملء خانات لا تنتهى فى أوراق لا تنتهى هى أيضا، وكله بكش فى بكش وتسديد خانات فى أوراق والسلام، إلا أن المصيبة العظمى هى أن هذا النظام يستلزم فى جانب منه أن يقول الطلبة رأيهم فى الأستاذ، وأن يدخل الأستاذ محاضرة زميله ليسجل رأيه فيه. آخ!

ستقول: وما الذى يزعجك فى هذين الأمرين؟ فأما الأمر الأول فأنت ربما لا تعلم حال الطلاب الآن وأنهم لا يقرأون ولا يَرَوْن للعلم ولا للتعليم أى معنى، ولا يتفاعلون مع أساتذتهم. والغالبية منهم لا تحضر

المحاضرات لدرجة أن نسبة الحاضرين لا تتعدى أحيانا العشرة فى المائة، وأحيانا تنزل إلى أقل من ذلك. وكل همهم هو حذف أكبر قدر من المقرر، أو الحصول على مذكرة تلخص ما قاله الأستاذ فى محاضراته يمكنهم قراءتها وحفظها دون فهم خلال اليومين الفاضيين السابقين على امتحان المادة. وهناك تعبير شائع بين الطلبة منذ فترة هو: "أريد أن أُلِمّ المادة"، أى أريد ملخصا لها لا يزيد عن صفحات قليلة أحفظه فى يومين قبيل الامتحان وأتقايؤه كما هو فى ورقة الإجابة دون تفكير ودون زيادة أو نقصان بحيث أرص كل ما هو مكتوب فى موضوع من الموضوعات أيا كان المطلوب من هذا الموضوع، وعلى الأستاذ أن يختار الجزء المطلوب مما كتبت، فقد سقت له الموضوع كله، ومهمته هى استخراج ما يريده من جواب من هذا الذى رصصته له، ثم أنتهى من الأمر سريعا كما بدأته سريعا لأننى غير فاضٍ.

وعلى هذا فإنهم، عند تقويمهم لأساتذتهم، وهذا إذا اعترفوا أنهم أساتذة أصلا، فضلا عن أن يقروا بأنهم أساتذتهم، سوف يعطون الأستاذ الذى يتملق رغباتهم، بحذف أكبر قدر من المقرر وتسهيل الامتحان بحيث لا يحتاج إلى تفكير أو وجع دماغ، أحسن التقديرات ويصفونه بأنه أستاذ عبقرى، ويخسفون الأرض بمن يشتد فى تعليمهم ومحاسبتهم. وقد خبرتُ ذلك فى قطر وفى مصر، فلا تحاولوا أن تقنعونى بخطإ موقفى. أما تقويم الأساتيذ بعضهم بعضا فلن أذكر هنا سوى أن بعض زملائى الذين كانوا معى فى الدوحة وبَقُوا بعد انتهاء مدة بعثتى وحضروا تطبيق نظام الجودة هناك قد أنبأونى بأن الأساتذة كانوا يتخاصمون تخاصما شديدا حول عدد النقط التى ينبغى كتابتها بعد كلمة "إلخ" مثلا، وهل هى ثلاث حتما أو من الجائز أن تكون أربعا، ثم يشتبكون ويكتبون تقارير فى بعضهم البعض على هذا الأساس. ولا تنس أيضا أن تسلم لى على الجودة، التى لا تقترب من الطالب أبدا، وتوجب على الدكتور، إذا ذهب إلى المحاضرة فلم يجد أحدا من الطلبة ينتظره أن يبقى بالغرفة إلى أن يشرفوه هو والقاعة بالحضور، وإن ضاق صدره بالانتظار فليكلم نفسه لمدة ربع ساعة كالمجانين إلى أن يتكرم بعض الطلاب بالظهور، وإلا عاد من حيث أتى دون أن يكون

هناك أى لوم أو تثريب على الطلاب الذين لم يحضروا . ثم لا تنس أن هناك، إلى جانب الفراش والطلاب ورئيس القسم، سيادة العميد ورئيس الجامعة ووزير التعليم العالى ورئيس الوزراء ورئيس الجمهورية وأمين عام الجامعة العربية وسكرتير عام الأمم المتحدة، ولا تنس أيضا الملاك الموكل بكتابة أعمالك وإحصاء أنفساك طول الوقت، وفوق كل هؤلاء ربك، الذى خلقك وسواك وسيحاسبك على كل نأمة أو خلجة، مما لا داعى للكلام فيه. وهكذا يرى القارئ أن السعادة الصافية المطلقة وهم كبير لا معنى له.

ومن الطرائف التى مرت علىَّ وأنا أستاذ بالجامعة أننى فوجئت فى أواخر ثمانينات القرن الماضى فى ورقة الإجابة بمن يهاجمنى هجوما شديدا ويتهمنى فى رأيى وذوقى، وإن كان بطريقة غير مباشرة. لقد بدأت الإجابةُ على السؤال بأن صاحبها يعرف عنى سعة صدرى وديمقراطيتى، التى علمتهم إياها أثناء المحاضرات، ومن ثم سيأخذ راحته ويمدد رجليه كما يحب (لم يقل هذا، لكنه مضمون ما قال) . ثم دخل فى الموضوع عارضا رأيى بسرعة ثم كارًّا عليه بالتسفيه والتوضيع. والحق لقد أُخِذْتُ أول الأمر، ثم عرفت مَنْ صاحبُ ورقة الإجابة. إنه بدر، وله ظروفه الخاصة، ويعتقد فى نفسه أنه عبقرى العباقرة، وأن أحدا لا يمكنه أن يفهم فهمه ولا أن يجاريه فى شىء مما حباه الله من عقل ومعرفة وعبقرية بما فيهم ابن جنى وابن عفريت نفسه. ولا أدرى هل كان بدر يؤمن بالله أو لا . وأيا ما يكن الحال فماذا يفعل العبد الغلبان مع بدر وما كتب؟ وازداد الأمر تعقيدا حين تنبهت إلى أن بدرا لم يجب إلا على ثلث السؤال المطلوب تقريبا .

إلا أن أسلوبه كان سليما مستقيما، وهو ما نفتقده لدى الطلاب بوجه عام، كما أنه كان مستقل الرأى. صحيح أن كلا من البشر، بما فيهم أنا، يتصورون أن رأيهم هو المصيب، وإلا فلم شمرت عن ساعد التأليف وخبطت كتابا قرأه الطلاب، ومنهم بدر؟ هل خبطته ليأتينى عبقرى كبدر فيقول لى إن ما كتبته فيه هو السخافة بعينها؟ نعم هو لم يقل هذا بحرفه، لكنه مضمون كلامه. ثم ما العمل، والطالب لم يجب إلا على ثلث السؤال؟ والله لو اتبعنا اللوائح والقوانين فيرسب بدر والذين خلفوا بدرا. أما إذا وضعنا فى عقولنا

راسنا، وعرفنا خلاصنا، وفهمنا أن المقصود هو تخريج طالب من هذه النوعية ناقصًا طول اللسان والمغالاة فى الاعتداد بالنفس، فينجح بدر نجاحا عظيما . وهذا الحل الأخير هو ما أخذت به، فأعطيته تسعا وأربعين من خمسين.

ولما رأيته فى الإجازة، وكانت النتيجة قد ظهرت، قلت له: أرجوك ألا تصنع مع أحد غيرى ما صنعته معى، فليس كل الناس مخبوطين فى أدمغتهم مثلى. أقصد أننى قد سامحته نزولا على ما أتمتع به من نظرة فنية تحب الأشياء المدهشة. لم أقل له هذا الكلام بالضبط، لكنه مضمون ما قلته له. ثم سافرت إلى السعودية لأعود فى أول إجازة فأجد أن بدرا قد اشتبك مع أستاذ أكبر منى كثيرا فى السن، وأن الأمور وصلت بينهما إلى المحاكم. ومنذ أيام جاءت سيرة بدر، فعلمت أنه قد مات منذ فترة طويلة رحمه الله وعوضه عما عاناه فى الدنيا، فقد كان معوقا تعويقات متعددة حتى لقد كان، إذا أراد أن يسطر شيئًا على الورق، يضع القلم فى فمه ويكتب.

ومنذ عدة سنوات كنت أحاضر طلاب الفرقة الأولى بقسم اللغة الإنجليزية عن د . مندور والقضايا الثلاث التى أثرتها فى كتابى: "د . محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة"، لأفاجأ فى ورقة من أوراق الإجابة فى الامتحان بقول الطالب إنه لم يكن يعرف شيئًا عن د . مندور قبل أن يقرأ كتابى المذكور، فعَنّ له أن يبحث على الإنترنت (أو "المشباك" كما أطلق أنا عليه)، ففوجئ بأن الناس جميعا يصفونه بالعبقرية (هذا نص كلامه تقريبا) إلا إياى، وهو ما ينصحنى معه أن أذهب فأقرأ أكثر عن الرجل حتى أغير حكمى عليه. وكانت هذه هى ورقة الإجابة الوحيدة التى شذت عن الموقف العام للطلاب، الذين أجمعوا على ترديد رأيى مع شىء غير قليل من المبالغة فى اتهام الرجل بشأن أخذه كثيرا من فصول كتابه: "نماذج بشرية" من أحد الكتاب الفرنسيين، وأن ترجمته لرواية "مدام بوفارى" ركيكة ومفعمة بالأخطاء . . . إلخ. ووقفت حائرا بعض الوقت لا أدرى ماذا أفعل مع تجاوز الطالب (أو الطالبة) لحدوده مع أستاذه. لكنى فى

ذات الوقت لم أستطع أن أخفى إعجابى بجرأته رغم ما فيها من تطاول، ورغم ما فى الإجابة من قصور يستحق معها أن يحصل على ست من عشر. إلا أننى، نظرت للأمر من زاوية أخرى، وهى أن الطالب قد كتب ما كتب ثم ذهب إلى بيته غير متصور أن ينتقم منه الأستاذ، علاوة على ما شعرت به وكأن الله سبحانه وتعالى واقف خلف ظهرى ينظر من فوق كتفى ماذا سأعطى الطالب. ثم خبطته ثمانى من عشر، وانتقلت إلى تصحيح الورقة التالية.

طالب آخر عرفته منذ سنوات قليلة حين دخل القسم عندنا، واقترب منى وأفهمنى أنه يحفظ الشعر الجاهلى كله، فلم آخذ كلامه مأخذ الحرف، فضلا عن أننى لم ألحظ فيما يحدثنى به أو يكتبه لى ما يساعد على تصديق هذا الكلام، ورغم ذلك أخذت أشجعه بالكتب وبغير الكتب كما أصنع مع أى طالب أرى لديه رغبة فى التعلم وحبا للقراءة. وكان يكتب لى بين الحين والحين فلا ألحظ تألقا بل مجرد رغبة فى أن يكتب. ومن بين ما كتبه لى رسالة أشار فيها إلى تناقض لاحظه بين ما قلته فى أحد كتبى وما ذكرته فى بعض محاضراتى، فلم أتذكر التناقض الذى يشير إليه، وبخاصة أن ذلك التناقض لا يتمشى مع عقليتى، وبالذات فى الموضوع المذكور، وإن كان من غير المستبعد أن يقع مثلى فى بعض التناقضات من حين إلى حين، فليس على رأسى ريشة تعصمنى من التناقض.

وعلى أية حال لم يكن هذا هو بيت القصيد، بل بيت القصيد هو أن الطالب، اندفاعا منه فى استغلال ديمقراطيتى (الله يخرب بيت الديمقراطيات التى فى الدنيا كلها بما فيها الديمقراطية البريطانية أقدم الديمقراطيات الموجودة الآن، لا ديمقراطيتى وحدها!) قال فى رسالته المذكورة فى تهور غير مبرر: "إن كنت كذوبا فكن ذكورا". وضحكت وسخطت فى ذات الوقت. إذ لا موضوع للكلام هنا عن الكذب، بل عن السهو، وهذا لو كنتُ حقا وقعتُ فى التناقض، ولم يكن الأمر خطأً من الطالب فى الفهم أو السمع، وبخاصة أننى سألت الطالب ودققت فى السؤال عما إذا كنت قلت ما نسب إلىَّ فى محاضراتى قوله،

فأجمعوا على أننى لم أقل ذلك. وعبثا حاولت أن أُفْهِم الطالب أن العبارة المذكورة لا يليق أن يوجهها طالب إلى أستاذه، فرد ردا أغرب وأضل سبيلا، إذ قال إن إبراهيم المازنى قد قالها لطه حسين. فقلت له: لنفترض أننى أنا طه حسين، فهل أنت المازنى؟ وهل علاقتنا هى علاقة كل من هذين الأديبين بصاحبه؟ لكنه لم يقتنع، وهو ما أضاق صدرى، ودفعنى إلى استعمال شىء من الشدة مع هذا الأحمق. فانصرف عنى وقد أخذ على خاطره لا لشىء إلا لأنى لم أتركه يتطاول على أستاذه بحجة أنه يقلد المازنى.

ثم مرت الأيام، وإذا به بعد ظهور نتيجة السنة الأولى، وأمام غرفة مكتبى بالقسم، ينهى إلىَّ أنه حصل على اثنتى عشرة درجة فى مادتى، وأنه يشكرنى على ذلك. يريد أن يقول إننى انتقمت منه لعبقريته المازنية. فسكتُّ وأنا مغتاظ، فالمعروف لكل البشر والعجماوات أيضا أن أوراق الإجابة مجهلة، ويستحيل أن يعرف الأستاذ شخصية صاحبها إلا فى حالات شاذة لا تحدث إلا مرة كل عدة سنوات حين يكون الطالب متميزا تماما، ويعرف الأستاذ خطه، وكذلك شخصيته العلمية عن قرب، ويكون قد كتب كلاما فى الورقة متميزا يلفت الانتباه ويثير التفكير كما فى حالة بدر. وقد جَدَدْتُ فى البحث عن ورقة إجابة الطالب المذكور، وكانت تتبع كنترول أحد الزملاء، وأتعبتنى حتى عثرت عليها. وسبب جدى فى البحث عنها أن ضميرى شرع يشوكنى خشية ألا أكون قد قدرت ورقته حق قدرها رغم أننى لا أعرف أنها له، ولا أية ورقة أخرى مَنْ صاحبُها. وسبب التعب أننى ظننت أنها ضمن أوراق الانتظام، إذ لم يخطر لى قط أن الطالب أحد طلاب الانتساب الواقعين من قعر القفة، إلا أن هذا للأسف هو ما كان. ولو كنت أعرف ذلك لما أرهقت نفسى فى تكرير البحث عن ورقته فى أوراق الانتظام مستبعدا تماما ألا يكون منهم.

بل لقد ظننت، قبل أن أطلع على رسائله لى، وهى رسائل عادية كما سبق القول، أنه من أكبر الملتحقين بالقسم درجاتٍ فى الثانوية العامة، تصورا منى أنه فعلا من المتميزين، ولم يخطر على بال أنه من طلاب الانتساب، وهم الطلاب المتدنية درجاتهم. ولما وجدت الورقة فررتها فوجدت أننى أعطيته سبعا من عشر،

بينما زميلتى أعطته خمسا فقط. هذه واحدة، والثانية أن الكلام الموجود بالورقة عادى فى كل شىء، ولا يزيد عن تلخيص ما فى الكتاب بأسلوب عادى مع التقصير فى بعض النقاط. ثم زدت فأعطيت الورقة لزميلى المذكور الذى دوخته معى بالملاحقة شهرا قبل أن تتاح له الفرصة ليفتح صوان الكونترول بغية إطلاعى على ورقة الطالب كى يستريح ضميرى، وطلبت منه أن يلقى نظرة على الورقة ويرى أتستحق شيئا أكبر مما أعطيت صاحبها، فأكد لى أنها ورقة عادية جدا لا تميز فيها بأية حال. ومع هذا فإن الطالب المذكور يومئ إلى أننى ظلمته، مع أن المادة مشتركة بينى وبين زميلة لى، فضلا عن أننى قد أعطيته أكثر مما أعطته هى بدرجتين. أما الثالثة، والثالثة ثابتة، فهى أن تقدير الطالب العام كان دائما تقديرا عاديا أو أقل من العادى. ولنفترض أننى فعلا قد ظلمته وانتقمت منه أفلم يَدُرْ فى ذهنه أن يسأل نفسه هذا السؤال: لماذا لم أحصل فى مواد الأساتذة الآخرين طوال السنوات الأربع التى قضيتها فى القسم على تقديرات عالية؟ وهل كان أى واحد منهم ليطوِّل باله معى لو كتبت إليه: "إن كنت كذوبا فكن ذكورا"؟

ثم اختفى الطالب عنى فلم أعد أراه فى أى مكان بالكلية: لا فى المحاضرات ولا فى غير المحاضرات حتى لقد ظننت أنه، لا قدر الله، قد أصابه مكروه أو حول أوراقه إلى كلية أخرى... إلى أن كنت فى محاضرةٍ من محاضرات العالم الماضى للفرقة الرابعة، وألقيت سؤالا على الطلبة أستحثهم فيه على التفكير وتشغيل المخ، وكان سؤالا بسيطا، لكننى كعادتى وعدت من يجيب عليه إجابة صحيحة بمبلغ من المال، وكان المبلغ فى تلك المرة عشرة جنيهات، فرفع طالب يده وأجاب، وبغتة تنبهت إلى أنه الطالب المذكور، فلما سمعت إجابته، وكانت صحيحة، طلبت منه أن يمر بى وهو خارج من القاعة ليأخذ المكافأة. إلا أنه انصرف دون أن يمر بى ودون أن أتنبه فى زحمة الخروج وتجمع بعض الطلبة حولى إلى ذلك. ثم لم أعد أراه منذ ذلك اليوم لأنه تخرج غالبا. ترى هل قسوت عليه، وكان يستحق منى معاملة أخرى؟ لا أظن، فقد شجعته كثيرا وعاملته على أنه متفوق فعلا فترة من الوقت. وفوق هذا فقد ألمح إلى أننى ظلمته مع أنه ليس

معروفا عنى أننى أحمل فى قلبى ضغينة على أحد، فضلا عن أن يكون هذا الأحد طالبا من طلابى لايساوينى فى القوة والمقدرة. ثم لو كان متفوقا، فلماذا لم يحصل على أى تقدير مرتفع طوال السنوات الأربع كماتساءلت قبل قليل؟ بل لماذا كان أصلا بين طلاب الانتساب لا طلاب الانتظام؟ ثم مرة أخرى: هل يصح أن يكتب طالب لأستاذه الذى كان يشجعه بكل سبيل رغم أنه لم يبد منه لهذا الأستاذ أى تميز: إذا كنت كذوبا فكن ذكورا؟

وفى أكسفورد مررت بتجربة غريبة خلال قراءاتى الخاصة برسالة الدكتورية، إذ كان علىَّ أن أراجع جميع المجلات المصرية على مدار قرن كامل وأكثر، فكنت أرافق كل كاتب منذ يبزغ نجمه ويعرفه القراء مرورا باتساع شهرته إلى أن يموت ويختفى اسمه. وكان هذا الأمر يتم مع كل كاتب فى غضون أيام معدودة يبزغ فيها نجمه ويشتهر ويثير الزوابع وتقوم بينه وبين نظرائه المعارك النقدية، ثم يختفى من الحياة، لأقلب صفحته وأبدأ ذات الرحلة مع كاتب آخر يلقى ذات المصير، وكل ذلك فى خلال أيام قلائل أيضا . . . وهلم جرا. وقد تكرر هذا كثيرا: مع رفاعة الطهطاوى وجرجى زيدان وإبراهيم اليازجى والمنفلوطى وعيسى عبيد والرافعى وزكى مبارك وإبراهيم المازنى ومحمد لطفى جمعة وسيد قطب وإبراهيم المصرى ومحمود تيمور وغيرهم حتى سكننى هاجس الموت، وصرت من يومها كلما رأيت طفلا يهمّنى ضحكت قائلا لنفسى أو لزوجتى: كلها كم سنة، ويصبح هذا الطفل أبا ثم جدا، وأكون أنا قد أخذت استمارة ستة، أى انطلقت إلى الأمجاد أو المخازى السماوية حسبما يكون مصيرى طبقا لمشيئة ربى عز وجل. كذلك كثيرا ما أقول لطلابى الذين أشرف عليهم أستحث كل واحد منهم قائلا: أرجو أن تبذل كل جهدك حتى تنتهى من رسالتك قبل أن أموت. . . وهكذا. ولست أقول هذا عن تشاؤم، بل بوصفه حقيقة من حقائق الحياة. آه منك يا زمن!

كذلك جاء علىَّ وأنا فى بريطانيا وقت شرعت أتصرف فيه على أساس أننى سوف أموت عند بلوغى الستين بحيث تتزامن وفاتى وخروجى على المعاش فأختفى من الكلية ومن الحياة معا . ومن ثم فحين بلغت هناك الثلاثين وضعت فى اعتبارى أننى قد قطعت نصف رحلتى فى الحياة، وأننى وصلت إلى قمة الجبل، وعلىَّ أن أستعد إلى النزول من الناحية المقابلة إلى السفح، ولكنْ مع الأيام زال هذا التصور من تلقاء نفسه كما نبت من تلقاء نفسه. وبالمثل كان ابنى الوحيد يتصور فى صغره أننى سأموت فى التاسعة والثلاثين مثلما مات جده، الذى هو أبى، فى تلك السن على ما سمع منى وأنا أحدث أمه أمامه أحيانا أحاديث الذكريات، اعتقادا منه أن الابن يموت فى نفس السن التى مات فيها أبوه. ولم أكن أعرف بأحزانه الممضة الناشئة من اعتقاده هذا إلا عندما عرفت أنا من بعض لِدَات أبى أنه مات فى نحو الثانية والثلاثين من عمره، فقلت هذا لزوجتى على مسمع من ابنى بالمصادفة، فأعرب فى الحال عن فرحته بمرور ساعة الصفر الخاصة بمَوْتِى بسلام. وعندئذ شرحت له أنه ليس محتوما أن يموت أى منا فى نفس السن التى تمت فيها وفاة أبيه، فازداد قلبه اطمئنانا، والحمد لله. وهأنذا ما زلت على قيد الحياة، فعمر الشَّقِىّ بَقِىٌّ!

والسؤال الآن بعد كل ذلك هو: هل حصلتُ على ما أريد من الحياة، وبالذات فى مجال العمل والوظيفة؟ الجواب: نعم، ولا . فأما "نعم" فلأنى أصبحت كاتبا وناقدا، وإن لم أصر أديبا، بالمعنى الضيق لكلمة "أديب" . ذلك أنى، وإن كتبت بعض القصص القصيرة فى مقتبل حياتى، وكنت أرى أننى يمكن أن أستمر فى كتابة القصص، لم أترك شيئا يستأهل أن يطلق علىَّ بسببه أننى قصاص، كما أننى لم أكتب فى باب الرحلات مثلا سوى كتاب عن رحلتى إلى جامبيا فى شمال غرب أفريقيا صيف عام ١٩٨٦م، ولا يزال مخطوطا، زيادة على مجموعة من الخطابات التى كنت أبعث بها إلى أصدقائى من أكسفورد أصف فيها بريطانيا وأوضاع الحياة الإنجليزية وأقارن بينها وبين ما فى بلادنا الغالية، وهذه الخطابات ما فتت مخطوطة أيضا . وعلى هذا فحين أقول إننى لم أصر أديبا فقد أصبتُ المحزَّ وطَبَّقْتُ المَفْصِلَ.

ولكن لم لا أقول إننى ما دمتُ قد أضحيتُ كاتبا، والكاتب هو والأديب قريب من قريب، فبمكنتى من ثم القول بأنى حصلت على ما أريد من حياتى ومهنتى؟ ألم أقل، وأنا فى الإعدادية، إننى أريد أن أدخل الكلية التى تخرّج الأدباء؟ إذن فأنا قد أضحيت شيئًا قريبا من الأديب، وإن لم يكن هو الأديب ذاته، وشىء خير من لاشىء كما يقال. أليس كذلك؟ ألم تكن زوجتى تعد لى ألوان الشراب والعصير وتحضره لى بمختلف ألوانه؟ فماذا تريدون ل أكثر من ذلك؟ لقد كانت تحلم بالزواج من أديب تصنع له المشروبات وتحملها إليه فى مكتبه. فها هى ذى كانت تصنع ذلك بحذافيره. إذن فأنا أديب، على الأقل: فى نظرها لأن من السهل علىَّ إيهامها بأننى أديب على سن ورمح، وهذا هو ما يهمنى، لأنى من الذين يقولون: من بات مرضيا عنه من زوجته فقد حيزت له الدنيا وما فيها. لكن هل زوجتى ترضى عنى على الدوام؟ ولكن من ذا الذى يحظى برضا زوجته عنه يوما متصلا، فضلا عن "على الدوام" هذه التى لا توِّكل عيشا حافيا؟ لا أحد. إذن فأنا محظوظ.

ولكن هل معنى ذلك أننى سعيد فى عملى؟ لا، بل هناك أسباب للتنغيص لا حيلة لى فيها، إذ قد انحدر مستوى التعليم انحدارا بشعا، وصار الطلاب بوجه عام لا يريدون أن يتعلموا. أنا أعرف أن للطالب بعض العذر فى ذلك نظرا للظروف السيئة التى يتعلم فيها، ونظرا إلى يأسه من أن يكون هناك ثمرة لهذا التعليم ينعكس على حياته: وظيفةً يجدها حين يتخرج، ومرتبًا محترمًا يحقق به ما يحتاج إليه، وزواجًا يستمتع فيه برفيقة طيبة تدخل البهجة على حياته وتقضى على ما يعانيه من حرمان، ومسكنًا يصلح للآدميين ويستطيع أن يدفع إيجاره، ونظامًا للتأمين الصحى يكفل له العلاج والدواء بشكل إنسانى متحضر... إلخ. ولا ننس أن كثيرا من المدرسين الآن لا يعلمون التلاميذ ولا الطلاب شيئًا فى المدارس مؤثرين أن يدخروا جهودهم للمراكز التعليمية وأمثالها التى تدر على الواحد منهم ألوفا من الجنيهات فى اليوم. وأنا هنا أصف واقع الحال وانعكاسه على نفسيتى، وأترك تدارك الخلل للمسؤولين، مكتفيا بالتشخيص، وهو ليس بالقليل أبدا. وقد جاءتنى اليوم

فى المكتب طالبة فى الفرقة الرابعة وطلبت منى أن أكتب لها كلمة تشجيع فى الأوتوجراف قائلة فى تلقائية تامة دون أن يطلب منها أحد ذلك: والله إننى أحب محاضرتك يادكتور رغم أن الطلبة يكرهونك. فلكزتها زميلتها منبهة إياها أن هذا كلام لا يصح، فقلت لها ضاحكا: دعيها تتكلم، فهى تتحدث بما فى قلبها. أقصد أنها تقول ما تعرفه عن موقف الطلاب من محاضراتى، وإن كنت لا أظن أنهم جميعا يكرهون تلك المحاضرات، بل هى تقصد أن قطاعا كبيرا منهم لا يحبون ما يكلفهم به الأساتذة من قراءة وتعب ووجع دماغ، وبخاصة إذا كان مثلى لا يجاريهم فى تدللهم الماسخ ولا يحذف شيئا من المقرر آخر العام كى يكسب رضاهم، ولا يعطيهم أسئلة لا يخرج الامتحان عنها . . . إلى آخر ما يريد طلبة هذا الجيل من أساتذتهم أن يفعلوه.

فهذا بطبيعة الحال لا يساعدنى على أن أشعر بالرضا عن وظيفتى رغم أنها أحسن عمل أتصوره لنفسى، وخاصة أننى أُكْبِر دراسة الأدب والنقد والدين إكبارا عظيما. ومع هذا فالطلاب الكسالى لا يهمهم شىء مما أقوم به من أجل إنعاشهم وما أنبههم إليه من أن اهتمام أى منهم بالعلم هو جهاد فى سبيل الله، ولا يبالون بما أعلنه أمامهم دائما من أن الأستاذ يستفيد من طلابه وما يقولونه فى المحاضرة مثلما يستفيدون هم منه، وأن ما يقولونه أثناءها يحرك أذهان أساتذتهم ويساعدهم على رؤية ما يتناولونه من الموضوعات رؤيةً أفضلَ ويلهمهم أفكارا جديدة، وأن الأستاذ ما هو إلا مشروع ثقافى لا يكتمل أبدا حتى لو امتّد عمره منذ بداية الخلق إلى يوم الحشر، وأنه فى واقع الأمر جاهل كبير رغم آلاف الكتب التى قرأها وجعلها موضوعا لتفكيره لأن علمه كله، وعلوم البشر جميعا، مستمد من الله، الذى هو العالم الحقيقى والمطلق، وأنهم لا يقلون فى شىء عن طلاب أمريكا وأوربا لأن الذى خلقهم هو نفسه سبحانه وتعالى خالق طلاب أمريكا وأوربا، ولا يعقل أن يحابى الله العادل الكريم الرحيم الغربيين علينا. كل ما هنالك أنهم فى بلاد الغرب يقرأون ويفكرون ويجتهدون فى طلب الثقافة والمعرفة، أما هنا فالناس بوجه عام فى عصرنا هذا يكرهون التفكير والعلم ولا يريدون أن يوجعوا أدمغتهم فى شىء من ذلك.

كما أؤكد لهم فى كل مرة تقريبا أدخل لهم فيها لأحاضرهم أنهم قادرون على أن يحققوا ما لا يخطر على بال من تقدم علمى وفكرى لو اهتموا بالعلم كما يطلب منهم دينهم وأن السعى فى سبيل العلم عليه أجر كبير، وأن الذهاب إلى المكتبة، والمشاركة فى المحاضرة بالنقاش والأخذ والرد من شأنه أن يكسب الطلاب رضا ربهم عنهم ويسر قلب نبيهم بهم يوم القيامة ويجعله يفتخر بشباب أمته. . . فضلا عن تشجيعى الملتهب لأى طالب يسألنى أو يدلى برأيه فيما أقول أو يعترض علىّ، وتقديمى المكافآت المالية للمجتهدين والإيجابيين منهم حتى لو كان ما قاله الواحد منهم آنذاك مجرد كلمة لا راحت ولا جاءت، فالمهم أنه نطق وشارك وخرج عن صمته وسلبيته، علاوة على أننى لا أسخر عادة من طالب يخطئ فى الجواب على أسئلتى، بل أترك الآخرين يحاولون الوصول إلى الإجابة الصحيحة، وهو ما يأخذ عادةً وقتا طويلا وتوجيها مستمرا منى لخط سيرهم المعوج أثناء هذا وإلصاق شذرةٍ طائرةٍ من كلام هذا بِقِدْرَةٍ عارضةٍ من كلام ذلك إلى أن نصل إلى شىء، مع تنبيههم طوال الوقت إلى أن ما أطرحه فى محاضراتى وكتبى ودراساتى ليس سوى اجتهاد منى قد يخطئ وقد يصيب، وأن المهم هو أننى اجتهدت وحاولت، لكنى لا أضمن أن يكون هو الصواب الذى لا يقبل نقضا ولا إبراما، وأن ما يميز ديننا العبقرى العظيم هو أنه دعوة إلى الاجتهاد حتى لو أخطأ المجتهد، فالعبرة بهذا الاجتهاد، الذى لا بد أن يثيبه الله عليه حتى لو لم يصل إلى الصواب ما دام قد بذل وسعه ولم يقصر وأخلص فى هذا البذل، وهو ما لا وجود له فى أى دين أو مذهب آخر، وأن العلم إنما يقوم على مثل هذه الاجتهادات والمحاولات، وهو ما يعبر عنه العلماء والفلاسفة الآن بالتجربة والخطإ. . . إلى آخر هذا الكلام.

إلا أن النتيجة العامة هى ما عبرتْ عنه الطالبة الصريحة المسكينة حين جبهت أستاذها بما جبهته به، مبينة على نحو باتر أننا فى واد، والطلاب فى واد آخر، وأن البون الذى يفصل بين الواديين شاسع وعميق جدا. والواقع أننى كثيرا ما أحس أنه يتعين علىّ حمل جبل المحاضرة وحدى، بينما الطلاب صامتون

مشغولون فى أذهانهم بأشياء أخرى خارج المحاضرة، مخرجين محمولاتهم أو ممسكين بها فى أيديهم ومنصرفين إلى العبث بها فى أية فرصة تسنح لهم دون اهتمام بما يقوله الأستاذ . على أن تفوق الطلاب الذين أشجعهم وأسرف فى الثناء عليهم هو تفوق نسبى، بمعنى أنهم متفوقون بالنسبة لزملائهم، أما بالنسبة لما ينبغى أن يكون عليه التفوق، فالمدى الفاصل جد كبير. ومع هذا فالمجاميع التى يحصل عليها طلاب هذه الأيام عالية جدا بحيث إن عددا منهم كل عام يحصل على تقدير "ممتاز" فى المجموع الكلى والمجموع التراكمى، وهو ما لم يكن يحدث فى أيامنا إلا مرة كل عقدين مثلا . ورغم ذلك فالطلاب لا يَرْضَوْن أبدا عن النتيجة، ويرون أننا نظلمهم ونبخسهم قدرهم. طبعا، فهم عباقرة، ونحن عُمْىٌ لا نستطيع أن نبصر وجه العبقرية فيهم أبدا، ونستأهل من ثم الحرق!

وإلى القارئ صورة سريعة ومجملة عن مستوى الطلاب كما أَخْبُرهم كل يوم فى الجامعة: إن المسؤولين يتركون الطلاب فى المدارس دون أن يفعلوا شيئا يصلحونهم به، فتكون النتيجة أنهم يأتون إلى الجامعة وهم غير مؤهلين لها . وهؤلاء الطلاب لا يحضرون المحاضرات إلا بنسبة ضئيلة جدا لا تصل عادة فى الفرقتين الثالثة والرابعة إلى العُشْر، ومعظم من يحضر لا ينصت إلى الأستاذ، بل ينشغل فى المحمول والكلام مع زملائه. وإذا حدث أن حاول الأستاذ إشراكهم فى المحاضرة بحيث يتكلمون ويعبرون عن رأيهم لم يجد منهم استجابة، وكل ما يخرج به منهم هو هزهم لرؤوسهم كأنهم خُرْس، بمعنى أنه "ليس عندنا شىء نقوله"، غير مجشمين أنفسهم فتح أفواههم ليقولوا هذا بألسنتهم بدلا من هز الرأس. فإذا وجد الطلاب أن الأستاذ يصر على المناقشة أخذوا يتسربون من المحاضرات التالية قليلا قليلا حتى يصفصف العدد على العُشْر، وأحيانا ينزل إلى أقل من العُشْر كثيرا .

وقد فهمت من تعليقات الطلاب فى الفيس بوك فى السنة الماضية أنهم تطوروا تطورا جديدا لم يكن يخطر على بال أحد، إذ أصبحوا يَدْعُون الله على الأساتذة الذين يأخذون التعليم بشىء من الجِدّ، ويريدون

لهم أن يتعلموا، ولا يحذفون شيئًا من الفصول المقررة، ويكلفونهم الذهاب إلى المكتبة وما إلى ذلك. أما لماذا يستحقون الدعاء عليهم فلأنهم يقومون بواجبهم، وينتظرون من الطلاب هم أيضا أن يقوموا بواجبهم ويستذكروا ويقرأوا. إلا أن الطلاب المساكين لا يريدون أن يبذلوا جهدا، ويأملون على العكس من ذلك أن يجعل الأساتذة فى عيونهم حصاة ملح فيأتوا بامتحان سهل يستطيع أى جاهل أن يحله بإصبع قدمه، وهو ما لا يفعله الأساتذة المعقِّدون الذين يكرهون الطلبة ولا يريدون لهم النجاح.

لقد أصبح الطلاب يتبادلون الرسائل على الفيس بوك، ومعظمها رسائل تافهة يحاول بها الكسالى التهرب من الاستذكار من خلال السؤال عن الأجزاء المحذوفة من المقرر أو الموضوعات التى ينبغى التركيز عليها بدلا من تضييع الوقت والجهد فى قراءة ما لا فائدة منه فى نظرهم. وبالمناسبة فلا شىء فى ميدان العلم له فائدة فى نظر معظم الطلاب. ومعظمهم، كما قلت، لا يحضر عادةً المحاضرات مكتفيا بسؤال زملائه على الفيس بوك عما تم حذفه من المقررات وما إلى ذلك وهو فى بيته لا يكلف نفسه الإتيان إلى الكلية للتأكد بنفسه من الأحوال، أوقد يأتى لكنه يكتفى بالتشمس فى فناء الجامعة وتحت أشجارها أو يجلسون على سلالم الكلية يسدون الطريق على الصاعدين والهابطين بما فيهم الأساتذة المساكين الذين يعانون فى التنقل من مكان إلى مكان للوصول إلى قاعات المحاضرة أو النزول إلى مكاتب الموظفين فى ظل تعطل المصاعد على نحو شبه دائم. وهذا هو التعليم عند كثير جدا من الطلاب. وهم أثناء هذا كله يمسكون بالمحمول يعبثون به أو يستمعون فيه إلى التسجيلات الغنائية الهابطة التى لاترقى ذوقا ولا تشبع نفسا ولا عقلا، أو يفتحون اللاب توب ليلعبوا فيه الكوتشينة أو ما إلى ذلك، وأحينا ما يصخبون ويصرخون على نحو مزعج غير متحضر بالمرة دون اعتبار للمكان أو الزمان. والزبالة وأعقاب السجائر متناثرة وبقايا الطعام والمشروبات ومناديل الكلينكس وأكياس الشيبسى وصناديق البيتزا الفارغة فى كل مكان. وأرجو ممن يستغرب هذا الكلام أن يأتى إلى الجامعة ويشاهد الطلاب على الواقع ليرى إلى أى مدى أنا أبالغ أو أرصد الحقيقة فى تجرد وحيادية.

وها هى ذى رسالة أنا محورها ، وواضح أن كاتب الرسالة أو كاتبتها لم تكن تحضر المحاضرات لأنها لا تعرف المقرر . وكان عدد الطلاب الذين يحضرون عادة فى المادة التى يدور حولها الحديث فى هذه الرسالة لا يزيد عن الخمسين من أكثر من خمسمائة طالب . وهذا ليس خاصا بمحاضراتى، بل الحال واحد تقريبا فى كل المحاضرات . ولو كنا نملى كلامنا على الطلاب إملاء لانتظم الجميع فى الحضور . لكننا نشرح، وفوق ذلك فأنا ممن يضيقون بالانفراد بالكلام فى الدرس، وأريد من الطلاب المشاركة بالسؤال وبالجواب وطرح ما فى عقولهم وقلوبهم، وكلما وضعت يدى على طالب قرأ كتابا انهلت ثناء عليه أمام زملائه تشجيعا له، وكافأته وعملت على إدخال البهجة على نفسه شاعرا وكأننى كنت تائها فى الصحراء أوشك أن أموت عطشا وجوعا ، ثم عثرت على واحة يجرى فيها الماء وَيَسَّاقَط من نخيلها البلح الرطب الجنىّ الشهىّ، وأطير فرحا لو "أخطأ" طالب فسألنى عن شىء أى شىء، وأقول لهم دائما إننى أستفيد منهم أكثر مما يستفيدون هم منى مهما كانت تفاهة السؤال، إذ ما إن يلفظ الطالب السؤال من فمه حتى يقرع مخى قرعا ويدفعه دفعا إلى التفكير والتقدير حتى أصل منه إلى شىء جديد .

وإليكم الآن الرسالة المذكورة، وهى لطالب أو لطالبة فى الفرقة الرابعة، أى يوشك أن يتخرج! تقول الرسالة: "هو دكتور ابراهيم عوض مقرر كام قصيدة في مادة الشعر رابعة" . ثم هذه رسالة أخرى قبل الامتحان بيوم أو يومين: "ياجماعة الحذف لعلم المخاطب والحذف فى باب الهمزه ده معانا ولا لا واللغات السامية السريانية والحاجات ديه معانا ولا لا" . لقد انحط دور الفيس بوك عند الطلاب إلى تبادل مثل تلك الرسائل التى تدل على أنهم لا يريدون أن يقرأوا أو يتعلموا أو يفهموا ، بل كل همهم معرفة المحذوف . ويا ليت كل شىء فى المقرر يُحْذَف! إذن لكانوا أسعد من فى الدنيا ، والآخرة أيضا . والحمد لله أن لقبنى صاحب الرسالة أو صاحبتها بـ"الدكتور" ، فبعض الطلاب يكتبون أسماءنا فيما يتبادلونه من رسائل مشباكية (إيميلات) دون ألقاب . إيزى ميزى! والمضحك أنهم، فى الوقت ذاته، يخلعون هذا اللقب على كل من يكتب أو ينظم حتى لو كان

الإمام الغزالى أو الشاعر الجاهلى امرأ القيس: فعنترة بن شداد هو الدكتور عنترة، وابن حزم هو الدكتور ابن حزم، والطبرى هو الدكتور الطبرى، وابن سلام هو الدكتور ابن سلام، والسيوطى هو الدكتور السيوطى، وسيد قطب هو الدكتور سيد قطب. . . وهلم جرا. وهل هم يدفعون شيئًا من جيوبهم؟

وفى إحدى كراسات الإجابة ألفيت صاحبها يكتب أن أبا نواس كان يعرف الفرنسية والإنجليزية، وأنه سافر إلى الخارج فى بعثة واطلع هناك على المذاهب الأدبية الجديدة، وأغرم بالرومانسية. فانظر إلى هذا العلم العبقرى الذى يخر من الكراسة خرورا. والمناسبة فكثير من الطلاب يكتبونها: "أبوالنواس" كما ينطقها العوام، وبخاصة من أهل الريف! وواضح أن الطالب لا يعرف شيئًا عن أبى نواس: لا العصر الذى ينتمى إليه ولا الظروف التى كان يعيش فيها ولا شيئًا من تفاصيل حياته الشخصية. . . وأنه لا يعنى بالنسبة إليه أى شىء على الإطلاق. إنما هو اسم رآه فى نص الترجمة فاخترع له كلاما من خياله السقيم وعقله الفارغ. وكيف لا يكون عقله فارغا، وهو لم يقرأ شيئًا فى حياته تقريبا، ويتحامل على نفسه بمرارة وسخط على أن ألقت به الأقدار فى طريقنا لنعلمه؟

ورأيت أيضا فى الفيسبوك رسالة من طالب يسأل زملاءه فى آخر الفصل الدراسى عن اسم الدكتور الذى يدرّس مادة "أعمال السنة"! تصوروا طالبا لا يعرف اسم الأستاذ الدكتور الذى قضى الفصل كله يحاضر طلابه وانتهى معهم من المقرر، ثم لا يعرفه الطالب. فما معنى ذلك؟ معناه ببساطة أن الطالب لم يحضر طوال الفصل إلى أن هَلّ الامتحان. ومعناه أنه لم ولا ولن يكلف نفسه الذهاب إلى الكلية لمعرفة الأمر بنفسه. ومعناه أنه لم ينظر فى الكتاب أو فى أى شىء يتعلق بالمادة. ومعناه فى النهاية أنه لا يشعر بالدنيا من حوله. وكم من مرة أكون جالسا فى المكتب مع بعض زملائى، فيأتى طالب يسأل عن واحد من الدكاترة الجالسين أمامه: هل الدكتور فلان موجود؟ فيرد عليه الدكتور المقصود: ولماذا تسأل عنه؟ لنفاجأ بأنه أحد طلابه، ومع ذلك لا يعرف أستاذه الجالس فى مواجهته يكلمه. سترك يا رب!

أما القمامة فى قاعة المحاضرات فمصيبة وخزى وعار، فأنت تدخل المحاضرة لتفاجأ بأكياس الشيبسى وعلب الكوكاكولا ومناديل الكلينيكس وقشر اللب وأعقاب السجائر متناثرة فى كل مكان، وبعضها على طاولات الدرس، ولم يبق إلا أن ينادى الطلاب على أستاذهم طالبين "واحد شاى وصلّحه"، ولم يبق أيضا إلا أن تصرف الكلية لكل أستاذ فوطة صفراء يدليها من جيب معطفه الأبيض لزوم تلميع طاولات الدرس وكنس بقايا الطعام والشراب من فوقها. ولا تعدم عددا من الطلاب قد وضعوا أمامهم على طاولات الدرس هذه الأشياء يشربون منها أو يأكلون دون أى شعور بالخجل من الدكتور، وهو ما يستفزنى، فأصرّ على أن ينظف كل منهم المكان الذى أمامه ويلقى بالقمامة فى السلة المخصصة لذلك، فيقومون متكاسلين كارهين متذمرين، وأنا أنظر إليهم غير مبال بتذمرهم. وقد أشاركهم فى لم الأوراق وإلقائها فى صندوق القمامة الموجود فى داخل قاعة المحاضرات رغم أنى لا لى فى الثور ولا فى الطحين، بل أفعله تشجيعا لقيمة النظافة، وإشعارا لهم بعار القذارة والفوضى. ولكن لا حياة لمن تنادى، إذ يتكرر هذا الموال فى كل محاضرة تقريبا، اللهم إلا إذا تصادف أن كان الفراش قد نظف القاعة لتوه. وأحيانا ما أدخل عليه حين لا يكون الطلاب موجودين، فأجده يكنس "أكواما" من الزبالة قد أخرجها من تحت الطاولات، فأتساءل: أى نوع من الطلاب هؤلاء؟ ألا يفكرون على الأقل فى هذا المسكين وما يسببونه له من إرهاق إن لم يفكروا فى نظافة القاعة أو الكلية أو الجامعة؟

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل من الطبيعى المعتاد الآن أن ينتقل الطالب (أو الطالبة) من موضعه إلى موضع آخر فى القاعة أثناء المحاضرة بحذائه فوق طاولات الدرس التى عليها الكتب والشنط، وبالتالى فوق رؤوس زملائه وزميلاته غير واجد فى هذا التصرف أى عيب. ومرة أخرى لا أملك نفسى من نَهْر من يفعل ذلك وطرده من المحاضرة بعد أن أكون قد استنفدت قبل هذا كل وسائل التنبيه والتربية دون جدوى. أقول هذا رغم أننى ممن لا يتسامحون فى هذه الأمور، فكيف يا ترى يتصرف الطلاب فى محاضرات الأساتذة

الذين يئسوا وصاروا يتقبلون هذا التصرف من طلابهم دون أن يزعجوا أعصابهم بالتوجيه والتقريع والتنبيه؟ فى إحدى المرات أبدت طالبة من أحد أقسام اللغات الأجنبية كانت تفعل هذا استغرابها ودهشتها من رد فعلى قائلة إن الأساتذة الآخرين يتقبلون ما تعمله ولا يستنكرونه. فلما قلت لها: هل الناس فى أمريكا، التى تقولين إنك أتيت منها حديثا وكنت تتعلمين فى مدارسها، يفعلون ذلك؟ كان جوابها: نحن هنا فى مصر، ومصر غير أمريكا . فانظر، أيها القارئ، إلى هذا الرد الوقح، واستخلص منه ما تشاء من مغزى!

ثم نأتى إلى مصيبة المصائب: الامتحان، الذى يتحول تصحيح أوراقه إلى معاناة، وأى معاناة. فالخط قبيح، والإملاء لا يمت فى كثير من الكراريس إلى الإملاء الذى نعرفه بأى سبب، إذ كثيرا ما تكتب الحاء التى فى وسط الكلمة مغلقة كأنها عين، والخاء كأنها غين، بينما تفتح دائرة العين والغين الداخليتين كما يكتبها الأطفال فى الحضانة. وتجد حرفا كبيرا بجواره فى نفس الكلمة حرف آخر لا يكاد يرى، فتتأذى عينك ونفسك من هذا التنافر. وأحيانا ما يكون الخط مائلا أو دقيقا جدا، فتصاب أعيننا بجَهْرٍ ولا نستطيع النظر فى الكراسة. وكثير من الطلاب يكتبون الهاءات بطريقة مبتكرة لم يسبق لأحد أن كتبها بها . وبعضهم يَثْنِى نهاية الباء أو التاء أو الثاء الأخيرة على نفسها بطريقة تنطمس معها فلا يمكنك أن تعرف أى حرف هذا إلا بالتنجيم وضرب الوَدْع، أو الشم على ظهر يدك! شُفْتَ العبقرية؟ ثم لا تنس، بالله عليك، سِنَن السين والشين والباء والتاء وغيرها . إنها تكتب كيفما اتفق: فتارة ما تكون أقل من اللازم عدة سنن، وأحيانا ما تكون أكثر. كما أن كثيرا من الكلمات تكون حروفها مهشمة ناقصة بحيث تُكْتَب مثلا كلمة "ابتأس" هكذا: "أبس". ولا تنس أيضا الهمزات، فهى تكتب دون ضابط ولا رابط، لا فرق بين همزة الوصل وهمزة القطع والهمزة الطائرة والهمزة التى على ألف أو التى تحت الألف أو التى على نبرة أو التى على واو أو التى على السطر. ولا ينبغى أن ننسى كتابة الكثيرين منهم للسين والشين والصاد والضاد والفاء والقاف والنون، إذ ما من كلمة من هذه

الكلمات إلا وتنتهى عندهم بذيل: فالسين والصاد لهما ذيل دون تنقيط، والشين والضاد والفاء والقاف والنون لها ذيول ونقط فى نفس الوقت.

أما كلمات مثل "عادةً" و"فجأةً" و"فِعْلاً" و"فى رأيى الشخصى" أو "فى رأيى أنا" مثلا فيكتبها عدد كبير منهم هكذا: "عادتًا، فجأتًا/ عادتَنْ، فجأتَنْ"، و"فِعْلَنْ"، و"فى رأى الشخصى" أو "فى رأى أنا" بياء واحدة. كما أن كثيرا جدا من الطلاب يكتبون كلمة "لكن" هكذا: "لاكن"، و"بقيّة": "بقيت"، و"قامت": "قامة"، و"طيف الخيال": "ضيف الخيال"، ويقلبون الثاء فى كثير من الكلمات سينا، والذال زايا. كذلك فكلمة "قرآن" كثيرا ما تكتب: "قران- قراءن- قرءان- قرأن- قرأان"، ومثلها "امرأة"، التى تتحول إلى "امراة- امراءة- امرءاة- امرآة- امرأاة"... وهكذا. وإذا حاولت أن تسأل الطلاب عن سبب هذه الفوضى أتتك الإجابة فى الحال دون تفكير بأنهم يكتبون بسرعة، وكأن أمثالهم يمكنهم أن يكتبوا أفضل من ذلك حتى لو أُعْطُوا الوقت الذى فى الدنيا كلها. أما وضوح الفكرة أو صحة التركيب أو دقة استخدام الكلمة فإياك أن تلقى إليه بالك: فالأفكار فقيرة، والمعجم شحيح، والعجز فى تركيب الكلام واضح يخزق العين ويقول بأعلى حِسّ: هؤلاء شبان لم يتعودوا أن يفكروا ولا أن يقرأوا ولا أن يمسكوا القلم فى أيديهم ويحاولوا أن يكتبوا شيئًا. وأحيانا ما نعجز تماما عن فهم أى شىء مما فى الورقة، وأحيانا أخرى يكتفى الطالب بتكرير جملة أو جملتين طوال الإجابة ظنا منه أننا لا نقرأ، بل نقيس بالشبر كما يقال. أما ضبط الكلمات فيَدُكَ منه والقبر.

هيه؟ هل عرفت الآن، أيها القارئ المحترم، سبب قلة سعادتى بوظيفتى رغم إكبارى من قيمة المعلِّم واعتزازى بأننى أزاول مهنة التعليم وما يرتبط بها من عمليات التفكير واقتحام المشاكل العلمية والبحث عن إبداع حلول لها والقراءة والكتابة والعيش مع كبار المفكرين والكتاب والمبدعين طوال الوقت لا أثناء القراءة أوالكتابة فقط حتى حين أحلق ذقنى أو أتناول طعامى، لدرجة أننى لا أكاد أغيب أبدا عن المحاضرة ولو كنت أكشف عند الطبيب فى المستشفى الجامعى، إذ أُصِرُّ على حضورها ولو جئت فى أواخرها. وفى

إحدى المرات كنت قد أجريت عملية جراحية وأذنت لى الطبيبة بالانصراف إلى البيت على أن آخذ راحةً خمسة عشر يوما، لكن ما إن اتصل بى هاتفيا أحد الطلاب، وأنا منصرف من مستشفى عين شمس التخصصى، وابنتى تحمل عنى حقيبة ملابسى وأشيائى، ونَهِمّ بركوب سيارتها للعودة إلى البيت، وأخبرنى أن الطلاب ينتظروننى حتى غيرت خطتى والتمست من ابنتى أن تعبر بى فى سيارتها الشارع وتنتظرنى فى مكتبى حتى أنتهى من المحاضرة فنعود معا إلى المنزل.

وينغص أيضا علىَّ سعادتى بما وهبنيه الله من توفيق وفلاح أن الأمة التى أنتمى إليها أمة ضعيفة حضاريا فى تاريخها الراهن، بل منذ عدة قرون. وقد كتبت وحاضرت فى هذا الموضوع كثيرا، واستحثثت الأمة، وألححت على الطلاب أن يفيقوا مما يغشى حياتهم من إهمال ولامبالاة مؤكدا لهم أنهم ليسوا أقل من نظرائهم الأوربيين والأمريكان لأن الذى خلقهم هو الذى خلق نظراءهم هؤلاء، ولا يعقل أن يظلم أويمالئ من عباده أحدا. كما أن بإمكانهم أن ينظروا إلى أنفسهم فى المرآة كى يتحققوا أنهم يتمتعون بكلما يتمتع به الغربى من أنف وعين وأذن وذقن وفم وخد وصدر. . . فلماذا يتصرفون على أن هناك فجوة طبيعية مطردة بيننا وبينهم، وأن هذه الفجوة سوف تستمر إلى الأبد؟ ثم أزيد فأقول لهم إن الغربيين كانوا فى يوم من الأيام متخلفين مثلنا بل أشد كثيرا جدا، ومع ذلك استطاعوا أن يخرجوا من مستنقع التخلف ويصيروا فى مقدمة العالم. فلماذا نظن أن خروجنا من هذا المستنقع شىء مستحيل، ونتصرف على هذا الأساس، وكأنه قانون من قوانين الطبيعة؟

والآن هل أنا من المشاهير؟ لا أظن، فمقالاتى فى الصحف والمجلات والبرامج التى اشتركت فيها فى الإذاعة والتلفاز ليست من الكثرة بمكان. كما أننى لست من الملحاحين على آذان الجمهور وعيونه، بل لا أُقْبِل على التجمعات الثقافية إلا إذا دعيت من قبل المسؤولين عن تلك التجمعات. وقد نشرت مقالات وأبحاثا فى "الهلال" و"المصور" و"الثقافة" و"الشعر" و"الأهرام" المصرية، و"البيان" و"العربى" و"الوعى الإسلامى"

الكويتية، و"المنهل" السعودية، و"الراية" القطرية، و"عمان" العمانية. . . إلخ. كما اشتركت فى ندوات ولقاءات ومؤتمرات ثقافية كثيرة نسبيا فى مصر فى الأغلبية الساحقة، وخارج مصر أحيانا. ولست بارعا فى تسويق نفسى أو كتاباتى كما يبرع الآخرون، كما لا أسعى إلى الشهرة، وإن كنت لا أكرهها إن جاءت بطريقة طبيعية من تلقاء نفسها. وإنى لأذكر أنى دعوت الله مرارا منذ زمن غير قريب أن يعافينى من التهافت عليها، فاستجاب الله دعائى إلى حد بعيد بحيث صرت أتقبل صمت وسائل الإعلام عنى وعن أعمالى، ولا أقيم مناحة لعدم فوزى بأية جائزة، بل أنظر إلى الأمر على أنه مسألة طبيعية كشروق الشمس من الشرق، وغروبها فى الغرب. وإذا حضرتُ اللقاءات الجماهيرية لم أسارع إلى الجلوس فى الصفوف الأولى، وإذا شاركت ببحث لم أحرص على أن أكون أول المتحدثين، أو أن يشار إلىَّ بوصفى الكاتب الكبير بحيث أغضب إذا لم يتم الأمر على هذا النحو حسبما أعلم أو ألحظ أن أمثالى يفعلون. وعادة ما أوثر أن ألقى بحثى أو أقول كلمتى آخر المشاركين. ولا أظن أن الفضل فى ذلك يرجع لى بل إلى الله سبحانه، الذى خفف لدىَّ هذه النزعة.

وأرجو، إذا دخلتُ الجنة، أن أدخلها فى هدوء ودون لفت للأنظار بحيث يكون ذلك من الباب الخلفى، إن كان للجنة باب خلفى، وأن أدخلها فى صحبة الناس الراقين الطيبين الذين لا أتكلف معهم أو أمامهم شيئا، بل أدع نفسى تتصرف على طبيعتها. والمهم أن يسلِّمنى مولاى من النار وحريقها، ومابعد ذلك أهلا وسهلا به على أى وضع كان حتى لو أُبقِيتُ على الأعراف. والباقى أستطيع القيام به، فلسوف أذهب إلى ربى وأستسمحه أن يفتح لى باب الجنة ولو لدقيقة كى أرى ما فيها، حتى إذا ما استجاب لى كرما منه وفضلا عدت فاستسمحته أن يدعنى أدلف إليها لأقف بداخلها وراء الباب قليلا لأجرب شعور الفائزين بها برهة من الوقت. . وهكذا دواليك (أو "دوالىَّ أنا" كيلا تغضب) إلى أن يقول لى: ادخل الجنة، ولك فيها كذا وكذا من الثواب بغير حساب. سيقول المتسرعون والمحبكون لكل سهل يسير: كيف تقول هذا؟ هل أخذت على الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم أنت ممن يقولون على الله ما لا يعلمون؟ وجوابى هو: لا هذا ولا ذاك،

بل استنادا إلى حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قرأناه آنفا والذى من حلاوته أحب أن أستعيده هنا .

وهذا نص الحديث العجيب: "إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخْرِج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود . تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود . حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود . فيخرجون من النار قد امتُحِشُوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل. ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها ، وأحرقني ذكاؤها . فيدعو اللهَ بما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله: هل عَسَيْتَ إن أُعْطِيتَ ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار. فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قَدِّمْني إلى باب الجنة. فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيت أبدا ؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك ! فيقول: أي رب. ويدعو الله حتى يقول: هل عسيتَ إن أُعْطِيتَ ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. ويعطي ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة. فيقول الله: ألستَ قد أَعْطَيْتَ عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أُعْطِيتَ؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب، لا أكونن أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة. فإذا دخلها قال الله له: تمَنَّهْ. فسأل ربه وتمنى، حتى إن الله ليذكِّره يقول: "كذا وكذا" حتى انقطعت به الأماني. قال الله: ذلك لك، ومثله معه. قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخدري مع أبي

هريرة، لا يرد عليه من حديثه شيئًا، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله تبارك وتعالى قال: "ذلك لك، ومثله معه". قال أبو سعيد الخدري: وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة! قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: ذلك لك، ومثله معه. قال أبو سعيد الخدري: أشهد أني حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ذلك لك، وعشرة أمثاله. قال أبو هريرة: فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة". هيه؟ ما رأيكم؟ ولا تنسوا من فضلكم أننى قلت: "لو أُبقِيتُ على الأعراف"، ولم أقل: "أُلقِيتُ فى النار"! وهو ما يسهّل الأمر بعض الشىء بالنسبة لرجل مسكين مثلى!

والآن أظن من حق زوجتى أن أقول كلمة عنها: لقد كانت طالبة عندنا بالقسم، وقد درّسْتُ لها ولزميلاتها وأنا مدرس مساعد، إذ كان د. لطفى عبد البديع رئيس القسم وقتذاك قد كلفنا نحن المعيدين والمدرسين المساعدين أن نحاضر طلاب القسم فى النحو والصرف، فكانت هى فى ذلك الوقت فى السنة الثانية، فلفتت نظرى بجمالها وأناقتها وشخصيتها المعتزة بنفسها. وكانت تلبس كما يلبس عموم النساء فى ذلك الوقت. ولم أكن أظن أنها تصلى، لكنها أكدت لى أنها تؤدى الفريضة، وإن لم تكن تحافظ على تأديتها فى وقتها دائما. وسألت عنها بعض زملائها، فكانت إجاباتهم تأكيدا لما لاحظته بنفسى عليها. وخطبتها وتزوجنا بعد سنتين أو نحو ذلك. وكانت راضية بأى شىء أقدمه لها، وأخبرتنى أنها كانت تتطلع إلى أن يكون الرجل الذى تتزوجه أديبا. لكن نقبها، كما تلاحظون، طلع على شنوة، فأنا لست أديبا، ولا الأدباء يعرفوننى، وإن كنت أحاول أن أكون واحدا من الكتاب. والكتاب شىء، والأدباء شىء آخر بطبيعة الحال. ذلك أن كل من أمسك قلما وراح يجره على السطور هو كاتب، أما الأديب فمبدع، والإبداع موهبة بخلاف الكتابة كما لا شك أنكم تعرفون. ومع هذا فقد رضيت السيدة بنصيبها، وسلمت أمرها إلى الله، وتزوجتنى، فأرجو ألا تحشروا أنفسكم بينى وبينها، يرحمكم الله.

ووجدتها تحب القراءة وتناقشنى فيما نقرؤه، وألفيت آراءنا فى الحياة متقاربة، وأحيانا متطابقة بحيث إننا لا نختلف فى الأمور الأساسية، وإن اختلفنا أحيانا فى الأمور اليومية الصغيرة التافهة كما يحدث فى كل البيوت. فمثلا هى تريد ألا أبدأ الأكل إلا بعدما تكون قد انتهت من وضع كل أطباقه على صينيتى أنا الذى لا نظام لى متبع فى وقت تناول الطعام، بل آكل حين أشعر بالجوع أو أعود فيه من الجامعة. فإذا ما جلستُ فى انتظار تحضير الأكل وبدأتُ فى النقنقة بسبب الجوع، إذ عادة ما أتناول فَطُورِى بعد عودتى من الخارج عصرا أو مغربا كيفما يتفق لى، وجدتها قد توترت وغضبت، فأضحك متصورا أن الأمر لا يستحق شيئا من هذا التوتر، لكنها لا تهدأ إلا إذا أعلنتُ التوقف عن الأكل والتزمتُ بما أعلنتُ. وأحيانا ما أترك المطبخ خوفا من أن تؤذى نفسها وهى واقفة أمام النار والزيت المقدوح والحلل التى يغلى فيها الطبيخ بسبب ضيقها بهذه النقنقة. والطريف أننى لا أكف عن النسيان والشروع فى تناول لقمة من هنا أو قطعة طماطم من هناك، ولا هى تكف عن الضيق من هذه الحركات النصف كم التى لا أقصدها أبدا والله. كذلك هى تصر على أن تضع كل صنف من طعامى فى طبق خاص به، أما أنا فأفضل أن تضع الخضار على الأرز ما دمت لا آكل الأرز إلا هكذا، لكنها تصر على أن يكون لكل لون طعامى طبقه الخاص، ثم فلأخلط الطعام كما أشاء فيما بعد . المهم أن تسلم لى الصينية صاغ سليم، ولأعث فيها فسادا كما أحب. وعبثا أضحك وأستغرب منها هذا الإصرار، وبخاصة أنها لا تصنعه مع نفسها حين تتناول طعامها .

لكنى أعود فأسكت ضاحكا ، قائلا لنفسى: يا فلان، احمد ربك أن هذا هو منتهى استبداد الحكومة فى بيتك. ثم أذهب فأفكر فى أمر المرأة مرددا فى داخلى: من الواضح أن تركيبتها مختلفة بعض الشىء عن تركيبة الرجل، وأنها ليس لها ذنب فى ذلك، إذ هى "هكذا خُلِقَتْ " كما يقول د . هيكل فى عنوان رواية له بهذا النص. لكن هل معنى هذه الفلسفة التى أتفلسفها أننى أتصرف دائما بناء عليها ؟ أبدا والله، إذ كثيرا ما تغلبنى زرابينى وأنسى كل شىء وأدمدم وأكون على استعداد لتحطيم البيت نفسه. لا تراعوا أيها القراء،

فالأمر ليس هكذا بالضبط، إنما هو كلام مجازى، فلا تأخذوه على حرفيته من فضلكم. إلا أننى، لكون قلبى طيبا، وطريا أيضا مثل قلب الخسّة، سرعان ما أفيء إلى الرضا بعد فوران الدم العارض، ويذهب كله فى الصابون، ثم أضحك، بينى وبين نفسى حتى لا تسوق هى فيها. ولولا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال: "ليس منا مَنْ لَطَمَ الخدودَ وشَقّ الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية" لشققت على الأقل جيوبى بل هدومى كلها من أولها إلى آخرها، ولا داعى للطم الخدود، فهذه لا تليق بالرجال، ولا لدعوى الجاهلية، فأنا رجل متنور، أو هكذا أزعم، أو على الأقل: هكذا أتصور نفسى. فكما تَرَوْن: ليست حياتنا سمنا على عسل طول الوقت، ولكن خلافاتنا بحمد الله محدودة وصغيرة ولا تهدد البيت أبدا، بل هى مما يسمى: "ملح الحياة وفلفلها" كما يتضح من المثالين السابقين. ثم مَنْ مِنَ البشر حياتُه البيتيةُ سمنٌ على عسلٍ طول الوقت؟ أتصور أننى من المحظوظين جدا فى نطاق الأوضاع والإمكانات البشرية المعروفة، وأحمد الله على ذلك.

وبيتنا يسوده الستر: الستر المالى والاجتماعى، وليس فيه شىء من المزعجات بوجه عام. وكنت، فى بداية زواجى، أحب الخروج وحدى أو مع زوجتى، أما الآن فلا أطيق النزول إلا للضرورة، وبخاصة للمشى، الذى صرت مدمنا له حتى لأشعر بتأنيب الضمير إذا لم أمارسه يوما أو يومين كأننى أجترح كبيرة من الكبائر. وزوجتى تحب العطف على المحتاجين، وتكرم الضيوف، وتجتهد فى أن تقدم لهم أفضل ما فى البيت. وكانت تردد فى البداية قبل أن يكون عندنا أطفال أنهم سوف يكونون مستقيمين مؤدبين لأننا، كما كانت تقول، سوف نربيهم تربية سليمة. ولكنى كنت أعقب على هذا بأن أخلاق الأولاد لا تشكلها فقط التربية التى يتلقَّوْنها فى البيت، إذ البيت عامل واحد من عدة عوامل: فهناك المدرسة والأصدقاء والجيران والإذاعة والتلفاز والكتب والأفلام والمجلات والغرائز والتطلعات والمصالح الشخصية. . . إلخ. وليست كل هذه العوامل فى أيدينا ولا تحت سيطرتنا دائما. وهذا طبعا بافتراض أننا أبوان طيبان ومثاليان وسوف نربى أولادنا على القيم الكريمة. فهل هناك ضمان بهذا؟ والأمل، مع ذلك، فى توفيق الله قائم دائم.

وكانت زوجتى، بعد عودتنا من بريطانيا، تساعدنى فى تبييض ما أؤلف من كتب، فأعطيها مكافأة رمزية على هذا التبييض تبعا لعدد الصفحات التى تبيضها لى. ثم لحق بها علاء الدين، ابنى الوحيد (مع أختين له)، فكنت أسند إليه مهمة مراجعة التجربة الطباعية الأخيرة، بعد أن أكون قد صححت أربع تجارب، كى يصطاد لى الأخطاء التى فاتنى تصحيحها، وبخاصةٍ الهمزاتُ المتطرفةُ التى تلى الياء لأن أغلب الطبّاعين الآن لا يراعون الفرق بين ما يُكْتَب منها على ذيل الياء وما يكتب على السطر. وكنت أكافئه على هذه المراجعة هو أيضا، وأنا سعيد.

والآن كيف أختار الموضوعات التى أكتب فيها دراساتى؟ قد يكون الدافع عمليا، بمعنى أن تُسْنَد إلىّ مادة معينة لمحاضرة الطلاب فأبلور الأمر بغية تأليف كتاب معين أجعله موضوعا لاهتماماتى، وأستعد له بقراءة ما يكفى من الكتب والدراسات والبحوث، معملا فيه عقلى وفكرى، ومقلبا إياه فى ذهنى. وقد يكون الأمر اقتراحا من أحد الأصدقاء أو القراء مثل توجيه بعضهم اهتمامى إلى الزعم القائل بأن أحمد شوقى قد ألف فى عالم البرزخ مسرحية شعرية، إذ أتانى صديق صحفى شاب يستحلفنى أن أنظر فى تلك القضية، التى كنت انشغلت بها زمنا ثم أسقطتها الأيام من اهتماماتى، لأرى رأيى فيها بعدما وجد عددا من كبار النقاد ومؤرخى الأدب يشهدون للمسرحية بأنها تشبه إبداع شوقى أو على الأقل: لم ينكر أحد منهم إنكارا واضحا أنها لشوقى، فنظرت فى الأمر لبعض الوقت وخططت للكتابة فيه وشرعت أسجل بعض الملاحظات السريعة التى قد أحتاج إليها حين أعزم على تناوله، وإن كنت قد انصرفت عن الأمر مرة أخرى مؤقتا لطروء ما هو أكثر إلحاحا من تلك القضية، أو قد يكون الأمر فكرة خطرت لى وأنا أقرأ أو أكتب فأجد أنه لا مناص من تناولها بالتأليف لأبين وجهة نظرى فيها، أو قد يكون موضوعا يشغلنى منذ سنوات، ثم فجأة يختمر فى عقلى بعد طروء ما يجعل التأليف فيه أمرا ملحا. وقد يكون تحديا من بعض الخصوم مثلما هو الأمر فى بعض ما كتبت ردا على رقاعات زكريا بطرس، إذ جاء وقت كان يرسل فيه لى إيميلات يتحدانى فيها أن أرد على ما

كتب هو أو غيره فى الموضوع الفلانى أو العلانى. وقد استجبت لبعض هذه التحديات، ولم أُولِ بعضَها الآخَرَ أيةَ أهميةٍ حين تنبهت إلى أنه إنما يريد أن يشغلنى عن إضافة الجديد باشتغالى بنفس الموضوعات باستمرار، وكأنه لا يوجد فى الميدان إلا موضوع واحد. وقد تشغلنى قضية ما عدة سنوات، ثم يحدث ما يستفزنى إلى صبها على الورق كما هو وضع ابن رشد، الذى يسكن عقلى منذ كنت طالبا فى الجامعة وكان يحاضرنا فيه وفى غيره من فلاسفة المسلمين د. حسن حنفى أستاذى وقتذاك، والذى اختلفت بشأنه هو وغيره من أولئك الفلاسفة مع أستاذى اختلافا شديدا، وأنوى متى ما توفرت الظروف أن أكتب عنه كتابا يجلى رأيى فيه وفى المكانة التى يحتلها من أدمغة العلمانيين بالذات، وأدعو الله أن يسهل لى الأمر فأستطيع أن أضع عنه كتابا ذا قيمة.

وهنا، أى حين أستقر على موضوع أكتب فيه، أرانى لا أكف عن التفكير فى الأمر لا فى العمل ولا فى البيت ولا فى الشارع ولا عند الإخلاد إلى النوم ولا أمام المرآة عند حلاقة ذقنى ولا أثناء تناولى الطعام ولا فى خلال التريض اليومى ولا أثناء قيادة السيارة أو ركوب الحافلة أو المترو أو انتظار الطبيب فى المستشفى... إلى أن يختمر الموضوع تمام الاختمار فى رأسى، ويناديني أَنِ ابْدَأْ على بركة الله، فعندئذ على بركة الله أبدأ وأنا مطمئن أن الله لن يتخلى عنى. وما إن أنتهى من كتابة الفقرة أو الفقرتين الأُولَيَيْن حتى أشعر كأننى قد انتهيت من الكتاب، إذ الأمر لا يزيد عن كونه مسألة وقت ليس إلا. ولم يحدث قط أن تخلى عنى الله سبحانه وتعالى، إذ ما من كتاب تقريبا شرعت فيه إلا وانتهيت منه فى المدة التى توقعتها له، وهى مدة قصيرة بأى مقياس. ولست ألتزم بالضرورة بالبدء من أول الكتاب، بل أشرع فى الكتابة فى الجزء الذى أشعر أنه جاهز والذى أشعر أن البدء به أسهل من البدء بغيره. وشعارى هو: اهجم على الحصن من أية ثغرة مفتوحة. والباقى بعد ذلك من أسهل ما يكون ما دام تصور الموضوع واضحا فى الذهن. وأنا أحب مراجعة ما أكتب عدة مرات. وكنت، أيام كان يرقن لى كتبى الأستاذ عبد الناصر أحمد الموظف بجامعة القاهرة، وهو آخر

من تعاملت معهم من الطباعين وأحسنهم وأصبرهم على وسوستى وطول بالى فى مراجعة تجارب الطباعة، فضلا عن أنه أكثر من كتب لى من الطباعين، أراجع الكتاب ما لا يقل عن خمس مرات، وهو لا يتأفف ولا يتململ بل يتقبل كل ما أصنع بصدر رحب وقلب ودود.

وكنا نقضى معا آخر مراجعة طباعية أمام الكاتوب نصحح الأخطاء خطأً خطأً حتى مطلع الفجر ونتعشى معا فى مكتبه بأول شارع فيصل، ثم نقوم بمراجعة التصحيحات لنتأكد أننا لم ننس شيئا. ثم ننفق وقتا آخر فى مراجعة الجهتين اليمنى واليسرى من كل صفحة لنتأكد أنه لم تقفز من موضعها، إلى السطر التالى أو السطر السابق، أية علامة ترقيم. ذلك أن الأستاذ الطابع كان لا يلحم علامات الترقيم بالكلمات السابقة عليها بحيث تظل مرتبطة بها مهما تحركت السطور. وكنت أستغرب كيف أن الكتب الأجنبية لا تعانى من هذا العيب، وظللت متحيرا سنوات لا أفهم السبب فى ذلك، إلى أن أشرقت على ذهنى لحظةٌ من لحظات الإلهام فتنبهت إلى أن الأجانب، عند الطباعة على الكاتوب، لا يتركون مسافة بين علامة الترقيم والكلمة التى ينبغى أن تلتصق بها، وهى فى كل الأحوال تقريبا الكلمة التالية لها. وكان هذا بعد أن شرعت أطبع كتبى بنفسى على الكمبيوتر بقليل. ولهذا تعانى تجاربى الأولى فى الطباعة الذاتية من نفس العيب، أما الآن فلا مشكلة كما تَرَوْنَ بأنفسكم.